يحيى بولحية

البعثات التعليمية في اليابان والمغرب

من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين تباين المقدّمات واختلاف النتائج



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذا الكتاب

يُعالج هذا الكتاب، من خلال المقارنة بين مجتمعي اليابان والمغرب، إشكالية تنموية لافتة، لماذا هناك بعض المجتمعات ينمو ويزدهر ويتقدّم في الإصلاح، ومجتمعات أخرى، تخضع للآليات التنموية نفسها، تبقى تراوح مكانها، فإذا كان كل من المغرب واليابان قد واجها تحديات خارجية متشابهة (1844 – 1853) دفعتهما، ظاهريًا، إلى إرسال بعثات تعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي لتوظيف نتائجها في عملية الإصلاح الداخلي والتنمية، لماذا نجحت المحاولة اليابانية وفشلت مثيلتها المغربية؟ هل هذا نتيجة البنية المجتمعية المختلفة في المجتمعين، أم نتيجة البنية الذهنية ودور المدرسة والأنموذج التعليمي في كلا البلدين؟

للتحقق من ذلك، وضع المؤلف مسألة هذه البعثات التعليمية، باعتبارها آلية تحديثية، في إطارها التاريخي العام من النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، بتحليل طبيعة النظام السياسي في كلا البلدين، وتعرضهما للهجمة الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والبحث في خصوصيات البناء الاجتماعي والثقافي والرمزي والأسطوري، واستنتاج لحظات القوة والضعف في البنية التربوية والتعليمية في المغرب واليابان، وذلك من خلال وثائق مغربية ويابانية. محاولًا تأكيد قيمة التراكم في منح الفاعلية والنجاعة لرؤى التنمية المختلفة.

يحيى بولحية

باحث مغربي، حاصل على شهادة دكتوراه في التاريخ المقارن من جامعة محمد الأول في وجدة. يعمل حاليًا كإطار إداري وتربوي في أكاديمية وجدة للتربية والتكوين. متخصص بالتاريخ المعاصر والتاريخ المقارن، له عشرات المقالات العلمية المحكمة، التاريخية والأنثروبولوجية والتربوية والسياسية، ومنها مقالات منشورة في المجلات التي يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

السعر: 30 دولارًا

ISBN 978-614-445-067-3



البعثات التعليمية في اليابان والمغرب

من أربعينيات القرن التاسع عشر
حتى أربعينيات القرن العشرين
تباين المقدّمات واختلاف النتائج

البعثات التعليمية في اليابان والمغرب

من أربعينيات القرن التاسع عشر
حتى أربعينيات القرن العشرين
تباين المقدّمات واختلاف النتائج

يحيى بولحية



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

بولحية، يحيى

البعثات التعليمية في اليابان والمغرب: من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين - تباين المقدمات واختلاف النتائج/ يحيى بولحية.

847 ص. : صور، جداول؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (ص.773-808) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-067-3

1. التعليم - المغرب. 2. التعليم - اليابان. 3. التعليم والدولة. 4. البعثات. 5. المنح الدراسية. 6. التبادل الثقافي. 7. العلاقات الثقافية. أ. العنوان.

370.1162

العنوان بالإنكليزية

Education Missions in Morocco and Japan from the 1840s to the 1940s: A Difference in Causes and Outcomes

by Yahya Boulahya

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



شارع رقم: 826 منطقة 66

المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر

هاتف: 44199777 00974 فاكس: 44831651 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان

هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، نيسان/ أبريل 2016

المحتويات

قائمة الجداول والأشكال والصور والخرائط

الجداول

الأشكال

الصور

الخريطة

شكر وتقدير

ما كان هذا البحث ليُنجَز من دون عون من الله ومَدَده، فله جميل الثناء والحمد على ما أعان وأرشد ووفّق وسدّد. فقد أدركت منذ اختيار الموضوع صعوبة المقارنة، فزادي كان قليلًا، واحتجت إلى من يميط الأذى المعرفي عن طريق كنت أحسبها مليئة بالحواجز والعقبات، فوجدت في بابها أستاذًا كريمًا أنار لي السبيل وأزاح عني الغموض والإبهام، إنه الدكتور محمد منفعة.

يتقن الدكتور منفعة فن الحوار وتوجيه الطلبة إلى أقصر السبل وأيسرها، ويمتلك قدرة متميزة على الإقناع، كما تبين لي في اللقاءات الكثيرة التي جمعتني وإياه مباشرة، أو عن طريق البريد الإلكتروني؛ ولم أتلقَّ منه إلا النصيحة والملاحظة السديدة، وأمدني بعدد من المراجع القيّمة والمتميزة في الموضوع الياباني، وتفضل بأدب وتواضع بتصحيح ما اعتل من لغة البحث ومعلوماته.

سمح لي الانتسابُ إلى وحدة التواصل الحضاري التعلمَ على أيدي أساتذة راسخين في العلم تمكنوا من تقديم رؤى منهجية متقدمة، في الأنثروبولوجيا مع الأستاذ مهلة، وفي التاريخ الوسيط مع الأستاذ نشاط، وفي الديموغرافية التاريخية مع الأستاذ الموادن، وفي أدب الرحلة مع الأستاذ حدادي، وفي دراسة المخطوط مع الأستاذ عبد العزيز فارح، وفي الفرنسية مع الأستاذ الحموتي، وفي الإسبانية مع الأستاذ الكامون، وفي الإنكليزية مع الأستاذ حدادي فؤاد، وفي علم دراسة الخرائط مع الأستاذ الصادق، وفي علوم الإحصاء مع الأستاذ هرو، وفي دراسة المصطلحات مع الأستاذ اليعقوبي، وفي الاستشراق مع الأستاذ الأمراني، وفي الفكر مع الأستاذ إسماعيلي. وقد نجح

منفعة في اختيار مواد وحدة التواصل الحضاري، وأعترف بدور ذلك في إغناء رصيدي من المعارف والمناهج التي حاولتُ تمثلَها في هذا البحث.

كذلك أقدم شكري إلى القيمين على الخزانة العامة في تطوان، ومديرية الوثائق الملكية، والخزانة الحسنية، والمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، ومكتبة آل سعود في الدار البيضاء، وكلية الآداب في جامعة محمد الخامس في الرباط، وكلية الآداب في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس، وإلى السفارة اليابانية في الرباط، والخزانة الصبيحية في سلا، وخزانة كلية الآداب ومركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والمجلس العلمي في وجدة.

لم يكن في مقدوري إنجاز عملي من دون ما قدمه لي عدد كبير من الأساتذة والأصدقاء من مساعدة ودعم وتشجيع، فهم لم يبخلوا عليّ بملاحظاتهم، وفتحوا أمامي مكتباتهم وأمدّوني بنصائحهم، فأرجو من الله أن يجازيهم أحسن الجزاء.

كما أشكر لوالدي رحمه الله ولوالدتي تشجيعهما لي على الدراسة منذ نعومة أظفاري، وكانت دعواتهما خير مؤنس لي في كدحي نحو طلب المعرفة والعلم.

كذلك أقدم إلى أخي الحسين خالص شكري على تفضله بتنقيح البحث وإخراجه بهذه الصورة. ولا شك في أن مدة إنجاز البحث أخذت من وقت زوجتي وأبنائي الكثير، فلهم الامتنان والاعتراف بجميل الصبر.

كما أشكر إخواني وأخواتي على استمرار سؤالهم عن مسيرة هذا البحث ومآله.

إلى جميع هؤلاء أقدّم خالص شكري وامتناني.

مقدمة

عرفت اليابان في خطها التحديثي العام من أواسط القرن التاسع عشر إلى الفترة المعاصرة مرحلتين متباينتين من حيث الأهداف والغايات التي وجهت سياساتها الداخلية والخارجية؛ فإذا كانت المرحلة الأولى (1868-1945) أكدت مبدأ «التحديث في خدمة العسكريتاريا»، وحملت شعارات تمجيد القوة والعلم، وأنتجت أنموذج الدولة الإمبريالية العنصرية، بكل ما أفرزته من تدمير للبُنى الاقتصادية للشعوب في الدول الآسيوية المجاورة (الصين، وكوريا، وروسيا)، فإن المرحلة الثانية التي ابتدأت مع نهاية الحرب العالمية الثانية، أعطت اليابان مضمونًا جديدًا في مجال العلاقات الدولية، تأسس على منطق نقد التجربة السابقة القائمة على قيمة العنف، والاتجاه بالتحديث نحو خيار السلام وقبول مبدأ الاختلاف والتعايش السلمي مع القاصي والداني من الدول والأمم. وسمح لها هذا التوجه الجديد باختراق الأنماط الاقتصادية المحلية والدولية والأسواق العالمية، وبتأكيد حضورها العالمي على مستوى امتلاك التكنولوجيا والاحتياطات النقدية الهائلة، وبتقديم المساعدات الإنسانية للدول النامية.

تميّزت هذه المرحلة الأخيرة بأنها تأطّرت في انطلاقتها بعهد الوصاية الأميركية التي مارست وظيفة الكبح أمام الطموحات التوسعية اليابانية، وتوجيهها في تفصيلاتها العامة نحو خدمة الاستراتيجيا الأميركية في أثناء الحرب الباردة؛ فنأت اليابان إذ ذاك بطاقاتها الإبداعية نحو المجالات المدنية، وركزت جهودها على القضايا التنموية، وحققت بذلك الإنجازات العلمية والتقنية بالمستويات التي يعرفها الجميع.

انطلقت تجربتا التحديث اليابانية الأولى والثانية مباشرة بعد تحديين عسكريين أميركيين في عام 1853 مع حملة بيري[1]، وفي عام 1945 عندما ألقت الولايات المتحدة قنبلتين ذرّيتين على كلٍّ من هيروشيما وناغازاكي. ولربما سمح ذلك ببروز مقولات تؤكد أن زخم التحديث الياباني لم يكن ليتحقق لولا العامل الموضوعي المتمثل في سؤال القوة الأميركية، وما تطلّبه وفرضه من تقديم أجوبة يابانية محددة وموجّهة.

أمامنا هنا إشكال أساس يتعلق نظريًا بارتباط النتائج بمقدماتها، ويمكن صوغه كالآتي:

هل يمكن مقدمات تاريخية لبلد ما، بمواصفاته الموضوعية والذاتية، أن تفرز نتائج تنموية مختلفة ومتباينة، وأحيانًا متعارضة؟ بعبارة أدق: أنتجت التجربةُ اليابانية في مرحلتها الأولى (1868-1945) مسيرةً تنموية انتهت بتوسع دموي على حساب دول الجوار، وارتبط ذلك بمقدمات فكرية وأسطورية ومجتمعية خاصة، وهي المقدمات نفسها التي منحت اليابان قمة العطاء التكنولوجي والتنموي خلال المرحلة الثانية (1945 وما بعد)، وأسست لانطلاقة تختلف تمامًا عن المرحلة السابقة. فما هي الضمانات التي يمكنها تبرير عدم العودة إلى خيار التوسع إذا وُضعت اليابان أمام تهديد استراتيجي لمواردها الاقتصادية، خصوصًا في مجال الطاقة والموارد الأولية، مثلما حدث في أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية؟ لكن، من زاوية أخرى، ألا يمكن أن تدفع النتائج التي أفرزتها المرحلة الأولى باتجاه تعديل المقدمات النظرية وإزالة الشوائب عنها حتى يحدث الانسجام والتوافق بين النتائج وأسبابها؟ ألم يقم الجانب الأميركي بهذا الدور في أثناء صوغ الدستور الجديد، والقضاء من خلاله على مقدمات التوسع النظرية القائمة على المعتقدات الشنتوية[2]؟

(1) هو الكومودور البحري الأميركي ماثيو بيري (M. Perry) الذي ضغط على اليابان كي تنفتح على التجارة الأميركية، وتمّ له ذلك بتوقيع اتفاق كاناغاوا في 31 آذار/ مارس 1854.

(2) الشنتوية: كلمة صينية الأصل تعني «طريق الإله»، وهي مؤلّفة من مقطعين: شن، وتعني الروح أو إله، وتا، وتعني الطريق. والشنتوية ديانة وضعية اجتماعية ظهرت في اليابان منذ قرون طويلة، وما زالت الدين الأصيل فيها. وبدأت بعبادة الأرواح، ثم قوى الطبيعة، ثم تطور احترام الأجداد والزعماء والأبطال إلى عبادة الإمبراطور، «الميكادو»، الذي يُعَدّ من نسل الآلهة كما يزعمون. وعلى العكس =

تُبرز إشكالية الداخل والخارج، ودورهما في خروج المارد الياباني من عمقه التاريخي، وإدارته رحى التحديث، باقتدار وكفاءة، أكثر من تساؤل، من ثنايا هذا البحث، ومن خلال الإشكالية العامة التي توجهه وتبحث فيه.

على الرغم من هذا التعارض الشكلي بين الفترتين، ما زالت المرحلة الأولى تثير الاهتمام والتساؤل، باعتبارها المنطلق الذي يكشف عن ذهنية رجال الإصلاح الأوائل، وكيفية تمثّلهم الحضارة الغربية الوافدة، عندما اتصلوا بها، بالشكل الذي تحقق أول مرة. كما أنها المرآة التي تعكس طبيعة الذات اليابانية في تعاملها مع تراكماتها التاريخية والمجتمعية والأسطورية، وتبين أشكال الرد الحضاري الياباني أمام طاقة العنف الهائلة والمنظمة التي مثّلتها التحديات الغربية.

قدمت التجربة الإنمائية اليابانية خلال مرحلتها الأولى (1868-1945) إضافة نوعية متميزة إلى أنماط التحولات العالمية في فترة أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وتُعتبر اليابان البلد الوحيد من خارج المنظومة الغربية الكلاسيكية، أوروبا وأميركا الشمالية، الذي أخرج أنموذجًا تنمويًّا متقدمًا ومتميزًا على أكثر من صعيد، وشكّل بذلك مادة للتحليل والدراسة والمقارنة في أكثر من منحى واتجاه؛ وأُثيرت تساؤلات شتى، تبحث في آليات التحديث الياباني وأسباب نجاح أنموذجه التنموي. واعتُبر مثالًا وقدوة في سيرورة التنمية والتقدم، كما أصبح هذا الأنموذج مرآة عاكسة للإخفاقات الذاتية ووسيلة للمراجعة والنقد وإعادة البناء.

= من الديانات التوحيدية الأخرى، لا يوجد في الشنتوية تعريف للمطلق، كما لا يمكن لأحد أن يدّعي الصواب المطلق ولا الخطأ المطلق، والناس في طبيعتهم غير معصومين من الخطأ. وتُعدّ الشنتوية من هذه الناحية ديانة متفائلة، إذ تفترض أن الإنسان كائن طيب في الأساس، وأن الشر يقع نتيجة تدخّل الأرواح الشريرة، وينحصر أغلب العبادات الشنتوية في إبعاد هذه الأرواح الشريرة عن طريق تنقية النفس، والصلوات، وتقديم القرابين لـ «الكامي». وليس لعقيدة التوحيد مكان في الشنتوية؛ فبسبب تعدد المظاهر التي يمكن أن تتجلى فيها القوى الإلّهية، ربط اليابانيون بين كل ظاهرة وآلهة معيّنة، وأعداد «الكامي» لا يمكن حصرها، ويمكن أي شخص أن يعيّن آلهته الخاصة. كما ليس في الشنتوية حياة بعد الموت، ويعدّ جسد الشخص الميت شيئًا مدنسًا، فتنطلق روح الميت بعد أن تتحرر من جسدها المادي فتندمج في قوى الطبيعة.

يعترف اليابانيون اليوم بدور البعثات التعليمية في صوغ المشروع التنموي وبلورة عناصر القوة التي بوّأت بلدهم مكانة متميزة في مشهد العلاقات الدولية، وفي هندسة التكنولوجيا وإنتاجها في حقول المعرفة التطبيقية المتباينة. وعن طريقها توافرت للإدارة اليابانية، بمختلف تخصصاتها، كفاءات بشرية متميزة اضطلعت بمهمة تخطيط القرارات الحكومية الكبرى وتنفيذها منذ عهد الميجي (1868-1912) مرورًا بعهدَي تايشو (1912-1926) وشوا (1926-1989).

من جانب آخر، منحت التجربة اليابانية زخمًا ثوريًا وخطًا تنمويًا تحرريًا لبلدان آسيا، كالصين والنمور الآسيوية، وأفهمتها - كما يجب أن يفهم الآخرون - أن مسيرة التحديث لا تعني بالضرورة اقتفاء آثار الأنموذج الغربي، واتخاذه صنمًا لمواجهة التحديات والعقبات؛ بل قدمت دليلًا على أن مناهج التنمية يمكنها أن تسلك دروبًا وطرقًا أخرى مغايرة ومتقدمة، متجنبة بذلك عقدة المركزية الأوروبية التي سيطرت على العديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية والإصلاحية في العالم العربي والإسلامي. كما نجحت اليابان في التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في عجلة التنمية الداخلية، وربما ذلك ما جعل منها محطة تأمل ومقارنة واتّباع.

يوجد اليوم عدد كبير من مراكز الدراسات الآسيوية المستقلة أو الملحقة بالجامعات والمعاهد في أوروبا وأميركا الشمالية، وهي تركز في الأوراق التي تتناولها على الأنموذج الآسيوي، خصوصًا الياباني منه، مستلهمة منه الدروس والعبر وقدرته على التكيف مع الأوضاع الجديدة. وقد صدرت دراسات شتى تقارن بين اليابان وغيرها من الدول المتقدمة (الولايات المتحدة وروسيا وألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة والصين وكوريا وتركيا... إلخ) في النواحي الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية والفنية والدينية.

أما في العالم العربي، فأُنجزت بعض الدراسات عن تجربة التحديث اليابانية، تطرقت إليها برؤى مختلفة ومن زوايا متباينة، أبدعها كتاب اليابان

بعيون عربية لمسعود ضاهر[3]. وعُقدت ندوات مشتركة بين مفكرين عرب ويابانيين، حاولت إقامة جسور ثقافية بين الجانبين.

تُعتبر تونس ومصر ودول الخليج من البلدان القليلة التي حاولت، من خلال الندوات والكتابات والرحلات، وضع علامات مضيئة في هذا المجال، مستفيدة من الانفتاح الثقافي الياباني على العالم العربي، خصوصًا بعد تزايد أهمية النفط في رسم ملامح العلاقات الدولية. ففي الندوة التي نظمتها اليونسكو في باريس بعنوان «أشغال الندوة الدولية، التنوع الثقافي والعولمة، التجربة العربية اليابانية، الحوار الإقليمي» التي عُقدت في السادس والسابع من أيار/ مايو 2004، وشارك فيها العديد من الباحثين العرب واليابانيين، جرى التركيز على تجربة محمد علي التحديثية ومقارنتها بتجربة الميجي.

في المقابل، تندر الإشارة إلى بُعد المقارنة بين تجربة التحديث في كل من المغرب واليابان، فأنا لم أجد أشغال ندوة دولية أو وطنية فيها تعميق للنقاش في مجال المقارنة بين تجربة التحديث المغربية وتجربة التحديث اليابانية في النصف الثاني من القرن التاسع.

تدفعنا هذه الملاحظات إلى محاولة تتبع درجة حضور التجربة التنموية اليابانية الأولى في أذهان معاصريها من النخب الفكرية والسياسية المغربية، بناءً على طبيعة البحث والإشكالية التي يحاول تفكيك وحداتها والإجابة عن بعض تفصيلاتها، فلا نعثر بالتقصي على ما يفيد بحثنا في هذا المجال، أو ما يمنحنا مادة مصدرية ملائمة تتيح لنا قابلية إنجاز محور يمكننا أن ننعته بـ«التنمية اليابانية بعيون مغربية».

من أبرز الوثائق التي تُبرز درجة الحضور الياباني في التصورات الإصلاحية المغربية، ما ورد في مشروع الدستور الذي اقترحه الشيخ عبد الكريم مراد على السلطان المولى عبد العزيز، والذي يبدو عليه من قراءة أولية لمضامينه العامة، إدراك لمشروع التنمية الياباني ومراميه التحديثية؛ إذ حاول الشيخ مراد جاهدًا

---

(3) مسعود ضاهر، اليابان بعيون عربية، 1904-2004 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005).

تقديم إجابات كفيلة بتفسير النجاح التنموي الياباني، داعيًا من خلاله إلى تأمل التجربة لمحاكاتها وإنتاج صورة موازية لها في مغرب بداية القرن العشرين.

يمكن اعتبار الشيخ مراد الوسيط الذي عرّف النخب المغربية بالتجربة اليابانية وبانتصارها التاريخي على روسيا القيصرية. ويتبين أننا فقدنا القدرة على الاتصال المباشر بمصادر الخبر، وتوسلنا بالمشرق لإدراك المستجدات السياسية في منطقة الشرق الأقصى. ولم نستطع، كما فعل ابن بطوطة، في زمن أبي عنان، إنتاج معرفة خَبَرية بخصوص الأمم القاصية.

تحيلنا هذه الإشارة أيضًا إلى قضية بالغة الأهمية، تتعلق باقتفاء النخبة الفكرية والسياسية في المغرب خلال الفترة المذكورة خطى التحديث المصري والبعثات التعليمية المصرية، وبالبحث عن أسباب التمدن الغربي بترجمته المصرية على أرض الواقع المغربي.

تبوّأ الحضور التنموي الياباني مكانة متميزة لدى المؤرخ المغربي ابن زيدان، الذي قدّم شكلًا من أشكال المقارنة بين مآل التحديث في كلٍّ من المغرب واليابان في أثناء تقويمه البعثات المغربية التي أرسلها السلطان الحسن الأول إلى أوروبا؛ فقد ذكر أن اليابان كانت «أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذّاك بين المغرب واليابان في الانحطاط، في ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه فوجّه المتعلمين من اليابانيين وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة وصارت اليابان تقر بعظمتها أعظمُ الدول وتخشى بأسها»[4].

يثار أمامنا في هذا الموضع سؤال جوهري يتعلق بالمصادر التي اعتمدها ابن زيدان للتوصل إلى هذا الحكم الذي يبدو أول وهلة أنه حكم متسرع وفاقد لضوابط الخبر التاريخي؛ فإذا كان صاحب العلائق السياسية للدولة العلوية يلمح إلى فساد عناصر الإدارة البيروقراطية في المخزن الحسني، ودورها في إفشال سيرورة التحديث في المغرب، وهو الجانب الذي توافرت له فيه مادة

(4) عبد الرحمن بن زيدان، العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 149.

وثائقية دسمة، فإن حكمه على «تأخر» اليابان و«تقهقرها» الحضاري في فترة ما قبل عهد الميجي يحتاج إلى دراسة ونظر، خصوصًا أنه لم يقدم إلينا شواهد لما ذهب إليه من أحكام بشأن «تأخر» اليابان الفيودالية و«انحطاطها» الحضاري.

يدفعنا هذا الاستنتاج كذلك إلى إثارة مسألة تشابه المقدمات المجتمعية أو تفاوتها؛ فإذا كان ذلك صحيحًا ومقبولًا فبأي صفة ومعنى؟ وإذا خضعت المقدمات المادية لمنطق النظر والقياس والاعتبار والاستبصار، فهل يمكننا رصد الجانب الخفي وحركة اللاوعي الجماعي ودوره في عملية البناء الحضاري وتقويمهما؟ وهل يمكن لعالم القيَم والمُثل أن يخضع لمنطق المقارنة؟

في هذا الصدد يقول محمد داود: «كانت الفرصة سانحة أمام المغرب ليتقدم إلى الأمام خطوات لو أنه خطاها لصار أعلم وأقوى حتى من بلاد اليابان التي كانت تغرق في حمأة التخلف والخرافات والتمسك بمقدسات وهمية كانت كالقيود في الأرجل والسلاسل والأغلال في الأعناق»[5].

من جهة أخرى، أثارني عنوان أطروحة مسعود ضاهر «النهضة العربية والنهضة اليابانية»[6] التي ذيّلها بمقولة تشابه المقدمات واختلاف النتائج، فهل يمكن القول نظريًا بتشابه المقدمات واختلاف النتائج؟ وهل كانت مصر في زمن محمد علي في وضع مشابه لوضع اليابان؟ وما المؤشرات التي اعتمدها بعض المشارقة في الخروج بهذا الاستنتاج؟ لا أريد تقديم إجابات سابقة لأوانها، لكن علينا الإشارة بدءًا إلى أن موضوع المقارنة يتطلب نوعًا من الإحاطة بمجمل المقدمات التي نعتقد فاعليتها وأهميتها في تناول موضوع البحث، وفي مقدمها التنقيب في خصوصيات الذهنية اليابانية، ودور الجماعية في صوغ المجتمع الجديد، وميزة الاقتصاد في الجهد واستغلال التراكم التاريخي، وتوافر نخبة متنورة تمتلك حس الانتماء والقدرة على استثمار المادة الداخلية وتوظيفها بذكاء وتميز في عملية البناء الحضاري.

---

(5) محمد داود، تاريخ تطوان (تطوان: [د. ن.]، 1960)، مج 5، القسم 3، ص 359.

(6) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999).

من جانب آخر، ألم تنتهِ التجربة اليابانية نفسها بأنموذج إمبريالي استعماري، توسل لغة العنف والتدمير تجاه الشعوب الآسيوية القريبة من المجال الحيوي لليابان؟ وهل تصلح التجربة اليابانية - بنتيجتها السلبية هذه - أنموذجًا للتمثل والقياس؟

إذا انتقلنا إلى الدراسات والبحوث المغربية المعاصرة التي حاولت المقارنة بين الأنموذجين التحديثيين الياباني والمغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نجد أنها اقتفت آثار الدراسات المشرقية السابقة، مع تأكيد خلاف ابن زيدان، على تباين المقدمات اليابانية عن مثيلتها المغربية؛ فقد ختم عثمان أشقرا في كتاب العطب المغربي مقارنته قائلًا: «بينما في الحالة المغربية هيمنت السلفية والتقليدانية، بحيث جاء التحديث كأنه مجرد أداة أو قناة جديدة فاعلة للمزيد من صب المجتمع في قالب المنظومة الفكرية والأيديولوجية التقليدية والسلفية المهيمنة أصلًا. وهذا ما نعبّر عنه بالتحديث المعكوس»[7]. ويبدو أن هذا الاستنتاج جزئي في نظرته إلى آليات الإعاقة ومرادفات العطب التنموي؛ ذلك أن الطابع الشمولي في مقاربة عناصر الخلل ظل غائبًا، كما أن المقارنة اكتست طابع السرعة في استخلاص النتائج من دون تمحيصها، وتعميق البحث في إشكالاتها التاريخية. واعتمد الباحث أساسًا على إنتاجات من سبقه من دارسين مشارقة من دون تقليب أوجه النظر في الكتابات اليابانية والأنغلوسكسونية والألمانية التي يصعب على الباحث في الموضوع الياباني الاستغناء عنها.

تحتّم هذه الإشكالات العديدة مقاربة الموضوع من جديد بالشكل الذي يجعله إضافة إلى المقاربات السابقة وتوطئة للدراسات اللاحقة. وتتوسل هذه المحاولة تفكيك النصوص والبحث في خباياها والمقارنة في ما بينها لاستنتاج الخيط الناظم الذي يربطها ويؤطرها.

يُعتبر التحليل الأنثروبولوجي مفتاحًا أساسًا لولوج عوالم المقارنة بين أنموذجين تحديثيين متباينين، من خلال مدخل البعثات التعليمية نحو دول

(7) عثمان أشقرا، العطب المغربي: بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2003)، ص 55.

الغرب الرأسمالي في فترة حدثت بين سقوطين عسكريين في كلٍّ من المغرب (1844-1912) واليابان (1853-1945).

لا يعني اختيارُ الأنموذج الياباني واتخاذُه مرآة عاكسة للتشوهات التحديثية في المغرب اقتفاءَ أثره حذو النعل بالنعل، واعتباره صفاء خالصًا، لا يأتيه الباطل، كيفما دُرس وكيفما قورن بغيره؛ إنه أنموذج يظل خاضعًا لمنطق النسبية؛ فكما أنه أنتج عناصر التنمية، فإنه تسبب في المآسي والآلام التي اكتوى بنارها بعض الشعوب الآسيوية في فترتي الحرب العالمية الأولى والثانية، عندما خرجت اليابان الإمبريالية عن حدودها الطبيعية وتوسلت لغة العنف والتدمير لتحقيق تطلعاتها الاستعمارية.

نجح الأنموذج الياباني في تعميم إنجازاته التقنية والعلمية على مستويات متباينة من دول العالم، بيْد أنه افتقد - وما زال يفتقد - القدرة على نشر قيمه الثقافية عالميًا، ولو داخل المجال الآسيوي، الأمر الذي يضع هذا الأنموذج أمام حالات من العزلة الثقافية، بسبب الطبيعة البنيوية والتاريخية لمنظومة القيم اليابانية.

يأخذ اختيار الأنموذج الياباني مادة للدراسة المقارنة مشروعيته من تعرّض البلدين (المغرب واليابان) للهجمة الغربية ولأنواع متشابهة من الضغوط العسكرية والسياسية والاقتصادية، ما جعل النخب السياسية داخل البلدين تفكّر وتشرع في إرسال بعثات تعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي من أجل اللحاق بالآخر ومواجهته.

ربما يظهر اعتراض على موضوع المقارنة أصلًا، فيجري الحديث عن عبثية الموضوع، ويُعلَّل ذلك بأن لا قياس بوجود الفارق، وأن المطلوب مقارنة الأنداد بالأنداد، كاليابان بالصين أو كوريا، والمغرب بمصر وتونس وموريتانيا وغيرها من البلدان.

يهدف مطلب المقارنة أساسًا إلى اتخاذ الأنموذج التنموي الياباني مرآة لمراجعة إخفاقاتنا التاريخية، والنظر من خلاله إلى تحديد الأسباب المحتملة التي تفسر عللنا وفشلنا التنموي. كما أن هذه المقارنة لا تنطلق من الزمن

الحاضر لاستنباط الفُرُوق الجوهرية بين التجربتين، بل تكشف وتحاول تمثُّل قواعد المقدمات الأولى التي وقع فيها احتكاك الدولتين المباشر بالغرب ورموز قوته وامتداده. فمن كان يتصور قدرة اليابان في عام 1853 على تحدي الأنموذج الغربي، وإثارة بديل حضاري متقدم ومنافس؟ أي مسيرة كان مقدّرًا أن تسلكها اليابان، لو لم تعدّل من مقدماتها الاجتماعية والسياسية؟ ألم تقم التيارات المعارضة للانفتاح على الغرب بعمليات تصفية واغتيال المحسوبين على الاتجاه المعاكس، ما يدل على وجود بدايات غير سليمة في مواجهة طاقة العنف الغربية؟ ألم يتحدث فوكوزاوا يوكيتشي عن «رعب كبير» صاحَب استسلام حكومة التوكوجاوا وتوقيعها اتفاقات مجحفة وغير متكافئة مع الحكومة الأميركية وغيرها من الحكومات الغربية؟

يفترض مبدأ المقارنة ضرورة وجود خطي انطلاقة متشابهين، من زاوية تعرض البلدين للهجمة الغربية، واختلاف أنماط الردود الداخلية تجاه تحدياتها؛ وقد جاءت النتائج متناقضة أشد ما يكون التناقض، ما يستدعي ممارسة الحفر في أسباب هذا التعارض/ الإشكال، ولوازمه واستنباط علله ومقدمات إخفاقه وفشله. كما تتوخى هذه الدراسة التفصيل في وصف مقدمة الإشكالية المركزية للبحث وتحليلها وتعليلها وإعادة تركيبها، ويمكن صوغها بالشكل الآتي:

إذا كان كلٌّ من المغرب واليابان قد واجها تحديات خارجية متشابهة (1844-1853)، دفعتهما، ظاهريًّا إلى إرسال بعثات تعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي لتوظيف نتائجها في عملية الإصلاح الداخلي والتنمية، فلماذا نجحت المحاولة اليابانية وفشلت مثيلتها المغربية؟

في مقدمة هذا الموضوع أثير مجموعة من الفرضيات التي تحاول تفسير هذا الخلل الظاهري، وفي مقدمها أن اختلاف النتائج يرتبط بتباين المقدمات؛ فهل يتأسس ذلك على مبدأ اختلاف نمط البناء المجتمعي في كلٍّ من المغرب واليابان خلال الفترة المحددة سلفًا؟ ألم يكن للتراكم التاريخي، ولنضج الذهنية اليابانية دور في صقل التجربة التنموية اليابانية، في الوقت الذي أعطت فيه البنية السياسية والإدارية في المغرب مسيرة تحديثية معتلة من أوجه متعددة؟ ما الدور الذي أدّته المدرسة في نجاح الأنموذج التعليمي الياباني من

حيث فشلت المدرسة المغربية في القيام بالإنجاز نفسه؟ ما هي حدود اللاوعي الجماعي وترسانة الرموز الثقافية في تشكيل الذهنية اليابانية والذهنية المغربية سلبًا وإيجابًا في أثناء عملية البناء الحضاري؟ وهل يمكن اعتماد عناصر أخرى يمكنها تفسير عناصر التقدم الياباني والتأخر المغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين؟

للتحقق من هذه الفرضيات، وجب وضع مسألة البعثات التعليمية، كآلية تحديثية، داخل البلدين في إطارها التاريخي العام من النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، بتحليل طبيعة النظام السياسي في كلا البلدين، وتعرضهما للهجمة الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والبحث في خصوصيات البناء الاجتماعي والثقافي والرمزي والأسطوري، واستنتاج لحظات القوة والضعف في البنية التربوية والتعليمية في كل من المغرب واليابان، وإدراك طبيعة الرد على طاقة التحدي الغربي في كلا البلدين، مع ما أدت إليه من نتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية، وهو موضوع القسم الأول من هذا الكتاب الذي ختمته بفصل ثالث حاولت من خلاله المقارنةَ بين محتويات الفصلين الأول والثاني وتقريبَ بُعدِ المقارنة واستنتاج طبيعة المقدمات التي قد تفسر نجاحَ البعثات التعليمية اليابانية في صناعة التنمية والتغيير إلى حدود عام 1945، وفشل مثيلتها المغربية في تحقيق ذلك.

تتطلب الإجابة عن الإشكالية المركزية للبحث الاستغراقَ في تحليل مجمل هذه المباحث باعتبارها المقدمة التي لا يمكن من دونها مقاربة آلية البعثات، فلم تكن هذه الأخيرة غير وسيلة وظّفها المخزن المغربي والإدارة اليابانية لتحقيق أهداف إصلاحية محددة، وبرزت ضمن مناخ تعليمي معيّن وفي سياق مجتمعي ومناخ فكري وثقافي منح المعنى والغاية لهذه العملية التحديثية.

يتناول القسم الثاني البعثات التعليمية اليابانية والمغربية بالكشف عن منطلقاتها وقواعدها التاريخية وأسبابها المباشرة وغير المباشرة، وتحديد خصائصها ومميزاتها العمرية والمجالية وطرائق تمويلها، مع التركيز على نوع

التعليم الذي خضعت له والروح التي أطّرتها ووجّهتها، وكذا النتائج التي حققتها في ميدان التحديث.

اعتمدنا في مقاربتنا الكمية على مفهوم العيّنة، وعلى توظيف الإحصاءات وقراءتها وتحليلها واستنتاج خصائصها لتيسير القراءة والمقارنة. وحاولنا في الفصل السادس تركيب القضية ونقيضها من خلال العناصر الواردة في الفصلين الرابع والخامس، سالكًا منحى المقارنة بين البعثات التعليمية اليابانية والمغربية، من خلال الموازنة بين طبيعة النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي انطلقت من خلاله، والرموز والمفاهيم الثقافية والاجتماعية والتعليمية التي هندست اختيارات البعثات التعليمية في كلا البلدين. وختمنا ذلك بالنتائج التي حققتها البعثات التعليمية اليابانية والمغربية، وتعليل أوجه الاختلاف بينها في هذا المجال.

لم أُرد أن يكون موضوع المقارنة ميكانيكيًا بشكل أبتدئ فيه الحديث عن المقدمات السياسية والمجتمعية والعسكرية وغيرها داخل كلّ من المغرب واليابان، ثم أخصص قسمًا مستقلًا لموضوع المقابلة بين الأنموذجين. وعوضًا عن ذلك، شرعت في عملية المقارنة منذ بداية البحث في العديد من المناسبات، ومن مباحث القسم الأول إلى نهاية محاور القسم الثاني، وهدفت من ذلك إلى تقريب صورة المقارنة ومنحها نوعًا من الحضور على امتداد صفحات هذا الكتاب. ولم يكن الفصل الثالث في القسم الأول والفصل السادس في القسم الثاني سوى محاولة تركيب وتركيز ما تشتت في مباحث الموضوع، واستخلاص أوجه التشابه والاختلاف بين البعثات التعليمية المغربية واليابانية.

كان لزامًا على موضوع يمتد على فترة زمنية طويلة نسبيًا توظيف المنهج الاستقرائي التاريخي في مقاربة الظواهر، واقتفاء ينابيعها وتتبّع امتداداتها وصورها، واستنتاج الثابت والمتحول في معانيها ومعالمها؛ كما توخيت استقراءَ النصوص والوثائق الأصلية اليابانية والمغربية لرسم خصوصيات المقدمات التي أطّرتْ موضوعَ البعثات، والبحثَ من خلالها عن طبيعة الذهنية المنتجة للخطاب الإصلاحي. ومن هذا الجانب فرض التحليل الأنثروبولوجي مكانته للكشف عن التمثلات الذهنية الأسطورية والدينية والاجتماعية في كلّ

من المغرب واليابان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وحاولنا قراءة الوثائق والمراسلات المخزنية المغربية واستنتاج طبيعة الذهنية الإصلاحية من ثنايا نصوصها.

يتطلب تحليلُ الجماعية في اليابان وعمقها وتحولاتها التاريخية ودورها في صوغ الذهنية اليابانية وغير ذلك من المفاهيم، توظيفَ مقاربة تتجنب الوصف، وتركز، بدلًا من ذلك، على رسم معالم الشخصية الفردية والجماعية بتحليل نمط تفكيرها وأشكال تمثلاتها لذاتها ولغيرها من الذوات الخارجية بتحليل النصوص والوثائق والبحث عن معالم النسق الذي يحكمها ويمنحها الفاعلية، وينقلها من دائرة الفكر والوجدان إلى مجال العمل والممارسة.

لم أجد دراسة عربية واحدة تناولت بالتفصيل والتحليل موضوع البعثات التعليمية اليابانية منذ نهاية عهد الباكوفو وعهود الميجي وتايشو وشوا؛ وقليلة هي الدراسات باللغة الفرنسية في هذا المجال. وركزتُ في هذا البحث على الدارسين اليابانيين الذين تُرجمت أعمالُهم إلى اللغة الإنكليزية، وعلى الكتابات الأنغلوسكسونية والمؤلفات الألمانية التي كُتبت أو تُرجمت باللغة الإنكليزية، إضافة إلى نزر قليل من الكتابات اليابانية التي تُرجمت إلى اللغة العربية.

من جانب آخر، تناثرت مواد موضوع البعثات اليابانية في العديد من المصنفات التي اعتمدناها في البحث، فركزتُ على بعثات يممت وجهها نحو جامعات أميركية أو بريطانية أو ألمانية أو فرنسية؛ وتخصص بعض الدارسين في تناول جوانب متعلقة ببعثة إيواكارا؛ ودُرِس بعضها الآخر في سياق تحليل العلاقات التي جمعت اليابان بالقوى الغربية منذ زمن التوكوجاوا والعهود التاريخية اليابانية اللاحقة؛ وفرض علينا ذلك ضرورة تجميعها ضمن ترتيب زمني ملائم، وضمن صوغ إشكالية تروم مقارنتها بالبعثات التعليمية المغربية.

لا يستغني الباحث في موضوع البعثات التعليمية المغربية عن مصنفات عبد الرحمن بن زيدان التي اعتمدناها في هذا البحث، ومنها **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، و**العز والصولة في نظم معالم الدولة**، و**العلائق السياسية للدولة العلوية**، و**الدرر الفاخرة**؛ واستعنّا في قراءتها والمقارنة بينها بمذكرات بعض الطلبة، كالزبير سكيرج وابن طوجة وأحمد العيدوني ومحمد

بن الكعاب الشركي، وما ورد في المراسلات المخزنية بخصوص موضوع البعثات التعليمية في دورية الوثائق، وفي الخزانة العامة في تطوان التي نعتقد أهمية رصيدها في موضوع البعثات من خلال المراسلات المخزنية التي كان يستقبلها النائب محمد بن العربي الطريس خلال عهد الحسن الأول وعهد الوصاية وفترة حكم المولى عبد العزيز؛ وهي المراسلات التي لا نجد لها أثرًا في مصنفات ابن زيدان الذي يعترف بوجود أفواج تعليمية أخرى لم ترد في الدفتر المنقول الذي اعتمده في مصنفاته التاريخية المتعلقة بالموضوع؛ وهو ما سنفصله لاحقًا.

يتوافر في مديرية الوثائق الملكية رصيد مهم من المراسلات المخزنية المتعلقة بموضوع البعثات التعليمية، أُنجز بحسب ترتيب زمني عام، وبحسب موضوع المحفظات. وقد اطلعنا على جزء منها، ولم يسمح لنا الوقت والجهد لجردها في شموليتها، إذ يتطلب التنقيبُ عمّا يخص موضوعنا فحصَ عشرات آلاف المراسلات المخزنية التي جرت في عصر الحسن الأول (1873-1894) فحسب. كما يتوافر في الخزانة الحسنية رسائل مخزنية أصلية وأخرى منسوخة من رصيد مديرية الوثائق الملكية والخزانة العامة في تطوان، وأغلبها وضِع بحسب ترتيب زمني تسلسلي. ويحتاج الباحث، لجرد أكثر من مئتي ألف وثيقة خاصة بعهد الحسن الأول، إلى حيز زمني وتفرغ يفيان موضوع البعثات حقه من التفصيل والتدقيق. كما وجدنا في الخزانة الحسنية مجموعة من «الكنانيش» تتعلق بصفقات السلاح، ولها علاقة غير مباشرة بالموضوع.

من جانب آخر، يندر هذا النوع من الوثائق في الخزانة الصبيحية في سلا، ولها مع ذلك أهمية خاصة. كما يجد الباحث عنتًا كبيرًا في الحصول على الوثائق بسبب التعقيدات الإدارية، وبفعل عدم توافر خدمات النسخ، ما يقلص من إمكانات دعم البحث العلمي.

تناول المنوني موضوع البعثات ضمن كتابه **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، واعتمد فيه أصلًا على مصنفات ابن زيدان السابقة الذكر، وعلى بعض المراسلات الخاصة بآل بنسعيد، وبعض الدراسات الوطنية المغمورة كدراسة محمد السائح في مجلة **دعوة الحق**، وكذا بعض الدراسات الأجنبية كمقالة

جاك كايي التي تناولت موضوع البعثة التعليمية المغربية، ومذكرات بعض المتعلمين الذين توجهوا إلى إيطاليا (توجد معلومات بخصوصها ضمن متن هذا الكتاب).

ثمة معلومات عن البعثات التعليمية المغربية المختلفة نحو ألمانيا تناثرت في كتاب بيير كيين. كما نجد إشارات مهمة إلى الموضوع نفسه لدى لويس مييج الذي تناولها في سياق تحليله لسياسة الانفتاح التي نهجها المخزن تجاه أوروبا، واعتمد في ذلك على الربائد الأجنبية والمغربية، ومنها على سبيل المثال حديثه عن بعثة تعليمية مغربية توجهت إلى الولايات المتحدة في عام 1302هـ/ 1885م. واعتمد في ذلك على مقالة صدرت في جريدة أزمنة المغرب *(Times of Morocco)*، ووجدنا أصلها ضمن وثائق الخزانة العامة في تطوان، وأوردنا نصها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

من جانب آخر، اعتمدتُ في دراسة التجربة اليابانية على مجموعة من المصادر والمراجع؛ وتقدم سيرة فوكوزاوا يوكيتشي معلومات نفيسة عن تاريخ اليابان الحديث والمعاصر؛ ومن ثناياها تمكن فوكوزاوا من المزج بين تجربته الشخصية - كفاعل تربوي مخضرم عاش فترة نضجه الفكري في نهاية عهد إيدو وبداية عهد الميجي (أي بين عامي 1835 و1901) - وتحولات المشهد السياسي الياباني وما صاحبه من تحديات وعقبات. وتأتي قيمة كتابه/ سيرته من مشاركته في ثلاث بعثات إلى كلٍّ من الولايات المتحدة وأوروبا، ومن إسهابه في الحديث عنها بمضمون حمل مواقفه من الثقافة الغربية؛ وظل على امتداد صفحاته يحمل بُعد المقارنة بين الشرق (اليابان والصين) من جهة والغرب من جهة أخرى.

انخرط يوكيتشي في موضوع البعثات التعليمية، في أثناء عهد الميجي، من خلال إرساله بعض أفراد عائلته إلى الولايات المتحدة؛ وانتقد، حينئذ، آليات انتقاء المتعلمين المرشحين للدراسة بالخارج.

يثير كتاب **مسألة الشرق الأقصى** *(La Question d'Extrême - Orient)* لبيير رينوفين موضوعَ التحديث الياباني من زوايا نظر مختلفة؛ وتناوله في سياق التاريخ العام الخاص بمجموع دول الشرق الأقصى (الصين واليابان وكوريا... إلخ)

وعلاقته بموضوع التوسع الأوروبي؛ وقدم بخصوصه قراءة تحليلية متماسكة ومتناغمة. واعتمد في مقاربة الموضوع على دراسة بنية المجتمع الفيودالي الياباني خلال عهد التوكوجاوا وحجم التراكمات الإيجابية التي حققها؛ كما حاول على امتداد مباحثه المتعلقة باليابان الدفاع عن ثنائية العوامل الداخلية والخارجية في بناء يابان الميجي. وأشار إلى ذلك في كتاب بيير رينوفين، الباحثُ الياباني كوهاشيرو تاكاهاشي، ضمن دراسة له تُرجمت ونُشرت ضمن إصدارات ماسبيرو، بعنوان La Place de la Révolution de Meiji dans l'histoire agraire du Japon ضمن عنوان كبير: *Du féodalisme au capitalisme: Problèmes de la transition*. وقدّم كوهاشيرو موضوعًا تحليليًا لبنية النظام الفيودالي الياباني وتحولاته منذ بداية عهد التوكوجاوا، وحاول رصد دور العلاقات الفيودالية وتحولاتها كقاعدة مادية في إنتاج بناء فوقي بلغ أوجه من خلال بداية تفسخ العلاقات الإنتاجية وبروز حركة سياسية وإدارية جديدة مثّلتها، في نظره، ثورةالميجي.

حاول كوهاشيرو في بداية دراسته المقارنة بين نمط الإنتاج الفيودالي في أوروبا الغربية (فرنسا بالتحديد) ومثيله الياباني، كما أبرز أوجه الاختلاف بين ثورة الميجي والثورة الفرنسية (1789)، مشيرًا في أعقاب ذلك إلى دراسات مارك بلوك ولوسيان فيفر وغيرهما. ويبدو أنه وجد بعض الصعوبات في تطبيق المنهج المادي التاريخي على سيرورة التحول السياسي في اليابان. وأشار في بداية دراسته ونهايتها إلى كتاب بيير رينوفين السابق الذي اعتبر ثورة الميجي حدثًا تركيبيًا للعوامل الداخلية والخارجية؛ واستفدتُ من دراسته في الكشف عن ثوابت نظام التوكوجاوا ودورها في ترسيخ فترة السلام الطويل الذي أعقب موجة العنف والصراع التي شهدتها اليابان قبل نهج سياسة العزلة الطوعية.

كذلك اعتمد الباحثُ بول أكاماتسو ضمن مصادر بحثه مؤلفَ رينوفين سابق الذكر، وتناولَ في كتاب له بعنوان **ميجي 1868: الثورة والثورة المضادة** (*Meiji-1868: Révolution et contre révolution au Japon*) التناقضاتِ التي أعقبت ثورة الميجي، والعديدَ من الدلالات التاريخية، وقسّم دراسته إلى جزأين كبيرين، كان الأول منهما بعنوان «تراجع سلطة الشوغون»، والثاني بعنوان مكمّل «تغيير النظام». وقد أفادني في حديثه عن طبيعة التحولات السياسية

والإدارية التي عرفها نظام إيدو بعد حملة بيري وتوقيع الشوغون[8] اتفاقات غير متكافئة مع الغربيين، كما حلل دور المقاطعات المعارضة، ساتسوما[9] وشوتشو[10]، في إطاحة نظام التوكوجاوا وإعادة السلطة إلى الإمبراطور والانتصار لاختيار الدولة اليابانية المركزية؛ كما ختم بحثه بتعريف بعض المصطلحات والأعلام الذين كان لهم أدوار أساسية في عملية التحول السياسي والإداري ليابان الميجي.

تقدم الدراسات اليابانية معلومات دقيقة عن البعثات التعليمية، من أبرزها ما دوّنه نوبورو كوياما (N. Koyama) في كتابه *Japanese Students at Cambridge University in the Meiji Era*، وركز الحديثَ فيه على المتعلمين اليابانيين الذين التحقوا بجامعة كمبريدج في بريطانيا منذ نهاية عهد إيدو، وأبرز من خلاله كفاءات ونبوغ بعض النماذج، مثل كيكتشو دايروكو (Kikuchi Dairoku).

تناولتْ بعضُ الدراسات الموضوع من خلال العلاقات الدبلوماسية التي جمعت اليابان بالدول الغربية؛ ومنها كتاب بار ريتشارد سيم (P. R. Sim) بعنوان *French Policy Towards the Bakufu and Meiji Japan 1854-95*، وهو عن السياسة الفرنسية تجاه اليابان في عهدي الباكوفو[11] والميجي. وتناول فيه الاتفاقات التي عقدتها باريس مع نظام الباكوفو، والدعمَ الفرنسي المقدم إليه من عام 1864 إلى عام 1868، ورصدَ بداية أفول تأثيره في الفترة الممتدة بين عامي

---

(8) الشوغون (Shogun)، يعني في اللغة اليابانية «العام»، وهو كبير النبلاء العسكريين. اغتصب السلطة من الإمبراطور، وشغل منصب حاكم اليابان العام قبل عهد الميجي، وتوارثت أسرته هذا المنصب طوال عهد التوكوجاوا، وهو اللقب الذي كان يطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ عام 1192، وحتى نهاية فترة إيدو (1868).

(9) أسرة ساتسوما (Satsuma): أسرة من فئات الدايميو، استقرت في مقاطعة ساتسوما في أقصى الجنوب، وكان لعاصمتها مدينة كاغوشيما (Kagoshima) دور أساس في إطاحة نظام التوكوجاوا. كما تحوّلت إلى مواجهة النظام الإمبراطوري الجديد بسبب إلغاء امتيازات فئة الساموراي.

(10) شوتشو (cho-sho) كانت مستقرة في غرب الجزيرة الكبرى هونشو، وشكّلت مع ساتسوما وهيزن وتوزا التحالف القوي الذي أطاح نظام الشوغون، وأرجع السلطة إلى البلاط الإمبراطوري.

(11) الباكوفو، أو الشوغونات: أي مقر الحكومة العسكرية منذ نهاية القرن الثاني عشر. وعرفت اليابان ثلاثة أنواع من الباكوفو: باكوفو كاماكورا (1192-1333)؛ باكوفو ميروماشي (1338-1573)؛ باكوفو إيدو (1603-1867)، وتشكّل هذا الجهاز الإداري من اختصاصات متعددة.

1885 و1895. وجرت الإشارة في ثنايا الكتاب إلى بعض البعثات التعليمية اليابانية التي يممت وجهها نحو فرنسا للإفادة من خبرتها العسكرية والمدنية.

يُعدّ بيرند مارتن (B. Martin) من أبرز المتخصصين بدراسة العلاقات الألمانية - اليابانية؛ ففي كتابه **ألمانيا واليابان في العالم الحديث** *(Japan and Germany in the Modern World)*، أثار موضوعَ المقارنة بين يابان الميجي والرايخ الألماني (1871)، واستنتج أوجهَ التشابه بين الأنموذجين وتحولهما إلى حليفين أساسيين خلال الحرب العالمية الثانية. وأشار من خلاله إلى بعض النخب التعليمية اليابانية التي درست في الجامعات الألمانية؛ ومنها هيراتا توسوكي (H. Tosuke) الذي اعتبره أولَ طالب ياباني حاز في عام 1875 الدكتوراه، وتولى في ما بعد منصب وزير الفلاحة. كما قدم معلومات متميزة عن تخصصات المتعلمين اليابانيين الذين التحقوا بجامعات برلين.

تخصص أندرو كوبينغ (A. Cobbing) بموضوع الرحلة اليابانية/الآسيوية إلى الديار الغربية. واعتمدنا مجموعة من مؤلفاته في هذا الكتاب، من أبرزها *The Japanese Discovery of Victorian Britain* الذي صدر في عام 1998 عن دار روتليدج، وقسّم دراسته إلى مدخل وخمسة محاور كبرى وخاتمة ضمّنها مجموعة من الملاحق، من أبرزها ترجمته بعض أفراد البعثات التعليمية التي درست في بريطانيا منذ نهاية عهد الباكوفو إلى عهد الميجي، كما أشار من خلاله إلى بعثات تعليمية آسيوية أخرى في المملكة المتحدة من الصين والهند وسنغافورة.

اعتمد كوبينغ في كتابه *The Satsuma Students in Britain Japan's Early* الصادر عن دار روتليدج في عام 2000، على معلومات قدمها إينوزوكا تاكاكي، ودرس فيه موضوعَ طلبة مقاطعة ساتسوما في بريطانيا، وأورد بخصوصها حالات استقرار بعثاتِها في نهاية عهد إيدو في بريطانيا ضمن سياق تنافسها مع حكام التوكوجاوا الذين أوفدوا بدورهم بعثاتهم التعليمية إلى فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا. ودعم موضوعه بمجموعة من الإحصاءات والوثائق التي أوردنا بعضها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

تناول بعض المواقع الأكاديمية اليابانية موضوع البعثات التعليمية اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي، وقدّم في شأنها إحصاءات رسمية دقيقة ومهمة، من أبرزها الموقع الذي تشرف عليه وزارة التربية والثقافة والرياضة والعلوم والتكنولوجيا، وتتوافر نسخة منه باللغة الإنكليزية إلى جانب النسخة اليابانية الأصلية؛ ويحتوي على ثمانية فصول، يضم كل فصل منها مواد متعددة بحسب الفترة التاريخية ونوعية التعليم وتفصيلاته التربوية منذ عهد إيدو إلى سبعينيات القرن العشرين. وخُتمت مواده بملاحق وإحصاءات تخص موضوع التربية والتعليم؛ ولا يستغني الباحث في موضوع التعليم الياباني عن المعلومات الدقيقة والمفصلة التي احتوتها مباحثُه؛ واحتل موضوع البعثات نحو الخارج حيزًا ضئيلًا، لكنه مفيد من حيث بعض الإحصاءات المقدمة.

أما في دراسة عيّنات الطلبة اليابانيين الموفدين إلى الخارج، فاعتمدنا على موقع أكاديمي ياباني متخصص باللغتين اليابانية والإنكليزية[12]، تشرف عليه مكتبة الدييت الوطني، تَرجم فيه للعديد من النخب التي اضطلعت بمسؤوليات حكومية وسامية داخل الإدارة اليابانية، وبلغ عدد أفرادها نحو 350 شخصًا. كما وُضعت مفاتيح متعددة للبحث عنها عبر الأبجدية والتخصص العلمي أو السياسي أو الثقافي. ويوجد ضمن العيّنة العديدُ من الطلبة اليابانيين الذين درسوا في جامعات غربية، وتبوأوا بعد رحلتهم الدراسية مكانة مرموقة في الإدارة الجديدة، واستعنا في إتمام المعلومات الخاصة بهم ببعض المصنَّفات العامة والخاصة.

أدرك اليابانيون أهمية اللغة في الانفتاح والتواصل الحضاريين، واضطروا في أغلب مواقعهم إلى استعمال اللغة الإنكليزية بجانب اللغة الوطنية. كما تُرجمت المؤلفات اليابانية إلى لغات أخرى بغية منحها درجة الامتداد المطلوب إلى مختلف الثقافات. وقليلة هي الكتابات اليابانية التي تُرجمت إلى اللغة العربية، ومنها سيرة فوكوزاوا يوكيتشي السابقة الذكر.

من جهة أخرى، يلاحَظ أن حضور اللغة الفرنسية محدود وهامشي في الكتابات المتعلقة بموضوع البعثات التعليمية اليابانية إلى دول الغرب

(12) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/contents/index.html>.

الرأسمالي؛ ومنها ما أورده الباحث الياباني الفرنكوفوني ميورا نوبوتاكا في بعض مقالاته العلمية التي اعتمدناها في هذا البحث، وأورد بخصوصها عيّنات من المتعلمين اليابانيين الذي قصدوا الجامعات والمؤسسات الفرنسية، واضطلعوا بعد رجوعهم بمهمات رئيسة في اليابان؛ وحاول ميورا من ثناياها إبراز التأثير الفرنسي في نهضة الميجي بذكر أسماء ثقافية وعسكرية يابانية تابعت دراستها في بعض الجامعات والمعاهد الفرنسية؛ وتبوأت بعد رجوعها مكانة مرموقة داخل الإدارة والمؤسسات اليابانية الحديثة، مع إشارته إلى تزايد النفوذ الألماني ومنافسته وتفوقه على الأنموذج الفرنسي بسبب القوة العسكرية والسياسية التي أبان عنها النظام البسماركي بعد الانتصار المدوّي على فرنسا في عام 1871.

ساهمت الوكالة اليابانية للتعاون الدولي في تعريف الجمهور الفرنكوفوني بأسس المنظومة التعليمية اليابانية وتحولاتها، ونشرت دراسة علمية رصينة بعنوان «تجربة اليابان التربوية» (L'Expérience du Japon en matière d'éducation)، شاركَ في كتابة موضوعاتها وأنجزها أكاديميون يابانيون متخصصون. ورُفد العنوان بالهدف الذي قصدته الدراسة: «نظرات حول تطور التعليم في الدول النامية» (Réflexions sur le développement de l'éducation dans les pays en développement).

من جانب آخر، واجهتنا صعوبات في الحصول على بعض الوثائق المغربية المبثوثة في المكتبات والخزانات العامة والخاصة، وتيسرت لنا سبل الاطلاع وتصوير وثائق مهمة من الخزانة العامة في تطوان ومديرية الوثائق الملكية والخزانة الحسنية. وفرض ذلك علينا الانتقال إلى عين المكان لفحص الوثائق والحصول على صور منها واستنساخ بعضها الآخر عندما سُدّت أمامنا إمكانية التصوير، خصوصًا في الخزانة الصبيحية في سلا.

أما بخصوص الوثائق اليابانية، فهي مشاعة أمام المهتمين والباحثين في جميع مناطق العالم، وتتوافر مواقع إلكترونية يابانية متخصصة في هذا المجال، لعل أبرزها موقع مكتبة الدييت الوطنية الذي يحتوي على مقدمة وخمسة محاور كبرى، وُضعت أسفلها مفاتيح البحث الرئيسة.

إدراكًا لصعوبة التواصل اللغوي، وضع اليابانيون جزءًا من المعلومات باللغة الإنكليزية، ما مكّننا من التعرف إلى مضامينها التي رُتبت بدقة وأناقة متناهيين لا نحتاج معها إلى التنقل إلى طوكيو أو ناغازاكي للحصول على نسخ منها. وهكذا تصبح وثائق المكتبات والخزانات العامة والخاصة المغربية أبعد مما توفره لنا مكتبة الدييت اليابانية التي يقع مقرها على أبعد النقط الجغرافية التي تفصلها عن المغرب.

لم أرد لهذا الموضوع أن يستغرق في الوصف وجرد نصوص الماضي ووثائقه بشكل ينتج الرتابة، ويطيل الوقوفَ على أطلال التاريخ؛ بل كنت أثير، من خلاله، تساؤلات الحاضر ومآل التنمية وشروطها التي تتكرر في كل فعل تاريخي، وكنت أفصح عن ذلك تلميحًا وتصريحًا، ظانًّا أن صور التاريخ وهياكلها العامة يمكنها أن تتكرر في أكثر من مناسبة وواقعة بمفردات مختلفة ومتباينة.

لا يمكن بالدرجة نفسها تفسير الحاضر بمنأى عن الماضي؛ فهو الذي يختزن الأسباب العميقة المسؤولة عن صور الحياة الآنيّة وأشكالها.

يبقى أن موضوع البحث الذي أنجزته يحتاج إلى مساحة واسعة من التنقيب، وإلى مزيد من الاطلاع على الأرشيفات والوثائق والمصادر، ولا يمكن للجهد الفردي أن يفي الموضوع حقه من التحليل والاستنتاج.

حاولت على امتداد صفحات هذا الكتاب تأكيد قيمة التراكم التاريخي في منح الفاعلية والنجاعة لرؤى التنمية المختلفة، وأردت لعملي هذا أن يكون جزءًا من محاولات سابقة تساهم في فهم ما أظنه عللًا في مسيرة الإصلاح خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وتفسيرها.

إن الغاية من إنجاز البحوث فتح النقاش وتعميق الحوار في شأن قضايانا التاريخية والتنموية. ونحتاج في ذلك إلى مؤسسات ونخب تمتلك ناصية النقد الإيجابي، وتدفع بالفكر إلى أخذ مكانته ضمن سيرورة الإصلاح المنشود.

نشير هنا إلى أن بعض الوثائق التاريخية احتوى على أخطاء لغوية، وكُتب بعضها بالدارجة المغربية، فحافظنا عليها كما وردت في نصها الأصلي.

القسم الأول

الإطار العام للبعثات التعليمية المغربية
(1912 - 1844)
والبعثات التعليمية اليابانية
(1945 - 1853)

تتطلب مقاربة موضوع البعثات التعليمية المغربية (1844-1912) ومثيلاتها اليابانية (1853-1945)، توضيح طبيعة الأرضية الثقافية والمجتمعية والسياسية التي أنتجتها ووفرت لها المناخ الملائم للانطلاق والنجاح، أو النكوص والفشل؛ بل لا يمكن أن يتحقق موضوع المقارنة بين هذه وتلك، أصلًا، من دون الكشف عن الثوابت والتحولات التي ميزت البلدين عبر فترات مختلفة ومتباينة، من النواحي الاجتماعية والسياسية والثقافية والتعليمية.

إذا كان إيفاد مجموعة من المتعلمين إلى بلدان الغرب الرأسمالي مرتبطًا بتاريخ محدد في الزمن والمجال، فإن المقدمات التي أطّرت هذه البعثات امتدت بعمق في تاريخ البلدين من النواحي المذكورة سابقًا. ومحاولة الكشف عن خصوصيات أرضية التنزيل كفيلة بتقديم مشروع إجابة عن الأسباب التي تفسر الاختلاف بين النتائج التي أسفرت عنها عملية إرسال البعثات التعليمية المغربية واليابانية.

انطلقت هذه البعثات ضمن سياق ثقافي وتعليمي وسياسي، تباينت عناصره في كلٍّ من المغرب واليابان خلال الفترة المدروسة. ولا شك في أن الاستغراق في تفصيل عناصر هذه المقدمات والتقاط الخيط الناظم الذي يؤطرها، هو عنصر أساس في صُلب الإشكالية المركزية التي تدور حولها فصول هذا الكتاب، والتي صغتها كالآتي: إذا كان المغرب واليابان واجها تحديات خارجية متشابهة (1844-1853)، دفعتهما ظاهريًا إلى إرسال بعثات تعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي لتوظيف نتائجها في عملية الإصلاح الداخلي والتنمية البشرية، فلماذا نجحت المحاولة اليابانية وفشلت مثيلتها المغربية؟

في هذا الإطار، يعدّ موضوع البعثات التعليمية من أبرز الوسائل التي وظّفها اليابان منذ أواخر عهد التوكوجاوا وبداية عهد الميجي للحاق بالغرب ومنافسته والتفوق عليه. وبالدرجة والشكل نفسيهما تُعَدّ البعثات أهم الآليات التي رام المغرب من خلالها إصلاح منظومته العسكرية والإدارية؛ لكن الوقوف عندهما من دون فحص عمقيهما التاريخيين من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية، يحول دون رؤية حقيقية لطبيعة التباين في المقدمات وما أسفر عنه من نتائج شديدة الاختلاف والتناقض. كما أن الكشف عن الثابت والمتحول في بنية الثقافة والمجتمع والسياسة في المغرب، عنصر محدد ومفسر لمآل محاولات الإصلاح التي حاول المخزن القيام بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الفصل الأول

أوضاع المغرب السياسية والاجتماعية والتعليمية في فترة ما قبل الحماية الفرنسية

«إلا أن ذلك (البعثات) لم يظهر له كبير فائدة، إذ كان يحتاج إلى تقديم مقدّمات، وتمهيد أصول».

أحمد بن خالد الناصري

يتطلب تحليل البعثات التعليمية المغربية فحص مقدماتها السياسية والمجتمعية والثقافية التي شكلت إطارًا حقيقيًا لفهم آليات انطلاقها وتتبع مساراتها وتقويم نتائجها. ويمثّل مطلب التعليم وجس نبض المدرسة المغربية محورين مهمين لالتقاط الخيط الناظم للبنية التربوية المغربية؛ إذ يمكن إرجاع مقدماتها الأولى إلى عهد الدول العصبية في العصر الوسيط. ونحتاج في هذا المجال إلى استقراء التجربة التعليمية بوصفها إطارًا للتكوين واكتساب العلم، والنظر إليها كواجهة محورية لسياسة المخزن المغربي منذ زمن الموحدين والمرينيين، تكشف عن طبيعة فكر النخب المخزنية وممارساتها وتنظيمها الحقل الثقافي والسياسي.

انطلقت البعثات التعليمية المغربية نحو دول الغرب الرأسمالي في أوضاع داخلية وخارجية حرجة تمثلت، من جهة، في شدة الضغط العسكري والسياسي والاقتصادي الأوروبي على المخزن المغربي واستمراريته. ومن جهة أخرى، تناغم هذا الضغط مع حجم الثقوب السياسية والمجتمعية والثقافية التي شهدها المغرب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

من هذه الزاوية، لا بد من إبراز نسق ممارسة السلطة في المغرب ومعرفة الآليات التي تحكمت في إنتاج مدوّنة الإصلاح وصوغها، على الرغم من أن التفصيل في تحليل هذه الآليات والمضامين مقدمة أساسية لتعليل الإخفاقات التي تعرضت لها سياسة المخزن الإصلاحية وتفسيرها، مثل إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج. وتطلب الاستغراق وتقليب أوجه النظر في مبحثي المخزن ومؤسساته والمدرسة المغربية وخصوصيات التعليم مساحة واسعة، رأينا أنها ضرورية لتقديم مشروع إجابة عن الإشكالية العامة التي نعالجها في هذا الكتاب.

أولًا: المخزن الحسني: بنيته واتجاهاته

تأتي مشروعية هذا المبحث من خلال تطرقه إلى المؤسسة السياسية والإدارية - المخزن - التي أشرفت على البعثات التعليمية المغربية انتقاءً وتوجيهًا وتمويلًا واستثمارًا؛ فكان لزامًا دراسة بنية هذه المؤسسة، وإدراك أدوات اشتغالها والإشكالات التي تثيرها على مستوى مفهوم الدولة وتعقيداته في الحالة المغربية. كما أن الإجابة عن الإشكالية المركزية للبحث تكمن أساسًا في الكشف عن العلاقة التي نشأت أفقيًا وعموديًا بين رموز الجهاز المخزني من جهة ومختلف أطياف المجتمع ونخبه الفكرية والسياسية من جهة أخرى؛ بل إن السياسة التعليمية، بما لها من أهمية وعلاقة وطيدة بموضوع البعثات التعليمية، تُعَدّ جزءًا من النسق العام الذي اشتغلت ضمنه الرموز السياسية والإدارية للمخزن المغربي خلال القرن التاسع عشر. ومن هذه الزاوية لزم الاستغراق في ضبط الموضوع والكشف عن الثابت والمتحول في البناء السياسي العام لمغرب القرن التاسع عشر.

تعددت الكتابات التاريخية التي تناولت موضوع المخزن المغربي وعلاقته بمفهوم الدولة. والأكيد أن مصطلح المخزن لم يتحدد بمفهوم واحد ومحدد؛ فإذا استعرنا مصطلحات الأصوليين يمكننا الحديث عن قضية ظنية الدلالة. وتجنح بنا الآراء والمواقف نحو هذا الاتجاه أو ذاك، بالشكل الذي يجعلنا أمام مقاربات للمسألة متعددة ومتباينة.

يقول روبير مونتاني إن نفوذ الجهاز المخزني اقتصر على ما يسمّى بلاد المخزن، بينما ظل قسم كبير خارج نفوذه، تتصرف فيه قبائل السيبا[1]. وينتمي هذا النوع من الكتابة إلى الأطروحات الاستعمارية التي كانت تتوسل المقولات «العلمية» - في نظرها - لتسويغ الفعل الاستعماري. فألغت، بناءً عليه، خاصية توفير الأمن، وأثبتت حالة الفوضى من خلال ما سمّته ظاهرة السيبة، وأعطتها مفهومًا وشكلًا من أشكال الانفصال والتمرد على سلطة المركز، وحاولت النيل من سيادة الدولة وقدرتها على توفير الأمن والاستقرار، والتأسيس لمقدمات مشروع استعماري كان يروم - بحسب هذا المفهوم - تحديث الدولة والمجتمع، والقضاء على الفوضى المزعومة.

قريبًا من هذا المعنى تتفتق «عبقرية» موليراس حين يقول إن «جل المحافظات تتمتع بالاستقلال، ولا تعترف إلا بالسلطة الروحية لسلطان فاس... وتمثّل بلاد السيبة أربعة أخماس مساحة المغرب، ويقتصر الخمس المتبقي على بلاد المخزن»[2].

شكّلت هذه الأطروحة الاستعمارية إطارًا لكثير من الدراسات والمقالات التي حاولت التشكيك في قيمتها «العلمية»، وهي ترى أن «تصنيف المجتمع القروي المغربي، مثلًا، وفق بعض المفاهيم (جماعة، وتاقبيلت، وقبيلة، ولف..) أو تقسيمه وفق بعض الثنائيات: قبيلة - زعامة فردية، وسيبة - مخزن، وعرب - بربر.. ليس عيبًا في حد ذاته إذا كان يحمل مضمونًا إمبريقيًا (تجريبيًا)، إلا أنه وصل إلينا مبلورًا في نظرة جزئية للواقع... تجرد المجتمع من ديناميته وخصوبته لتجعل منه هيكلًا تنظيميًا جامدًا يرضي العقل، لكنه يعجز عن تأطير الواقع»[3]، وإن كنا نرى من خلال هذا البحث أنه لا ينسجم،

---

(1) Robert Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh)* (Paris: [F. Alcan], 1930).

(2) Auguste Mouliéras, *Le Maroc inconnu: Etude géographique et sociologique. Première partie, Exploration du Rif (Maroc septentrional)* (Paris: J. André, 1895), p.47.

(3) ناجم مهلة، «نظام التحالف التقليدي وظهور الزعامات الفردية في المغرب الشرقي، 1842-1876،» في: **المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر: الوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة: أعمال الندوة التي عقدت أيام 13، 14، 15 مارس 1986**، ندوات ومناظرات؛ 2 (وجدة، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988)، ص 473.

في أحيان كثيرة، مع منطق الأشياء وحقيقتها، ولا يساير مقتضيات العقل. وفي هذا الصدد يقول دوتي: «من الصعب على المسيحي أن يصدر حكمًا على المسلم، فأفكارنا الغربية المسبقة تغشي أبصارنا، رغم مقاومتنا لها: إنها تجعل تقواه تزمتًا، وزهده كسلًا، وحذره لامبالاة، واستسلامه قضاءً وقدرًا، وتعاضده عصبية»[4]. ويقول منصف وناس: «تبدو الدولة الوطنية في المغرب... ظاهرة مركّبة ومستعصية... وتبدو أيضًا منفلتة من الخضوع النهائي والدقيق للمقاربات النظرية والمنهجية»[5]. وتتضح عناصر الاضطراب المنهجي في كثير من المقاربات؛ ففي مجال ممارسة السلطة، يتحدث أخيل فيلياس، في عام 1860، عن «أن سلطان المغرب كان، في الوقت نفسه، حاكمًا ومشرّعًا أعلى، ولم يكن يعتمد في ذلك إلا على القرآن»[6]، وكأن القرآن يمنح السلطان مشروعية السلطة المطلقة، كما كانت تفعل الكنيسة الكاثوليكية حين كانت تبارك استبداد أمراء الإقطاع في أوروبا الفيودالية، وتجني المكاسب والمغارم المادية، بفعل تحالفها الاستراتيجي، مع مؤسسي «نظرية الحق الإلَهي». لكن القرآن لم يكن يومًا خاضعًا لأي وصاية بشرية، فهو الشاهد والحَكَم الفصل في القضايا والنوازل، وهو الموجّه للطاقات البشرية نحو المقاصد الكبرى للوجود.

من الأخطاء المنهجية الكبرى أن يُحكم على النص القرآني انطلاقًا من أزمنة التراجع والتخلف. ولا شك في أن المغرب، كغيره من دول العالم الإسلامي، لم يخرج خلال هذه الفترة عن النسق العام الذي أطّر هذه الأزمنة وأنتج هذا التخلف. ولم تكن الدولة في مغرب القرن التاسع عشر، بممارستها السياسية والإدارية والاقتصادية المختلفة، منتوجًا خالصًا لثقافة النصوص القرآنية وتعاليمها وروحها.

---

(4) دانييل ريفي، «خطاب الفوضى المغربية وتنوعاته في بداية القرن العشرين،» ترجمة محمد المؤيد، أمل، السنة 2، العدد 5 (1994)، ص 9.

(5) المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المملكة المغربية (قرطاج: بيت الحكمة، 1991)، ص 19.

(6) Achille Fillias, *L'Espagne et le Maroc en 1860* (Paris: Poulet-Malassis et De Broise, 1860), p. 76.

من هذا المنطلق وغيره، يمكن القول إن الخلل في المقاربات الأوروبية يكمن في قراءة مضامين المؤسسات في المغرب، انطلاقًا من تجارب أوروبية سابقة في المجال والزمن، عندما غاب مفهوم الدولة -الأمة في أوروبا طوال فترة العصور الفيودالية. وكانت التقارير الأوروبية ترى في الحالة المغربية أنموذجًا يذكِّر الأوروبيين بزمن الفوضى الإدارية الذاتية قبل أن يتمكنوا من تشكيل الدولة المركزية، بكل ما تعنيه من حمولات فكرية وتعاقدات سياسية واجتماعية.

لم تظهر كلمة الدولة في النسق السياسي الأوروبي إلا في حدود القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت تدل على شكل تنظيم الحقل السياسي الذي بدأ بالتطور مع حركة النهضة الأوروبية.

عرّف ماكس فيبر الدولة، في كتابه **الاقتصاد والمجتمع**، بأنها «مقاولة سياسية بمواصفات مؤسساتية»[7] تضْمن تطبيقَ القوانين عن طريق الجيش، والعدالة والأمن. وبحسب معجم الأكاديمية الفرنسية لعام 1696، فإن الدولة «تعني حكومة الشعب، الخاضعة لسيطرة الأمير، أو الرئيس»[8]. وفي القرن التاسع عشر، اكتسحت معاني الدولة القومية أو مفهوم الدولة – الأمة حقول التداول السياسي والقانوني. وصُنّفت المدوّنات الدستورية والحقوقية، ونشأت مدارس متباينة في تحديد مفهوم الدولة داخل نسق المنظومة الفكرية للغرب. وهو مفهوم أُسس على منطق مركزية الحكم وتوحيد القوانين والجبايات والضرائب وغيرها.

لم تكن الإسقاطات الذاتية المتشبعة بنواميس تحوّل الدولة في أوروبا غائبة، حين جرى نحت مصطلحات الفوضى والسيبا في المغرب، عن الرحالة والأدباء والجواسيس الأوروبيين، فكان من الطبيعي أن يعقد هؤلاء، بوعي أو من غير وعي، مقارنة بين نمطين إداريين مختلفين في التسيير، فجاءت معالجتهم لآليات السلطة في المغرب ومضمونها، محكومة بانطباعات ذاتية أكثر من تمثيل الواقع بتجلياته الحقيقية والموضوعية وتصويرها. وقد أجمل

---

(7) Max Weber, *Economie et société* (1921), p. 97, sur le web: <http://fr.wikipedia.org/wiki/Etat#_ref2>

(8) «État,» sur le web: <http://fr.wikipedia.org/wiki/Etat#_ref-2>.

دانييل ريفي هذه الانطباعات، قائلًا: «... وباختصار، إن هذه الإمبراطورية الشريفة [بهذا الشكل]، ليست سوى وهم نسجته المخيلة الأوروبية»[9].

من جانب آخر، افتتح ميشو بيلير دراسته لمنطقة الهبط بقوله: «غالبًا ما يُقسَم المغرب مجموعتين: بلاد المخزن، وهي المنطقة الخاضعة للسلطان، وبلاد السيبا، البلد المستقل حيث يبرز نفوذ السلطان الديني، إلا أنه لا يمارس أي سلطة إدارية»[10]. وعقَّب على ذلك موضحًا: «توجد في المغرب، من دون شك، جهات خاضعة للمخزن وأخرى غير منقادة له، لكن يصعب الفصل الدقيق لحدود كل منهما. وهنا تكمن إحدى القضايا التي تعقّد دراسة المغرب من وجهة نظر أوروبية»[11]. وفي مقالة مركزة أشار سالمون في هذا الصدد: «يضم المغرب، بالطبع، مناطق خاضعة للمخزن وأخرى غير خاضعة له. لكن الكثير من الفوارق الدقيقة يُعدل بشكل واسع من القيمة النسبية للمصطلحين من نقطة ترابية إلى أخرى»[12]. وفسّر معقبًا: «وهكذا تتحول القبيلة من مبدأ الخضوع للحكم المحلي في زمن معيّن إلى الجنوح نحو الفوضى في زمن آخر»[13]. كما حاول التشكيك في قيمة الانفصال التي قال بها بعض المنظّرين الاستعماريين موضحًا: «تبيّن الملاحظات الدقيقة بخصوص قبائل الأنجرة القريبة من طنجة أن أفرادها كانوا أحيانًا رعايا للسلطان وثوارًا أحيانًا أخرى»[14]، وهو قول يقترب من الموضوعية ومن معظم الكتابات المغربية المعاصرة التي نسجت مقولاتها ضمن منطق الرد على الأطروحات الاستعمارية.

حاولت هذه الكتابات تأكيد وجود دولة مغربية، معتمدة في ذلك على الوثيقة التاريخية وما تحمله من مضامين سياسية وإدارية، منها كتابات محمد

(9) ريفي، ص 84.

(10) Edouard Michaux-Bellaire, «Quelques tribus de montagnes de la région du Habt,» *Archives marocaines* (Paris), vol. 17 (1911), p. 13.

(11) المصدر نفسه، ص 13.

(12) Georges Salmon, «Essai sur l'histoire politique du Nord marocain,» *Archives marocaines,* vol. 2 (1905), p. 1.

(13) المصدر نفسه، ص 1.

(14) المصدر نفسه، ص 1.

الحبابي[15] وجرمان عياش[16] ومحمد عابد الجابري[17] وأحمد التوفيق[18]، وتؤكد مبدأ خصوصية النظام السياسي والإداري والقانوني لمؤسسة السلطان، وتقول إن «القانون المغربي لم يعرف إلا سلطة وحيدة ممثّلة في سلطة الأمة»[19]. وتخوّل هذه الأخيرة السلطان إرادة الفعل المقيّد بعناصر متعددة، تأسست، عبر مختلف العصور، على منطق البيعة والالتزامات المتبادلة بين الأطراف المتعاقدة بالمعروف.

تعدّ أي مقاربة لمفهوم الدولة المغربية غير ذات فائدة، إذا جرى تناولها بمنظار تماثلي مع أنموذج الدولة القومية في دول أوروبا الغربية خلال القرن التاسع عشر، بل «إن لغة المخزن.. مجرد خزان لرموز ذات دلالات تعبّر عن تصورات خاصة ... إن ما تدل عليه هنا هو أن المشروع الذي كان يحرك السلطة المركزية منذ قيامها على أساس ديني هو مشروع تأسيس الدولة الإسلامية، مما يجعل الوحدة المغربية هنا هي بالدرجة الأولى وحدة ثقافية وروحية، يكون الدين الإسلامي محورها الأساسي، أكثر منها وحدة إدارية»[20]. ويفتح أمامنا هذا المفهوم ضرورة مقاربة صورة الدولة الإسلامية كما تجلت في مدونة الأحكام السلطانية. ونكتفي بالقول، هنا، إن «مشروعية السلطان قائمة على مفهوم البيعة والإمامة. والبيعة، كما هو معلوم، عقد بين السلطان ورعاياه ينص على التزامات الطرفين»[21]. ويكتسي العقد في مدونة الأحكام السلطانية

(15) Mohamed Lahbabi, *Le Gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle*, préf. Mehdi Ben Barka, 2ème éd. (Casablanca: Editions maghrébines, 1975).

(16) جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب (الدار البيضاء: الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986)، ص 162.

(17) محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية (الدار البيضاء، المغرب: مؤسسة بنشرة؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1988).

(18) أحمد التوفيق، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان، 1850-1912، أطروحات ورسائل؛ 1 (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1980).

(19) Lahbabi, p. 66.

(20) رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب (بيروت: دار الطليعة، 1991)، ص 26.

(21) أحمد التوفيق، «صلحاء وسلاطين، ديناميكية السلطة في المغرب قبل الحماية،» في: عمر أفا [وآخرون]، وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، بحوث ودراسات؛ 27 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001)، ص 411.

طابع الإلزام، وأحيانًا الإكراه للحفاظ على وحدة السلطة وتجنب الفوضى والفتن والاضطراب.

تبوأت الإشارات الرمزية مكانة متميزة في مشهد العلاقة بين السلطة وبعض القبائل التي كانت لها وضعيتها المجالية الخاصة. والسلطان هنا «لا يحكم بواسطة القائد والجابي والشريف فقط، بل يحكم بواسطة الرسالة والظهير»[22]. ويستمد هذا المفهوم دلالاته وعمقه التاريخي من فترات سابقة على القرن التاسع عشر؛ فقد وجّه المولى سليمان إلى مناطق توات وكرارة مجموعة من الرسائل تؤكد في مجملها امتداد سلطة المخزن إلى هذه التخوم الوطنية البعيدة[23].

ضمن هذا الإطار، يمكننا أيضًا قراءة معاني بيعة أهل تلمسان للسلطان عبد الرحمن بن هشام كرمز من رموز الوحدة الثقافية والروحية بين المسلمين، والتداعيات التي آلت إليها العلاقات المغربية الفرنسية جراء هذا التضامن، الذي انتهى بمعركة إيسلي، ونتائجها السلبية على الطرفين.

لم يكن المخزن موجودًا وراء كل حجر وشجر، ولم تكن سلطته مطلقة استبدادية، في صورتها الأوروبية خلال العصور الوسطى، لاعتبارات مجالية جغرافية، وبسبب تركيبة المجتمع المغربي الإثنية المتنوعة التي احتاجت إلى سلطة تحكيمية محايدة، وإلى إطار مرجعي سياسي قائم على منطق البيعة والمولاة بالمعروف.

---

(22) عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، رسائل وأطروحات؛ 25 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 243.

(23) جاء في إحداها: «الحمدللّه وحده.. كافة خدامنا أهل توات .. سلام عليكم.. وبعد: فاعلموا أنه لما اقتضى نظرنا السديد عزل قائدكم الذي بلغنا أنه يضر بالمساكين، ويقبض منهم غير ما أوجبه الله عليهم، ورفقًا منا بكم، ولم نرد أن نولي عليكم أحدًا إلا أن يأتي موفدًا على الوصف الذي قدمنا لكم لقبض ما حرم الله عليكم، جعلنا عليكم أمناء.. من خيار أهل بلادكم، وهم شهداء على من يظلمكم..» أوردها: أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالى 1850 إلى 1902: مساهمة في محاولة الكشف عن جذور المشروع وأبعاده وعلاقته بمشروع السودان الغربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ 2 (فاس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، 1988)، ص 41.

يتحدث جرمان عياش عن الوظيفة التحكيمية للمخزن كشكل من أشكال ممارسة السلطة؛ فإذا كانت القبائل تخوض الحرب، «فإنها لم تكن تخوضها من أجل التسلية أو النزعة الفطرية. لقد كانت تكابدها كجائحة لم تكن لتعرف سبل الاحتراز منها لو تُركت وشأنها. وهذا ما كرّس الحاجة لديها إلى اللجوء إلى سلطة تتجاوزها، وتتجسد هذه السلطة في شخص السلطان»[24].

على الرغم من أن بعض شيوخ الزوايا كان يتصدر لأداء الدور نفسه لاعتبارات معنوية، فإن ذلك لم يكن ليتحقق من دون تفويض من السلطان: «وعندما ينزع هذا التفويض من شيخ الزاوية، يصبح هو نفسه بحاجة إلى الحماية. وأبرز مثال على ذلك مشكلة عبد السلام الوزاني، فقد كان يشتغل قبل سنة 1860م منصب نائب السلطان في أقاليم الشمال، وإقليم توات، إلا أنه فقد تأثيره داخل البلاط حينما أظهر تطرفًا أدى إلى حرب 1859-1860م ضد الإسبان»[25].

ما يمكن قوله في هذا المقام إن المخزن، وإن كانت قراراته تستأنس بمبدأ التشاور، فإنه لم يَبْنِ تصوراته السياسية والإدارية على مبدأ الإشراك المستمر والدائم للعناصر القَبلية والدينية في صناعة القرار السياسي، ما ألغى إمكانية توفير شروط تراكم كفيلة بنشأة وتطور فئة مجتمعية، تنافس المخزن، وتعينه على بلورة رؤية تنموية ذات عمق اجتماعي فعال وإيجابي؛ فكانت مؤسسة السلطان الثابت الوحيد الذي لا يتحول، وما عداه يضحي متغيرًا، من ممثلي الزوايا والوزراء والسفراء والقواد وغيرهم.

من جانب آخر، إذا كان القائد، ممثل السلطان في القبيلة، يستمد قوته ونفوذه من تمثيله المخزن، فإن ممارسته سلطته «لا يمكن أن تتحقق من دون رضا قبيلته»[26]. وفي حالة قبائل زمور، لم يكن تعيين القواد خاضعًا لقرارات فوقية، بل ممثلًا لانتخابات محلية، «ما جعلهم يحظون بنوع من الشرعية»[27].

---

(24) عياش، دراسات، ص 162.

(25) عبد الله العروي، «العلاقة بين الزوايا والمخزن في مغرب القرن التاسع عشر،» ترجمة نوال متزكي، أمل، السنة 8، العددان 22-23 (2001)، ص 17.

(26) Rahma Bourqia, «La Caidalité chez les tribus Zemmour au XIXe siècle,» *Bulletin économique et social du Maroc*, nos. 159-161 (1987), p. 137.

(27) المصدر نفسه، ص 137.

بسبب التركيبة القبلية للمغرب، والعمق التاريخي الذي زاد من صلابتها، كان من الصعب تعيين القواد من المخزن مباشرة؛ «إذ تخضع تسميتهم لعديد من المفاوضات والمشاورات، سواء فيما بين المخزن وممثّليه المحليين الآخرين من قواد وأشياخ مجاورين، أم أعوانه غير الرسميين كالأشراف. وتوازي هذه المشاورات العمودية مفاوضات أفقية محلية، فيما بين أعيان المجموعة المعنية، بتعيين القائد الجديد. ولا يكون التعيين في أغلب الأحيان سوى إضفاء الصفة الرسمية المخزنية على سلطة محلية واقعية سابقة على التعيين»[28].

خضع هذا الانتخاب لمجموعة من المعايير، منها معيار الثروة؛ ذلك أن هذا المنصب فرض على القائد مجموعة من الالتزامات المادية، وفي مقدمها «تحمل أعباء الخدمة المخزنية التي تلزمه بضيافة الموفدين والنازلين، ومرافقة المحال والحركات والالتحاق ثلاث مرات على الأقل بالقاعدة التي يوجد بها السلطان لأداء واجب التهنئة والهدية بمناسبة الأعياد الثلاثة»[29].

إن المجال الترابي «للمشروعية المخزنية أوسع بكثير، في كل الظروف، من المجال الذي يمثّله فيه عمال دائمون أو من المجال الجبائي... بيد أن مما يُغْني فهم البنية المخزنية تكيفها مع البنى الحضرية المتشعبة بالنواميس المكتوبة ومع البنى القروية العاملة بأعراف جماعية يقوم إنفاذها على آليات التوازن المتجدد على الدوام»[30]. وفي هذا السياق، لم يمارس المخزن سياسة ثابتة تجاه ممثلي القبائل من قواد ووسطاء، كما لم ينهج هؤلاء القواد المستوى نفسه من العلاقة مع مؤسسة السلطان. وتكفي الإشارة هنا إلى القائد ابن الغازي الزموري الذي عاصر كلًّا من المولى سليمان والمولى عبد الرحمن، وكان دوره أساسًا في إنجاح فاعلية التحالف الذي أقامه مع قبائل كروان وآيت يدراسن التي واجهت المولى سليمان عسكريًا، إذ أصبح أحد أبرز مستشاري المولى عبد الرحمن، وهو ما يدل على مرونة تغيير المواقع والمواقف تجاه السلطة المخزنية.

---

(28) المودن، ص 257.

(29) المصدر نفسه، ص 255.

(30) مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد التوفيق (الرباط: جامعة محمد الخامس، 1995)، ص 23.

كان المخزن في أغلب الأحيان «عاجزًا عن المراقبة الشاملة لمجال الدولة السياسي، على الرغم من وجود امتدادات ومؤسسات ووسطاء قادرين على القيام بذلك. إن سلطة المخزن تتمظهر عبر تراتبات رمزية وإدارية بيروقراطية تطورت ابتداء من [عام] 1860»[31].

تعددت الحركات العسكرية في عهد الحسن الأول في كثير من المجالات الحضرية والقروية. واستهدف هذا التعدد تأكيد الوجود المخزني وتقريب كاريزماتية السلطة، وتوجيه إشارات «العز والصولة» إلى أعداء الخارج وحركات التمرد في الداخل. كما عرف هذا العهد تعدد العواصم وتنقّلها، ووظّف الحسن الأول ذلك كواحدة من الآليات الفاعلة لترويض المجال السياسي، «فكل عاصمة هي نقطة استدلال لحركة السلطان في المجال، ويرمز التعدد المكاني هنا إلى تعدد نقاط الاستدلال هذه؛ إذ كوّنت كلٌّ من مراكش والرباط ومكناس وفاس عواصم لعصر الحسن الأول»[32].

لم تكن الحركة وسيلة لجمع الضرائب، «بل كانت إدارة مخزنية متنقلة يعالج السلطان، بمناسبتها ومن خلالها، مشاكل مختلف مناطق البلاد معالجة مباشرة ... ولم يكتفِ الحسن الأول بالحركة كوسيلة لتدعيم سلطة الدولة المركزية ونشرها، بل أضاف إلى ذلك تقسيمَ البلاد إلى مناطق صغرى، عيّن على كل منها قوادًا وباشوات صغارًا»[33].

في الفترة الممتدة بين عامي 1874 و1875، نظّم المخزن الحسني محلة في اتجاه مدينة وجدة، وخلالها، وبمناسبتها «عين السلطان العديد من القواد، ومنهم الحاج بشير بن مسعود على قبيلة بني يزناسن، وحمو البوزكاوي على قبيلة بني بوزكو، والسهالي على قبائل المهايا»[34].

(31) الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث، 1844-1934 (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2005)، ص 142.

(32) بورقية، ص 29.

(33) عبد السلام الحيمر، النخبة المغربية وإشكالية التحديث (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001)، ص 115.

(34) Louis Arnaud, *Au temps des Mehallas, ou le Maroc de 1860 à 1912* (Casablanca: Editions Atlantides, 1932), p. 43.

على مستوى آخر، نقرأ مضمونًا آخر لمفهوم المخزن، خصوصًا لدى الرحالة الفرنسيين[35]، وفي مقدمهم بيير لوتي (P. Loti) الذي يمثّل وصفه للمغرب نقطة التقاء بين المجال الأدبي كنص إبداعي والمجال السياسي الاستعماري كهدف وغاية. فقد اختاره السفير الفرنسي باتنوتر[36] الذي كان في مهمة دبلوماسية إلى فاس في عام 1889، للقيام بهذا الدور.

كان لوتي مقتنعًا بذلك، ولا غرابة أن نتفق مع إدوارد سعيد عندما يعدّ الإنتاج الأدبي، على الرغم من قيمه الجمالية، نصًا استشراقيًا خالصًا، وُظّف لخدمة طموحات استعمارية محددة.

أتقن لوتي ميزة الوصف في كثير من إبداعاته الأدبية السابقة، وبالتالي ليس مستغربًا أن يلجأ إلى تقديم خدماته الوصفية للسفير الفرنسي باتنوتر، وإلى بدء كتابه بالعبارة الآتية:

«... أيها المغرب المعتم، فلتبقَ دائمًا مغلقًا وعصيًا على الانفتاح على الأشياء الجديدة، ولتُدِرْ ظهرك لأوروبا ولتعش على ذكرياتك الماضية. نم طويلًا واستمر في حلمك القديم حتى تكون - على الأقل - البلد الأخير حيث يقوم الرجال بأداء صلواتهم... وحتى يحفظ الله للسلطان حدوده المنفلتة وقفاره المفروشة بالورود، وصحاريه المقفرة ليتمكن، عبر هذا الفضاء الشاسع، من نقل فرسانه والقيام، كما كان سابقًا، بمحاربة المتمردين وقطع رؤوس الثوار»[37].

---

(35) Roland Lebel, *Les Voyageurs français du Maroc: L'Exotisme marocain dans la littérature de voyage*, bibliothèque de culture et de vulgarisation Nord-Africaines (Paris: Librairie coloniale et orientaliste Larose, 1936).

(36) جرى سفر باتنوتر إلى فاس عام 1889 في أوضاع تخوّف الدبلوماسية الفرنسية من مؤازرة ألمانيا لتجديد التحالف الثلاثي بين إنكلترا وإيطاليا وإسبانيا، فدفعها ذلك إلى التخلي عن لغة التهديد العسكري، والاستعاضة عنه بأسلوب المناورة التي احتاجت إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن المغرب. وفي هذا الإطار كُلّف لوتي بمهمة الوصف/ التجسس.

(37) Pierre Loti, *Au Maroc*, présentation de Denise Brahimi (Paris: La Boîte à documents, 1988), p. 95.

وتماهى ويزغيربر[38] مع هذا النص، وصدّر به كتابه[39]، وحاول بشكل ميكانيكي التميز بين المسافة التي كانت تفصل بين المخزن والمنظومة القبلية، وقسم هذه الأخيرة ثلاث مجموعات:

إذا كانت المجموعتان الأولى والثانية مصنفتين ضمن ثنائية التبعية والانفصال، فإن الطبيب/الجاسوس يضيف مجموعة ثالثة سمّاها شبه مستقلة، ضمَّنها قبائل الأنجرة وجبالة، وآيت يوسي، وجزءًا من قبائل بني مطير، وكروان... ويضيف إليهم القواد الكبار أمثال الجلاوي، والكندافي، والمتوكي[40]. وتدل هذه الرؤية على انقسام في الذات المنتجة للخبر الوصفي، وفقدانها خاصية الموضوعية في أثناء مقاربتها قضايا رمزية السلطة المخزنية في علاقتها بالتشكيلات القبلية المتباينة. وتتضح عناصر الاختلال من ذكره بعض الوظائف التي كانت تقوم بها القبائل الريفية «المستقلة» في منطق ويزغيربر؛ فقد كانت «تنتخب من فقهائها قضاة يفصلون بين أهله في ما يحدث من النزاعات على وجه شرعي، وتلتمس من السلطان إقرارهم، فإذا اطمأن السلطان إلى كفايتهم بعث إليهم ظهائر يقرهم بها على خطة القضاء بالقبائل، ويسدي إليهم نصائحه وتوجيهاته. ومن هذه الظهائر ظهير يقر به السلطان مولاي الحسن الفقيه السيد الحسين بن أحمد ترينت على القضاء بقبيلة بني توزين - بدائرة الريف من إقليم الناظور - موصيًا إياه بالتسوية بين الخصمين والتزام مذهب الإمام مالك بن أنس في الأحكام»[41].

بخصوص قبائل الأنجرة، كتب أعيانها رسالة إلى وزير الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بطغيان مغربي محتم بالبرتغال وتعكيره صفو الهناء في

(38) ويزغيربر (F. Weisgerber) (1868-1946) : طبيب ألماني، كان يرافق المحلات المخزنية، وهو ما أتاح له جمع معلومات دقيقة عن الحوادث التي عرفها المغرب، خصوصًا في عهد المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ. وقد أشار إليه لويس أرنو عند حديثه عن محلة السلطان المولى عبد العزيز في عام 1897 التي كانت في مهمة في حدود تادلة والشاوية، وتكفّل بمعالجة مرض الوزير باحماد: Arnaud, p. 126.

(39) Frédéric Weisgerber, *Au seuil du Maroc modern*, notes et documents (Rabat: Les Éditions la Porte, 1947).

(40) المصدر نفسه، ص 96.

(41) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 463.

القبيلة، «يلتمسون منه أن يتخابر مع السفير البرتوكالي، بقصد وضع حد للتوتر السائد بالقبيلة بسبب هذا الشخص الذي يدّعي حماية دولته»[42].

إذا كان تاريخ العلاقة بين السلطة والقبائل تأرجح بين الاستقرار والفوضى، فهل التمرد والثورة، في منطق لوتي وغيره، دليلان على غياب الإدارة والدولة؟ ألم توجد الدولة لمواجهة التمرد والثورة، وضبط إيقاع التوازن المجتمعي؟ ألا تستدعي الانتفاضات، نظريًا، ضرورة وجود جهاز سياسي يُختلف معه في قضية من القضايا المتعلقة بالتسيير والتدبير؟ ألا يمكن القول أيضًا إن حالات «الانفلات الأمني» منحت السلطة مسوغات الوجود من خلال الحركات التي كانت تصنّف ضمن عمليات الضبط التأديبية ضد ما يمكن نعته، في الأدبيات المخزنية، «بالفُسّاد» (الخارجين على النظام).

من جانب آخر، كان المخزن يدرك، من خلال عيونه وجواسيسه، تفصيلات الخلافات والصراعات بين القبائل، فكان يتراخى أحيانًا في التدخل لحلها، بغية إيجاد حالة من الفوضى تستدعي تدخّله ووساطته، والاعتراف بدوره السياسي والرمزي. وكان الهدف الأخير، بالنسبة إليه، «إستتباب الأمن في ربوع البلاد، لأن سيادته تؤدي إلى الازدهار الذي يخلق فائضًا للقيمة، تدفع منه الضرائب»[43].

يمكن القول كذلك إن القبائل والزعامات المتنفضة كانت تروم لفت انتباه الدولة إلى مشكلاتها الأمنية والجبائية، الأمر الذي يدل في حد ذاته على عدم إمكان تجاوز أدوارها التاريخية. وكانت هذه القبائل والزعامات ترى في علاقتها بالدولة شرًا لا بد منه؛ وهكذا، فإن «جميع الصراعات التي خاضتها

---

(42) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 450-451. وقد أورد في آخر الرسالة (ص 451): «والآن أيها المحب ... تتكلم مع الجنس المذكور أن يزجره ويطرده، ويجعله في السجن لنبقوا على محلنا من الخدمة والهناء والسرور وغير خافٍ عليك ما نحن فيه من الهناء في هذا الوقت والحمد للّه..».

(43) مصطفى بوشعراء، علاقة المخزن بأحواز سلا: قبيلة بني احسن، 1860-1912، بحوث ودراسات؛ 19 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1996)، ص 64.

قبائل زمور مع المخزن كانت تبتدئ بمقاومة عنيفة وتنتهي بطلب الشفاعة»[44]. ولا شك في أن بعض منظّري «الاستقلال» عن الإدارة المخزنية، كانوا يثبتون الانتفاضة والفوضى ورفض الانصياع لقرارات السلطة، وينكرون من جهة أخرى، طلب الشفاعة، كرمز للتبعية والإلحاق الذي غالبًا ما كانت السلطة تقبله برضا وارتياح. وقريبًا من هذا المعنى استدرك لوتي، متحولًا من مجرد أديب انطباعي إلى واصف دقيق لقبائل زمور التي كانت في انتفاضة مفتوحة ضد حكومة فاس، «والسلطان نفسه عندما يرحل بصحبة 30000 رجل يتفادى منطقة استقرارها»[45]. فالقبائل الثائرة، بحسب لوتي، تعترف بسيادة السلطان، لكنها تنتفض ضد الضغط الضريبي الذي يمارسه القواد[46]. وعندما تتعرض قوافل المخزن وممثّليه للنهب، فلا يدل ذلك على الاحتجاج ضد السلطة، بقدر ما هو نفور من مستلزمات الانصياع لها، من قبيل أداء الرسوم الواجبة[47]. وبخصوص هذه المجموعة القبلية، احتاجت السلطة إلى تسيير إداري خاص اهتم بتعيين 21 قائدًا لكل مجموعة[48]، وهو تقسيم هدف إلى تحقيق أكبر درجة من الضبط المجالي لرمزية امتداد السلطة الإدارية، ومراقبة الأخطار التي يمكن أن تثيرها القبيلة أمام السلطة المخزنية.

لم يأخذ منحى العلاقة بين الدولة والقبائل اتجاهًا واحدًا؛ فإذا كانت حالات الفوضى موجودة ومثبتة في الأدبيات التاريخية، فإنها لم تمثل ناموسًا مستمرًا، يصح معه القول بوجود مؤسسة السيبا بشكل دائم ومستمر على مستويي المجال والزمن.

لم تكن التشكيلات القبلية المغربية تتطلع إلى الاستقلال، وكان تمردها يدل، في الحقيقة، على رفضها الوهن الذي أصاب أركان الدولة بفعل التسربات الأوروبية التي نالت من قدسية مؤسسة السلطان والدولة ورمزيتيهما؛

---

(44) Bourqia, «La Caidalité,» p. 138.

(45) Loti, p. 95.

(46) المصدر نفسه، ص 203-204.

(47) Rahma Bourqia, «Vol, pillage et banditisme dans le Maroc du XIXe siècle,» *Hespéris Tamuda*, vol. 29, no. 2 (1991), p. 263.

(48) Bourqia, «La Caidalité,» p. 132.

ويمكن القول إن انتفاضاتها لم تكتسِ طابع التنظيم، ولم تحمل مشروعًا مجتمعيًا وسياسيًا بديلًا من النظام القائم؛ فقبائل زمور التي اشتهرت بانتفاضاتها ضد المخزن الحسني، لم تتردد، بعد وفاة الحسن الأول، في إرسال وفد من القبائل المحلية يتألف من «ماتتي فارس، فتبرأوا أولًا مما شهدته مناطق الغرب من أعمال اللصوصية قبيل وفاة المولى الحسن، وهنّأوا ابنه وخلفه بالسلطنة وأعلنوا له خضوعهم، ثم رحّبوا باستعدادهم لضمان عبور محلة السلطان لأراضيهم إلى فاس في الأمان التام، وفي اليوم نفسه، تقدم وفد من قبيلة زعير فرفع التهاني وسلم الهدايا إلى العاهل الجديد»[49].

ظلت «شعرة معاوية» ممتدة بين المخزن والقبائل الثائرة، الأمر الذي يدل على وجود شكل من أشكال التعاقدات السياسية اللامرئية بين الطرفين؛ فكان بعض أهالي القبائل لا يتردد في تأجيج الاضطرابات «متى شعروا أن تدبيرًا سلطانيًا اتخذ لغير مصلحتهم أو لحرمانهم من حقوق اكتسبوها. وعلى العكس كانوا عونًا للسلطان في إطفاء نيران الفتن مقابل تحريرهم من الوظائف والإنعام عليهم بجزء من مال الدولة وبظهائر التوقير والاحترام»[50].

استطاعت الدولة المغربية تدبير عناصر الاختلاف بالحيل الدبلوماسية والرموز المعنوية والقوة المادية. ويبدو أنها استفادت، من ذلك، في الحفاظ على استمرارية رمزيتها، من خصوصيات هذه الفسيفساء التي اتسمت بالتنوع والتعدد، وأحيانًا بالصراع المادي والمعنوي، ما أفسح أمامها مجالًا واسعًا للمناورة على المستوى الداخلي.

تختلف المقاربات التي تناولت مفهوم المخزن/الدولة، من زوايا متباينة ومن خلال رؤى ومرجعيات ثقافية وأيديولوجية متعددة. وأحسب أن الحاجب الوزير باحماد تفوّق وأتقن بشكل كبير وصفَ هذه المؤسسة والعلاقات التي نسجتها، من خلال سلطة القواد، مع أطياف المجتمع المختلفة: «ففي إحدى

(49) خالد بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب، 1886-1904 (الرباط: دار أبي رقراق، 2003)، ص 373.

(50) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه (الرباط: المطبعة الملكية، 1984)، ج 1، ص 24.

أحرج اللحظات التاريخية التي مرّ بها المغرب السياسي، والمتمثّلة في وفاة المولى الحسن الأول والتهيؤ لمبايعة ابنه المولى عبد العزيز، وما صاحب ذلك من تكتمات ودسائس وصراعات، جمع الحاجب رموز الدولة وممثّليها على المستوى المركزي والإقليمي، ووجّه خطابه مباشرة إلى القواد، قائلًا: «فلتسمعوني جيدًا أيها القواد، ماذا نقصد بالمخزن؟ إنه خيمة كبيرة، تشبه هذه التي نجتمع داخلها اليوم، وتحتاج لبقائها قائمة ومقاومة للعواصف إلى كل دعاماتها الرئيسة: فالسلطان هو السارية المركزية، أو جذع شجرة الأرز الضخم الذي يرفع هذه الخيمة عاليًا. لكن مجموع الأوتاد المبثوثة في الجنبات التي تشدّ الحافات الممدودة وتمنع الرياح من رفعها هو أنتم أيها القواد..»[51].

بكلمات مقتضبة، وتصوير بارع ومعبّر، وبمرجعية البيئة المحلية، تدرك خصوصيات النظام السياسي، وحجم الأخطار المحدقة به، نجح باحماد في مقاربة مفهوم المخزن. ويأتي التعريف هنا من شخصية لا يمكن الجدال في شأن حنكتها السياسية وإدراكها لطبيعة النظام السياسي في المغرب وآلياته، في أثناء الفترة موضوع الدراسة. ولتوضيح «نظرية باحماد»، يمكننا القول إن بنية المخزن حملت صفات المرونة، بشكل يسمح لبناء الخيمة/ الدولة بالتموج والاهتزاز، من دون أن ينهار، وبتغيير قطع الغيار/ الأوتاد/ القواد، من دون النيل والمساس بالسارية المركزية/ السلطان. يمكن أن تحدث ثقوب في الخيمة، كما يمكن لزوابع رملية أن تؤثر في بعض أطرفها، أو تزيل بعض أوتادها، لكن سرعان ما يُتدارك الأمر بإصلاح الثقوب وتعيين القواد الجدد.

صحيح أن إصلاح الثقوب يذهب بالجمال الأصلي للخيمة، لكنه يحفظ لها وظيفتها الأصلية، ويبقيها قائمة ومحافظة على رمزيتها السياسية والمعنوية؛ كما أن فناءها الداخلي المرن يتسع للصراعات والخلافات الداخلية، بطريقة تحول دون اقتلاعها. ولا شك في أن السلطان/ الركيزة الأساس للخيمة شرط وجوب ضروري لبقائها منتصبة. وعندما يتوفى وتنتشر إشاعات حول وفاته، تجنح القبائل نحو الفوضى وعمليات السلب والنهب، كأنها بطريقة غير واعية ترغب في سلطان جديد يؤدّبها ويسوس أمرها. ولعل ذلك أحد الأسباب التي

(51) Arnaud, p. 86.

دفعت باحماد إلى التكتم على وفاة المولى الحسن الأول الذي كان في محلة في الجنوب، لأن انتشار خبر وفاته لم يكن يعني سوى القضاء على عناصرها وسلب ما في حوزتها من مال ومتاع.

ما نستنتجه من هذه الإشارات وجود نظام إداري خاص في داخل المغرب، أُسس على منطق تعدد أنساق ممارسة السلطة، آخذًا بعين الاعتبار الخصوصيات المحلية للمجتمع المغربي في أثناء عملية التنزيل والتنفيذ، وهي خصوصيات تميزت بتعدد الشركاء واختلافاتهم بحسب ثنائية القبيلة/ الزاوية. إلا أن هذا التعدد لم يكتس طابع الاستمرارية، والصفة المؤسساتية، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، الأمرَ الذي أفقده صفتي النضج والفاعلية المطلوبتين في عمليات الإصلاح الكبرى.

نكتشف من ثنايا هذه المقدمات وجود إطار لممارسة حكامة جيدة وفاعلة في المجال السياسي. وكان في الإمكان الارتقاء بهذه الممارسة نحو الأفضل لولا الوهن البنيوي الذي لازم مؤسسة السلطان التي افتقدت عناصر ضبط قواعد انتقال السلطة السياسية، وفي مقدمها تنظيم ولاية العهد بشكل مؤسساتي. فلم تكن مؤسسة السلطان، في أغلب الأوقات، منتوجًا مجتمعيًا يضمن لها عنصر الاستمرارية والفاعلية في قضايا التدبير المشترك لهموم الأمة وتطلعاتها، بل اقتصر الأمر ظاهرًا على بعض الفترات الاستثنائية، حملت في أثنائها السلطةُ المجتمعَ على مجاراة تصوراتها السياسية والأمنية، مثلما حدث في عهد المولى إسماعيل، حين تحكمت الهواجس الأمنية في رسم ملامح علاقة المخزن بالمجتمع. وتمثّلت أقوى صورها في تأسيس جيش العبيد ومسألة تجنيد الحراطين، وما سببته من محن للمعارضين والمخالفين.

لذا، لا نستغرب دخول المغرب بعد وفاة السلطان مباشرة في فوضى سياسية وأمنية واجتماعية عميقة، تبعثرت من خلالها عناصر الفضاء السياسي الداخلي لمدة طويلة لم تهدأ فيها عناصر الأزمة إلا مع عهد المولى السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790).

افتقد المغرب التراكمات العميقة التي تؤهله لبناء عقد سياسي كفيل بإعطاء مفهوم الدولة المعنى والغاية بالشكل الذي يجعل مفردات المجتمع

المختلفة منخرطة طوعًا في هذا البناء، ودافعة في جعله حالة مستمرة في المجال والزمن.

الملاحَظ هو أن أغلب المقاربات وظّفت مفهومها لسلطة المخزن بغية تبرير قضية من القضايا، من موقع الدفاع أو الهجوم. وقمين بنا اليوم جرد مختلف الوثائق والمراسلات لمعرفة حدود سلطة المخزن من زاوية الناظر إلى نفسه والمنظور إليه؛ فإذا كانت الآراء السابقة تندرج ضمن موقع المنظور إليه، فلا بد من تقديم مشروع إجابة حول زاوية الناظر لنفسه، بإثارة سؤال أساس: كيف كان المخزن ينظر إلى ذاته في قضية ممارسة السلطة على امتداد فترة المولى الحسن الأول والمولى عبد العزيز؟ ويستدعي ذلك أيضًا جرد النصوص والوثائق الوسيطية التي تمثّل العمق الحقيقي لمعضلة تشكّل الدولة ووظائفها، والعلاقات التي نسجتها مع أطياف المجتمع، ومدى مساهمتها في تحقيق التراكمات الكفيلة بتأسيس خيارات التعاقد المجتمعي داخل بنية الدولة.

نتحدث اليوم عن عجز الدولة والأحزاب عن تحقيق التمثيلية المجتمعية، كما نشتكي من نفور القطاع العريض من الشباب عن المشاركة السياسية والانخراط الطوعي في مسلسل التنمية الداخلية. ويبدو أن الخلل موجود وكامن في عمقنا التاريخي الطويل، وفي نمط العلاقة التي أُسست بدايةً على أسس غير تعاقدية. لذا نحتاج إلى ممارسة حفريات عميقة في تاريخنا وذاكرتنا، والتقاط عناصر الفعل الإيجابي في علاقة الدولة بالمجتمع والبحث عن أنماط التواصل الكفيلة بترسيخ مفهوم الدولة المواطنة.

إن ما يهمنا من مختلف هذه التصورات هو الإقرار بوجود نظام إداري سياسي وإداري خاص بالمغرب. صحيح أنه كان عتيقًا، وفي حالة صراع وسلم مع بعض القبائل لأسباب جبائية وأمنية، لكنه كان موجودًا ويمارس سلطته المادية والرمزية، ومثّل الجهة الوحيدة التي تكفّلت بعملية الإصلاحات، ومنها إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، بل إن «جميع تدابير الإصلاح المتخذة آنئذٍ بالمغرب، الجسيمة منها والتافهة، كانت على يد الدولة وحدها، إن لم تكن على يد السلطان بصفته فردًا»[52]. وإذ نفصل في بنية المؤسسة المخزنية

(52) جرمان عياش، «إمكانيات الإصلاح وأسباب الفشل في المغرب،» في: الإصلاح والمجتمع =

وتحولاتها، نتوخى من ذلك البحث وتقليب أوجه النظر في أبرز مؤسسة أشرفت على عمليات البعثات التكوينية نحو الخارج؛ ذلك بأن نُجوع هذه الآلية التحديثية مرتبط بالعقلية أو الذهنية المخزنية المؤطرة لها والمستثمرة نتائجها؛ فقد عرف المخزن الحسني في فترة حكم الحسن الأول تحولات في صورته وشكله، حين «انتقلت الوزارة المغربية من شكلها العتيق إلى شكل ديواني حكومي بالمعنى الحديث»[53].

يبدو أن الجهاز المخزني لم يكن منسجمًا في مواقفه من القضايا الناجمة عن سياسة الانفتاح أمام مظاهر التحديث الغربي. وقد ميّز مييج داخل الجهاز المخزني بين تيارين: الأول: «تقليدي معادٍ للانفتاح على أوروبا، وكان يخشى – في اعتقاده – من التحولات المهدِّدة للبِنية المجتمعية التقليدية، وكان يفضّل انغلاق المغرب على نفسه»[54]. وكان لهذا التيار موقف معارض من توجيه البعثات التعليمية إلى بلاد أوروبا، ومنهم وزير المالية محمد بنيس والحاجب موسى بن أحمد ورئيس العبيد البخاري المكلف بالسفارات الجيلالي بن أحمد، بالإضافة إلى النائب السلطاني في طنجة محمد الخطيب[55]. والتيار الثاني: «ليبرالي» منفتح على أوروبا ومتحمس لاستلهام منتوجاتها وتنظيماتها العسكرية والإدارية، وأبرز من مثّله النائب السلطاني في طنجة محمد بركاش والكاتب إدريس بن إدريس العمراوي ومحمد الصفار الذي أصبح وزيرًا في عهد المولى محمد الرابع وابنه الحسن الأول[56].

لكن إلى أي حد يمكن الحديث عن تيارات حقيقية فاعلة داخل الإدارة المخزنية؟ ألم تكن مجرد أسماء وأوراق تفاوضية في يد السلطان يناور بها في أثناء ممارسة الفعل السياسي والدبلوماسي؟ سؤال يحتاج إلى حفريات

= المغربي في القرن التاسع عشر: أعمال الأيام الدراسية المنعقدة بالرباط من 6 إلى 9 رجب 1404/ موافق 20-23 أبريل 1983، ندوات ومحاضرات؛ 7 (الرباط: جامعة محمد الخامس، 1986)، ص 360.

(53) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي، ط 4 (الرباط: مطبعة الرسالة، 1980)، ص 85-86.

(54) Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894*, 4 vols. (Paris: Presses universitaires de France, 1961-1963), vol. 3: *Les Difficultés*, p. 109.

(55) عبد السلام الحيمر، «المغرب والحداثة،» أبحاث، العدد 26 (1991)، ص 45.

(56) المصدر نفسه، ص 45.

في منطق العقل السياسي لمؤسسة السلطان في المغرب للكشف عن ثوابته وتحولاته على امتداد فترات زمنية تعود على أقل تقدير إلى فترة الدول العصبية في العصر الوسيط.

تأسس أسلوب الممارسة السياسية على منطق استغلال التناقضات بين مكوّنات المخزن المركزي. وعرف هذا الأخير صراعًا مريرًا بين أسرتين عريقتين، هما آل ابن موسى البواخر الذين احتكروا خطة الحجابة، وأولاد الجامعي الذين تعاقبوا على الصدارة الوزارية؛ «وبذلك خلق بهم المخزن نوعًا من التوازن في جهازه المركزي الذي كان البواخر يهيمنون على جل مناصبه»[57].

أدرك الحسن الأول الطموح الجارف الذي كان يسكن حاجبه موسى بن أحمد، كما تنبّه للدسائس التي كان يحيكها في الخفاء لإبعاد محمد بن العربي، وهو ما جعله يلتفت إلى أخواله أولاد الجامعي من أجل «التخفيف من نفوذ البواخر وتفتير صهدهم في الجهاز المركزي من أجل خلق توازن في دواليبه»[58].

لكن، ألم تتسبب هذه المناورة في لغُم الحياة السياسية في المغرب، خصوصًا بعد وفاة الحسن الأول، وانقضاض الحاجب السلطاني على شؤون الأمر والنهي داخل دواليب السلطة المركزية، مستغلًّا حداثة سن المولى عبد العزيز؟

استمرت الصراعات بين الزعامات السياسية داخل المخزن العزيزي، فصُنّف الوزير المنبهي ضمن خيارات الانفتاح والعصرنة، واشتهر بانتصاره للمقاربات الإصلاحية الإنكليزية، وانتهت مغامراته السياسية بالارتماء في أحضان الحماية الإنكليزية.

لم تنتج الدولة المغربية تقاليد سياسية راسخة، ولم تحقق نضجًا كافيًا

---

(57) عبد الرزاق الصديقي، «أولاد الجامعي بين اتساع السطوة وانهيار الحظوة،» البحث التاريخي: مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، العدد 2 (2004)، ص 43.

(58) الشابي، ص 31.

لممارسة أنماط إدارية فاعلة بين القاعدة المجتمعية والقمة السياسية؛ فقد نشأ شرخ عميق في بنية الدولة منذ فترة العصر الوسيط، وطرأت قطائع على مستويات أفقية وعمودية، يمكن اعتبارها حدودًا فاصلة، أسست للمراحل المتعاقبة منذ زمن الدول العصبية؛ فقد تنكرت قبيلة مصمودة للإرث المرابطي، وحملت بشدة على رموزه ومعالمه الحضارية إلى حد يمكن القول إن تاريخ دولة لمتونة قُرئ وأُعيد إنتاجه بأعين البيدق وعبد الواحد المراكشي، وغيرهما. من جهة أخرى، أسس المرينيون دولتهم على أنقاض دولة مصمودة، فغيّروا النِحلة والمذهب، واستماتوا في تبرير حكمهم السياسي، من خلال المنابر التعليمية المختلفة.

كانت الدولة تريد من المجتمع أن يساير تصوراتها السياسية والثقافية، واستعملت لتحقيق ذلك الترغيب والترهيب، ومثلت بذلك بنية فوقية متعالية، سرعان ما تهاوت في لحظات الوهن التاريخي، من دون أن تجد سندًا مجتمعيًا يجنّبها لحظات الانهيار.

في مقابل ذلك، استفادت الدولة في اليابان من عمق تاريخي متميّز وفريد على المستوى العالمي؛ ذلك أن أسرة إمبراطورية واحدة حكمت اليابان منذ العصور التاريخية القديمة إلى الفترة المعاصرة، فتوافر لها بذلك نضج تاريخي واستمرارية رمزية ومعنوية شكّلت ملاذًا آمنًا للمجتمع الياباني في فترات الاضطراب والفوضى الأمنية والعسكرية.

أما في المغرب، فانكشفت عناصر الانفصام بين الدولة والمجتمع بوضوح من خلال التحديات الخارجية التي كشفت عن وجود أزمة بنيوية عميقة، سرعان ما تبعثرت أجزاؤها عند أول احتكاك عسكري مع القوات الفرنسية في عام 1844.

ثانيًا: المخزن بين الضغط الأوروبي وخطاب الإصلاح الداخلي

مثّل الضغط العسكري الأوروبي أهم تحدٍّ واجهه المخزن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وإذا كان المغلوب مولعًا باتّباع الغالب - كما قال ابن خلدون - فإن المخزن أصيب في عام 1844 بصدمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العلاقات بين الطرفين. وقد نجح هذا الضغط في إخراج المخزن، في

بداية الأمر، من حالة الكبرياء الزائفة التي ظل يراها في نفسه ردحًا من الزمن، عندما أغلق أبوابه أمام مظاهر التحديث القريبة منه، بحجة التنزه عن مخالطة أهل الكفر الذين تمكنوا من قرع أبوابه بشدة، وإيقاظه من سبات طال أمده واشتدت وطأته. وعندئذٍ أدركت النخبة حجمها الطبيعي ومنزلتها في عالم يؤمن بلغة العلم وبفلسفة القوة والانتصار.

لم تكن الطموحات التوسعية الفرنسية في المغرب وليدة تلك الفترة الزمنية، بل برزت على مستوى التقارير الاستخباراتية المحكمة خلال البدايات الأولى من القرن التاسع عشر، كما ارتبطت بشدة التنافس الإمبريالي بين القوى المتنافسة، وفي مقدمها فرنسا وبريطانيا؛ فنابليون لم يكن مطمئنًا لسياسة المولى سليمان عندما أقدم هذا الأخير على خطوات اعتبرتها فرنسا مصدر تهديد لمصالحها الاستراتيجية في المنطقة، ومنها الامتيازات العديدة التي منحها المولى سليمان للإنكليز، وفي مقدمها السماح لهم بحرية التجارة عبر موانئ المغرب، «ورفضه الاعتراف بجوزيف بونابرت ملكًا على إسبانيا»[59]، وهذا ما يدل على أن المغرب لم ينهج سياسة عزلة دائمة ومستمرة عن أوروبا، مثلما حدث في اليابان في أثناء ما يسمّى فترة العزلة الطوعية التي دامت نحو 250 عامًا، وأن القضية ارتبطت بمقاصد شرعية رأت في المغامرات الفرنسية في مصر في أثناء الحملة الفرنسية المشهورة وتهديد الجزائر، إيذانًا بتعريض السيادة الوطنية للخطر، ويمكن تأكيد جدية نابليون في طموحاته التوسعية في المغرب، عندما صرّح: «أعلمت ملك المغرب، أنه في حال رفضه تزويد سبتة بالمؤن، أو قيامه بأدنى محاولة للنيل من المصالح الفرنسية، فإنني سأجتاز إليه بجيش قوامه 200000 رجل..»[60]، ولعل ذلك ما أشار إليه محمد الضعيف، وفسر عدم وقوعه، قائلًا: «وأراد (نابليون) الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز، وإلى طريفا والخزيرات وضع قنطرة من اللوح ليقطع عليها، ثم خاف من الإنكليز لأنه لم يتَّفق معه على ذلك»[61].

---

(59) François Charles-Roux et Jacques Caillé, *Missions diplomatiques françaises à Fès* (Paris: Larose, 1955), p. 27.

(60) المصدر نفسه، ص 28.

(61) محمد بن عبد السلام بن أحمد الضعيف، تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، 1986)، ص 342.

في هذا الإطار، مثّلت مهمة بيريل أنموذجًا متميزًا لجمع المعلومات واستثمار زخم الرحلة التي اكتست طابعًا تجسسيًا محترفًا. ونقرأ بدايات المهمة في الرسالة التي وجّهها نابليون إلى الدوق الكبير، في 16 أيار/مايو 1808، محدِّدًا طبيعة العمل الذي سيتكفّل بيريل بإنجازه: «تجدون طيه رسالة إلى سلطان المغرب. والمطلوب منكم تكليف ضابط ذي ذكاء متميز للذهاب إلى سبتة، ومن هناك إلى طنجة، حيث سيرافقه القنصل، ثم يتوجه إلى فاس، ويقدم مباشرة، إلى السلطان رسالتي هذه؛ وعليه التنسيق مع القنصل الفرنسي في شأن الخطوات الواجب اتخاذها للتخلص من التأثير الإنكليزي.

عليه ملاحظة التفصيلات في فاس، وعلى امتداد الطريق برؤية دقيقة للأشياء. كما يُتوقع منه إعداد تقرير عن طبيعة التحصينات، ونوعية التضاريس، والقوات العسكرية، والساكنة المحلية. وأخيرًا عليه أن يمدّني بجميع ما يهمني من الناحية العسكرية»[62].

تجلى هدف المهمة في «إعاقة العمليات التجارية الإنكليزية، وحرمان الإنكليز من التسهيلات المقدمة إليهم على السواحل المغربية لتموين جبل طارق... وتقديم التسهيلات نفسها إلى الحكومة الفرنسية»[63].

يلاحظ متأمل طبيعة التقرير الذي أنجزه الجاسوس الفرنسي انضباطه التام لتوجيهات نابليون، فجاء متن رحلته مليئًا بالمعلومات والتفصيلات الدقيقة في المجالات التي حددتها التوجيهات السابقة، وهي صفة تميز قواعد العقلية الرأسمالية القائمة على اقتصاد الجهد بجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات، مهما بدت صغيرة وتافهة، لتوظيفها في أي مشروع استعماري مستقبلي؛ فقد وصف بيريل جميع ما بدا له مهمًّا، كطبيعة المناخ وفئات السكان ونمط العلاقات... إلخ. وفي أثناء حديثه عن طبيعة التسلح المخزني، حدّد نوعية البنادق القديمة، وطريقة حملها، ومكان صنعها، كما وصف بدقة أدوات حمل ذخيرة البارود والرصاص، ودقّق في طريقة تعبئة

(62) Jacques Caillé, *La Mission du capitaine Burel au Maroc en 1808* (Paris: Arts et métiers graphiques; Rabat: Institut des hautes études marocaines, 1953), p. 27.

(63) Raymond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire*, 2ème éd. (Paris: Firmin-Didot frères, 1845), p. 380.

الذخيرة، والمدة التي تستغرقها، وهي بحسب ملاحظاته «تتم خلال ثلاث أو أربع دقائق»[64].

لم تكن القوة الغربية، في إطار علاقتها التوسعية على حساب البلدان المستضعفة، قائمة على قاعدة التفوق الذاتي فحسب، بل ركزت جهدها أيضًا على مراكمة أكبر قدر ممكن من المعلومات، بطريقة احترافية وموضوعية.

على الرغم من قيمة التقرير الذي قدمه بيريل، يؤكد موليراس في كتابه **المغرب المجهول** (*Le Maroc inconu*) الصادر عام 1895، قلة المعلومات المتوافرة عن المغرب، وقدّم بطاقة الجزء الأول من مصنّفه بما يلي: «22 عامًا من التنقيب في مجابهة غامضة»[65] وذكر في مقدمته: «اعتمدت في وصف المغرب الذي بدأته بنشر الجزء الأول من الكتاب، على الملاحظات المباشرة من دون الارتكاز على مصادر خارجية...، وجميع المعلومات التي أقدمها هي معلومات جديدة، اعتمدت في تدوينها على رحالة مسلمين ظنوا أني مسلم مثلهم، فلم يبخلوا عليّ بالمعلومات»[66]. وأشار بذلك إلى من سمّاه محمد بن الطيب الجزائري: المسلم الذي ظنَّ إسلامَ موليراس، عندما تكلم الأخير بالعربية والأمازيغية، وتحدث باحترام عن الإسلام والنبي وكبار الصحابة[67].

قدم الرحالة الجزائري[68] المادة الخصبة لمؤلَّف موليراس الذي اقتفى

(64) المصدر نفسه، ص 66-67.

(65) Mouliéras, *Le Maroc inconnu* (1895).

(66) المصدر نفسه، ص 17.

(67) المصدر نفسه، ص 8.

(68) قال موليراس عن محمد بن الطيب: «بدأ هذا الطالب التائه حياته متجولًا في أرجاء المغرب فاجتازه في الاتجاهات كلها.. على مدى 22 عامًا (1872 إلى 1893)». انظر: Mouliéras, *Le Maroc inconnu* (1895), premiére partie, p. 10.

وأضاف قائلًا: «احتفظ هذا الرجل بجغرافية المغرب في ذهنه، وهناك ذهبتُ للبحث عنها، وبها نقبتُ للحصول على مئات الأماكن والقبائل والأنهار والجبال... وداخلها بقيت محفورة التقاليدُ والعاداتُ والأجناس واللهجات والسكان والقوات العسكرية والثروات الغابوية والزراعة والمعادن.. وقد سمحت له طبيعة شخصيته الثلاثية كمتسول وطالب ودرويش برؤية دقيقة لجميع فئات المجتمع المغربي..» (ص 11). ويُبرز الأماكن التي أمضى فيها عيد الأضحى من عام 1872 إلى عام 1893 (ص 40).

آثار الدرويش الجزائري في رحلته في أرجاء المغرب، محاولًا بذلك منح الجِدَّة للمعلومات التي ضمّنها مؤلَّفه. واشترط في تحقيق هذه المعرفة ضرورةَ الإلمام والإحاطة بالتفصيلات التي تؤطّر الذهنية المغربية من حيث اللغة والدين والعادات والتقاليد[69]، وحدد هدفين أساسين في مسيرته العلمية: معرفة الجار الغريب (المغرب)، وإدخاله في دائرة النفوذ الفرنسي[70].

على الرغم من انتقادات موليراس، تستحق العناصر الاستخباراتية التي وفرها بيريل التتبع والملاحظة؛ فقد «ساهمت مذكراته، بشكل إيجابي، في معرفة حقيقة الأوضاع في المغرب عند بداية القرن التاسع عشر»[71]. كما تفسر بعض أسباب الصدمة العنيفة التي تلقاها الجيش المخزني عام 1844؛ فقد كانت عورته مكشوفة، ومقدماته معلومة لدى صنّاع القرار السياسي والعسكري الفرنسيين.

استنتج العماري ثلاثة عناصر حاسمة، تفسر الانتصار الكاسح الذي حققته الجيوش الفرنسية في معركة إيسلي، وحدّدها في:

- تنظيم الجيش في المعركة بطرائق حديثة؛
- توفير أسلحة متفوقة على المغرب؛
- اعتماد عنصر المفاجأة في القتال[72].

---

(69) قال موليراس: «للتوغل والتنقيب داخل المغرب وفي أركانه الصغيرة، يحتاج المغامرون الأوروبيون إلى علمين ضروريين من أصل واحد، وهما معرفة حسنة باللغة العربية وإدراك جيد للدارجة المغربية. إلا أنهما غير كافيين، ويتطلبان الحديث بالعربية باعتبارها اللغة الأم ... وحفظ القرآن عن ظهر قلب والقدرة على ترتيله بقواعده الثابتة وبرنّة عربية سليمة، والمعرفة الدقيقة بسُنّة الرسول وصحابته، وإلقاء دروس دينية عن الإيمان والرسل والأولياء... ومعرفة عناصر الفقه الإسلامي، وإمامة الناس في الصلاة، وحضور الجنائز مع ترديد سور من القرآن وأشعار جنائزية مع الفقهاء». انظر: Mouliéras, *Le Maroc inconnu* (1895), p. 3.

(70) المصدر نفسه، ص 5.

(71) Caillé, p. 32.

(72) أحمد العماري، نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار: المغرب أنموذجًا، سلسلة الرسائل الجامعية: قضايا الفكر الإسلامي؛ 20 (فيرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997)، ص 271.

على الرغم من قيمة الشروط التي ذكرها العماري، ملخصًا ما ذكره الأعرج السليماني، تبدو أهمية المعلومات التي استُقيت على فترات متباينة وأسست مقدمات الانتصار الفرنسي، وتعتبر مهمة بيريل حالة متقدمة في هذا المجال.

وقد أشار ليون روش من جانبه إلى الدور الاستخباراتي، الذي سبق الحملة الفرنسية، وقدّر عدد الجنود المغاربة بنحو 50000، منهم 3000 من الأودايا و3000 من البخاري، والبقية من القبائل الحدودية[73]. وكان الأوروبيون يراكمون المعلومات ويستثمرون التقارير، بينما كنا منشغلين بدرء المفاسد، وإنكار الالتفات إلى مقدمات العلم النظري التي أسست لعناصر الغلبة في معركة النزال الحضاري. ومن غير المقبول نسبة هذا النمط من الاجتهاد، في هذا الوضع التاريخي بالذات، إلى مرجعية الإسلام وحضارته. كما لا يُستساغ الحكم على فكرة الإسلام من منطلقات هذا الواقع المأزوم الذي اشتركت في إنتاجه جميع بلدان العالمين العربي والإسلامي؛ فالقضية برمّتها ترتبط بأزمنة التراجع والذهنية التي كانت سائدة آنئذٍ. وما يمكن تأكيده هو أننا لم ندرأ مفسدة ولم نجلب مصلحة.

كانت هزيمة إيسلي «باعثًا للشعب المغربي ونخبته على التدبر والتفكير في أسباب الهزيمة وظروفها، فقد انتبه المغاربة منذ الساعة إلى أن الأنظمة العتيقة في الجيش وفي الدولة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوروبي الحديث»[74]. وقد ساهمت الهزيمة في اكتشاف علل الذات المكلومة، أمام قوة منظمة، لم يبين فيها المخزن عن ضعفه وتفككه فحسب، بل «إنه ظهر في وجه هزلي بلباسه وعدّته وطرائقه التقليدية في الحرب والنزال أمام جيش قوي وعصري»[75]؛ فبحس استراتيجي متميز، حلّل أبو عبد الله السليماني، بتفصيل ودقة، مقدمات المعركة وطبيعةَ الخطة الفرنسية المحكمة، وختم بالإشارة إلى التقاء الجمعين حيث دارت الجيوش المغربية بالجيوش الفرنسية «حتى صارت منها بمنزلة

---

(73) Léon Roches, *Dix ans à travers l'Islam, 1834-1844* (Paris: Librairie académique Didier, 1904), p. 465.

(74) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 85-86.

(75) سعيد بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، الفكر المعاصر؛ 3 (فاليتا: مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992)، ص 27.

السوار من المعصم، وحينذاك أمر الضابط الفرانساوي بإطلاق المدافع من جميع الجهات إطلاقًا متتاليًا وبلا إمهال، دام هذا العمل نحو ثلاث ساعات واختل مصاف المراكشيين وتشتتت جموعهم في كل وجه. ومحلة الضابط لم تبرح -كما كانت- مكانها المعيّن لها»[76]. وإذا كان السليماني يحلل الحوادث التاريخية من وجهة نظر تهدف، في الأخير، إلى اكتشاف العلل والتأسيس لمبدأ الإصلاح، فإن الشاوي يحمل على مصدر معلوماته ويشكك فيها، قائلًا: «كما يرجح في اعتقادنا أن المؤلف - السليماني- اعتمد بصورة قاطعة على الرواية الشفوية، وفي أحسن الأحوال على تقييد إخباري لا يسمح بالتحليل والاستنتاج، الأمر الذي حدّ من تصوره للأمور، كما جرت في ظروفها العامة، زد على ذلك أن معركة إيسلي جرت قبل ازدياد [ولادة] المؤلف بنحو ثلاث وعشرين سنة»[77].

أورد الشاوي حكمَه هذا، تاركًا تساؤلات تشكك في ما ذهب إليه من أحكام، وما أورده من دلائل وبيّنات. ويكفينا الرد على ذلك بإثارة تساؤل، يتمحور حول كيفية التعامل مع المعلومات والشهادات والروايات التاريخية، التي وُلد مؤلفوها بعد ثلاثين سنة من وقوع الحدث. ولنتصور إذ ذاك حجم لائحة المؤرخين والإخباريين والجغرافيين الذين ستسري عليهم ضوابط الكتابة التاريخية ومعانيها لدى الأستاذ الشاوي، بدءًا من ابن خلدون، ولسان الدين ابن الخطيب، وابن عذاري، والناصري، والمشرفي، والشريف الإدريسي والبكري وغيرهم كثير، عندما يتحدثون عن قضايا تمتد مئات، بل آلاف السنين من زمن إنتاج نصوصهم التاريخية؛ كما أن الانسياق وراء هذا الضابط وتبنّي هذا الاستنتاج/ القاعدة يشككان في ما ذكره ابن خلدون عن المرابطين والموحدين، وما قيده الناصري بخصوص المرينيين والسعديين... إلخ.

اشتهر الأعرج السليماني بممارسته التجارة بعد تلقّيه نصيبًا وافرًا من العلم

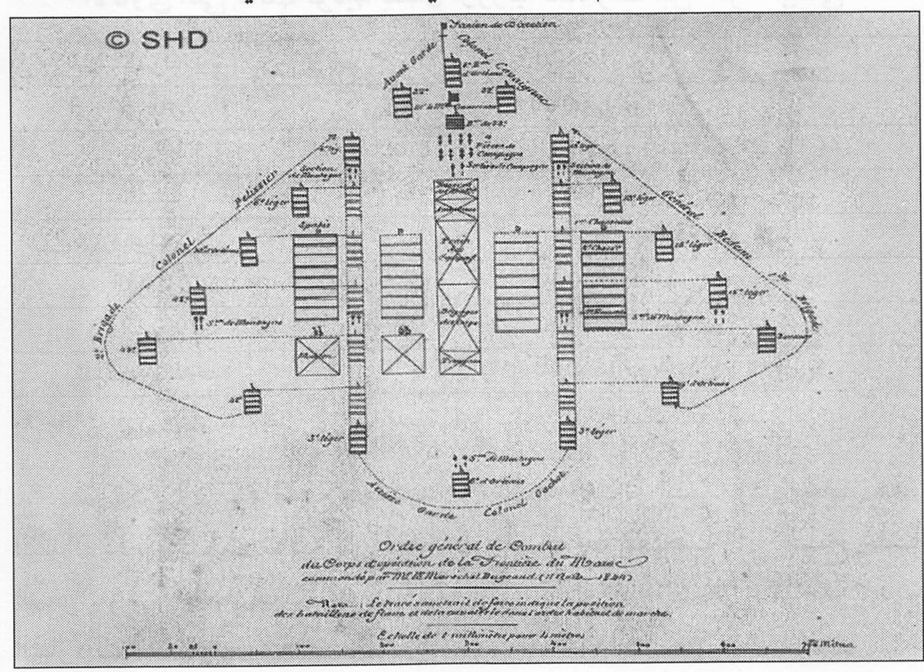
(76) محمد بن أحمد بن الأعرج السليماني، اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي حول المغرب (الرباط: مطبعة الأمنية، 1971)، ص 137.

(77) عبد القادر الشاوي، «التخلف والنهضة أو المغرب والغرب،» بصمات، العدد 5 (1990)، ص 37.

بمدينة فاس، فكانت وسيلته للاتصال بالمثقفين في الجزائر والمغرب[78]، وكان مطلعًا على مفاهيم القوة الغربية الاقتصادية والسياسية والمجتمعية. وانبنى وصفه لمجريات معركة إيسلي على قواعد إخبارية تحليلية، توضح المعلومات وتفسر الحوادث بأسلوب استراتيجي متميز، بعيد عن الصناعة الإنشائية، وتؤسس لمبدأ الانتصار الحضاري. ويتضح من الوثيقة المرفقة[79] التصميمُ الحربي الذي نهجته فرنسا في مواجهة الجيش المغربي، وهو تصميم مكّن الفرنسيين من إطلاق «المدافع من جميع الجهات إطلاقًا متتاليًا وبلا إمهال»[80]، بتعبير الأعرج السليماني.

الصورة (1-1)

التصميم الحربي الفرنسي في معركة إيسلي



---

(78) عبد الرزاق بنواحي، «دراسة وتحقيق «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ» لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني، 1285 هـ - 1344 هـ، 1868 م- 1925 م،» (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1997)، ص 25، تعريف المحقق.

(79) <http://www.servicehistorique.sga.defense.gouv.fr/01decouverte/expovirtuel/maroc/popups/bataillleisly/islyordre.htm>.

(80) ابن الأعرج السليماني، **اللسان المعرب**، ص 137.

اكتشف المخزن بعد هزيمة إيسلي عمقَ أزمة مؤسسته العسكرية، وأضحى يرى أكثر من أي وقت مضى «أن حرب النظام واجب على هذه الأمة»، خاصة بعد نتائج الاتفاقات التي أعقبت وقعة إيسلي، ومنها أن «أغلب القناصل الأجانب أبلغوا وزراء المولى عبد الرحمن بعدم رغبة حكوماتهم في دفع الإتاوات»[81] التي اعتاد المخزن أخذها منهم منذ القرن السادس عشر. وذكر الناصري، إجمالًا، أن السلطان أسقط «على الأجناس ما كانت تؤديه»[82]. وانطلاقًا من مصادر أجنبية، يمكن تحديد حجمها كالآتي[83]:

الجدول (1-1)

الأتاوى التي كانت تؤديها بلدان أوروبية للمغرب قبل معركة إيسلي

الدولة	الإتاوة (سنويًا)
بريطانيا	10.000 دورو*
إسبانيا	10.000 و12.000 دورو (عند تغيير القنصل)
النمسا	10.000 سكوين**
هولندا	15.000 دورو
الدانمارك	15.000 دورو
السويد	20.000 دورو
الولايات المتحدة	15.000 دولار

ملاحظات: * دورو = عملة نقدية جزائرية قديمة. ** سكوين: من المسكوكات الذهبية التركية

لم تكن الهزيمة مادية فحسب، بل كانت معنوية أيضًا. ودل رفض هذه البلدان دفع ما كانت تؤديه إلى المخزن على درجة الضعف التي أصبح عليها المغرب، في مشهد العلاقات الدولية؛ وكان ذلك إيذانًا بدخوله مرحلة تقديم التنازلات.

حاول الناصري من جانبه التلميح إلى بنيوية الأزمة العسكرية، قائلًا:

---

(81) Fillias, p. 80.

(82) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، 9 ج (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954-1956)، ج 9، ص 54.

(83) Fillias, p. 89.

«... فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهر خيولهم، فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش، لا يملك من أمرهم شيئًا، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم، وحياء من الأمير، وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح، ففروا عن السلطان المولى سليمان في وقعة ظيان... وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه، لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة محمد بن عبد الرحمن وقعة إيسلي جاءوا بها شنعاء غريبة في القبح»[84].

كانت الأزمة بنيوية، ترتبط بطبيعة العلاقة التي نسجتها مؤسسة القرار السياسي المخزني مع عقلية الإقطاع العسكري، منذ زمن الحذر والاحتراز، كما قال الناصري، أو ربما في أثناء تأسيس الدول العصبية في فترة المرابطين ثم الموحدين.

من جانب آخر، أورد المشرفي خبر هزيمة إيسلي بصفة تقريرية تسجيلية، قائلًا: «وكانت من أعظم المصائب على المسلمين، وأكبر المحن على هذه الدولة الشريفة، وأول إهانة لقبائل المغرب»[85]. وتابع مضيفًا: «وبعد وصول الخبر إلى المولى عبد الرحمن، ساءه فعل الجيش وانهزامه ونهب محلته، فعمد بذلك إلى قواد المحلة وكبراء الجيش وأمر بحلق لحاهم وسخط عليهم»[86].

دل هذا الإجراء الذي قامت به السلطة السياسية على طبيعة الذهنية التي فقدت الوسائل الكفيلة بتحقيق الإصلاح الفاعل والإيجابي، ولم يجد السلطان وسيلة سوى حلق اللحى والسخط على القواد والكبراء من الجيش. ولنتصور حجم الإصلاح الذي كان مقدرًا للمغرب أن يعيشه لو أن المولى عبد الرحمن عمّم هذا الإجراء - حلق اللحى، والسخط على أفراد الأمة - على مجموع القبائل المغربية، فما كان حجم التغيير والإصلاح اللذين كانا سيحصلان؟

---

(84) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، 2 ج، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 1، ص 17.

(85) محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة؛ تقديم أحمد التوفيق، 2 مج (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2005) مج 2، ص 81.

(86) المصدر نفسه، ص 81.

من زاوية أخرى، نقرأ تفسيرًا يقترب من التنظيرات الاستعمارية، وهو الذي ذكره أبو العباس أحمد الرهوني[87]، قائلًا: «وحاصلها، أن الدولة الفرنسوية، لما استولت على الجزائر عام 1264 هجري، 1830 ميلادي، واحتلت تونس في عام 1289 هجري و1882م، وأسست في الولايتين المذكورتين المدنية العصرية، وأكملت فيهما أسباب الحضارة، وكان مقتضى الطبع البشري التشوف لصون ما جاوره، وبث أسباب الحضارة والتمدن فيه، وكانت هذه الإيالة لا زالت على بكارتها، لم يدخلها شيء من التمدن العصري، خافت فرنسا من إهمالها أن تعدي الإيالتين ببداوتها، فتهدم صروح التمدن التي بنتها فيهما، فرأت من الحزم النظر في العواقب والتأمل في ضم الإيالات الإفريقية إلى بعضها حتى يعمها نظام واحد»[88]. وتدل هذه القراءة الخلدونية المعكوسة لقواعد «العمران» الفرنسي على خاصية القابلية للاستعمار، والانهزام الذاتي في مقاربة الظاهرة الاستعمارية، التي بدأت ملامحها الإجرائية بعد هزيمة إيسلي وآثارها النفسية والمادية.

نحتاج في قراءة تاريخنا وكتابته إلى روح نقدية، تنقض الأطروحات الاستعمارية وتؤسس لخيارات تثوير ذاكرتنا الوطنية. فلم تكن الظاهرة الاستعمارية التي بدأت ملامحها مع هزيمة إيسلي قدرًا محتومًا يستحيل دفعها، بل كانت مشكلتنا مع ذاتنا المتخلفة التي لم تكن تؤمن بالانتصار الدائم والمؤسس. وتجلت هزيمتنا في عدم القدرة على التقاط عناصر القوة المتوافرة وتوجيهها نحو الفعل الإيجابي والفاعل.

---

(87) أبو العباس أحمد الرهوني، ولد في تطوان في 8 جمادى الأخيرة 1288هـ/ 1871م، وتوفي في 15 ربيع الثاني 1373هـ/ 1953م. درس العلوم الإسلامية في تطوان وفاس، واشتغل في تطوان بالعدالة والفتوى والتدريس، والتأليف في مختلف العلوم. كان يُعَدّ من الطبقة الأولى من علماء العصر في المغرب. عاصر المولى الحسن الأول، وتعرف إلى الحوادث الجسيمة التي عرفها المغرب في عهد المولى عبد العزيز وعبد الحفيظ. تأرجحت مواقفه من الحماية، خصوصًا الإسبانية منها، بالتشدد والتعايش. كُلّف مهمة وزير للعدلية في أول حكومة خليفية (1913-1923)، وعُزل بسبب ما قيل عن خطبة ألقاها، داعيًا من خلالها إلى الجهاد. وقد اشتهر بانتمائه إلى دائرة التصوف التيجاني، و«قضى السنوات الأخيرة من عمره منبوذًا من أصحاب السلطة والجاه، مبعَدًا من الوظائف العلمية، منزويًا في بستانه خارج تطوان، بعيدًا عن الخلق، منقطعًا لعبادة الله». بتعبير تلميذه محمد داود، انظر: محمد داود، تاريخ تطوان (تطوان: [د. ن.]، 1960)، ج 1، ص 57.

(88) أحمد بن محمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، سلسلة تراث؛ 6، ط 2 (تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2001)، ج 2، ص 111.

على مستوى آخر، تسببت معركة إيسلي في كسر معاني التضامن المغربي - الجزائري وواقعه، واعتبرته التقارير الفرنسية إنجازًا متميزًا للدبلوماسية الفرنسية المشفوعة بالقوة العسكرية[89]. ورأت «في القبض على الأمير عبد القادر إحدى النتائج العملية لاتفاق 1844»[90].

ضمن هذه الرؤية، أوضح الناصري دعم المولى عبد الرحمن لمقاومة الأمير؛ فقد «أعجبه حاله، وحسنت منزلته عنده ... فصار يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة»[91]. بيْدَ أن معركة إيسلي وما نجم عنها من اتفاقات قلّصا هذا الدعم، وفرضت «المصلحة الوقتية» ضرورة التعامل الحذِر مع المسألة الجزائرية. علاوةً على ذلك، انسجمت كتابة الناصري مع هذا المستجد، فذكر «فساد نية الحاج عبد القادر، وأنه رام الاستبداد، بل والتملك على المغرب»[92]، مسوغًا بذلك مشروعية الموقف الجديد للمخزن المغربي.

على الرغم من هذه الملاحظات، أرجع مارتن بيرسون نيلسون النجاح الذي حققته مقاومة الأمير عبد القادر، بشكل كبير إلى السند المغربي[93]. كما أن الهزيمة التي لحقت بالقوات الجزائرية على يد الجنرال بيجو نتجت أساسًا من عمق الوهن الداخلي الذي تميزت ملامحه في تبعية الكثير من القبائل الجزائرية وانحيازها إلى طابور الجيش الفرنسي، وهو ما سجله بيجو في تقريره المستعجل[94] قبيل معركة إيسلي، حيث أشار إلى قيام بعض القبائل

---

(89) Joseph-Othenin-Bernard de Cléron Haussonville, *Histoire de la politique extérieure du gouvernement français, 1830-1848*, 2 vols. (Paris: Michel-Lévy frères, 1850), vol. 2, pp. 56-70.

(90) المصدر نفسه، ص 63.

(91) الناصري، ج 9، ص 44.

(92) المصدر نفسه، ص 56.

(93) Martin P. Nilsson, *The Minoan-Mycenaean Religion and its Survival in Greek Religion*, Acta Regiae Societatis Humaniorum Litterarum Lundensis; 9 (New York: Biblo and Tannen, 1950), p. 116.

(94) ترجمة نص رسالة بيجو إلى اللغة العربية:

«لم أتلقَّ جوابًا من ابن السلطان مولاي عبد الرحمن عن رسالة بعثتها إليه، بعد إنذاره لنا بإخلاء للا مغنية إن أردنا تحقيق السلام.

تتزايد قواته يوميًا بانضمام متطوعين جدد، ومع القوة يتزايد الخيلاء. كما يتم الحديث علنًا داخل =

الجزائرية بمد القوات الفرنسية بالمؤن قبيل مواجهتها الجيش المغربي في عام 1844.

أسست هزيمة إيسلي المقدمات الأولى لإثارة سؤال الإصلاح بشدة وإلحاح، ولم تكن رحلة الصفار سوى واحدة من محاولات اكتشاف أسباب الهزيمة بالتعرف إلى المقدمات التنظيمية التي كانت وراء تقدم الآخر وتمكّنه من زمام المبادرة التحديثية؛ فقد كلّف رحالتنا تعليل أسباب الهزيمة من خلال الوصف الدقيق للمرافق السياسية والعسكرية والاقتصادية، فجاءت رحلته منفذة لهذا الدور، وتجاوزته إلى إثارة أسئلة الإصلاح وضرورة الإجابة عن التحديات. وقال أحد الباحثين إن «الصفار كان أكثر واقعية عندما اعترف بتفوق الجيوش الأوروبية بسبب تنظيمها وحسن تدريبها، وتأسف على انحلال أمر المسلمين، لكنه وقف عند هذا الحد ورفض إضافة 'ولماذا لا نستفيد من نجاحهم؟'»[95]، وهو قول لا يستقيم مع روح الرحلة ومضمونها التي تمت في وقت دقيق بعد هزيمة إيسلي، ولا مع طبيعة الرجل الذي لم تنحصر مهمته في الوصف الميكانيكي للأشياء المادية والمعنوية لدى الأمة الفرنسية وساستها وعلمائها؛ بل إن الصفار حمل معه هموم التحديث المغربي، وهو يصف السجالات السياسية في الجمعية الوطنية الفرنسية، ويقر بحسن تنظيم الإدارة والجبايات ونشاط المجتمع وحيويته. ونود هنا فحص الأمر من خلال إثارة التساؤلات الآتية:

= المعسكر المغربي عن ضم تلمسان، ووهران ومسكرة وحتى الجزائر. إنها مناسبة صليبية حقيقية لإعادة إرساء التعامل مع المسألة الإسلامية.

إنهم يعتقدون عجزنا عن مقاومة تجمّع كبير من الفرسان المغاربة المشهورين، وأنهم ينتظرون لمهاجمتنا وصول المشاة المتطوعين من بني يزناسن والريف، والذين سيتكفّلون بمناوشتنا عبر الجبال التي توجد عند سفوح للا مغنية؛ في حين يقوم ركب ضخم بمحاصرتنا من جهة السهل.

لقد أوجدت الأيام التسعة الماضية المتسمة بعدم الوضوح، اضطرابًا في النفوس. وفُسر عدم ردة فعلنا بالخوف. وقامت الفرق المعادية بمهاجمة قوافلنا في جماعة الغزوات في تسع مناسبات، كما أن رغبة القبائل التي تنظمها آخذة في الأفول. كما هاجمت كتيبتا استطلاع بالقرب من للا مغنية مراكزنا الأمامية. ويمكن أن يؤدي استمرار حالة التشكيك في قوتنا ورغبتنا في مواجهة الأعداء الذين نواجههم أمامنا، إلى...». نقلًا عن:
<http://www.servicehistorique.sga.defense.gouv.fr/01decouverte/expovirtuel/maroc/popups/batailleisly/bugeaudp1.ht>.

(95) محمد المنصور، «النخبة المغربية والحضارة الأوروبية في القرن 19،» أمل، السنة 2، العدد 4 (1993)، ص 60.

أليست أوصاف الرحلة التي اتسمت بالدقة والتفصيل، وحملت معالم الإعجاب والتقدير، مرآة عاكسة للإخفاقات المغربية في المجالات التي ذكرها الصفار، ودعوة إلى تجاوزها نحو الأفضل والأقوم؟ ويكفي هنا أن نشير إلى ما لفت انتباهه من آليات النظام المالي بفرنسا، حين قال: «وليس لهم بيت مال يجمعون فيه المال كما عندنا، بل يقدرون الداخل والخارج ويساوون بينهما، أو يفضل الشيء اليسير. وإن قصر الداخل عن القيام بالخارج، استنبطوا وجوهًا أخرى للدخل، حتى يكون فيه كفاية قيام بالخارج..»[96]. أليس في ذلك تلميحًا إلى علل الإدارة المالية المخزنية، ودعوة إلى تأمل التجربة الفرنسية واستلهام إيجابياتها؟ ألم يقم رحالتنا بالمقارنة بين الأنموذجين المغربي والفرنسي، باستخدام صريح لعبارة: كما عندنا؟

إن الرحلة «سفرة في مكان الآخر، ولكنها كذلك سفرة في مكان الأنا، الشيء الذي يمنح مفهوم الرحلة طابعًا مركّبًا وجدليًا، فأنت ترحل إلى الآخر، لكنك ترحل إليه بمكانك وزمانك»[97]. ولا شك في أن رحلة الصفار مثّلت أنموذجًا واضحًا في جدلية الأنا والآخر، خلال تلك المرحلة الحساسة من تاريخنا، عندما صدمنا الغرب بتفوقه العسكري والتنظيمي والتقني، وحاولت اقتفاء مرامي الرحلة الأوروبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي غلب عليها طابع التجسس ومراكمة المعلومات والتقارير.

مثّلت هزيمة إيسلي مقدمة أساسية حتّمت إعادة ترتيب الأسئلة، وتوجيه الأجوبة، واستثمار المعلومة؛ وأكد الكردودي أن الجيش المغربي، في سياق تسويغه لهزيمة إيسلي، لم تكن له «معرفة... بحقائق الحروب وأوصافها، ولا علم عنده بتفاصيل أنواعها وأصنافها»[98]، وأن الحمية الدينية والغيرة

(96) محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفار، صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846، دراسة وتحقيق سوزان ميلار؛ عرّب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 225.

(97) عبد النبي ذاكر، الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، ص 44.

(98) انظر: المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ص 23.

الإسلامية هما اللتان دفعتاه إلى تأليف كشف الغُمَّة ببيان أن حرب النظام واجب على هذه الأمة. وقد اشتمل على «صفة الحروب وأسبابها وموجبات الظفر والهزيمة وآدابها، مع ما تتوقف عليه من الشورى والعدّة وأحوال الجند التي ينتظم بها عقد الجماعة...»[99].

لم يقتصر الكردودي على وصف دقة التنظيم العسكري وفاعليته لدى الأوروبيين، بل التفت إلى قضية لا تقل أهمية، وتتصل بالمسألة السياسية، حيث نستنتج من تلميحاته إعجابَه بالأنظمة البرلمانية في أوروبا وتركيا القائمة على أساس الشورى، «فلا يبرم أمر عندهم إلا إن صدر عن رأيهم وإشارتهم»[100]. وفصل الصفار في وصف البنية التشريعية الفرنسية وتحليلها، فخصص فقرة خاصة عمّا سمّاه بالقُمرتين الكبيرة والصغيرة[101]، ففي القمرة الصغيرة، يحضر «وكلاء الرعية يبعثونهم من سائر البلاد وعددهم أربعماية ونيف. ويشترط فيهم وفيمن ينتخبهم شروط معلومة عندهم...، ولا يمضي قانون من قوانينهم ولا حكم من أحكامهم، إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة والكبيرة، والسلطان ووزراؤه. وأما أحكام النوازل والجزئيات فهي عندهم مدوّنة في الكتب ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام»[102].

يكشف التأمل في خطاب/ رحلة الصفار عن ذهنية مخزنية، حملت معها، وهي تحلل عناصر القوة السياسية لدى الآخر، هموم الوهن الذاتي، وعلامات الفشل، ممثلة في غياب مؤسسات سياسية كفيلة بتمثيل الأمة والتأسيس لمشروع مجتمعي حقيقي، ذي فاعلية ونجاعة على صعيد ممارسة تنموية إيجابية.

نكتشف من ثنايا الخطاب كذلك - أَوَعى الصفار ذلك أو لم يَعِه - نقدًا مبطنًا لمؤسسة السلطان التي احتكرت قضايا الأمر والنهي على المستويات

---

(99) المصدر نفسه، ص24.

(100) المصدر نفسه، ص 25.

(101) يعني بالقمرة الكبيرة مجلس النبلاء (Chambre de Paris) والقمرة الصغيرة مجلس الشعب (Chambre des deputes). ويبرز من ثنايا رحلة الصفار وغيره مشكلة ترجمة مصطلحات سياسية وعلمية وثقافية. وكان يحتفظ أحيانًا بنطقها الأصلي كالتياترو، والكوازيط.

(102) الصفار، ص 213-214.

الداخلية والخارجية، ولم تتقيد بأحكام النوازل والجزئيات بمدوّنة الكتب التي تحول دون استقلال السلطان وحده بحكم من الأحكام، إذا استعرنا عبارته الأخيرة.

أحدثت هزيمة إيسلي رجّة فكرية ونفسية حقيقية، تباينت حول سبل فهمها ومدافعتها الآراء والاجتهادات؛ فإذا كانت فئة من النخب دعت إلى الجهاد بالسنان والحسام، فإن بعضها الآخر رغب في الاستعداد بتقوية الذات، والكشف عن عللها المزمنة، والتأسيس لعناصر القوة المختلفة. وشارك إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي في رحلة سفارية إلى باريس عام 1860، وكان ذلك بعد هزيمة تطوان، وعبّر عن إعجابه بما سبق أن ذكره الصفار في رحلته؛ ففي حديثه عن آلة التلغراف، قال: «وقد أخبرنا رئيس المحل أنهم في أربع دقائق يكتبون أخبار كثير من الأقاليم من بر العجم واصطنبول والهند والشينة ومصر وتونس والجزائر والماركان والنجليز وغير ذلك كأنهم حاضرون فيها»[103]. فيبدي صاحب النص إعجابه بتقانة الآخر المتقدم والمخالف في الدين، ويقع في إشكال يمكن صوغه كالآتي: إذا كان الفرنسيون/ الغربيون انتصروا وامتلكوا وسائل التمكين الدنيوي على الرغم من فساد معتقداتهم الدينية، فلماذا انهزم المغاربة/ المسلمون وهم أصحاب العقيدة الصحيحة؟ وكان المخرج بالنسبة إليه كالآتي: «وفيه أدل الدليل على أن أمورهم بلغت الغاية، وتجاوزت النهاية، وأنه في الحال يعقبها الانحلال، وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال»[104].

في العام نفسه، أوفد المولى محمد بن عبد الرحمن وفدًا سفاريًّا إلى إنكلترا[105]، وتطابقت انطباعات محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي مع

(103) إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي، تحفة الملك العزيز (طباعة حجرية، الخزانة الملكية، الرباط، 1232)، ص 60.

(104) المصدر نفسه، ص 62.

(105) محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة 1276 هـ/ 1860م، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، الرحلات؛ 3 (الرباط: جامعة محمد الخامس، 1967)، ص 1، ويقول في بداية متن رحلته: «... اقتضى نظره السديد (المولى محمد بن عبد الرحمن) ...أن يوجه رسولًا... إلى جنسي - الفرنسيس والنكليز - واختار لذلك طائفتين، طائفة وجّهها إلى ريز، وطائفة إلى اللندريز، فكان من قدر الله أن اختارتني الفرقة الذاهبة إلى اللندريز ...».

ما سجّله إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي حين قال: «والحاصل، أنهم – دمرهم الله – يستعملون أشياء تُدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك ... كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منها غوابط، وفيه إشارة إلى أن طيباتهم عُجّلت لهم، وذلك نصيبهم وحظهم...»[106]. وفي موضع سبب اكتشاف الطاقة البخارية، عقّب قائلًا: «... لأن العقل على قسمين، ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلًا في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية، كالإيمان بالله وبملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله...»[107].

يمثّل النصان هروبًا من الجواب الحقيقي وتأويلًا غير ملائم لواقع الأزمة. وكان الأولى إثارة سؤال القوة الذي دُعي العقل الإسلامي إلى الإجابة عنه بالاستعداد والرد على التحديات الغربية. والأكيد أن الرحلة إلى الديار الغربية أثارت إشكالًا ما فتئ يتكرر منذ العصر الوسيط ويتمحور حول سفر «الأنا» بعيون المرجعية الثقافية المحلية، واكتشافها خلل موازين القوى الدنيوية الذي كان يُسوَّغ بثنائية الدين والدنيا، ولا شك في أن هذا الخطاب استبطن مظاهر العجز التقني والعلمي أمام قوة الغرب وتنظيماته الحديثة.

تسببت الهزائم العسكرية في إحداث زلزلة نفسية عميقة تطلبت البحث عن المخارج والحلول؛ فقد وزع محمد العربي بن محمد الهاشمي الحسني العلوي المدغري (المتوفى عام 1892) في عام 1863 منشورًا مطولًا، حرّض فيه على الجهاد، كما بعث في عام 1887-1888 بالرسل إلى سائر الجهات المغربية، يستنفرون الناس إلى الجهاد، «فلما رأى .. من الحزم أن يشارك السلطان بالرأي السديد، أرسل له بعض أصحابه الملحوظين عنده بالتأييد، بعد أن عوّل على الخروج في فصل الربيع، فأضاف السلطان الرسول نحو شهرين، ولم يرجع من عنده إلا بخفّي حنين»[108]. ومن تلاميذه الذين اقتفوا

---

(106) المصدر نفسه، ص 19.

(107) المصدر نفسه، ص 28.

(108) انظر: المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 1، ص 351-352.

تعاليمه أبو العباس أحمد بن الهاشمي الذي ألَّف تحفة الراغب في السعادة في الترغيب لطلب الشهادة، وآداب الغزو وحكمه وفضل الشجاعة. وهي دعوة صريحة إلى نبذ أطروحة موازين القوى، والأخذ بأسباب النصر. وفي مقابل ذلك، لم يجد بعضهم الآخر بُدًّا من التعامل الواقعي مع ميزان القوى الداخلي والخارجي. ويُعتبر علي بن محمد السملالي السوسي[109] من أبرز ممثّلي هذا الاتجاه، وقال إن «الحَرَب الذي بين أيدينا باد وصار كالعدم، والواجب على الإمام أن لا يتقدم إلا بعد أن يتعلم الحرب الذي حدث، فيأتي بمثله، وإن أمكن له بالزيادة ليتحقق له الغلب فليفعل»[110].

ارتبطت القضية بفكرة الاستعداد، وأخذ حظ وافر من علم الحروب والمواجهات؛ ولم يكن المغرب حينئذٍ على دراية بحرب النظام ومستلزماتها. واعتبر السملالي رأي السلطان راجحًا عندما تتباين المواقف تجاه مبدأ الجهاد. وهكذا، فكل «ما تختلف الأحكام فيه باختلاف المقاصد فلا يفتى فيه بأقوال العلماء، بل باجتهاد الإمام»[111]. وينتقل السملالي من حالة التنظير إلى طور الكشف عن الإجراءات العملية للسلطان الحسن الأول، فلما رأى «أن أمر الجهاد يؤدي إلى مفسدة عظيمة تؤدي إلى قطع الدين، فقال بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين لازم، لأن جده ووالده أمرا بالجهاد، فأكل المسلمون بعضهم بعضًا»[112]. وهكذا يتحول السلطان من موقع ممارسة السلطة الزمنية إلى دائرة الحسم في أمر الفتوى الدينية التي توازن بين المصالح والمفاسد، وتنتصر لخيار «الواقعية» الفقهية والسياسية.

إنه الاستعداد الذي قال به مجموعة من ممثلي دائرة العلم والفتوى ودعوا

---

(109) علي بن محمد السملالي، (توفي 1311هـ/ 1893م). كان شاعرًا ونسابة ومؤرخًا، قرّبه السلطان محمد الرابع، ثم أبعده السلطان الحسن الأول. عيّنه السلطان محمد الرابع أستاذًا مدرّسًا للعلوم بالقصر الكبير، واضطلع بمهمة الدعوة إلى التحديث في آثاره وكتبه.

(110) علي بن محمد السملالي السوسي، «الجواب عن مولانا الحسن في من قال له مالك لم تجاهد في سبيل الله،» (مخطوط خ.ح. رقم 30)، والعماري، نظرية الاستعداد، ص 302.

(111) العماري، نظرية الاستعداد، ص 302.

(112) علي بن محمد السملالي السوسي، منتهى المنقول ونهاية العقول، والعماري، نظرية الاستعداد، ص 304.

إلى الأخذ به. وفي هذا الإطار ألّف الغالي اللجائي[113] مقمع الكفرة بالسنان الحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام، ردًّا على الاستشارة/ الاستفتاء الذي تقدم به السلطان محمد الرابع إلى زمرة من العلماء، في شأن تنظيم الجيش المغربي على الطريقة الحديثة. وجاء في مؤلَّف اللجائي: «... والآلة والاستعداد المطلوبان في هذا الزمان هما ما يقاتل العدو الكافر - دمره الله وأهلكه - بهما المسلمين، من حرب النظام ومدفع ومتعلقاتهما... لأن من لم يقاتل بما ذكر في هذا الزمان، فقد وقع في الإخلال بالاستعداد والسلاح، فيلحقه الوعيد...»[114]. كما ألّف في الموضوع محمد بن محمد الفلاق السفياني تاج الملك المبتكر ومداده من خراج وعسكر، والناصري السلاوي، وغيرهم.

أجمعت هذه الإجابات/ التوجيهات على ضرورة الاستعداد لحرب النظام، من ترتيب الجيوش، واستعمال السلاح الناري والبارود والمدافع. وتؤصل تفسيرات هذا الاتجاه تسويغاتها بالنصوص الفقهية من قرآن كريم وسُنَّة مطهَّرة. ويبدو أننا أمام كمٍّ معتَبر من التنظيرات والتنظيرات المضادة، تتعدد من خلالها الأسئلة، وتختلف الأجوبة من هذا الطرف وذاك.

أصبح المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جزءًا من أدوات الاستراتيجيا الغربية، تحركه نحو الوجهة التي تلائم مصالحها القومية. وعبثًا حاول المخزن استغلال التناقضات الأوروبية لتأخير سقوطه النهائي في عام 1912.

في اللحظة التاريخية نفسها، كانت يابان الميجي تتحرك من داخل النسق الاستراتيجي الغربي. وتحت الضغط وممارسة القوة، استجابت لأسئلة القوى الغربية، ولكنها كانت تؤسس، بهدوء وتأنٍّ، استراتيجيتها الخاصة التي كانت تتوخى منها تقويض الاستراتيجيا الغربية السابقة، وجعلها تساير باحترام وندّية المعادلة الجديدة التي أقامها مجتمع النيبون.

---

(113) الغالي اللجائي، توفي في 1289هـ قام بمهمة الإفتاء والتدريس بفاس، وتقلد خطة القضاء في مدينة وجدة.

(114) انظر: المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 1، ص 338.

أما في حالة المغرب، فيبدو أن القضية لم تنتهِ عند حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بل امتدت إلى البدايات الأولى للقرن العشرين، حين أضحت معالم النفوذ الإمبريالي في المغرب حالة موضوعية لا يمكن الاختلاف في تحديد معانيها التوسعية والاستعمارية؛ فقد ردّ الحجوي سبب الهزيمة إلى «عدم وجود ضباط مدرَّبين على الحروب ... وإنما الذي كان يقود تلك الجيوش الجرارة [هُم] ضباط أمّيون غالبًا لا يقرأون ولا يكتبون ولا معرفة لهم بجغرافية الأرض»[115]. وفي مقابل ذلك، بدأت تتضح للنخبة المغربية حقيقة القوة الغربية القائمة على العلم التطبيقي ومقدماته النظرية.

بعد هذا الجرد المركّز لنظريات المواجهة والاستعداد، أيمكننا البحث عن الصفة التي استقبل بها المخزن هذا الخطاب الإصلاحي، وعن حدود توظيفه في دائرة الفعل التحديثي؟ سؤال يمكن الإشارة إلى مقدمات جوابه في الباب الخاص بالبعثات التعليمية كإحدى أبرز وسائل الإصلاح في عهد الحسن الأول، ونربط ذلك بالسؤال الآتي:

ألم تكن البعثات التعليمية إلى بلدان الغرب الرأسمالي إحدى أبرز الوسائل التي اعتمدها المخزن الحسني لإنتاج النخب المخزنية القادرة على تنفيذ مقتضيات نظرية الاستعداد، بمعرفة تقنيات حرب النظام وأدوات المواجهة العسكرية الحديثة؟

لم يهتم المخزن بوضع قواعد دبلوماسية متينة تضمن له عوامل الاستمرار والفاعلية في حلبة النزال الحضاري، بل كانت رهينة بعض الأوضاع السياسية الخاصة والطارئة، وكانت مرتبطة بشخص السلطان والخيوط التي يحركها في هذا الاتجاه أو ذاك. في هذا الموضع نثير تساؤلًا عن الفرضيات والاختيارات التي كان على المغرب مواجهتها قبيل معركة إيسلي، وعمّا إذا كان في الإمكان تجنب المواجهة العسكرية. وغرضنا من ذلك هو الكشف عن ثوابت السياسة الخارجية المخزنية وقت الأزمات. في هذا الإطار، أشار ليون روش إلى أن

---

(115) انظر: محمد الصغير الخلوفي، انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي أنموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين (الدار البيضاء: مطبعة المعارف، 1994)، ص 36.

المارشال بيجو كتب في 6 آب/أغسطس 1844 إلى مولاي محمد قائلًا: «... أطلب منك للمرة الأخيرة جوابًا واضحًا بشأن الشرطين اللذين أثرتهما كقاعدة سلام متين بيننا منذ وصولي إلى الحدود، وهما:

الاعتراف بالحدود كما كانت موجودة زمن السيطرة التركية بين المغرب والجزائر.

إبعاد الأمير عبد القادر عن الحدود»[116].

وقال الأعرج السليماني، صاحب زبدة التاريخ ... إن سفير فرنسا في طنجة ألح «في طلب الترضية...، وكان نظر الفرانسويين يرمي لتجسيم القضية، للتوصل إلى القبض على الأمير عبد القادر ليس إلا»[117].

رفض المغرب بشدة هذين الشرطين، ولم تكن القوة العسكرية والسياسية تدعم موقفه هذا. وكان في إمكان المناورات والدسائس السياسية والحيل الدبلوماسية أن تجنّب المواجهة وتحقق بدائل لصون البلاد، بيْد أن تطورات الحوادث دلت على عدم صوابية موقف الدبلوماسية المغربية حين اضطر المخزن، بعد المعركة، إلى تنفيذ الشرطين السابقين وأكثر.

لم يكن العمل الدبلوماسي المغربي فاعلًا ومنتجًا، بل تأسس على مقولات تنتمي إلى ماض اندثرت معالمه منذ زمن المنصور والمولى إسماعيل والسلطان محمد بن عبدً الله. ونشأ خلال القرن التاسع عشر واقع دبلوماسي جديد يؤمن بفلسفة القوة وتحكيمها في نسيج العلاقات الدولية؛ ومما لا شك فيه أن المغرب مثّل الحلقة الأضعف في منطق التوازن الدولي، وانحاز مع ذلك إلى أداء دور الكبار فكانت النتيجة كارثية بجميع المقاييس.

عرف اليابانيون، بعد حملة بيري، قدرهم ومستواهم فتعاملوا بمقتضاهما وضروراتهما، واستعدوا لبناء القوة وامتلاك أسبابها؛ وتمكنوا في وقت وجيز من الرد على التحدي الغربي وتلقينه درسًا في القوة، وتبوأوا مكانة محورية في رسم مفردات السياسة الدولية في الشرق الأقصى إلى حدود الحرب العالمية الثانية.

---

(116) Roches, p. 466.

(117) بنواحي، القسم 2، ص 375.

أما في ما يخص المغرب، فيمكن القول إن «اتساع سلطات ونفوذ أمير المؤمنين غالبًا ما مكنته من احتواء النخبة، ومن ثم تهميش وظيفتها وتحويلها إلى مجرد أداة لتبرير 'تجاوزات' السلطان وشرعنة قراراته»[118]؛ فبعد هزيمة إيسلي، أرسل أشعاش إلى باريس، وكان السفير «جليل المقام ذا خبرة ودراية بالشؤون العامة، وفي حوزته ثروة مالية تعفي المخزن من تحمّل التكاليف الباهظة التي تستلزمها السفارة»[119]. ويبدو أن الثروة كانت من المقاييس الأساسية في اختيار رئيس الوفد السفاري. وقد توجه عبد الرحمن بن هشام برسالة إلى عبد القادر أشعاش قائلًا: «... وكنا استشرنا والدك - رحمه الله - في حياته فوافق على ذلك، وقال: إن كان يتوجه أحد غيره يحتاج إلى تقويمه بما يحتاج إليه وإن كان توجه بنفسه لا يحتاج لشيء...»[120].

ما كاد المخزن يصحو من صدمة إيسلي حتى اختلقت إسبانيا أسبابًا «اقتضت قيام الفتنة بين حامية سبتة وقبيلة الأنجرة، فعُيّن لفصل قضية الأنجرة الفقيه الزبيدي والفقيه الخطيب... فتهور الزبيدي - بحسب السليماني - في مخابرته مع سفير إسبانيا مع جهله عواقبها وفقده لوازمها»[121].

أثار أمامنا الأعرج السليماني، صاحب اللسان المعرب، إشكالية أخرى تتعلق بضعف الأداء الدبلوماسي المغربي، وحمّلها أسباب هزيمة تطوان، وهي ضعف نجد مؤشراته في كثير من محطات الفعل التفاوضي بين ممثلي المخزن والقوى الأوروبية بدءًا باتفاق للا مغنية وطنجة، واتفاق 1856 مع بريطانيا، وانتهاء بمؤتمر مدريد لعام 1880 الذي أسس لتدويل المسألة المغربية؛ فقد انتفض السلطان ضد توقيع اتفاق الحدود مع فرنسا[122]، وحمل بشدة على من فوّض إليهم توقيع الاتفاقات مع فرنسا.

---

(118) سمير بلمليح، «معضلة الإصلاح والمجتمع عبر تاريخ المغرب الحديث،» وجهة نظر، العدد 23 (خريف 2004)، ص 27.

(119) الصفار، ص 30.

(120) مجموعة الوثائق، العدد 2 (1976)، ص 75-76.

(121) ابن الأعرج السليماني، اللسان المعرب، ص 36-37.

(122) ممّا جاء في رسالة وجّهها المولى عبد الرحمن بن هشام إلى الطالب بوسلهام بن علي، في 1261هـ/ 1845م، «وبعد، فإن حميدة بن علي عامل وجدة مع الطالب أحمد الخضر خدعهما نائب عدو الدين فيما كلفناهما به من الوقوف معه على الحدود، وغرهما على عادته بترهاته وبذل الطمع، حتى أدخل في الحد طرفًا وافرًا من بلاد قبائل إيالتنا السعيدة لناحية بلاد إيالة الجزائر..».

انظر: مجموعة الوثائق، العدد 1 (1976)، ص 487.

يبدو أن الخلل ظل كامنًا في عمق المؤسسة والممارسة الدبلوماسية التي عدمت وجودَ أشخاص يتمتعون بالكفاءة ويرومون الانتصار للقيم الوطنية. كما أن مؤسسة السلطان تتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية في منح التفويض المطلق في أثناء إنجاز المهمات المصيرية والاستراتيجية لأشخاص يفتقدون قيم المواطنة الإيجابية.

لم يكن الزبيدي دبلوماسيًا محنكًا في نظر الأعرج السليماني، بل تسبب في إدخال المغرب في متاهة الحرب مع إسبانيا مع ما نتج منها من مآسٍ وسلبيات. وأكثر من ذلك، كان المخزن يجهل عواقبها ويفتقر إلى لوازمها. لكن، هل كان خيار السلام ممكنًا في أوضاع الحرب والتنافس الأوروبي على مناطق النفوذ في المغرب، خصوصًا بعد الامتيازات التي حصلت عليها كل من فرنسا وبريطانيا في عامي 1845 و1856؟ سؤال نحاول الإجابة عنه انسجامًا مع منحى المقارنة لهذا البحث:

في الفترة نفسها تقريبًا (1863)، اقترف رعايا يابانيون أعمال عنف «ضد أشخاص من الرعايا البريطانيين وصولًا إلى القتل... واقتضت الشروط قيام حكومة ساتسوما بدفع مائة ألف جنيه استرليني وقيام الحكومة المركزية بدفع خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني وإعدام القاتل أمام ممثلين للجانب البريطاني، وتم تحديد فترة عشرين يومًا لتلقّي الرد خلالها»[123]. وبعد مماطلات دبلوماسية يابانية متعددة، جرت الموافقة على دفع التعويض المطلوب عن الخسائر والأضرار. «ولما كان الرجل الذي اغتال ريتشاردسون (الإنجليزي) قد 'هرب'، فلم يكن في مقدور القبيلة (ساتسوما) إلا أن تَعِدَ بإعدامه عندما يُلقى القبض عليه»[124].

إنه مخرج ذكي، واعتراف بعدم القدرة على مواجهة الأسطول البريطاني الجاثم على سواحل أرض اليابان؛ لكن صدمة القوة الغربية والانحناء أمام أسئلتها وتحدياتها ستتحول إلى خزان للطاقات المحلية وتوظيفها في المعارك التنموية اللاحقة والحاسمة.

---

(123) فوكوزاوا يوكيتشي، سيرة فوكوزاوا يوكيتشي، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 182.

(124) المصدر نفسه، ص 189-190.

يمكن، من خلال هذه المقارنة الأولية، الاتفاق مع الأعرج السليماني في ما ذهب إليه من فقدان المخزن لمطلب الحيَل الدبلوماسية، وأثر ذلك في تعريض البلد لكارثة عسكرية أنتجت مجموعة من الأزمات، وفي مقدمها الأزمة المالية.

قال الناصري إن «وقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكسارًا لم يعهد لهم مثله، وكثرت الحمايات، ونشأ عن ذلك ضرر كبير»(125). وتمثلت أهم هذه الأضرار في احتلال مدينة تطوان وفرض غرامة حربية ثقيلة على المخزن، امتدت فترات تسديدها على نحو ربع قرن، فأرهقت مالية الدولة وسمحت باختراق مرافقها الأمنية والاستراتيجية من خلال الحضور الإسباني في الموانئ المغربية لاستخلاص جزء من الغرامة المفروضة، وتمكنه، بناءً عليه، من معرفة كميات السلاح المستورد والمواد التموينية المجلوبة...

وضاعت البلاد في أربعين مليون بسيطة ... ولم يترك هذا النزيف الدولة مفلسة فحسب، بل أدمى مجموع اقتصاد مغربي ذي موارد وطنية قليلة»(126). ولا شك في أن ذلك أثّر في موضوع تمويل البعثات التعليمية المغربية في الخارج التي احتاجت إلى إمكانات مادية كبيرة.

يفصح بعض المصادر الأجنبية عن درجة الحقد الذي أبدته الدولة والمجتمع الإسبانيان، قبيل اندلاع المعركة، وعن حجم التلاحم والوحدة اللذين سُجّلا خلال هذه الفترة. بل يمكن القول إن شعار المواجهة مع المغرب مثّل العنوان العريض لتأجيل التناقضات السياسية الداخلية، ولإيقاظ المشاعر الوطنية الإسبانية. ونقرأ دلالات الاستعلاء الإسباني من خلال ما أورده أوغسطين بودوز (A. Baudoz) عام 1860، وهو يتحدث عن مقدمات الحرب، قائلًا: «اضطر ملوك إسبانيا السابقون إلى فرض إجراءات صارمة ضد هذه الساكنة المخادعة، كما لم تتوقف الحروب بين الإسبان وهؤلاء الجيران المتبربرين»(127).

---

(125) الناصري، ج 9، ص 101.

(126) جرمان عياش، جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860 (الرباط: مطبعة الدروس العليا المغربية، [د. ت.])، ص 8.

(127) Augustin Baudoz et I. Osiris, dirs., *Histoire de la guerre de l'Espagne avec le Maroc* (Paris: Lebigre-Duquesne frères, 1860), p. 150.

لم يكن المغرب والمغاربة في المخيال الإسباني يمتلكان حسًّا حضاريًا يؤهلهما للتوافق والحوار مع رواد «المدنية» الإسبان الذين لم ينس لهم التاريخ إبادة سكان أميركا الجنوبية زَمَنَ الاكتشافات الجغرافية، وتأسيسهم إمبراطوريات الذهب والفضة على أنقاض أجساد وجماجم سلالات رواد حضارات المايا والأزتك والإنكا.

وظف الحكم الإسباني الحدثَ ببراغماتية واضحة، استلهمت تراكمات الصراع التاريخي بين الضفتين، في تأجيل التناقضات الداخلية، إذ «اختفت الانقسامات السياسية والنقاشات العنيفة، في مقابل الشعور بأولوية الكرامة الوطنية المهانة»[128].

مثّلت الحرب بالنسبة إلى الجنرال أودونيل امتيازًا آخر لمواصلة احتلال مزيد من الأراضي «حتى يتم شغل الرأي العام الإسباني بقضية 'حرب أفريقيا' وتحويل أنظاره عن المشكلات الاقتصادية العميقة التي كانت تتخبط فيها إسبانيا من قبيل المضاربات المالية وفضائح القصر التي كانت تهدد استقرار العرش»[129]؛ ووجّه رئيس المجلس قبيل المعركة رسالة مفعمة بالمشاعر القومية، ورد فيها:

«لن نتوجه إلى المغرب بغية احتلاله، أو مهاجمة المصالح الأوروبية. إننا نريد محو الإهانة التي لحقت بنا، وفرض الضمانات الملائمة لمستقبلنا. ونريد من المغاربة تقديم تعويضات مقابل التضحيات التي قدمتها أمتنا»[130].

يبدو أن النزاع كان مفتعلًا، وأن إسبانيا كانت ترى في الصلح مخرجًا ملائمًا لطموحاتها السياسية في المغرب، ومتنفسًا لمشكلاتها السياسية والاقتصادية داخليًا، خصوصًا بعد حصول كلٍّ من فرنسا وبريطانيا على مزايا استراتيجية، بعد معركة إيسلي عام 1844 واتفاق 1856.

لم تهدف إسبانيا إلى الحصول على غنائم مادية فحسب، بل رغبت أيضًا

---

(128) المصدر نفسه، ص 152.

(129) <http://baridtetuan.blogs.ma/index.php?2006/02/11/152-1830-1894>.

(130) Baudoz et Osiris, dirs., p. 218.

في تجريد المغرب من جميع عناصر القوة المادية، ومن إمكانات النهوض المحتملة. ومن هنا قيدت آليات وآجال تسديد أقساط الغرامة والديون المرتبطة بها، في الأمد المتوسط، فرص النجاح التنموي الذي رام المخزن تحقيقه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن أبرز عناصره، موضوع البعثات التعليمية في الخارج.

تمكنت بريطانيا من لجم الطموحات التوسعية الإسبانية، لكنها سهلت مهمة توقيع اتفاق التجارة عام 1861، وهو الاتفاق الذي منح المنتصر مزايا لم يكن يتوقعها. ومن المؤكد أن بريطانيا كانت تناور بسيادة المغرب لحماية مصالحها الاستراتيجية في الشمال.

استفاد الإسبان ماديًا ومعنويًا من تداعيات هذه السياسة، فشجعهم ذلك على معاودة الكرّة بزخم جديد من خلال حرب مليلية 1893-1895[131]، وشروطها المفروضة على المغرب؛ وفي مقدمها الغرامة المالية الثقيلة.

حصلت إسبانيا على مساندة أوروبية قوية، فوجّه «ممثلو إيطاليا وألمانيا مراسلات منفردة إلى البلاط، تضمّنت جميعها دعوة مماثلة إلى المولى الحسن الأول للموافقة على تسديد تعويضات بقيمة 25 مليون بسيطة لفائدة إسبانيا [وتوصل] الوزير المفوض الفرنسي في طنجة بتعليمات صريحة تأمره فيها حكومته بمؤازرة الطلب الإسباني القاضي بتسديد المغرب 25 مليون بسيطة»[132]. وكانت بريطانيا، على عادتها، الوسيط الضامن لتوقيع الاتفاق بين الطرفين. وإذا كان المولى الحسن الأول عايش الحادثة بمرارتها التاريخية، ومضامينها المذلة، فإن تنفيذ بنودها أُلقيَ على كاهل السلطة الجديدة بعد انتقال الحكم إلى عهد الوصاية مع الحاجب أحمد بن موسى، وفي فترة الولاية الفعلية في أثناء حكم المولى عبد العزيز.

وُضع المغرب مرة أخرى أمام كارثة مالية، أرهقت بيت مال المسلمين،

---

(131) لمزيد من التفصيل عن حرب مليلية 1893-1895، يمكن الرجوع إلى: بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح، الفصل 4: «مواقف بريطانيا من حرب مليلية، 1893-1895»، ص 283-365.

(132) المصدر نفسه، ص 351.

وساهمت في تجفيف منابع إمكانية النجاح في سيرورة التنمية المجتمعية. ولم ينخرط المجتمع في التقاط خيط الأزمة، وجمع المعونة ومؤازرة المخزن لدرء مفاسد الحرب الأخيرة. وعبثًا حاولت دائرة العلم والفتوى وضع تنظيراتها الفقهية في شرعية المسألة ووجوبيتها.

يمكن تفسير عدم مبالاة القاعدة المجتمعية وإحجامها عن تقديم جزء من المعونة، بعدم ثقتها بالإدارة المخزنية التي تفنن أمناؤها وموظفوها الصغار والكبار في خيانة الأمانة ونهب المال العام، فلم يكن من المتوقع أن تنخرط هذه القاعدة طوعًا في تحمّل بعض العبء الملقى على كاهل السلطة المخزنية.

أما في الضفة الإسبانية، فتناغمت التعبئة التي قامت بها الحكومة الإسبانية، مع سيل متدفق من المشاعر المجتمعية التوّاقة إلى تحقيق نوع من التوازن النفسي والانتصار المعنوي. كما أورد بودوز، صاحب كتاب الحرب بين المغرب وإسبانيا[133]، حملات الدعم المادي التي خصصتها المقاطعات الإسبانية للجنود المشاركين في المعركة، فقررت مدينة ليريدا منح تعويض مدى الحياة للأفراد المعطوبين في الحرب، وهو ما قامت به مقاطعة زامورا التي خصصت لكل فرد منهم ستة ريالات في اليوم لمدى الحياة. وتخلى الملازم الأول مشاة المتقاعد دون تيبرشيو عن مرتّبه لمصلحة مستلزمات الحرب[134].

تتعدد نماذج الاستعداد للحرب «المقدسة» وصورها التي تقاطعت فيها، ومن خلالها، المصالح السياسية بالطموحات القومية والدينية. ونتساءل عن طبيعة الاستعداد الذي قام به المغرب دولةً ومجتمعًا، وحجم الدعم الذي يمكن من ثناياه قياس درجة التوازن بين الضفتين، قبل نهاية «الملحمة» بين الدولتين وفي أثنائها وبعدها.

أنتج عنف الصدمة الغربية شعورًا جليًا بتفوق الآخر؛ وعوضًا عن اللحاق به ومنافسته في مجال التنمية والتأسيس لمبدأ الاستعداد، حاولت بعض النخب تسويغ التفوق الغربي بمقولات دينية، لا تنسجم مع النصوص الإسلامية الداعية

(133) Baudoz et Osiris, dirs., pp. 273-279.

(134) المصدر نفسه، ص 269-270.

إلى الانفتاح على التجارب البشرية، وامتلاك أسباب القوة والمنعة الذاتية. ونقرأ لدى الناصري في هذا الصدد أن الفرنسيين تكلموا «في شأن بابور البر (القطار) والتلغراف وإجرائهما بالمغرب، كما هو بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعًا كبيرًا للمسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر، وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم»[135].

يبدو أن الصفار كان متقدمًا في «رحلته» على الناصري في «استقصائه»؛ فقد تحدث بإعجاب عن الاختراعات الوقتية، ووصف «بابور البر» والتلغراف وغيرهما بطريقة موضوعية، يكتنفها الإعجاب والتقدير، ووصف الصفار ركوبه في القطار قائلًا: «فإذا أرادوا الشروع في المسير، حرك الرئيس حركة البابور، فيجعل يسير مع ما هو مربوط به سيرًا لم يعهد مثله في الإسراع يكاد أن يساير الهواء..»[136].

لكن قد يقول قائل إن الصفار قوّم الاختراعات الوقتية في أثناء وجوده في فرنسا، ولم يشر أو يلمح إلى إمكان إدخالها إلى بلاد المخزن، في حين ربط الناصري اقتراحات إدخال هذه المخترعات بتزايد التغلغل الاستعماري في المغرب وتيسيره.

ما يهمنا هو أن رحلة الصفار، كما أشرنا سابقًا، حملت هموم التحديث وضرورة تجاوز الواقع الموبوء. ويمكن التعامل مع نصها، بوصفه خطابًا متكاملًا يعتمد على الوصف الدقيق والمقابلة والمقارنة الضمنية بين الآخر/ المتقدم، والأنا/ المتخلفة. فقد حكم الصفار من خلال رحلته على المغرب بالتأخر في مجال أدوات التحديث ومواده التقنية والتنظيمية. وفي مقابل ذلك قوّم، ضمنيًا، الاختراعات الوقتية بالإيجابية. ويمكن القول، من ثنايا سطور الرحلة، إنه كان يأمل إدخالها لتيسير حياة الناس، ومعاشهم.

من جهتهم، تمكن اليابانيون من الانفتاح على منتوجات الغرب التحديثية،

---

(135) الناصري، ج 9، ص 162.

(136) الصفار، ص 131.

وبذلوا الجهد المادي والمعنوي لتعميمها على جميع أرجاء أرض النيبون، ونجحوا في فك أسرار التقانة الغربية وعناصر قوتها، وفي تحقيق الاكتفاء الذاتي على مستوى إنتاج الشفرات العلمية والتقنية، مع احتفاظهم باستقلالهم الوطني، وبخصوصيتهم الثقافية المحلية.

لا تهدف المقارنة هنا إلى تأكيد عنصر المطابقة بين المغرب واليابان في تعاملهما مع الظاهرة الغربية وأنموذجها التحديثي، وإنما التلميح إلى درجة الانغلاق الذي مارسته بعض النخب الفكرية والسياسية في المغرب حول ذاتها ومحيطها الاجتماعي والثقافي. وقد دل اختيار أنموذج الانغلاق على علامات الوهن والضعف التي أصابت أركان الدولة والمجتمع، كما دل على قوة الآخر وقدرته على إحراجنا في حلبة التنمية والتحديث.

كان المغرب في حاجة إلى رجّة شعورية أكبر من إيسلي وتطوان تنبهه لخطورة منحى التأخر الذي سار فيه ردحًا من الزمن. وفي غياب ذلك، بقيت الترتيبات الاجتماعية والسياسية جامدة، تمارس الانتظارية القاتلة، والتنظيرات التي لم يتحقق معها الكثير.

لم تبدأ الإجراءات التحديثية بمضمونها الواسع إلا في عهد السلطان الحسن الأول (1873-1894) الذي أوفد مئات المتعلمين المغاربة إلى مؤسسات التكوين الغربية لترجمة مقتضيات الاستعداد المخزني وتنفيذ إشارات الرحلات وتقاريرها وملاحظات الهيئات الدبلوماسية الغربية.

لم تغير الحوادث السابقة معالم المشهد السياسي في المغرب، بل استمرت الممارسات الإدارية السابقة، وتناسلت المشكلات الداخلية، خصوصًا بعد وفاة الحسن الأول، ودخول البلاد مرحلة تاريخية حرجة مع عهد الوصاية.

ثالثًا: عهد الوصاية مع الحاجب باحماد

امتدت فترات عودة انتهاء مهمات أفراد البعثات التعليمية المغربية إلى حدود عهدي الوصاية وفترة حكم المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ. كما بدأت تلوح معالم بروز نخبة سياسية وفكرية مغربية، امتلكت مقدمات

تصور إصلاحي على المستويين السياسي والدستوري، فأثّر ذلك في آليات الاشتغال السياسي الداخلي. ويستدعي ذلك مقاربة آليات الحكم العزيزي والحفيظي وأسلوبه، ورصد ثوابت الإدارة المغربية وتحولاتها في أثناء الفترة المدروسة. لكن قبل ذلك، يبدو ضروريًا تحليل طبيعة الممارسة السياسية في عهد الحاجب أحمد بن موسى، باعتبار أن هذا العهد مرحلة متميزة في التسيير الإداري المركزي، وعنوان لافت لأزمة الشرعية في نسق النظام المخزني، بعد وفاة المولى الحسن الأول.

إني لا أبتغي تناول المؤسسة المخزنية من زاوية السرد التاريخي للبنى والوقائع، لكن تهمني بالدرجة الأولى الوظائف والأدوار التي نيطت بهذه المؤسسة بالشكل الذي جعلها منسجمة ومتناغمة مع الإشكالية العامة التي يتطرق إليها البحث، ودورها في موضوع البعثات التعليمية.

لا يجادل أحد في اعتبار أن موت الحسن الأول كان بداية مسلسل جديد من مراحل السقوط الذي حاول السلطان السابق تفادي وقوعه بحبك المناورات واستغلال التناقضات الأوروبية لمصلحة بقاء الدولة واستمرار وظائفها. لكن بموته «المفاجئ» انكشف ما كان مستورًا من العلل المتبقية، وبرزت مأساة المغرب سلطةً ومجتمعًا. وتدل هذه القضية على مسألة بالغة الأهمية، وهي أن تاريخنا الممتد والطويل، لم ينطلق من قواعد مؤسساتية واضحة المعالم ووظيفية المقاصد؛ فبمجرد غياب السلطة الكاريزماتية (إدريس الثاني، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، والمنصور السعدي، والمولى إسماعيل، ومحمد بن عبد الله، والحسن الأول)، عاد الخمول والجمود إلى دوائر الفعل السياسي والاجتماعي، وانتشر العبث، وانتشرت الأزمة، ودبّ الخلل وعمّت الفوضى، كأن ذلك دَيْدن هذه الأمة التي افتقدت من يجدد لها أمر سياستها. ولخّص الحجوي صورة المغرب في بداية القرن العشرين، قائلًا: «.. كان المغرب فيه مختلًا من كل الواجهات المالية والحربية والسياسية والأخلاقية، والفوضى ضاربة أطنابها، والجيش لا جيش، والمالية هي عين الفقر، وأطراف المغرب لا تعرف نظامًا ولا أحكامًا ولا تؤدي جباية»[137]. ويمكن اعتبار هذا الحكم مقدمة

(137) أورده: الخلوفي، ص 10.

مواصفاتِ قاعدةٍ عامة، يمكن أن تسري على مختلف فترات الأزمة التي عرفها المغرب، بعد وفاة يوسف بن تاشفين، وعبد المومن بن علي، وأحمد المنصور، والمولى إسماعيل، والسلطان محمد بن عبد الله.

تتحدث المصادر التاريخية عن شخصية الحاجب أحمد بن موسى، مهندس عهد الوصاية، بنوع من الإعجاب والتقدير. ويصفه ابن زيدان بـ «داهية الحجّاب والوزراء»[138] عندما أخفى أحمد بن موسى نبأ وفاة السلطان الحسن الأول خشية وقوع الاضطراب والفوضى، وأجّل ذلك إلى حين تمهيده إجراءات البيعة للسلطان الجديد، المولى عبد العزيز. وقال عنه المشرفي إنه كان «ذكيًا، متأدبًا، ذا مكائد وحيل»[139].

لم ينسَ الحاجب أحمد بن موسى أنه كان لأسرة آل الجامعي حظوة داخل المخزن الحسني بعد وفاة موسى بن أحمد، «فأصبح ابن العربي الجامعي[140] الصدر الأعظم، وعوضه أخوه السيد محمد الصغير في وزارة الحرب، ومنذئذٍ تزايد تأثيرهم المتفوق داخل المخزن الحسني»[141]. ولا شك في أن ذلك كان على حساب أسرة آل بن موسى التي انتظرت لحظة تاريخية ملائمة لرد الأمور إلى ما كانت عليه في السابق.

خلّف المولى الحسن الأول الكثير من الأبناء[142]، وانحاز الحاجب أحمد بن موسى إلى المولى عبد العزيز، وهو انحياز أخذ مشروعيته من إقدام الحسن الأول على عزل ابنه المولى محمد «لما ثبت لديه من أفعال صدرت منه غير مرضية وأحوال استبدادية.. وقدم نجله.. المولى عبد العزيز لشغفه به وكثرة

---

(138) عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 مج، ط 2 (درب الفاسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ج 2، ص 549.

(139) المشرفي، ج 2، ص 220.

(140) يجب الإشارة إلى أن أخت السيد محمد الجامعي كانت والدة المولى الحسن الأول، ولذا كان السلطان يحب مناداتهم بالأخوال.

(141) Arnaud, p. 58.

(142) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 546-548. ذكر ابن زيدان كل أبناء وبنات المولى الحسن الأول، إلا أنه لم يفصل في أعوام الولادة.

حنانته عليه وملازمته له حضرًا وسفرًا، فلذلك قدمه مع صغر سنه»[143]، وهي مواصفات لا تليق أو لا تكفي لإسناد إمامة الأمة وإدارة شؤونها. كما أن هذا الاختيار ثبت فشله عندما آلت السلطة إلى المخزن العزيزي من بعد.

أدرك الحاجب خصوصيات الغلبة في الحكم ومتطلباتها، فاستخدم ذكاءه ومكره وحيله لتثبيت مواقع السلطة وامتيازاتها؛ فبذل «العطاء للوفود عليه في ذلك الوقت، وعمَّ الناسَ معروفُه.. فاستقام له الأمر بذلك أمر الملك، وطأطأت له الرؤوس ولم يبق له منازع فتمكن من الوزارة العظمى، بل ويأمر الملك كله»[144].

اعتُبر آل بن موسى «من أشهر الأسر البخارية في القرن التاسع عشر.. تولى أفرَادها مناصب الوزارة والحجابة ورئاسة العسكر..»[145]. ويبدو أن السلطة المخزنية كانت تبحث، منذ عهد المولى إسماعيل، عن عصبية عسكرية تصرّف شؤونها الأمنية والجبائية والعسكرية، تتجنب بها ومن خلالها، أشكال المعارضة الداخلية بالمدن والبوادي، خصوصًا في مدينة فاس.

مع استمرار هذه الخدمات، تمكنت هذه الفئة، ومنها أسرة آل بن موسى، من تثبيت نفوذها ماديًا وسياسيًا. وتجلى ذلك من خلال إزاحة الفئات المنافسة، وفي مقدمها أولاد الجامعي؛ إذ اشتد «التنافس بين آل بن موسى وأولاد الجامعي حول استمالة السلطان القاصر واحتوائه ثم الحكم باسمه»[146]. «ولم يزل في قلب الوزير المعطي الجامعي وفريقه شيء من أمر البيعة لما كان بينه وبين الحاجب من الشحناء»[147]، وهذا ما سمح ببروز مواقف متشددة من باحماد «وخاصة من قبَل السيد العربي الزبدي والسيد محمد الصغير اللذين حاولا المقاومة، بادعائهما أن المولى عبد العزيز كان صغير السن، وأن السلطان الحقيقي هو باحماد»[148]. ويبدو أن الغلبة حالفت من اتصف بالمكر

---

(143) المشرفي، ج 2، ص 215.

(144) المصدر نفسه، ص 220.

(145) عبد الرزاق الصديقي، «آل بن موسى في سياق التاريخ، من الاسترقاق المنزلي إلى الوصاية على الحكم،» في: أفا [وآخرون]، ص 449.

(146) المصدر نفسه، ص 455.

(147) بنواحي، ج 2، ص 397.

(148) Arnaud, p. 87.

والذكاء والحيل. وبدأ الوزير الأعظم أحمد بن موسى بتعيين رجال عهده الجديد، فجعل «أخاه السعيد وزير الحرب مكان السيد محمد الصغير ابن العربي الجامعي، وولّى أخاه الثاني رتبة الحُجَّاب مكانه - ويضيف المشرفي - وهو المتصرف على الكل في الحقيقة، لا تخرج عن أمره شاذة ولا فاذة، وإنما جعلهما صورة»[149].

نتساءل هنا عن مدى الطموحات السياسية للحاجب أحمد بن موسى، فهل كان للرجل مشروع سياسي ينبني على ممارسة السلطة المطلقة المستندة إلى توظيف رمزية النسب الشريف للمولى عبد العزيز الذي جُرِّد من إرادة الفعل والممارسة السياسية؟ وهل كان المخزن المغربي حينئذٍ في وضع يؤهله لإنتاج نخبة سياسية جديدة ولنمط حكم جديد يشبه في صورته الظاهرية، ما أقدم عليه حكام التوكوجاوا[150] في اليابان، عندما وثبوا على السلطة، وأقاموا نظامًا سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا صارمًا يقوم على أساس العلاقات الفيودالية والتقاليد الكونفوشيوسية وسياسة العزلة الطوعية التي دامت 250 عامًا، وعندما أقاموا شرعية نظامهم السياسي على مبدأ الحكم باسم الإمبراطور الذي أضحت سلطاته رمزية وصورية كما سيرد لاحقًا؟

تبدو ملامح هذه التساؤلات في ما ذكره المشرفي، مستفهمًا أسباب استبداد الوزير أحمد بن موسى، ومستحضرًا الإفادة الخلدونية في فهم آليات تداول السلطة ودور العصبية في تحقيق الغلبة والانتصار؛ فبعد حديثه عن الانفراد بالحكم، واستغلال صغر سن السلطان، وعجزه عن القيام بمقتضيات الملك، أضاف قائلًا: «فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه، أو قبيله، ويورى بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه للاستبداد.. وهذه كانت حالة هذا الوزير»[151]. إلا أن صاحب الحلل البهية نقض مقدمات تفسيره للحوادث،

(149) المشرفي، ج 2، ص 220-221.

(150) التوكوجاوا: هو اسم الأسرة التي حكمت اليابان منذ مطلع القرن السابع عشر حتى عام 1868، وقد نهجت سياسة العزلة الطوعية وساهمت في ترسيخ السلام الطويل الذي حقق الأمن الداخلي للبلاد. كما ساهمت في ترسيخ علاقات الإنتاج الفيودالي. وتعرضت لتحديات خارجية صعبة في عام 1853 عندما دخلت السفن الأميركية السواحل اليابانية، وفرضت عليها الخروج من دائرة العزلة.

(151) المشرفي، ج 2، ص 224.

مستأنفًا: «وكان البعض يسوء به الظن، لما ادخره من الذخائر العظام مع آلة الحرب، بأنه إذا استحكمت له صبغة الرياسة والاستبداد، لا بد أن يحول الملك إليه، ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده، كما وقع لبني بويه والترك وكافور الإخشيدي، وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر»[152]. ولم يكن باحماد كذلك في نظر المشرفي، وينسب المسألة إلى أصحاب الظنون الفاسدة والنيات المبيتة. لكن، ألم يقل الحجوي إن أحمد بن موسى مارس سياسة تقوم على مبدأ «إضعاف القبائل، وإطلاق يد العمال بالسلب والنهب لأجل أن يأتوه بأيديهم عامرة ليعمر خزينته»[153].

من جانب آخر، نتساءل كما تساءل خالد بن الصغير عن سر بقاء السلطان في «مكناس مدة استغرقت ثمانية عشر يومًا قبل دخول فاس، وهي المدينة التي لا تكتمل بيعة سلطان جديد إلا فيها وبها. وربما هناك سؤال سابق عن هذا وأكثر أهمية لا بد من إثارته، ويتعلق بهوية ومكانة الأشخاص الذين مكنوا عبد العزيز من تولّي الحكم خلفًا لوالده»[154]. ونقلّب الفرضيات ونفحص الشهادات التي قدمها ابن الصغير. وفي أثناء البحث والتقصي، لا نجد أجوبة مقنعة كافية للأسئلة المثارة، وكان يكفينا الاطلاع على ما دوّنه المشرفي لتتبيّن لنا الحجج المعقولة التي يسردها صاحب الحلل البهية لتفسير الإشكال؛ فقد تحدث عن حرب خفية دارت بين أولاد الجامعي والحاجب بن موسى، بعد وفاة الحسن الأول؛ وتبدو مقدمات المؤامرة في قوله: «فلما نهض السلطان من الرباط يريد ما سواه من الأمصار، مال الوزير (الحاج المعطي) إلى التوجه إلى فاس، قائلًا إنها قاعدة المغرب وقطب رحاه، وباحتلالها يسهل كل شيء».

ومال الحاجب إلى المرور بمكناسة الزيتون، قائلًا إن «العادة قاضية بالمرور بها لا بد، لكونها مقر الجيوش، ودار ملك مولانا إسماعيل، ووسيلة

(152) المصدر نفسه، ص 224.

(153) محمد بن الحسن الحجوي، «دفتر تقاييد لحوادث تاريخية، أيام المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ،» (مخطوط: م. و. م. م، رقم 128)، ص 47، ورد في: المصطفى فنيتير، «المخزن وقواد البوادي،» في: إبراهيم بوطالب، مشرف، البادية المغربية عبر التاريخ، ندوات ومناظرات؛ 77 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999)، ص 81.

(154) بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح، ص 373.

لزيارة مولانا إدريس بن عبد الله... لقربه منها، ولأن أهل فاس قد وصلت بيعتهم وتم أمرهم، وأن الأعيان منهم يردون علينا بها، ولا يفوتنا شيء من أغراضها. فجنح السلطان لكلام الحاجب وأمر المرور بها ليقضي الواجب، فلمّا حل بها وأقام، والوزير والحاجب كل منهما يريد بصاحبه الانتقام، إلى أن تمكنت مكيدة الحاجب بعصبية جيش البخاري، وظهر صيته وانتشر أمره ونهيه في الأمصار والبراري»[155].

يمكن القول، من مجريات الأمور السابقة، إن الأحقاد التاريخية وحدّة التنافس بين أسرة أولاد الجامعي وآل بن موسى أدتّا دورًا محددًا في السرية التامة التي أدار من خلالها الحاجب أمر وفاة المولى الحسن الأول[156]، والتمهيد لمبايعة المولى عبد العزيز. والأكيد أن سياسة القرب والحظوة التي نهجها المولى الحسن الأول تجاه أولاد الجامعي على حساب أمراء الحجابة، لم تكن لتمر من دون استثمار الحادث الجديد إلى أبعد مدى ممكن، جعلت الوزير الحاج المعطي يضيق ذرعًا «لكونه الوزير الأعظم وأخوه السيد محمد الصغير وزير الحرب، فجعل يدعو خفية لبيعة مولاي محمد بن مولاي الحسن المعزول بمراكش»[157].

حسم الانتماء العصبي والذكاء المتوقد المسألة، ونجح الحاجب في المكوث تلك المدة الكافية بمكناس التي كانت مركز عصبيته، وتجنّب البدء بدخول مدينة فاس حيث توجد عصبية أولاد الجامعي، وجيش شراقة الموالين لهم.

تمكن الحاجب، بحيله ودسائسه، من إطاحة الصدر الأعظم ومناصريه. ودخل المخزن مرحلة جديدة لم يتحقق لها النضج الكافي، ولم تستند إلى

(155) المشرفي، ج 2، ص 218.

(156) كان البلاط المخزني والممثلون الدبلوماسيون الأوروبيون على علم تام بمرض المولى الحسن الأول، وأنه كان يعاني ألمًا حادًّا في القلب والكبد، وقد أشارت إلى ذلك مجموعة من المراسلات والتقارير، ومنها: مجموعة الوثائق، العدد 10 (2000)، ص 204 و285. كما ذكر ذلك: Arnaud, p. 75.
ويشير وايزغيربر إلى أن القائد ماكلين أرسل بريدًا إلى أخيه القنصل البريطاني في الدار البيضاء، ومن هناك وصل الخبر إلى طنجة، حيث أبرقته المفوضية البريطانية إلى جبل طارق وإلى وزارة الخارجية. وهكذا، كانت لندن على علم بموت السلطان في الوقت الذي كان فيه رعايا المغرب يجهلون به.

(157) المشرفي، ص 218.

ركائز مجتمعية قوية تكفل لها عناصر الدوام والاستمرارية. بل يمكن القول إن القضية لم تتعدَّ المغامرة الشخصية، وفاحت من خلالها عناصر الانتقام والحقد. «ولم يكتف باحماد بتوجيه سهامه إلى أولاد الجامعي، ومناصريهم بالحبس ليتآكلوا في غياهب السجون، بل سلّط مبضعه كذلك على ثروتهم التي تراكمت على عهد عدة سلاطين من أجل تجفيف مناهل قوتهم المادية، فصادر كل ممتلكاتهم في المدن والبوادي. وافتعل لهم طابورًا من المداينين اعتمدت دعاويهم باطلًا ودون وجه حق..»[158].

حقق عهد الوصاية استقرارًا نسبيًا للمغرب، وامتلك الحاجب موسى بن أحمد قدرات متميزة في ضبط إيقاع التوازن الداخلي، واتضح ذلك من خلال نجاحه في القضاء على الانتفاضات التي عرفها المغرب في بداية هذا العهد، ومنها انتفاضة الرحامنة التي تُعَدّ أهم تحدٍّ واجهته السلطة الجديدة، وأبان باحماد، من خلالها، عن دراية كبيرة في معالجة قضية الخارجين على أوامر السلطان. ويفصّل لويس أرنو (L. Arnaud) في مقدمات هذه الانتفاضة[159]، ويختمها بالغنائم التي حصل عليها المخزن جرّاء هذه «الملحمة»، وقُدِّرت بآلاف الأسرى، كما فرض على الرحامنة «أداء الضرائب المتأخرة لمدة سنتين، ومساهمة حربية ضخمة، تبلغ 200.000 دورو، بهدف منعهم من الانتفاضة مجددًا»[160]. وكشف باحماد «عن فهم سياسي لا يجادَل ومعرفة دقيقة بأوساط الأهالي مكّنته من إرساء الهدوء في الجنوب الغربي للمملكة»[161].

أثنى الأعرج السليماني على عهد الوصاية، وقال عن باحماد إنه «قام بسياسة الجمهور، قيام رجل مضطلع بالأمور، وقبض على صولجان إدارة المملكة، وسار بسيرة حسنة، محافظًا على ناموس الإمامة، سالكًا سبل الاستقامة، مقتفيًا آثار المولى حسن في سياسته الداخلية والخارجية»[162]. وإذا كنا نتفق معه على استمرار معالم السياسة الداخلية خلال عهد الحسن الأول

---

(158) الصديقي، «أولاد الجامعي،» ص 55.

(159) Arnaud, pp. 92-121.

(160) المصدر نفسه، ص 120.

(161) *Bulletin du Comité de l'Afrique française*, no. 2 (Février 1897), p. 51.

(162) بنواحي، ج 2، ص 397.

نفسها، فإن سياسته الخارجية لم تكن كذلك. ومن دلائل ذلك إعراضه عن موضوع البعثات التعليمية إلى أوروبا، وعدم مبالاته بأفواج المتعلمين الذين عادوا في عهده إلى المغرب، كما سنشير إلى ذلك لاحقًا.

تبدو ملامح انعدام النضج الكافي داخل التجربة السياسية الجديدة، وافتقادها الشروط المجتمعية القمينة بضمان استمراريتها، في أفول نجمها مع غياب مهندسها الأبرز باحماد؛ ففي عام 1899 «تسارعت المنايا لأخذ أولاد السيد موسى بن أحمد الذين هم وزراء الدولة، فكان أولهم موت السعيد بن موسى الذي هو حينئذ وزير الحرب.. ثم مات عقبه أخوه إدريس الحاجب.. وبعده مات الوزير الأعظم السيد أحمد بن موسى بن أحمد.. في [أيار/ مايو 1900] .. وبموته اختل النظام وانفصمت عرى الأحكام.. لما كان عليه - حسب المشرفي - من النصيحة وحسن التدبير واقتفاء أثر سياسة من قبله، وهو إذ ذاك بكل أحوالهم خبير»[163]. وإذا كان صاحب **الحلل البهية** يسند الخبرة وحسن التدبير والنصيحة واقتفاء سياسة الحسن الأول، إلى الوزير الأعظم، فإن حكمه هذا يكتنفه الاضطراب مرة أخرى، حين عقّب على ذلك في الموضع نفسه قائلًا: «ومن الحكم قولهم: أربعة أشياء لا يدوم معها ملك: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية»[164]، مثبتًا له - تلميحًا - إحدى هذه الصفات أو بعضها، خصوصًا أنه أتبع ذلك بذكر تفصيلات الثروة المالية الضخمة التي خلّفها. وقد أجمل المشرفي مقدار ثروته قائلًا: «فيكون مدخول السلطان أقل من عُشر مدخول الوزير بكثير في هذه المدة»[165].

ذكر الأعرج السليماني سمة الاستقرار الداخلي التي عرفها المغرب في عهد الوصاية، «ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الحاجب أحمد بن موسى... وبموته ظهرت الأوابد، واختلفت العقائد، وتطلعت رؤوس الشياطين، وتغير نظام الحكومة بالمرة، ووقع الانقلاب الفجائي في هيئتها... فعمّت الفوضى في البلاد وطغى حاضرها والباد»[166]. كما تأسّف ابن زيدان على انقراض عهد الوصاية،

(163) المشرفي، ص 240.

(164) المصدر نفسه، ص 240.

(165) المصدر نفسه، ص 241.

(166) بنواحي، ج 2، ص 398.

فبموت مهندس الاستبداد «حدثت حوادث، وفظائع يشيب لها الرضيع، ووقع الدخيل في الدولة واختل النظام وفسدت الأحوال..»[167]. ومن علامات ذلك، امتداد يد الخائنين - كما يسمّيهم ابن زيدان - إلى التركة الضخمة التي خلّفها الوزير أحمد بن موسى، «ولم يصل المخزن من أمتعته المبيعة بأسواق المدن بعد سمسرتها إلا النزر اليسير»، وأضاف «كما مدت أيدي النهب والاختلاس في أموال وأمتعة غيره ممن صدر الأمر بحيازة أموالهم لبيت المال كابن العلام قائد المشور.. والفشار، ولم يقع الاقتصار على أخذ أموال من ذكر من المستخدمين وضمّها لبيت المال، بل مدت اليد العادية في كل من له أدنى علاقة أو اتصال بهما من الأقارب والأباعد..»[168].

يمكننا القول إن تجربة عهد الوصاية لم تكن خيارًا مجتمعيًا يؤسس للانتقال بالسلطة من طور الاستبداد إلى مرحلة تنفيذ سلطة وطنية راشدة؛ إنها إعادة إنتاج الصورة القديمة بأدوات جديدة ومشوَّهة؛ ولذا لا عجب في أن تموت التجربة بوفاة صاحبها: فهي لم تؤسس لقواعد تداول سياسي حقيقي، عندما حُجّم دور المولى عبد العزيز، ولم تترك له متنفسات حقيقية لاكتساب تجربة الحكم، وممارسة السياسة الداخلية والخارجية، ومواصلة خيار التحديث المتعثر الذي قطع فيه المولى الحسن الأول أشواطًا مهمة.

لم يكن باحماد يفقه في قضايا الشأن الخارجي واستثمار الكفاءات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى الخارج؛ ونحن إذ نتحدث عن هذه التجربة السياسية فلربطها بالإشكال المركزي لهذا البحث والدور الذي أداه الحاجب في ذلك من خلال نصوص ووثائق نسجلها في حينها. وقد استمر استقبال وفود البعثات التعليمية إلى فترة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ. ويتوافر لدينا في هذا الشأن مراسلات مخزنية ومعلومات مصدرية تفصح عن مآل هذه التجربة التحديثية، الأمر الذي يدفعنا إلى إثارة أمر طبيعة الممارسة السياسية خلال الفترة المذكورة.

(167) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 1، ص 396.
(168) المصدر نفسه، ص 395.

رابعًا: المخزن العزيزي والمخزن الحفيظي والسير نحو الأزمة

لم تكن تجربة «حكم» باحماد حادثًا سياسيًا عاديًا، بل شكلت استثناء فريدًا في تاريخ ممارسة السلطة السياسية في المغرب؛ ولذا لم يكن «مستغربًا أن نجد أعضاء الدائرة المخزنية، بعد وفاة أحمد بن موسى، يبايعون المولى عبد العزيز من جديد لأن ملكه كان موقوفَ التنفيذ في ظل استبداد الوزير الصدر»[169]. وبموت الوزير الكبير في 13 أيار/مايو 1900، بدأت، في نظر ويزغيربر، نهاية المغرب العتيق[170].

دشنت فترة حكم المولى عبد العزيز نهاية ما يمكن نعته بمسيرة الإصلاح التي دشنها والده بإيفاده البعثات التعليمية نحو بلاد الغرب الأوروبي، فلم يتمكن السلطان الجديد من مواصلة المسيرة التنموية، أو حتى المحافظة على الوضع كما كان في بداية عهد المولى الحسن الأول.

عرف هذا العهد أخطر النكبات التي باتت تهدد كيان الدولة والمجتمع، ومنها احتلال وجدة والدار البيضاء، ومن قبلهما توات ومجموعة من التخوم الصحراوية في الجهة الجنوبية الشرقية للمغرب. ومن علامات الوهن السياسي أن تصدَّر «لتسيير دفة السياسة من الوزراء من لم تتقدم تجربة ويلوا الأمور كما ينبغي ولا قرأوها دراسة، ولا ارتقوا فيها بالتدريج والتجربة.. كل واحد يترصد غيره ليقتنصه ويستبد بالمغنم دونه»[171]. كما يصف السليماني المهدي المنبهي[172] قائلًا: «وإن كان هذا الخلق شهمًا شجاعًا كريمًا عربيًا، فإن معلوماته في العلم والسياسة قليلة أو معدومة، غير متدرب على جلائل الأمور، ولا له مقدرة بسياسة الجمهور»[173].

---

(169) الصديقي، «آل بن موسى في سياق التاريخ،» ص 463.

(170) Weisgerber, p. 95.

(171) أورده عن الفقيه الحجوي: الخلوفي، ص 25.

(172) المنبهي: المهدي المنبهي، ابتدأ مشواره المهني عسكريًا بسيطًا في فاس؛ اختاره باحماد كاتبًا خاصًا له، وعيّنه المولى عبد العزيز وزيرًا للحربية؛ صُنّف في خانة المناصرين للاتجاهات التحديثية؛ اعتُبر رجل البريطانيين في البلاط العزيزي؛ فشل في القضاء على انتفاضة الجيلاني بن إدريس الزرهوني، كما حيكت الدسائس السياسية ضده، وهو ما ساهم في ابتعاده عن الحياة السياسية وحصوله على الحماية الإنكليزية.

(173) ورد في: الشاوي، «التخلف والنهضة،» ص 49.

أصبحت السلطة في يد الوزراء الأربعة[174] كما يسمّيهم المشرفي، وذكر أنه «وقع الاتفاق بينهم لما هم عليه من المشاحنة فيما بينهم والعداوة الخفية وافتراق الكلمة، بسبب الحسد والمزاحمة على نفوذ الكلمة والرضى، على أنه لا يختص واحد منهم بإبرام شيء أو نقضه، من كل ما يتعلق بالأمور السياسية والأحكام المخزنية والتنفيذات السلطانية، وغير ذلك.. إلا بعد اجتماعهم على ذلك ومشاركتهم فيه واتفاقهم على وقوعه أو عدمه...»[175]. لكن أين كان موقع السلطان مما كان يحدث في دهاليز السياسة المغربية؟! يبدو أن «عبقرية» الوزير المنبهي تفتقت عن الحل الملائم، فالذي كان يعنيه - على ما اشتهر - هو أن يدخل السرور إلى السلطان «ويقويه على ذلك بأمور المخترعات الإنجليزية، من زخارف صوره وعجائب صنعته وكل ما أمكنه جلبه له مما يوافق طبعه وهواه»[176]. ويفصّل ويزغيربر أدوات التسلية المستوردة مثل السيارات وآلات البيانو وأجهزة الطهو والساعات وجهاز الراديو والحيوانات المفترسة والبدلات وفساتين النساء والقبعات والحلي والألعاب الميكانيكية وآلات التصوير، ومنها واحدة مصنوعة من الذهب الخالص[177].

لم يبتدع الوزير المنبهي هذه الوسيلة، بل كانت سياسة هداية ورشاد الحاجب الوزير أحمد بن موسى الذي كان يحجب «الصبي عن الناس ويعوّده اللذات التي يدعو إليها ترف أحواله.. وينسيه النظر في الأمور السلطانية، حتى يستبد عليه»[178].

تتعلق المسألة بالاستغراق في اللهو بأموال بيت المال، في لحظة تاريخية، كانت تتطلب المزيد من الحزم والجد للذود عن كيان الأمة والدولة، خصوصًا إذا علمنا أن «كل الأدباء الذين تحدثوا عن 'لهو الملوك' يتفقون على أن ممارسته بلا حدود والإفراط فيه يؤديان إلى ضياع السياسة وخراب المملكة»[179]. وفي

---

(174) الأربعة الكبار هم: وزير الحرب المهدي بن العربي المنبهي؛ الوزير الأعظم محمد غريط؛ وزير المالية محمد الشيخ التازي الفاسي؛ وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان.

(175) المشرفي، ج 2، ص 260.

(176) المصدر نفسه، ص 244.

(177) Weisgerber, p. 98.

(178) المشرفي، ص 224.

(179) عز الدين العلام، الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة؛ 324 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006)، ص 128.

هذا الصدد قال الأعرج السليماني عن الحسن الأول إنه «فطم نفسه عن رضاع الملاهي فلم يعرف اللهو ما هو، ولا البطالة ما هي، لعلمه أن الملك واللهو ضدان، وأن ليس لالتقائهما ندان»[180].

كان الإمبراطور في فترة الميجي حديث السن، مثل السلطان عبد العزيز، كما كانت مظاهر الحداثة الوافدة جديدة ومثيرة لمجتمع الميكادو[181]، لكنه فضّل اكتشاف أسرار التقنية والتفاني في جعلها محورية للتحول والتغيير واعتبارها ملكًا للمجتمع ووظيفية في الاستعمال والاستثمار. كما اختارت الأوليغارشية اليابانية لغة المواطنة والبحث عن أسباب التمدن لولوج حلبة النزال الحضاري القائمة على مقتضيات العلم ونظرياته التطبيقية، في حين لم تكن مسألة العقد البراغماتي بين الوزراء الأربعة غير وسيلة لتحقيق مصالح فئوية خاصة، أدّت في النهاية إلى ارتماء المنبهي في أحضان الحماية الإنكليزية. ويمكن قراءة أزمة شرعية النظام السياسي، وحجم التدخلات الخارجية من خلال ثورة الجيلاني بن إدريس الزرهوني وانتفاضة الريسولي.

أما الزرهوني، فقد وصفته الكتابات السلطانية بالفتّان، ونعتته بأقبح الألفاظ والألقاب، لكنه كان يعتبر نفسه وارثًا شرعيًا للحكم، باعتباره المولى محمد بن السلطان الحسن الأول؛ فقد طاف «قبائل المغرب ومدنه، وبشّر من كان يلقاه بأنه سيكون له شأن وملك، وربما دعا بعض الأشراف والعلماء إلى متابعته، فلم يجد منهم أذنًا صاغية إلى أن ألقته المقادير بقبيلة غياثة، فصار يطوف مداشرها وقراها على حمارة، ومعه كتب وأوراق يعظ الناس بها، ويحط من قدر السلطان ورجاله، ويرفع شأن نفسه، ويحرض من يلقاه على إثارة الفتنة باسم الدين، وتغيير المنكر، متأوهًا على الدين وضيعته، باكيًا على الإسلام وغربته إلى أن قال له شخص في جماعة: لو وجدنا السبيل للشريف مولاي محمد ابن مولاي الحسن لبايعناه. ففي الحين رفع عقيرته بالبكاء وادعى أنه هو مولاي محمد ابن مولاي الحسن الموتور في ملكه، المستبد عليه في سلطانه الذي يستحقه بإرثه من أبيه..»[182].

حمل ابن زيدان على الزرهوني بشدة، فقد كانت له «معرفة بفنون السحر،

(180) بنواحي، ج 2، ص 391.

(181) الميكادو (Mikado)، مصطلح قديم، يعبّر به عن الإمبراطور الياباني.

(182) الزهوني، ج 2، ص 97.

أضل بها كثيرًا من الغوغاء، وصار يدّعي أنه هو المولى محمد نجل السلطان.. الحسن الأول وصنو السلطان المولى عبد العزيز..»[183]. وأرجع أسباب استفحال أمر «الفتّان» إلى الغوغاء والرعاع الذين خدعتهم الحيل والطلاسم التي كان يقوم بها في مناطق تجوله واستقراره. لكننا لا نجد إشارة تشكك في مسؤولية النظام العزيزي، ودوره في الإضرار بالقضية الوطنية، وعجزه عن مقاومة التكالب الاستعماري عن مجموعة من المناطق والتخوم، وعلاقة ذلك بإنتاج أمثال «الفتّان» وغيره. وذكر الأعرج السليماني في شأنه قائلًا: «وكنت كثيرًا ما أراه يتظاهر بالزهد والعفاف وكثرة التلاوة والأذكار»[184].

تدخلت الفتوى الرسمية لإضفاء المشروعية على النظام العزيزي، فصرّحت: «وأما ما صدر في هذا الزمان من الثائر الفتّان من الخروج عن الطاعة وفراق الجماعة ومحاربة جيش السلطان والتلبيس على الناس بالسفسطة والبهتان، فهو من الذنوب الكبائر المذمومة عند الأوائل والأواخر»[185]. واهتمت هذه الفتوى بالموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة عن مسألة الخروج على بيعة السلطان والدعوة إلى حركة سياسية بديلة، ورأت في ذلك إضعافًا لبقايا القوة الموجودة، وانحازت إلى أولوية درء المفاسد. وكانت انتفاضة «الفتّان» بالنسبة إليها سببًا لـ«البلقنة» السياسية، في زمن لم تتوانَ القوى الغربية عن استغلال الثغرات الداخلية لتعميق الجروح والدفع بالأزمة إلى أبعد مدى ممكن. وكان مما دلت عليه حركة الجيلاني بن إدريس الزرهوني هو اهتزاز صدقية الدولة وهيبتها، وتعبيرها عن رفض ممارسات النظام العزيزي وسياساته التي تسببت «من الناحية الاجتماعية والدينية، في تشكيل رأي عام، يصنّف السلطانَ ضمن الصف المسيحي»[186]. ولا شك في أن الفوضى السياسية التي عرفها هذا العهد استمدت أسسها وتسويغاتها من هذا التصنيف.

---

(183) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 1، ص 401-402.

(184) بنواحي، ج 2، ص 401.

(185) وردت في: محمد الفلاح العلوي، **جامع القرويين والفكر السلفي، 1873-1914** (الدار البيضاء : مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، 1994)، ص 128.

(186) Charles-André Julien, *Le Maroc face aux impérialismes: 1415-1956* (Paris: Editions J. A., 1978), p. 42.

دلت هذه الإشارات في مجملها على أنه لم يكن في مقدور محاولات التغيير الخروج على النسق العام الذي انبنت عليه آليات التداول السياسي في المغرب، فشكّلت استنساخًا وتجربة مكررة لما سبقها، إذ كانت تبحث عن مسوغات شرعيتها من داخل نسق الحكم الداخلي، باعتباره مؤشرًا حقيقيًا لقياس درجة فاعلية ممارسة السلطة السياسية ونجاعتها. واستغلت هذه الحركة مظاهر التذمر المجتمعي من سياسة المولى عبد العزيز الذي قبل تطبيق نظام الترتيب، وانفتح على مؤسسات القرض الرأسمالي، الأمر الذي سمح بنشوء «معارضة راديكالية دينية وسياسية وقبلية.. استطاعت أن تخترق على نفس المستوى، مواقع النظام نفسه»[187]. كما دلت بالدرجة نفسها على تعلّق المجتمع بمؤسسة السلطان، عندما كانت تؤسس (هذه الأخيرة) للبدائل الممكنة للنهوض والتنمية. كما تدل طبيعة هذه الرؤية بقوة على ضآلة دور القاعدة والنخبة في صوغ تجربة جديدة تؤسس لسكة تنموية حديثة، ينخرط في السير عليها كل من الدولة والمجتمع، بطريقة متناغمة متكاملة.

ما يمكن قوله بشكل نسبي في هذا المجال هو أنه بانتهاء عهد الدولة العصبية مع كل من المرابطين والموحدين، افتقدت حلبة الحكم السياسي مبدأ القاعدة المجتمعية، ممثلة في العصبية والنِحْلة. وأضحى النسب الشريف المعيار الأساس الذي يؤطر الحياة العامة في كل من الدولة السعدية والعلوية. وهنا نجد أنفسنا أمام قطيعة لم تسمح ببلورة مسيرة سياسية تعالج قضية التداول السياسي وتدفع في اتجاه مراكمة التجربة، والتأسيس لمنطق الدولة المستقرة والفاعلة على مر الدهور والفترات التاريخية المتعاقبة.

لكن أوَلم تقم الدول العصبية نفسها بنفي هذه الخاصية وربط منطق السلطة بذاتها ومصالحها الفئوية؟ أوَلم تتأسس التجربة الموحدية على أساس نفي معظم ما أنتجته عصبية لمتونة؟ أوَلم يتنكر مؤرخو مصمودة لإنجازات المرابطين وفرضوا نمطًا إخباريًا ينال من الخصم وينتصر للإنجازات التي دوّنها البيذق وصاحب الحلل الموشية، وعبد الواحد المراكشي وغيرهم؟

---

(187) عبد القادر الشاوي، السلفية والوطنية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، [د. ت.])، ص 16.

تغيب في تاريخنا المؤسسات الثابتة والمستقرة التي تستمر مع زوال الدول والعصبيات. ونفقد بناءً عليه، الخزان الحقيقي للتراكمات السياسية والمجتمعية القمينة بتوفير الشروط الفاعلة لإنجاز الأدوار التاريخية الكبرى؛ فأدى غياب هذه التقاليد إلى حدوث انفصام جلي بين الدولة والمجتمع، وافتقدنا الحاضن الذي لا يمكن من دونه صنع التغيير والتحول نحو الأفضل تنمويًا وبشريًا واجتماعيًا وسياسيًا... إلخ.

كان الفقيه الحجوي يعي فكرة التراكم والمرحلية في صنع قرارات الدولة والمجتمع، فالنظام العصري الذي كان قائمًا في أوروبا آنئذٍ على نظام المجالس الشورية الانتخابية، لم يتكوّن في نظره «دفعيًا، بل كان نتيجة قرائح أمم أوجدته تدريجيًا في أجيال متطاولة»[188]. وفي المقابل، لم تنجح تجربة التحديث اليابانية إلا عندما استُثمرت عناصر التراكم خلال عهد التوكوجاوا، في بناء الدولة والمجتمع الفيوداليين بصورة وفَّقت فيها بين القديم والجديد، والمحلي والوافد؛ وتمكنت من استثمار مرحلة العزلة الطوعية التي امتدت فترة تقارب 250 عامًا، فحققت النضج الكافي الذي أهّلها لبدء انطلاقة، اعتبرها اليابانيون سليمةً لبناء مستقبلهم التنموي، كما سنبين في وقفات لاحقة.

أدركت القوى الغربية، ولا سيما الفرنسية منها، حجم الثغرات في مجالات السلطة والمجتمع، فأذكت الصراعات ووظفت بشكل غير مباشر حركة الجيلاني الزرهوني في مشروعها الاستعماري العام. وإذ تمكن الأخير من تحقيق انتصارات عدة على الجيش المخزني، فإنه لم يقدم بديلًا سياسيًا حقيقيًا، بل حُددت له أدوار معيّنة، نفذها بشكل غير واعٍ خدمة للأهداف الاستراتيجية الفرنسية في شمال أفريقيا، بغية إضعاف المؤسسة المخزنية وانتزاع مجموعة من الاتفاقات منها خدمة للمصالح الاستعمارية. وفي هذا الصدد أشار الحجوي، من وجهة نظر مقارنة، إلى أن «النظام الذي تسير به الدول الإسلامية من أقدم عصرها قد هرم ... فتشوّه وجهه بالأخلاق السافلة الفاشية وعدم التعلم، فيضطر السلطان لتولية الجاهلين، فلا يحسنون، إذ

(188) محمد بن الحسن الحجوي، النظام في الإسلام (الرباط: المطبعة الوطنية، 1928)، ص 20.

لا علم.. والنظام الذي أسسته الدولة العصرية وجرى مفعوله في العالم.. لا وجود له، ولم تتوفر في المغرب أسبابه ومعداته»[189].

نجد أن مؤرخنا وفقيهنا يمتلك حسًّا تاريخيًّا مكّنه من توظيف فكرة التراكم لفهم الحاضر وتفسير أسباب انحطاط العالم الإسلامي عمومًا، والمغرب خصوصًا، بمقارنته بضده الأوروبي. لكننا لا نتفق معه بشأن نأيه بالسلطان عن أسباب الفشل، ووصفه بالحالة المتقدمة، أو بالجزيرة المنعزلة التي فقدت المحيط المتناغم مع تصوراته الإصلاحية، وهو عين ما ذهب إليه ابن زيدان عندما حمّل بطانة السوء أسباب فشل البعثات التعليمية المغربية في عهد الحسن الأول.

من جانب آخر، شكّلت حركة الريسولي[190] أخطر تحدٍّ للسلطة المخزنية، خصوصًا بعد اعتراضه الأجانب وخطفهم، «وامتداد نفوذه داخل المثلث الرابط بين طنجة وتطوان والعرائش»[191]. وكانت خطورة حركة الريسولي تكمن في انتشارها في منطقة قريبة من طنجة، مركز التمثيل الدبلوماسي الأجنبي. وكان يعي هذه الخصوصيات، الأمر الذي جعله يُقْدم على اختطاف شخصيات لها وزنها السياسي والدبلوماسي. ويبدو أن طموحاته السياسية المتنامية ساهمت بدور أساس في إنتاج هذا النمط من الشخصيات. ويتضح ذلك من نتائج المفاوضات التي كانت تعقب عمليات الاختطاف؛ فبعد أخذ الأميركي بيرديكاريس (Perdicaris) رهينة لديه، نجح الريسولي في انتزاع منصب قائد الفحص. ويبدو أن

---

(189) أورده: الخلوفي، ص 10.

(190) الريسولي أو الريسوني، ازداد ما بين 1868 و1870، ينتمي إلى أسرة شريفة استقرت بين تطوان وطنجة. تلقّى تعليمه الأوّلي في مدارس بني عروس. وفي فترة 1890-1892، شكّل جماعة صغيرة ركزت عملها على اعتراض المسافرين وسرقة الأموال. وفي عام 1903، خطف أحد المقرّبين من الريسولي مراسل جريدة التايمز ولتر بيرتون هاريس. وتأتي قيمة المختطَف من كونه مرافقًا للسفير الإنكليزي كيربي غرين الذي كان في مهمة دبلوماسية لدى السلطان الحسن الأول. كما اختُطف الدبلوماسي الأميركي بيرديكاريس. وأنهى مغامراته هذه باختطاف القائد ماكلين وحصوله على الحماية الإنكليزية، وانتهى به المطاف إلى السقوط في يدي محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكانت وفاته في منطقة أجدير عام 1926. بتصرف عن: Léonhard Karow, *Neuf années au service du Maroc, 1900 -1908*, trad. et présent Monique Miège et Jean-Louis Miège, mémoire du Maroc (Rabat: Ed. La Porte, 1998), pp. 69- 70, et Abdallah Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912* (Casablanca: Centre culturel arabe, 1993), p. 351.

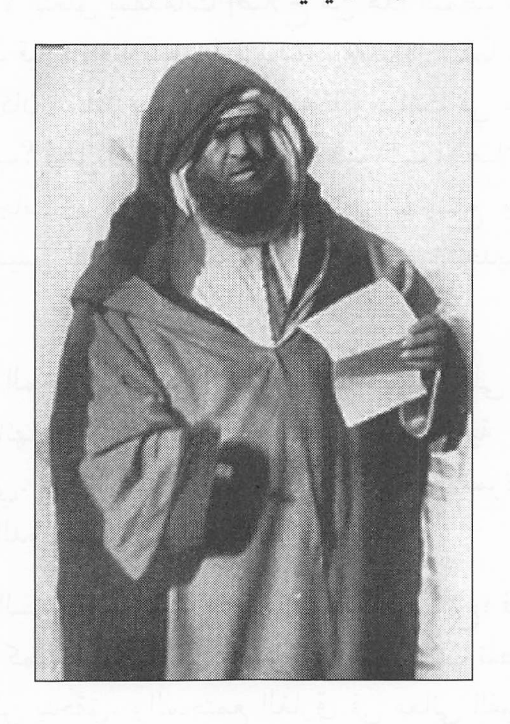
(191) Karow, pp. 69-70.

عمق الأزمة البنيوية للمخزن العزيزي، وعدم وجود كاريزماتية تستحق الخضوع والامتثال، ساهما في استمرار علاقاته المتوترة بالمخزن والقوى الأجنبية. وفي هذا الإطار كان خيار الفوضى والاختطاف الملاذ الحصين للريسولي.

توّج الريسولي مسيرته هذه بالاختطاف الشهير للقائد ماكلين الذي كان في مهمة تفاوضية معه، و«ظل ماكلين أسيرًا من دجنبر [كانون الأول/ ديسمبر] 1906م إلى 6 [شباط] فبراير1908»[192]. وتدخل الإنكليز لإطلاقه في مقابل منح الريسولي الحماية الإنكليزية، و20.000 جنيه، وإطلاق بعض أنصاره.

الصورة (1-2)

الريسوني في عنفوان شبابه[193]



(192) Laroui, p. 351.

(193) <http://www.acamlukus.org/noticias.htm>.

اخترت صورة رأيتها ملائمة لطبيعة الدور الذي ظل يعتقده في نشاطه المناهض للأجانب، وهي صورة تمثل الريسوني في عنفوان شبابه، يحمل من خلالها رسالة تنم عن الدور السياسي الذي اضطلع به في منطقة الشمال.

دل مجموع هذه الحوادث على وجود خلل كبير في ممارسة الفعل السياسي وضبط إيقاع التوازن الداخلي. ويبدو أن السلطة العزيزية فقدت مقومات رؤية إصلاحية لمعالجة الإكراهات الداخلية والتحديات الخارجية. وفي هذا السياق، ذكر الحجوي «أن مولاي عبد العزيز قد جالت في رأسه فكرة الشورى والديمقراطية وأتاه سفراؤه بهذه الأفكار، ففعل بها، وكان أول ما فعله جعل مجلس شورى من الوزراء، ينعقد كل يوم للتداول في الأمور المهمة تعرض عليهم.. لكن الأمة جاهلة والوزراء معهم قصور وتنافس»[194]. وقد برزت الفكرة بعد السفارتين اللتين توجهتا إلى كل من إنكلترا بقيادة المنبهي، والأخرى التي يممت قبلتها نحو فرنسا وروسيا.

هنا نثير سؤالًا يتعلق بمقدمات إصلاح من هذا النمط، في مجتمع غارق في الأمية، وتحت قيادة نخبة سياسية فاسدة، ومفسدة - كما سمّاها الحجوي. والسؤال هو: ما كان المطلوب إنجازه تاريخيًا وسياسيًا في مثل الوضع الذي كان يعيشه المغرب؟ وهل استيراد الأفكار والتصورات الإصلاحية، كما يوصي بها «الخبراء الأجانب»، هو الحل، أم إصلاح المجتمع ومنظومته الثقافية والتعليمية، والتأسيس لقاعدة مجتمعية واعية بحجم التحديات التي تنتظرها داخليًا وخارجيًا؟

يفرض هذا المخرج الأخير، الذي نعتقد أهميته، على السلطة الحاكمة التنازل عن كبريائها وإشراك النخب والفئات الاجتماعية والدينية في هذا المشروع التاريخي. ويأتي، بناءً عليه، التفعيل السياسي ثمرة لممارسة سلطة راشدة في علاقة الدولة بالمجتمع ومكوّناته الأساسية.

يشكك هذا السؤال في حقيقة منظور السلطة للإصلاح؛ فهو يبدو أنه يفتقد مقدمات النجاح، كما أنه يوضح الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين المخزن، الحالم بمشروع لن يتحقق، والمجتمع الغارق في معاني الفوضى والفاقد أي تطلع تنموي حقيقي.

مثّل قَبول العزيزي بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء بداية انقطاع الصلة بين

---

(194) الحجوي، النظام في الإسلام، ص 29.

المخزن ومجلس الأعيان، فلم «تقع استشارته إبان انعقاد المؤتمر ولا من بعده، وإنما أذن لهؤلاء الممثلين بالانصراف، دون أن يقع جمعهم وإعلامهم بنتيجة المؤتمر، ومن غير جبر خواطرهم بكلمة، فضلًا عن الأخذ برأيهم»[195]. ويبدو أن حدوث الطلاق السياسي بين الطرفين كان قدرًا محتومًا. وتبين لأهل العقد والحل ضرورة تجاوز الوضع الجديد، والانطلاق نحو تأسيس عقد سياسي سُمّي «البيعة الحفيظية»، فبدأ يبرز اسم المرشح البارز - عبد الحفيظ - خليفةً محتملًا لتحقيق الانتقال السياسي العسير، وتطلّب ذلك مجموعة من المذكرات التوضيحية من هذا الجانب أو ذاك، وانتهى بصوغ شروط البيعة السياسية المشهورة.

على مستوى آخر، أنتج الصراع بين الأخوين مقدمات تنظير سياسي حقيقي لحالة سياسية مأزومة، فحمل محمد بن عبد الكبير الكتاني (1873 - 1909) بشدة على الاقتراحات الفرنسية. ويبدو أنه امتلك مقدمات وعي سياسي أهّلته لإدراك طبيعة المقايضات الاستعمارية بين القوى الإمبريالية المتربصة بسيادة المغرب ووحدته السياسية. ولم يكتفِ الرجل بالتنبيه على مَواطن الخلل والإشارة إليها، بل انخرط أيضًا في حمأة السياسة ودهاليزها المظلمة التي أفضت به إلى الموت في عهد السلطان عبد الحفيظ، «وكانت تواليه فئات عريضة من الحرفيين والتجار الصغار»[196]. وبدا أثر ذلك في ما يسمّى ثورة المكس، عندما «رفضت ساكنة مدينة فاس أداء حقوق الأسواق، وضريبة التبغ»[197].

تمثّل ثورة المكس هذه مقدمات التغيير الأولى التي عجلت بإطاحة المولى عبد العزيز وتولّي أخيه المولى عبد الحفيظ الذي أبدى استعدادًا لنقض السياسة السابقة والتأسيس لسلطة وطنية راشدة.

تثار هنا أمامنا مسألة تبيّن علاقة المد والجزر بين المخزن ورموزه السياسية، والنخب المعارضة، من تيار الزوايا، أو القبائل وفئات الأعيان

---

(195) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 2، ص 202.

(196) Laroui, p. 393.

(197) المصدر نفسه، ص 393.

والعلماء. فإذا كانت فترة السلاطين الكبار حجّمت دور هذه النخب وأدمجتها بشكل نسبي ضمن نسق السياسة المرسومة، فإن فترة الأزمات وتراجع الكاريزماتية السلطانية أتاحا بلورة مقدمات مشروع سياسي يروم النيل من امتيازات السلطة المطلقة، والتأسيس لما يمكن نعته ببوادر حكم ملكي دستوري؛ فقد شهدت الفترة الكثير من المشروعات الدستورية التي تلازمت مع عودة مجموعة من وفود البعثات التعليمية، واستقرار بعض النخب الفكرية المشرقية في المغرب.

يمكن القول إننا أمام بوادر يقظة حقيقية، على مستوى التنظيرات السياسية والدستورية التي يمكن اعتبارها امتدادًا لفكرة الاستعداد التي نظّرت لها نخب النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كالكردودي والتسولي واللجائي.

حصل مولاي عبد الحفيظ على «مساندة سياسية ومعنوية من قِبَل زعماء المناطق الجنوبية، وفي مقدمهم الجلاوي، والمتوكي، الكندافي..»[198]. كما سانده مجموع الفئات الفاعلة في المشهد السياسي الداخلي، من أعيان وعلماء وغيرهم. ويمكن القول إن الجلاوي منح القوة المادية اللازمة لإبرام هذا العقد التوافقي، بل إن ويزبيرغر يتحدث عن الضغط والتهديد بالتصفية الجسدية ضد كل من حاول الامتناع عن توقيع صك البيعة المشروطة[199]، وحمل «الجلاوي معه 500 فارس، وجنّدت الرحامنة نفس العدد، وجند الكندافي 200، وقد شكل مجموع العدد نواة الجيش الحفيظي»[200].

كانت البيعة الحفيظية مشروطة بمطلب الجهاد، ومثقلة بمجموعات من الالتزامات الداخلية والخارجية. ولم تكن بصمات محمد بن عبد الكبير الكتاني غائبة عن الصياغة النهائية لصك هذه البيعة. ونتساءل ضمن هذا السياق: هل كانت دعوة الكتاني طوباوية وانتحارية، مثلما كانت عليه بعض الشخصيات اليابانية خلال المرحلة الانتقالية في عهد الميجي؟

---

(198) المصدر نفسه، ص 391.

(199) Weisgerber, p. 127.

(200) المصدر نفسه، ص 127.

لا ينكر أي باحث في تاريخ اليابان الحديث الدور المحوري الذي أدّته شخصية صايغو تاكاموري[201] في إطاحة النظام الشوغوني الصارم، القائم على قواعد علاقات الولاء الفيودالية، وما نجم عنها من التزامات متبادلة وصارمة، وشكّل مع رفيقيه أوكوبو توشيميتشي[202]، وكيدو تاكايوشي[203]، ثالوثًا أسّس لميلاد عهد الميجي؛ فقد اختلف تاكاموري مع الأوليغارشية الحاكمة، وتكتلات الزايباتسو[204] الاحتكارية في درجة الانفتاح على الحضارة الغربية، وظل متشبثًا بتقاليد الساموراي، وبالقيم الثقافية اليابانية القديمة. والتجأ إلى المدرسة كوعاء حاضن لمعتقداته الفكرية والسياسية. ومارس الرجل شعيرة السيبوكو[205]، وبقي متشبثًا بثقافة الساموراي التي يمكن تصنيفها، في مقاييس بعض الباحثين، بالمحافِظة والانتحارية واللاعقلية.

---

(201) صايغو تاكاموري (Saigo Takamori) (1828-1877) ، ازداد بكاغوشيما (Kagoshima)، تعرض للنفي في عهد التوكوجاوا وساهم في عقد تحالف بين قبيلتي ساتسوما وتشو شو مع كيدو تاكايوشي، وهو ما ساهم في إطاحة النظام الشوغوني. اختلف مع الحكم الجديد الذي حلَّ طبقة الساموراي، ودخل في مواجهة عسكرية مع الجيش الإمبراطوري، توفي بعد ممارسته شعيرة السيبوكو في ساحة الوغى. ينعته بعض الدارسين بالساموراي الأخير.

(202) أوكوبو توشيميتشي (1830-1878)، ينتمي أيضًا إلى قبيلة ساتسوما. ساهم في إقامة أركان النظام الإمبراطوري. التحق ببعثة إيواكارا عام 1871. تعرض للاغتيال على يد أحد الساموراي في عام 1878.

(203) كيدو تاكايوشي (1833-1877): رجل قانون ياباني، نشأ في بيئة تعليمية، وتلقى التعليم العسكري الغربي بإيدو - طوكيو - كان عضوًا بارزًا في بعثة إيواكارا. ساهم مع رفيقيه السابقي الذكر في إطاحة نظام التوكوجاوا الفيودالي، وإرجاع السلطة إلى الإمبراطور.

(204) الزايباتسو: تعني بالنسبة إلى اليابان مجموعة كبيرة من المقاولات، منها: Mitsubishi, Mitsui, Sumitomo, Itochu، وتعني اليوم ما يسمّى الاحتكارات الاقتصادية الكبرى، مثل جنرال موتورز الأميركية المتخصصة بصناعة السيارات.

(205) السيبوكو (Seppuku): شعيرة الانتحار الياباني التي توصف بالنبل والشهامة، وتقام أساسًا داخل المعبد، بشق البطن بواسطة سيف قصير من الأعلى إلى الأسفل، وبشكل عرضي، وقريبًا منها مصطلح هارا كيري، وترجمته الحرفية «قطع الأحشاء». وكان هذا الفعل معروفًا بين مقاتلي الساموراي، وكانوا يلجأون إليه لتفادي الوقوع في أسر العدو أو لمسح عار الهزيمة، أو للتكفير عن خطأ، كما كانت تدل على النبل والطاعة. وفي كثير من الأحيان كان الساموراي يعيّن أحد المقربين منه ليقطع رأسه بضربة سيف، بعد أن يبقر بطنه بنفسه، وهو ما قام به صايغو تاكاموري.

لم يتنكر اليابانيون لزعيم قبيلة ساتسوما، ولم توصف حركته داخل اليابان بالطوباوية والأسطورية والانتحارية. وبإشارة رمزية ومعبّرة، عفا عنه الإمبراطور الميجي بعد وفاته، وأقيمت له نصب تذكارية، واكتشف اليابانيون بعد مرحلة الانفتاح أهمية التزود بالقيم التي دعا تاكاموري إلى التشبث بها، ولم يُنعت يومًا بكونه مثاليًا، أو حالة أسطورية، لا تؤمن بموازين القوى التي دُعي ضمنًا محمد بن عبد الكبير الكتاني، أو أي عالم آخر، إلى الاعتراف بحجمها وضآلة مشروعه الجهادي إزاءها.

كانت تجربة البيعة الحفيظية «مشروعًا لثورة إصلاحية ذات أهداف وطنية واضحة»[206]؛ ذاك ما أكده عبد القادر الشاوي، لكن التحالف الذي بايع المخزن الحفيظي حمل في أحشائه كثيرًا من الألغام؛ فقد تأكد من مجريات الأمور اللاحقة أن المولى عبد الحفيظ توسل المناورة والدسائس للالتفاف على شروط البيعة. وتسابق القواد الكبار في استغلال الوضع الجديد للتقرب من القيادة العسكرية الفرنسية، والحصول على الإقطاعات والامتيازات المادية؛ فسارع المدني الجلاوي في عام 1911 إلى تسليم الكولونيل الفرنسي مانغن (Mangin) «مفاتيح مدينة مراكش، وأمضى في نفس الفترة اتفاقًا منفردًا مع بنك كبير للشؤون الفرنسية لأجل ضمان الرساميل والتقنيين لعصرنة نظام السقاية في أملاكه»[207]. ويمكن القول إننا أمام لحظة ملغومة في تاريخنا الوطني، افتقدنا فيها مقومات النجاح. وما كان لهذا النجاح أن يتحقق في ظل التحالف البراغماتي الهش الذي شكّل فيه القواد الكبار محوره الأساس. وبقيت فكرة البيعة المشروطة في حاجة إلى من يرتقي إلى معانيها ودلالتها والتأسيس لمرحلة جديدة في تاريخ الممارسة السياسية في المغرب. ولذا يمكن القول إن المقاومة المسلحة في الريف والأطلس والصحراء، منحت المعنى الإجرائي لشروط البيعة الحفيظية، ونجحت، بشكل كبير، في تأسيس بدائل ممكنة لاسترجاع الكرامة الوطنية.

لم يكن سقوط مشروع البيعة الدستورية نهاية المسعى، بل يمكن اعتباره

(206) الشاوي، السلفية والوطنية، ص 23.

(207) المصدر نفسه، ص 25.

لحظة رمزية أسست بداية المقاومة المسلحة التي مثلت تجسيدًا لمطلب الجهاد الذي بويع على أساسه المولى عبد الحفيظ. وفي هذا الإطار نتساءل: ألم تنطلق مقاومة أسرة ماء العينين، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، وموحى أوحمو الزياني، وأحمد الحنصالي، والشريف أمزيان، وغيرهم كثير، من قاعدة الجهاد واسترداد ما ضاع من سيادة وكرامة الدولة والمجتمع؟ ألم يتنكر هؤلاء كلهم لإكراهات الواقع السياسي ومتطلباته البراغماتية، واختاروا بدلًا من ذلك خيار المقاومة لتشتيت عناصر الاستراتيجيا الاستعمارية في أفق إزاحتها من المشهد السياسي الداخلي؛ فالإصلاح لا يتحقق إلا ضمن شروط سياسية وفكرية تمنح الغاية والمعنى لنخب التغيير؛ وتحتاج هذه الأخيرة، لتنزيل تصوراتها، إلى قاعدة مجتمعية تعي طبيعة التحديات الداخلية والخارجية، ويتكاثف بذلك جهدهما لصنع الحوادث التاريخية الكبرى. وتُعَدّ الحماية القنصلية أحد الأوجه والمؤشرات التي تمكننا من قياس درجة انخراط المجتمع المغربي، خلال القرن التاسع عشر، في مسيرة الفعل الإصلاحي ومشاركته الطوعية والإيجابية في صنع التنمية.

خامسًا: الحماية القنصلية و«بلقنة» المجتمع المغربي

تأتي الهزيمة من الداخل، وتبدأ العلل صغيرة فتنتشر وتستشري فتعمّ الجسم كله، إذا لم يوفَّر لها أسباب الحماية والمقاومة، فتتناسل بذلك عناصر القابلية للسقوط والفشل، ويتمكن الداء من الجسم الاجتماعي، وتنتشر في دوائره المختلفة أشكال العبث المتنوعة، ويفتقد في حركته العامة خاصية المعنى التي تحدد وجهته ومغزى وجوده، وترسم ملامح مستقبله.

نظريًّا، لا يمكن أن يتأسس الإصلاح في غياب نسيج مجتمعي كفيل باحتضان الفكرة والدفاع عنها، وربما الموت في سبيل تحقيقها؛ فالإصلاح الذي ترتبط مقدماته بشخص أو بزعيم لا يمكنه أن يحقق تنمية مجتمعية، لأنه أقرب إلى النزوات الفردية التي تضمُر بموت صاحبها. وقمين بأي رؤية إصلاحية أن تتأسس على منطق العقد الاجتماعي والموالاة الطوعية بين القمة السياسية والقاعدة المجتمعية المحتضنة لها، حتى يكون مشروع الإصلاح ذا منطلقات عميقة ومتجذرة تضمن له مطلب الاستمرارية والفاعلية.

لم تكن هزيمتا إيسلي وتطوان مجرد نكستين عسكريتين عارضتين، بل أبانتا بالملموس عن أزمة بنيوية خانقة مسّت مختلف أجهزة المخزن، كما أوضحتا هشاشة بناء الدولة والمجتمع المغربيين؛ فقد كان المجتمع المغربي فقد ميزة التماسك الاجتماعي، فاستغلت القوى الأوروبية هذه الثغرات الداخلية، فقامت بـ«بلقنة» الوضع المجتمعي من خلال ما يسمّى الحماية القنصلية.

تحدث الناصري عن تزايد عدد المحميين بعد معركة تطوان، الأمر الذي كان يعني كثرة المتمردين على السلطة المخزنية، وتضاعف عدد المتهربين من القيام بالخدمات الوطنية وأداء التكاليف المالية، الأمر الذي بدأ يعطّل الأحكام ويضعف سلطة الولاة ويهدد الأمن ويقلل من دخول بيت المال، كما أصبحت الحماية مادة للبيع والشراء من الوزراء والقناصل والتجار الأوروبيين، وأصبحت تستفيد منها قبائل بكاملها.

ربط بنمنصور بين هذه الصورة الدرامية للحماية وتلك السياسة «التي خُطّت بإتقان في أندية أوروبا السياسية لنشر الفوضى في المغرب وتوهين قواه استعدادًا لاحتلاله واستعباده»[208]، وهو ما نسجله لدى شارل أندريه جوليان عندما قال «إن فرنسا وظفت حق الحماية لأغراض سياسية»[209]، مستهدفة، مثل غيرها من القوى الإمبريالية، من هذه «الجرثومة» بث عناصر العبث والفوضى داخل مجتمع وفّر لها إمكانية التناسل والاستمرار.

على مستوى آخر، تعرضت كاريزماتية السلطان للتشويش، ويتضح ذلك من خلال تصريح وزير الدولة الإسباني كانوباس ديل كاستيو في البرلمان الإسباني عام 1880: «.. وإذا استمر حق الحماية ينتشر ويتسع كما حدث له في هذه السنين الأخيرة، فإن سلطان المغرب سيفتح عينيه في صباح يوم جميل فلا يرى له من الرعية أحدًا»[210]. لم تهدف تصريحات الدبلوماسية الإسبانية الدفاع عن سيادة المغرب ومكانة السلطان، وتُبين مجريات الحوادث أن إسبانيا كانت من أبرز الدول التي ساعدت في تناسل الحمايات. ففي عام 1877 «كان

(208) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 35.

(209) Julien, p. 32.

(210) بنمنصور، ص 85.

لإسبانيا وحدها 750 محميًّا، أي بين 3000 و3500 شخص، إذا أخذنا في الاعتبار حجم العائلات التي ينتمون إليها»[211].

تلك كانت الأهداف الحقيقية من وراء توسيع هذا «الحق»؛ فقد اجتهدت القوى الأوروبية في تعميق جروح المغرب المجتمعية. ولم تنفع معها فتاوى العلماء وتقريعات الواعظين، وهو ما أفسح المجال أمام ظهور مجتمع مختل يفتقد أي رؤية تنموية أو حسّ جماعي وطني.

حاول المخزن الحسني جاهدًا الحد من هذه الظاهرة التي أضحت مؤشرًا حقيقيًا دالًّا على أزمة مجتمعية عميقة، وعلى علة واضحة في سُلَّم القيم الأخلاقية والدينية لدى مفردات المجتمع المغربي. وفي هذا الصدد أورد ابن زيدان: «ما كانت عليه السياسة الخارجية بهذه المملكة المغربية بعد حرب تطاوين، وما نشأ عنها من تداخل سفراء الدول في القضايا والوقوف للمخزن في أوعر المسالك، وأضيق المآزق، وتكثير الحمايات وتطاول الحكام المخزنيين.. وتفاحشَ الأمر إلى أن وصلت الحالة إلى درجة كاد أن يتعذر معها تنفيذ أوامر المخزن في الرعية، لعدم إمكان تعميمها بسبب الامتيازات المعبَّر عنها بالمصالح الأجنبية..»[212].

وعيًا منه بخطورة المسألة، وتأثيرها المباشر في قيمة السلطة المخزنية ووظيفيتها، ونيلها من الإصلاحات، التي رام السلطان الجديد إحداثها في دواليب السلطة والمجتمع، وجّه الحسن الأول بعثة دبلوماسية إلى مجموعة من الدول الأوروبية ذات العلاقة المباشرة بمسألة الحماية القنصلية. وعيّن عليها الحاج محمد الزبيدي، وأعطاه «أموالًا طائلة ليصيّرها في وجهته، وهدايا فاخرة للعظماء الذين يلقاهم في رحلته، ووجّه معه أمينًا للصائر السيد بناصر غنام الرباطي والفقيه الأديب الفلكي سيدي إدريس الجعايدي السلوي بصفة كونه كاتبًا، وعددًا من أعيان ووجهاء قواد الأراحي، إظهارًا للأبهة المخزنية

(211) Jean Ganiage, *Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours*, avec la collab. de Jean Martin ([Paris]: Fayard, 1994), p. 356.

(212) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 279.

والضخامة السلطانية»[213]. وأورد ابن زيدان طبيعة مصاريف هذه السفارة، وفصّل في الفئات المجتمعية الأوروبية التي استفادت منها. ومما ذكره في هذا المجال، رسالة دبلوماسية فرنسية بتاريخ 25 حزيران/ يونيو 1876، تقول: «سعادة السفير المحترم، لقد تفضلتم سعادتكم فأبلغتموني بواسطة الكاتب الثاني بسفارة جلالة سلطان المغرب جملة عشرة آلاف فرنك برسم توزيعها على فقراء العاصمة..»[214]. وختم صاحب الإتحاف معالم الكرم المخزني على دول أوروبا الغربية برسالة من عامل طورين في إيطاليا في 30 آب/ أغسطس 1876، قال فيها: «.. تشرفت بوصول كتابكم.. وأبادر بإخباركم أنني توصلت بما قدره ستة آلاف ليرة.. مركّبة من ثلاثمائة نقد ذهبي قيمة كل واحد عشرون فرنكًا التي تبرع بها سعادة السيد محمد الزبيدي، نصفها يعد لثلاث جمعيات خيرية والنصف الآخر لبلدية طورين، تنفقه في سبيل البر..»[215].

يكشف النص عن فوضى الفكر الدبلوماسي الذي رام معالجة قضية استفحال الحماية الفردية بوسائل ومضامين لا تتلاءم مع طبيعة الذهنية الأوروبية السائدة آنئذٍ. ونستنتج من النص ومقدماته الأولى اهتمامَ السلطان بثلاث قضايا لمعالجة المسألة:

- **القضية الأولى**، ركزت على الطابع الودي لتنقيح الفصول وحصر عدد الحمايات، وارتكاب أخف الضررين.

- **القضية الثانية**، توسل السلطان بها لغة المال والهدايا الفاخرة للعظماء وأهل العقد والحل من الدول المعنية بأصل المشكلة.

- **القضية الثالثة**، اختيار وفد محنك، في نظر المخزن، وذي وزن وقيمة، وكان هدفه إظهار الأُبْهَة والفخامة السلطانية.

حملت مقدمات البعثة عوامل فشلها؛ كما تتضح، من ثناياها، سذاجة الممارسة الدبلوماسية للمخزن الذي يبدو أنه كان يعيش في زمان غير زمانه،

(213) المصدر نفسه، ص 280.

(214) المصدر نفسه، ص 286.

(215) المصدر نفسه، ص 310.

من خلل القضايا الثلاث المشار إليها آنفًا. فالسياسة الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر كانت أخذت بمبدأ التوسع الإمبريالي العالمي، وبتوظيف جميع الوسائل والإمكانات لإنجاحه وتطويره. ولم يكن متوقعًا منها التحلي بالقيم الأخلاقية، في ظل تزايد تنافس دولي محموم على مناطق النفوذ الدولي، أدى بها في آخر المطاف إلى حرب مدمرة في عام 1914؛ فلم يكن متوقعًا منها، وهي تحمل القيم السياسية المكيافيلّية، الالتفات إلى هذا الكرم المخزني الذي وُضع في غير محله، وكان أولي القربى من ضعفاء المغاربة أحق به وأجدر. كما لم يكن المخزن المغربي يدرك تفصيلات السياسة الدولية في هذه المرحلة، بل أُحيط علمًا بوجود تناقضات أوروبية، حاول استغلالها إلى أبعد مدى ممكن لتأخير احتلال البلاد ووضعها تحت الوصاية الأجنبية.

غاب العلم ومطلب الحيَل الدبلوماسية، ففقدنا الاتجاه الصحيح للتغيير والبناء على أسس سليمة، في الآن الذي امتلكت القوى الغربية فيه عناصر القوة، وفي مقدمها القدرة على المناورة السياسية، واستنباط الحيل الدبلوماسية، وتأكيد حضورها في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية.

لكن ماذا كانت الخيارات الأخرى البديلة التي كان في إمكان المخزن المراهنة عليها لاستئصال الداء أو الحد من استشرائه؟ تتعدد الأجوبة، لكن الأكيد أن اللحظة التاريخية التي كنا نعيشها لم تكن تسمح لنا بحلول جذرية وفاعلة، ألم يقل ابن خلدون إن «الهرم إذا نزل بالدولة فإنه لا يرتفع»[216].

ما يمكن قوله في هذا الصدد إن القوى الإمبريالية وظّفت الحماية وسيلة لاختراق البنية التقليدية للمجتمع المغربي، والنفاذ إلى دواليب الإنتاج المجتمعي المحلي، وتعطيل أدنى مستويات الوحدة الداخلية.

كانت القوى الإمبريالية «مُجْمعة على إزعاج السلطان عبد العزيز، بعد أن كانت سياسة الحسن الأول تهددها بقيام دولة على غرار مصر في أيام

(216) عنوان فصل: في أن الهرم إذا نزل بالدولة فإنه لا يرتفع: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دراسة وتحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، 3 مج، ط 3 (القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر، [د. ت.])، ج 2، ص 753.

محمد علي»[217]؛ ذاك ما فكرت فيه كاتبة إنكليزية في عام 1901. وإذا كانت الأوضاع الداخلية السياسية والتنموية متباينة بين البلدين - مصر والمغرب - فإن المشترك بينهما هو تعرضهما لهجمة غربية مدروسة قامت على أساس استعمال جميع معالم القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية.

على الرغم من بذل العلماء في المغرب الجهدَ باتهامهم كلَّ من تلبّس بالحماية القنصلية بالفسق والفجور، وحتى بالكفر، وعلى الرغم من أن منابر الجمعة كانت محطة تمرير خطاب الوعظ والتقريع، فإن الاستجابة لم تحدث، بل تضاعفت أعداد المحميين وتعددت القبائل التي لا تجري عليها الأحكام. وما يمكن تأكيده هو أن خللًا في منظومة القيم المجتمعية حال دون تفعيل «فتوى كفر أهل باسبور». وتبين أن المجتمع المغربي في عمومه لم يكن يمتلك ما يمكن نعته بنزعة وطنية واضحة المعالم والتوجهات، بل إنه على العكس من ذلك، فقد البوصلة والهدف والغاية من الانتماء الحقيقي إلى الوطن، واتضح لنا ذلك في ما سبق ذكره من عبثية الجيش المغربي في معركة إيسلي، وما مثّله ذلك صورة مصغرة للمكوّنات المجتمعية الداخلية. لكن هل كانت الدولة برموزها المختلفة تمتلك ميزة الانتماء الوطني الإيجابي والفاعل لتطوير الدولة والمجتمع؟!

لم تقتصر الاستفادة من مزايا الحماية القنصلية على شخص أو شخصين، بل امتدت إلى العشيرة برمّتها. ففي رسالة بعث بها المولى الحسن الأول إلى وزيره للشؤون الخارجية السيد محمد بركاش في عام 1877، جاء فيها:

«وبعد، فقد أخبر خديمنا القائد محمد بن علي العرايشي أن رجلًا من الهواورة فرقة من الخلط احتمى بالفرنصيص وأغرى الفرقة المذكورة على عدم القيام بالكلف، فامتنعوا من إعطاء الحراك والقيام بالكلف مع قبيلتهم المذكورة»[218]. ولا شك في أن هذه الزعامات كانت تتلقى إشارات أجنبية

(217) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 2، ص 141.
(218) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 425.

إيجابية تدفعها في اتجاه استمرار الحصول على هذا الامتياز وتوسيع انتشاره إلى أبعد مدى ممكن، بما يخدم في نهاية الأمر الاستراتيجيا الغربية، ومن ذلك ما كان يقوم به القنصل العام للولايات المتحدة الأميركية في طنجة «بالاتجار في الحماية القنصلية وبيع عقودها للراغبين في شرائها لقاء ثمن معلوم»[219]. كما وردت رسالة من عامل آسفي السيد الطيب ابن هيمة إلى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بمبالغة قنصل إسبانيا بآسفي في منح الحماية من دون قانون[220].

مثّلت قضية الغنجاوي[221]، الذي حصل على الحماية الإنكليزية، علامة واضحة في الإشكالات التي أثارتها مسألة الحماية في وجه الإدارة المغربية. ويبدو أن هذا الامتياز منح الرجلَ المال والسلطة والوجاهة والمساعدة القضائية ضد جريدة *The Times of Morocco* (أزمنة المغرب) المشهورة والمستقلة وضد مدير تحريرها، فقضت «بتغريم ميكين مائة جنيه استرليني، مع تحميله مصاريف الدعوى كاملة، بالإضافة إلى منعه من نشر أي قدح في حق الغنجاوي تحت طائلة

---

(219) المصدر نفسه، ص 420.

(220) مقتطفات من الرسالة: «وبعد، فاعلم أن قونصو الصبنيول، الذي بآسفي، أكثر علينا من الحمايات في المدينة والقبائل بدون قانون.. وكادت الأحكام أن تتعطل من جهة كثرة من يريد الاحتماء به بلا قانون..»: مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 443.

(221) بوبكر بن الحاج البشير الغنجاوي، لا يعرف تاريخ ولادته ومكانها، توفي في عهد المولى عبد العزيز في عام 1905، بدأ حياته المهنية سائق جِمال متنقلة بين مراكش ومراسي الجديدة وآسفي والصويرة، لحمل البضائع المستوردة والمصدرة، وهو ما ساهم في توثيق صلاته بالإنكليز. وقد برز اسمه في الوثائق المغربية في بداية سبعينيات القرن التاسع عشر بصفته وكيلًا للشركة التجارية البريطانية: مؤسسة بيري والشركاه في ليفربول Messers perry and Co. Liverpool، وربط علاقات متينة بجميع وزراء المخزن الحسني وكبار موظفيه. وتبرز الوثائق التي ساقها خالد بن الصغير تجسسه لمصلحة الإنكليز الذين بسطوا حمايتهم عليه وعلى آل بيته الأقربين، وقد أطلعهم على بعض الاتفاقات السرية التي عقدها المخزن الحسني مع إيطاليا، وفي الوقت نفسه استلم ظهائر التوقير والاحترام من السلطان مولاي الحسن، الأمر الذي يجعلنا نشك في كونه عميلًا مزدوجًا، ونجح بسبب ذلك في مراكمة ثروة مالية ضخمة. وفي 14 تشرين الأول/أكتوبر 1893، أعلن للإنكليز تخليه عن مواصلة مهمة التوسط في خدمة المفوضية البريطانية. وتوفي في عام 1905، مخلفًا ثروة مالية قُدرت بأكثر من مليوني فرنك ذهبية، تمكن الكلاوي من السيطرة عليها بطرائق ملتوية. بتصرف عن: بن الصغير، **بريطانيا وإشكالية الإصلاح**، ص 122-171.

العقوبة بتهمة عدم احترام قرار المحكمة»[222]؛ فالغنجاوي اتُهم «بالاغتناء عن طريق المتاجرة في الحمايات غير القانونية بشكل أزعج السلطان»[223]. ووصفه إيوان سميث في عام 1891، في رسالة إلى اللورد سولزبوري: «.. وهو على ذكاء حاد. ويؤكد لي سير جون هي، أنه بامتداد السنوات الطويلة التي تعامل خلالها مع الرجل، لم يقدم له معلومة زائفة أو ضارة بالمصالح البريطانية»[224]، وهو ما يؤكد الدورَ التجسسي الذي قام به الغنجاوي لمصلحة بريطانيا، واحتماءَه بها للإفلات من ردّات الفعل المخزنية. كما يبدو من وصف سميث أن العميل البريطاني تمتع برضى الدوائر السياسية البريطانية العليا وضماناتها، الأمر الذي يجعلنا نختلف مع مضمون الرسالة السلطانية التي فسرت تجاسره على الولاة والحكام بسبب ارتباطه الاقتصادي بتاجر بريطاني؛ فقد ورد في الرسالة التي وجّهها السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى وزير الخارجية محمد بركاش، ما يلي: «... وانظر ما صدر من هذا السلكوط الغنجاوي في جانب عامل مراكش بسبب اعتماده على بعض التجار النجليز [الإنكليز]، ولولا ذلك ما قدر أن يتكلم بكلمة قبيحة في صاحب العامل، فضلًا عن العامل نفسه»[225].

حمل المخزن بشدة على الغنجاوي، وحاول التنسيق مع ميكين، رئيس تحرير جريدة أزمنة المغرب، لتدعيم ملف التهم الموجّهة إلى الغنجاوي في الدوائر القضائية البريطانية. وقد استفاد من الدعم القنصلي، للإفلات من التهم التي وجّهت إليه، ومن أبرزها «أن ثلاثة نصارى وردوا لمراكشة وسكنوا بدار الغنجاوي، واشتغلوا بقلب اعتقاد الناس والسعي في تبديل دينهم»[226].

من جانب آخر، نقرأ في رسالة موجّهة من محمد بن العربي الطريس إلى غريط في 22 آب/ أغسطس 1892، قال فيها: «والحجة منه إثبات بيعه وشرائه

(222) المصدر نفسه، ص 162-163.

(223) المصدر نفسه، ص 166.

(224) فيليب جورج روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية-المغربية حتى عام 1900، ترجمة ودراسة وتعليق يونان لبيب رزق (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981)، ص 284.

(225) مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 401.

(226) بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، ج 3، ص 1133.

في الرقيق، ولا كبير مشقة في هذا على المخزن. وقد أعلم مكين المذكور.. أنه إن توصل بالشهادة الثابتة بما ذكر، حصل المطلوب في الغنجاوي..»[227].

حاول المخزن جاهدًا درء المفاسد الناجمة عن استفحال داء الحماية الفردية، وفي هذا الإطار بعث السلطان محمد الزبيدي الرباطي برسالة إلى وزير خارجية بريطانيا، جاء فيها أن الحماية «أدخلت على الدولة ضررًا عظيمًا بكون جل المتلبسين بها يتمردون على الحكام، ويتجاسرون بما لا يمكن الصبر عليه. وكثير ممن يحتمي، إنما هو أهل الجرائم والدعارة، ومن يريد الامتناع عن دفع الواجب عليه من الأعشار والكلف»[228].

تكمن المشكلة إذًا في وجود قاعدة مجتمعية توسلت الحماية القنصلية لتحقيق أغراضها الذاتية وللتستر بها على الممارسات الممنوعة شرعًا وقانونًا كالدعارة وبيع الخمور، والتهرب من أداء الواجبات المالية، والتقت مصلحتها في ذلك مع مصالح القوى الكبرى التي كانت تهدف إلى تدمير النسيج المجتمعي المغربي، والتأسيس لمرحلة الوصاية عليه، واستغلال إمكاناته الطبيعية والاقتصادية. ومن هذه الزاوية «أدت الحماية دورًا أساسًا في تعميق حالة اللاأمن.. وظهور حركات التمرد والثورة»[229]، وهو ما يدل على ارتباط تطور ما يسمّى ظاهرة السيبا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بمخططات خارجية كانت تتوسل هذه «الجرثومة» لإذكاء التناقضات و«بلقنة» الأوضاع وتبرير التدخلات. ومن هنا يمكننا فهم الحرص الشديد الذي كانت تبديه القوى الغربية تجاه مسألة الحماية والمحميين في جميع المحطات التفاوضية مع المخزن من خلال السفارات الأجنبية في المغرب، وفي أثناء المؤتمرات التي خُصّصت لهذا الغرض، من قبيل مؤتمر مدريد (1880).

أبرزت الحملة الدبلوماسية التي قامت بها بريطانيا لفائدة وزير الحربية المهدي المنبهي، درجة الاهتمام الذي أبدته القوى الغربية تجاه المسألة؛

---

(227) المصدر نفسه، ص 1133.

(228) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 301.

(229) Mohammed Kenbib, *Les Protégés: Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc*, thèses et mémoires; 29 (Rabat: Faculté des lettres et des sciences humaines, 1996), p. 259.

فبريطانيا لم تكن تعتني بحماية المصالح والمكتسبات المالية للمنبهي أو الغنجاوي وغيرهما، بل هدفت من خلالهما إلى تأزيم الوضع الداخلي، والسير به إلى مرحلة الوهن الشديد، وهي سياسة جربتها القوى الغربية ضد الصين في أثناء حرب الأفيون[230] الأولى، حيث وظّفت «إبداعاتها» العسكرية والسياسية في توفير أجواء الأزمة والفوضى السياسية والاقتصادية، وفي ترسيخ الوجود الإمبريالي في داخلها.

استمرت الحماية القنصلية بالتناسل بوتيرة متزايدة بعد مؤتمر مدريد، ودخلت منعطفًا خطِرًا باستهدافها شخصيات ذات وزن سياسي وديني. «وكانت فرنسا أول من أقدم على خطوة من ذلك النوع حين بسطت حمايتها سنة 1884 على الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني، زعيم الزاوية الوزانية»[231]. وتأتي خطورة المسألة من امتداد الحماية إلى أتباع الرجل، والنيل من سيادة الدولة المغربية وتمثيلية السلطان. وفي رسالة سرية - والتعبير لابن الصغير - «توصل دراموند هاي بأخبار موثوق بها، أكدت له رغبة الشريف الوزاني في تسليح أتباعه للوقوف في وجه أي محاولة يقوم بها المخزن لاحتوائهم، كما أعلن الوزاني أن دخوله تحت الحماية الفرنسية نابع من إيمانه الراسخ بأن المغرب لا بد وأن يكون من نصيب فرنسا، وأنه مستعد للقيام بكل ما في وسعه لتحقيق تلك النتيجة»[232].

---

(230) اندلعت حرب الأفيون بين الصين وإنكلترا (1839-1842)، وانتهت بهزيمة الصين وتوقيع معاهدة نانكين عام 1843. استولت بريطانيا بموجبها على هونغ كونغ، وفتحت الموانئ الصينية أمام البضائع الغربية بضرائب بلغ حدها الأقصى 5 في المئة.

واستطاعت الولايات المتحدة الأميركية الدخول إلى الأسواق الصينية ومنافسة شركة الهند الشرقية في تلك الحرب. فوقّعت معاهدة مماثلة في عام 1844، وكان من نتائج هاتين المعاهدتين الانتشار الواسع لتعاطي الأفيون في الصين، فوصل عدد المدمنين فيها عام 1906 على سبيل المثال 15 مليونًا. وفي عام 1920 قُدّرت نسبة المدمنين بـ 25 في المئة من مجموع الذكور في المدن الصينية. واستمرت معاناة الصين من ذلك النبات المخدر حتى عام 1950، عندما أعلنت حكومة ماو تسي تونغ بدء برنامج فاعل للقضاء على تعاطيه وتنظيم تداوله.

(231) خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، ط 2 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، ص 370.

(232) المصدر نفسه، ص 376.

يمكن الاطمئنان إلى صحة هذه المعلومات بمقارنتها بخطاب وجّهه أورديكا[233] إلى السلطان جاء فيه: «... قل للسلطان.. إننا على استعداد لإرسال ثلاثين ألف رجل عبر الحدود لمساندة شريف وزان، ومساعدته لممارسة الحكم لصالح الفرنسيين، وإننا ستتقدم نحو فاس ونحو جهات أخرى ..»[234]. ولم يقتصر نفوذ عبد السلام الوزاني الروحي والزمني «على المجال المغربي، بل امتد إلى جبال منطقة وهران. وكان يشكل، باعتباره شريفًا إدريسيًّا، وجهًا معارضًا للسلطان»[235].

قدم الوزاني الكثير للمخزن ولم يحصل على ما يوافق طموحاته الشخصية والمعنوية، فكان حصوله على الحماية الفرنسية لونًا من ألوان العقود السياسية الفاسدة شرعًا وعُرفًا، خصوصًا أن تجربته مثّلت أنموذجًا يمكننا من خلاله مقاربة حصول بعض الأفراد البارزين على هذه الحماية في فترات لاحقة، ومن أبرزهم محمد بن سعيد المصلوحي، سيد الزاوية المصلوحية وكبيرها؛ فبعد مفاوضات سرية وسريعة، جرت «الموافقة على وضع الحاج محمد بن سعيد المصلوحي تحت الحماية البريطانية في خريف سنة 1893م»[236]. وتحولت الحماية القنصلية إلى أداة رئيسة لتصريف الاستقطاب الأوروبي - الأوروبي، وإلى ترجمة عملية للمصالح الإمبريالية المتناقضة. ولم تكن النخب الوطنية التي حصلت على هذا «الامتياز» سوى وُقود مدّ هذه المصالح بأسباب البقاء والاستمرار.

لم يفلح الحسن الأول في الحد من مشكلة الحماية القنصلية وتداعياتها

(233) أورديكا: سفير فرنسي في طنجة، عُيّن في عام 1882، في سياق سيطرة الجمهوريين على الحكم في فرنسا. وتوجّه في بعثة دبلوماسية إلى مراكش لملاقاة الحسن الأول، ركزت في مباحثاتها على إنشاء خط للسكك الحديد يربط الجزائر بالمغرب، وإقامة تلغراف، ومشاريع زراعية. وخلّفت سفارته وتهديداته باحتلال المغرب ردات فعل غاضبة داخليًّا وخارجيًّا. بتصرف عن: محمد جوي، «السفارات الأجنبية إلى فاس ومراكش في عهد مولاي الحسن، 1876-1894،» إشراف محمد الأمين البزاز (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1998)، ص 106-109.

(234) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 376-377.

(235) Julien, p. 32.

(236) بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح، ص 390.

الاجتماعية والاقتصادية، والسيادية، بل ازدادت وطأتها بتدويل المسألة في أثناء مؤتمر مدريد (1880)، وشكّل حله مطلبًا أساسًا في شروط البيعة الحفيظية.

مع تزايد التجار الأجانب في المغرب العزيزي، استفحل هذا الداء المجتمعي الذي استعصت سبل حل ألغازه وإشكالاته، «ووجد التجار الأجانب وسماسرتهم المغاربة في العمال والشيوخ، سندًا لترويج بضائعهم وأموالهم، ودخلوا في علاقات تجارية مربحة مع رجال المخزن المعينين في البوادي»[237]. وفي هذا الصدد أبرز الحجوي خطورة الحماية القنصلية وامتدادها في المدن والبوادي: «... ولم يبق غني بفاس، بل وبالقبائل القريبة من فاس، والثغور، وبمكناس، ومراكش وغيرهما من المدن، إلا وقد نال الحماية الأجنبية، ولم يبق في حكومة عبد الحفيظ، إلا الفقراء والمساكين ومن لم يجد سبيلًا للوصول إليها»[238].

من جانب آخر، لم يكتف بعض التجار الفاسيين بحماية دولة واحدة؛ «فقد لجأ بعضهم إلى التعلق بدولتين أو أكثر، لتحصين نفوسهم فيها والفرار من السلطات المخزنية، وجباياتها؛ فقد كان محمد القباج، مثلًا، في السنوات السابقة للحماية، محتميًا بثلاث دول عظمى هي: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا»[239].

امتدت الحماية القنصلية إلى أفراد الدوائر المخزنية، ويمكن اعتبار حالة الوزير المنبهي المستهدَف بغضب المولى عبد العزيز حالة أنموذجية في هذا المجال؛ فقد مثّل المصالح البريطانية ودافع عنها في المغرب، وحاول في سبيل أن يكون لها «حضور في مد السكك الحديدية وتحسين طرق المواصلات وإصلاح الموانئ والجمارك»[240]. وإدراكًا منه لحجم الأخطار التي كانت تحيط بمستقبله المالي، حصل على الحماية الإنكليزية بسرّية تامة منذ عام 1901.

---

(237) العربي أكنينح، «تكوين الطبقة التاجرة في فاس في القرن التاسع عشر وأسباب ازدهارها،» أمل، السنة 2، العدد 6 (1995)، ص 71.

(238) الحجوي، «دفتر تقاييد لحوادث تاريخية،» ص 47، ورد في: فنيتير، ص 73-87.

(239) Driss Ben Ali, «Fès et son insertion dans le capitalisme,» *Assas*, no. 3 (Septembre 1980), p. 27.

(240) الصديق الروندة، المهدي المنبهي: الوزير الشاهد على بداية الأزمة المغربية، من 1900 إلى 1903 (الرباط: الرباط نيت، 2006)، ص 22.

وعندما قرر المخزن العزيزي في أوائل آب/ أغسطس 1904 مصادرة جميع ما يملكه، على عادة المخزن في التنكيل بالخصوم والمعارضين، واجه اعتراضًا بريطانيًا قويًا، ووضع موظفو القنصلية الإنكليزية في طنجة وفاس والقصر أختام مفوضيتهم على أملاكه في هاته المدن.

ازداد الأمر خطورة عندما تمسكت الحكومة الإنكليزية برأيها، غير عابئة باتفاق مدريد، فأرسلت دعمًا لموقفها البارجة الحربية لومينيرف (Le Minérve) إلى ميناء طنجة، فلم يَسَع السلطان إلا التراجع عمّا أصدره من أوامر، وكلّف وزير المالية السيد محمدَ التازي إيجاد حل مقبول. وفي النهاية تخلّى عن القضية برمّتها[241]. ولم يجد الوزير المنبهي بدًّا من الارتماء في أحضان الحماية الإنكليزية؛ فبعد عودته من موسم الحج «استقر بطنجة حتى وفاته، مستفيدًا من الثروة المهمة التي راكمها أثناء ممارسته للسلطة»[242]. ومن غرائب الحوادث أن المنبهي كان قبيل ذلك في مهمة سفارية في بريطانيا، وكان «من جملة القضايا التي بحثها مع الإنجليز مشكلة الحماية القنصلية»[243].

نحن إذًا أمام صراعات عبثية تستقوي بالداخل على الخارج، وترهن قراراتها ومحور وجودها للمخططات الاستراتيجية الأجنبية. وكانت امتيازات الحماية القنصلية الوسيلة المثلى للقوى الإمبريالية لتشتيت الجهد المحدود لمحاولات الإصلاح المخزني، والتأسيس من خلالها لعناصر الفشل والانتحار، بحسب الحجوي.

شكّلت الحماية القنصلية عنصرًا أساسًا ضمن شروط البيعة الحفيظية، وطولب سلطان الجهاد أن «يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات»[244]. وهو مطلب وردت أولويته في المشروع الدستوري لعام 1908، حيث وُضع فصل خاص للحماية القنصلية، أكد، في مواده 75-76-

---

(241) المصدر نفسه، ص 60.

(242) Weisgerber, p. 108.

(243) Kenbib, p. 299.

(244) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 2، ص 352.

77-78-79[245] على تقنين الحصول على الحماية الفردية، خصوصًا موظفي المخزن، فجاء في:

المادة 77: لا يجوز لأحد من أبناء السلطنة المغربية المتخذ حماية دولة من الدول أن يدخل في الوظائف المخزنية[246].

تميز الصوغ اللغوي والقانوني لهذه المواد بالدقة والاحترافية، لكننا نتساءل عن حجم الوظائف المخزنية الموجودة آنئذٍ حتى تكون وسيلة من وسائل الضغط، بعد أن عجزت الفتاوى والخطب المنبرية عن رد المحتمين والحد من تسابقهم نحو هذا الامتياز الملغوم.

لم تكن بنية الدولة المغربية آنئذٍ قادرة على الوفاء والالتزام بشرط تطهير الأمة من هذا الداء، إلا إذا عدّلت مقدماتها، وانحازت إلى مطالب واضعي شروط البيعة؛ لكن الأنفة المخزنية لم تحتمل إشارات الأمر والنهي الواردة في مجمل النصوص والدعوات الإصلاحية، فقررت المضيَّ في إعادة إنتاج الأنماط السياسية السابقة، والانخراط في المشروع الذي انتهى بالمخزن إلى سقوط الدولة والأمة تحت الحمايتين الفرنسية والإسبانية.

لا يمكن الاقتصار في استنتاج العطب المغربي على طبيعة البنية الذهنية وأدوات الاشتغال الفقهي والسياسي لفئة العلماء والأمراء، بل يفهمنا مجهر التحليل الموضوعي أن الداء ظل كامنًا في مجموع القاعدة المجتمعية، بعلمائها وأمرائها، وعامتها وخاصّتها، وأن هذه القاعدة شكّلت الخزان الحقيقي لمختلف الأزمات التي واجهها المغرب في الفترة موضوع الدراسة.

يصعب على أي مقاربة إصلاحية أن تؤسس لإمكانات النجاح في غياب قاعدة مجتمعية صلبة ومتماسكة، وواعية بفقه اللحظة التاريخية التي تعيشها، وبحجم التحديات التي تواجهها. وهنا تجلى العطب المغربي بوضوح: فَقَدَ المغرب - سلطةً ومجتمعًا - المقدمات الكفيلة بضمان النتائج المرجوة من

(245) إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية (الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1985)، ص 175.

(246) المصدر نفسه، ص 175.

سياسة الإصلاح. ولم تكن الحماية القنصلية سوى مرآة عكست حجم الثغرات المجتمعية، واضمحلال النسيج الداخلي، وغياب روابط الفعل التضامني بين مختلف المفردات المحلية.

إذا كانت الحماية القنصلية مؤشرًا حقيقيًا يسمح بجس نبض المجتمع وقياس درجة تماسكه وحيويته، فإن المدرسة والتعليم كانا من الأوجه التي يمكن من خلالها التقاط زخم التراكم المعرفي والمؤسساتي في نسق الدولة والمجتمع، كما أنهما يمثّلان معيارًا حقيقيًا دالًا على مدى انخراط المجتمع المغربي في إنتاج عناصر معرفة التنمية.

سادسًا: المدرسة المغربية وخصوصيات التعليم

تُعتبر المدرسة الوعاء الحاضن للقيم الثقافية، والمنطلق الملائم لتمرير خطاب السلطة والمجتمع. وهي النبض الذي يمكن من خلاله قياس درجة الانخراط المجتمعي في إنتاج المعرفة والتقدم. وكلما حملت هذه المؤسسة التعليمية خاصيات التراكم الإيجابي الممتدة تقاليده في عمق التاريخ وتحولاته، كانت مؤهلة للانطلاق بعد الجمود، والتجديد بعد التقليد، والتأسيس لمجتمع متحفز لصنع التنمية والانخراط في سيرورة الإصلاح والتغيير.

في هذا الإطار نتساءل عن مدى وجود رؤية تعليمية مخزنية واضحة ودقيقة ومحددة خلال الفترة المدروسة، وهل هناك ما يشير، في تاريخنا الوطني، إلى وجود مؤسسات تعليمية خاصة نافست الدولة في بلورة رؤية تربوية فاعلة داخل مكوّنات المجتمع ومؤسساته؟ وإذا كانت موجودة، فما هي طبيعة اشتغالها وما هي مضامينها المعرفية والتربوية؟ وهل يمكن الحديث عن استمرارية أو قطيعة في مسارنا التعليمي الممتد من فترة الدول العصبية الوسيطية إلى سقوط المغرب تحت الحماية الفرنسية عام 1912؟

لم تكن المدرسة، بشكلها المؤسساتي، إبداعًا مغربيًا خالصًا؛ فقد وجدت صورها الأولية في المشرق. وبرزت مراحلها الجنينية في زمن الرسول، وارتبطت بالتوجيهات العامة التي تضمنها الوحي القرآني وهو يوجه الإنسان إلى رحاب المعرفة والعلم بمختلف أصنافه الدنيوية والأخروية، ويؤسس

لآليات التنزيل وممارسة الاستخلاف الإنساني، بوضع المؤسسات، والانتصار لاختيارات الاستمرارية الحضارية.

حاول أحد الباحثين التشكيك في الدور الذي أداه الإسلام في تقعيد أسس مدرسة العلم والتعليم بقوله: «نتوفر على معلومات قليلة حول بداية وتطور التعليم في البلدان الإسلامية؛ ومن دون شك فقد ضم القرآن والحديث... إشارات متعددة تدل على أهمية التعليم، وعلى المكانة المتميزة للعلم والعلماء. إلا أنه - التعليم الإسلامي - مقارنة بالتعليم الإغريقي والروماني، يثير مشاكل عويصة، كما يكتنف تاريخه بعض الغموض»[247]. ويتابع بنظرة تؤطرها المرجعية المسيحية: «لم يميز الإسلام، كعقيدة غزو، ما بين ما لقيصر وما لله، ودخل في مواجهات حربية مع المجتمعات التي واجهها، بخلاف المسيحية التي لفتت الأنظار بتبشيرها السلمي وبميزة التضحية»[248].

يبدو أن الاضطراب واضح في المقابلة بين الإسلام كنظام ركّز على القضايا الفردية والجماعية، واعتبر مفهوم الدين شاملًا ومستغرقًا للمسائل الدينية والدنيوية، وبين المسيحية التي يمكن اعتبارها مجموعة من التعاليم الأخلاقية البحت.

حاول باي نزع صفة المؤسساتية عن التعليم والمدرسة في الإسلام، وظن أن ذلك لم ينسجم مع «الإطار النظري» الذي دعت إليه التعليمات الإسلامية. لكن من حقنا التساؤل عن مصدر الحركية الدائبة التي شهدتها الثقافة والعلوم الإسلامية، وبلغت أوجها في زمن العباسيين، وحتى في فترات التراجع السياسي. فما هي العوامل والمقدمات التي أنتجت العبقرية الإسلامية، في مجالات العلوم بأصنافها المختلفة؟ ألم تشكل فترة الرسالة الحاضن الأساس والعمق الاستراتيجي الذي منح الفكرة وأُطر العلم وأهمية التلقين، وحوّل المجتمع إلى مدرسة كبيرة عجز المسجد عن استيعاب

---

(247) Lucien Paye, *Introduction et évolution de l'enseignement moderne au Maroc: Des Origines jusqu'à 1956*, ed., introd. et notes par Mohamed Benchekroun (Rabat: Arrissala, 1992), p. 31.

(248) المصدر نفسه، ص 32.

تدفقاتها ووهجها الإشعاعي؟ في مقابل ذلك، أي تعليم وأي مدرسة أنتجتها الحضارة الرومانية؟ ألم تكن ساكنة أوروبا الفيودالية تعيش زمنًا ثقافيًا موبوءًا، ارتبطت فيه المدرسة والتعليم، إن وُجدا، ببؤس الكنيسة الثقافي والعلمي؟ ومن جهة أخرى، ألا يمكن القول إن بروز المدرسة الغربية، كوسيلة للنهضة، ارتبط بالإرث العربي الإسلامي من خلال معابر الأندلس وصقلية وبلاد الشام؟

انتقل مفهوم المدرسة، ككثير من المفاهيم والمؤسسات، من بلاد المشرق الإسلامي إلى المغرب الإسلامي، فظهرت المدارس في المشرق «في مناخ متعدد المذاهب السُّنِّيَّة، فكان هناك بالطبع مدارس الحنفية ومدارس الشافعية ومدارس الحنابلة، وبعض مدارس المالكية على قلّتها»[249]. وفي المقابل، ارتبط ظهور المدارس في المغرب بالصراعات السياسية والمذهبية، واعتُبرت إحدى الدعامات التي ساهمت في بناء الدولة ودعم خياراتها السياسية والفكرية. وبتركيزٍ ربط المولى عبد الحفيظ بين ازدهار العلم وصلاح الأمراء: «ولم يزل العلماء يترحمون على من أحيا الله العلم على يديه...، ولا سيما إن كانت سيرته مع ذلك محمودة كصلاح الدين...، وكذا ملوك المغرب من الأدارسة والمرابطين وبني عبد المؤمن...، وبني عبد الحق»[250].

لا يمكننا تصور المطلب التعليمي، وإدراك وظيفته التنموية، بفصله عن محيطه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وعمقه التاريخي. والمحاولات التي تنتقد المنظومة التربوية في المغرب خلال القرن التاسع عشر لذاتها، وبعزلها عن سياقها العام، تُفقدها جوانب الموضوعية المطلوبة.

---

(249) محمد القبلي، «قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات،» في: عبد الله العروي [وآخرون]، النهضة والتراكم: دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية، تقديم سعيد بنسعيد العلوي، المعرفة التاريخية؛ 25 (الدار البيضاء: دار توبقال، 1986)، ص 57.

(250) محمد عباسي، «دراسة وتحقيق «داء العطب قديم،» لعبد الحفيظ بن الحسن العلوي،» (أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2007-2008)، ص 211.

لا يقتصر هذا المبحث على دراسة بنية التعليم ومواده الدراسية، بل يمتد إلى ما يمكن تسميته تقاليد الانتظام المؤسساتي داخل المنابر التعليمية المختلفة التوجهات والأدوار. ولا شك في أن هذا الانتظام ارتبط في تاريخ المغرب بتحولات السياسة منذ عصور الدول العصبية.

«كان أساس دعوة المرابطين العلم، وعليه قامت دولتهم»[251]. ويفصل ابن أبي زرع في المقدمات التي تسببت في اختيار عبد الله بن ياسين ليقوم بتعليم صنهاجة الصحراء؛ فقد أجاب يحيى بن إبراهيم الجدالي عن سؤال أبي عمران الفاسي، واصفًا حال قومه: «إنهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كثير علم، وليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحبون الخير ويسارعون إليه، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام»[252].

شكّل مطلب العلم والتعليم ركنا أساسًا في مشروع قيام الدولة المرابطية، ومنح العصبية الصنهاجية النِّحلة الكفيلة بتحقيق الوحدة، وهي شرط أساس في بناء الدولة والاتجاه بالمجتمع نحو الفاعلية والانخراط الطوعي في مسلسل إنتاج شروط التنمية، كما أسس يوسف بن تاشفين في فاس مدرسة الصابرين التي سُمّيت في ما بعد مدرسةَ بومدين، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري[253]. والتحقت مجموعة من النخب العلمية والثقافية بعدوة الأندلس. وتندر الإشارات التاريخية التي تفصح عن طبيعة المدرسة المرابطية ومضمونها، بسبب غياب التوثيق التاريخي المحترف لإنجازات دولة لمتونة من جهة، وبفعل بداوة الدولة من جهة أخرى، بحسب ابن خلدون، الأمر الذي جعل مطلب التعليم يحتل موقعًا هامشيًا، مقارنة بعمليات التعبئة لإتمام الوحدة السياسية والانطلاق في عمليات الجهاد والقتال على جبهات مختلفة.

---

(251) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2 (الدار البيضاء: دار الثقافة، [د. ت.])، ص 67.

(252) علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، ط 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 155.

(253) <http://www.isesco.org.ma/pub/ARABIC/karawiyine/page2.htm>.

أما الموحدون، فحاولوا تكوين نخبة تعليمية قادرة على حمل أمانة الفكر المهدوي. وكانت طبقة الحفاظ الملاذ المعنوي الآمن الذي رام من خلاله عبد المؤمن إزاحة طبقة الأشياخ، وتعويضَهم بالفئة المتعلمة الجديدة. ويحضرنا في هذا الصدد نص صاحب الحلل الموشية، قال فيه، وهو يتحدث عن المدرسة العامة لتخريج الموظفين بمراكش: «وربى عبدُ المؤمن الحفاظَ بحفظ كتاب الموطأ، وهو كتاب أعز ما يطلب، وغير ذلك من تواليف المهدي. وكان يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه؛ وهم نحو ثلاثة آلاف، كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ، والتربية على ما يريده. فيأخذهم يومًا بتعليم الركوب، ويومًا بالرمي بالقوس، ويومًا بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه... وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده وخيلهم وعددهم كذلك»[254].

وأشار الأستاذ يوسف أشباخ إلى أن هؤلاء الحفاظ كانوا يدرسون أيضًا كتبًا عدة في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة[255].

نستنتج مما سبق أنه كان هناك مؤسسة تربوية حُددت لها أدوارُها التنموية بدقة وتفصيل، وكانت الغاية من إقامتها مدّ الدولة بالأطر اللازمة لتسيير مرافقها الإدارية والسياسية وإطاحة أشياخ المصامدة وعزلهم عن ولاية الأعمال والمناصب السياسية والإدارية.

من جانب آخر، وبسبب الامتداد الكبير لمجال الدولة الجغرافي، حاولت السلطة السياسية تعميم هذا الإجراء على مختلف الأصقاع الخاضعة للنفوذ الموحدي، فاستدعى عبد المومن «الصبيان الصغار... من أبناء إشبيلية، وقرطبة، وفاس وتلمسان إلى الحضرة العلية ليعلمهم ويحفظهم القرآن وحديث

(254) محمد بن أبي العلاء محمد بن محمد بن سماك، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979)، ص 150-151.

(255) ورد في: محمد المنوني، حضارة الموحدين، المعرفة التاريخية؛ 95 (الدار البيضاء: دار توبقال، 1989)، ص 19.

النبي ﷺ، فانتخب الأولاد النجباء الحفاظ من كل بلد... فكان عدد من توجه من إشبيلية خمسين صبيًا»[256].

يحضر مطلب التعليم بقوة في برنامج الدولة الموحدية، وهي الدولة التي قامت على أساس العلم، وقوة الحجة، وجرأة الفكرة، والدراية بأساليب المناظرة والجدل، كما تركب ذلك في شخصية محمد بن تومرت وتكوينه وإصلاحه.

تتجلى أهمية هذا المطلب في جعل التعليم إجباريًّا، فكان على «كل من انضوى تحت راية الموحدين أن يتعلم الضروري من العقائد وما يتعلق بالصلاة. وقد بالغ عبد المؤمن في هذا الأمر فجعله حتمًا لازمًا على كل مكلف - الرجال والنساء والأحرار والعبيد»[257].

ما يهمنا هنا مسألة الانتظام المؤسساتي والوعي بأهمية المدرسة في تحقيق التنمية المجتمعية، ونثير هنا قضية تتعلق أساسًا بالأوضاع التي انبثقت من خلالها المؤسسات التعليمية المشار إليها آنفًا. وفي أثناء البحث والتقصي نكتشف ارتباطها الوثيق بفلسفة الدولة وتوجهاتها الفكرية والعصبية، إذ «يقترن اسم عبد المؤمن وحفيده يعقوب المنصور بكثير من المدارس المنشأة... فقد أسس عبد المؤمن مدارس بمراكش واستدعى ابن رشد الثاني ليستعين به على تنظيمها»[258].

تأثر الموحدون في أثناء بنائهم نمط التعليم ومضمونه، بما أورده الإمام الغزالي في الإحياء، وذلك بالتركيز على أسلوب التدريج، ومراعاة قدرات المتعلمين ومستوياتهم المعرفية والعقلية، كما أنهم أدمجوا الرياضة في مواد التعليم، وربطوا ذلك بالخدمة العسكرية، «وكانوا يراعون وحدة السن في التلاميذ»[259]. ونبغ في عهدهم كثير من الفلاسفة والعلماء والمفكرين، وظهرت

---

(256) علي بن محمد بن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي (تطوان، المغرب: [د. ن.: د. ت.])، ص 139.

(257) المنوني، حضارة الموحدين، ص 21.

(258) المصدر نفسه، ص 17.

(259) المصدر نفسه، ص 25.

حركة ثقافية عزَّ نظيرها في تاريخ المغرب في العصر الوسيط. كما أنتج العهد الموحدي بعض المدارس التي تنمّ عن ذهنية الابتكار والانتصار لمبدأ العلم المحايد الذي يستهدف الإنسان بغضّ النظر عن انتمائه المذهبي أو الديني؛ ومثلت الأندلس كمقاطعة مصمودية، أنموذجًا بارزًا في هذا الشأن؛ فذكر لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة، العالم الغرناطي عبد الله بن سهل الذي كانت له مدرسة في مدينة بياسة في عام 553هـ/ 1158م، «وكان يحضر دروسه في الفلسفة والعلوم الرياضية جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود»[260].

من جانب آخر، أورد المقري التلمساني اسم محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي، الذي كان له مجلس بمرسية يحضره المسلمون والنصارى واليهود على السواء، يلقن فيه ألوان العلوم القديمة كالمنطق والهندسة والطب والموسيقى. ولما عادت مرسية إلى حكم المسيحيين، قدّر الحاكم الجديد للقرموطي الدور العظيم الذي كان يؤديه، فبنى له مدرسة تابعت عملها في تلقين المسلمين والنصارى واليهود[261]. وعاد ابن الخطيب إلى الحديث عن محمد بن أحمد المرسي، قائلًا عنه: «كان طرفًا في المعرفة بالفنون القديمة، المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب، فيلسوفًا ماهرًا، آية الله في المعرفة بالألسن، يقرئ الأمم بألسنتهم... عرف طاغية الروم حقه فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود»[262].

حملت المدرسة الموحدية معاني الغاية التربوية والهدف التعليمي، وربما شكّل ذلك إطارًا حكم من خلاله ابن خلدون على «انقطاع التعليم من المغرب إلا قليلًا كان في دولة الموحدين»[263]. ويمكن مقارنة المدرسة الموحدية بما

(260) لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973-1977)، ج 1، ص 404.

(261) أبو العباس أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، 8 مج (بيروت: دار صادر، 1968)، ج 4، ص 130.

(262) ابن الخطيب، ص 67-68.

(263) ابن خلدون، ص 1020.

ساد في مؤسسات التيراكويا[264] في عهود الفيودالية اليابانية، وما كانت تعنيه من انضباط في إطار التقاليد الكونفوشيوسية.

إضافة إلى ذلك، يمكن القول إن المدرسة كانت تجنح نحو الاستقلالية والحرية كلما اتجهت من المركز الإداري الموحدي نحو الأطراف، خصوصًا في الأندلس، بسبب بنية هذه الأخيرة المجتمعية وخصوصيتها الثقافية، وموقعها كحلقة وصل أهّلها لإنتاج النخب الفكرية المتميزة.

كان التعليم يبتدئ في سن مبكرة، لذلك كان نوابغ هذا العصر وعلماؤه من الشباب، أمثال المراكشي والمزدغي وابن عطية وابن رشد وابن زهر وابن غالب البلنسي. واتسع التفكير الموحدي لجميع أنواع المعارف، منكرًا موقف الفقهاء المرابطين من بعض العلوم العقلية. كما شجع الموحدون الحركة الفلسفية والترجمة عن اليونانية[265]. ويؤكد عبد العزيز بنعبد الله «أنه لم يسبق للفكر العلمي أن تحرر في المغرب كما وقع في القرنين الخامس والسادس الهجريين في عهد الموحدين، وذلك بفضل العناية التي أولاها الخلفاء للبحث العلمي ولتجارب العلماء»[266]. لكن عندما طرأت مشكلات تنظيمية في نسق الدولة وعلاقتها بأطياف المجتمع في المغرب والأندلس، «شعر عبد المؤمن بعد وقوع سلسلة من الأحداث المؤلمة في بلاد الأندلس، من جراء سوء المعاملة التي لقيها الأندلسيون من قبل قادة ينتمون إلى فئة الأشياخ الأوائل، بضرورة استبدالهم بولاة جدد من فئة الحفاظ»[267]. ومن هنا تحولت المدرسة إلى ملحقة تابعة وداعمة لسياسة الدولة وتوجهاتها، وهو ما أثار لاحقًا مجموعة من التحديات أمام الدولة والمجتمع.

---

(264) التيراكويا، وتعني حرفيًا مدارس المعبد، وهي عبارة عن مدارس خاصة كان يتعلم فيها الأطفال اليابانيون القراءة والكتابة طوال عهد الإيدو. وسنفصّل فيها الحديث في المبحث الخاص بالتعليم الياباني، في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(265) التاريخ العلمي لجامعة القرويين:
<http://www.isesco.org.ma/pub/ARABIC/karawiyine/page2.htm>.

(266) عبد العزيز بنعبد الله، «الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب،» المناهل، العدد 11 (آذار/ مارس 1987)، ص 125.

(267) محمد العربي، ««الحفاظ» أنموذج النخبة السياسية في العصر الموحدي،» أمل، السنة 2، العدد 4 (1993)، ص 13.

ساهمت مؤسسة الحفاظ في إعادة إنتاج النخبة الموحدية، وكانت المدرسة العامة لتخريج الموظفين في مراكش إحدى الوسائل الأساسية لتحقيق هذا الهدف. «ولما تداعت الدولة، ودبَّ فيها الضعف، كان أحد أسباب ذلك هو الاستغناء عن الاستمرار في تكوين هذه الفئة بعد مطلع القرن السابع الهجري»(268).

لم يتمكن الموحدون من الثبات «أمام حملات بني مرين الذين كانوا ينتقدون عليهم إقصاءهم للأئمة والخطباء الذين لا يحفظون التوحيد بلسان البربر ومعاداتهم للمذهب المالكي... وتشجيعهم للمذهب الظاهري»(269).

حاول المرينيون تصفية التركة التعليمية الموحدية، والتأسيس لنمط جديد من المدارس التعليمية، ويظهر أنهم واجهوا كثيرًا من المشكلات في هذا الاتجاه؛ وأبدى أحد الباحثين(270) رفض العلماء وصاية الدولة على هذه المنابر الثقافية، وأثار تساؤلات تحفز الباحثين على ممارسة حفريات في إشكالية المدرسة المرينية وخصوصياتها؛ فقد اتجه «بنو مرين أول ما اتجهوا إلى بناء المدارس الداخلية، لتقبّل المزيد من طلاب العلم من سائر جهات المملكة، [ذلك] أن المدارس الموحدية لم تعد صالحة لنشر المبادئ التي قامت عليها الدولة المرينية الجديدة»(271). ويبدو أن المرينيين توسلوا المؤسسات التعليمية لصنع عصبية ثقافية تدعم مشروع الدولة، وتستميل من خلالها فئة العلماء والمثقفين. والأكيد أن تركة الدولة الموحدية، بما في ذلك سبقها في تقعيد منابر تعليمية ملحقة بالدولة، تعمل على مدها بالأطر اللازمة، لم تكن غائبة عن صناع القرار المريني؛ فحاول الزناتيون نسج صورة تعليمية، تستلهم إطار التجربة التعليمية الموحدية، بمضمون فكري ومذهبي جديد، يؤسس لقواعد المذهب المالكي.

---

(268) المصدر نفسه، ص 16.

(269) عبد الهادي التازي، جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس: موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، 3 ج (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972-1973)، ج 2، ص 366.

(270) محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، المعرفة التاريخية؛ 58 (الدار البيضاء: دار توبقال، 1987)، ص 75.

(271) التازي، ص 356.

لم يكن الأمر ليتحقق من دون موافقة العلماء؛ إذ كانت الخطوة محفوفة بالأخطار، واعتبر بعضهم إنشاء المدارس إلغاء لثمرة العلم، ونفيًا لحياد المدرسة. وأورد المنوني نصًا لأحمد المقري، قال فيه عن جده محمد المقري: «سمعت الشيخ الأبلي يقول: إنما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنما أذهبه بنيان المدارس»[272]. واتفق المقري مع شيخه في ما ذهب إليه من أحكام، وفسّر ما استشكل من غموض ظاهري؛ فبخصوص المدارس، قال: «وأما البناء فإنه يجذب الطلبة إلى ما يترتب فيه من الجرايات، فيقبل بها على من يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم، أو من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك..»[273]. وناصر العلامة السوداني المالكي أحمد بابا هذا التصور، فقال: «ولعمري لقد صدق (المقري) في ذلك وبر؛ فلقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن المغربية التي هي بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلًا، فضلًا عن غيرها، بل لم يفتح كتابًا للقراءة قط، فصار ذلك ضحكة. وسبب ذلك أنها صارت بالتوارث والرئاسات أعاذنا الله حتى خلت الساعة ممن يُعتمد عليه في علمه»[274].

هكذا، تصبح المدرسة، في منظور النخب المعارضة، نوعًا من الإلحاق السياسي للعصبية الزناتية التي كانت تبحث عن سبل تدعيم خياراتها السياسية والمجتمعية على حساب العلم الصحيح والمحايد. ويتضح لنا في ثنايا النص الأخير أن ذلك كان على حساب الجودة والتأسيس، بدلًا من ذلك، لسياسة تعليمية تتوخى خدمة مصالح الدولة والتنكر لقيم العلم ومقاصده النبيلة والمحايدة. وقد ارتبط بناء المدارس بمؤسسة السلطان، تمويلًا واستثمارًا، وذلك ما لاحظناه في المؤسسات التربوية الموحدية، لكن المرينيين حاولوا اقتفاء الإطار والصورة، وتغيير المذهب والفكرة.

---

(272) محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، بحوث ودراسات؛ 20 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996)، ص 380.

(273) المصدر نفسه، ص 381.

(274) أحمد بابا بن أحمد بن أحمد التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة: [د. ن.]، 1932)، ص 246-247، ورد في: القبلي، «قضية المدارس المرينية،» ص 63.

تأسس عدد كبير من المدارس، في الوقت الذين كان المرينيون «يقاومون الأفكار الموحدية. وأصدر أحد ملوكهم ظهيرًا في البحث عن أمر طائفة من أتباع المهدي بن تومرت..»[275]. وفي المقابل، ركّزت التحلية التربوية على مقومات المذهب المالكي السُّنّي. وقد حاول القبلي التقاط الإشكالات الكبرى التي رافقت تأسيس المدارس المرينية، ولعل أهمها «تعدد القوى السياسية والدينية التي كان عليهم مواجهتها، وما فرضته عليهم من إعادة تقويم تحالفاتهم السياسية»[276]، خصوصًا في مدينة فاس التي كانت تضم جامع القرويين والنخب الفكرية والعلمية المعارضة.

في هذا الصدد، أشار نشاط إلى ثوابت الصراع الذي شهدته الفترة المرينية، ورأى أن بناء المدارس جاء «ليخفف من حدة المعارضة التي كان يؤويها جامع القرويين»[277]. ومن ثم تحول التعليم إلى آلية لإعادة ترتيب التوازنات السياسية، ولإظهار الغلبة في رقعة المشهد السياسي الداخلي، أمام أقطاب المعارضة/ العلماء الذين رأوا في الخطوة المرينية قطيعة جلية في نسق احتكار أهل فاس لإدارة شؤون التعليم وتسييرها في المدينة، في عهد المرابطين والموحدين.

ما يهمنا هنا، على الرغم من اعتراضات المقري وتلميذه المقري، والعلّامة أحمد بابا، وجود مدارس كانت قائمة، ذات مواد دراسية محددة، تكفّلت الأوقاف والسلطة السياسية بتمويلها وضمان استمرارها؛ فقد بنى أبو يوسف «المدارس بفاس ومراكش، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم، وأجرى لهم المرتبات في كل شهر»[278].

كما أورد المنوني نصًا لأبي زرع، أشار فيه إلى قيام أبي سعيد الأول بتشييد مدرسة العطارين، ورتب لها الفقهاء، وأسكنها بالطلبة «وأجرى

---

(275) المنوني، ورقات، ص 154.

(276) Mohamed Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen âge: XIVe-XVe siècle*, Islam d'hier et d'aujourd'hui; 28 (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986), p. 378.

(277) مصطفى نشاط، إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، بحوث ودراسات؛ 23 (وجدة، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003)، ص 16.

(278) المنوني، ورقات، ص 255.

على الكل منهم المرتبات والمئون [والمُؤَن]، واشترى الأملاك ووقفها عليهم»[279]. و«لما عزم أمير المسلمين يعقوب على بناء مدينة يتخذها دار ملكه، وقرار سلطانه.. ولّى الفقيه أبا أمية الدلائي قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم... وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود»[280].

يقول الأستاذ القبلي إن «كل المدارس التي ظهرت في المغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانت رسمية ومرتبطة بالدولة»[281]. ولا شك في أن وعي المرينيين بهشاشة البناء المذهبي لدولتهم، مقارنة بعصبية صنهاجة ومصمودة، دفعهم إلى المراهنة على المدرسة والتعليم، إلا أن ذلك لم يتأسس من عمق مجتمعي فاعل ومحوري. ويبدو أن إنشاء المدارس الرسمية لم يكن إبداعًا مرينيًا خالصًا، إذ تبين من خلال تطرقنا إلى التعليم في زمن الموحدين الجهد الذي بذله عبد المؤمن في ربط المدرسة بأغراض الدولة السياسية والأمنية الكبرى. وأشار المولى عبد الحفيظ إلى مدرسة الوادي قائلًا إنها «اليوم خربة، يقال إن فيها سبعمائة أو سبعة آلاف أستاذ»[282].

تناثرت المدارس المرينية في كثير من المدن المغربية، كفاس وتازة وأنفا وأغمات ومراكش والقصر الكبير ومكناس وطنجة[283]، إلا أن دَخَنَ التوظيف السياسي عطل من امتداداتها المجتمعية.

لم يكن المجتمع، بنخبه وفئاته، منخرطًا كليًا في إنتاج المعرفة ومخارج القوة والانتصار. ولم يتمكن من تأسيس منابر تعليمية ذات نسق تربوي محدد الأهداف والمقاصد يأخذ في الاعتبار معطيات الداخل وتحديات الخارج.

(279) ورد في: المصدر نفسه، ص 255.

(280) علي بن عبد الله بن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (الرباط: دار المنصور، 1972)، ص 161-163.

(281) Kably, p. 280.

(282) العلوي، «داء العطب قديم،» ص 212.

(283) Kably, p. 280.

وكانت الدولة الحاضر الفعلي والمحوري والوحيد في رسم معالم سياسة تعليمية، ذات تصورات وأهداف تتمحور حول مد الدولة بعناصر الحياة والاستمرار. ويكاد القبلي يجزم بتبعية المدرسة المرينية لمذهبية الدولة، وهو ما يفسر، في نظره، حياد السكان تجاه مشروعهم التربوي، باعتبارها وسيلة تأثير سياسي[284]، لكن ما الدور الذي أدّته المبادرات الخاصة في نشر المعرفة المحايدة؟

تمثّل المدرسة التي بناها أبو الحسن الشاري في سبتة عام 653 هـ/ 1238 م، بحسب الحسين أسكان، «أقدم مدرسة، بمفهومها الدقيق، في المغرب والغرب الإسلامي؛ وبسبب تطلبها للدعم المادي، فقد عيّن لها مؤسسها أحسن أملاكه، وحبس عليها[285] خزانة للكتب، مشتملة على مصنفات في العلوم.. اقتناها المؤسس لهذا الغرض»[286]، وأورد نصًّا للأنصاري السبتي، قال فيه إنها «أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم»[287].

يثار أمامنا إشكال يتعلق بحجم المبادرة الخاصة بإنشاء المدارس، ودرجة انخراط الفئات الميسورة، والنخب المثقفة في إنتاج العلم، بالشكل الذي يجعل منها خيارًا مجتمعيًّا واعيًا بدور المؤسسات التربوية في إحداث التغيير. من هذه الزاوية، لا نتفق مع أسكان عندما عمّم مبادرة أبي الحسن الشاري، مجملًا ذلك بقوله: «هكذا تزعم الخواص مشروع المدارس بالمغرب، قبل أن يتبناه المخزن المغربي بعد ذلك»[288]. كما نختلف مع العلّامة عبد الله كنون عندما ذكر: «ويعد بناء المدارس في هذا العهد من

---

(284) المصدر نفسه، ص 282.

(285) أي وقف عليها، ومنها الحبس والأحباس، أي الوقف والأوقاف والمحبسون في المغرب. (المحرر)

(286) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص 60.

(287) محمد بن القاسم بن محمد السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1983)، ص 29.

(288) الحسين أسكان، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، 1-9هـ 7-15م، سلسلة الدراسات والأطروحات؛ 2 (الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2004)، ص 62.

مظاهر التقدم العلمي، وقد أصبح تقليدًا متبعًا حتى من أفراد الشعب، ونشير هنا بالخصوص إلى مدرسة أبي الحسن الشاري التي أنشأها في مدينة سبتة، وكان لها صيت بعيد»[289].

مثّلت المحاولة، على الرغم من أهميتها، مبادرة معزولة واستثنائية في مسألة تقعيد أسس مدرسة وطنية خاصة، خلال هذه الفترة التاريخية. ولم يرافقها إنشاء مؤسسات أخرى، تعم المدن الرئيسة في المغرب الوسيط، بالشكل الذي يمكّنها من تشكيل لحظة تراكم فاعل في تأسيس قواعد نظام تعليمي فاعل ومؤثر، مثلما حصل في بداية تشكل النهضة الإيطالية على قوائم ومؤسسات تربوية ممتدة وشاملة وبرعاية نخب برجوازية في أهم المدن/ الدول الإيطالية. ويُذكر أن أبا الحسن كان شغوفًا «بجمع العلائق والنفائس وأمهات الدواوين العلمية أينما حل وارتحل... كما كان غنيًّا يملك من وفره المالي ما يؤدي به ثمن هذه الكتب»[290].

يستحسن وضع مبادرة أبي الحسن الشاري في سياقها التاريخي الملائم؛ إذ إنها ظهرت عندما خلع السبتيون دعوة الموحدين، وأمّروا عليهم أحمد اليانشتي، ثم وصلت بيعة أهل سبتة التي أتى بها وجوه أهل سبتة وأعيانهم إلى مدينة مراكش للرشيد[291]، كما شهدت الفترة هجوم جنوة على سبتة، ولم تنجُ من قبضتهم إلا بعد مقاومة شديدة أجبرتهم على قبول الصلح وأخذ مال معلوم. «وكان عام جنوة عند أهل سبتة مشهورًا، وفي تواريخهم مذكورًا»[292]. وحاول عبد القادر زمامة تتبع أثر الحوادث على أبي الحسن الشاري ومدرسته، إلا أن قلة المصادر، في نظره، حالت دون الإلمام بتفصيلاتها الدقيقة. وتُفصح

---

(289) كنون، النبوغ المغربي، ص 138.

(290) عبد القادر زمامة، «أبو الحسن الغافقي الشاري،» المناهل، العدد 24 (تموز/يوليو 1982)، ص 310.

(291) أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون] (بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة، 1985)، ص 345.

(292) المصدر نفسه، ص 350.

الإشارات التي أوردها ابن الخطيب في الإحاطة عن تغريب الرجل إلى الأندلس؛ فقد ذكر عنه: «غرّبه أمير سبتة اليانشتي الملقب بالواثق بالله... غاصًا به لجلالته وأهليته، وكونه قد عرضت عليه فأباها فدخل الأندلس في شعبان عام أحد وأربعين وستمائة»[293].

لم تتجاوب السلطة السياسية مع هذا النمط من المبادرات؛ فنجاح العالم في استقطاب العديد من التلاميذ والمريدين يجعل منه رقمًا صعبًا في معادلة سياسية هشة، ومنافسًا حقيقيًا - في نظر السلطة - لرموزها الإدارية والثقافية. ولعل ذلك ما دفعها إلى تغريب أبي الحسن الشاري نحو الأندلس بسبب الحرج الذي سببه لها في فترات الثورات السياسية بمدينة سبتة خلال الفترة المذكورة.

ساهم غياب فئة مجتمعية واعية بوجودها وبدورها التاريخي في إحداث فراغ في علاقات المد والجزر بين الدولة والمجتمع. ومثّل أنموذج المدارس حالة، يمكن من خلالها اعتبار الدولة الفاعل المحوري في رسم معالم سياسة تعليمية واضحة، تنتصر لاختيارات المخزن السياسية والفكرية.

لم تكن المدارس ملكًا للمجتمع، ولم تنبثق من رؤية تنموية محددة المعالم، بل ارتبطت بنفقات الدولة ورعايتها، وبتحديدات الأحباس التي قيدت أنواع العلوم الواجب تلقّيها، فكان من الطبيعي أن تضعف بهرم السلطة وتفنى بفنائها؛ إذ تراجع المشروع العلمي الرائد للمرينيين، بسبب الفتن واستحواذ أعوان السلطة عليها، «فنقصت عطاءات الطلبة ورواتب الأساتذة، الذين رغبوا بالتالي عن تكبد مشاق طلب العلم وتلقينه»[294]. وفي هذا الصدد أشار ابن خلدون إلى بعض معاني التراجع التربوي، قائلًا: «فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول

---

(293) ابن الخطيب، ج 4، ص 189.

(294) عبد المجيد الصغير، الفرج بعد الشدة حول إشكالية العلاقة بين العلم والأزمة في مغرب القرن الثامن للهجرة (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003)، ص 63-72.

فيه»[295]. وقيّد حكمه هذا مستدركًا: «.. انقطع التعليم من المغرب إلا قليلًا كان في دولة الموحدين بمراكش»[296]. وترتبط هذه القلة، في نظره، ببداوة «الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها، فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل»[297].

اهتمت الدولة الوسيطية عبر التربية والتعليم بكسر «التضامنات القبلية الفردية، وتعويضها بتضامنات أكثر شمولية، فما كان يسمّى بالفقهاء عند المرابطين، وما كان يسمّى بالطلبة عند الموحدين، هي عناصر قبلية فقدت روابطها بالقبائل التي كانت تنتمي إليها، وأصبحت تشكل وحدات مستقلة إيديولوجيًا عن محيطها القبلي»[298]. ولا شك في أن الأمر احتل مكانة بارزة لدى العصبية الزناتية التي حاولت جاهدة تبرير شرعية سلطتها السياسية إزاء المجتمع ونخبه، من زعماء قبائل وزوايا وغيرهم، بالتركيز على إنشاء المدارس ورعاية فقهائها وطلبتها، وبذلِ الجهد في توفير الخزانات ودعمها. وقد «شرط أبو يوسف يعقوب على دون سانشو في سنة 1285م/ 680هـ، ضرورة استرجاع المؤلفات العربية التي استولت عليها القوات الإسبانية، في إحدى غزواتها. واستجاب الإسبان للشرط المغربي، وتمكن الأمير المغربي من وضع يده على ثلاثة أحمال من المخطوطات. وشكل ذلك نواة خزانة وطنية عمومية»[299].

من جانب آخر، لم تكن مضامين التعليم والتلقين كفيلة بإنتاج تراكم معرفي، ورؤية تنموية واضحة، تدفع في اتجاه تبنّي قضايا وطنية، والدفاع عنها، خصوصًا أن بداية الأفول المريني توازى مع حركة الاسترداد المسيحي، وبروز

---

(295) ابن خلدون، ص 1020.

(296) المصدر نفسه، ص 1020.

(297) المصدر نفسه، ص 1020.

(298) محمد شقير، التنظيمات السياسية بالمغرب (الدار البيضاء: منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، 1933)، ص 14.

(299) Mohamed B. A. Benchekroun, *La Vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides, XIIIe, XIVe, XVe, XVIe siècles* (Fès: Impr. Mohammed V culturelle et universitaire, 1974), p. 56.

ملامح نهضة تنموية أوروبية، تؤمن بلغة القوة والتأسيس لفلسفة العلم وقواعد الحروب والمواجهات.

كانت حلقات العلم في مجملها تدور في محور المختصرات، ويجمل المقري انطباعاته في شأن هذه المسألة بقوله: «ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال من قبلهم: من حفظ المختصرات وشق الشروح، والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ما قل حفظه، ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلًا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس..»[300]، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون، عندما قال إن «مما أضر بالناس في تحصيل العلم، والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، حينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها، ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور، ولا بد من مرتبة التحصيل»[301]. وفي إشارة متميزة، التقط ابن خلدون زخم التراكم، فنراه يقول: «ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم»[302]. وربما كان ذلك سببًا في ارتحال الناس إليها «في طلب العلم من العراق والمغرب»[303].

أحدثت دورات الإبادة السياسية التي مارستها هذه الدول ضد من سبقها من عصبيات، قطائعَ جلية في نسق هذا الانتظام؛ فكل دورة تعليمية تنفي وتنسخ سابقتها، منسجمة مع حلقات النفي السياسي المتداول خلال العصر

(300) ورد في: المنوني، ورقات، ص381.

(301) ابن خلدون، ج 3، ص 1240.

(302) المصدر نفسه، ص 1025.

(303) المصدر نفسه، ص 1025.

الوسيط. وكان المتوقع في أي عمل تغييري واضح أن تضعف البيروقراطية وتهرم الأدوات الإدارية، وأن يبقى المجتمع حيًا وواعدًا بإعادة التوهج إلى الدولة وقيمها المنبثقة من رؤية تعاقدية.

فقدنا هذه المعاني السياسية في تاريخنا، فمثّل المخزن ومؤسساته التربوية بنية فوقية متعالية على المجتمع، الأمر الذي أفقد هذا الأخير حس الانتماء إلى الوطن أو الأمة؛ فقد كان في حاجة إلى الفكرة والوعي بحقيقة هذا الانتماء، والأكيد أن ذلك كان مستحيلًا في ظل بنية مخزنية وتربوية فقدت المقدمات الكفيلة بمنح الشحنات الملائمة لحركية المجتمع والدولة.

لم تمنح الدولة الوطاسية والدولة السعدية جديدًا مهمًا في هذا المجال، ولم تستطيعا الخروج على النسق العام الذي أضحى مثالًا يحتذى به، وفكرة تُتبع وتُقتفى؛ فالمدارس المطلوبة من أوساط الطلبة كانت هي «مدرسة باب الجيسة والعطارين والصفارين والمصباحية، أي نفس المؤسسات التي كان الطلب عليها بكثرة في العهد المريني»[304]. «كما أدى سوء الأحوال الداخلية، في نهاية العهد المريني، إلى تدهور الحالة التعليمية في المغرب، دفعت بوادر التحسن السياسي مع قيام دولة الشرفاء إلى انتعاش التعليم»[305].

إذا كانت العلوم المدرّسة تطرقت إلى العلوم النقلية والدراسات العقلية والتجريبية، فإن التعليم في المغرب «لم يستطع ... أن يتلخص من ظاهرتين خطيرتين جثمتا على عقول الدارسين في عصر الانحطاط وعرقلتا كل تطور فكري، وهما الاختصار والحفظ»[306]، وهذا ما سجله ابن خلدون، وهو يحمل على الأساليب التعليمية، التي عرفتها المدرسة المغربية خلال العصر الوسيط، حين غابت قدرات التحليل والنقد والحوار. وتترجم الأساليبُ المستعملة في

(304) إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1987)، ص 398.

(305) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، التاريخ؛ 2، 2 ج (الرباط: دار المغرب، 1977-1978)، ص 81.

(306) المصدر نفسه، ص 82.

التلقين التعليمي، نسقَ وآليات ممارسة السلطة المعرفية والسياسية، وهي سلطة تؤمن بأحادية اتخاذ القرار، وتفرض التوجيهات على أطياف المجتمع المختلفة.

من جانب آخر، شكلت المدرسة ومضامين وطرائق التعليم خزانًا ثقافيًا ورمزيًا، يمكننا من خلاله التقاط طبيعة الممارسة السياسية: فحضور خاصيات الحفظ والاختصار دليل على الحضور الاستبدادي للدولة؛ إذ لا يستساغ نشأة تعليم، يعتمد لغة الحوار والنقد والتقويم، داخل جهاز إداري يعتمد الدوغمائية أسلوبًا وغاية. وفي أثناء بحثنا عن الغاية والأفق الاستراتيجي للتعليم السعدي، لا نجد ما يترجم حساسية الأوضاع الإقليمية والدولية التي واجهت المغرب، خصوصًا بعد بروز معالم قوة أوروبية حقيقية، تجلت في خروج أوروبا من حدودها التقليدية، وسيطرتها على الممرات الحيوية للتجارة الدولية وتهديدها الموارد الاقتصادية للجنوب المغربي. فلم يكن التعليم لدينا ليترجم الأخطار المحدقة وضرورة الاستعداد التربوي والتعليمي للمستجدات الاستراتيجية.

أدّت حدة الصراعات السياسية بعد وفاة المنصور إلى غياب أدوار واضحة للمؤسسات التعليمية، «فلم يحظَ الطلبة بمكانة محترمة سوى في عهد أحمد المنصور، وبعده لم يعد لهم الحق سوى في أكثر من خبزة يومية، لا يسمح لهم القانون ببيعها على بخس مبلغها، وذلك احترامًا لبنود الوصية المتعلقة بهذا الوقف»[307]. وتسبب تراجع دور المدارس السعدية في تقدم مؤسسات الزوايا، ومساهمتها في بلورة بعض المشروعات التربوية الموازية للأدوار الاجتماعية الأخرى.

أما في العهد العلوي، فشكّلت المدارس الطلابية الرسمية «استمرارًا للأنموذج المريني والأندلسي، وأقام بعض الملوك عددًا منها بعدة مدن، كمدرسة الشراطين بفاس، من إنشاء مولاي رشيد، وكالمدارس التي أنشأها محمد الثالث بأنفا ومراكش والصويرة»[308].

تشكّلت القاعدة التعليمية داخل الكتاتيب القرآنية؛ فخلال عهد المولى

---

(307) حركات، السياسة والمجتمع، ص 398.

(308) حركات، التيارات السياسية والفكرية، ص 11.

إسماعيل، وُجدت مدارس كثيرة «يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة والحساب، يحفظون القرآن عن ظهر قلب، فإذا ما حفظوه اشترى لهم آباؤهم أفراسًا هدية ويتناول المصحف بيده ويركب الفرس يتفسح عليه»[309]. وإذا كانت هذه العادات تدل على الاهتمام بثقافة القرآن وتثمين حس الانتماء الديني، فإن «التلميذ عندما يتمم دروسه يقع امتحانه واختباره، فمن فاز بأغلبية الأصوات على أقرانه عُيّن قاضيًا أو مفتيًا»[310]. غير أن التعليم كان يدور في حلقات مفرغة، تمد المخزن بالأطر الإدارية والقضائية أحيانًا، ولم يكن مقدرًا له إنتاج معرفة تساهم في التغيرات التاريخية الكبرى.

يبدو أن التعامل مع القرآن الكريم جرى من خلال عقلية التراجع والجمود التي جثمت على العالم الإسلامي في فترات تراجعه أمام طاقة الغرب المادية والعسكرية. وربما كان ذلك أحد الأوجه التي أنتجت صورة نمطية، رأت في القرآن مادة للحفظ، وأغفلت الوعي بحقيقة التعاليم الإسلامية المحفزة على البذل والكدح والانفتاح الإيجابي على المقاصد الكونية الكبرى وإنتاج المعرفة ومخارج القوة التنموية. ورأى ابن زيدان أن عهد المولى إسماعيل أنتج معرفة منقطعة النظير، وكتب في هذا الشأن: «وقد تلقيت من غير واحد أن القبيلة كانت قبل هذه المدة لا يوجد فيها إلا طالب واحد، وربما يحتاج أحد من أهل مدشر أو دوار لمن يقرأ له رسالة فلا يوجد من يحسنها حتى يرحل المسافات البعيدة لطالب يذكر له، والآن كل مدشر ودوار، بل كل خيمة، فيها طالب»[311].

بمقارنة الخطط التعليمية التي اعتمد عليها المغرب، بما كانت تشهده أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من تحولات في ميادين التربية والتعليم، يبدو لنا حجم التأخر ودرجة الانغلاق الذي عرفته المدرسة المغربية، ومارسته على نفسها ومحيطها. ويمكننا القول إن قضية الاعتزاز بالانتماء والتنزه عن مخالطة الأجانب أضرّت بالمسيرة التنموية العامة في المغرب. كما أن النسق الإداري والسياسي والثقافي ونمطية الصورة الغربية في مخيال

(309) عبد الرحمن بن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، مطبوعات القصر الملكي؛ 18 (الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1937)، ص 33.

(310) المصدر نفسه، ص 33.

(311) المصدر نفسه، ص 36.

المغاربة، لم يسمحا ببلورة رؤية تعليمية فاعلة ومنتجة. ونتفق في هذا الإطار مع العروي عندما كتب: «إن ما يمنح هذا التعليم مميزاته الخاصة، لا يتعلق بطرقه البيداغوجية، أو محتواه الدراسي، أو درجة استقلاليته بقدر ما يكمن في وظيفته الاجتماعية»[312].

ارتبط نمط التعليم الذي ساد المغرب خلال هذه الفترة بأزمنة التراجع، وما عادت له صفة الفاعلية التي أنتجتها الثقافة الإسلامية في عصر التدوين. وفي هذا الإطار، كان الطلبة الأفاقيون يتابعون دراستهم في جامعة القرويين للبحث عن بعض المعلومات البسيطة الضرورية ليزاولوا في قريتهم وظائف معلم القرآن، أو كاتب عمومي، أو عدل، أو كاتب للقاضي أو القائد. وبناءً عليه، لم يكن منتظرًا من هذا النمط من التعليم أن ينتج كفاءات وقادة يغيّرون أوضاع الدولة والمجتمع أو يصلحونها.

في عهد المولى سليمان، عجزت البنية التعليمية في المغرب عن تكوين طبيب واحد يمكنه أن يعالج المرض الذي ألمّ بالمولى عبد السلام أخي السلطان؛ إذ تقدم المخزن بطلب إلى بريطانيا أعقبه «أمر صدر من القنصل البريطاني بطنجة ماترا (Matra) في شتنبر [أيلول/ سبتمبر] 1789م إلى قائد منطقة جبل طارق لتوجيه طبيب ماهر وخبير لتقديم الرعاية للمولى عبد السلام الذي كان مهددًا بفقد بصره»[313]. لكن هذا «لا يعني أن العلم غائب.. بل هو حاضر.. غير أن حضوره هو نوع من حضور الجسم الغريب في محيط لا يؤسسه ولا يتأسس به»[314].

لم تؤسس الممارسة التربوية في المغرب لتقاليد تعليمية راسخة وممتدة، ولم تتمكن من بلورة رؤية لتنمية وإصلاح المجتمع. وتبدو عناصر التعثر من خلال المحاولات الإصلاحية المتعددة خلال القرن التاسع عشر؛ فبعد هزيمة

---

(312) Laroui, p. 197.

(313) Mungo Park, *Les Trois voyages de Mungo Park au Maroc et dans l'intérieur de l'Afrique (1787-1804), racontés par lui-même*, bibliothèque d'aventures et de voyages; 34 (Paris: M. Dreyfous, 1882), p. 1.

(314) محمد عابد الجابري، **المسألة الثقافية**، سلسلة الثقافة القومية؛ 25 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994)، ص 104.

إيسلي مباشرة «عزم مولاي عبد الرحمان.. على إنشاء مدرسة للتقنيين، أقامها بمدرسة دار المخزن.. وكانت تعطى بها دروس في العلوم»[315]، ومنها «العلوم الحقة، والهندسة والحساب، التي كانت تخصص للتقنيين العسكريين»[316]. إلا أن هذه «المحاولة لم تكن لها نتيجة»[317] فاعلة ومستمرة في تطوير مسيرة التعليم خلال الفترة المذكورة. ولا شك في أن هذا الفشل ارتبط بالمقدمات العامة التي أطّرت مثل هذه المحاولات.

أما على مستوى التعليم العالي، فمثّلت جامعة القرويين منبر التعليم العالي الوحيد في المغرب خلال القرن التاسع عشر، إلا أنها ما عادت كما كانت في زمن المرابطين والموحدين[318]؛ فإذا كانت جامعة القرويين شهدت حركية تعليمية خلال العصر الوسيط في تدريس وأخذ العلوم المختلفة، فإن ذلك تراجع في زمن الانحطاط، وما عادت تُدرّس فيها المواد العلمية، كما عقمت عن إنجاب نماذج فكرية فاعلة ومتميزة، وارتبطت الصورة النمطية التي أُعطيت لمفهوم العلم خلال الفترة المذكورة بمناخ التراجع؛ فقد اعتُبرت العلوم الشرعية على أهميتها «العلم الحقيقي الذي يعرف الإنسان نفسه وربه، وخطر الخاتمة»[319]، «وما وراء ذلك كعلم الطب والحساب، واللغة والنحو والشعر وفصل الخصومات وطرق المجادلات، إذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ بها كبرًا ونفاقًا، وهذه العلوم بأن تسمّى صناعة أولى من أن تسمّى علومًا»[320].

يمكن الحكم على هذه المفاهيم التي أُعطيت لمدلولات العلم، بربطها بسياقها التاريخي العام الذي اتصف بخاصية الانغلاق السياسي والعلمي الذي

---

(315) روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، 2 ج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج 2، ص 677.

(316) Paye, p. 96.

(317) لوطورنو، ص 677.

(318) Edouard Michaux-Bellaire, «Maroc,» (Institut Français de l'éducation), sur le Web: <http://www.inrp.fr/edition-electronique/lodel/dictionnaire-ferdinand-buisson/document.php?id=3132 >.

(319) محمد بن المدني كنون، «إيقاظ المفتون المغرور مما تذم عواقبه يوم النشور،» (طبعة حجرية ضمن مجموع، فاس، بدون تاريخ ولا ترقيم صفحات)، ورد في: محمد الفلاح العلوي، «بعض جوانب مكّونات ثقافة علماء المغرب في القرن 19 م،» أمل، السنة 1، العدد 2 (1992)، ص 37.

(320) المصدر نفسه، ص 37.

مارسته النخب السياسية والفكرية المغربية على نفسها منذ فترات مطوّلة، وهو موقف لا ينسجم مع المقاصد الشرعية الكبرى التي تؤسس لمفاهيم الفرائض الوقتية وفروض الكفاية التي تتحول، ضمن شروط الفقه الإسلامي، إلى فرائض عينية، كعلوم الطب والهندسة والصناعات العسكرية والمدنية المختلفة. ولا شك في أن هذه النظرة الجزئية لمراتب العلم أثّرت في طبيعة اختيارات أطياف المجتمع للعلوم الواجب تخصيصها بالدعم المادي من خلال منظومة الأحباس والأوقاف؛ فقد انحاز المحبسون إلى وقف جزء من ثرواتهم - في الأغلب - على العلوم التي رأوا أفضليتها في الآخرة كعلوم التفسير والفقه والعقيدة وغيرها. لذا، يبدو أن مفاهيم القوة المادية التي دُعي العقل الإسلامي، من ثنايا النص القرآني، إلى حيازتها وامتلاكها، ومنها قوة العلم التطبيقي وما يرتبط به من تخصصات معرفية، ظلت مهجورة وخارج سياق الفعل الثقافي والعلمي الذي انخرطت في إنتاجه نخب العلم والمعرفة.

لا يمكن إصدار أحكام مطلقة تتنكر أو تلغي النتوءات المضيئة في سماء العلم والنبوغ المغربيين؛ فقد أنتجت تربتنا الثقافية الكثير من قمم العلم والثقافة منذ زمن الدول العصبية، ساهمت كتاباتها الأصولية والعلمية والمنطقية... في إضافات نوعية متميزة للثقافة العربية الإسلامية؛ بيد أن ما يهمني، في مسألة التعليم في المغرب، رصد درجة الانتظام المؤسساتي الذي سبق أن أشرت إليه وانكفاء المؤسسات الموجودة على إعادة إنتاج ثقافة التقليد، والنأي عن التفاعل والندّية مع فلسفة القوة الغربية ورموزها العلمية التي بدأت تهدد الكينونة المغربية والإسلامية، وهو جانب نهدف من ثناياه رصدَ المناخ التربوي الذي نشأ فيه أفراد البعثات التعليمية المغربية نحو أوروبا.

لم تكن التنظيرات الفقهية تعيش زمانها، ولم تكلف نفسها عناء المكابدة في مطلب الاجتهاد، والتأسيس لآليات المغالبة والتحديث. وأنّى لها القيام بهذا الدور في غياب الأدوات السياسية الداعمة والفئات المجتمعية المحتضنة، وفي أفول الغاية الدينية والدنيوية من مطلب التعليم؟

من جانب آخر، نحاول استقراءَ طبيعة المناهج التعليمية والمقررات الدراسية التي سادت في المدارس المغربية؛ إذ اعتمد النظام التربوي «على

الذاكرة والحفظ، واستظهار المحفوظات، وهو في الغالب الأعم يتوقف عند ذلك لا يتعداه إلى مرحلة الفهم، والتعرف الجيد على ما يحفظ»[321]. وهي الأساليب نفسها التي انتقدها ابن خلدون وهو يحلل خاصيات التلقين التربوي في المغرب الوسيط، الأمر الذي يجعلنا نؤمن ببنيوية الأزمة التعليمية والسياسية، وبأهمية الاستشهاد بقواعده العمرانية على مختلف الفترات التاريخية، وفي هذا قال: «وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوًا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم»[322]. ويوضح مفسرًا، «وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها»[323]. وبعد تحديد المفهوم ولوازمه، ينتقل إلى وصف الحال والمآل، «فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم، في ملازمة المجالس العلمية، سكوتًا لا ينطقون ولا يفاوضون. وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم ولا تعليم»[324]. ويفصّل معبّرًا: «ومما يشهد بذلك في المغرب، أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة... فطال أمدها... لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك»[325].

رسم ابن خلدون صورة قاتمة لمسيرة التعليم في المغرب الوسيط، وربط ذلك ببداية خراب العمران البشري الذي مثّلت فيه الدولة الفاعل الرئيس والمحوري، وهي الصورة نفسها التي استمرت المدرسة المغربية في إنتاجها خلال مرحلة ما قبل الحماية.

من جهة أخرى، أنتجت هذه النظرة الجزئية لمدلولات العلم ومطالبه عناصر الخطر الوجودي على أمة الإسلام: إنه إذا كانت العلوم الشرعية ركنًا أساسًا

(321) الفلاح العلوي، «بعض جوانب مكّونات ثقافة علماء المغرب،» ص 39.
(322) ابن خلدون، ج 3، ص 1021.
(323) المصدر نفسه، ص 1021.
(324) المصدر نفسه، ص 1021.
(325) المصدر نفسه، ص 1021-1022.

للحفاظ على الذات من الاختراق والانحراف عن التعاليم العقدية والسلوكية، فإن العلوم الأخرى تمنح مقومات الدفاع المادي والمعنوي أمام القوى المتربصة، والمتسلحة بمقومات العلم وعناصر القوة التنظيمية والإدارية والسياسية والعسكرية. بل إن العلوم الشرعية نفسها تصبح ضعيفة الجدوى والفاعلية عندما يتغلب الدخيل على دار الإسلام، ويفرض ثقافة الغالب على الأمة.

تستهدف العلوم الشرعية الحفاظَ على الهوية والخصوصية العقدية والفكرية والسلوكية، وتمثل العلوم الدنيوية المختلفة قاعدة الحماية المادية وخزان القوة الداعمة للعلوم الأولى. ألم تدعُ نصوص الوحي إلى ضرورة الاستعداد والأخذ بزمام العلم وأسبابه؟ ألم يدرك المسلمون الأوائل عمق التوجيهات القرآنية فأبدعوا في مجالات العلم المختلفة والمتنوعة، وهم يحملون تصوراتهم الأصيلة عن مكنونات الوجود وعلاقتها «بواجب الوجود»؟

لا يمكننا فصل المسألة التعليمية في المغرب عن مجمل التحولات السياسية والاجتماعية، وطبيعة العلاقة الجديدة التي فرضتها عليه القوى الغربية من موقع قبول الأمر الواقع.

اعتبر ابن خلدون السيفَ والقلمَ وسيلتين «لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره»[326]، في سياسة أمور الناس والرعايا. وإذا كانت سطوة السيف حاضرة ومحكّمة في مبتدأ الدولة وهرمها، فإن ميزة القلم تقتصر على «وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره»[327].

اهتمت الدولة، من منظور النص، بالجوانب الأمنية وحماية وجودها وكينونتها السياسية، مستعملة في ذلك لغة الحديد والنار. وأضحت ثقافة القلم وتجلياته المعرفية والثقافية والتربوية مرتبطة بتمهيد الملك، ومعينة على «تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام»[328].

---

(326) ابن خلدون، ج 2، ص 695.

(327) المصدر نفسه، ص 695.

(328) المصدر نفسه، ص 695-696.

يمكن استعارة هذه القاعدة الخلدونية مؤشرًا دالًا على ارتباط أوج القلم وملحقاته بالطور الذي تمرّ به الدولة، كما نستنتج من خلالها ارتباط سطوة القلم بمؤسسة الدولة وسيوفها. فنرى محاولة بعض السلاطين تدارك ملامح الأزمة؛ فقد رأى السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790) أن «اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره، وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما..»[329].

عُدَّ السلطان محمد بن عبد الله، في نظر ابن زيدان، «أولَ من وضع حجرة في أساس نظام العدلية وإصلاح الدروس في جامع القرويين، وبيّن ما يدرس من العلوم فيه»[330]. وفي عام 1203هـ/ 1788-1789م، أصدر منشورًا ملكيًا وردَ فيه: «ليعلم الواقف على هذه الفصول المذكورة في هذا الكتاب أننا نأمر باتباعها والاقتصار عليها، ولا يتعداها إلى سواها»[331]. تفصح بداية المنشور عن خاصيات الأمر والنهي، وعلى أن مسألة التعليم في جامع القرويين شهدت أزمة في المضمون والمعنى، حملت السلطة السياسية على التدخل في تفصيلات المواد الدراسية ومقاساتها. ومن هذه الزاوية قال السلطان: «إننا نأمرهم أن لا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها، و'البخاري ومسلمًا' وغيرهما من كتب الصحاح، ومن كتب الفقه: **المدونة والبيان والتحصيل والمقدمة** لابن رشد، **والجواهر** لابن شاس، وكتاب **النوادر والرسالة** لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين، وعلى الذين يريدون تدريس مختصر الشيخ خليل أن يدرسوه بشرح الشيخ بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير لا غير..

وعلى العلماء أن يدرسوا سيرة النبي عليه الصلاة والسلام بالكلاعي وابن سيد الناس اليعمري وكذا كتب النحو، فإن الدراسة ينبغي أن تعتمد على كتاب **التسهيل والألفية** وغيرهما من كتب الفقه المتخصصة، وعليهم أن يدرسوا علم

(329) الناصري، ج 8، ص 67.

(330) ابن زيدان، **الدرر الفاخرة**، ص 60.

(331) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 3، ص 211-213.

البيان بكتاب الإيضاح والمطول، وكتب التصريف، ودواوين الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وأمثالهما مما يعين على فهم كلام العرب... ومن أراد علم الكلام فعقيدة ابن أبي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها عن جميع المسلمين..

وكذلك الفقهاء الذين يقرؤون الاسترلاب وعلم الحساب، فينبغي أن يأخذوا حظهم من الأوقاف، لما في ذلك من المنفعة العظيمة لأوقات الصلاة والميراث، ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاطَ ذلك في منزله مع رفاقه الذين لا يدرون أنهم لا يدرون، ومن تعاطى ... ما ذكرناه في المسجد ونالته عقوبة فلا يلومنَّ إلا نفسه».

يثير النص/المنشور الكثير من الأسئلة والقضايا، على أن أهم ما ورد فيه يستدعي البحث والتعليل في شأن طريقة إخراج النص وخضوع المعرفة العلمية لوصاية إدارية تجنح نحو الاستبداد وممارسة سلطة الأمر والنهي في مجال تربوي يتطلب نوعًا من الحرية في إنتاج مخارج القوة الثقافية. ويحدد المنشور السلطاني العلوم الواجب تعلمها، كما يقيد المصادر والمدونات والكتب الواجب «تحبيس» مضامين التعليم عليها دون سواها، ويحدد أسماء العلماء المعتمدين، ويختم النص بيانه الثقافي بعبارة تهديد لكل من تسول له نفسه الخروج عن التعاليم والتصورات الواردة فيه.

حقق المخزن المغربي خلال فترة حكم السلطان محمد بن عبد الله كثيرًا من الإنجازات على مستوى العلاقات الدولية، وترتيب مفردات السياسة الداخلية والموازنة بين المكّونات السياسية والاجتماعية. ويبدو أن الدولة استرجعت مكانتها وهيبتها على المستويين الداخلي والخارجي، وتجلى ذلك في تحرير مجموعة من الثغور وفرض الإتاوات التجارية على كثير من الدول الأوروبية، وفي تحقيق معالم استقرار سياسي حقيقي. وقد أورد الزياني فصلًا بعنوان «ذكر جملة من فضائل هذا السلطان ومآثره وما وفقه الله إليه من البر والاعتناء بأمر الجهاد وما شيد من المساجد والمدارس والزوايا والرباطات

والقناطر»[332]، ويدل عنوان الفصل على أهمية مطلب التعليم بالمساواة بينه وبين قطاعات حيوية أخرى استراتيجية، كأمور الجهاد وتشييد المساجد وبناء القناطر.

لم ترد في مدونة الزياني مدن أخرى وجدت فيها الأشكال نفسها من المدارس، كتطوان ووجدة وسلا. على أن الذي يهمنا هو وجود نمط تعليمي ربط بين مؤسسة المسجد والمدرسة، وهذا يوحي بداية، انطلاقًا من المقدمات السابقة، إلى أن التعليم ركز على القضايا الشرعية وما يتصل بها من معارف لغوية.

لم تنسجم السياسة التعليمية في عهد السلطان محمد بن عبد الله مع طبيعة التحول السياسي والدبلوماسي الذي شهده المغرب؛ فقد تطلب الانفتاح التجاري نوعًا من المرونة في البحث عن أسباب المعرفة والتأسيس لمخارج العلم والقوة التي بدأت تتضح معالمها في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية. وعلى العكس من ذلك، نهجت السياسة التعليمية المسالك التربوية الماضية نفسها وحملت صفة التقليد، ونأت بذلك عن أسباب المغالبة الحضارية خلال فترة انتقالية حرجة في منطقة حوض البحر المتوسط. وفي هذا الإطار أورد صاحب **الحلل البهية** اعتناء السلطان محمد بن عبد الله بالعلم والعلماء، قائلًا:

«وكان كثيرًا ما يتأسف ويقول والله لقد ضيعنا أعمارنا في البطالة، تحسرًا على ما فاته من تحصيل العلوم أيام شبابه، إذ كان معتكفًا على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس، وأيام العرب ووقائعها، حتى بلغ الغاية القصوى في ذلك... ثم زهد في التاريخ والأدب لمّا تولّى الخلافة وصرف همته للعلوم الشرعية ومجالسة أهلها..»[333]. كما يذكر الزياني عناوين الكتب التي أوصاه السلطان بشرائها، ومنها «مسند أبي حنيفة النعمان ومسند الإمام الشافعي ومسند الإمام أحمد..»[334].

---

(332) أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية (الريصاني، المغرب: مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1992)، ص 481.

(333) المشرفي، ج 2، ص 20.

(334) أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، ط 2 (الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1991)، ص 126.

ولمّا بلغه أن ولده عليًا، خليفته على فاس، اهتم بقراءة كتب التاريخ والأدب، كتب إليه: «إن كتب التاريخ والأدب هي آخر ما يقرأ، فإن اشتغلت بها أتلفت دينك وقراءتك، ووقع لك ما وقع لي، فقد شغلت نفسي بها أيام الشباب، وتركت القرآن والتفسير والحديث حتى حصلت على الندامة»[335]. وهذا توجّه يتعارض مع ما سجله في فترة لاحقة أحمد ابن المواز في حجة المنذرين، قائلًا: «ومن لوازم السلطان أن يكون عاكفًا على مطالعة الجغرافيا التاريخية ليتعرف [إلى] سيرة المتقدمين المنتجة والعقيمة ويتبصر فيما كان له أصل قديم من المخترعات العجيبة وفيما لم يتقدم له أصل ولا مثال»[336].

يبدو أن السلطان كان مدركًا خصوصيات عصره وصعوبة الإصلاح الداخلي، وعبّر عن ذلك قائلًا:

نضيع عمرنا لإصلاح غيرنا فلا عمرنا يبقى ولا الناس تصلح[337]

يختار السلطان، بسبب عوامل خاصة، نمط العلوم الواجب الأخذ بها، ويعمم إرادته واختياراته على أطياف المجتمع من علماء ومتعلمين. وكان مقام الإمارة السياسية يتطلب المعرفة بطبائع العمران البشري الذي يرتكز على مراكمة التجارب والاستفادة من دروس التاريخ وعِبَره. ويدل تأسف السلطان على دراسته لكتب التاريخ، والانكباب على دروس الفقه على غياب رؤية شمولية لمطلب العلوم المتنوعة والمتعددة، وعلى قصور معرفي في إنتاج خطاب قوة المعرفة العلمية والفلسفية، وهو الخطاب الذي بدأت تتضح معالمه وتوجهاته في العالم المتوسطي خلال الفترة المذكورة.

ابتدأ دو شينييه حديثه عن العلوم في المغرب قائلًا: «تزدهر العلوم والفنون في إطار الحرية، ولا يمكن تشجيعهما داخل نظام مستبد»[338]، وهي إشارة

---

(335) المصدر نفسه، ص 64.

(336) ورد في: العلوي، الاجتهاد والتحديث، ص 123.

(337) أحمد العمراني، «السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقيها،» دعوة الحق، السنة 35، العدد 307 (كانون الأول/ ديسمبر 1994)، ص 82.

(338) Louis de Chénier, *Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire de Maroc* (Paris: [L'Auteur], 1787), tome 3, p. 177.

تربط ازدهار التعليم بمناخ الحرية الفكرية والسياسية التي لم تكن، في نظره، متوافرة في المغرب.

لا تملك المؤسسات الاستبدادية مشروعًا تنمويًا واعدًا وتعجز عن إنتاج المعرفة الفاعلة والإيجابية؛ ذلك أنها تقوم على أساس الاستبداد وما يلحقه من إشاعة ثقافة التقليد والركود. بل إن انخراطها في إشاعة ثقافة العلم والمعرفة مقدمة لفنائها وزوالها. ويقول دو شينييه إن التعليم في المغرب ما عاد يربطه علاقة بمعارف العرب القديمة، ولم يقتفِ متعلموه آثار القدماء كابن رشد(339).

في فترة سابقة، كان «المنصور السعدي شغوفًا بدراسة الكتب الأصلية، وقد جمع حوله طائفة من الرياضيين ليدرسوا معه الكتب المتعلقة بهذه العلوم. وقد كان لإقباله عليها أثر كبير في تشجيع العلماء واهتماماتهم الكبير بهذا الاتجاه العلمي البحت حتى أصبح تعلّم الرياضيات والهندسة أمرًا شائعًا في هذا العهد»(340). كما قال الزياني، في سياق حديثه عن إعراض سيدي محمد بن عبد الله عن كتب التاريخ، إن هذا الأخير كان يقول: «هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا ومقتدانا»(341).

يبرز أمامنا إشكال ما فتئ يتكرر في هذا البحث، ويتعلق بارتباط مضمون العلم والتعليم ومؤسساتهما برموز الدولة وتوجهاتها على النحو الذي يُفقدها عنصر الاستمرارية المؤسساتية. وهي صفة يمكن استنتاج بعض معالمها من خلال التوجّه المذهبي للدولة العباسية، وأثر ذلك في التنكيل بالخصوم المنتمين إلى دوائر العلم والتنظير الأيديولوجي في زمن المأمون الذي حظي التيار الاعتزالي لديه بالرعاية والتشجيع قبل أن يُنكّل بأتباعه في أثناء ولاية المعتصم.

كانت الأزمة في المغرب أعمق وأشمل داخل مجتمع ما عاد ينتج العلم الديني والدنيوي؛ إذ سرعان ما عادت مواصلة دراسة المختصرات

(339) المصدر نفسه، ص 177.

(340) عبد الحميد محيي الدين، «رواد المغرب في العلوم البحتة،» دعوة الحق، العدد 286 (أيلول/ سبتمبر-تشرين الثاني/ نوفمبر 1991)، ص 97.

(341) الزياني، البستان الظريف، القسم 1، ص 420.

في عهد السلطان المولى سليمان؛ ودل ذلك على حجم التأخر الذي قُدّر للنخب المغربية أن تعيش فيه، وتمارس العزلة الفكرية والعلمية على نفسها وعلى المجتمع الذي تنتمي إليه. ويبدو أن دراسة المختصرات امتدت بعمق في تاريخ التعليم خلال العصر الوسيط، إذ حمل ابن خلدون على تدريس المختصرات، فهو «فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل»[342]. وبعد دراسة وصفية وتحليلية ونقدية متأنية للتعليم في مدينة فاس في عهد السلطان المولى سليمان، يستنتج محمد منفعة غياب الاطلاع على إمكانات الأوروبيين الذين طوروا أساليبهم ووسائلهم المادية والعلمية، ويسجل انتفاء التنافس معهم لتطوير القدرات الذاتية لدعم العلوم وتحقيق التقدم[343].

وأشار ابن زيدان أيضًا إلى الدور الإصلاحي التعليمي للسلطان عبد الرحمن ابن هشام، واعتبره «ثاني المؤسسين لنظام التدريس بالقرويين في الجملة»[344]. وأورد ظهيرًا أصدره لقاضي فاس مولاي عبد الهادي في 12 محرم 1261هـ - 20 كانون الثاني/ يناير 1845م؛ وهو نص نعتقد أهميته في الكشف عن طبيعة بعض مشكلات التعليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وردَ فيه[345]: «... وبعد، فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدّهم في الطلب غير أنه قل التحصيل والإفادة»، وهذا إشارة تدل على حضور كمي وفير وتحصيل علمي هزيل، «وذلك لمخالفة الفقهاء في إقرائهم عادة الشيوخ، وإعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ». ويفصّل في ذلك: «فإن الفقيه يبقى في سلكة سيدي خليل نحو العشر سنين وفي الألفية العامين والثلاثة لكثرة ما يجلب من الأقوال الشاذة، والمعاني الغريبة الفاذة، وكثرة التشعيب بالاعتراضات وردّها، ومناقشة الألفاظ وعدّها»، مما «يخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من السقيم، ولا المنتج من العقيم وفي ذلك تضييع للأعمار.

(342) ابن خلدون، ج 3، ص 1242.

(343) محمد منفعة، «التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان،» في: الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر: أعمال الندوة المنعقدة بوجدة أيام 9 و10 و11 دجنبر 1993، ندوات ومناظرات؛ 3 (وجدة، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 72.

(344) ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 79.

(345) المصدر نفسه، ص 79-82.

فتجد الطالب يرحل في طلب العلم من بلاده ... ويقيم المدة المتطاولة لا يحصل مع كثرة دؤوبه على طائل، ولا يقف على محصول ولا حاصل».

حَمَّل الظهير المدرّسين مسؤولية غياب التحصيل وخاطب قاضي فاس آمرًا: «... فبوصول كتابنا هذا إليك إجمع المدرسين وارشدهم لما فيه المنفعة العامة... وهو الاقتصار في التقرير على حل كلام المؤلفين، وإفهامه للسامعين المتعلمين». وكان الهدف من ذلك اختصار مدة التحصيل وتحقيق الإفادة. وفي نظره وأمره «لا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في الألفية الشهر والشهرين». واقترح على الفقهاء/ الأساتذة أنموذجًا للتدريس قائلًا: «ولينظروا في سيرة من قبلهم في التدريس والإلقاء، ويسلكوا ما هو أقرب للتحصيل وأمسّ بتسهيل الفهم والإقراء». ويبدو من قراءة مضمون الظهير تشابهه مع التعليم الذي انتقده ابن خلدون سابقًا، وهو الذي كان يحبذ أسلوب الحوار والمناظرة، كما يكشف عن الخطوط العريضة لمضمون المواد الدراسية التي ركزت على المدونات الفقهية التقليدية.

لم يقترح الظهير سكة تعليمية جديدة تأخذ في الاعتبار التحديات التي بدأت تبرز بحدة منذ عهد نابليون وتهديداته للمغرب واحتلاله مصر، بل نبّه على ضرورة تغيير مدة التحصيل واستعمال وسائل تجنب الإطناب والملل لدى مجموع الطلبة المتعلمين. وقد يكون هذا الفهم المحدود لدلالات العلم أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى هزيمتنا في مختلف المعارك العسكرية والسياسية والدبلوماسية التي خاضها المخزن بين عامي 1844 و1912.

دلّ الاستغراق في إنتاج عقلية التقليد على فقدان القدرة على مجاراة الغرب في رموز قوته الصاعدة التي لم تجد ما يكافئها من رد وتحدٍّ بسبب النظرة النمطية إلى الآخر «النجس» الذي لا يجوز الأخذ من معارفه وعلومه. ولم تكن البنية المجتمعية ونمط السياسة المتبعة قابلين لإنتاج ثقافة التغيير والمنافسة الحضارية. وكان في إمكان الانفتاح - افتراضًا - على دينامية الغرب وحيويته العلمية أن ينتج حركية في علاقة الدولة بالمجتمع على النحو الذي يطيح رموز النظام التقليدي الذين يقتاتون من استمرار وهنه وعلله. إلا أن طبيعة البنية السياسية والمجتمعية وأدوات الاشتغال الفكري لم تسمحا مطلقًا

ببروز هذا النمط من مجاراة الغرب في تصوراته التعليمية وكدحه العلمي والسياسي. كما لم يخرج الإنتاج الفقهي عن نسق التراجع العام الذي بدأ يعيشه العالم الإسلامي، في مرحلة تراجعه أمام طاقة العنف الغربية المنظمة والفاعلة. وما عاد المسلمون ينتجون ويبدعون، مثلما اجتهد عمر بن الخطاب ومستشاروه في تنزيل نصوص الوحي على مستجدات الوضع الإسلامي في أثناء مراحل الفتح في بلاد الفرس والروم، وما أنتجته من تحديات أمام عقل إسلامي تمكن بحنكة وحكمة من تجاوزها، والتأسيس لمخارج تنموية متقدمة وإيجابية.

ينبغي أن يشار إلى أن ثقافة الإسلام في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وفي بعض فترات الأمويين والعباسيين - وهي تؤسس لقواعد المجتمع الفكرية والسياسية والرمزية، وتدمج مكوّنات الخارج الإسلامي ضمن توجهاتها الاستراتيجية الداخلية - كانت تنتج ذلك من خلال حركة دائبة لا تتوقف. ولم تكن لتلتفت إلى الطوارئ والعثرات، أو لتكبح مسيرتَها التحديات والمستجدات التي أنتجها الساسانيون والروم.

لم ينتج المسلمون إذ ذاك فتاوى تجنح نحو هذا الموقف أو ذاك، بل أدمجوا نظم الدواوين، وغيرها، ضمن هويتهم وثقافتهم بشكل سلس وآلي، فكانت حركتهم تشبه الرحى في حركتها الدائبة والمستمرة، وهو ما سمح لها بمعالجة مختلف المكوّنات وإخراجها في صورة سلسة ولائقة وفاعلة.

تشدد التوجيهات الإسلامية على تجنّب إثارة السؤال الذي لا ينتج عملًا، فهو عنوان على الأزمة ودليلها، خصوصًا عندما يجنح المجتمع الذي أنتجه إلى السكون والجمود، فيتحول إلى انتظارية قاتلة، أمام الآخر الذي يستغل ذلك في اقتطاع المزيد من الجيوب، وفي تهديد الأمة في كينونتها وأسباب وجودها.

ويدل مجمل هذه القضايا على أن المغرب فقد أحد الشروط الأساسية للتحديث، وهي المدرسة الأصيلة والمنفتحة على إنجازات دوائر العلم والتنمية. والأكيد أن المغرب كان يجهل إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر مضامين التعليم الغربي ومقدماته الفكرية في فرنسا وبريطانيا وغيرهما. ولا شك في أن ذلك ارتبط بالتراكمات التي أسست لنمط النظرة المغربية للآخر «النجس» الذي يمنع الاتصال به وأخذ المعرفة من مصادره. وفي هذا الإطار ذكر محمد

بن المدني كنون: «ومن المقرر المعلوم أنه لا ظلم ولا بدعة أعظم من الكفر، وأن من رضي بفعل قوم فهو منهم فكيف بمن يساكنهم ويأوي إليهم ويطعمهم ويحن إليهم ويواسيهم»[346]. ولا يمكن إنكار القيمة العلمية لمحمد بن المدني كنون، فقد كان «فقيهًا عالمًا متضلعًا، قوّالًا بالحق، صادعًا به، لا يهاب في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا»[347]. كما لا نروم الجدال في حقيقة الفتوى ومضمونها، على أن الذي يعنينا فيها أنها أرّخت للهزيمة وعبّرت عن عدم قدرة العقل المغربي الذي نشأ في أحضانه وداخل تربته الثقافية ابن رشد وابن خلدون وابن البناء وغيرهم، على تأسيس بدائل حضارية متحدية.

انحازت الفتوى إلى مبدأ التعميم، ولم تميز بين التصورات العقدية ومنتوجات العلم والقوة. وأسست، بدلًا من ذلك، لخيار الانغلاق والاكتفاء برموز القوة المعنوية، التي لم تتعد حدود مدوّنات الفقه وأدب المختصرات.

جانب هذا التوجه المقاصد القرآنية الكبرى التي تؤصل لفلسفة التواصل الحضاري، وقراءة تاريخ الأمم والشعوب قراءة نقدية واعية إيجابية. والتقط موليراس هذا الخلل وسجل في هذا الشأن، وهو يتحدث عن التعليم بمنطقة جبالة: «تقدم مدارسها الأكثر شهرة تعليمًا مبتورًا، ولا شك في أنها كانت أقل مستوى من جامعاتنا خلال العصر الوسيط»[348]. ويتابع معقّبًا: «لم تجد العلوم العقلية والآداب والفلسفة والفيزياء والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا واللغات الحية طريقًا للتدريس داخل بلد ينبذ أي معرفة تصدر عن المسيحيين»[349].

ترتبط المسألة برفض ثقافة الغالب، والاعتزاز بالثقافة المحلية بشكل يدل على أثر الصدمة الغربية التي أنتجت، بمعيار نظرية التحدي والاستجابة التي قال بها توينبي، ذبذبات ارتدّت نحو استحضار الماضي وإنجازاته الحضارية وممارسة الانغلاق الفكري والعلمي عن منتجات وثقافة الغالب في ساحة

---

(346) ورد في: محمد الفلاح العلوي، «العلماء والإصلاح الديني: سيرة محمد بن المدني كنون،» أمل، السنة 2، العدد 4 (1993)، ص 74.

(347) الناصري، ج 9، ص 178.

(348) Auguste Mouliéras, *Le Maroc inconnu: Etude géographique et sociologique. Deuxième partie, Exploration des Djebala (Maroc septentrional)* (Paris: Augustin Challamel, 1899), p. 9.

(349) المصدر نفسه، ص 9.

الوغى والمعارك العسكرية، كما تؤرخ لملامح الوهن الذي أصاب المنظومة التربوية التي عجزت عن تحقيق التواصل مع إنتاجات العلم الإسلامي ومع العهد الذي كانت فيه اللغة العربية لغة العلم والثقافة والابتكار.

يتبنّى الإسلام، في تأسيسه لنمط وأشكال العلاقات الإنسانية، نظرة متقدمة، تؤمن بالاختلاف والتنوع، وتدعو إلى التعارف والتساكن. ويمكن القول إن فتاوى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تؤرخ للأزمة العامة التي تراكمت مفرداتها منذ أزمنة التراجع وتعبّر عنها. وتذكّرنا هذه التراكمات بما قرره الإمام الونشريسي، وهو يؤصل مسألة الموقف الشرعي من بقاء المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة[350]، بالشكل الذي يجعل من لحظة الفتوى تأريخًا للأزمة أكثر من كونها منتوجًا فقهيًا خالصًا.

---

(350) فتوى الإمام الونشريسي: «إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة... ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية – لعنه الله – على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه وحال. فإن محبة الموالاة الشرعية والمساكنة النصرانية والعزم على رفض الهجرة والركون إلى الكفار والرضى بدفع الجزية لهم، وظهور السلطان النصراني وإذلاله إياهم فواحش عظيمة مهلكة قاصمة للظهور، يكاد أن تكون كفرًا والعياذ بالله». انظر: أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، ورد في: جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، 1500-1830 (الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987)، ص 39-41، 41. ترتبط فتوى الونشريسي بزمنها التاريخي والسياسي، وبإكراهات الواقع وتعقيداته المتعددة، وأسست لمنطق الانسحاب السلمي من الأندلس لفائدة قوى الاسترداد الصليبي. لم يكن منتظرًا من الونشريسي أن يطرح خيار البقاء والمقاومة، باعتباره مستحيل التحقق بالنظر إلى مستوى السقف السياسي الموجود في المغرب وبلاد الأندلس. ومن هذا الجانب أرّخت الفتوى للتراجع الإسلامي وللهزيمة التاريخية بالأندلس. وفي مقابل هذه الفتوى، أصدر أحمد بن أبي جمعة الوهراني (1504) فتوى مضادة:

«إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر.. فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى.. فالصلاة ولو بالإيماء.. والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور.. وإن أجبروكم على شرب الخمر فاشربوا لا بنية استعماله.. وإن كلفوا عليكم خنزيرًا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم.. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك». ورد في: عبد الخالق الشدادي، «سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين،» المنعطف، العددان 6-7 (1993)، ص 103.

أسست هذه الفتوى خطابها على منطق التقية، وصدرت في زمن اشتد فيه الخناق على الأندلسيين، وفتحت بذلك إمكانات أخرى للمواجهة، ذلك أنها ظنت أن الأزمة عارضة وأن زوالها آيل إلى التحقق، فألحت على التمسك بالقيم الثقافية الإسلامية ولو سرًا إلى حين توافر أوضاع الصدع بالإسلام وبالشعائر الدينية.

تنبه المغرب، متأخرًا، لما يجب فعله في ميدان التعليم والمدرسة، ومثّلت معركة إيسلي وتداعياتها النفسية محطة أساسية لمراجعة الذات، والانفتاح على معرفة إمكانات الآخر وعناصر قوته. وفي هذا الإطار شكلت الرحلة قناة أساسية لتحقيق الهدف والمبتغى.

ضمن هذا السياق يمكننا مقاربة المسألة بما ذكره الصفار عن مدرسة من مدارس فرنسا، حين قال: «... فيها إحدى عشر ماية وخمسة وعشرون متعلمًا، منهم ستماية يذهبون ويجيئون للتعليم، ومنهم خمسماية وخمسة وعشرون مقيمون بها، وفيها أربعون معلمًا وأربعون ناظرًا، وهي دار كبيرة جدًا. والمقيمون بها لهم فيها أكثرهم ومثواهم وفرش نومهم وموضع مرضهم وبيت الطبيب وآلات الطب والعقاقير وموضع الاستحمام، ومواضع لوضع ملابسهم، ومواضع يغسلون بها وجوههم في الصباح، والكل في غاية النظافة والإتقان.

ويتعلم فيها الحساب والهندسة والفلسفة واللسان وعلم الفزيك والكيمياء والطبيعيات، وكيفية التصوير والتشريح. ويتعلم فيها أيضًا القفز والتعلق بنحو السور، والمشي على الأشياء الرقيقة والمشي في الهواء.. مما يعد عند بعض الناس لعبًا، وهو عندهم علم من العلوم يقرأ ويدرس ويتعلم بالكيفية حسًا.

ومن قانون المتعلمين بها، أنهم يأكلون في الساعة الثانية عشرة من النهار، وفي حين أكلهم يقف واحد في مرقاة هنالك، ويسرد عليهم كتابًا من علم التاريخ ونحوه، ليلّا تذهب تلك اللحظة ضائعة. وبعد فراغهم من الأكل يؤذن لهم في اللعب، فينهضون يلعبون ويثبون ويتسابقون، ويبقون كذلك نصف ساعة ثم يرجعون إلى شغلهم.

ثم ذهبنا لموضع آخر من مواضع التعليم، إلا أنه تعليم صغير. وذلك أن هذا المحل يجتمع فيه أولاد الفقراء الذين يذهب آباؤهم وأمهاتهم لأشغال يعملونها، ويبقون الأولاد وحدهم فيجتمعون في تلك الدار. وفيها معلمة تعلمهم شيئًا من الأدب والحروف وابتداء القراءة، ليلّا يبقون في الأزقة هائمين ولا يكون اجتماعهم من غير فائدة. وتعلمهم كيفية القيام والقعود والإقبال والإدبار وملاقاة الناس والتسليم عليهم، وكيف يأخذون ألواحهم وكيف يمحونها، وكيف يمشون مشية واحدة في صف واحد على هيئة مشية العسكر.

ثم ذهبنا لموضع آخر يتعلم فيه الصبيان، فأول ما يتعلمون حرفًا واحدًا ثم حرفين ثم ثلاثة حروف، ثم حرفين مركبين وثلاثة أحرف، ثم كلمة ثم كلمتين ثم جملة كلام... إلخ»[351]. ويعدّ هذا النص مع طوله أنموذجًا متميزًا في رحلة الصفار، وتم تسجيله اعتمادًا على مشاهدة عيانية، أنتجت وصفًا دقيقًا لعدد كل من المتعلمين والمدرسين والنظار، ومكان الإيواء وأحواله الصحية، ومواد الدراسة، ونظام الأكل، وختم حديثه بوصف خصوصيات تعليم الأطفال الصغار، والطرق التربوية المعتمدة داخلها.

انتقى الصفار معلوماته بشكل دقيق، كما أنه لم يصدر حكمًا وموقفًا خاصين به كما عودنا ذلك في مواضع أخرى. وقد أخرجها بأسلوب يدل باطنه على الإعجاب بالأنموذج التعليمي في المؤسسات التي زارها. ويمكننا الوقوف على مؤشرات ذلك من خلال حرصه على ذكر العناصر الإيجابية، من قبيل تسجيله أعداد المتعلمين، والمدرسين والنظار، ووصفه أوضاع الإقامة المتميزة بالنظافة والإتقان، وانتباهه لميزة تعدد العلوم العقلية المدرسة، ووقوفه عند مسألة اعتبار الفرنسيين التمارين الرياضية جزءًا من المواد الدراسية، وحرصهم على عدم هدر الوقت باستغلال فترات الفراغ بعناصر الإفادة. كما لفت الصفار وجود نظرية تطبيقية على مستوى تلقين المعارف اللغوية والسلوكية بالنسبة إلى الأطفال الصغار.

اختار رحالتنا قضايا معيّنة لفتته وحرص على تسجيلها بأمانة موضوعية. لكن ما الذي دفعه إلى تسجيل هذه المعلومات بعينها؟ يمكن تصنيف هذه المعلومات ضمن ما يمكن نعته بالغرائب والعجائب؛ فالرحالة المسلم مفتون بذكر ما يدل على المغايرة والمخالفة. ومن هذه الزاوية كانت المدرسة والتعليم في فرنسا، بالتنظيم الذي ذكره الصفار، معطى مخالفًا لما كانت عليه المدرسة والتعليم بالمغرب، وهو ما يجعلنا نقول إن الصفار، كان يحمل في ذاكرته، ومخياله الفردي، في حالة الوعي أو غيره، سمة التخلف التي طبعت التعليم بمختلف مستوياته في المغرب. فوصف الصفار، على وجه الحقيقة، في رحلته أحوال المغرب أكثر مما ذكر مدنية وحضارة فرنسا.

---

(351) الصفار، ص 214 - 215.

إن حالة اللاوعي التي لازمت الصفار في تقريره، ودفعته إلى المقارنة المستترة بين أحوال البلدين، مقياس أساس، يدل على أهمية الشعور الباطني بتأخر الأنا أمام الآخر. وقد اكتفى بوصف ما اعتبره مهمًا، بذكره تجليات التعليم المادية والسلوكية، إلا أن ثقافة الرجل لم تسمح له بإدراك المقدمات الفلسفية والتربوية التي أخرجت هذا الأنموذج من حالة الوجود بالقوة إلى مرحلة الوجود بالفعل.

اهتم الصفار بذكر العوامل التي يمكنها تفسير اختلال موازين القوى الذي كشفته هزيمة إيسلي. وركّز في تقريره على عناصر القوة التي تعلل ذلك، ومنها منظومة التعليم وبعض تجلياتها التطبيقية. وهو بذلك يسرد، بشكل مستتر، عيوب المدرسة المغربية خلال الزمن الذي تمّت فيه الرحلة. ولم يكن متوقعًا منه الحديث عن أمجاد الماضي، لأن ذلك يخل بالنسق العام الذي أُريدَ له أن يسجله، كي يستثمره أولو الأمر والنهي بالشكل الذي يبدو لهم ملائمًا.

تدفعنا هذه الإشارات إلى التساؤل عن الجديد الذي أتت به منظومة التعليم ومؤسساته في مغرب ما بعد معركة إيسلي، وعمّا يدل على مؤشرات تحول في مضمون وأشكال التعليم بشكل يختلف عما سبق أن ذكرناه.

لا نعتقد أن جديدًا طرأ في هذا الموضوع، كما يبدو من خلال الوثائق الرسمية التي تدل على غياب الانتظام المؤسساتي؛ فقد أورد ابن زيدان رسالة موسى بن أحمد، المؤرخة في 1294هـ/ 1877م، قال فيها: «... وبعد، فقد وصلنا كتابك مخبرًا بقضائك الغرض الذي كلفت به من تعليم طلبة العرائش الحساب والتوقيت، وأنهم حصلوا ما قرأت معهم من الكتب التي ذكرت، وظهرت نجابتهم واشتقت للرجوع لمحل خدمتك، وقد كتب بذلك العامل وأجيب بأن يحسن إليك ويوجهك ليتوجه من يقرأ معهم الهندسة..»[352].

قدم ابن زيدان لمضمون الرسالة ذاكرًا اهتمام الحسن الأول «بإرسال البعثات كذلك من العلماء على اختلاف ما يحسنون من علم وفن إلى مختلف

(352) عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، مطبوعات القصر الملكي؛ 27، 2 ج (الرباط: المطبعة الملكية، 1961-1962)، ج 2، ص 149.

الأقطار المغربية لتعليم كل واحد ما يحسن ويحذق، حتى إذا قضى وطره وأفاد فائدته المندوب إليها استأذن في الرجوع إلى بلده»[353].

لا يمكن التشكيك في الدور الذي ساهمت به الكفاءات العلمية في نقل خبرتها، إن وجدت، إلى أفواج المتعلمين بالشكل الذي يمكن الطلبة من الاطلاع على فنون علمية مختلفة في علوم الحساب والتوقيت والهندسة وغيرها. لكن ما يهمنا في هذا الخطاب، أنه لمح إلى عدم وجود مدرسة نظامية مستقلة تدير أمورها محليًا، وتتوافر على المستويات الدنيا من الضبط التربوي، كما سجل ذلك الصفار في رحلته/ تقريره/ مقارنته.

يمكن القول إن المدرسة المغربية فقدت الرؤية الكفيلة بإنتاج النخب والقيادات والكفاءات واستثمار نجاحاتها إلى أبعد مدى ممكن. كما شكلت المدارس العتيقة القِبلةَ المفضلةَ لاختيارات القاعدة الواسعة من المجتمع المغربي، وهي مدارس علمية تولاها الشعب بجهده الخاص، فضلًا عن أنه تولى كتاتيب القرآن التي لا تخلو منها أي قرية من القرى لتحفيظ أبنائه وبناته كتاب الله تعالى بإشراف المقرئين الذين كانوا في الوقت نفسه مكلفين بإمامة الصلوات الخمس في المساجد.

احتاج المخزن، في إرساله البعثات التعليمية إلى أوروبا، إلى تشييد مدرسة الألسن في طنجة التي كانت مهمتها تركز على «معرفة لغة البلد الذي سيستقبلهم»[354]. وانسجم ذلك مع ما ذكره صاحب العز والصولة، وهو يفصّل في مقدمات بعثة عام 1299هـ/ 1882م، قائلًا: «... ولما وصلوا لطنجة أقاموا بها يتعلمون بها الألسن»[355]. لكن، هل أدت مدرسة طنجة دورًا تعليميًا جعل من معرفة اللغة الأجنبية وإتقانها وسيلة فاعلة في معرفة مقدمات العلم النظري والتطبيقي الذي بدأت تتضح معالم قوته داخل أوروبا خلال الفترة موضوع الدراسة؟ وهل تشبه مدرسة الألسن هذه مؤسسة تعليم اللغات الأجنبية في ناغازاكي في زمن نظام الباكوفو في اليابان والتي ساهمت

---

(353) المصدر نفسه، ص 149.

(354) Laroui, p. 285.

(355) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 150.

بدور محوري في انتقاء الطلبة اليابانيين المرشحين للدراسة في الخارج وتكوينهم؟

تنشأ المدارس ويتطور التعليم في فترات الاستقرار السياسي وتوافر الإمكانات المادية، وتنضج ثمرات ذلك عندما ينخرط المجتمع، طوعًا ورغبة، في إنتاج عناصر التنمية المختلفة. ومن هذه الزاوية تُترجم السياسة التعليمية طبيعة السلطة السياسية وأنماط العلاقات التي تربطها بمختلف المكوّنات المجتمعية.

يتطلب بحث موضوع البعثات التعليمية، خلال فترتي حكم محمد الرابع والحسن الأول، مساءلة المنظومة التعليمية التي عُدَّت، نظريًا، مسؤولة عن إنتاج النخب والعناصر المستهدفة من عمليات الإرسال إلى الخارج. وفي هذا الصدد، أشار ابن زيدان إلى أن العادة جرت، في عهد الدولة العلوية، «بالإحسان إلى العلماء والمنتمين إلى العلم، وتشجيعهم على بث العلم ونشره وإعانتهم، ومد المساعدة إليهم ماديًا وأدبيًا من خزينة الدولة تارة ومن الأحباس أخرى، فمن ذلك ما هو مشاهرة، ومنه ما هو مسانهة، ومنه ما هو عند رأس كل ستة أشهر...»[356]. ونعتقد أن منظومة التعليم خلال هذه الفترة لم تجدد أساليبها ومضامينها، ويمكن رصد ذلك من قراءة مجموعة من النصوص والمراسلات.

أقام المخزن الحسني عددًا من المؤسسات التي تكفّلت بمهمة الانتقاء والتكوين، وترد في المصادر التاريخية أسماء بعض المدارس، منها مدرسة المهندسين في فاس، وقد وجدت «أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام وكان الذي تبنّاها هو ابنه الأمير محمد الرابع... ابتدأت الدراسة بها من عام 1259 - 1260هـ/ 1844م، ثم كانت لا تزال قائمة في عام 1296هـ/ 1879م»[357]. ومن خلال الترجمة التي أفردها ابن زيدان لمحمد الرابع، يتبين أن «العلوم التي كانت تدرس بها هي الحساب، والتوقيت والتنجيم والهندسة والهيئة والموسيقى، كما تفيد أن كتاب إقليدس ... [مادة من] المواد التي كانت تدرّس بها»[358].

---

(356) المصدر نفسه، ج 2، ص 163.

(357) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج 1، ص 143.

(358) المصدر نفسه، ص 144.

وقد أشار الأعرج السليماني إلى أن أيام «السلطان سيدي محمد أيام رخاء... واغتنام صفو ونشر علوم ومعارف بين طبقات الناس بسبب ما اختص به... من الشغف بالعلم، ومجالسة أهله، وبالأخص الفنون العقلية»[359]. ولم يفته كذلك الإشارة إلى أن محمد الرابع «أسس مدرسة في جوار القصر السعيد من فاس الجديد تخرج منها جماعة من النبهاء ... ومن هذه المدرسة... تخرج بعض نجباء المغرب الذين تمموا دروسهم في عواصم أوروبا»[360].

حاول ابن زيدان الربط بين البعثات التعليمة التي أرسلها الحسن الأول وفتح المدارس وتحقيق سبل النهضة؛ وحمّل البيروقراطية المخزنية أسباب فشل العملية التحديثية، وفي هذا قال: «... فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس..»[361].

ونقرأ في رسالة المولى الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس: «وبعد، وصلنا كتابك وبطيه ما كتب لك به باشدور إسبانيا من أن دولتهم كلفت الذي سمّي بفتح مدرسة بطنجة بقصد تعلم علم الطب الجراحي لها لمن أراد تعلمه وأمرته بإعلام حضرتنا الشريفة لما مر بتوجيه من يتعلم بها ذلك من رعيتنا ليكونوا أطباء في العسكر، وصار بالبال»[362].

لم تكن المؤسسات تهتم جديًّا بالانفتاح على الخبرة الأجنبية في الحقول المعرفية المختلفة، بل ربطت المسألة برغبة الأفراد في الانخراط في هذا اللون من التخصص العلمي، وحصرت الأمر في أفراد المؤسسة العسكرية. لكن

---

(359) بنواحي، القسم 2، ص 385.

(360) المصدر نفسه، ص 385.

يقصد بنجباء المغرب هنا أعضاء بعثة 1301هـ/ 1874م، وفصّل فيها الحديث لاحقًا. ويثار أمامنا إشكال يتعلق بحقيقة انتماء هؤلاء الطلبة إلى مدرسة القصر السعيد؛ ذلك بأن المصادر والوثائق التاريخية التي نعرضها في حينه تتحدث عن انتظامهم في مدرسة الألسن بطنجة. فهل تلقوا مقدمات العلم الهندسي والرياضياتي في فاس وانتقلوا بعد ذلك إلى طنجة؟!

(361) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 465.

(362) رسالة الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس في شأن ما كتبه سفير إسبانيا بخصوص تكليف طبيب لفتح مدرسة لتعليم الجراحة في طنجة، بتاريخ 2 جمادى الثانية 1304هـ - 26 شباط/ فبراير 1887م، خ.ع. ت، محفظة 5/ 55.

في الآن نفسه تفانى اليابانيون، كما سنلاحظ في مبحث الخبراء الأجانب في اليابان الانفتاح على الكفاءات العلمية الأجنبية، وبذل الجهد المادي والمعنوي لاكتساب المعرفة والعلم التطبيقي والتتلمذ على يديها. ولا شك في أن عدم وجود مدرسة حقيقية ومنتظمة وانتفاء ذهنية متوقدة ومتفاعلة حرما المغرب إمكانات تطوير المَلَكات العلمية والاتجاه بالتعليم نحو الفاعلية والتفاعل مع المكوّنات العامة لمؤسسات الدولة ومنابر المجتمع.

في بداية القرن العشرين، حدّد ميشو بيلير (Michaux-Bellaire) عدد التلاميذ المغاربة الذين كانوا يتابعون دراستهم في الكتاتيب القرآنية بـ 100.000 تلميذ[363]. وفي أحسن الحالات كان العدد يراوح بين 120.000 و150.000 تلميذ، ضمن ساكنة يقدر عدد أفرادها بأربعة ملايين نسمة. ويقدَّر عدد التلاميذ البالغين سن التمدرس فيها بـ 800.000 نسمة، وهو ما يمثّل سدس الفئة الممدرسة[364]. وأشار ميرسييه (Mercier) في عام 1906 إلى وجود 26 معلمًا للقرآن لنحو 500 تلميذ في مدينة الرباط، ويرى أن الوسائل كانت سيئة[365]؛ فبعد مرحلة التعليم الأولي، بين العاشرة والرابعة عشرة، «تبتدئ مرحلة جديدة، تتميز بحفظ الآجرومية والألفية بالنسبة إلى النحو، والرسالة ومختصر خليل بالنسبة إلى الفقه»[366]. ويمكن للفئات الميسورة أن تلتحق بجامع القرويين. وتصادفنا، في هذا الموضوع، الكثير من الصعوبات، وفي مقدمها شح المعلومات الإحصائية المتعلقة بأعداد الطلبة والمتعلمين. وبخصوص جامعة القرويين، كان عددهم في بداية عهد الحسن الأول «يناهز الألف، بينما لم يبلغ سوى 600 أو 700 في أوائل القرن العشرين»[367].

من جهة أخرى، يبدو من خلال المعلومات التي قدّمها لوطورنو (Letourneau) أن مدينة فاس كانت تستقبل الطلبة الأفاقيين من مختلف مدن

---

(363) Paye, p. 90.

(364) المصدر نفسه، ص 91.

(365) Louis-Sébastien Mercier, «Les Mosquées et la vie religieuse à Rabat,» *Archives marocaines*, vol. 8 (1906), p. 114.

(366) Laroui, p. 193.

(367) لوطورنو، ص 666.

المغرب، لاستكمال دراستهم العليا في جامع القرويين، من خلال ست مدارس، وهي «مدرسة الصفارين، والعطارين، والمصباحية، والشراطين.. ومدرسة باب عجيسة، وأخيرًا مدرسة مولاي عبد الله»[368].

علاوةً على ذلك، كانت المساجد والزوايا تعطي دروسًا في العقيدة والفقه والتفسير وعلوم اللغة والسلوك. ويمكن استنتاج حجم الدور الذي كان بعض المساجد الكبرى يؤديه في نشر العلم والمعرفة، من خلال تراجع الإشعاع الذي كانت تتمتع به مساجد مدينة فاس. أما «في الرباط، فوجدت أربعة مساجد، كانت تلقى فيها دروس في العلوم الشرعية، والعلوم اللغوية، وكان يحضرها حوالى مئة طالب، أما في سلا فلم يكن العدد يتعدى العشرين متعلمًا. وفي مدينة وجدة كانت تُلقى ثلاثة دروس داخل مسجدين، يؤمها حوالى أربعين طالبًا»[369].

لم يكن في المغرب «ميزانية خاصة للتعليم العمومي، وتكلفت الساكنة في الحواضر والبوادي بعملية التمويل»[370]، إلا أن بعض الوثائق تشير إلى اختصاص العلماء والخطباء والأئمة برواتب شهرية قارة، «كما كان سلاطين المغرب يصلون طلبة العلم ومعلمي الأطفال (المؤدبين) بالكتاتيب القرآنية (المسايد)..»[371]، إلا أن الانتظام المؤسساتي في منح هذه الرواتب والأجور لم يكن مستمرًّا؛ إذ سرعان ما تنقطع هذه الصلات مع الانفلات الأمني وتبدل الأحوال السياسية؛ ففي عام 1910، «وبسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية، لم يُتوصل العلماء بأي شيء، فتعددت طلباتهم دون جدوى»[372]. ويشير ميرسييه

---

(368) المصدر نفسه، ص 667.

(369) Paye, p. 95.

(370) Michaux-Bellaire, «Maroc».

(371) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 2 (1976)، ص 43. وهذا جزء من نص رسالة وجهها السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى عامل تطوان، بتاريخ 7 رجب 1261هـ - 12 تموز/ يوليو 1845م: «وبعد، فقد أنعمنا بصلة على الفقهاء وطلبة العلم.. كما أنعمنا على المؤدبين بمئة مثقال .. » (ص 44).

(372) محمد الفلاح العلوي، «القرويين في مطلع القرن العشرين، بين التجديد والتقليد،» دعوة الحق، العدد 364 (شباط/ فبراير 2002)، ص 24.

إلى اقتصار استفادة معلمي الأطفال بالكتاتيب على عطاءات أولياء المتعلمين التي لم تكن تتجاوز «دورين» بالنسبة إلى الأغنياء[373].

حتّم هذا الإشكال التعليمي على بعض النخب الفكرية وضع تصورات في شأن إصلاح المنظومة التعليمية؛ فقد خصص صاحب اللسان المعرب فصلًا لـ «ترتيب المدارس وبرنامج القراءة والفنون»، ويبدو أنه كان يعي حجم التأخر التربوي الذي كان عليه المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعبّر عن ذلك قائلًا: «منذ باد الأفاضل وساد الأراذل وتكسرت أقلام العلماء، وقف العلم لا يتحرك إذ صادته أمم أوروبا ونصبت له الشرك»[374]. وتبدو عناصر الحسرة بادية في مقدمة برنامجه الإصلاحي النظري عندما قال: «أين من برع في الكيمياء وحرر كتب أرسطو كابن رشد؟ أين من شرح كتب أفلاطون وهذّبها كابن كمونة؟ أين من سافر لجمع غريب النباتات ودوّنه كابن البيطار؟ أين من برعوا في الرياضيات والطبيعيات واستنبطوا القواعد وقرروا الأحكام - في العلوم والفنون واكتشفوا أسرار الطبيعة من معدنها ونباتها وحيوانها واخترعوا علومًا لم تكن في الوجود..»[375]. ورسم صورة قاتمة للوضع العلمي والتربوي: «تجد شبان الطلبة اليوم شأنهم البحث عن نملة سليمان وعن ذي القرنين، أو تأويل نصوص الشرع الشريف، حتى تأخروا عن العلم واقتصروا على نيل رتبة العلماء حسبما خول لهم ذلك أقاربهم ومعارفهم»[376]. وذكر أبو العباس الرهوني عن التعليم في تطوان في فترتي حكم المولى عبد العزيز وعبد الحفيظ قائلًا: «... نفذت بعض الإعانة على التدريس من الأحباس... وقدرها خمسة وسبعون ريالًا مخزنية في العام، لكل واحد من المدرسين الذين نفذ لهم ذلك، ثم تزاحم على ذلك، مع قلة جدواه، من ليست فيه أهلية فتسبب في قطعها عن الجميع»[377].

---

(373) Mercier, p. 118.

(374) ابن الأعرج السليماني، اللسان المعرب، ص 160.

(375) المصدر نفسه، ص 160.

(376) المصدر نفسه، ص 158-159.

(377) الرهوني، ج 1، ص 240.

بدأ السليماني مشروعه التربوي مقررًا: «ليعلم أن الدين والعلم كتوأمين متلاصقين، فصلهما يؤدي إلى هلاكهما معًا. قالوا العلم ينمو متى كان دينيًا والدين يثبت متى كان علميًا»[378]. وهو يذكرنا بقضية تربوية ركز عليها النظام التعليمي الياباني بربط روح التعليم بالمقدس الأسطوري وخدمة الإمبراطور «سليل الآلهة». ونبّه السليماني على قضية بالغة الدلالة عندما «يشترط في المدارس أن يكون الأدب الديني والأدب الوطني أول ما يتربى عليه التلميذ، وأن يلقّن في كل حين مستقبل وطنه»[379].

تتأسس قوة التعليم على هوية المجتمع المستهدف وثقافته، فهي التي تمنحه المعنى وتشحنه بعوامل البقاء والاستمرار. لذا، نرى أن أبا عبد الله انطلق من معطيات الواقع لاقتراح حلول للمسألة التربوية، واجتهد في وضع مخطط نظري لمراحل التعليم (الأولي والابتدائي والثانوي والجامعي) والمواد المدرّسة (الدينية والدنيوية) التي تميزت، في نظره، بالتوازن والشمولية، كما بيّن آليات التمويل «بطريق الحكومة... والأمة والجمعيات الخيرية والاكتتاب»[380]. لكن على الرغم من ذلك، كان يدرك صعوبة المسألة بالنظر إلى زمن «صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت العزائم ورضيت الناس فيه بالخمول والسكون والعيش الدون»[381].

لقد أثّرت كتابات السليماني في نخب الإصلاح في مغرب ما قبل الحماية، ويُعَدّ الحجوي من أبرز هؤلاء؛ وله وصف خلال بداية القرن العشرين، للحالة الدراسية في المغرب: «وبعدما كنا سادة أوروبا صرنا الآن لم نصل درجة التلميذ، ولا تقل يا سيدي هذه مدرسة المصباحية ومدرسة الشراطين والصفارين، وأساتذة القرويين، فهؤلاء لا يقاسون بما يوجد في مصر وتونس، فضلًا عن البلاد الأوروباوية من المدارس»[382]. ولا ترتبط القضية، بحسب الحجوي، بالمؤسسات وذاكرتها التاريخية، بل بعنصر

(378) ابن الأعرج السليماني، اللسان المعرب، ص 162.
(379) المصدر نفسه، ص 162.
(380) المصدر نفسه، ص 165.
(381) المصدر نفسه، ص 165.
(382) الخلوفي، ص 16.

الفاعلية والدينامية التي تجعل من المدرسة محركًا أساسًا في صناعة الإنسان الواعي بفقه لحظته التاريخية وما تتطلبه من كدح يسير به نحو حقول الإبداع التنموي.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين، تنبّه محمد حسن الوزاني لأبرز الإشكالات التي واجهت جامعة القرويين في أزمنة التراجع، وحاول إثارة قضايا جريئة، جعلته يفصح قائلًا: «نحن لا نروم الحط من شأن القرويين، وإنما قصدنا، ونحن في مجال البحث العلمي النزيه، أن نلزم ما يُحتمه علينا من التحقيق والتدقيق بقدر الإمكان»[383]. من هنا اعتبر أن القرويين «في وضعيتها الحاضرة، لا تفيد الحاجات الضرورية لرقي البلاد»[384]؛ فالأمة المغربية هي، في نظره، «في أشد الحاجة إلى علماء أخصائيين في سائر العلوم والفنون المعروفة في هذا العصر»[385]. وينبني هذا التصور على إدراك عميق لأزمة المدرسة والجامعة، خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعُقمهما عن إنتاج المعرفة الفاعلة والمنتجة.

قريبًا من هذا المعنى، ذكر العروي أنه «لم تعد للعلوم الملقنة بالقرويين أي صلة مع العلوم العربية السابقة»[386]، وهو ما يدل على وجود قطيعة في نسق التلازم بين الدولة والمجتمع والمدرسة، وأن هذه الأخيرة ما عادت مجالًا لتحقيق الأغراض الكبرى التي بدأت بالأفول مع أواخر العهد المريني، على الرغم من علاته التي ذكرناها آنفًا. فأضحى هذا الثالوث منشطرًا، وتفرق جزرًا معزولة داخل رقعة جغرافية، فقدَ قاطنوها معنى الانتماء، وأخفقوا في تحقيق الفاعلية التنموية.

لم يكن التعليم العالي، ببنيته وعلله، قادرًا على رفع قدرات المغالبة الحضارية، بل إنه عكس المشكلات السياسية والمجتمعية التي أثّرت في مواده وأساليبه التربوية.

---

(383) محمد حسن الوزاني، حرب القلم (بيروت: دار النهضة العربية، 1981)، ص 75.

(384) المصدر نفسه، ص 76.

(385) المصدر نفسه، ص 76.

(386) Laroui, p. 197.

تنبهت المشروعات الدستورية، في بداية القرن العشرين، لأهمية مطلب التعليم وإنشاء وتطوير المدرسة الوطنية. ويمكننا قراءة المضامين الإصلاحية في الموضوعات الخاصة بالتعليم في مشروع دستور 1908، من خلال العناصر التي دعا إليها المشروع الدستوري، منها:

- دعوة إلى إنشاء وزارة للتعليم، تتكفّل بإقامة المدارس في جميع المناطق وبين القبائل؛

- تقسيم المدارس إلى مدارس ابتدائية، ومدارس ثانوية، ومدارس عليا أو كليات، مع قصر التعليم العالي على القرويين، مع تحديثها وتجهيزها عصريًّا؛

- إجبارية التعليم الابتدائي - مجانية التعليم - إمكانية فتح مدارس خاصة لتعليم العلوم والصنائع أو غيرها؛

- تشجيع تمدرس الفتيات؛

- دعوة إلى إنشاء المدارس الصناعية والزراعية، بعد فتح المدارس العلمية؛

- اشتراط الكفاءة في اختيار المعلمين[387].

فقدت التنظيرات التربوية، بدءًا بإشارات الصفار وتنبيهات واقتراحات الأعرج السليماني ومشروعات الدساتير المقدَّمة، الأساس المجتمعي المكافئ والموازي؛ فقد انطلقت هذه المحاولات من دون عمق مجتمعي، وفي غياب رؤية سياسية في شأن الدور الذي يمكن للمدرسة أن تقوم به، لإعادة إنتاج ما انقطع من بعض لحظات القوة في مسيرة التعليم زمن الموحدين. كما انسجمت الدعوات الإصلاحية مع بروز ملامح خط تعليمي أجنبي، حاول ترسيخ الوجود الثقافي الغربي، على أنقاض مؤسسات تعليمية محلية خامدة. ففي «السنوات الأولى من القرن العشرين، لم توجد أي مؤسسة تعليمية تابعة للدولة»[388]. وفي المقابل، بدأت المؤسسات الأجنبية وضع قواعد الاتحادات، ومنها الاتحاد الفرنسي، والاتحاد الإسرائيلي العالمي، وبعض التجمعات

(387) حركات، التيارات السياسية والفكرية، ص 176-177.

(388) Paye, p. 88.

البريطانية والإسبانية، «وقد حاولت إقامة مدارس تعليمية، لم تُدْعَ الساكنة المسلمة للانتساب إليها»[389].

يبدو أن إيطاليا اهتمت بوضع مدارس لتعليم اللغات، فقد ورد في رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد بن العربي الطريس ما يلي: «... وبعد، فقد بلغ شريف علمنا أن هنالك بطنجة معلمًا طليانيًا منصوبًا لتعليم اللسان وأنه يقبض على ذلك من ديوانة الثغر المذكور ماءة وخمسين بسيطة مرتبًا شهريًا من قبل التعليم، وأن المحل الذي يتعاطى فيه ذلك صار يُعرف هنالك بمدرسة الطليان، وعليه فنأمرك بتحقيق الواقع في أصل انتصاب المعلم المذكور، وبيان المحل الذي يتعاطى فيه ما ذكر، وبيان المتعلمين فيه وتاريخ إنشاء ذلك...»[390].

حاول اليهود المغاربة الانخراط في مشروع التعليم العصري، وذلك بالانفتاح على تجارب المدرسة الغربية، والتنسيق في ذلك مع البعثات الدبلوماسية الغربية؛ فقد راهنت القوى الاستعمارية على المدرسة والتعليم كوسيلتين من وسائل مدعمة لترسيخ الوجود الأجنبي والانتصار لقيم الفصل العنصري والثقافي، كما تجلى ذلك في سياسة ليوتي التعليمية في المغرب.

يمكن القول إن تجربة المدرسة المغربية خمد بريقها مع أفول الدول العصبية خلال العصر الوسيط، وإن المدرسة المرابطية أو الموحدية أو المرينية، فقدت زخم التراكم، بالشكل الذي جعل من التجارب التربوية آنئذٍ جزرًا منعزلة، ينفي بعضها بعضه الآخر. وربما كان ذلك أحد الأسباب العميقة التي تفسر غياب النسق التربوي المؤسساتي في مغرب ما قبل الحماية. كذلك حدّ ارتباط المدرسة بفلسفة الدولة وتوجهاتها الفكرية والسياسية من دور المجتمع ونخبه الخاصة في إنتاج المعرفة وصناعة التغيير؛ فكان من الطبيعي أن يزول توهج المدرسة بزوال الدولة. وتلك ملاحظة سجلنا معالمها أثناء تطرقنا إلى التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط.

---

(389) المصدر نفسه، ص 88.

(390) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، بتاريخ 13 صفر 1313هـ - 4 أب/ أغسطس 1895م، خ ع ت، محفظة 14/ 26.

أردت القول، من هذه المقدمات التربوية، إن مجموع البعثات التعليمية المغربية التي توجهت إلى دول الغرب الأوروبي ترعرعت ونشأت ضمن هذا النمط من التعليم والمدارس ومناهج التلقين والتدريس؛ وهو نمط تراكمت مقتضياته وعناصره منذ عصور الدول العصبية مع المرابطين والموحدين والمرينيين.

لم يكن قصدي من رسم معالم المدرسة المغربية وتاريخها التركيز على النقاط السلبية في منظومتنا التربوية؛ فقد أنتجت المدرسة والمؤسسات التعليمية المختلفة، نخبًا فكرية وسياسية ساهمت في إنتاج المعرفة والنظريات العلمية، كما منحت المعنى والغاية من التربية والتعليم. إلا أننا تجنبنا الإطناب في تفصيل مظاهر اليقظة، انسجامًا مع مضمون البحث الذي يرصد عوامل الفشل التحديثي، فحاولنا التنقيب عن عناصر الخلل والضعف في ذاكرتنا التعليمية التي نعتقد أنها لم تضع قواعد مؤسساتية كفيلة بتحقيق انطلاقة حضارية واعدة ومتحدية.

فقد المغرب، مقارنة بما كانت تشهده أوروبا خلال القرن التاسع عشر، رؤية تربوية واضحة المعالم والمقاصد، وساهمت دورات الإبادة السياسية، والفتن الداخلية، في تعميق القطائع بين التجارب التعليمية في عهود المرابطين والموحدين والمرينيين، فكل تجربة تنسخ سابقتها، وتتنكر لخاصية التراكم الذي يمنحها الفعالية والمشروعية التاريخية.

مثّل مطلب التعليم نبضًا يمكن من خلاله قياس درجة انخراط المجتمع في مشروع الدولة السياسي والتنموي. ويمكن القول إن هذا الانخراط لم يكن مستمرًّا، ولم تتوافر له ظروف النضج الكافية. ولعل ذلك ما أدى إلى نشأة هوة عميقة بين الدولة والمجتمع، وأنتج مجموعة من الكوارث السياسية والعسكرية، في تاريخنا الطويل والممتد، بدءًا بالهزائم المتتالية في الأندلس، ودورات العنف السياسي الداخلي، والاستقواء بالداخل على الخارج، وانتهاء بالهزائم العسكرية في إيسلي وتطوان، والسقوط في قبضة الحماية الفرنسية في عام 1912. ونحن إذ فصّلنا في الموضوع، فللخروج باستنتاجات ملائمة تمكّننا من إدراك طبيعة المدرسة المغربية التي احتضنت أفراد البعثات التعليمية إلى الخارج، ودورها المحتمل في إنجاح أو إفشال الخطوة التحديثية التي رام المخزن تحقيقها زمن الحسن الأول.

خاتمة

يمكن القول، اعتمادًا على القضايا المثارة في هذا الفصل، إن المغرب فقد خاصية التراكم على مستويات متعددة ومتباينة؛ ففي المجال السياسي، ترسخت خاصية الانفصام بين الدولة والمجتمع، فلم يكن هذا الأخير منتجًا ومنخرطًا في ممارسة الفعل السياسي التعاقدي، ونشأت، بدلًا من ذلك، دولة تقليدية احتكرت أوامر تدبير الشأن العام.

تمتد هذه الخاصية بعمق في تاريخ التجارب السياسية المغربية التي يمكن إرجاع مقدماتها الأولى إلى عهد الدول الوسيطية؛ فلم تكن سياسة الانفتاح على الشركاء السياسيين والاجتماعيين قاعدة مؤسسة لخيار الممارسة الفاعلة والمستمرة في تدبير الشأن العام السياسي والإداري؛ بل مثّلت نوعًا من أنواع الإلحاق بمؤسسة الأمير/ السلطان، وشكلًا من أشكال إضفاء المشروعية عليها.

نجد أنفسنا أمام قطائع تاريخية جلية في مجال ممارسة السلطة الإدارية والسياسية، لم تسمح بتوفير عناصر التراكم الكافي الذي يسمح بنشأة تناغم إيجابي بين القاعدة المجتمعية والقمة السياسية. ففي فترة السلطانين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، بدأ المجتمع ونخبه السياسية والفكرية بالتحرك لقلب المعادلة السياسية، بتأسيس شروط عقد سياسي، والحد مما يمكن تسميته باستبداد السلطان ودوائره المخزنية. وكان في الإمكان تحقيق النضج الكافي أمام التجربة الدستورية المغربية في بداية القرن العشرين، إلا أن التدخل الاستعماري حال دون نضجها واستمرارها.

الملاحظ أن غياب الاستمرارية لم تقتصر على الحقل السياسي، بل امتدت إلى المجال التعليمي؛ فقد ارتبطت المؤسسات التعليمية بالتوجه المذهبي للدولة، فكان من الطبيعي أن تزول المدرسة بزوال الدول المنتجة لها. وهو ما يسمح لنا بالقول إن التعليم وإنشاء المدارس لم يكونا خيارين مجتمعيين يسمحان بانخراط واسع وفاعل في إنتاج مخارج القوة والعلم النظري والتطبيقي.

من جهة أخرى، تبيّن في مبحث الحماية القنصلية حجم الثغرات التي طبعت المجتمع المغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية

القرن العشرين؛ إذ وجدنا رقعًا مجتمعية مبعثرة داخل مجال، تفنن الغربيون في إذكاء تناقضاته، وبذلوا جهدًا دبلوماسيًا لإخراجه بتلك الصور الكاريكاتورية التي أثرناها.

الملاحظ كذلك أن الضغط العسكري الذي تعرض له المغرب في إيسلي وتطوان، أوضح للنخبة المخزنية حدود الإمكانات الذاتية أمام طاقة العنف الغربية المنظمة والمتحفزة. والأكيد أن الأوروبيين توسلوا لغة العلم والاستخبار في التأسيس لخيار الانتصار والتفوق.

بدأت بوادر الوعي بقوة الظاهرة الغربية عند الصفار والأعرج السليماني والحجوي وغيرهم؛ لكن اجتهاداتهم لم تجد تطبيقًا لها داخل المجتمع المغربي بسبب غياب آليات التنزيل والتنفيذ؛ واقتصروا بدلًا من ذلك على التنبيه، من دون الانخراط الفعلي في بلورة الرؤى الإصلاحية من خلال مؤسسات الفعل التربوي والتعليمي.

تسبب غياب فئة مجتمعية واعية بانتمائها الوطني ومدركة لخصوصية اللحظة التاريخية الحرجة، في فقدان المغرب شرطًا أساسًا من شروط الإصلاح والتغيير؛ فقد كان في إمكان هذه الفئة، إن وجِدت، أن تنافس المخزن في تنفيذ رؤى التنمية المبثوثة في تنظيرات نخب العلم والثقافة في المغرب بين عامي 1846 و1912.

احتكرت الدولة/المخزن قضايا الشأن العام كلها، ففقدت كل شيء، وتوخت أن يدور المجتمع حول رمزيتها المادية والمعنوية، وانتهت بالدوران في فلك القوى الإمبريالية في عام 1912.

شكّلت هذه القضايا توطئة أساسية لانطلاق البعثات التعليمية المغربية إلى دول الغرب الرأسمالي، وهي مقدمة كفيلة بالإفصاح عن مآل هذه الخطوة الإصلاحية التي أقدم عليها المغرب في أثناء الفترة المدروسة. لكن خطوات البحث تفرض ضرورة مساءلة التفصيلات ومقارنة الأنموذج المغربي بالأنموذج الياباني الذي نحتاج في مقاربته إلى تحليل مقدماته السياسية والفكرية والمجتمعية والرمزية والأسطورية.

الفصل الثاني

أوضاع اليابان السياسية والاجتماعية والتربوية بين العزلة والانفتاح والتوسع

«اترك آسيا وادخل أوروبا»

فوكوزاوا يوكيتشي

يصعب تناول موضوع البعثات التعليمية اليابانية في الفترة الممتدة بين عامي 1853 و1944 من دون إحاطتها بالمقدمات الثقافية، وبترسانة الرموز الأسطورية، وبخصوصيات شبكة القيم الثقافية والمجتمعية. فإذا كانت الشعوب تعتز بذاكرتها التاريخية والرمزية، وتتعامل معها برؤية إيجابية، فإن مجتمع النيهون يمثّل أحد هذه الشعوب التي تعتبر نهضتها الحديثة إنتاجًا محليًا خالصًا؛ فقد تمكن اليابانيون من التقاط زخم لحظة التاريخ التي لا تتكرر، من خلال حملة بيري التي أحدثت رجّة نفسية واجتماعية وسياسية، منحت قادتهم الجدد فرصة تاريخية متميزة لتصفية بقايا النظام القديم والتأسيس لمجتمع جديد، نجح في التوفيق بين الحداثة الغربية الوافدة والتقاليد الكونفوشيوسية المحلية.

في أثناء البحث والتقصي عن المقدمات التي تفسر سرعة التحولات في عهد الميجي، يبدو أن من اللازم تحليل خاصيات التراكم التاريخي الذي مد العهد الجديد بعوامل الانطلاق والتوسع.

تُعتبر فترة الإيدو وآليات الاشتغال السياسي في عهد التوكوجاوا أبرز العناصر التي استندت إليها مجموعة من الباحثين لاعتمادها منطلقًا في

أفق مقاربة وفهم مجريات الحوادث في عهد الميجي، والفترات التي تلته؛ فخلالها حدث مجمل التراكمات على كلٍّ من المستوى الاقتصادي والسياسي والتعليمي والثقافي. لكن، أي علاقة تربط بين هذه المباحث وموضوع البعثات التعليمية اليابانية؟ ولـمَ الاستغراق في رصد وتتبع التراكمات التاريخية ودورها في صقل الشخصية اليابانية؟

إن مواد هذا الفصل مقدمة ضرورية، كما نعتبرها، لفهم السياق الذي أُرسلت من خلاله هذه البعثات، ومن جهة أخرى، يمكن القول إن الجواب الاستراتيجي الياباني عن سؤال القوة الأميركية تكفّل بصوغه المتعلمون اليابانيون الذين درسوا في الجامعات والمعاهد الأميركية والأوروبية منذ أواخر عهد الإيدو إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

أولًا: المجتمع الفيودالي وتراكم الفعل التاريخي

هل من المشروعية التاريخية الحديثُ عن نتائج من دون مقدمات؟ من منطلق هذا التساؤل/ الإشكال، هل انطلقت تجربة الإصلاح الياباني في دورته الأولى ابتداءً من عهد الميجي (1868-1944) من غير أصول وتمهيدات؟ وهل كانت حملة بيري الأميركية شرط وجوب في انطلاق عملية التحديث في دورته الأولى؟

يتلخص الهدف الموجّه إلى هذا المبحث في التقاط عناصر القوة داخل المجتمع الفيودالي الياباني، بالشكل الذي يخدم الإشكالية العامة، وينأى بها عن التفصيلات المخلة، متجنبًا الاستغراق في تحليل آليات التفاعل الداخلي لمجتمع التوكوجاوا؛ فذلك موضوع أسهب في الحديث عنه مجموعة من المؤرخين والباحثين، منهم كوهاشيرو تاكاهاشي، في مقالته عن بنية نمط الإنتاج الفيودالي الياباني وتحولاته، وبيير رينوفين (P. Renouvin)، صاحب *La Question de d'Extrême - Orient: 1840-1949* الذي أفرد في عمله حيزًا مهمًا لعصر التوكوجاوا، مقتفيًا وصف العلاقات الإنتاجية الفيودالية والتحولات الطارئة عليها والأزمة التي شهدتها قبيل قيام عهد الميجي في عام 1868.

«لم تكن الانتفاضة السياسية لعام 1868، كأي حدث تاريخي آخر،

مفاجئة ومن دون سابق إنذار، بل كانت محصلة للإنماء المستمر لعدة عقود سابقة»[1]. ذاك ما يقوله كثير من اليابانيين عن أنفسهم بنوع من النرجسية والاعتزاز. وعلاقة بالموضوع، يرفض عدد كبير منهم الحديث عن مصطلح ثورة؛ ففوكوزاوا يوكيتشي[2] يستبدل ذلك بمصطلح الإحياء، ملمحًا إلى أن جذور تحولات عهد الميجي ظلت كامنة في تاريخ اليابان المطول، وأن العهد الجديد لم يقم سوى بإحيائها بعد أن أنضجتها الأوضاع الداخلية والخارجية.

في حين فضل كوهاشيرو تاكاهاشي[3] استعمال مصطلح ثورة في أثناء تحليله بنية النظام الفيودالي الياباني وتحولاته الجذرية في عهد الميجي[4]، عندما ألغت الدولة بقرار إداري قواعد النظام الفيودالي وما ارتبطت به من علاقات اجتماعية والتزامات جبائية وإدارية وسياسية.

عرف اليابان في تاريخه المطول مجموعة من الصراعات والحروب الدموية بين الأسر والقبائل المحلية، وأضحت الانقلابات العسكرية والسياسية

---

(1) ناغاي ميتشيو وميغال أوروتشيا، محرران، نهضة اليابان: دراسات وأبحاث في التجربة الإنمائية اليابانية، ترجمة نديم عبده وفواز خوري؛ مراجعة هاني تابري وجورج عبد المسيح؛ أشرف على الطبعة العربية أنطوان بطرس؛ قدم لها هشام شرابي (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1993)، ص 314.

(2) فوكوزاوا يوكيتشي، سيرة فوكوزاوا يوكيتشي، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 217. فوكوزاوا يوكيتشي (1835-1901): مفكر وفيلسوف ورجل تربية ياباني، وُلد في منطقة أوساكا. برزت منذ البدء ميوله التعليمية، والتحق بمدرسة التعليم الهولندي. أتقن اللغة الإنكليزية وأرسلته حكومته في رحلات دبلوماسية وتعليمية إلى الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا. تأثر بفكر الأنوار الإنكليزي الذي مجّد الاستقلال الذاتي للفرد، الأمر الذي جعل يوكيتشي يحمل بشدة على الثقافة الصينية المنتشرة في اليابان. راهن على التعليم وسيلةً أساسية في تحقيق التنمية. أسس كثيرًا من المنابر التعليمية، وفي مقدمها جامعة كيو (Keio). يُعَدّ من أبرز التربويين اليابانيين الذين ساهموا في التحول التنموي لعهد الميجي.

(3) Kohachiro Takahashi, «La Place de la révolution Meiji dans l'histoire agraire du Japon,» dans: Maurice Dobb et Paul-M. Sweezy, *Du féodalisme au capitalism*, avec des contributions de Christopher Hill [et al.]; Traductions de l'anglais de Florence Gauthier et Françoise Murray, 2 vols. (Paris: F. Maspero, 1977), vol. 2, p. 23.

(4) عهد الميجي: الميجي، تعني الحكم المستنير، وتُطلَق على النظام الجديد وعلى الفترة التاريخية التي تولى خلالها الإمبراطور ميتسو هيتو السلطة السياسية بين عامي 1868 و1912، وخلالها حدثت المقدمات الأساسية الأولى للانقلاب العام الذي شهدته اليابان في المجالات المختلفة.

الآلية الوحيدة الممكنة لتصريف الأزمات الداخلية المتعددة. وظلت هذه الحالة قائمة إلى حين حكم أسرة توكوجاوا مع إياسو[5] (1603-1605) الذي حقق انتصارًا حاسمًا في معركة سيكيغاهارا[6]، منهيًا بذلك قرنين من الصراعات الداخلية الدموية[7].

دام حكم أسرة التوكوجاوا قرنين ونصف قرن، وتأسس على منطق البحث عن السلام والاستقرار الكفيلين بضمان المعنى الوجودي لمجتمع النيبون[8]. وتُعتبر الفترة الممتدة بين عامي 1638 و1853 مرحلة التحولات العميقة في جميع المجالات؛ «فخلالها ترسخت الوحدة الداخلية نتيجة الاستقرار الأمني والسياسي، وتزايد الإنتاج إلى معدلات كبيرة لم يشهدها في السابق»[9]. كما يمكن القول إن «النظام الفيودالي عرف أوجه أثناء فترة حكم أسرة توكوجاوا»[10] مع ما رافق ذلك من قرارات صارمة في تطبيق مقتضيات أواصر الولاء والخدمات المتبادلة بين الأطراف الفاعلة في المشهد السياسي والاجتماعي الياباني في أثناء الفترة المدروسة. وتوضح الوثيقة المرفقة أسفله أسماء وفترات حكم أفراد هذه الأسرة.

في هذا الصدد، قال مارك بلوك (M. Bloch)، من وجهة نظر التاريخ المقارن: «إن اليابان هي البلد الوحيد في العالم الذي تقاسم مع الغرب الحصانة من الغزوات الخارجية، الأمر الذي منحه - كما منح الأوروبيين -

---

(5) إياسو (1542-1616): مؤسس أسرة شوغونات توكوجاوا التي دام حكمها من عام 1603 إلى عام 1868.

(6) معركة عسكرية حاسمة جرت في 20-21 تشرين الأول/ أكتوبر 1603، حسمت مسيرة في تاريخ اليابان، وتمكن إياسو في إثرها من السيطرة على الحكم وتوحيد اليابان.

(7) <http://www.pacificasiamuseum.org/japanesepaintings/html/timeline.stm>.

(8) النيبون (Nippon): اختصار لكلمة اليابان Nihonkoku ou Nipponkoku، تنطق Nihon - Nippon، نيهون أو نيبون، وتعني منبع الشمس.

(9) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، ص 172.

(10) René Grousset et Emile-G. Léonard, dirs., *Histoire universelle*, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1956-1958), vol. 3: *De la Réforme à nos jours*, p. 1527.

عوامل بناء الحضارة بمعناها الحقيقي والدقيق»[11]. وهو بذلك يشير إلى بنية المجتمع الفيودالي وتحولاته الداخلية من زاوية نزعة مركزية تغفل العوامل الخارجية التي ساهمت في خروج أوروبا من عزلتها التاريخية وبداية تشكّل نمط اقتصادي اجتماعي جديد يقوم على أساس التجارة البعيدة الأمد وما حققته من تراكمات في الثروة والمال. ويضيف: «بعيدًا عن أوروبا، وُجد في اليابان نظام تبعية الأشخاص والارتباط بالأرض شبيه بنظامنا الفيودالي»[12]. ويستنتج اختلافًا في هرمية النظامين وموقع الملك/ الإمبراطور ضمن درجاته؛ فإذا كانت سلطة الإمبراطور رمزية في نظام الشوغون في اليابان، فإن الملوك الأوروبيين تبوأوا قمة الهرم ومارسوا السلطة الفعلية[13].

لا تستقيم مماثلة الأنموذج الياباني بنظيره الأوروبي خلال العصر الوسيط، من طريق عزله عن مرجعياته الفكرية والدينية والأسطورية. صحيح أن بين اليابان وأوروبا تشابهًا ظاهريًا في نمط العلاقات الفيودالية، لكن حمولاته الفكرية وزخمه الديني والأسطوري لم يكونا من درجة التجانس نفسه. وفي هذا الإطار يقول هاياشي طاكيشي (H. Takeshi) إن اليابان عرفت «تجربة مجتمع إقطاعي ناضج بمنأى عن أي تدخل خارجي. وبطبيعة الحال، فإن النظام الإقطاعي الياباني لم يكن مماثلًا – في نظره – للإقطاع الأوروبي من حيث التاريخ الاجتماعي القانوني»[14].

يمكن اعتبار النظام الفيودالي الياباني إنتاجًا محليًا خالصًا، امتزجت فيه العلاقات الإنتاجية بالتصورات الدينية والأسطورية، وبالأهداف السياسية والاجتماعية.

يُعَدّ الأنموذج الياباني – موضوع البحث – حالة غير قابلة للمقارنة الميكانيكية، ومنفلتة من خاصية التكرار على أكثر من صعيد، وهو ما سنحاول

---

(11) Marc Bloch, *La Société féodale* (Paris: Albin Michel, 1994), p. 94.

(12) المصدر نفسه، ص 527.

(13) المصدر نفسه، ص 527.

(14) هاياشي تاكيشي، «من انتقال التكنولوجيا إلى الاستقلال التكنولوجي، نهضة اليابان،» في: ميتشيو وأوروتشيا، محرران، ص 314.

توضيحه في ثنايا هذا البحث وفي الإشكالات التي يثيرها. فإذا كانت «عملية التحديث» سلعة «قادمة من الخارج فإنها وجدت في عصر التوكوجاوا[15] المجال الملائم للتطبيق»[16]. وتفرض علينا هذه الإشارة ضرورة الوقوف عند أحوال تشكّل النظام الفيودالي الياباني، باعتباره زاوية محورية أسست للمقدمات والتراكمات التاريخية لعصر النهضة اليابانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

انتقلت السلطة السياسية إلى أسرة التوكوجاوا «وتولى السلطة زعيم عسكري هو أودانو بيوناجا، استطاع أن يكبح جماح سلطان نبلاء الإقطاع وأن يتولى السلطة العليا في البلاد»[17]. وبعد «حكم طويل الأمد للشوغون ليميتسو (1623-1651) الذي شهد أبرز الحوادث المهمة في تاريخ التوكوجاوا خلفه الشوغون إيتسونا الذي حكم اليابان أيضًا لفترة طويلة (1651-1680)، ممّا ساعد على تثبيت دور الشوغون وحكومة الباكوفو، وعلى ترسيخ الوحدة اليابانية والسلطة المركزية بشكل نهائي في التاريخ الياباني»[18].

بلغت الفيودالية اليابانية أوجها في ظل إدارة الشوغون، وتمكّن باكوفو التوكوجاوا من «مراقبة السادة الكبار عبر قرارات متعددة وصارمة، وهذا ما أدى إلى تحقيق الاستقرار مدة 250 عامًا، مانعًا أي تسرب خارجي بتطبيق سياسة العزلة»[19]. ويتجلى بعض الإجراءات الصارمة لضبط النظام في قيام الشوغون بمنع زواج أفراد فئة الدايميو من دون إذنه، كما كان هؤلاء ملزمين بتمضية عام واحد خلال عامين في إقطاعية السيد في منطقة يدو، وعندما يعودون إلى

---

(15) عصر التوكوجاوا: هو عصر اسم الأسرة التي حكمت اليابان منذ مطلع القرن السابع عشر حتى عام 1868. نهجت تلك الأسرة سياسة العزلة الطوعية، وساهمت في ترسيخ السلام المطوّل الذي حقق الأمن الداخلي للبلاد. كما ساهمت في ترسيخ علاقات الإنتاج الفيودالي. وتعرضت لتحديات خارجية صعبة في عام 1853 عندما جاءت السفن الأميركية وفرضت عليها الخروج من دائرة العزلة.

(16) Pierre Lavelle, *La Pensée politique du Japon contemporain: 1868-1989*, Que sais-je?; 2553 (Paris: Presses universitaires de France, 1990), p. 5.

(17) إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ شرق آسيا الحديث (الرياض: مكتبة العكيبان، 1994)، ص 129.

(18) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 139.

(19) Takahashi, p. 30.

إقطاعياتهم الخاصة، يتركون زوجاتهم وأبناءهم رهائن[20]. وسعى «الباكوفو إلى إجراء تنظيم صارم في ما يتعلق بحياة المزارعين، ومسّ ذلك حتى اللباس والتغذية والمسكن»[21].

إضافة إلى ذلك، ومن أجل تقوية قرارات الإدارة المركزية، لجأ الباكوفو إلى ثلاث وسائل أساسية: مراقبة فئة الدايميو، واعتماد المبادئ الكونفوشوسية المؤهلة للنظام الاجتماعي الموجود، ونهج سياسة العزلة[22].

تُعتبر سياسة العزلة من الوسائل الأساسية التي سمحت لإدارة التوكوجاوا بإحكام قبضتها على إيقاع التوازن السياسي والإداري في اليابان، خصوصًا بعد طردها الأجانب المسيحيين: فبسبب تهديد التبشير المسيحي للتوازن الاجتماعي والقيم البوذية، مُنع نشاطه، وانكفأت اليابان على نفسها تلك المدة المطوّلة، وهي فترة كانت كافية لإحداث كثير من التراكمات الإيجابية. ويثار أمامنا هنا إشكال رئيس يتعلق بالأسباب الحقيقية التي دفعت أسرة توكوجاوا إلى نهج سياسة العزلة على امتداد هذا الزمن الطويل.

تحدث باتريك سميث عن خشية الشوغون المتعاقبين من أن توحد المسيحية سادة الإقطاع المحليين (الدايميو) ضدهم، خصوصًا بعد اغتصابهم السلطة السياسية من الإمبراطور، وتهميش دوره، وحشره في زاوية رمزية ضيقة. «وفي 1639، بعد قرن من وصول أول الأجانب إلى شواطئ اليابان، كانت مراسيم العزل المدعوة سكوكو[23] سارية، وأصبح تعلم 'اللغة الهولندية' الذي أُبيح لقلة مختارة، هو المصدر الوحيد للمعرفة الخارجية. وكانت عقوبة

---

(20) Pierre Renouvin, *La Question d'Extrême-Orient: 1840-1940* (Paris: Hachette, 1946), pp. 19-20.

(21) Takahashi, p. 36.

(22) Jacques Mutel, *Histoire du Japon, I: La Fin du shôgunat et le Japon de Meiji, 1853-1912* (Paris: Hatier, 1970), p. 14.

(23) سكوكو تعني باللغة اليابانية إغلاق البلد، أي سياسة العزلة الطوعية التي اتبعتها اليابان، وذلك خلال عهد الإيدو بين عامي 1641 و 1853، وانتهت بوصول بيري إلى السواحل اليابانية وعقد الاتفاقات التجارية مع حكام التوكوجاوا.

أي شخص يحاول مغادرة اليابان هي الموت»[24]. وفي الاتجاه نفسه، يشير إسماعيل ياغي إلى أن بعض الأسر الإقطاعية، كأسرة شوتشو وأسرة ساتسوما، كانت تتحدى أسرة توكوجاوا، «ولذلك أصدر الشوغون قرارًا عام 1637 يمنع الاتصال فيه بالأجانب من أجل ضمان أمن النظام القائم من ثورات النبلاء الأقوياء»[25].

تذكّرنا سياسة العزلة اليابانية بما فعله المولى سليمان عندما نهج سياسة الاحتراز، واعتبر أن الفريضة الوقتية تستدعي ذلك، بعد تزايد خطر سياسة نابليون التوسعية في البحر المتوسط، وتهديدها الاستراتيجي لدول شمال أفريقيا.

إذا كان نظام التوكوجاوا نجح في صهر مكوّنات الداخل، وفرض على الجميع، وبأدوات اقتصادية وجبائية وثقافية، الالتزامَ طوعًا وكرهًا بمقتضيات السكوكو التي مكنته في آخر المطاف من تحقيق إجماع داخلي، فإن تجربةَ المولى سليمان فقدت العمق الاجتماعي والمفردات المرصوصة خلف عنوان ما سمّي سياسة الاحتراز؛ فلم يتمكن السلطان من توحيد الجبهة الداخلية، وفتح بدلًا من ذلك جبهات متعددة من ألوان الصراع السياسي والمذهبي والقبلي، وساهمت التحالفات الداخلية في إطاحته من السلطة.

في المقابل، لم تأخذ سياسة المولى سليمان شكلًا متصلًا ومتشابهًا، لأن بريطانيا شكّلت استثناءً في هذا الموضوع، إلا أن التصور - المقاطعة - كان موجودًا، وطُبّق بعض عناصره تجاه فرنسا، لكنه فقد مطلب الحيل الدبلوماسية مع الداخل والخارج، ولم تكن الجبهة الداخلية مؤهلة لاحتضانها والدفاع عنها، بطريقة طوعية أو قسرية، وهو الجانب الذي اختلف فيه مجتمع أبو بكر أمهاوش عن مجتمع التوكوجاوا الياباني.

---

(24) باتريك سميث، اليابان: رؤية جديدة، عالم المعرفة؛ 268 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 72-73.

(25) ياغي، ص 130.

لم يكن قرار العزلة اليابانية نابعًا من تصور ذهني بنيوي جامد للآخر، بل تأسس على معطيات الواقع الموضوعي التي أبانت بالملموس مدى الطموحات التوسعية الأوروبية؛ فقد «نشط اليابانيون في التجسس على الأوروبيين في المنطقة، وخاصة بعد أن علموا بمحاولة إسبانيا غزو اليابان ذاتها، ثم وضعت سياسة حازمة بالقضاء على اليابانيين المسيحيين، وانتهت هذه الإجراءات بإغلاق البلاد في وجه جميع الأمم الأوروبية على السواء»[26]. وكان هذا الانغلاق «سببًا قويًا في استرداد قوة اليابانيين ثقافيًا وتركيز عاداتهم والحفاظ على وحدتهم وتحقيق الاستقرار»[27].

ساعد «الانفصال الطويل عن العالم الخارجي على انتشار أنماط حضارية موحدة عبر الجزر اليابانية، رغم وجود فواصل تضاريسية في أرضها الداخلية»[28]. كما ترسخ «السلام التام الطويل الأمد لعصر توكوجاوا الذي أتى لليابان بسنوات من الازدهار غير المسبوق والإنتاج الصناعي والنمو التجاري السريع»[29].

تسببت هذه السياسة في «ظهور طبقة التجار (الطبقة الوسطى)... وزيادة في الثروة، ما أدى إلى انتعاش الصناعة والتجارة الداخلية، وجعل طبقة التجار تسيطر على الطبقات الأخرى... وارتبط التجار بطبقة النبلاء والأمراء»[30].

على مستوى آخر، ساهمت العلاقات الفيودالية في ترسيخ مفاهيم الولاء والخدمات المتبادلة، فتشكلت هذه العلاقات بين شوغون التوكوجاوا والسادة الكبار - دايميو[31] (Daimyos)، وكان الدايميو يحصل على إقطاعية

(26) المصدر نفسه، ص 131.

(27) محمد عبد القادر حاتم، أسرار تقدم اليابان (القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1990)، ص 25.

(28) المصدر نفسه، ص 28.

(29) سميث، ص 74.

(30) ياغي، ص 132.

(31) الدايميو: تعني في اليابانية الاسم الكبير، سيد فيودالي ياباني. وبلغ عدد من حمل هذا الاسم في عهد الإيدو نحو 200 دايميو.

من الشوغون[32]، ويقسم بدوره إقطاعيته إلى أجزاء صغيرة لمصلحة فرسانه المسلحين (الساموراي)[33]. و«خلال منتصف القرن السابع عشر، ترسخت سيطرة السادة الكبار بشكل تام على الأراضي وعلى جموع الفلاحين»[34]. وعلى امتداد الطريق المؤدية إلى إيدو- طوكيو، «تم وضع أجهزة لمراقبة دخول السلاح إلى العاصمة، ولمنع تسلل أسر الدايميو إلى خارج المدينة»[35]. وكان السيد الفيودالي - الدايميو يتمتع في إقطاعيته بسلطة مطلقة يجري تناقلها وراثة؛ وكان يتكفل بمهمة القضاء وتنظيم الإدارة المحلية والنظام المالي. كما كان من حقه سكّ النقود، وكانت تواليه فئة من الساموراي «كان يراوح عددهم بين 200 وبضعة آلاف داخل الإقطاعية الواحدة، وظل حمل السلاح حكرًا عليهم. وقد وصل عددهم الإجمالي إلى 500.000 فرد»[36].

تأسست الوحدة اليابانية بقوة الساموراي العسكرية، فقوي نتيجة ذلك نفوذ هذه الطبقة، وتعززت سيطرة كبار الملّاك على غيرها من الطبقات الاجتماعية، واستمرت الأرض القاعدة الأساسية للإنتاج، خصوصًا زراعة الأرز... «ولما كانت طبقة الساموراي تشكل العمود الفقري للقوة العسكرية اليابانية، فإن دعم كبار هذه الطبقة لسلطة الشوغون المركزية أسهم في ترسيخ الوحدة الداخلية»[37]. كما تأسس داخل مجتمع منغلق على ذاته، بعيدًا عن الصراعات الداخلية، كيان مستقر سمح بـ «إقامة إدارة مركزية تحت إدارة الشوغون، وبتحقيق تراكم أولي لرؤوس الأموال لدى تجار منطقة أوساكا، ولإجراء

(32) الشوغون في اليابانية تعني «العام»، وهو كبير النبلاء العسكريين. اغتصب السلطة من الإمبراطور، وأصبح يشغل منصب حاكم اليابان العام قبل عهد الميجي، وأصبحت أسرته تتوارث هذا المنصب طوال عهد التوكوجاوا، وهو اللقب الذي كان يُطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ عام 1192، وحتى نهاية فترة إيدو (1868).

(33) الساموراي هي في اليابانية فئة من المقاتلين اليابانيين في العصر الفيودالي. تميزت بامتشاقها السيوف، وولائها لفئة الدايميو. ومن مرادفاتها بوشي (Bushi) التي فضّل استعمالها كلٌّ من بيير رينوفين وكوهاشيري طاكاهاشي في كتابيهما المعتمدين في هذا البحث.

(34) Takahashi, p. 30.

(35) Jonathan Norton Leonard, *Le Japon Médiéval* (Madrid: Norvograph, 1982), p. 166.

(36) Renouvin, p. 19.

(37) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 144.

الأبحاث العلمية في القطاعين الزراعي والجغرافي، وفي ميادين الطب والفيزياء والرياضيات»[38].

عرفت اليابان ابتداءً من عام 1600 فترة مطوّلة من السلم دامت قرنين ونصف قرن، ولم يكن تحقيق ذلك أمرًا سهلًا، ذلك أن «المشكلة المثارة كانت تتمثّل في الحفاظ على السلم داخل مجتمع خُلق للحرب»[39]. هنا، يواجهنا شكل من أشكال التعاقد الاجتماعي والسياسي، احتاج إلى مرجعية فكرية تسوغه وتمنحه طابع المشروعية والإلزام. وهنا استند النظام الإداري الياباني إلى «مبادئ الفلسفة الكونفوشيوسية في الطاعة واحترام الرؤساء والتفاني في سبيل الوطن. وعلى رغم بروز بعض حركات التمرد والعصيان على سلطة الشوغون الضعفاء، فإن أيًا من الدايميو الأقوياء لم يحاول الانفصال عن السلطة المركزية»[40]؛ إذ لم تكن الأوضاع متاحة لوضع بديل سياسي وإداري قمين بوضع المجتمع الياباني على سكة تنموية جديدة ومغايرة.

تعتمد الفلسفة الكونفوشيوسية على مبدأ التراتبية المجتمعية، وقد حظيت بدعم طبقة الباكوفو وتشجيعها بسبب دعوتها إلى احترام الوضع القائم، وإلى طاعة الرعايا المطلقة للسلطة الوصية، وهو ما دفع هذه الأخيرة «إلى تزكية الكثير من الكونفوشيوسيين كأطر تعليمية رسمية لدى الحكومة المركزية»[41].

اهتمت الكونفوشيوسية، كتصور فلسفي، بتأسيس نظام اجتماعي صارم يقوم على أساس «التفكير السديد والحياة السليمة، من خلال الولاء للحاكم، وولاء الأبناء للآباء، والتمسك الصارم بمجموعة الطقوس والآداب الاجتماعية»[42]. وكانت نتيجة ذلك أن ترسّخ «السلام التام الطويل الأمد

(38) Yoshio Abe, «La Culture japonaise à la recherche de son identité,» *Esprit*, no. 421 (Février 1973), pp. 296-297.

(39) Jacques Mutel, *Histoire du Japon*, collection d'histoire contemporaine (Paris: Hatier, 1970), p. 13.

(40) مسعود ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيًا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص 52-53.

(41) Grousset et Léonard, dirs., p. 1532.

(42) أدوين رايشاور، اليابانيون، ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ 136 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 301-302.

لعصر توكوجاوا الذي أتى لليابان من الازدهار غير المسبوق والإنتاج الصناعي والنمو التجاري السريع»[43]. وفي المجال المالي، ازدهر الاقتصاد النقدي باليابان في مطلع القرن السابع عشر، وكان السادة الإقطاعيون يمتلكون كميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية «حتى أنهم كانوا يدفعون بالعملات الذهبية الصفراء والفضية البيضاء رواتب نبلاء الساموراي الصاعدين بخدمتهم»[44]. كما تحدث أدوين رايشاور عن حدوث نمو اقتصادي هائل في اليابان؛ «فقد ساعد السلام والاستقرار فيها خلال القرن السابع عشر على حدوث قفزة كبيرة أولية في العمليات الإنتاجية وفي تطور نظامها الاقتصادي»[45]. كما وجدت درجة عالية من النظام النقدي ومؤسسات وسندات ائتمان متطورة جدًا، بما في ذلك «الأوراق المالية، والشيكات. وكذا أنشئ ما قد يكون أول المحلات التجارية المتكاملة في العالم كله في طوكيو عام 1683 على يد عائلة ميتسوي»[46].

وفي عهد أسرة توكوجاوا العسكرية، أخذ الصنّاع «ينافسون، بل وأحيانًا يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة. وكانت الأسرة تورث صناعتها ومهارتها من الوالد إلى ولده، وكثيرًا ما أُطلق على الأسرة اسم الصناعة التي كانت تقوم بها»[47]. وعمومًا، «أتاح السلام والاستقرار لليابانيين خلال تلك الحقبة التاريخية فرصة العمل على تطوير

(43) سميث، ص 74.

(44) فرنان بروديل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، ترجمة مصطفى ماهر، 3 ج (القاهرة: دار الفكر، 1993)، ج 1، ص 619.

(45) رايشاور، ص 99.

(46) شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 212.

ميتسوي (Mitsui): تعتبر من أشهر العائلات اليابانية الثرية. برزت في عام 1673، واهتمت بالتجارة وتخزين المواد الغذائية الجافة في مدينتي إيدو وكيوتو. تبوأ أفرادها في عام 1691 مكانة تجارية متميزة لدى حكام التوكوجاوا. وفي نهاية عهد الإيدو، كانت عائلة ميتسوي الأكثر ثراءً، وحظيت بمعاملة متميزة في عهد الميجي.

(47) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود؛ تقديم محي الدين صابر، 42 ج في 24 مج (تونس: المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة والعلوم؛ بيروت: دار الجيل للطبع والنشر، 1988)، مج 1، ج 5، ص 50.

وتجويد تراثهم الثقافي الثري وزيادة تجانسهم الحضاري وتعميق شعورهم بذاتيتهم القومية»[48].

يختم صاحب مسألة الشرق الأقصى تحليله الرصين لطبيعة المجتمع الفيودالي الياباني قائلًا: «نجح نظام توكوجاوا على امتداد قرنين، في تحقيق نتائج لا مراء فيها، تمثّلت في سلام داخلي، قضى على المواجهات بين فئات الدايميو، ووفر ظروف انتعاش الحياة الثقافية والفنية، كما أعاد الوحدة السياسية للبلاد»[49].

لكن إلى أي حد كان يمكن أن تدوم هذه القرارات وهذا النمط من العلاقات الفيودالية الصارمة؟ ألم تكن الالتزامات الفيودالية وحقوق السخرة الإجبارية قائمةً على منطق الإكراه والاستبداد، وأخذ النساء والأطفال رهائن لدى السادة الكبار؟ ألم يكن المجتمع الياباني في حاجة إلى رجّة خارجية عنيفة فحسب تخلط الأوراق، وتساهم في إعادة توزيع الأدوار السياسية والاجتماعية؟ ألم تستغل قبائل شوتشو وساتسوما، في هذا الإطار، مجيء السفن السوداء الأميركية، كمتنفس خارجي لتصفية خلافاتها القديمة والدفينة مع نظام توكوجاوا؟ ألم تمتلك حسًا تاريخيًا متميزًا أهّلها لالتقاط لحظة الضعف والوهن اللذين أصابا أركان النظام القديم، ووظفت جميع الإمكانات المادية والمعنوية التي في حوزتها لرسم اتجاه جديد لمجتمع النيبون!؟ ألم يمنح العميد البحري الأميركي بيري المقاطعات اليابانية المعارضة فرصة تاريخية متميزة لتحويل مسيرة تاريخ اليابان؟

ثانيًا: اليابان بين حملة بيري وأسئلة التحدي الغربي

هل كانت حملة بيري في عام 1853 العامل الأساس في انطلاق عهد التحديث الياباني؟ وما هو السبيل التنموي الذي كان مقدرًا أن تسلكه اليابان لو بقيت في عزلتها الطوعية الطويلة التي دامت 250 عامًا؟ ألم يساهم الغرب في إخراجها من عتمات النظام الفيودالي وتراتبيته الصارمة، وفي إدخالها إلى نور

(48) رايشاور، ص 98-99.

(49) Renouvin, p. 20.

التحديث الغربي؟ يحتاج الأمر إلى تحقيق وتفصيل بعرض الوثائق، وتحليل المعطيات، وتفكيك المقدمات والخروج بالنتائج والتأويلات.

ساهم البُعد المجالي الجغرافي في اهتمام القوى الغربية بالمسألة اليابانية؛ فقرب اليابان من الصين دفع الولايات المتحدة وروسيا إلى إيلاء اهتمام متزايد بها[50]؛ فمنذ عام 1792 أرسلت الحكومة الروسية لاكسمان[51] (Laxman) إلى نيومورو[52] (Nemuro)، وطلب المبعوث الروسي من الباكوفو السماح لبلده بالتجارة، لكن طلبه قوبل بالرفض[53]. وفي عام 1808، وفي إطار الصراع الهولندي - الإنكليزي، تمكنت سفينة بريطانية من خرق السيادة البحرية لليابان في ميناء ناغازاكي. وتنامى الإحساس بالخطر الغربي بعد اندلاع حرب الأفيون في عام 1840، بين إنكلترا والصين، وهو ما أثبت لليابانيين هول الخسائر التي تكبدتها الصين نتيجة هذه المواجهة غير المتكافئة.

بعد ذلك بخمسة أعوام، أي في عام 1845، صوّت الكونغرس الأميركي لمصلحة قرار يدعو الحكومة الأميركية إلى اتخاذ إجراءات تحقق - بوسائل دبلوماسية - إبرام بعض الاتفاقات التجارية مع اليابان، غير أن الإدارة اليابانية بقيت متشبثة بخيار عزلتها، فرفضت في عام 1846 استقبال بعثة أميركية[54].

تسبب الرفض الياباني في توجيه أسطول أميركي بقيادة العميد البحري بيري في عام 1853 الذي «أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكري إييوشي[55] يؤكد له أن الحكومة الأميركية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موانئ يابانية في وجه التجارة الأميركية، واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة

---

(50) المصدر نفسه، ص 49.

(51) آدم إيريكوفيتش لاكسمان (A. E. Laxman): عقيد في البحرية الروسية. أرسلته الإمبراطورة كاترين الثانية في عام 1792 لإقامة علاقات دبلوماسية مع اليابان، لكنه أخفق في تحقيق مهمته.

(52) نيومورو: مقاطعة يابانية قديمة، توجد اليوم شرق جزيرة هوكايدو. مثّلت محطة للصيد البحري منذ عهد الميجي.

(53) Grousset et Léonard, dirs., p. 1544.

(54) Renouvin, p. 50.

(55) إييوشي (1793-1853): لم يكن ينتظر مجيء الأميركيين بقوة السلاح ومحاولة فرضهم اتفاقات على حكومة الباكوفو، وأصابه مرض شديد توفي على إثره في 27 تموز/ يوليو 1853.

الأميركيين»[56]. وكان أسلوب بيري مرنًا، إذ أمهل اليابانيين عامًا كاملًا للتفكير والرد على الرسالة التي قدمها إلى الشوغون.

وبعد انتهاء مهلة العام، أي في سنة 1854، عاد العميد البحري بيري إلى السواحل اليابانية «مسلحًا بقوة بحرية أكبر، ومزودًا بمختلف الهدايا المغرية»[57]؛ فقد ضم أسطولُه 250 مدفعًا، وتمكن بسبب ذلك من فتح قنوات التفاوض مع إدارة الشوغون، واضطرت حكومة توكوجاوا إلى توقيع اتفاق كاناجاوا للصداقة مع الولايات المتحدة في 31 آذار/ مارس 1854، المعروف بـ «معاهدة السلم والصداقة بين الولايات المتحدة واليابان». ونصَّ الاتفاق على:

- فتح مرفأي شيمودا وهاكوداتي لإصلاح السفن الأميركية وتموينها.

- معاملة البحارة الأميركيين الناجين من السفن الغارقة معاملة لائقة وإعادتهم إلى موطنهم.

- الموافقة على تعيين ممثلين قنصليين، إذا رأت أي من الدولتين ذلك ضروريًا.

- تَعِد اليابان بمنح الولايات المتحدة حق الدولة الأولى بالرعاية[58].

إذًا وُقِّع الاتفاق بضغط من المدافع، لكن ذلك لم يمنع اليابانيين من الاستمرار برسم صورة سلبية عن الآخر الأميركي، وعن «سفنه السوداء».

تشبه نتائج حملة بيري على شواطئ اليابان، في إطارها العام، ما حصل للمغرب أمام الجيوش الفرنسية في عام 1844؛ فكان لها وقع زلزلة نفسية وصدمة شعورية، تولدت عنهما مجموعة من الأسئلة التي حاولت فهم ظاهرة القوة الغربية المنظمة. وجاء الفهم الياباني لطبيعة هذه القوة مختلفًا عن مثيله المغربي؛ إذ أدرك اليابانيون عجزهم الكامل عن مواجهتها، وبحثوا عن سبل تمكّنهم من تجنب أكبر قدر من الخسائر والتنازلات.

---

(56) ديورانت، مج 1، ج 5، ص 166.
(57) المصدر نفسه، مج 1، ج 5، ص 166-167.
(58) باغي، ص 134-135.

في 18 حزيران/يونيو 1857، فرض القنصل الأميركي على الحكومة اليابانية معاهدة ثانية غير متكافئة تخول الأميركيين الإقامة بموانئ شيمودا وناغازاكي وهاكوداتي، لتعاطي التجارة فيها؛ وفي 19 تموز/يوليو 1858، فرضت الولايات المتحدة معاهدة ثالثة غير متكافئة على حكومة الشوغون، هي معاهدة «يدو» (Yedo) التي سمحت للأميركيين بإقامة بعثة دبلوماسية في العاصمة، وبتمثيل قنصلي في الموانئ المفتوحة للتجارة الأميركية، وبتوسعة هذه التجارة إلى خمسة موانئ، من بينها ميناء يدو(59).

هكذا «فتحت الموانئ الكبرى للتجارة الخارجية... وحددت الضرائب الجمركية، وفصلت مقاديرها وأنواعها، واشترطت شروط اتُّفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية في الإمبراطورية اليابانية»(60). وشكل التوافق الأميركي - الياباني بداية سلسلة من الاتفاقات مع بعض الدول الأوروبية، كإنكلترا في عامي 1854 و1859، وروسيا في عامي 1855 و1859، وهولندا في عام 1856، وفرنسا والبرتغال في عام 1859. «وكانت أخطر نقاط تلك الاتفاقات البند الذي ينص على رفض الأجانب المثول أمام المحاكم الأجنبية، وإصرارهم على أن تتم محاكمتهم أمام قناصل دولهم، وبالاستناد فقط إلى قوانين الدول التي ينتمون إليها»(61)، وهو ما كان يعني الانتقاص من السيادة اليابانية، وبداية انتزاع أهم ركائزها من إدارة الشوغون.

رأى اليابانيون في هذه المعاهدات تلبّس بلدهم بدناسة «البرابرة»، فازدادت «الثورات الداخلية للفلاحين نشاطًا وتوسعًا، كما ... إن عناصر من الحكم العسكري القائم آنذاك من مقاطعتي ساتسوما وشوتشو أعلنوا العصيان والاتحاد ضد الإقطاع»(62).

---

(59) علي المحجوبي، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان (تونس: دار سراس، 1999)، ص 201. يدو هي طوكيو قبل عام 1868.

(60) ديورانت، ص 167.

(61) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 239.

(62) أكيرا تاناكا، «عهد الميجي واليابانيون،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ترجمة عبد الله مكي القروص (بيروت: الدار العربية للعلوم، 1999)، ص 22.

اعتبر اليابانيون أن «ما جرى حينها أول إهانة عظمى وجّهها إليهم العالم الغربي، وكان تدنيسًا لها وإهانة لشعبها وإمبراطوره»[63]. كما شكّل التهديد الأميركي منعطفًا حاسمًا في آليات الاشتغال السياسي لحكومة توكوجاوا؛ ذلك بأن هذه استدعت في مناسبة غير مسبوقة فئة الدايميو للتشاور، بيد أنه لم يكن من حق هذه الفئة - في السابق - أن تبدي رأيها في الاتجاه السياسي العام؛ فمثّل هذا التحول تعبيرًا عن حالة العجز والضعف[64].

«سعت حكومة 'إدو' إلى كسب أوسع تأييد شعبي لسياساتها... لكن هذه الخطوة حققت نتيجة سلبية؛ فقد نتج من هذه الخطوة غير المسبوقة وتداخلها مع الأزمة الوطنية القائمة أن فُتح الباب واسعًا أمام موجات شديدة من الانتقادات»[65]. وكره اليابانيون الأجانب «لأنهم جميعًا كانوا من 'غير الأطهار' الذين لا ينبغي لهم أن يطأوا أرض اليابان المقدسة، وبين هؤلاء الكارهين للأجانب كان الساموراي هم الأكثر جرأة»[66]، وفي مقدمتهم صايغو تاكاموري.

وقد أورد فوكوزاوا أسماء الكثيرين ممن اغتيلوا بسبب تعاطفهم مع الثقافة الأجنبية كما «هوجمت المتاجر التي تبيع سلعًا أجنبية... لأنها... تسبب خسارة للبلاد»[67]، في اعتقاد الحركة الاحتجاجية.

«بعد أشهر قلائل من وصول الكومودور بيري... كانت أخبار ظهور الأسطول الأميركي في 'يدو' قد تركت تأثيرها بالفعل في كل بلدة في اليابان، وفي الوقت نفسه أصبحت مشكلة الدفاع الوطني وعلم المدفعية الحديث مناط الاهتمام الأول بالنسبة للساموراي جميعًا»[68].

---

(63) فايز صالح أبو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة (عمان: دار البشير، 1989)، ص 15.

(64) Renouvin, p. 51.

(65) رايشاور، ص 111.

(66) يوكيتشي، ص 266.

(67) المصدر نفسه، ص 266.

(68) المصدر نفسه، ص 53.

أحدث استسلام اليابان للضغط الغربي رجّة حقيقية داخل المجتمع الياباني، تطلبت من حكومة الشوغون تقديم أجوبة تفسيرية لما حدث. وكان المستشار أبي ماساهيرو[69] مدركًا، بفضل اتصالاته بالهولنديين، حجم القوة التي كانت تتوفر عليها الدول الكبرى المتربصة باليابان، وكان مطلوبًا منه توضيح قناعاته هذه لعناصر الدايميو، وأن حكومة الشوغون لم يكن لديها الوسائل الكفيلة لمواجهة ذلك. وكانت مهمة ماساهيرو صعبة للغاية، إذ كان متوقعًا منه الحفاظ على هيبة الحكومة «وعدم منح الإقطاعيين الكبار الفرصة للنيل من ضعف التوكوجاوا»[70]، وهم الذين حاولوا التقاط زخم اللحظة التاريخية لتصفية الخلافات القديمة وتجاوز التأخر والضعف في مواجهة القوى الكبرى بالمنطقة.

وقف بعض الفيوداليين ضد توقيع معاهدات مجحفة بحق اليابان، وكانوا يرون أن «ورثة الشمس العظمى قد تربعوا على العرش الإمبراطوري من جيل إلى جيل دون تغيير منذ أقدم العصور، واليوم فإن البرابرة الأجانب القادمين من الغرب يعيثون في البحر فسادًا، ويدوسون بأقدامهم الدنسة على بلاد الآخرين»[71]. ودعا هذا التيار إلى إحياء النظام الإمبراطوري والعودة إلى سياسة العزلة، رافعًا شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة».

كان توقيع المعاهدات السابقة تحديًا مباشرًا «لإرادة الإمبراطور ومناصريه داخل إدارة الباكوفو، ولعدد كبير من الدايميو من حكام المقاطعات، ولجماعة الرونين[72] من الساموراي»[73]. ولذا أصبحت اليابان تبحث عن منفذ لأزمتها، وعن ردود ملائمة لمواجهة تحديات الغرب؛ و«اتقدت المشاعر الوطنية

(69) أبي ماساهيرو (A. Masahiro) ينتمي إلى عائلة نبيلة. كُلّف بمهمة التفاوض في شأن انفتاح اليابان أمام التجارة الأميركية بعد حملة بيري.

(70) Renouvin, p. 51.

(71) حاتم، ص 46.

(72) الرونين: الرجل التائه، وهو الساموراي الذي تخلى عن سيده. وقد تطورت أعداد هؤلاء الرجال خلال فترة الإيدو 1600-1686، بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذها الشوغون، ومنها عدم السماح لهم بتغيير السيد، ومنع زواجهم من غير المقاطعات التي ينتمون إليها.

(73) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 161.

ضد فتح البلاد للأجانب، وتعاظم الشعور الشعبي بضرورة مواجهة التهديد الخارجي بحشد قوى الأمة كلها والتفافها التفافًا فعالًا حول الإمبراطور، الرمز الشرعي الوحيد للوحدة الوطنية»[74]؛ وبرزت الآراء المطالِبة باحترام البلاط الإمبراطوري داخل صفوف التيار الوطني، واستهدفت من وراء شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» إطاحة حكومة الباكوفو[75].

وقف كبار الدايميو لمنطقة الجنوب الغربي، خصوصًا في مقاطعات ساتسوما وشوتشو وتوزا، ضد إدارة الشوغون وتوافقاتها مع القوى الغربية، ووجدت في الشعار السابق ضالتها لتصفية نزاعاتها وخلافاتها الإقطاعية القديمة مع حكومة توكوجاوا، مغتصبة السلطة الإمبراطورية. وفي هذا الشأن صرح نارياكي دايميو ميتو بأن الأجانب يشكلون تهديدًا لاستقلال اليابان ووحدتها، وبأن فتح الصين ميناء كانتون أمام الأوروبيين تسبب في نشوب حرب الأفيون[76].

التفّت الأغلبية العظمى من صناع القرار الياباني حول هذا المبدأ، وحاول هذا التيار «التصدي للهيمنة الأجنبية... بقتل بعض الأجانب، والاعتراض على دخول السفن الغربية، الأمر الذي جعل القوى الغربية تتدخل بقصف بعض الموانئ اليابانية. وتفرض فتح اليابان لحدودها بالكامل مع التجارة الغربية، مع تحديد الرسوم الجمركية التي تفرض على البضائع عند دخولها إلى هذه البلاد 5 ٪ من قيمتها»[77].

بدأت التحديات السياسية تفرض نفسها، وأضحت معالم القوة الغربية معطًى موضوعيًا تحتاج مدافعته إلى خبرة وحكمة وتعقّل في بناء المواقف الدبلوماسية وممارستها.

نستنتج من قراءتنا هذه الحوادث مجموعةً من القضايا، وفي مقدمها أن الصدمة الغربية أحدثت بالفعل رجّة حقيقية داخل المجتمع الياباني، وأنتجت

---

(74) رايشاور، ص 111.

(75) Grousset et Léonard, dirs., p. 1543.

(76) Renouvin, p. 51.

(77) المحجوبي، ص 202.

داخله الكثير من الأسئلة والاستفسارات، وألزمته، بناءً عليه، تقديم الرد والإجابات الملائمة. كما اضطرت النخبة الحاكمة، بأطيافها كافة، إلى التكيف مع الواقع الجديد وأخذه في الاعتبار عند كل اجتهاد سياسي وعسكري، أمام الإكراه الذي فرضته السفن الحربية الأميركية.

دلت المراحل الأولى التي رافقت الوجود الأميركي داخل الشواطئ اليابانية، على فوضى الفكر وعدم القدرة على التقاط الخيط الناظم لمقدمات الهجمة الغربية. وفي إثر ذلك، طرأ نوع من «التعقّل» في مساءلة الواقع الجديد المفروض. وفي 1864 حدث منعطف استراتيجي مهم؛ فقبل هذا التاريخ «كانت الحركة الإمبراطورية تسير بشكل مواز مع حركة العداء للأجانب، لكن بعد ذلك حدث الانفصال بينهما»[78]، فبدأت تبرز داخل صفوف النخب اليابانية مواقف تدعو إلى التخلي عن سياسة العزلة، والانفتاح على الغرب. وإذا ودّ بعض اليابانيين مواجهة الأجانب مهما كلف ذلك من تضحيات، فإن «بعضهم الآخر كان من رأيه أن تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم: فالوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها اليابان أن تتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادي الذي يشبه ما كانت أوروبا تفرضه عندئذ على الصين، هي أن تتعلم اليابان بأسرع طريقة ممكنة أساليب الصناعة الغربية وفن الحرب الحديثة»[79].

نقرأ في وثيقة موجّهة إلى الباكوفو في عام 1857: «يجب أن تفتح موانئنا أمام التجارة مع الأجانب، صحيح أننا لن نجني أرباحًا من وراء ذلك، لكن لا يمكننا أن نفعل غير ذلك، فهدفنا يكمن في الحفاظ على قوانيننا ومؤسساتنا»[80].

أصبح مطلب الانفتاح على الغرب عنصرًا أساسًا ضمن مكوّنات التفكير السياسي للعناصر الإصلاحية في اليابان، إلا أن ثمن الانفتاح لم يكن بخسًا؛ ذلك أن شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» لم يمّح من المشهد الإصلاحي العام بالبلاد. وإذا كان مطلب «طرد البرابرة» والتّخلي

---

(78) Renouvin, p. 56.

(79) ديورانت، ص 167.

(80) Jean-Claude Courdy, *Les Japonais* (Paris: P. Belfond, 1979), p. 107.

عن سياسة العزلة متعذرًا لأسباب موضوعية، فإن إعادة الاعتبار إلى البلاط الإمبراطوري بقيت متقدة لدى رواد الإصلاح. واحتاج تحقيق ذلك إلى نشوب بعض المواجهات العسكرية، فمع «إطلالة العام الجديد في أوائل [كانون الثاني] يناير 1868 نشبت معركة فوشيمي[81]، وحلت الهزيمة بجيش الشوغون... [و] اكتسحت فوضى كبيرة أرجاء البلاد، وشكّل هذا بداية الإحياء الإمبراطوري»[82].

أظهرت حكومة التوكوجاوا عجزًا كاملًا في الدفاع عن سيادة اليابان، ووقعت في مأزق سياسي وعسكري حرج. وتوازى ذلك مع الدعوة إلى إعادة الاعتبار للسلطة الإمبراطورية، وهو ما حدث في عام 1867 عندما أجبر أمراء الإقطاع «كيكي»[83]، آخر الحكام العسكريين على التنازل عن السلطة، الذي رأى أن «معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة، وإني لأعترف خجلًا بأن الأمور في وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أتصف به أنا من نقص وعجز. وها هو ذا اتصالنا بالأجانب يزداد يومًا بعد يوم، فما لم تتولَّ إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة انهار بناء الدولة انهيارًا من أساسه». وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور ميجي باقتضاب: «قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكي من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطوري»[84].

انتهت الخلافات الداخلية اليابانية بهذا الحل التوافقي الذي يدل على ذهنية اقتصاد الجهد والوقت، وعدم تبديد الطاقات وتبذير الإمكانات. فقد أدرك اليابانيون أن الصراعات الداخلية لا يمكن أن تحقق المصلحة العليا للبلاد، ورأت في إعادة الاعتبار للإمبراطور وسيلة ضرورية لتجاوزها وتغييرها؛ ويمكن القول إن تمجيد الإمبراطور وترسيخ صورته في المخيال الياباني،

---

(81) تسمى أيضًا معركة البوشين. ابتدأت في كانون الثاني/يناير 1868 في عهد الإمبراطور ميجي، واستمرت إلى حدود أيار/مايو 1869. جمعت التحالف الإمبراطوري المكوّن من قبائل ساتسوما وهيزن وتوزا وشوتشو ومسانديهم، ضد الجيش الشوغوني ومناصريه الذين انهزموا أمام تحالف البلاط الإمبراطوري.

(82) يوكيتشي، ص 217.

(83) آخر حكام الشوغون وأسرة التوكوجاوا.

(84) ديورانت، ص 168.

شكّلا انقلابًا حقيقيًا في التصورات الإصلاحية، وفي انبعاث رؤية جديدة لتنظيم الدولة والمجتمع على أسس جديدة. فقد «شكّل عهد الميجي عملية تغيير سياسية واقتصادية واجتماعية كبرى»[85] في تاريخ اليابان، ويؤكد بيير رينوفين أن عملية التحول تحققت في زمن قياسي فريد في تاريخ التحولات العالمية «فلم تمر فترة 25 سنة حتى تم تحديث المؤسسات... دون الحضور الغربي، وأنموذجهم التحديثي، ودون المساعدة التقنية الغربية، لم يكن قطعًا لتتحقق عملية التحول»[86].

لا يمكن إنكار القيمة العملية لكتاب *La Question d'extrême orient* (مسألة الشرق الأقصى) لبيير رينوفين، وما ورد فيه من تحليلات عميقة ومتميزة لتحولات المجتمع الياباني في أثناء عهد الميجي، لكن من المشروعية التساؤل عن حجم الدور الغربي في هذا التغيير، وهل يمكن اعتباره شرط وجوب في انطلاق عملية التحديث الياباني؟ وإذا كان ذلك صحيحًا، فلماذا فشلت التجربة الصينية، في بداياتها الأولى، على الرغم من تعرضها للتدخلات الغربية نفسها بعد حرب الأفيون؟ ولماذا انتكست التجارب المختلفة في العالم الثالث وعجزت عن تقديم أنموذج تنموي يشبه ما تحقق في مجتمع النيبون! ومن هنا نرانا نتفق مع مقولة أن سفن بيري كانت «مجرد عامل مساعد، بل يمكن القول إن ذلك العامل لم يكن بنّاء؛ ففي اللحظة التي وصلت فيها هذه السفن، كانت الوسائط الأساسية للتغيير الهائل المرتقب موجودة كلها في الداخل، بل إن حظوظ اليابان كان يمكن أن تكون أقل عجلة في النهوض بالمهمات المرتقبة، ولكانت قد قامت بكثير من منجزاتها على نحو أكثر تأنّيًا، متجنبة بذلك النتائج المأساوية الكامنة في المستقبل»[87].

على مستوى آخر، فضّل كوهاشيرو تاكاهاشي الحديث عن التحول الاقتصادي للإقطاع الياباني. واعتبر «المسألة الزراعية حجر الزاوية في ثورة

---

(85) تاناكا، ص 21.

(86) Renouvin, p. 17.

(87) سميث، ص 60.

الميجي»[88]؛ لكن التأمل ومساءلة تحولات المشهد السياسي الداخلي خلال هذه الفترة يفصحان عن حضور ذهنية إصلاحية متميزة وديناميّة، وعن أن عناصر التغيير كلها - بما فيها تنظيم المسألة الزراعية - لم تكن سوى إحدى النتائج الكثيرة لهذه الذهنية المتقدة والمتسمة بالابتكار والتجديد؛ فقد استطاعت هذه الأخيرة استيعاب حجم التحولات وتوجيهها نحو الفعل الحضاري الإيجابي، بل إن النظام الفيودالي والتزاماته الاجتماعية والاقتصادية والجبائية أُلغيا بقرار إداري عندما تأكد مهندسو الإصلاح في عهد الميجي أن الإبقاء عليه يعني استمرار الأزمة وعدم القدرة على مجاراة التحديات الغربية المختلفة. وأُعلنت في 14 آذار/ مارس 1868 مبادئ الإصلاح الخمسة:

- يجب اتخاذ جميع القرارات أو التدابير بعد نقاش جماعي للدفاع عن المصلحة العامة.

- لا فرق من حيث المبدأ بين أعلى وأدنى في اليابان، بل الجميع واحد، مع الحفاظ بدقة على التراتبية الاجتماعية.

- من الضروري أن تتوحد السلطتان العسكرية والمدنية في يد واحدة، بهدف حماية حقوق كل الطبقات والمصلحة القومية العليا.

- يجب التخلي عن التقاليد الشكلية القديمة، والعمل على أن تظهر مساواة طبيعية بين الجميع من دون تمييز.

- السعي لاكتساب الثقافة والتعليم في أي مكان في العالم، واستخدامهما في بناء ركائز الإمبراطورية اليابانية[89].

أدرك اليابانيون «أن الدفاع الوحيد عن بلادهم ضد الغرب لن يتم دون أن يكون لليابان تفوقها التكنولوجي نفسه في المجالين العسكري والاقتصادي»[90].

---

(88) Takahashi, p. 24.

(89) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 59.

(90) رايشاور، ص 111.

كان الانفتاح خيارًا مفروضًا من الخارج، و«اضطر اليابانيون إلى فتح أبوابهم مع بذل الجهود المكثفة لحماية أنفسهم من تكنولوجيا الغرب العسكرية والاقتصادية، وذلك بالحصول على هذه التكنولوجيا لأنفسهم. ومن خلال هذه العملية وجدوا أن من الضروري إحداث تغييرات ثورية في مجتمعهم ونظامهم السياسي، بشرط أن تتم من خلال خصائصهم التقليدية المعروفة من التجانس والمهارة في المشروع الجماعي»[91].

تنبّه القادة اليابانيون إلى أن عملية الإصلاح الشامل لا يمكن أن تتحقق من دون المدخل السياسي، أو من ضرورة تركيز القرار الإداري ومنح السلطة قداسة وطابعًا كاريزماتيًا، وهو ما تحقق بتولية الإمبراطور الفتى موتسو هيتو (1852-1912) الحكم في الأيام الأخيرة من عام 1867. ولا يوجد أدنى شك في أن بدايات الإصلاحات لم تكن بأمر الفتى الإمبراطور، بل من صنع كبار قادة الساموراي المؤيدين له[92].

صحيح أن سلطة الشوغون أُعيدت إلى الإمبراطور، لكن السلطة الحقيقية كانت بأيدي رجال مقاطعات ساتسوما وشوتشو[93]. وهنا تثار مسألة أساسية تتعلق بدور بعض الفئات أو الطبقات في دفع المجتمع نحو مبدأ التغيير دفعًا لا يمكن مقاومته أو تغيير مساره العام.

أبان قادة مقاطعات ساتسوما وشوتشو عن قدرة متميزة على إعادة تشكيل الحقل السياسي الياباني، والاتجاه بالأمة اليابانية نحو التحديث، وتوظيف جميع ما تتيحه الثقافة والرموز الأسطورية والثقافية اليابانية لخدمة هذا الهدف الحيوي؛ إذ إنهم أدركوا خصوصية اللحظة التاريخية واستثمروها إلى أبعد مدى ممكن في التوجه بالمجتمع الياباني نحو آفاق جديدة من الممارسة التنموية.

وضع «الإمبراطور مايجي وفريق عمله الذي تجاوز الأربعمائة شخصية من ذوي الاتجاهات العامة والاهتمامات المتنوعة، برنامجًا طموحًا لتحديث

(91) المصدر نفسه، ص 337

(92) ضاهر، **النهضة العربية والنهضة اليابانية**، ص 240.

(93) Mutel, *Histoire du Japon, I: La Fin du shôgunat et le Japon de Meiji*, p. 51.

اليابان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر»[94]. واستُبدل شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» بمبدأ جديد: «بلد غني وجيش قوي»، أو «جيش قوي ليابان غنية». وهو شعار أسس البداية الفعلية لنمو الإمبريالية اليابانية وتطورها.

لم تكن عملية الانتقال سهلة، لكن بخلاف الثورات الكبرى، لم تفرز تحولات الميجي ثورات مضادة ودموية، مثل الأنموذج الفرنسي لعام 1789 أو الروسي لعام 1917؛ إذ سلّم حكام مقاطعات ساتسوما وشوتشو وتوزا وهيزن في عام 1869 مناطق نفوذهم إلى الإمبراطور، و«قام بقية الدايميو بنهج نفس الأسلوب»[95]. وفي المقابل، تعاملت الإدارة الجديدة مع هذا التسليم بحكمة وتعقّل؛ إذ احتفظت بعناصر الدايميو الذين سلّموا أراضيهم إلى الإمبراطور باعتبارهم مسيّرين جددًا لمقاطعاتهم القديمة.

يستدعي نمط هذا الانتقال السلمي في مسير التحولات اليابانية الكبرى إثارة بعض القضايا التي تفسر نجاح النماذج التنموية وتجارب الثورات والتحولات العالمية، ومنها: ما هو المسار الذي كانت ستنهجه التجربة اليابانية لولا ضغط المجموعات القبلية الوازنة في المشهد السياسي الياباني؟ وأي مستقبل كان على اليابان مواجهته لولا دور مجموعة ساتسوما وشوتشو؟

تمتعت هذه المجموعات بثقل وازن ومؤثر في الحياة العامة في اليابان، حتى خلال فترة العزلة، ولم يحِدّ من تأثيرها سوى القرارات الصارمة التي لجأت إليها حكومة التوكوجاوا لمنع الاتصال بالأجانب. ومع ذلك، تبينت ضآلة هذه السلطة عندما فرضت الولايات المتحدة شروطها التجارية في عام 1953، فاستغلت هذه المجموعات هذا الأمر وأطاحت النظام الشوغوني الذي فقد القاعدة المجتمعية المساندة. وألغى الإمبراطور، بمقتضى مرسوم 29 آب/أغسطس 1871، «نظام العشائر الشوغوني الإقطاعي، واستعاض به نظام المقاطعات، فأُسست، إثر ذلك، المجالس المحلية في المقاطعات، وعُيّن لكل مقاطعة حاكم يستمد سلطته من الحكومة المركزية المؤلفة من الإمبراطور،

---

(94) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 243.

(95) Grousset et Léonard, dirs., p. 1551.

ومن وزارة بجانبه، ومجلس دولة»[96]. وبمقتضى هذا الإلغاء، ما عاد لطبقة الساموراي توهّجها القديم؛ وأضحى سلك الجندية مفتوحًا أمام جميع أفراد المجتمع الياباني، كما أصبح التعليم الوسيلة الوحيدة للارتقاء الاجتماعي.

يُعتبر حل طبقة الساموراي وإلغاؤها حالة متقدمة في التفكير الاستراتيجي الياباني؛ فقد تسبب هذا الإجراء في الحد من الكوابح التي يفترض أن تحول دون إمكانية نجاح مشروع التحديث السريع الذي بدأت تسلكه الأوليغارشية الحاكمة. كما لم يتم اللجوء إلى أنموذج «مذبحة القلعة»، كما عرفها عهد محمد علي ضد المماليك في مصر، ولم تعرف اليابان سياسة مقابلة الكبش الأبيض بالتيس الأسود التي شهدتها فترات الأزمة بالمغرب في فترة ما بعد المولى إسماعيل. فنجح اليابانيون في ترويض المجال العسكري، بينما لم تتمكن الدولتان المغربية والعثمانية من الحد من نفوذ المؤسسة العسكرية وسطوتها وتدخّلها السافر في الحياة السياسية، وتعطيلها للتنمية المجتمعية داخل البلدين.

من خلال التأمل في الإجراءات التي اتخذها الحكام اليابانيون الجدد، يبدو التأثير الغربي جليًا في تفصيلاتها العامة؛ ذلك أن بصمات الثورة الفرنسية كانت واضحة في هذا المجال، فلم تنجح هذه الأخيرة في تثبيت أركانها إلا بعد إلغاء النظام الفيودالي، وتوابعه الطبقية والسياسية والجبائية. فالقرارات الصادرة عن الجمعية الوطنية الفرنسية في 4 آب/ أغسطس 1789، نصت على مبادئ متعددة، منها:

يُلغى النظام الإقطاعي عن آخره.

يُلغى من الآن شراء المناصب الإدارية والبلدية...

يمكن لجميع المواطنين من دون تمييز شغل المناصب المدنية والعسكرية.

كان اليابانيون يبحثون عن سكة جديدة تسير عليها الخطى التنموية الحديثة، وكان إلغاء النظام الفيودالي بداية السبيل للتخلي عن أنماط العلاقات المجتمعية السابقة، والتحلي بمظاهر التحديث الغربي الوافدة. وأدركت

---

(96) ياغي، ص 139.

الأوليغارشيا الحاكمة أهمية توقُّف عجلة نظام التوكوجاوا الفيودالي، بعد أن استنفدت أغراضها وأدوارها التاريخية، وقررت الانتقال بالمجتمع نحو عجلة جديدة مختلفة في جوهرها وأشكال دورانها. ولا شك في أن سرعة التحولات والتغييرات التي عرفها عهد الميجي تُفصح عن الجرأة التي امتلكها القادة اليابانيون الجدد في تشكيل مجتمعهم وفق مقاسات جديدة وجريئة، وفي مقدمها إلغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها فئات الحظوة الاجتماعية؛ «فقد زالت التفرقة القانونية التي كانت تميز طبقة الساموراي عن غيرها من الطبقات الأخرى، خلال سنوات قليلة، إلى أن أصبحت .. مجرد مجموعة لها دلالاتها التاريخية فقط في السجلات الرسمية»[97].

إذا كان عهد التوكوجاوا قد حاول التوفيق بين اعتبارات الوراثة والكفاءة في إسناد المناصب الحكومية، فإنه جرى في عهد الميجي إلغاء «الامتيازات التي كانت تُمنح للأفراد على أساس المركز والتوارث، كما تم التخلي تدريجيًا عن معايير القرابة والمصاهرة والمحاباة لصالح معايير الإنجاز والكفاءة»[98].

لم تمر هذه المقدمات من دون نقد؛ فقد خرج من صفوف النخبة اليابانية من حمل بشدة على التوجهات الجديدة، وفي مقدمهم صايغو تاكاموري الذي اعتبره فوكوزاوا يوكيتشي «البطل الكبير في عهد الميجي، وأنه لا يمثّل حالة خاصة بقدر ما يعبّر عن صورة المجتمع الياباني برمته»[99].

كان الرجل من مقاطعة ساتسوما، وأفرد له إيفان موريس في كتابه *La Noblesse de l'echec* أوصافًا رفعته في نظر اليابانيين إلى مقامات القدّيسين. وتمكن موريس، بدرجة متميزة، من اختراق نفسيته القلقة والشجاعة من خلال ما قاله عنه مفكرون ومبدعون يابانيون، أو من خلال تأملاته الفلسفية، وأشعاره المعبّرة وقراراته الفولاذية، وانحيازه المطلق إلى آمال الفئات

(97) رايشاور، ص 225.

(98) أحمد بهي الدين قنديل، «الثقافة السياسية اليابانية،» أوراق آسيوية، العدد 30 (شباط/ فبراير 2000)، ص 23.

(99) Ivan Morris, *La Noblesse de l'échec: Héros tragiques de l'histoire du Japon*, traduit de l'anglais par Suzanne Nétillard, la suite des temps (Paris: Gallimard, 1980), p. 269.

المعوزة وتطلعاتها داخل مجتمع التحديث الياباني الذي بدأ بإنتاج الفروق والامتيازات والاحتكارات. وقد «اكتسب صايغو شعبية واسعة، وتم اعتباره أنموذج الساموراي الأصيل من خلال تمتعه بقيم الولاء والشجاعة والصلابة في مواجهة الموت وعدم الارتشاء، وبصفات الرحمة والعدل»[100]. وكان صايغو قد اختلف مع رفاق الأمس في شأن تحديث اليابان، ودرجة الانفتاح على الغرب، وظل يؤكد مبدأ تخصيص الإمكانات المالية المتوافرة للمسألة العسكرية، عوضًا عن الاستغراق في التحديث المدني ومتطلباته المالية المرتفعة. ومن هنا تحمس بشدة لغزو كوريا، مستغلًا الغياب الحكومي في بعثة إيواكارا المشهورة عام 1871.

لم يستسغ الساموراي الأخير إقدامَ الحكم الجديد على حل طبقة الساموراي وإلغاء امتيازاتها القديمة المتوارثة، لكن بعضهم اعتبره محافظًا وأنموذجًا حقيقيًا للساموراي الأصيل الذي يبحث عن المعنى، ويعيش من أجل قيم الشهامة والبسالة. ولا غرابة في أن يتخلف الرجل عن قادة بعثة إيواكارا في عام 1871 إلى مجموعة من دول العالمين المسيحي والإسلامي؛ فقد كانت له مواقفه الخاصة والصارمة من موجة التحديث الذي ازدادت وتيرته في اليابان بسرعة مفرطة، «ومن بين أفراد الأوليغارشية اليابانية الحاكمة، كان تاكاموري أحد اثنين لم يزورا إحدى الدول الغربية قط»[101].

انتصر صايغو تاكاموري للفكرة الآسيوية، وانتقد ما نعته بتيار التغريب الذي بدأ يهدد ثقافة الساموراي، مختلفًا بذلك مع رفاق الإصلاح والتغيير، ويعبّر عن ذلك من خلال النص الآتي:

«بخصوص التحلي بالأنماط الوافدة من الغرب، بحجة تطوير نمط حياتنا، أظن أن من الأفضل والأساس وضع بلدنا على قواعد متينة، وتطوير الروح المعنوية الشعبية؛ وبعد ذلك فقط، يمكننا دراسة الأنماط الوافدة ومساءلتها.

---

(100) Mark Ravina, *The Last Samurai: The Life and Battles of Saigō Takamori* (Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2004), p. 6.

(101) Morris, p. 302.

وعلى العكس من ذلك، إذا قلّدْنا الغرب بشكل أعمى، تضيع سياستنا الوطنية، وتزول تقاليدنا بشكل نهائي..»[102].

لم يقدَّر لأفكار تاكاموري أن تجد لها مكانًا ملائمًا داخل المشهد التنموي السريع داخل يابان الميجي. وتطور الأمر إلى مواجهة عسكرية بين أنصاره والجيش الإمبراطوري. وقد بُذلت محاولات كثيرة لإبقائه وعودته إلى الطاقم الحكومي، واستفادته من امتيازات السلطة. لكن الرجل بقي ثابتًا في مواقفه، وانحاز إلى الفئات التي همّشها العهد الجديد. ويبدو أنه كان مدركًا استحالة العودة إلى الوراء، نتيجة حجم التغييرات التي حدثت في مجتمع النيبون، ودور الكارتيلات - الزايباتسو - المتنامية في الدفع بخيار التحديث نحو مزيد من الانفتاح على الغرب وأدواته المادية.

كان تاكاموري المتشبع بخصال الساموراي يبحث عن مكان له في ذاكرة المجتمع الياباني، ليكون موضوعًا للتأمل والاستلهام؛ فبعد مواجهات عنيفة، وعندما بقي في قلة من أنصاره، قرر ممارسة شعيرة السيبوكو، واضعًا حدًّا لمساره الحافل بالأمجاد ومنتصرًا لقيم النبل والعيش للمبادئ والتصورات النابعة من خصوصيات أرض الميكادو.

لم يكن تاكاموري حالة فردية منفصلة عن سياقها المجتمعي، بل مثَّل شريحة واسعة من طبقة الساموراي. وقُدِّر لأفكاره الداعية إلى الحفاظ على منظومة القيم الداخلية أن تعيش بعد زوال الانبهار بالأنموذج الغربي؛ ألم يقل ياسوموزا كورودا إن القيم تعود من جديد «عندما يبلغ المجتمع مرحلة النضج؟»[103].

تحوّل الشخص بعد انتحاره إلى رمز وذاكرة، ومنحه الإمبراطور العفو، وشُيّدت له النصب التذكارية، اعترافًا له بالجهد المتميز الذي بذله في إطاحة نظام التوكوجاوا، وإرجاع السلطة المغتصبة إلى الإمبراطور، وتمكين اليابان من دخول نادي القوى الكبرى عند بداية القرن العشرين.

---

(102) المصدر نفسه، 303.

(103) ياسومازا كورودا، «التحديث والاغتراب في اليابان،» المستقبل العربي، السنة 7، العدد 69 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1984)، ص 137.

يمكن تلخيص الصراعات السياسية والفكرية الأولى الناتجة من سياسة الانفتاح، في تيارين أساسيين، مثّلهما كل من صايغو تاكاموري وأوكوبو توشيميتشي؛ فمثّل صايغو «الأسطورة والحصانة الثقافية والمعنوية، إنه المثال والفن والهوية والجمال، إنه اليابان التي ترى الليل منفلتًا من كل ضغط. أما أوكوبو، فيمثّل الواقعية والتطبيق والفاعلية والاقتصاد والإنتاج والمقاولة: إنه اليابان الجديدة التراتبية.. لأجل الإنتاج.. يابان العمل»[104].

إن ما يمكننا استخلاصه من هذه الخلافات والصراعات هو وجود روح وطنية مشتركة، كانت تُصرّف على أرضها ومن خلالها عناصر الأزمة والتوتر. فالهجمة الغربية أنتجت اختلافًا في سبل مدافعتها والرد على تحدياتها المادية والمعنوية. وكان من الطبيعي أن تختلف النخب الفكرية والسياسية في هذا المجال، وأن يتطور الأمر إلى حد المواجهة العسكرية. لكن ما يلفتنا في هذه الثنائية، خصوصًا في الحركة الاحتجاجية للساموراي الأخير - صايغو - ورفاقه، هو غياب فكر المغنم والمغرم، وحلول قيم المواطَنة في تجلياتها المثيرة والجذابة.

كان في إمكان صايغو أن يبقى في الحكومة، متلقيًا الدعم من رجال الزايباتسو الداعين إلى مزيد من الانفتاح على الغرب؛ وكان يمتلك من الإمكانات البشرية والعسكرية ما يقايض بها لدعم نفوذه الشخصي والحصول - كما حصل زملاؤه الذين سمّاهم المرتشين - على الثروة والسلطة. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وكان الثبات على الموقف والدفاع عنه حتى الموت علامةً مضيئة في تاريخ الرجل ورفاقه من الساموراي.

لكن ما هي حدود دائرة الإشعاع التي مارستها شخصية تاكاموري؟ وما هي القيمة المضافة التي حققها بجهده وإنجازاته على المستويات الحضارية والإنسانية؟ الأكيد أن ذلك لم يتعد حدود الثقافة اليابانية المحلية. وبقي الرجل بقيمه الشهمة والنبيلة حبيس الانتماء القبلي والوطني الضيق. وفقد خاصية القيم ذات البُعد الإنساني، خصوصًا بعد إلحاحه المستمر على غزو كوريا، مع ما تعنيه من مآسٍ وآلام اكتوت بنارها شعوب لا تنتمي إلى أرض الميكادو.

(104) Courdy, p. 145.

إذا كان مهندسو عهد الميجي الشبان منجذبين - في بداية مرحلة الانتقال - إلى كل ما هو غربي من دون تمييز ونقد، فقد ظهرت بعد ذلك «اتجاهات... تدعو إلى ضرورة تمحيص وتمييز الأنماط الحديثة الوافدة، وعدم التلهف والتسرع بشأنها، كما ترسخت أهمية العناصر المحلية وضرورة التمسك بها وإحيائها»[105].

اجتهد اليابانيون في وضع مسافة معيّنة بين التقاليد المحلية والأنماط الثقافية الوافدة منذ القرن الثامن عشر. وضمن هذا الإطار، «حاول موتوري نوريناغا (1730-1817) بعث ما سمّاه الثقافة واللغة اليابانيتين الأصيلتين، في مقابل إزاحة الكم الهائل من العناصر الثقافية واللغوية التي تم اقتباسها من الصين»[106]. لكن في القرن التاسع عشر، خصوصًا بعد مرحلة الانفتاح المفروض على اليابان، برزت التحديات الغربية وبدأت في إثارة أسئلتها وتحدياتها على مجتمع النيبون. «وابتداء من 1885، رفع قادة الميجي شعار 'عقلية يابانية، تقنية غربية'، مع ما يعنيه ذلك من مبدأ استيراد التقنيات الغربية، من دون تبنّي مقدماتها الثقافية»[107].

صحيح أن عهد الميجي شكّل حدًّا فاصلًا بين حكومة الإقطاع والحكومة الإمبراطورية، لكن «الحكومة الجديدة، وعن طريق الاستخدام الذكي للطاقات الثقافية المتجمعة والمعروفة من عناصر الإقطاع، استطاعت أن تحافظ على ارتباطها بالماضي»[108].

يرتبط نجاح المشروعات التنموية بضوابط التوفيق بين المعطيات الذاتية المكتسبة والعناصر الموضوعية الوافدة. ويتقرر مآل هذا النجاح من خلال التعرف إلى معالم القوة التي تختزنها ذاكرة المجتمع الجماعية، ممثّلة في

(105) عبد الغفار رشاد، التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984)، ص 97.

(106) Bernard Bernier, «Présentation: Le Japon, la modernité et l'anthropologie,» *Anthropologie et Sociétés*, vol. 22, no 3: *Culture et modernité au Japon* (1998), p. 1, on the Web: <http://www.ant.ulaval.ca/anthropologieetsocietes/1998-3-presentation.html>.

(107) المصدر نفسه، ص 1.

(108) تاناكا، ص 24.

القيم الثقافية. وتشكّل هذه الأخيرة المادة الخام التي تحتاج إلى قيادة يحصل لها الاستبصار -بالتعبير الخلدوني- فتستثمر زخم اللحظة التاريخية، وتدرك أهميتها في مطلب التغيير. وعندما تتعرض لخطر خارجي، أو تحدٍّ حضاري، فإنها تنفتح عليه من موقع القوة الذاتية المؤسسة سابقًا.

كان فوكوزاوا يوكيتشي معجبًا بمظاهر التحديث الغربي، وتحدث بتجرد عن ذلك عندما سجل في مذكراته أن «من خلال ملاحظاتي في كل من الحضارة الغربية والشرقية، فإني أجد كل حضارة لها نقاط قوة ونقاط ضعف، تدرجها معًا في تعاليمها الأخلاقية، ونظرياتها العلمية، ولكني عندما أقارن الحضارتين الغربية والشرقية، بطريقة عامة، فيما يتعلق بالثراء والقوة وتوفير أعظم سعادة لأكبر قدر من الناس، [....] يتعيّن عليّ أن أضع الشرق في أدنى مرتبة من الغرب»[109]. إن اعتراف يوكيتشي بتفوق الحضارة الغربية نابع أساسًا من مشاهداته العيانية لمظاهرها في أثناء رحلاته إلى كلٍّ من الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا في عهد إدارة الشوغون.

لم تبق أفكار يوكيتشي حبيسة التنظير الفلسفي الجامد والقاتل، بل كان الرجل فاعلًا أساسًا في مسلسل التحديث الياباني بتأسيسه عددًا كبيرًا من المنابر التعليمية، وبتقديم التوجيهات إلى إدارة الميجي الجديدة، والحمل بشدة على بقايا الثقافة الصينية، وعلى بعض آثار النظام السابق. وتبدو نزعته الليبرالية بوضوح في قوله: «عندما يفتقر شعب إلى روح الاستقلال الفردي، فإن الحصول على الحق المناظر - حق الاستقلال الوطني - يكون مستحيلًا. إن الأشخاص الذين يفتقرون إلى روح الاستقلال الفردي لن يكون لديهم اهتمام حقيقي ببلدهم. فلا بد أن تمتلئ اليابان بروح الاستقلال إذا أردنا أن ندافع عنها ضد التهديدات الخارجية»[110]. هنا، لا يتحدث فوكوزاوا عن الأنموذج الليبرالي كما نشأ وتطور في الغرب، بل ينتقد من خلال ما ذهب إليه القيود التي ظلّت تقيد مبادرة التغيير الحقيقي. لذا، لا نستغرب معارضته بعض أطروحات رجال الميجي، في بداية عهد التغيير، إذ يقول في هذا الشأن:

---

(109) يوكيتشي، ص 254.

(110) سميث، ص 85.

«لقد كرهت السياسة البيروقراطية والباطشة والمحافظة والمناوئة للأجانب التي أنتجتها حكومة الشوغون، ولن أقف إلى جانبها. ومع ذلك، فإن أنصار القضية الإمبراطورية يظلون أشد عداء للأجانب، وأكثر عنفًا في تحركهم، ولذا فإني أكنّ قدرًا أقل من التعاطف لهم»[111].

لم يكن فوكوزاوا منظِّرًا لشرعية الحضور الغربي في اليابان، لكنه أصبح، بسبب وعيه التاريخي والتربوي ومعرفته الجيدة بالظاهرة الغربية، متأكدًا من قوتها الذاتية والموضوعية، فدعا إلى الاعتراف بها والتعامل معها، والتأسيس لأنموذج يتعامل بمنطق الندّية معها. وكذلك يمكن في هذا السياق تصنيف بعض كتابات يوكيتشي ضمن أدب الرحلة؛ فقد امتلك الرجل قدرة وصفية متميزة في أثناء زيارته أميركا وأوروبا، كما كان له موقف خاص من الحضارة الغربية.

في المقابل، كانت للصفار انطباعاته الخاصة عن باريس وفرنسا، والغرب عمومًا، من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية. وقد سجل ذلك بأسلوب متين ووصف دقيق، أحسبه من أجود ما قيل في أدب الرحلة المغربية إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر، الأمر الذي يجعل منه مادة كاملة للمقارنة بين رحلتي الرجلين.

في هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى قضايا نعتبرها بالغة الأهمية؛ فقد كان فوكوزاوا متحررًا من السلطة السياسية ومن ضغط القرار السياسي وإكراهاته. وكان منسجمًا بحق مع تصوراته الفلسفية والتربوية كمنبه لعناصر الخلل الداخلي، وموضحًا أساليب الإصلاح والبناء، وفاعلًا في حركة التغيير العام الذي شهده اليابان في عهد الميجي. وانسجامًا مع هذا التوجه أسس منابر تعليمية وجامعية، كابد من أجل تمويلها، وضمان استمرار خدماتها، في حين انتهت مهمة الصفار بانتهاء الإخراج الوصفي والتفسيري لرحلته؛ فقد حُددت له مهمة الوصف فأتقنها، ونبّه وانتقد ليترك وظيفة الاستثمار والتفعيل لأهل العقد والحل.

لم يكن المجال مفتوحًا لـ «المثقفين» للإبداع والتنشئة والتربية. وظلت السلطة المخزنية محتكرة إمكانات الإقلاع في هذا المجال، كما لم تبرز أي فئة مجتمعية على شاكلة الساموراي لتقوم بهذا الدور، ولم يمتلك الصفار مؤسسة

(111) يوكيتشي، ص 226.

تربوية، تترجم ما حزّ في نفسه ودعا إلى تغييره، بل انتهى دوره بسرعة شديدة. لذا استُثمرت ملاحظاته وتنبيهاته بشكل محدود، كما سيرد لاحقًا.

سعى المصلحون اليابانيون إلى تأسيس دولة عصرية في مختلف المجالات، وأصبح واضحًا لدى النخبة اليابانية «أن نقل التكنولوجيا والعلوم العصرية المنتشرة لدى الغرب المتطور لا يشكل خطرًا على اليابان، بل يساعد على تقويتها في مواجهة الضغوط الخارجية»[112]. وعلى امتداد ثلاثين عامًا، واعتمادًا على نخبة منفتحة على الغرب ومتشبثة بمطلب المصالح الوطنية، تحولت البلاد إلى رقم صعب في المعادلة الاقتصادية والعسكرية العالمية. ولم تكن حملة بيري حركة عسكرية عادية؛ إذ مثلت على المستوى النفسي صدمة شعورية قوية، لم تحتملها البنية الداخلية لمجتمع التوكوجاوا. ولم تستسغها العقلية اليابانية التي تؤمن بنرجسيتها وتميزها من أمم الأرض وشعوبها.

تطلب الأمر ردًّا بحجم التحديات التي تفرضها، وربما تكون سرعة التحولات ترجمة فعلية لذلك. كما يمكن القول إن الحملة اليابانية العنيفة على الأسطول الأميركي في بيرل هاربور في الحرب العالمية الثانية هي نوع من أشكال التحرير النفسي لطاقة الكبح التي صبر اليابانيون على الاحتفاظ بها، منذ حملة بيري، إلى حين توافر الأحوال التي حسبوها مواتية لردّ الدَّين الأميركي.

يستدعي نمط التحول الياباني وقفة خاصة؛ فإضافة إلى سرعة التحول والتغيير التي رافقته، ظل مفارقًا للنتائج الدموية التي لازمت العديد من الثورات العالمية، كالثورة الفرنسية أو الأميركية أو الروسية، وبقي محافظًا على عناصر التوليف بين مفردات المجتمع الياباني، والبحث لها عن أدوار ملائمة في عملية البناء الجديد. وتطلبت هذه العملية موارد مالية مهمة لتعويض الفئات المتضررة ولتطوير المقاولات الصناعية التابعة للدولة[113]، وأدت في النهاية إلى تحطيم أسس النظام الاجتماعي للإدارة الإقطاعية السابقة، «ما أفسح المجال أمام الثورة الإدارية والسياسية»[114].

(112) سميث، ص 85.

(113) Takahashi, p. 50.

(114) Renouvin, p. 82.

لا بد من أن نثير هنا مسألة دور الإدارة اليابانية في الانتقال بالمجتمع ونشاطه الاقتصادي من نمط إنتاج فيودالي إلى نمط إنتاج رأسمالي. فإذا كان فرنان بروديل يقول بعدم «قدرة الرأسمالية على الانتصار من دون انتسابها إلى الدولة»[115]، فإن ذلك يصدق حقيقة على الأنموذج الياباني؛ إذ كثّفت دولة الميجي والأوليغارشيا الحاكمة تدخّلها في رسم عناوين السياسة الاقتصادية وتفصيلاتها، «وفرضتْ بشكل جذري النظامَ الرأسمالي على المجتمع، وقامت بتغذيته وحمايته وتطويره وترسيخ أسسه بهدف اللحاق بالدول المتقدمة»[116].

يشبه الأنموذج الياباني الأنموذج الألماني في عهد أوتو فون بسمارك؛ «فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهد البلدان ثورة معكوسة قضت بهما على الحواجز الفيودالية، وفي حين دعم بسمارك البرجوازية الصناعية، والمالية، والتجارية... إلخ، نجحت القوى المحاربة القديمة في اليابان من خلال رمزية الإمبراطور في إطاحة النظام الفيودالي. وفي حين أصبحت ألمانيا في بداية القرن العشرين أقوى دولة صناعية رأسمالية في أوروبا، أصبحت اليابان القوة الصناعية الرأسمالية الوحيدة في آسيا»[117].

يظن أو يونغ لي «أن التحولات الكبرى التي شهدها تاريخ اليابان، قادتها مجموعة أفراد معينين، يحملون مشروعًا ذهنيًا محددًا»[118]، وهو قول يستقيم من خلال ملاحظة عقلية الابتكار وتتبعها لدى قادة عهد الميجي، والأسلوب الذي أداروا من خلاله دواليب الدولة الحديثة في اليابان. هذه القاعدة تصدق

---

(115) Fernand Braudel, *La Dynamique du capitalism*, Champs; 192 (Paris: Flammarion, 1988), p. 68.

(116) Eric Boulanger, «Le Nationalisme économique dans la pensée et les politiques publiques du Japon: Particularisme, pragmatisme et puissance,» *Cahier de recherche*, no. 2 (Février 2002), sur le Web: <http://www.unites.uqam.ca/gric/pdf/LE_20NATIONALISME.pdf>.

(117) «Origines du communisme japonais, débat sur la «révolution par étapes» et l'occupation américaine: La Restauration Meiji: Une Révolution pro-bourgeoise non démocratique,» *Spartacist* (édition française), no. 36 (Eté 2004), sur le Web: <http://www.spartacist.org/print/francais/spf/36/meiji.html>.

(118) O-Young Lee, *Smaller Is Better: Miniaturisation et productivité japonaises*, traduit de l'anglais par Jean Martel, collection productivité de l'entreprise (Paris; Milan; Barcelone: Masson, 1988), p. 118.

على مجموعة من التحولات الكبرى التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل والممتد، بحيث يبرز دور النخبة المفكرة في التقاط عناصر القوة والدفع بالتغيير إلى مستوياته العليا والمتقدمة، مستفيدة من ملاءمة الأوضاع المحيطة، ومن المواد الخام المادية والرمزية المتوافرة. لكن في الحالة اليابانية، احتاج مجمل هذه التحولات إلى إطار معنوي يحشد الطاقات، ويوجّه الأهداف، ويمنح الخط التنموي الجديد الغاية والمعنى والإلزام. ومن هنا، مثّلت أسطورة الميجي مطلبًا ملحًّا لتحقيق هذه التفصيلات، والدفع بها في مسلسل التغيير العام الذي بدأت اليابان الجديدة تشهده.

ثالثًا: أسطورة الميجي ومطلبا التحديث والإصلاح الدستوري

هل تصلح الأسطورة أن تكون أداة من أدوات المعرفة التاريخية؟ وما هي الحدود التي يمكن من خلالها استثمار الخبر الأسطوري في بناء المعلومة التاريخية؟ وما هي العلاقة الموجودة بين أسطورة «الشمس» وتوليد نظرية سياسية أثّثت للمشهد التحديثي العام في اليابان منذ نهاية القرن التاسع عشر، وأسّست لخيار التقدم والتنمية في أرض الميكادو، وأفضت إلى حدوث تحولات عميقة بيابان عهد الميجي؟

يقول كثير من الأنثروبولوجيين إن الأسطورة ديوان يوثق تجارب معيشة الشعوب القديمة؛ ذلك أن «هدف الميثولوجيا في المجتمعات المفتقرة إلى الكتاب والأرشيفات يتحدد في ضمان بقاء المستقبل مخلصًا للحاضر والماضي بأكبر درجة من الوثوق»[119]. ومن العسير أن نضع تعريفًا للأسطورة يجتمع عليها رأيُ العلماء المتخصصين لكونها واقعًا ثقافيًّا ممعنًا في التعقيد، تختلف حوله وجهات النظر، ويمكن أن نورد هذا الوصف الذي يتميز بالشمول، وهو «أن الأسطورة تروي تاريخًا مقدسًا»[120]، و«تقوم على أوهام بالغة من القوة

---

(119) كلود ليفي-ستروس، الأسطورة والمعنى، ترجمة صبحي حديدي (الدار البيضاء: منشورات عيون، 1985)، ص 31.

(120) فاروق خورشيد، أديب الأسطورة عند العرب: جذور التفكير وأصالة الإبداع، عالم الفكر؛ 284 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2002)، ص 49.

ما تتفلت معه من سلطان العقل»[121]، كما أنها نص مشحون بالرموز يحكي عن أصل الكون والآلهة وخلق الإنسان وأصل التقاليد والثقافات وتاريخ الأبطال والشعوب[122].

لا تخضع الأسطورة لمنطق العقل، بل تتنافر مع مقتضياته وأحكامه وعلله، وتعتمد في منطقها الداخلي على العنصر الغرائبي والخارق للعادة، وتحمل أطيافًا دينية واعتقادية واضحة، وهذا ما يجعلها تجذب كل اهتمام، وتساهم في تشكيل المخيال الجماعي والفردي داخل مختلف الثقافات والحضارات، وتدفع في اتجاه تبنّي قضايا تاريخية وثقافية ووجودية محددة، خصوصًا إذا علمنا جاذبية رموزها بين مختلف الفئات المجتمعية، مهما تواضعت وأبرزت مستوياتهم الفكرية والطبقية.

إذا كان ابن خلدون فسّر نشأة الدول وسقوطها بعنصر العصبية والنِّحلة وممارسات الدولة الجبائية والعمرانية، فإن آخرين يرون أن «تاريخ البشرية هو تاريخ الأوهام (الأساطير). وتنمو الأمة إذا حازت أوهامًا دينية أو سياسية قادرة على تحريك جهودها، وهي تميل إلى الزوال عندما يأخذ سلطان هذه الأوهام (الأساطير) في الزوال»[123]. والأسطورة المعنية هنا هي الإنتاج البشري ذاته الخالص الممزوج بالأحكام والتأويلات، وهي «المادة الحقيقية التي يجب الرجوع إليها لمعرفة وفهم الجانب الخفي من حياة المجتمع. وهي التفكير الحالم لشعب من الشعوب، تمامًا مثلما يُعتبر الحلم أسطورة الفرد، حسب تعبير جين هاريسون»[124].

ترجم العروي نصًّا للوسيان فيفر قال فيه هذا الأخير: «لا شك أن التاريخ يُكتب اعتمادًا على الوثائق المكتوبة إن وُجدت. لكن يمكن، بل يجب، أن

(121) جرجي أنطونيوس طربيه، الوجدية وأثرها في الأندلس: بحث في الأساطير والخرافات والغيبيات الأندلسية (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983)، ص 7.

(122) Mythologie, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005).

(123) طربيه، ص 7.

(124) ورد في: أحمد أبو زيد، «الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي،» عالم الفكر، السنة 16، العدد 3 (1985)، ص 19.

يُكتب اعتمادًا على كل ما يستطيع الباحث، بمهارته وحذقه، أن يستنبطه من أي مصدر: من المفردات والرموز، من المناظر الطبيعية ومن تركيب الآجر، من أشكال المزارع ومن الأعشاب الطفيلية»[125]. ويمكن اعتبار الأسطورة، من ثنايا هذه الضوابط والمحددات، وسيلة مهمة لاستنتاج القواعد الذهنية المنتجة للخبر الأسطوري.

نتساءل في هذا السياق عن دور الأسطورة في بناء اليابان السياسي والاجتماعي والفكري في عهد الميجي، وإلى أي حد شكّلت أحد الأعمدة الأساسية في هذا البناء. ونحن إذ نركز على هذا العامل، لا نلغي دور العوامل البنيوية المختلفة لمجتمع النيبون، والزخم التاريخي والترابط الاجتماعي الذي أطّر سيرورة التنمية اليابانية خلال المرحلة المذكورة، بل حسْبنا إماطة اللثام عن حركة اللاوعي الجمعي الياباني والكشف عن إحدى أهم قواعد النظر السياسي في عهد الميجي من خلال المطلب الأسطوري ودوره في تقعيد أسس هذه النظرية على مستويي الممارسة والتنفيذ.

كان الإمبراطور في عقيدة اليابانيين «إلَهًا» كريمًا رحيمًا: «كامي». وهذه العقيدة هي التي جعلت اليابانيين في الحرب العالمية الثانية يقولون للمحتلين الأميركيين بعد نهاية الحرب... إنهم مستعدون للتضحية بأي شيء يطلبه الأميركيون باستثناء ما يمس كرامة الإمبراطور. وقد أقر أحد الدارسين بصعوبة ترجمة كلمة «كامي» اليابانية إلى اللغة الإنكليزية، بل اعتبرها الأصعب من بين كثير من الكلمات اليابانية الأخرى[126]. وتابع قائلًا: «تدل الكلمة على الرؤساء العلويين، وبصفة أدق على ما يمكن تسميتهم الآلهة»[127].

قدمت السلالة الإمبراطورية خدمة الوحدة الوطنية التي جنّبت اليابان السقوط بين مخالب القوى الإمبريالية، وأهّلتها للنزول إلى حلبة التنافس

---

(125) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، 2 ج، ط 3 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997)، ج 1، ص 81.

(126) Frank Alanson Lombard, *Pre-Meiji Education in Japan: A Study of Japanese Education Previous to the Restoration of 1868* (Tokyo, Japan: Kyo Bun Kwan (Methodist Pub. House), 1913), p. 9.

(127) المصدر نفسه، ص 9.

الإمبريالي في المرحلة الأولى من تجربة التحديث الياباني. ولا شك في أن جدية الموقف دفعت الإمبراطور إلى مخاطبة شعبه قائلًا عبارته المشهورة «يا شعب اليابان، إنني من البشر، وإنني إنسان عادي مثلي مثلكم... إنني لا أمتُّ للآلهة بأي صلة»[128].

اعتقد اليابانيون أن إمبراطورهم يتحدر من «إلَه» الشمس، «ومن ثم فاليابان ليست مقدسة فحسب، وإنما هي الدولة الأهم بالنسبة لدول العالم الأخرى. واعتقد هيراتا آتسوتين (1776-1843)[129] أنه رغم تقدم الغرب فإن اليابان أكثر تفوقًا بسبب شروق الشمس عليه قبل بقية العالم، واعتُبِرت هذه المدرسة الأساسَ الذي انطلق منه تيار الفكر الياباني الذي حاول تطوير خصوصية يابانية تسمح لليابان بمواجهة كل من الطغيان الثقافي الصيني والقوة التكنولوجية الغربية»[130].

أكدت النصوص التاريخية اليابانية، خلال القرن الثامن، أن الجزر اليابانية كانت أول ما ظهر من سطح الكرة الأرضية، بفعل زواج تم بين إلَهين، أفضى إلى ولادة أماتيراسو، إلَهة الشمس التي يتحدر من أصلها جيمو تينو الذي أصبح في عام 660 قبل الميلاد أول إمبراطور بشري.

فتحت اليابان أبوابها للتأثير الخارجي، لكن لم يكن لدى اليابان أو الأرض التي تواجه الشمس أي محرمات تجاه الأفكار الأجنبية، وأصبحت اليابان حينئذ «صقلية جنوب آسيا»[131]، وولجت إليها مجموعة من الأفكار والأساطير الدينية.

---

(128) حاتم، ص 30-31.

(129) هيراتا آتسوتين (1776-1843): فيلسوف ياباني يُعتبر من أبرز المنظّرين لمبدأ التعليم الحي (Native Learning)، أو ما يسمّى كوكوغاكو، ويتضمن التعاليم الشنتوية، والدعوة إلى نبذ التأثيرات الأجنبية كالكونفوشيوسية والبوذية.

(130) رشاد، ص 105.

(131) آرثر كورتل، قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993)، ص 100.

تأسست الشنتوية[132] كمعتقد أسطوري على المضامين التي حملتها «مؤلفات كوجيكي التي تعني أرشيف الأشياء القديمة، والنيهون شوكي، بمعنى حوليات اليابان، وقد كُتبت نصوصُهما خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وتتناول تاريخ اليابان، منذ مرحلة خلقها من قبل الإله إزاناغي والإلهة إزانامي، إلى حدود 697»[133]. فالكتاب الأول يعرض أساطير اليابانيين عن خلق العالم وانتشار المخلوقات وارتباطها... والثاني يعرض تاريخ اليابان منذ القِدم حتى عام 697، وفيه سعي لإثبات عراقة اليابان، ومكانة الأسرة الإمبراطورية، وهذان يُعدّان من أهم مصادر عقيدة ديانة الشنتو وفكرها[134].

أورد أحد الباحثين اليابانيين النقاش الحاد الذي خاضه بعض المفكرين اليابانيين والأجانب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في شأن الشنتوية، وعمّا إذا كانت معتقدًا دينيًا، وهل هي أصلية أم دخيلة[135].

يمكن اعتبار «الشنتوية ديانة وضعية اجتماعية ظهرت في اليابان منذ قرون طويلة، بدأت بعبادة الأرواح، ثم بقوى الطبيعة، ثم تطور احترام الأجداد والزعماء والأبطال إلى عبادة الإمبراطور، الميكادو، الذي يُعَدّ من نسل الآلهة»[136]، كما تقول الأساطير اليابانية. وتمثّل الشنتوية، في نظر كيشيموتو، ديانة النقاء[137]، وإن كنت أحسب قوله نسبيًا ومعتلًا من أوجه متعددة، منها أن الشنتوية وما تضمنته من نصوص أسطورية اعتُبرا مقدمة نظرية أسست لانطلاق المد الإمبريالي الياباني، ووفرت الوقود الأيديولوجي لعسكرة مجتمع النيهون والدوس على كرامة دول جنوب شرق آسيا وحقوقها إلى حدود نهاية الحرب العالمية الثانية.

---

(132) كلمة الشنتو مؤلفة من مقطعين: شن أي الإله، وتا أي الطريق. وهي كلمة تعني الطريق إلى الله.

(133) Shintoisme, sur le Web: <http://www.academie-universelle.org/manuel/chap2/chap2a/religions/shintoisme.html>.

(134) أسعد السحمراني، الشنتوية-الكونفوشية، من قاموس الأديان ([بيروت: دار النفائس، 1999])، ص 12-13.

(135) Nobuta Kishimoto, «Shinto: The Old Religion of Japan,» *Popular Science*, vol. 46 (December 1894), p. 206.

(136) الشنتوية، على الموقع الإلكتروني: <http://www.saaid.net/feraq/mthahb/80.htm>.

(137) Kishimoto, p. 210.

ليس لعقيدة التوحيد مكان في الشنتوية؛ فبسبب تعدد المظاهر التي يمكن أن تتجلى فيها القوى الإلَهية، ربط اليابانيون بين كل ظاهرة وآلهة معيّنة، وأعداد الكامي لا يمكن حصرها، ويمكن لأي شخص أن يعيّن آلهته الخاصة. كما لا يوجد في الشنتوية حياة بعد الموت، ويعدّ جسد الشخص الميت شيئًا مدنسًا؛ فعندما تتحرر روح الميت من جسدها المادي تندمج في قوى الطبيعة.

مع بداية عهد الميجي في عام 1868، استيقظ الشعور القومي في اليابان، ونفر الشعب من كل ما هو أجنبي، ومن ذلك البوذية، فأزيلت تماثيل بوذا من المعابد، وأُوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم، وعادت الشنتوية دينًا قوميًا. وكانت الحكومة اليابانية تعمل على تِوطيد الشنتوية في البلاد للاحتفاظ بعبادة الإمبراطور الميكادو.

كانت أغلبية اليابانيين على قناعة تامة، أو كانت تحاول جاهدة أن تقنع نفسها، بقدسية الإمبراطور المعصوم عن الخطأ، وبعدم تعرضه «لأي نوع من المحاسبة على الأعمال التي يقوم بها. (وكان) على الجميع الخضوع لإرادته وتطبيق القرارات الصادرة عنه... وتبعًا لنظرية قدسية الإمبراطور فإن الدولة التي أسسها الإمبراطور ومارس الحكم من خلال مؤسساتها هي دولة عادلة بالضرورة... وبناءً عليه يجب تنفيذ قراراتها بحماس ودون تذمر أو تردد»[138].

شكّلت أسطورة الأصل الإلَهي للأسرة الإمبراطورية مطلبًا ملحًّا وضروريًا في تفصيل مقاسات التحديث الياباني في أثناء عهد الميجي؛ فالأزمة الخانقة التي عرفها المجتمع الفيودالي وتزايد الضغط الأجنبي وعجز حكومة توكوجاوا عن مواجهته، كلّ ذلك فرض ضرورة تركيز القرار السياسي والإداري في يد الإمبراطور، وتوظيف أسطورة الشمس لمنحه كاريزماتية خاصة كفيلة بتحقيق الإجماع على شخصه وتنفيذ قراراته الوطنية في ما يتعلق بالشؤون الداخلية والخارجية. ولم يكن الإمبراطور نفسه سوى واجهة نسج من خلالها المصلحون اليابانيون خيوط العمل التحديثي.

ضمن هذا الإطار، شنّ أولو الأمر «دعاية قوية في الشعب حتى أقنعوه بأن

(138) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 60-61.

الإمبراطور العائد إلى عرشه إلَهيُّ النسب والحكمة، وأن ما يصدره من مراسم يجب إطاعته كما تجب إطاعته أوامر الآلهة»[139].

تقول الأسطورة اليابانية: في بدء الخليقة كان الإلَه «إزاناغي»، ولم يكن آنذاك على وجه الكون إلا مياه المحيط، وقام الإلَه «إزاناغي» في يوم من الأيام واستل سيفه من غمده وحرك به مياه المحيط من تحته. ومن النقاط المتساقطة من سيفه خُلقت جزر اليابان وخُلق معها أهلها. وكان للإلَه «إزاناغي» زوجة اسمها «إزانامي»، وهي إلَهة الشمس. وكان له منها أولاد وبنات، وكذلك أحفاد، وكان الحفيد المقرب من جدته «إزانامي» إلَه شاب اسمه «مكوتو». وفي يوم من الأيام أمرت الجدة حفيدها «مكوتو» هذا بأن يذهب إلى جزر اليابان خليفة لجده، ويحكمها...[140].

نقرأ في الأسطورة اليابانية رموزًا ومعاني عدة، منها قدسية أرض الميكادو وطهارتها، وأن هذه الأرض المقدسة سقطت ونزلت من سيف الإلَه إزاناغي رمز القوة والشجاعة والتحدي. وقد «أمّن انتصار إلَهة الشمس على إلَه العواصف حكمها في العالم. ويسود الاعتقاد في اليابان أن سلالة الإمبراطور تعود إلى إلَهة الشمس، إذ إنها مظهر للقوة غير المنظورة في الكون»[141].

من جانب آخر، «تتحدث الأسطورة اليابانية عن قصة اعتكاف أماتيراسو في كهف سماوي نتيجة تصرفات أخيها سوزانو، إلَه العاصفة؛ فعلى الرغم من أنه كان يحكم البحار، فإنه أهمل واجباته وأدى إلى حدوث العديد من الكوارث على الأرض.. وكتحدٍّ أخير لأخته، أحدث ثقبًا في قاعة الحياكة العائدة لأماتيراسو، ودفع أخته إلى كهف، فغضبت أخته، فأغلقت ملجأها وشعرت الآلهة بغرور أخيها، إذ اعتبروه مسؤولًا عن غياب الشمس.. ولحل المشكلة اجتمعت الآلهة على شاطئ نهر السماء للتشاور، وقرروا إقناع إلَهة الشمس بالعودة، وقاموا بتقديم الهدايا لها، منها مرآة وسيف وملابس وشجرة

(139) ديورانت، ص 168.

(140) أبو جابر، ص 10.

(141) كورتل، ص 103-104.

مغطاة بالأحجار الكريمة. وقدموا رقصات وموسيقى صاخبة، وكانت الراقصة التي قدمت الرقصات جيدة واسمها 'أزومي'. وضحك الثمانية ملايين إلَه حتى ملأ الضحك الجو. وسمعت أماتيراسو إلَهة الشمس بالضوضاء، وثار فضولها وأرادت أن تعرف ماذا حدث خارج الكهف، وفتحت الباب قليلًا وتساءلت كيف يمكن للآلهة الضحك في الظلام الداكن، فأجابتها الراقصة أزومي، بذكاء: إننا نحتفل لأننا عثرنا على إلَهة أكثر قدرة من إلَهة الشمس. وعندما كانت أزومي تتحدث مع أماتيراسو، حمل اثنان من الآلهة مرآة أمامها فنظرت إلى نفسها، وقام إلَه آخر بدفع الباب وسحبها من يدها خارج الكهف، ووضع إلَه آخر حبلًا من القش أمام المدخل، وقال لها: إنك لن تدخلي الكهف مرة أخرى، وعادت أماتيراسو للبزوغ وبددت قوى الظلام.. وأشرقت الأرض ولم تختف بعدئذٍ إلا في الليل..»[142].

تحمل الأسطورة اليابانية الكثير من المعاني والدلالات، من أبرزها ارتباط الفوضى بمسألة الإخلال بالواجب، حيث تسبب إهمال سوزانو واجباته في حدوث الكثير من الكوارث على الأرض؛ وهي إشارة تفسر الدينامية التي ميزت المجتمع الياباني ولا تزال تطبعه منذ فترات تاريخية قديمة وتبرز القيمة الأسطورية للعمل الجاد والمثمر. كما أن النعمة - الضوء والدفء - تستوجب الشكر بأداء المهمات بأحسن وجه، وهو ما يستدعي إصلاح الأخطاء الفردية ببذل الجهد الجماعي، واستعمال الحيل والخدع لإصلاحها، وهي صورة معبّرة عن فكرة الجماعية وازدواجية الخطاب ودورهما في تشكيل المجتمع الياباني الحديث.

جسّدت الأسطورة اليابانية حقيقة الذهنية اليابانية؛ فالانكفاء على الذات وممارسة العزلة داخل الكهف سمتان بنيويتان، لاحظنا بعض تجلياتهما في ممارسة سياسة السوكوكو (العزلة) الطوعية التي عاشتها اليابان 250 عامًا. كما أن الخروج من حالة النرجسية إلى التواصل مع أطراف العالم يصاحبه الإشعاع، والاعتزاز بالدور العالمي الذي يلائم المهمة المقدسة الملقاة على كاهل أبناء أماتيراسو.

(142) المصدر نفسه، ص 103.

يُعَدّ جيمو تينو أول الأباطرة الإنسيين، بحسب الأساطير اليابانية، وهو يتحدر من إلَهة الشمس «أماتيراسو نو أو مي كامي»، وخرج من صُلبه الأباطرة الذين حكموا بلاد اليابان. وشهد تاريخ الممارسة السياسية في اليابان إلى الآن استمرارية فريدة في البناء السياسي العالمي، حيث تغيب القطيعة التي تتواتر داخل مختلف البلدان والدول التي حكمتها أسر وفئات حاكمة متعددة.

على مستوى آخر، تكتمل عناصر الأسطورة اليابانية مع الوظيفة النفسية والاجتماعية لشخصية الإمبراطور؛ فقد كان لدى اليابانيين تعاليم ثقافية قديمة، امتزجت من خلالها القيمُ الأخلاقية بالمفاهيم الأسطورية. وفي هذا الإطار، فإن «... الصغير يلزم أن يحترم الكبير سنًا أو مركزًا... وإذا كان هذا الكبير يضحّي من أجل الغير، فإن احترامه يكون أكثر، ويطلقون عليه «كامي»، أي إلَه... ومن هنا كان الإمبراطور في نظر اليابانيين 'كامي'»[143].

«وفي التقاليد الكونفوشية، فإن النظام السياسي هو من خلق الملوك الأوائل الذين يحكمون بتكليف من السماء... وحسب عقيدة الشنتو، فإن الإمبراطور إلَه الأرض، وهكذا أصبحت الشنتو تعبّر في النهاية عن ترشيد سلطة الإمبراطور باعتباره مصدرًا للوظائف المقدسة شبه المُنزلة...»[144].

لم تكن أسطورة الخلق وعلاقتها بالميكادو وليدة فترة الميجي؛ ففي عهد توكوجاوا، «ظل الإمبراطور يمثّل شرعية اتخذها الشوغون لتبرير ممارسة السلطة. وظلت الأسرة الإمبراطورية ونبلاء البلاط الملكي يمثّلون أهمية خاصة بين الأسر الأرستقراطية بالرغم من توطيد دعائم سلطة الشوغون، واستمر الشوغون من الناحية الرسمية يخدم الإمبراطور كموظف مخلص»[145]. وقد احتفظ الشوغون (الحكام العسكريون) بالإمبراطور، وهو الرمز الأكثر شعبية، كرئيس صوري لهم[146]؛ إذ من دونه لا يمكن الحديث عن شرعية النظام السياسي القائم.

---

(143) حاتم، ص 30-31.

(144) رشاد، ص 124.

(145) المصدر نفسه، ص 124-125.

(146) أولمان برتل، «ما حاجة الإمبراطور إلى الباكوزا؟،» ترجمة سعد زهران، الثقافة العالمية، العدد 111 (2002)، ص 127.

تعرضت اليابان بعد حملة بيري لمجموعة من المخاطر الداخلية والخارجية. وعجزت حكومة توكوجاوا عن الإجابة عن التحديات الأجنبية، وأصبحت البلاد معرضة للتفكك على جميع الصُّعد، فكان «البلاط الإمبراطوري هو الوحيد المؤهل لعملية الرد والمواجهة، بتوحيد الجهود وتوجيهها في تفاصيلها العامة نحو المصلحة الوطنية»[147]. وضمن هذه الرؤية يمكن قراءة الضرورة القصوى التي فرضت ضرورة استلهام الأسطورة القديمة وتفعيل رموزها في الحقل السياسي، وفي إقامة ركائز الدولة الجديدة؛ إذ اعتاد اليابانيون في أوقات الحاجة والضرورة على تمثّل الهوية الثقافية الأصلية[148].

لم يكن بعض اليابانيين يعتقدون، كما نتصور نحن، أن الإمبراطور إلَه حقيقي؛ إذ قال هيروميشي هاشيزومي: «لم أصدق قط أن الإمبراطور كان إلَهًا، كما كان يعتقد أبي وجدي، ولكن الآن والإمبراطور يصار إلى الموت هو الذي كان يحفظ للأمة وحدتها»[149]؛ إذ ارتبط شخص الإمبراطور، في ذهنية اليابانيين، بالوحدة الوطنية وتقديمه خدمة تاريخية ووجودية حالت دون سقوط اليابان بين مخالب الإمبريالية الغربية. فاليابان دولة قومية، و«كل دولة قومية تحتاج إلى أساطيرها الخاصة لتوحيد الناس فيها... والإمبراطور نوع من الأساطير أيضًا»[150]. وقد نشأت عن أسطورة الميجي نظرية سياسية خاصة، منحت «أهمية كبرى للحكومة الجديدة، ظهرت في سيطرتها على الإمبراطور البالغ من العمر خمسة عشر عامًا آنذاك، واستفادتها من هذه السيطرة إلى أقصى حد ممكن»[151].

قام الحكام الجدد بإحضار الإمبراطور من كيوتو إلى طوكيو، «وشرعوا يؤسسون كل إصلاحاتهم باسمه، وأعادوا ديانة الشنتو إلى عنفوانها بعد سبات طويل، وأسبغوا على الإمبراطور صفات إلَهيّة، علاوةً على دوره الشعبي

(147) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 240.

(148) Courdy, p. 146.

(149) سميث، ص 286.

(150) المصدر نفسه، ص 302.

(151) رايشاور، ص 113.

الأبوي»[152]. وأكد فوكوزاوا يوكيتشي من جهته ضرورة قيام الإمبراطور بالتوفيق بين جميع التيارات السياسية المتناحرة، وهو ما جعل الثورة «تنطلق أساسًا من أعلى هرم السلطة السياسية»[153]، بما يمثّله هذا الهرم من قدسية واحترام، في مجال تنزيل القوانين وتنفيذها.

وضع الإمبراطور ميجي ومستشاروه مخططًا مدروسًا يقضي بتحويل اليابان من نظام فيودالي إلى دولة صناعية وعسكرية، مع كل ما يرافق ذلك من تحولات في المجال السياسي والاجتماعي. ولم يكن في الإمكان الرد على تلك الصدمة العنيفة في المجتمع التقليدي الزراعي إلا عن طريق دولة مركزية قوية، لديها جيش شديد الولاء للإمبراطور، وقادر على قمع جميع حركات التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية[154].

كانت إرادة الحكومة، بل إرادة الإمبراطور، محددة؛ فباسمه كانت تصدر القرارات، وتحت سلطته كان التدرج في تطبيقها وتنزيلها على الواقع، وفي «ذاته المقدسة» كانت تتقاطع التجاذبات السياسية. ولم يصدر الدستور الياباني إلا بعد مرور فترة مهمة على عهد 1868، وأكد الدستور «أن الإمبراطور مقدس ولا يجوز المساس به، والإمبراطور سليل السماوات وهو إلَهي مقدس»[155].

عندما تدهور وضع توكوجاوا، قدمت الفئات الثائرة على سلطة الشوغون رسالة إلى الإمبراطور جاء فيها: «إنه لا يوجد منطقة داخل الإمبراطورية لا تنتمي إلى الإمبراطور وتتبعه، ولا يوجد ساكن أو مقيم لا يخضع للإمبراطور... فكيف لنا أن نحتفظ بملكية الأرض التي تتبع الإمبراطور ونحكم الشعب الذي يمثل رعاياه؟ إننا نقدم كافة ممتلكاتنا الإقطاعية، ونضع بذلك قاعدة عامة قد تنتشر عبر البلاد بكاملها، وهكذا فإن اليابان ستكون قادرة على أن تحتل مكانة متساوية مع الأمم الأخرى في العالم»[156].

---

(152) ناجاي متشيو وميجول أورشيا، الثورة الإصلاحية في اليابان: ميجي أيشن، ترجمة عادل عوض، الألف كتاب الثاني؛ 108 (القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص 190.

(153) Grousset et Léonard, dirs., p. 1548.

(154) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 49.

(155) ياغي، ص 141.

(156) رشاد، ص 125.

يتضح مما سبق أن فكرة قدسية الإمبراطور لم تكن حقيقة عقدية واضحة المعالم، بقدر ما شكلت مطلبًا وآلية من آليات التحديث. فبواسطتها أمكن إضفاء نوع من الإلزامية على القرارات الإمبراطورية، ومن خلالها تحقق تركيز السلطة السياسية في تلك الأحوال الدقيقة والحرجة التي كانت تمرُّ بها اليابان بعد تصاعد حدة الهجمة الغربية، وانفراط عقد حكومة الشوغون.

انسجمت هذه المعطيات الأسطورية مع خصوصية البناء المجتمعي الداخلي، إذ سادت داخله أواصرُ الولاء المتبادل وخاصية التضحية المعروفة، خصوصًا لدى فئة الساموراي، وهو ما يستدعي ضرورةً مقاربةِ مسألة الجماعية في اليابان ودورها في صقل التجربة التحديثية الأولى (1868-1944).

رابعًا: ثقافة الجماعة والتضحية

متى تتحول الجماعة من مجرد أفراد يشتركون في روابط دموية وسياسية أو اجتماعية إلى رقم فاعل ومؤثّر في حركة التغيير المجتمعي؟ وكيف تتأسس وحدة الجماعة وقوّتها؟ هل تكفي التصورات النظرية لتفعيل هذه القيمة؟ ما هي الأوضاع التي تدفع الأفراد إلى الانخراط طوعًا في الجماعة ودعم أسسها وتوفير سبل النجاح أمامها، والانتقال بها من طور بناء الأسرة والقبيلة إلى مرحلة تأسيس الدولة والانتصار للاختيارات الوطنية؟

بيّنتُ في مبحث الحماية القنصلية في المغرب غيابَ الجماعة الفاعلة والمدركة لفقه لحظتها التاريخية الحرجة، في الوقت الذي توافرت فيه ترسانة الرموز والمبادئ الدينية من خلال فتاوى العلماء وخطبهم وتقريعاتهم المتواصلة ضد المحتمين بالأجانب. لكن هذه الرموز والمبادئ لم تتحول إلى مكابدة واقعية، ولم تتمكن من تشكيل رأي عام معارض لظاهرة الحماية ومتحفز لنسخها، ومن التأسيس لاختيار المواطنة الفاعلة والإيجابية، بل على العكس من ذلك، تزايدت أعداد المحميين، فلم يؤثّر فيهم، بناءً عليه، أبو جعفر الكتاني ولا كتابه الدواهي المدهية للفرق المحمية.

شكّلت الجماعة إحدى السمات البارزة في بنية المجتمع الياباني، وامتزجتْ مضامينها بنمط الإنتاج القائم على التعاون لزراعة الأرض واستغلال

خيراتها، خصوصًا في أثناء الفترة الفيودالية؛ إذ تمتع المجتمع الياباني بروح قتالية متميزة، وكان لهذه الروح أثر كبير في الانحياز المطلق إلى جانب الإمبراطور حين دعا إلى محاربة التدخل الأجنبي في شؤون اليابان، وإلى وحدة اليابانيين صفًّا واحدًا دفاعًا عن كرامة اليابان. وشكّلت هذه الدعوة محطة جوهرية لتأسيس مقدمات التحديث الياباني، والانتصار لاختيارات المواطَنة الفاعلة والإيجابية. فإذا كان نمط العيش الغربي يركز على الاستقلال والفردية، فإن معظم «اليابانيين يشعرون بالرضا والراحة وهم متماثلون في ملبسهم وسلوكهم وأسلوب حياتهم، حتى في تفكيرهم بمعايير الجماعة»[157].

يؤكد أحد الباحثين أن «الجماعة في اليابان قديمة قِدم الناس فيها، فقد كانت زراعة الأُرُز تتطلب عمل جماعات متضامنة فيما بينها، وفعل الواقع الجغرافي فعله في عملية العزلة»[158]، فضلًا عن الاعتزاز بالذات القومية.

لم تتأسس الوحدة المجتمعية والشعورية في اليابان على منطق الشعارات، بل حملت شحنة المكابدة الواقعية، والاحتكاك بإكراهات الواقع، وتحديات الخوف من انفراط عقد التضامن الداخلي. ويمكن القول إنها ترجمة لنفسية يابانية تؤمن أشد الإيمان بضرورة الانتماء إلى دائرة الجماعة وأهميته؛ «فالجماعية لدى اليابانيين تتقدم على المكاسب الفردية، حيث لا حياة للفرد خارج إطار الجماعة التي ينتمي إليها»[159]. ويلمح رايشاور إلى أن التوجه الجماعي في اليابان لم يتأسس على منطق التراكمات النفسية والمجتمعية فحسب، بل «ربما كانت الكثافة السكانية الشديدة والحياة على مساحات صغيرة ضيقة على مدى زمني طويل سببًا في تعويد الشعب الياباني نفسه على الحياة بروح الجماعة»[160]. لكن، ألم تكن الجغرافيا اليابانية بضيقها وكثرة براكينها وزلازلها مقدمة أساسية في إنتاج نفسية قلقة ومتشوفة إلى الاحتماء بالجماعة؟

(157) رايشاور، ص 181.

(158) سميث، ص 70.

(159) قنديل، ص 13.

(160) رايشاور، ص 195.

لم يقم الشعور الجماعي على الروابط الدموية فحسب، بل «إن مسألة الانتماء في اليابان الإقطاعية شملت حتى الـ (آي) (ie) أو بيت العائلة، غير أن الآي كان أوسع من العائلة، حيث يمكن لمن لا يرتبط برباط الدم أن ينتسب إليه.. بل إن اليابان كلها كانت بمنزلة (آي) واحدة، والإمبراطور الياباني هو كبير بيت العائلة»[161].

كان الآي هو التنظيم الذي تقوم على نسقه المنشآت التجارية، وظل الآي مهمًا حتى عام 1945، كلَبنة في بناء اليابان الإمبريالية.. وكان منظّرو الأيديولوجيا، قبل الحرب، يرون أن اليابان متفردة بين دول العالم من حيث كونها «الدولة العائلة». وبالمصطلحات الحديثة، كانت اليابان «منشأة تضامنية»[162].

تعود فكرة الجماعية إلى فترات عريقة في التاريخ الياباني. وتمثّل فترة التوكوجاوا محطة بارزة ومعبّرة في هذا المجال؛ فلم تتأسس الوحدات الاجتماعية خلال العصور الوسطى «على أساس القرابة والنسب، لكنها كانت وحدات اجتماعية، تمثّل القرية الزراعية التي يشترك أهلها في مصادر المياه..، ويتعاونون معًا في دفع الضرائب وحل المشاكل الإدارية الأخرى»[163].

أورد ياسوموزا كورودا ما يسمّى جماعة الرجال الخمسة التي عرفها عصر توكوجاوا، وكان أعضاؤها يشتركون في «تحمّل كل التبعات القانونية كوحدة قائمة بذاتها داخل مجتمع القرية، وكانت تلك الجماعة هي الوحدة الإدارية الأولى التي استخدمها نظام توكوجاوا للحفاظ على القانون والنظام»[164]، وهو ما يذكره أحد الباحثين الكوريين؛ ففي نظره مثّلت مجموعة الخمسة أشخاص خلال عهد الإيدو (1603-1668) الخلية الأساسية لتنظيم حياة المواطنين في كلٍّ من القرى والمدن[165].

---

(161) المصدر نفسه، ص 65.

(162) سميث، ص 63.

(163) رايشاور، ص 186.

(164) كورودا، ص 130.

(165) Lee, p. 93.

من زاوية أخرى، «شكّل الخضوع لقواعد مجموعة محددة شرطًا أساسًا أمام النخب اليابانية للوصول إلى مرتبة ممارسة السلطة»[166]. ولا شك في أن قيام «التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ساهم إلى حد كبير في إيقاظ الوعي الذاتي لدى العامل أو الموظف الياباني»[167].

شكّل الانتماء الجماعي أحد الثوابت الأساسية للثقافة اليابانية؛ فقد استطاع اليابانيون أن ينقلوا معهم روابط الجماعة الأولية التقليدية - من الروابط الأسرية والتنظيمات القروية - إلى مكان العمل، عندما تحولوا من فلاحين إلى عمال صناعة[168]. وكانت الدولة في مجملها شكلًا من أشكال البناء العائلي؛ «فمثلما كانت الدولة كبيرة، كانت العائلة عبارة عن دولة صغيرة»[169].

استمرت العلاقات الجماعية داخل مجتمع النيبون في أثناء مسيرة التحول من نمط إنتاج فيودالي إلى نمط إنتاج رأسمالي، حيث «حلّت المقاولة كمحدد أساسي للوحدة الاجتماعية عوض مفهوم الآي الذي أدى الدور نفسه خلال مرحلة ما قبل التحديث الصناعي»[170]؛ فقد «أخذت العلاقة بين الإدارة والعمال طابع الأبوة من جانب الإدارة، والولاء والانتماء من جانب العمال»[171]. وترتبت عن هذا النمط من العلاقة مجموعة من الالتزامات المتبادلة بين الطرفين، جعلت «العامل الياباني يفضّل الانتماء إلى شركة بعينها طوال حياته، حتى لو حرمه ذلك من إمكانية البحث عن عمل بأجر أعلى»[172].

لمّا سئل دوكو، أبو الاقتصاد الياباني، عن عبقرية الشعب الياباني، أجاب:

---

(166) المصدر نفسه، ص 40.

(167) مسعود ضاهر، «العرب واليابان: أضواء على تجربة التحديث اليابانية،» الوحدة، السنة 8، العدد 85 (1991)، ص 102.

(168) كورودا، ص 129.

(169) Patrick Beillevaire, «Ethos et oïkos: Figures familiales de la vie collective au Japon,» dans: Augustin Berque, dir., *Le Japon et son double: Logiques d'un auto-portrait*, préf. Christian Sautter, recherches en géographie (Paris; New York; Barcelone: Masson, 1987), p. 31.

(170) Frédéric Bricnet et Jean-Pierre Cendron, *Japon: Sabre, paravent, miroir*, collection Alternatives économiques (Paris: Éditions ouvrières, 1983), p. 130.

(171) قنديل، ص 13.

(172) المصدر نفسه، ص 13.

«إن المصانع ليست إلا أسرة، إنها حياة العائلة الواحدة، بكل ما في الكلمة من معنى ريفي قديم، فالمصنع عائلة مرتبطة تمامًا. وعمال المصنع قد ولدوا ليموتوا في داخله. وإذا ترك الواحد منهم هذا المصنع، فإنه لن يذهب مطلقًا إلى مصنع منافس، وإذا حاول أحد العمال أن يذهب إلى مصنع منافس، فإن المصنع لا يقبله لأن العائلات أسرار، والعائلات اليابانية تتنافس، ولكنها لا تتصارع ..»[173]. وقال تاكايوشي، مدير شركة «سورد» (SORD) للحواسيب الصغيرة، في حوار معه: «يقوم مبدأي في العمل على أساس المساواة، ويُنادى كل واحد منا داخل الشركة بلقب السيد ما بين زملاء العمل ورؤساء المصالح وغيرهم. وفي الوقت الذي تلح فيه شركات أخرى (غربية) على استعمال لقب 'السيد المدير'؛ نريد حذف التباينات بشكل يصبح فيه الجميع أسيادًا، كما أن جميع العاملين يُنتقون من مستوى جامعي تجنبًا للفروق داخل الشركة»[174].

يفسر الحاضر الماضي، وتتغير الأشكال والنماذج وتبقى البنى محافظة على خصوصياتها الثقافية. وقد يكون ذلك أحد الأسباب الجوهرية التي حالت دون انتشار الفوردية[175] والتايلورية[176] ضمن بنية المؤسسات الإنتاجية

---

(173) محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري: محنة المسلم مع حضارة عصره، تقديم عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة؛ 21 (الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1989)، ص 87.

(174) *Comment les Japonais qui produisaient mal produisent-ils maintenant trop bien?: 12 managers japonais et leur professeur américain répondent*, entretiens avec Jacques Volle (Boulogne-Billancourt: Editions Hommes et techniques, 1982), p. 158.

(175) الفوردية: نمط إنتاجي اخترعه في عام 1908 المهندس الصناعي الأميركي هنري فورد (1863-1947)، وهدف إلى مضاعفة الإنتاج والإنتاجية، ويقوم على أساس تقسيم العمل واعتماد أسلوب التسلسل الإنتاجي، والرفع من القدرة الشرائية للعمال.

(176) التايلورية: تُنسب إلى المهندس الأميركي فريديريك تايلور (1856-1915)، وهي تنظيم عقلاني للعمل مقسم إلى مراحل أولية وبسيطة ومتكررة تقوم بها مجموعة من العمال المهرة. واستهدف من ذلك تحقيق إنتاجية أفضل بأقل جهد مبذول. وقد اهتم تايلور بنظريته هذه على الجوانب التالية:

- تحقيق مبدأ الكفاءة الإنتاجية، أي إنجاز المهمات بأقل وقت وجهد وتكلفة، وربط دخل الأفراد بمستوى إنتاجيتهم.
- الاعتماد في التجارب والبحوث العلمية على الدراسة والتحليل المعتمد على معلومات وبيانات صحيحة ودقيقة.
- تقسيم العمل والمسؤولية بين المديرين والأفراد.
- تدريب العاملين، وإيجاد أسلوب علمي لطريقة اختيارهم وتدريبهم وتطويرهم وتحسين أدائهم.
- الاعتماد على القانون، ومن خلاله يتم الانضباط في تأدية العمل.

اليابانية. وبعبارة موجزة، كما أشار أحد الباحثين الكوريين، فإن «ما يوحّد الناس في اليابان ليس عقليًا أو قلبيًا؛ إنه المشاعر الملموسة»[177].

أدت الجماعة دورًا يحمل طابع القداسة، «ومصدر هذه القدسية هو الرؤساء الرمزيون للجماعة، وهو الأجداد الأوائل؛ فالأسرة لها رئيسها المقدس، وكذلك العشيرة والقرية، وفي النهاية القطر بكامله، حيث يقف على رأسه إمبراطور ينحدر من أصل مقدس لا ينقطع.. والدولة ذاتها لا تعدو أن تكون بمثابة أسرة واسعة يرأسها الإمبراطور، وهنا يصبح الولاء السياسي مرادفًا لولاء الأبناء وطاعتهم لأسرهم»[178].

إن المواطن الياباني «الذي يشترك في رياضة جماعية يحظى بالتقدير الواضح أكثر من المواطن الذي يكون 'نجمًا' على المستوى الفردي، وروح الفريق لها تقديرها الكبير الذي يفوق كثيرًا الطموح الفردي»[179]. وتُعتبر الأسرة نواة أساسية لفهم آليات النظام الاجتماعي في اليابان، كما تُعَدّ مؤشرًا موازيًا ومؤسسًا لنمط هرمي للعلاقات السياسية بدءًا بالإمبراطور وانتهاءً بالمستويات الدنيا من التشكيلات الاجتماعية. وإذا كان عهد الميجي أحدث قطيعة على مستوى تراتبية الطبقات الاجتماعية، فإنه ظل محافظًا على بنية الـ (آي=ie)، بشكل جعل من الإمبراطور الأب المطلق للعائلة اليابانية»[180].

ينشأ الطفل الياباني داخل بيئة أسرية مفعمًا بالحنان والتضامن، وينمو «وهو يتوقع دائمًا تفهّم أمه وتسامحها معه، بل يقبل سلطتها عليه أيضًا، وينمو معه هذا الواقع ليشمل فيما بعد تقبّله سلطة الوسط الاجتماعي المحيط به. وبهذا الأسلوب التربوي ينتقل الطفل من واقعه الطبيعي في سنوات عمره الأولى إلى قبول السلطة الأبوية، ثم سلطة المدرسة الصارمة... بعدها يجيء قبوله وتسليمه بما تصدره الجماعة التي ينتمي إليها من أحكام، أو من المجتمع ككل»[181].

---

(177) Lee, p. 91.

(178) رشاد، ص 67.

(179) عيساوي، ص 210.

(180) Higuchi Yoichi et Christian Sautter, dirs., *L'Etat et l'individu au Japon*, Etudes japonaises; 1 (Paris: Ed. de l'Ecole des hautes études en sciences sociales, 1990), p. 16.

(181) رايشاور، ص201.

تأسست العلاقات المجتمعية على مقياس يمجد الجماعة ويمتثل لقراراتها الملزمة. كما حملت هذه العلاقات مضمون التعاليم الكونفوشيوسية التي تحض على احترام التراتب الاجتماعي والطاعة لأولي الأمر من الآباء والحكام.

في «استجواب أجري في 1926-1927، تبين أن نسبة مصاريف إطار ياباني متوسط على تربية الأبناء، لا تتعدى 3.2 ٪، في حين يخصص ثلاثة أضعاف ذلك لاستقبال الضيوف، بنسبة 8.3 ٪»[182]، وهو ما يدل على عمق ثقافة التضامن والبحث عن الدفء المجتمعي، من خلال الاحتفاليات التي تقام في الأماكن الخاصة والعامة، كطقس تناول الشاي، وغيره.

نحن إذًا أمام مجتمع يصعب اختراقه وتشويه تمثلاته الداخلية وتدمير نسيجه الجماعي، ولم تكن الفردية فيه إلا جزءًا مكمّلًا لدور الجماعة؛ بل إن الفرد الواحد لا يمكن فهم دوره التنموي خارج إطار الجماعة. لذا، فإن أي مقاربة للنزعة الفردية في اليابان مع مثيلاتها الأوروبية يبعدنا عن الفهم الحقيقي للمجتمع الياباني والدينامية التي تميز بها في أثناء فترة التحديث في عهد الميجي.

في عام 1549 سأل فرانسيس كزافييه (F. Xavier): «لماذا لا يكتب اليابانيون 'بطريقتنا' - من اليسار إلى اليمين، أفقيًا؟ فأجابه أحد اليابانيين بسؤال كان يمكن أن يفيد فرانسيس لو أتعب نفسه في فهم مضمونه..، وهو: لماذا لا يكتب الأوروبيون بالطريقة اليابانية من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل؟»[183]. وفي السياق هذا، حمل باتريك سميث بشدة على نزعة مركزية غربية تنظر باستعلاء إلى المغاير الثقافي والفكري، وحفز في كتابه على ضرورة الابتعاد عن النظرة النمطية المبسطة في قراءة «اليابان الخفي»، والتسلح بأدوات معرفية أكثر دقة وموضوعية لمقاربة التاريخ المخبأ واللاشيء المقدس والروح المسافرة عبر التاريخ، وهي العناوين الكبرى التي وزعها على مصنّفه الذي اعتمدناه في هذا البحث.

(182) Lee, p. 92.

(183) سميث، ص 17.

وتساءل أحد الباحثين: «هل يشبه المجتمع الياباني بقية المجتمعات الأخرى؟ وعقّب قائلًا: تكمن أسباب نجاح اليابان اقتصاديًا في التشبث بتقاليد الماضي داخل مؤسسات الاقتصاد الحديث»(184). وناقش بريسني في كتاب له بعنوان أخلاق فيودالية داخل مجتمع رأسمالي، يحمل دلالات الاستمرارية في نمط العلاقات المجتمعية، آراء كثير من الأنثروبولوجيين في شأن فكرة الجماعية ودورها في نسيج العلاقات داخل مجتمع النيبون، وعقّب ملخِّصًا: «يمكن رصد استمرارية قوية على امتداد عصور اليابان الفيودالية واليابان الحديثة..، ولا شك في أن هذه الاستمرارية مفتاح أساس في تفسير النجاح الاقتصادي الياباني»(185).

اكتشف اليابانيون، من خلال زياراتهم الجماعية إلى دول الغرب الرأسمالي، تميزهم الثقافي من الآخر الأميركي، وصُدموا «بكل شيء نابع من النزعة الفردية في الغرب: مثل الجدل السياسي، والصراعات العمالية، وسعي كل شخص في اتجاهه. وبدا لهم الغرب، وخاصة أميركا، كأنه يعيش في حالة من الفوضى. [لقد] صدمت الرأسمالية اليابانيين.. باعتبارها حالة حرب في وقت السلم»(186)، لكن الأكيد أن اليابانيين، وهم يجوبون ديار الغرب، مرحلة تلو أخرى، تمكنوا من إدراك القواعد المؤسسة للاختلافات على مستوى منظومة القيم والسلوك، وحصل لهم استبصار بخصوص الوجهة التي تلائم تاريخهم ومعتقداتهم وسلوكهم الاجتماعي الخاص.

تُضاف إلى خاصية البناء الجماعي روحُ التضحية التي اتصفت بها فئة الساموراي، وهي الفئة التي خرجت من رحمها نخبُ الإصلاح والتحديث؛ فقد وُجد استعداد لافت لـ «التضحية بالمصالح الفردية في سبيل مصالح الجماعة الأكبر، سواء كانت تلك الجماعة الدولة أو المصنع»(187). وتجلت هذه التضحية من خلال ما يسمّى في الأدبيات اليابانية البوشيدو والسيبوكو. أما

(184) Bricnet et Cendron, p. 129.

(185) المصدر نفسه، ص 130.

(186) سميث، ص 78.

(187) رايشاور، ص 191-192.

البوشيدو[188]، أو طرائق الفروسية، فكانت تعني عند الساموراي «القدرة على اختبار سلوكه في الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد، وأن يموت حين يجب عليه أن يموت... وكانوا – الساموراي- لا يترددون في المخاطرة بحياتهم عونًا لكل من استنجدهم المعونة، وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة، ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم»[189].

عاش كونابارو زنبو (1454–1532) الأيام الأكثر دموية في تاريخ اليابان؛ ورأى أن مسرح «نو» يشترك مع فن الحرب في ثنائية السيف والموت؛ وصرح في هذا الشأن: «في كل يوم وليلة، أبدًا ودائمًا، ينتظر المحاربُ الموتَ وهو ما يحوله إلى إنسان حر»[190]. وأنتجت هذه الخصلة فئة مجتمعية امتلكت مقومات التحدي والسعي نحو بناء الذات اليابانية على أسس، اعتقدتها، سليمة.

وأما السيبوكو، فتعني الشكل الشعاري للانتحار الذي كان يمارسه أعضاء طبقة الساموراي ليُظهروا أنهم قبلوا مسؤولية أعمالهم. وفي هذا السياق، مثَّل الموت في خدمة السيد الإقطاعي قمة التعبير عن الولاء لدى الساموراي. وبمرور الزمن، أصبح مثل هذا الشعور بالولاء وبأداء الواجب عقيدة راسخة في المجتمع الياباني بمستوياته المختلفة[191]. كما تُعرف السيبوكو بالهيراكيري، وترجمتها الحرفية باللغة اليابانية تعني قطع الأحشاء، وكان مقاتلو الساموراي يلجأون إليها لتفادي الوقوع في أيدي العدو، أو لمسح عار الهزيمة، وكانت تدل على النبل والطاعة. وفي كثير من الأحيان كان الساموراي يعيّن أحد مقربيه ليقطع رأسه بضربة سيف بعد أن يبقر بطنه بنفسه.

في عام 1869 اقترحت الحكومة الجديدة إلغاء هذا الطقس الانتحاري. وعارضه مجموعة من النواب بقولهم: «إن الانتحار على طريقة سيبوكو له

---

(188) البوشيدو يعني لغويًا طريق المحارب، وتعني أسلوب حياة الساموراي أو البوشي، وقد بدأ استعمالها في نحو عام 1616، وتشكلت من مجموعة من القيم الأخلاقية المأخوذة من البوذية والشنتوية والكونفوشيوسية، وفي مقدمتها قيمة الولاء والشهامة والنبل والإقدام على الموت بجرأة وشجاعة.

(189) ديورانت، ص 39.

(190) Lee, p. 89.

(191) حاتم، ص 44.

جذوره في الطاقة الحيوية لهذا البلد المقدس، إنه القرار المقدس للروح اليابانية. إن الانتحار على طريقة سيبوكو هو جوهرة على جبين بلادنا، وهو من أسباب سموّها وتفوّقها على البلاد الأخرى الموجودة وراء البحار»[192].

تسببت هذه الطقوس الأسطورية في تزايد تماسك المجتمع الياباني وفي تدفق مشاعر المواطَنة، وعناصر الفاعلية، وفي ظهور مفاهيم جديدة في عملية التعبئة الاجتماعية[193]. كما أضحى هذا الطقس أنموذجًا للشهامة وحافزًا على الموت من أجل إحياء المبادئ والرموز الثقافية. وقد مر بنا في مبحث سابق إقدام صايغو تكاموري على الانتحار، عندما تقاطعت تصوراته الإصلاحية واختلفت مع التحولات التي أحدثها العهد الجديد، عندما حُلَّت طبقة الساموراي، وتعريض قيم المجتمع الياباني، بحسب رأيه، للاستلاب الغربي. كما أقدمت على الخطوة نفسها مجموعة من الساسة والمثقفين اليابانيين خلال العصر الحديث.

من جهة أخرى، مثّلت عمليات الكاميكاز في نهاية الحرب العالمية الثانية شكلًا من أشكال السيبوكو، ودلت على عقلية البوشيدو، كما أنها أحد الأسباب التي تفسر عنفَ الهجوم الياباني على قاعدة بيرل هاربور الأميركية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

يتداخل الماضي مع الحاضر، ويفسر الحاضر الماضي، ويفرض الماضي نفسه مفتاحًا لفهم الحاضر. وبينهما نشأت مساحة واسعة من الأساطير وعناصر المخيال المؤطرة للذهنية اليابانية المتحفزة .

حاول كايكو ياما ناكا في كتابه *Le Japon au double visage* الكشف عن الازدواجية التي تميز الجماعة والفرد في اليابان، وتفسر بعض جوانب القوة التي تمنحها للمجتمع الياباني. وميّز في هذا المجال بين:

القناع= Tatémaé.

الحقيقة = honné.

(192) سميث، ص 267.

(193) رشاد، ص 30.

«يمثّل القناع الموقف الاجتماعي الصحيح، والمقبول موضوعيًا، أما الحقيقة فتحيل إلى المعتقدات الداخلية الحرة والعميقة»[194]. وعندما يعبّر اليابانيون عن موقفهم من قضية من القضايا، فإنهم يغيرونها تبعًا للأحوال، وتتأرجح بين الالتزام بالمبدأ واتباع الحقيقة والتجلي. ولا شك في أن هذه الازدواجية «تجنّبهم ما لا يرغبون فيه من اصطدام بالعالم الخارجي»[195].

يمكننا قراءة هذا المعنى في طبيعة الرد الياباني على التحدي الأميركي في عام 1853؛ فقد مثّلت سياسة العزلة الطوعية التي دامت 250 عامًا الحقيقة (honné)، في حين مثّل الانفتاح على التجارة الدولية والرضوخ للمطالب الغربية القناعَ الذي اضطر اليابانيون إلى ارتدائه والتصرف بمقتضاه ومستلزماته الدولية. ويحاول كايكو ياما ناكا تفسير هذه الازدواجية بقوله: «عندما يقابل الياباني شخصًا ما، فإن هذا الأخير يمثّل بالنسبة إليه معطى خارجيًا (soto)، وليس ذاتيًا (uchi)»[196]. ويتابع معقّبًا: «يميز الياباني في علاقته بمحيطه الاجتماعي بين نمطين مختلفين: الـ uchi، وتعني الـ 'نحن'، أي العائلة، والأصدقاء، والآخر (soto)، ويحيل على كل من لا ينتمي إلى دائرة الـ uchi»[197]. ويدل الانتماء العائلي هنا على مفهوم واسع يطاول المجموعة التي يتم الانتساب إليها، كالمقاولة والمصنع والحقل الزراعي والتجمعات التجارية، وغيرها.

عندما يتحدث اليابانيون إلى الأجانب، فإنهم يتحدثون بلغة الـ «نحن» (uchi)، ويتحول الأجانب، مهما تكن جنسياتهم، إلى الـ «هم» (soto)، وهو ما يدل على وجود تراتبية وأولويات في سلّم التعامل مع دوائر الاختلاف مع الذات اليابانية؛ فنادرًا «ما يعبّر اليابانيون عن مكنوناتهم الداخلية للأجانب. ومن هنا نكتشف هذه اللغة المزدوجة: القناع بالنسبة إلى الآخر، والحقيقة بالنسبة إلى دائرة الـ 'نحن'»[198].

---

(194) Keiko Yamanaka, *Le Japon au double visage*, documents actualité (Paris: Denoël, 1997), p. 19.

(195) المصدر نفسه، ص 19.

(196) المصدر نفسه، ص 20.

(197) المصدر نفسه، ص 20.

(198) المصدر نفسه، ص 21.

ما يمكن قوله في هذا السياق هو وجود «هوة واسعة تفصل البساطة التي غالبًا ما يراها الأجانب في اليابان، عن التعقيد المتستر بدهاء تحت السطح. وفي هذه المساحة ما زال اليابانيون يصنعون تاريخهم المخبأ، أو سجل محاولاتهم لتحقيق الذات الصريحة في الحياة العامة»[199]. وقريبًا من هذا المعنى نقرأ في سيرة فوكوزاوا يوكيتشي هذه العبارة التي تحمل دلالة الغموض في الشخصية اليابانية ولجم مشاعرها:

«لا تدع الفرح ولا الغضب يرتسمان على محيّاك أبدًا»[200]. فهو الانتظار لاتخاذ الموقف الملائم؛ كما يمكن أن تعبّر هذه القيم عن خاصية الحكمة والتأني في السلوك الإنساني، وتحدث يوكيتشي عن نفسه: «.. دربت نفسي على تلقّي كل من التصفيق والذم بشكل مهذب، وعليّ ألا أسمح لنفسي أبدًا بالتأثر بأي منهما.. ظاهريًا كنت أحيا على نحو مسالم بما فيه الكفاية، ولكنني في قرارة نفسي كنت أتلهف على فرصة للانطلاق بعيدًا..»[201].

يُعتبر جواو رودريغز (J. Rodrigues) من أبرز الرواد الغربيين الذين عاشوا في اليابان؛ فقد جاء إليها في عام 1576، واستقر فيها أكثر من ثلاثين عامًا، وقام بدور المترجم للسيد الإقطاعي (الشوغون). ولا شك في أنه خبر الذهنية اليابانية جيدًا، واستنتج حكمًا يليق بطبيعة الإنسان الياباني، ومفاده أنَّ للياباني ثلاثة قلوب: قلب زائف في فمه ليراه العالم كله، وقلب آخر بين ضلوعه لأصدقائه، وقلب ثالث في أعمق أعماقه، يدخره لنفسه فحسب، ولا يبوح بمكنوناته لأي مخلوق قط[202]. وعبّر الأمير محمد علي باشا عن غموض الشخصية اليابانية، من خلال رحلته إلى اليابان في عام 1909: «... إن السائح يبقى مدة إقامته عندهم غير منشرح الصدر ولا مطمئن الخاطر، ويحصل له ضجر وتألم من كثرة ما يراه من سكوتهم عنه وعدم نصيحتهم له وإبدائهم له خلاف ما يبطنون»[203].

(199) سميث، ص 62.

(200) يوكيتشي، ص 51.

(201) المصدر نفسه، ص 51-52.

(202) سميث، ص 61.

(203) محمد علي باشا، الرحلة اليابانية، 1909، حررها وقدمها علي أحمد كنعان، ارتياد الآفاق (أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2004)، ص 109.

لا أظن أن اليابانيين مرتاحون للحكم الذي أصدره باتريك سميث على قيمة الجماعية وأولويتها في بناء اليابان الحديثة والمعاصرة، وما يرتبط بها من استنتاجات هي أقرب إلى فرضيات التحليل النفسي التي تحتاج إلى بناء نظري سليم وبحث ميداني يسبر الأغوار ويكشف الأعماق، ومن ذلك قوله: «كان الشأن العام وما يزال القيمة الاجتماعية الأسمى، والشأن العام وثيق الارتباط بالنظام والجماعة، بينما الشأن الخاص شأن فردي، ومن ثم متكتم وأناني ومفسد»[204].

كان اليابانيون أمام اختيارات متعددة تسمح لهم بتغيير المواقع، وتكييف الأمزجة وكبح المشاعر في سبيل تحقيق أهداف نُعتت بالوطنية والاستراتيجية؛ فخلال فترة الحكم الصارم لأسرة التوكوجاوا، كان على فئات الساموراي أن تخفي ملامح بؤسها، على الرغم من مكانتها الاجتماعية المتميزة، وكان على مجموع الساكنة اليابانية أن تلتزم الصمت للحفاظ على الأمن. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي تفسر ميزة الاستقرار الطويل الذي عاش فيه مجتمع النيبون خلال المرحلة المذكورة. وعلى مستوى آخر، وفي إطار فكرة الجماعية وما يتعلق بها من قضايا وإشكالات، نقرأ مفهومًا لا يقل أهمية، من خلال مصطلح «الإجماع» (نيماواشي): «يكره اليابانيون الجواب بـ «لا»، وبفضل النيماواشي، يتجنبون استعمال هذا الجواب، الذي يولّد نوعًا من القلق لدى الناس»[205].

يمتد مبدأ الإجماع، الذي يأخذ به اليابانيون، في عمق تاريخ الممارسة السياسية والاجتماعية، وعندما يتعذر الحصول عليه تكون القوة مفتاحًا أساسًا لتحقيقه على أرض الواقع، وذلك ما يمكن ملاحظته في الثورة المضادة التي قادها صايغو تاكاموري ضد زعماء عهد الميجي الجديد، فقضى الجيش الإمبراطوري بقوة على المخلّين بقواعد الإجماع الوطني، كما مرّ بنا سابقًا.

ويلجأ «اليابانيون أحيانًا إلى تكتيك التأخر في اتخاذ القرارات على أمل أن يعمل الوقت على خلق الإجماع؛ كذلك قد يتدخل بعض الوسطاء من أجل حل المواجهات بين القوى ذات المصالح المتصارعة. ويعزى ذلك إلى الممارسات

---

(204) سميث، ص 64.

(205) Yamanak, p. 32.

التقليدية وأهمية العلاقات التي تربط الفرد بجماعته الصغيرة كالأسرة أو الأقارب أو المعارف أو المهنة»[206].

و«تتضمن خصوصية اليابان نمطًا ذا طبيعة سلطوية في صنع القرار، لكنه نمط أوليجاركي وليس شخصيًا. ولا يزال مجلس الوزراء الياباني اليوم.. يتخذ قراراته من خلال قاعدة الإجماع. وعضو المجلس الذي لا يتفق رأيه مع هذا الإجماع يُتوقع منه إما أن يستقيل، أو أن يُواجَه بالتجاهل والتغاضي من قِبَل رئيس مجلس الوزراء، وبرفض النظر في موقفه أساسًا»[207].

بأسلوب ومضمون يؤكدان تداخل الماضي بالحاضر، رد هوري شيغيرو، الأمين العام السابق للحزب الديمقراطي الليبرالي، على منتقديه الذين آخذوه على غياب برنامج أيديولوجي لحزبه: «لم يتكون حزبنا انطلاقًا من بناء نظري أو أيديولوجي؛ بل قام على أسس بسيطة من قبيل التواصل الإنساني والولاء للتنظيم. كما أننا نستمد وحدتنا من المشاعر الحميمية التي نقيمها بعضنا مع بعض»[208].

شكّلت الجماعية خزانًا استراتيجيًا مد عملية التحديث الياباني بالوقود الاجتماعي الكافي والملائم. إنها «العصبية» التي توسلت بالتقاليد الكونفوشيوسية، «كنِحلة» منحتها الغطاء الأيديولوجي لتبرير الطاعة واحترام التراتبية الاجتماعية والسياسية.

لا يعني مجمل ما ذكرناه ذوبان الفرد في مجتمع النيبون، بل وُجِدت معالم واضحة في النزعات الفردية التي دعا يوكيتشي ونيشي أمان وغيرهما إلى استلهام معانيها من التجارب الغربية السابقة. لكن العمق الجماعي ظل حاضرًا في وجدان اليابانيين وفي حالة اللاوعي الجماعي عندهم.

من جهة أخرى، وفّرت قيم الجماعية المناخ الملائم للتحولات الكارثية التي عرفتها اليابان في إطار علاقاتها بدول الجوار الآسيوية - كوريا والصين وروسيا - ومع القوى الإمبريالية الغربية التي دخلت في صراع محموم على

---

(206) قنديل، ص 16-17.

(207) رشاد، ص 158.

(208) Lee, p. 92.

مراكز النفوذ في المنطقة. كما شكّل مطلب التعليم الوعاء الحاضن للتوجهات الفكرية والتوسعية، الأمر الذي يستلزم مقاربة موضوع المدرسة اليابانية والتقاط الخيط الناظم الذي يؤطرها وينسج توجهاتها العامة والخاصة.

خامسًا: المدرسة وسياسة التعليم في اليابان

لا يجادل أحد من داخل الدوائر الأكاديمية اليابانية وخارجها في الدور الأساس الذي أدته المدرسة، كفضاء تربوي وتنموي، في دعم الخط التحديثي العام الذي قطعته التجربة اليابانية في تاريخها الممتد، بعد مرحلة عام 1853، خصوصًا في أثناء عهد الميجي، ومنحته الوقود اللازم لمواصلة الكدح نحو الغاية الكبرى التي رسمها المجتمع لنفسه، وكافح من أجل تنزيلها على مستوى الواقع والممارسة اليومية؛ فقد ورد في تقرير لمنظمة اليونسكو، بمناسبة السنة الدولية للتربية في عام 1970: «أصبح التعليم إحدى الوسائل الأساسية التي غيّرت من طبيعة المجتمع الياباني. وشكّلت الإجراءات التي اتخذها عهد الميجي عام 1868، بخصوص التعليم، محاولة رئيسة وضعت اليابان على طريق التقدم العلمي والتقني»[209].

غير أنه لا يستقيم تناول هذا الدور بفصله عن دوائر التحديث ودعاماته الأخرى المرافقة، السياسية والاجتماعية والأسطورية والاقتصادية. ومع ذلك، يمكن القول إن مطلب التعليم كان المحور الأساس الذي مد مفردات المجتمع الياباني بإمكانية الانطلاق الإيجابي والفاعل في سيرورة التنمية على المستويين الداخلي والخارجي، وشكل الوقود المحوري في سير العجلة التنموية اليابانية. ولعل ذلك هو ما دفع رايشاور إلى القول إن التعليم كان وراء «نجاح اليابان في مواجهة تحديات الغرب المتفوق في القرن التاسع عشر تكنولوجيًا على اليابان، وما أعقب ذلك من وصول اليابان إلى مركز الزعامة الاقتصادية، والواقع أنه لا يوجد سبب رئيس، أو أساس لنجاح اليابان أكثر من نظامها التعليمي»[210].

---

(209) Malcolm S. Adiseshiah, «Le Japon et les taches de l'unesco,» (au cours de la cérémonie organisée à l'occasion de l'année internationale de l'éducation au Centre national de l'éducation, Tokyo, 2 Juillet 1970), p. 2, sur le Web: <http://unesdoc.unesco.org/images/0000/000007/000769fo.pdf >.

(210) رايشاور، ص 239.

لمقاربة هذا الموضوع، لا بد من توضيح بعض المعالم الأساسية في تاريخ المدرسة والتعليم اليابانيين، واستنتاج عناصر التراكم التي أهّلت مجتمع النيبون لتوظيف التراث الصيني القديم القائم على مبادئ الكونفوشيوسية، والأخذ بعناصر التعليم الغربي وإدماجهما ضمن المكوّنات المحلية بترجمة يابانية خالصة.

نشأت خلال فترة كاماكورا (1185-1333) معالم نسق تربوي مزج بين التعاليم البوذية والكونفوشيوسية، «ومن خلاله ركّز التعليم على ضرورة وأهمية التضحية في سبيل خدمة السيد، وعلى تنمية معاني الشهامة والاحترام»[211]. وامتدت فترة التعليم خلال هذه الحقبة «من سن السابعة إلى سن الرابعة عشرة، وتم التركيز خلالها على معرفة القراءة والكتابة انطلاقًا من نصوص بوذية»[212]. وتُعتبر مرحلة الإيدو المحطة الأساسية التي أسست لمجمل التحولات والتراكمات للعصور اللاحقة. وفي هذا السياق، اعتُبرت المدرسة إحدى المؤسسات التي ميّزت عصر التوكوجاوا؛ إذ انتشرت واستهدفت مختلف شرائح المجتمع، خصوصًا فئة الساموراي.

دعا الفيلسوف الياباني نكاثه توجو[213] (1608-1648) «إلى تشكيل حكومة قائمة على الكفاءات والقيم»[214]. وكانت المدرسة الوعاء الذي يحمل هذه الكفاءات والموجّه إليها. وشهد هذا العهد الكثير من المدارس من قبيل التيراكويا والهانكو - هانغاكو، «وفي نهاية عهد الإيدو، كان في البلاد عشرات الآلاف من التيراكويا ونحو 270 هانكو، وبلغ معدل الأمية 40 في المئة»[215].

(211) Jean-François Sabouret, «L'Education nippone: Passé, présent, la société du diplôme,» dans: Cercle d'études sur la société et l'économie du Japon, *Japon, le consensus : Mythe et réalités*, coordination Jean-Marie Bouissou et Guy Faure; avec une étude-préface de Alain Touraine (Paris: Economica, 1984), p. 93.

(212) المصدر نفسه، ص 93.

(213) نكاثه توجو: فيلسوف كونفوشيوسي ياباني، ولِد لأسرة تشتغل بالزراعة، ورأى أن الوصول إلى الحقيقة يكون عن طريق الفكر والحواس لا عن طريق البحث التجريبي، وأن مبدأ وحدة العالم تكمن في الذاكرة الإنسانية لا في العالم الخارجي.

(214) كانجي نشيو، «التعليم في اليابان،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ص 38.

(215) Jun Oba, «Le Système éducatif au Japon,» (texte préparé pour Le stage de formation pour l'administration de l'enseignement pour les pays francophones d'Afrique organisé par l'agence japonaise de coopération international centre international de Chugoku (Hiroshima), Hiroshima, Tokyo, 23 Août au 2 Octobre 2005), p. 4.

وقد «قامت فئة الدايميو بتأسيس معظم المدارس قصد تهيئة الأطفال للأدوار البيروقراطية»[216]. ويوضح رايشاور «أن نسبة المتعلمين من الذكور القادرين على القراءة والكتابة، حتى منتصف القرن التاسع عشر، بلغت 45 ٪، بينما بلغت نسبة اللائي يقرأن ويكتبن من الإناث 15 ٪، وهي نسب لا تقل كثيرًا عن أكثر الدول الغربية تقدمًا في ذلك الوقت»[217]. وإجمالًا عرفت اليابان في عهد الإيدو أربعة أنواع من المدارس[218]:

- مدارس الباكوفو: اهتمت بتدريس التعاليم الكونفوشيوسية القائمة على احترام التراتبية الاجتماعية، وكان الطلبة يكلَّفون بحفظ الكتب الصينية القديمة وشرحها. كما اهتم بعضها بتدريس اللغات، خصوصًا الهولندية، والتكنولوجيا كالطب وعلوم البحرية والتكنولوجيا العسكرية.

- مدارس الهان: خُصصت لأبناء الساموراي واهتمت كسابقتها بالتعليم الصيني. وفي نهاية عصر الإيدو، بدأت تهتم بالتعليم العسكري وبتعليم اللغات، وفتحت أبوابها بشكل نسبي لغير أبناء الساموراي أيضًا.

- المدارس المهنية الخاصة: يعود أصلها إلى فترة ميروماشي (1336-1573)، وتبوأت مكانة متميزة في الحقل التعليمي الياباني، واهتمت، إضافة إلى التعليم الكونفوشيوسي، باللغتين الأجنبيتين، الهولندية ثم الإنكليزية، وكانت أبوابها مفتوحة أمام الساموراي وغيرهم. وقد ساهمت في تخريج نماذج يابانية مهّدت لعملية التحديث[219].

- التيراكويا: المدارس الخاصة الأولية التي خُصصت لأبناء التجار وغيرهم من سكان المدن والقرى[220]. واهتمت بتعليم القراءة والكتابة وعلوم

---

(216) Motoori Norinaga, «A Scholar-Physician who Loved Cherry Blossoms,» p. 1, on the Web: <http://www.norinagakinenkan.com/norinaga/shiryo/about.html>.

(217) رايشاور، ص 240.

(218) Kenichi Ohno, *The Economic Development of Japan: The Path Traveled by Japan as a Developing Country* (Tokyo: GRIPS Development Forum, National Graduate Institute for Policy Studies, 2006), pp. 33-35.

(219) المصدر نفسه، ص 34.

(220) نشيو، ص 39.

الحساب[221]. وكان التلميذ يلتحق بها وهو في السابعة أو الثامنة. وتمتد الدراسة فيها إلى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وتولت مهمةً التدريس فيها مجموعة من الأساتذة البارزين أو بعض رجال الدين البوذيين والشنتويين[222].

يرجع أصل التيراكويا إلى نهاية فترة العصر الوسيط، لكنها شهدت تطورًا متزايدًا ابتداءً من منتصف عهد الإيدو، وأضحت حالة لافتة في نهاية هذه الفترة، حيث عمَّ هذا النوع من المدارس مختلف المدن الكبرى كإيدو وأوزاكا، وأيضا الكثير من المدن الصغرى والقرى النائية[223]، وهو ما دل على أن تعليم الأطفال وتنشئتهم اجتماعيًا وثقافيًا تبوأ مكانة متميزة داخل مجتمع التوكوجاوا، وأصبحت التربية ظاهرة اجتماعية وثقافية جديرة بالملاحظة والتتبع. واستهدفت التيراكويا «مختلف الفئات الاجتماعية في اليابان، وساهمت بدور أساس في رفع معدلات القراءة طوال العصر الفيودالي إلى حدود فترة الميجي»[224].

يقول أحد الباحثين إن تطور التعليم في نهاية القرن السابع عشر ارتبط بضرورات اقتصادية؛ إذ احتاج التجار والحرفيون في تحرير العقود وفي عمليات البيع والشراء «إلى معرفة القراءة والكتابة والحساب. كما اقتنع الحكم الشوغوني بأهمية إدارة شؤون أمة تتوفّر على الحد الأدنى من التعليم»[225]. وفي نهاية عهد الإيدو، وصل عدد مؤسسات التيراكويا إلى 20262 مؤسسة، وكان يدرس فيها نحو 592.754 ولدًا و148.138 فتاة[226]. واهتمت مدارس التيراكويا بعلوم الحساب بسبب احتضانها أبناء التجار، وأصبح 50 في المئة من الرجال و20 في المئة من النساء ذوي مؤهلات أساسية في علوم الحساب.

احتل التعليم مكانة لائقة في المشهد الثقافي العام الذي عرفته اليابان في

---

(221) Ohno, p. 4.

(222) Oba, p. 4.

(223) *Japan's Modern Educational System: A History of the First Hundred Years* ([Tokyo]: Research and Statistics Division, Ministry of Education, Science and Culture, 1980), [chap.11 (2)], on the Web: <http://www.mext.go.jp/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/index.html>.

(224) Makoto Kobayashi, «Kuniyoshi Obara, 1887-1977,» *Prospects* (UNESCO, Paris), vol. 34, no. 2 (June 2004), p. 223.

(225) Sabouret, p. 96.

(226) المصدر نفسه، ص 97.

عهد الإيدو، وساهمت المؤسسات التعليمية في إنتاج النخب المؤهّلة لضمان استمرارية النسق الإداري والسياسي الذي سطّره حكام التوكوجاوا. كما عرفت المدرسة اليابانية تنوعًا في أنماطها وتعددًا في الأدوار التي أصبحت تقوم بها، وهو ما جعل التنافس محتدمًا في ما بينها لإعادة إنتاج النخب المحظوظة من داخل فئة الساموراي. ويذكّرنا ذلك بشدة بالتنافس الذي عرفته المدارس والجامعات الإيطالية قبيل نهضتها الفكرية والثقافية المعروفة، وبالدور المحوري الذي ساهمت فيه في انطلاق ما يسمّى الحركة الإنسية.

أولت يابان التوكوجاوا عناية خاصة بمطلب التعليم، لأن ذلك «ينبع من مصادر حضارة شرق آسيا؛ فقد ركز الصينيون منذ القدم على أهمية التعلم والاطلاع، حيث تعزى قوة الحكام إلى ما يتمتعون به من أكبر قدر من المعرفة»[227]. كما جرى توظيف المدرسة كآلية لتمرير الفكر الكونفوشيوسي القائم على مبدأ التراتب الاجتماعي، وضرورة احترام قواعده، الأمر الذي قدم خدمة أيديولوجية لتبرير الواقع وحمل الناس على الانسجام مع مقولاته ومبادئه، خصوصًا إذا علمنا أن حكام التوكوجاوا اغتصبوا السلطة السياسية من الإمبراطور، وأضحوا يحكمون باسمه، فأصبح نفوذه شكليًا وصوريًا. واحتاجوا لتحقيق ذلك إلى غطاء أيديولوجي يسوغ شرعية حكمهم السياسي، فكانت المدرسة القناة المثلى لتمرير خطاب الطاعة والامتثال للأوامر العليا: فالفلسفة الكونفوشيوسية «تنادي بالولاء المتناهي للحكام وكذلك الولاء بين الرئيس والمرؤوس، والسيد والخادم، والأب والابن، والكبير والصغير. كما تدعو إلى طلب العلم والمعرفة والحكمة»[228].

إن ما ميّز هذا العهد هو حرص «كل إقطاعية على أن تكون لها مدارسها الخاصة التي يتعلم فيها شبابها من الساموراي»[229]، وهذا دل على أن قضية التعليم احتلت مكانة متميزة داخل مجتمع التوكوجاوا ومنحته أهمية خاصة كـ «وسيلة للحفاظ على الامتيازات المتوارثة وتوفير التعليم الممنهج للدراسات

(227) رايشاور، ص 239.

(228) شهاب فارس، «التعليم في اليابان،» على الموقع الإلكتروني: <www.bab.com>.

(229) رايشاور، ص 239.

الأدبية»[230]. كما أكدت المبادئ الكونفوشيوسية ضرورة قيام «نظام اجتماعي على أساس قواعد أخلاقية صارمة، تقف على قمته دولة موحدة، يحكمها رجال ذوو علم وحكمة وأخلاقية رفيعة»[231].

من جانب آخر، أثارت سياسة العزلة أسئلة حرجة أمام حكام الباكوفو، ولعل أهمها كيفية تطوير التعليم الياباني في ظل سياسة الانغلاق المفروضة. وفي هذا الإطار «قام الشوغون الثامن يوشيمون (1684-1751) برفع المنع الذي طاول الكتب الأجنبية، وهو ما سمح بدخول كتب علوم الفلك والعلوم العسكرية وعلوم الطب والفيزياء والكيمياء»[232].

كانت اللغة الهولندية المعبر الأساس الذي مرّت من خلاله المؤلفات الأجنبية نحو مدارس اليابان المختلفة. وكان لمدينة ناغازاكي دور أساس في احتضان مدارس الترجمة[233]. ومثّلت هذه الوسيلة أحد العناصر التي بدأت تشكك في قيمة نظام التعليم الياباني- القائم والمقلد للتعليم الصيني القديم - مقارنة بما وفد من تراجم الكتب الأوروبية في مجالات العلوم المختلفة. وفي هذا الإطار اعتُبرت مقالات فوكوزاوا دعوة صريحة تحثّ اليابان على الانفتاح التام على ثقافات الغرب، واكتساب العلوم والتكنولوجيا العصرية منه.

بذل اليابانيون جهدًا مضنيًا - بسبب سياسة العزلة - في ترجمة بعض الكتب الطبية، وهو ما نلاحظه عند غيمباكو سوغيتا؛ فقد احتاج الرجل ومعاونوه إلى يوم كامل لترجمة كلمة واحدة، وغالبًا ما كان يتطلب الفهم العميق لجملة واحدة إلى أيام كثيرة[234]. ويبدو أن الأمر لم يكن يسيرًا، لكن سوغيتا حثّ معاونيه قائلًا: «إن هذا العمل [الترجمة] لا يفوق طاقة البشر، لكنه يحتاج إلى

---

(230) *Japan's Modern Educational System*, chap. 11-1.

(231) رايشاور، ص 305.

(232) La Société chimique du Japon, «Education chimique au Japon,» (1994), sur le web: <www.t.soka.ac.jp/chem./CEJ2/Chapt1.html>.

(233) *Japan's Modern Educational System*, chap. 11-1.

(234) K. Yoshida, «Japon,» (Institut Français de l'éducation), p. 3, sur le Web: <http://www.inrp.fr/edition-electronique/lodel/dictionnaire-ferdinand-buisson/document.php?id=2952>.

مساعدة من السماء»[235]. وبالفعل، وفي غضون ثلاثة أعوام، تمكّنت مجموعة الترجمة من وضع كتاب بعنوان *Nouveau livre d'anatomie analytique*؛ وطُبع الكتاب ونُشر، وقُدمت نسخ منه إلى الحكومة وإلى أهم نبلاء كيوتو. وزالت بذلك عقدة الوجل من اختراق الصعاب، وحلت إمكانية تحقيق المستحيل أمام ذهنية متحفزة للعلم وامتلاك مقدماته ومضامينه.

سلك علماء يابانيون آخرون النفق العلمي الشاق والطويل نفسه، بحيث انتشرت موجة ترجمة الكتب الهولندية طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر في علوم الطب والعلوم الطبيعية والجغرافيا[236]. ولدى وصول الكمودور بيري إلى سواحل اليابان وبروز حجم التحديات الخارجية أمام مجتمع العزلة الطوعية، «أصبحت مشكلة الدفاع الوطني وعلم المدفعية الحديث مناط الاهتمام الأول بالنسبة للساموراي جميعًا.. و.. كان على الراغبين في دراسة علم المدفعية القيام بذلك وفقًا لنهج الهولنديين الذين كانوا الوحيدين الذين سُمح لهم بالتفاعل مع اليابان بعد القرن السابع عشر»[237].

تحولت الترجمة من أداة للمعرفة والاكتشاف إلى وسيلة للحفاظ على الذات العسكرية المخترقة، بتمتين عناصر الدفاع الداخلي والبحث عن سبل المناعة ضد أسباب هذا الاختراق، وبالانفتاح المتزايد على اللغة الهولندية، وبتأسيس منابر تعليمية تخدم القضية الوطنية وتدفع في اتجاه تطوير المقاومة الثقافية.

في هذا الإطار انتقد فوكوزاوا يوكيتشي نظام التعليم الصيني في اليابان، ودعا إلى الأخذ بدلًا من ذلك بالأنموذج التطبيقي والعملي الذي سارت عليه المدرسة الغربية، وشدّد على أن «امتلاك المجتمع لعنصر الوعي يشكّل مقدمة أساسية في تحقيق الاستقلال الوطني»[238]، ولم يكن هذا الاستقلال يعني له

(235) المصدر نفسه، ص 3.

(236) المصدر نفسه، ص 4.

(237) يوكيتشي، ص 53.

(238) Nishikawa Shunsaku, «Fukuzawa Yukichi (1835-1901),» *Perspectives*, vol. 13, nos. 3-4 (Septembre-Décembre 1993), p. 501.

سوى التخلي عن الوصاية الصينية الثقافية والرمزية، والتحلي بالأنماط التعليمية الغربية الوافدة.

يصعب الحديث في موضوع التعليم من دون أن نستأنس بيوكيتشي، وهو يتحدث عن مرحلة 1854:

«في ذلك الوقت لم يكن هناك شخص في بلدتنا في إمكانه فهم الحروف الغربية المكتوبة أفقيًا، كما لم يكن هناك إنسان قُدِّر له أن يمعن النظر في أشكال تلك الحروف»[239].

ارتبط هذا الحكم بمخلفات سياسة العزلة التي دامت 250 عامًا؛ لكن تحديات أسطول بيري والصدمة العنيفة التي تعرض لها اليابانيون - نخبة وساسة ومجتمعًا - فرضتا ضرورة إعادة ترتيب البيت الداخلي وتعديل أنماط التعامل مع الظاهرة الغربية؛ ولذا لا غرابة أن يصرح يوكيتشي قائلًا: «سأدرس الهولندية أو أية لغة أخرى، وإذا كان في إمكان آخرين تعلمها فإن في إمكاني ذلك أيضًا»[240].

كان الهولنديون هم الوحيدين الذين سُمح لهم من بين الأوروبيين الاتصال باليابانيين بشروط محددة، وبمراقبة صارمة؛ على أن ما يهمنا في هذا المبحث هو الإشارة إلى قضية بالغة الأهمية تتعلق بالاستعدادات النفسية والثقافية التي تمتعت بها فئة الساموراي لتلقّي صنوف المعرفة التي يمكنها تحقيق الجودة التنموية.

بعد حملة بيري على سواحل اليابان وما أعقبها من فرض شروط تجارية وقضائية، «أقدم الشوغون في عام 1857 على إنشاء مؤسسة لترجمة الكتب الأجنبية، أضحت بترجمتها اليسيرة أولَ معهد للغات الأجنبية ومكوّنًا أساسًا لما سمّي حديثًا في جامعة طوكيو الإمبراطورية»[241]، وسمّاها نظام الباكوفو «معهد دراسة كتب البرابرة».

(239) يوكيتشي، ص 53.

(240) المصدر نفسه، ص 54.

(241) Foster Bain, «The Imperial Universities of Japan,» *Popular Science*, vol. 80, no. 15 (March 1912), p. 247.

في محاضرة ألقاها فوكوزاوا في أثناء افتتاح جامعة كيو الجديدة في 27 كانون الثاني/يناير 1890، خاطب الطلبة بقوله: «... إنني أعتبر الدراسة فنًّا عمليًا، فبمجرد خروجكم احتفظوا داخل عقولكم بما تعلمتموه، واتجهوا إلى ممارسة أعمالكم في المجتمع. انغمسوا بين حشود الناس واختلطوا بهم، فإن ذلك سوف يغيّر من أفكارهم، وبذلك تتاح لكم فرصة توسيع نطاق التعليم»[242]. يحيلنا هذا النص على مكانة التعليم ضمن المكوّنات الاجتماعية، والدور الأساس الذي ساهم به في تكوين رؤية خاصة للتغيير والإصلاح، حتى قبل عام 1890.

احتاج اليابانيون، في اعتقاد يوكيتشي، إلى إجراء تعديل في الأفكار والمقدمات، وإلى تحوّل المجتمع إلى مدرسة كبيرة تحتضن الأفكار الجديدة، وتبحث لها عن أنساق للتداول والتواصل وعن قنوات للتفعيل داخل نسيج اجتماعي واسع، يمثّل قاعدة الانطلاق والامتداد في أي تجربة تنموية واعدة. وفي هذا السياق، يثار سؤال أساس يبحث في أسباب سرعة استجابة المجتمع الياباني لمطلب التعليم وانخراطه الواعي في داخل المؤسسات التعليمية الجديدة، بعد حملة بيري الأميركية.

صحيح أن الصدمة الشعورية التي أحدثتها «السفن السوداء» وإدراك حجم التأخر أمام طاقة الغرب العلمية والعسكرية، شكّلا مفتاحًا جوهريًا لفهم دلالات المسألة، ولكن، لماذا لم تعرف بلدان قريبة من اليابان، كالصين وكوريا، الرد والاستجابة نفسيهما أمام طاقة العنف الغربي؟ ولماذا انتكست محاولات النهوض العربي - إن كان هناك نهوض - في كل من مصر وتونس والمغرب على الرغم من تعرض هذه الدول للتحدي العسكري الغربي نفسه في الفترة الموازية؟

يمكن تقديم مشروع إجابة من خلال ما سجّله فوكوزاوا يوكيتشي: «كان هناك طلب مستمر على المعرفة الأجنبية من المكاتب الحكومية ومن النبلاء

(242) رؤوف عباس حامد، التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي، طبعة مزيدة ومنقحة (القاهرة: مركز ميريت للنشر والمعلومات، 2001)، ص 151.

الإقطاعيين المقيمين هناك. وبناءً على كل هذا، فكل من هو قادر على قراءة الكتب الأجنبية أو إنجاز أي ترجمة استطاع تأمين مكافأة...، بل إنه كانت هناك إمكانية لجعل طالب لغة متواضع ساموراي يتلقى راتبًا عاليًا.. بين عشية وضحاها»[243].

أصبح التعليم في أواخر عهد الإيدو مفتونًا بهموم الترجمة ونقل خبرة الغرب التقنية عبر مدرسة ناغازاكي وغيرها. وقد برزت، في هذا المجال، عبقرية يوكيتشي، و«ظهر نبوغه العلمي في دراسة الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا، وفي نقل وترجمة مؤلف هولندي في الهندسة العسكرية»[244].

من جانب آخر، انتشرت موجة العداء للثقافة الصينية، وبدأ انتشار مبدأ «اترك آسيا وادخل أوروبا»، بسبب إدراك النخب المحلية حجم الجمود الذي كان مقدّرًا أن تعيش فيه اليابان لو اعتمدت هذا النمط الثقافي الوافد الذي يؤمن بالتراتبية الاجتماعية، ويغتال الإبداعات والمواهب والطاقات المتحفزة للتغيير وصناعة التنمية.

وُضع اليابانيون أمام اختيار مبدأين استراتيجيين متكاملين في بناء المدرسة الوطنية: مبدأ التخلي عن مضامين التعليم الكونفوشيوسي القديم، ومبدأ التحلي بالأنماط العلمية والدراسية الوافدة من الغرب. وتحقق الانفتاح على التعليم الغربي من خلال الترجمة، الوسيلة الأساسية التي وظفتها النخب الجامعية اليابانية، مثل يوكيتشي، لتصفية بقايا نظام التعليم القديم، ولإحداث القطيعة مع التقاليد التعليمية الصينية القديمة، وللانتصار لمبدأ الليبرالية في مبدأ الكسب العلمي والمعرفي.

شكّل هذا الإطار مرحلة متميزة في تاريخ اليابان، وتاريخ الرجل، إذ قال في عام 1859: «حددت لنفسي هدفًا جديدًا في الحياة، وعقدت العزم على البدء بدراسة اللغة الإنكليزية في يدو، فلم أعرف كيف أبدأ. وبعد الاستفسار وجدت

---

(243) يوكيتشي، ص 124.

(244) Shunsaku, p. 503.

أن هناك مترجمًا يدعى موریاما تاكيتشيروا، استدعي من ناغازاكي للمساعدة في التفاوض في شأن المعاهدة الجديدة. وناشدته أن يعلمني الإنكليزية»[245].

اكتشف فوكوزاوا مع رفاقه، في مدينة يدو، ضآلة اللغة الهولندية على مستوى التداول العالمي، بسبب سياسة العزلة الطوعية واقتصار اليابانيين على الاتصال بالهولنديين وباللغة الهولندية. وقد أورد يوكيتشي الصعوبات الكثيرة والمشاق المتكررة التي حدثت له في مسيرة تعلم لغة الغالب - الإنكليزية[246]؛ ولم تمضِ فترة يسيرة حتى عاد يوكيتشي من رحلة علمية من أميركا، جالبًا معه «العديد مَن الكتب في التاريخ والاقتصاد والقانون والرياضيات ومواد أخرى - ويضيف - وكان هذا ثورة في تعليم المواد الغربية، حيث بدأ شباب اليابان أول مرة بقراءة تاريخ العالم ومناقشة نظريات الاقتصاد، وجلب كلٍ كتاب يضعون عليه أيديهم عليه اكتشافًا؛ فقد كانت المواد جديدة على كلٍّ من المدرّسين والطلاب، كما لو كانوا طلابًا جددًا»[247].

خرجت اليابان من عزلتها التاريخية الطوعية، واكتشفت الجديد في الحضارة الغربية، ومن هنا استأنفت المدرسة اليابانية وظيفتها التربوية بأدوات جديدة وبروح وتراكمات قديمة، امتدت طوال عهد التوكوجاوا.

هذا التصور يتبنّاه الكثير من المفكرين اليابانيين الواردة أسماؤهم في هذا الكتاب، كما تدافع عنه اليوم وزارة التعليم والثقافة والرياضة والعلوم والتكنولوجيا في اليابان. وهي مع اعترافها بالتأثير الغربي السريع في الأنماط التعليمية الداخلية، تؤكد مبدأ «المستوى العالي الذي حققه التعليم والثقافة اليابانيان خلال فترة الإيدو»[248].

توفّرت اليابان، إذًا، على تقاليد مؤسساتية في ميدان التعليم، من خلال ما سبق أن أوردناه من أنواع المدارس الرسمية والخاصة التي كانت تحتضن

(245) يوكيتشي، ص 134.

(246) المصدر نفسه، ص 133-138.

(247) المصدر نفسه، ص 505.

(248) *Japan's Modern Educational System*, chap. 1: «Education during the Late Edo and Early Meiji periods», para. 1: Education at the end of the shogunate, p. 1.

فئات المجتمع الياباني، خصوصًا فئة الساموراي. كما شكّل مطلب التعليم عنصرًا أساسًا للحفاظ على الرتبة الاجتماعية المتميزة، وإعادة إنتاج الدواليب وقطع الغيار الثقافية للسلطة الحاكمة.

شكّلت هذه المقدمات التعليمية ذات المنحى المؤسساتي عمقًا تربويًا أساسًا لانطلاق موجة الإصلاح التعليمي الشامل الذي عرفه عهد الميجي؛ وبرزت في أثنائه «أهمية التنشئة السياسية باعتبارها الوظيفة الأساسية للتعليم العام»[249]. وكان أن راهن هذا العهد على المسألة التعليمية لإنجاح مسيرة التحديث والتقدم والحفاظ على الذات اليابانية من الاختراقات والتحديات الحضارية الغربية.

اهتم فوكوزاوا يوكيتشي بالمسألة التعليمية، ودعا إلى تبنّي أنموذج تعليمي مدرك لأسباب التقدم، «فالشخص الذي يجهل العلم وينتفع بثمار الحضارة، دون أن يدرك طبيعتها، يشبه الحصان الذي يأكل العلف دون أن يدري عنه شيئًا»[250].

من جانب آخر، فتح عهد الميجي إمكانات واسعة لمراجعة مضامين السياسة التعليمية اليابانية، وجعلها مواكبة لسيرورة التحديث. وفي هذا الإطار «تأسست وزارة التعليم في عام 1871، وفي عام 1872 أصدر 'نظام التعليم' باعتماد الأنموذج الأميركي، وقسم ثلاث مستويات: الأولي، والثانوي، والعالي»[251]. ويمكن ملاحظة «تزايد التأثير الأجنبي، خلال عهد الميجي، في الفترة 1873-1880، خصوصًا التأثير الأميركي والإنكليزي والفرنسي»[252].

استهدفت فلسفة التعليم الجديدة تحقيق مستويات عليا من الثقافة والمعرفة، شبيهة بما تحقق في الغرب من انتشار المعارف التطبيقية،

---

(249) قنديل، ص 12.

(250) حامد، ص 143.

(251) Yasuo Saito, «Modernisation du Japon et progrès de l'éducation,» dans: *L'Expérience du Japon en matière d'éducation: Réflexions sur le développement de l'éducation dans les pays en développement* (Tokyo: Agence Japonaise de Coopération Internationale, Institut de coopération international, 2005), p. 15.

(252) Sabouret, p. 99.

وأصناف العلوم والتقنيات؛ وركزت في عناصرها العامة على «تطوير الموارد البشرية، وحس الانتماء إلى الدولة، واعتماد معيار الجدارة والكفاءة بدلًا من النسب والمولد»[253]. بيد أنه لم يكن تنفيذ هذه الخطة الطموحة سهلًا، بسبب «افتقار اليابانيين إلى العدد اللازم من المدرّسين، والمباني المدرسية، والأموال أيضًا، لذلك تغيرت خطط التعليم مرارًا»[254]. وعلاوةً على توحيد المدرسة اليابانية، أُغلقت «المدارس التي أقيمت في كل إقطاعية زراعية، ومدارس التيراكويا داخل المعابد»[255]. وانسجم هذا الإجراء مع إلغاء الحكم الجديد نظام المقاطعات الفيودالي في عام 1871، وتوجهه نحو مركزة القرار السياسي والإداري. وفي هذا الإطار «صدر قرار يلزم مدارس المقاطعات بالخضوع للإشراف المباشر لمصلحة التعليم المركزية»[256]. وعلى امتداد سبعة أعوام (1872-1879)، شهد هذا القطاع الكثير من التحولات، وتعاقب على إدارته نخبة من رجال الإدارة والتربية اليابانيين، منهم[257]: إيتو شيمبي: (1834-1874)، 2 أيلول/سبتمبر1871؛ أوكي تاكاتو: (1832-1899)، 12 أيلول/سبتمبر 1871؛ تاناكا فوجيمارو: (1845-1909)، نيسان/أبريل 1873؛ كيدو تاكايوشي: (1833-1877)، كانون الثاني/يناير 1874؛ صايغو تسوجيميشي: (1843-1902)، أيار/مايو 1878؛ تيراشيما ميونوري: (1834-1893)، أيلول/سبتمبر 1878.

إذا كان تعدد المسؤولين المعينين في قمة الإدارة التعليمية اليابانية يدل على خاصية عدم الاستقرار، ووجود مشكلات حقيقية بشرية وتقنية، فإنه من زاوية أخرى يحيل على ذهنية الابتكار والبحث عن أفضل السبل لمعالجة التحديات التربوية التي واجهت ساسة عهد الميجي، ومنها الاستعانة بالخبرة الأجنبية، كمحطة انتقالية مدروسة، في أفق الانتقال بالمدرسة اليابانية نحو مبدأ

---

(253) Oba, p. 4.

(254) رايشاور، ص 240.

(255) المصدر نفسه، ص 240.

(256) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 1: The Establishment of the Department of Education.

(257) المصدر نفسه، ص 1-2.

الاكتفاء الذاتي؛ ففي حزيران/يونيو 1873، استدعت الإدارة اليابانية ديفيد ميراي[258] (1830-1905) ليقدم استشارته لمصلحة التعليم اليابانية، فتولّى مهمة التفتيش من تشرين الأول/أكتوبر 1874 إلى كانون الأول/ديسمبر 1878[259]. ويمكن رصد أعداد الأساتذة الأجانب الذين استقبلتهم المدرسة اليابانية في الجدول (2-1)[260]:

الجدول (2-1)

عدد الأساتذة الأجانب في اليابان (1874-1924)

عام	عدد
1874	77
1875	72
1876	78
1877	59
1878	48
1879	46
1880	39
1881	27
1883	27
1883	24
1893	38
1904	66
1913	105
1924	155

(258) دافيد ميراي (D. Murray) (1830-1905) خبير تربوي أميركي ساهم في وضع البرامج التعليمية اليابانية خلال بداية عهد الميجي. (تعريف خاص)

(259) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» p. 2.

(260) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, d: Japanese Students Studying Abroad and Foreign Teachers in Japan, on the Web: <http://www.mext.go.jp/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/hpbz198103_2_033.html#>.

لا يمكن مقاربة تطور التعليم الياباني من النواحي الكمية والكيفية من دون استحضار مبدأ الاستعانة بالخبرة الأجنبية؛ «فقد استقبلت الحكومة اليابانية الكثير من الخبراء والأساتذة الأجانب، وفي الوقت نفسه أُرسلت الكفاءات التعليمية اليابانية إلى البلدان الأوروبية وأميركا؛ وعند عودتها نجحت في تعويض الأطر التعليمية الغربية المكلفة، وانتقلت أعدادهم - الخبراء الأجانب - من 525 في عام 1875 إلى 77 في عام 1896»[261].

يمكن رصد معالم النهضة التعليمية اليابانية من خلال ما سجّله الرحالة المصري الجرجاوي في عام 1906؛ إذ كانت «اليابان قبل هذا القرن، كباقي أمم الشرق، من حيث الجهل السائد فيها، ولم تكن تعرف من المدنية شيئًا يُذكر، لكنها حين شعرت بهذا التأخر وعرفت مزية العلوم ونشرها في البلاد وتعميمها بين الأفراد، اندفعت اندفاع الشره الجوعان إلى لذيذ الطعام وفتحت المدارس على اختلاف أنواعها. وفي قليل من الزمن خطت خطوات كثيرة في سبيل التقدم والمدنية لم تكن لتخطوها أمة غيرها في أضعاف هذا الزمن القصير»[262]. وإذا كان الجرجاوي أصاب حين وصف تطور مطلب التعليم وفتح المدارس، وتعميم ولوج المدارس على الرعايا اليابانيين، فإن حكمه على «الجهل السائد» فيها في العصور السابقة لا يستقيم مع ما أشرت إليه بخصوص العمق التاريخي الذي تميزت به المدرسة اليابانية، خصوصًا في عهد حكم التوكوجاوا، وانخراط المجتمع في تلقّي وإنتاج المعارف بمعالمها الكونفوشيوسية؛ بل إن التحولات التعليمية في عهد الميجي لا يمكن مقاربتها إلا في إطار الامتدادات التاريخية للمنابر التربوية المتعددة والمختلفة التي شهدها عهد مدارس التيراكويا.

تشوفت النخب اليابانية إلى التنقيب عن السبل الكفيلة بتطوير التعليم، واهتم موري، في أثناء مهمته كدبلوماسي في الولايات المتحدة، بـ «الاستفسار من بعض الوجوه السياسية والتربوية الأميركية عن الوجهة التعليمية الواجب

(261) Oba, p. 6.

(262) علي أحمد الجرجاوي، الرحلة اليابانية (القاهرة: دار ميريت، 1999)، ص 173.

اتّباعها في اليابان...، وتلقّى أجوبة من 13 شخصية أميركية أكاديمية، نشرها في مجلة نيويورك، بعنوان: 'التعليم في اليابان'»[263]. وتأتي أهمية الدور التربوي لموري من «إتقانه اللغة الإنكليزية، وهو ما جعل منه أنموذجًا للتمثيل الدبلوماسي الياباني في الولايات المتحدة الأميركية، كما كُلّف بإنجاز دراسة عن إصلاح التعليم في اليابان»[264]. وعند عودته، كان قد اكتسب الخبرة بالميدان التربوي، فلم يتردد الوزير الأول إيتو هيروبومي «في تعيينه وزيرًا للتعليم، في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1885»[265]، وأطلق عليه لقب «الغربي المولود في اليابان»[266].

تميزت بداية هذا العهد بحركة الترجمة الكثيفة لمضامين التعليم الغربية، خصوصًا في المرحلة الممتدة من عام 1873 إلى عام 1880؛ «فقد تُرجمت واستُعملت مضامين التعليم الغربية بشكل حرفي، وهو ما تسبب في صدمة شعورية في مجتمع لم يجد القيم التي استوعبها طيلة الفترة الطويلة لعهد الإيدو»[267]. ولعل هذه الصدمة هي التي دفعت موري أرينوري إلى مراجعة هذه المضامين، وحملت سياسته التعليمية بصمات التوفيق بين التقنية والعلوم الغربية من جهة، والأخلاق والقيم الكونفوشيوسية من جهة أخرى؛ ففي «دروس الأخلاق الموجّهة إلى الأطفال، نجد مبادئ الوفاء للعائلة وللإمبراطور، واحترام الأشخاص المسنين، وتقديم يد العون..»[268].

تُعَدّ سياسة أرينوري التعليمية أنموذجًا أسّس للمراحل التعليمية اللاحقة.

---

(263) *Japan's Modern Educational System*, chap. 3: «The Establishment and Consolidation of the Modern Educational System,» para. 1: The Educational Policy of Education Minister Mori Arinori and the Promulgation of the Various School Orders, (1): The Educational Policy of Education Minister Mori Arinori, b: Mori Arinori as the First Minister of Education, p. 1.

(264) Marius B. Jansen, *The Making of Modern Japan* (Cambridge, Mass: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 402.

(265) *Japan's Modern Educational System*, chap. 3: «The Establishment and Consolidation of the Modern Educational System,» para. 1: The Educational Policy of Education Minister Mori Arinori and the Promulgation of the Various School Orders, p. 2.

(266) سميث، ص 119.

(267) Sabouret, p. 99.

(268) المصدر نفسه، ص 100.

وقد «امتلك نظرة عميقة حول الدور الذي يجب أن يؤديه التعليم في تطوير الأمة»[269]، وأعطى لتكوين الأطر اليابانية أهمية خاصة، مركّزًا على مبادئ ثلاثة هي الطاعة والاهتمام والصرامة. وتعني هذه الركائز الثلاثة «طاعة الرؤساء، وإبداء الاهتمام العاطفي بالزملاء، والمراقبة الصارمة لهيئة التلاميذ الصغار وسلوكهم»[270]. أراد موري أن تنتج المدرسة اليابانية الرعايا الصالحين، وعبّر عن مواصفات الصلاح، قائلًا: «يجب أن يكونوا رعايا للإمبراطور، يقومون بواجباتهم على أكمل وجه، ومعنى هذا أن يكونوا مستعدين لتلبية النداء والتضحية بحياتهم من أجل الدولة»[271]. وفي هذا الإطار أُصدر قانون 1886، ووُضعت بمقتضاه مقررات دراسية، أكدت مجموعة من القضايا وفي مقدمها «الاهتمام بمادتي التاريخ والجغرافيا، وبحسب وزير التربية موري، فإن ذلك كفيل بمنح التلاميذ القدرة على إدراك الذات اليابانية والتعرف إلى الآخر، وتطوير حس الانتماء الأبوي»[272].

تمكن اليابانيون من جني ثمار المقدمات القانونية والتقنية والبشرية المتخذة، وتمثّل ذلك في المعدلات المرتفعة لنِسَب التمدرس في مختلف مراحل التعليم، بما فيها مؤسسات التعليم الصناعي التي شهدت تطورات مهمة، كما يتضح من الجدول (2-2)[273].

يتضح من خلال المعطيات الإحصائية التحول الكبير الذي عرفته مؤسسات التعليم الصناعي بعد مرحلة عام 1895، وبالتحديد بين عامي 1895 و 1905؛ إذ بلغ معدل تطور المدارس الصناعية في تلك المرحلة 4892 في المئة، وعدد الأساتذة 1691 في المئة، وعدد التلاميذ 3551 في المئة، وهي مرحلة شهدت طفرة كبيرة في سلسلة المغامرات العسكرية الإمبريالية، واجهت

(269) Saito, p. 18

(270) المصدر نفسه، ص 18.

(271) سميث، ص 123.

(272) Japanese Education System (Meiji Period to 1941), on the web: <http://en:kipedia.org/wiki/japanese-education-system-(Meiji-Period-to-1941)>.

(273) Ken Inoue, *The Education and Training of Industrial Manpower in Japan*, World Bank Staff Working Papers; no. 729 (Washington, DC: World Bank, 1985), p. 8.

من خلالها اليابان كلًّا من الصين وروسيا، وبدأت انتهاج سياسة سباق التسلح قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

من هنا عرفت سياسة التعليم اليابانية الكثير من التحولات والمراجعات، بطريقة جعلتها تلائم تحولات المشهد الإقليمي في شرق آسيا، وحدّة الصراع الإمبريالي الدولي في المنطقة، فشكّل التعليم الصناعي مطلبًا أساسًا لمد العسكريتاريا اليابانية بالوقود البشري المؤهَّل والمدرَّب لإنجاز المشروع التوسعي الياباني في المنطقة وإنجاحه.

الجدول (2-2)

تطور عدد مدارس التعليم الصناعي والأساتذة وعدد التلاميذ (1935-1894)

عام	عدد المدارس	عدد الأساتذة	عدد التلاميذ
1894	19	26	1117
1895	55	71	3327
1905	2746	1272	121502
1915	8908	2815	498178
1925	15316	9821	1051437
1935	16678	68179	1902157

في هذا الإطار تزايدت أعداد المؤسسات التربوية في مختلف الأسلاك التعليمية، خصوصًا تعليم الصغار، الخزان الاستراتيجي للأجيال التعليمية اللاحقة. ويمكن رصد معالم هذا التزايد من خلال الجدول (2-3)[274].

---

(274) *Japan's Modern Educational System*, chap. 3: «The Establishment and Consolidation of the Modern Educational System,» para. 2: The Development of Elementary Education, (2): The Advancement of Compulsory Education and the Upturn in the Attendance Rate, a: The Abolition of Tuition and the Clarification of Rules for Compulsory Attendance, on the Web: <http://www.mext.go.jp/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/hpbz198103_2_079.html>.

الجدول (2-3)
نسبة حضور التلاميذ بالنسبة إلى التعليم الإجباري
(1917-1890)

عام	الذكور (في المئة)	الإناث (في المئة)	المجموع (في المئة)
1890	66.1	31.1	48.9
1891	66.7	32.2	50.3
1892	71.7	36.5	55.1
1893	74.8	40.6	58.7
1894	77.1	44.1	61.7
1895	76.7	43.9	61.2
1896	79.0	47.5	64.2
1897	80.7	50.9	66.7
1898	82.4	53.7	68.9
1899	85.1	59.0	72.8
1900	90.4	71.7	81.5
1901	93.8	81.8	88.1
1902	95.8	87.0	91.6
1903	96.6	89.6	93.2
1904	97.2	91.5	94.4
1905	97.7	93.3	95.6
1906	98.2	94.8	96.6
1907	98.5	96.1	97.4
1908	98.7	96.9	97.8
1909	98.9	97.3	98.1
1910	98.8	97.4	98.1
1911	98.8	97.5	98.2
1912	98.8	97.6	98.2
1913	98.7	97.5	98.2
1914	98.8	97.7	98.3
1915	98.9	98.0	98.5
1916	99.0	98.2	98.6
1917	99.1	98.4	98.7

علاوةً على ذلك، يمكن توضيح عناصر الترابط بين حجم التلاميذ الممدرسين وعدد المدارس، والأساتذة المشرفين على العمليات التربوية المختلفة في الجدول (2-4):

الجدول (2-4)
معطيات في شأن التعليم الابتدائي
(1880-1885)[275]

عام	عدد المدارس	عدد التلاميذ	عدد الأساتذة
1880	28410	2348859	72562
1881	28742	2607177	76618
1882	29081	3004137	84765
1883	30156	3237507	91636
1884	29233	3233226	97316
1885	28283	3097235	99510

نجح اليابانيون في تحقيق معدلات كبيرة في التمدرس الإجباري، وأصبح الانتظام داخل المؤسسات التربوية شكلًا من أشكال الانخراط داخل ثكن عسكرية، يتأهب أفرادها للحرب والمواجهة. ويمكن تفسير السرعة في تحقيق هذه النتائج بالتحديات الكبرى التي واجهت مجتمع النيبون خلال تزايد أخطار الهجمة الغربية على منطقة شرق آسيا، وتحفز العسكريتاريا - في مقابل ذلك - لتأسيس إمبراطورية يابانية توسعية. ومن هنا شكّلت المدرسة والتعليم إطارين ملائمين لتكوين أفواج موائمة لأداء هذا الدور الحيوي. كما يمكن رصد الانتظام المؤسساتي من خلال الوصف الدقيق للدور الذي نيطت به المؤسسات التعليمية وسياسة التعليم؛ إذ حُدّدت للتعليم الأولي أهداف واضحة جليّة تمثّلت في «منح الأطفال تربية خلقية وأبوية، وتعليمهم المعارف

(275) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 5: Education during the Period of the Education Orders, (3): Elementary Education, c: Methods and Curriculum in Elementary Schools.

العامة التي تفيدهم في الحياة، والاعتناء بنموهم الجسماني»[276]. وفي دروس الأخلاق الوطنية المقدمة إلى الأطفال، «كان التلقين يركّز على قِدم تاريخ اليابان الذي يمتد 2500 سنة»[277]. وقُسّم التحصيل الدراسي مستويين متباينين من حيث المراحل والمواد الدراسية، وهما مستوى تعليم ابتدائي ومستوى تعليم عالٍ، كما هو مبيّن في الجدول (2-5)[278].

واجهت السياسة التعليمية اليابانية الكثير من التحديات؛ فقد انخرطت اليابان، بعد حوادث منشوريا، في فترة من الزخم القومي. ورافق ذلك ازدهار صناعي اتجهت خلاله الفئات المتعلمة نحو المهن الصناعية. وفي مقابل ذلك، انخفضت أعداد المرشحين لمناصب التدريس بشكل كبير، بسبب ضعف المنح المقدمة إليهم، وهو «ما دفع وزارة التعليم، بالتنسيق مع عمال الأقاليم، إلى زيادة عدد المنح المخصصة للمدارس العليا، والبحث عن وسائل لجذب المتعلمين المتفوقين»[279]، فأدى ذلك إلى عودة الانتعاش إلى مدارس التكوين، كما يتضح من خلال المعطيات الآتية[280].

من خلال تحليل بسيط للمعطيات الإحصائية الواردة، يبدو مؤشر التراجع واضحًا ابتداءً من عام 1903؛ ففي الوقت الذي حافظت فيه مؤسسات التكوين على سمة التطور، من 72 إلى 88 مؤسسة، تراجعت أعداد المنتسبين إليها تراجعًا ملحوظًا، من 8543 إلى 4162، الأمر الذي دفع الإدارة اليابانية إلى معالجة المشكلة، بزيادة قيمة التحفيزات المادية المقدمة، فتسبب ذلك في عودة الحيوية إلى مدارس تكوين الأطر التربوية ابتداء من عام 1907.

---

(276) Yoshida, p. 8, sur le Web: <http://www.inrp.fr/edition-electronique/lodel/dictionnaire-ferdinand-buisson/document.php?id=2952>.

(277) Sabouret, p. 101.

(278) المصدر نفسه، ص 9.

(279) Shigeyuki Tanaka, «La Formation et les stages pour enseignants,» dans: *L'Expérience du Japon en matière d'éducation*, p. 202.

(280) *Japan's Modern Educational System*, chap. 3: «The Establishment and Consolidation of the Modern Educational System,» para. 6: Teachers and the Development of Teacher Training, (1): Normal School System, b: The 1897 Normal Education Order and the Expansion of Normal Education.

الجدول (2-5)
تطور عدد المدارس العليا لتكوين المدرّسين
(1913-1869)

عام	عدد مدارس تكوين الأساتذة	عدد مدارس تكوين الفتيات	عدد المتخرجين	
			الإناث	الذكور
1896	47	0	3879	298
1897	47	0	5116	602
1898	47	0	4520	396
1899	49	0	5005	449
1900	52	3	6100	1225
1901	54	4	7743	1475
1902	57	7	7258	1800
1903	61	11	6662	1881
1904	64	14	5971	2187
1905	66	16	3093	1082
1906	67	17	3015	1182
1907	69	19	2864	1298
1908	75	23	4085	1222
1909	78	25	4250	1585
1910	80	27	4449	1095
1911	85	30	4952	2013
1912	86	32	5124	2217
1913	86	33	5158	2225

تمكن اليابانيون بعد إجراء سلسلة من المراجعات النقدية لمضامين التعليم، من إحراز نتائج متميزة على مستوى تزايد أعداد التلاميذ المنتظمين في الأسلاك الدراسية.

الجدول (2-6)

تراجع منتسبي مدارس تكوين المدرّسين

(1907-1903)

عام	مجموع مدارس التكوين	مجموع المتخرجين من الذكور والإناث
1903	72	8543
1904	78	8158
1905	82	4175
1906	84	4197
1907	88	4162

واحتاج الجهد الياباني في ميدان التعليم إلى إمكانات مادية، ساهمت في توفيرها كلٌّ من الدولة والمقاطعات والبلديات. ويوضح الجدول (2-7) تطور حجم هذه النفقات؛ إذ ازدادت مساهمة الدولة انسجامًا مع الدور الذي راحت تؤديه في عسكرة المجتمع، وفي المراهنة على تكوين أطر تعليمية ستتقلد مناصب الإدارة السياسية والعسكرية إلى حدود بداية التوترات الدولية في الشرق الأقصى باحتلال اليابان إقليم منشوريا الصيني.

الجدول (2-7)

تطور نفقات التعليم العمومي في اليابان[281]

عام	الدولة (بالمليون ين)	المقاطعات (بالمليون ين)	البلدية (بالمليون ين)
1885	1036	1222	8643
1890	931	1188	7487
1895	1598	1874	10772
1900	5834	8845	26347
1905	5666	9012	28143
1910	9010	15835	60472

يتبع

(281) Naoko Yamaguchi, «Annexe: Statistiques sur l'éducation,» dans: *L'Expérience du Japon en matière d'éducation*, p. 268.

تابع

1915	10566	17158	62437
1920	44066	55783	200558
1925	100388	92582	249458
1930	143320	105612	204010
1935	151100	103102	242878
1940	270673	199697	201540

لكن سياسة التعليم اليابانية لم تسلم من انتقادات نخبة مثقفة يابانية دعت «إلى الأخذ، في ميدان التربية، بأساليب جديدة. وفي هذا الإطار حمل هيجوشي شويشي على سمة الإجبارية التربوية التي طبعت عهد الميجي، وأولى أهمية للتعلم العصامي والذاتي»[282].

كما برزت نخب تربوية أخرى، «مثل أويكاوا إيجي، وتيزوكا كيتشي، وأوبارا كونييوشي، وكاتاياما شين، وكانو كييومارو، واهتمت بنهج سياسة ليبرالية واسعة في ميدان التعليم لتطوير شخصية الطفل»[283]. إلا أن هذه التنظيرات لم تجد فسحة واسعة للتطبيق بسبب تركيز الأوليغارشيا الحاكمة على مبدأ الطاعة والامتثال للقرارات الإمبراطورية، في مرحلة تاريخية احتاجت فيها اليابان الإمبريالية إلى «تنمية مطلب العواطف بنسب تفوق تطوير قدرات الذكاء»[284]. ومع ذلك، لا يمكننا أن نعدم تأثير هؤلاء في السياسة التربوية التي نهجتها اليابان في النصف الأول من القرن العشرين؛ فخلال «عهد تايشو (1912-1925)، نشأت موجة من البحوث التربوية، بمعزل عن المخططات الحكومية. وبموت الإمبراطور تايشو وبداية عهد شوا (1921-1989)، بالتحديد في عام 1930، راجعت الحكومة والإدارة المركزية المقررات الدراسية»[285]. ولا شك في أن بعض معالم الإنتاجات النظرية السابقة وجد طريقه إلى التنفيذ والاندماج في المنظومة التربوية ليابان ما قبل الحرب العالمية الثانية.

(282) Sabouret, p. 103.

(283) المصدر نفسه، ص 103.

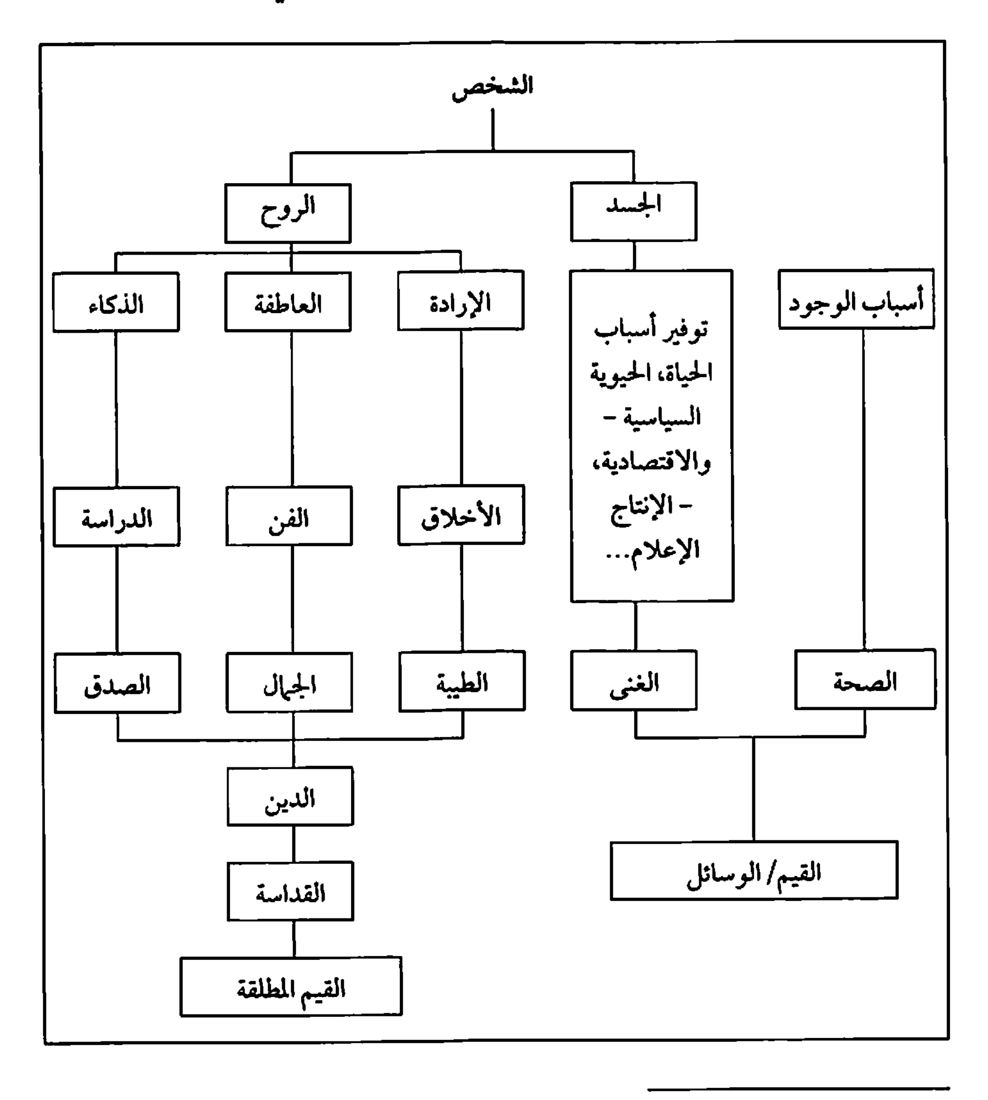
(284) المصدر نفسه، ص 104.

(285) Masami Isoda et Toshio Murata, «Le Programme scolaire (curriculum),» dans: *L'Expérience du Japon en matière d'éducation*, p. 141.

مثّل أوبارا كونييوشي أنموذجًا يستدعي التأمل؛ حيث عُرف بنظريته التربوية «زينجين» التي تعني «الشخصية الكاملة» أو «تعليم الرجل التام» من خلال قيمتين متكاملتين: المطلقة والمساعدة.

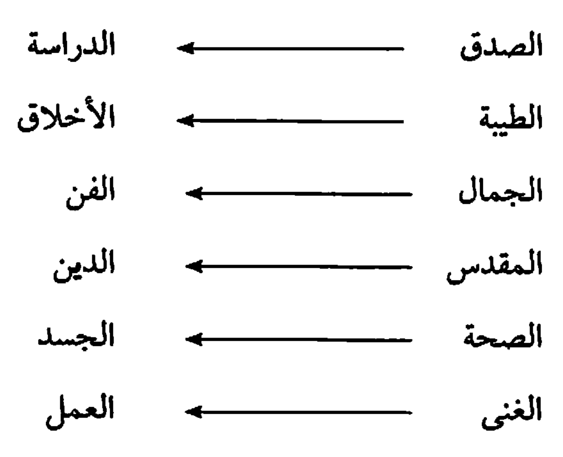
الشكل (2-1)

نظرية تربية الرجل الكامل لأوبارا كونييوشي(286)



(286) Kobayashi, p. 229.

قابل أوبارا بين ستّ قيم أساسية مثالية وما يرتبط بها من أوجه النشاط الإنساني كالآتي[287]:



اعتبر أوبارا أن الدين هو محور أساس لجميع أشكال النشاط الثقافي والتربوي، وهذا أمر طبيعي في مجتمع لم يعرف تاريخه الطويل والممتد صراعًا بين العلم والمعتقدات الأسطورية؛ فقد تبوأت هذه الأخيرة مكانة متميزة داخل الثقافة اليابانية، فمثّل مجموع النصوص الأسطورية والقيم الثقافية الكونفوشيوسية والبوذية والشنتوية الجانبَ المقدس في حياة اليابانيين الفردية والجماعية. ولم يجد اليابانيون حرجًا في استلهام الرموز والمعاني الدينية/ الأسطورية، لشحن المنظومة التربوية بعوامل البقاء والاستمرار. وفي هذا الإطار لا نجد لدى أوبارا أي تعارض بين الدين من جهة، والعلم والأخلاق والفن من جهة أخرى، «بل تمثّل القدسية، بالنسبة إليه، القيمة القصوى للتعليم»[288].

حمل أوبارا بشدة على التعليم اللائكي، واعتبره «خطرًا على تنشئة الشخصية الإنسانية. وفي نظره، فإن البحث عن القيم الإنسانية وتنميتها محرك أساس لقطاع التربية والتعليم»[289]. وركّز في بناء نظريته على خصوصيات المجتمع الياباني وهويته من النواحي الاعتقادية والرمزية. كما انفتح على مجموعة من الأفكار التربوية والفلسفية، «بدءًا من مثالية أفلاطون وصولًا إلى

---

(287) المصدر نفسه، ص 227.
(288) المصدر نفسه، ص 229.
(289) المصدر نفسه، ص 231.

أفكار البيداغوجي السويسري بيستالوزي[290] (Pestalozzi)، مرورًا بإيرازم ولوثر وكالفن»[291].

نكتشف من خلال فلسفة أوبارا التربوية سمات التسامح واحترام الخصوصيات الثقافية؛ فهو تصدى للتوجهات القومية التي تخدش التفاهم الدولي في شأن مبدأ الاحترام المتبادل بين الشعوب والأمم. ومن هذه الزاوية «أحس بالمرارة بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. واهتم بعد نهايتها بتشجيع جهد السلام الذي بذلته هيئة الأمم المتحدة، ومنظمة اليونسكو»[292]. ويمكن القول إن أفكاره وأخلاقه العلمية أسست في اليابان مقدمات حقيقية لفلسفة حوار حضاري بين الثقافات الإنسانية المختلفة والمتعددة.

لم تلتفت العسكريتاريا اليابانية إلى القيم الإنسانية التي تضمنتها اجتهادات أوبارا التربوية، بل وظفت عناصر القوة فيها، وفي غيرها، لتدعيم التلاحم الاجتماعي، ولتعميق الإيمان بقوة الرموز الدينية والأسطورية، بالشكل الذي جعل من مشاركة اليابان في عمليات التوسع الإمبريالي، والتحالف مع الفاشية والنازية، شكلًا من أشكال تجسيد مبادئ التفوق العرقي والقومي. فما ميّز أوبارا من غيره من التربويين اليابانيين هو «بناؤه رؤية تعليمية بعيدة عن أي تنظير أيديولوجي»[293]. وما يلفتنا في مسيرة أوبارا التربوية هو الانخراط العملي والفعلي في إنتاج ممارسة تعليمية، في محاولة منه تطبيق مقدمات نظرية داخل المؤسسات التعليمية الخاصة، الأمر الذي يشير إلى مكابدة حقيقية في سبيل اختبار ممارستها على أرض الواقع.

في هذا الإطار، لم تكتفِ النخب الفكرية والتربوية بإنتاج المعارف

---

(290) بيستالوزي (1746-1827) رجل تربية سويسري، ركّز في بحوثه التربوية على أربعة أسس: البدء بالمحسوس قبل الانتقال إلى المجرد؛ إعطاء الأولوية للبيئة القريبة قبل الانتقال إلى المحيط البعيد؛ البدء بالتمارين السهلة قبل الانتقال إلى التمارين الصعبة والمعقدة؛ الاهتمام بالتدرج والتأني في عمليات التعليم المختلفة. أسس في عام 1805 مدرسة خاصة بالأطفال الفقراء، كما اهتم في ممارسته التربوية بتنمية شخصية الطفل، عوض شحنه بالمعارف. وهنا نجد أحد أوجه التأثير في أوبارا.

(291) Kobayashi, p. 231.

(292) المصدر نفسه، ص 234.

(293) المصدر نفسه، ص 239.

والتنظيرات، لكنها انخرطت في تأسيس منابر ومؤسسات تعليمية خاصة، تنافس الدولة وتزاحمها في صناعة عقلية الابتكار والنبوغ، وهو عكس ما ميّز نخب الإصلاح المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي اكتفت بتنبيه أولي الأمر إلى الاعتناء بمنظومة التعليم، ولم تسمح لها إمكاناتها الذاتية ومحيطها السياسي والإداري بتأسيس منابر تعليمية تنافس الدولة في إنتاج المعرفة واختبار النظريات والاجتهادات داخل مؤسسات تعليمية حقيقية.

في عام 1912، ذكر أحد الدارسين جامعتي كيو وواسيدا، واعتبرهما الجامعتين الخاصتين الأكثر شهرة في اليابان(294). ويمكننا تناول تجربة تأسيس جامعة كيو في عام 1858 كفعل تربوي خاص ومتميز؛ فقد كانت في بدايتها مؤسسة للدراسات الغربية، وفتحت أول كلية جامعية لها في عام 1890، وأضحت في ما بعد رقمًا مهمًّا وأساسًا في المعادلة التربوية في عهد الميجي. وقد أسّسها في العاصمة طوكيو المربّي الليبرالي فوكوزاوا يوكيتشي في عام 1858 كمدرسة خاصة، وتحولت عمليًّا إلى جامعة في عام 1900. وتقوم فلسفة فوكوزاوا على أساس إيجاد بديل للتلقين الفوقي السلطوي الذي يهدف إلى بناء كوادر تتحول الى أدوات في يد السلطة، عن طريق تشجيع البحث العلمي الحر، ولذا، لم يكن مفاجئًا أن يتأخر اعتراف الدولة بالجامعة إلى عام 1919(295).

أما جامعة واسيدا، فأنشئت في 23 تشرين الأول/أكتوبر 1882 باسم مدرسة (كلية) «طوكيو سينمون غاكو». وقبل اختيار هذا الاسم، كانت تُعرف بمدرسة واسيدا أو مدرسة توتسوكا، نظرًا إلى موقعها في قريتي واسيدا وتوتسوكا. وفي نحو عام 1892، أصبح اليابانيون يطلقون عليها مدرسة واسيدا، وجرى تغيير اسم المدرسة إلى جامعة واسيدا في 2 أيلول/سبتمبر 1902.

من جهة أخرى، أُسّست جامعة طوكيو في عام 1877 باسم «جامعة طوكيو الإمبراطورية» بموجب نصوص القانون الصادر عام 1872، والقاضي بإنشاء جامعات إمبراطورية تقبل صفوة مختارة من الطلبة وتعدّهم لاحتلال

(294) Bain, p. 246.

(295) <http://japan.jeeran.com/japaneseuniversities.html>.

المواقع العلمية الرفيعة والمناصب الحكومية والإدارية القيادية. وكانت يومذاك أول جامعة يابانية تؤسَّس على النسق الأوروبي، وتشكّلت جذورها من معاهد عدة أُنشئت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(296). كما أسّست جامعات أخرى في كثير «من المدن الرئيسة، ليصل عددها إلى سبع مؤسسات في طوكيو، وكيوتو، وتوهوكو، وكيوشو، وهوكايدو، وأوزاكا وناكويا. ومثّلت هذه المؤسسات نواة التعليم العالي الياباني، وساهمت في تكوين أبرز النخب اليابانية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية»(297).

ارتبط تطور المدرسة في يابان ما قبل الحرب العالمية الثانية بتوجهات الدولة الفكرية والتوسعية، وجرى توظيف التعليم كوقود للتعبئة، ولتوجيه تفصيلات السياسة الاجتماعية نحو خدمة النزعة الإمبريالية في القارّة الآسيوية.

استندت المنظومة التعليمية إلى تراث تاريخي قديم أوجد حالة من الاستمرارية في النسق التربوي العام الذي قطعته اليابان منذ أزمنة التوكوجاوا وسياسة العزلة؛ لكن تشبّعها بالمبادئ القومية المتطرفة وانحيازها المطلق إلى خيارات الدولة التوسعية، أوقعها في حرج شديد، عندما سقطت التجربة التنموية اليابانية الأولى 1868-1945، وهو ما عنى أيضًا سقوط التجربة التربوية المتّبعة، والبحث عن بدائل ممكنة لعهد ما بعد الحرب. وتفرض علينا هذه الإشارة ضرورةَ تناول مبحث الطموحات التوسعية اليابانية على المستويات الفكرية والرمزية والثقافية، والمجالات العملية الإجرائية كما تجلت من خلال الأنموذج الإمبريالي الياباني من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

سادسًا: اليابان بين العسكريتاريا والإمبريالية

هل ارتبط مبدأ التحديث الياباني بطموحات التوسع الخارجي على حساب دول الجوار ككوريا والصين وروسيا؟ هل يوجد في مقدمات التغيير الرمزية والثقافية اليابانية ما يشير إلى بوادر نشوء فكر إمبريالي توسعي؟ هل فرضت

(296) <http://japan.jeeran.com/japaneseuniversities.html>.

(297) Oba, p. 6.

مقدمات الحرب العالمية الأولى هذا النمط من التفكير لدى الأوليغارشية اليابانية الحاكمة، مثلما ساد ذلك لدى بروسيا وطموحاتها التوسعية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ ألم تشكل ألمانيا الأنموذج المفضّل لقادة الميجي الذين جابوا أقطار العالم الرأسمالي، في أثناء بعثة إيواكارا وغيرها؟ ألم يشكل الدستور الألماني، وملامح القوة البروسية التوسعية الأنموذج/المثال لإيتو هيروبومي وقادة اليابان الجديد؟ ألم يكن انخراط اليابان في سيرورة التراكم الرأسمالي بداية منهجية للانتهاء في خضم الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية؟ ألم يقل فرانسوا كوشي إن «الإمبريالية اليابانية وليدة ثورة الميجي؟»[298].

تفصح ملامح الأسطورة اليابانية عن ملامح الاعتزاز بالانتماء إلى الأرض التي تشرق عليها الشمس قبل بقية الأقطار الأخرى. كما حكمت السلالة الإمبراطورية، في منطق الأسطورة، بتكليف من السماء. ونستخلص منها ملامح الأمة التي لا تشبه بقية الأمم الأخرى.

يمكن اعتبار فترة العزلة الطوعية التي دامت 250 عامًا شكلًا من أشكال الاكتفاء الذاتي على مستوى التنظيم الاجتماعي واستلهام الرموز المؤسسة لسلّم القيم الثقافية. كما دل الإقدام على إلغاء الوجود التبشيري المسيحي، على ذهنية الخوف من الاختراق الثقافي للذات اليابانية «المتميزة» عن بقية الأمم والشعوب.

في فترة الحرب، ومع تزايد موجة التوسع، كثرت الكتابات التي تمجّد الذات الأسطورية اليابانية؛ فقد صرح الأستاذ توماكي من جامعة كيوتو، عبر المذياع في عام 1942، قائلًا: «تمثل اليابان العمود الفقري للعالم، والمفروض أن يتوحد العالم حولها. ومن دون ذلك لن يسود السلام. فعندما يتحد العالم حول قوة واحدة، يتحقق السلام الأبدي»[299].

(298) François Cochet, *Comprendre la Seconde Guerre Mondiale*, principes: Culture générale; 597 (Levallois-Perret: Studyrama, 2005), p. 19.

(299) «Actual Japanese Quotes About the War,» p. 1, on the Web: <http://bookmice.nrt/darkchilde/japan/quotes.html>.

قبل ذلك في 1918، ورد في مجلة تايو: «يتحقق السلام، عندما يخضع العالم لسلطة واحدة. ويتجه العالم حاليًا نحو ذلك. والغاية النهائية من عملنا السياسي هي إخضاع العالم... ويجب على الأمة اليابانية، بسبب تاريخها المزدهر ومكانتها المتميزة، القيام بهذا الدور المحتوم»[300].

في عام 1942، كتب تاداهيكا إينايزومي: «لا تقتصر سلطة الإمبراطور على اليابان وحدها، لكنها تمتد إلى بقية الأمم الأخرى»[301]. وقريبًا من نظرية الفوضى الخلّاقة، قال يوسوك ماتسوكو في عام 1941: «لا تمثل حوادث منشوريا والصين حالة تدميرية للحضارات؛ بل يجب اعتبارها بداية ترسيخ السلام العالمي»[302]. وقريبًا من هذا المعنى، أكد شاكو سوين ضرورة الحرب وأهميتها، مدافعًا من خلالها عن «شرعية» المواجهة اليابانية مع روسيا في 1904-1905. فقد قال: «ليس من الضرورة أن تكون الحرب بشعة، بشرط أن تستهدف قضايا عادلة ونبيلة»[303]. وكانت اليابان، في اعتقاده، الدولة الوحيدة المؤهلة للقيام بهذا الدور «النبيل». وعندما كتب تولستوي إلى سوين طالبًا منه الدعوة إلى وقف الحرب والدعوة إلى السلام، رفض العرض، وزار المواقع الأمامية للجيوش اليابانية، بغرض تشجيعها على مواصلة «رسالتها الحضارية»[304].

مثلت هذه التنظيرات ذهنية يابانية خاصة، امتزجت من خلالها المعتقدات الأسطورية بالطموحات التوسعية. وتوسلت بأسطورة الخلق، لتأسيس منطق يميز التاريخ الياباني الطويل والممتد. وعندما عجز اليابانيون عن تصدير مفاهيمهم الثقافية خلال الفترات القديمة، انكفأوا على ذاتهم الثقافية ومارسوا عزلة طوعية عن محيطهم الإقليمي والدولي مدة 250 عامًا.

إذا كانت حملة بيري قد أحدثت زلزلة نفسية ووجودية عميقة لدى مجتمع

---

(300) المصدر نفسه، ص 1.

(301) المصدر نفسه، ص 5.

(302) المصدر نفسه، ص 5.

(303) David Loy, «Zen at War by Brian Victoria,» p. 1, on the Web: <http//www.bpf.org/tsangha/loy-victoria.html>.

(304) المصدر نفسه، ص 1-2.

النيبون، فذلك لأنها أخرجته من حالة النرجسية والكبرياء التي تراكمت آثارها على المستوى الداخلي خلال تلك الحقبة الطويلة من التاريخ. مع ذلك، كان اليابانيون أكثر واقعية وبراغماتية عندما استسلموا للضغط الأميركي، ووقّعوا الاتفاقات التي سمحت بإنهاء سياسة العزلة اليابانية، وشجع ذلك باقي الدول الكبرى على عقد اتفاقات مشابهة.

بذل اليابانيون الجهد، بعد استقرار عهد الميجي، لمراجعة الاتفاقات التي اعتبروها مجحفة. ومثّلت بعثة إيواكارا إلى البلدان المعنية محطة أساسية لمراجعة ما أُبرم في هذا المجال. صحيح أن البعثة الدبلوماسية والتعليمية لم تحقق أهدافها المرجوة، لكنها كانت المنطلق الذي أسس لأهمية استرجاع مقدمات السيادة القومية، والتخلص من القيود المفروضة على مجتمع النيبون.

رفع عهد الميجي شعار «بلد غني وجيش قوي». وفي أثناء تطبيق هذا الشعار وإدراك حجم الصراعات السياسية والعسكرية في أوروبا وآسيا، جرى التحول إلى مقولة «جيش قوي ويابان غنية». ولا شك في أن إعادة ترتيب الكلمات ساهمت بشكل كبير في تغيير هندسة المجال الجغرافي الحيوي لمجتمع الميكادو، والدفع به نحو خيار العسكريتاريا، وهو الخيار الذي استمات صايغو تاكاموري في الدفاع عنه حتى الموت، مختلفًا في ذلك مع باقي أقطاب الأوليغارشية الحاكمة، بحجة عدم نضج المناخ الدولي، آنئذٍ، في الشرق الأقصى لتقبّل المغامرة اليابانية في كوريا. وكانت «الأوليغارشية المحيطة بالميجي مقتنعة بوجاهة موقف تاكاموري، لكنها رفضت تنفيذ الفكرة، بسبب تكلفتها، ونتيجة الانشغال بتركيز الاستثمارات في مسيرة التحديث الاقتصادي»[305].

إذا كان اليابانيون قد احتفظوا بطاقة العنف في عام 1853، لأن ميزان القوى لم يكن متكافئًا بينهم وبين الأميركيين، فإن تحولات السياسة الدولية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شكلت متنفسًا حقيقيًا لتحريرها والتأسيس لمخارج موضوعية لانطلاقها وتوسعها. «ويعتبر عام

---

(305) Bill Gordon, «Japan's March Toward Militarism,» (March 2000), p. 1, on the Web: <http://wgordon.web.wesleyan.edu/papers/jhist2.htm>.

1894 محطة أساسية في هذه التحولات؛ فقد سجلت أول احتكاك مباشر بين اليابان والصين»[306]، بل يمكن القول إن الطموحات التوسعية اليابانية داخل الصين نفسها برزت في وقت متقدم؛ ففي عام 1871 وُقّع اتفاق بين الصين واليابان، طالب من خلاله المفاوضون اليابانيون «الاعتراف لليابان بالامتيازات نفسها التي قدمتها الصين إلى القوى الغربية، بعد حرب الأفيون. وقد رفض الوزير الصيني لي هونغ زهانغ المطالب اليابانية، مسوّغًا ذلك بأن القوى الغربية استعملت القوة لدفع الصين لتوقيع اتفاقات غير متكافئة»[307]، وهي رسالة فهم من خلالها المفاوض الياباني والدبلوماسية اليابانية أن القوة هي السبيل الوحيد لانتزاع مزايا اقتصادية مشابهة لما حصلت عليه القوى الإمبريالية الأخرى.

يبدو أن العهد الجديد بدأ يرسم ملامح سياسة ديموغرافية «تعتبر العائلات الكثيرة الأفراد دليلًا على حيوية البلاد»[308]. وأُسست، بمقتضى هذا المنطق الديموغرافي، مجموعة من الإشارات التوسعية، وفي مقدمها سياسة التجنيد الإجباري التي عرفت مجموعة من التحولات[309] التي دفعت إلى عسكرة المجتمع ووضعه في حالة تأهب قصوى لمواجهة أي طارئ سياسي أو عسكري محتمل. ودُعم ذلك بالتسليح البري والبحري باقتناء السفن الحربية الحديثة، خصوصًا من إنكلترا.

تمحور عنصر الصراع بين الصين واليابان حول مسألة السيطرة على كوريا، ودخل البلدان في صراع حول مراكز النفوذ السياسي والمجالي

---

(306) Renouvin, p. 139.

(307) Dorothy Perkins, *The Samurai of Japan: A Chronology from their Origin in the Heian Era (794-1185) to the Modern Era* (Upland, PA: Diane Pub. Co., 1998), p. 98.

(308) Renouvin, p. 140.

(309) نظّم قانون 1873 قواعد التجنيد الإجباري، ونصّ على إمكانية استدعاء الذكور الذين تراوح أعمارهم بين 17 و40 عامًا لأداء الخدمة العسكرية مدة ثلاثة أعوام. جرى إجراء تعديلات عدة على هذا القانون في الأعوام 1897 و1883 و1889، فأضحى أكثر صرامةً من ذي قبل. فإذا كان القانون الأول وضع مجموعة من الاستثناءات تُسقط الخدمة العسكرية عن مجموعة من الأشخاص، مثل وحيد أبويه، وعدم سريان القانون على جميع أفراد العائلة الواحدة، فإن القوانين الجديدة ألغت هذه الاعتبارات، ومددت فترة التجنيد إلى أربعة أعوام، ثم إلى سبعة أعوام، ومن ثم إلى تسعة أعوام. انظر: المصدر نفسه، ص 140-141.

داخلها[310]. وأصيب العالم بدهشة «كبيرة عندما استطاعت اليابان بسهولة أن تهزم جارتها العملاقة.. و.. نجحت اليابان في إبعاد النفوذ الصيني عن كوريا، ثم ضمّت جزيرة تايوان لتبدأ تكوين إمبراطوريتها مقلدة في ذلك الدول الغربية الكبرى»[311].

أبانت الجيوش اليابانية عن حسن تنظيمها ودقته في المجالين البري والبحري. ونجح الجنرال ياماغاتا أريتومو[312] في دحر القوات الصينية في بيونغ يانغ، والزحف في اتجاه الشمال، حيث تمكنت القوات اليابانية من دخول إقليم منشوريا. إضافةً إلى ذلك، اتجهت حملات الجنرال أوياما ياو[313]، نحو الجنوب، وهو ما فرض على الصينيين فتح قنوات دبلوماسية للتفاوض[314]، فشكّل ذلك بداية توقيع اتفاق شيمونوسكي في 17 نيسان/ أبريل 1895 في هيروشيما. ونص الاتفاق على مجموعة من القضايا، منها رفع الوصاية الصينية عن كوريا، والتمهيد نظريًا لاحتلالها من جانب اليابان. كما تخلّت «الصين لليابان عن فرموزا - تايوان - وجزر البيسكادورس، وجزء كبير من جزيرة لياو- تونغ، والتزمت دفع غرامة حربية، قدرها 750 مليون فرنك..»[315].

وكشفت مجريات الحرب عن وجود تنظيم عسكري ياباني حديث وفاعل، استُلهم بعض أسسه من التنظيمات العسكرية الغربية؛ فقد «تبنّى الجنرال ياماغاتا

(310) وردت إشارات مفصلة بدقة عن عمليات الصراع بين اليابان والصين حول كوريا في: المصدر نفسه، ص 139-150.

(311) رايشاور، ص 125.

(312) ياماغاتا أريتومو (1838-1922): سياسي وعسكري ياباني، من مؤسسي الجيش الإمبراطوري. تمكن من الانتصار على انتفاضة الساموراي بقيادة صايغو تاكاموري (1877). تقلد مناصب عسكرية وسياسية سامية، منها وزير الحربية في عام 1972، والوزير الأول في 1889-1891 و1898-1900، ووزير الحربية في عام 1898.

(313) الجنرال أوياما إياو (1842-1916): من أبرز مؤسسي الجيش الإمبراطوري، ينتمي إلى إحدى أسر الساموراي من مقاطعة ساتسوما؛ ساهم بدور أساس في إطاحة نظام التوكوجاوا وإعادة السلطة إلى الإمبراطور. قاد جزءًا كبيرًا من العمليات الحربية ضد الصين في عام 1894 وروسيا القيصرية في عام 1905. استحق معها تكريم الإمبراطور وتقديره.

(314) «Guerre sino-japonaise 1894-1895,» in: Microsoft Encarta (CD., 2007).

(315) Renouvin, p. 148.

أريتومو - وهو من أفراد البعثات التعليمية التي تكونت في الغرب - الأنموذجَ العسكري الألماني، مستبدلًا به النظام العسكري الفرنسي، ونظيره البحري البريطاني الذي أخذ بهما شوغونات التوكوجاوا»[316].

أفرزت الحرب واقعًا جيوسياسيًا جديدًا بيّن بروز قوة حقيقية في الشرق الأقصى. كما دل هذا الانتصار على قضية ثقافية بالغة الأهمية؛ فقد شدد فلاسفة الميجي ومنظّروه الأيديولوجيون، من أمثال فوكوزاوا يوكيتشي ونيشي أمان، على ضرورة القطيعة مع الثقافة الصينية، ومثّلت «الحرب الصينية - اليابانية دليلًا عمليًا على هذا الاتجاه، واعتُبرت مواجهة بين الحضارة والبربرية»[317].

لم تستسغ روسيا القيصرية رؤية الانتصارات العسكرية السياسية ليابان الميجي، ورأت فيها تهديدًا لكيانها الاستراتيجي في المنطقة. وفي هذا الإطار، أقامت روسيا تحالفات وتوافقات سياسية مع بعض القوى الغربية لإبعاد خطر الزحف الأصفر المرتقب؛ ففي «18 نيسان/أبريل طالبت روسيا كلًّا من فرنسا وإنكلترا وألمانيا بانتهاج سياسة جماعية تجاه حكومة طوكيو من أجل الضغط عليها لإخلاء لياو تونغ»[318]. كما اقترحت على الحكومة الصينية ضمان دفع جزء من الغرامة الحربية، لكسب ودها الدبلوماسي وممارسة نوع من الحصار على بلاد النيبون. وبالفعل، فبعد «انتهاء الحرب الصينية - اليابانية مباشرة في عام 1895، قدّم وزير المالية ماستيكاتاي مازايوشي[319] إلى الوزير الأول إيتو[320]

(316) Dorothy Perkins, *Japan Goes to War: A Chronology of Japanese Military Expansion from the Meiji Era to the Attack on Pearl Harbor, 1868-1941* (Collingdale, PA: DIANE Pub. Co., 1997), p. 49.

(317) Yves Bougon, «Le Japon par lui-même. 2. Réapprendre la Chine,» *Critique international*, no. 5 (Automne 1999), p. 60.

(318) Renouvin, p. 151.

(319) ماستيكاتاي مازايوشي (1835-1924): رجل قانون ياباني، ينتمي إلى مقاطعة ساتسوما، وهو أحد الوجوه البارزة في مسلسل التحديث الياباني، تولّى وزارة المالية (1881-1891)، وأصبح وزيرًا أول بين عامي 1991 و1992، وفي الفترة بين عامي 1896 و1897، كما كان أحد أعضاء الجنرو البارزين.

(320) إيتو هيروبومي (1841-1909) من أبرز الساسة اليابانيين الذين أقاموا أركان النظام الإمبراطوري الياباني. أرسلته المقاطعة التي كان ينتمي إليها (شوتشو)، في بعثة دراسية إلى بريطانيا في عام 1863، وولّد ذلك لديه وعي حجم التأخر الذي كانت تعيشه اليابان. تولى مناصب سياسية عدة، منها الوزارة الأولى أربع مرات: 1885-1888؛ 1892-1896؛ كانون الثاني/يناير 1898 - حزيران/يونيو 1898؛ 1900-1901.

مشروع قانون بعنوان 'مقترحات حول مستقبل نظام التمويل'»[321]. واحتلت المسألة العسكرية مكانة متقدمة لضمان القطاعات المستفيدة من الدعم المالي المقترح[322]، وهو ما يفسر بلغة الأرقام، التأهب لمرحلة جديدة من الصراعات والحروب، على المديين القريب والمتوسط.

اقتنع صنّاع القرار الياباني بضرورة بناء تصور استراتيجي جديد، خصوصًا بعد ردّات الفعل الروسية الغاضبة والمتوجسة من احتلال اليابان جزءًا كبيرًا من جزيرة لياو تونغ الاستراتيجية؛ فشرعوا في التأسيس لمرحلة الانتقال من سياسة الدفاع إلى خيار الهجوم. لكن الواقع السياسي الذي فرضته روسيا القيصرية، بتوافق مع فرنسا وألمانيا، ألزم اليابانيين التخلي عن الجزيرة المحتلة، في انتظار الاختلال الذي يمكن أن يحدث داخل التحالفات والتحالفات المضادة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ومهّدت لها. وفي هذا الإطار صرح أريتومو ياماغاتا، الوزير الأول الياباني في عام 1898، وهو أحد المثقفين الذين درسوا في الجامعات الغربية، قائلًا: «خلال الأعوام العشرة المقبلة، سندخل في مجابهة عسكرية جديدة، وحينذاك لن يكون عدوّنا الصينُ أو كوريا، بل فرنسا وروسيا»[323].

علاوةً على ذلك، تزايد حجم الإنفاق العسكري، خصوصًا في امتلاك القطع الحربية البحرية المتطورة، وفي الاستعانة بالخبراء الأجانب لتحسين نوعية الأداء التقني والاستراتيجي في مجال المواجهة والحروب. فبدأت اليابان «في التخطيط لإنشاء قوة بحرية، وذلك ببناء 24 قطعة حربية، تتضمن بوارج، وطرادات، و86 زورق طوربيد، وكان عام 1903 نهاية المدة الزمنية لتنفيذ هذا المشروع»[324].

---

(321) Banno Junji, *The Establishment of the Japanese Constitutional System*, Translated by J. A. A. Stockwin, Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series (London; New York: Routledge, 1992), p. 85.

(322) اعتُمد في وضع الجدول على الأرقام التي تضمنها: المصدر نفسه، ص 86-87.

(323) Charles A. Kupchan [et al.], *Power in Transition: The Peaceful Change of International Order*, with the Assistance of Jason Davidson and Mira Sucharov (Tokyo; New York: United Nations University Press, 2001).

(324) Renouvin, p. 209.

وفي هذا الوقت، كانت روسيا القيصرية، بمشكلاتها الداخلية، تتوسل بالتوسع الخارجي لتأجيل اندلاع الأزمة الداخلية، وللحفاظ على مصالحها الحيوية في الشرق الأقصى، فتمكنت من إنهاء النفوذ الياباني في الصين، ومن مراجعة اتفاق شيمونوسكي السابق. وفي هذا الإطار حرّضت روسيا «ألمانيا وفرنسا على الانضمام إليها لإجبار اليابان على الانسحاب من شبه جزيرة منشوريا. وعندما استولت روسيا بالقوة على تلك المنطقة المتنازع عليها، كانت (اليابان) قد لُقّنت درسًا من دروس سياسات القوة شديد المرارة»[325].

يجيد اليابانيون كبح ردات الفعل العاطفية، لكنهم يتقنون أيضًا مبدأ الاستعداد، وتخزين طاقة العنف والقوة، وتحريرها في اللحظة الملائمة والحاسمة.

يورد أو يونغ لي حكاية معلم الحرب مياموتو موزاشي[326] (1548-1645)، وملخصها أن شابًا يابانيًا ألح على موزاشي أن يعلّمه فنون الحرب للانتقام من قاتل أبويه. وبالفعل حمل الشابُ السيفَ، وعوض تدريبه على تقنيات المبارزة، اكتفى المعلمُ، في بداية الأمر، بتمرينه على اتخاذ الوضعية السليمة. وعندما تهيأ للمبارزة، قصد غريمَه، ووجّه إليه عبارات نابية، ثم قام بعصب عينيه. وعندما أحس أن عدوه يوشك أن يهاجمه، امتشق سيفه، واكتفى، فقط، بالوقوف في وضعية سليمة. وبدأ القاتل بالضرب بسيفه يمينًا ويسارًا، وبسبب عدم وجود ثغرات في تموقع الشاب، فقد ترك عدوه يسبح في بركة من الدماء بضربتين من سيفه[327].

تفصح القصة عن سمة نفسية تميز الفرد والجماعة في اليابان، تقوم على أساس التركيز الذهني، وتخزين عناصر القوة وانتظار الوقت الملائم للهجوم

---

(325) رايشاور، ص 125.

(326) مياموتو موزاشي (1584-1645)، من أشهر الساموراي في تاريخ اليابان. بدأ القتال وهو في الثالثة عشرة، وخاض أكثر من 60 مبارزة في حياته القتالية، كما شارك في معركة سكيغاهارا التي سبق أن أشرنا إليها، وأسس أسلوبًا قتاليًا خاصًا في اليابان يعتمد على استعمال سيفين في لحظة واحدة، وما زالت مدرسته قائمة إلى الآن في اليابان.

(327) Lee, p. 44.

الساحق والمميت. واستنتج أو يونغ لي من القصة «الأسباب التي مكّنت اليابانيين من الانبعاث من رماد الحرب العالمية الثانية، وتأسيس قوة اقتصادية معروفة لدى الجميع»[328]. ويمكن قراءة مجمل التحولات التي شهدتها السياسة الخارجية اليابانية قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى ضمن هذه الثنائية: التموضع الجيد/ الهجوم.

حاول اليابانيون إجراء مقايضات مجالية مع روسيا[329] المتحالفة عسكريًا مع فرنسا، لكن محاولاتهم لم تحقق الودّ الدبلوماسي بين الطرفين، وكان من الطبيعي أن يحصل الخلاف بين القوتين بسبب تشابه تطلعاتهما التوسعية داخل مجال جغرافي واحد ومحدد، هو كوريا ومنشوريا. لكن اليابانيين اضطروا، بعد أن رفضوا سابقًا عقد اتفاق عسكري مع بريطانيا، إلى فعل ذلك؛ فبعد مشاورات دبلوماسية، عبّر السفير الياباني في لندن، في 17 نيسان/ أبريل 1901، لوزير الخارجية البريطاني عن رغبة بلاده في عقد اتفاق مرحلي مع بريطانيا «لحماية مصالحهما في الشرق الأقصى»[330]. وانتهت المشاورات بإبرام اتفاق تحالف في 30 كانون الثاني/ يناير 1902، لمدة خمسة أعوام[331]، وبشروط محددة. وساهمت بنود هذا الاتفاق في ممارسة نوع من الكبح أمام الطموحات التوسعية الروسية.

لكن روسيا القيصرية فرضت وصاية حقيقية على الحكومة الصينية، عندما ألزمتها «عدم منح جزء من منشوريا لطرف ثالث (اليابان)، وعدم السماح بالتجارة الأجنبية في مدن جديدة من دون موافقة الحكومة الروسية»[332]،

(328) المصدر نفسه، ص 44.

(329) تجلّت المقايضات السياسية بين الطرفين في العرض الذي تقدم به الوزير الأول إيتو هيروبومي، في سان بطرسبورغ، وكان ملخّصه السماح لليابان بإطلاق يدها في احتلال كوريا، وردّ الروس على ذلك بالسماح لهم بالامتياز نفسه في منشوريا، لكن ذلك لقي معارضة يابانية بدعم من الإمبراطور.

(330) Renouvin, p. 213.

(331) حدد بيير رينوفين مدة الاتفاق بخمسة أعوام، في حين ذكر رايشاور أن المدة كانت ثلاثة أعوام: رايشاور، ص 125.

(332) Renouvin, p. 218.

وهو ما عنى محاولة جر اليابان إلى حلبة النزال العسكري. وكان ثمة فرصة لقيام الدبلوماسية الدولية بوساطاتها، لكن يبدو أن هذه الأخيرة لم تكن راضية عن سياسة التوسع القيصري، ولم تجد محاولاتها آذانًا صاغية لدى المتخاصمين. وقد كتب وزير الخارجية الياباني في عام 1903، أي قبل اندلاع الحرب الروسية - اليابانية، تقريرًا أوضح فيه ما يلي: «لشبه الجزيرة الكورية موقع استراتيجي متميز بالنسبة إلى اليابان، وهي بمنزلة خنجر يقع بين اليابان والصين. ولو سيطرت قوة أخرى على شبه الجزيرة، فإنها تكون في صدد غرز الخنجر في قلب اليابان، وعلى اليابان أن تحول دون حصول ذلك في أي وقت، وفي أي حال من الأحوال»[333].

اختارت اليابان لغة الهجوم للحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في منطقة تزايد فيها التسابق المحموم لكسب مزيد من مواقع النفوذ الاقتصادي. وكان على مجتمع النيبون أن يؤكد حضوره الفعلي بنهج سياسة توسعية صارمة. لذا، أظهرت اليابان مرة أخرى قدرتها العسكرية المتميزة، «وأمام دهشة العالم كله انتصرت اليابان.. وهي تكتسح أمامها القمة الجنوبية من جبال منشوريا الاستراتيجية، والنصف الجنوبي من الخطوط الحديدية الروسية الممتدة في منشوريا والنصف الجنوبي من جزيرة سخالين»[334]. ففي 2 كانون الثاني/ يناير 1905، «استسلم الجنرال الروسي أناتولي ستويس للقوات اليابانية بعد حصار مدينة بورت آرثر مدة 10 أشهر و20 يومًا، والذي خلّف 8000 قتيل روسي. وأفسح احتلال المدينة الطريق أمام اليابانيين لاقتحام إقليم منشوريا الصيني»[335].

كان الانتصار مدوّيًا، واعتبرته القوى الغربية أول انتصار آسيوي على دولة غربية في العصور الحديثة. ورأت فيه اليابان دليلًا على «صحة» مقدماتها التحديثية، وهو ما منحها مزيدًا من الثقة والشجاعة في مواصلة سعيها نحو

---

(333) <http://rki.kbs.co.kr/arabic/korea/korea_click_detail.htm?No=1313>.

(334) رايشاور، ص 125.

(335) Capitulation russe à Port-Arthur, sur le web: <http://www.linternaute.com/histoire/motcle/evenement/1159/1/a/48609/capitulation_russe_a_port-arthur.shtml>.

الغايات التنموية التي أسسها عهد الميجي. وتردد صدى هذا الانتصار في معظم بلدان العالم الإسلامي، في تركيا ومصر وبلاد الشام والمغرب[336]. ويأتي اهتمام هذه الدول بهذا الانتصار بسبب سياسة التوسع والاستغلال التي انتهجتها روسيا في شأن الدولة العثمانية وأقاليمها المتناثرة، وبسبب التعاطف من منطلق المشترك الديني مع دولة الخلافة الإسلامية. وفي هذا الشأن نظم الشاعر المصري حافظ إبراهيم قصائد تؤرخ الإعجاب بالانتصار الياباني على روسيا القيصرية، ومما جاء في قصيدة «الحرب الروسية اليابانية»:

«أتى على الشرق حين إذا ... ما ذكر الأحياء ما لا يذكر
ومر بالشرق زمان وما ... يمر بالبال ولا يخطر
حتى أعاد الصفر أيامه ... فانتصف الأسود والأسمر
فرحمة الله على أمة ... يروي لها التاريخ ما يؤثر»[337]

وفي قصيدة أخرى بعنوان «غادة اليابان»، وصف موقف فتاة يابانية، تلح في العودة إلى بلادها والقيام بواجبها الوطني. وعبّرت عن ذلك قائلة:

«أنا يابانية لا أنثني ... عن مرادي أو أذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرمي ولم ... تستطع كفاي تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضي حقهم ... وأواسي في الوغى من نكبا
هكذا الميكادو علّمنا ... أن نرى الأوطان أمًّا وأبا»[338]

منح الانتصار الياباني دعمًا معنويًّا، وأكد إمكانية الانتصار والانفلات من قبضة القوى الإمبريالية؛ لكن ذلك لم يتحقق لليابانيين إلا بالمكابدة

(336) تردد الانتصار الياباني على الصين وروسيا في مشروع دستور 1908، حيث فُصل في ضرورة استلهام التجربة اليابانية.

(337) حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، 2 ج في 1 مج (بيروت: دار العودة، 1996)، ج 2: السياسات - الشكوى - المراثي، ص 10-14.

(338) المصدر نفسه، ص 7-10.

الشاقة الطويلة في بناء مسيرة التنمية المجتمعية. وكان يحتاج، لاستلهام معانيه ودلالاته في عالمنا الإسلامي، إلى اكتشاف علل الذات، والتقاط نقط القوة المتناثرة والمبعثرة، وتوظيف عقلية الابتكار وهندسة الفضاء المجتمعي، وإنتاج رموز القوة الكامنة وتفعيلها في القيم الثقافية، والدفع بخيار الوحدة والتنمية على أساس فكرة العقد الاجتماعي. وهي مقدمات لم نجد لها مكانًا في الحركة الفعلية لعجلة الفعل السياسي والاجتماعي في عالمنا الإسلامي.

يمكن القول إن اليابان دخلت، بانتصارها على كل من الصين وروسيا، نادي الكبار، وأصبحت القوى الكبرى تأخذ وجودها ودورها في الاعتبار في رسم ملامح العلاقات الدولية في الشرق الأقصى. والملاحَظ أن أفراد البعثات التعليمية اليابانية هم من هندسوا مختلف المشروعات العسكرية والاتفاقات السياسية بخصوص الصراع في منطقة الشرق الأقصى في فترة ما بين الحربين، وخططوا لها ونفذوها.

اقتنع الأميركيون بضرورة التدخل لتأكيد وجودهم في المنطقة، وللدفاع عن مصالحهم الاستراتيجية في منطقة المحيط الهادئ. وقاموا بالتوسط بين البلدين، وأشرفوا على توقيع معاهدة بورتسموث في 15 أيلول/ سبتمبر 1905، بحضور الرئيس الأميركي تيودور روزفلت. لكن في ردة فعل على سياسة التوسع الياباني، اتخذت الإدارة الأميركية الكثير من الإجراءات التي استهدفت من خلالها الحد من النفوذ الياباني، وإرسال إشارات تنبيه إلى اليابان بشأن الخطوط الحمر التي لا يجوز لها تجاوزها، ومنها منع الهجرة اليابانية إلى الولايات المتحدة. كما أسّست نقابات سان فرنسيسكو خلال الحرب اليابانية - الروسية، في أيار/مايو 1905، «رابطة طرد اليابانيين»، وخصصت سلطات ولاية كاليفورنيا فصولًا دراسية للأطفال اليابانيين والصينيين، درءًا لأي اتصال لهم بالأطفال الأميركيين[339].

ازدادت تخوفات الأميركيين بعد حصولهم من مصادر رسمية ألمانية وإنكليزية «على معلومات تفيد بوجود استعدادات يابانية للاستيلاء على جزر

(339) Renouvin, p. 231.

الفلبيين أو جزر الهاواي»[340]، الخاضعة للنفوذ الأميركي، الأمر الذي دفع الرئيس روزفلت إلى إصدار أوامره بتنظيم الأسطول البحري الأميركي جولة عبر العالم، مرورًا بالمحيط الهادئ، «وكان الغرض من ذلك توجيه تحذير مبطن إلى اليابانيين لتجنب الحرب»[341]. ووعى اليابانيون الرسالة جيدًا، كما وعوا من قبل الرسالة التي وُجهت إليهم من خلال حملة بيري، الأمر الذي دفعهم إلى توقيع اتفاق 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1908 الذي أكد «مبدأ الحفاظ على الوضع القائم في الشرق الأقصى، واحترام كل طرف الممتلكات الترابية للطرف الآخر، واستقلال الصين، وسياسة الباب المفتوح»[342].

اتسم أسلوب التعامل الغربي مع اليابان بالندّية والاعتراف لها بالقوة، وهو ما جعل منها رقمًا صعبًا في المعادلة الدولية القائمة آنئذٍ. «ونجح تحالف الإمبراطور وكبار العسكريين والاحتكارات الكبيرة بتحويل اليابان بسرعة كبيرة إلى دولة معسكَرة تقودها نزعة إمبريالية متعطشة إلى مزيد من الانتصارات، والحروب التوسعية والتمدد الاقتصادي، والتوظيف المالي في الخارج. وباتت الخطط التوسعية الموجّه الحقيقي للسياسة اليابانية منذ انتصار الجيش الياباني على الصين عام 1894م حتى الحرب العالمية الثانية»[343].

يبرز أمامنا تساؤل عن أسباب موجة العنف القوية التي أظهرها المجتمع الياباني، بعد مرحلة طويلة من العزلة عن العالم الخارجي. وأختلف هنا مع من يقول إن استخدام العنف والقوات المسلحة «تقليد ياباني قديم، يرتبط بمشاعر الشرف والكرامة لدى اليابانيين»[344]؛ فالمؤكد أن اليابانيين اكتشفوا من خلال اتصالهم بالغرب وإدراكهم أسباب تقدمه، أن القوة معيار أساس وشرط وجوب تأكيد الوجود الذاتي، المعنوي والمادي، أمام القوى المتربصة، خصوصًا بعد اكتشافهم مآل الصين في حروبها مع القوى الغربية في أثناء حرب الأفيون، وتداعياتها السلبية على السيادة الصينية. وهكذا،

---

(340) المصدر نفسه، ص 223.

(341) المصدر نفسه، ص 234.

(342) المصدر نفسه، ص 234.

(343) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 91.

(344) رشاد، ص 79.

«أدّت الحرب والعسكرية اليابانية دورًا بارزًا في مسيرة التطور السياسي في اليابان»[345]، بسبب العوامل الموضوعية التي عرفتها منطقة جنوب شرق آسيا خلال الفترة المذكورة.

يبدو من خلال المعطيات المسجّلة أن على الرغم من عدم تكافؤ ميزان القوى العسكري، تمكنت اليابان من تحقيق النصر بسبب الأوضاع الداخلية المواتية التي اتسمت بنمو وحدة الشعور القومي الذي حققه عهد الميجي، وكذا بسبب المناورات الدبلوماسية اليابانية؛ إذ نجحت في تحييد مواقف مجموعة من القوى الغربية، وتمكنت من تطوير تقنياتها العسكرية، خصوصًا في المجال البحري.

في المقابل، انطلقت روسيا القيصرية في حربها ضد اليابان وهي مثقلة بحجم المشكلات الداخلية الناجمة عن السلطة الاستبدادية، والسياسة الجبائية الصارمة والمتشددة تجاه فئات واسعة من المجتمع الروسي، وفي مقدمها طبقة الفلاحين.

كلفت «الحرب الروسية - اليابانية حكومة الميكادو مبلغًا قدره مليارًا و986 مليونًا، استدانت اليابان من الولايات المتحدة وبريطانيا قسمًا منه، لكن انتصارها مكّنها من وضع يدها على كوريا ومنشوريا»[346]، مع ما عنى ذلك من استيلاء على إمكانات اقتصادية متميزة.

تأكد اليابانيون، بعد انتصارهم على روسيا والصين، أنهم بالفعل «أمة متفوقة». ومكّنهم ذلك من الاعتزاز بمقدماتهم الأسطورية التي سبق أن فصّلنا فيها، وشجعهم على الاستمرار في التوسع في جنوب شرق آسيا. وتسبب ذلك في حدوث «مزيد من الثقة بالقدرة اليابانية والاقتناع بأن هناك رسالة يحملها اليابانيون بالفعل، وبأنهم غدوا أبطال آسيا في مواجهة الغرب»[347]. وكان

---

(345) المصدر نفسه، ص 79.

(346) Mitsuteru Eri, «Le Japon avant 1905 et le processus de la guerre russo-japonaise,» dans: *Le Maroc de l'avènement de Moulay Abdelaziz à 1912: Actes de l'université d'été, Mohammédia, 21-31 Juillet 1987* (Mohammedia: Impr. de Fédala, 1989), vol. 3, p. 256.

(347) قنديل، ص 10.

من الطبيعي أن يقع احتكاك بالقوى الغربية، وفي مقدمها الولايات المتحدة الأميركية التي كانت لها مصالحها الحيوية في المنطقة. ولا شك في أن هذه التحولات الاستراتيجية سمحت لليابانيين بالانتقال من هدف اللحاق بالغرب إلى طور منافسته، والتفوق عليه.

إن ما لا شك فيه أن الذين صنعوا هذه الانتصارات العسكرية والسياسية كانوا من المتعلمين اليابانيين الذين درسوا في الجامعات الأميركية والأوروبية، وتقلدوا مناصب سامية منذ بداية عهد الميجي، كما سنرى ذلك لاحقًا.

خاتمة

حاولنا من خلال هذا الفصل تأكيد ميزة الاستمرارية وخاصية التراكم كعمق استراتيجي في التاريخ الياباني؛ إذ يرى اليابانيون حركة الميجي إنتاجًا يابانيًا خالصًا تحقق عبر فترات زمنية متعاقبة، ترجع بداياتها الأولى إلى عهد حكم أسرة التوكوجاوا؛ فخلالها ترسخت ملامح نظام سياسي صارم، نجح في تحقيق الأمن بعد سلسلة من الحروب الدموية بين أمراء الإقطاع. ويبدو أن المجتمع انخرط طوعًا وكرهًا في مساندة قرارات النظام الجديد والامتثال لها، بعد أن اكتوى بالنتائج الكارثية التي صاحبت الفترات الدموية السابقة. وقد سمح هذا التوجه الجديد باختصار الجهد وتوفير إمكانات البناء الداخلي. كما ساهمت العزلة الطوعية التي عرفتها اليابان مدة 250 عامًا في تحقيق نضج كافٍ لبلورة مفهوم الدولة وما حققته من مزايا متعددة، من أهمها ميزة الأمن الداخلي والخارجي، والاعتزاز بخاصية الانتماء، والاكتفاء الذاتي على مستوى إنتاج القيم الثقافية.

من جانب آخر، حققت التعاليم الكونفوشيوسية الاستقرار المجتمعي المتميز، بسبب تعاليمها الداعية إلى الطاعة وبناء السلم الاجتماعي. لكن في عام 1853، وبسبب التحديات التي فرضتها القوة البحرية الأميركية، استنفد حكم التوكوجاوا أغراضه التاريخية، ولم يتردد اليابانيون في الانتقال إلى طور جديد يسائل الذات ويؤسس لخيار التحديث والإصلاح. وقد توافرت لليابان خلال هذه الفترة المواد الخام الضرورية لتغيير المواقع واختيار الأكثر ملاءمةً

منها. وما كان لهذا التغيير أن يحدث من دون قبائل شوتشو وساتسوما وهيزن وتوزا؛ فقد امتلكت هذه المجموعات/ المقاطعات حسًّا تاريخيًّا متميزًا مكّنها من التقاط خصوصيات اللحظة التاريخية الحرجة التي كان يمر بها مجتمع النيبون، وتمكنت من إطاحة النظام السياسي القديم، وتأسيس سلطة بديلة تحمل معاني النبل والقدسية، هي سلطة الإمبراطور.

يبدو أن اليابانيين كانوا أكثر فهمًا للظاهرة الغربية من بقية الشعوب الآسيوية؛ إذ تنبهوا على وسائل مدافعتها ومنافستها في زمن وجيز، بشكل يدل على وجود تفكير استراتيجي، تراكمت آثاره منذ فترات قديمة. وقد مكّن ذلك من تحقيق الانسجام/ التعاقد بين مجتمع يختزن عناصر القوة غير المرئية (الفكر الجماعي، البناء الأسطوري...)، ودولة وطنية تتجه نحو الأخذ بزمام التقانة والعلم التطبيقي ومنافسة القوى الغربية والتفوق عليها. وتطلب ذلك ضرورة إحداث آليات تمكّن من تحقيق تناغم بين القاعدة المجتمعية والقمة السياسية. وتجلى أبرز مظاهر ذلك في إحداث قطيعة صارمة مع النظام الفيودالي وملحقاته الاجتماعية والسياسية والإدارية، تشبه إلى حد كبير ما أصدرته الجمعية التأسيسية الفرنسية بعد ثورة 1789، حين ألغت البرجوازية الفرنسية بقايا النظام السابق، ووضعت في مكانه سكة تنموية جديدة حقّقت بداية الانطلاق المؤسساتي لفكر الأنوار، على مستويات الحرية والمساواة وفكرة العقد الاجتماعي. ولم يتأخر اليابانيون كثيرًا، فألغوا النظام الطبقي السابق، وأسسوا مبدأ الترقي الاجتماعي عن طريق التعليم والكفاءة المهنية.

ساهمت المدرسة اليابانية، بما توافر لها من مخزون تاريخي إيجابي، في بلورة رؤية إصلاحية للدولة والمجتمع. واستفادت من انتظام هذا الأخير وانضباطه، ونجحت في تحقيق استمرارية تعليمية محلية بأدوات تقنية غربية وبروح يابانية خالصة. ولعل ذلك ما يفسر تحقيق تلك النِّسَب المرتفعة من معدلات التمدرس في أواخر عهد الميجي. إلا أن حجم التطورات الدولية وقلق اليابان الإمبريالية على مصالحها الحيوية في شرق آسيا دفعها إلى عسكرة مجتمع النيبون والتركيز، في مدونة التعليم، على العناصر التي تمجد الذات اليابانية، وتحمّلها مسؤولية «تمدين» بقية الشعوب الآسيوية. ولأن المجتمع

هو المحدد الأساس في نجاح أي رؤية تنموية، ساهمت الجماعية اليابانية بدور متميز في احتضان التوجهات الإصلاحية الجديدة، والتأسيس لعناصر الفاعلية والنجاعة.

حاولنا من خلال هذا المبحث توضيح نمو فكرة الجماعية وارتباطها الوثيق بإكراهات الواقع الذي فرض الانسجام والانتظام في جماعات متجانسة الأهداف والمصالح. وساهم الغطاء الأيديولوجي والأخلاقي الكونفوشيوسي في منحها طابع القداسة والإلزام. وقد فصّلنا الحديث في نمو النزعة العسكرية اليابانية وتطورها، على أساس أن أبرز قادتها السياسيين وجنرالاتها العسكريين متعلمون يابانيون أوفدهم العهد الجديد لمتابعة دراساتهم وتخصصاتهم العليا في دول الغرب الرأسمالي.

الفصل الثالث

المجتمع والسلطة في المغرب واليابان أي علاقة؟

«كانت الفرصة سانحة أمام المغرب ليتقدم إلى الأمام خطوات لو أنه خطاها لصار أعلم وأقوى حتى من بلاد اليابان التي كانت تغرق في حمأة التخلف والخرافات والتمسك بمقدسات وهمية كانت كالقيود في الأرجل والسلاسل والأغلال في الأعناق».

محمد داود

بدأتُ موضوع المقارنة منذ البداية، وأثرتُ الكثير من القضايا السياسية والمجتمعية والثقافية في كلٍّ من اليابان والمغرب، ابتداءً من التقديم والفصلين الأول والثاني؛ فالدراسات التاريخية المقارنة تؤدي دورًا محوريًّا في فهم آليات التغيير والإصلاح والتواصل مع الذات ومع المغاير الثقافي والحضاري واستنتاجها. كما تمكّننا من الكشف عن التناقضات المسؤولة عن عملية السقوط والفشل التنموي. ومثلما نستدل على قيمة ضوء النهار بعتمة الليل، وعلى المؤشرات الموجبة بالقيم السالبة، وعلى الخير بالشر، فإن فشل مشروع إصلاحي معيّن لا تتحقق مقاربته، بشكل منهجي ودقيق، إلا بمقارنته بضده الذي حقق النجاح والفاعلية.

من هذه الزاوية، أرى أهمية مساءلة فشل تجربة البعثات التعليمية المغربية (1844-1912) بعكسها على مرآة مثيلتها اليابانية (1853-1945). واستلزم

ذلك فحصَ مقدماتها المجتمعية والسياسية والثقافية والرمزية داخل البلدين خلال الفترة المذكورة. وانسجامًا مع مباحث الفصلين الأول والثاني، بدأت المقارنة بالتفصيل في هذه المقدمات؛ واعتبرت الصورة/ الوثيقة مدخلًا ملائمًا يمكّن من التشكيك في المقولات السابقة التي كانت تؤكد «تأخر اليابان وانحطاطها الحضاري» خلال عهد الإيدو، وذلك باستقصاء درجة حضور الموضوع الياباني في الكتابات والدراسات المغربية منذ بداية العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة.

لذا أوليت في هذا البحث عناية خاصة بأدب الرحلة لدى كل من محمد الصفار وفوكوزاوا يوكيتشي؛ فارتأيت تخصيص مبحث خاص للمقارنة بين أدب الرجلين لدوريهما المباشرين وغير المباشرين في موضوع البعثات التعليمية إلى الديار الغربية.

أولًا: اليابان بعيون مغربية

نود في البداية التنقيب في المقدمات الأولى لاحتكاك المغاربة بالموضوع الياباني، وإثارة التساؤل عن درجة المعرفة بالمجال الجغرافي والبشري لبلد النيبون.

يحضر الموضوع الآسيوي لدى أعلامٍ مغاربة يُصنّفون ضمن نخب الجغرافيين العالميين، وفي مقدمهم الشريفُ الإدريسي (493هـ/ 1100م-560هـ/ 1166م) الذي وصف بلاد الصين والهند وغيرهما من البلدان، ولا نجد في متن نزهة المشتاق إشارة إلى اليابان. وقد فصّل الإدريسي في وصف المدن الصينية وتجارتها وملوكها، وتحدث مثلًا عن مدينة «سعلا وهي عامرة بالساكن حسنة المساكن كثيرة التجارات موفورة العمارات وإليها مقصد التجار من كل الأقطار المجاورة لها والمتباعدة...»[1]. ولا شك في أن الصين، بهيمنتها الثقافية في الشرق الأقصى، حجبت الحديث عن بلدان وشعوب أخرى ككوريا واليابان، باعتبارها ملحقات ثقافية تابعة لها. وقد اقتبس صاحب النزهة

(1) محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 2 مج، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، [د. ت.])، مج 1، ص 211.

معلوماته عن الصين ممن سبقه من الجغرافيين، من أمثال المسعودي وابن خرداذبة وابن حوقل[2]، وكانت آسيا الصغرى أقصى ما وصل إليه في رحلاته في هذه القارّة[3]. وكان يأخذ بعض معلوماته من الرواد الذين بعث بهم روجر إلى أقاصي أطراف أوروبا، ولما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التي كانت ترسو بموانئ صقلية..»[4].

لعل أقدم احتكاك مغربي وإسلامي مباشر بالشرق الأقصى كان من خلال رحلة ابن بَطّوطة (1304-1377)؛ فقد وصل هذا الأخير إلى جزر الهند الصينية والفيليبين... ومن ثنايا متن النص السفاري، لم يُشر الجغرافي المغربي إلى وصوله إلى اليابان: لقد فصّل ابن بطوطة في وصفه للصين، وأبرز مدنها وعادات سكانها وغرائب حوادثها.

يبرز أمامنا سؤال يتعلق بالأسباب التي تفترض عدم سفره إلى اليابان، وهو الذي اشتهر بمغامراته الفريدة وجرأته المتزايدة في المعرفة والاطلاع على غرائب البلدان وعجائبها، ولم تكن تفصله سوى مسافة محدودة عن أرض الميكادو.

تتزامن رحلة ابن بطوطة مع فترة حكم ميروماشي (1336-1537)، وهي مرحلة سيطرت أسرة أشيكاجا، من خلالها على الحكم. وشهدت هذه الفترة الكثير من الصراعات الدموية على السلطة، فاضمحلت وانهارت بسببها سلطة الإمبراطور، وجرت عسكرة المجتمع من خلال تجنيد عناصر الدايميو للفلاحين في صفوف المحاربين[5]؛ فقد «حاول الإمبراطور غو دايغو في عام 1333 استرجاع السلطة من العسكريين، وتعرض بعد ثلاثة أعوام لخيانة قائده أشيكاجا تاكوجي»[6]. وفرض على البلاد نظام الشوغونات مع ما أنتجه من

(2) المصدر نفسه، ص 5.

(3) عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط 3 (دمشق: دار الفكر، 1995)، ص 388.

(4) المصدر نفسه، ص 389.

(5) <http://forum.otaku-net.info/viewtopic.php?t=1586>.

(6) «Histoire du Japon,» sur le Web: <http://www.kokeshi.fr/pages/histjapon.php>.

عنف هائل في تصريف المشكلات الداخلية. فهل كان ابن بطوطة على معرفة، عن طريق الصينيين، بحقيقة الأوضاع في اليابان، فامتنع عن التوجه إلى بلد انتفت فيه عناصر الاستقرار؟ لا نجد إشارات بهذا الموضوع، لكننا مع ذلك نرجّح القول بهذه الفرضية.

توجه ابن بطوطة نحو الصين في عام 1346، أي في الفترة التي تلائم مرحلة حكم أسرة يان المنغولية (1271-1368)، وبالضبط الحاكم المنغولي توغون تيمور (1320-1370). وينظر الشعب الصيني ونخبه إلى فترة حكم هذه الأسرة بامتعاض شديد. وربما تلقّى ابن بطوطة إشارات تحضه على عدم السفر إلى اليابان التي كانت تعيش دوامة عنف سياسي وعسكري رهيب، وهو الذي اعتاد الامتثال لنصائح العارفين بشؤون الأمن؛ ففي الفصل الخاص «من الصين إلى جاوة»، ذكر: «ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار عليَّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكّن الفتن»[7].

يبدو أن اليابان، بنهجها سياسة العزلة الطوعية، لم تكن سبل استكشافها ومعرفتها متيسرة لكثير من الشعوب والدول، باستثناءات اقتصرت على الهولنديين وعلى بعض التجار الصينيين والأوروبيين في منطقة محدودة مثل ميناء ناغازاكي؛ كما تعرض معتنقو الديانة المسيحية لعمليات قتل وتصفية أعقبها نهج سياسة العزلة الطوعية وولوج كهف آماتيراسو الأسطوري والرمزي.

لم تُثر اليابان انتباه ابن بطوطة الذي اكتفى بتركيز رحلاته على الصين. وبالدرجة نفسها لم يُثر المغرب انتباه أعضاء بعثة إيواكارا التي وصل أعضاؤها إلى إسبانيا والبرتغال. وهكذا لم يكن وضع المغرب يستحق اهتمامًا دبلوماسيًا يابانيًا مثلما أن دموية النظام السياسي الياباني، خلال فترة حكم ميروماشي، لم تسترع انتباه أحد أبرز الرحالة العالميين المغاربة.

إننا لا نجد الإشارات المتعلقة باليابان في الكتابات المغربية إلى حدود

(7) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بَطّوطة، كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، ص 649.

أواخر القرن التاسع عشر، من خلال مذكرات بعض الطلبة الموفدين إلى أوروبا؛ فقد بدأ الحضور الياباني خافتًا وغامضًا، حين يتحدث العيدوني، أحد أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى إيطاليا، عن وجود بعثات أخرى من بلغاريا وأرمينيا والجبل الأسود واليابان ومصر وإثيوبيا[8]، وهي إشارة عابرة لا تحمل ما يدل على إثارة الموضوع الياباني لدى أفراد البعثات التعليمية المغربية، في حين تبيّن المعطيات التاريخية أن التجربة اليابانية بدأت تسجل حضورها الإقليمي والدولي في الفترة المذكورة، ولفتت الأوروبيين والأميركيين بفعل التطورات المتلاحقة التي عرفها مجتمع النيهون في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

يحضر موضوع المقارنة، أول مرة، في العصر الحديث من خلال الدستور الذي اقترحه الشيخ عبد الكريم مراد[9]. ونظرًا إلى أهمية النص، نورد مقتطفات منه للاستقراء والتحليل واستنتاج القواعد والتمثلات الخاصة بالموضوع الياباني.

كتب الشيخ عبد الكريم مراد: «... أما بعد، فلما تشرفت بالأقطار المغربية وتطلعت على أحوالها: سرني ما رأيته منهم من اتحاد الجنس والتمسك بالدين وحب السلطان...

وبسبب توفر هذه الصفات في أفراد دولة اليابان، مع اقتفائهم إثر شريعتنا المطهرة: من التعاون وحب الوطن وحفظه بالمال والنفس والتحرز من الأعداء وأخذهم الحكمة ممن كان: فاز وأعلى ملوك زمانهم.

وعلى ذلك يمكن لحكومة المغرب أن تبلغ ما بلغته اليابان بأقرب وقت

---

(8) مذكرة أحمد الجبلي العيدوني، وردت في: مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه (الرباط: المطبعة الملكية، 1984)، ج 4، ص 1394.

(9) عُرف الأستاذ محمد المنوني عبد الكريم مراد بأنه شخصية معروفة، الوافد المقيم بفاس من عام 1324هـ/ 1906-1907م، مكث طويلًا في فاس ثم انتقل منها إلى النيجر، فتوفي في مدينة كانو التي استوطنها عام 1347هـ/ 1928م: محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، 2 ج، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 2، ص 312-406.

إذا اقتفت أثر اليابان بالاجتهاد ونفع العامة وأخذ العلوم الصناعية والوقتية الموافقة للأحكام الشرعية من أوربا، على الأخص في اقتفاء آثارهم في تنوير أفكار الرعية في حثهم على اختراع العلوم النافعة ومكافأة من يبرز شيئًا من ذلك، لأن الذي يعلم أسرار الشريعة الإسلامية وما احتوت عليه من الحث على نشر العدالة والمشورة في الأمور وتعلم المعارف اللازمة للوقت والدين بكل شيء يستغني به المسلمون عن الأجانب...

ولا ينكر ما كان عليه اليابان قبل ثلاثين سنة من «الانحطاط» وتفرّق الكلمة بسبب الاستبداد وهجوم ملوك أوربا على مملكة اليابان، وطلبوا منها إجراء الإصلاح الوقتي من سلطانها، حتى استأجروا مدخول الجمارك بثمن زائد عمّا كانت تحصله اليابان على جملة سنين، لأجل إدخال التمدن الأورباوي: من نشر السكك الحديدية والديبش، وغير ذلك من تشكيل البوليس، فصار لأوربا نفوذ وكلمة في مملكتهم، فعند ذلك تيقظوا لما لأوربا من الطمع في استملاك بلادهم بطريق سياسي، فجمعوا كلمتهم، ورجع سلطانهم عن الحكم المطلق إلى المشورة، فأسس مجلس نواب الأمة، وانتخب له أعضاء من كل بلد وشعب في المملكة... وعملوا قانونًا للحكومة فنفذ على الحاكم والمحكوم.

ثم أرسلوا البعثات من أولادهم إلى بلاد أوربا لتعليم العلوم اللازمة: من الحربية والهندسية والصنائع... وشرعوا في فتح المدارس الابتدائية والثانوية والعالية لأجل تعليم ذلك، حتى بلغت الآن في مملكة اليابان إلى أربعين ألف مدرسة، فلمّا استكملوا المعرفة في مدة عشرين سنة أوقفوا الامتيازات الأورباوية وغلبوا دولة الصين وطردوا دولة المسكوف من كوريا ومنشوريا وصاروا بالدرجة العليا بين الملوك، حتى دولة إنكلترا وألمانيا أرسلتا تلاميذ إلى مدارس اليابان لكي يتعلموا منهم اختراعاتهم التي أظهروها وقت المحاربة»[٦٥].

هل يمكن اعتبار النص إنتاجًا مغربيًا في مقاربة الظاهرة اليابانية؟ أورد الأستاذ المنوني معلومات بخصوص صاحبه قائلًا عنه: «الشيخ العالم السوري عبد الكريم بن السيد عمر ابن مصطفى بن الشيخ مراد الشامي الطرابلسي...

(٦٥) ورد في: المصدر نفسه، ج 2، ص 422-424.

مبعوث الشرق إلى المغرب... كان يهدف ليقوم، في المغرب، بعمل إصلاحي في حقل التعليم الابتدائي، فيضع هذا التأليف في مستوى المتعلمين الصغار ويحاول فتح مدرسة ابتدائية لتلقين العلوم الدينية والعصرية.

وإذا كانت آماله في فتح مدرسة المقاصد العزيزية لم تتحقق، فهو قد نجح - إلى حد - في إلقاء دروس علمية تناولت مبادئ السياسة والجغرافيا والحساب والتاريخ»[11].

تعرفت النخب المغربية إلى التجربة التحديثية اليابانية من خلال العالِم السوري الذي وجد في أثناء إقامته فراغًا ثقافيًا وتعليميًا في فترة تاريخية تراجعت فيها سياسة الإصلاح التي بدأها، بشكل واسع، المولى الحسن الأول منذ بدايات حكمه الأولى.

لا نعتقد أن الموضوع الياباني تبوأ مكانته الحقيقية ضمن الاهتمامات المركزية للنخب المغربية خلال الفترة التي جرى فيها صوغ الدستور المذكور. ويبدو أن تركيز واضع الدستور على الأنموذج الياباني مرتبط بالرؤية المشرقية التي هللت لانتصارات اليابان على روسيا، ألدّ أعداء الدولة العثمانية والتي بدأت بنسج علاقات دبلوماسية مع نظام الميجي منذ بعثة إيواكارا المشهورة وانتداب فوكوشيرو للقيام بدراسة أولية للوضع العام التركي خلال سبعينيات القرن التاسع عشر.

كتب الجابري في موضوع الدستور قائلًا: «لقد بات حضور اليابان في الفكر السياسي العربي الحديث مباشرًا وقويًا، ومثالًا على ذلك أشير إلى أن أحد المشاريع الدستورية التي قُدمت لملك المغرب عام 1906م، حينما أخذت النخبة العصرية في هذا البلد تطالب بإقامة حياة دستورية وتدشين نهضة عصرية، طرح في مقدمته بإلحاح وتفصيل تجربة اليابان وإصلاحات الميجي مطالبًا بالاقتداء بها»[12].

---

(11) المصدر نفسه، ص 311-312.

(12) محمد عابد الجابري، «اليابان في الفكر العربي المعاصر،» الموقف، العدد 1 (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس 1992)، ص 46.

أدمج الجابري المغرب ونخبه العصرية ضمن دائرة العرب المهتمين بالأنموذج الياباني، مستدلًا على ذلك بمشروع الدستور الذي قُدّم إلى السلطان عبد العزيز. وبالنظر إلى هوية صاحب المشروع وانتمائه المشرقي، يصعب الحديث عن تمثّل مغربي حقيقي للتجربة اليابانية في بداياتها الأولى. ويبدو أن صاحبه واجهته مجموعة من العراقيل دفعته إلى مغادرة المغرب في اتجاه جنوب الصحراء. كما أن تنبيهه إلى مقدمات التطور الياباني لم تجد آذانًا صاغية لدى مكوّنات النخبة المخزنية التي كانت تعيش آخر لحظاتها السياسية والإدارية. ومن دلائل ذلك أن الأنموذج الياباني لم يحضر في الكتابات التاريخية المغربية (المشرفي والناصري وابن زيدان والأعرج السليماني، وغيرهم) إلا باستثناءات محدودة جدًا كما أوضحنا سابقًا. وظل الأمر كذلك إلى ما بعد الاستقلال، بل إلى فترات قريبة من زماننا الذي نعيشه الآن.

عندما خرج اليابانيون من عزلتهم التاريخية الطويلة، كان شغلهم المركزي منصبًا على معرفة قدراتهم الذاتية بمقارنتها بقدرات الأوروبيين والأميركيين العلمية والاقتصادية والاجتماعية عند نهاية القرن التاسع عشر. وفي أثناء الرحلة إلى الديار الغربية، درست البعثات التعليمية اليابانية تجربة التقدم الغربي من نواحٍ مختلفة ومتعددة، واكتشف أفرادها من خلال ذلك أسرار التقانة الغربية وأسسها وقواعدها.

أما في الحالة المغربية، فكانت المعلومات سطحية وأحيانًا مضلِّلة، ومن ذلك ما ذكره أحد رجال الحركة الوطنية المغربي، قائلًا: «لقد ردَّد المناضلون داخل الخلايا الوطنية ما يربو على ثلاثين سنة، رفعًا لمعنويات الجماهير ضد الاستعمار، وتمكينًا لرصيد الثقة الإنساني بأنفسهم، أن المغرب بعث البعوث إلى أوربا في الوقت نفسه الذي وصلت إليها بعوث اليابان، وقد أثمرت جهود اليابان فأصبحت بفضلها أعظم دولة شرقية في العالم، بينما أخفقت جهود المغرب لسوء حظه، فسقط تحت براثن الحكم الأجنبي فريسة للاستعمار»[13].

على الرغم من هذه الملاحظات، يمكن القول إن أصداء الخطوط العامة لتجربة التحديث اليابانية وصلت إلى المغرب، لكنها لم تتعمق في وجدان

(13) المصدر نفسه، ص 46-47.

الإنتلجنسيا المغربية، ولم تتحول إلى أنموذج قابل للدراسة والتمثل، في وقت شهدت فيه هذه الفترة انتعاشًا في الثقافة الصحافية وإشاعة الأخبار عن طريق المبادرات المشرقية والأوروبية. ومن هذه الزاوية يمكن التعامل مع النص الدستوري بتفكيك عناصره واستنتاج طبيعة نظرته إلى الأنموذج الياباني.

في البداية، جانب الشيخ مراد الصواب عندما وصف المغاربة باتحاد الجنس والتمسك بالدين وحب السلطان. ويتضح أنها مجاملة دبلوماسية تتناقض مع ما ذكره الحجوي من اختلال الأمن وانتشار الفوضى، ومع ما أوردناه في مبحث الحماية القنصلية من افتتان الكثير من الأثرياء والشرفاء وعامة الناس وتنافسهم للحصول على صك الحماية الفردية. ولعله أراد بذلك التمهيد القول بتشابه المقدمات بين المغرب واليابان، حين قال بتوافر «هذه الصفات في أفراد دولة اليابان»، كما أنهم، أي اليابانيين، مسلمون بالفعل والممارسة من خلال «التعاون وحب الوطن وحفظه بالمال والنفس والتحرز من الأعداء وأخذهم الحكمة ممن كان».

إذا كانت المقدمات متشابهة في نظره، فما المانع من وصول المغرب إلى ما وصلت إليه اليابان في أقرب وقت؟ ويضع لذلك شرطًا أساسًا، وهو أن يُقتفى «أثر اليابان بالاجتهاد ونفع العامة وأخذ العلوم الصناعية والوقتية الموافقة للأحكام الشرعية من أوربا، على الأخص في اقتفاء آثارهم في تنوير أفكار الرعية في حثهم على اختراع العلوم النافعة ومكافأة من يبرز شيئًا من ذلك».

لكن بالنظر إلى الواقع المتردي للمغرب في عهد المولى عبد العزيز، يستدرك صعوبة التمثل، لكنه يقابل ذلك بما «كان عليه اليابان قبل ثلاثين سنة من الانحطاط وتفرّق الكلمة»، ويُرجِع أسباب ذلك إلى «الاستبداد وهجوم ملوك أوربا»[14]، وهو بذلك يطابق بين العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية، وينبّه المخزن العزيزي إلى بناء سياسة إصلاحية بمقتضاها.

حاول الشيخ مراد التلميح إلى الحالة المغربية من خلال بسط أنموذج

---

(14) ذكر الشيخ مراد هجوم الأوروبيين، إلا أن المعروف تاريخيًا، كما أشرنا، هو أن أول هجوم تعرضت له اليابان كان على يد الأميركيين بواسطة العميد البحري بيري في عام 1853.

تعامل القوى الغربية مع اليابان بعد سلسلة الاتفاقات غير المتكافئة التي عُقدت معها؛ فقد طلبت منها، كما طلبت من المغرب، إدخال الإصلاحات التي تلائم مصالحها، وسيطرت في كلا البلدين على دخول الجمارك بشروط قاسية. ولا شك في أن ذلك تسبب، كما يبدو من ثنايا النص، في ازدياد نفوذ الغربيين داخلهما، وهذا ما أدى إلى فطنة اليابانيين «لما لأوربا من الطمع في استملاك بلادهم بطريق سياسي». في مقابل ذلك، بقي المغرب خاضعًا للوصاية الأجنبية، ولم يحصل لقادته استبصار الواقع والمآل.

كانت اليقظة اليابانية مقدمة حتّمت جمع الكلمة ونبذ الحكم المطلق والأخذ بالنظام الديمقراطي، فكرًا وممارسة، وهي دعوة تستبطن نقد الاستبداد السياسي الذي تمارسه مؤسسة السلطان، وتشجع على نهج الأسلوب الياباني في ممارسة الشورى السياسية.

لا يمكن للإصلاح أن يتأسس من دون معرفة وتعليم. وفي غياب الإمكانات الذاتية لتحقيق ذلك، يتحقق الانفتاح على التجارب العالمية الرائدة التي يمكنها أن تفيد الداخل في بناء قدراته المعرفية. ومن هذه الزاوية، يوضح واضع المشروع الدستوري إرسال رجال الحكم الياباني «البعثات من أولادهم إلى بلاد أوربا لتعليم العلوم اللازمة، من الحربية والهندسية والصنائع... وشرعوا في فتح المدارس الابتدائية والثانوية والعالية لأجل تعليم ذلك، حتى بلغت الآن في مملكة اليابان إلى أربعين ألف مدرسة».

يقول الشيخ مراد إن جميع هذه الإجراءات حققت لليابان، على امتداد عشرين عامًا، ما سمّاه المعرفة، مع ما تعنيه المعرفة من امتلاك السلطة والقوة، وهو ما أدى إلى مراجعة الاتفاقات غير المتكافئة والانتصار على الصين وطرد روسيا من كوريا ومنشوريا وإنزال الهزيمة بها عسكريًا في عام 1905. وأصبحت اليابان رقمًا أساسًا في المعادلة العلمية، وقامت إنكلترا وألمانيا بإرسال طلبتهما إلى مدارس اليابان «لكي يتعلموا منهم اختراعاتهم التي أظهروها وقت المحاربة».

بهذه الصورة حضر موضوع التحديث الياباني في ذهن الشيخ مراد الذي حاول جاهدًا من خلاله إقناع السلطة العزيزية بتبنّي إصلاحات دستورية. كما

أورد الأعرج السليماني موضوع البعثات التعليمية، مستنتجًا العوامل التي أدت إلى نشوب الأزمة وأسست لمرحلة الإفلاس، وفي مقدمها، في نظره، بطانة السوء التي لم تكن تساير تصورات السلطان الإصلاحية. ويستدل على ذلك من خلال مقارنة الأمر بضده الياباني، ويفصح عن ذلك، ذاكرًا:

«... ولما زاولوا دروسهم ومُلئوا بكل نافع حقائبهم، يمّموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يُرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان... فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا»[15].

اتسم حكم السليماني بالتريث، ولم يصدر حكمًا نمطيًا على اليابان، ولم يقل بتأخره كما ورد ذلك عند ابن زيدان في **العلائق السياسية**. واقتبس صاحب **الإتحاف** العبارة نفسها التي وردت في **زبدة التاريخ**[16]. ووصلت هذه المعلومات (مشروع دستور الشيخ مراد وما ذكره الأعرج السليماني) إلى رجال ثقافة وسياسة قليلين، ومنهم المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان الذي أشار إلى الموضوع الياباني، في سياق حديثه عن فشل تجربة إرسال البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوروبا، قائلًا:

«... فانظروا إلى همّة هذا الملك الجليل، فلو جرى العمل على ما اقتضته همّته في هذا الشأن الخطير لكان للدولة المغربية شأن غير هذا الشأن، ولحلّقت في جو الترقي... ولفاقت في تقدمها ورقيها اليوم دولة اليابان، لما فُطر عليه المغربي من الذكاء النادر والنبوغ الطبيعي والشجاعة المفرطة... نحن نعلم أن الوقت الذي اتجهت فيه همّة هذا الملك العظيم هذا الاتجاه الخطير، كانت اليابان أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذّاك بين اليابان والمغرب في الانحطاط؛ ففي ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه

(15) عبد الرزاق بنواحي، «دراسة وتحقيق "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ" لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني، 1285هـ - 1344هـ 1868م - 1925م،» (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1997)، ص 392.

(16) عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، 5 مج، ط 2 (درب الفاسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ج 2، ص 465.

نفسه، فوجّه المتعلمين من اليابانيين وأعانته بطانته الحسنة النية الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة، وصارت دولة اليابان تقرّ بعظمتها أعظمُ الدول، وتخشى بأسها، وتحسب لها عدة ملايين من الخلق حسابها، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقد كان قصده ... بتوجيه هذه البعثات للتعلم بأوربا أن تكون المصلحة مزدوجة، فتتحسن العلائق من جهة، وتتمكن مهابة الدولة المغربية من نفوس دول أوربا وتحسب لها حسابها»[17].

يعتبر ابن زيدان موضوع إرسال البعثات التعليمية شأنًا خطِرًا باعتبار أن البعثات تؤرخ لمرحلة فاصلة في تاريخ الإصلاحات في المغرب. وأضاف حكمًا انطباعيًا لم يرد في ما اقتبسه سابقًا من كتاب زبدة التاريخ. وقد حضر هاجس المقارنة بقوة وتركيز واقتضاب لدى صاحب **العلائق السياسية**، وظن أن اليابان كانت أشد انحطاطًا من المغرب. وأظن أن هذا الحكم متسرع ومجانب للحقيقة التاريخية؛ فالأكيد أن ابن زيدان كانت لديه معلومات ضئيلة عن حقيقة تجربة التحديث الياباني، وقواعدها وتراكماتها التاريخية التي صهرت المكوّنات الداخلية على امتداد فترة العزلة الطوعية التي استمرت أكثر من 250 عامًا. كما أن عناصر القوة السياسية والإدارية والمجتمعية والثقافية التي نشأت في فترة حكم التوكوجاوا ظلت غائبة بالمطلق لدى من قال بانحطاط اليابان في الزمن المذكور.

إضافة إلى ذلك، لا نتفق مع ابن زيدان في طبيعة المعادلة التي اعتمدها في الخروج بهذا الاستنتاج، وفي مقدمها قوله بالذكاء النادر والنبوغ الطبيعي والشجاعة المفرطة التي كان يتمتع بها المغربي آنئذٍ. وإذا كان ذلك صحيحًا، فبأي منطق نفسر هزيمة إيسلي ونهب أفراد الجيش بعضهم بعضًا؟ وإذا كانت من صفات الذكاء القدرة على استثمار المواد الخام الطبيعية والبشرية وتوظيفها، بأقل تكلفة ممكنة، في الدفع بالمجتمع إلى الانخراط في مسلسل التنمية والفاعلية والإنتاج المادي والمعنوي، فما هو نصيب المغرب من ذلك عندما نقرأ مدونات الحماية القنصلية، واندفاع المغاربة نحو الحصول على صك الحماية الفردية ضدًّا على المصالح الوطنية العليا؟ وسجّل محمد داود

(17) عبد الرحمن بن زيدان، العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 149-150.

من جانبه، وفي سياق حديثه عن تداعيات معركة تطوان وآثارها النفسية الوخيمة على نخب الفكر والسياسة في المغرب، انطباعه الآتي:

«لقد عرف المغرب أنه قد انتهى العهد الذي يهاب فيه الناس كبر العمائم وطول اللحى وتضخم البطون وسدل السلاهيم على العراقيب...

لقد كانت الفرصة سانحة أمام المغرب ليتقدم إلى الأمام خطوات لو أنه خطاها لصار أعلم وأقوى حتى من بلاد اليابان التي كانت تغرق في حمأة التخلف والخرافات والتمسك بمقدسات وهمية كانت كالقيود في الأرجل والسلاسل والأغلال في الأعناق»[18].

كانت اليابان، في منطق النص، بلدًا متخلّفًا، وكانت الخرافة والمقدسات الوهمية متفشية في المجتمع. لكن على الرغم من ذلك، لم تمنع هذه القيود من تحقيق «المعجزة اليابانية» مع بداية القرن العشرين، عندما لقّن الجيش الياباني كلًّا من الصين (1894) وروسيا (1905) درسًا عسكريًّا بليغًا. ونتساءل هنا عن حجم القيود والعراقيل التي عطّلت، في الحالة المغربية، البناء المجتمعي السليم على امتداد فترات طويلة من الممارسة السياسية، ونمط التفكير والعلاقة التي نسجتها السلطة مع أطياف المجتمع.

لم يكن تاريخ اليابان معروفًا لدى النخب المغربية التي أصدرت هذه الأحكام من دون مقدمات سليمة وموضوعية. ونرجّح أن المعلومات الخاصة بهذا التاريخ كانت شفهية، وجرى تناقلها والزيادة فيها بالشكل الذي يثير الاستغراب في شأن ثنائية تقول إن المغرب كان متقدمًا على اليابان، وكان مآله السقوط أمام القوة العسكرية الغربية بعدما فشل في سياسة الإصلاح المخزنية، في حين كانت اليابان بلدًا متخلّفًا وذا اعتقادات أسطورية، لكنها حققت إنجازات عظمى أمام طاقة الغرب العنيفة والقوية والمنظمة.

أوردنا، من خلال كرونولوجيا (تسلسل زمني) للبعثات التعليمية المغربية، نتوءات من النبوغ والذكاء المغربيين مع الزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب الشركي والطاهر الأودي وغيرهم، لكن هؤلاء مثّلوا عناوين صغيرة وأحيانًا

(18) محمد داود، تاريخ تطوان (تطوان: [د. ن.]، 1960)، مج 5، القسم 3، ص 359.

هامشية لعنوان كبير ومتحكم، ممثَّلًا في كلٍّ من الدوائر المخزنية المتنفذة من جهة، والاختراقات الغربية المتزايدة من جهة أخرى.

يصيب ابن زيدان عندما يربط بين آلية البعثات التعليمة، ووجود مستشارين أكفاء للميجي، وحصول النتيجة المنتظرة حيث صارت دولة اليابان «تقرّ بعظمتها أعظم الدول، وتخشى بأسها، وتحسب لها عدة ملايين من الخلق حسابها».

ينطلق صاحب **العلائق السياسية** في مقارنته من مقولة تؤكد تشابه المقدمات واختلاف النتائج. ويُحمِّل بطانة السوء في المغرب، وبطانة الخير والنصح في اليابان تباين عناصر الثنائية المفترضة، وهو قول صحيح سبق أن أبرزنا مضمونه وحلّلناه في الفصل الأول من هذا الكتاب، وإن كنا نظن أن عمليات الإصلاح الكبرى والمحددة سيرورة تاريخية متصلة. ومثلما أن عملية السقوط النهائي للحضارات والدول تمتد على فترات زمنية طويلة نسبيًا، فإن عملية البناء والإصلاح تستدعي أيضًا مساحة زمنية ملائمة تتطلب عمقًا وخزانًا داخليًا يمنحها عوامل الاستمرارية والبقاء.

كان قصد الحسن الأول من إيفاد البعثات التعليمية إلى أوروبا أن «تكون المصلحة مزدوجة، فتتحسن العلائق من جهة، وتتمكن مهابة الدولة المغربية من نفوس دول أوربا وتحسب لها حسابه»[19]، مقارنًا بذلك حالة المغرب بيابان الميجي. وإذا كنا نظن عدم دقة حكم صاحب **العلائق السياسية**، فإننا نختلف مع ما ورد في كتاب **العلاقات المغربية الإيطالية** الذي أوردت فيه مؤلّفته بهيجة سيمو نص ابن زيدان وحكمَه بتأخر اليابان وانحطاطه من دون تعليق، ولم تكلف نفسها عناء التساؤل والتشكيك في هذا الحكم. فإذا لم يسمح عصر ابن زيدان له بالاطلاع على العناصر الأولية لتجربة التحديث الياباني، فحري بمؤلَّف صدر في عام 2003 أن يشير إلى المسألة بنظرة فاحصة وموضوعية.

يتطلب تاريخنا نوعًا من المراجعة والنقد، ونحتاج في فحص عوامل فشلنا إلى إزالة الشوائب التي يمكنها أن تنال من صحة وصدقية البناء النظري ومقدماته وفرضياته.

---

(19) ابن زيدان، **العلائق السياسية**، ص 150.

قدم ابن زيدان إلى تاريخ المغرب خدمة جليلة، وأمدنا بمعلومات نفيسة ما كان لهذا البحث ولغيره من البحوث أن تتم من دونها، كما نلمس من دفات مصنّفاته صفات المواطن والمثقف القلق على مصير أمته، وكان يبحث، مثل المنوني وعبد الله كنون، عن عناصر اليقظة الفكرية والعلمية والسياسية، ليجعل منها حالة من اللحظات الإيجابية في ليل حضاري مظلم. ومن حسن إكرام هؤلاء أن يُبحث في مصنفاتهم التاريخية والحضارية عن الشوائب التي يمكنها أن تذهب بجمالها ووظيفتها. ونحتاج، في ذلك، إلى مؤسسات ونخب متمرسة في النقد الذاتي الهادف والبنّاء. ولا يمكن التعامل مع ذاكرتنا التاريخية والمدونات التي أرّخت لها بطابع القداسة؛ إذ يجب التمييز، في هذا المقام، بين المقدس والجهد البشري الذي يمسه النقص والخطأ.

لا شك في أن ممارسة النقد الواعي خطوة أساسية في البناء الحضاري، ولَبنة مؤسِّسة لقواعد التراكم التاريخي الإيجابي الذي يمنح المعنى والغاية لأيِ محاولة تنموية تروم الفاعلية والنجاعة. وتدفعنا هذه الملاحظات إلى إثارة معنى المقارنة بين المغرب واليابان في بعض الكتابات المغربية المعاصرة؛ فقد أورد العروي في سيرته الذهنية ما يلي:

«فسرت لأبي تاريخ اليابان الحديث، العوامل الاقتصادية والدوافع النفسية، وركّزت على أنه لم يأخذ من الغرب إلا الوسائل المادية، وسائل المناعة والتوسع. لاحظ أبي:

– قلت إن خيرات اليابان الطبيعية محدودة ومع ذلك حقق ما حقق. خيراتنا نحن أهم. لو حكمتنا دولة أقل نهمًا من فرنسا لاستثمرنا تلك الخيرات وسرنا في طريق الرقي وكنا دولة يُحسب لها حساب. ويكون هذا في صالح الدولة الحامية.

– سوء حظنا هو موقعنا الجغرافي وقلة عددنا واعتدال مناخنا، مما جعل من بلادنا مستعمرة سكنية»[20].

---

(20) عبد الله العروي، أوراق: سيرة إدريس الذهنية، ط 4 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص 50.

يثير النص الروائي قدرة العقل الياباني على الملاءمة بين الأصالة والمعاصرة؛ فاليابان لم تأخذ، في نظره، سوى الوسائل التقنية/ المادية، وتمكنت من توظيف ترسانة الرموز الثقافية والمجتمعية والأسطورية في بناء ذات لم تخرج عن نسق تطور الرأسمالية الغربية، حيث توجت مسيرة تحديثها بالتوسع على حساب دول الجوار الإقليمي (كوريا والصين وغيرهما من البلدان) كما فعلت القوى الغربية مع شعوب أفريقيا وآسيا وأميركا.

يستدرك بطل الرواية/ إدريس قائلًا، وربما منتقدًا التفسير السابق: «بيد أن المشكل غير هذا، المشكل هو نفسانية المغربي، هل يستطيع أن يفعل ما فعله الياباني؟ هل نجد بيننا من يكون طيارًا انتحاريًا؟ أين عقلية التضحية، إنكار الذات التي تميز قادة اليابان؟ قد أضاعوا ما شيدوه طيلة خمسين سنة ولكنهم عاشوا فترة مليئة بالأمجاد حتى في أحلك فتراته، هل يستطيع المغرب أن يرقى إلى هذا المستوى حتى لو كان حرًا؟»[21].

يتبين من نص الرواية حضور ذهنية المؤرخ المفسر للحوادث، حيث يعزو أصل الانتكاسة التحديثية في المغرب إلى عوامل أخلاقية/ نفسانية، كما يشير إلى ما أوردناه بخصوص أخلاق الساموراي وقيم التضحية والشهامة التي ميزت اليابانيين في فترة التوكوجاوا ولجوئهم إلى ممارسة شعيرة الهيراكيري/ طقس الانتحار عندما كانوا يعجزون عن القيام بما كانوا يعتقدونه واجبًا أخلاقيًا، ورافقتهم قيمهم هذه إلى المقاولة والمصنع في يابان الميجي وتايشو وشوا.

لا يرقى المغربي إلى مستوى أخلاق الساموراي حتى لو كان حرًا؛ فالمسألة بنيوية تتعلق بذهنية سبق أن فصّلنا الحديث عنها في مباحث سابقة. وقد حاولت قياس مؤشر المواطنة الفاعلة من خلال معركتَي إيسلي وتطوان، ومن درجة تناسل الحماية القنصلية في مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أثرنا في كتابنا هذا تساؤلات تمحورت حول الدور الذي كان في إمكان المتعلمين المغاربة في الخارج القيام به لو توافرت لهم المقدمات نفسها التي أطّرت بعثات الميجي. ولو قمنا، على سبيل الافتراض، بعملية تغيير المواقع

(21) المصدر نفسه، ص 50-51.

بوضع نوابغ الطلبة اليابانيين ضمن منظومة الدولة والمجتمع المغربيين في الفترة الممتدة بين عامي 1844 و1912، وإلحاق نوابغ الطلبة المغاربة بمؤسسات اليابان السياسية والإدارية، لكانت النتائج واحدة. وربما يكون ذلك ما دفع إدريس إلى الاسترسال في الحديث قائلًا: «أنا مقتنع بذلك. بيننا عباقرة يستطيعون أن يحققوا المعجزات لو كانوا أحرارًا في تصرفاتهم»[22].

يحضر بُعد المقارنة بشدة في ذهنية إدريس، حين يقول: «علينا أن نتبع طريق اليابان وأن نستمد من الغرب كل ما يعيد لنا قوتنا العسكرية، وبذلك أن نؤسس حضارة جديدة تحتفظ بشيء من الماضي»[23]. فهل يعني إدريس بذلك مقولة رفعها رواد الإصلاح الياباني خلال عهد الميجي: «تقنية غربية وأخلاق يابانية»؟ في مقابل ذلك، يدعو النخبة المغربية إلى أخذ الكل التحديثي من الغرب مع الاحتفاظ بشيء من الماضي. لكن، ما طبيعة الماضي وما معنى حضوره لدى بطل الرواية؟ «الدين كما جاء في القرآن والحديث الصحيح يسير جدًّا. الصعوبات جاءت من بعد، عندما بحث الناس في مسائل احتمالية»[24].

بهذه الجملة يختصر إدريس ويميز بين النص الشرعي (القرآن الكريم والسُّنّة الصحيحة) والذهنية التاريخانية التي حاولت الاقتراب منه بالاجتهاد والاستدلال. ويُنظِّر قائلًا: «... أما الآن فنحن أمام مشكلات جديدة سنحاول حلها بتطبيق المنطق الغربي العصري كما حاول القدماء حل مشكلات العهد العباسي بتطبيق المنطق اليوناني»[25]، وكأن النص الشرعي لا يمتلك منطقًا خاصًا به يحل تناقضات الواقع المادي والذهني.

يتداخل الماضي والحاضر بشكل فريد في المجال الياباني. ويفتخر اليابانيون إلى اليوم بعدم أخذهم بأنموذجي التسيير الصناعي الفوردي والتايلوري القائمَين على منطق التسلسل الإنتاجي والرتابة السلوكية، ودل ذلك على قدرة المخزون الثقافي المحلي في مد التكنولوجيا الجديدة بحمولات الفكر الجماعي

(22) المصدر نفسه، ص 51.
(23) المصدر نفسه، ص 61.
(24) المصدر نفسه، ص 60.
(25) المصدر نفسه، ص 60.

واحترام القدرات الفردية وتنميتها وتطويرها لخدمة الجماعة في المرزّات والمقاولات الصناعية والتجارية. ولا شك في أن انخراط اليابان الفعلي والواسع في مسيرة التحديث والمكابدة اليومية لتحقيق ذلك يسّر على النخب اليابانية العسكرية والسياسية والثقافية مهمة التوفيق بين الأصيل والدخيل.

أبدع المسلمون من جانبهم، وأنتجوا قيم العلم والثقافة والتسامح، وحققوا إنجازات اقتصادية وعسكرية متميزة في تاريخ الإنسانية، عندما كدحوا كدحًا في سبيل تحقيق أهداف وجودية وإنسانية خاصة بهم. وعندما أثيرت أمامهم إشكالات فلسفية وفكرية، اضطروا من موقع قوة إلى توظيف المنطق اليوناني للدفاع عن معتقدهم وإقناع الشعوب المغايرة بوجاهة تصورهم للحياة والوجود. فهل نحتاج اليوم، في طور الهزيمة، إلى تحكيم منطق غربي عصري في فهم الدين، وهو منطق ثبتت محدودية مقولاته في زمن العولمة وفلسفة موت الإنسان وتنظيرات ما بعد الحداثة.

«الحق لا ينكشف إلا بالمثابرة والعناد»[26]، هكذا يصرح إدريس/ العروي. ويمكن القول إن مقاربة الوهن التنموي الذي لازم سياسة الإصلاحات في المغرب تكون بمقارنته بضده الياباني الذي يمثّل الجِدّ والاجتهاد.

يرفض إدريس العيش وسط «عدد من الطلبة المغاربة الذين قضوا سنوات في باريس دون أن يحرزوا أية نتيجة»[27]، ذلك أنهم «كانوا لا يبرحون الحي الجامعي... من الغرفة إلى المطعم ومنه إلى المقهى، ثم إلى قاعة الاجتماع. يلعبون الكارتة، يشربون البيرة، يتذاكرون في أخبار المغرب، الحقيقية والملفقة»[28].

يرفض إدريس واقعه في باريس حيث كان يتابع دراسته، مثلما تابع ذلك طلبة في أواخر القرن التاسع عشر في كثير من البلدان الأوروبية. ويعجز عن تغيير نمط العلاقات وموضوع الاهتمام الطالبي، ويقرر الهروب إلى أرضية

---

(26) المصدر نفسه، ص 79.

(27) المصدر نفسه، ص 79.

(28) المصدر نفسه، ص 79.

أخرى؛ فقد تأذى «من جوارهم حتى أنه فضّل بعد سنة أن ينتقل إلى دار اليابان حيث لم يكن يعرف أحدًا، حيث كان يسمع حس الريشة إذا لمست الأرض»[29].

أبدى إدريس إعجابه بالطلبة اليابانيين في باريس، وفضّل أن يكون واحدًا منهم. وأراد من خلال ذلك أن يجد راحة ذاته القلقة. لكن، أليس ذلك انهزامًا وفشلًا فكريًّا، بالنسبة إليه، في الدفع بالنخب المفكرة إلى حلبة الفعل الحضاري والتنموي؟ أليس في تفضيله الانتقال إلى دار اليابان دليل على قصور المثقف «الملتزم» عن الاندماج وتوفير فرص وإمكانات التغيير؟

من جانب آخر، تُعَدّ أطروحة محمد أعفيف أول دراسة أكاديمية مغربية متخصصة بتاريخ اليابان، وقد استهدفت «البحث في الأسباب البعيدة والقريبة التي هيأت اليابانيين، في نهاية القرن التاسع عشر، للانخراط في حركة تحديث عجز غيرهم عن الدخول فيها أو تحقيق المرتجى منها»[30]. وإذا كان بُعد المقارنة حاضرًا من ثنايا مقدمة دراسته، فإنه ينتقد دراسة مسعود ضاهر[31] (من دون أن يذكرها). ويقول في ذلك: «لا نجد نعتًا آخر نصِف به هذا الاطمئنان إلى المقارنة الممكنة (بل والأكيدة عند ثلة من مؤرخينا ومفكرينا العرب) بين النهضة العربية والنهضة اليابانية سوى نعت المقارنة الساذجة»[32].

يقول أعفيف: «تشكَّل في وعينا إحباط تاريخي قوي وأسى عميق لعدم استفادتنا على عهد محمد علي والسلطان المولى الحسن الأول من الفرصة التاريخية التي لا يمكن أن تعوَّض والمتمثّلة في عدم استفادتنا من البعثات العلمية الموفدة إلى أوربا للمتح من مَعين الحضارة ومنابع التقدم الذي نجح فيه غيرنا (اليابان)»[33].

(29) المصدر نفسه، ص 79.

(30) محمد أعفيف، «أصول التحديث في اليابان (1568-1868)،» (أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، 2004-2005)، ص 1.

(31) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999).

(32) أعفيف، ص 3.

(33) المصدر نفسه، ص 4.

من جانب آخر، يظن أعفيف أن إصلاحات عهد الميجي لا تتعلق «بمعجزة تحققت بفعل الاحتكاك بالحضارة الأوربية واستنساخها، وإنما بنتيجة لتطور عميق وطويل في تاريخ اليابان»[34]، وهو الموقف نفسه الذي ذهب إليه مسعود ضاهر، ومن قبلهما كثير من المؤرخين اليابانيين والغربيين الذين أوردنا مصنفاتهم ضمن مواد هذا البحث، ومنهم كوهاشيرو تاكاهاشي وبيير رينوفين وأدوين رايشاور وباتريك سميث.

يطمح أعفيف «إلى تخليص قراءتنا للتاريخ الياباني المعاصر من خرافة القطيعة التامة والمطلقة بين عصر الميجي والعصور المتقدمة عليه»[35]، وكأن ليس هناك دراسات سابقة عليه أصّلت الموضوع وتوسعت فيه، بل إني أعتبر أطروحته إضافةً كمية إلى الكتابات الغربية والآسيوية، ومن بعدها العربية في هذا المجال. ويعترف بذلك قائلًا: «لا ندّعي في هذه الدراسة أننا قمنا بفتح جديد في تاريخ اليابان، أو أننا أضفنا إليه شيئًا جديدًا»[36].

حللنا في مباحث سابقة موضوع البعثات التعليمية التي أوفدها نظام الباكوفو بعد حملة بيري وما أعقبها من توقيع اتفاقات غير متكافئة بين اليابان وبعض الدول الغربية. وتأتي أهمية هذه البعثات من كونها آخر المحاولات الإصلاحية التي لجأ إليها شوغونات التوكوجاوا لحل الأزمة الداخلية التي أعقبت توقيعه هذه الاتفاقات. وعلاوةً على ذلك، نظّمت المقاطعات المعارضة (ساتسوما وشوتشو وهيزن...) بعثاتها الخاصة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا.

مثّل مجمل هذه البعثات مؤشرًا دل على التنافس الشديد بين نظام إداري وسياسي عتيق استنفد أغراضه التاريخية، ونخبة ظنّت في أهمية العلم والتقانة الغربية وضرورة تهيئة أطرها المستقبلية وتكوينها في أبرز الجامعات البريطانية بالتحديد. وعلى الرغم من ذلك، لم يُعر أعفيف أهمية كبرى للموضوع، واكتفى بإشارة عابرة إليه في بضعة أسطر[37]. وأقول إن بعثات نهاية عهد الإيدو

(34) المصدر نفسه، ص 5.
(35) المصدر نفسه، ص 5.
(36) المصدر نفسه، ص 712.
(37) المصدر نفسه، ص 696.

التي فصّلنا فيها الحديث سابقًا، آلية مهمة تمكننا من فهم دور الخارج الغربي في صناعة التغيير في اليابان، وإقحام نخبه في مسيرة التحديث التي شكلت أطروحة أعفيف السابقة.

على الرغم من هذه الملاحظات، أضاف أعفيف إلى الخزانة المغربية بحثًا جديرًا بالقراءة والتمحيص، بعد أن سيطر المشارقة على معظم الإنتاجات التاريخية المتعلقة بتاريخ اليابان.

ثانيًا: الأسطورة اليابانية ومبدأ الوحدة وكاريزماتية السلطة المنهارة في المغرب

سبق الحديث عن دور الأسطورة اليابانية في إضفاء الشرعية المقدسة على النظام السياسي لعهد الميجي، حيث نُسجت نظرية سياسية توخت تحقيق الإجماع على شخصية الإمبراطور، ومُنحت قراراته التي صاغها مهندسو انقلاب الميجي طابع الإلزام والوجوب، وامتثل أفراد المجتمع الياباني لها ولمقتضياتها. وقد أدركتْ فئاتُ الحظوة، من المقاطعات التي ساهمت في إطاحة نظام التوكوجاوا، ضرورةَ استحضار المطلب الأسطوري لتصفية بقايا نظام الإقطاع، والقضاء على حكم الشوغون، والانتصار لخيار التحديث ومبدأ الوحدة. ويمكن القول إن القادة الجدد نجحوا في بناء تصور سياسي يلائم المرحلة الجديدة، قبل الانتقال إلى طور التقعيد الدستوري باستلهام التجارب الدستورية الغربية، وفي مقدمها الأنموذج البروسي.

ضمن هذا السياق، كان «البلاط الإمبراطوري هو الوحيد المؤهل لعملية التجديد، لذا فالقرارات التي يجب أن تصدر عنه يجب أن تنفذ بالكامل، وعلى الشعب الالتفاف حول الإمبراطور للحفاظ على سيادة اليابان وقدسية أراضيها»[38].

لا يمكن إنكار دور أسطورة الميجي وأثرها العميق في تغيير وجهة تطور المجتمع الياباني، حتى إن فوكوزاوا يوكيتشي، المنظّر الياباني المعروف، والمتشبع بقيم الثقافة الليبرالية لم يستسغ في أثناء زيارته الولايات المتحدة

---

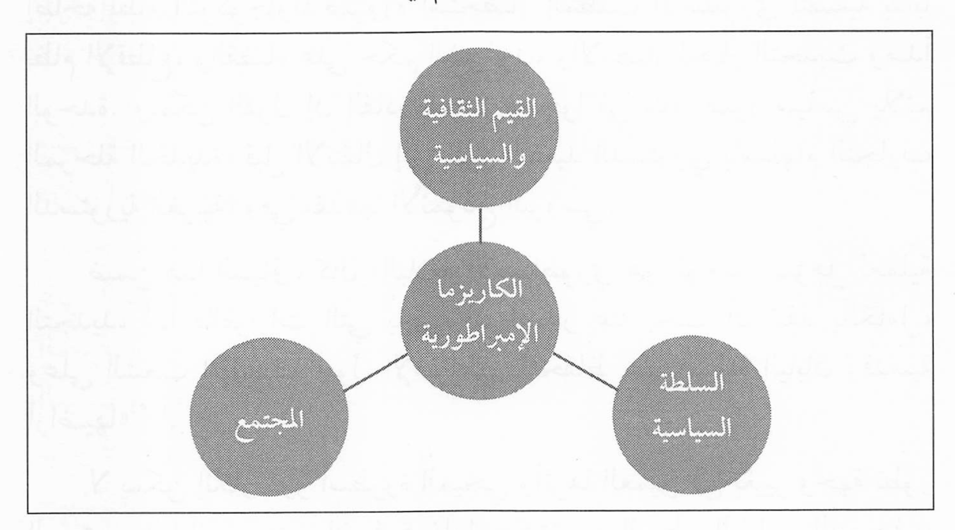
(38) المصدر نفسه، ص 240.

الأميركية (1860) نظرة الأميركيين إلى الرئيس الأميركي جورج واشنطن؛ فقد تحدث قائلًا: «كنت أعرف أن أمريكا جمهورية تنتخب رئيسًا جديدًا كل أربع سنوات، ولكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بأن عائلة واشنطن سيتم توقيرها فوق كل العائلات، وكان تفكيري هذا قائمًا على أساس التوقير الذي يحظى به إياسو من عائلة طوكوغاوا التي يبرز منها الشوغون، والذي يرفع إلى مصاف الآلهة حقًا في نظر الكافة، ولذا فإنني أتذكر الدهشة التي شعرت بها لدى استماعي لهذه الإجابة الخالية من الاكتراث حول عائلة واشنطن»[39].

مثّلت الأسطورة اليابانية مخرجًا معنويًا/ مثاليًا لترتيب مفردات الداخل الإداري والسياسي، وتركيز عناصر القوة الذاتية، وصهر الإمكانات المادية والمعنوية وتوظيف ذلك، بذكاء متميز، في بناء آفاق التنمية الواسعة، ومنافسة الغرب ومحاولة اللحاق به والتفوق عليه خلال فترة وجيزة.

الشكل (3-1)

حضور الترابط بين مكوّنات الفعل السياسي والمجتمعي والثقافي داخل النسق العام في اليابان

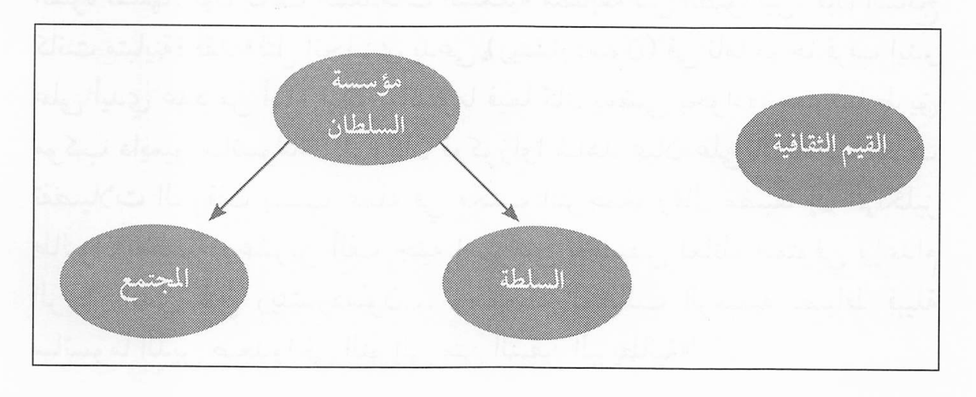


---

(39) فوكوزاوا يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 151-152.

الشكل (3-2)

غياب الترابط بين مكوّنات الفعل السياسي والمجتمعي والثقافي داخل النسق العام في المغرب



انتظمت الممارسة السياسية في اليابان وانبنت على أنساق متراكبة متناسقة، الأمر الذي منحها القوة والفاعلية. وفي الحالة المغربية، لم يخضع المجتمع والسلطة لقيم ثقافية أصيلة. ويتبين ذلك من خلال التسابق نحو الاحتماء بالأجانب على الرغم من عنف التقريرات والفتاوى الفقهية.

من جانب آخر، وظفت مؤسسة السلطان القيمَ الثقافية والدينية لمنح مشروعية استمرار نفوذها وسلطتها. وتسبب ذلك في حدوث قطيعة جليّة بين دوائر الفعل التنموي والإصلاحي؛ إذ غاب التفاعل الحي بين كل من السلطة والمجتمع من جهة والقيم الثقافية التي وظفت لإضفاء طابع المشروعية على السلطة السياسية من جهة أخرى. وفي أثناء مقاربتنا إشكالية السلطة في المغرب، وجدناها تفتقد عناصر الفاعلية المادية والرمزية. ويمكن قراءة هذا الغياب من مؤشرات مختلفة؛ ففي أثناء الحديث عن هزيمتي إيسلي وتطوان، تبدو لنا صورة السلطان في وضع كاريكاتوري يفتقد مقومات الدولة الفاعلة، حيث تغيب قيم الولاء والطاعة.

كانت السلطة المخزنية مهيمنة على إدارة الشؤون الإدارية والعسكرية، وكان المجتمع غير مكترث بتداعيات حرب تطوان مثلًا؛ فقد اضطر المخزن إلى الاقتراض من الخارج، مع جميع السلبيات الاقتصادية والاستراتيجية التي

رافقت هذه العملية، في حين كان في إمكان المجتمع المغربي أن يوفر مبلغ الغرامة الحربية، ويتجنب التداعيات السلبية (للنصائح) البريطانية في طريقة تسديدها. ويدفعنا هذا الافتراض إلى مقارنته بحادث مشابه وقع في اليابان في الفترة نفسها. فإذا كانت المقدمات الشكلية متطابقة بين الصورتين، فإن النتائج كانت متباينة؛ فقد «قُتل إنجليزي يدعى (ريتشاردسون) في ناما موجا قرب إيدو على أيدي عدد من أبناء قبيلة ساتسوما فيما كان يمضي بجواده، معترضًا طريق موكب دايميو ساتسوما»[40]. وكان فوكوزاوا شاهد عيان على الحادث، فعرف تفصيلات الموقف بسبب عمله في مكتب الترجمة، وقال مضيفًا إن الإنكليز طالبوا «بخمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني يخصص لعائلة المتوفى وإعدام الرجل الذي قتل ريتشاردسون... وسلمت المطالب الرسمية لضباط قبيلة ساتسوما الذين صعدوا في التو إلى متن السفن البريطانية»[41].

وبعد مفاوضات عسيرة امتزجت فيها البراغماتية السياسية بالأنفة اليابانية، تمت الموافقة على دفع التعويض المطلوب: «ولما كان الرجل الذي اغتال ريتشاردسون قد لاذ بالهرب فإنه لم يكن في مقدور القبيلة إلا أن تعد بإعدامه عندما يلقى القبض عليه»[42]. حُلّت المشكلة بطريقة وأسلوب ينمان عن فهم دقيق لمجريات الأمور وتحديد موضوعي لإمكانات الداخل في المواجهة والقتال، في حين اختلقت إسبانيا أسبابًا «اقتضت قيام الفتنة بين حامية سبتة وقبيلة الأنجرة، فعُيّن لفصل قضية الأنجرة الفقيه الزبيدي والفقيه الخطيب... فتهور الزبيدي - بتعبير الأعرج السليماني- في مخابرته مع سفير إسبانيا مع جهله عواقبها وفقده لوازمها»[43].

هل كان في إمكان المغرب تجنّب وقوع معركة تطوان وتداعياتها السلبية على المجتمع والاقتصاد المغربيين؟ هل كانت مكوّنات الفعل الدبلوماسي المغربي قادرة على إدارة الأزمة الإسبانية المغربية بالحنكة الدبلوماسية التي

(40) يوكيتشي، ص 176.
(41) المصدر نفسه، ص 185-186.
(42) المصدر نفسه، ص 189-190.
(43) محمد بن أحمد بن الأعرج السليماني، اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي حول المغرب (الرباط: مطبعة الأمنية، 1971)، ص 36-37.

لمسناها في قضية تورّط مقاطعة ساتسوما اليابانية في اغتيال ريتشاردسون الإنكليزي؟ هل كان المخزن يتوافر على مؤسسة دبلوماسية تحظى بالصدقية والاستمرارية؟

احتكر المخزن حبك خيوط النسيج السياسي وأنماط العلاقة مع مفردات الداخل والخارج، منذ قرون طويلة، وكانت مؤسسة السلطان الثابت الذي لا يتحول. ولم يكن الوزراء والمستشارون وأهل الحل والعقد إلا أفلاكًا تدور في محيطها، تأتمر بأوامرها وتنتهي بزواجرها. وكان مآل الخارجين عن جاذبيتها السياسية الإبعاد والتهميش والتنكيل وحيازة الأموال والثروات.

لم يسمح «النظام الحكومي في المغرب، بالمطلق، للعائلات الكبيرة بإرساء امتيازاتها على أسس صلبة ودائمة. وجذبت ثرواتها انتباه المخزن الذي لم يكن ينتظر سوى المناسبة للاستحواذ عليها»[44]. ويشير شارل دو فوكو إلى أن «همّ السلطان الدائم أن يسهر على ألا يصبح أي كان في مملكته غنيًا جدًّا وألا يكون له نفوذ كبير»[45].

لذا، لما كانت التعاقدات السياسية عمودية، فَقَدَ البناءُ السياسي الداخلي قيمةَ الاستمرارية وانتفى وجود فئة أو نخبة يمكنها منافسة المخزن وإعانته على بلورة المشاريع الإصلاحية؛ فقد نشأت في المغرب فئة من التجار مارست نشاطها داخل المغرب وخارجه في بعض البلدان الأوروبية. ويبدو أنها لم تكن معنية بموضوع البعثات التعليمية، ولم تمتلك الإمكانات المعرفية والثقافية التي تسمح لها بدفع أبنائها للانخراط في مسيرة التعليم في الخارج كما فعلت أسر الساموراي المنحلّة عندما دخلت في سباق محموم، مع نظام الباكوفو ومن بعده نظام الميجي، لإيفاد الأبناء إلى الجامعات الأوروبية والأميركية بغية ترسيخ الامتيازات التي أتاحتها الإدارة اليابانية للكفاءات الوطنية.

تكمن مشكلة السلطة في المغرب في مفارقتها بُعد العقد الاجتماعي،

---

(44) M. L. Bouvat, «Extraits de la presse musulmane,» *Archives marocaines*, vol. 6, nos.1-2 (1905), p. 375.

(45) شارل دو فوكو، التعرف على المغرب، 1883-1884م، ترجمة المختار بلعربي، 2 مج (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1999)، مج 1: الرحلة، ص 36.

وهو ما جعلها تتبوأ قمة الهرم السياسي في غياب قواعد مجتمعية داعمة لها. كما فقدت هذه السلطة عناصر الاستمرارية والعمق التاريخي الذي يمنحها النضج والفاعلية، ذلك بأن توهجها كان يأفل بمجرد موت السلاطين الأقوياء (المنصور السعدي، والمولى إسماعيل، ومحمد بن عبد الله، والحسن الأول)، وهو ما يؤكد أن المجتمع المغربي لم ينخرط انخراطًا واعيًا وإيجابيًا في حقول الفعل السياسي ودوائره المختلفة بالشكل الذي يجعل منه أصلًا ومن السلطة فرعًا واستثناءً.

تنبّه مستشارو الميجي لخطورة الهجمة الغربية على نظامهم السياسي، فبحثوا عن سبل المحافظة على إمكانية الداخل وتنميتها في أفق منافسة ومغالبة الخارج، ووظفوا الأسطورة اليابانية القديمة لتحقيق إجماع وطني وحلف اجتماعي مقدس يقوده الإمبراطور، «سليل الآلهة» وأبو المجتمع.

كان حضور الدولة قويًا في عملية إرسال البعثات التعليمية اليابانية إلى الخارج، انسجامًا مع التوجه العام الذي أسس سياسة احتكار الشؤون السياسية والاقتصادية على امتداد نحو عشرين عامًا من قيام عهد الميجي. وسنلاحظ لاحقًا في هذا الكتاب العنايةَ الإمبراطورية الخاصة التي أحيطت ببعثة إيواكارا المشهورة، من خلال التوجيهات الدقيقة والغايات الاستراتيجية التي رسمها موتسو هيتو لأفرادها وهم يتأهبون لسفرهم إلى الولايات المتحدة وأوروبا. ويمكن تصور زخم اللقاء التاريخي الذي جمع أطراف التعاقد الياباني من خلال منطق الوطنية الفاعلة والوعي التاريخي بحقيقة التحديات والرغبة في المعرفة وامتلاك أسباب القوة والمغالبة.

إننا أمام نظام سياسي تعاقدي، يحمل طابع القداسة، ويتأسس على منطق التراكم الإيجابي الذي تحقق في فترة العزلة الطوعية التي دامت نحو 250 عامًا. وقد قارن موتوري نوريناغا (1730-1801) بين الثقافتين الصينية واليابانية قائلًا: «بينما تقوم الثقافة الصينية على نظام من المبادئ المعنوية، فإن الثقافة اليابانية تتأسس على قيم الجمال والعاطفة»[46].

---

(46) O-Young Lee, *Smaller Is Better: Miniaturisation et productivité japonaises*, traduit de l'anglais par Jean Martel, collection productivité de l'entreprise (Paris; Milan; Barcelone: Masson, 1988), p. 91.

في المقابل، فقدت السلطة في المغرب قيمة الاستمرار والاستقرار منذ نهاية عهود الدول العصبية الكبرى، خصوصًا المرابطية والموحدية، ونتوءات في بعض عهود السعديين والعلويين. وتُعتبر القطيعة السياسية أحد لوازم تاريخ الدول في المغرب، وقد يكون ذلك سببًا في غياب تراكم تجربة سياسية واضحة وجليّة، كفيلة بتطوير نمط سلطة سياسية ناضجة وفاعلة. وكان ذلك سببًا في انكشاف عورة السلطة والمجتمع عندما حدث الاحتكاك الفعلي بالغرب، ومن خلال الهزائم العسكرية والدبلوماسية التي مُني بها المخزن طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

إذا كانت بعثة إيواكارا (1871-1873) اليابانية تركيبًا تاريخيًا لمجمل التحولات التي شهدتها اليابان، ومؤشرًا دالًا على قيمة الاستمرارية وما حققته من تراكم مادي ومعنوي، فإن بعثات المغرب لم تتوفر على إطار مؤسساتي يمنحها المعنى والغاية، ويدمج أعضاءها ضمن صُلب الإشكال التحديثي الذي رام المخزن، من خلاله، تجديد رموزه ومؤسساته التي دب فيها الوهن وعدم الفاعلية.

كثيرة هي التصورات التي تحيل على المرجعية الإسلامية في بناء الدولة وتداولها في المغرب، مستدلة على ذلك بمجموعة من الرموز الشكلية في مدونة الأحكام السلطانية (البيعة، الموالاة، الدعاء في الخطب... إلخ)، في حين أن المضمون الحقيقي لهذه الرموز والأشكال التعاقدية المنبثقة منه ظلت غائبة على مستوى الممارسة الفعلية.

يتجلى الإشكال المثار أمامنا، ونحن نقارن بين أداء السلطة في كل من المغرب واليابان، في محاولة الرموز السياسية والإدارية تجديد مقاساتها، ووضع قطع غيار جديدة في بناء عتيق استنفد أغراضه التاريخية. وكانت المحاولات الإصلاحية مجرد عملية ميكانيكية بسيطة لا تنسجم مع حجم التعقيدات التي كانت عليها الحالة المغربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

تأسست الدولة في اليابان منذ بداية عهد حكام التوكوجاوا وترسخت معالمها وتعاقداتها طوال فترة العزلة الطوعية. ووظف قادة الميجي اسم

الإمبراطور لمنح نظامهم السياسي نوعًا من المشروعية والإلزامية؛ فقد كانت العائلة الإمبراطورية حجر الزاوية المعنوية في بناء هرم السلطة السياسية. واستثمر مهندسو سياسة الإصلاح، في عهد الميجي، القيم السياسية نفسها واكتفوا بتغيير مواقع توزيع الحكم وأعادوا إلى الإمبراطور سلطته التنفيذية المغتصبة، كما أوجدوا حالة شعورية ونفسية متدفقة لدى جميع فئات مجتمع النيبون وعناصره التي انخرطت طوعًا وكرهًا في عملية البناء الجديد.

احتاج الأمر إلى مقدمات وتمهيدات وإلى قيادات تتميز بالقدرة على استثمار إمكانات الداخل في التغيير الهادئ والبنّاء. كما أن العملية برمّتها ما كان لها أن تخرج من دائرة الوجود بالقوة إلى درجة الوجود بالفعل، من دون قاعدة مجتمعية واعية ومدركة لخصوصيات المرحلة، وهذا ما يدفعنا إلى البحث في مقدمات البناء المجتمعي ونتائجها في كلٍّ من اليابان ومغرب الحماية القنصلية.

ثالثًا: الولاء والوحدة في اليابان والحماية في المغرب

يُعَدّ المجتمع الوعاء الحاضن للقيم والمؤهل لتحقيق الاستمرارية والتواصل مع الذاكرة والتاريخ. لكن ما هي الآليات التي تجعل من هذا مجتمعًا ما ديناميًا ومن آخر جامدًا وغارقًا في الفوضى والمتاهات الداخلية؟ أي دور تؤديه الدولة والنخب في منح الغاية والمعنى لحركية المجتمع وسعيه نحو غاية قصوى مرسومة؟ ما الذي جعل من المجتمع المغربي جُزرًا متناثرة فقدت حس الانتماء الإيجابي؟ وما العوامل التي حفّزت المجتمع الياباني على الانخراط الواعي والفاعل في مسيرة التحديث خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟

بلغ عدد الحركات في عهد الحسن الأول عشر حركات[47]، خصوصًا في اتجاه المناطق التي تسكنها قبائل زمور التي وصفها لوتي بمختلف مظاهر العنف[48]. صحيح أن هذه القبائل لم تكن ذات نزعة استقلالية، بل كانت

(47) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 56.

(48) Pierre Loti, *Au Maroc*, présentation de Denise Brahimi (Paris: La Boîte à documents, 1988), p. 204.

تنتفض ضد الضغط الضريبي الذي يمارسه القواد[49]. ودلت هذه التمردات على غياب فعل سياسي وإداري وجبائي، يضمن الوحدة المجتمعية ويؤسس مبدأ التنمية الداخلية. وكانت الحركة «إدارة مخزنية متنقلة يعالج السلطان بمناسبتها ومن خلالها مشاكل مختلف مناطق البلاد معالجة مباشرة»[50]. وفي ضوء هذا التصور، يمكننا مقاربة العلاقات الكبرى التي ربطت السلطة بالمجتمع، وهي علاقات لم تكن في أغلب الأحيان متناغمة وفاعلة.

من جهة أخرى، تناسلت الحماية القنصلية، وأبانت عن ثغرات مجتمعية عدة؛ فقد «كان عدد المحميين حتى سنة 1856م لا يتعدى 400 في المغرب كله، ولكن العدد صار يرتفع فجأة ارتفاعًا غير طبيعي بعد هزيمة سنة 1860م ومجيء الأجانب بكثرة للاستقرار بالموانئ واتساع حركة التصدير والتوريد»[51].

أصبحت الحماية القنصلية وبلقنتها للمجتمع المغربي إشكالًا مركزيًا شغل بال الحسن الأول طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان السلطان يعي ارتهان مصير الإصلاح العام في المغرب بضرورة إيجاد مخرج مقبول لها، فقدم لذلك مجموعة من التنازلات، لعل أهمها عقد مؤتمر دولي في مدريد عام 1880، وما أدى إليه من تدويل للقضية المغربية وتقنين لهذه الجرثومة المجتمعية التي لم تنفع معها خطب الواعظين وتقريعات المؤنبين؛ فقد كتب العربي المشرفي في موضوع الحماية الفردية قائلًا: «ومن أعان المحتمي أو عاشره أو خالطه أو أرضته حالته فهو فاسق ملعون...»[52]. كما كتب في الموضوع جعفر بن إدريس الكتاني (**الدواهي المدهية للفرق المحمية**)، ومحمد بن إبراهيم السباعي (**كشف الستور عن حقيقة كفر أهل بصبور**) والمهدي بن محمد الوزاني (**المعيار الجديد**)[53].

---

(49) المصدر نفسه، ص 204.

(50) عبد السلام الحيمر، النخبة المغربية وإشكالية التحديث (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001)، ص 115.

(51) عبد الوهاب بنمنصور، الحماية القنصلية، في: مجموعة الوثائق، العدد 4 (1977)، ص 51.

(52) المصدر نفسه، ص 50.

(53) المصدر نفسه، ص 51.

لم تنجح هذه الكتابات والفتاوى، على الرغم من تأصيلاتها الشرعية، في بتر هذا الداء، بل ازداد الوباء انتشارًا واتساعًا، وحدث شرخ كبير في صفوف المجتمع المغربي الذي بدا فاقدًا قيم المواطنة، فما عاد يؤثّر فيه وعظ أو إرشاد، ووجدت مفرداته ضالّتها في الحماية القنصلية للتهرب من أداء الواجبات الوطنية.

يمكن القول إن هذه العيّنة من الأفراد والقبائل هي التي كانت تقول في أثناء معركة تطوان: «ما لي ولتقدم هذه الشرشمة، وإنما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم، وأما أنا فحتى يصل إلي بخيمتي في عبدة أو دكالة...»[54]. وبذلك أصبح المجتمع يعيش بمنأى عن الغاية والمعنى، واستغلت القوى الأوروبية هذه الثغرة لتوسيعها وتحقيق المكاسب لفائدتها.

لا تقوم الوحدة على أسس تنظيرية مفارِقة للواقع المعيش؛ إنها مكابدة يتداخل فيها ما هو عاطفي وإيماني في ما هو وجودي ورمزي. ربما توجد نصوص ومبادئ تحضّ على الوحدة والتكتل، لكنها تأخذ قوتها وتبرز أهميتها عندما تتجسد في شبكة من العلاقات المجتمعية التي تحكمها الحميمية والإحساس بالمصير المشترك. فإذا قارنا ذلك بحالة المجتمع الياباني في الفترة المذكورة نفسها، تتضح أمامنا مقدمات مجتمعية مختلفة أشد الاختلاف؛ فقد برزت في عهد ميجي أيديولوجيا تغلب عليها الطبيعة التقليدية، وتكاملت في داخلها ودعمتها التعاليم الدينية القديمة وعملية التعليم، وحددت لها مجموعة من الأهداف السياسية. وكان الهدف الاستراتيجي هو تحقيق «المبادئ المقدسة للذات القومية اليابانية»، وحملت هذه الأيديولوجيا رفضًا صريحًا للفردية ولليبرالية الغربية. ومع تزايد التحضر والتصنيع والتحديث، تأكدت أهمية الولاء والطبيعة الأبوية للعلاقات السياسية والتي كانت تنتهي وقتذاك إلى الإمبراطور[55].

---

(54) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، 9 ج (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954-1956)، ص 88.

(55) عبد الغفار رشاد، التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984)، ص 82.

يقوم اليابانيون في معظم الأحوال بأعمالهم في مجموعات، «وهم على الأقل يدركون تمامًا أنهم يعملون بهذا الأسلوب الجماعي... فانتساب الفرد للفريق أو الجماعة من أهم الأمور في اليابان، كما أن حب اليابانيين لتأكيد انتمائهم للجماعة قد يفوق الواقع نفسه...»[56]. ويستهلك اتخاذ القرار في اليابان «وقتًا أطول مما يحتاجه في أميركا، أما وضعه موضع التطبيق فيستهلك وقتًا أقل بكثير»[57]، ذاك ما يقوله أحد الباحثين الغربيين وهو يحلل طبيعة العلاقة التي تحكم المؤسسات اليابانية من زاوية مقارنتها بمثيلتها الغربية، ويتابع قائلًا: «في مثل هذه السيرورة للقرار، لا يوجد مركز وسلطة عليا، بل فقط تعددية جماعات تسعى إلى تنمية سلطاتها دون الذهاب إلى حد المساس بسلطات المجموعات المجاورة»[58]، والرأسمالية اليابانية «تظهر بوضوح المزج بين المنافسة الضارية وتسوية الاتفاقات المفروضة التي تَسِمُ عالمَ الأعمال الياباني»[59].

انتقلت القيم الثقافية اليابانية من الحقل إلى المصنع؛ ففي إحدى الشركات اليابانية الحديثة، ماتسوشيتا، يشعر رئيسها بسرور لمرافقة الزوار في مصانعه؛ وبين الفينة والفينة يشير إلى أحد عماله قائلًا: «هاكُم واحدًا من أفضل مدرائي»[60]. إنه نظام يتحول فيه العامل إلى مدير والمدير إلى عامل يعمل فيه بحسب «فلسفة تقول إن عددًا كبيرًا من العقول الصغيرة أفضل من عدد قليل من العقول الكبيرة»[61]، وهو ما يدل على احترام قيم الجماعية ومنح إمكانات الإبداع في حقول التنمية المختلفة. وهذا هو الثابت في بنية المؤسسات اليابانية القائمة على احترام التراتبية المجتمعية، وفك التناقضات، والبحث عن التوافقات التي تحول دون حدوث انفجار اجتماعي محتمل.

(56) أدوين رايشاور، اليابانيون، ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ 136 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 181-182.

(57) جان ماري جوينو، نهاية الديمقراطية (مصراته: الدار الجماهيرية، 1995)، ص 112.

(58) المصدر نفسه، ص 114.

(59) المصدر نفسه، ص 114-115.

(60) ريتشارد ت. باسكال وأنتوني ج. آثوس، فن الإدارة اليابانية، ترجمة حسن محمد ياسين؛ مراجعة حامد سوادي وخالد حسن زروق (الرياض: معهد الإدارة العامة، 1986)، ص 45.

(61) المصدر نفسه، ص 45.

لا تتحقق القيم إلا من خلال الجماعة، وجوانب الثقافة والأخلاق كلها ليست غايات في ذاتها، وإنما تتحدد قيمتها بمقدار ارتباطها بحياة جماعة ما ومساهمتها فيها فحسب. وللجماعة طابع مقدس، ومصدر هذه القدسية هو الرؤساء الرمزيون للجماعة وهم الأجداد الأوائل؛ فالأسرة لها رئيسها المقدس، وكذلك العشيرة والقرية، وفي النهاية القطر بكامله حيث يقف في مقدمه إمبراطور يتحدر من أصل مقدس لا ينقطع[62]. ويمكننا قراءة قوة المخيال الجماعي لمجتمع الميكادو من خلال المبادئ السياسية والاجتماعية التي رافقت عهد إصلاح الميجي، ومن أهمها[63]:

- أن اليابان ذات خصوصية فريدة في التاريخ، لأنها تضم شعبًا متجانسًا يقيم على أرض مقدسة ترعاها الآلهة.

- أن الإمبراطور هو سليل الآلهة وأبو جميع اليابانيين الذين يشكلون عائلة واحدة.

- أن اليابان دولة ذات فرادة في التاريخ الحديث والمعاصر، لأن الإمبراطور يعتبر جميع اليابانيين أبناء له، وهم متساوون في الحقوق والواجبات، ويرفضون جميع مقولات الانقسام الطبقي أو اللغوي أو الديني أو العرقي التي تميز بين أبناء الشعب الواحد.

- أن اليابان بلد العائلة الواحدة في دولة مركزية واحدة، ولها أب واحد هو الإمبراطور.

لم تبق هذه المبادئ حبيسة دوائر فكر النخبة السياسية والفكرية، بل أضحت حالة فعلية، تعمل وتدفع باتجاه تطور المجتمع الياباني وتحوله. كما أصبحت الكفاءة عنصرًا مهمًا للترقي الاجتماعي، وأضحى جميع اليابانيين متساوين أمام القانون، وانفرد الإمبراطور بمجموعة من الامتيازات المادية والمعنوية، وأصبحت له كاريزماتية خاصة، فعلت أثرها في مجال الولاء الاجتماعي والسياسي.

---

(62) رشاد، ص 67.

(63) مسعود ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيًا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص 66-67.

نحن إذًا أمام مجتمع يعرف غايته ومصيره، ويحدد بدقة وتخطيط مآله وعاقبته. وقد أدت مرحلة العزلة الطوعية دورًا أساسًا في تنمية الوعي القومي الياباني كما تسببت طبيعة النظام الفيودالي في تعميق مفاهيم الولاء المتبادل وفي تضحية فئة الساموراي في سبيلها من خلال ما يسمى في الأدبيات اليابانية البوشيدو والسيبوكو.

كان في إمكان المجتمع المغربي تفعيل رموزه ومصطلحاته الموازية لمثيلاتها اليابانية كمصطلح الجهاد، مع ما يعنيه ذلك من جهاد تنموي وفكري وسياسي وعسكري. لكن عجلة المجتمع المغربي كانت تدور إلى الوراء بشكل عبثي، وتفتقد المقدمات السليمة والفاعلة.

تدعو القيم الثقافية المغربية/ الإسلامية، نظريًا، إلى البناء المرصوص، وإلى مطلب السهر والحمَى بين أفراد المجتمع، وإلى التعاون على مبدأ البر والتقوى. لكن الذهنية الوقتية لم تُفعِّل هذه القيم ولم تمنحها شحنة الإيجابية المطلوبة.

يبدو أن الأزمة ظلت ذهنية وأخلاقية، ويمكننا البحث عن مقدمات النجاح والفشل في نمط التفكير السائد والسلوك المنبثق منهما من أعلى مستوى سياسي وإداري إلى أضعف حلقة مجتمعية، وكذا في درجة التفاعل بين هذا النمط وهذا السلوك وطبيعة النشاط الاقتصادي.

لم تعرف اليابان ما شهده المغرب في زمن الحماية القنصلية؛ إذ تناسل عدد المحميين، وأصبحت الحماية القنصلية وباء تفوق خطورته ما عرفه المغرب من جوائح وأوبئة في تاريخه الطويل والممتد.

يصعب أن نجد في يابان الميجي من انحاز إلى طرف خارجي ضدًا على وطنه وأمته وإمبراطوره؛ بل حمل التغيير الذي طرأ في عهد الإحياء شعارًا أساسًا وجوهريًا وهو «مجِّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة». وفي إطار هذا المحدد الاستراتيجي حدث التغيير والانقلاب في مضمون البناء الاجتماعي الداخلي وما لحقه من تحول في علاقات الداخل الياباني بالخارج الآسيوي والغربي.

يورد يوكيتشي حادثة وقعت له في أثناء زيارته لروسيا، حيث انفرد به أحد أعضاء لجنة الاستقبال، ودار بينهما الحوار الآتي:

- الروسي: «لست أعرف شيئًا عن خططك المستقبلية. ماذا تنوي عمله لدى رجوعك إلى اليابان، ولكن هل أنت ثري جدًّا؟

- يوكيتشي: لست بالثري أبدًا، ولكنني ليست لدي صعوبة في المعيشة، وأنا أعمل في خدمة الحكومة، الأمر الذي يعود ببعض التعويض.

- الروسي: حسنًا، لست أعرف الكثير عن اليابان... ما قولك في أن تستقر في روسيا؟

- يوكيتشي: إني في خدمة سفارة، وليس في مقدوري الانسحاب والبقاء هنا كما تقترح.

- الروسي: آه، نعم، في مقدورك ذلك في يسر، إذا عقدت العزم على القيام بذلك فإنه في استطاعتك، وسوف أخفيك في مكان ما، ولن يتمكن اليابانيون من العثور عليك، حيث أن الموفدين سيغادرون قريبًا[64].

ويعلق فوكوزاوا على هذا الحوار قائلًا: «قيل هذا بجدية مطلقة في هدأة الغرفة الخاصة، ولم يكن هناك مؤشر لأي ادعاء أو عبث... ثم طلب مني مجددًا مرتين أو ثلاث مرات أن أعيد النظر في هذا العرض، وبالطبع لم أعد النظر فيه، واستبعدته تمامًا»[65].

كانت الخيانة السياسية والتفكير فيها علة مفارِقة لخصائص المجتمع الياباني، بل إن إفشاءها كان يُعَدّ نوعًا من المخاطرة غير محمود العواقب. وأضاف يوكيتشي قائلًا: «لم أستطع الإفضاء بهذه الواقعة إلى أيٍّ من زملائي؛ ذلك أن الإشارة إلى اتصال خاص من شأنها أن تجعلني في موضع شك، ولذا أبقيتها طي الكتمان، حتى بعد عودتي إلى اليابان، ومن غير المستبعد حقًّا أن أعضاء آخرين في بعثتنا خاضوا غمار التجربة نفسها. وبالمثل من جراء تخوفهم

(64) يوكيتشي، ص 174.
(65) المصدر نفسه، ص 174.

من الشك، لزموا الصمت»[66]. هو الصمت للحفاظ على دينامية الجماعة وصدقية الفرد داخلها، وهو استبعاد مطلق لخيانة الأمة والمجتمع مهما كانت المغريات والمحفزات. أين المغرب من ذلك؟ في أي إطار نضع تسابق المغاربة بأغنيائهم وفقرائهم وشريفهم ووضيعهم في الحصول على صك الحماية القنصلية؟ ما السبب الذي دفع أمثال أبي بكر الغنجاوي والشريف عبد السلام الوزاني والحاج محمد بن سعيد المصلوحي والوزير المنبهي والشريف الريسوني وغيرهم إلى الارتماء في أحضان القوانين الأجنبية؟ وهل يمكننا أن نجد في الحالة المغربية من يصلح للمقارنة بأنموذج الساموراي الياباني الأصيل الذي يحمل قيم المواطنة والتفاني في خدمة مصالح الأمة! هل يمكن لحميدة الشجعي الذي فُوّض لتوقيع اتفاق الحدود مع فرنسا، أن يكون أنموذجًا وطنيًا فاعلًا، وهو الذي تلقّى الرشاوى لتقديم خدمات استراتيجية للعدو، أم نختار العشرات بل المئات من الأعيان والثوار وحتى الوزراء الذين استظلوا بالحمايات الأجنبية، وأصبحوا أوراقًا تفاوضية ومصلحية في يد القوى الأوروبية؟

لا نقارن هنا بين شخصيات وأفراد من المغرب واليابان، بل ببنية مجتمعية، ونمط فكري، وأداء سياسي وإداري يخفي وراءه حجم الأزمة العامة بالمغرب وامتداداتها، وصعوبة التقاط عوامل النجاح، والتي يمكن أن تحقق بعض الأمل في رسم خطوات الاستعداد، والقابلية للنجاح التنموي.

إنها مشكلة ذهنية تشكلت على امتداد فترات الفوضى والأزمة فمنحتها أسباب التناسل والامتداد إلى مختلف الأجهزة الإدارية والسياسية والمجتمعية. ويحتم علينا ذلك تناولها بنوع من التركيز بمقارنتها بغيرها في مجتمع النيهون.

رابعًا: تعارض الخطابات وتنافر الذهنيات

ركز كثير من الدراسات المشرقية في المقاربة بشأن المسألة اليابانية على لغة الأرقام في المجالات الاقتصادية وفي قطاعات التربية والتعليم، وتضمنت الدراسات تلك مجموعة من الأحكام والاستنتاجات التي تحتاج إلى مقدمات

---

(66) المصدر نفسه، ص 175.

ملائمة. وإذا كان المجتمع الياباني يبدو، ظاهريًا، بسيطًا وقابلًا للمقاربة الإنشائية والمقارنة الميكانيكية، فما سبق أن ذكرناه في الفصل الأول يلمح إلى أن القضية معقدة وتتطلب نوعًا من سبر أغوار مجتمع تكون فيه مساحة المُخبَّأ أكبر من المكشوف، والباطن فيه أقوى من الظاهر. ويتطلب ذلك منا منهج تحليل يركز على الكشف عن ثوابت الذات اليابانية في تعاملاتها الأفقية والعمودية على المستويات الداخلية والخارجية.

إن ما يزيد من صعوبة الفهم هو الأحكام الانطباعية الغربية التي رأت وترى في مسيرة التحديث الياباني حالة مفارقة للمركز الأوروبي الغربي، على الرغم من قطعهما مراحل التغيير التاريخي نفسها (فيودالية-رأسمالية) .

يُعتبر العامل الذهني والتصورات الوجدانية لمسألة الثورة والإصلاح صُلب الإشكال الذي يتطلب نوعًا من المعالجة والتحليل المتأنّيين، ويمكن استنتاج طبيعة هذه الذهنية وهذه التصورات انطلاقًا من بعض النصوص، ومن ذلك ما قاله سوزوكي تاكاشي، وهو ليبرالي إصلاحي ينتمي إلى اتجاه أوكوبو نفسه، فيما كان يجادل أحد الفرنسيين: «إذا قمت بتقسيم مجموعة أربعة أجزاء برسم خطين متعامدين، الأول عمودي والآخر أفقي، فإن المنطق سيقودك إلى رؤية كل جزء ككيان مستقل، وهذا شيء واضح. لكن بالنسبة إلي، فإن تقسيم المجموعة أربعة أجزاء عملية هندسية، وطريقة لتقريب المفهوم بشكل لا يغير نسق المجموعة، ومن جهة أخرى هل تتلاءم عملية القسمة مع الحقيقة؟ إنه السؤال الذي يجب إثارته، تشبه المجموعة بصفة عامة إما قطعة المطاط أو حلوة 'النوغا'. تلاحظون إذًا أن الحقيقة لفظة مبهمة، ويبدو جليًا أن ثورتكم في عام 1789 لا علاقة لها بثورتنا في عام 1868»[67].

يقول هذا الخطاب إن النزعة الفردية اليابانية لا يمكن رؤيتها إلا ضمن نسق الجماعة، فهي التي تحتضنه وتمنحه معنى الوجود والاستمرار. وقد شكّلت الجماعة إطارًا فاعلًا في تحولات عهد الميجي. وإذا كانت الثورة الفرنسية اختارت الاتجاه المعاكس بتغليب مصالح البرجوازية وحكّمت النزعة الفردية على حساب الطبقات الأخرى، وإذا كانت هذه المقارنة مقبولة بين

---

(67) Jean-Claude Courdy, *Les Japonais* (Paris: P. Belfond, 1979), p. 138.

ثورتين متماثلتين في الندّية وفي حجم التحولات التي أعقبتهما، فكيف يمكننا مقارنة خطاب التغيير الياباني بمثيله المغربي في فترة حكم الحسن الأول؟

لا نتحدث هنا عن مبادئ تنظيرية، إنها المرحلة التي أعقبت ثورة الميجي وجعلت اليابانيين يرفعون شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة»، قبل أن يتحول إلى مقولة «جيش قوي لدولة غنية». وفي الوقت نفسه كان الرعايا المغاربة ينتجون خطاب الأزمة وهُم يمتلكون جميع الرموز الثقافية الكفيلة بإحداث التغيير والتحول، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث.

ظل الإشكال الحقيقي كامنًا في إخراج المنظومة الثقافية الإسلامية من دائرة الوجود بالقوة إلى مبدأ الوجود بالفعل، وبين هذين الوجودين حصل الاختلاف بين المغرب واليابان، فأدى الانسجام والتوافق بين التوقد الذهني والتفاعل مع الرموز الثقافية إلى إنتاج التحديث والانتصار في مبدأ التوفيق بين التقليدية والحداثة اليابانية. وعلى العكس من ذلك، أدى التنافر بينهما إلى إنتاج نمط إصلاحي معتل ومشوّه في المغرب.

تتطلب عملية التغيير مبدأين متكاملين: التخلية والتحلية. وقبل عملية التحلّي بالأنماط والأساليب الجديدة، يجب التخلّي عن العلل المزمنة وتجنّب أسبابها. وإذا كانت التجربة اليابانية أخذت بمفهوم التخلّي وألغت النظام الفيودالي وتوابعه القانونية والإدارية والمجتمعية، فهي أعقبت ذلك بالتحلّي بعناصر القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم تكن البعثات التعليمية وجلب الخبراء الأجانب سوى الوسيلة المثلى لتجديد مقاسات المجتمع الحديث ووضع عجلات تنموية جديدة تحقق الأهداف الاستراتيجية لمجتمع النيهون.

في المقابل، لم يتأسس الإصلاح في المغرب على مقومات سليمة؛ فقد حافظ المخزن على رتابة المؤسسات، ولم يطرأ أي تحول في البناء المجتمعي وفي نسق الممارسة السياسية، كما لم تنتج الصدمة الغربية ردًّا مكافئًا لقوّتها؛ إذ فكرت الإدارة المغربية وقررت التحلي ببعض الأنماط الوافدة عن طريق إرسال البعثات التعليمية لملء بعض الثغرات التي حسبتها موجودة ببنائها العام، فجاءت محاولة التحديث مشوَّهة وفاقدة قيمة الاستمرارية والفاعلية المنشودة.

لم تكن ذهنية التغيير والتنمية في المغرب تحتاج إلى فتاوى فقهية؛ ذلك أن المجتمع الذي يتفاعل مع رموزه الثقافية والفكرية سرعان ما يكيف الأنماط التحديثية الوافدة بيسر وسهولة. ولعل التجربة الإسلامية الأولى، خصوصًا في عهد عمر بن الخطاب، تجعلنا نتأمل ونتساءل عن نمط العبقرية الذي استطاع في وقت وجيز احتضان معالم القوة الإدارية والاقتصادية الفارسية والبيزنطية وإدماجها في المشروع الحضاري الإسلامي الذي حمل البُعد العالمي في إنتاج القيم الثقافية والعلمية والاقتصادية.

ضمن هذا السياق، لنتأمل هذا النص الذي أورده روجرز حين قال: «... وما إن انتهى الاجتماع بين الرجلين حتى اصطحب المولى الحسن السير جون دريموند هاي إلى منزل في حديقة القصر، حيث تمت إقامة أجهزة البرقيات. وقد أظهر المولى الحسن أنه تلميذ نجيب، ذلك أنه نجح بعد وقت قصير في بث البرقيات بنفسه، وقال بعد ذلك بأنه سوف يسمح بإقامة كابل برقي بين جبل طارق وطنجة، غير أنه أشار إلى عدم نيته على التصريح في الوقت الحالي بمد خطوط برقية داخل المغرب لما يعلمه بأن رعاياه سوف يعمدون إلى تدميرها بمجرد مدها»[68]. يصور لنا النص ذهنية مغربية تقف سلبًا تجاه أحد مظاهر التحديث الغربي. ويفضّل محمد سبيلا تفسير ذلك بدور الرقابة الفقهية؛ فعندما «ظهر التلغراف أخذ الفقهاء يناقشون مدى جواز العمل به في الشعائر الدينية، هل يجوز الاعتماد عليه أم لا؟»[69]، كما أن «الفقهاء لم يتخلوا عن دورهم في تقويم التقنيات والآليات العسكرية من زاوية الشرع»[70].

أما في اليابان، وفي أثناء البعثة اليابانية نحو الولايات المتحدة في عام 1860، طرأ نقاش بين أعضاء البعثة حول المظلة التي أراد قبطان السفينة جلبها معه إلى اليابان، فحذّره أصدقاؤه من ذلك ونبّهوه على أن مصيره سيكون القتل على يد الرونين. وتدل الحادثة، التي أوردها فوكوزاوا يوكيتشي، على

---

(68) فيليب جورج روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية-المغربية حتى عام 1900، ترجمة ودراسة وتعليق يونان لبيب رزق (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981)، ص 242.

(69) محمد سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، الكتاب الجيب؛ 4 (الرباط: جريدة الزمن، 1999)، ص 15.

(70) المصدر نفسه، ص 12.

حجم الانغلاق الذهني الذي كان يعيشه الكثير من النخب السياسية والفكرية والعسكرية اليابانية في مرحلة ما بعد حملة بيري.

إذا كانت حالة اليابان تشبه ظاهريًا الذهنية المغربية في تعاملها مع مظاهر التحديث الغربي، فإن بعض الاستثناءات الفكرية والسياسية في أواخر عهد الإيدو كافح من أجل تنزيل آليات الأخذ من علوم الغرب وفنونه المختلفة.

حددت هذه الرؤية اختصاص البعثات التعليمية التي ركّزت في تكوينها على النواحي العسكرية، وضمن هذا السياق/ النظرة يمكن فهم نقد الطاهر الأوديي (بعثة 1874) الدوائر المخزنية؛ فقد ذكر «أنه نصح بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، ولكن الوزراء والكتّاب رموه بالإلحاد، ويؤكد أنهم كانوا يقولون للسلطان الحسن الأول إن أعضاء البعثات عندما أقاموا بأوربا سنين عادوا جهالًا متنصرين..»[71]. ويثير هذا النص ومقدماته الأولى الكثير من الإشكالات، وفي مقدمها أن الأوديي انفرد بين أعضاء البعثات المغربية بتوجيه هذا الاتهام.

كان السلطان الحسن الأول مطلعًا على المستجدات التحديثية (التلغراف وغيره)، بل إنه جربها بنفسه، وكان متحمسًا لإدخالها إلى المغرب لولا طبيعة البنية الذهنية السائدة، وكذا المناورات الاستعمارية الأوروبية التي حاولت توظيفها في مشروعها التنافسي المتعلق بالمغرب. وقد تجرأ هؤلاء الوزراء والكتّاب على توجيه خطاب إلى السلطان يطابق بين إحدى آليات التحديث (البعثات) والإلحاد والخروج على الدين، كما سبق أن ذكر الطاهر الأوديي.

يبدو أن الخوف على المراكز والمصالح كان سببًا أساسًا في إنتاج هذا النوع من الفتاوى «الإدارية» التي توسلت بشعارات دينية للحفاظ على استمرارية الأنماط السياسية والإدارية نفسها في المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في المقابل، كان المجالان السياسي والإعلامي في المغرب واعدين

---

(71) Abdallah Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912* (Casablanca: Centre culturel arabe, 1993), p. 288.

بالتغييرات والتحولات؛ ففي عام 1876 هاجم أحد الصحافيين اليابانيين الحكومة قائلًا: «إذا قام وزراء مرتشون، وموظفون سامون باستعمال نفوذهم، وبمعاملة الشعب معاملة سيئة وبسن قوانين جائرة وبفرض الضرائب المرتفعة، وإذا فقد الناس الشرفاء حرية الكلام والتعبير، فإن سيادة الأمة ستكون مهددة، وإذا لم تُطح بالحكومة فإن الدولة تتجه إلى الانهيار»[72].

لا يمكننا تصور خطاب إصلاحي مغربي في الفترة المذكورة، يحمل هذه المعاني المتدفقة من الزخم الثوري المشفوع بالخوف على مصالح الأمة. إن جرأة النص لم تكن حالة استثنائية في حقول السياسة اليابانية، بل هو تعبير عن حالة طبيعية أفرزها نمط التحولات التي عرفها عهد الميجي، ومقدار الحرية التي شكلت حافزًا على الصدع بمقومات الإصلاح والتنبيه على عناصر الخلل، بغية تجنب عثرات السقوط والانهيار. فالذهنية اليابانية تمتعت بمقومات النجاح والفاعلية.

يورد يوكيو ميشيما في بعض النصوص التي اعتمدها في استنتاج نمط تفكير الساموراي وأخلاقهم، نصًا ورد فيه: «ومهما كانت الأحوال، يتعين على الساموراي توخّي الحذر وتجنب إظهار المستويات الدنيا من الوهن والضعف»[73].

يولي ماكس فيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية أهمية كبيرة للمعتقدات الدينية والقيم في نشوء النظام الاقتصادي الرأسمالي وظهوره، مختلفًا بذلك عن الفهم الماركسي للشروط المادية لتحقق التحولات التاريخية الكبرى؛ وقال إن «مثلث أو شرارة الانبعاث تكمن في: روح المبادرة، وتقديس العمل، واعتماد مبدأ الربح... ولم يكن الغرب [حسب وجهة نظره] لينهض لو أن البابا والكنيسة الكاثوليكية بقيمها المعاكسة بقيت تمسك بتلابيب أوروبا؛ من تقديس الزهد والفقر، والتواكل في عقيدة فاسدة لفهم العمل الإلَهي والبشري، والنظر إلى الربح على أنه عمل غير صالح»[74].

---

(72) Jacques Mutel, *Histoire du Japon, 1: La Fin du shôgunat et le Japon de Meiji, 1853-1912* (Paris: Hatier, 1970), p. 85.

(73) Yukio Mishima, *Le Japon moderne et l'éthique samouraï*, traduit de l'anglais par Emile Jean, Arcades; 1 (Paris: Gallimard, 1985), p. 70.

(74) خالص جلبي، «ماكس فيبر وروح الرأسمالية،» على الموقع الإلكتروني: <http://www.arraee.com/modules.php?name=News&file=article&sid=10550>.

يثير أحد الباحثين من جانبه الأسئلة الآتية: «لا تكمن المعجزة التي حققتها اليابان في تقدمها المادي، أو إنجازها الفكري أو براعتها العسكرية أو أدائها الدبلوماسي، بل في نمط عقلي فريد أسس لعلاقة وفاء بين أفراد المجتمع والسلطة»[75]. فهل كانت أخلاق الساموراي الأساس الذي منح التحولات السياسية والاقتصادية الكبرى داخل مجتمع النيبون؟ وهل التباين في نتائج البعثات التعليمية المغربية واليابانية نتيجة طبيعية لاختلاف أنماط التفكير وأدوات الفعل المادي والمعنوي في كلٍّ من المغرب واليابان خلال الفترة موضوع البحث؟

تُعَدّ البعثات التعليمية إحدى أهم آليات الإصلاح التي هدفت من خلالها حكومة الميجي (1868-1912)، ومخزن الحسن الأول (1873-1894) إلى تحقيق عناصر الإصلاح. وكانت هذه البعثات مسبوقة بفكر إصلاحي تميزت عناصره بالاختلاف والتباين بين مختلف النخب التي أنتجته ودفعت باتجاه تحقيقه أو التنبيه على أهميته وضرورته في كل من المغرب واليابان.

منحت التراكمات التاريخية أخلاق المجتمع الياباني وقيمه مزيدًا من النضج، وأبانت عن أهميتها في الحفاظ على الوحدة الداخلية والتأسيس لمخارج القوة المادية والمعنوية. ونقصد بهذه الأخلاق القيم الكثيرة التي تضمنتها فصول هذا البحث، وفي مقدمها فكرة الجماعية، وما يرتبط بها من مفاهيم الانضباط، والتطلع إلى الخدمات الأبوية على المستوى الأسري والسياسي والإداري. ويتبين العمل الذهني الاستراتيجي والمتميز في مهمة بعثة إيواكارا التي مثّلت العقل المهندس لمجمل التحولات التي شهدتها اليابان منذ عهد الميجي، كما شكلت جهازًا إداريًا متمرسًا انتقل، بمجموع أفراده، إلى الغرب لالتقاط المعلومات ومراكمة التجارب وتوظيفها في عمليات البناء الداخلي.

لم يكن أفراد البعثة أناسًا عاديين، بل مثّلوا النخب المفكرة من مختلف المقاطعات الفيودالية السابقة التي أدركت أهمية وحدة اليابان السياسية

(75) Frank Alanson Lombard, *Pre-Meiji Education in Japan: A Study of Japanese Education Previous to the Restoration of 1868* (Tokyo, Japan: Kyo Bun Kwan (Methodist Pub. House), 1913), p. 47.

والإدارية، ووظفت، بذكاء متميز، البناء الأسطوري القديم لتحقيق الإجماع السياسي وإحداث القطيعة مع نظام التوكوجاوا وتراتبية الساموراي. ومن جهة أخرى، استنتج أفراد البعثة، ومنهم متعلمون شاركوا ضمن بعثات نهاية عهد الإيدو، أن ذلك لن يتم إلا بإلغاء النظام الفيودالي ورموزه السياسية الباقية داخل الجيوب المقاوِمة للعهد الجديد.

كان حل طبقة الساموراي الوجه الآخر للذهنية المتوقدة التي أسست لخيارات الإصلاح؛ ذلك أن هذا العمل لم يكن يعني سوى نزع الشرعية الطبقية من نظام الباكوفو المتداعي، والأخذ بمبدأ المساواة في تقلد المناصب، وهذا ما أوجد حالة محمومة من التنافس في مجال التحصيل العلمي والمعرفي، وانخراط المجتمع في حالة لاشعورية نحو الانتساب إلى المؤسسات التعليمية داخل اليابان وخارجها.

حددت بعثة إيواكارا مقاسات جديدة لمجتمع النيبون، ورسمت له مخارج تنموية محددة. ومن رحم هذه البعثة وُلِدت النخب المسيِّرة لنظام الميجي، وتطورت التكتلات الاقتصادية (الزايباتسو) وانتعشت. وقد أشار أكيو موريتا، مدير شركة سوني (Sony)، في كتابه *Made in Japan* قائلًا: «يكمن أحد مبادئنا المعبّرة التي ارتبطنا بها منذ قرون عدة في كلمة واحدة تصعب ترجمتها، وهي مصطلح 'mottainai' الذي ينطق به 'mau-taï-naï' (موتايناي)؛ إنها مفهوم أساس يُمَكِّن من فهم الكثير من خاصيات الصناعة اليابانية. وتحيل هذه الكلمة على عدد كبير من المعاني، منها أن كل ما يوجد في العالم هبة من الخالق، وأن علينا شكره عليها بعدم تبذيرها.... إننا نعتقد أن كل ما مُنح لنا شيء مقدس، وبصفة دقيقة عارية مستردة، يجب استعمالها على الوجه الأفضل...»[76].

تمتزج التنمية الاقتصادية في الذهنية اليابانية بالمقدس، وتحمل طابع الإلزام والواجب. ومن هنا استُغلت في عهد الميجي هذه الطاقة ووُظّفت بشكل إيجابي في مسلسل التحولات الكبرى في اليابان. ويمكن قراءة أخلاقيات التنمية اليابانية من خلال أسطورة الإمبراطور والإشارات الرمزية التي تدل على

---

(76) Mohamed Bakkar, «L'Exemple Japonais,» *Le Nouveau siècle*, no. 13 (Mars 1995), pp. 13-14.

اقتصاد الجهد ونبذ الفوضى وترشيد الطاقات. فمن خلالها تبين لنا أن أفول أماتيراسو وحلول الظلام ارتبطا بإخلال مبدأ الواجب الجماعي.

قريبًا من المصطلح الياباني «موتايناي»، نجد مقابلًا له في الثقافة الإسلامية هو مصطلح «النعمة» التي تحتاج إلى شكر وتصديق لها بالعمل والفعل الإيجابي، إلا أن هذا المصطلح لم يفعل أثره في مجال المقاربة الإصلاحية التي عرفها المغرب خلال عهود إصلاح النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو ما يدل على أن المشكلة لا تتعلق بنحت المصطلحات ووضع المفاهيم التي لا تتصل بدورة الحياة، وإنما بتفعيل مستلزماتها وتنزيلها على مستوى الممارسة والسلوك؛ إنها نتاج سيرورة من التحولات والمكابدة الواقعية والمغالبة الحضارية.

يصعب على أي مجتمع الولوج إلى عالم الفعل والمبادرة من دون توظيف قيمه الثقافية الإيجابية في مختلف حقول الإنتاج المادي والمعنوي. ولا شك في أن ذلك كان أحد العناصر الأساسية التي أنتجت عناصر الاختلاف بين مقدمات الإصلاح في كلٍّ من اليابان والمغرب، بل إن الاختلالات المختلفة بين الأنموذجين كامنة في هذا المبحث ومؤسَّسة على مقدماته.

نحن إذًا أمام مقدمات مختلفة، بدءًا بالتصورات الذهنية والقيم الثقافية وانتهاءً بتفعيل هذه التصورات ومنحها شحنة التحديث اللازمة. وبين نقطتي البدء والانتهاء مساحة واسعة من عناصر الفعل التي تروم التوفيق بين ضرورة الحفاظ على الهوية ومستلزمات التحديث المطلوبة. ونتساءل ضمن عناصر هذا السياق عن مآل البعثات التعليمية المغربية لو توافر لها إطار منظم ومستثمر شبيه ببعثة إيواكارا كمؤسسة إدارية وسياسية وعلمية واستخباراتية. وبالمستوى نفسه نفترض أن البعثة اليابانية استثمرت كفاءات البعثات التعليمية المغربية الموجودة، مثل الزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب الشركي والطاهر الأوديي، وأعضاء البعثات التي توجهت إلى إيطاليا وألمانيا؛ فالأكيد أن النتيجة ستكون مختلفة تمامًا عمّا سجّلناه سابقًا بخصوصها.

من جانب آخر، لنفترض أن مجموع الطلبة اليابانيين الذين تطرقنا إليهم في هذا البحث بقدراتهم العلمية والمعرفية، عاشوا في مناخ سياسي واجتماعي

شبيه بما كان عليه المغرب خلال القرن التاسع عشر؛ فالأكيد أن دراساتهم الأكاديمية، واستفادتهم من التعليم بالغرب، وانتقالهم إلى المغرب، بمعارفهم ومكتسباتهم العلمية والتطبيقية، كل ذلك لن يغير من حالة الضعف البنيوي الذي أصاب أركان السلطة والمجتمع في مغرب القرن التاسع عشر. ولم يكن متوقعًا من المتعلمين اليابانيين المتفوقين الذي عرَّفنا بهم في هذا البحث إنجاز المستحيل وتحقيق المعجزة داخل نسق سياسي ومجتمعي وثقافي يؤسس لمنطق الجمود والثبات على مظاهر التخلف والانحطاط.

يُعتبر أدب الرحلة من أهم العناصر التي تجلى من خلالها الإصلاح، وفي هذا الإطار يمكن عقد دراسة مقارنة بين كلٍّ من الصفار وفوكوزاوا يوكيتشي بسبب القضايا الإصلاحية الكبرى التي أثارها الرجلان في هذا المضمار. كما يمكن تناولها من خلال الآراء المبثوثة في ثنايا مؤلفات أدباء الإصلاح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر داخل البلدين المذكورين.

خامسًا: محمد الصفار وفوكوزاوا يوكيتشي دراسة مقارنة

يُعَدّ أدب الرحلة المغربية إلى أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأريخًا للهزيمة أمام الغرب و«لحظة الهزيمة هي، مع ذلك لحظة الشعور الإيجابي بوجوب الوقوف على سر هذه الحضارة الجديدة واكتشافها»[77].

يرى أحد الباحثين أن كتاب الابتسام هو من بين «النصوص الأولى التي دعت المخزن الرحماني، والذي بعده، إلى تحديث المغرب واقتباس الحداثة التكنولوجية من أوربا على غرار باشا مصر (محمد علي)»[78]، حتى إن الحجوي علّق قائلًا: «عجبًا لرجل أراد أن يؤرخ أيام المولى سليمان، فملأ تاريخه بأعمال محمد علي في مصر؛ والرجل كان كاتبًا بدار المخزن، ولأنه لم

(77) سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1995)، ص 49.

(78) ورد في: عبد السلام الحيمر، المغرب: الإسلام والحداثة، شرفات؛ 15 (الرباط: منشورات الزمن، 2005)، ص 113.

يجد أمثال هذه النهضة المؤسسة بمصر في المغرب، ملأ تاريخه بأعمال باشا مصر موعظة وذكرى وانتهاضًا لهمم ملوكنا»[79].

ويشير أبو العلاء إدريس إلى أن محمد علي «كان يطلب لكل صنعة أربابها، فيأتونه ويكرمهم ويجري لهم المؤونة الكافية ويعدهم بالعطاء الجزيل، ويجلس معهم الولْدان الصغار يتعلمون منهم الصنعة حتى تحصل فيهم الملكة. ويتعلمون الصنعة بجميع تفاصيلها. [فإذا تعلمت الولدان]، أعطى النصارى ما وعدهم به وبعثهم لبلدهم وأبقى الصنعة في يد المسلمين. وهكذا في جميع ما أحدثه في أرض مصر من الصنائع، فإنه يذهب فيه على قانون الإفرنج، يفعل ذلك بإشارتهم وقانونهم حتى يتحصل في ملكة الفلاحين وأهل مصر»[80].

أفرد أبو العلاء معلومات دقيقة عن تجربة محمد علي، ومنها ما أوردناه بخصوص إيفاده البعثات التعليمية إلى فرنسا؛ فقد بعث «رجالًا من أهل العلم لبرِّ النصارى، يتعلمون الطب والتوقيت والهندسة وعلوم البوصلة وصناعة المجانات [الآلات] وغير ذلك، وأجرى لهم المؤونة لعيالهم، وأوصى بالاحتفاظ بهم في بلد النصارى، ومن تعلم منهم يرجع لبلده»[81]. وقد كتب النص في فترة عنفوان المشروع التحديثي لمحمد علي بعد عام 1820، فأمدّنا بمعلومات عن معالم تجربة دولة محمد علي التحديثية.

انتمى أبو العلاء إلى دائرة المخزن، وعبّر عن ذلك قائلًا: «... جلست أنا في دار المخزن بقصد الجلوس مع الأمين الذي بيده الصائر، وبيدي الكناش الذي يرسم في الخارج، ثم بعد ذلك نقلت لخطة الكتابة، فجعلت مع الكتّاب الذين بالباب»[82]. وربما يكون لإشاراته دور في إرسال المخزن البعثات التعليمية المغربية الأولى إلى مصر.

---

(79) المصدر نفسه، ص 113.

(80) نورالدين بيطاري، «تحقيق ودراسة لقضايا تواصلية «أبو العلاء إدريس، مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، أو ديوان العبر في أخبار الثالث عشر»،» (أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2006)، ص 161-162.

(81) المصدر نفسه، ص 163-164.

(82) المصدر نفسه، ص 230.

وأشار الصفار تلميحًا وتصريحًا إلى عناصر إصلاحات محمد علي. والمعروف أن رحلته كانت في 1845-1846، أي بعد عام من هزيمة إيسلي. ويمكن الاستدلال من خلال متنها على وجود مرجعية ذهنية متميزة في مقاربة مظاهر التفوق الفرنسي وعناصر قوته المختلفة.

أشار الصفار إلى جميع ما له علاقة بالقوة الفرنسية؛ فقد تحدث عن حماية المال والاهتمام بموظفي الدولة وتمجيد العمل وتقديسه وتشجيع الكفاءات والاختراعات، وصدق المعاملات، وحرية إبداء الرأي وأهمية الصحافة والاهتمام بعنصر الخبر، والضبط الديموغرافي والإحصائي، ووصف دار الكتب والمتاحف، وكذا نسخ الأوراق والطباعة والتعليم وقوانين السفر، والحفاظ على البيئة، وحفظ الأطعمة، وطريقة الأكل، وتحلية ماء البحر، والجوانب الإدارية والعسكرية. ولا شك في أن وصفه هذا كان مصحوبًا بذهنية مغربية، استبطنت عناصر الخلل الموازي في المغرب، ودعت ضمنيًا إلى تجاوزها بطريقة ضمنية خجولة. وفي سياق حديث الصفار عن احتفال الفرنسيين بأول يوم من العام، أشار إلى وجود سبعة من أهل مصر، منهم اثنان هما حفيدا محمد بن علي باشا مصر، واثنان من خدامهما، ومعهم هنالك غيرهم، يبلغ تعدادهم نحو ستين شخصًا[83]. وعلى عادته، سأل الصفار عن سبب مجيئهم، فذُكر له إرسال محمد بن علي لهم لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم[84].

يُعتبر نص الصفار بداية حقيقية نبّهت الدوائر المخزنية لعناصر القوة الغربية ودورها في تفسير اختلال التوازن بين الغالب والمغلوب. ولا شك في أن وظيفته العدلية سمحت له بتوثيقها بموضوعية وأمانة، وبلغة قوية ومتماسكة، فجاء وصفه لها قريبًا من الدقة. لكن، إلى أي حد وُظّف هذا النص في منظومة الإصلاح؟ وكيف استُثمرت تنبيهات الصفار وتلميحاته في بناء قدرات القوة الداخلية ومدافعة الهجمة الغربية الشرسة والمنظمة؟ ذاك ما حاولنا الإجابة عنه على امتداد مباحث هذا الموضوع.

(83) محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفار، صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846، دراسة وتحقيق سوزان ميلار؛ عرَّب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 185.

(84) المصدر نفسه، ص 185.

أما في ما يتعلق باليابان، يمكن اعتماد سيرة فوكوزاوا يوكيتشي لمقاربة منطق الإصلاح الياباني ومستلزماته؛ فمن خلال مراحل حياته، يؤرخ تحولات اليابان من مجتمع فيودالي إلى نظام رأسمالي موجّه من حكومة الميجي، كما يُبرز أهم العناصر التي تركت بصماتها على التاريخ الياباني. ويؤكد فوكوزاوا، على امتداد صفحات مذكراته/سيرته، أهمية التعليم الغربي وضرورة تحرير الفرد من القيود الفيودالية لترسيخ قيم التحديث الجديدة. ويعبّر الصفار عن إعجابه بنظام الدراسة في فرنسا، مبديًا دقة النظام وفاعلية الإنجاز.

إذا كانت دعوات الإصلاح المغربية خجولة وضمنية في متن الرحلات، فإن يوكيتشي تمتع بجرأة فريدة في نقد النظام القائم، وبالمشاركة فعليًا في سيرورة التحديث من خلال تأسيسه منابر تعليمية تعمل بقوة داخل النسيج الثقافي والسياسي لليابان، ومن ثنايا رحلاته العلمية إلى كل من الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا وروسيا. وتحدث معبّرًا عن روح التغيير هذه قائلًا: «... كنت معارضًا لإغلاق البلاد وللنظام القديم القائم على المرتبة والقبيلة بأسره، وفضلًا عن ذلك فقد اعتبرت أي شخص يدعو للإبقاء على هذه الأفكار عدوًّا لي»[85]. وظل الرجل وفيًّا لفكرته ولمشروعه حتى بعد قيام النظام الإمبراطوري ورفعه شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة»، وفي ذلك قال: «... إن أنصار القضية الإمبراطورية يظلون أشد عداء للأجانب وأكثر عنفًا في تحركهم، فإنني أكنّ قدرًا أقل من التعاطف لهم»[86].

لم يطمئن يوكيتشي إلى مشروعه التربوي إلا بعد أن رجعت الحكومة الإمبراطورية إلى «صوابها»، وقال عن ذلك: «تحولت الحكوَمة تدريجًا إلى الليبرالية، الأمر الذي جلب التطور الرائع الذي نشهده اليوم، وإني لممتن أشد الامتنان لأن مخاوفي لم يقدر لها التحقق...»[87].

راهن فوكوزاوا على التعليم والانفتاح على الغرب، والتخلي عن بقايا التعليم الصيني في اليابان، وقد «وضع من خلال رؤيته الليبرالية، الكثير من

(85) يوكيتشي، ص 205.
(86) المصدر نفسه، ص 226.
(87) المصدر نفسه، ص 243.

الأسس الفلسفية للحركة القومية في سبعينات القرن التاسع عشر»[88]. وتبدو لنا أفكار العقد الاجتماعي جليّة في تركيزه على ضرورة مدخل الاستقلال الفردي كمدخل وتوطئة للاستقلال الوطني[89].

عرفت اليابان فكرًا إصلاحيًا مؤسساتيًا، شكلت المدرسة بؤرته الأساسية. وقد جاء مفكرو مدرسة ميتو ليؤكدوا فكرة تفوق اليابان، وأن اليابان هي رأس العالم، بل وأساس الحضارة، فاعتبر تاكاماسا (1792-1871) أن الكونفوشيوسية والبوذية والتعليم الغربي نشأت أصلًا في اليابان، ثم انبعثت إلى العالم في العصور القديمة. واعتقد هيراتا آتسوتين (1772-1843) أن على الرغم من تقدم الغرب، فإن اليابان أكثر تفوقًا بسبب شروق الشمس عليها قبل بقية العالم، واعتُبرت هذه المدرسة الأساس الذي حاول تطوير خصوصية يابانية تسمح لليابان بمواجهة كلٍّ من الطغيان الثقافي الصيني والقوة التكنولوجية الغربية[90].

لم يقف الفكر الإصلاحي الياباني موقف المنبهر السلبي، بل اعتقد اليابانيون بتفوقهم المعنوي وآمنوا بخصوصيتهم المحلية، فتمكنوا، بناءً عليه، من إدماج عناصر التحديث كمكوّن أساس في بنية التغيير الداخلي. لكن الفكر الإصلاحي المغربي بقي مقتصرًا على إبراز عناصر الدهشة، وحبيس التنظير الجامد وتنبيه أولي الأمر على الأخطار المحدقة، علاوةً على ضرورة التحرك المخزني. وكانت المدرسة بين الأنموذجين عنصرًا فاعلًا في هذه التحولات، فأدى وجودها وديناميتها في المجتمع الياباني إلى إضفاء طابع الحركية على المشروع الإصلاحي الياباني، في حين تسبب غيابها في تجريد دعوات الإصلاح المغربية من الفاعلية والقتالية الكفيلة بتحقيق النجاح والتغيير.

أسس يوكيتشي مدرسة خاصة في عام 1858، في زمن تعددت فيه المنابر التعليمية في مختلف المقاطعات المركزية والمعارضة لنظام الباكوفو. وافتقد الصفار حاضنًا تربويًا، ونخبةً تصبو إلى امتلاك العلم والتقانة الغربيين.

---

(88) رشاد، ص 99.

(89) Pierre Lavelle, *La Pensée politique du Japon contemporain: 1868-1989*, Que sais-je?; 2553 (Paris: Presses universitaires de France, 1990), p. 20.

(90) رشاد، ص 105.

تميز الصفار بدقة ملاحظاته وتنوعها، فكان يسأل عن العجائب والغرائب في فرنسا، وكان يوكيتشي يقوم بالأمر نفسه؛ إذ كان شغوفًا بالعلم والمعرفة وقراءة الكتب الهولندية والإنكليزية، وما فتئ يسأل في أثناء رحلاته إلى أوروبا وأميركا عن الآخر المغاير في الثقافة والعلم والتقاليد. وكان فوكوزاوا أُصيب في أول زيارة له إلى أميركا في عام 1860 بصدمة شعورية لم يدرك من خلالها آليات اشتغال النظام المدني الأميركي.

ابتدأ يوكيتشي حديثه عن السفر إلى أميركا بالإشارة إلى سفينة كانرين مارو التي اشترتها الحكومة من الهولنديين، وإلى قرار مجلس الشوغون بسفر أعضاء الطاقم الياباني على متنها إلى سان فرنسيسكو[91]. وقد فصّل في الحديث عن أعضاء الطاقم الياباني وذكر أسماءهم واختصاصاتهم. وبحِسٍّ يدل على عمق الانتماء وعلى الاعتماد على القدرات الذاتية، صوّر فوكوزاوا الحالة النفسية لربابنة السفينة قائلًا: «عقد كل فرد من أفراد الطاقم العزم على المضي بالسفينة عبر المحيط دون تلقّي المساعدة من أجنبي»[92]، وهو عزم لم يكن بسبب تدخل الأميركيين وتعيينهم القبطان بروك على متنها. ويعقّب صاحب الرحلة قائلًا: «وربما كان المسؤولون الكبار في الحكومة غير واثقين من قدرة الطاقم الياباني، واعتقدوا أن القبطان بروك سيكون مفيدًا في حالة الطوارئ»[93]. لكن على الرغم من ذلك، قوّم يوكيتشي ذلك بالجرأة العظيمة للشعب الياباني. وبحسّ المقارنة يسجل قائلًا: «فيما أتأمل كل شعوب الشرق الأخرى على نحو ما هي عليه اليوم، يساورني الشعور بالاقتناع بأنه ليست هناك أمة أخرى لديها المقدرة أو الشجاعة على الإبحار بسفينة بخارية عبر المحيط الهادئ بعد فترة خمس سنوات من الخبرة في الإبحار والهندسة... وحتى إمبراطور روسيا بطرس الأكبر، الذي مضى إلى هولندا لدراسة الملاحة لم يستطع بكل إنجازاته أن يصل إلى ما يعادل هذا الإنجاز الذي حققه اليابانيون في هذه المغامرة الكبرى»[94].

(91) يوكيتشي، ص 139.
(92) المصدر نفسه، ص 140.
(93) المصدر نفسه، ص 140.
(94) المصدر نفسه، ص 145.

تتضح لنا من ثنايا النصوص مظاهر الاعتزاز بالذات والرغبة في المغامرة واكتساب العلم الملاحي الذي كانت تدرس مقدماته النظرية والتطبيقية في ناغازاكي.

في المقابل، بدأ الصفار رحلته بذكر البحر ومركب ميتيور الذي خصصته فرنسا لأعضاء البعثة الدبلوماسية المغربية. والأكيد هو أن طاقم السفينة كان فرنسيًا، ولم يكن ممكنًا وجود أطر مغربية ضمنه، بسبب إغفال المغاربة علوم البحرية التي بلغت أوجها في زمن الموحدين الذي سيطروا، في عهد عبد المؤمن، على قسم كبير من حوض البحر المتوسط. وتقلص الأسطول المغربي بشكل كبير في فترة سياسة الاحتراز التي نهجها المولى سليمان.

بعبارة موجزة يلخص الصفار افتقار المغرب إلى العلوم البحرية قائلًا: «... وقد كان بعث لنا من نحن متوجهون إليه مركبًا عظيمًا من مراكب النار المعروف بالبابور». ويبدو أن أسماء السفن المتعددة التي سادت في أدبيات المغرب الوسيط زالت من قاموس التداول وأرّخت لحجم التأخر في مجال الملاحة البحرية، وهو الجانب الذي أدرك فيه اليابانيون أهمية علوم السفانة وضرورتها، وخصوصًا بعد بروز التهديدات الغربية لسواحل النيبون بعد حملة بيري وما أفرزته من اتفاقات غير متكافئة.

نهج الصفار في تدوين متن رحلته أسلوب الرحالة المسلمين من قبل، فذكر في الإطار الجغرافي المجالي وفصّل فيه، وأبرز عادات السكان وأحوال معيشتهم، مركّزًا على ما يخالف العادات المغربية. ولأنه كان عضوًا في وفد دبلوماسي، تلقى دعوات متعددة لحضور حفلات ومناسبات مختلفة، وفي ذلك قال:

«استدعانا السلطان لليلة الرقص يعملها كل عام في داره في ذلك الوقت، فذهبنا إليه، فإذا تلك القصور كلها قد امتلأت ببنات الروم البارعات في الحسن والجمال، متجردات الأجياد والنحور... وبعد اجتماع الناس تكلمت الموسيقى وأخذوا في الرقص رجالًا ونساء، فيأخذ الرجل بيد المرأة ويجعلان يرقصان رقصًا عجيبًا ويمسكها من يديها وهو يرقص معها... وتارة يمسك رجلان امرأة

يرقصان معها وليس ذلك عندهم عيبًا ولا مخلًّا بالمروءة ...»[95]. ولم يكتفِ الصفار بوصف مشهد الاحتفال، بل قوّمه وحكم عليه من خلال المرجعية الفكرية التي ظل يحملها من ثنايا متن الرحلة، فتعجب من رقص الرجل والمرأة، واعتبر ذلك ضمنيًا عيبًا وإخلالًا بالمروءة.

وأورد فوكوزاوا في متن رحلته قائلًا: «ذات مساء، قال مضيفنا إن بعض السيدات والرجال المهذبين يقيمون حفلًا راقصًا وإنهم سيسعدهم حضورنا، فمضينا إلى هناك. ولضيقنا لم نستطع فهم ما يقومون به، فقد بدا أن السيدات والرجال المهذبين يتقافزون معًا في أرجاء القاعة، وبقدر ما كان الأمر ظريفًا، فقد عرفنا أنه سيكون من الوقاحة أن نضحك، فتحكمنا في ما يرتسم على ملامحنا بصعوبة مع استمرار الرقص. ولم تكن هذه إلا أمثلة قليلة على حيرتنا إزاء العادات الغربية للمجتمع الأميركي»[96].

إذا كانت حالة الدهشة والاستغراب مشتركة بين الرحّالتين، فإن قواعد الحكم على هذا السلوك تباينت بين الطرفين؛ فالصفار يحكم على سلوك الآخر من داخل منظومة قواعد السلوك الإسلامي التي تحظر المخالطة بالشكل الذي ذُكر سابقًا. لذا، كان طبيعيًا أن يحكم الرحّالة المغربي على ذلك بالعيب والإخلال بالمروءة، في حين لم تكن حيرة اليابانيين نابعة من أسس مذهبية أو دينية، وإنما تأسست على قواعد المغايرة بين نمط العيش والسلوك في كل من اليابان وأميركا، ومن هذه الزاوية يمكن فهم العبارات التي وظّفها يوكيتشي، وهي تصف حركة الرقص الأميركي بـ «التقافز» التي استدعت الضحك وأنتجت الحيرة حيال العادات الغربية بسبب غياب مرجعية فكرية تؤسس لمنطق الاختلاف.

فرضت المستجدات التحديثية وغرائب الاختراعات على الصفار ضرورة إثارة السؤال وأهميته لمعرفة آليات اشتغالها. ويبدو أن صاحب الرحلة كان كثير الاستفهام، فجاء متن رحلته مليئًا بالمعلومات الدقيقة والمرتبة بسبب الأجوبة الموضوعية التي قدّمها إليه التقنيون ورجال السياسة الفرنسيون. وعلى امتداد

---

(95) الصفار، ص 190.

(96) يوكيتشي، ص 149.

متن الرحلة لم يكن الصفار يورد صيغة سؤاله، بل كان يستبطن ذلك من خلال تفصيله في وصف المسألة التي أثارت انتباهه، ومن ذلك قوله: «ومن أغرب ما وجدنا عندهم فيه أن كانوا يحلّون ماء البحر حتى يصير عذبًا يُشرب... فسألنا عن ذلك رئيسه، فأخبرنا بمضمونه...»[97].

لم يكن يوكيتشي في أثناء زيارته لأوروبا في عام 1862 منجذبًا نحو المعلومات المتعلقة بالعلوم والهندسة والكهرباء...، وعبّر عن ذلك قائلًا: «... لذا، فإن اهتمامي الرئيس في أوربا انصب على أمور أكثر إثارة للاهتمام بصورة فورية. (و) على سبيل المثال لدى مشاهدتي لمستشفى أردت أن أعرف كيف يدار ومن الذي يدفع النفقات الجارية. ولدى زيارتي مصرفًا، رغبت في معرفة كيف تُودَع النقود وكيف تُدفع؛ ومن خلال استفسارات مباشرة مماثلة أحرزت بعض المعرفة بالنظام البريدي والتجنيد الذي كان معمولًا به آنذاك في فرنسا»[98].

أثار انتباه الصفار، في أثناء وجوده في فرنسا، نمط التعليم وطبيعة المؤسسات التربوية، ووقف مليًا وبنبرة يكتنفها الإعجاب أمام «مدرسة ...، يتعلم فيها الحساب والهندسة، والفلسفة واللسان وعلم الفزيك والكيمياء والطبيعيات وكيفية التصوير والتشريح..»[99]، وكان في إمكانه وفي إمكان غيره من النخب المغربية الاستفادة من هذه الملاحظات هذه لو امتلك، مثل يوكيتشي، منبرًا تعليميًا يترجم من خلاله مشاهداته العيانية، ويرفع مع غيره، من قيمة المدرسة المغربية التي لم يكن لها وجود فعلي يلائم حجم التحديات الخارجية.

إذا كان حديث الصفار عن التعليم ضئيلًا، فإن سيرة فوكوزاوا يغلب عليها الحديث عن موضوع التربية وعلاقته بالحوادث السياسية والاجتماعية التي كان يمرّ بها اليابان منذ نهاية عهد التوكوجاوا إلى بداية عهد الميجي.

---

(97) الصفار، ص 135.

(98) يوكيتشي، ص 171.

(99) الصفار، ص 214.

قال يوكيتشي: «كنت في رحلتي الثانية قد تلقيت مخصصًا أكبر بكثير من نظيره في الرحلة الأولى، ولما كانت الحكومة قد تكفلت بكل نفقاتي، فقد كان في مقدوري شراء عدد كبير من الكتب، وابتعت الكثير من القواميس من مختلف الأنواع وكتبًا في الجغرافيا والتاريخ والقانون والاقتصاد والرياضيات وكل الأنواع التي استطعت الحصول عليها»[100]. وفي مقابل ذلك، لم يجلب الصفار معه كتابًا من كتب العلم التي أوردها يوكيتشي، وذلك بسبب غياب الإطار المؤسساتي الذي يمكّن من توظيفها في ساحة المعركة الثقافية والعلمية. واكتفى في مقابل ذلك بالتنبيه والإشارة والتلميح إلى عناصر القوة الفرنسية.

وتابع فوكوزاوا قائلًا: «والآن تمكنت، في ظل وجود مكتبة كبيرة، من أن أدع كل طالب من طلابي يستخدم الكتب الأصلية في الدراسة... كان هذا الاستخدام في مدرستي للكتب المقررة الأمريكية السبب في أن يتم، على امتداد البلاد، تبنّي الكتب الأمريكية في السنوات العشر المقبلة... وهكذا كان طبيعيًا أن تصبح تلك الكتب التي اخترتها الأثيرة على امتداد البلاد»[101].

تبوأ تعليم المرأة مكانة متميزة في رؤية يوكيتشي الإصلاحية، وحمل فوكوزاوا بشدة على التعليم الذي أخذ به حكام التوكوجاوا، فقد قال: «... إن التعليم الكونفوشيوسي التقليدي المسمّى بتربية البنات لم يعد له ما يسوغه لأنه يفرض الحظر على النساء؛ فهو ليس سوى فلسفة للظلم والاستبداد...»[102].

أدرك يوكيتشي العلاقة الوطيدة بين طبيعة النظام السياسي/ الإداري القائم على الاستبداد وحظر تعليم المرأة. وأكد في مجمل كتاباته ضرورة تحرير الفرد الياباني من القيود التي حدّت، في نظره، من إمكانية الانطلاق التنموي والحضاري، وهو إدراك نما وترعرع بعد الاطلاع على تجارب الغرب الفلسفية والاجتماعية والتنظيمية. وواجه الكثير من الصعوبات بسبب التقاليد التي

---

(100) يوكيتشي، ص 238.

(101) المصدر نفسه، ص 238-239.

(102) رؤوف عباس حامد، التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي، طبعة مزيدة ومنقحة (القاهرة: مركز ميريت للنشر والمعلومات، 2001)، ص 121.

كانت تقيّد إمكانات تعليم النساء وفرصه؛ «وعندما انحسر الإقبال على مدرسة البنات الخاصة، اضطر فوكوزاوا [إلى] أن يعلم بناته في البيت على يد معلمين خصوصيين»[103].

لم يكن متوقعًا من الصفار أن يتحدث عن موضوع تعليم المرأة في المغرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ إذ إن البنية الذهنية والمجتمعية لم تسمح بتقبّل مقولات تأخر ظهورها إلى بداية القرن العشرين مع محمد الحجوي. ومع ذلك، ورد موضوع المرأة في رحلة الصفار من خلال إشاراته المتعددة إلى نساء فرنسا، منها حديثه عما سمّاه «الأوكنضة»، وقال عنها: «وفي تلك الدار خدمة كثيرون رجالًا ونساء»[104]. وفي وصفه مدينة باريس يذكر قائلًا: «وبهذه المدينة محال يتماشى الناس فيها هي متنزهاتهم. ونزهتهم هي أن يأخذ الرجل بيد صاحبه أو صاحبته»[105]. ومما أثار الصفار ما شاهده وقال عنه: «وكان عندهم هناك حمار من حمرنا زعموا أنه خنثى، فسألناهم الاطلاع عليه، فاعتلوا بحضور النساء»[106]، وهذا إشارة تدل على بعض أوجه الاستغراب التي ظل الصفار يحملها معه من ثنايا متن الرحلة، واصفًا على وجه الحقيقة غياب هذه المشاهدات والملاحظات في الديار المغربية. وبجرأة لافتة تدل على الإعجاب والقبول، أورد الصفار، في سياق وصفه العروض المسرحية، قائلًا: «وهذه التياترو (المسرح) ليست مجمّعًا للحرافيش والأوباش، بل يحضرها أكابرهم وأهل المروءة منهم، ويحضرها الرجل وزوجته وبناته»[107]. وذهب أبعد من ذلك عندما قال: «ويجعله السلطان في داره، وله في داره محل مُعَدّ له، ويجلس هو وأولاده ونساؤه ونساء أولاده وجميع وزرائه وخواصه»[108].

لم يكتفِ الصفار بوصف التياترو، وما يحدث فيه من لعب وفرجة يشاهدهما عقلاء القوم وعِليتهم، بل تدخل بشكل لافت وفريد أيضًا، ومنح ذلك المشروعية

---

(103) المصدر نفسه، ص 127.

(104) الصفار، ص 107.

(105) المصدر نفسه، ص 149.

(106) المصدر نفسه، ص 152.

(107) المصدر نفسه، ص 159.

(108) المصدر نفسه، ص 159.

الفقهية الإسلامية، قائلًا: «وسئل الشعبي هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي»[109]. وأورد مجموعة أخرى من الحوادث والسيَر، حاول من خلالها القول إن ما شاهده من فرجة ولهو لا يتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه الأخلاقية.

لا شك في أن الصفار حمل بذلك في أناه الداخلية ازدواجية واضحة تشكلت من نقيضين متباعدين، تمثّل أساسه **الأول** في ثقافة الرجل الداخلية الإسلامية وإدراكه درجة التأخر في قضايا اعتبرها حيوية بعد هزيمة إيسلي، وتجلّى أساسه **الثاني** في مشاهداته مظاهر الحضارة الغربية من دون إدراك أسسها الفلسفية والفكرية، الأمر الذي دفعه إلى منحها غطاء وتبريرًا من ثقافة مغايرة في منطلقاتها وأهدافها (الثقافة الإسلامية)، وهو ما دل على حدوث انقسام في الذهنية المنتجة للخبر التاريخي.

أما يوكيتشي، فنجح في قراءة تجربة الغرب التحديثية، مستفيدًا في ذلك من إلمامه الواسع باللغات الأجنبية وقراءته أمهات الكتابات الاجتماعية والتربوية والفلسفية الغربية. وقد تمكّن عن طريق رحلاته العلمية من معاينة دقيقة للظاهرة الغربية، وجعل من ذاته ومدرسته/ جامعته، منطلقًا لقراءة أهم الحوادث التي مرَّت بها اليابان.

حصل التناغم والتفاعل بين مشاهدات الرحلة في الخارج وعملية البناء في الداخل الياباني، وطرأت القطيعة بين تجليات الفكر والممارسة الفاعلة في الحالة المغربية. وأقول إن المدرسة أدت دورًا محوريًّا وفاصلًا بين الرجلين؛ إذ تمكن يوكيتشي من ترجمة معايناته وتنظيراته من خلال مؤسسة كيو، ولم يُقدَّر لتنبيهات الصفار أن تتفاعل مع البيئة الثقافية المغربية بسبب غياب مؤسسات تعليمية تحوّل الملاحظات والتنبيهات من دائرة الوجود بالقوة إلى مرحلة الوجود بالفعل؛ فبنية الدولة المغربية لم تكن تحتمل وجود مدارس خاصة تسيّرها نخب ثقافية وعلمية مستقلة، باعتبار أن الخطوة «تهديد» لرأس مال الدول الرمزي والمعنوي. وتمتد المسألة بعمق في تاريخ الممارسة التربوية والتعليمية منذ عهود الدول العصبية كما بيّنا ذلك في مبحث التعليم السابق.

---

(109) المصدر نفسه، ص 159-160.

توفّر المغرب خلال القرن التاسع عشر على فئة مهمة من التجار الكبار الذين استقروا في فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وغيرها من البلدان، بيد أنها لم تمتلك وعي ذاتها ودورها المحتمل في صناعة مشروع الإصلاح الذي بدأه المخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

يمثّل التعليمُ أحدَ أبرز العناصر التي تبيّن درجة انخراط الدولة والمجتمع في رسم معالم التحديث في زمن اشتدت فيه الهجمة الغربية على مختلف مناطق العالم. ويفرض علينا ذلك ضرورةَ المقارنة بين خصوصيات التعليم والمدرسة في كلٍّ من المغرب واليابان خلال الفترة موضوع الدراسة.

سادسًا: التعليم في المغرب واليابان المقدّمات والنتائج

يُعَدّ مطلب التربية والتعليم أحد الأركان الأساسية التي قد تفسر نجاح البعثات التعليمية اليابانية وفشل مثيلتها المغربية في سيرورة التحديث والإصلاح في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كما نلفت إلى أن تحولات المشهد التعليمي، في أي بلد من البلدان، ترتبط ارتباطًا عضويًا بالنسق السياسي العام الذي تسير عليه الدولة، وبالمشروع العام الذي يطبع توجهاتها على المستويين الداخلي والخارجي، وبمضمون التنمية الذي تختاره للمجتمع. ضمن هذا السياق نتساءل عن التباينات الموجودة بين التربية والتعليم في كلٍّ من المغرب واليابان، خلال الفترة موضوع الدراسة، وعن الأدوار التي ساهمت بها المدرسة في إنجاح مشروع التحديث في اليابان وفي فشله بالمغرب.

ظهرت المدارس في المغرب واعتُبرت إحدى الدعامات التي ساهمت في بناء الدولة ودعم خياراتها السياسية والفكرية. وكانت الغاية من إحداثها مد الدولة بالأطر اللازمة لتسيير مرافقها الإدارية والسياسية. أما في اليابان، فكان لكل مقاطعة مؤسساتها التربوية الخاصة، وكانت تهدف من خلال مقرراتها إلى الحفاظ على النظام القائم على قواعد الطاعة والامتثال للقرارات.

رسم ابن خلدون من جهته صورة قاتمة لمسير التعليم في المغرب الوسيط (باستثناء فترة الدولة الموحدية)، وربط ذلك ببداية خراب العمران البشري الذي مثّلت فيه الدولة الفاعل الرئيس والمحوري، وهي الصورة نفسها التي استمرت المدرسة المغربية بإنتاجها خلال مرحلة ما قبل الحماية، في حين ربطت وزارة التعليم والثقافة والرياضة والعلوم والتكنولوجيا بين نجاح نظام التربية الياباني والمستوى العالي الذي حققته الثقافة والتعليم في اليابان خلال فترة الإيدو.

يقول رايشاور إن التعليم كان وراء نجاح اليابان في مواجهة تحديات الغرب المتفوق على اليابان تكنولوجيًا في القرن التاسع عشر، وما أعقب ذلك من وصول اليابان إلى مركز الزعامة الاقتصادية. وقد سادت في اليابان في عهد الإيدو أربعة أنواع مختلفة من المدارس: مدارس الباكوفو، مدارس الهان، المدارس المهنية الخاصة، والتيراكويا، إضافة إلى المدارس الخاصة.

احتل التعليم مكانة لائقة في المشهد الثقافي العام الذي عرفته اليابان في عهد الإيدو، وساهمت المؤسسات التعليمية في إنتاج النخب المؤهلة لضمان استمرارية النسق الإداري والسياسي الذي سطّره حكام التوكوجاوا.

ارتبطت الاستمرارية التربوية بطبيعة الممارسة السياسية؛ ذلك أن فترة العزلة الطوعية الطويلة ساهمت في تراكم التجربة وتحقيق العمق التربوي للمدارس العمومية والخاصة.

في المغرب انعكست الأزمات السياسية خلال العصرين الوسيط والحديث على القطاع التربوي؛ ذلك أن حالات النفي السياسي (للمرابطين والموحدين والمرينيين) أثّرت في استقرار المؤسسات التربوية ومضامينها العلمية؛ فمع كل دورة سياسية ينتج نمط تعليمي خاص ينفي إنجازات السابق.

هكذا، أحدثت دورات الإبادة السياسية التي مارستها الدول العصبية ضد من سبقها قطائع جليّة في نسق هذا الانتظام؛ فكل دورة تعليمية تنفي سابقتها وتنسخها، منسجمة مع حلقات النفي السياسي المتداول خلال العصر الوسيط.

من جانب آخر، ساهم غياب فئة مجتمعية واعية بوجودها وبدورها

التاريخي، في إحداث فراغ في علاقات المد والجزر بين الدولة والمجتمع في المغرب. ومثّل أنموذج المدارس حالة، يمكن، من خلالها، اعتبار الدولة الفاعل المحوري في رسم معالم سياسة تعليمية واضحة، تنتصر لاختيارات المخزن السياسية والفكرية. وفي الجهة المقابلة، حرصت «كل إقطاعية في اليابان على أن تكون لها مدارسها الخاصة التي يتعلم فيها شبابها من الساموراي»[110]، ولعل ذلك هو ما أدى إلى حدوث تنافس بينها في تكوين أطرها من أبناء الساموراي والتجار وغيرهم من الفئات الاجتماعية.

من جانب آخر، لم تكن مضامين التعليم والتلقين في المغرب كفيلة بإنتاج تراكم معرفي، ورؤية تنموية واضحة، تدفع في اتجاه تبنّي قضايا وطنية، والدفاع عنها، خصوصًا أن بداية الأفول المريني توازى مع حركة الاسترداد المسيحي، وبروز ملامح نهضة تنموية أوروبية، تؤمن بلغة القوة والتأسيس لفلسفة العلم وقواعد الحروب والمواجهات.

كانت حلقات العلم إلى حدود فترة ما قبل الحماية تدور في مجملها حول الأخذ بالمختصرات، كما كان التعليم يدور في حلقات مفرغة، تمد المخزن، أحيانًا، بالأطر الإدارية والقضائية، ولم يكن مقدرًا له إنتاج المعرفة التي تساهم في إحداث التغيرات التاريخية الكبرى.

أما في اليابان، فقد أدى الخواص دورًا رئيسًا في نشأة المنابر التعليمية وتطورها، ومثّل فوكوزاوا يوكيتشي أنموذجًا محوريًّا في هذا المجال؛ فالرجل اشتهر باستقلاليته عن نظام التوكوجاوا ونظام الميجي؛ وبذل جهدًا مضنيًا في الرقي بمؤسسة كيو إلى مصاف المدارس الخاصة الرائدة في التكوين وتلقي العلم والمعرفة.

لم يكتف الرجل بالتنظير وانتظار تحركات المسؤولين، بل انخرط بشكل واقعي في تطبيق رؤاه التحديثية، الأمر الذي جعل منه رقمًا تربويًّا صعبًا في تاريخ اليابان المعاصر، وهو عكس المبادرة التي قام بها أبو الحسن الشاري في سبتة عام 653 هـ، أو ما دعا إليه الأعرج السليماني والحجوي في العصر

---

(110) رايشاور، ص 239.

الحديث؛ فقد مثّلت محاولة الشاري، على الرغم من أهميتها، مبادرة معزولة واستثنائية في مسألة تقعيد أسس مدرسة وطنية خاصة، خلال هذه الفترة التاريخية. ولم يرافقها إنشاء مؤسسات أخرى تعمُّ مختلف المدن الرئيسة في المغرب الوسيط، بالشكل الذي يمكّنها من تشكيل لحظة تراكم فاعل في تأسيس قواعد نظام تعليمي فاعل ومؤثر، وهو عكس ما شهدته اليابان من وجود مبادرات الخواص إلى إقامة المدارس في المقاطعات اليابانية خلال فترة العزلة الطوعية.

من خلال مقارنة الخطط التعليمية، التي اعتمد عليها المغرب، بما كانت تشهده أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من تحولات في ميادين التربية والتعليم، يبدو لنا حجم التأخر ودرجة الانغلاق اللذين عرفتهما المدرسة المغربية ومارستهما على نفسها ومحيطها، وهو التأخر نفسه الذي اكتشفه اليابانيون وهم يصطدمون على نحو عنيف بالظاهرة الغربية في أثناء حملة العميد البحري بيري في الفترة 1853-1854، إلا أن طبيعة الرد كانت مختلفة بين الجانبين.

لم تنسجم السياسة التعليمية، في عهد السلطان محمد بن عبد الله، مع طبيعة التحول السياسي والدبلوماسي الذي شهده المغرب؛ فقد تطلب الانفتاح التجاري نوعًا من المرونة بالبحث عن أسباب المعرفة والتأسيس لمخارج العلم والقوة التي بدأت تتضح معالمها في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية. وعلى العكس من ذلك، نهجت السياسة التعليمية المسالك التربوية الماضية نفسها، وحملت صفة التقليد ونأت بذلك عن أسباب المغالبة الحضارية خلال فترة انتقالية حرجة في منطقة حوض البحر المتوسط.

أما في اليابان، فقد تسببت الصدمة الأميركية في إثارة سؤال الإصلاح والتحديث، وبرزت أجوبة محددة رأت في الانفتاح على الغرب والاستفادة من خبرته ضرورة مركزية للرد الموضوعي الملائم على التحدي الغربي وجشعه الإمبريالي بثروات الشرق الأقصى.

فقد المغرب أحد الشروط الأساسية للتحديث، وهي المدرسة الأصيلة والمنفتحة على إنجازات دوائر العلم والتنمية. والأكيد أن المغرب كان يجهل

حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر مضامين التعليم الغربي ومقدماته الفكرية في فرنسا وبريطانيا وغيرهما. ولا شك في أن ذلك ارتبط بالتراكمات التي أسست لنمط النظرة المغربية للآخر «النجس» الذي يمنع الاتصال به وأخذ المعرفة من مصادره.

أما اليابانيون، كما سنلاحظ عندما نتناول الخبراء الأجانب في اليابان، فتفانوا في الانفتاح على الكفاءات العلمية الأجنبية وبذل الجهد المادي والمعنوي لاكتساب المعرفة والعلم التطبيقي والتتلمذ على أيديها.

تنبّه المغرب متأخرًا لما يجب فعله في ميدان التعليم والمدرسة. ومثّلت معركة إيسلي وتداعياتها النفسية محطة أساسية لمراجعة الذات، والانفتاح على معرفة إمكانات الآخر وعناصر قوته. وفي هذا الإطار شكّلت الرحلة قناة أساسية لتحقيق الهدف والمبتغى.

يمكن القول إن المدرسة المغربية فقدت الرؤية الكفيلة بإنتاج النخب والقيادات والكفاءات واستثمار نجاحاتها إلى أبعد ما يمكن. كما شكّلت المدارس العتيقة القبلة المفضلة لاختيارات القاعدة الواسعة من أفراد المجتمع المغربي. ولا شك في أن ذلك أوجد صعوبة لدى المخزن في انتقاء الطلبة المرشحين للدراسة في الخارج في أواخر القرن التاسع عشر.

احتاج المخزن في مجال إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا إلى تشييد مدرسة الألسن في طنجة، لكن، هل أدّت مدرسة طنجة دورًا تعليميًّا يجعل من معرفة اللغة الأجنبية وإتقانها وسيلة فاعلة في معرفة مقدمات العلم النظري والتطبيقي الذي بدأت تتضح معالم قوته داخل أوروبا خلال الفترة موضوع الدراسة؟ هل تشبه مدرسة الألسن هذه مؤسسة تعليم اللغات الأجنبية في ناغازاكي في عهد نظام الباكوفو في اليابان، وهي المؤسسة التي ساهمت بدور محوري في انتقاء وتكوين الطلبة اليابانيين المرشحين للدراسة في الخارج؟

في هذا السياق، وبعد حملة بيري على سواحل اليابان وما أعقبها من فرض شروط تجارية وقضائية، دشّن الشوغون في عام 1857 مؤسسة لترجمة الكتب الأجنبية، فكانت أول معهد للغات الأجنبية ومكوّنًا أساسًا لما سُمّي

حديثًا جامعة طوكيو الإمبراطورية، وسمّاها نظام الباكوفو «معهد دراسة كتب البرابرة». وأدّت هذه المؤسسة دورًا رئيسًا في انتقاء أفراد البعثات التعليمية اليابانية وإرسالهم إلى دول أوروبا وأميركا.

من جانب آخر، لا شك في أن غياب مدرسة حقيقية ومنتظمة، وانتفاء ذهنية متوقدة ومتفاعلة، حرما المغرب إمكانات تطوير المَلَكات العلمية والاتجاه بالتعليم نحو الفاعلية والتفاعل مع المكوّنات العامة لمؤسسات الدولة ومنابر المجتمع.

تحولت الترجمة في اليابان من أداة للمعرفة والاكتشاف إلى وسيلة للحفاظ على الذات العسكرية المخترقة، بتمتين عناصر الدفاع الداخلي والبحث عن سبل المناعة ضد أسباب هذا الاختراق، وبالانفتاح المتزايد على اللغة الهولندية، وبتأسيس منابر تعليمية تخدم القضية الوطنية وتدفع في اتجاه تطوير المقاومة الثقافية. وفي هذا الإطار، انتقد فوكوزاوا يوكيتشي نظام التعليم الصيني في اليابان، ودعا إلى الأخذ بالأنموذج التطبيقي والعملي الذي سارت عليه المدرسة الغربية.

أصبح التعليم في أواخر عهد الإيدو مفتونًا بهموم الترجمة ونقل خبرة الغرب التقنية من خلال مدرسة ناغازاكي وغيرها. وقد برزت، في هذا المجال، عبقرية يوكيتشي، و«ظهر نبوغه العلمي في دراسة الفيزياء والكيمياء والفزيولوجيا وفي نقل وترجمة مؤلّف هولندي في الهندسة العسكرية»(١١١).

تحقق الانفتاح على التعليم الغربي من خلال نافذة الترجمة، الوسيلة الأساسية التي وظفتها النخب الجامعية اليابانية، مثل يوكيتشي، لتصفية بقايا النظام التعليم القديم، ولإحداث القطيعة مع التقاليد التعليمية الصينية القديمة، وللانتصار لمبدأ الليبرالية في مبدأ الكسب العلمي والمعرفي.

خرجت اليابان من عزلتها التاريخية الطوعية، واكتشفت الجديد في الحضارة الغربية، ومن هنا استأنفت المدرسة اليابانية وظيفتها التربوية، بأدوات جديدة، وبروح وتراكمات قديمة، امتدت طوال عهد التوكوجاوا.

---

(١١١) Nishikawa Shunsaku, «Fukuzawa Yukichi (1835-1901),» *Perspectives*, vol. 13, nos. 3-4, (Septembre-Décembre 1993), p. 503.

أما في المغرب، فإن التنظيرات التربوية، بدءًا بإشارات الصفار وتنبيهات واقتراحات الأعرج السليماني ومشروعات الدساتير المقدمة، افتقدت الأساس المجتمعي المكافئ والموازي؛ إذ انطلقت هذه المحاولات من دون عمق مجتمعي، وفي غياب رؤية سياسية في شأن الدور الذي يمكن للمدرسة أن تقوم به، لإعادة إنتاج ما انقطع من بعض لحظات القوة في مسيرة التعليم زمن الموحدين. كما انسجمت الدعوات الإصلاحية مع بروز ملامح خط تعليمي أجنبي، حاول ترسيخ الوجود الثقافي الغربي على أنقاض مؤسسات تعليمية محلية خامدة.

أردتُ القول، من هذه المقدمات التربوية، إن البعثات التعليمية المغربية، التي توجهت إلى دول الغرب الأوروبي، ترعرعت ونشأت بمجموعها ضمن هذا النمط من التعليم والمدارس ومناهج التلقين والتدريس، وهو نمط تراكمت مقتضياته وعناصره منذ عصور الدول العصبية مع المرابطين والموحدين والمرينيين...

من جانب آخر، فتح عهد الميجي إمكانات واسعة لمراجعة مضامين السياسة التعليمية اليابانية، وجعلها مواكِبة لسيرورة التحديث. وفي هذا الإطار «تأسست وزارة التعليم عام 1871، وفي العام الموالي 1872، تم إصدار 'نظام التعليم' باعتماد الأنموذج الأميركي، وقسم إلى ثلاثة مستويات: الأولي، والثانوي، والعالي»[112]. ويمكن ملاحظة «تزايد التأثير الأجنبي، خلال عهد الميجي، في الفترة الممتدة من عام 1873 إلى عام 1880، وخاصة التأثير الأميركي والإنكليزي والفرنسي»[113].

يؤدي العامل السياسي دورًا محوريًا في مجمل التحولات التاريخية

(112) Yasuo Saito, «Modernisation du Japon et progrès de l'éducation,» dans: *L'Expérience du Japon en matière d'éducation: Réflexions sur le développement de l'éducation dans les pays en développement* (Tokyo: Agence Japonaise de Coopération Internationale, Institut de coopération international, 2005), p. 15.

(113) Jean-François Sabouret, «L'Education nippone: Passé, présent, la société du diplôme,» dans: Cercle d'études sur la société et l'économie du Japon, *Japon, le consensus: Mythe et réalités*, Coordination Jean-Marie Bouissou et Guy Faure; avec une étude-préface de Alain Touraine (Paris: Economica, 1984), p. 99.

الكبرى. وتتجلى عناصر القوة التربوية اليابانية في قرار إغلاق «المدارس التي أُقيمت في كل إقطاعية زراعية، ومدارس التيراكويا داخل المعابد»[114]. وانسجم هذا الإجراء مع قيام الحكم الجديد بإلغاء نظام المقاطعات الفيودالي في عام 1871، والتوجه نحو تركيز القرار السياسي والإداري. وفي هذا الإطار، «صدر قرار، يلزم مدارس المقاطعات، بالخضوع للإشراف المباشر لمصلحة التعليم المركزية»[115]. ولعل ذلك ما حقق مبدأ الاستمرارية التربوية والاستفادة من الإمكانات الداخلية الموجودة.

تمكن اليابانيون من جني ثمار المقدمات القانونية والتقنية والبشرية المتخذة، وتمثل ذلك في المعدلات المرتفعة لنسب التمدرس في مختلف مراحل التعليم، بما فيها مؤسسات التعليم الصناعي التي شهدت تطورات مهمة.

أصبح التعليم في اليابان يسير في موازاة حاجات الدولة ومتطلباتها المرحلية. وشكّل التعليم الصناعي في هذا السياق مطلبًا أساسًا لمد العسكريتاريا اليابانية بالوقود البشري المؤهَّل والمدرَّب لإنجاز المشروع التوسعي الياباني في المنطقة وإنجاحه.

أفلح اليابانيون في تحقيق معدلات كبيرة في التمدرس الإجباري، وأصبح الانتظام داخل المؤسسات التربوية شكلًا من أشكال الانخراط في ثكن عسكرية، يتأهب أفرادها للحرب والمواجهة. ويمكن تفسير السرعة في تحقيق هذه النتائج بالتحديات الكبرى التي واجهت مجتمع النيبون، خلال تزايد أخطار الهجمة الغربية على منطقة آسيا الشرقية، وتحفُّز العسكريتاريا، في مقابل ذلك، على تأسيس إمبراطورية يابانية توسعية. ومن هنا شكّلت المدرسة والتعليم إطارين ملائمين لتكوين الأفواج المطلوبة لأداء هذا الدور الحيوي. كما يمكن رصد الانتظام المؤسساتي من خلال الوصف الدقيق للدور المنوط بالمؤسسات التعليمية وبسياسة التعليم.

(114) المصدر نفسه، ص 240.

(115) *Japan's Modern Educational System: A History of the First Hundred Years* ([Tokyo]: Research and Statistics Division, Ministry of Education, Science and Culture, 1980), chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 1: The Establishment of the Department of Education.

لم يجد اليابانيون حرجًا في استلهام الرموز والمعاني الدينية/ الأسطورية، لشحن المنظومة التربوية بعوامل البقاء والاستمرار. وفي هذا الإطار لا نجد لدى التربوي الياباني أوبارا أي تعارض بين الدين من جهة والعلم والأخلاق والفن من جهة أخرى، «بل إن القدسية تمثل، بالنسبة إليه، القيمة القصوى للتعليم»[116].

حمل أوبارا بشدة على التعليم اللائكي، واعتبره «خطرًا على تنشئة الشخصية الإنسانية». وفي نظره، «فإن البحث عن القيم الإنسانية وتنميتها محرك أساس لقطاع التربية والتعليم»[117].

في هذا الإطار، لم تكتف النخب الفكرية والتربوية في اليابان بإنتاج المعارف والتنظيرات، لكنها انخرطت في تأسيس منابر ومؤسسات تعليمية خاصة، تنافس الدولة وتزاحمها في صناعة عقلية الابتكار والنبوغ، وهو عكس ما ميّز نخب الإصلاح المغربية (محمد الصفار والأعرج السليماني والحجوي، وغيرهم) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي اكتفت بتنبيه أولي الأمر على الاعتناء بمنظومة التعليم، ولم تسمح لها إمكاناتها الذاتية ومحيطها السياسي والإداري بتأسيس منابر تعليمية تنافس الدولة في إنتاج المعرفة واختبار النظريات والاجتهادات داخل مؤسسات تعليمية حقيقية.

نحن إذًا أمام تعليمين متباينين شكلًا ومضمونًا؛ فإذا كان التعليم في المغرب جنح نحو التقليدية وانغلق على نفسه فترات طويلة، فإن المدرسة اليابانية تميزت بسرعة التكيف مع الأوضاع الجديدة التي فرضتها الظاهرة الغربية بعد عام 1853.

من جانب آخر، أدى العامل السياسي والإداري دورًا محوريًّا في التقاط عناصر القوة ورَصِّها وتوحيد مضمونها للرد على المشروعات الغربية في اليابان خصوصًا، وفي منطقة الشرق الأقصى عمومًا، وهو جانب لم تتقن الدولة والمجتمع في المغرب التعامل معه بمنطق النِدّية والمواجهة الواعية والإيجابية.

---

(116) Makoto Kobayashi, «Kuniyoshi Obara, 1887-1977,» *Prospects* (UNESCO, Paris), vol. 34, no. 2 (June 2004), p. 229.

(117) المصدر نفسه، ص 231.

لكن بدلًا من ذلك، حدث الانكفاء على الذات بتقاليدها التربوية وبانسحابها من دائرة البحث عن العلم ومقدمات القوة التي بلغت شأنًا كبيرًا في أوروبا.

لم تنشأ في المغرب مدارس حقيقية يمكنها تكوين أُطر وفق مناهج تعليمية متقدمة. ولا شك في أن ذلك أوقع الدولة في مآزق حقيقية في أثناء عملية انتقاء المتعلمين المرشحين للدراسة في الخارج، وهو ما سنعرض له بالتفصيل في القسم الثاني من هذا الكتاب.

في الوقت نفسه، لم يجد اليابانيون صعوبات في إرسال وفودهم التعليمية إلى أوروبا وأميركا، بل تمّت العملية بيسر وفاعلية. وتنافست الأسر في إرسال الأبناء نحو وجهاتهم التعليمية المقصودة، خصوصًا بعد أن صدر قرار ثوري استراتيجي في عهد الميجي أكد اعتماد الكفاءة التعليمية معيارًا وحيدًا للترقي الاجتماعي.

في المغرب طرأت قطيعة تربوية وسياسية أثّرت في غياب مدرسة وطنية فاعلة مجتمعيًا ومتفاعلة مع الأصيل والدخيل من الثقافة والعلوم. وقبيل الحماية الفرنسية عام 1912، عقمت المدارس فلم تفهم مستجدات التحديث الغربي وما رافقها من نشوء نظريات سياسية واقتصادية وعسكرية وفلسفية وفنية تفسر قوة الظاهرة الغربية وسيطرتها على بقاع الدنيا شرقًا وغربًا.

كان مفترضًا أن تنشأ مدارس وطنية منذ زمن الانفتاح في عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790)، وأن يُستدعى الخبراء بمختلف حقول المعرفة لتكوين نخب قادرة على فهم الظاهرة الغربية وفك ألغازها ومنافستها. ولكن أنّى يتحقق ذلك في ظل وجود نظام رتيب، لا يمتلك بنيويًا السبلَ الكفيلة بالانخراط في أسباب المغالبة الحضارية مع الغرب وأشيائه المادية والفكرية.

في المقابل، أحدثت حملة بيري صدمة شعورية عميقة لدى أفراد المجتمع الياباني، وتمكنت نخب الإصلاح والتغيير بفعل تكوينها العلمي في مدارس اليابان وفي الجامعات الغربية من الاستجابة للتحدي الغربي بسرعة والإجابة عن أسئلته عبر مدخل التربية والتعليم. وفي هذا الإطار، تضاعف عدد المؤسسات التربوية في جميع الأسلاك التعليمية، واستُدعي الخبراءُ الأجانب

لدعم التحصيل الدراسي، وأُرسلت البعثات التعليمية لتكوين أُطر الدولة في مختلف التخصصات العلمية والفكرية والفلسفية والعسكرية والفنية، وهو ما سنفصّله في القسم الثاني من هذا الكتاب.

يتبين أننا أمام مقدمات متباينة أثّرت في إشكالية البحث المركزية التي سجلنا سابقًا، وهذا ما أدى إلى اختلاف جلي في مآل البعثات التعليمية في المغرب واليابان.

خاتمة القسم الأول

حاولنا في القسم الأول من هذا الكتاب التقاط الثوابت التاريخية والرمزية والثقافية والمجتمعية التي ميزت كلًّا من المغرب (1844-1912) واليابان (1853-1945) بين تحديين وهزيمتين عسكريتين. ويبدو من خلال فصول هذا القسم أننا أمام مقدمات متباينة ومتناقضة، تستدعي المقابلة والمناظرة المتأنية والموضوعية، وهو ما تناولناه في الفصل الثالث الذي توخينا فيه المقارنة والمقابلة المباشرة بين أوضاع البلدين من النواحي المذكورة.

كما حاولنا أن يكون الانسجام حاضرًا في المباحث التي اخترناها لكل قسم، حتى تأتي عملية المقارنة مشروعة وفاعلة. ويمكن القول إن معظم مباحث القسم الأول ركز على التقاط قيمة التراكم التاريخي والرمزي والثقافي والمجتمعي لكلٍّ من المغرب واليابان. واكتشفنا في أثناء البحث وجود خاصية التراكم والاستمرارية المميزة لمجتمع التوكوجاوا الياباني، الذي تُنسب إليه الأسباب العميقة للتحولات التي عرفها عهد الميجي ابتداءً من عام 1868، حين اعتُبر هذا العهد الخزان الاستراتيجي لمعظم لحظات التحدي الحضاري والتنموي الذي عرفته اليابان في تاريخها الحديث والمعاصر.

في المقابل، وجدنا خاصية القطائع في تاريخنا الوطني، وفي مؤسساتنا السياسية، وفي نمط العلاقات الداخلية والخارجية، وفي منظومتنا التعليمية وقيمنا المجتمعية، الأمر الذي يجعلنا نقول إن ذاكرتنا التاريخية، في مجملها، عبارة عن مراحل من الفوضى تخللتها نتوءات من الاستقرار.

لم تؤسس الدولة المغربية لخيارات الاستمرارية، ولم يتمكن المجتمع من

دفعها إلى صوغ عقد اجتماعي، تتناغم من خلاله تصورات الدولة مع حركية المجتمع. ولا شك في أن غياب هذا الانسجام أفسح المجال أمام بروز ملامح فوضى حقيقية، بدأت مع انهيار الدولة الإدريسية، إلى لحظة السقوط في عام 1912. وقد أنتج ذلك انهيارات مرافقة في المسائل التعليمية والمجتمعية.

تمثّل مباحث القسم الأول توطئة لا بد من تحليلها وتوسيع دائرة المعارف حولها، لمساءلة آليات التحديث داخل البلدين من خلال آلية إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج.

إن الكشف عن مقدمات البعثات التعليمية المغربية واليابانية كفيل بتعميق فهم الأسباب التي أنتجت الفروق بين التجربتين. ويُعَدّ موضوع البعثات التعليمية ترجمة عملية وكشّافًا لسيرورة التحديث في كلٍّ من المغرب واليابان، فكان من الضروري مساءلة هذا الموضوع ورصد عوامل انطلاقه، باعتباره آلية تلخّص ثم تعكس مجمل ما جرى الحديث عنه في المقدمات التي تطرقنا إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

القسم الثاني

كرونولوجيا البعثات التعليمية المغربية واليابانية
إلى أوروبا وأميركا
قضايا وإشكالات

الفصل الرابع

البعثات التعليمية المغربية
المقدمات والنتائج

«اهتم (السلطان الحسن الأول) اهتمامًا خاصًا بتوجيه البعثات العلمية إلى أوربا لتعلم اللغات والفنون والصنائع، مثلما فعل محمد علي بمصر».

عبد الرحمن بن زيدان

أولًا: المقدّمات والأصول

أثار التحدي الغربي الحديث كثيرًا من التساؤلات، وفتح المجال واسعًا أمام أنواع الآراء والاجتهادات في البلدان التي تعرضت للهجوم الغربي العنيف والمنظم خلال القرن التاسع عشر. كما شكّل هذا التحدي صدمة حقيقية للذات من خلال الحملات التي اكتوى بنارها عدد كبير من الأقطار العالمية، كمصر والشام في أثناء حملة نابليون، أو اليابان في فترة بيري، أو الصين من خلال حرب الأفيون، وكذا المغرب في أثناء معركتي إيسلي وتطوان؛ فكان ذلك - في حالة المغرب - باعثًا على التفكر والتدبر في «النوازل» التحديثية المستجدة، وعلى البحث في أسباب «الغُمّة» والتأسيس لمطلب الإصلاح، واللحاق بالغالب، بإدراك أسباب تمدنه وقوته، وبالتأثيث الملائم للفعل التحديثي بطرائق وأساليب معيّنة. وفي هذا الإطار التاريخي الدقيق والحرج، تندرج رحلة الصفار ضمن سفارة أشعاش إلى باريس.

صحيح أن مهمة الصفار لم تكن ذات منحى تفاوضي، لكن اختياره ضمن أعضاء الوفد لم يكن عبثيًا؛ ذلك أن مهمته كانت وصفية استخباراتية، وهو ما يتضح من خلال ملاحظاته الدقيقة وأسئلته المتعددة الاستفسارية عن جميع ما له علاقة بأسباب القوة الفرنسية. ولا شك في أن هذا الدور حدّدته له سلفًا الهيئات المخزنية العليا. ويعترف الصفار بذلك قائلًا: «لولا مساعدة من تجب إجابته وتتحتم طاعته لما عدت ولا قررت أن أفعل شيئًا من ذلك، لكن بركة الامتثال عادت على كنافة الفكر بالامتثال»[1].

إذا كان أحد الدارسين يقول إن الرحلات -ومنها رحلة الصفار- «لا تحمل سمة التقرير الذي يمكن استغلاله سياسيًا وعسكريًا، فهي في شكلها أقرب ما تكون إلى كتب الغرائب التي تريد أن تسلّي القارئ...»[2]، فإن متأمل متنها يستنتج بوادر خطاب إصلاحي متقدم، فمن ثناياه يمكن الكشف عن رؤية عميقة تفسر بهدوء وتأنٍ وبشكل خفي أسباب تقدم الآخر وأسراره وتأخر الذات المغربية، فهي من زاوية التحليل الأنثروبولوجي وصف للأنا المكلومة أكثر مما هي ذكر عناصر القوة الفرنسية المعلومة. وبصفة إجمالية «حملت رحلة الصفار هموم التحديث، وكانت دعوة إلى مجاوزة القديم بصفة ضمنية خجولة»[3].

أبرز أحد الباحثين الحيز المهم الذي احتلته المسألة العسكرية في مجموع الكتابات السفارية المخزنية[4] التي وصفت مظاهر الحداثة الأوروبية ومقوماتها، بيد أن نظرة متفحصة لرحلة الصفار أنموذجًا توضح، على العكس من ذلك، مبدأ الشمولية الذي اعتمده الصفار في مقاربة منطق العلم والقوة لدى

---

(1) محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفار، صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846، دراسة وتحقيق سوزان ميلار؛ عرّب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 227.

(2) محمد المنصور، «النخبة المغربية والحضارة الأوروبية في القرن 19،» أمل، السنة 2، العدد 4 (1993)، ص 56.

(3) سعيد بنسعيد العلوي، «صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية،» باحثات، العدد 5 (1998-1999)، ص 122.

(4) عبد السلام الحيمر، «صورة الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية أنموذجًا)،» مكناسة، العدد 6 (كانون الثاني/ يناير 1992)، ص 162.

الفرنسيين. وتمثل رحلته، في نظر بلقزيز، أول الأدلة على الدور الذي ستقوم به أوروبا في صوغ الوعي الجديد لدى النخبة المغربية في القرن التاسع عشر[5].

في هذا السياق، لفت الصفارَ وجودُ بعثة علمية مصرية؛ ففي أثناء حديثه عن احتفال الفرنسيين بأول يوم من العام، أشار إلى وجود «سبعة من أهل مصر... ومعهم هنالك غيرهم جملتهم نحو 60، أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم»[6]، وهي إشارة لم ترْقَ إلى قوة دلالتها ما أوردته الرحلة المشرقية التي قام بها أبو العلاء إدريس إلى مصر، حيث جاء الخبر عن موضوع البعثات التعليمية المصرية تقريريًّا وبعيدًا عن التعليق، فقال عن محمد علي: «وبعث رجالًا من أهل العلم لبر النصارى، يتعلمون الطب والتوقيت والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك، وأجرى لهم المؤونة لعيالهم وأوصى بالاحتفاظ بهم في بلد النصارى، ومن تعلم منهم يرجع لبلده»[7].

أشار الصفار إلى بعثة مصرية أوفدها محمد علي إلى فرنسا في عام 1844، بعد تدمير إمبراطوريته في عام 1840، عندما أصبح سليمان باشا مسؤولًا عن الجيش، «فقام بجولة في مدارس المدرعات والفرسان الفنية لاختيار الأعضاء»[8]. وسبقت تلك البعثةَ وأعقبتها بعثاتٌ تعليمية أخرى، فقد تقدم قبل عام 1812 «القنصل الفرنسي دروفيتي (Drovetti) إلى محمد علي بخطة تهدف إلى 'تحضّر' مصر من خلال التعليم، ولما كان الباشا منشغلًا بإقرار سلطته أكثر من انشغاله بتحضر البلد، فقد أهمل المشروع»[9]. وتطلب

(5) عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحي في المغرب: التكوين والمصادر، 1844-1918، فكر عربي معاصر (بيروت: المنتخب العربي، 1997)، ص 100.

(6) الصفار، ص 185.

(7) نور الدين بيطاري، «تحقيق ودراسة لقضايا تواصلية «أبو العلاء إدريس، مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، أو ديوان العبر في أخبار أهل الثالث عشر»،» (أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2006)، ص 163-164.

(8) أنور لوقا، رحالة وكتاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر، ترجمة كاميليا صبحي وأمل الصبان؛ راجع هذا الكتاب ودققه وأشرف على طباعته عبد العزيز محمد جمعة (الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري، 2006)، ص 101.

(9) المصدر نفسه، ص 43.

أمر تمهيد أسباب المُلك أكثر من 14 عامًا أعقبها إرسال أول بعثة تعليمية مصرية إلى فرنسا في عام 1826. ومن خلالها «عرض حسن العطار على محمد علي اسم رفاعة الطهطاوي ليكون مرشدهم الروحي، وكان في الخامسة والعشرين من العمر»[10].

تُعَدّ بعثة عام 1826 أشهر بعثة مصرية إلى فرنسا. ويشير أحد الباحثين إلى بعثة سبقتها في عام 1818، «وضمت 40 طالبًا من مصريين وأتراك وشوام وأرمن، وتوزعت اختصاصات الطلاب بين مدنية وعسكرية»[11]، في حين يقدر آخَر عدد أفراد البعثات التعليمية المصرية بين عامي 1809 و1849 بنحو 349 طالبًا[12].

أشار الصفار في رحلته إلى البعثة المصرية التي شاهد بعضَ أفرادها في عام 1845، في مرحلة تراجعت فيه قوة محمد علي أمام القوة الإنكليزية. وإذا كان لبعثة 1826 طابع نفعي أملته حاجات محمد علي العاجلة، فإن هذه البعثة المماثلة من حيث الأهمية كان لها جانب تشريفي[13].

يمكن اعتبار إشارة الصفار مقدمة موضوعية نبّهت المخزن إلى ضرورة اتّباع المسلك المصري نفسه، أي إرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا، خصوصًا إذا علمنا أن رحلة الصفار لم تكن سوى تقرير رُفع إلى الدوائر المخزنية العليا للدراسة والاستثمار. ويمكن الاستدلال على ذلك بما أورده صاحب العز والصولة؛ فقد ذكر أن مولاي الحسن «اهتم اهتمامًا خاصًا بتوجيه البعثات العلمية إلى أوربا لتعلّم اللغات والفنون والصنائع مثلما فعل محمد علي في مصر»[14]، ليدشن بذلك، أو بالأحرى، ليُتم مسلسل البعثات التعليمية

(10) المصدر نفسه، ص 77.

(11) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، ص 89.

(12) Charles E. Butterworth and I. William Zartman, eds., *Between the State and Islam*, Woodrow Wilson Center Series (Washington: Woodrow Wilson Center Press; Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2001), p. 38.

(13) لوقا، ص 101.

(14) الصفار، ص 185.

المغربية التي ابتدأت مع السلطان محمد الرابع؛ ففي عهد هذا الأخير، وجّه المخزن ست بعثات طالبية إلى الديار المصرية لتلقّي علوم الصناعة الحربية والعصرية[15].

يقول أحد الدارسين إن الحركة الإصلاحية التي بدأها السلطان محمد بن عبد الرحمن، وتابعها مولاي الحسن، «كانت نتيجة لكل هذه الكتابات الكثيرة التي كان يضعها كتاب السفارات في الرحلات التي يؤلفونها وفي التقارير التي كانوا يرفعونها للمسؤولين»[16].

تحدث محمد المنوني عن أربع بعثات تعليمية أوفدها محمد الرابع إلى مصر[17]، وأورد من وثائق آل بن سعيد في سلا، رسالة صادرة عن محمد الرابع، تستدعي التوقف والتأمل والتحليل؛ فقد ورد فيها:

«خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فإن هذه الخطط الجهادية من علم البحر وتطبجيت [علم المدفعية] ضعفت في الغرب حتى كادت أن تُفقَد، وقد اعتنى بها ملوك الإسلام في هذا الوقت فانتفعوا بها انتفاعًا بيّنًا، وأدركوا منها ما لم يدركه غيرهم.

وقد بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية، حيث وجّهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المعروفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأمرهم، وطلب تكليفه بما يتعلق بهذا الأمر، ووعد بالوقوف فيه، غير أنه طلب أن يكون المتعلمون صغارًا نجباء، وأسرع نجابة من الكبار.

---

(15) عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، مطبوعات القصر الملكي؛ 27، 2 ج (الرباط: المطبعة الملكية، 1961-1962)، ج 2، ص 148.

(16) محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة 1276هـ/ 1860م، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، الرحلات؛ 3 (الرباط: جامعة محمد الخامس، 1967)، ص (ث).

(17) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، 2 ج، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 1، ص 156-157.

فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك: من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم لمصر وأردنا انتخابهم من أولاد البخاري وأهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة.

فنأمرك أن تنتخب من أولاد خدامنا أهل سلا الصغار ثلاثة، وقد أمرنا عامل الرباط بانتخاب ثلاثة من أولاد الرباط، ليكون ثلاثة طبجية، وثلاثة بحرية.

وليكن سنهم من أربع عشرة إلى خمس عشرة، ممن يعرف الكتابة والقراءة، وظهرت عليهم مخايل النجابة والذكاء والفطنة.

وعدهم وأهلهم بالإحسان التام من جانبنا العالي بالله في حال التعلم، زيادة على ما يترقبونه من إحراز المزية، والمرتبة العلية، لمن برع منهم فيما عين له. وحين تعينونهم وجهوهم لحضرتنا الشريفة، بعد أن يدفع لهم الأمناء ما يتزودون به ويكتروا لهم ما يركبون عليه، واصلين لحضرتنا العالية بالله، فأطلعهم على كتابنا هذا ليعلموا بمقتضاه، والسلام، في 5 حجة الحرام، عام 1283 هـ»[18].

فصلت الرسالة في دوافع البعثة، وقدمت لها بإقرار حجم التأخر المغربي في علوم البحر وفنون المدفعية، مقارنة بمصر وتركيا. وهي رسالة حملت بعض عناصر التشابه مع توجيهات الإمبراطور موتسو هيتو لأعضاء بعثة إيواكارا في عام 1871[19].

يبدو أن المخزن تنبّه لبعض أخطائه السابقة عندما اختار فئات كبيرة السن، فاستدرك ذلك وعيّن ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، ولإنجاح مهمتهم التعليمية أخضعهم لتكوين قبلي في علوم الحساب والهندسة والتوقيت.

فرض غياب مؤسسات تربوية فاعلة على السلطان اختيار أفرادها من أولاد جيش البخاري، ومن بعض المدن ذات الحضور المخزني على المستويين

(18) المصدر نفسه، ص 157-158.

(19) سنفصّل في موضوع بعثة إيواكارا في مبحث خاص لاحقًا في هذا الكتاب.

الإداري والتجاري، كفاس والعدوتين والصويرة. وإضافة إلى شرط حداثة السن، أشارت الرسالة إلى ضرورة اختيار من ظهرت عليهم مخايل النجابة والذكاء والفطنة. وختمت موضوعها بتحمّل المخزن تكاليف الرحلة وبتقديمه منحًا لمن برع منهم في ما عيّن له. بيد أن معيار النجابة لا يمكن قياس درجة نجاعته في غياب قواعد تربوية ومؤسساتية؛ فالنجابة والذكاء المطلوبان في هذه الحالة يستدعيان نوعًا من الانتظام التربوي، ويتطلبان تقويمًا على فترات محددة من حياة المتعلم وممارساته الدراسية. ولا شك في أن غياب ذلك أوقع المخزن في كثير من التناقضات؛ إذ ظهر في بعض البعثات التعليمية المنتقاة بعض الأشخاص الذين لم تتوافر فيهم الشروط الدنيا من التواصل اللغوي. وكان المخزن يضطر إلى إرجاعهم، بعد عملية انتقاء بالمواصفات السابقة.

تُفصح عملية الانتقاء هذه عن حجم التأخر في إنتاج نخبة تعليمية قادرة على استيعاب حرج اللحظة التاريخية وحجم التحديات الحضارية، وعلى الرد الملائم على طاقة العنف الغربي المادي والمعنوي.

إذا كانت عناصر الإلحاح التحديثي بادية من ثنايا الرسالة، من خلال توافر البعثة، ظاهريًّا، على أبرز شروط التكوين المادية والمعنوية، فإنها فقدت الأساس التربوي العميق المتمثّل في غياب مدرسة وطنية حقيقية ممتدة وفاعلة.

تحدث المشرفي عن محمد بن عبد الرحمان بأنه كان «متشوفًا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة.. ووجه لتعليم الهندسة والحرب عددًا من الطلبة وأبناء المسلمين لبلاد الإفرنج، فتعلموا ما يكفي من ذلك، وما يحتاج إليه في تعليم كيفية النظام، واستغنى بهم عمن عداهم من الأجانب»[20]. ونتساءل

(20) محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة؛ تقديم أحمد التوفيق، 2 مج (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2005)، ج 2، ص 92.

أوردت الباحثة ثريا برادة جزءًا من قولة المشرفي قائلة: «ووجّه لتعلم الهندسة والحرب عددًا من طلبة المسلمين لبلد الروم، فتعلموا ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه من علم الهندسة وكيفية حرب النظام». وأضافت إلى ذلك جملة من إنشائها لم ترد عند صاحب الحلل ونسبتها إليه، واستأنفتها مقررة: «فإن هذا لم يبدأ بصفة واضحة إلا في عهد الحسن حيث اتسعت الرقعة الجغرافية التي صارت ترسل إليها هذه البعثات، وصارت تشمل عدة بلدان أوروبية، بل وحتى الولايات المتحدة الأمريكية». وهي =

عن حقيقة نجاح الوفود التعليمية المغربية في تعويض الخبراء الأجانب، وهل حققوا بالفعل النتائج المرجوة منها بشكل يجعل من الخبرة الوطنية عنصرًا أساسًا في تحقيق الاكتفاء العلمي والعسكري؟ وبالنظر إلى حقيقة الأمر، يبدو أن المشرفي لم يكن دقيقًا في استنتاجه؛ ذلك أن التدخلات الأجنبية ووصاية الخبراء العسكريين الأوروبيين ظلت تتزايد طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم يفسح المجال أمام الكفاءات المغربية لتقلد المسؤولية الملائمة لتخصصاتهم العلمية والتقنية، وهو موضوع نفصّل فيه الحديث لاحقًا.

يمكن لبعض الكفاءات أن تبرز داخل نسق تربوي فاشل، كما تسمح لها مؤهلاتها بالإبداع في الحقول العلمية التي تخصصت بها، لكنها فقدت في الحالة المغربية الإطار التنظيمي الذي يمتلك رؤية تنموية حقيقية، توجه الخبرات وتستثمر النجاح الفردي. والأكيد أن المغرب ما عاد ينتج ويبدع في الحقل السياسي والثقافي، كما كان الأمر في عهد الدول العصبية في العصر الوسيط.

أورد ابن زيدان أسماء بعض المتعلمين الذين نبغوا وأنتجوا في مجالات علمية مهمة، منهم أبو محمد عبد السلام الشريف العلمي[21]، وأبو العباس أحمد شهبون الجغرافي الكبير بتعبير ابن زيدان[22]. وقد ترك مجموعة من الخرائط، منها خريطة للعالم[23].

كما ذكر ابن زيدان أبا عبد الله محمد بن كيران الفاسي، «مخترع ثمن الدائرة عوضًا عن الربع وغيرها من مهم الاختراعات ذات البال»[24]. ويبدو أنه

= تقريرات لم ترد بالمطلق لدى المشرفي في مصنّفه المذكور. انظر: ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997)، ص 248.

(21) من مؤلفاته شرح الوزكاني وضوء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس، والبدر المنير في علاج البواسير، والأسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة.

(22) عبد الرحمن بن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، مطبوعات القصر الملكي؛ 18 (الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1937)، ص 95.

(23) المصدر نفسه، ص 95.

(24) المصدر نفسه، ص 96.

ترك مجموعة من الاختراعات، لكنها تعرضت للضياع. وعوض مساءلة دور المخزن في التقصير في استثمار جهد هؤلاء، اكتفى صاحب الدرر الفاخرة بتحميل المسؤولية لغير أهلها، فنجده يتأسف على موت اختراعاته بوفاته قائلًا: «... إذ لم يقدر نشرها بالطبع ولم يخلف الرجل عقبًا محتفظًا وإنما خلف ولدًا جاهلًا صننا بذل التراث العظيم إلا عن الأرضة التي مزقته كل ممزق»[25].

من جانب آخر، شكّك المنوني في انتساب عبد السلام العلمي إلى أفراد البعثة التي وجهها المولى محمد الرابع إلى مصر، وفي هذا قال: «... وعلى هذا يكون ذهاب هذه البعثة، بين عام 1276هـ إلى عام 1280هـ، حيث إن هذه الحقبة هي التي حكم فيها الملكان: محمد الرابع الذي بويع عام 1276هـ وسعيد باشا المتوفى عام 1280هـ. ويلاحَظ في هذا الصدد أن ابن زيدان لم يذكر مصدره عن هذه البعثة، كما يؤخذ عليه إدراج عبد السلام العلمي ضمن أفرادها الثلاثة، مع أن هذا إنما توجه للقاهرة أوائل عهد الحسن الأول، يدل لهذا أن العلمي نفسه في مقدمة كتابه البدر المنير يذكر أنه درس الطب بمصر بمدد السلطان الحسن الأول»[26]. لكن ما المانع أن يكون المتعلم شارك في كلتا البعثتين اللتين أوفدهما كلٌّ من محمد الرابع والحسن الأول إلى مصر؟

إذا كان ابن زيدان ذكر الطلبة الثلاثة الذين أرسلهم محمد الرابع إلى مصر[27]، فإنه بعد صفحات قليلة يورد خبر البعثة التي وجّهها الحسن الأول إلى مصر، وفي هذا قال: «.. وممن كان وجهه لإتمام دروسه الطبية بمصر الطبيب الماهر أبو محمد عبد السلام العلمي حسبما صرح بذلك»[28]. وأورد عنه المنوني، نقلًا عن مخطوط «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام»، قائلًا: «... ووجّهه السلطان المولى الحسن الأول لمصر لتعاطي المعارف الطبية والتشريحية، والتوقيت والتعديل والتنجيم والأرصاد وتخطيط الساعات الشمسية المعروفة بـ 'المزاول'، وأخذ عن شيوخ الطب بمصر، وقد أجازوه بإجازات لا زالت محفوظة ... ومهر في الطب والتشريح وقرأ على

(25) المصدر نفسه، ص 96.
(26) المنوني، ج 1، ص 156-157.
(27) ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 95.
(28) المصدر نفسه، ص 105.

أطباء فرنسيين واصبنيوليين، وأجازوه كذلك، وحضر تشريح 16000 جثة من موتى الحرب في ثورة عرابي، وشاهد العمليات الجراحية بمستشفى مصر»[29].

يُصنَّف عبد السلام العلمي ضمن عناصر يقظة المغرب ومؤشراتها في العصر الحديث. ويُعَدّ، بالنظر إلى الإنجازات التي حققها، مفخرة للمغرب ودليلًا على إمكانية النهوض باستثمار الإمكانات البشرية النوعية الموجودة التي كانت في حاجة إلى مؤسسات إدارية وسياسية تمتلك القدرة على توظيف الكفاءات العلمية الموجودة والتقاط عوامل النهوض والدفع بها نحو الفاعلية الحضارية المطلوبة.

لم تكن الكفاءات قائمة على قواعد مؤسساتية واضحة، تضمن لها عوامل البقاء والاستمرار، بل مثلت استثناءات لم يحتمل البناء الداخلي القدرة على إدماجها والاستفادة من إمكاناتها العلمية والتقنية ضمن سيرورة تحديثية واضحة المعالم والتوجهات.

في هذا الإطار، لمّا عاد العلمي من مصر «اختصه السلطان... طبيبًا لنفسه وعياله ولازم الأعتاب الشريفة بصفته طبيبًا»[30].

من جانب آخر، لمَّح المشرفي إلى دور العناصر البيروقراطية في الحد من اندفاع السلطان محمد الرابع في اتجاه تحديث المؤسسة العسكرية؛ فقد تشوف إلى البعثات التعليمية كإحدى الآليات لتحقيق ذلك، «وإلى كل وسيلة يحتاج إليها حتى يضاهي به عساكر الدول العظام، فإذا بالمقادر لم تساعده، وقد جمع منه ما تيسر جمعه ولم يتم ما أراده لخيانة دائرته وخبث نيتهم واعتنائهم بجلب النفع لأنفسهم خاصة، وإهمالهم أمور الدين والنصيحة له»[31]، وهو الموقف نفسه الذي تبنّاه ابن زيدان عندما لمح لدور بطانة السوء في انتكاسة المشروع الإصلاحي للمولى الحسن الأول[32].

---

(29) المنوني، ج 1، ص 242.

(30) المصدر نفسه، ص 242.

(31) المشرفي، ج 2، ص 97.

(32) عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 مج، ط 2 (درب الفاسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ص 465.

يفرض هذا الاستنتاج التساؤل خصوصًا عندما نفحص مجمل ما أنتجته مدونة الأحكام السلطانية الواردة عند كل من صاحب **الحلل**، ومؤلف **العز والصولة**: فإذا كانت بطانة السوء مسؤولة عن انتكاسة هذه التجارب الإصلاحية، فإن ذلك يدل على قوة نفوذها وعلو كلمتها ونفاذ قراراتها؛ وهي تدل، في المقابل، على ضعف مؤسسة السلطان، وعدم قدرتها على إدارة الشأن العام؛ وهو ضعف لا نجد ملامحه وآثاره في هذا النوع من الكتابة التاريخية، التي تنسب الأفعال والإنجازات العظيمة إلى شخص السلطان، في حين تربط أسباب الوهن والفشل بالوزراء والحجّاب والقواد وغيرهم من رموز البيروقراطية المخزنية، وإن كنا نعتقد أن الأزمة كانت بنيوية، اشتركت مختلف المكوّنات السياسية والمجتمعية في إنتاجها وتوفير ضمانات استمرارها.

تتعدد التأويلات التاريخية المفسِّرة لانتكاسة محاولات الإصلاح في المغرب وغيره من البلدان الإسلامية، وفي مقدمة ذلك الحديث عن غياب الطبقة الوسطى. وفي هذا الصدد تأسست الممارسة السياسية في المغرب على الدور الكاريزماتي والرمزي لمؤسسة السلطان، وساهم ذلك في حجب أدوار ممكنة وفاعلة ومنافسة لفئات أو طبقات اجتماعية، تسمح لها ببلورة رؤية للفعل والتغيير. والأكيد أن ذلك نجم عن سلسلة من التراكمات السياسية والإدارية والعسكرية الممتدة في تاريخ المغرب الطويل.

يتضح الأمر بمقارنته بالتحولات التي شهدتها اليابان، على امتداد فترة تقارب 250 عامًا، خلال ما يسمّى عهد التوكوجاوا؛ فقد اجتهدت المقاطعات اليابانية المناوئة للحكم المركزي في بلورة طموحاتها الوطنية، ولم يحدّ منها سوى نهج سياسة العزلة التي استهدفت القضاء على التمردات، من خلال إغلاق نافذة الخارج التي أثارت تحديات حقيقية أمام إنجاح عملية الهندسة السياسية والإدارية الداخلية.

يرى أحد الباحثين أن المخزن اعتمد في «بداية الأمر على أطر أوربية أسلمت (علوج)، وتلك ظاهرة معروفة في التاريخ المغربي منذ القديم، كما اعتمد على عناصر تركية، وكان الهدف من ذلك أن يظل التأطير مرتبطًا بالعالم الإسلامي، وبعيدًا عن التأثيرات الأوربية»[33].

---

(33) بهيجة سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، 1869-1912، سلسلة رسائل وأطروحات؛ 2 (الدار البيضاء: اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003)، ص 303.

تنبهت الإيالات العثمانية، وبالتحديد مصر في عهد محمد علي، لمأزق الدولة العثمانية، وانفتحت على التجربة الغربية بإيفاد المتعلمين وتأسيس المدارس ووضع معالم اقتصاد يقوم على أساس الاحتكار وسيطرة الدولة على القطاعات الاستراتيجية للبلاد.

تأسست التجربة المصرية مستعينة بالتأطير الأوروبي، في أثناء بعثة رفاعة الطهطاوي وغيرها. وكان المخزن المغربي مدركًا خصوصيات المسألة، وهو الذي اطّلع على التقارير السفارية، ومن أبرزها تقرير/رحلة محمد الصفار في أثناء مهمته في فرنسا، وإشارته إلى وجود أفراد بعثة تعليمية «أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم»[34].

في عهد محمد بن عبد الرحمن، وجّه الوزير الطيب بن اليماني بوعشرين رسالة إلى أمين الأمناء الحاج محمد بن المدني بنيس تتعلق بإرسال شاب إلى مصر لتعلم الطباعة[35].

ويثار أمامنا إشكال يتعلق بما دفع المخزن المغربي إلى اقتفاء الأنموذج المصري، وإرسال بعثات تعليمية إلى مصر، وهو الذي كان يعرف تمامًا أن هذا المثال المشرقي ما كان له ليتأسس من دون بعثات محمد علي إلى أوروبا.

هل عجز المغرب عن إنتاج أنموذج ثقافي وحضاري بمنأى عن الترجمة المصرية للتحديث الغربي، وهو الذي لم تكن تفصله عن أوروبا سوى مسافة قصيرة؟ ألا تدل هذه الخطوة على سياسة الحذر والتوجس من الطموحات الإمبريالية الأوروبية في شمال أفريقيا؟ وفي المقابل، هل كانت مصر، بعد فشل تجربة دولة محمد علي، أنموذجًا فاعلًا وصالحًا للتمثل والاقتداء؟ ألم يكن هذا الاقتفاء هدرًا للوقت والجهد، ألم يكن منهج التنمية فاقدًا المقدمات السليمة والفاعلة؟

---

(34) الصفار، ص 185.

(35) وردت في: مجموعة الوثائق، العدد 2 (1976)، ص 420-421، ومما جاء فيها: «... وبعد فإن طالبًا من أهل الشاون وجهه سيدنا.. لمصر بقصد تعلم كتابة المطبعة...».

ما يمكن قوله في هذا الموضوع هو أن المخزن والمجتمع فقدا رؤية جليّة في شأن حجم التحديات الغربية المتزايدة، تسمح ببناء استراتيجيا واضحة المعالم في التعامل مع الظاهرة الغربية، وما أنتجته من تدمير للبنى الاقتصادية والاجتماعية. ومن هذه الزاوية نشأت قراءة نمطية للثقافة والتراث المغايرين. وكان إرسال البعثات إلى مصر هروبًا من مواجهة الحقيقة، والارتماء في أحضان مشروع المماثل الثقافي الذي عجز هو نفسه عن تأسيس مشروع تنموي مجتمعي منذ زمن حكم محمد علي والأسرة الخديوية التي رهنت البلاد بالديون وللاحتكارات الأجنبية.

يمكن الاستدلال على ذلك بالنتائج الهزيلة التي حققتها هذه البعثات، وربما كان ذلك سببًا في مراجعة المخزن مواقفه النمطية السابقة والاتجاه إلى الأقرب جغرافيًا وتحديثيًا (الغرب الأوروبي)، وهي خطوة لم تتوافر لها خاصيات العمق والتراكم التاريخيين الضروريين لإدراك طبيعتها ودلالاتها الرمزية؛ فقد مارس المخزن سياسة تشبه، في مضمونها العام، ما سلكه حكام التوكوجاوا في اليابان عندما أصدروا قرارًا إداريًا يمنع الاتصال بالغرب، وحكموا بالموت على كل من يروم مغادرة البلاد.

تشابهت الصورة المرسومة عن الغرب داخل البلدين، وتطابقت الأهداف التي رأت في الانفتاح على الدائرة الغربية خطرًا يهدد كيان الدولة والمجتمع في الداخل. لكن، لئن تمكنت البعثات اليابانية من الإفلات من رواسب العزلة، بفعل مجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية، التي سنتطرق إليها في فصول خاصة لاحقة، فإن الحالة المغربية ظلت عصيّة على المرونة اللازمة، بحيث بقي الداخل السياسي والإداري متحكمًا في منهج التعامل مع الخارج وامتداداته، من خلال السفارات والبعثات التعليمية، في الوقت الذي ساهمت البعثات التعليمية اليابانية، منذ أواخر عهد الإيدو وفترة الميجي وشوا وتايشو، في فرض منطق التغيير على الداخل لتلائم صورته المستجدات العالمية على المستويات التقنية والسياسية والعلمية.

من هذه الزاوية يمكن مقاربة موضوع إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى دول الغرب الرأسمالي: فقد أُرسل بعض الوفود التعليمية في عهد محمد

الرابع إلى أوروبا، فتعلّم «ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه من علم الهندسة وكيفية حرب النظام»[36]، إلا أننا لا نتوافر على معطيات مفصّلة في شأنهم. ومع ذلك، يمكن القول إن البعثات التعليمية إلى أوروبا لم تزدهر إلا في عهد الحسن الأول، وتميزت بخاصيتي الاستمرار والتواتر. وفي هذا المجال نتوافر، بفضل كناش، على معلومات في هذا الموضوع الذي سُجلت تفصيلاته بأمر سلطاني، في تاريخ غير محدد بين عامي 1304-1305هـ/ 1887-1888م، وهو الكناش الذي اعتمد عليه ابن زيدان في تدوين أفواج الوفود التعليمية إلى أوروبا طوال عهد الحسن الأول، وعنه أخذ معظم من تطرق إلى مسألة البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول، بدءًا من محمد المنوني وعبد الله العروي وغيرهما. إلا أن المعلومات التي أوردها صاحب الإتحاف تتطلب نوعًا من التدقيق بالاعتماد على وثائق موازية مغربية وأجنبية، تطرقنا إليها في هذا الكتاب، على الرغم من أن ابن زيدان اعترف بقلّة معلوماته في شأن وفود تعليمية توجهت إلى إيطاليا في أواخر عهد الحسن الأول[37].

يثير موضوع إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا الكثير من الإشكالات، أبرزها تمثّلات الهوية الثقافية المغربية في أرض اعتُبرت دار كفر، وهو ما يفرض ضرورة مقاربة مبحث المغاربة في أوروبا، محاولين استنتاج حجم هذا الحضور وطبيعته، وتتبّع مجالاته.

ثانيًا: المغاربة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر

تستدعي مقاربة الموضوع، انسجامًا مع الخطة العامة للبحث، استحضار العمق التاريخي لهذا الوجود وأشكاله، ورصد ثوابته وتحولاته، واستنتاج التمثّل الذهني للآخر المخالف في العقيدة والمصالح الدينية والدنيوية. ويتطلب منا ذلك الاختصارَ، تجنبًا للإطناب المخل لمطلب المبحث.

لم تختلف رحلات العصر الوسيط، في مضمونها، كثيرًا عن مثيلتها التي تمت في القرون اللاحقة إلى حدود القرن التاسع عشر. وإذا قارنا بين نظرة

---

(36) المنوني، ج 1، ص 166.

(37) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 160.

الرحالة المسلمين إلى الغرب الأوروبي خلال الفترة المذكورة، لا نجد اختلافًا يذكر؛ ويدفعنا ذلك إلى تناول الموضوع انطلاقًا من نماذج تنتمي إلى العصر الوسيط، ووصلها ببعض متون رحلات النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

تأسس هذا الوجود والحديث عنه على ازدواجية النظرة إلى الآخر المسيحي، وهي ازدواجية قائمة على ثنائية الدين والدنيا، ودار الحرب ودار الإسلام، وبينهما تشكّلت أنماط من المخيال المؤسِّس للعلاقات الجماعية والفردية، ونشأت تقسيمات ذهنية انعكست على طبيعة هذا الاستقرار وحجمه.

يمكن اتخاذ متن رحلة ابن جبير أنموذجًا واضحًا في هذا السياق؛ ففي أثناء حديثه عن مدينة مسينة في جزيرة صقلية، أورد عنوانًا جديرًا بالملاحظة (ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى): «هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر فيها لمسلم قرار ...، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعًا بساكنيها، مملوءة نتنًا ورجسًا، موحشة لا توجد الغريب أنسًا. أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بأرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان»[38].

تمتعت مسينة برخاء أسعارها، وكثرة ساكنيها وسَعَة أرزاقها وانتشار الأمن فيها، وهي عوامل مشجعة على الاستقرار الدنيوي، إلا أنه لا يقر لمسلم فيها قرار بسبب آفاق الكفر المظلمة بها وكونها مليئة بالنتن والرجس، وهي عناصر مفارقة للطهر الديني. ولذا ليس فيها «من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب»[39].

لكن إلى أي حد يمكن القول بتطابق النص مع الواقع؟ وهل انعدم أو قل الوجود الإسلامي بدار الحرب خلال العصر الوسيط، كما شجعت على ذلك، ضمنيًا، كتب الرحلات ولامبالاة الإخباريين في شأن موضوع الحضور

---

(38) أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ص 296.

(39) المصدر نفسه، ص 297.

الإسلامي في أوروبا؟ تلك كانت كذلك انطباعات الصفار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قريبة ممّا ذكره ابن جبير حين قال في آخر كتابه: «وغالبًا تجاراتهم ومكاسبهم مشحون بالربى، ومن ذلك البنكة التي هي من أعظم مكاسبهم... وحيلهم وتدبيراتهم في ذلك لا تحصى واستنباطاتهم لا تستقصى»[40]. وعلى الرغم من إعجابه بما بلغه المجتمع الفرنسي/الغربي من تحولات تقنية وسياسية واجتماعية واقتصادية، فلم يجد بدًّا في آخر مصنفه (ص 227) من ذكر الآية الكريمة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[41]، وكأن النص القرآني يشفع للمغاربة/المسلمين تأخرهم الدنيوي في مقابل تمسكهم بالعلوم التي تنجي من عذاب الآخرة. وإن كنا نعلم بأن الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وبأن علوم الدين والدنيا والتمكين للإنسان في الأرض، بمقتضاهما، مقدمة سليمة للفعل الحضاري المنشود والمشهود.

بعبارة موجزة اختصر محمد الطاهر الفاسي الزمن وتماهى مع نص ابن جبير السابق، حين قال، بعد أن شارفت رحلته على الانتهاء: «... حتى منّ الله علينا بالفرج، بعدما كنا في ضيق وحرج، وأخذنا في أهبة السفر بعد قضاء الوطر»[42].

سجّل الصفار، مجملًا، المسافة الفكرية والعقدية التي تفصله عن الآخر المغاير ثقافيًا وفكريًا، قائلًا: «... وإني أعتذر من التقصير وأعترف بعدم التحرير، وأستغفر الله مما جنته يداي، وأبصرت هناك عيناي من المناكر الشنيعة وسمعته أذناي من الإشراك والكفريات الفظيعة ومن مخالطة أهل الضلال..»[43].

يدل النص على انقسام في الذهنية المنتجة للمعلومة الوصفية التي تحمل انطباعات صاحبها؛ ففي مقام آخر ذكر قائلًا: «فما أحزمهم وما أشد استعدادهم، وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم وما أقدرهم على الحروب

(40) الصفار، ص 227.
(41) القرآن الكريم، «سورة الروم،» الآية 7.
(42) الفاسي، ص 37.
(43) الصفار، ص 227.

وما أقواهم على عدوهم»[44]. ويتم ذلك في نظره «لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذلك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب واتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم»[45]. لكن، أليس اتباع القوانين والنظام العجيب والضبط الغريب نتيجة الأخلاق البروتستانتية التي فصّل فيها ماكس فيبر وعدّها النِحلة الجديدة التي أطّرت الانطلاقة الرأسمالية، في أوروبا الغربية، القائمة على منطق البحث عن الربح وبذل الجهد المادي والعلمي لتحقيق ذلك؟

أورد ميشو - بيلير في أرشيفات المغرب صورتين معبّرتين في موضوع مخالطة سكان الشمال المغربي للنصارى والتعامل التجاري معهم، ففي الأولى قال:

«تعرفنا على شريف الجزولي ينحدر من الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب **دليل الخيرات**، وقد درس بقبيلة رهونة. وبالرغم من كبر سنه، ظل محتفظًا بآثار التعليم الملقن الذي لا يمكن محوه. وقد حل بطنجة لبعض أغراضه، وعندما همَّ بتنظيف ملابسه عَدَل عن ذلك لأنه لم يتمكن من الحصول على الصابون الرطب المصنوع محليًا، ووجد أمامه فقط الصابون الرومي. واقتنع الشريف المسكين بأن صلاته لا يقبلها الله إذا نظف ثيابه بالصابون النجس - بالنسبة إليه - في حين تُجاز إذا استعمل الغسيل القذر»[46].

يثير النص مسألة تعامل فئة من سكان الشمال مع المنتوجات الأوروبية، ويكشف عن أحد الثوابت التي رأت في الغرب ومنتوجاته التحديثية نجسًا لا يجوز مساسه والاقتراب منه، وهي قضية عاشتها مصر في زمن الحملة الفرنسية عندما أُثيرت تساؤلات فقهية تبحث في مدى جواز الوضوء من الماء الذي يصب من الحنفية الغربية، وصحة تلاوة القرآن الكريم المكتوب بآلة الطباعة الأوروبية. لكن هل كانت الذهنية المغربية، بمجملها، بهذه الصورة وبهذه النمطية؟ ألم يسافر التجار المغاربة إلى أوروبا في ظل سياسة الانفتاح

(44) المصدر نفسه، ص 198.

(45) المصدر نفسه، ص 198.

(46) Edouard Michaux-Bellaire, «Quelques tribus de montagnes de la région du Habt,» *Archives marocaines*, vol. 17 (1911), p. 93.

في عهد السلطان محمد بن عبد الله، مع ما يعنيه ذلك من تكيّف الذهنية المغربية مع المناخ السياسي السائد والتعامل الإيجابي مع منتوجات الغرب من دون وجل في شأن متطلبات الدين وخصوصيات العقيدة؟ ألم يسافر المغاربة بكثرة إلى أوروبا طوال القرن التاسع عشر، كما سنرى لاحقًا؟ من جهة أخرى، ألم تُحدث الصدمة الغربية النتيجة نفسها في يابان التوكوجاوا؟ ألم يتحدث فوكوزاوا يوكيتشي عن حجم تخوّف أفراد البعثة اليابانية من إقدام أحدهم على اقتناء مظلة أميركية للذهاب بها إلى يابان العزلة الطوعية، وعن النقاش الذي نبّه على الموقف العنيف الذي كان ينتظر صاحب المظلة حين رجوعه إلى اليابان من رجال الرونين؟[47].

ذكر يوكيتشي في هذا الموضوع، قائلًا: «... غير أن كراهية الأجانب مرت على نحو سريع بتطور هائل، حيث أصبحت أكثر تواترًا وشملت الأهداف أشخاصًا أكثر، ولكن أساليب القتل أصبحت أكثر تطورًا»[48]. ويعطي أمثلة على ذلك، منها تعرّض «تيزوكا وتوجو رايزو للهجوم على يد أبناء قبيلة شوتشو لسبب بسيط وهو أنهما كانا متضلعين في الشؤون الأجنبية، وأطيح برأس هاناوا جيرو، وهو رجل متضلع في الأدب الياباني، على يد مجهول بسبب تعاطفه مع الثقافة الأجنبية وهوجمت المتاجر التي تبيع سلعًا أجنبية ...»[49].

يمكن اعتبار هذه التصرفات، في زمن إنتاجها، طبيعة تعكس عنف الصدمة الغربية، وهو ما أنتج حالة من النكوص إلى الذات وشدة الاعتزاز بالماضي ونبذ ثقافة ومنتوجات الغالب.

بنزعة يغلب عليها التهكم والازدراء، ذكر ميشو - بيلير المثل الثاني، قائلًا: «قدِم عدد من سكان الجبال إلى مدينة طنجة، وأقاموا بهضبة مرشان بغرب المدينة. وبحثوا عن مكان لإقامة الصلاة. وقرروا الابتعاد من منازل اليهود والمسيحيين، والإقامة في وسط الطريق الذي يخترق الهضبة، باعتبارها ممرًّا

(47) فوكوزاوا يوكيتشي، سيرة فوكوزاوا يوكيتشي، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 157-158.

(48) المصدر نفسه، ص 266.

(49) المصدر نفسه، ص 267.

محتملًا لمجرى مائي يحمل سمة الطهارة. وعندما قضيت الصلاة، رأوا كلبًا جاثمًا بينهم وبين اتجاه القِبلة. وغمرهم بسبب ذلك الحزن، وسألوا أحد المارة عما إذا كان الكلب روميًا أو بلديًا، أوروبيًا أو أهليًا. وفي حالة تبين 'بلدية' الكلب والقطع بعدم ملكية أحد المسيحيين له يبدو عليهم الارتياح، وإذا كان الكلب روميًا، فإنهم يعيدون الوضوء ويشرعون مجددًا في الصلاة». ويتابع ميشو - بيلير، معقِّبًا: «شكّل المسيحي عنصر رعب بالنسبة إلى ساكنة جبالة. واعتُبِرت لديهم مدينة طنجة، بسبب استقرار المسيحيين بها، مكانًا قذرًا»[50]. وبغضِّ النظر عن مدى صحة الرواية والإخراج الذي صوَّر المغربي المسلم في وضعية دونية، نستنتج لحظات الاستغراب في تمثّل ساكنة الهبط للمسيحي وممتلكاته الرمزية والمادية، وهي صورة لا نعتقد شيوعها التام في عموم النسيج المجتمعي المغربي خلال القرن التاسع عشر؛ فقد تحدث الصفار وغيره من الرحالة المغاربة عن قيمة الإعجاب بمظاهر التحديث الغربي، ودعوا من ثنايا متن الرحلة إلى التعامل الإيجابي مع بعض عناصر القوة المشاهَدة والمسجَّلة.

تندر الإشارات إلى موضوع هذا الحضور، في المصادر العربية، لكن ذلك لا يعني غيابه، بقدر ما يدل على حجم الرقابة التي فرضتها المدونات التاريخية على تقييداتها.

ركّزت الكتابات التاريخية في موضوعاتها على دار الإسلام وما حدث فيها من الوقائع السياسية من نشأة الدول والإمارات، وسقوطها، أو الترجمة لبعض الأعلام، وذكْر كرامات الأولياء وأدوارهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما جنحت نحو ذكر الأوبئة والمجاعات المستأصِلة للأمم والأقطار والمبيدة لها.

وأشار رحالة شرقي إلى موضوع الاستقرار المغربي في أوروبا قائلًا: «وللمراكشيين باع طويل في التجارة وإقدام لا يجاريهم فيه بقية المسلمين، فإنك تجد من المشتغلين الرابحين بها: أبناء البناني في منشستر منذ 40 سنة، وعائلة بوهلال في جنوة، وعائلة بنيس في ليفربول، وعائلة لحلو في مارسيليا،

---

(50) Michaux-Bellaire, p. 94.

وعائلة جسوس في لندرة، وعائلة القباج في همبورغ»[51]. بل إن الشيخ بيرم التونسي يبدي إعجابه بدينامية الدور التجاري للأفراد المغاربة قائلًا: «... حتى لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في إحدى قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا إلا وفيها من تجارهم من له مزيد من الرواج والثروة، ولهم براعة في إدارة التجارة يناكبون بها الأوراباويين»[52].

وأورد أحد الباحثين أسماء وتراجم بعض التجار والمستوطنين المغاربة ببعض البلدان في أوروبا والولايات المتحدة، ولم «تخلُ مدينة تجارية مهمة في القارات الثلاث من تجار مغاربة نشيطين استطاعوا أن يبزوا الأوربيين»[53].

وحدَّد أحد الدارسين عدد المغاربة المسافرين إلى الخارج، كل عام، في «ثلاثة آلاف، يتوجه منهم إلى أوربا 400 أو 500، والباقي يتنقل إلى مكة»[54]. ويعلق قائلًا إن المتوجهين إلى بلاد الحجاز يعودون أكثر «تعصبًا». ويدفعنا ذلك إلى الاستنتاج بأن نظراءهم الذين توجّهوا إلى أوروبا يكونون، بحسب زعمه، أكثر «تنويرًا»[55]. وأشار إدموندو دي أميشيس (1846-1908) (E. De Amicis) إلى موضوع التجار المغاربة في إيطاليا قائلًا: «ألتقي دومًا بتجار من فاس سبق لهم المكوث بإيطاليا، ففي كل سنة يقوم أربعون أو خمسون بالسفر إليها. وينوب عن العديد منهم وكلاءُ مور أو عرب بمدننا الرئيسة. ويذهبون بالخصوص إلى شمال إيطاليا حيث يشترون الحرير الخشن والناعم والمرجان والقلائد والموسلين..»[56].

---

(51) أورده: المنوني، ج 1، ص 110-111.

(52) المصدر نفسه، ص 109.

(53) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه (الرباط: المطبعة الملكية، 1984)، ج 1، ص 61.

(54) Léon Godard, *Description et histoire du Maroc*, 2 Vols. (Paris: C. Tanéra, 1860), p. 242.

(55) المصدر نفسه، ص 22.

(56) Edmondo De Amicis, «Le Maroc, traduction et gravures inédites,» *Le Tour du monde: Nouveau journal des voyages* (1879), p. 129

يمكن توضيح بعض ملامح الموضوع في الجداول الآتية[57]، من خلال عيّنة تجار مغاربة في أوروبا وأميركا.

الجدول (4-1)

عيّنة تجار مغاربة في الولايات المتحدة

الاسم	طبيعة النشاط
الحسن السوسي	كان يقيم في أميركا، وعاد إلى المغرب وحظي بمقابلة السلطان الحسن الأول، وذلك قبل عام 1892.
الحاج عبد الله بن التهامي البقالي	أقام في الولايات المتحدة نحو عام 1892، وكان له وكيل في الجديدة في شخص أخيه الحاج محمد، وكان يوجّه إلى قبيلة شتوكة أوراق المخالطة بقصد شرائها.
ليون غزيل	أقام في مدينة نيويورك للتجارة في عام 1888، وكان له سماسرة في القصر الكبير.
إلياس بن الطويل	أقام في إحدى مدن الولايات المتحدة وعاد إلى المغرب في عام 1889.

الجدول (4-2)

عيّنة تجار مغاربة في إنكلترا

الاسم	طبيعة النشاط
الحاج الطالب بن الحاج حمادي الأزرق	كان تاجرًا في مدينة منشستير لمدة طويلة قبل عام 1886، ولما عاد إلى المغرب صار وكيلًا للشركة الإنكليزية كودينغتون (Coddington).
محمد بناني	أقام في منشستير نحو عام 1891، وكانت له محلات تجارية في مصر. وأقامت عائلة بناني في هذه المدينة مدة تزيد على 40 عامًا.
الحاج الطالب لحلو	مكث في بريطانيا قبل عام 1871 واكتسب الجنسية البريطانية.
الحاج أحمد جسوس	استوطن مدينة منشستير، وتاجر في مادة الجلود، واكتسب الجنسية البريطانية.

يتبع

(57) اعتمدت في تسجيلها على: بوشعراء، ص 63-85.

تابع

الحاج المهدي ميكو	أقام في منشستير نحو عام 1887.
بنيس	كان موجودًا في مدينة ليفربول في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.
عزوز بن كيران	مارس التجارة في منشستير في عام 1863 وبقي فيها حتى عام 1893.
الحاج الطالب ابن جلون الفاسي	مارس التجارة في إنكلترا منذ 1865، وحقق جراءها أرباحًا طائلة.
أبو عمرو الأحرش السلاوي	كان تاجرًا في لندن قبل عام 1886.
بنعاشر العوفير الرباطي	كان تاجرًا في منشستير قبل عام 1887.
الحاج عبد الكريم بريشة	كان يتّجر في المغرب ومنشستير وبلدان المشرق العربي.
محمد بن عبد الرحمان بركاش	تقلّد وزارة الخارجية وأمضى شبابه مشتغلًا بالتجارة في جبل طارق ولندن.
هارون أفرياط	استقر في مدينة منشستير.
محمد بنعزوز الفاسي	كان تاجرًا في لندن قبل عام 1903، وكانت عليه ديون لتجار إنكليز في عام 1880.
موسى المسيح	من يهود المغرب، هاجر إلى لندن في عام 1865 بقصد التجارة، وعاد إلى المغرب في عام 1868.
مناحيم أفلالو	كان من تجار السلطان.
عبد الرحمان بناني سميرس	كان له مركزان تجاريان في منشستير في نهاية القرن التاسع عشر.
عبد الوهاب التازي	افتتح مركزًا تجاريًّا في منشستير.
الحاج محمد الأزرق	كان تاجرًا في ليفربول ومنشستير بين عامي 1887 و1893.
المكي بنعبد اللـه	افتتح مركزًا تجاريًّا في لندن في عام 1890.
الحاج عبد السلام بن الحاج محمد التازي الرباطي	كان تاجرًا للقطن في بريطانيا، وبالتحديد في منشستير. أمضى في المهجر 20 عامًا واكتسب أموالًا وفيرة.
الشيخ التازي	من كبار تجار فاس، استوطن مدينة منشستير للإتجار بالمنسوجات القطنية.
الحاج المدني التازي	استقر في مدينة منشستير للتجارة.
ابن يعقوب برينطي	رحل إلى لندن للتجارة.
مايير بن مقنين	استقر في لندن عام 1828.

يتبع

تابع

الحزان يوسف المليح الصويري	كان تاجرًا في إنكلترا، ومن كبار الأغنياء. توفي في لندن عام 1886.
موشي لاريدو	رحل للتجارة في لندن في عام 1891
أحمد بن محمد بن عبد اللـه	كان تاجرًا في مدينة منشستير عام 1902.
محمد بن المفضل الكوهن	كان تاجرًا في مدينة منشستير عام 1902.
يعيش أفرياط	قطن في مدينة لندن عام 1893.
يوسف أفرياط	قطن في مدينة لندن عام 1893.
الإخوة ليبي	وُلد بعضهم في إنكلترا وكانوا في عام 1871 من الرعايا البريطانيين المقيمين بالصويرة، ويبدو أنهم مغاربة حصلوا على الجنسية البريطانية.

الجدول (4-3)

عيّنة تجار مغاربة في فرنسا

الاسم	طبيعة النشاط
ابن زكري	عاش في مرسيليا للتجارة وتوفي فيها عام 1882.
الحاج علي بن الحاج	أمضى أكثر من 25 عامًا في أوروبا تاجرًا منذ حوالى عام 1870، استقر في مرسيليا، كما زاول التجارة في جبل طارق وجنوة.
الحاج عبد الكريم بنجلون	كان تاجرًا في مرسيليا قبل عام 1840، وكان سفيرًا إلى إنكلترا في عام 1860.
الحاج محمد لحلو	توفي في نهاية القرن التاسع عشر، وكان شريكًا لدار تجارية فرنسية في مدينة مرسيليا.
آل مزور	تاجَر أفراد الأسرة في مدينة مرسيليا عام 1872.
محمد بن العياشي بناني	كان تاجرًا في مرسيليا عام 1863.
الحاج محمد القباج	حضر عددًا من الحفلات والمهرجانات كالمعارض، وعاد إلى المغرب وعاش في فاس في أواخر القرن التاسع عشر.
ولدا المعطي	هما اليهوديان إيلي ورفائيل، وكانا يتّجران بالمجوهرات.
محمد بن عبد القادر بنيس	سافر إلى الخارج، وكانت له تجارة نشيطة مع مدينة ليون.
محمد بن أحمد بنيس	كانت له دار للمنسوجات في ليون.
المفضل بنجلون	كان تاجرًا في مدينة مرسيليا لسبعة أعوام.

الجدول (4-4)

عيّنة تجار مغاربة في ألمانيا

الاسم	طبيعة النشاط
محمد عيوش	كانت له دار تجارية في هامبورغ عام 1907.
أسرة القباج	كان أحد أفرادها يعيش في مدينة هامبورغ في نهاية القرن التاسع عشر.

الجدول (4-5)

عيّنة تجار مغاربة في إيطاليا

الاسم	طبيعة النشاط
عبد السلام بن محمد الفقيه الشريف السلوي	سافر إلى إيطاليا وغيرها في عام 1825.
الحاج بناصر مرسيل	سمح له السلطان بالتجارة في المركب «ميمونة» والمرور بجنوة.
أسرة بوهلال	كان تاجرًا في جنوة.
الحاج إدريس بنونة	كان تاجرًا في جنوة، وكان يقدم خدمات إلى المخزن في حوالى عام 1892.

الجدول (4-6)

عيّنة تجار مغاربة في إسبانيا

الاسم	طبيعة النشاط
عمر بن إدريس برادة	أقام مطوّلًا في مدينة إشبيلية.
محمد برادة	استوطن إشبيلية بقصد التجارة قبل عام 1875.
التاجر التطواني	أقام في مدينة قادس، وتوفي في عام 1828.

يمكن اعتبار هذه النماذج عيّنة ملائمة لمقاربة بعض أوجه استقرار المغاربة في الخارج. ويمكن القول إن هذا الاستقرار بلغ حجمًا جعل منه ظاهرة معبّرة عن التواصل التجاري بين المغرب والأقطار الأوروبية. وكان من المنطقي، في ظل الانفتاح التجاري، وجود سماسرة وتجار ووسطاء مغاربة في البلدان

الأوروبية ذات العلاقة بالمعاهدات التجارية المختلفة، التي عقدتها مع المغرب طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي هذا الإطار يعلّق توماسي: «في عام 1816 وُجد العديد من المغاربة في أوروبا»[58].

مكّنتنا الوثائق الحديثة من التعرف إلى حجم التجار المغاربة في إنكلترا وفرنسا وغيرهما من البلدان خلال القرن التاسع عشر. ونرى من قراءة دلالات سياسة الانفتاح ومضامينها التي نهجها السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790)، أن حيوية التجارة بين الضفتين طوّرت حجم الاستقرار التجاري المغربي في أوروبا الغربية. ويمكن اعتبار القرار الذي أصدره المولى سليمان، ودعا من خلاله إلى منع التجارة في دار الحرب لئلا يؤدي ذلك إلى تعشير ما بأيديهم، مؤشرًا دالًا على حجم استقرار التجار المغاربة في أوروبا الغربية، ولعل ذلك ما دفع المولى سليمان إلى «نسب التهمة، ومن دون استثناء، إلى كل فرد من رعايا المغرب بقي مستقرًا في أوروبا، ومصادرة أملاكه التي كانت توزَّع على الفقراء»[59].

تثار أمامنا طبيعة الاستقرار المغربي في أوروبا والدور الذي ساهم به التجار المغاربة في نقل مستجدات الخارج لتغيير مفردات الداخل، والمساهمة في إعادة تشكيل الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وتمثّل العيّنة التي سبق أن أوردناها نخبة امتلكت المال والثراء، وحاولت جاهدة الاستفادة من ثمرات الاتفاقات التي اضطر المخزن إلى إبرامها مع القوى الغربية المختلفة.

يمكن القول إن طبيعة ممارسة الفعل السياسي والهيمنة المخزنية في هندسة الفضاء الداخلي وترتيب مفرداته المتباينة ساهما في قلة اهتمام هذه النخبة بالقضايا التربوية والسياسية، فلم يقدّر لها نقل تجربتها الثرية في التعامل المالي والاقتصادي إلى الدوائر الاجتماعية والسياسية والتعليمية، «وقلة من هؤلاء، في نظر العروي، من كان مثقفًا ومهيأً للتعبير عن أفكاره»[60] التي راكمها في أثناء إقامته المطوّلة في البلاد الغربية.

---

(58) Raymond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou relations de la France avec cet empire*, 2ème éd. (Paris: Firmin-Didot frères, 1845), p. 396.

(59) المصدر نفسه، ص 396.

(60) Abdallah Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912* (Casablanca: Centre culturel arabe, 1993), p. 214.

كان متوقعًا من هذه الفئة أن تشكّل جزءًا من نسق التغيير في سياسة الإصلاح التي رام المخزن تحقيقها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لكنها فقدت، بفعل بنية الدولة المغربية، الإطارَ والمقومات التي كان في إمكانها المساهمة في تأسيس مشروع تنموي متقدم.

أما على المستوى الداخلي، نقرأ في بعض الوثائق المخزنية أسباب التخوف من الانفتاح على دوائر التقانة الغربية؛ فقد خاطب المولى الحسن الأول النائب محمد بن العربي الطريس قائلًا: «...، وبعد، فقد قدمنا لك الكتابة برًا وبحرًا باستعمال ما عندك من السياسة في دفع ما أحدثه الإنجليز هناك من السلك وتطهير تلك الناحية من دنسه وتلافي خرقه، فإنه إن أقر ترتب على إقراره خروق من الغير مساواة معه في ذلك...»[61]. وهذا قول/ أمر يدل على توجس المخزن من الانفتاح على الدائرة الغربية بسبب الذهنية التي كانت سائدة آنذاك، والتخوف من ازدياد التنافس الأوروبي وتدخّله في شؤون المغرب الإدارية والسياسية والاقتصادية.

لذا، إذا كان كثير من الأثرياء المغاربة استقروا في عدد كبير من المدن الأوروبية ومارسوا التجارة فيها، فإن إرسال عدد كبير من المتعلمين المغاربة إلى الغرب الأوروبي في عهد الحسن الأول يعدّ سابقة في تاريخ العلاقات الثقافية بين الضفتين، وهو ما يستدعي التفصيل في مقدماتها ومراحلها ونتائجها.

ثالثًا: البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول قضايا وأرقام وإشكالات

تصعب مقاربة موضوع البعثات التعليمية المغربية من دون استحضار مؤسسة المخزن، أو بالأحرى مؤسسة السلطان؛ فهي الجهة الوحيدة التي تكلفت بالموضوع، من مقدماته وأهدافه إلى تمويله وتحديد اختصاصاته واستثمار نتائجه.

(61) رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 27 جمادى الأولى 1304هـ/ 21 فبراير 1887م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 49.

يكمن هنا أحد أبرز عناصر الاختلاف مع البعثات التعليمية اليابانية التي اشتركت دوائر متعددة في تنظيمها واستثمار نتائجها، وهو ما سنعرض له بتفصيل في مباحث لاحقة.

ساهمت هزيمتا إيسلي وتطوان في بداية تبلور فكرة ضرورة تكوين أطر الدولة والجيش المخزنيين. ومثلما حدث في اليابان، بعد حملة بيري، تركز الاهتمام على فن المدفعية؛ ففي 28 صفر 1269هـ/ 1852م، وجّه السلطان الخطاب الآتي إلى عامل سلا:

«... وبعد، فبوصول كتابنا هذا إليك، عيّن عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تطبجيت، وانظر لهم معلمًا ماهرًا أو معلمين من طُبجية البلد، يعلّمهم ويشرعون في التعلم الآن، فيبدأون بمقدماته، ثم يتدربون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهراس، وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة...

وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية، ونأمر الأمناء أن يرتبوا لهم إعانة على ذلك - خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد. ثم من ظهرت نجابته وفاق غيره فإننا نزيده في المرتب، كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو اثنين: ثلاثين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء، وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه»[62].

يبدو من خلال النص حضور فكرة التكوين بالاعتماد على الكفاءات المحلية، كما أن العملية لم تقتصر على مدينة سلا، بل امتدت إلى مختلف المراسي المغربية، وركزت الرسالة السلطانية على تعليم فن المدفعية، ورتبت السلطة اعتمادات مالية للمكوّنين والمتعلمين، وحفزتهم على المنافسة والابتكار وخصّت المتفوقين بالتحفيزات المادية.

في عام 1284هـ/ 1867م، وجّه السلطان محمد بن عبد الرحمن رسالة

(62) المنوني، ج 1، ص 149-150.

إلى الحاج محمد بن سعيد قائلًا: «...، وبعد، فقد وصلنا كتابك جوابًا عما أمرناك به من انتخاب ثلاثة من أولاد خدامنا آل سلا وتوجيههم لحضرتنا الشريفة ليتعلموا من جملة من عيّناه لتعلم العلوم الجهادية، وعرفنا أنك عيّنت الثلاثة المقيدين بالطرة بعد أن وعدتهم ووالديهم بالإحسان من جانبنا العالي بالله، وعرفنا ما وصفتهم به من النجابة ومعرفة بعض الحساب وما هو لائح عليهم من توقد الذهن وحسن الأداء، فقد وصلوا لحضرتنا الشريفة، والسلام»[63].

لكن، هل كانت المؤهلات التقنية لهؤلاء المعلّمين كافية لتدارك خلل البناء الداخلي للجيش المغربي الذي لم يصمد مطوّلًا أمام القوات الفرنسية عام 1844؟ ألم تتعرض حركات المولى الحسن الأول لمجموعة عثرات أقنعته بضرورة الاعتماد على الخبرة الأجنبية باستقدام البعثات العسكرية الأوروبية الفرنسية والإنكليزية؟ ألا يمكن القول إن فشل الاعتماد على الخبرة المحلية المفقودة أقنع المخزن بضرورة تغيير الأطر المحلية بالخبرة الأجنبية؟ وإن إيفاد البعثات التعليمية إلى أوروبا كان نوعًا من المراجعة النقدية لمحاولات الإصلاح الأولى التي لم تمنح نتائج إيجابية؟

تتضح معالم الاعتماد على الغرب في تكوين الكفاءات التعليمية المحلية من خلال الرسائل السلطانية الواردة في الموضوع، ومنها رسالة السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري، مؤرخة في 25 رجب 1292 هـ/ 1875م، وقد ورد فيها:

«.. وبعد، فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجه لبر النصارى لتعلّم تطبجيت والهندسة وغير ذلك من أمور الحرب، بعد تعلّم الكتابة واللسان بطنجة، ليسهل عليهم مباشرة التعلم ببر النصارى، وأمرنا خديمنا الطالب محمد بركاش بأن يقر كل فريق منهم بالمحل الذي يناسبه حتى

(63) رسالة السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، بتاريخ 10 محرم 1284هـ/ 14 ماي 1867م، م.و.م، الترتيب العام.

يتعلموا ذلك ويوجه كل فريق منهم للمحل المعين له، كما أمرنا الأمناء بأن ينفذوا مؤونتهم مدة إقامتهم بطنجة، وأعلمناك لتكون على بال وتنزلهم بالمحل الذي يناسبهم، والسلام»[64]. وقد أفصحت الرسالة عن مقدمات أول بعثة انتقي أفرادها للدراسة في أوروبا، كما حددت آليات التمويل ومهدت سبل تعليمهم ودراستهم بتعلم لسان الدول المستهدفة.

وتفصّل رسالة أخرى، وجّهها الحسن الأول إلى النائب السلطاني محمد بركاش، في عام 1299هـ، في موضوع البعثة واختصاصاتها؛ فقد اقتضى نظر السلطان «تعيين أناس ترياست والمكينة وعلم البحر، وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز والفرنصيص والصبنيول والألمان والطليان، وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يخصون بتعلم ترياست والمكينة بمدارس تعلم ذلك العلم عند كل جنس ممن ذكر، وأربعة لتعلم البحر وهم الذين يفرقون على نواب البابورات المذكورين، ويكون صائرهم على جانب المخزن»[65].

لقد حدد السلطان في ثنايا الرسالة هدف إرسال البعثة إلى أوروبا، في تعلم فنون الحرب، ومنها علم المدفعية. ولإنجاح المهمة، وُجّه أفرادها إلى مدينة طنجة لتعلم اللسان الأوروبي أو اللغات الأوروبية. وإذا كانت الرسالة بيّنت مسألة تمويل أفراد البعثة مدة إقامتها في طنجة، فإنها لم تتحدث عن سيرورة التمويل ببر النصارى. ويمكن استنتاج ثوابت المقاربة المخزنية عند المقارنة بين الرسالتين المسجلتين أعلاه، ورسالة محمد الرابع إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي[66] التي سبق ذكرها.

وعلى الرغم من تباين وجهة البعثتين نحو كلٍّ من بلاد النصارى وبلاد الإسلام/ مصر، تبدو لنا مجموعة من التطابقات، في الإطار المرجعي الفكري والتقني، ويمكن المقابلة بينهما في الجدول (4-7) الآتي:

---

(64) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 442.

(65) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 148.

(66) المنوني، ج 1، ص 156-157.

الجدول (4-7)

مقارنة بين رسالة محمد الرابع إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي
ورسالة السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري

رسالة محمد الرابع إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي. 5 حجة الحرام 1283هـ	رسالة السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري. 25 رجب 1292هـ
مصر وبلاد الإسلام	أوروبا، بلاد النصارى
تعلم علم البارود وغيره	تعلم تطبجيت والهندسة
المتعلمون صغار ونجباء	من نجباء الطلبة
التمهيد لذلك بتعليم المبادئ الأولية في علوم الحساب والهندسة وما شابه ذلك	التمهيد لذلك بتعلم الكتابة واللسان الأوروبي
تحديد العدد في ثلاثة من الرباط وثلاثة من سلا	تحديد العدد في 15 متعلمًا
الوعد بالتحفيزات للبارعين منهم	--
تكلف المخزن مصاريف الرحلة	تكلف المخزن المؤونة

ركّز المخزن الحسني في بناء عناصر القوة المغربية على الجانب العسكري. ولا شك في أن القوة الغربية، وما أفرزته من تدمير بنى المغرب العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، أفهما صنّاع القرار ضرورة معالجة المسألة العسكرية والأمنية، خصوصًا بعد مسلسل الحركات السلطانية التي أظهر الجنود فيها جهلًا تامًا بقواعد الحروب والمواجهات، مع القبائل المتمردة. وفي هذا الشأن يورد الناصري خبر هزيمة المحلة السلطانية أمام القبائل الثائرة في المنطقة الشرقية، قائلًا: «وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان، وأما الجيش وقواده فإنهم لما انهزموا صرفوا وجوههم إلى المهواة»[67].

(67) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، 9 ج (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954-1956)، ج 9، ص 158-159.

ويصدر جاك كايي مقالته عن موضوع البعثة الدراسية المغربية إلى مونبولييه (1885-1888) بالحديث عن رغبة السلطان في تحسين أداء جنوده[68].

هو البحث إذًا عن حرب النظام، لتجديد محيط مؤسسة السلطان وبعث الحياة في مخزن يريد إعادة إنتاج مؤسساته ورموزه، في حين كان المطلوب تأهيل انخراط المجتمع في مشروع تنموي واعد، يأخذ في الاعتبار الإمكانات المتاحة، ويوسع آفاق الدراسة والعلم، لتمتد إلى الجوانب الإدارية والسياسية والاقتصادية والعلمية.

كان المغرب في حاجة إلى لحظة تأسيس جديدة لتاريخه ورموزه. والأكيد أن القطاع الواسع من مكوّنات المجتمع المغربي لم تكن منخرطة في إنتاج هذه الآلية التحديثية، وهو ما جعل منها محطة مفارقة لتغيير شبيه بالذي تم في اليابان بعد حملة بيري على سواحل النيبون.

يمكن القول إن هذه المعضلة سمة لازمت بنية الدولة المغربية، منذ فترات مطوّلة، لم تستطع حتى مؤسسة السلطان الانفكاك من تبعاتها ونتائجها على مستوى العلاقة مع أطياف المجتمع المختلفة والمتعددة.

أحدثت الصدمات العسكرية التي تعرض لها المغرب منذ معركة إيسلي رجّة داخلية ارتدّت ذبذباتها إلى الداخل، فأنتجت مزيدًا من التأكّل في مختلف الدوائر المشكّلة نسيج الدولة والمجتمع. ومن هنا لم تكن البنية الداخلية قادرة على استيعاب درس القوة الذي لقّنه الغرب، والرد عليه بشكل مؤسساتي فاعل ودائم.

على النقيض من ذلك، شكّلت بعثات يابان التوكوجاوا في نهاية عهد الإيدو (1853-1868) حالة متقدمة على أنموذج البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول (1873-1894)؛ فقد حاولت النماذج اليابانية جاهدة التقاط مكامن العلل. وبحسّ استخباراتي متميز، نجح اليابانيون في وضع مقدمات

---

(68) Jacques Caillé, «Les Marocains à l'école du Génie de Montpellier (1885-1888),» *Hespéris Tamuda*, vol. 41, nos. 1-2 (1954), p. 131.

أساسية للرد على التحدي الغربي والتأسيس لمقومات مدافعته ومغالبته. كما انخرط نظام الباكوفو والمقاطعات المعارضة في سباق محموم للانفتاح على دوائر العلم الغربي في أوروبا وأميركا، وهذا ما جعل المنافسة على أشدّها في امتلاك التقانة، وتوظيفها في حسم الصراع الداخلي[69].

اعتمدنا في مبحث كرونولوجيا البعثات التعليمية المغربية نحو الخارج منطق التسلسل الزمني كما ورد عند ابن زيدان في كل من **العز والصولة**، **وإتحاف أعلام الناس**، بالنظر إلى طبيعة كل مرحلة تاريخية وخصوصياتها السياسية والدبلوماسية. وتجنبنا بسبب الطابع الإشكالي للبحث، مقاربتها بحسب البلدان التي قصدتها: فبعثة عام 1874 حدّدت وجهتها إلى خمسة بلدان أوروبية: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا. وقُدِّم لها برسائل سلطانية حددت الهدف من إيفادها، من خلال ظروف التنافس الأوروبي على المغرب، ومحاولة المخزن الحسني استغلال التناقضات بين دوله لتأخير التدخل ومحاولة إنجاز الإصلاحات المرسومة. كما يأتي مسلسل البعثات التعليمية إلى بلجيكا على ست دفعات في سياق الاستفادة من مبدأ الحياد الذي كان يظنه المخزن في سياستها الخارجية.

1 - بعثة 1291 - 1298هـ/ 1874-1881 م

حدد ابن زيدان تاريخ الأمر السلطاني «بتعيين خمسة عشر مهندسًا يتوجهون لبر النصارى» (إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا) في عام 1291هـ/ 1874م، إلا أن تتبع تفصيلات موضوعها يوضح أن أعوام التحاقها تباينت بين البلدان الخمسة المذكورة، وهو ما جعلنا نحدد زمنها في المرحلة الممتدة من 1291هـ/ 1874م إلى 1298هـ/ 1881م، وهذا ما سنفصّل فيه الحديث لاحقًا بالاعتماد على وثائق مخزنية ووثائق خاصة متعددة.

في أي إطار يمكننا وضع سفارة جون دريموند هاي إلى فاس عام 1875؟ وهل ثمة علاقة بينها وبين بدء المخزن الحسني إصلاحاته في المجالات

(69) خصصنا مبحثًا خاصًا بموضوع بعثات اليابان في نهاية عهد الإيدو، في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الإدارية والعسكرية؟ وهل يمكن القول إن إيفاد البعثات التعليمية المغربية إلى الخارج، كآلية إصلاحية، فكرة إنكليزية؟ وهل جاءت السفارة لتدعم فكرة «الإصلاح» وتأكيد استمرارية آلية البعثات التعليمية المغربية إلى أوروبا، ولا سيما إذا علمنا الدور الذي أداه الممثل البريطاني في فترة حكم السلطان محمد الرابع الذي سبق في إيفاد البعثات التعليمية إلى كل من مصر وأوروبا؟

سبق أن تعرفنا إلى دور رحلة الصفار في تنبيه المخزن على أهمية موضوع البعثات التعليمية عندما سجّل ملاحظاته بخصوص الوفد التعليمي الذي أرسله محمد علي إلى فرنسا. وأظن أن مشاهدات الصفار كانت مقدمة أساسية، نبهت المخزن في عهد محمد الرابع، ومن بعده الحسن الأول، إلى ضرورة الاقتداء بالأنموذج المصري الذي وصلت أصداؤه الإصلاحية إلى المغرب في هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم الإسلامي.

الأكيد أن الفكرة ظلت موجودة بقوة في ربائد المخزن المغربي، واحتاجت إلى منبّه يحولها إلى وجود بالفعل، وهو ما تحقق بصورة واسعة بعد تولّي الحسن الأول الحكم. وحاول هاي من خلال سفارته هذه الإشارة إلى موضوع تكوين الأطر المخزنية؛ فقبيل زيارته الدبلوماسية إلى السلطان، أورد هاي في إحدى مراسلاته قائلًا: «سأبذل جهدي لحث السلطان الشاب على إدخال بعض الإصلاحات والتحسينات»[70]. واقترح على السلطان توجيه بعض الرعايا المغاربة للتكوين في جبل طارق. ودار حوار بين الرجلين، نعتقد أهميته في الكشف عن الدور المحتمل لإنكلترا في بلورة فكرة إرسال البعثات التكوينية إلى أوروبا:

قال هاي: «أوضحَ السلطانُ بأن الأمية منتشرة بين رعاياه وبأنهم لا ينضبطون لقانون...

وأجبته قائلًا: طلبتُ في الأعوام الأخيرة من الحكومة البريطانية السماح لمئتين من رعايا جلالتكم للتكوين في جبل طارق... وقد قبلت الحكومة الطلب

(70) Louisa Annette Edla Brooks, *A Memoir of Sir John Drummond Hay, P. C., K. C. B., G. C. M. G., Sometime Minister at the Court of Morocco* (London: J. Murray, 1896), p. 307.

وتم إرسال 200 مغربي، ومكثوا هناك ما بين عامين وثلاثة أعوام...، وأود من جلالتكم معرفة طريقة اختيار هؤلاء، هل هم من الطبقة العليا المتعلمة... أو انتُقوا وفقًا لمعايير الذكاء والسيرة الحسنة وقواعد السلوك.

أجاب السلطان: لا، لقد اختيروا بطريقة عشوائية من مختلف القبائل تجنبًا للتحاسد في ما بينها»[71].

يبدو من خلال النص دور الدبلوماسية البريطانية في اقتراح فكرة إرسال بعثات تكوينية إلى الخارج، وبالضبط نحو جبل طارق. كما تتضح بعض الصعوبات التي واجهت المخزن في مراميه الإصلاحية وفي مقدمها انتشار الأمية وعدم الانقياد للقوانين. وعوض التركيز على تعليم الكفاءات والاهتمام، في عملية الانتقاء، بمعايير التفوق العلمي، يجيب السلطان بأن التوازنات القبلية عنصر محدد في العملية المقترحة.

ردّ هاي على مخاوف السلطان من سياسة الإصلاحات، قائلًا: «لا أعرف أحدًا من الوزراء أو أي شخص ذي سلطة يمكن توظيفه في إنجاح سياسة الإصلاح، وتشبه وضعيتكم ما كان عليه السلطان محمود في تركيا والخديوي الكبير بمصر، محمد [علي]، وكلاهما كان يأخذ السيف بيد وميزان العدالة من جهة أخرى»[72].

في رسالة وجّهها النائب بركاش إلى هاي بتاريخ 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1875، ذكر ما يلي:

«وبعد، فاعلم أيها المحب أننا قد طالعنا علم سيدنا ... بالكتاب الوارد علينا منكم بإذن دولتكم الفخيمة في شأن الشبان المسلمين الذين هم بصدد التوجه لبلدكم بقصد التعلم وعلمنا صدور الموافقة من دولتكم المحبة بقبولهم في مدرسة العسكرية.

وكذلك نخبرك بأن هؤلاء الشبان المذكورين، قد جعلناهم هنا في تعلم لسان النجليز وغيره وحين يعرفون القراءة والكتابة يتوجهون لبلدكم بحول الله.

(71) المصدر نفسه، ص 279-280.
(72) المصدر نفسه، ص 280-281.

وأما ما أشرت به على التعلم الذي أوله في مدرسة العسكرية، وبعده في مدرسة ولويتش، نحبك أن تعلم دولتكم الفخيمة، بأن مراد سيدنا أعزه الله هو أن يكون ما أشارت به الدولة المحبة.

ونطلب منك عن أمر سيدنا ... أن تجازي الدولة المحبة المعظمة مجازات الخير التام كما أني مأمور بأن أجازيك بالخير على حسن توسطك»[73].

أشار مييج إلى معلومات استقاها المخزن من مختلف المفوضيات الأجنبية في طنجة تشجع على إمكانية إرسال متعلمين مغاربة إلى المدارس الأوروبية[74]. وفي هذا السياق يمكن فهم المقدمات التي أطّرت البعثة التعليمية الأولى التي وجّهها الحسن الأول إلى أوروبا؛ فقد أمر بتعيين خمسة عشر مهندسًا[75]، ووجّه جميعهم إلى مدرسة الألسن في طنجة برئاسة السيد محمد الجباص، فتعلموا فيها مبادئ الحساب واللغات الأجنبية، وأقاموا بها ثلاثة أعوام. وفي عام 1293هـ/ 1876م توجّهوا على نفقة المخزن إلى أوروبا لإكمال دراستهم. ويبدو، من خلال تتبع مراحل تكوين المتعلمين بطنجة، اختلافًا في المدة التي أمضتها كل مجموعة، قبل التوجه إلى أوروبا. وقد «توجه منهم لبلاد النجليز ثلاثة، السيد محمد الجباص الفاسي... والسيد الزبير سكيرج... والسيد إدريس بن عبد الواحد»[76].

سجّل الرهوني في ترجمته للزبير سكيرج، قائلًا: «وُلد بفاس ونشأ، ثم ارتحل إلى إنكلترا موجهًا من قبَل السلطان مولاي الحسن في فاتح عام 1291هـ في جملة الوفد الموجّه لقراءة العلوم العصرية بها لتنشر بين أهالي هذه الإيالة الشريفة»[77].

---

(73) رسالة النائب محمد بركاش إلى دريموند هاي بتاريخ 2 ذي القعدة 1292هـ/ 30 نونبر 1875م، F.O.174 /88، أوردها: خالد بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن، 1846-1886 (الدار البيضاء: ولادة، 1992)، ص 411.

(74) Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894*, 4 Vols. (Paris: Presses universitaires de France, 1961-1963), Vol. 3: *Les Difficultés*, p. 222.

(75) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 150.

(76) المصدر نفسه، ص 150.

(77) أحمد بن محمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، سلسلة تراث؛ 6، ط 2 (تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2001)، ج 3، ص 181.

يبدو أن دريموند هاي أدّى دورًا أساسًا في تيسير مهمة أفراد هذه البعثة؛ فقد راسل حكومته في عام 1292هـ/ 1875م في موضوع السماح للطلبة الثلاثة بتلقّي العلوم في بريطانيا، وقد وافقت وزارة الخارجية على الموضوع في الوقت الذي كان فيه الطلبة ما زالوا يتعلمون اللغة الإنكليزية، وبعض المبادئ البحتة، وبعد تلك الموافقة أجاب محمد بركاش هاي، قائلًا: «(...) وعلمنا صدور الموافقة من دولتك المحبة بقبولهم في المدرسة العسكرية...»[78]، وهي مدرسة المهندسين في تشاتان، ومكثوا فيها خمسة أعوام[79]، و«هي مركز حربي لبناء المدرعات الحربية»[80].

يمكن القول إن بداية إرسال البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول اقترن بتنافس الممثلين الدبلوماسيين الأجانب في تأكيد حضورهم في رسم سياسة المخزن الإصلاحية مع تعيين دريموند هاي. وفي رسالة أشار هاي إلى بعض ملامح هذا التدخل قبيل السفارة التي قادها في آذار/ مارس 1875، وقال فيها: «سأبذل جهدي لحمل السلطان الشاب على إدخال بعض الإصلاحات والتحسينات»[81]. إلا أن إدراكه طبيعة المخزن وبنيته وتجاربه الدبلوماسية في بعض البلدان الإسلامية كتركيا، دفعه إلى الإحساس بصعوبة المهمة، وعبّر عن ذلك قائلًا: «... لكنني أتوفر على فرص محدودة للنجاح، بسبب وجود وزراء وجواسيس غشاشين وسفهاء داخل البلاط»[82].

إضافة إلى الانفتاح على الدائرة الغربية، اتخذ المخزن قرارًا بالاستغناء عن بعض المؤطرين المشارقة؛ فقد وجّه الوزير محمد بن العربي الجامعي إلى أمين الأمناء محمد بن المدني بنيس في 14 جمادى الأولى 1291هـ رسالة قال فيها: «وبعد، فقد أنهينا لمولانا، أيده الله، أمر الحراب الوارد من مصر وسبب

(78) خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، ط 2 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، ص 477.

(79) بوشعراء، ج 4، ص 1352.

(80) عبد الغني سكيرج، «مذكرة الزبير سكيرج (1850-1932): وثيقة جديدة حول البعثات الطلابية إلى أوربا في عهد المولى الحسن،» دار النيابة، السنة 2، العدد 8 (1985)، ص 29.

(81) Brooks, p. 307.

(82) المصدر نفسه، ص 307.

قدومه، فقال أعزه الله إنه في غنى عنه بالحرابة الذين عند سيادته، فيذهب لحال سبيله»[83].

لا شك في أن هذا الاستغناء جرى في سياق انفتاح المخزن على التجارب العسكرية الغربية، كما يمكن تفسيره بالضغط الذي تعرض له المغرب لقطع الطريق أمام الاستعانة بالخبراء الأتراك والمصريين.

وأورد خالد بن الصغير رسالة بعث بها محمد بركاش إلى جون دريموند هاي، قال فيها: «.. وكذلك نخبرك بأن هؤلاء الشبان المذكورين قد جعلناهم هنا في تعلم لسان النجليز وغيره، وحين يعرفون الكتابة والقراءة يتوجهون إلى بلدكم بحول الله.

وأما ما أشرت به على التعلم الذي أوله في مدرسة العسكرية، وبعدها في مدرسة ولويش، نحبك أن تعلم دولتكم الفخيمة، بأن مراد سيدنا أعزه الله هو أن يكون ما أشارت به الدولة المحبة..»[84]. ويبدو من ثنايا الرسالة انتقاء المخزن طلبة صغار السن - شبانًا - وخاصة بالنسبة إلى سكيرج، وإدريس بن عبد الواحد، وتولى محمد الجباص مهمة المراقبة والإرشاد الخلقي والديني، ويتضح ذلك مما ذكره الرهوني عن الوفد المؤلف «من طالب علم، بوصف رئيس له، يعلمه أمر دينه ويقوم بواجبات عبادته، وهو الفقيه العلامة الأديب المحنك السياسي، سيدي امحمد فتحا بن محمد الجباص الفاسي»[85].

يبدو من خلال رسالة بركاش السابقة، الدور الاقتراحي الذي ساهمت به بريطانيا في تعيين مكان التكوين، في مدرسة تشاتهام ثم مدرسة ولويش، إلا أن الوثائق لا تفصح عن تفصيلات التكوين الذي استفادوا منه، والمؤطرين الإنكليز الذين أشرفوا عليه. وعلى العكس من ذلك، نجد تفصيلات مهمة عن تكوين أفراد البعثات التعليمية اليابانية التي أوفدها إلى بريطانيا، كل من الباكوفو والمقاطعات اليابانية المنافسة كساتسوما وشوتشو وهيزن وغيرها في النصف

---

(83) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 411.

(84) رسالة بركاش السابقة إلى هاي بتاريخ 30 [تشرين الثاني/ نوفمبر] نونبر 1875، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 411.

(85) الرهوني، ص 181.

الثاني من القرن التاسع عشر. وبدلًا من التوجه إلى مؤسسات تعليمية عسكرية، اختار اليابانيون الجامعات الأكاديمية المدنية، وتعلموا اللغة الإنكليزية بشكل موازٍ مع المواد الأخرى الملقنة. ونتوافر اليوم على إضاءات تاريخية كثيرة في هذا المجال، نتناولها لاحقًا.

في المقابل، لا نتوفّر على شهادات وافية تتعلق بمسير هذه البعثة المغربية، باستثناء ما سجّله باقتضاب الزبير سكيرج في مذكراته، أو ما ورد في مراسلات بين المخزن الحسني ودريموند هاي، ومن ذلك أن الزبير سكيرج اكتفى في مذكرته بالحديث عن «تلقي العلوم المتنوعة في صف ضباط الإنجليز»[86]. ويؤكد الإطارُ العام الذي أحاط بهذه البعثة أولويةَ التعليم العسكري، خصوصًا أن المدرسة التي تعلم أفراد البعثة فيها كانت ذات تخصص في هذا الاتجاه. وقد نجح هاي، بموافقة المخزن، في إعداد أزياء خاصة بهم «... لكونهم يحضرون مع القواد في الأعياد أمام ولد السلطانة ...»[87].

في عام 1297هـ/ 1880م عاد الطلبة الثلاثة إلى المغرب، وبعد ذلك وجّه بركاش رسالة إلى السلطان الحسن الأول، جاء فيها «أن الطلبة الثلاثة... تعلموا واستوفوا المقصود في هذه المدة القريبة، التي غيرهم يستحق ضعفها، وقد مدحوهم، لا في القابلية والفهم والنجابة، ولا في المروءة ومقابلة ما كانوا بصدده...»[88]، ويبدو أن بركاش يلمّح، في رسالته هذه، إلى أفراد البعثة التي توجهت إلى فرنسا.

اعتمد أحد الباحثين المعاصرين على هذه الحجج ليميز بين البعثة التعليمية إلى بريطانيا والمجموعات الأخرى التي توجّهت إلى إسبانيا وإيطاليا وألمانيا؛ فقد ذكر «إن هذه البعثة قضت أقصر مدة زمنية في تكوينها إذا قورنت بمثيلتيها اللتين أرسلتا إلى إيطاليا وإسبانيا، واستغرق تكوينهما تسع سنوات، في حين طالت المدة التي قضتها البعثة الموجهة إلى ألمانيا اثنتي عشرة سنة»[89].

(86) سكيرج، ص 29.

(87) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 469.

(88) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 494.

(89) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 469.

نقرأ في الوثائق المخزنية أن تاريخ بداية التكوين للمجموعات التعليمية لم يكن متطابقًا، فإذا كانت مجموعة الجباص وسكيرج شرعت في تعليمها بعد عام 1291هـ بعامين، فإن مجموعة فرنسا لم تنتقل إليها إلا في عام 1297هـ، أما مجموعة ألمانيا فتأخرت إلى عام 1298هـ، ودليل ذلك ما أورده محمد بن الكعاب (بعثة فرنسا) في كناشته:

«... بعثنا من جملة الطلبة الذين كانوا تعينوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب سنة 1291هـ، ثم بعد الإقامة نحو من الستة سنين ونصف بثغر طنجة كنا سافرنا في 18 من ذي الحجة سنة 1297هـ إلى مدينة باريس لتعليم اللغة الأفرانساوية، وكنا بقينا بالمصر المذكور أعلاه لتعليم ما كنا توجهنا بصدده مدة من أربعة سنين ونصف: أعني إلى 22 من شعبان 1301هـ: اليوم الذي أتانا فيه الأمر الشريف على يد الحاج محمد بركاش، في شأن انتقالنا من بلد افرانسة إلى بلد بلجيكا لنقف على من كان بعث من المتعلمين إلى بلد بلجيكة لأخذ العلوم والصنائع المفقودات عن المغرب...»[90].

لا نعتقد أن سبب امتداد تكوينها يكمن في ضعف إمكانات أفرادها المعرفية واللغوية (ابن الكعاب الشركي)، بل في سياسة استغلال التناقضات بين القوى الأوروبية المتنافسة على المغرب؛ فقد خضعت بعثة عام 1874 لمنطق التوازنات الدولية أكثر من البحث عن أسباب التحديث وامتلاك ناصية العلم والقوة، وهو ما سنلاحظه لاحقًا بخصوص البعثة التي توجهت إلى ألمانيا.

نتوفّر بين ما سجّله الزبير سكيرج في مذكراته، وما أورده النائب السلطاني محمد بركاش في رسالته إلى السلطان، على رسالتين مخزنيتين. في الرسالة الأولى، أجاب وزير بريطانيا المفوض، دريموند هاي، الصدر الأعظم السيد محمد بن العربي الجامعي، في 18 محرم 1297هـ: «... فطلبت أن نعلمكم أن كبير الهندسة في كاطان ظهر له أنه من المهمات لتعلمهم وتحضيرهم أن يتوجهوا وينظروا الأبراج الكبار في بلادنا وفابركات المخزن في صنعة البارود والمدافيع وآلة الحرب الصغيرة مثل المكاحيل ونحو ذلك، وأيضًا ينظروا

(90) المنوني، ج 1، ص 244-245.

محل استقرار المحلة من العسكر الكبيرة في بلادنا في كيفية تحركهم في حال تحربهم..»[91]، وهي مهمات سوَّغ هاي من خلالها ارتفاع مصاريف إقامة البعثة التعليمية المغربية في مدرسة تشاتهام.

يبدو أن المراسلات تعددت في شأن هذه البعثة، فُقِد بعضها ووُجد بعضها الآخر، ومنه رسالة موجَّهة من الصدر الأعظم محمد بن العربي بن المختار إلى النائب محمد بركاش، مؤرخة في 15 جمادى الأولى 1297هـ، قال فيها: «وبعد، فقد وصلنا كتابك مخبرًا أن سيدنا أيده الله كان أمرك بتوجيه الطلبة الثلاثة الذين كانوا يتعلمون بالوندريز لحضرته الشريفة، وأخبرت أنك وجهتهم صحبة كتابك.

فقد وصلوا وأنهيت أمرهم لمولانا نصره الله، وأمر أعزه الله بنزولهم وبالإيصاء عليهم ولا يروا إلا ما يسرهم»[92].

تطلبت بعثة المخزن الحسني إلى بريطانيا مصاريف مالية باهظة أدت إلى إعادتها. ويورد هاي حيثيات ذلك، موضحًا للصدر الأعظم: «.. وبعد، وصلني مكاتبكم المؤرخة في 6 محرم داخلها كتاب للأمناء تأمرونهم فيه يؤدون من حساب الثلاثة الأولاد المتعلمين الذين هم في بلادنا لصائرهم ليبرات 160 وأن يؤمروا برجوعهم لهذه الإيالة»[93].

ذهب أحد الباحثين[94] إلى تأكيد تفوّق أفراد هذه البعثة على أفراد البعثات الأخرى، مستدلًّا على ذلك بمجموعة من الفرضيات، منها قصر مدة تكوينها التي دامت خمسة أعوام، ثم فرضية نبوغ أفراد هذه البعثة وجديتهم وذكائهم، وظروف التكوين البريطاني التي اتسمت بالجدية والصرامة في مدرسة تشاتهام.

لكن ما هو دليل هذا التفوق ومعياره؟ يبدو الجواب عن هذا السؤال سابقًا

(91) رسالة دريموند هاي إلى الصدر الأعظم السيد محمد بن العربي الجامعي، بتاريخ 18 محرم 1297هـ/ فاتح يناير 1880م، وردت في: مجموعة الوثائق، العدد 6 (1987)، ص 26-27.

(92) رسالة محمد بن العربي إلى محمد بركاش، بتاريخ 15 جمادى الأولى عام 1297هـ/ 25 أبريل 1880م،.م.و.م، الترتيب العام.

(93) مجموعة الوثائق، العدد 6 (1987)، ص 26.

(94) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 469.

لأوانه، ويحتاج إلى عدد من المقدمات والمقارنات، لكن لا بد من الإشارة إلى أن أحد أبرز أفراد هذه البعثة - الزبير سكيرج - بعد عودته إلى المغرب، لم يعمل في أغلب الأحيان سوى مساعد للمهندسين الإنكليز في تركيب المدافع وإصلاح بعضها، كما كان في صحبة المهندس الألماني في معمل «كروب باسن» في ألمانيا للتفاوض في شأن شراء مدفعين[95]، وانتدبه السلطان للمشاركة في مؤتمر مدريد الذي أسس مبدأ تدويل المسألة المغربية[96].

أشار موسى بن أحمد في رسالة مخزنية إلى هاي قائلًا: «...، وصلنا كتابك وعرفنا ما أخبرت به عن الطلبة الثلاثة المتعلمين العلوم في بلادكم من ظهور نجابتهم سيما الجباص منهم...»[97]، فهل كان ذلك سببًا لتعيينه في ما بعد وزيرًا للحربية؟

وأورد الرهوني أن «سكيرج احترف الخرازة، لمّا لم يجد ببلده مجالًا للعمل. ومرة زار تطوان جماعة من الأنجليز، كان منهم زميل له في الدراسة، فرآه، فسأله فعرفه، فقال له : كيف تعمل خرازًا، وأنت مهندس كبير؟! فقال هذا فرق ما بين دولتي ودولتك، وودعه وانصرف كل إلى عمله»[98]. ويمكن الاستدلال على صحة الرواية برسالة وجّهها المولى الحسن الأول إلى وزيره في الخارجية السيد محمد بركاش، في 23 رمضان 1297هـ قائلًا: «وبعد، فالمهندس الوارد لبناء الأبراج قد أمرنا بتكليفه بتركيب تلكرِافْ، وعينا الزبير سكرج للخدمة معه في ذلك، وحيث كان هذا المهندس لا زال لم يرد فينبغي أن لا يبقى جالسًا هناك بلا شغل... وقد أمرنا أمناء طنجة بأن يكونوا يدفعون له عشرة ريال في الشهر»[99].

وتفصح الوثيقة عن أن الطالب سكيرج، بقي جالسًا بلا شغل بعد رجوعه

---

(95) سكيرج، ص 30.

(96) المصدر نفسه، ص 30.

(97) رسالة موسى بن أحمد إلى دريموند هاي، بتاريخ 12 ذي القعدة 1295هـ - 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1878م، F.O174/ 89، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 460.

(98) الرهوني، ص 182.

(99) مجموعة الوثائق، العدد 10 (2000)، ص 251.

من بريطانيا، كما أن الدور الذي نيط به لم ينشأ من تصور واضح لاستثمار إمكاناته التقنية التي تعلمها في المملكة المتحدة، بل ارتبط اشتغاله بحلول المهندس الإنكليزي، لتركيب التلغراف، فلم يكن بذلك إلا ملحقًا وتابعًا لإدارة أجنبية، تمتعت بأوامر الأمر والنهي في القضايا التحديثية التي عرفها المغرب طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وعمل سكيرج مع المهندس إدوارد في بناء أبراج طنجة، ووجّه في شأنها رسالة إلى السيد محمد الزبيدي يبين فيها تقدم الأشغال، وأرفقها باستدراك يوصي فيه بالزبير سكيرج، قائلًا:

«استدرك خبر (كذا) فقد خصصت هاذا لسعادتكم لأطلب من كريم فضلكم وعظيم أثيركم أن لا تنسوا خدمة خليفتي السيد الزبير سكيرج، فلا يخفى سيادتكم من صاحبه من الحزم والنجابة والمواظبة على التعليم...»[100].

كما وردت رسالة مخزنية تصف سكيرج بالأريب اللبيب تحفة العصر وربطت ذلك بعادته في تركيب الموازين[101].

عاد أفراد البعثات التعليمية المغربية من الخارج، وهم يحملون في تصوراتهم مجموعة من التناقضات، بين ما درسوه وتعلموه، في بريطانيا وغيرها من البلدان، وبين الركود المتراكم الذي لم يفسح أمامهم فرصة استثمار العلم والمعرفة في تنمية البلاد وإخراجها من أزماتها المتتالية.

في المقابل، كانت بعثات الميجي مسبوقة بقرارات عدة وضعت اليابان على سكة تنمية جديدة، سحبت الغطاء والمسوّغ السياسي والرمزي من حكام التوكوجاوا، ومنها إلغاء النظام الفيودالي ومستلزماته الاقتصادية والاجتماعية، وكذا حل طبقة الساموراي، ومنح الكفاءات التعليمية دورًا متقدمًا في قيادة

---

(100) رسالة المهندس الإنكليزي سيلفا إلى محمد الزبدي، بتاريخ 23 رجب 1298هـ - 21 حزيران/ يونيو 1881م، م.و.م، الترتيب العام.

(101) رسال محمد بن عبد الله بن سعيد إلى الباشا الطيب الصبيحي، بتاريخ 19 شعبان 1318هـ - 12 كانون الأول/ ديسمبر 1900م، خ. ص. السلسلة الأولى، وثيقة 56.

لم يُسمح لنا بتصوير نسخ الوثائق الموجودة بالخزانة الصبيحية، حيث يكتفي الباحثون بالاطلاع على الوثائق وتسجيل مضامينها.

البلاد نحو آفاق التنمية الواعدة. لكن البعثات التعليمية كانت، في الحالة المغربية، وسيلة لتثبيت الامتيازات، وحماية مؤسسات المخزن من الانهيار، أما في الحالة اليابانية فكانت آلية لدعم الهندسة السياسية الجديدة التي قادها معارضو الباكوفو، وأنصار النظام الإمبراطوري.

من بين الخمسة عشر طالبًا توجّه ثلاثة منهم إلى إيطاليا: المختار الرغاي ومحمد بناني الفاسي وعبد السلام الأودي[102]. وكان اهتمام الحسن الأول بالوجهة الإيطالية في سياق البحث عن سبل تحقيق توازن سياسي بين مختلف القوى المتنافسة على المغرب، وتوظيف تناقضاتها السياسية في تأخير وصايتها على المخزن ودولته. وقد لقي هذا التوجه تشجيعًا كبيرًا من الوزير سكوفاصو الذي أثار موضوع البعثة التعليمية خلال السفارة التي قام بها إلى فاس عام 1293هـ/ 1876م.

إذا كان سكوفاصو فشل، في البداية، في اقتراح «منح المساعدة التقنية» إلى المغرب بقصد بناء مصنع للأسلحة في فاس، فإنه نجح في تقديم تصوراته المتعلقة بتحديد كيفية الاستفادة من تكوين الطلبة الثلاثة في أكاديمية «مودينا» العسكرية التي أقاموا فيها تسعة أعوام؛ ففي رسالة وجّهها إلى الوزير محمد بن العربي المختار في 18 كانون الثاني/ يناير 1883، قال: «...، فأما الشبان المذكورون، يتيسر لكم استخدامهم في تعليم التحريب للجيش السعيد .... ويحصل ذلك بتكليف السيد المختار والسيد عبد السلام والسيد بناني أيضًا بأن يعلم التحريب بمائة أو مائتي رجل، وإذا فرغوا من تعلميهم وتبيّن عساكرهم مثل عساكر حراب الأجناس في التحريب فانصفهم واستخدموهم مطمنين البال، وهكذا لا تبقى له حاجة في حراب الأجناس وتكونون في غنية عنهم وبه يوفر للحضرة الشريفة مال له بال ويجتنبه»[103].

كان سكوفاصو يدرك دوافع المخزن الحسني لتنظيم البعثات التعليمية

(102) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 154.

(103) رسالة من الوزير المفوض الإيطالي سكوفاصو إلى الوزير محمد بن العربي بن المختار بتاريخ 9 ربيع الأول 1300هـ الموافق في 18 كانون الثاني/ يناير 1883م، م.و.م، الترتيب العام، رقم 14107.

إلى أوروبا، منها محاولة وضعها بدل البعثات العسكرية الفرنسية والبريطانية؛ فحاول جاهدًا، من طريق استعمال لغة الأرقام والحسابات المالية، تشجيع المخزن على استثمار نتائج البعثة التعليمية المغربية إلى إيطاليا، وإيجاد موطئ قدم مؤسساتي في مرافق الدولة المغربية.

إذا كانت المصادر التاريخية لا تسعف في تحديد عمر أفراد هذه البعثة، فإن سكوفاصو في رسالته إلى الوزير محمد بن العربي المختار، تحدث قائلًا: «... فأما الشبان المذكورون... يتيسر لكم استخدامهم في تعليم التحريب للجيش السعيد...»[104]، الأمر الذي يدل على اهتمام المخزن بالفئات الحديثة السن، وهي صفة يمكن الاطمئنان إلى صحتها واستمرارها بعد المراجعات التي تمّت في هذا المجال في زمن إرسال البعثات التعليمية إلى مصر، في عهد محمد الرابع.

أورد مييج بعض المعلومات المتعلقة بهذه البعثة، فذكر، في سياق إشارته إلى محاولات الإصلاح الحسني، أن المخزن المغربي أوفد بعض المتعلمين إلى توران لدراسة الفنون العسكرية والرياضيات[105]. وبعد تلقّيهم «تعليمًا أوليًّا في المعهد الولي بتوران، تم إرسال بعضهم إلى الأكاديمية العسكرية بتوران، والآخرين إلى أكاديمية مودينا وليفورن»[106].

ونتوفّر على وثيقة تبيّن انطباعات المتعلمين الثلاثة في شأن أوضاع دراستهم وعيشهم في إيطاليا، وورد فيها: «دخلنا إلى مدسة (مدرسة) المخزن متاع الطلين الذي يخرج منه قواد العسكر متاع الطلين.. والتعلم عندهم على أشكال... فيه من كل شيء من الهندسة والحساب وترتيب العسكر»[107].

وقال بركاش في رسالته إلى السلطان إن «الطلبة الثلاثة الذين كانوا

(104) وردت في: سيبو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 307.

(105) Miège, Vol. 3: *Les Difficultés*, p. 222.

(106) المصدر نفسه، ص 222.

(107) رسالة الطلبة الثلاثة: المختار الرغاي وعبد السلام الجيلاني ومحمد بناني إلى محمد بركاش يخبرونه بأجوال عيشهم وتعلمهم، بتاريخ 23 ربيع الثاني 1298هـ/ 25 مارس 1881م، م.و.م، الترتيب العام.

يتعلمون في بلاد إيطالية... قد تعلموا ما توجهوا بصدد تعلمه، ووردوا بإجازة كبير المدرسة وشهادات بأنهم استوفوا الغرض، وكل منهم ماهر عن الآخر في فن»[108].

أتم هؤلاء الطلبة تعليمهم بإيطاليا في عام 1300هـ/ 1883م، بعد تسعة أعوام من تحصيل الفنون الحربية وبعض المعارف العلمية المتعلقة بها من المدرسة العسكرية في مودينا[109]. وبإجراء مقارنة أولية بين البعثة إلى إيطاليا وسابقتها إلى إنكلترا، يتبين لنا أن الهاجس العسكري كان الأساس في عملية الإصلاح؛ ذلك أن البعثتين كلتيهما توجهتا إلى مدرسة عسكرية، وخضع أفرادهما لتكوين في هذا المجال. إلا أنه لا يمكننا مساءلة جدوى هذه الرؤية الإصلاحية وفاعليتها إلا بالإحاطة التامة بمختلف النصوص المؤطرة لبقية البعثات التعليمية، واستنتاج دلالاتها، ومعرفة الظروف المحيطة بها والنتائج التي أدت إليها.

استأذن بعض أفراد البعثة التعليمية نحو إيطاليا، بعد مدة طويلة من الغياب، المخزن في زيارة أقربائهم، وأُذن لهم بذلك شرط «أن يتركوا... بطنجة جميع الكتب وآلات التعلم التي وردوا بها»[110]. وفي شأن هذه الآلات، ورد في رسالة الامتنان التي وجّهها سكوفاصو إلى المولى الحسن الأول، إسراعه بالكتابة إلى وزارته في روما «باشتراء ما طلبه التلامذة المذكورون من الآلات.... ومرادنا في الكتابة لوزارة الحرب لجلب ما ذكر هو لئلا يقع فيها الغش في نوعها ولا في ثمنها»[111].

لا تُفصح الرسائل التي تبادلها سكوفاصو مع أقطاب المخزن الحسني عن نوعية هذه الآلات، ووظائفها التقنية، واكتفت الإشارات المصدرية إلى القول

(108) رسالة بركاش إلى السلطان الحسن الأول في 7 شوال 1299هـ - 22غشت [آب/ أغسطس] 1882م، م.و.م، الترتيب العام.

(109) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 308.

(110) رسالة بركاش إلى السلطان الحسن الأول في 7 شوال 1299هـ - 22 غشت 1882م، م.و.م، الترتيب العام.

(111) رسالة سكوفاصو إلى الوزير محمد بن العربي بن المختار بتاريخ 12 ربيع الأول 1300هـ الموافق 21 كانون الثاني/ يناير 1883م، م.و.م، رقم 14101.

إنها الآلات المعدّة لوصف «أحوال الأرض التي توقف عليها السيد المختار الطاهر الرغاي، والسيد عبد السلام بن الجيلالي والسيد محمد بناني الذين كانوا أخذوا التعليم العسكري بمدينة مدنة»[112].

لكن ما مصير هذه الكتب وآلات التعلم، ما هي نوعيتها وتخصصاتها؟! ذاك ما تعجز المصادر عن الإفصاح عنه، في حين أنها تعلن أن المختار بن الطاهر الرغاي تمتّع بالحماية الإسبانية، فأصبح كاتبًا للقائد العسكري الإسباني في القصر الكبير[113]. فأي نجاح يمكن أن ينعت به طالب متعلم، إذا افتقد أبسط قيم المواطنة، وتنكّر لإنعام المخزن عليه بالدراسة، موليًا خبرته وعلمه نحو المتربصين باحتلال وطنه، والاحتماء بهم ضدًا على هوية الكينونة المغربية؟ لكن ما هي الدوافع التي حتّمت عليه وعلى غيره القيام بذلك؟ ألم يكن للنسق السياسي والإداري الداخلي ولطبيعة البناء المجتمعي دور محدد في ارتماء الكثير من النخب المغربية في أحضان الحماية القنصلية؟ سؤالان يمكن الإجابة عنهما في آخر هذا الكتاب، عندما تتضح الصورة الرمزية والمجتمعية والسياسية التي أطّرت الفعل التحديثي العام الذي عرفه المغرب في الفترة المدروسة.

من جانب آخر، أُرسل ثلاثة طلاب إلى إسبانيا: «السيد أحمد بن الحاج العباس بن شقرون الفاسي، والسيد عبد السلام الرباطي، والسيد محمد الشرادي الرباطي، فأقاموا أعوامًا تسعة»[114].

وتعلموا في غوادالاخارا (Guadalajara) (وادي الحجارة) شرقي مدريد، وقبل ذهابهم إلى إسبانيا، أمضوا عامين في تعلم اللغة الإسبانية، ورجعوا إلى المغرب في صيف1301هـ/ 1884م، وتحدث السلطان إلى محمد بن العربي الطريس قائلًا: «وصل كتابك بأن الطلبة الثلاثة المسلمين بطرته الذين كانوا يتعلمون بمدريد وردوا بعد تحصيلهم ما توجهوا لتعلمه... فقد وصلوا»[115].

(112) رسالة من سكوفاصو إلى الوزير محمد بن العربي بن المختار بتاريخ 9 رمضان 1300هـ الموافق 14 حزيران/ يونيو 1883م، م.و.م، رقم 14108.

(113) بوشعراء، ص 1354.

(114) ابن زيدان، العز والصولة، ص 151.

(115) بوشعراء، ص 1353.

اللافت في شأن هذه البعثة هو ندرة المعلومات عنها، وعدم منحها مكانة مهمة ضمن مشهد التكوين التعليمي في عهد الحسن الأول. وتتطابق هذه الندرة مع الإرث الثقيل لتوتر العلاقات المغربية - الإسبانية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم يكن اهتمام المخزن بالتعليم العسكري الإسباني نابعًا من رغبة حقيقية وجادة، بل من اعتباره حالة عابرة في سياق توظيفه التناقضات الأوروبية وتأجيل تدخلها في المغرب.

في حقيقة الأمر، لم تكن إسبانيا وجهة مفضّلة لدى المخزن الحسني لتوجيه البعثات التعليمية بسبب تأخرها التقني، ونتيجة تراكمات الصراع العسكري والدبلوماسي بين الدولتين. وعبّر عن ذلك الكردودي قائلًا: «وهذه الدولة [إسبانيا]، وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك، فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه، ولا علمت مثل صناعتهم مثل ما صنعوه»[116].

من جانب آخر، نقرأ في رسالة وجّهها الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس: «.... وبعد، فقد وصل كتابك بأن الطلبة الثلاثة المسمين بطرته الذين كانوا يتعلمون بمدريد وردوا بعد تحصيلهم ما توجهوا لتعلمه وتوجهوا لحضرتنا الشريفة بعد أن زودهم الأمناء وأكثروا لهم الظهر وصار بالبال، فقد وصلوا والسلام في 22 من شوال 1301هـ»[117]. ولم تفصل الرسالة في نوعية التحصيل العلمي، ولم تحدد نوعية تخصص المتعلمين ومدى استفادة المخزن من خبرتهم المفترضة.

أما في شأن ما استفاده المخزن من الخبرة الإسبانية، فوردت رسالة سلطانية تبين استقرار بعض الأطباء الإسبان في طنجة وتكليفهم بتعليم بعض الطلبة المغاربة علم الطب. وقد وجّه المولى عبد العزيز رسالة إلى النائب محمد بن العربي الطريس قائلًا: «....، وبعد، وصل كتابك بطلب الإنعام

(116) أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي، التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية، تقديم عبد الوهاب بنمنصور، مطبوعات القصر الملكي؛ 29 (الرباط: المطبعة الملكية، 1963)، ص 90.

(117) رسالة الحسن الأول إلى محمد الطريس، 22 شوال 1301هـ - 15 آب/أغسطس 1884م، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 2/ 153.

على متعلمي الطب الستة هنالك بطنجة عند الطبيب أونيل الصبنيولي بالكسوة المعتادة لهم كل سنة في هذا الإبان...»[118].

يبدو أن المخزن لم يهتم، في معرض تطوير تعليم الطلبة المغاربة داخل الوطن، بجلب الخبراء الأجانب كما فعلت اليابان عندما أوفدت المتعلمين نحو الخارج، واستقدمت الكفاءات التقنية الغربية ليستفيد منها الطلبة الذين تعذرت عليهم سبل الدراسة في الخارج. ويُعَدّ غياب مدرسة وطنية واضحة المعالم سببًا أساسًا عطّل فاعلية الآليتين التحديثيتين.

كما أُرسل ثلاثة متعلمين إلى فرنسا، «وهم السيد قاسم الأوديي، والسيد محمد بن الكعاب الشرقي والطاهر بن الحاج بن عبد السلام بن الحاج الأوديي»[119]. وكانوا قد عُيِّنوا في عام 1291هـ - أيلول/سبتمبر 1874م للذهاب إلى طنجة بقصد تعلم اللغة قبل مغادرتهم المغرب[120].

وأظن أن البعثتين التعليميتين اللتين قصدتا فرنسا وألمانيا خضعتا لمنطق سياسة استغلال التناقضات التي نهجها المخزن الحسني إزاء هاتين الدولتين في أواخر القرن التاسع عشر، وهو ما يفسر تأخر التحاقهما بالخارج مقارنة بالبعثات التي يمّمت وجهها نحو كلٍّ من إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا[121]. كما يبدو وجود اضطراب جلي في نوعية التعليم الذي سعت هذه المجموعة لتحقيقه؛ فالرسالة السلطانية السابقة تحدد التعليم العسكري هدفًا رئيسًا، وتعلم

---

(118) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 5 شوال 1314هـ/ 9 مارس 1897م، خ.ع.ت، محفظة 15/ 107.

(119) ابن زيدان، **العز والصولة**، ج 2، ص 151.

(120) بوشعراء، ص 1369.

(121) لم تنتبه بعض الدراسات لهذا الإشكال فاكتفت باعتماد منهج وصفي ينأى عن مقاربة الإشكال المُثار، ووضعت البعثتين في موازاة البعثات الأخرى؛ وورد في إحداها ما يلي: «...، فبعد إنهائهم ست سنوات من التكوين الإعدادي بمدينة طنجة، توجهوا أواخر عام (1297هـ/ 1879م) صوب باريس... وبعد مضي أربع سنوات من مقامهم بمدينة باريس، تلقوا أمرًا من المخزن بمغادرة باريس والاتجاه إلى بلجيكا سنة (1301هـ/ 1884م)..» انظر: جمال الحيمر، «البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول،» (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي محمد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، 1987-1988)، ص 139-140.

اللغة وسيلة لتحقيقه والنجاح فيه، في حين يشير الطالب محمد بن الكعاب، في مذكراته، قائلًا: «.. كنا بعثنا من جملة الطلبة الذين كانوا تعينوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب سنة1291هـ، ثم بعد الإقامة نحو من الستة سنين ونصف بثغر طنجة، كنا سافرنا في 18 من ذي الحجة سنة 1297 هـ، إلى باريس لتعلم اللغة الفرانساوية، وكنا بقينا بالمصر المذكور أعلاه لتعلم ما كنا توجهنا بصدده من أربعة سنين ونصف..»[122].

من المفارقات أن المجموعة التي أُرسلت للتكوين في فرنسا غادرت المغرب (1297هـ/ 1879) في العام نفسه الذي رجعت فيه المجموعة التي تعلمت في بريطانيا. وقد أشار محمد بركاش في رسالة إلى المولى الحسن الأول، في الأول من ربيع الأول 1297هـ أن «الطلبة الثلاثة... تعلموا واستوفوا المقصود ..»[123]، وهو ما يجعلنا نختلف مع خالد بن الصغير في مفاضلته بين البعثات الخمس، عندما فضّل البعثة التي قصدت بريطانيا على غيرها من البعثات الأخرى.

يثير طول المدة الطويلة التي أمضاها محمد بن الكعاب الشركي ورفاقه في طنجة (ستة أعوام ونصف عام)، أكثر من تساؤل. صحيح أنهم درسوا «العلوم الرياضية واللغة العربية والجغرافية وعلوم الدين، سافروا بعدها إلى باريس لإتمام تعلم اللغة الفرنسية والعلوم الرياضية والعسكرية والإنسانية طيلة أربع سنوات ونصف»[124]، لكن تمضية ستة أعوام ونصف عام في طنجة لدراسة اللغة الرومية وتعلمها، بتعبير ابن الكعاب، لا تنطبق مع منطق الأمور؛ فتعلم اللغة لا يمكن أن يتعدى عامًا في أقصى الحالات. ويبدو أن هذه المدة الطويلة لم تكن كافية في نظر المخزن الذي قرر إرسال الطلبة الثلاثة إلى باريس لتعلم اللغة الفرنسية، وبدلًا من توقع سرعة تعليمهم، فإن ابن الكعاب قال: «وكنا بقينا بالمصر المذكور أعلاه لتتعلم ما كنا بصدده من

(122) أحمد معنينو، «ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 هـ»: محمد بن الكعاب الشركي،» البحث العلمي، العدد 25 (1976)، ص 223.

(123) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 494.

(124) بوشعراء، ص 1370.

أربعة سنين ونصف، أعني إلى 22 من شعبان سنة 1301هـ»[125]، وتدفعنا هذه الملاحظات إلى إثارة بعض التساؤلات والإشكالات، منها تحفّظ النائب محمد بركاش على نتائج هذه البعثة؛ فقد توسم في أفرادها، كما قال، «عدم النتيجة، ولم يحصلوا سوى معرفة اللسان... بخلاف الذين تعلموا في بلاد النجليز والطليان والصبنيول. فكلهم تعلموا ووردوا وينتفع بهم، وكذلك الذين ببلاد الألمان»[126]. ويتعارض هذا التحفظ مع ما ورد في شأن خبرة محمد بن الكعاب الشركي وأنه «ترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة»[127]. كما أنه «لما عاد إلى المغرب نهائيًا، عُيّن مهندسًا وترجمانًا بالمكينة بفاس»[128]. ومن جانب آخر، اعتبر ابن زيدان أن «الطاهر ابن الحاج الأوديي الأصل الفاسي النشأة... أحد نجباء البعثة الحسنية الموجهة... لتلقي العلوم الرياضية بالبلاد الأوربية»[129]. لكن ما الذي دفع النائب بركاش إلى توسم «عدم النتيجة» لدى أفراد هذه البعثة؟ ألم يكن لديه ميل واضح إلى الألمان، خصوصًا عندما اقترح على السلطان الحسن الأول النظر في «ما كتب به باشدور الألمان في شأن العساكرية 13 الذين توجهوا للتعلم في برلين»[130]؟

من جانب آخر، يتعارض موقف بركاش مع مضمون الرسالة التي وصفتهم بالنجباء: «وبعد، فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجه لبر النصارى...»[131].

ترتبط القضية أساسًا بسياسة المخزن التي كانت تقوم على استغلال التناقضات بين القوى المتنافسة على المغرب. ويبدو أن اقتراح بركاش تحول

(125) معنينو، «ترجمة مختصرة،» ص 223.

(126) وردت في: بوشعراء، ص 1375.

(127) إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية (الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1985)، ص 38.

(128) بوشعراء، ص 1370.

(129) ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 105.

(130) بوشعراء، ص 1375.

(131) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 442.

إلى فعل تنفيذي، ذلك أن محمد بن الكعاب الشركي والطاهر بن الحاج بن عبد السلام الأودبي، تكلّفا مهمة الترجمة، وتيسير مهمة بعض البعثات التعليمية، خصوصًا تلك التي أُرسلت إلى بلجيكا. أما الثلاثة الباقون، فقد أُرسلوا إلى ألمانيا وهم «السيد الميلود الرباطي، والسيد الحسين الأودبي، والسيد عبد السلام الدسولي، فأقاموا بها أعوامًا 12»[132].

وفي الإتحاف ذكر عبد الرحمن بن زيدان، قائلًا: «والمتوجهون لألمانيا هم السيد عبد السلام التسولي والسيد الميلود الزيادي الرباطي والسيد محمد النجار السلوي»[133]. ويتبيّن من خلال فحص الوثائق أن محمد النجار السلوي كان عضوًا في الوفد الثاني الذي اتجه إلى ألمانيا برسالة مؤرخة في عام 1884، وأن الحسين الأودبي شارك في البعثة المغربية الأولى إلى ألمانيا، كما سنبيّن لاحقًا، وقد خاطب الحسن الأول النائب محمد بن العربي الطريس قائلًا:

«...، وبعد، فقد أخبر منصور ملحمة ترجمان الألمان أن الحسين والميلود اللذين كانا يتعلمان ببلاد الألمان فرغا من تعريب الأوراق التي جعلها المهندس الألماني في شأن المحال التي انتخبها بمرسى العدوتين ومرسى الصويرة لبناء أبراج المدافع، وعليه فنأمرك أن توجههما لحضرتنا الشريفة بحرًا على الجديدة أو الصويرة وتأمرهما بأن يصحبا معهما الأوراق التي دفعها لهما المهندس المذكور وتعريبها وكتابنا الشريف إلى أمناء مرسى طنجة بإركابهما وتزويدهما يصلك طيه والسلام»[134]. ويتبيّن من الرسالة أن الوفد رجع إلى المغرب في عام 1886، وكلف أساسًا بمهمة ترجمة الأوراق التي وضعها المهندس الألماني روتنبورغ الذي رافق المهندس فاجنر[135].

كما تُفصح الرسالة/ الوثيقة عن آلية التمويل الثابتة التي اعتمدها المخزن،

---

(132) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 151.

(133) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 466.

(134) رسالة الحسن الأول إلى النائب الطريس بتاريخ 3 ربيع الأول 1304هـ/ 29 نوفمبر 1886م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 11.

(135) المصدر نفسه.

وكان السلطان فيها الآمر الوحيد بالصرف، وتكلف الأمناء بتنفيذ التعاليم والأوامر السلطانية، وبينهما نشأت قنوات اتصال بيروقراطية بسبب أحوال إقامة المتعلمين المغاربة في البلاد الأوروبية. وقد لُقّنوا اللغة ومبادئ العلوم في طنجة نحو الستين. ويأتي الاهتمام بالوجهة الألمانية بسبب بروزها كقوة عسكرية جديدة ومتقدمة على المستوى الأوروبي؛ فقد كان السلطان الحسن الأول متتبعًا أطوار هذه القوة، وكان يتلقى باستمرار أخبار المعارك بين فرنسا وألمانيا (1286هـ/ 1870م) عندما كان خليفة لوالده على مراكش، من خلال تاجر إنكليزي يدعى جورج، كان مقيمًا بآسفي، ويقوم بتعريب مقالات من الصحف الأجنبية ويرسلها إليه عبر عامل المدينة الطيب بنهيمة، وقد قال في إحداها: «(...) واعلم سيدي - حفظك الله - أن جنس البروس جنس عظيم، فهذه مدة وهو مضاد لجنس الفرنصيص (...) فعدد عسكر جنس بروسيا نحو مليون ونصف، وعدد عسكر الفرنصيص - كما في علم سيادتكم - ثمانمئة ألف وأربعمائة ألف على اليد... والظاهر الغالب لا بد من الكرة، وهذه الكرة لم يقع مثلها أبدًا»[136].

كانت المعلومات المقدمة إلى المخزن سليمة وصحيحة؛ فقد وقعت الحرب التي لم يقع مثلها بين البلدين، وكانت النخبة المغربية على معرفة بنتيجتها المدوِّية على مستوى العلاقات بين البلدين. وكان الرحالة الألمان، في أثناء تجوالهم في المغرب يسمعون السؤال نفسه: كيف تمكنت دويلة صغيرة كبروسيا من دحر الإمبراطور الفرنسي العظيم[137].

من جانبها، ساهمت بريطانيا في تقديم بعض المعلومات المتعلقة بنتائج الحرب الفرنسية - الألمانية، فقد خاطب هاي محمد بن المدني بنيس قائلًا: «... فنعلمك بأن جنس الألمان لا زال رابطًا على مدينة

(136) خالد بن الصغير، «المغرب بين النفوذ البريطاني والألماني خلال القرن التاسع عشر،» في: المغرب وألمانيا: دراسات في العلاقات البشرية والثقافية والاقتصادية: أعمال الملتقى الجامعي الأول المنعقد بالرباط أيام 21، 22، 23 نوفمبر 1988، ندوات ومناظرات؛ 17 (الرباط: النشر العربي الإفريقي، 1991)، ص 57.

(137) Pierre Guillen, *L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905* (Paris: Presses universitaires de France, 1967), p. 33.

باريس...، وأما الفرنصيص يضربون على أنفسهم لاكن حيث عندهم الآن عسكر جديد فلم يستطيع على عسكر ألمان الذي هو قديم وله معرفة بالحرب»[138].

شكّل العنصر الاستخباراتي نافذة مهمة لمعرفة درجة قوة الآخر، كما أن بعض النخب السياسية والفكرية كانت على دراية بحجم الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا وألمانيا، وقد حاول السلطان الحسن الأول جاهدًا، في أثناء ولايته، استغلال هذا التناقض لدرء الأخطار المحدقة بالمغرب. ويمكن في هذا الإطار فهم دوافع توجيه بعثة تعليمية إلى ألمانيا. كما يبدو أن المصادر المغربية لم تكن دقيقة في تحديد تاريخ إيفادها؛ فقد ذكر ابن زيدان في عام 1291هـ/ 1874م، أنهم أقاموا بألمانيا «أعوامًا 12 ورجع منهم للخدمة اثنان: السيد الميلود الرباطي، والسيد الحسين الأوديي»[139]، في حين ذكر بيير غيلين (P. Guillén) أن النائب بركاش تحدث إلى فيبر (Weber) في شأن إمكانية استقبال ألمانيا شبانًا مغاربة بغرض التعليم والتكوين منذ 1292هـ/ 1875م[140]، وأن هذا المطلب لم يتحقق إلا في عام 1298هـ/ 1881م؛ ونؤكد ذلك بمراسلتين بين السلطان المولى الحسن الأول ومحمد بركاش؛ فقد أخبر هذا الأخير المولى الحسن بتوجه الطلبة الثلاثة إلى ألمانيا في 20 جمادى الأولى 1289هـ/ 20 نيسان- أبريل 1881م، ورد فيها: «... ينهى لكريم علم سيدنا...أن الطلبة الثلاثة الذين كانوا بقصد التوجه للتعلم ببلاد الألمان بأمر سيدنا... قد توجهوا في أوائل شهر تاريخه صحبة بابور ألمان على طريق مرسيلية ووجه معهم الباشدور رجلًا ألمانيًا ليوصلهم ليد وزير الأمور البرانية..»[141].

بعد عشرة أيام أعلمَ السلطان بركاش موضحًا: «...، وبعد، وصل كتابك

---

(138) رسالة دريومند هاي إلى محمد بن المدني بنيس، بتاريخ 14 شوال 1278هـ/ 7 كانون الثاني 1871م، F.O.174/138، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 316.

(139) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 151.

(140) Guillen, p. 86.

(141) رسالة من السيد محمد بركاش إلى السلطان الحسن الأول بتاريخ 20 جمادى الأولى 1298هـ/ 20 أبريل 1881م، م.و.م، الترتيب العام سجل 35937.

بأن الطلبة الثلاثة المعينين للتعلم ببلاد الألمان توجهوا لها في أوائل شهر تاريخه في بابور ألمان على يد باشدورهم..»[142].

تم السفر فعلًا في عام 1881، متأخرًا عن البعثات التي قصدت كلًّا من بريطانيا وإيطاليا وإسبانيا، وهو ما يدل على تأثر موضوع البعثة بالتوازنات السياسية التي رام المخزن من خلالها استغلال التناقضات بين فرنسا وألمانيا.

سوّغ غيلين هذا التأخر بعدم إلحاح المخزن في اقتراحه، وهو تفسير نجد له مسوغاته في تخوف المخزن من الانفتاح على ألمانيا، بوصفها نقيضًا موضوعيًا للمصالح الفرنسية في المغرب، فكان المخزن يتأنى في إرسال بعثة إلى ألمانيا لضبط إيقاع هذا الانفتاح، حتى ينجح في إقامة توازن دقيق بين القوى الأوروبية المتنافسة على النفوذ في المغرب.

دام التأني والانتظار هذان ستة أعوام، وسرت القاعدة نفسها على البعثة التي توجهت إلى فرنسا، في الوقت الذي تابعت فيه البعثات الأخرى تعليمها في الدول الأوروبية الأخرى. والأكيد أن الأمر لم يكن تقنيًا، بل كان سياسيًا؛ إذ حاول المخزن من خلاله ضبط عناصر التنافس الفرنسي - الألماني على المغرب في أثناء الفترة المذكورة، التي تميزت بشدة الصراع السياسي والعسكري والدبلوماسي بين الدولتين في الساحة الأوروبية. وسلك المخزن هذا الأسلوب «الانتظاري» حتى يجس نبض القوى الأوروبية من إقدامه على إرسال بعثة إلى ألمانيا. وهكذا توجه عبد السلام التسولي إلى مدرسة كلاوتسال (École de mines de Klausthal)، والحسين الأوديي إلى مدرسة الضباط (Ecole des officiers)، والميلود الرباطي إلى أكاديمية عسكرية أخرى[143].

كان الطلاب الثلاثة بإشراف أنطون كون؛ ففي رسالة خاطب فيبر بركاش، قائلًا: «وكنا قد قدمنا أنطون كون ليكون قنصلًا، لأنه رجل من الأغنياء والمعتبرين ومعروف بين الذوات، وقد جعلناه لمعاونتنا بملاحظة

---

(142) رسالة المولى الحسن الأول إلى السيد محمد بركاش بتاريخ فاتح جمادى الثانية 1298هـ/ فاتح ماي 1881م، م.و.م، الترتيب العام، سجل 35953.

(143) Guillen, p. 86.

الطلباء الثلاثة... فلا يطلب من دولة الجناب العالي بشيء، لا من دراهم ولا غيره..»[144]. ويبدو أن المطلب المالي مثّل كابحًا حدّ من إمكانية توسيع الاستفادة من خبرات معاهد التكوين ومؤسساته في الدول الأوروبية، والتي كانت تشترط مبالغ مالية كبيرة، عجز المخزن عن تسديدها آنذاك، ولقي صعوبات واضحة في استمرارية تمويل أعضائها. لكن الممثلين الدبلوماسيين الأجانب كانوا يدركون تمامًا الضغط المالي الذي كان يعانيه المخزن، فاستغل فيبر ذلك لإقناع السلطان بمزيد من الانفتاح على الخبرة الألمانية في مجال التكوين.

عاد الميلود الرباطي والحسين الأوديي إلى المغرب حوالى عام 1303هـ/ 1886م، وعُيّنا لمدة قصيرة ترجمانين للمهندس فاغنر (Wagner)، عميل كروب[145]. واشتغل الحسين في وظائف عسكرية، إذ «سمّي قائدًا عسكريًا لطرفاية عند انسحاب ماكينزي منها، بينما عاد الميلود الرباطي إلى ألمانيا لإتمام دراسته ببرلين مدة ثماني سنوات ابتداءً من 1305هـ/ 1888م»[146].

أما الميلود بن محمد الزيادي الطالبي، فعاد إلى ألمانيا لإتمام دراسته في برلين حوالى عام 1896، وهو التاريخ الذي وردت فيه رسالة مخزنية ترفض، من خلالها، منحه الحماية القنصلية، ومما جاء فيها:

«فقد وصل جوابك أيها المحب في شأن ما يرومه الميلود الزيادي العسكري، أحد طلبة اللسان الألماني عند جانب المخزن أعزه الله، من التلبس بالحماية، ذاكرًا أن إبطال حمايته متعذر حيث كان بموافقتكم، وأن الحماية المذكورة مبنية على مقتضى الفصل السادس عشر من شروط مدريد، لا على مقتضى الفصل الخامس المتضمن للحماية الممنوعة التي موضوعها فيما عدا حماية المكافآت على خدمة كهذه، وصار بالبال بعد إنهائه لعلم مولانا المنصور بالله فأمرني أعزه الله بأن أجيبك بأن العسكر الذي يوجهه المخزن بقصد التعليم إذا كان ذلك التعليم يخرجه عن طاعة مخزنه بعدم جري الأحكام

---

(144) رسالة فيبر لبركاش، في 6 مارس 1882م، الترتيب العام، الوثيقة2115 م.و.م.

(145) بوشعراء، ص 1346.

(146) المصدر نفسه، ص 1344.

عليه وصيرورته حماية للمتعلم عند وقوع التعرض عليه فيما يتعلق به من خدمة مخزنه فبالضرورة أن ما جرى على المثل يجري على مماثله ويختل بذلك النظام العسكري وتنعدم حقيقة القوانين العسكرية بالكلية ويكون فعل المخزن في ذلك التعليم وبذل ما يصيره عليه من باب العبث الذي ينزه عنه أفعال العقلاء، فضلًا عن أفعال الدول العظام المعتبرة. وأما المكافأة التي احتججت بها أيها العاقل فليس بحماية، وإنما تقتضي التمييز لرتبته فيما تعلمه، ولا تخرجه عن طاعة مخزنه واستخدامه فيما يقتضيه نظره من أمور خدمته، وإلا كان نقصًا للحقوق وانحرافًا عن طريق الإنصاف..»[147].

أوردنا الرسالة على طولها؛ إذ تمكننا من استنتاج طبيعة الذهنية التي أنتجتها. فقد وصفت الرسالة الميلود بالعسكري، الأمر الذي يدل على الاهتمام الذي سيطر على اختيارات المخزن وأهدافه من إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، وعلى الخطورة التي أثارتها الحماية القنصلية لدى الدوائر المخزنية.

استغلت القوى الأوروبية بعض أعضاء البعثات التعليمية ضدًّا على انتمائهم الوطني، بعد أن تكلّف المخزن على تعليمهم كثيرًا. ويأتي احتجاجه في زمن اشتد فيه الصراع الألماني - الفرنسي، في إطار التحالفات والتحالفات المضادة التي شهدتها أوروبا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، واحتاجت ألمانيا إلى عملاء لها في مناطق النفوذ الفرنسي لجمع المعلومات وإعداد تقارير استخباراتية، فهل كان الميلود الرباطي من هؤلاء؟ وهل تلقّى تعليمات في برلين تحضّه على العمالة لألمانيا، خصوصًا أنه مكث فيها فترة طويلة؟ لا يمكن القطع بذلك في غياب شواهد تاريخية تؤكد ذلك، لكن المغرب خسر كفاءة من كفاءات أبنائه، وبيّنت العملية حجم الخلل المجتمعي الذي كان سائدًا وكثرة الثغرات التي أشرنا إليها حين تناولنا موضوع الحماية القنصلية، وغيابَ المواطَنة الفاعلة التي فقدت المقدمات السياسية والاجتماعية التي تجعل منها اختيارًا فاعلًا لتحقيق التنمية المنشودة.

---

(147) جواب مخزني في 19 ذي الحجة 1313هـ/ ماي 1896م، خ.ع.ت، محفظة 51/ 80.

أما عبد السلام التسولي، فكان متفوقًا على أقرانه، لا في الجانب المعرفي فحسب، وإنما في انتمائه الوطني أيضًا؛ فقد أشار إلى «أن قصده بهذه العلوم حتى يقدر يومًا ما أن يقدم خدمة لمنفعة وطنه»[148]، وذلك على العكس من الميلود الرباطي الذي تلقّى الحماية الألمانية، واشتغل بعض الفترات موظفًا قنصليًا لألمانيا[149]. وقد سئل عبد السلام التسولي عن نوع العلوم التي تلقاها، فأجاب بأنها «1- علم الحساب والجبر والمقابلة؛ 2- أصول الهندسة؛ 3- مساحة المثلثات؛ 4- حل الجبر؛ 5- الهندسة المساحية؛ 6- علم الطبعة، وهو أصل قوة الكهرباوية أي إلكطريك؛ 7- ثم علم الكمية التعدينية...»[150]. وتُفصح رسالة سلطانية أخرى عن حجم الضغط المالي الذي تطلبته عملية إرسال البعثات التعليمية نحو الخارج؛ فقد أجاب الحسن الأول الحاج محمد بن العربي الطريس قائلًا: «...، وبعد، وصل كتابك بأن أحد المتعلمين ببلاد الألمان اسمه عبد السلام بن عبد القادر هذه مدة، وهو بالبلاد المذكورة، وبلغك أنه تمهر فيما توجه لتعلمه، وظهرت نجابته، ولم يبق في مكثه هناك إلا زيادة الصائر ...»[151].

يبدو مما سبق أن البعثة التعليمية إلى ألمانيا حقّقت أغراضًا تشبه ما حققته مثيلتها إلى إنكلترا، ذلك أنها لم تقتصر في تكوينها على المادة العسكرية، بل تخصص بعض أفرادها في علوم مدنية مختلفة، كالتنقيب عن المعادن وتوليد الطاقة الكهربائية. والأكيد أن هذه التخصصات لم يستفد منها المخزن؛ إذ اكتفى بسؤال بعض المتعلمين عن العلوم التي حصّلوها، والتي لم تنسجم مع الذهنية الإدارية التي أولت عناية خاصة للتكوين العسكري أو «حرب النظام»، وخضعت لمنطق الفتاوى «الانتظارية» في المسألة التحديثية. وربما يكون ذلك سببًا في التجاء بعض الطلبة المتعلمين إلى طلب الحماية، بسبب ضعف قابلية

---

(148) رسالة الوزير الألماني ويبير إلى السيد محمد بركاش بتاريخ 13 مارس 1883م، م.و.م، الترتيب العام.

(149) بوشعراء، ص 1346.

(150) المصدر نفسه، ص 1347.

(151) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 12 ذي الحجة 1305هـ - 20 آب/ أغسطس 1883م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 148.

المؤسسات المخزنية لاحتضان تخصصاتهم ومعارفهم التقنية، في حين فضّل آخرون الاشتغال في قطاعات لا تمتّ إلى تخصصاتهم المعرفية بصلة.

مثّلت ألمانيا، إذًا، وجهة رئيسة لبعثات الحسن الأول، وتأسس هذا الاختيار على مبدأ استغلال التناقضات بين القوى الأوروبية، وهي السياسة التي نهجها المخزن طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

في المقابل، انحازت اليابان في تجربتها التحديثية إلى الأنموذج البروسي، واستلهمت منه مجموعة من عناصر القوة، من أبرزها أنموذجِ النظام العسكري البسماركي. كما مثّلت ألمانيا، بالنسبة إلى اليابانيين، قِبلة مفضّلة لتحديد بوصلة التقعيد الدستوري والتوسع العسكري، وهو ما سنفصله في موضعه.

لم يكن الانحياز الياباني قائمًا على استغلال التناقضات الدولية، بل على البحث عن عناصر القوة المادية والمعنوية. والأكيد أن ألمانيا مثّلت بقوّتها الصاعدة وانتصاراتها المدوّية محطة أساسية لتأمّل ساسة اليابان ومفكريها والاقتداء بها، بيد أن ذلك لم يعنِ إلغاء الاستفادة من الدوائر الغربية الأخرى، الأميركية والبريطانية والفرنسية.

تمكّنت بعثة إيواكارا بحسّها الاستخباري من تحديد الأنموذج/المثال الذي يلائم مقاسات الإصلاح في عهد الميجي، واقتنع أعضاؤها الرئيسون بعدم أولوية الصور التحديثية الإنكليزية والأميركية، وبالتماهي مع أنموذج القوة البروسية في عهد أوتو فون بسمارك، وهو ما سنفصّل فيه لاحقًا.

تمتعت اليابان بحرّية كبيرة في رسم علاقاتها الدولية، وفي الاستفادة من مختلف التجارب التحديثية التي عرفها الغرب الرأسمالي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فتحررت بذلك من أي وصاية أجنبية، وسلكت مخطط الهجوم في استيعاب تقنيات الغرب وخبرته التحديثية. وعندما اتّبع اليابانيون الأنموذج الجرماني [البروسي]، كان اتّباعهم هذا نابعًا من فهم واقتناع تامّين، بمعزل عن أي ضغط سياسي أو نفسي، وبمنأى عن توظيف التناقض الفرنسي - الألماني في ترتيب مفردات الداخل الياباني. وهو عكس ما بيّنته بخصوص أول بعثة تعليمية مغربية في عهد الحسن الأول إلى أوروبا في عام 1874.

الجدول (4-8)

بعثة 1291هـ/ 1874م

البلد	الاسم	السن	الأصل	التخصص بعد التكوين	ملاحظات
فرنسا	قاسم بن محمد الأوديي			-	حاضر في الخدمة
	الطاهر بن الحاج الأوديي	13	فاس	صنع السلاح والسكة - الترجمة	حاضر في الخدمة
	محمد بن الكعاب الشرقي	17	فاس	مهندس بالمكينة في فاس - الترجمة	حاضر في الخدمة
إنكلترا	محمد بن عمر الكباص	25	فاس	العلوم الحربية والهندسة	-
	الزبير سكيرج	25	فاس	العلوم الحربية والهندسة	حاضر في الخدمة
	إدريس بن عبد الواحد	25	فاس	العلوم الحربية والهندسة	حاضر في الخدمة
إيطاليا	المختار بن الطاهر الرغاي	شبان	-	العلوم الحربية	تلبّس بالحماية الإسبانية
	عبد السلام بن الجيلالي عيوش		-	العلوم الحربية	حاضر في الخدمة
	محمد بن أحمد بناني الفاسي		فاس	العلوم الحربية	حاضر في الخدمة
ألمانيا	الميلود الرباطي	-	الرباط	العلوم الحربية - الترجمة	تلبّس بالحماية الألمانية
	الحسين الأوديي(*)	-	-	العلوم الحربية - الترجمة	حاضر في الخدمة
	عبد السلام الدسولي	-	-	العلوم الرياضية - الكهربائية، الهندسة	حاضر في الخدمة
إسبانيا	أحمد بن الحاج العباس الفاسي	-	فاس	العلوم الحربية	سرح لصلة الرحم

يتبع

تابع

	عبد السلام الرباطي	–	الرباط	العلوم الحربية	سرح لصلة الرحم
	محمد الشرادي الرباطي	–	الرباط	العلوم الحربية	حاضر في الخدمة

المصدر: تم الاعتماد في تسجيل هذه المعطيات على: عبد الرحمن بن زيدان: **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، مطبوعات القصر الملكي؛ 27، 2 ج (الرباط: المطبعة الملكية، 1961-1962)، ج 2، ص 150-151، و**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، 5 مج، ط 2 (درب الفاسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ج 2، ص 466، ومصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه** (الرباط: المطبعة الملكية، 1984)، ص 1346-1373.

الملاحظة: (*) وردت المعلومات المتعلقة بالمتعلمين الثلاثة المشار إليهم في: رسالة محمد بركاش إلى السلطان المولى الحسن الأول في 1 ربيع الأول 1297هـ، في: **مجموعة الوثائق**، العدد 3 (1976)، ص 494؛ ورد بدل اسم الحسين الأوديي عند: ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 2، ص 466، اسم محمد النجار السلوي وهو أحد المتعلمين الذين التحقوا ضمن الفوج الثاني بألمانيا بمقتضى رسالة سلطانية في عام 1884م.

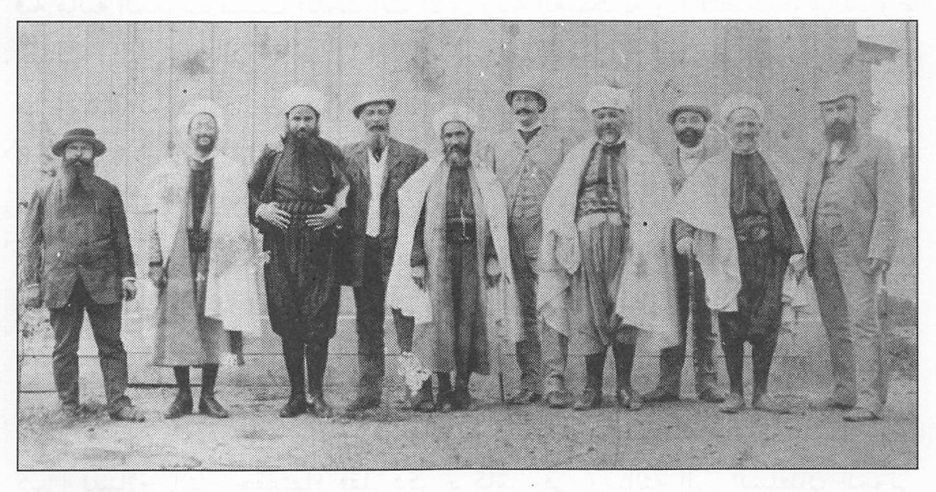
ومن ضمن الطلبة الخمسة عشر، انتُقي نصفهم من مدينة فاس، وثلاثة من الرباط، وهو ما يؤشر إلى طبيعة الاختيارات المخزنية التي ركّزت على مدن كان يستقر فيها أفراد من البيروقراطية المخزنية بمستوياتها العليا والدنيا المختلفة.

الصورة (4-1)
الزبير سكيرج



المصدر: .<http://www.cheikh-skiredj.com/photos-cheikh-skiredj-tijani-soukayrij3.php>

الصورة (4-2)
الزبير سكيرج في ألمانيا



الزبير سكيرج (وسط الصورة) في ألمانيا عام 1893، برفقة باشا طنجة وبعض أعيان مدينة الرباط إضافة إلى بعض المهندسين الأجانب

المصدر: <http://www.cheikh-skiredj.com/photos-cheikh-skiredj-tijani-soukayrij3.php>.

تُعتبر البعثة التي أرّخ لها ابن زيدان عام 1291هـ/ 1874م من البعثات المتميزة التي أُرسلت إلى أوروبا في عهد الحسن الأول. وفي هذا الشأن قال صاحب **العز والصولة** إن «هؤلاء الخمسة عشر يدعون بخطوط أيديهم أنهم بعد تحصيل اللسان حصلوا على جل العلوم الحربية والهندسة...»[152]، لكننا نفتقد هذه الشهادات أو التوقيعات، باستثناء ما ذكره الزبير سكيرج في مذكراته، وما دوّنه محمد بن الكعاب الشركي في كناشه، وما دوّنه الطاهر الأوديي في كتابه **الاستبصار في عجائب الأمصار**، وما أجاب عنه عبد السلام التسولي في شأن العلوم التي نبغ فيها وما عبّر عنه طلبة إيطاليا عن امتنانهم للمعلمين الإيطاليين. لكن، ما مصير باقي الطلبة؟ سؤال لا نجد له جوابًا في الدراسات التي تناولت موضوع هذه البعثة بالوصف والتحليل.

من جانب آخر، يتضح أن أغلب المبتعثين كانوا حديثي السن، واختيروا

(152) ابن زيدان، **العز والصولة**، ج 2، ص 149.

أساسًا من المدن التي كانت تستقر فيها النخبة المخزنية، كمدينتي فاس والرباط. ويبدو أن هذه البعثات كلّفت المخزن مبالغ مالية كبيرة، في أوضاع كانت تنزف فيه مالية المغرب بسبب التحديات الأوروبية العسكرية والاقتصادية، والشروط المالية والتجارية التي فرضتها الوقائع الجديدة. ويتبين الضغط المادي واضحًا في رسالة السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي الطريس في عام 1888: «وصل كتابك بأن أحد المتعلمين ببلد الألمان اسمه عبد السلام... وهذه مدة وهو بالبلاد المذكورة، وبلغك أنه تمهر فيما توجّه لأجله، فوجّه عليه، وحيث يرد وجهه لحضرتنا الشريفة»[153]. وقد كان طول مدة الإقامة الدراسية في الخارج يكلف المخزن أموالًا طائلة، الأمر الذي دفعه إلى توجيه رسائل يأمر فيها برجوع المتعلمين المغاربة بمجرد «التمهّر فيما توجّهوا لأجله».

اعتمادًا على رؤية المخزن والدول المستقبلة للبعثات، نلاحظ ارتياحًا كبيرًا للنتائج التي حققتها؛ فقد ذكر بركاش في رسالته إلى السلطان المولى الحسن الأول، أن الطلبة الثلاثة في بريطانيا «تعلموا واستوفوا المقصود... في هذه المدة القريبة التي غيرهم يستحق ضعفها، وقد مدحوهم لا في القابلية والنجابة، ولا في المروءة ومقابلة ما كانوا بصدده..»[154].

يتضح من خلال مذكرات بعض المتعلمين، امتداد الاستفادة من خدماتهم إلى فترة حكم المولى عبد العزيز؛ فقد صدر ظهير عزيزي، جاء فيه:

«... فقد كلف حامله المهندس الطالب الزبير سكيرج بالتوجه لتركيب الموازين الجديدة المجلوبة لاستخدامها مكان الموازين القديمة بديوانات مراسينا السعيدة، وعليه، فإذا ورد عليكم فنأمركم أن تعينوا له محل النزول هناك وتدفعوا له مؤنته المعتادة مدة إقامته ثمة حتى ينقض الميزان القديم ويركب في محله الميزان الجديد للقيام بخدمة الديوانة، وأما القديم فيباشر ما يحتاج إليه بعد نقصه من أو مسح أو نحو ذلك مما يقتضى إليه بحيث يكون معينًا للخدمة عن احتيج إليه.. وإذا فرغ المهندس المذكور من تركيب الميزان الجديد

(153) رسالة الحسن الأول السابقة إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 12 ذي الحجة 1305هـ/ غشت 1883م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 148.

(154) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 494.

وتصوين القديم في الصنادق ووضعه بالمحل المناسب لصيانته، فلتنفذوا له الزاد والكراء المبلغ للمحل المأمور به»[155].

توقف مسلسل إيفاد البعثات التعليمية، مع وفاة المولى الحسن الأول، واستمرت الاستفادة من خدمات الطلبة المتعلمين، ومنهم أغلب أفراد بعثة عام 1876، كالزبير سكيرج وقبله محمد الجباص، إضافة إلى الطالب محمد بن الكعاب الشركي، وغيرهم. وقد عبّر ابن زيدان عن انخراطهم في مؤسسات المخزن بعبارة: حاضر بالخدمة، كما يتضح ذلك من خلال الجدول (4-1).

يشير أحد الباحثين إلى أن بعثة عام 1874 لم «تأتِ بشيء ذي بال، فقد كان تكوينها الأساسي ضعيفًا، ولم يكن اختيار أعضاء تلك البعثة يستجيب لمعايير موضوعية»[156]، وهو قول لا يمكن قبوله بإطلاق: فعلى الرغم من الملاحظات التي أبديناها في شأن هذه البعثة، فلم يكن تكوينها سيئًا، ومنحت مجموعة من الكفاءات، منها الزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب الشركي وعبد الواحد الفاسي ومحمد الكباص وعبد السلام بن الجيلالي عيوش ومحمد بن أحمد بناني الفاسي والميلود الرباطي والحسين الأوديي وعبد السلام التسولي... وقد فصّل ابن زيدان في الحديث عن الزبير سكيرج، وأورد في شأنه الكثير من المراسلات، منها ما ذكره المهندس إدوار سلفا، الذي كُلّف بناء الأبراج في ثغر طنجة، في أثناء مخاطبته الحاج محمد الزبيدي، حيث قال: « ...، فقد خصصت هذا لسعادتكم لأطلب من كريم فضلكم وعظيم تأثيركم أن لا تنسوا خدمة خليفتي السيد الزبير سكيرج فلا يخفى على سيادتكم من ما فيه من الحزم والنجابة والمواظبة على التعليم، وأظن أن سيادتكم على بصيرة من ذلك وشاهدته بهذا الطرف ولا ريب أن خدمته ستكون نافعة جدًا للخدمة السلطانية»[157].

يبدو أن هذه البعثة تميزت عن غيرها بالدقة في اختيار أفرادها، وتوفّرت

---

(155) سكيرج، ص 32.

(156) محمد الناجي، التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب، ق. 16-19، ترجمة عبد الرحيم زحل (الرباط: جذور للنشر، 2004)، ص 127.

(157) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 488.

على مؤهلات تعليمية ولغوية، بتمرسها بفنون اللغة وبعض العلوم في مدرسة الألسن في طنجة، لمدة تفوق العامين في الأغلب.

انطلاقًا من هذه المقدمات، يمكننا مقارنة هذه البعثة ببعثة إيواكارا اليابانية الشهيرة لعام 1871، إلى أوروبا والولايات المتحدة.

لكن، ما هو السياق السياسي والاجتماعي الذي أطّر البعثتين في كلٍّ من يابان الميجي ومغرب الحسن الأول؟ تكمن هنا إحدى العلل الكبرى التي تفسر علاقة المقدمات المتباينة بنتائجها المتناقضة، وهو ما سنبحث فيه بتفصيل من خلال المقاربة التركيبية بين التجربتين في الفصل السادس من هذا الكتاب.

اهتم المخزن الحسني بتحسين أداء جنوده، وقد تكون البعثات التي أرسلها إلى جبل طارق دليلًا على أولوية التكوين العسكري الذي سيطر على اختياراته، ومن هذا الجانب لزم الحديث عن هذه البعثات ودراسة بعض خصائصها.

2 - بعثات (1293هـ/ 1876م) إلى جبل طارق

تثار أمامنا، ونحن نبحث في موضوع البعثات التعليمية، إشكالية التطابق بين البعثات التعليمية والبعثات العسكرية، منها البعثات التي وجّهها السلطانان محمد بن عبد الرحمن والحسن الأول إلى منطقة جبل طارق للتدرب على فنون القتال واستعمال السلاح. لكن، ألم يكن هدف أغلب البعثات التعليمية التي أرسلها المخزن في فترتي حكم السلطان محمد الرابع والحسن الأول، عسكريًّا في العمق والأساس؟ ألم يطابق ابن زيدان، في مروياته التاريخية، بين الطلبة والجنود، ومن ذلك ما ذكره في شأن بعثة 1293هـ/ 1876م؟ ففي خلال ذلك العام أرسل الحسن الأول بعثة عسكرية إلى جبل طارق، وكانت «تتركب من خمسة وثمانين طالبًا، سبعون من الجنود، وعشرة من الطبجية، وخمسة من أطباء الجيش»[158]، وهم «مولاي أحمد بن الحسن بن الطيب والسيد حمان الجامعي والسيد إدريس الشرادي والسيد الجيلالي البخاري، والسيد الجيلالي الشرادي، وانتخبوا على يد ماكلين»[159].

(158) المصدر نفسه، ص 467.

(159) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 152.

يتبين من المصادر التاريخية أنها جرت على دفعات، دفعة أولى تألفت من 25 متعلمًا «فتوجهوا وأقاموا أعوامًا 2 وورد منهم 12 للحضرة الشريفة... ثم بعد مجيئهم في تاريخ (1294-1877) أمر الحسن الأول بتعيين 70 من العسكر... يلحقون بالثلاثة عشر الباقين بجبل طارق»[160].

أما الدفعة الثالثة، فاشتملت على 170 جنديًا لم ترد أسماؤهم[161]، وأرّخ لها صاحب الإتحاف في عام 1294هـ/ 1877م، وكان يرأسها «الحاج محمد الزروالي الفاسي، تعلم فن المدفعية خمس وأربعون منهم، وأخذت بقيتهم الحركات الحربية وأقاموا... نحو السنتين»[162].

وذكر مييج أن مجموع من تعلم في جبل طارق بين عامي 1290-1294هـ/ 1873-1877م بلغ 425 شخصًا، كان من مدربيهم الكولونيل كميرون (Cameroun)[163] الذي «كان كبير العسكر بجبل طارق»[164]. وترد رسالة عام 1295هـ/ 1878م، فتتحدث عن 130 عسكريًا و45 طُبجيًا، وتفيدنا بأن «الطُبجية تعلموا حركات المدافع تعلمًا متقنًا، وكذلك الزنايدية تعلموا أيضًا»[165]. وقد نيطت بهذه الوفود مهمات عسكرية محددة، منها صيانة وإصلاح العتاد العسكري المستورد من الخارج، وهو ما تذكره رسالة موسى بن أحمد التي قال فيها: «...، فقد وصلَنا كتابك بأن 77 عدة البلجيك المعيبة وصلت وعيبها قريب الإصلاح، وأن الزنايدية الذين تعلموا بجبل طارق يقدرون على إصلاح جلها»[166]. كما استخدم المخزن بعض هؤلاء المتعلمين في تدريب فرَق من الجيش المغربي؛ إذ كتب موسى بن أحمد إلى هاي: «في شأن المعلمين

(160) المصدر نفسه، ص 152.

(161) بوشعراء، ص 1353.

(162) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 467.

(163) Miège, Vol. 3: *Les Difficultés*, p. 225.

(164) رسالة موسى بن أحمد إلى دريموند هاي، بتاريخ 7 ذي الحجة 1294هـ - 13 كانون الأول/ ديسمبر 1877م، F.O.174/89، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 438.

(165) رسالة موسى بن أحمد إلى النائب القنصلي البريطاني وايط، بتاريخ 6 رمضان 1295هـ - 3 أيلول/ سبتمبر 1878م، رقمها F.O.174/89، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 457.

(166) المصدر نفسه، ص 458.

الحرابة الذين وردوا وصدر الأمر الشريف بتوجيههم لوجدة بقصد تعليم العسكر الذين هناك»[167].

نستنتج من قراءتنا هذه المعطيات والأرقام عدم التمييز بين البعثات العسكرية والبعثات المدنية، ويبدو أن كليهما كان «مفتونًا» بـ«حرب النظام» ويحاول استقصاء عناصر القوة العسكرية الغربية. كما أن تركيز المخزن على منطقة جبل طارق له ما يسوّغه على أكثر من صعيد، منه قرب المنطقة الجغرافي والحضور السياسي الوازن لبريطانيا خلال هذه المرحلة. وكان هاي - بحسب ابن الصغير - يقصد من إرسال البعثات إلى هذه المنطقة تحقيق مزيد من المهارات العسكرية والطبية[168].

لكن، هل كان الممثّل الإنكليزي يهدف حقًّا إلى إصابة هذا الهدف؟ ألم يكن هاي مهندس اتفاق 1272هـ/ 1856م، وقد تسببت «نصائحه» للمخزن في وقوع كوارث اقتصادية واجتماعية خانقة؟ بل يمكن القول إنه كان وراء أغلب عناصر التوتر التي شهدها المغرب طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدءًا بتوسطه توقيع اتفاق للا مغنية وطنجة، وصولًا إلى معاهدة مدريد التي أسست لتدويل المسألة المغربية، مرورًا باقتراحاته السيئة في كيفية أداء الغرامة الحربية لإسبانيا في عام 1276هـ/ 1860م، وما نجم عنها من آفة الاقتراض المالي، وكشف المواقع الأمنية والاستراتيجية المغربية للجواسيس الإسبان بسبب كثافة وجودهم في المراسي المغربية لاستخلاص جزء من غرامة حرب تطوان، وتمكّنهم بناءً عليه من مراقبة صادرات المخزن ووارداته، بما تشتمل عليه من أسلحة وذخيرة.

يبدو من رسالة مخزنية أخرى توقُّف البعثات التعليمية إلى جبل طارق بحجة تحقيق غرضها العسكري: «...، وأما المطبخة فتباع على يد من ذكر ويرفع ثمنها لمحله لأنه لا يحتاج إلى توجيه عسكر آخر لهنالك بقصد التعلم استغناء بتعليم العساكرية له الذين كانوا هناك..»[169].

---

(167) رسالة موسى بن أحمد إلى دريموند هاي، بتاريخ 23 محرم الحرام 1295هـ - 2 كانون الثاني/ يناير 1878م، F.O.174/89، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 439.

(168) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 458.

(169) رسالة موسى بن أحمد إلى النائب القنصلي وايط بتاريخ 26 رمضان 1295هـ - 23 أيلول/ سبتمبر 1878م، F.O 174/89، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 459.

وجد المخزن بعض الصعوبات في الحصول على موافقة بعض الدول الأوروبية لاستقبال متعلمين مغاربة في ورشاتها ومؤسساتها التكوينية. وبرز ذلك واضحًا في مشروع بعثة 1299هـ/ 1882م.

3 - بعثة 1299هـ/ 1882م

أمر الحسن الأول محمد بركاش بتعيين «أناس لتعليم تريست وعلم البحر، وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز والفرنصيص والألمان والطليان، وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يخصون بتعلم ترياست والمكينة... وأربعة لتعلم علوم البحر...»[170]. وتتحدث إحدى الباحثات: «على أن الوثائق لا تسعف في تحديد الأفراد المكوّنين لهذه البعثة ولا مسارها وصيرورتها في إيطاليا في غياب مذكرة تحيل على هذا التاريخ، ولعدم ذكر الأفراد المكوّنة لها في المصادر التي اهتمت بالموضوع»[171]. إلا أن التأمل في الأمر السلطاني الصادر يؤكد أنه لم يتجاوز مبدأ الرغبة؛ فقد خاطب الحسن الأول بركاش قائلًا في نهاية الرسالة: «... وعليه، فكلم نواب الأجناس المذكورين في ذلك وتفاوض معهم، وأعلمنا بجوابهم لك فيه لنأمر بما يكون عليه العمل في ذلك»[172]. ونثير في هذا الإطار تساؤلًا يبحث في العلاقة بين ما أورده محمد الفاسي في متن رحلته لعام 1860، وقرار المخزن التركيز في هذه البعثة على تعلم علوم البحر؛ فقد ذكر صاحب الرحلة الإبريزية أن «الحاصل، أنّا مهما صعدنا لمركب من تلك المراكب وجدنا فيها عددًا من الصبيان فما فوقهم بقصد التعليم لا غير... ويقسمونهم في التعليم على ثمانية أقسام وملكهم يمون الجميع»[173].

لا نستبعد وجود علاقة بين الجانبين بسبب دور الرحلة في صناعة القرار الإداري وبلورته، وهو ما لاحظناه سابقًا مع تنبيهات الصفار.

---

(170) عبد الرحمن بن زيدان، العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 147.

(171) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 313-314.

(172) ابن زيدان، العلائق السياسية، ص 147.

(173) الفاسي، ص 39.

يبدو أن التفاوض مع الدول لم يكن إيجابيًا، ودليل ذلك أن ابن زيدان لم يورد كعادته أسماء الطلبة المتعلمين أو أعدادهم، كما لاحظنا في بعثة عام 1291هـ/ 1874م وغيرها، بل إن المخزن فوجئ برفض دريموند هاي الصارم، متذرعًا بعدم قبول حكومته ذلك الطلب(174). ففي الأشهر الأخيرة من عام 1301هـ/ 1884م، وجّه المولى الحسن طلبه مجددًا إلى بريطانيا دون غيرها من الدول المذكورة، واقترح على نائبها تهيئة الأوضاع الملائمة لتوجيه «(...) خمسين من البحرية بقصد الركوب في قراصين (مراكب) الإنجليز بصدد تعلم قوانين خدمة البحر (...)، على أن يتعلم عشرة منهم (...) هندسة البابورات»(175).

إذا كانت المصادر لا تسمح بتفسير أسباب رفض فرنسا وألمانيا وإيطاليا استقبال الوفود التعليمية المغربية، فإن هاي في ردّه على بركاش(176)، وضع بأسلوب ملتوٍ شروطًا تعجيزية في مقابل الإلحاح المغربي، فهو تارةً سوّغ رفض حكومته بسبب مخالفة الطلب المغربي القوانين الإنكليزية، وطلب حينًا آخر إتقان المبتعثين اللغة الإنكليزية، وعقّد المسألة في أحيان أخرى بكونها تتطلب مصروفات باهظة(177).

---

(174) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 471.

(175) المصدر نفسه، ص 470.

(176) رسالة هاي إلى بركاش في28 محرم 1302هـ - 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1884، F.O174/144، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 506.

(177) المصدر نفسه، ص 506.

ورد في الرسالة التي وجّهها هاي إلى بركاش في 28 محرم 1302 هـ - 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1884م ما يلي: «وبعد، وصلَنا كتاب من عند الوزير يعلمنا بأن السلطان له غرض يوجّه خمسين من البحرية بقصد الركوب في مراكب قراصين الإنجليز بصدد تعلم قوانين خدمة البحر، وله غرض بأن عشرة من هذه الأناس يتعلمون هندسة مكينات البابورات، وجميع هؤلاء الأناس تكن لهم الأجرة، فنطلب منك تعلم السلطان بأننا ورد علينا كتاب الوزير... الظاهر لنا لم هو مناسب لنعلم دولة اكرت ابريتن بمطلوب السلطان حيث لم يساعده حيث هو مخالف للقوانين قبولا في مراكب سلطانتنا بحرية من رعية الغير. وفي شأن تعلم الهندسة، فهذا أمر آخر ويحتاج تعلم الحكمة، ولا بد أول ذلك يتعلمون لغة الإنجليز... فهذا يمكن يقبلهم في البابورات بأن يتعلموا من المهندس الكبير.

فهذا لا بد يكون مخاطبه بالمعاوضة على ضياع وقته لتعلمه حركة المكينة، فالمهندس دائمًا تكون له الأجرة الوافرة، حيث هذه الأناس لا بد يبقون ملازمين عدد من السنين لتعلم هذه الخدمة والصناعة =

من جانب آخر، يفسر ابن الصغير الرفض البريطاني بعدة فرضيات، وفي مقدمها أن هاي لم يكن يتوقع أي ربح مادي من إيفاد هذه البعثة «مثلما كان يحدث في صفقات الأسلحة التي كان يقوم فيها بدور الوساطة»[178]. وإذا كان ذلك صحيحًا، فأي مقابل مادي حصل عليه النائب البريطاني بسبب دوره المفترض في انتقائه وإشرافه وتوجيهه أفراد بعثة عام 1291هـ/ 1874م إلى بريطانيا، والبعثات العسكرية المتتالية إلى جبل طارق؟ هذا سؤال لا نعثر له على أثر في الأرشيف البريطاني الذي اعتمده ابن الصغير.

من جانب آخر، علينا التمييز بين عملية بيع السلاح وتطلبها السيولة النقدية، وخضوعها لمنطق الربح والمساومة، وبين بعثة تعليمية كانت قنوات تمويلها محددة سلفًا في النصوص المخزنية والأرشيفات الأجنبية، وبناءً عليه، يستبعد الحديث عن «رُشى» مالية في موضوع إرسال البعثات التعليمية إلى إنكلترا. لكن يمكن أن نجد تفسيرًا للرفض البريطاني في التوتر العام الذي صبغ العلاقات بين البلدين، وازداد وضوحًا بعد عام 1303هـ/ 1886م، وهو ما دفع الحسن الأول إلى التوجه إلى دول أخرى هي إيطاليا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا، واستجابت جميعًا لطلبه[179]. وفي هذا الإطار، يمكن قراءة أبعاد إيفاد البعثة التعليمية التي أرسلها الحسن الأول إلى إيطاليا في عام 1887، وتخصصت بالعلوم العسكرية والبحرية، كما سيرد لاحقًا.

وردت وثيقة بتاريخ 27 رمضان 1301هـ/ 21 تموز- يوليو 1884م، يحتج من خلالها هاي على عزل المخزن المغربي مهندسين إنكليزًا والاستعاضة عنهم ببنّائين مغاربة. وقد ورد في آخرها بشأن أحد هؤلاء المهندسين: «فلا بد من الإعلام له بشهر يعطى له قبل عزله أو يتأدى له أجرة ذلك الشهر، فهذا الإعلام لا بد يكون له من وزير السلطان، فلم يكن منا حيث مرادنا ترك الكلام معه»[180].

= قبل تمكنهم بمرتبة مهندس مناسب». وردت بهذه اللغة الركيكة لدى: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 506-507.

(178) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 471.

(179) المصدر نفسه، ص 472.

(180) رسالة هاي إلى محمد بن العربي المختار بتاريخ 27 رمضان 1301هـ - 21 تموز/ يوليو 1884م، F.O 174/144، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 504.

تفسر الوثيقة بعض أسباب رفض الحكومة البريطانية السماح بتكوين المتعلمين المغاربة ضمن بعض وحدات الأسطول البريطاني. كما يتبيّن من ثنايا كرونولوجيا البعثات التعليمية المغربية تراجع الإقبال المغربي على معاهد التكوين في إنكلترا والتوجه نحو بلدان جديدة كبلجيكا، وتكثيف برامج التأطير العسكري في ألمانيا وإيطاليا.

في مقابل ذلك، ترد إشارة تحدثت عن أن اليابان أوفدت «12 متعلمًا إلى إنجلترا إلا أن الأميرالية لم تكن قادرة على توفير أماكن لهم في مؤسسات تابعة للبحرية الملكية البريطانية»[181]. وبحث اليابانيون عن سبل موازية لحل المشكلة العالقة، وبدلًا من ذلك «تم تعيينهم لدى معلمين ينتسبون إلى البحرية التجارية»[182]. وكان من أبرزهم هايهاشيرو توغو (1848-1934م) الذي أدى أدوارًا محورية في الحروب التي خاضتها اليابان ضد الصين وروسيا القيصرية.

بحلول منتصف الثمانينيات، تزايد اهتمام المخزن بأولوية التكوين في معاهد عسكرية إيطالية؛ ونتوفّر، في هذا الشأن، على وثائق ومراسلات متعددة؛ كما أثار بعض الأفواج إشكالات متعددة، نتناولها في حينها، منها تباين تاريخ إصدار الرسالة المخزنية مع التنفيذ الفعلي بمقتضياتها، ومن ذلك ما ورد في شأن مشروع بعثة عام 1302هـ/ 1884م إلى إيطاليا.

4 - بعثة 1302هـ/ 1884م إلى إيطاليا

مثّلت إيطاليا أحد أبرز البلدان التي استقبلت البعثات التعليمية المغربية، كما توافر لنا في شأنها الكثير من الوثائق (مراسلات مخزنية ومذكرات طلبة)، تبيّن أعداد المتعلمين واختصاصاتهم وسبل إدماجهم في الإدارة المغربية.

تثير أمامنا هذه البعثات بعض الإشكالات المتعلقة بعدد الأفواج التي توجّهت نحوها، وأعوام إيفادها إلى المدن الإيطالية. ويرتبط ذلك بتعدد المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع وبتباين أسماء الطلبة المرشحين

---

(181) Ian Gow, *Military Intervention in Pre-War Japanese Politics: Admiral Kato Kanji and the 'Washington System'* (London: Routledge, 2004), p. 38.

(182) المصدر نفسه، ص 38.

لعملية الانتقاء، كما سنلاحظ ذلك، الأمر الذي فرض علينا تتبع التسلسل الزمني وفحص الوثائق واستنتاج مضامينها باعتماد مبدأ المقارنة بين المراسلات، وتضمينها متن هذا الكتاب تيسيرًا للقراءة والتتبع.

عزم المخزن على توجيه بعثة أخرى تتكون من اثني عشر فردًا، وذلك في عام 1884، ويأتي هذا النص شهادة ثابتة على ذلك: «... وبعد، فقد كان طلب باشدور الطليان من جانبنا العالي بالله توجيه اثني عشر من المتعلمين يكون سنهم من الأربعة عشرة سنة مجادون يتعلمون ببلاده، وعليه فنأمرك أن تدفعهم له من المتعلمين الذين تركهم ولدكم الحاج محمد أصلحه الله بطنجة»[183].

استغلت إيطاليا سياسة المخزن القائمة على مبدأ استغلال التناقضات الدولية، فاستقبلت على أراضيها الكثير من الوفود السفارية المغربية، كما وجّهت بالمثل سفاراتها الدبلوماسية إلى المغرب لرعاية «مصالحها» الاقتصادية.

في هذا الإطار، يمكن فهم موضوع تزايد الوفود التعليمية إلى إيطاليا، خصوصًا بعد الرفض البريطاني استقبال بعثة مغربية للاستفادة من فنون البحر الإنكليزية. ويبدو ذلك من رسالة بعث بها السلطان إلى بركاش، ورد فيها: «.. وبعد، فلا زلنا في انتظار جوابك عما كتبناه لك ... من توجيه متعلمين من الذين تركهم ولدك بطنجة لبلاد الطاليان يتعلمون العلوم التي بينها الباشدور..»[184]. وقد وقع خلط وغموض في شأن هذا الوفد التعليمي والوفد الثالث؛ إذ رأى ميبج أن الفوج الثاني «تألّف من قرابة خمسة عشر طالبًا التحق أكثرهم بالمعهد الدولي بطورينو، ثم انتقل أقلهم إلى أكاديمية ليفورنو البحرية»[185]. ويبدو أنهم كانوا في المغرب إلى حدود عام 1887، بدليل رسالة مؤرخة في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1887 وجّهها الحسن الأول إلى محمد بن

(183) رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى محمد بركاش بتاريخ 13 محرم 1302هـ الموافق 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1884م، م.و.م، الترتيب العام.

(184) رسالة من السلطان المولى الحسن إلى محمد بركاش بتاريخ 3 ربيع الثاني 1302هـ الموافق 20 كانون الثاني/ يناير 1885م، م.و.م، الترتيب العام.

(185) Miège, Vol. 3: *Les Difficultés*, p. 222.

العربي الطريس، ورد فيها: «وصل كتابك بورود المتعلمين عليك المعينين من الرباط وسلا والعرائش للتوجه لبلاد الطليان للتعلم بها..»[186]، وهو ما يجعلنا نميل إلى القول إن الفوج المعني هنا هو الفوج الثالث نفسه الذي سنتحدث عنه لاحقًا، بدليل أن ابن زيدان لم يذكر إلا فوجين اتجها إلى إيطاليا، وذكر أسماء المشاركين فيهما. كما أن الرسالة الأخيرة حدّدت مكان التعيين من الرباط وسلا والعرائش، وهو المنطلق المجالي نفسه لأغلب أفراد بعثة 1887-1888 إلى إيطاليا، كما سنلاحظ ذلك في دراستنا هذه البعثة.

في موازاة الاهتمام بمعاهد التكوين الإيطالية، ركّز المخزن المغربي في جلب السلاح على مؤسسات ألمانية، وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي دفعته إلى تخصيصها ببعض البعثات التكوينية المغربية، منها بعثة 1301هـ/ 1884م.

5 - بعثة 1301هـ/ 1884م إلى ألمانيا

قرر خلال الحسن الأول خلال هذه البعثة توجيه «خمسة طلبة وخمسة عشر عسكريًّا على يد الحاج محمد بركاش لتعلم حرب المدفع الجديد الذي يعمر من وراء لفابركة كروب من إيالة البروص»[187]. وتثار أمامنا هنا أيضًا مسألة الضبط العددي لأفراد هذه البعثة؛ ففي حين أن صاحب العز والصولة تحدث عن 27 متعلمًا[188]، اكتفى في الإتحاف بذكر «بعثة حربية تتركب من أربعة أفراد من طابور الحرابة إلى بلاد الألمان... ثم بعد ذلك بعث بعثة حربية أخرى لبلاد الألمان تتألف من الجنود»[189].

كانت البعثة مصحوبة برسالة اعتماد سلطانية إلى الإمبراطور الألماني غليوم الأول، جاء فيها: «أما بعد، فإن المحبة والصحبة والصداقة وحسن

(186) رسالة الحسن الأول إلى الطريس بتاريخ 17 ربيع الأول 1305هـ - 3 كانون الأول/ ديسمبر 1887م، تطوان 6/ 46.

(187) ابن زيدان، العز والصولة، ص 153.

(188) المصدر نفسه، ص 153.

(189) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 469.

الثقة والاعتقاد الجميل أوجبت توجيه أشخاص نجباء أخيار من هذه الإيالة لبلادكم الرفيعة المصونة بقصد الزيادة في تنقيح ذكائهم وتهذيب أخلاقهم بآداب السياسة العلانية، والعلوم العسكرية والطبجية وما في معناهما التي فقتم بها وانفردتم بتحرير علومها وتدقيقها ومعرفتها على حقيقتها»[190].

تحمل رسالة الحسن الأول هذه أكثر من معنى وهدف، وتسوّغ اختيار القِبلة الألمانية، وتفصح عن علم الحسن الأول وتتبعه عناصر تطور القوة البروسية ومراحله، كما أن فيها حطًّا من قيمة فرنسا؛ ذلك أن انفراد ألمانيا وتفوّقها - في منطق المخزن - لم يكن يعني سوى ضآلة القوة الفرنسية ومحدوديتها داخل منظومة ميزان القوى العسكري الأوروبي، والتي بدأت تتضح معالمها ونتائجها من خلال التحالفات المضادة، حيث شكلت فيها فرنسا وألمانيا قطبيها المتنافرين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لم يكن الحسن الأول غافلًا عن هذه التحولات؛ فقد أُشير سابقًا إلى اطّلاعه على أنباء الحرب الألمانية - الفرنسية (1286هـ/ 1870م)، وكان لذلك «أثر بالغ في تكوين صورة واضحة عن تلك القوة الصاعدة، وتحديد معالم السياسة التي يجب نهجها في العلاقات المستقبلية بين البلدين»[191]. ويبدو أن يابان الميجي انحازت إلى استلهام التجربة البروسية على المستويات العسكرية والدستورية والعلمية، كما سنفصّل ذلك لاحقًا، وهو استلهام يأخذ مشروعيته من تداعيات الهزيمة الفرنسية في حرب عام 1871، ولذا لم يكن مستغربًا أن تتوقف بعثة إيواكارا عند الزخم الثوري والتدفق القومي الذي نجحت بروسيا في تحقيقه، وقيادة باقي المقاطعات الجرمانية إلى خيار الوحدة والتحديث. وينبغي أن يُشار هنا إلى وجود أوجه تشابه متعددة بين البلدين، جعلت إيتو هيروبومي ومعاونيه يفضّلون الأنموذج الدستوري البروسي، وذلك بإدخال بعض التعديلات المحلية، وهو ما سنذكره في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(190) المصدر نفسه، ص 469.

(191) بن الصغير، «المغرب بين النفوذ البريطاني والألماني،» ص 58.

يمكن القول، بناءً على سياق الحوادث، إن إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى أوروبا ارتبط بمبدأ استغلال التناقضات الدولية في شأن المسألة المغربية، خصوصًا بين كلٍّ من ألمانيا وفرنسا. وفي المقابل، تأكد اليابانيون، منذ بعثة إيواكارا، ضرورة اقتفاء آثار الأنموذج البروسي على مستوى بناء الدولة وتطوير الاقتصاد ونسج العلاقات الدولية. وقد رأى اليابانيون بحسّهم الاستخباري والمعرفي في الحالة البسماركية ضالتهم التحديثية المنشودة. وحاولوا، مثلها، وضع المقدمات الدستورية وبناء القوة العسكرية، خصوصًا أن البعثة اليابانية المشهورة تزامن وجودها في ألمانيا مع الاندحار الفرنسي أمام القوات البروسية التي نجحت قبل ذلك في تحقيق الوحدة الألمانية.

إذا كانت التقاطعات موجودة بكثرة بين الأنموذجين، فإن مستقبل العلاقات ترسخت بينهما في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، بالارتماء في أحضان العسكريتاريا والتوسع الإمبريالي ونهج سياسة المحاور والتحالفات العسكرية لتحقيق أهداف قومية متطرفة.

كان اليابانيون يراقبون معالم القوة البروسية ويدرسونها، للاحتذاء والتمثل، وكان المخزن يراقبها ويستقي أخبارها ويوظف ذلك في استغلال التناقضات بينها وبين عدوتها التقليدية والتاريخية - فرنسا. وفي هذا الإطار يمكن رؤية دلالات بعثة المخزن الحسني إلى ألمانيا في عام 1884.

يمكن تحديد أهداف هذه البعثة في بُعدين أساسيين: بُعد تقني يمكّن من الاطّلاع على تقنية استعمال مدافع كروب، وبُعد سياسي يهدف إلى الحد من خطورة تزايد النفوذ الفرنسي، وموازنته بالتلويح بالورقة الألمانية.

أتى إرسال هذه البعثة بعد الأزمة التي خلّفتها سياسة أورديكا، وتهديده القيام بعمل عسكري فرنسي بعد رفض الحسن الأول مشروع السكة الحديد عبر فجيج. وتوسل السفير الفرنسي بمناورات ودسائس مختلفة لاختلاق مسوّغات تسمح لفرنسا ببسط حمايتها على المناطق الحدودية [192].

(192) محمد جوي، «السفارات الأجنبية إلى فاس ومراكش في عهد مولاي الحسن، 1876- =

إذا كانت محاولات أورديغا انتهت بالفشل، فإنها نبّهت المخزن على اتخاذ الاحتياطات اللازمة، خصوصًا بعد احتلال فرنسا تونس في عام 1298هـ/ 1881م وتطلعها إلى إتمام وجودها الاستراتيجي في شمال أفريقيا. وفي هذا الإطار ازداد اهتمام الحسن الأول بالتحديث العسكري، وفضل ألمانيا لتحقيق ذلك، باعتبارها قليلة الاهتمام بالمسألة المغربية، وكانت تبدو، في نظره، أقل خطورة من باقي القوى الأوروبية [193]. ولتحقيق هذا الهدف، قام بركاش برحلات إلى مدينة إيسن (Essen) في الأعوام 1298هـ/ 1881م و1300هـ/ 1883م و1301هـ/ 1884م لإبرام عقود تجارية مع كروب. ونتوفّر على وثيقتين تبيّنان مضمون الاتفاق الذي وقّعه محمد بركاش مع ممثلي شركة كروب بإيسن، وتتضمّن كلٌّ منهما سبع مواد، وتذكر مبلغ الصفقتين وشروط التسليم وضماناته.. [194].

سارع رئيس البعثة العسكرية الفرنسية لوفالوا (Levallois) إلى إخبار وزارة الحربية بأن شركة كروب باعت السلطان مدفعًا جبليًا مع موظف في مكناس، بل أكثر من هذا، قدمت قطعًا أخرى «ومن ثم رأى... أن من مصلحة فرنسا أن تفوّت على الألمان كل فرصة تسمح بتقريبهم من السلطان، لأن الألمان يسعون دومًا إلى ضرب التأثير الفرنسي وعرقلته» [195]. ويبدو أن المخزن كان واعيًا حجم الصراع الفرنسي - الألماني وامتداده إلى الإيالة المغربية، فأرسل وفدًا تعليميًا من 24 شخصًا، منهم تسعة طلاب، وخمسة عشر جنديًا [196].

= 1894»، إشراف محمد الأمين البزاز (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1998)، ص 106 - 120.

(193) Guillen, p. 157.

(194) نص الاتفاق الأول بين محمد بركاش وشركة كروب بتاريخ 2 يوليوز 1884م، والثاني بتاريخ 12 نونبر 1884م، كناش شؤون الجيش، منتوجات الفابركة السعيدة بفاس 1311-1313هـ خ.ح، رقم 210.

(195) بهيجة سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب، 1844-1912**، سلسلة رسائل وأطروحات؛ 1 (الرباط: المطبعة الملكية، 2000)، ص 362.

(196) تم الاعتماد في معطيات الجدول على: بوشعراء، ص 1348-1349.

الجدول (4-9)

أعضاء بعثة 1301هـ/ 1884م إلى ألمانيا

اسم المتعلم	أصله	سنّه
أحمد بن القايد	-	
العربي بن الصديق	-	
محمد الدردب	طنجة	
محمد بن الفقيه بيوض	طنجة	
محمد الفيلالي	طنجة	
محمد سباطة	الرباط	
أحمد الشديد	الرباط	
أحمد بن محمد الحجام	سلا	
محمد بن الحاج محمد النجار	سلا	21 سنة
السباعي البرطاعي		
أحمد الرحماني		
محمد القصري		
ابن الميلود المكناسي		
محمد العوني		
أحمد الحمري		
مبارك العبدي		
محمد الداودي		
العربي المكناسي		
محمد السوسي		
محمد المسفيوي		
سعيد الحمري		
محمد بن الحاج المشتوكي		
محمد الوعدودي		
ابن أبي شعيب الدكالي		

يتضح من خلال الجدول (4-9) تركيز المخزن على مدن دون غيرها؛ فقد اختار شبانًا من مناطق ثغرية ساحلية، وهي المناطق التي كانت مؤهلة لاستقبال مدافع كروب للدفاع عن حدود الشواطئ المغربية ضد التهديدات الفرنسية المتزايدة.

وصل الوفد إلى ألمانيا في آذار/ مارس 1885، وكتب سفيرها إلى بركاش «مغلمًا بوصول المتعلمين المشار إليهم، وأنه عيّن لهم المعلم ومحل التعلم مع تمام الاعتناء، وبيّن ما يلزمهم لصائرهم في كل شهر، وقدره 303 ريال..»[197]. ويبدو أن البعثة رافقتها مشكلات تمويلية واضحة، كما يتضح من رسالة فيبر إلى محمد بن العربي الطريس، ورد فيها ذكْر أحد رجال البنوك في برلين، وهو بورغرز (Burgers) «المكلف على لوازم مصاريف الثلاثة عشر شخص من عساكر السلطان يشتكي من الأمناء هذه المرة الثالثة، ولم يرسلوا له الدراهم الموجبة إلا بعد مراجعتهم مرارًا»[198]. ويبدو من رسالة فيبر إلى محمد بن العربي الطريس، قبول طلب تكوين 16 متعلمًا، مع إلحاحه على مسألة التمويل المنتظم، ورد فيها ما يلي:

«جناب الأجلّ الأمجد الحاج محمد بن العربي الطريس نايب وزارة الأمور البرانية، لازال السؤال عنك، نطلب الله تكون بخير وعافية، وبعد أن كان حضرة السلطان، نصره الله، طلب كتابة من جناب إمبراطور دولة ألمانيا المعظم بقبول 16 شخصًا من عساكر هذه الإيالة لأجل تعليمهم الخدمة العسكرية في برلين، فقد جاء حضر الجواب بقبولهم، فلذلك نرجوكم تخبروا الأمناء ليكونوا على بال لجميع لوازمهم للسفر وإلى الدراهم اللازمة لهم في برلين فاقتضى إعلامكم بذلك، والسلام»[199].

تختلف الأرقام، ويصعب أحيانا الحسم في عدد أفراد البعثات وبنيتها العمرية، لكن أحد أفراد البعثة إلى ألمانيا، وهو المدعو محمد بن الحاج النجار، تدرب وتعلم اللغات في طنجة ونزل بمدينة أولم (Ulm) في جنوب غرب ألمانيا، والتحق بعد ذلك بمعامل كروب. ولما عاد إلى المغرب عُيّن برتبة مقدم للطبجية في طنجة، واشتغل في أيامه الأخيرة بالفلاحة. ولما سئل عما تعلمه قال: «النصارى كايعلموا لعقل والمسلمين كايحفيوه»[200].

---

(197) رسالة النائب بركاش إلى السلطان في 14 جمادى الاولى 1302هـ - 1 آذار/مارس 1885م، محفظة بركاش، وردت في: بوشعراء، ج 4، ص 1349.

(198) رسالة ويبر إلى الطريس في 9 حزيران/ يونيو 1885 - الأول من صفر 1303هـ الخزانة العامة بتطوان، محفظة 48/ 18.

(199) رسالة تيودور ويبير، سفير ألمانيا، إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 27 شعبان 1302هـ - 11 حزيران/ يونيو 1885م، خ.ع.ت، محفظة 18/ 48.

(200) بوشعراء، ص 1349.

يتبيّن من خلال رسالة مخزنية أن محمد بن الحاج النجار اشتغل في سلك الطبجية في طنجة برفقة الطالب أحمد بن محمد الحجام، وانقطعت عنهما المؤونة، وورد فيها: «وصل للعبد الخديم الكتاب الشريف وفيه أمرني أن أوجه الطبجيين الذين كانا يتعلمان ببلاد البروس وظهرت نجابتهما في حرفتهما ومن لدن وردا من هناك، انقطعت عليهما المئونة التي كانا يقبضانها بطنجة من جملة الطبجية التي بها يطلبان من سيدنا أن يأمر بردها لهما ..»[201]؛ فهل انقطعت المؤونة بسبب ما صرح به محمد النجار سابقًا من انتقاد أداء البيروقراطية المخزنية، أم أن وضعية المتعلمين لم تجد طريقها إلى التسوية، فكان ذلك سببًا في ما عبّر عنه من انتقاد مبطن لإدارة تفتقر إلى مبدأ العقلانية كما تمثلها وعاشها في مدة التكوين في ألمانيا؟

عمومًا، هذه إشارة معبّرة عن إشكالية العقلانية كما تمثّلها الطلبة المتعلمون في العالم الغربي وعاشوا ضمن مناخها العلمي والاجتماعي والفكري والسياسي، ولما عادوا إلى بلدهم أدركوا حجم التأخر الإداري والسياسي، وعدم قدرة المناخ البيروقراطي على مسايرة المستجدات وعلى إدخال أنماط التحديث الغربي إلى البيئة المغربية. ومن جانب آخر، لم تتوافر لدى نخب المخزن الإدارية القابلية والقدرة على احتضان الوافد الحديث وإدماجه ضمن سيرورة الإصلاح. ولا شك في أن ذلك أنتج، لدى بعض أفراد البعثات التعليمية، نوعًا من الانفصام والتشكيك في قيم الإصلاح وعدم القدرة على مسايرة التناقض بين شعار الإصلاح ومتطلباته الموضوعية والذاتية.

نجح اليابانيون في منح المعنى التربوي والعلمي لبعثاتهم التعليمية إلى أوروبا والولايات المتحدة؛ فقد امتلك الطلبة الموفدون القدرة على ترجمة مؤهلاتهم العلمية على أرض الواقع السياسي والاقتصادي والقانوني والدستوري والفني.. ومثّلوا الحلقة الأقوى في مد الإدارة اليابانية بعناصر التحديث: فمن بين صفوفهم خرج الوزراء والموظفون السامون وكبار الفنانين والفلاسفة، وشكلوا إحدى الأدوات الأساسية لصناعة التنمية اليابانية في عهد الميجي وتايشو وشوا.

(201) رسالة محمد بن سعيد بتاريخ 20 شعبان 1305هـ - 2 أيار/مايو 1888م، م.و.م، الترتيب العام.

تمتع الطلبة اليابانيون بحرّية واسعة في الاطّلاع على تجربة الغرب الحداثية والتحديثية، واعتبروا أن المنافسة تشتملها عناصر قوتها المختلفة، بما فيها معركة الأيديولوجيا والفن والموسيقى والتشكيل، وحاولوا بناء تصورات محلية تأخذ في الاعتبار حجم التحديات الخارجية وطبيعتها.

حكم محمد بن الحاج النجار على الإدارة المخزنية باللاعقلانية، وهو حكم تؤسسه مجموعة من المقدمات التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا الكتاب.

نثير هنا سؤالًا/ فرضية كالآتي: ماذا كان متوقعًا أن يحدث لو انتسب محمد بن الحاج النجار والزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب الشركي والطاهر الأوديي والحسن الزعري.. إلى إحدى البعثات التعليمية اليابانية؟ ما الفرق بين هؤلاء وباقي أفراد البعثات التعليمية اليابانية منذ نهاية عهد التوكوجاوا إلى نهاية الحرب العالمية الثانية؟ أين يكمن الخلل؟ أفي المتعلمين المغاربة أم في الإدارة المخزنية التي أشرفت على مختلف مراحل البعثات التعليمية المغربية؟

تنبثق النتائج من مقدماتها؛ فهذه البعثات لم تكن سوى تجلٍّ لممارسات إدارية وذهنية وقتية، وبنية مجتمعية لم تكن تؤمن بلغة التغيير والإصلاح الفاعل والمتفاعل. وقد اخترنا في القسم الأول من هذا الكتاب معالجة هذه المقدمات، واعتبرنا ذلك عنصرًا محددًا يجيب عن هذا التساؤل المحوري.

تُعتبر الفترة بين عامي 1885 و1888 مرحلة متميزة في تاريخ إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى أوروبا، تنبّه من خلالها المخزن على أهمية معاهد التكوين في بلجيكا، الأمر الذي دفعه إلى تكثيف إرسالياته إليها في أواخر عهد السلطان الحسن الأول؛ فما هي خصائص هذا البعثات، وما هي طبيعة التكوين التي خضع لها أفرادها؟ وما أبرز النتائج التي حققتها؟

6 - بعثة 1301هـ/ 1884م إلى بلجيكا

أمر الحسن الأول بـ «تعيين عدد من المتعلمين لتعليم الحرب ببر النصارى على يد الحاج محمد بركاش والأمين التازي، فعيّنوا وتوجّهوا من مكناسة،

وأقاموا في التعلم عامين»[202]. ولم يحدد ابن زيدان - على غير عادته - وجهة هذه البعثة، لكن المقارنة بين أسماء أعضائها، مع ما ذكره محمد بن الكعاب، تبيّن أنها توجهت إلى بلجيكا.

في هذا الإطار كتب محمد بن العربي بن المختار إلى النائب الحاج محمد بن العربي الطريس رسالة ورد فيها: «...، وبعد فقد وصل كتابك مخبرًا بما كتبت به لمولانا أيده الله من ورود منيسطر الفرنصيص في اليوم الذي عينت مقترحًا بداءته بسلام المراجع وبينت موجب ذلك وأعلمت بسفر الحاج محمد بركاش مشيرًا بتعجيل توجيه المتعلمين المراد توجيههم لبلاد البلجيك للسبب الذي شرحت، وصرنا من ذلك على بال أجرانا الله على ما عودنا من خفي ألطافه وكفى سيدنا والمسلمين شر كل ذي شر، والمتعلمون سافروا يوم الخميس ثالث شهر تاريخه وأكد عليهم في جد المسير...»[203].

يُثار أمامنا هنا عدد كبير من التساؤلات، ومنها السبب الذي أخّر اهتمام المخزن الحسني بهذه الوجهة إلى حدود هذا التاريخ. كما نلمس في ثنايا الرسالة غموضًا ما فتئ يتكرر في المراسلات المخزنية، ويعبَّر عنه بعبارة «على بال» مسبوقة في النص بعبارة ثانية ورد فيها أمر السلطان بـ«تعجيل توجيه المتعلمين المراد توجيههم لبلاد البلجيك للسبب الذي أشرت». وربطت الرسالة تعيين هؤلاء المتعلمين بتجنب شر معيّن مع ورود الوزير الفرنسي. فما السبب الذي دفع المخزن إلى هذا التعجيل والإلحاح على ضرورة الإسراع في سفر أفراد البعثة إلى بلجيكا؟ هل خضع المخزن لضغوط فرنسية في هذا المجال؟

إن ممّا لا شك فيك أن الدبلوماسية المغربية أرادت استغلال التناقضات الأوروبية، وتأكيد صمود المخزن إلى حدود عام 1306هـ/ 1889م. وفي هذا الإطار، تزايد اهتمام الحسن الأول ببعض الدول التي كان يتوسم فيها الحياد وقلة اهتمام بإيجاد مواطن نفوذ لها في المغرب، وفي مقدمتها بلجيكا.

ضمن هذا المشهد يمكن استنتاج كثافة البعثات التعليمية إلى بلجيكا،

---

(202) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 154.

(203) رسالة محمد بن العربي إلى النائب الحاج محمد الطريس بتاريخ 9 شعبان 1301هـ/ 1884م، خ.ع.ت، محفظة 34/ 111.

والتي استمرت أربعة أعوام متتالية (1301-1305هـ/ 1884-1888م)، فقد «توجه إليها أكثر من ستين متعلمًا... وكانوا ينقسمون إلى ست دفعات»[204].

أورد ابن زيدان قائمة بأسماء المتعلمين، الحاضر منهم والغائب، في متم عام 1305 هـ/ 1888م، فقدّر عددهم بـ 55 متعلمًا[205]. وساهم محمد بن الكعاب الشركي في دور مهم في التعريف بالأفواج الأربعة الأولى، وتكلف بمعية الطاهر الأودي - وهما عضوان ضمن بعثة 1291هـ/ 1874م إلى فرنسا - بمهمة التأطير والترجمة لأفرادها، وهكذا تألفت الأفواج الأربعة الأولى من المتعلمين الواردة أسماؤهم في الجدول (4-10) أدناه[206].

الجدول (4-10)

الفوج الأول

	اسم المتعلم	سنّه	أصله	تخصصه	ملاحظات
1	محمد المنقري أو المنظري	20-30	فاس	الحدادة- تركيب الماكينات وتخديم المخاريط	حاضر
2	أحمد أو محمد الجندي	18	فاس	الحدادة	حاضر
3	إدريس بن وحود	18	فاس	الحدادة	حاضر
4	علي بن قدور الحياني	19	فاس	الحدادة	حاضر
5	محمد بن علي	30	فاس	الحدادة- تركيب الماكينات	حاضر
6	محمد الصفريوي	22	فاس	الحدادة - تركيب الماكينات	قطعت يده في التكوين
7	عبد الرحمن البغدادي	20	فاس	تصفية المعادن	حاضر
8	محمد بن ميمون	26	فاس	صناعةالمدافع- تركيب الماكينات	حاضر

يتبع

(204) بوشعراء، ص 1365.

(205) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 157-160.

(206) تم الاعتماد في وضع هذه الجداول الستة على: ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 157-160؛ بوشعراء، ص 1365-1369، ومعنينو، «ترجمة مختصرة،» ص 224-227.

تابع

9	الحسن الجندي	25-30	فاس	الحدادة- تركيب الماكينات	حاضر
10	حمان بن أحمد المشطون	27-35	مكناس	الحدادة - السراير	؟
11	محمد أو عمر الوعدودي	22	الدار البيضاء	الحدادة- تخديم مكينة النجارة	؟

الجدول (4-11)

الفوج الثاني (1301هـ/ 1884م) (سيران)

	اسم المتعلم	سنّه	أصله	تخصصه	
1	أحمد بن علي العلج	18	مكناس	سرايري*	حاضر
2	محمد الودغيري	25	فاس	سرايري	
3	حماد أو محمد بن التهامي	18	فاس	سرايري	
4	محمد بن الحفيان	18-20	مكناس	زنايدي	حاضر
5	محمد بن الحساين	20	مكناس	زنايدي	
6	محمد المؤذن أو ابن المؤذن	18	فاس	تركيب بابورات البر وسائر المدافع	حاضر
7	حمان بن عبد اللـه المراكشي	26-30	مكناس	الحدادة	حاضر بمراكش
8	المعطي بن إبراهيم السويسي	20-25	مكناس	تصفية المعادن	حاضر بمراكش
9	عبد اللـه بن حماد الزموري	22-30	مكناس	الحدادة	

(*) سرايري، متخصص بصناعة تتولاها الأسرة، وهي البنادق، وكانت تُنسب إليها بعض الأسر، منها أسرة السرايري في الرباط، انظر: محمد حجي [وآخرون]، معلمة المغرب الجزء 15، (الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر؛ مطابع سلا، 2002)، ص 4958.

الجدول (4-12)

الفوج الثالث (1301هـ/ 1884م) (سيران)

	اسم المتعلم	سنّه	أصله	تخصصه	ملاحظات
1	محمد بن العباس أمان	30	مكناس	تخصصوا بحركة بابور البر* أو حركة الماكينات	حاضر
2	محمد بن زروق	25	مكناس		حاضر
3	العرفاوي بن الحاج حميدة	25	مكناس		حاضر

يتبع

تابع

4	العباس بن المصطفى	17	مكناس	تخصصوا بحركة بابور البر* أو حركة الماكينات	حاضر
5	سالم بن إبراهيم	20	مكناس		حاضر
6	بنعيسى بن الرواين	18	مكناس		توفي قبل الخدمة
7	العرفاوي بن عمر	40	مكناس		مرض ورجع إلى المغرب

(*) بابور البر: القطار.

الجدول (4-13)

الفوج الرابع (1302هـ/ 1885م) (لييج)

	اسم المتعلم	سنّه	أصله	تخصصه	ملاحظات
1	إدريس بن محمد زولو الصفار	45	فاس	صناعة القرطوس؛ صناعة المكينات	التحق بمراكش
2	أحمد بن موسى	31	فاس	صناعة القرطوس	التحق بمراكش
3	العرفاوي بن الطاهر النجاري	21	مكناس	تعلم تخديم مكينة القرطوس	التحق بمراكش
4	محمد بن الحاج حمادي	24	مكناس	-	؟
5	المختار بن المكي البطاحي	24	مكناس	صنع المكينات	رجع إلى المغرب
6	المكي بن الحاج الجيلالي بريطل	22	الرباط	تعلم تخديم مكينة القرطوس	عوضًا لكل من المتعلمين الحسين بن أحمد والجيلالي بن أحمد حاضران في مراكش

يتبع

تابع

7	الحاج عبد القادر الركاني	20	الرباط	تعلم استخراج الحديد والهند بالمكينة	
8	المعلم الحسين بن محمد	40	مكناس	-	؟
9	الجيلالي بن الحاج	36	مكناس	-	رجع إلى المغرب
10	الجيلالي بن مبارك	22	مكناس	تعلم تخديم مكينة القرطوس	التحق بمراكش

الجدول (4-14)

الفوج الخامس (1303هـ/ 1886م)(207)

	الاسم	التخصص	ملاحظات
1	محمد حيات البخاري	تعلم تخديم مكينة القرطوس	حاضر في مراكش
2	المحجوب البزيوي	تعلم صنعة قرطوس الصيد	حاضر في مراكش
3	الحاج ابن جبارة النجاري	تعلم صنعة المكينات	؟
4	أحمد بن الحسن	تعلم تركيب بابورات البر وسرائر المدافع	حاضر
5	أحمد المراكشي	تعلم صنعة القرطوس	توفي قبل الخدمة
6	عبد السلام الأوديي	تعلم صنعة القرطوس	؟
7	المعلم محمد المكناسي	تعلم صنعة القرطوس	حاضر
8	المكي بن عبد السلام ولد العنبر	تعلم تخديم مكينة القرطوس	؟
9	الحسن الخلطي	تعلم صنعة القرطوس	حاضر بطابور الحرابة
10	العباس بن قاسم	تعلم صنعة الزنادات	حاضر
11	محمد بن العربي	تعلم صنعة السرائر	حاضر
12	إدريس بن الحداد النجاري	تعلم صنعة المكينات	؟
13	أحمد بن صالح	تعلم صنعة الجعاب(*)	حاضر

يتبع

(207) تألف هذا الفوج من 17 عضوًا، وألفه بركاش الابن، وقد حاولنا الاعتماد على ما أشار إليه ابن زيدان في الإتحاف في شأن أصل بعض المتعلمين من مدينة مكناس: ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 468.

تابع

14	بوسلهام بن حمو	تعلم صنعة الجعاب	الأربعة الأخيرون رُدّوا إلى المغرب لعدم ظهور نجابتهم
15	عبد القادر بن الميلودي	تعلم صنعة الزنادات	
16	بنعيسى بن محمد البخاري	تعلم صنعة السرائر	
17	محمد بن الرامي النجاري	تعلم صنعة السرائر	

(*) صنعة الجعاب: الجَعْبة: كنانة النُّشَّاب، والجمع جعاب. وجعبة البارود آنية لحفظه، بإضافة وتصرف عن: لسان العرب، على الموقع الإلكتروني: <http://www.baheth.info/all.jsp?term=جعاب>.

الجدول (4-15)

الفوج السادس (1303-1305هـ/ 1886-1888م)

	الاسم	التخصص	ملاحظات
1	الحاج محمد بن محمد التاغزوتي الوكيلي	صنعة الزنادات	حاضر في العرائش
2	إدريس بن الطيب الحبيسي	زنايدي	حاضر في العرائش
3	محمد بن ميمون	تعلم صنعة المدافع وتركيب المكينات	حاضر
4	عبد السلام العلمي	؟	
5	إدريس بن الحاج العربي الجعايبي	تعلم صنعة جعاب المكاحل	توفي
6	الحاج محمد لفتة	تعلم صنعة جعاب المكاحل	حاضر بالعرائش
7	أحمد بن الحاج العربي الفيلالي الجعايبي	تعلم صنعة جعاب المكاحل	توفي

يبدو من خلال الجداول (4 - 10/ 11/ 12/ 13/ 14/ 15) المسجلة أن المخزن انتقى أفرادًا حديثي السن ليسهل تعلمهم وتكوينهم، وهي خاصية صبغت مختلف البعثات التعليمية المغربية إلى أوروبا في عهد الحسن الأول.

بخلاف بعثة 1291هـ/ 1874م - مثلًا - لم يخضع أفراد هذه البعثات لتكوين قبْلي في ميدان اكتساب اللغة الأجنبية، ومقدمات العلوم المستهدفة، بل عيّن المخزن لها مترجمَين متمرسَين: محمد بن الكعاب الشرقي والطاهر بن الحاج الأودي اللذان جاءهما الأمر بالسفر إلى بلجيكا في 22 شعبان

1301هـ/ 17 حزيران- يونيو 1884م، بقصد مساعدة هذه الأفواج من الصنّاع المغاربة، وبقي فيها ابن الكعاب إلى حدود عام 1304هـ/ 1887م، بينما رجع الأودي قبل ذلك[208].

فصّل ابن الكعاب في ذكر أسماء المتعلمين وحِرفهم والمدن التي يتحدرون منها وأعمارهم، في حين أننا نفتقد معطيات مماثلة في الفوجين الأخيرين، وإن كنا نرجّح استمرار الخاصية المجالية والعمرية نفسها، اعتمادًا على الاتجاه العام الذي طبع هذه الأفواج.

يتضح أن عدد المتعلمين تجاوز 60 شخصًا، لكن لم يدخل في الخدمة سوى ثلاثة وعشرين، بينما «الباقي سرّح منهم بركاش لصلة الرحم بفاس 13، وبمكناس 10، وحاضر منهم في الخدمة 23، جميع 62، وهؤلاء كلهم تعلموا»[209].

من ضمن الغائبين من توفي قبل الالتحاق بالخدمة، منهم بنعيسى بن الرواين وأحمد المراكشي وإدريس بن الحاج الغربي الفيلالي الجعايبي وأخوه أحمد[210]، ومن ضمن الأفواج الأربعة الأولى نجد أن أغلب المتعلمين كانوا من مكناس (24)، ثم من فاس (14)، والرباط (02)، والدار البيضاء (01)، وهي ظاهرة تلفتنا في مجموع البعثات التعليمية منذ عام 1291هـ/ 1874م، حيث كان التركيز يهمّ مدنًا دون سواها، وهي المدن التي كانت تستقر فيها النخبة المخزنية. كما ركّزت هذه البعثات في مجملها على التعليم العسكري، باستثناء الدفعة الثالثة التي اهتمت بحركة بابورات البر (القطارات) التي تحمل البُعد الوظيفي العسكري. ويدل ذلك على نمط الذهنية الإصلاحية التي حاولت أن تكشف عن «أسباب الغُمّة» العسكرية، وأن تؤسس للإصلاح المنشود.

أجمل صاحب العز والصولة المعلومات المتعلقة باختصاصات هؤلاء المتعلمين، فأورد في هذا الشأن: «... فمنهم من تعلم صنعة استخراج الحديد من المعدن، ثم استخراج الهند من هذا الحديد، ومنهم من تعلم صنعة المدافع،

(208) بوشعراء، ص 1370.
(209) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 155.
(210) بوشعراء، ص 1368.

وما يتعلق بها، ومنهم من تعلم صنعة جعاب المكاحل وتركيبها وطلاء جعابها، ومنهم من تعلم صنعة قرطوسها، ومنهم من تعلم صنعة قرطوس الصيد وقرطوس الكوابيس»[211].

يبدو أن فتنًا سياسية اندلعت في بلجيكا دفعت محمد بركاش إلى كتابة رسالة إلى النائب محمد بن العربي الطريس ذكر فيها: «...، وبعد فقد وصلنا كتابك في شأن المتعلمين الذين كانوا بالبلجيك ووردوا لأجل ما وقع بها من الفتنة فقد وصلوا وهم بصدد التوجه لصلة رحمهم ريثما يرد الجواب الشريف عما قدمناه من الإعلام بورودهم وعلمت ما بينته من سبب قطع المؤنة على البعض ممن هناك من المتعلمين الذين استفهمناك عنهم وهو ما كان صدر من بطالة التعلم ثم رددت ذلك، فنُحبك بإذن الله فيك أن تتفقد أحوالهم فيما يرجع للتعلم ولا تكن تسرح أحدًا منهم للسفر لينضبط أمر تعلمهم في أقرب مدة ممكنة وأخبرنا بعده من هو هناك من المتعلمين للفرنصيصة وعدة المتعلمين للطليان»[212].

تكشف الرسالة عن طبيعة الذهنية المخزنية في مسألة التمويل التي اتسمت ببناء هرمي يتبوأ السلطان قمته، فهو الذي كان يصدر الأمر بالإنفاق، وتكليف بركاش بتبليغ الأمر إلى من كان يسمّى نائب الأمور البرانية، ومن أبرزهم الحاج محمد بن العربي الطريس الذي كان يقدم رسائل السلطان إلى الأمناء المكلفين بتنفيذ المؤونات ومتطلبات التكوين في الخارج، وهو أسلوب تمويلي كفيل بإنتاج أزمة وتعقيد مسطرة التعليم في الخارج، وهو ما تُفصح عنه مذكرة محمد بن الكعاب الشركي أعلاه. كما تتحدث الرسالة عن الانتفاضة التي عرفتها مدينة لييج في 18 آذار/ مارس 1886 تخليدًا لكومونة باريس[213]، ويتضح أنها كانت ثورة عمالية تسببت في مقتل 22 شخصًا، أغلبهم من القاصرين الذين راوحت أعمارهم بين 17 و24 عامًا[214].

---

(211) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 155.

(212) رسالة محمد بركاش إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 24 رجب 1303هـ - 28 نيسان/ أبريل 1886م، خ.ع.ت، محفظة 71/ 67.

(213) Michel Dumoulin [et al.], eds., *Nouvelle histoire de Belgique*, Questions à l'histoire (Bruxelles; [Paris]: Éd. Complexe, 2005), Vol. 1: *1830-1905*, p. 56.

(214) المصدر نفسه، 59.

في هذا الإطار، وانسجامًا مع موضوع البحث/المقارنة، نثير التساؤل الآتي: ما هو الموقف الذي اتخذه المتعلمون اليابانيون من بعض الفتن السياسية والاجتماعية التي كانت تعرفها الولايات المتحدة وأوروبا الغربية في أثناء إقامتهم الدراسية فيها؟ وهل فرضت هذه الحوادث نفسها لدفعهم إلى الرجوع إلى اليابان؟

زارت بعثة إيواكارا كلًّا من فرنسا وألمانيا في عام 1872، أي في العام الذي تلا الحرب بين البلدين؛ وتعلم الطلبة اليابانيون في مؤسسات الغرب التعليمية الجامعية في زمن اشتدت فيه وطأة الأزمات الاجتماعية قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها، ولم يكن ذلك مسوِّغًا لرجوعهم إلى بلدهم بسبب الفتن السياسية والاجتماعية، بل كان مناسبة سمحت لهم بدراسة الظواهر والصراعات السياسية والاجتماعية، وبتوظيفها في دعم علاقات اليابان الدبلوماسية بالقوى الغربية، وفي مقدمها بريطانيا العظمى.

عمومًا، كان لتخصصات المتعلمين المغربيين في بلجيكا دور محدد في إدماج أغلب أعضاء البعثات في دار السلاح في فاس، وهي الدار التي أشرف الإيطاليون على بنائها وتسيير مرافقها.

ونقرأ في رسالة مخزنية أن أفراد باقي البعثات نحو بلجيكا حققوا المراد التعليمي؛ فقد ورد في رسالة مخزنية إلى ساكسو ما يلي: «فقد كنت تكلمت معنا بأن المتعلمين الذين يتعلمون ببلاد البلجيكة حصلوا المراد مما كانوا يتعلمونه وطلبوا الرجوع للحضرة الشريفة...»[215].

يمكن القول إن البعثات التعليمية إلى بلجيكا حققت نتيجة متميزة؛ إذ أُدمج أغلب أعضائها في دار المكينة في فاس. لكن، ما كان موقع المتعلمين المغاربة داخلها؟ وما كان الدور الوظيفي الذي حدده لهم المهندسون الإيطاليون؟ يحتاج الأمر إلى تفصيل الحديث عن دار السلاح في فاس، والمشكلات التي رافقت تأسيسها، وهو ما سنعرض له بالتفصيل لاحقًا.

(215) رسالة مخزنية إلى سكسو في 11 شعبان 1304هـ/ماي 1887م، خ.ع.ت، محفظة 61/121.

انسجم موضوع البعثات التعليمية المغربية مع سياسة استغلال التناقضات التي وظفها المخزن للحيلولة دون انفراد دولة معينة بترسيخ «مصالحها» في المغرب. وعلاوةً على الانفتاح على المعاهد الألمانية والإيطالية، بقيت فرنسا قِبلة مفضّلة لتكوين الأطر المغربية. وفي هذا السياق يمكن فهم دوافع بعثة عام 1302هـ/ 1885م إلى فرنسا.

7 - بعثة 1302هـ/ 1885م إلى فرنسا

أمر الحسن الأول بـ«تعيين 12 لبلاد الفرنصيص لتعلم بارود الديلاميت وتلكراف ونصب القناطر ووضع الحدادة والنجارة لصنع سراير المدافع وكراريط الأثقال... وفيهم طلبة خمسة وصناع سبعة، ومعهم السيد محمد العلج البردقيزي ترجمان»[216]، ويسمّيه جاك كايي «ميغويل دي كاسترو»، وقد اختاره لإتقانه اللغة الفرنسية[217].

سافر الطلبة المغربيون على متن الباخرة الحربية لاريتوز[218] (L'Aréthuse)، وكان معهم عبد الملك السعيدي سفيرًا إلى فرنسا، وورد ذلك في رسالة من المولى الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي الطريس: «...، وبعد، فيرد عليك صحبته الخديم عبد الملك السعيدي المعين للسفارة لدولة الفرنصيص ومعه الكاتب الطالب عبد الواحد ابن المواز المعين للتوجه معه، فنأمرك أن تقف معهما حتى يتوجها والسلام»[219]. كما ألح السلطان على تعيين ترجمان للسفارة، فذكر في هذا الشأن: « ...، وبعد، فنأمرك أن تنظر للخديم عبد المالك السعدي ترجمانًا من طنجة عارفًا باللسان الفرنصوي يترجم له بباريز...»[220].

(216) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 154.

(217) Caillé, p. 132.

(218) بوشعراء، ج 4، ص 1375.

(219) رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 21 شعبان 1302هـ - 5 حزيران/ يونيو 1885م، خ.ع.ت، محفظة 3/ 110.

(220) رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 24 شعبان 1302هـ - 8 حزيران/ يونيو 1885م، خ.ع.ت، محفظة 3/ 113.

فما هي العلاقة بين السفارة والبعثة التعليمية المغربيتين؟ وهل كان موضوع البعثة التعليمية ضمن محاور التفاوض مع الفرنسيين في باريس؟

تجمل رسالة أخرى وجّهها الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي الطريس مطالب السفارة دون الإفصاح عن مضمونها؛ فقد نوّه من خلالها بالدور الذي قام به السفير فيرو في تيسير مهمة البعثة المغربية وقال عنه: «...، ووعد بالوقوف في تصفية المطالب التي صحبها معه السفير وكلفته دولته بها والسعي في الخير بين الجانبين...»[221].

اعترف كايي بقلة معلوماته عن أفراد هذه البعثة، كما أن بعض الأسماء التي أوردها يختلف قليلًا عمّا ذكره صاحب العز والصولة. وإجمالًا يمكننا وضع لائحة بأسمائهم، مستعينين بما أورده ابن زيدان[222] وبوشعراء[223]، وما ذكره جاك كايي[224].

الجدول (4-16)

أعضاء بعثة عام 1302هـ/ 1885م إلى فرنسا

المتعلم	أصله	سنّه
محمد بن عبد الرحمن المراكشي	مراكش	23
صالح بن محمد التدلاوي	-	
عبد اللـه بن العربي بن مالك الأوديي	الرباط	
علال بن محمد البخاري التروكي	-	
محمد بن سعيد القرقور الفاسي	فاس	
محمد بن دحمان	تطوان	
أحمد بن عبد الرحمن	تطوان	
محمد بن أحمد الحسايني	أصيلا	

يتبع

(221) رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب الطريس بتاريخ 2 محرم 1303هـ - 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1885م، خ.ع.ت، محفظة 4/ 2.

(222) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 154-155.

(223) بوشعراء، ص 1377-1378.

(224) Caillé, pp. 131-135.

تابع

عمر بن محمد المسفيوي	آسفي		
محمد الهواري المسفيوي	آسفي		
العربي بن الحاج عبد السلام	مازكان (الجديدة)		
محمد بن عبد الرحمن الزواوي	آسفي		

انفردت هذه البعثة عن غيرها بتعدد مناطق اختيار أفرادها، وهذا بخلاف ما لاحظناه بالنسبة إلى بعثات سابقة كانت تركز على مدينة واحدة أو مدينتين.

تمثّلت أحوال هذه البعثة في عزم مولاي الحسن «ألا تنحصر مهمة تكوين الطلبة المغاربة بالخارج على الإنجليز فقط»[225]، خصوصًا في جبل طارق. لذا نرى أن فرنسا استغلت هذا العزم، فقرر رئيس البعثة العسكرية الفرنسية القائد لوفالوا (Levallois) «الاستعداد لتوقّع يوم يقدم فيه السلطان على إسناد تدريب كتائب جديدة إلى فرنسا، مع الحرص على سحب المبادرة في هذا الصدد من الإنجليز»[226]. وبخلاف البعثات الأخرى، فإن مجموعة مونبولييه (Montpellier) تفصح بشكل جلي عن نوعية التعليم الذي خضعت له، فقد «كانت فترات الدراسة في الصباح والمساء على امتداد أيام الأسبوع كلها، ماعدا الجمعة والأحد»[227]، وكان الطلبة يمضون الصباح «في دراسة اللغة الفرنسية والحساب والهندسة التطبيقية، أما دروس العشي فقد كانت مخصصة - مبدئيًا - للعلوم التطبيقية»[228].

كان التدريب التطبيقي «يركز على إطلاق النار ووضع الألغام والتمرين على الرمي بالمدفعية وحفر الخنادق وإنشاء التحصينات الميدانية»[229]. ويبدو أن نوعية العلوم المستهدفة كانت كثيفة، وممتدة على حيّز زمني واسع، ولم يستطع نصف أعضاء البعثة مجاراتها؛ فقد أشار كايي إلى أن ستة طلبة فقط كان بإمكانهم مواصلة الدراسة. وفي 7 كانون الثاني/يناير 1886 اقترح

(225) سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، ص 362.

(226) المصدر نفسه، ص 362.

(227) Caillé, p. 136.

(228) المنوني، ج 1، ص 175.

(229) سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، ص 363.

الكولونيل ريونديل (Riondel) على فيرو إرجاع الستة الباقين إلى المغرب واستبدالهم بآخرين، لكن طلبه لم يرشح بشيء يُذكر[230]. ونعرف أن بعضهم أُعيد بالفعل إلى المغرب، منهم محمد بن دحمان وأحمد بن عبد الرحمن اللذان «كانا معًا أميين قليلي الحظ من النباهة، لا يسايران ما يتلقيانه من دروس، ولأجله أشار الترجمان بردّهما إلى المغرب لأن اختيار السلطان إياهما لم يكن موفقًا»[231].

يشير ذلك إلى أوجه الخلل التي عانتها المنظومة التعليمية في المغرب؛ ذلك أن غياب المؤسسات التربوية القارّة حدَّ من الاختيار السليم والفاعل لأفراد البعثات التعليمية إلى أوروبا. كما غاب الأداء المهني لدى المشرفين على عمليات الانتقاء، وتجلى ذلك في عدم نجابة كثير من المتعلمين الموفدين إلى الخارج، كما يتضح من المراسلات المخزنية الكثيرة التي اعتمدناها في هذا الكتاب.

إضافة إلى ذلك، أصيب أحد أفراد البعثة بالمرض، ودليل ذلك رسالة وجّهها المولى الحسن الأول إلى الأمين محمد الزكاري، ورد فيها: «...، وبعد، وصل كتابك بأن أحد المتعلمين بباريز اختل مزاجه وردّه المكلف بهم لطنجة على يد باشدور الفرنسيس فأنزله الأمناء ونفذوا له المئونة ريثما يرد جوابنا عنه...»[232]. فما السبب الذي أدى إلى اختلال مزاج الطالب المذكور؟ هل يكمن في عدم قدرته على مسايرة الدروس والتدريبات التي اتسمت بالكثافة فتعرّض لنوع من الضغط النفسي، أم أن عملية الانتقاء الأولي لم تكن مدروسة؟

من جانب آخر، يذهب بعض الباحثين إلى أن الطالب محمد بن عبد الرحمان المراكشي كان مخبرًا للمفوضية الفرنسية[233].

تكلف المخزن بتمويل عملية التكوين؛ ففي رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، قال: «و... جُعِل لكل واحد منهم في مئونته

---

(230) Caillé, p. 138.

(231) بوشعراء، ص 1378.

(232) رسالة المولى الحسن الاول إلى الأمين الحاج محمد الزكاري بتاريخ 27 جمادى الثانية 1305هـ/ 10 فبراير 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 87.

(233) Miège, Vol. 4: *Vers la crise*, p. 96.

خمس ريال وللترجمان ريال وخمس ريال. فاجتمع في مثونة ستة أشهر بحساب ذلك خمسة آلاف وأربعمائة من الفرنك...»[234].

تميزت بعثة مونبولييه عن غيرها من البعثات أيضًا بقلة انضباط أغلب أفرادها، كما يتضح ذلك من الجدول (4-17) الآتي[235]:

الجدول (4-17)

لائحة العقوبات التي نالها أغلب أعضاء بعثة عام 1302هـ/ 1885م في فرنسا

الطالب	نوع العقوبة	سببها
محمد المراكشي	عوقب 8 مرات وسُجن مدة 65 يومًا	خبث سيرته، وإضرابه عن الدراسة، والمبيت خارج المدرسة، والشجار مع الطلبة
صالح بن محمد التدلاوي	سُجن مرتين مدة 9 أيام	التأخر ليلًا في المدينة، ومخالفة قوانين الانضباط
عبد الله بن العربي بن مالك الأوديي	أُدّب 4 مرات وسُجن مدة 20 يومًا	المبيت في المدينة، وخبث السيرة، والإضراب عن الخدمة
علال بن محمد النجاري التروكي	سُجن مرتين مدة 6 أيام	الخصام والعصيان
محمد بن سعيد القرقور السوسي	سُجن سبع مرات لأكثر من 21 يومًا	التغيب، والخصام مع الطلبة، والعصيان والتزوير على بعض المدربين
محمد بن دحمان	سُجن مرة واحدة لمدة 15 يومًا	خبث السيرة، وتهديده الترجمان

يتبع

(234) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، في 10 ذي الحجة 1302هـ/ 21 غشت 1885م.،خ.ع.ت، محفظة 3/ 146.

(235) اعتمادًا على ما ذكر في: بوشعراء، ص 1378-1379، و Caillé, pp. 131-145.

تابع

محمد بن أحمد الحساني	سُجن ثلاث مرات عدة أيام	خبث السيرة، والشجار وضرب بعض رفاقه
العربي بن محمد المسفيوي	حُبس مرتين مدة 12 يومًا	خبث السيرة والإضراب عن الخدمة
العربي بن الحاج عبد السلام	عوقب بالمدرسة	الشجار، والسرقة، والعربدة
محمد بن عبد الرحمن الزواوي	عوقب أربع مرات	العصيان، والعربدة، والتمارض، والعدوان على العفاف

يمكن القول، من خلال هذه المعطيات، إن أفراد هذه البعثة لم يكونوا متفقين إلا على إحداث الشغب والفوضى، والاستغراق في الخصومات والعربدة وقلة الانضباط، والعمالة للفرنسيين. وافتقدوا همة التحديث والبوصلة المحددة لاتجاهه وأساليبه؛ فلم يكونوا، بناءً عليه، سوى أجزاء متنافرة، مبثوثة في رقعة تحديثية نسجت خيوطها بشكل عشوائي وبمضمون عبثي.

تبدو عناصر الفشل جليّة في مقدماتها الأولى. وقد تجنب المنوني الحديث عن هذه العناصر السلبية، مكتفيًا بذكر مؤشرات اليقظة، وكان يظن - رحمه الله - أنها تتأسس على إبراز عناصرها الإيجابية، ملغيًا كل ما يشوش عليها من إيحاءات سلبية. لكن، أليس من الملائم - في عملية البناء الحضاري - إبراز العلل، وذكريات الماضي المكلوم، من أجل فهمها بطريقة صحيحة ونقدها، والتأسيس لبدائلها الملائمة؟ وهل شهد المغرب بالفعل يقظة فكرية خلال القرن التاسع عشر؟ فاليقظة تدل على الانتقال من لحظة النوم والخمول إلى الفعل والحركة الواعية في المجال والزمن، فما هي تجليات ذلك على مستوى الرد على التحديات الغربية المختلفة والمتباينة؟

في المقابل، كانت اليابان تعيش بالفعل حالة اليقظة التي أحدثت، بسبب حملة العميد البحري بيري، زلزلة شعورية في مختلف مكوّنات البلاد السياسية والمجتمعية، وفرضت في إثر ذلك الخروج من سبات العزلة والتأسيس

لمخارج القوة، فتحولت اليقظة إلى صحوة واعية وفاعلة في حلبة النزال الحضاري مع الغرب ورموز قوته.

لم تكن بعثة مونبولييه ناجحة بأي معيار من المعايير. وفي هذا الصدد تقول سيمو إن «هناك مجموعة من العوامل أسهمت في إفشال هذه التجربة، من بينها معاناة هؤلاء الطلبة من ظاهرة الاغتراب... وصعوبة اندماجهم في المحيط الجديد... وضعف مستواهم أحيانًا»[236].

لا أتفق مع من يربط إخفاق البعثة بظاهرة الاغتراب؛ ذلك أن البعثات السابقة كانت تمضي مدة أطول في بلدان أبعد، وحققت نتائج إيجابية تفوق كثيرًا ما أنجزته بعثة مونبولييه من نكبات وتراجعات، ودليل ذلك البعثات التي أرسلت إلى بلجيكا، وكان من ضمن مؤطريها محمد بن الكعاب الشركي، وكذلك البعثات التي أرسلت إلى إيطاليا، وكان من أبرز متعلميها الحسين الزعري الذي أمضى نحو تسعة أعوام باحثًا عن المعرفة التطبيقية وإتقان اللغات، ومنها الإنكليزية والإيطالية والإسبانية[237].

يكمن أهم العوامل التي تفسر هذا التراجع في غياب تكوين قبْلي في المغرب، وعدم وجود معايير دقيقة في انتقاء المتعلمين؛ فما عادت مدرسة طنجة تقوم بهذه الوظيفة، كما افتقر المخزن إلى مؤسسات تعليمية تكفل استمرارية العطاء العلمي وإنتاج عناصر النبوغ الدراسي في المغرب ومعالم اليقظة الفاعلة.

سبق أن أشرت إلى كثافة انفتاح المخزن على معاهد التكوين في إيطاليا، فأرسل إليها بعض المتعلمين من مدن مغربية معيّنة. وأثارت هذه البعثات الكثير من الإشكالات، ومن أبرزها بعثة 1305هـ/ 1887. فما هي ظروف هذه البعثة؟ وما هي الإشكالات التي أثارتها؟ وما هي أبرز مميزاتها والنتائج التي حققتها؟

---

(236) سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، ص 364.

(237) خصّصنا محورًا لهذه البعثة التي توجهت إلى إيطاليا في العام 1887/ 1888.

8 - بعثة 1305هـ/ 1887م إلى إيطاليا

أثارت بعثة عام 1887 إلى إيطاليا الكثير من الإشكالات، وتُعَدُّ من أهم البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوروبا. كما نتوفّر في شأنها على عدد كبير من الوثائق والمراسلات. وقد كتب بعض أعضائها مذكرات تُفصح عن معلومات تتعلق بأوضاع التكوين والدراسة، وتتطلب قراءة متأنية للخروج باستنتاجات ملائمة [238].

تحدث ابن زيدان عن اتفاق الحسن الأول «مع حكومة إيطاليا على إرسال بعثة علمية تتركب من ثلاثة عشر من الطلبة من أبناء بعض المراسي للمدرسة الدولية بمدينة طورين بقصد تعلم اللسان والفنون العسكرية والملاحة... ومكثوا هناك عاكفين على التعلم خمسة أعوام، وكان منهم من الرباط السيد أحمد الجبلي والسيد محمد بن الحاج علي بن طوجة، والسيد محمد بن سالم والسيد

---

(238) تناول عدد محدود من الباحثين المغاربة موضوع هذه البعثة، منهم جمال الحيمر، وتطرق إليها بأسلوب وصفي غابت عنه وثائق الخزانة العامة في تطوان التي تعالج بعض الإشكالات التي لازمت البعثة، فجاء تحليله مختصرًا في أقل من ثلاث صفحات. واهتم مصطفى بوشعراء بالاستيطان والحماية بجرد أكبر عدد من الوثائق وتقديم بعض المعلومات بأسلوب وصفي، في حين ركزت بهيجة سيمو على مذكرات المتعلمين (العيدوني والزعري وابن طوجة) وعلى بعض الوثائق والمراسلات، ولم تعتمد على المراسلات التي كان يستقبلها محمد الطريس من الدوائر المخزنية المختلفة، وهي مراسلات قمينة بالكشف عن بعض الإشكالات الملازمة لهذه البعثة.

من جانب آخر، نستنتج تداخلًا بين أول بعثة مغربية إلى إيطاليا (1874) وبعثة عام 1887-1888 لدى بهيجة سيمو، الأمر الذي أنتج اضطرابًا في المعنى؛ فقد أوردت الباحثة في الباب الثالث فصلًا أول بعنوان «من البعثات الطلابية إلى البعثات العسكرية». ووضعت عنوان «البعثة الطلابية إلى إيطاليا 1887م»، وتطرقت فيه إلى مذكرات أحمد العيدوني والحسين الزعري وحاولت المقارنة بينهما، وختمت ذلك قائلة: «... فهما لم يقفا عند انطباع الطلبة المغاربة من صدفة اللقاء بحضارة أخرى».

وجاء هذا واضحًا في الرسالة التي وجّهها هذا الفوج إلى محمد بركاش، والتي تقتصر في أخبارها على حسن الاستقبال، ولا تدلي بأي نوع من الانبهار الحضاري، إذ يقول هؤلاء الطلبة: «واعلم وفقك الله لما فيه رضاه أننا دخلنا مدسة (مدرسة) المخزن... انظر: سيمو، **العلاقات المغربية الإيطالية**، ص 405. وهي الرسالة التي وجّهها كلٌّ من الطلبة المختار الرغاي وعبد السلام بن الجيلاني ومحمد بناني إلى محمد بركاش بتاريخ 23 ربيع الثاني 1298هـ - 25 آذار/ مارس 1881م، م.و.م، الترتيب العام، وأثبتناها ضمن بعثة عام 1874، (ص 391). ولم تُتم عام 1296هـ كما أوردت الباحثة المغربية. ويخيل للقارئ أن الطلبة الثلاثة المذكورين كانوا من ضمن بعثة عام 1887، وهو ما تنفيه الوثائق والوقائع.

محمد بن العياشي والسيد محمد البهالي، وكلهم أخذوا فنون البحرية، إلا أولهم فإنه أخذ المدفعية وكان منهم من سلا السيد الحسين الزعري... أخذ علم السياسة، والسيد العربي حركات والسيد عبد الله التيال والسيد محمد بن حيمي والسيد محمد بن إسماعيل وكان منهم من العرايش السيد فضول بن صالح والسيد مصطفى الأوديي والسيد علي السوسي»[239].

أثارت البعثة الكثير من الإشكالات والخلافات بين الدارسين المحدثين سنعرضها في حينها؛ فقد أرّخ لها صاحب **الإتحاف** بعام 1295هـ/ 1878م، في حين سجّل الحسين الزعري في مذكرته[240] أن تاريخ إرسالها كان في 3 أيلول/ سبتمبر 1888 (1306هـ)، وتشير نحو ذلك التاريخ مذكرة بن طوجة[241] بقولها إن السفر حصل في عام 1304هـ/ 1887م، وهي المعلومة نفسها التي قدمها أحمد العيدوني حين ذكر: «... وها أنا ذا على متن الجوالة الإيطالية كاريبالدي في طريقها إلى إيطاليا يوم 24 نونبر [تشرين الأول/ نوفمبر] 1887»[242].

جمع ابن زيدان ضمن هذه البعثة كلًّا من الحسن الزعري وعلي بن طوجة وأحمد الجبلي العيدوني. وهو ما فعله محمد المنوني عند إيراده نص/ مذكرة الطالب الحسين الزعري. ونقرأ في رسالة مخزنية عبارة تدل على وجود فوجين؛ فقد خاطب المولى عبد العزيز محمد بن العربي الطريس قائلًا: «وبعد، وصل جوابك بتوجيهك الطالب المكي الرباطي الذي كان توجّه من جملة

---

(239) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ص 467-468.

تتكرر إشكالية ما فتئت تتردد لدى ابن زيدان، إذ يورد عام إصدار الأمر أو الاتفاق السلطاني الذي تنفذ مقتضياته في عام آخر، وهو ما لاحظناه بخصوص بعثة عام 1874، حين تباينت أعوام التحاق الأفواج الخمسة بكلٍّ من بريطانيا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وتتطلب المسألة مقارنة ذلك بالوثائق ومذكرات الطلبة المشاركين في البعثات.

(240) أحمد معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة،» **دعوة الحق**، السنة 12، العدد 1 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1968)، ص 143-148.

(241) أحمد معنينو، «القائد محمد علي بن طوجة الرباطي في عهد الحسن الأول وعضو البعثة العلمية الثانية لإيطاليا عام 1887،» **دعوة الحق**، العدد 275 (1989)، ص 253.

(242) مذكرة أحمد الجبلي العيدوني، أوردها وترجمها من الفرنسية إلى العربية: بوشعراء، ج 4، ص 1394.

الطلبة الموجّهين لإيطاليا في الرفقة الثانية بقصد التعليم...»[243]، فما المقصود بالبعثة الثانية، وما أسباب اختلاف تحديد عام السفر ومكان الدراسة في إيطاليا؟

خضعت البعثة لعدد من التعديلات؛ فقد وردت رسالة مخزنية تتحدث عن طلب السلطان إضافة متعلمَين آخرَين إلى أفراد البعثة هما محمد القجيري السلاوي والغازي بن محمد الزعري[244]. ويبدو من رسالة محمد بركاش إلى النائب محمد الطريس أن المخزن قام، لإيفاد هذه البعثة، بانتقاء الكفاءات المؤهلة للدراسة في إيطاليا، إذ ورد فيها: « ...، ونحبك أن تتكلم مع المكلفين بتعليم الأولاد بأن يبينوا لك من لا يقبل التعليم لترده ونوجه بدله..»[245].

كما ذكرت الرسالة اسمَي الطالبين محمد القجيري السلاوي والغازي بن محمد الزعري، وذكر فيها محمد بركاش: «...، وبعد، فقد وجّهنا لك بالأمس صحبة البابور تسعة نفر من الأولاد المتعلمين، سبعة منهم تتمة العدد 15 المعين قبل، واثنان أحدهما من الرباط والآخر من سلا هما اللذان طلب باشدور الطليان زيادتهما أخيرًا»[246].

يبدو أن أسماء المتعلمين الآخرين وردت في رسالة مخزنية سبق ذكرها، خاطب فيها بركاش النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس بقوله: «...، وبعد، فالمسمون بطرته تتمة الخمسة عشر من المتعلمين الرباطيين، وقد كتبنا للأمناء بأن يكسوا الخمسة عشر[247] المذكورين بأجمعهم مما توفر من مؤونة هؤلاء الثمانية من يوم تعيينهم...»[248].

---

(243) رسالة المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس بتاريخ 3 رمضان 1313هـ - 27 شباط/ فبراير 1896م، خ.ع.ت، محفظة 145/ 14.

(244) رسالة محمد بركاش إلى النائب السلطاني محمد الطريس بتاريخ 3 رمضان 1303هـ - 5 حزيران/ يونيو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 82/ 71.

(245) رسالة محمد بركاش السابقة إلى النائب محمد الطريس، بتاريخ 11 شوال 1303هـ - 13 تموز/ يوليو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 71/ 99.

(246) الوثيقة نفسها.

(247) سبقت الإشارة إلى عدم دقة الوثائق والمصادر في تحديد عدد أفراد المرشحين للدراسة في إيطاليا ابتداءً من عام 1886: فعند مقارنة الأسماء الواردة في الرسالتين نجد تكرار بعض الأسماء، وهم عبد الكريم بوهلال ومحمد الريفي ومحمد الشيحان، الأمر الذي يجعل العدد لا يتجاوز الثلاثة عشر متعلمًا.

(248) رسالة محمد بركاش إلى محمد الطريس بتاريخ 16 رمضان 1303هـ - 18 حزيران/ =

لم يكن اختيار المخزن لهؤلاء موفقًا، فمن وجدت فيه شروط التعلم منعه أهله من السفر. ويتضح ذلك من رسالة مخزنية قال فيها محمد بركاش: «وكل من توفرت فيه الشروط لا يسمح به أهله، ولا يخفاك كثرة الشفعاء الذين يتعين قبول شفاعتهم»[249]. ويفسر ذلك بكون أغلب المتعلمين الواردة أسماؤهم في الرسائل الثلاث الأخيرة لم يُرسَلوا إلى إيطاليا. وربما يكون ذلك سببًا دفع السفير الإيطالي إلى التدخل المباشر لانتقاء أفراد البعثة.

من جانب آخر يتبيّن، من خلال رسالة سلطانية (1886م) سبق ذكرها، أن المخزن اختار 12 متعلمًا للذهاب إلى إيطاليا، إلا أن السفير الإيطالي أفاد بأن «المتعلمين الاثني عشر من أهل الرباط وسلا لم توجد فيهم قابلية التعلم لكبر سنهم»[250]. ويستأنف السلطان الحسن الأول قائلًا: «فكلّفناه بتوجيه نائبه... بقصد انتخاب أربعة من أنجب ولْدان أهل سلا، الذين سنهم من الاثنتي عشرة سنة إلى الثلاثة عشرة سنة.... وقد كتبنا لعامل الرباط بأن يحضر له عددًا من أنجب ولْدانها من السن المذكور لينتخب منهم ستة»[251]. وقال الزعري في مذكرته إن السفير الإيطالي جنتيلي قام «بجولة لانتخاب الفتيان المرشحين للذهاب إلى إيطالية، فاختار من مدينة الرباط عشرة، ومن سلا خمسة، ومن العرائش أربعة، ومن طنجة ثلاثة، ومن فاس اثنين»[252]. وهو يشير بذلك إلى 24 متعلمًا، لكن اللائحة التي أوردها لا تتضمن سوى 21 متعلمًا. كما نقرأ في رسالة سلطانية بأن خمسة عشر متعلمًا كانوا في إيطاليا في 18 ربيع الثاني 1305هـ/ 3 كانون الثاني- يناير 1888[253].

= يونيو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 88/ 71.

(249) رسالة محمد بركاش السابقة إلى النائب محمد الطريس، بتاريخ 11 شوال 1303هـ - 13 تموز/ يوليو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 71/ 99.

(250) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، بتاريخ 9 صفر 1304هـ - 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1886م، من وثائق آل ابن سعيد، أوردها: المنوني، ج 1، ص 189.

(251) المصدر نفسه.

(252) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143.

(253) رسالة السلطان الحسن الأول التي سبق ذكرها إلى محمد الطريس، بتاريخ 18 ربيع الثاني 1305هـ - 3 كانون الثاني/ يناير 1888م، خ.ع.ت، محفظة 46/ 6.

تشير الوثيقة/ المراسلة أعلاه إلى أن خمسة عشر متعلمًا كانوا يدرسون في إيطاليا عام 1305هـ/ 1887م، وأورد الحسين الزعري في مذكرته لائحة تضم 21 طالبًا، وأورد هذه المعلومة بقوله: «وفي السنة الثالثة استدعانا مدير المدرسة وقرأ علينا أمرًا ورد من جلالة مولانا السلطان عن طريق نائبه بطنجة وسفير إيطالية... وأخبرنا أن مولانا يريد أن نتفرق على ثلاث فئات...»[254]، وهو قول يدل على أن عدد المتعلمين ارتفع من 15 إلى 21 طالبًا خلال ثلاثة أعوام. ونريد انطلاقًا من هذه المقدمات المشاركة، لا الحسم، في النقاش الذي أثارته هذه البعثة وهذه الأرقام:

ينسجم تاريخ الرسالة مع ما أورده أحمد الجبلي العيدوني الرباطي في مذكرته، حين قال: «...، قرر السلطان مولاي الحسن أن يوجّه للتعلم بإيطاليا أطفالًا مغاربة، وها أنا ذا قد انتخبت ضمن الخمسة عشر المختارين، وها أنا ذا على متن الجوالة الإيطالية كاريبالدي في طريقها إلى إيطاليا يوم 24 نونبر [تشرين الثاني/ نوفمبر] 1887، وعند وصولنا إلى جنوة يوم 27 نونبر [تشرين الثاني/ نوفمبر] 1887...»[255] وللمقارنة بين المذكرتين، يمكن الاستعانة بالجدول (4-18) التوضيحي الآتي:

الجدول (4-18)

مقارنة بين مذكرة الحسين الزعري ومذكرة العيدوني

	مذكرة العيدوني	مذكرة الزعري
مرحلة التهيؤ للسفر في طنجة		التوجه إلى طنجة في الأول من أيلول/ سبتمبر والمكوث فيها 18 يومًا.
تاريخ بداية السفر	الانطلاق من طنجة إلى إيطاليا في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1887	السفر من طنجة 18 أيلول/ سبتمبر 1888

يتبع

(254) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 144.
(255) أورد نصها باللغة الفرنسية وترجمها إلى اللغة العربية: بوشعراء، ج 4، ص 1394.

تابع

الوصول إلى إيطاليا	الوصول إلى جنوة في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1887	الوصول إلى جنوة 20 أيلول/ سبتمبر 1888
السفينة	كاريبالدي	الباخرة الحربية دوندولو
الاستقبال	أوغستينو دي كروسي	أوغستين دي قروصي
بداية التكوين وأطوار الدراسة	وصل إلى تورينو في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1887	وصل إلى تورينو في 21 أيلول/ سبتمبر 1888
	- ركز على شخصيته ومراحل تكوينه - التحق بمدرسة المشاة في مودينا في تشرين الأول/ أكتوبر 1891 - نجح في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية لضباط المدفعية والهندسة الحربية في ورينو؛ تشرين الأول/ أكتوبر 1892 - 15 تموز/ يوليو 1895	- تعلم مبادئ اللغة العربية واللغة الإيطالية - الانتقال من طور إلى طور - حديثه عن أمر السلطان بتفريق المتعلمين إلى ثلاث فئات: - فئة لدراسة تربية الجنود - فئة لتعلم علوم البحار - فئة لتعلم صناعة السلاح
الرجوع	رجع إلى المغرب واستخدم في مخزن السلطان عبد العزيز بصفته مهندسًا، شارك في الحملات الحربية للمخزن ضد الشاوية في عام 1897.	مكثت البعثة في إيطاليا مدة 8 أعوام، ورجع إلى المغرب الضباط والضباط العسكريون وصانعو السلاح. تأخر العيدوني في الرجوع بسبب انخراطه في المدرسة العليا في مدينة تورينو، أمره بعدها الصدر الأعظم أحمد بن موسى بالرجوع إلى المغرب في عام 1898.

اعتمد مصطفى بوشعراء على مذكرات الطلبة الثلاثة (العيدوني والزعري وابن طوجة)، واستنتج من أسماء السفن التي أقلّتهم وجود فوجين: فوج أول تألف من خمسة عشر طالبًا «التحق أغلبهم بالمعهد الدولي بطرينو ثم انتقل أقلهم إلى أكاديمية ليفرنو البحرية»[256]، وكان من بينهم أحمد الجبلي العيدوني

(256) بوشعراء، ج 4، ص 1355.

ومحمد بن علي ابن طوجة؛ أما الفوج الثاني فغادر، في نظره، مدينة طنجة في أواخر عام 1888[257].

تتطابق معطيات ما لخّصناه في الجدول السابق مع ما ذكره بوشعراء. وعقّبت بهيجة سيمو على ذلك بقولها: «على الرغم من توفّر مادة علمية (مهمة) في الموضوع وقع خلط في تاريخ إرسال الأفواج إلى إيطاليا، كما وقع تباين في مدة إقامتهم عند بوشعراء»[258]. لكن الباحثة المتخصصة في الأرشيف الإيطالي لم تقدم حججًا تدعم مقولتها، واكتفت بصوغ عبارات تقارن بين مذكرة كل من الجبلي العيدوني والحسين الزعري، ولم تقدم حججًا تعضد بها مقولتها واعتراضاتها.

يتبيّن لنا من المعلومات التي أوردتها في الجدول السابق وجود اختلاف في تاريخي انطلاق البعثين، بدليل ذكر المتعلمين سفينتين مختلفتين أقلّتهما من طنجة، وإيرادهما تواريخ متباينة في أثناء محطتي الانطلاق من طنجة والوصول إلى إيطاليا. ويحتاج الأمر إلى تمحيص وتدقيق في المصادر التي اعتمدها أحمد معنينو في تدوين مذكرة الطالبين المذكورين؛ ذلك أنه لم يحافظ على النص الأصلي للوثيقتين، بل أضاف إلى متنهما عبارات من إنشائه.

إجمالًا أقول، إن بعثة 1887-1888 هي عبارة عن فوج تعليمي واحد تباينت أعوام وصول أعضائه إلى إيطاليا خلال مدة قصيرة، وهو بخلاف ما أوردتُه بخصوص أول بعثة تعليمية مغربية إلى أوروبا؛ فإذا كانت الرسالة السلطانية الآنفة الذكر أرّخت لها بعام 1874، فإن فترات التحاقها تباينت من فوج تعليمي إلى آخر؛ إذ تأخر المتعلمون المتوجهون إلى فرنسا وألمانيا أكثر من خمسة أعوام، لاعتبارات سياسية ذكرناها في حينه.

أما في شأن بعثة 1887-1888، ترد رسالتان تتناولان إمكانية عدم مسايرة بعض المتعلمين دراستهم وتكوينهم في إيطاليا، من الوزير المفوض الإيطالي إلى وزير الشؤون الخارجية محمد غرنيط مؤرختان في عام 1889، الأولى في 15 نيسان/ أبريل ورد فيها:

(257) المصدر نفسه، ص 1355.

(258) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، هامش ص 402.

«...، أما بعد، وصل كتابك تاريخ 30 رجب 1306 في شأن الأولاد المراكشيين الذين يتعلمون بإيطاليا، وقد وجّهنا نسخة منه لكبير المدرسة بتورين طالبًا منه يعلمنا عاجلًا هل ينبغي تبديل بعض من المتعلمين المذكورين وحيث يريد (يرد) علينا جوابه نخبرك به»[259]. ويبدو أن الجواب لم يتأخر كثيرًا؛ ففي 4 أيار/ مايو وردت رسالة أخرى من إيطاليا، ورد فيها:

«...، أما بعد تاريخ 15 أبريل الفارط، قد كتبنا لك بأني وجهت نسخة من كتابك تاريخ 30 رجب 1306 في شأن الأولاد الذي يتعلمون بإيطالية لكبير المدرسة بتورين، طالبًا منه يخبرنا عاجلًا هل ينبغي رد من الأولاد المشار إليهم من ليس فيهم قبولية التعليم وإبدالهم بمن أحسن منهم في العقل، وها قد ورد علينا أمس تاريخه الجواب عن ذكر عن كبير المدرسة المذكورة وقال لنا بأنه عن قريب يكون امتحان الأولاد فيما تعلموه. وإذا أظهر من هذا الامتحان أن البعض فيهم لم يتعلم على الوجه المطلوب وثبت بذلك عدم قبوليتهم للتعليم فيعجل لنا بأسمائهم بقصد أن يأمر الحضرة الشريفة نصره الله بردهم لبلادهم وإبدالهم بمن هم أحسن منهم في العقل...»[260].

كما ورد الاختلاف في تحديد أعمار فئات هذه البعثة؛ فقد جاء في مذكرة الزعري أن عمر الطلبة كان يراوح بين 13 و16 عامًا[261]، في حين يتحدث ابن طوجة في مذكرته بأن عمره كان أحد عشر عامًا[262]. من جانب آخر، يمكن القول، من خلال الوثائق المخزنية، إن أفراد هذه البعثة وصلوا إلى إيطاليا على دفعات متباينة ومتقاربة. ويوضح الجدول (4-19) الآتي بعض المعلومات المتعلقة بهذا الفوج من المتعلمين[263]:

(259) رسالة المفوض الإيطالي لدولة إيطاليا إلى السيد محمد غرنيط بتاريخ 15 أبريل 1889م/ 29 رجب 1306هـ م.و.م، الترتيب العام.

(260) رسالة المفوض الإيطالي إلى السيد محمد غرنيط بتاريخ 4 ماي 1889م/ 3 رمضان 1306هـ م.و.م، سجل 16713، الترتيب العام.

(261) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143.

(262) معنينو، «القائد محمد علي بن طوجة الرباطي،» ص 255.

(263) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143-148؛ ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 467-468؛ بوشعراء، ج 4، ص 1354-1365، والمنوني، ج 1، ص 180-181.

الجدول (4-19)

معلومات عن فوج بعثة 1887-1888

الاسم	أصله	السن	التخصص	ملاحظات
أحمد الجبلي العيدوني	الرباط	بين 11-22 عامًا	المدفعية	ترك مذكرة خاصة بالرحلة
محمد الحريزي	الرباط		الخيالة	
علي السوسي	العرائش		المشاة	
الحسين الزعري	سلا		المشاة	ترك مذكرة خاصة بالرحلة
محمد الوازع	الرباط		المشاة	
محمد التدلاوي	الرباط		المشاة	
محمد طجة	الرباط		البحرية	ترك مذكرة خاصة بالرحلة إلى إيطاليا
محمد بن علي بن سالم	الرباط		البحرية	
محمد الشرقاوي البهالي	الرباط		البحرية	
محمد ولد الباشا	الرباط		البحرية	
التهامي امبيركو	الرباط		السلاح	
فضول بن صالح	العرائش		السلاح	
مصطفى الأوديي	العرائش		السلاح	
محمد البرجالي	العرائش		السلاح	
محمد بن إسماعيل	سلا		السلاح	
أحمد أحرضان	طنجة		السلاح	
العربي حركات	سلا			كان منصرفًا إلى النحو والشعر
عبد الله التيال	سلا		توفي	كان من أنجب الطلاب، مات في إيطاليا
محمد القجيري	سلا		توفي	كان منصرفًا إلى التسطير والتوريق
مصطفى لحلو	فاس		قانون التجارة والحساب	
محمد القباج	فاس		قانون التجارة والحساب	

انتُقي أغلب أعضاء البعثة من مدن ساحلية قريبة من مدينة فاس، وينسجم ذلك مع رغبة المخزن في تكوين أُطر بحرية وعسكرية قادرة على قيادة السفن واستعمال السلاح البحري. وعمومًا، «يُعَدّ هذا الفوج من الأفواج التي أعارتها

المصادر المغربية والوثائق الإيطالية اهتمامًا خاصًا...»[264]. كما ينفرد بوجود مذكرات خاصة تركها بعض أعضائه، كأحمد الجبلي العيدوني[265] والحسين الزعري[266]، ومذكرة محمد بن علي بن طوجة[267]. لكنه يثير الكثير من الإشكالات التي سبق أن أوضحنا بعضها. ويتحدث العيدوني عن انتخابه «ضمن الخمسة عشر المختارين»[268]، وعن وجود بعثات تعليمية أخرى من بلغاريا وأرمينيا والجبل الأسود واليابان ومصر وإثيوبيا[269].

نلاحظ من خلال هذه المذكرة تركيزها على التعليم العسكري؛ فقد كان للسفير الإيطالي جنتيلي دور أساس في انتقاء أعضائها[270]. وإذا كان العيدوني ذكر وجود بعثات تعليمية يابانية، فإنه لم يقف عندها، ولم تسترعِه كما لفتت الغربيين بعد تنامي القوة الآسيوية الجديدة منذ عام 1868. وذكر الزعري إتقان المتعلمين للغة الإيطالية، فصاروا يتذاكرون بها بطلاقة[271].

أتى إيفاد هذه البعثة إلى إيطاليا في أوضاع دقيقة جدًّا على مستوى التحالفات الأوروبية وعلاقة المسألة المغربية بالتناقضات الأوروبية، ومنها احتلال فرنسا تونس وتهديدها المصالح الاستراتيجية الإيطالية في البحر المتوسط. وقد جاء إرسال هذه البعثة قبل استقبال البعثة العسكرية الإيطالية في المغرب، وتبادل السفارات بين الجانبين في الفترة المذكورة.

فصّل الحسين الزعري في مذكرته الحديث عن أوضاع الدراسة في إيطاليا قائلًا: «بدأنا في أول الأمر بتعلم مبادئ اللغة العربية، وذلك على يد أستاذ لبناني...، وبتعلم اللغة الإيطالية على يد أستاذ إيطالي، وأخذنا ننتقل

(264) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 402.
(265) وردت بنصها الفرنسي والعربي في: بوشعراء، ص 1387-1396.
(266) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143-148.
(267) معنينو، «القائد محمد علي بن طوجة الرباطي،» ص 253-257.
(268) أورده: بوشعراء، ص 1394.
(269) المصدر نفسه، ص 1394.
(270) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143.
(271) المصدر نفسه، ص 145.

من طبقة إلى طبقة»[272]. ويبدو أنه أتقن اللغتين الإنكليزية والألمانية، فقد التقى بوزير المالية عبد السلام التازي الرباطي، وقال عن ذلك: «... وأجلسني بقربه لما أتاه المخزني بملف يحتوي على مراسلات متنوعة وحوالات، ودفعه إليّ طالبًا مني أن أنظم ما في الملف، وفي الحين انتقلتُ إلى حجرة مجاورة وفتحت الملف، وإذا بجميع المراسلات باللغة الإنكليزية، فنظمتها كما يجب. وقد أعجب الأمين بعملي، وبلغ ذلك الصدر الأعظم، فاستحسنه أيضًا، ووجّهني إلى وزير الحربية... فوجدت معه السيد محمد الجباص الذي أخبرني أنه كان في بعثة قبلنا إلى لندرة، وجرت بيننا محادثات باللغة الإنجليزية، وعمل السيد محمد على تسجيلي في كناش خاص بصفتي عارفًا باللغات الأجنبية...»[273].

يتميز النص بتسجيل أول لقاء بين شخصيتين من أول بعثة تعليمية أُرسلت إلى إنكلترا في عام 1875 (محمد الجباص)، وما يمكن نعته بآخر بعثة تعليمية مغربية إلى إيطاليا في عام 1887 (الحسين الزعري). وقد أُرسل الزعري للتخصص في نظام المشاة العسكري، وأتقن اللغات الأوروبية واندمج، بعد رجوعه، في المؤسسة العسكرية، حيث وُجّه إلى وزير الحربية للاستفادة من كفاءته في الترجمة.

من جانب آخر، التقى الزعري بعبد السلام الفاسي وقال عنه: «كان في البعثة الأولى بمدريد...، وتجادلنا باللهجة الإسبانية»[274]. ويشير أحد الباحثين، في ترجمته لمحمد بن علي بن طوجة، إلى أن هذا الأخير «عمل في باخرتين وطنيتين، الحسني والبشير، وزار كلًا من تركيا واليابان»[275].

تعددت المراسلات السلطانية المتعلقة بهذا الوفد، ومن ذلك رسالة الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي الطريس، «...، وبعد، وصل

(272) المصدر نفسه، ص 144.

(273) المصدر نفسه، ص 147–164.

(274) المصدر نفسه، ص 147.

(275) ومن مجريات الأحداث لا نعتقد صحة زيارة بن طوجة لليابان، وإنما يقصد اليونان، وربما يكون الخطأ مطبعيًا. انظر: معنينو، «القائد محمد علي بن طوجة الرباطي،» ص 257.

كتابك بورود المتعلمين عليك المعينين من الرباط وسلا والعرائش للتوجه لبلاد الطليان للتعلم به وزيادتك عليهم المتعلم الذي ذكرت لمعرفته باللسان الطلياني وفطنته ونجابته ليترجم لهم ويأخذ بأيديهم وسفرهم لبلاد الطليان في مركبه الذي ذكرت...»[276].

تدل الرسالة/ الوثيقة على حدوث السفر في عام 1887، وتحدد هوية المتعلمين من مدن الرباط وسلا والعرائش؛ وبالنظر إلى هذا الانتماء، فقد كان عددهم 15 متعلمًا. وهو الفوج الأول الذي التحق بإيطاليا قبل أن يلحق به الفوج الثاني الذي كان من أعضائه الحسين الزعري، وكان ذلك في عام 1888.

توضح البنية العمرية للبعثات التعليمية أن أغلب الأفراد كانوا دون الخامسة والعشرين، بل إن بعثة 1305هـ/ 1887-1888م إلى إيطاليا ضمّت في صفوفها أحمد الجبلي العيدوني، وكان عمره 11 عامًا، ولم يتجاوز سقفها الأعلى 22 عامًا.

يبدو من خلال رسالة سلطانية بتاريخ 18 ربيع الثاني 1305هـ/ 3 كانون الثاني - يناير 1888م، أنها استفادت من اهتمام تمويلي من قبل السلطان، فقد ورد فيها: «...، وبعد، وصل كتابك بأن نائب الطليان كتب لك بما في كتابه الذي وجّهت من أن مرتب المتعلمين الخمسة عشر الواجب لهم في كل سنة هو سبعة وثلاثون ألفًا وخمسمائة من البسيطة لكل واحد منهم وطلبه إصدار أمرنا الشريف للأمناء بدفعه له مع صائر سفرهم من جنوة لتورين محل التعلم الذي لا زالوا في انتظار ورود بيانه عليهم بحيث لا يقع لهم تعطيل فيه حين يرد عليهم الطلب من دولتهم ومن أنه سيبين صائرًا آخرًا قليلًا من قبل ما يعطيه المخزن للمتعلمين المشار إليهم لشراء مسائل صغيرة لأنفسهم..»[277].

لم تمر سوى أشهر قليلة حتى أمر السلطان الحاج محمد الزكاري: «...، وبعد، وصل جوابك بأن أمناء مرسى طنجة دفعوا لنائب الطليان من

(276) رسالة الحسن الأول السابقة إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 17 ربيع الأول 1305هـ - 3 كانون الأول/ ديسمبر 1887م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 35.

(277) رسالة الحسن الأول السابقة إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 18 ربيع الثاني 1305هـ - 3 كانون الثاني/ يناير 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 46.

مرتب المتعلمين ببلادهم..»[278]، وهو ما يدل على الاهتمام الذي حظيت به البعثة المغربية إلى إيطاليا، بخلاف مثيلاتها الأخريات التي عانى أفرادها مشكلات مادية محرجة، ومنها البعثات التي أُرسلت إلى بلجيكا.

يتبيّن من بعض الوثائق أن المتعلمين في إيطاليا عادوا إلى المغرب على مراحل زمنية متباينة، ومن ذلك ما أشارت إليه رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد بن العربي الطريس، ورد فيها: «...، وبعد، فإن الطلبة الخمسة الذين كانوا يتعلمون علم الرياسة البحرية ببلاد الطليان من أهل الرباط والعرائش ووردوا لحضرتنا الشريفة قد أصحبوا معهم إجازات شاهدة لهم بتحصيل ذلك العلم والتقدم فيه والبلوغ إلى الدرجة التي يحصل بها الاستغناء عن غيرهم في الخدمة البحرية...»[279].

وذكر الحسين الزعري من هؤلاء الخمسة الذين تخصصوا بالعلوم البحرية كلًّا من: محمد بن طجة ومحمد بن سالم ومحمد الشرقاوي البهالي ومحمد ولد الباشا، وكلهم من الرباط[280]، وهذا ما ورد في رسالة سلطانية وجّهها المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها أسماء أربعة متعلمين رجعوا، وهم محمد بن طوجة الرباطي والطالب محمد بن سالم الرباطي والطالب محمد الباشا الرباطي والطالب علي البورجالي العرايشي، وورد فيها: «...، وبعد، فقد علمت أن الرؤساء الأربعة المسمين يمنته من أهل الرباط والعرائش الذين كانوا يتعلمون علم الرياسة البحرية ببلاد الطليان وردوا هذه مدة بعد التحصيل على الحظ الوافر من العلم المشار إليه وأتوا صحبتهم بالإجازات من الرؤساء الكبار بالإشهاد لهم بالمعرفة حسبما كنت أخبرت به ولا يخفاك ما صير عليهم في تعليمهم ولا يناسب إبقاؤهم مهملين إذ ربما يؤل [يؤول] بهم ذلك إلى

(278) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد الزكاري بتاريخ 27 جمادى الثانية 1305هـ - 11 آذار/ مارس 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 88.

(279) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 10 صفر 1315هـ - 11 تموز/ يوليو 1897م، خ.ع.ت، محفظة 16/ 14.

(280) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 144.

نسيان ما تعلموه. وعليه، فها نحن أمرنا عاملي الرباط والعرائش بتوجيههم إليك ليستخدموا في بابورات جانبنا العالي بالله...»[281].

وتفصح الرسالة عن بعض الإهمال الذي حظي به الرؤساء الأربعة عند بداية مجيئهم إلى المغرب، كما توضح ذلك الوثيقة (16/ 46)، الأمر الذي دفع السلطان إلى توظيفهم في السفن التي اقتناها المخزن الحسني، خصوصًا السفينة «بشير الإسلام». وإذا كانت الوثيقة الأولى أوردت معلومات تتعلق بخمسة متعلمين، فإن الوثيقة التالية لم تتحدث سوى عن أربعة متعلمين مسجلة أسماؤهم في الرسالة. فما مصير المتعلم الخامس؟

يمكن الإجابة عن ذلك من خلال مراسلة سلطانية مؤرخة في 10 جمادى الأولى 1316هـ/ 13 تشرين الأول- أكتوبر 1889م؛ فبعد شهرين ترد رسالة سلطانية أخرى تتعلق بالمتعلم البهالي الشرقاوي، طالب من خلالها المولى عبد العزيز النائب محمد الطريس بقوله: «...، وبعد، فيردك حامله البهالي الشرقاوي من المتعلمين الذين كانوا بلاد الطليان في تعلم علم الرياسة البحرية فنأمرك أن تجريه مجرى المتعلمين الآخرين الواردين ... قبل من الرباط والعرائش في الاستخدام بباروتنا السعيدة...»[282].

وترد في السياق نفسه رسالة مخزنية متأخرة، وجّهها محمد بن العربي الطريس إلى أمناء العدوتين بخصوص البابور العزيزي الذي اشتغل به الطلبة المذكورون آنفًا، ذكر فيها:

المكنيسطة بلهم الألماني

الرئيس محمد البهالي

ثلاثة بحرية

(281) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 25 ربيع الأول 1316هـ - 13 آب/ أغسطس 1898م، خ.ع.ت، محفظة 17/ 32.

(282) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 10 جمادى الأولى 1316هـ - 13 أكتوبر 1898م، خ.ع.ت، محفظة 17/ 46.

وممّا سجله بخصوصها: «..، وبعد، وصلنا كتابكم بأنكم دفعتم ما وجب في ثمن الفحم الحجري الموجّه لكم بقصد استخدام البابور العزيزي، ذاكرين أنه لا زال لم يصلكم وصار بالبال... فها هو يصلكم مع ما هو مغيب لمشاهرة كل منهم بإزائه...»[283].

تفصح رسالة سلطانية عن أن أحد أعضاء البعثة إلى إيطاليا، الحسين بن محمد الزعري، رجع بدوره في فترة لاحقة، وفي هذا الشأن ذكر المولى عبد العزيز: «...، وبعد، فإن مولانا المقدس بالله كان وجه لأرض الطليان الحسين بن محمد الزعري السلاوي لتعلم آلة الحرب والفابريكات واللسان، وغير ذلك من جملة من كان توجه بقصد ذلك لبعض الأجناس. وهذه مدة من نحو اثني عشر عامًا، وهو هنالك، وقد طالب والده من جنابنا التوجيه عليه لصلة رحمه به وعليه بأن حصل الغرض المقصود فليأت والسلام»[284].

وتبيّن الرسالة تخصص الزعري في صناعة السلاح، مثله في ذلك التهامي امبيركو وفضول بن صالح ومصطفى الأوديي ومحمد البرجالي ومحمد بن اسماعيل وأحمد أحرضان، وهم الذين أشارت إليهم رسالة الحسن الأول إلى محمد الطريس[285].

ينسجم ذلك مع ما أورده الحسين الزعري في مذكرته، حيث أورد: «انصرفت السنة الثامنة منذ حلول البعثة بإيطالية. ورجع إلى المغرب الضباط والضباط العسكريون وصانعو السلاح... وتأخرت أنا على الرجوع؛ ذلك لأنني أخذت أتعاطى دراسة اللغات الأجنبية بترخيص من وزارة الداخلية الإيطالية، وهكذا انخرطت في المدرسة العليا بمدينة طورينو، وبقيت في إيطاليا حتى سنة 1898 إلى أن حصلت على الشهادة التي كنت أرغب فيها»[286].

---

(283) رسالة محمد بن العربي الطريس إلى أمناء مرسى العدوتين، بتاريخ 18 جمادى الأولى 1324هـ - 10 يوليوز 1906، خ-ص، مح2، السلسلة 2، وثيقة 125.

(284) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ فاتح ربيع الأول 1316هـ - 19 آب/ أغسطس 1898م، خ.ع.ت، محفظة 17/ 33.

(285) رسالة الحسن الأول إلى الطريس في 10 رمضان 1309هـ - نيسان/ أبريل 1892م، خ.ع.ت، محفظة 10/ 127.

(286) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 146.

وُجدت رسائل سلطانية امتد بها الزمن إلى عهد الوصاية وإلى بداية عهد المولى عبد العزيز؛ فهل كان من ضمنها الطالب محمد بن عمر الرباطي الذي أورد سيرته محمد المنوني؟[287]؛ فقد تحدث عن بعثة حسنية كان فيها محمد بن عمر الرباطي، في عام 1308هـ/ 1891م، قائلًا: «توجّه الطالب المغربي - وهو لا يتجاوز 14 سنة - إلى إيطاليا، فالتحق بالمدرسة الثانوية الدولية في مدينة طورينو، فقضى بها خمسة أعوام. وفي سنة 1313هـ/ 1896: انتقل إلى المدرسة العسكرية للخيالة العصرية بإيطاليا، إلى أن أحرز منها على شهادة التكوين في العمل التطبيقي لنظام جيش الخيالة»[288].

وقد ألحقه الحسين الزعري ضمن أعضاء بعثة توجهت إلى إيطاليا، ويُفهم من إشارته أنه تخصص أيضًا بمعرفة السلاح، إذ قال: «...، كما أن العسكريين حين رجعوا عملوا بالدائرة المخزنية، وفي سنة 1900 ألّف منهم المخزن الشريف لجنة عسكرية مركّبة من: السيد أحمد الجبلي، والسيد محمد بن عمر، والسيد محمد التدلاوي، والسيد الفقيه أحمد التطواني أمين (الصوائر)، وأرسلهم إلى معمل السلاح (دار كروب) باسن في ألمانيا ومن هناك اشتروا مدافع جبلية وغير جبلية»[289].

وقد ورد ذكر بعثة مغربية اتجهت إلى إيطاليا بمقتضى رسالة سلطانية مؤرخة في 20 جمادى الأولى 1309هـ/ 22 كانون الأول- ديسمبر 1891م، أخبر فيها المولى الحسن الأول الحاج محمد بن العربي الطريس، قائلًا: «...، وبعد، فقد طلب نائب الطليان تسفير المتعلمين السبعة لغة الطليان بطنجة لإيطاليا يكملون بها التعلم..»[290]، وهو ما يجعلنا نقول إن هذا الوفد جديد ويختلف عن مجموعة العيدوني وأحمد الجبلي وابن طوجة. فهل سافر المتعلمون السبعة إلى إيطاليا؟

---

(287) المنوني، ج 1، ص 189.

(288) المصدر نفسه، ص 189.

(289) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 145.

(290) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 20 جمادى الأولى 1309هـ - 22 كانون الأول/ ديسمبر 1891م، خ.ع.ت، محفظة 10/ 81.

يشير مضمون الوثيقة إلى طلب النائب الإيطالي تسفير سبعة متعلمين مغاربة إلى إيطاليا بعد تعلمهم اللسان الإيطالي، ويبدو أن هذا الفوج يختلف عمن سبقه في عام 1887/ 1888م، بدليل عبارة «...، يجروهم مجرى غيرهم من المتعلمين الموجّهين للبلاد المذكورة..»[291].

ندرك من تفحص الوثائق المخزنية أن المسألة لم تنفّذ في حينه، بدليل صدور رسالتين مخزنيتين، الأولى مؤرخة في عهد الوصاية وجّهها الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، ورد فيها: «...، وبعد، فإن من جملة مطالب الطليان الواردة على الحضرة الشريفة بيد خليفتهم جانطيلي طلبهم توجيه المتعلمين السبعة الذين كانوا يتعلمون اللسان الطلياني بطنجة إلى بلاد لطالية بقصد تعلم الصناعة البحرية، وطالما ألح في ذلك فلم يساعد عليه لما لا يخفى من القيل والقال الذي يترتب على ذلك، وحيث بالغ في الإلحاح سوعد على توجيه اثنين عوضًا عن الاثنين المتوفيين بليطالية، على أن يجعل تاويل سيدي لاستقدام المتعلمين الباقين الآن بليطالية بعد نحو ثلاثة أشهر حسبما يكتب لك به من الحضرة الشريفة إن شاء الله ...»[292].

أما الرسالة الثانية، فوجّهها المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها: «...، وبعد، وصل جوابك أن السبب في تأخير تنفيذ ما تقدم، من توجيه كل المتعلمين السبعة، الذين كانوا هنالك، إلى حال سبيله، ففعلت، وأنه حيث ورد عليك الأمر بعد ذلك بمساعدة جنابنا الشريف لمخزن الطليان على توجيه اثنين من المذكورين لبلاد إيطالية وجدهم الحال قد تفرقوا ولم يبق منهم إلا نحو ثلاثة... وقد أجيب سفير الجنس المذكور الآن بأن السبب في تأخير توجيههم هم سكوته عن ذلك، وأنه قد جدد لك الكتب الآن بتنجيز ذلك وقتما طلب منه تنجيزه. وعليه، فإذا جدد لك كلامه في ذلك فعيّن اثنين من الثلاثة

(291) رسالة الحسن الأول التي سبق ذكرها إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 20 جمادى الأولى 1309هـ - 22 كانون الأول/ ديسمبر 1891م.

(292) رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس بتاريخ 07 صفر الخير 1315هـ - 8 تموز/ يوليو 1897م خ.ع.ت، محفظة 24/ 15.

الباقين ووجّههم لما ذكر وها كتابنا الشريف لأمناء المراسي هناكم بتنفيذهم ما تبينه لهم في تقويمهما في الكسوة والزاد والمشاهرة»[293].

يبدو، كما أشرنا، أن رجوع أعضاء بعثة عام 1887 إلى إيطاليا جرى على دفعات امتدت إلى عهد السلطان المولى عبد العزيز، ومن ذلك رسالة هذا الأخير التي سبق ذكرها إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها: «...، وبعد فيردك حامله البهالي الشرقاوي من المتعلمين الذين كانوا ببلاد الطليان»[294].

من جانب آخر، ترد مراسلات سلطانية تتحدث عن بعض المتعلمين الذين درسوا في إيطاليا، ولم تحدد نوع التعليم الذي استفادوا منه، ومنهم قاسم الذي ذكرته رسالة مالموسي إلى الطريس، ورد فيها: «...، لا زال السؤال عنك وعن أحوالك محبة أن تكون بخير وعافية على الدوام، أما بعد، فاعجل بإعلام سيادكم بأني توصلت بثلاثة وعشرين بسيطة على يد صاحبكم من قبل ما صيره قنصل الطلياني بجبل طارق على المتعلم قاسم راعية هذه الإيالة الذي رجع من إيطاليا جزيت خيرًا وبه ختم في التاريخ أعلاه صح به السفير لدولة إيطاليا ومنسطرها المفوض بأكمل التفويض»[295].

تراجع المغرب عن إيفاد المزيد من المتعلمين إلى إيطاليا، كما تُبين ذلك الرسالة السابقة التي وجّهها الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد الطريس، وشجعه، من خلالها، على عدم إرسال مزيد من المتعلمين إلى إيطاليا. وتبرز الرسالة حجم التخوف من الانفتاح على التعلم في إيطاليا، كما توضح طبيعة السياسة الخارجية التي نهجها الحاجب باحماد الذي لم يكن يفقه كثيرًا في العلاقات الدولية؛ وركّز بدلًا من ذلك جهده ودهاءه على ترتيب الوضع الداخلي وضبط تناقضاته القبلية والعسكرية.

---

(293) رسالة السلطان إلى الطريس في 25 محرم 1318 - 15 أيار/مايو 1900، خ.ع.ت، محفظة: 18/ 9.

(294) رسالة المولى عبد العزيز السابقة إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 10 جمادى الأولى 1316هـ - 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1898، خ.ع.ت، محفظة 17/ 46.

(295) رسالة مالموسي إلى الطريس في 24 ذو القعدة 1313هـ - 7 أيار/ مايو 1896م، خ.ع.ت، محفظة 57/ 107.

تحدث ابن زيدان عن السفينة «بشير الإسلام» بإعجاب واعتزاز وطني. ويبدو بعض عناصر التطابق بين ما أورده صاحب **الإتحاف** وما أورده فوكوزاوا في مسألة السفينة «كانرين مارو» في عام 1860 نحو الولايات المتحدة؛ إذ اعتبر ذلك «مغامرة تشكل بداية جديدة»[296] للأمة اليابانية. ويتمثّل التباين بين الجانبين في كون طاقم السفينة يابانيًا في حالة «كانرين مارو»، في حين لم يكن مغربيًا في «بشير الإسلام» أو «الحسني» والسفن المختلفة التي اقتناها المخزن الحسني.

توفّر المخزن الحسني في أواخر القرن التاسع عشر على ثلاثة سفن كبيرة، وهي «بشير الإسلام» «والتركي» و«الحسني». ويشير ليونار كارو (Léonard Carow) إلى «أن قادة وربابنة هذه السفن كانوا أوربيين من جنسية ألمانية، باستثناء قبطان 'الحسني' الذي كان سويديًا»[297]. وختم ابن زيدان التسلسل الكرونولوجي لموضوع البعثات، بقوله: «وقد أنجبت دولتنا العلوية غير هؤلاء، وهم كثيرون لم تقيد أسماؤهم في الدفتر المنقول منه، كالذين تعلموا الملاحة وما يتعلق بالعلوم البحرية، وجاءوا بالباخرة (بشير الإسلام) تمخر في البحر مخرًا إلى أن وصلوا بها للثغور المغربية»[298].

إذا كانت علوم السِّفانة في اليابان قد شهدت تحولات متلاحقة مكّنتها من تحقيق نتائج عسكرية مهمة بلغت ذروتها في أثناء الحرب الروسية - اليابانية عام 1905، فإن البحرية المغربية سجلت علامات مظلمة، نأت بها عن زخم الأسطول الموحدي في عدّته وعدد وحداته خلال العصر الوسيط، أو حتى في فترات حكم المولى إسماعيل والسلطان محمد بن عبد الله (1757-1790). بل الأسوأ من ذلك أن المخزن اضطر إلى بيع «بشير الإسلام» و«الحسني» في عهد المولى عبد العزيز. ويدل ذلك على وتيرة التراجع أمام المد الغربي الكاسح وعدم القدرة على مسايرته.

بوفاة المولى الحسن الأول، انتهت محاولات الإصلاح التي رام المخزن القيام بها طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويمكن القول إن الإدارة

(296) يوكيتشي، ص 140.

(297) Léonhard Karow, *Neuf années au service du Maroc, 1900 -1908*, trad. et présent. Monique Miège et Jean-Louis Miège, Mémoire du Maroc (Rabat: Ed. La Porte, 1998), p. 20.

(298) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 160.

المغربية تنبهت على فشل البعثات التعليمية في تحقيق أهدافها منذ بعثة عام 1887 إلى إيطاليا. وهكذا، لا نجد أثرًا لوثيقة تاريخية، تتحدث عن موضوع إيفاد البعثات الدراسية إلى أوروبا في أواخر حكم المولى الحسن الأول، وفي فترتي حكم المولى وعبد العزيز وأخيه المولى عبد الحفيظ، بالمستوى نفسه والمضمون نفسه للبعثات التي بدأت منذ عام 1874. ومن الدلائل على ذلك الرسالة السلطانية إلى محمد بن العربي الطريس، في 15 أيار/مايو 1900، ورد فيها: «وصل جوابك أن السبب في تأخير تنفيذ ما تقدم، من توجيه كل المتعلمين السبعة، الذين كانوا هنالك، إلى حال سبيله، ففعلت»[299].

تبيّن هذه الوثيقة حجم التراجع في إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى الخارج، كما أن سكوت البعثة الدبلوماسية الإيطالية عن الاستجابة للطلبات المغربية يفصح عن عدم مبالاة بعض القوى الأوروبية وتراجع اهتمامها الذي أبدته في بداية عهد الحسن الأول، في شأن استقبال المتعلمين المغربية. وهي القوى التي راهن من خلالها المغرب على تكوين أُطر الأسطول المغربي، في زمن حُسمت فيه أبرز الخلافات الأوروبية في شأن قضايا النفوذ الغربي في المغرب، خصوصًا بعد توقيع الاتفاقات الثنائية بين فرنسا وإيطاليا في عام 1902 والاتفاق الودي الفرنسي - البريطاني في عام 1904.

لم تدوّن معلومات ملائمة عن بعض الأفراد في أثناء فترات تعليمهم في دول الغرب الرأسمالي، ومن ذلك البعثة التي توجهت إلى الولايات المتحدة في عام 1885، وأوردها مييج استنادًا إلى مقالة صدرت في جريدة أزمنة المغرب، ونتوفّر في شأنها على رسالة سلطانية في الخزانة العامة في تطوان، جاء فيها: «وصل كتابك وبطيه زمام الصائر على المتعلمَين - اللذين كانا توجّها لبلاد المركان على يد مكلين يتعلمان حل المكاحل ومسحها وتزديجها، ووردا لحضرتنا الشريفة برباط الفتح تضم خمسمائة وأربعة وخمسين ريالًا وسبعة وثمانين سنطيمًا...»[300].

---

(299) رسالة السلطان إلى الطريس في 25 محرم 1318 هـ/ 15 ماي 1900م، تطوان، محفظة 18/ 9.

(300) رسالة الحسن الأول إلى الطريس في 23 حجة 1302هـ - 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1885م، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 3/ 161.

يبدو أن البُعد المجالي بين البلدين حال دون تدفق البعثات التعليمية المغربية على الولايات المتحدة، وساهم الإنكليز في تحفيز المخزن على إيفاد طالبين إليها، ولم يتعدَّ الأمر أن يكون مجاملة دبلوماسية.

في الآن نفسه، مثّلت هذه الأخيرة إحدى الوجهات المفضَّلة للبعثات التعليمية اليابانية منذ حملة بيري وبداية عهد الميجي وتايشو وشوا؛ فقد كانت الولايات المتحدة قِبلة مفضَّلة للمتعلمين اليابانيين، وساهم خبراؤها بقسط مهم من تأطير النخب التعليمية اليابانية.

وبذلك، وانسجامًا مع مسلسل التراجعات السياسية والأمنية، انتهى موضوع البعثات التعليمية المغربية إلى إخفاق واضح في تحقيق الأهداف المنشودة منه.

يذكر أحد الباحثين أن المولى الحسن الأول «نظر في ذلك... من إرسال البعثات من الشباب لأجل تعلم العلوم الحديثة، وأرسل عدة سفراء إلى مختلف الأجناس في الأوقات المناسبة، وكل هذا كان مفيدًا من الناحية السياسية، ويُعَدّ خطوة كبيرة خطاها المغرب وقتئذ بالنسبة إلى دول أخرى، بحيث لو استمرت تلك الخطوة لنهض المغرب ولم يتوقف على غيره»[301].

يفقد التعليل جوانب الحقيقة التاريخية والتحليل الموضوعي، وهو قول ينطبق على الكتابات السلطانية، وفي مقدمها مؤلفات ابن زيدان التي رأت في المخزن ومؤسسة السلطان حلقة تحديثية متقدمة، ووصفت موضوع البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول بكونه ناجحًا ومفيدًا، ولم يحل دون امتداده واستمراره سوى وفاة السلطان وانتقال الحكم إلى الحاجب باحماد الذي مارس الوصاية على المولى عبد العزيز، «وكان لا يهمه سوى السيطرة والاستبداد في الحكم ... وأما حال البعثات التعليمية التي أرسلها السلطان المولى الحسن إلى أوربا وأتوا حاملين للعلوم العصرية المفيدة للمغرب، فقد تُركوا مهمَلين لا يلتفت إليهم ولا يسمع لقولهم ولا لأفكارهم»[302].

---

(301) موسوعة أعلام المغرب، من 1 إلى 1400 هـ، تنسيق وتحقيق محمد حجي، 10 ج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996)، ج 8: 1301-1360، ص 2798.

(302) المصدر نفسه، ص 2798.

يمكن القول إن المقدمات التي أطّرت موضوع البعثات التعليمية المغربية السياسية والمجتمعية، حملت في أحشائها بوادر الإخفاق، فانطلقت معلولة ومطوّقة بعناصر الكبح التي انتصرت أهدافها العامة لاختيارات بعث الحياة في جهاز إداري عتيق، في حين كان الإقلاع الحضاري يفرض على الدولة المخزنية دفع المجتمع إلى المشاركة، طوعًا أو كرهًا وبفاعلية، في إنجاز الأدوار الكبرى المنتظرة، وهو ما لم يكن موجودًا، كما سبق أن أوضحنا.

لم يكن موضوع البعثات التعليمية منتوجًا مجتمعيًا يضمن قيمتي الاستمرار والفاعلية على مستوى الزمن والمجال. ومن غير اللائق ربط الإخفاق أو النجاح بسياسة هذا السلطان أو ذاك؛ فذلك يمنعنا من رؤية الأسباب العميقة الكامنة في أدوات الاشتغال الإداري والسياسي لمؤسسات المخزن ونمط النظام الاجتماعي والاقتصادي ودرجة تفاعله مع قيمه الفكرية والدينية والرمزية.

لا يستقيم وصف موضوع البعثات التعليمية المغربية وتحليله من دون البحث والتنقيب في الكيفية التي اعتمدتها السلطة المغربية في إنجاح مخططها الإصلاحي العام؛ فما هي المعايير التي أخذ بها المخزن في انتقاء المتعلمين المرشحين للدراسة بالخارج؟ وأي دور أدّته الدوائر الدبلوماسية الغربية في هذا المجال؟ وكيف ساهم غياب مؤسسات وإدارات تعليمية في إفشال النتائج المتوقعة من هذه الآلية التحديثية؟

رابعًا: معايير الانتقاء وأطراف التوجيه

يثار أمامنا في هذا المبحث الكثير من الصعوبات؛ ذلك أن الوثائق التي اعتمدناها لا تشير في عمومها إلى المناطق التي انطلق منها المتعلمون. وفي إمكان التنقيب في هذا الموضوع أن يكشف الأساليب والمعايير التي اعتمدها المخزن في اختيار وفود البعثات التعليمية وإرسالها إلى أوروبا خلال الفترة موضوع الدراسة. كما أن البحث في الوثائق والمراسلات المخزنية كفيل بالإفصاح عن عملية الانتقاء المعرفي والعلمي لهذه الوفود التعليمية المرشحة للدراسة في الخارج.

تجنبًا للصعوبات المنهجية، حاولنا في هذا المبحث اعتماد مفهوم العيّنة

وتوضيح دلالاتها من خلال جداول إحصائية وخرائط توضيحية، بعد جرد مجموعة من الوثائق والمراسلات المتعلقة بالموضوع.

يمكن قراءة أحد الثوابت التي تحكمت في اختيارات المخزن طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر من رسالة وجّهها السلطان محمد الرابع إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي:

«... فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك: من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجّههم لمصر وأردنا انتخابهم من أولاد البخاري وأهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة.

فنأمرك أن تنتخب من أولاد خدامنا أهل سلا الصغار ثلاثة، وقد أمرنا عامل الرباط بانتخاب ثلاثة من أولاد الرباط، ليكون ثلاثة طبجية، وثلاثة بحرية.

وليكن سنهم من أربع عشرة إلى خمس عشرة، ممن يعرف الكتابة والقراءة، وظهرت عليهم مخايل النجابة والذكاء والفطنة»[303].

حددت الرسالة معايير الانتقاء المجالي من مدن معيّنة، ومن ضمن المؤسسة العسكرية المخزنية، وأمرت باختيار طلبة صغار السن، وممن يتمتعون بقابلية التعلم والنبوغ. فهل حافظ المخزن الحسني على المعايير والمؤشرات نفسها؟

نستنتج من بعض الوثائق المعتمَدة في هذا الكتاب أن السلطان كان يكلف ولاته في المدن والأقاليم بانتخاب نجباء الطلبة، وتعليمهم مبادئ العلوم الرياضية والطبيعية، بقصد اختيار المتفوقين منهم للسفر إلى أوروبا كي يتلقّوا العلوم والفنون الحديثة؛ فقد خاطب الحسن الأول 1293هـ/ 1876م قائد الصويرة الحاج عمارة بن الصادق النجاري قائلًا: «... وبعد، فقد وصلَنا كتابك، وصحبته طلبة الحساب الذين وجهت بقصد اختبارهم عملًا بأمرنا الشريف، فوجدنا أثر النجابة لائحًا على الستة المذكورين بالطرة ويليهم الثلاثة المذكورون بعدهم، حيث أمرنا باختبارهم وما عداهم حشو

(303) المنوني، ج 1، ص 157-158.

لا يقبل التعليم، وعليه، فسرحهم لحال سبيلهم. وعيّن بدلهم ممن فيه قابلية التعلم»[304]. وتتكرر في المراسلات السلطانية المتعلقة بالموضوع عبارة «نجباء الطلبة»، وهي نجابة تأسست، نظريًا، على اختبار وتمحيص. كما كتب المولى الحسن الأول رسالة إلى عامل سلا، ورد فيها: «وصل جوابك بدفعك للخديم الحاج محمد بركاش من عيّنه لك من بحرية سلا ورياسها للخدمة ببابور جانبنا العالي بالله، وبدل المتعلمين السبعة الذين كانوا توجهوا لطنجة بقصد تعلم اللسان بها ليتوجهوا للتعلم ببلاد الطليان، ولم توجد فيهم قابلية..»[305].

كانت البعثات في أغلب الأحيان تصحب برسائل اعتماد سلطانية، ومنها رسالة الحسن الأول إلى السلطان غليوم الأول جاء فيها: «أما بعد، فإن المحبة والصحبة والصداقة وحسن الثقة والاعتقاد الجميل أوجبت توجيه أشخاص نجباء أخيار من هذه الإيالة لبلادكم الرفيعة... بقصد الزيادة في تنقيح ذكائهم وتهذيب أخلاقهم بآداب السياسة العلانية والعلوم العسكرية...»[306].

يبدو أن المخزن اعتمد معايير حداثة السن والنجابة والذكاء في قضايا التكوين على المستويين الداخلي والخارجي؛ فقد وجّه المولى الحسن الأول رسالة الحاج محمد بن سعيد السلاوي، ذكر فيها: «وبعد، فنأمرك أن تعيّن عشرة من صغار الطبجية أهل الذكاء والفطنة والصحة في الجسم وتوجههم لطنجة بقصد التعلم على طبجية من النجليز أمرنا بجلبهم للتعليم هناك...»[307]. ونقرأ في رسالة وجّهها محمد بركاش إلى محمد الطريس ذكر فيها: «...، ونحبك أن تتكلم مع المكلفين بتعليم الأولاد بأن يبيّنوا لك من لا يقبل التعليم لترده ونوجه بدله»[308]. وترد المعايير نفسها في رسالة سلطانية، تقول: «فنأمرك أن توجه

(304) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 465-466.
(305) من وثائق آل بنسعيد، وردت في: بوشعراء، ج 4، ص 1337.
(306) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 469.
(307) ورد في: المنوني، ج 1، ص 151.
(308) رسالة محمد بركاش إلى محمد الطريس بتاريخ 11 شوال 1303هـ - تموز/يوليو 1886م، محفظة 71/ 99، خ.ع.ت.

خمسة عشر من الطبجية الذين هنالك من أنجب أهل خطتهم وممن تتوسم فيهم قبول التعليم: كصغر السن وجودة الذهن وصحته ونحو ذلك...»[309].

تقول إحدى الباحثات إن أحمد الجبلي العيدوني «لم يكن من النجباء وأنه كان من المشاغبين»[310]. وأظن أن مقياس النجابة لا يتأسس على صفة المشاغبة؛ فقد يكون المتعلم مؤدبًا وغير نجيب، كما يمكن أن يكون مشاغبًا ونجيبًا؛ ودليل ذلك قول العيدوني في مذكرته: «وكنت شغوفًا بالرياضيات ...، فحاولت تبعًا لذلك أن أخوض امتحان قبولي في الأكاديمية العسكرية لضباط المدفعية والهندسة الحربية بطورينو، ولما نجحت بمعدل 17.75 من 20، كم كان فرحي عظيمًا..»[311]. ويذكّرنا ذلك بما حققه المتعلمون اليابانيون في الجامعات الأميركية والبريطانية في أواخر عهد الإيدو وفترة الميجي، وهو ما سنعالجه بالتفصيل لاحقًا.

كان المخزن ظاهريًا منتقيًا وموجّهًا إلى المتعلمين الذين برزت مواهبهم ونجابتهم، كما كان محددًا لنوعية المعارف الواجب اكتسابها في رحلة العلم الطويلة في دول أوروبا الغربية، ومن ذلك أمر الحسن الأول محمد بركاش بتعيين «أناس لتعليم تريست وعلم البحر، وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز والفرنصيص والألمان والطليان وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يخصون بتعلم ترياست والمكينة... وأربعة لتعلم علوم البحر...»[312].

يتضح من خلال هذه الوثائق الحضور القوي للمخزن في عملية إيفاد البعثات التعليمية، وتقديمه لذلك بإجراء امتحانات قبلية لاستكشاف العناصر القابلة للتعلم. وبقي المخزن مهيمنًا على مخارج الإصلاح وآلياته، نافيًا بذلك أي دور محتمل لأي قبيلة أو زاوية أو أسرة في رسم معالم الرحلة الدراسية في الخارج، وربما يفسر ذلك غياب العمق المجتمعي لهذه الخطة الإصلاحية.

(309) المنوني، ج 1، ص 152.

(310) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 404.

(311) مذكرة أحمد الجبلي العيدوني، أوردها: بوشعراء، ص 1394.

(312) ابن زيدان، العلائق السياسية، ص 147.

أورد المنوني حالات استثنائية في المبادرات الخاصة، وذكر من بين طلبتها: المهندس عبد السلام أزود من جامعات ألمانيا؛ المهندس إدريس الشرادي من جامعات إنكلترا؛ المهندس علي السوسي من جامعات إيطاليا[313].

تعدّ المبادرة، على الرغم من أهميتها، حالة معزولة عن المناخ العام الذي أطّر موضوع البعثات التعليمية المغربية، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بفعل هيمنة المخزن على هذه الآلية التحديثية وعدم وجود متنفسات مجتمعية ونخبوية تساهم في بلورة رؤية تحديثية متناغمة ومتكاملة مع تطلعات الدولة المغربية لتجديد مقاسات إدارتها المتجاوزة.

في الآن نفسه دخلت اليابان بنظامها المركزي ومقاطعاتها الفيودالية في سباق محموم لإيفاد أفواج المتعلمين إلى دول الغرب الرأسمالي، بشكل علني وسري، وهو ما وفّر زخمًا مجتمعيًا وثقافيًا وسياسيًا لهذه العملية التاريخية التي تأسست على منظومة تعليمية واضحة المعالم والتوجهات.

«كلف السلطان مولاي الحسن الأول ولاته بالمدن والأقاليم بأن ينتخبوا من الطلبة نجباءهم ويعلموهم مبادئ العلوم الرياضية والطبيعية قصد اختيار المتفوقين منهم للسفر إلى أوروبا بقصد تعلم العلوم والفنون الحديثة»[314]. ويدل لجوء المخزن إلى عمليات الانتقاء على غياب واضح للمؤسسات التربوية الفاعلة التي كان في إمكانها أن تعفيه من ذلك: ففي غياب نسق ومقصد تعليمي واضح وهادف، لا يمكن التأسيس للشروط الدنيا للإصلاح المجتمعي. ومن بين المؤسسات التي ساهمت بشكل ضئيل في عملية تهيئة المتعلمين للسفر إلى الخارج مدرسة الألسن في طنجة التي كان لها دور محدود في التأطير اللغوي والعلمي لبعثة عام 1291هـ/ 1874م، لكنه تلاشى بعد ذلك بالنسبة إلى البعثات اللاحقة، خصوصًا تلك التي توجهت إلى بلجيكا؛ إذ تكلّف محمد بن الكعاب الشركي وعبد السلام الأودي تيسير مهمة الترجمة لأعضائها.

---

(313) المنوني، ج 1، ص 256.

(314) عبد الوهاب بنمنصور، في: مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 456.

يمكن إيراد الكثير من الشواهد التي تدل على عدم القدرة على الانتقاء السليم والفاعل لأفراد البعثات التعليمية المرشحة للتعلم في الخارج، ومن ذلك أن بعض أفراد البعثة المتجهة إلى بلجيكا رُدّوا إلى المغرب لعدم ظهور نجابتهم. وقد أشرنا في سياق حديثنا عن بعثة عام 1302هـ/ 1885م إلى فرنسا إلى إرجاع كل من محمد بن دحمان وأحمد بن عبد الرحمن؛ فقد «كانا معًا أميين قليلي الحظ من النباهة، لا يسايران ما يتلقيانه من دروس، ولأجله أشار الترجمان بردّهما إلى المغرب لأن اختيار السلطان إياهما لم يكن موفقًا»[315]. لذا، يمكننا استنتاج انعدام الدقة في اختيار بعض المتعلمين المتوجهين إلى إيطاليا في عام 1306هـ/ 1889م، من خلال رسالة كانتاكالي إلى محمد غريط، التي ذكر فيها: «بتاريخ 15 أبريل الفارط قد كتبنا لك بأني وجهت نسخة من كتابك... في شأن الأولاد الذين يتعلمون بإيطاليا لكبير المدرسة بطورينو طالبًا منه يخبرنا عاجلًا هل ينبغي رد من الأولاد المشار إليهم من ليس فيهم قابولية التعليم وإبدالهم بمن أحسن منهم في العقل»[316].

يدل وجود مدرسة وحيدة، واضطرار المخزن إلى إجراء امتحانات قبلية، على غياب مؤسسات تعليمية قارة ووظيفية، تجنب السلطان هذه المراسلات المتعددة الهادفة إلى البحث عن الكفاءات العلمية وذوي النجابة والذكاء.

من جانب آخر، ورد في رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب الطريس، بتاريخ 17 تموز/ يوليو 1888، «أن جماعة من العدوة هذه مدة من سبعة أعوام وهم يتعلمون اللسان الفرنصوي والطلياني بطنجة على يد يهوديين منها، ولم تظهر في أحدهم نتيجة، وعليه فنأمرك أن تردهم لبلادهم... قد أمرنا الأمناء بقطع المئونة عنهم وعن اليهوديين اللذين يعلمانهم»[317].

---

(315) بوشعراء، ص 1378.

(316) رسالة من كانتاكالي إلى محمد غريط، بتاريخ 4 رمضان 1306هـ الموافق 4 أيار/ مايو 1889م، م.و.م الترتيب العام.

(317) رسالة المولى الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس، بتاريخ 8 ذي القعدة 1305هـ - 17 تموز/ يوليو 1888م، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 6/ 132، ومثلها رسالة سلطانية إليه في 8 ذي الحجة 1305هـ - 16 آب/ أغسطس 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 144.

يدل مضمون الرسالتين على ضعف التأطير والتعليم وغياب آليات فاعلة لتدريس اللغات الأجنبية؛ ذلك أن انقضاء سبعة أعوام من دون تحصيل النتيجة، يدل في الحقيقة على ضعف المنظومة التعليمية في المغرب والإهمال الطويل للغات الأجنبية، وما ارتبط بها من اكتساب علوم تقنية.

من خلال حوار سابق أوردناه دار بين الحسن الأول وجون دريموند هاي، أجاب السلطان بأن اختيار العسكريين الموفدين إلى جبل طارق خضع لمنطق التوازنات القبلية[318]. وفي رسالة وجّهها الحسن الأول إلى محمد الطريس، ذكر: «واعلم أن الأناس المشار إليهم كلهم صغار السن ومن طلبة القرآن، وجلّهم خرجوا من المكاتب»[319]، جاهلين قواعد اللغة العربية نفسها، وهو ما كان يدفع إلى تعليم الطلبة المغاربة اللغات، ومنها اللغة العربية بالمعاهد الأوروبية، ودليل ذلك ما ذكره الحسن الزعري: «بدأنا في أول الأمر بتعلم مبادئ اللغة العربية ... على يد أستاذ لبناني»[320].

وجّه الحسن الأول في أواخر عهده خطابًا إلى القائد محمد بن عبد الصادق، قائلًا: «...، وبعد، فقد كلفنا باشدور البروس بصنع بابور صغير بفابركة بلادهم بقصد استخدامه في الكوسطة، فنأمرك أن تنفذ عليه من بحرية مرسى طنجة العدد الذي يكفي للخدمة في البابور المذكور مع من يستخدمه من بحرية الألمان وتنتخبهم من أهل النجدة منهم الذين فيهم قابلية التعلم بحيث يتعلمون استخدامه في أقرب مدة من غير توقف فيه على الغير، ومن ظهرت فيه منهم قابلية التعلم، يبقى في الخدمة به ومن لم تظهر فيه يبدل بغيره، والسلام»[321].

نستنتج من قراءتنا الوثائق المسجلة أعلاه أن البعثات التعليمية فقدت العمق التربوي والمؤسساتي الذي يضمن لها عوامل الاستمرار والتطور؛ فلم

(318) Brooks, pp. 280-281.

(319) رسالة الحسن الأول إلى الطريس في 25 ذي القعدة 1302هـ - 5 أيلول/ سبتمبر 1885م، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 70/ 186.

(320) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 144.

(321) رسالة الحسن الأول إلى القائد محمد بن عبد الصادق، بتاريخ 6 جمادى الأولى 1309هـ - كانون الأول/ ديسمبر 1891م، خ.ع.ت، محفظة 10/ 75.

يكن ثمة مدرسة وطنية ذات برامج تعليمية واضحة، تمكّن من اكتشاف عناصر النباهة والذكاء. وكانت اختيارات المخزن، بفعل ذلك، غير واضحة ومضطربة؛ ذلك أن عملية استبدال المتعلمين سمة لازمت هذه البعثات ودلت على أزمة الاختيارات، بل على تأخر المنظومة التربوية وعدم قدرتها على مسايرة الرغبة في الانفتاح على التقانة الغربية.

فصّلت في موضوع التعليم في القسم الأول وأبرزت خصائصه ودرجة عمقه التاريخي والمؤسساتي، وكنت أهدف، من ذلك، إلى الكشف عن إحدى المعضلات البنيوية التي حدّ من إمكانية نجاح عملية إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج.

لم يكن إشراف المخزن وانتقاؤه أفراد هذه البعثات موفّقًا في أحيان كثيرة. وكانت اختباراته غير كافية في نظر الأوروبيين، ويتجلى ذلك في تدخّل الجهاز الدبلوماسي والقادة العسكريين الأوروبيين في المغرب في تنظيم هذه العملية؛ فقد ساهم جون دريموند هاي في انتقاء ثلاثة طلبة لتعلم الفنون الحربية في إنكلترا (1291هـ/ 1874م)[322]، وقام السفير الإيطالي جنتيلي بجولة لانتخاب الطلبة المرشحين للذهاب إلى إيطاليا، «فاختار من مدينة الرباط عشرة، ومن سلا خمسة، ومن العرائش أربعة، ومن طنجة ثلاثة، ومن فاس اثنين...»[323]. وأوعز وزير فرنسا في طنجة بإطالة مقام البعثة الدراسية المغربية نحو مونبولييه (1303هـ/ 1886م) لترسيخ فكرة عظمة الحضارة الفرنسية لدى أعضائها، وأشرف الإنكليزي إدوارد على البعثة التي أُرسلت إلى الولايات المتحدة[324]. كما ورد في العز والصولة في شأن بعثة عام 1293هـ إلى جبل طارق، انتخاب الحراب الإنكليزي ماكلين المرشحين للتكوين العسكري بجبل طارق[325]. وفي عام 1884 كتب الحسن الأول: «... وبعد، فقد كان طلب باشدور الطليان من جانبنا العالي بالله توجيه اثني عشر من المتعلمين يكون سنهم من الأربعة عشرة سنة مجادون يتعلمون ببلاده وعليه فنأمرك أن تدفعهم له من المتعلمين

(322) بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 469.

(323) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143.

(324) Miège, Vol. 3: *Les Difficultés*, p. 96.

(325) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 152.

الذين تركهم ولدكم الحاج محمد أصلحه الله بطنجة»[326]. وفي رسالة سلطانية يذكر المولى الحسن الأول: «... أخبرني باشدور الطليان أن المتعلمين الاثني عشر من أهل الرباط وسلا لم توجد فيهم قابلية التعلم لكبر سنهم، فكلفناه بتوجيه نائبه لك بقصد انتخاب أربعة من أنجب ولدان أهل سلا...»[327]. ويدل هذا الفعل على تداخل الأدوار المخزنية والأجنبية في عملية انتقاء المتعلمين المرشحين للدراسة في الخارج.

على الرغم من الحضور الأجنبي في عملية إيفاد البعثات التعليمية المغربية إلى دول أوروبا، كانت مؤسسة السلطان المهندس المحوري للفكرة، ويأتي إقحام الممثلين الأجانب في المسألة للتوظيف الدبلوماسي واستغلال التناقضات التي نشأت بين الدول الأوروبية المتنافسة على المغرب، خصوصًا فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا.

نقرأ في رسالة سلطانية متميزة ما يلي: «...، وبعد، فقد أخبرنا الحاج عبد الرحمن بن إدريس الطنجي أن له ولدًا طالبًا بلغ مبلغ الرجال، وطلب من جانبنا العالي بالله انتظامه في جملة من يتوجه بقصد التعلم عند بعض الأجناس فساعدناه على ذلك..»[328]، وهو اختيار استثنائي؛ ذلك أن الكثير من الآباء كانوا يطلبون الشفاعة درءًا لإرسال أبنائهم للتكوين في الخارج، كما يتضح من رسالة مخزنية وجّهها محمد بركاش إلى النائب محمد الطريس ورد فيها: «...، وهؤلاء المتعلمون هم غاية ما تيسر في الوقت مع طول المدة وكل من توفّرت فيه الشروط لا يسمح به أهله ولا يخفاك كثرة الشفعاء الذين يتعين قبول شفاعتهم..»[329]. ويتبيّن، من خلال الرسالة، حقيقة الموضوع وصِدقيته؛ ذلك أن أغلب المتعلمين الذين جرى انتقاؤهم للتعلم القبلي لا نجد لهَم أثرًا ضمن الوفود التي يممت نحو إيطاليا للتعلم والتكوين.

---

(326) رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى محمد بركاش بتاريخ 13 محرم 1302هـ الموافق 2 نونبر 1884، م.و.م.

(327) ورد في: المنوني، ج 1، ص 189.

(328) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 25 محرم 1304هـ / أكتوبر 1886م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 5.

(329) رسالة محمد بركاش السابقة إلى النائب محمد الطريس، بتاريخ 11 شوال 1303هـ - 13 تموز/ يوليو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 71/ 99.

مقارنة بتجربة اليابان في إيفاد طلبتها للدراسة في الخارج، لا نجد في المصادر التاريخية المغربية أو الأجنبية رسالة سلطانية تخاطب، بشكل مباشر، أفواج المتعلمين المغاربة، يحفز من خلالها السلطان الكفاءات، ويوضح لها المقاصد والأهداف ويضعها أمام امتحان المغالبة الحضارية. وإذا كانت هذه الفكرة غائبة في المراسلات السلطانية ذات الصلة، فإن بعثة إيواكارا في عام 1871، لم تتوجه إلى الولايات المتحدة وأوروبا إلا بعد استقبال رسمي من الإمبراطور، وجّه فيه خطابًا مفعمًا بالروح الوطنية، ومحفزًا على بذل الجهد العلمي لاكتساب المنعة والقوة[330]. من جانب آخر، يبدو من خلال كرونولوجيا البعثات التعليمية غياب معطيات كاملة بخصوص المدن التي اختير منها أفراد البعثات التعليمية المرشحة للدراسة في الخارج، فمن بين 543 متعلمًا لا نتوفّر سوى على 89 منهم، ذكرت المدن التي يتحدرون منها[331]:

الجدول (4-20)

عيّنة بالطلبة والمناطق التي تحدّروا منها

	المتعلم	الأصل	البعثة
1	الطاهر بن الحاج الأوديي	فاس	بعثات عام 1291هـ/ 1874م/ إلى فرنسا، إنكلترا، إيطاليا، ألمانيا، إسبانيا
2	محمد بن الكعاب الشركي	فاس	
3	عمر بن محمد الكباص	فاس	
4	الزبير سكيرج	فاس	
5	إدريس بن عبد الوهاب بوعزة (عبد الواحد الفاسي)	فاس	
6	محمد بن أحمد بناني الفاسي	فاس	
7	الميلود الرباطي	الرباط	
8	أحمد بن الحاج العباس الفاسي	فاس	
9	عبد السلام الرباطي	الرباط	
10	محمد الشرادي الرباطي	الرباط	

يتبع

(330) خصصنا مبحثًا خاصًا ببعثة إيواكارا ضمن الفصل الخامس، وأوردنا وحللنا فيه خطاب الإمبراطور موتسو هيتو إلى أفراد البعثة اليابانية.

(331) تمّ الاعتماد في هذه المعطيات على الجداول الواردة في مبحث كرونولوجيا البعثات العلمية.

تابع

11	محمد بن سعيد القرقور	فاس	بعثة عام 1885 إلى فرنسا
12	محمد بن دحمان	تطوان	
13	أحمد بن عبد الرحمن	تطوان	
14	عمر بن محمد المسفيوي	آسفي	
15	محمد الهواري المسفيوي	آسفي	
16	محمد بن عبد الرحمن الزواوي	آسفي	
17	عبد اللـه بن العربي بن مالك الأوديي	الرباط	
18	محمد بن عبد الرحمن المراكشي	مراكش	
19	محمد بن أحمد الحسايني	أصيلا	
20	العربي بن الحاج عبد السلام	مازكان	
21	محمد المنقري	فاس	بعثة بلجيكا، الفوج الأول
22	أحمد الجندي	فاس	
23	إدريس بن وحود	فاس	
24	علي بن قدور الحياني	فاس	
25	محمد بن علي	فاس	
26	محمد الصفريوي	فاس	
27	عبد الرحمان البغدادي	فاس	
28	محمد بن ميمون	فاس	
29	الحسن الجندي	فاس	
30	حمان بن أحمد المشطون	مكناس	
31	عمر الوعدودي	الدار البيضاء	
32	أحمد بن علي العلج	مكناس	بعثة بلجيكا، الفوج الثاني
33	محمد الودغيري	فاس	
34	محمد بن التهامي	فاس	
35	محمد بن الحقيان	مكناس	
36	محمد بن الحساين	مكناس	
37	محمد المؤذن	فاس	
38	حمان بن عبد اللـه المراكشي	مكناس	
39	المعطي بن إبراهيم السويسي	مكناس	
40	عبد اللـه بن حماد الزموري	مكناس	
41	محمد بن العباس أمان	مكناس	بعثة بلجيكا، الفوج الثالث
42	محمد بن زروق	مكناس	

يتبع

تابع

43	العرفاوي بن الحاج حميدة	مكناس	بعثة بلجيكا، الفوج الثالث
44	العباس بن المصطفى	مكناس	
45	سالم بن إبراهيم	مكناس	
46	بنعيسى بن الراوين	مكناس	
47	العرفاوي بن عمر	مكناس	
48	إدريس بن محمد زلو الصفار	فاس	بعثة بلجيكا، الفوج الرابع
49	أحمد بن موسى	فاس	
50	العرفاوي بن الطاهر النجاري	مكناس	
51	محمد بن الحاج حمادي	مكناس	
52	المختار بن المكي البطاحي	مكناس	
53	المكي بن الحاج الجيلالي بريطل	الرباط	
54	الحاج عبد القادر الركاني	الرباط	
55	المعلم الحسين بن محمد	مكناس	
56	الجيلالي بن الحاج	مكناس	
57	الجيلالي بن مبارك	مكناس	
58	العباس بن قاسم	مكناس	بعثة بلجيكا، الفوج الخامس
59	إدريس بن الحداد	مكناس	
60	أحمد بن صادح	مكناس	
61	بوسلهام بن حمو	مكناس	
62	محمد الدردب	طنجة	بعثة عام 1884 إلى ألمانيا
63	محمد بن الفقيه بيوض	طنجة	
64	محمد الفيلالي	طنجة	
65	محمد سباطة	الرباط	
66	أحمد الشديد	الرباط	
67	أحمد بن محمد الحجام	سلا	
68	محمد بن الحاج محمد النجار	سلا	
69	أحمد الجبلي العيدوني	الرباط	بعثة عام 1887 إلى إيطاليا
70	محمد الحريزي	الرباط	
71	علي السوسي	العرائش	
72	الحسين الزعري	سلا	
73	محمد الوازع	الرباط	
74	محمد التدلاوي	الرباط	

يتبع

تابع

75	محمد طجة	الرباط	بعثة عام 1887 إلى إيطاليا
76	محمد بن سالم	الرباط	
77	محمد الشرقاوي البهالي	الرباط	
78	محمد ولد الباشا	الرباط	
79	التهامي اميركو	الرباط	
80	فضول بن صالح	العرائش	
81	مصطفى الأوديي	العرائش	
82	محمد البرجالي	العرائش	
83	محمد بن إسماعيل	سلا	
84	أحمد أحرضان	طنجة	
85	العربي حركات	سلا	
86	عبد اللـه التيال	سلا	
87	محمد القجيري	سلا	
88	مصطفى لحلو	فاس	
89	محمد القباج	فاس	

يبدو من خلال الجدول/ العيّنة هيمنة مدن معينة في انتقاء الطلبة المتعلمين في الخارج. ويتضح ذلك من الجدول (4-21) الآتي:

الجدول (4-21)

عيّنة مختارة من المتعلمين المغاربة في الخارج بحسب المدن

	المدينة	عدد الطلبة الموفدين إلى الخارج	النسبة (في المئة)
1	فاس	24	27.0
2	مكناس	24	27.0
3	الرباط	17	19.1
4	سلا	07	7.9
5	طنجة	04	4.5
6	العرائش	04	4.5
7	آسفي	03	3.4
8	تطوان	02	2.2
9	الدار البيضاء	01	1.1

يتبع

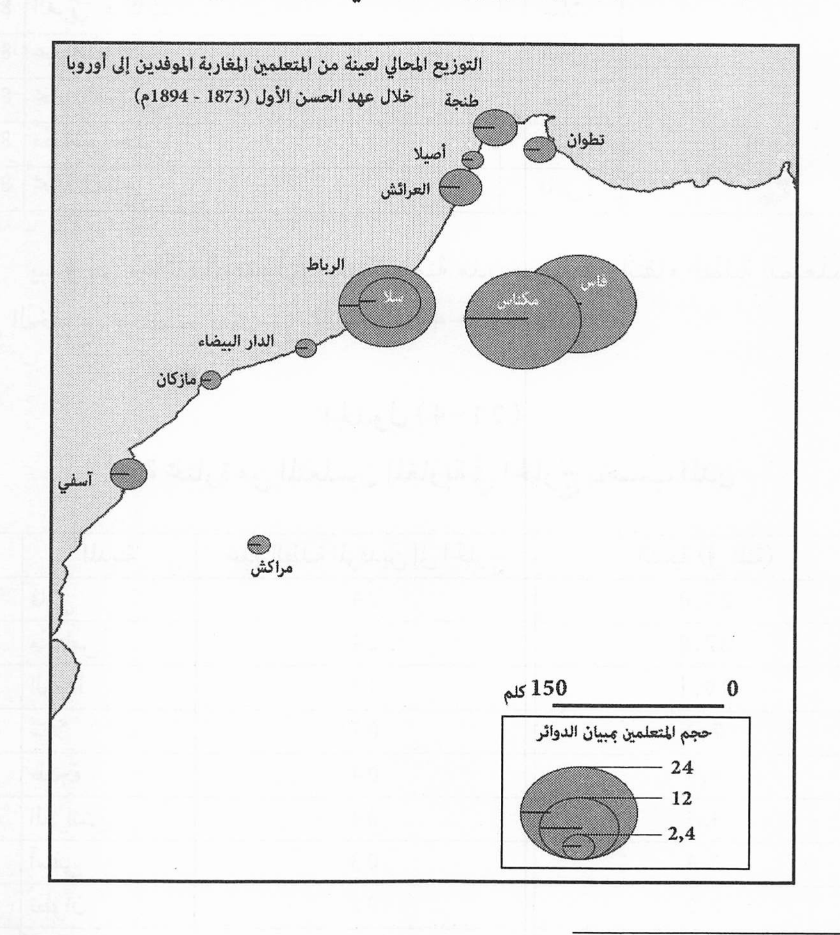
تابع

10	مراكش	01	1.1
11	أصيلا	01	1.1
12	مازكان	01	1.1
13	المجموع	89	100

إن توضيح التوزيع المجالي للبعثات التعليمية المغربية، وإبراز اختيارات المخزن اضطّرنا إلى تمثيل أفراد العيّنة في خريطة معبِّرة عن هذه الظاهرة.

الخريطة (4-1)

عيّنة للمتعلمين الموفدين إلى أوروبا في عهد الحسن الأول[332]



(332) استعنّا في وضع الخريطة بالكريم عبد الحق الصادق.

إذا كانت بعثة عام 1291هـ/ 1874م تُفصح عن أغلب المدن التي تحدّر منها المتعلمون، فإن هذه المعطيات تنعدم بالنسبة إلى البعثات التي أُرسلت إلى جبل طارق.

من ضمن الطلبة التسعة الذين أُرسلوا إلى معامل كروب في ألمانيا، في عام 1301هـ/ 1884م، لا نجد معلومات في هذا الصدد عن المتعلمَين أحمد بن القايد والعربي بن الصديق. وتميزت البعثات المرسلة إلى بلجيكا بتدقيق مهم في إيراد أسماء المدن التي اختير منها المتعلمون، خصوصًا الأفواج الأربعة الأولى، واعتُمد في ذلك على كناشة محمد بن الكعاب الشركي الذي كان مترجمًا لها. في حين لا تتوافر مثل هذه المعلومات بالنسبة إلى الفوجين الخامس والسادس المذكورين عند ابن زيدان في العز والصولة.

من جهة أخرى، لم يرد ذكر أصل أفراد البعثة التي أرسلت إلى مونبولييه (1302هـ/ 1885م)، في الوقت الذي توافرت لدينا فيه معلومات مهمة عن المدن التي تحدّر منها طلبة البعثات التعليمية الأخرى.

تتأرجح المصادر والمراجع بين إثبات المعطى الجغرافي وذكره، وهو معطى قمين بأن يكشف عن اختيارات المخزن وخلفياتها ومعانيها السياسية والاجتماعية.

يمكن اعتبار الأرقام الواردة في الجدول عيّنةً ملائمة لاستنتاج اختيارات المخزن المجالية، ولوضع مجموعة فرضيات تكشف عن أهداف الإصلاح التي رام المخزن القيام بها من خلال آلية البعثات التعليمية إلى الخارج.

باستخدام المنهج الإحصائي يمكن التوصل إلى النتائج الآتية:

من ضمن 89 متعلمًا ذُكرت مناطق تحدّرهم، نجد أن أغلبهم كان ينتمي إلى مدينتي فاس ومكناس بنسبة 54 في المئة، وهما المدينتان اللتان شكلتا مركز الاستقرار المخزني الإداري والعسكري. وإذا أضفنا إليهما الرباط وسلا تصبح 81 في المئة، وهو ما يدل على طبيعة الوضع التعليمي ونمط تكوين الأطر الذي اعتمد على الانتماء إلى المؤسسة العسكرية المغربية التي استقر أفرادها في كلٍّ من مكناس وفاس، كما يفصح ذلك عن عجز المنظومة التعليمية

عن تغطية التراب الوطني كله. ولا نجد في هذا الإطار ضمن الطلبة المرشحين للدراسة في الخارج أي متعلم من الناحية الشرقية.

يمكننا القول إن مجمل أفراد البعثات التعليمية المغربية كان من المناطق الخاضعة للنفوذ المخزني، ونستبعد، بالنظر إلى طبيعة العلاقة التي نشأت بين المخزن والقبائل غير الخاضعة، اختياره أفراد من القبائل المتمردة.

لقد شكّلت قبائل الشرادة والأودايا والبواخر مستوطنات عسكرية حول المدن الأميرية، مثل فاس ومكناس والرباط[333]. وكان مجمل العيّنة السابقة من هذه المدن الثلاث. وتنسجم هذه الاختيارات مع ثوابت أطّرت توجهات المخزن في تعييناته الإدارية المهمة، مثل إسناد منصب الأمناء، «فمن بين أمناء المراسي الذين عُيّنوا سنة 1304هـ/ 1887م نجد تسعة أمناء من مدينة فاس»[334].

تحدث العروي عن «اهتمام الحسن الأول بتكوين الشبان المنتمين للعائلات الكبيرة بالمغرب»[335]، وهو قول يحتاج إلى تمحيص وتدقيق؛ فمذكرة ابن الكعاب الشركي والوثائق الأجنبية تتحدث عن مشكلات مالية عويصة واجهها عدد مهم من المتعلمين في بلجيكا وفرنسا[336].

في هذا الإطار، يمكن إيراد شواهد أخرى تشكك في الانتماء المطلق لأفراد البعثات التعليمية المغربية إلى ما يسمّى «البرجوازية»، ومنها رسائل تبادلتها المفوضيات الأجنبية والدوائر المخزنية؛ فقد كتب نائب إيطاليا إلى غريط في عام 1891، قائلًا إن متعلمي «اللغة الطاليانية بطنجة بقصد توجيههم لإيطاليا لإتمام قراءتهم فهم تقريبًا عريانين. هذا نحو عام ونصف قبل قدومهم لطنجة قبضوا كسوة للواحد من عامل الرباط، ومن ذلك الوقت لم يقبضوا كسوة أخرى. المطلوب منك تطلع بذلك علم الحضرة الشريفة... بإصدار أمر للأمناء

(333) Frédéric Weisgerber, *Au seuil du Maroc modern*, notes et documents (Rabat: Les Éditions la Porte, 1947), p. 60.

(334) نعيمة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، 1290-1311، 1873-1894: مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، أطروحات ورسائل؛ 2 (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1979)، ص 60.

(335) Laroui, p. 289.

(336) حركات، ص 39.

أن يكسوا عاجلًا المتعلمين.. إن هذه المتعلمين في طنجة للقراءة فقط ولا يمكن لهم جعل شغل آخر ليكسوا أنفسهم بأنفسهم بمالهم»[337]. لم يكن الطلبة قد غادروا إلى أوروبا، وكانت السبل سالكة لإيصال المدد والعون العائلي إلى هؤلاء المتعلمين، لو كانوا من الميسورين. كما وردت رسالة من النائب محمد بن العربي الطريس إلى المولى عبد العزيز ذكر فيها: «إن هؤلاء المتعلمين صبيان صغار، وآباؤهم فقراء مساكين، طالبين من مولانا إعانتهم بما تجود به العواطف السنية»[338]. ويرد أيضًا في رسالة سلطانية: «...، وصل كتابك وطيه نسخة من ما كتب لك به نائب الطليان في شأن المختار والصديق الموجهين بأمرنا الشريف للتعلم عندهم بأنهما أدخلا في المرتبة الثالثة من التعلم، وزيد لهما على الثلاث سنين سنة رابعة لإكمال ما وُجّها لأجله، وأنه عيّن لهما مهندس خاص بتعليمهما مع ما تتحمله المدرسة من الصوائر لذلك، اعتناء بجانب المخزن... وطلبت إعانة والديهما بصلة لفقرهما وصار بالبال»[339].

من جانب آخر، وحتى بالنسبة إلى المتعلمين في فرنسا وإيطاليا وإنكلترا، كانت أعداد كبيرة من التجار والميسورين المغاربة تمارس نشاطها في الخارج، في فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وألمانيا، وكانت الفرص متاحة لإيصال العون والمدد المالي إلى الطلبة الذين ضاقت بهم سبل الحياة في البلدان الغربية.

أتفق نسبيًا مع من قال بانتقاء المخزن أفرادًا ينتمون إلى دائرة النخبة المخزنية. وترد مراسلات تُبرز انتقاء بعض أبناء الأمناء للاستفادة من التعليم الأجنبي، ومن ذلك رسالة السلطان الحسن الأول إلى الحاج محمد العربي الطريس، قال فيها: «...، وبعد، وصل كتابك بأن الخديم عبد الصادق كان رتب بأمرنا الشريف ستة متعلمين من أبناء أمناء طنجة للطب الصبنيولي يعلمهم الطب..»[340].

---

(337) رسالة كانطاغالي إلى غريط، في فاتح يونيو 1891، م.و.م محفظة إيطاليا .

(338) رسالة محمد الطريس إلى المولى عبد العزيز بتاريخ 28 شوال 1324هـ/ 15 دجنبر 1906م، م.و.م.م، الكناش 2720، ص 228.

(339) رسالة السلطان في 15 حجة 1324هـ/ 30 يناير 1907م، نصها في الكناش 1695، م.و.م.م، ص83.

(340) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد العربي الطريس بتاريخ 25 ذي الحجة 1310هـ - 10 يوليوز 1893م، خ.ع. ت، محفظة 11/ 131.

كما يذكر عبد الغني سكيرج أن من أسباب انتقال الطالب الزبير سكيرج من فاس إلى الرباط الخوف عليه من التجنيد الذي كان سيفرض على المغاربة إذ ذاك. وكان الذي تكلف به هو عمه الشيخ المكي البرنوصي، وتولى رعايته من بعد أبو عبد الله الجباص، نائب الملك آنذاك، ويختم قائلًا: «ولعل هذا سبب اختياره ضمن الطلبة الذين توجّهوا إلى أوروبا لإتمام دراستهم هناك»[341]. ويدل ذلك على ارتباط عملية الانتقاء، أحيانًا، بالانتماء إلى دائرة الفئات المخزنية، كما يمكننا استنتاج خيط الانتماء إلى دائرة الشرف وعلاقته بالتعلم بالخارج من ثنايا ما ذكره أحد أعضاء البعثة الإيطالية (1305هـ/ 1888م) الحسين الزعري، مقررًا: «أصلي منذ جدي الشريف الحسيني العيدوني الإدريسي: سيدي عبد الله بن عبد الوهاب الجبلي الذي أجداده متمون للذرية المباشرة لثامن أبناء السلطان مولاي إدريس...»[342]. ومع ذلك، لا نعتقد، كما سبق أن أشرنا، أن في اعتماد مبدأ الانتماء مقياسًا أساسًا ومحوريًا في انتقاء أفراد البعثات التعليمية المغربية للدراسة والتكوين في الخارج.

يمكن تأكيد الحضور الأجنبي في عملية الانتقاء في رسالة وجّهها المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، ورد فيها: «... وبعد، فقد أخبرني باشدور الطاليان أن المتعلمين الإثني عشر من أهل الرباط وسلا لم توجد فيهم قابلية التعلم لكبر سنهم، فكلفناه بتوجيه نائب له بقصد انتخاب أربعة من أنجب ولدان أهل سلا، الذي سنهم من الإثنتي عشرة سنة إلى الثلاثة عشرة سنة. فإذا وجهه لك فنأمرك أن تحضر له عددًا منهم من السن المذكور لينتخب منهم الأربعة، وحيث ينتخبهم أبقهم تحت يدك، ووجه لنا زمام أساميهم لنأمرك بما يكون فيهم»[343].

يبدو أننا في صدد تداخل الأدوار في عملية انتقاء وتوجيه البعثات التعليمية إلى أوروبا. فقد كان المخزن يأخذ بـ «نصائح» «الدول المحبة» واقتراحاتها. وكان للأجانب دور مهم في اختيار الأفراد، وكانوا يهدفون إلى

---

(341) سكيرج، ص 29.

(342) أوردها: بوشعراء، ص 1392.

(343) من وثائق آل بن سعيد بسلا، ورد في: المنوني، ج 1، ص 189.

خدمة مصالح القوى الأوروبية المتنافسة، وذلك بتطعيم البعثات العسكرية الفرنسية والبريطانية والإيطالية بأطر مغربية ملحقة وتابعة.

على مستوى آخر، لم يكن المخزن واضحًا في تحديد وجهة هذه البعثات؛ ففي المراحل الأولى، انسجمت سياسته مع مبدأ استغلال التناقضات الأوروبية، فأرسل أفرادًا للتعلم إلى جميع الدول ذات العلاقة المباشرة بالمسألة المغربية، مثل فرنسا وبريطانيا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا، بل وظفت هذه البعثات لضبط ميزان التناقضات مع القوى الأوروبية المتنافسة، وهو ما أشرنا إليه عند الحديث عن بعثتي 1291هـ/ 1874م إلى ألمانيا وفرنسا؛ إذ ارتبط إرسالهما بسياسة المخزن الدبلوماسية، واستُعملتا كورقة لضبط إيقاع التوازن بين مصالح الدولتين في المغرب. وربما يفسر ذلك تأخر انطلاقتهما، مقارنة بمثيلاتها إلى إيطاليا وبريطانيا وإسبانيا.

في مرحلة لاحقة تزايدت الوفود التعليمية إلى بلجيكا، وبلغ عدد أفرادها أكثر من ستين طالبًا في ستة أفواج (1301هـ/ 1884م - 1305هـ/ 1888م). وظهر من خلالها اهتمام المخزن الحسني بالقوى التي كان يظن حيادها وقلة اهتمامها بالمصالح الاستعمارية في المغرب.

إجمالًا، يبدو أن أغلب المتعلمين كانوا ينتمون إلى مؤسسة الجيش المخزني، إلى الأودايا والبواخر[344]، كما أن عددًا كبيرًا منهم كان يجري اختياره من بين «قواد المية»، إضافة إلى «العساكر الفاعلة، أي الفئة التي ظن المخزن أنها قابلة لتنمية قدراتها بسرعة وقادرة على الاستفادة من التداريب بالخارج»[345].

كان بعض البعثات التعليمية الموفدة إلى مصر في عام 1283هـ «من ثلاثين طالبًا مختارين من أبناء الجيش البخاري»[346]. ويمكن القول إن عددًا كبيرًا من الطلبة المتعلمين كان ينتمي إلى مؤسسة الجيش المغربي، خصوصًا أن التعليم المستهدف ركّز على ما له صلة بفنون الحرب والقتال.

---

(344) Laroui, p. 289.

(345) سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، ص 305.

(346) المنوني، ج 1، ص 157.

يتضح من جداول البعثات التعليمية أن الأفراد كانوا في أغلبهم دون الخامسة والعشرين، بل إن بعثة 1305هـ/ 1888م إلى إيطاليا ضمّت في صفوفها أحمد الجبلي العيدوني، وكان عمره 11 عامًا، ولم يتجاوز سقفها الأعلى 22 عامًا. وكان للسفير الإيطالي دور بارز في ذلك، كما سبق أن أوضحنا.

تحدث أحمد الجبلي العيدوني في مذكرته قائلًا: «.. وبالكتاب القرآني لم نكن أنا وأخي الذي يكبرني بـ18 شهرًا، في فصلنا تلميذين نبيهين»[347]. لكنه لم يفصّل في مسيرته التعليمية وتحسّن مستواه الدراسي الذي كان سببًا في انتقائه في عهد المولى الحسن الأول للتعلم في إيطاليا. وما يدل على نبوغه وذكائه قوله: «وكنت شغوفًا بالرياضيات، وواتاني الحظ في هاته المادة نفسها، فحاولت تبعًا لذلك أن أخوض امتحان قبولي في الأكاديمية العسكرية لضباط المدفعية والهندسة الحربية بطورينو، ولما نجحت بمعدل 17.75 من 20 كان فرحي عظيمًا..»[348].

يدل تركيز المخزن على متعلمين صغار السن على محاولة الاستفادة من أخطاء البعثات السابقة؛ إذ كان الاختيار يشمل الأطر العسكرية المسنة، ومنها البعثات التعليمية الأولى التي أُرسلت إلى مصر في فترة حكم محمد الرابع. إضافة إلى ذلك، كان المخزن يتخوف من انتقاء الأطفال الصغار درءًا لفساد عقيدتهم وأخلاقهم الإسلامية. وقد ورد في هذا الصدد في مراسلة مخزنية ما يلي: «...، وبعد، فقد بلغ علمنا الشريف أن الصبيين الذين توجها للتعلم بإيطاليا صغيران لا يميزان بين ما يضر وما ينفع، وربما يخشى عليهما من تمكن غير شعائر الإسلام في قلوبهما وإشراب قلبهما لذلك حيث صادف قلبًا خاليًا بحيث إن رجعا يعسر محو ذلك من باطنهما، مع أنه كان ينبغي التنبه لمثل هذا وتوجيه من يؤمن عليه في التمسك بدينه، وعليه فنأمرك أن تنظر فيما يمكن به تدارك ذلك كتوجيه من يناسب لملازمتهما وكفهما عن تعاطي ما يفسد عقيدتهما ويحضهما على عدم نبذ شعائر الإسلام كالصلاة والصيام مدة إقامتهما ثمة. وأعلم بما تقتضيه المصلحة ويمكن والسلام»[349].

(347) مذكرة الجبلي العيدوني، وردت في: بوشعراء، ص 1394.

(348) المصدر نفسه، ص 1394.

(349) رسالة المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس في 18 جمادى الثانية 1318هـ - 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1900م، خ.ع.ت، محفظة 120/ 18.

لا شك في أن الهيئات الدبلوماسية الغربية ساهمت بقسط وافر في انتقاء شبان صغار للتعلم في أوروبا، واضطر المخزن إلى مسايرتها في ذلك بسبب النتائج السلبية التي حققتها البعثات المغربية التي أُرسلت إلى المشرق، في عهد محمد الرابع، إذ حال عامل السن دون تحقيق نتائج إيجابية.

اشتركت البعثات التعليمية المغربية ومثيلتها اليابانية في انتقاء صغار المتعلمين، لكن ميزة السن لم تحقق قيمة مضافة إلى موضوع البعثات التعليمية. ولم تكن، بناءً عليه، عاملًا محددًا وحاسمًا في التحصيل الدراسي السليم والفاعل؛ فقد احتاج المتعلمون المغاربة إلى مقدمات الانتظام المؤسساتي والتراكم المعرفي الكفيلين بتحقيق الثمرة التربوية المنشودة.

افتقد المغرب مدرسة وطنية تؤهل لعملية انتقاء سليم وواضح. وتبين لنا المراسلات السلطانية العَنَتَ الكبير الذي لازم عملية الانتقاء التي كانت تُختم أحيانًا بالاستغناء عن كثير من الممتحنين واعتبارهم حشوًا لا يقبل التعليم والتلقين.

لا يمكن أن يتم الإصلاح من دون مؤسسات قارّة وممتدة وذات إمكانات مادية؛ فهل كانت وضعية المغرب المادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كفيلة بتمويل البعثات التعليمية المغربية وإنجاح المبتغى التنموي الذي رام الحسن الأول من خلاله تعويض الأطر العسكرية الأجنبية بمثيلتها المغربية؟

خامسًا: التمويل والنفقات

مثّلت مسألة تمويل البعثات التعليمية المغربية في الخارج كابحًا يمكن من خلاله التقاط مقدمات الفشل التنموي الذي رام المخزن تحقيقه من وراء هذه الآلية التحديثية. وتطلب إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج مبالغ مالية هائلة، في زمن اشتد فيه الضغط الأجنبي على المخزن الذي أرغمه على دفع تعويضات المعارك السابقة والأضرار التي ألحقها الرعايا المغاربة في حق الأجانب المقيمين في أرضه. وقد يكون في ذلك وسيلة قصدت القوى الإمبريالية من خلالها تجريد المغرب من أي إمكانات نهوض محتملة بتجفيف المنابع المادية للمقدمات الإصلاحية.

كان المخزن الجهة الوحيدة التي تكفّلت بعملية إيفاد البعثات التعليمية إلى أوروبا وتمويلها. وقد ساهم ذلك في إرهاق خزينته الفقيرة. وكان من الممكن تحقيق نجاح نسبي في المسألة لو وجِدت، كما في الحالة اليابانية، فئات مجتمعية أو أسر أو مقاطعات تنافس الإدارة المركزية في تحمل الأعباء واستثمار النتائج المرجوة، لكن طبيعة البنى السياسية ونمط العلاقة بين الدولة والمجتمع حدًّا من هذه الإمكانية، الأمر الذي عقّد قضية تمويل احتاجت إلى إمكانات لم تكن متوافرة.

لا أتفق مع جمال الحيمر عندما قال إن «المصادر المتوفرة تلوذ بالصمت بخصوص هذا الجانب، باستثناء بعض الإشارات المقتضبة التي لا تسعف الدارس في تقديم صورة واضحة ومفصلة حول التغطية المالية للبعثات الطلابية»[350]؛ فعلى العكس من ذلك، تقدم وثائق الخزانة العامة في تطوان معلومات متميزة ومتعددة تُفصح بلغة الأرقام عن تمويل المتعلمين المغاربة في إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا، وهي الوثائق التي اعتمدتُها هنا. ويمكن استنتاج آلية التمويل من خلال الرسائل السلطانية، ومنها رسالة وجّهها المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، قائلًا: «...، وبعد، فنأمرك أن توجه للمتعلمين بإفرانسة مئونة خمسة أشهر أخرى على يد الباشدور وذلك عند انصرام الخمسة الأشهر الأولى التي وجّهت لهم مئونتها، وكتابنا للأمناء بمرسى طنجة بذلك يصلك طيه والسلام»[351].

في أغلب الحالات، كان السلطان يكتب رسالتين، توجّه الأولى إلى النائب السلطاني أو إلى الشخصية المخزنية المكلّفة بعملية التنسيق مع القناصل الأجانب بخصوص المتعلمين المرشحين للدراسة في الخارج، أما الرسالة الثانية، فتوجَّه إلى أمناء المراسي لتنفيذ المؤونة المالية المطلوبة. ومثال ذلك ما ورد في رسالة هاي السابقة إلى الصدر الأعظم محمد بن العربي الجامعي، وذكر فيها: «...، وبعد، وصلني مكاتبكم المؤرخة في 6 محرم داخلها كتاب

---

(350) الحيمر، «البعثات التعليمية،» ص 103.

(351) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 6 محرم 1303هـ/ أكتوبر 1885م، خ.ع.ت، محفظة 4/ 4.

للأمناء تأمرونهم فيه يؤدون من حساب الثلاثة الأولاد المتعلمين الذين هم في بلادنا لصائرهم ليبرات 160...»[352]. وتتبيّن من خلال الوثائق المخزنية هرمية التمويل التي تبتدئ بأمر سلطاني، يأذن للأمناء بالمراسي بدفع مستحقات التعليم والتكوين بالخارج، على يد النائب السلطاني أو بعض ممثّلي المخزن للممثّلين الدبلوماسيين الغربيين. وإذا كان السلطان هو الشخص الوحيد الآمر بالصرف، فإن الأمناء تخصصوا بعملية التنفيذ، وبينهما نشأت قنوات بيروقراطية عقدت من مسطرة التمويل وتيسير مهمة التعلم والتحصيل بالخارج؛ ويمكن قراءة بعض ملامح هذه العلاقة من رسالة وجّهها الحاجب أحمد بن موسى إلى أمناء طنجة، ذكر فيها: «أحبتنا الأرضين أمناء مرسى طنجة...، وبعد، فالمتعلمان المعيَّنان على يد خديم سيدنا النائب السيد الحاج محمد الطريس من طلبة لسان الطليان بطنجة لأجل توجيههما للطالية بقصد تعلمهما الصناعة البحرية يأمركم سيدنا أيده الله أن تجهزوهما بمثل ما جهز به من كان توجه قبلهما لتعلم الصناعة المذكورة وأن تكونوا تنفذون لهما في المستقبل مثل ما كان ينفذ للمذكورين حسبما يبيّنه لكم خديم سيدنا الحاج محمد الطريس وعلى المحبة والسلام»[353].

ونجد رسالة سلطانية توضح بدقة كيفية تمويل البعثات التعليمية في بلجيكا، ورد فيها: «...، وصل جوابك بأن أمناء مرسى طنجة تحاسبوا مع ترجمان البلجيك على مئونة المتعلمين ببلادهم المنجزة لهم على أيديهم وعلى ثمن كسوتهم وكراء محل تعلمهم وشهرية معلميهم والحوايج والمكينات التي يخدمون بها كل حاجة ومكينة باسمها وثمنها على حدتها وقف أمرنا الشريف بمحضر الطالب محمد بن الكعاب لكونه على بال من سائر الصائر وتفصيله، فخرج مدركًا على المخزن من قبل ما ذكر كله 29797.15 (تسعة وعشرون ألف فرنك وسبعمائة وسبعة وتسعون فرنكًا وخمسة عشر سنطيمًا) حسبما هو مبيَّن على التفصيل في التقييد الذي وجّهه الأمناء لحضرتنا الشريفة بطي

(352) رسالة هاي السابقة إلى الصدر الأعظم محمد بن العربي الجامعي، في: مجموعة الوثائق، العدد 6 (1987)، ص 26.

(353) رسالة أحمد بن موسى إلى أمناء مرسى طنجة بتاريخ 1 رمضان 1315هـ - 24 كانون/ يناير 1898م، خ.ع. ت، محفظة 24/ 131.

كتابهم وصار بالبال، فقد أمرناهم بأن يؤدوا للترجمان البلجك المدرك المذكور ويحوزوا منه خطه بتوصله به ويوجهوه لحضرتنا الشريفة، والسلام»[354].

تبيّن الرسالة دور السلطان، آمرًا بالصرف عندما كان يوجّه أوامره إلى الأمناء لحساب المصاريف التي اتسمت بالتعدد؛ فهناك مصاريف الكسوة وتكاليف كراء محل التعلم ومرتّب المكوّنين البلجيك، وثمن الآليات التي اشتغل عليها المتعلمون المغاربة. وللتدقيق في المصاريف المذكورة، اقترح السلطان محمد بن الكعاب شاهدًا على صحة ذلك، باعتباره أحد أبرز المترجمين المرافقين للأفواج التعليمية التي أُرسلت إلى بلجيكا.

من جانب آخر، استفادت البعثات التعليمية اليابانية من التفويض المالي الذي نيط بالمرافقين الإداريين للطلبة اليابانيين في الولايات المتحدة وأوروبا، الأمر الذي يسّر عملية الدراسة والتكوين، وجنّب الطلبة اليابانيين المشكلات النفسية التي عاناها بعض المتعلمين المغاربة في الخارج.

يمكن رصد دور المخزن في تمويل البعثات التعليمية من خلال الكثير من المراسلات والظهائر؛ فقد أصدر السلطان الحسن الأول في عام 1305هـ/ 1888م ظهيرًا خاطب فيه محمد بركاش قائلًا: «وبعد، وصلنا كتابك بأن نائب الفرنصيص طلب منك مشاهرة المتعلمين الذين بباريز عن تسعة أشهر، وقدرها خمس عشرة ريال وأربعة وستون ريال... فقد أمرناهم - الأمناء - بتنفيذ العدد المذكور له، وبأن يكونوا يدفعون واجب كل ثلاثة أشهر في المستقبل»[355]. كما تحدث صاحب **الإتحاف** عن توجّه بعثة عام 1293هـ - 1876م على نفقة المخزن إلى أوروبا لإكمال الدراسة في مدارس إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا[356].

في رسالة بعث بها السلطان إلى محمد بن العربي الطريس جاء فيها: «وبعد، وصل كتابك بأن نائب الطليان كتب لك بما في كتابه الذي وجهت من

---

(354) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال بتاريخ 4 ذي القعدة 1304هـ - 25 تموز/ يوليو 1887م، خ.ع. ت، محفظة 5/ 110.

(355) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 470.

(356) المصدر نفسه، ص 465.

أن مرتب المتعلمين الخمسة عشر الواجب لهم في كل سنة هو سبعة وثلاثون ألفا وخمسمائة من البسيطة بحساب ألفين وخمسماية من البسيطة لكل واحد منهم وطلبه إصدار أمرنا الشريف للأمناء بدفعه له مع صاير سفرهم من جنوه لطورينو، محل التعلم الذي لا زالوا في انتظار الورود بيانه عليهم بحيث لا يقع لهم تعطيل فيه حين يرد عليهم الطلب من دولتهم ومن أنه سيبين صائرًا آخر قليلًا من قبل ما يعطيه المخزن للمتعلمين المشار إليهم لشراء مسائل صغيرة لأنفسهم، وصار بالبال»[357].

تبيّن الرسالة آليات التمويل وتنفيذه عن طريق الأمناء. وإذا علمنا الخلل الوظيفي الذي أصاب أركان هذه المؤسسة وحجم التأخر الذي كانت تتصف به، تبيّن لنا حجم المشكلات التي رافقت عملية تمويل البعثات التعليمية المغربية في أوروبا. وتفصّل مراسلة مخزنية أخرى في مصاريف الدراسة في إيطاليا: «...، وبعد، وصل كتابك بأن نائب الطليان كتب لك على لسان دولته طالبًا تنفيذ الصائر الذي صير على المتعلمين الخمسة الواردين من عندهم المبيّن بكتابه الذي وجهت طيه في ضروريات قدومهم زيادة على الصائر المعتاد الذي يوجّه لهم عند رأس الثلاثة أشهر وقدره خمسة آلاف واثنان وأربعون من الفرنك وأربعة عشر سنطيمًا وأنهينا ذلك لعلم سيدنا أيده الله، فأصدر أمره الشريف لأمناء المرسى بتنفيذه...»[358]. وفي هذا الشأن ذكر الزبير سكيرج في مذكرته أن في عام 1293هـ - 1876م «وعلى نفقة المخزن السعيد وعن أمره سافرت إلى الديار الإنجليزية»[359]. وذكر جاك كايي أن الكولونيل ريونديل (Riondel) قدّم لكل فرد من بعثة مونبولييه (1302هـ/ 1885م) ألبسة ملائمة بنحو 176 فرنكًا، وقد «تم تعويضها من قبل المخزن في فبراير [شباط]

(357) رسالة السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي الطريس بتاريخ 18 ربيع الثاني 1305هـ - 3 كانون الثاني/ يناير 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 46، أوردتها: سيمو، **العلاقات المغربية الإيطالية**، ص 409، ضمن ربائد مديرية الوثائق الملكية من دون إعطائها رقمًا، في حين أن أصلها موجود ضمن الخزانة العامة في تطوان كما يتضح من صورتها التي سبق أن أوردناها، ونوردها هنا تيسيرًا للقراءة.

(358) رسالة أحمد بن موسى إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 10 ربيع الأول 1315هـ/ 9 غشت 1897م، خ.ع.ت، محفظة 24/ 32.

(359) سكيرج، ص 29.

1886م (1303هـ) »[360]. وفي شأن بعثة عام 1292هـ/ 1875م، أتم ثلاثة طلبة من أهل فاس دراستهم في لندن حيث كانوا يدرسون في معاهدها بأمر السلطان الحسن وعلى نفقة الدولة[361]. وفي عام 1299هـ/ 1882م وجّه الحسن الأول الأمر إلى محمد بركاش بتعيين «أناس ترياست والمكينة وعلم البحر... ويكون صائرهم على جانب المخزن، إذ المقصود تعلمهم»[362]. وتذرع دريموند هاي بارتفاع التكاليف المالية لرفض استقبال الطلبة المغاربة لركوب المراكب البريطانية، فذكر معقّبًا: «... فما نشير عليك الآن... أن تطلب من أرباب بابورات الإنجليز ليقبلوا بعضًا من المسلمين في مراكبهم ليعلموا أمور البحر، وتكون لهم الكسوة النظيفة والأجرة لمئونتهم من دولة السلطان»[363].

في رسالة الحسن الأول إلى محمد الطريس في شأن البعثة أُرسلت إلى الولايات المتحدة في عام 1885، ورد أن زمام الصائر على المتعلمين: «تضمن خمسمائة وأربعين ريالًا وسبعة وثمانين سنطيمًا.... وطلبت أمرنا الشريف للأمناء بدفع العدة المذكورة لكاتب باشدور النجليز المتولي قبضها منه، فقد أمرناهم بدفعها على يدك، وكتابنا لهم بذلك يصلك طيه»[364].

نستنتج ممّا سبق أن المخزن كان الجهة الوحيدة التي تكفّلت بتمويل البعثات التعليمية إلى أوروبا، وهو ما يؤكد في حد ذاته وجود جهاز إداري - دولة - تكفّل بمختلف مراحل تمويل هذه البعثات. كما نقرأ في هذه المضامين غياب دور أي فئة مجتمعية أو أسر مرموقة، تتكلّف بمستلزمات هذا الفعل التحديثي وتنهض بها، أو تنافس أو تقوم بدور المخزن في هذا المجال.

لا شك في أن أُحادية التمويل هذه أرهقت كاهل ميزانية الدولة، كما

(360) Caillé, p. 134.

(361) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 493.

(362) معنينو، محرر، «مذكرة طالب مغربي،» ص 143.

(363) بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 506.

(364) رسالة الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس السابقة، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 3/ 161.

كانت تكبّل أي دور نهضوي محتمل خارج مؤسسة السلطان. وقد وضعت هذه المؤسسة، برؤيتها الكاريزماتية للتنمية، وعلى امتداد عقود طويلة، عوائق حقيقية أمام الفاعلية المجتمعية، الأمر الذي أنتج حلقة تطورية فارغة ومفارقة لدينامية الجماعة الحالمة والحاملة لمشروع المغالبة في حلبة النزال التنموي والحضاري.

هنا يكمن أحد الاختلافات الجلية مع موضوع البعثات التعليمية اليابانية التي تَنافسَ في إرسالها واستثمار نتائجها كلٌّ من نظام الشوغون والمقاطعات الفيودالية في زمن نهاية عهد التوكوجاوا، والحكم المركزي والشركات والأسر التجارية خلال عهد الميجي، وهو ما منح هذه الآلية التحديثية تنافسًا محمومًا أفضى إلى تهيئة الأطر المرشحة لقيادة البلاد نحو آفاق التنمية الواسعة والواعدة.

مثّل المخزن الحسني العنصر الأساس والوحيد في تمويل هذه البعثات، فأرهق نفسه وألغى بعمله وبرؤيته هذه أي دور محتمل لفئات أخرى في اقتسام أرق هذا الهدف التحديثي، وما يتطلبه من إمكانات مادية وعلمية وتقنية ومجتمعية. كان المخزن يتأخر في صرف مستحقات المتعلمين، خصوصًا في أثناء طول إقامتهم في دول أوروبا؛ فقد طالب «نائب الفرنصيص» في عام 1297هـ/ 1880م محمد بركاش بـ «مشاهرة المتعلمين الذين بباريز عن تسعة أشهر وقدرها خمس عشرة مائة ريال وأربعة وستون ريالًا»[365].

كما كتب الطالب محمد الكعاب تقريرًا عن وضع الطلبة في بلجيكا في عام 1301هـ/ 1884م، أوضح من خلاله ضعف حالتهم المادية وتراكم الديون على رفاقه الطلبة المغاربة من الجهات البلجيكية التي كانت تنفق عليهم، وختم تقريره قائلًا: «... وإن هذه سبعة أعوام ونصف بقينا مفقودين عن الأهل والوطن، والأعداء لا ينظرون إلينا إلا بعين الاحتقار، حتى صرنا لا نستلذ طعامًا ولا شرابًا»[366]. وفي رسالة من فيبر إلى محمد بن العربي الطريس، ورد أن بورغرس، أحد رجال المصارف في برلين، و«المكلّف على لوازم ومصاريف

(365) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 470.

(366) معنينو، «ترجمة مختصرة،» ص 224.

الثلاثة عشر شخصًا من عساكر حضرة السلطان... يشتكي من الأمناء هذه المرة الثالثة، ولم يرسلوا له الدراهم الموجبة إلا بعد مراجعتهم مرارًا..»[367]، واقترح انتداب أحد المصرفيين في باريس لتسديد المستحقات المالية.

نستنتج في رسالة سلطانية وجود تأخر في دفع تكاليف تعليم الطلبة المغاربة في بلجيكا، ورد فيها: «فقد أخبرنا أمناء مرسى طنجة أن ترجمان البلجيك هناك طلب منهم مؤونة المتعلمين عندهم وذكر لهم أن قدرها نحو أربعة عشر ألفًا من الفرنك فتوقفوا في دفعها له وطلبوا بيان ما يكون عليه عملهم في ذلك ذاكرين أنهم لا معرفة لهم به وإنما كانوا يدفعون مئونة المتعلمين لولد بركاش ويتحاسبون معه..»[368].

تتعدد المراسلات المخزنية في شأن التمويل، ونقرأ من ثناياها ملامح أزمة مالية أرهقت كاهل مالية الدولة، فكان التأخر في دفع المستلزمات المادية من الثوابت التي رافقت هذه العملية. ولا شك في أن أصداءها كانت تصل إلى المتعلمين المغاربة في فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها من البلدان، الأمر الذي كان يؤثّر في توازنهم النفسي وعطائهم العلمي.

يبدو أن المشكلة المالية ظلّت عالقة، بدليل رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال: «... وصل كتابك بأن نائب البلجيك طلب تنفيذ ما صير على المتعلمين ببلادهم، كسوة وكراء محل التعلم وشهرية معلمين وبقية ثمن مكينة القرطوس والحوائج والمكينات التي اشتروها ليخدموا بها..»[369].

تسلّط الرسالتان الضوء على بعض مشكلات التمويل الدراسي للمتعلمين المغاربة في الخارج؛ إذ ألح الممثّل الدبلوماسي البلجيكي ضرورة صرف المستحقات المالية في أكثر من مناسبة. كما استمرت المراسلات المخزنية المتعلقة بالتمويل في عهد الوصاية؛ فالحاجب كتب إلى

---

(367) رسالة فيبر السابقة إلى الطريس في 9 يونيو 1885م، الخزانة العامة بتطوان، محفظة 48/ 18.

(368) رسالة المولى الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس بتاريخ 4 جمادى الثانية 1304هـ/ 28 فبراير 1887م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 59.

(369) رسالة المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال بتاريخ 6 رمضان 1304هـ/ 29 ماي 1887م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 101.

النائب محمد بن العربي الطريس: «أمناء طنجة وبعد، فنأمركم أن تنفذوا لنايب الطليان على يد الخديم الطريس صائر بعد ورود المتعلمين الخمسة القادمين من بلاد إيطاليا على حضرتنا الشريفة وقدره خمسة آلاف من الفرنك واثنان وأربعون منه وأربعة عشر سنطيمًا، وذلك زيادة على الصائر المعتاد الذي يوجه لهم عند رأس كل ثلاثة أشهر والسلام»[370].

تبيّن الرسالة السابقة، الموجّهة إلى الحاج محمد الغسال، التأخر في صرف مستحقات المعلمين البلجيكيين؛ فقد ذكر المولى الحسن الأول: «...، إن الجماعة (البلجيكية) التي صيرت ذلك استرعت في تأخير حيازة ما صيرته فآنيته (نائب البلجيك) ريثما يرد عليك جوابنا الشريف وبيّنت له أن الأمناء لا دخل لهم إلا في المؤنة، وأما غيرها، فالأمر فيه بيد الحاج محمد بركاش وبيد حضرتنا الشريفة، وطلبت إصدار أمرنا الشريف للأمناء بأعمال الحساب مع النائب المذكور وعلى المسائل المذكورة في كتابه، وما ترتب فيها يدفعونه له بعد بيان كل مسألة مع ثمنها على حدتها إلى آخر ما ذكرته وصار بالبال. أما مؤنة المتعلمين فقد أمرنا الأمناء بأن يعملوا مع النائب المذكور الحساب عليها لكونها نفذت لهم على أيديهم. وما خرج مدركًا على المخزن من قبلها يدفعونه له ويطالعوا علمنا الشريف بقدره كما أمرناهم أن يكملوه بأن يبيّن لهم ثمن الكسوة وكراء المحل وشهرية معلمِيْن، وبأن يبيّن لهم أيضًا كل حاجة ومكينة باسمها وثمنها على حدتها، ويوجهوا بيان ذلك لحضرتنا الشريفة وحينئذ ينفذ له ذالك، وأما ثمن مكينة القرطزس، وهو ستة عشر ألف ريال وستمائة ريال فقد كان نفذ له عن آخره على يد الحاج محمد بركاش، والسلام»[371].

لم تكن عملية التمويل سلسة ومرنة، بل حملت صفات أداء الإدارة البيروقراطية المخزنية، التي أضافت إلى مشكلات الانتقاء والاختيار عقدة التمويل وصرف المستحقات. وتجلّت أهمية المسألة في تأثر المتعلمين بهذه

(370) رسالة الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس، بتاريخ 10 ربيع الأول 1315هـ - 9 آب/ أغسطس 1897م، خ.ع.ت، محفظة 153/ 119.

(371) رسالة المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال بتاريخ 6 رمضان 1304هـ - 29 أيار/ مايو 1887م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 101.

الأجواء، وهو ما سجله محمد بن الكعاب الشركي في أثناء إقامته ببلجيكا، وتعددت في شأنه المراسلات المخزنية.

يتضح من مختلف المراسلات السلطانية العراقيل الإدارية التي صاحبت عملية تمويل الأفراد المتعلمين في الخارج، ومن ذلك رسالة وجّهها الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس تتعلق بمصاريف البعثة التعليمية التي أرسلت إلى إيطاليا عام 1888، ورد فيها: «...، وبأن الصائر القليل اللازم للمتعلمين المذكورين في السنة الذي كان أخبر به النائب المشار إليه ووعد ببيانه... وقدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون من الفرنك وتوقف الأمناء في دفعه له على إذننا الشريف وصار بالبال، فقد أمرناهم بأن يكونوا يدفعونه له كل سنة وكتابنا الشريف لهم بذالك يصلك طيه والسلام»[372].

مقارنة ببعض البعثات التي أُرسلت إلى مصر، لم تكن مشكلة التمويل حاضرة بقوة؛ ففي رسالة سلطانية نقرأ ما يلي: «... وبعد، فإن طالبًا من أهل الشاون وجّهه سيدنا لمصر بقصد تعلم كتابة المطبعة وكتب لوكيل المغاربة بمصر بأن يقوم بمئونته...»[373].

إذا كان وكيل المغاربة آنئذٍ في مصر، الحاج محمد افروخ التطواني، مكلَّفًا برعاية مصالح المغاربة فيها، فإننا لا نجد في المراسلات السلطانية المؤطرة للبعثات التعليمية الموفدة إلى أوروبا ما يشير إلى وجود مُنتَدبين ماليين من المخزن يتكلفون بتيسير المهمة المالية للمتعلمين المغاربة في أوروبا، وهو ما أنتج مشكلة مالية حقيقة انعكست على أوضاع المتعلمين، وتعددت بخصوصها المراسلات المتبادلة بين أطراف من المخزن المغربي والدوائر الدبلوماسية الأجنبية.

يدل هذا التصريح على ضعف حجة القول الذي جنح إلى تأكيد انتماء أفراد هذه البعثات إلى العائلات الكبرى، أو من سمّاهم العروي أفراد

(372) رسالة الحسن الأول السابقة إلى الحاج محمد الزكاري بتاريخ 27 جمادى الثانية 1305هـ/ 11 مارس 1888م، خ.ع.ت، محفظة 6/ 88.

(373) رسالة من الوزير الطيب بن اليماني بوعشرين إلى أمين الأمناء الحاج محمد بنيس بتاريخ 11 صفر 1283هـ: مجموعة الوثائق، العدد 2 (1976)، ص 420.

البرجوازية الصغيرة في المدن[374]. كما يشير هذا الإشكال التمويلي إلى علة بنيوية ظلّت جاثمة على أبواب الإدارة المخزنية؛ فلم تكن الرواتب قارّة ولا الوضعيات مستقرة. ولم تكن آليات تمويل هذه الفئات المتعلمة إلا صورة موجزة لهذه المشكلة الإدارية المالية العامة التي حاول الحسن الأول تجاوزها طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر من دون نتيجة تذكر؛ فقد احتاجت هذه البعثات إلى رؤية تمويلية جديدة تسمح بالتموين المستمر، وهنا تجلّى الفشل الدرامي للمخزن[375].

أوردنا في ما سبق توجيه الحسن الأول بعثة دبلوماسية إلى مجموعة من الدول الأوروبية ذات العلاقة المباشرة بمسألة الحماية القنصلية، وتعيينه الحاج محمد الزبيدي عليها وإعطاءه «أموالًا طائلة ليصيرها في وجهته، وهدايا فاخرة للعظماء الذين يلقاهم في رحلته، ووجّه معه أمينًا للصائر السيد بناصر غنام الرباطي والفقيه الأديب الفلكي سيدي إدريس الجعايدي السلوي بصفة كونه كاتبًا وعددًا من أعيان ووجهاء قواد الأراحي إظهارًا للأبهة المخزنية والضخامة السلطانية»[376]؛ فما الذي منع المخزن من تعيين أمين للصائر يرافق أعضاء البعثات التعليمية المغربية في الخارج، مثلما فعل ذلك مع بعثاته الدبلوماسية؟

مقارنة بذلك، كانت البعثات التعليمية اليابانية مرفقة بمسؤولين حكوميين، وفي مقدمهم المفوض المالي، الأمر الذي يسّر مثلًا تنقّل بعثة إيواكارا بين الولايات المتحدة وأوروبا ابتداءً من عام 1873. كما أننا لا نجد ذكرًا لمشكلات تمويل المتعلمين اليابانيين في الخارج في عهود الميجي وتايشو وشوا.

تتبيّن من الوثائق المعتمدة في هذا البحث مسؤولية الإدارة المخزنية في إشكالية بطء التمويل، وتعقّد إجراءاته التنفيذية. ويبدو أن المخزن كان يماطل في مد المتعلمين بمصاريف التكوين في إيطاليا وألمانيا وبلجيكا، وكان في مقابل ذلك يلح على الأمناء بضرورة الإسراع في تنفيذ بعض المستلزمات

(374) Laroui, p. 289.

(375) المصدر نفسه، ص 289.

(376) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 280.

المالية الخاصة به، ومن ذلك رسالة محمد التازي إلى أمناء الجديدة، قال فيها: «...، وبعد، فالدراهم 8900 المنفذة لنا على مرسى خدمتكم وسلّمناها لمن بيده الكتاب الشريف بتنفيذها وهو القائد مكلين الحراب... ولا تسوفون أكثر من ثلاثة أيام وخمسة وإياكم أن تماطلوه بل قدموا أداءه على كل منفذ مهما كان... لأنه لا يقبل التأخير ولا بد»[377]؛ فهل حظي موضوع تمويل البعثات التعليمية بدرجة الأهمية نفسها؟ ألا يمكن من خلال الوثيقة استنتاج دور الدوائر المخزنية في معظم المشكلات التي تحدّث عنها محمد بن الكعاب الشركي، وأوردته الوثائق الوطنية والأجنبية؟

لم تبقَ المشكلة المالية مرتبطة بالتعليم في الخارج، بل نجد لها آثارًا كثيرة في أثناء رجوع أفراد البعثات التعليمية المغربية، وهو ما تسبب في عرقلة إدماجهم ضمن مشروع الإصلاح الذي رام الحسن الأول تحقيقه في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر.

سادسًا: رجوع البعثات إلى المغرب وإشكالية الاندماج

أشار الحجوي في بداية القرن العشرين إلى «عدم وجود ضباط مدربين على الحروب، وإنما الذي كان يقود تلك الجيوش الجرارة ضباط أميون غالبًا لا يقرأ [أيٌّ منهم] ولا يكتب ولا معرفة له بجغرافية الأرض»[378]، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن الدور الذي ساهمت فيه البعثات التعليمية في تحديث جيش، فَقَدَ أفراده وضباطه المعرفة بفنون الحرب، بل كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة.

لا يجادل أحد من الدارسين اليوم في الدور الريادي الذي ساهمت فيه البعثات التعليمية اليابانية في مد الدولة بالأطر اللازمة لعملية التحديث، كما

(377) رسالة محمد التازي إلى أمناء الجديدة، بتاريخ 22 قعدة 1320هـ - 20 شباط/ فبراير 1903م، خ. ص، السلسلة الثالثة، محفظة 9، وثيقة 1251.

(378) أورده: محمد الصغير الخلوفي، انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي أنموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين (الدار البيضاء: مطبعة المعارف، 1994)، ص 36.

أن نظرة مركّزة إلى الحكومات المتعاقبة تبيّن حجم انخراط أفراد هذه البعثات في احتكار المناصب الوزارية والثقافية والتعليمية السامية. ولا شك في أن نص الحجوي يثير التساؤل في شأن هؤلاء الضباط الأميين الذين لم تكن لهم معرفة بفنون القتال. ومن جانبنا نقول: أين اختفى المتعلمون المغاربة الذين صُرفت عليهم مبالغ مالية كبيرة، وما الذي منعهم من تأطير هذه الجيوش وهم الذين تعلموا وتدربوا في مؤسسات ومعاهد عسكرية ألمانية وفرنسية وإيطالية وبلجيكية وإنكليزية بارزة، ولم تفسح أمامهم إمكانية التغيير والإصلاح؟ أين يكمن الخلل؟ هل ترتبط المسألة بالقدرات الذاتية لهؤلاء المتعلمين في هذا البلد أو ذاك، أم أن القضية برمّتها متعلقة بالإطار السياسي والثقافي والاجتماعي الذي تباينت عناصره ومستوياته داخل البلدين في الفترة موضوع الدراسة؟ هل كان أفراد البعثات التعليمية المغربية واعين الدور الذي حدده المخزن لهم؟ وهل كانت لديهم معرفة بمجريات الصراع الدولي؟ وهل كان لديهم إدراك بحجم المسؤولية التي كانت تنتظرهم؟ بل هل كان المخزن واضحًا في صوغ الأهداف المتوخاة من هذه البعثات التعليمية الموفدة إلى الخارج؟

يُجمل ابن زيدان حكمه على مآل البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول متحسرًا: «... فإنه - الحسن الأول - لمّا نظر إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضي والطبيعي من القوة والسلطان والشفوف على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزج ببلاده في ذلك الميدان الواسع، فعضد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده وتوجهوا لعواصم أوربا لتتميم دروسهم، وملئوا بكل نافع حقائبهم، فعيّن لكل فريق رجلًا من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم وأجرى عليهم النفقات الكافية، ولما زاولوا دروسهم وملئوا بكل نافع حقائبهم، يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يُرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذين رافقوهم في دروسهم، فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا، ولله في خلقه شئون»[379].

(379) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 465.

اقتبس ابن زيدان مفردات نصه مما ذكره صاحب زبدة التاريخ[380]، ويبدو أن الأعرج السليماني كان أكثر حذرًا من ابن زيدان، وتجنب إصدار حكم على «تأخر» اليابان و«انحطاطها» الفيودالي.

بصفة إجمالية، تحدث صاحب الإتحاف عن المعاكسين لمشروع البعثات التعليمية المغربية نحو الخارج، والمؤكد أنه أشار إلى رجال المخزن الذين كانوا يبذلون الجهد لثبات المؤسسات واستمرار المصالح، ويعارضون رؤى التغيير والإصلاح التي قد تعصف بامتيازاتهم ومصالحهم المتوارثة. وقد يكون ذلك من العناصر التي أشار إليها الناصري في قوله «إلا أن ذلك لم يظهر له كبير فائدة، إذ كان ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات، وتمهيد أصول»[381].

---

(380) يذكر ابن الأعرج السليماني في كتابه زبدة التاريخ (ص 392): «فإنه لما نظر إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضي والطبيعي من القوة والسلطان والتفوق على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزج ببلاده في ذلك الميدان الواسع، فعضد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده وتوجّهوا لعواصم أوربا لتتميم دروسهم وملئوا بكل نافع حقائبهم، فعيّن لكل فريق رجلًا من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم وأجرى عليهم النفقات الكافية، ولما زاولوا دروسهم وملأوا بكل نافع حقائبهم، يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذين رافقوهم في دروسهم فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا، ولله في خلقه شؤون». والتغيير الوحيد طرأ على كلمة التفوق بدلًا من الشفوف، وعلى طريقة كتابة الهمزة في كلمتي ملأوا وشؤون. كما نجد اقتباسات عدة أخذها صاحب الإتحاف من مؤلف السليماني، منها حديثه عن مقدمات معركة إيسلي ونتائج. وإذ أرجّح هذا الرأي باعتبار «أن السليماني انتهى من تأليف كتاب زبدة التاريخ في رابع رمضان 1343هـ/ 1924م أي قبل وفاته بسنة تقريبًا». عبد الرزاق بنواحي، «دراسة وتحقيق «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ» لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني، 1285هـ - 1344هـ 1868م- 1925م.» (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1997)، كلمة محقق الكتاب، ص 31.

أما إتحاف ابن زيدان، فقد طُبع أول مرة في عام 1348هـ/ 1930م، وانتهي من كتابته قبل عام 1929 بشهور قليلة. ويتبيّن ذلك من ظهير السلطان محمد الخامس لمؤرخ المملكة آنئذ عبد الرحمن بن زيدان بتاريخ 27 رجب 1348هـ - 29 كانون الأول/ ديسمبر 1929م: ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 2، مقدمة الجزء.

وإذ نورد هذه الملاحظات، نود التنبيه على أن الموضوع الياباني أثاره صاحب زبدة التاريخ قبل أن يدوّنه ابن زيدان ويطوّر معانيه في: ابن زيدان، **العلائق السياسية**. كما أن قضية الاقتباس من دون إشارة إلى مصدرها معروفة لدى مؤرخين كثر، وفي مقدمهم العلامة عبد الرحمن ابن خلدون.

(381) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **زهر الأفنان**، ج 2، ص 304، ورد في: المنوني، ج 1، ص 386.

أشار ابن زيدان، في سياق حديثه عن دار السلاح في فاس، إلى موضوع إدماج بعض أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى أوروبا ضمن أطرها، «وكان ابتداء العمل في بنائها سنة 1305هـ وانتهاؤه سنة 1308هـ»[382]. وبعد التفصيل في المراسلات التي وجّهها الحسن الأول إلى الممثلين الديبلوماسيين الإيطاليين، ختم صاحب الإتحاف ذلك بالقول: «وقد استخدم بهذه الدار طلبة البعثة المتخرجة من مدارس فرنسا وبلجيكا السابق الكلام عليهم قريبًا، وكان رئيسها الكولونيل الإيطالي بريكليف وكباوها (كذا) السيد محمد الصغير[383] والسيد المختار الرغاي[384] والسيد محمد بن الكعاب[385] والسيد إدريس الفاسي[386] والسيد الطاهر بن الحاج الأوديي[387]، وعدد جميع العملة الذين كانوا بها ثلاثمائة عامل من فاس ومكناس ومراكش والرباط وسلوان وغير ذلك...»[388].

الكلام السابق الذي أورده ابن زيدان بخصوص البعثة هو ما سجّله قائلًا: «ثم وجّه بعثة حربية لفرنسا وبلجيكا، فمكثت هناك سبع سنوات، أربع منها بفرنسا وثلاث ببلجيكا تخرجت فيها في صناعة الذخائر الحربية ثم عادت للمغرب سنة 1305هـ فلحقت بالحضرة الشريفة برباط الفتح وأتت معه مكناسة الزيتون وأقامت بها ستة أشهر ثم توجهت لفاس لتطبيق العلم على العمل فدخلت للعمل في دار السلاح»[389]. ويضيف ابن زيدان قائلًا: «وكانت هذه البعثة تتركب من الطاهر بن الحاج الأوديي رئيس العملة بدار السلاح ومعه

(382) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 495.

(383) محمد الصغير، لم نعثر على اسمه ضمن أفراد البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوروبا.

(384) المختار الرغاي، من أفراد البعثة الحسنية الأولى التي أُرسلت إلى إيطاليا.

(385) محمد بن الكعاب الشركي، من أفراد البعثة التي أُرسلت إلى فرنسا وأمضى فيها مدة طويلة، وتكفّل بترجمة بعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول، وترك «مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة»، بحسب: حركات، ص 38.

(386) إدريس الفاسي، ربما يُقصد به إدريس بن عبد الوهاب بوعزة المولود في فاس، وكان أحد الثلاثة الذين توجّهوا إلى إنكلترا، إضافة إلى سكيرج والجباص.

(387) الطاهر بن الحاج الأوديي، أحد أفراد البعثة التي أُرسلت إلى فرنسا، وكان آنئذٍ في الثالثة عشرة، تكفل هو أيضًا بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول إلى بلجيكا.

(388) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 498.

(389) المصدر نفسه، ج 2، ص 468.

من فاس محمد المنقري رئيس قسم الزنادات بالدار ومحمد بن علي الحداد ومن مكناس العباس بن قاسم رئيس قسم صناعة الجعاب بالدار المذكورة والمعلم أحمد بن صالح وإدريس بن الحداد ومحمد بن أحمد المدعو المشطون والمعلم حمان وبسلهام بن حمو ومحمد بن العباس وكلهم نجحوا في علومهم واستخدموا بدار السلاح»[390].

يمكن اعتبار دار السلاح - المكينة - المؤسسة الإنتاجية الوحيدة التي نجحت في إدماج أكبر عدد من المتعلمين الذين درسوا في الخارج؛ فقد حاول الحسن الأول «تجهيز المغرب بما يساعده على صنع السلاح وإصلاح العدد الحربية داخل المغرب... حيث أسند هذه المأمورية في عام 1306هـ/ 1888م إلى جماعة من الضباط الإيطاليين»[391]. وورد في شأنها رسالة وجّهها الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها: «...، وبعد، فقد أمرنا أمناء مرسى الدار البيضاء بأن يوجّهوا لك عن طريق البحر بطرفته سبعة وعشرين ألف ريال وخمسمائة ريال وخمسة وثمانين ريالًا 27585 من سكة الصبنيول بحيث تكون عندك في أول رمضان الآتي من قبل ثمن مكينات للسكة كلفنا بجلبها الكرنيل بريكل الطلياني معلم الفبريكة بفاس...»[392]. واجتهد المشرفي في وصفها، مستخدمًا ترسانة المحسنات اللغوية قائلًا: «..المكينة الفائقة الشكل، البديعة المثل، المنبئة بالنصر والنجاح المعروفة بدار السلاح..»[393].

«ومع ذلك، لم يكن المصنع ينتج أكثر من خمس بندقيات في اليوم»[394] في بداية الأمر. ويبدو أن الدوائر المخزنية ساهمت بقسط وافر في وضع العراقيل أمام هذا المشروع التحديثي/ العسكري، ويتضح ذلك ممّا ذكره الطاهر بن الحاج الأوديي، قائلًا عن وزراء وكتّاب وأمناء: «... وفي ذلك الزمان بطلو

---

(390) المصدر نفسه، ص 468.

(391) عبد العزيز بنعبد الله، الجيش المغربي عبر العصور، سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية (الرباط: المطبعة العالمية، 1986)، ص 144.

(392) رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 5 شعبان 1309هـ - 5 آذار/ مارس 1892م، خ.ع.ت، محفظة 10/ 114.

(393) المشرفي، ج 2، ص 199.

(394) المصدر نفسه، ص 144.

لنا إنشاء دار السلاح السعيدة، ما نتجت إلا بتداخول السفارة الناصحة الطاليانية مدة تسع وعشرين سنة من عام 1305هـ إلى عام 1334هـ»[395]. ويبدو أن صفقات السلاح المستورد وما كانت تدرّه على خزائن هؤلاء تسببت، بشكل كبير، في معارضة أي مشروع تنموي بسواعد وطنية، وهو ما دل على بعض مظاهر أزمة النخبة المخزنية الحاكمة في مغرب القرن التاسع عشر، حيث يمكننا بيسر استنتاج غياب الأدوات الإدارية الفاعلة والمحتضنة مشروع الإصلاح الذي بدأ متعثرًا وفاقدًا الشروط الموضوعية والذاتية الكفيلة بمنحه شحنة النجاح والإيجابية.

في مقابل ذلك، كانت الأوليغارشية اليابانية الحاكمة المحيطة بالإمبراطور الميجي واعية وضعها الاجتماعي وحجم التحديات التي تواجهها، وكان لديها رؤية واضحة ومحددة في شأن الأهداف التي لخّصتها مرحلة الانتقال من شعار «جيش قوي من أجل دولة قوية» إلى مبدأ «دولة قوية بجيش قوي». واستُثمر مختلف عناصر القوة الأسطورية والتاريخية والاقتصادية والمالية والتعليمية والمجتمعية في بناء دولة جديدة بمقاسات جمعت بين الأصالة والمعاصرة. وكان محور الصراع بين أقطاب الكارتيل الحاكم البحث عن أنجع السبل للحاق بالغرب ومنافسته والتفوق عليه.

تمكّننا هذه المرآة اليابانية من إدراك بعض أوجه العطب المغربي وأسبابه؛ فلم تكن الطبقة السياسية في المغرب تمتلك الحدود الدنيا من إرادة الفعل والتغيير والإصلاح الفاعل والمؤسساتي. وأظن أن ذلك سحب المظلة الإدارية والسياسية من موضوع البعثات التعليمية المغربية التي فقدت بوصلة تحديد الاتجاه التحديثي. ومن جانب آخر، لم تكن العلاقات متينة بين الجهاز الإداري وأفراد البعثات التعليمية المغربية، ويمكن الاستدلال على ذلك بحجم المشكلات التي وردت في مذكرات بعض المتعلمين، ومن ذلك ما ذكره محمد بن الكعاب الشركي، في أثناء وجوده في بلجيكا.

لم تحقق البعثة الأولى (1291-1294هـ/ 1874-1877م) الأهداف المرسومة كلها، وفي مقدمها البعثة الإنكليزية التي ساهم دريموند هاي

(395) أوردها ضمن ملاحق بحثه: الحيمر، «البعثات التعليمية،» ص 225.

في اختيار أفرادها وأصبح بمقتضاها محمد الجباص وزيرًا للحربية والزبير سكيرج خبيرًا عسكريًّا. بيد أن بعضها الآخر تجاوز مدة التكوين المخطط لها إلى ثلاثة أعوام إضافية، وهي الحالة نفسها التي يمكن تسجيلها في شأن بعثة 1301هـ/ 1884م إلى مونبولييه، وكذا البعثتين اللتين أُرسلتا إلى ألمانيا وبلجيكا، ولم ينخرط في مجال العمل من بين 62 متعلمًا سوى 23 فردًا بعد سنتين من الغياب[396]. وفي جانب آخر، ساهمت المدارس العسكرية في إيطاليا في تكوين جيد لأغلب المتعلمين المغاربة، حيث أتقنوا اللغات الأجنبية وبرعوا في العلوم البحرية وصناعة السلاح وتدريب الجنود. ومن بين نحو 360 متعلمًا، فإن الأطر العائدة إلى الديار المغربية والمدمجة في الإدارة المخزنية، على امتداد الأعوام 1881-1883-1886-1888-1894، لم تتعد خمسين إطارًا[397].

يرتبط تقويم نتائج هذه البعثات التعليمية بالمقدمات المؤسسة لها، وبالنسق البنيوي العام المحيط بها، الذي رسمت بعض معالمه العسكرية والاجتماعية والمالية في القسم الأول من هذا الكتاب.

حاول المخزن الحسني - من خلال البعثات التعليمية المذكورة - اكتساب خبرات متنوعة، وتزويد البلاد بأطر تقنية وعسكرية تستجيب لمتطلبات العصر[398]، وهو ما يتبيّن من المراسلات السلطانية المنظِّمة لهذه البعثات.

تعترف هذه المصادر بأن المخزن المغربي وظّف بعض هذه الأطر التعليمية في مناصب تقنية بمعمل باب المكينة في فاس لصناعة الأسلحة والعملة، وفي الأشغال الطبوغرافية كرسم خرائط المناطق المتنازَع فيها مع القوى الاستعمارية الأوروبية، وفي إقامة الأبراج وإصلاحها، وفي المفاوضات المخزنية مع الأجانب[399]. ويتحدث الزبير سكيرج في مذكراته عن تعيينه في

(396) Laroui, p. 287.

(397) المصدر نفسه، ص 287.

(398) محمد البكراوي، «الطلبة المغاربة بالجامعة الفرنسية خلال الفترة ما بين الحربين 1927-1939،» أمل، العددان 28-29 (2003)، ص 105.

(399) عبد السلام الحيمر، «المغرب والحداثة،» أبحاث، العدد 26 (1991)، ص 49.

«السفارة الموجَّهة لمدريد لعقد الشروط المعروفة»[400] في أثناء مؤتمر مدريد 1296هـ/ 1880م، ويتابع قائلًا: «وفي سنة (1297هـ - 1881م) رشحت لمساعدة المهندس الإنجليزي المكلف بتشييد أبراج طنجة، وتركيب المدافع الستة المجلوبة من معمل (أرم سطرونك) بإنجلترا...(و) قمت بتركيب المدافع ببرج المرسى أتم قيام»[401]. وقد ترجم رسالة صادرة من المهندس الإنكليزي ماك ماهيو في موضوع المدافع المعدة لتحصين طنجة، وورد فيها:

«...، أما بعد، فقد طلب مني حاكم الطبجية الإنجليزي ومعلمهم أن أترجم له المكتوب الإنجليزي حوله إلى العربية وأسلّمه لسعادتكم لتطالعوا عليه العلم الشريف، وهو مشتمل على ما استحسنه المعلم المومى إليه وما تقتضي المصلحة إجراءه»[402].

ويبيّن المهندس الإنكليزي من خلال ترجمة سكيرج «أن المدافع الجديدة متوقفة ومفتقرة على من يقم بواجباتها حق القيام. ولو فرضنا أن هذه المدافع كلها مركّبة بمحلاتها على التمام دون من يقم ويحسن خدمتهم بالتحقيق والتدقيق، فهم حينئذٍ والوجود والعدم على حد سوى»[403]. وربما يكون ذلك أحد الأسباب الرئيسة التي دفعت المخزن الحسني إلى توجيه بعثات تعليمية نحو ألمانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل توفير الأطر اللازمة لاستعمال السلاح المستورد من بريطانيا وألمانيا وبلجيكا.

ترجم مييج لمحمد الجباص قائلًا: «اضطلع محمد الجباص، بعد فترة تكوين بالمدرسة العسكرية بشاتهام ببريطانيا ما بين 1877-1880م، بالعديد من المهام والمسؤوليات، ومنها مرافقته سفارة بن سليمان إلى باريس سنة 1901م، وكُلّف برئاسة اللجنة المشتركة الفرنسية المغربية لضبط الحدود،

(400) سكيرج، ص 29.

(401) المصدر نفسه، ص 29.

(402) رسالة من المهندس الزبير بن عبد الوهاب سكيرج إلى الأمين الحاج محمد الزبدي، بتاريخ 11 ربيع الثاني 1298هـ - 12 آذار/مارس 1881م، م.و.م، سجل 35909، الترتيب العام. وفيها ترجمة إشارات المهندس الإنكليزي، مع أصلها الإنكليزي.

(403) سكيرج، «مذكرة الزبير سكيرج».

واستُدعي لشغل منصب الحربية بدل المهدي المنبهي في عهد المولى عبد العزيز وتدخل ضد الريسوني في نهاية سنة 1905 وبداية 1906م، وأصبح صدرًا أعظم سنة 1913م»[404]. ونعتقد أن محمد الجباص كان المتعلم الوحيد الذي نجح في الوصول إلى منصب الوزارة، الأمر الذي يجعل منه حالة استثنائية شذّت عن القاعدة المتحكمة في تعيين الوزراء وإسناد المناصب السامية التي كانت حكرًا على بعض الفئات المنتمية إلى دائرة الأعيان والممتلكة الثروة والحظوة المخزنية؛ فقد كان، مثلًا، «معظم أمناء المدن من أهل الغنى»[405].

من الطلبة النوابغ أيضًا محمد بن الكعاب الشركي الذي تلقّى تكوينًا عسكريًّا لمدة 14 عامًا، وراكم خبرة عسكرية مهمة في تقنية بطاريات المدافع وصناعة الخراطيش وتلفيفها، وعيّن في المكينة التي أنشأها الحسن الأول في فاس لصنع الأسلحة الخفيفة، «وكان تحت إدارة الأجانب المشرفين على المعمل، رغم طول خبرته العلمية والعملية. وترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة»[406].

في رسالة مخزنية بدا محمد بن الكعاب شاهدًا على صائر المتعلمين ببلجيكا؛ وفي ذلك قال المولى الحسن الأول: «...، وقف أمرنا الشريف بمحضر الطالب محمد بن الكعاب لكونه على بال من سائر الصائر وتفصيله...»[407]. وفي ترجمته للطاهر الأوديي، يشير صاحب الدرر الفاخرة إلى أنه «تخرج بفرنسا واستخدم بدار السلاح بفاس ولم يزل به إلى أن تعطل العمل فيه عند انتهاء الدولة العزيزية»[408]. كما أشار الأوديي في الاستبصار إلى أنه: «بباريز كنت أنا ترجمان السفير بركاش... عام 1299 موافق سنة

(404) Karow, p. 161.

(405) هراج التوزاني، ص 61.

(406) حركات، ص 38.

(407) رسالة الحسن الأول التي سبق ذكرها إلى الحاج محمد الغسال بتاريخ 4 ذي القعدة 1304هـ - 25 تموز/يوليو 1887م، خ.ع.ت، محفظة 5/ 110

(408) ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 105.

1880»[409]، وهو الدور نفسه (الترجمة) الذي أداه رفيقه في الرحلة محمد بن الكعاب.

تعطل إذًا مشروع المخزن الإصلاحي الذي بدأه محمد الرابع، وطوره المولى الحسن الأول ولقي حتفه النهائي مع المولى عبد العزيز.

اختار المخزن البعثات التعليمية كآلية مثلى للإصلاح، مثلما اعتمد اليابانيون، في نهاية عهد التوكوجاوا وعهود الميجي وشوا وتايشو، الأسلوب نفسه لإعادة ترتيب الأوضاع الداخلية بما ينسجم مع حجم التحديات الخارجية المتزايدة والعنيفة.

من جانب آخر، ظنّ المخزن في نجابة بعض المتعلمين، واستطاع من خلالهم الاستغناء عن خدمات بعض المهندسين الإنكليز عندما بدأت العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وإنكلترا تتوتر قبيل عام 1886؛ ونستنتج ذلك من رسالة وجّهها دريموند هاي إلى الوزير محمد بن العربي النجار: «...، وبعد وصلَنا كتابك تاريخ 22 جمدى الأولى، أخبرتنا فيه بأن السلطان... جعل على خطره الشريف بتعيين الزبير سكيرج، بالوقوف على تمام أشغال الأبراج بطنجة في موضع سيلبه، وعبد الواحد الفاسي في موضع القائد مكيوا ليكون كبير الطبجية في طنجة»[410]، وهما متعلمان أوفدهما الحسن الأول إلى إنكلترا بمقتضى رسالة سلطانية في عام 1291هـ/ 1874م.

---

(409) أبو الفضل الطاهر بن محمد الأوديي، الاستبصار في عجائب الامصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار في الأراضين خلقها الله الواحيد القهار للحيوانات والأطيار وللجن والإنس قرار مومن للجنة وكافر للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبر وللعادل رحمة الله الكريم الغفار، أورد جزءًا من مخطوطه، في: الحيمر، «البعثات التعليمية،» ص 224.

أوردت النص على أخطائه اللغوية، وهي القاعدة العامة التي كتب بها الأوديي مخطوطه؛ واختار له هذا العنوان الطويل الذي يدل على التأثر بمشاهداته لعجائب دار الكفر وعلى نقد مستتر لما سمّاه الطغيان والتجبر الإداريين.

(410) رسالة دريموند هاي إلى محمد بن العربي بن المختار، بتاريخ 6 أيار/ مايو عام 1885م (21 رجب 1302هـ)، وثيقة 174 F.O/ 144، أوردها: بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ص 522-523.

وردت الرسالة في سياق عتاب الدبلوماسية البريطانية على قرار المخزن الاستغناء عن خدمات المهندسَين الإنكليزيين؛ واقترح هاي التريث وإحسان معاملتهما، كما أشار إلى ضرورة الإعلام المبكر بقرارات الاستغناء ودفع التعويضات الملائمة.

من جهة أخرى، يتضح من سياق الحوادث تتبع المولى الحسن الأول أشغال إنجاز الأبراج في طنجة وتذمره من إخلال المهندس الإنكليزي بشروط العقد؛ فقد ورد في رسالة وجّهها السلطان إلى القائد عبد الصادق الريفي ما يلي: «...، فقد أخبر المتوجّهون لاختبار الأبراج والآلة الجهادية بأنهم لما شرعوا في اختبار الخزائن والإقامة وجدوا بعضها في يد الحراب النصراني (سيلڤا) وضاعت أمور منها. وأن محال المدافع كلها بيد الحراب المذكور يتصرف فيها كيف يشاء، وهو الحاكم على الطبجية جميعًا، والأبراج مفرطة مملوءة بالأوبال والمدافع مشتتة والإقام منتشرة، والحراب لا يحضر إلا في الصباح والمساء...»[411]. ولا شك في أن العامل الدبلوماسي والعامل التقني ساهما في إطاحة المهندسَين الإنكليزيين، وتعويضهما بالزبير سكيرج وعبد الواحد الفاسي. ويبدو من شهادة أحمد بن محمد الكردودي درجة الإتقان التي تمتع بها المهندسان المغربيان في إنجاز عملهما، حين قال: «...، ولمّا تبيّن له أن أحد المهندسين من النصارى ارتكب التراخي في خدمته لتطول المدة، ويستفيد من ذلك ما لا يحصل لأحد بعده، وجه (السلطان الحسن الأول)... من عملة أرضنا، ومعلمي قطرنا (يقصد بهما الزبير سكيرج وعبد الواحد الفاسي) من أخلصوا لله في عملهم، وعلموا أن المولى جل علاه مثيبهم ومطلع عليهم، وقد يُظن بهم عدم المعرفة، فصاروا - بعد أن كانوا نكرةً - معرفةً، وأجادوا وأتقنوا، جاءوا بما لم يأتِ به من قبلهم وأحسنوا، حتى أن النصارى حين شاهدوا عملهم استغربوا صدور ذلك منهم واستحسنوه وسلّموه لهم، وقد فاق علمهم عمل النصارى بشدة الإتقان... كل ذلك في مدة يسيرة لو

(411) رسالة السلطان الحسن الأول إلى القائد عبد الصادق الريفي، بتاريخ 28 محرم 1301هـ - 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1883م، الكناش 348، خ.ح، أوردها: بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى، ص 457.

وُكل فيها الأمر فيها للمهندسين النصارى لما كمل في أضعافها، وضوعف الصائر عليها أضعافًا مضاعفة»[412].

ما يهمنا، في مضمون الشهادة، قدرة المخزن على تعويض الخبراء الأجانب ببعض أفراد البعثات التعليمية، وهو ما يدل على كفاءة الكثير من المتعلمين الذين درسوا في بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وأهليتهم في تقلد المناصب العسكرية العليا. لكن ذلك لم يأخذ بعدًا استراتيجيًا محكمًا في استثمار الكفاءات الموجودة، بل ارتبط، في الحالة التي أوردتها، ببداية توتر العلاقة الدبلوماسية ببريطانيا.

ترد في بعض المراسلات السلطانية إشارات تدل على محاولة استثمار الكفاءات الوطنية لتعويض مثيلتها الغربية، ومن ذلك رسالة وجهها الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس، ورد فيها: «...، فقد اقتضى نظرنا الشريف زيادة أربعة من مهرة المعلمين البنائين من أهل الصويرة وآسفي ومراكش وتطوان إلى المعلمين الفاسي والرباطي الذين بطنجة بقصد مباشرة بناء الأبراج معهما والاطلاع على كيفيتها وهيئتها وعمل بناء أساساتها وجدرانها، بحيث إذا أريد بناء الأبراج بغير طنجة، يوجدون عارفين بذلك متقنين لعمله مغنين فيه عن جلب الأجانب لمباشرته...»[413].

لكن هل كان في مقدور المخزن الحسني بناء استراتيجيا محكمة ومدروسة لتوظيف المتعلمين في الخارج والاستغناء بهم عن الخبراء العسكريين الأجانب؟ هل تشبه هذه المحاولة ما قام به اليابان في أواخر عهد التوكوجاوا وبداية عهد الميجي عندما انفتح على الخبرة الأجنبية في مختلف ألوان المعرفة العلمية ونجح في الاستغناء عنها بعد رجوع الوفود التعليمية من أوروبا والولايات المتحدة، التي تقلد أفرادها المناصب الاستراتيجية في الإدارة اليابانية الحديثة؟

---

(412) الكردودي، ص 28.

(413) رسالة وجهها السلطان الحسن الأول إلى محمد الطريس، 13 شوال 1302هـ - 26 تموز/ يوليو 1885م، خ.ع.ت، محفظة 3/ 140.

ظل الخلل كامنًا في مقدمات التحديث التي أطّرت البعثات التعليمية في كلا البلدين في أثناء الفترة المدروسة، وهو ما تحدثنا عنه بإسهاب في القسم الأول من هذا الكتاب.

كان للمغرب نوابغه ونجباؤه، مثلما كان لليابانيين كفاءاتهم الفردية والجماعية. لكن، ما الذي جعل من محمد الكعاب والأوديي والزبير سكيرج والحسين الزعري والعيدوني أرقامًا وكفاءات مبعثرة داخل نسق سياسي وإداري ومجتمعي يتسم بالفوضى والاضطراب؟ وأي مقدمات حوّلت الطلبة اليابانيين الموفدين إلى الخارج إلى أرقام أساسية في بناء قوة عالمية برزت ملامحها في فترة وجيزة، وأذهلت العالم بانتصاراتها المدوّية على الصين وروسيا القيصرية؟

أبان بعض المتعلمين المغاربة عن نبوغ ومعرفة دقيقين بالعلوم الحديثة في أوروبا، لكنهم «بقوا مجرد مساعدين للأطر الأوروبية العاملة بالمغرب»[414]. كما أن عددًا من الخريجين لم تُسند إليهم مسؤوليات محددة في نطاق تخصصهم، فكانوا يشتغلون أحيانًا بقطاعات لا علاقة لها بما تلقّوه من تعليم.

لا يمكن أن نعدم وجود كفاءات مغربية متميزة رافقت إرسال البعثات التعليمية إلى دول أوروبا الغربية، لكن أفرادها «تُركوا مهمَلين لا يُلتفت إليهم ولا يُسمَع لقولهم ولا لأفكارهم»[415]؛ إنها أزمة بنيوية تكشف عن الثابت في المؤسسات السياسية والإدارية التي لم يكن في قدرتها التقاط عناصر النجاح وتوظيف آلية البعثات التعليمية لإنجاح مسيرة الإصلاح.

المؤكد أن المخزن، المنظم والمستثمر الوحيد لهذه البعثات، كان مفتونًا بتغيير قطع غياره الفاسدة، واستبدالها بأخرى متعلمة، تمنحه الفاعلية المرجوة في إخماد فوضى الداخل، والحد من تدخلات الخارج في الركوب على موجة التحديث لفرض مصالح القوى الغربية المتنافسة. ومن هذه الزاوية لا أتفق مع ثريا برادة عندما ترى أن «عددًا من هؤلاء الطلبة بقوا في

(414) الحيمر، «المغرب والحداثة،» ص 49.

(415) موسوعة أعلام المغرب، ج 8: 1301-1360.

حيز الإهمال لعدم ثقة المخزن بهم، لأن المخزن كان مقتنعًا بأن أعضاء البعثات بعدما أقاموا في أوروبا سنين 'عادوا منها جُهالًا متنصرين'»[416]. وهي إذ تحيل إلى شهادة الطاهر بن الحاج الأوديي، أحد أفراد البعثات التعليمية المغربية، وموقفه، وتفصلهما عن سياقهما وبنائهما العام المنتقد للسلطة المخزنية، تنحاز ضد منتجها، وتسوّغ للسلطة المخزنية إهمال محمد بن الكعاب ورفاقه. وتستأنف: «وقد أظهرت بعض الحالات أن المخزن كان على صواب في عدم ثقته هذه، فمثلًا: الطالب محمد بن عبد الرحمان دوسولتي الذي تلقّى تكوينًا في مدرسة الهندسة الحربية في مونبولي، وتكلف بالمدفعية، صار من جواسيس البعثة الفرنسية»[417]. ويبدو أن الاستنتاج جمع بين متناقضين، يتمثّل طرفه الأول في إيراد الباحثة الرسالة الكاملة التي وجهها محمد بن الكعاب، وهو أحد أبرز النوابغ التعليمية المغربية في عهد الحسن الأول، إلى الوزير احماد بن موسى في عام 1887، واعتبرته ضمنًا ممن أهمل المخزن مدّهم بالمصاريف. وتمثَّل الطرف الثاني في أحد أفراد بعثة مونبولييه التي سبق أن بيّنا عللها ومشكلاتها.

إضافة إلى ذلك، يصعب الاستشهاد في هذه الحالة وغيرها من حالات المتعلمين الذين حصلوا على الحمايات الفردية لمنح المخزن مشروعية عدم ثقته في البعثات التعليمية التي أوفدها إلى أوروبا؛ ذلك أن الإشكال ظل كامنًا في بنية المخزن وتصوراته الإصلاحية، وعدم قدرة بيت المال على تيسير مهمة الفعل التحديثي، وهي قدرة اجتهدت القوى الغربية في استنزافها وتجفيف منابعها درءًا لأي محاولة نهوض أو إصلاح فاعل وحقيقي.

مقارنة بالحالة اليابانية، لا نجد، كما سنفصّل ذلك لاحقًا، متعلمين يابانيين انحازوا إلى خدمة الأجانب والتجسس لحسابهم ضد بلدهم وأمتهم؛ فقد وجدوا المعنى والغاية من التكوين ضمن نسق سياسي يتسم بالدينامية وسرعة التحول، وفي إطار سياسة إدماج النخب المتعلمة في معيار الكفاءة العلمية والتقنية، بصرف النظر عن الانتماء الاجتماعي والطبقي.

---

(416) برادة، ص 295.

(417) المصدر نفسه، ص 295.

يمكن قراءة بعض نتائج البعثات التعليمية المغربية في الجدول (4-22) الآتي:

الجدول (4-22)

بعض نتائج البعثات التعليمية المغربية

الطالب		المهمة
محمد الكباص	إنكلترا	تقلد مناصب سامية، كالصدارة ووزارة الحرب والنيابة عن السلطان في طنجة.
بنعمر محمد الرباطي	إيطاليا	تخرج في مدرسة المشاة والخيالة بمودينا، عُيّن قائدًا لطابور البوليس الشريف بمدينة طنجة.
الحلو مصطفى	إيطاليا	تخصص بقانون التجارة والحساب.
أحرضان أحمد	إيطاليا	التدريب على صناعة السلاح والمكينات.
إسماعيل بن محمد	إيطاليا	تخصص بتعلم السلاح.
البرجالي محمد	إيطاليا	تخصص بصناعة الأسلحة.
التدلاوي محمد	إيطاليا	تخرج من مدرسة المشاة والخيالة بمودينا برتبة ضابط، توجّه بصحبة مجموعة من المتخرجين إلى معامل كروب في ألمانيا في عام 1900.
حركات العربي	إيطاليا	كان مهتمًا بالنحو والشعر.
الحريزي محمد	إيطاليا	تخصص بالخيالة.
الرغاي المختار بن الطاهر	إيطاليا	التحق بأكاديمية مودينا العسكرية في عام 1876، وعاد في عام 1822. كان من رجال المخزن الذين وُظّفوا في ماكينة فاس، وقد حظي بالحماية الإسبانية في عام 1911.
الزعري الحسين العروسي	إيطاليا	قاد الطابور الثامن للشرطة المغربية في عام 1909 بالصويرة، وعُيّن خليفة لعامل سلا من عام 1912. إلى عام 1939، ثم قائدًا لقبيلة الخلط بغرباوة من عام 1924 إلى عام 1944.
سالم (ابن) محمد	إيطاليا	ملازم ضمن طاقم سفينة البشير.

يتبع

تابع

سكيرج الزبير	إنكلترا	مهمة الترجمة بدار النيابة في طنجة. أُرسل ضمن سفارة المنبهي إلى لندن. عيّن لتنظيم الشرطة المغربية في عام 1324هـ. عُيّن أمينًا لضريبة المباني، فمديرًا للأملاك المخزنية في تطوان والمنطقة الخليفية.
الشاوي إدريس		أشرف على قيادة المدفعية المغربية بعد عودته.
صالح (ابن) فضول	إيطاليا	تخصص بالسلاح.
طوجة محمد بن علي	إيطاليا	تقلد مناصب عدة في الجيش والبحرية، سافر إلى تركيا واليونان في مهمات رسمية.
العيدوني أحمد الجبلي	إيطاليا	عيّن بعد عودته مهندسًا وقائدًا للجند في عام 1897. أُرسل في عام 1900 للتفاوض من أجل جلب بعض الأسلحة من شركة كروب. نيطت به مجموعة من المهمات المخزنية.
الكعاب (ابن) محمد الشركي	فرنسا وبلجيكا	عُيّن مهندسًا ومترجمًا بالماكينة في فاس.
المنجري محمد		تولى إدارة فحص المتفجرات.
النسب إدريس	إنكلترا	كلف في 1883م بالتلغراف الهيلوغريفي.
الأوديي الطاهر		أشرف على سك العملة في مصنع المكينة بفاس.
الأوديي مصطفى	إيطاليا	تخصص بالسلاح.
إدريس زلو الصفار	بلجيكا	الإشراف على تجهيز مصنع القرطوس في مراكش في عام 1304هـ.
محمد المنقري	بلجيكا	رئيس قسم صناعة الزناد في دار السلاح في فاس.
العباس بن قاسم		رئيس قسم صناعة الجعاب في دار السلاح في فاس.
الحسين ابن الحاج خلوق الأوديي	ألمانيا	تدريب الجيش في عهد المولى عبد العزيز.
صالح بن محمد التادلاوي	بلجيكا	عمل في مصنع المكينة في فاس.
محمد بن المكي المسفيوي		مهندس رسم خرائط قصر ملكي.
علال بن محمد المهندس		كُلف بتصوير خرائط أملاك الأحباس وغيرها.

من بين عدد كبير من المتعلمين الذين عادوا إلى المغرب، لم يتقلد منصب وزير غير محمد الكباص، وكُلّف باقي أفراد البعثات أدوارًا هامشية وملحقة بالمؤسسات والخبراء العسكريين الأجانب.

في مقابل ذلك، كانت المناصب السامية حكرًا على أمثال المهدي المنبهي ومحمد بركاش ومحمد العربي الطريس ومحمد بن المدني بنيس وعلي المسفيوي وأولاد الجامعي أخوال السلطان وآل بنموسى الذين توارثوا الحجابة والوزارة وغيرهم، وهم نخب لم تمتلك ناصية العلم الإداري والسياسي والعسكري كما كان سائدًا في الغرب الأوروبي، وشكّلوا أدوات البيرواقراطية المخزنية التي حجبت الأدوار المحتملة لأفراد البعثات التعليمية المغربية.

في هذا الصدد، أشار الأعرج السليماني، في سياق حديث مجمل عن بعض المتعلمين، إلى إخفاق البعثات التعليمية في الخارج، قائلًا: «... وكل منهم حصل على إجازة في التفوق فيما اختص به...، على أن الحكومة لم تتمكن من السير على ذلك السبيل المفيد لما جبل عليه القابضون على زمام الأعمال من الجمود على بقاء ما كان على ما هو عليه... والحديث شجون إذا فتحت المدارس أغلقت السجون»[418].

وضعنا السليماني أمام ثنائية/ معادلة متناقضة: فإذا دلت البعثات التعليمية، من جهة، على عنصر من عناصر الحركة وعلى آلية من آليات التغيير، فإن الإدارة الممسكة بزمام الأمور ومنظمة هذه البعثات بقيت على ما كانت عليه من الجمود. ولا شك في أن ذلك في نظره سبب إخفاقها. كما أنه بإشارة نقدية إلى منظومة التعليم يرى في إغلاق المدارس دليل على جمود الإدارة، وعلى عدم القدرة على الدفع بمفردات المجتمع إلى الانخراط الفاعل في مسيرة التنمية المنشودة.

توخت المؤسسة السلطانية الحفاظ على البنية الإدارية نفسها والإبقاء على رموزها البيروقراطية. وكانت تهدف من موضوع البعثات تجديد مقاساتها بشكل يمكّنها من مواجهة سرعة عمليات التحديث الغربي الذي برزت تحدياته منذ معركة إيسلي.

في مقابل ذلك، ركزت إدارة الميجي وحلفاؤها من مقاطعات شوتشو وساتسوما على إعادة تشكيل نسق الدولة والمجتمع؛ فبسبب الانقلاب على

---

(418) بنواحي، ص 385-386.

حكام التوكوجاوا، احتاجت الإدارة الجديدة إلى نمط جديد من الممارسة السياسية والإدارية، خصوصًا بعد إلغاء النظام الفيودالي وتبعاته القانونية والسياسية والمجتمعية. ومن هذه الزاوية مثّل أفراد البعثات التعليمية اليابانية رقمًا مهمًّا في المعادلة الإصلاحية الجديدة؛ فمن بين أفرادها خرج الوزراء والقادة العسكريون والنخب الفكرية ورجال الاقتصاد والمال.

من جانب آخر، تعرضت البعثات التعليمية المغربية لمجموعة من الانتقادات العنيفة من بعض مكوّنات المخزن الحسني التي كانت ترى في هذا العمل التحديثي خطرًا على مواقعها ومراكز نفوذها؛ فالطاهر بن الحاج الأودي - أحد أفراد هذه البعثات - وضع كتابًا بعنوان **الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار**، ذكر فيه «أنه نصح بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، ولكن الوزراء والكتاب رموه بالإلحاد»، وفي عام 1888 تحدث الأودي بلغة ركيكة: «وفي عام 1305هـ بفاس رءيت بعين القلب وزراء وكتّاب وأمناء دائرة النفاق، كفار بالرزة والشاشية، حين قالوا لأمير المسلمين: كنا ببر النصارى سنين جئنا منها حمور متنصرين، وتصدروا لنا الأعادي الموروتين إلى هد الساعة...»[419].

يثير هذا النص، على الرغم من ركاكته، قيمة تاريخية متميزة؛ ذلك أن الأودي انفرد بين المتعلمين الآخرين بنقد عنيف لبعض رموز الإدارة المخزنية، وأبدى مجموعة من الملاحظات ودوَّن بعض المعلومات في شأن فساد الجهاز المخزني. كما أنه حصر عناصر المعارضة في الكتّاب والوزراء والأمناء، وبأن هؤلاء كان كلام مسموعًا وإشاراتهم مقبولة لدى السلطان. وبالكشف عن خفايا النص - الخطاب - لم يوجه الأودي نقده إلى العلماء، الأمر الذي ينبئ أن الفئة المعارضة من الدوائر المخزنية وظّفت اللافتات الدينية لتبرير استمرار مصالحها ومقاصدها الدنيوية.

لا يمكن من خلال هذا النص أو غيره اعتبار الفقهاء «فئة محافظة ومتشددة

---

(419) الأودي، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، أورده: الحيمر، «البعثات التعليمية،» ص 225.

في أغلب الأحيان»[420]. كما يقول أحد الدارسين، وترتبط القضية بالمصالح والمغارم التي كانت تجنيها البيروقراطية المخزنية من مستنقع الأزمة ومعارضتها أي توجه إصلاحي يهدد كينونتها وينال من رأس مالها الرمزي والمادي. ومن هذه الزاوية أثار موضوع البعثات سخط المحافظين الذين اعتبروها مروقًا من الدين واتصالًا ببلاد الكفر.

من جانب آخر، تحفظت بعض النخب الفكرية على نتائج هذه البعثات، نظرًا إلى بعض نتائجها المتمثلة في ما ذكره الناصري: «من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم، وغير ذلك، فقد عمّت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم، فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجمًا متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم، حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وبدلوه بوضع اليد خلف الأذن»[421].

نتساءل عن حجم الإعراض عن تعاليم القرآن الجوهرية ورموزه ودلالاته في بنية الدولة والمجتمع وممارساتهما، مثل العدالة الاجتماعية والتعاقد السياسي القائم على منطق الموالاة بالمعروف والاحتكام إلى سلطة نزيهة ومحايدة. وقد فقدنا الجرأة السياسية لنقد الممارسة الإدارية، وطبيعة العلاقة القائمة بين الدولة والمجتمع، وبحثنا عن العلل الصغرى والهامشية لندرأ بها، بوعي أو من دونه، العلل الكبرى والاستراتيجيا المفسرة لانتكاسة التجربة التحديثية.

لم تشكك الكتابات المخزنية في الوهن البنيوي الذي لازم مؤسسة المخزن، ودور رموزه وقادته البيروقراطيين في إنتاج الأزمة. كما لا نجد في مدوّنة الأحكام السلطانية ما يدل على العوامل البنيوية المسؤولة عن انتكاسة التجربة التي وُلدت ميتة وفاقدة أسباب الحياة والاستمرار.

---

(420) محمد سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، الكتاب الجيب؛ 4 (الرباط: جريدة الزمن، 1999)، ص 29.

(421) الناصري، كتاب الإستقصا، ج 9، ص 106.

لقد تشوّف المخزن، من خلال إيفاد البعثات التعليمية إلى دول العالم الغربي، إلى إنقاذ امتيازاته وتجديد مؤسساته. ولم تكن بنيته الداخلية ونمط العلاقة، التي رسمها لنفسه ولرموزه مع أطياف المجتمع المختلفة منذ زمن بعيد، يسمحان له بتحقيق نتائج متكافئة مع التحديات الخارجية المتزايدة.

نقرأ في رسالة الحسن الأول إلى محمد الطريس ما يلي: «خديمنا الأرضى محمد بن العربي الطريس...، وبعد، فقد وصل كتابك في شأن خدمتك هناك وصار جميع ما ذكرت بالبال. فها نحن عيّنا لإعانتك والأخذ بيدك خديمنا الطالب عبد السلام أحرضان وكتابنا له بذلك يصلك طيه، فادفعه له، والسلام»[422].

وردت الرسالة السلطانية غامضة، ولم توضح ما ذكره محمد الطريس، وصار «ببال» المولى الحسن الأول، لكننا نطمئن إلى أن الطالب أحرضان لم يكلّف بمسؤولية استراتيجية في الإدارة المخزنية التي كانت حكرًا على فئة تدرك تفصيلات الإدارة البيروقراطية وتشعباتها، وتعجز عن فقه حجم التحديات الخارجية ونوعيتها.

لم تحقق هذه البعثات، إذًا، أهدافها. وهي نتيجة أُجمع على قطعيتها في أغلب المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع بالدراسة والتحليل، منها ما ذكره ابن زيدان بطريقة محتشمة وسريعة، قائلًا عن الفئات المتعلمة الوافدة إلى المغرب: «... ولما زاولوا دروسهم وملئوا بكل علم نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معرفهم...»[423]. ولم يذكر ابن زيدان، ومن قبله الأعرج السليماني[424]، هؤلاء الذين حرموا البلاد والعباد أسباب الترقي والتمدن، فغابت عنا معلومات كانت ستمكّننا من أن نحدد بدقة عناصر الخلل الإداري المسؤول عن أحد جوانب الأزمة المغربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية

(422) رسالة الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس، بتاريخ فاتح محرم 1303هـ/ 10 أكتوبر 1885م، خ.ع.ت، محفظة 4/ 1.

(423) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ص 465.

(424) بنواحي، ص 392.

القرن العشرين. أما في العلائق السياسية، فيظهر ابن زيدان أكثر تكتمًا وحذرًا من توجيه اللوم إلى الذهنيات المعرقلة لعملية الإصلاح، فلندعه يتحدث، مقارنًا مخزن الحسن الأول بدولة اليابان في عهد الميجي التي كانت في نظره «أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذ ذاك بين المغرب واليابان في الانحطاط. في ذلك الوقت، اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه، فوجّه المتعلمين من اليابانيين، وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة»[425].

لا نعلم المعايير التي اعتمدها ابن زيدان في حكمه الذي رأى فيه أن اليابان كانت أحط من المغرب، وهل كانت لديه معلومات كافية للخروج بهذا الحكم الذي يستدعي التريث والتحقيق؟ المؤكد أنه كان لدى ابن زيدان وغيره معلومات قليلة في شأن حقيقة المقدمات التي أنتجت التفوق الياباني في عهد الميجي والفترات التي تلته.

لا يليق نسبة أسباب الإخفاق إلى فئة مجتمعية أو نخبة فكرية أو مخزنية؛ ذلك أن البعثات التعليمية افتقدت المقدمات المؤسسة للفعل التحديثي، فلم يكن المغرب - سلطةً ومجتمعًا - يتوافر على أدنى الشروط الذاتية لإنجاز هذه المهمة التاريخية. كما لم تكن أزمة المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عارضة وموقتة، بل كانت بنيوية ومعقدة، وزاد في تعقيدها الدور الأوروبي الذي لم يرُم من هذه البعثات سوى إلحاقها بخدمة مؤسساته العسكرية في المغرب، وتنمية المشروع الاستعماري الأجنبي.

وأورد محمد السايح انطباعه الذاتي في شأن تجربة البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول قائلًا: «ولمّا كانت أيام المولى الحسن الأول الذي درس الحالة من كثب واهتم بنشر المدنية الجديدة، أراد أن يرجع بالمغرب إلى مركزه ويرفعه إلى مستواه، فقام بوسائل مهمة، منها بعثه البعثات العلمية إلى الأقطار الأوربية وكان ذلك في العهد الذي أوفدت فيه اليابان البعثات أيضًا، ولكن لم يتم له في ذلك أمر ولم تعقبه نتيجة مفيدة، لأن الشعب المغربي إذاك لم يكن يدرك ما كان يدركه سلطانه، وما كان الناس يبعثون أولادهم لأوربا عن رغبة، ولما مات المولى الحسن وخلفه ابنه المولى عبد العزيز على العرش قام بتدبير الملك حاجبه

(425) ابن زيدان، العلائق السياسية، ص 149.

باحماد وذلك لصغر الملك، وهذا الحاجب سياسي محنك، ولكن في خصوص سياسة داخلية البلاد التي درسها من قديم على عتبة القصر، أما المدنية الجديدة والتطور العصري فلم يكن نضج في فكره، ولما ورد عليه بعض المتعلمين من تلك البعثات وقد أتموا دراستهم، لم يجعل لهم قيمة ولم يقدر لهم قدرًا وألقاهم في زوايا الإهمال فضاعت معارفهم وخسرت صفقة المغرب، وقد عرفت كثيرًا منهم يستعين على معاشه ببعض الحرف ولله الأمر من قبل ومن بعد»(426).

تفصح الشهادة عن إهمال الحاجب المستبد أفراد البعثات التعليمية الذين عادوا إلى المغرب للانخراط في مشروع تحديثي فاشل، ولم يكن منتظرًا من باحماد القيام بذلك لأن، اهتمامه الأساس انصرف إلى ضبط الداخل ودعم البيروقراطية المخزنية من أتباعه وحاشيته ومناصريه. وسيطر هاجس ضبط الأمن على مشروعه، واستعان في تحقيق ذلك بعصبيته من الجيش المخزني في مكناس. ولم يكن بناءً عليه، في حاجة إلى كفاءات سكيرج ومحمد النجار ومحمد بن الكعاب الشركي والعيدوني والحسين الزعري وغيرهم، بسبب عدم نضج فكره وقلة إداركه أهمية المدنية الجديدة والتطور العصري كما قال محمد السايح.

لم تكن بنية المخزن الجديد قادرة على إدماج الكفاءات المغربية التي استعانت على معاشها ببعض الحرف، كما يشهد على ذلك محمد النجار، أحد أفراد البعثات التعليمية الذي اشتغل آخر أيامه في الفلاحة وقال «النصارى كيعلمو العقل والمسلمين كيحفيوه».

علاوةً على ذلك، نقرأ في مراسلة مخزنية نفور بعض الآباء من إيفاد أبنائهم للدراسة في الخارج، فقد خاطب محمد بركاش النائب الحاج محمد العربي الطريس قائلًا: «...، وهؤلاء المتعلمون هم غاية ما تيسر في الوقت مع طول المدة، وكل من توفرت فيه الشروط لا يسمح به أهله ولا يخفاك كثرة الشفعاء الذين يتعين قبول شفاعتهم...»(427).

---

(426) محمد السايح، «السلطان المولى اسماعيل بن محمد الشريف،» دعوة الحق، السنة 3، العدد 2 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1957)، ص 31.

(427) رسالة محمد بركاش السابقة إلى النائب الحاج محمد الطريس السابقة بتاريخ 11 شوال 1303هـ - 13 تموز/ يوليو 1886م، خ.ع.ت، محفظة 99/ 71.

تتضح المسألة من خلال بعض الأسماء الواردة في الرسالة، ولم نجدها ضمن الوفد الذي سافر إلى إيطاليا في عام 1888، وهو ما يدل على حذفها إما بسبب طلب الشفاعة وإما بفعل عدم نجابة بعض المتعلمين.

إضافة إلى العوامل المالية والمجتمعية والعسكرية ودورها في إفشال هذا العمل التحديثي، فإن التنافس الأوروبي وتداعياته على الدولة والمجتمع المغربيين كان لهما دور بارز في تعميق عناصر الخلل في هذه المجالات، «فقد كانت فرنسا تفضّل مغربًا ضعيفًا عوض أمّة مسلمة قوية... وطبقت إسبانيا نفس السياسة... مستهدفة تفقير المغرب، وتفكيك بنياته تمهيدًا لإخضاعه بيسر»[428].

توقف إرسال البعثات التعليمية مع وفاة الحسن الأول، واكتفى العهد العزيزي بتحرير المراسلات المتعلقة بالوفود التي أنهت مهماتها في الخارج، ومن ذلك رسالة وجّهها المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، ورد فيها: «...، وبعد، وصل جوابك بتوجيهك الطالب المكي الرباطي الذي كان توجّه من جملة الطلبة الموجّهين لإيطاليا في الرفقة الثانية بقصد التعليم وفق ما أمرناك وصار بالبال فقد وصل، ونظم في سلك طلبة الألسن والسلام»[429].

يبدو أن الرسالة جاءت جوابًا على رسالة سلطانية أمر فيها المولى عبد العزيز بتوجيه الطالب المذكور، إذ ورد فيها: «...، وبعد، فنأمرك أن توجّه لحضرتنا الشريفة المكي ابن مبارك الرباطي أحد الطلبة الذين كانوا توجهوا في الرفقة الثانية[430] لإيطاليا بقصد التعليم، والسلام»[431].

---

(428) Jean Brignon [et al], *Histoire du Maroc* (Paris: Hatier; Casablanca: Librairie nationale, 1967), p. 320.

(429) رسالة السلطان عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 13 رمضان 1313هـ/ 27 فبراير 1896م، خ.ع.ت، محفظة 14/ 145.

(430) تدل عبارة الرفقة الثانية على أن الفوج الثاني الذي توجّه نحو إيطاليا خلال عهد الحسن الأول كان على دفعتين.

(431) رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 2 جمادى الثانية 1313هـ - 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1895، خ.ع.ت، محفظة 14/ 102.

استنتاجات

لا يمكن قياس مدى نجاعة البعثات التعليمية المغربية (1873-1894)، كإجراء إصلاحي تحديثي، بمعزل عن المقدمات والتراكمات المؤسِّسة لها. كما لا يمكن البحث عن نجاح الإصلاح في الإجراءات والتدابير التقنية البحتة، بل من خلال قياس درجة الانخراط المجتمعي، وقناعة القاعدة المجتمعية، وطبيعة السلطة السياسية ووظيفتها التنموية ومدى تشبثها بقيم الإصلاح وأهدافه الكبرى. بناءً عليه، فإن ثقافة التغيير تتأسس بدايةً داخل نطاق الذات المدركة فقه اللحظة التاريخية، قبل أن تتحول إلى موضوع محكم البناء، يلتقط عناصر القوة بتلقائية ويسر، ويدفع بها في اتجاه العمل التحديثي الإيجابي. وفي هذا السياق فقط، يمكن الحديث عن مدى فاعلية الإجراءات الإصلاحية، كإرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا في عهد الحسن الأول.

فقد المغرب، سلطةً ومجتمعًا، خلال الفترة المذكورة الشروط الذاتية للإصلاح، وتبيّن ذلك من خلال الهزائم العسكرية والدبلوماسية المتتالية أمام القوى الأوروبية المتنافسة، كما انتفت داخله عناصر التماسك المجتمعي، بتسابق المغاربة للدخول في الحماية القنصلية. واستغل الأوروبيون هذه «الجرثومة» في تعميق أزمات الداخل، بالدرجة نفسها التي حاولوا فيها تجريد المخزن المغربي من عناصر القوة المحتملة، ولا سيما القوة المالية بفرض الغرامات الحربية الثقيلة (كغرامة حرب تطوان) وتحميل المخزن «المسؤوليات المالية لضياع حقوق الأوربيين» في أثناء معاملاتهم التجارية داخل المغرب.

من غير الملائم تقويم تجربة التحديث من خلال إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا بمعزل عن علل الذات المغربية المكلومة، ولا بمنأى عن التنافس الأوروبي المحموم على المغرب؛ فقد أبانت هذه التجربة عن قصور منهجي في تفسير قوة الآخر، ذلك أن الممارسة التحديثية ركّزت على عناصر القوة العسكرية، والاستعداد لحرب النظام، في حين أن مرتكزات القوة الغربية تأسست على النظريات العلمية التطبيقية، وفي ميدان العلوم السياسية والإدارية والاجتماعية. ولم تكن القوة العسكرية سوى مظهر من مظاهر هذه القوة.

نختم موضوعنا بمقارنة صاحب العلائق السياسية للدولة المغربية بين

حالة المغرب وحالة اليابان؛ فقد أكد أن اليابان كانت «أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذاك بين المغرب واليابان في الانحطاط. في ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه، فوجّه المتعلمين من اليابانيين، وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة، وصارت اليابان تقر بعظمتها أعظم الدول وتخشى بأسها»[432]. وإذا كان ابن زيدان يلمح إلى عناصر الخلل الإداري المغربي، وهو الجانب الذي توافرت له فيه مادة وثائقية دسمة، فإن حكمه على اليابان بالانحطاط خلال هذه الفترة يبدو متسرعًا وفاقدًا مقومات البحث الموضوعي؛ فقد بيّنت الدراسات الحديثة أن ثورة الميجي لم تكن سوى استمرار وتتويج لأكثر من مئتي عام من التراكم السياسي والاقتصادي، خصوصًا في فترة ما يعرف بالعزلة الطوعية لليابان، وهذا ما يحتاج إلى دراسة مستقلة تفي الموضوع حقه من الدراسة والتحليل والاستنتاج. ومن هنا تأتي أهمية المقارنة ومشروعيتها كمرآة تعكس التشوهات التحديثية التي يمكن أن تطرأ على أنموذج نهضوي معيّن، بمقابلته بغيره من النماذج التي تصلح أن تشكل حالة قابلة للتمثل والقياس.

ختم بوشعراء موضوعه في شأن البعثات التعليمية المغربية قائلًا: «تُرى لو امتد الأجل بمولاي الحسن عشرة أو عشرين سنة أخرى، ماذا كان سيقع إذن، لانطلق المغرب من عقاله نظريًا فقط، ولربما تقوى حتى كسب معارك حربية مثلما ربح اليابانيون حربهم مع الصين سنة 1896م»[433]. ويبدو أن بوادر فشل البعثات التعليمية ظهرت في زمن الحسن الأول على مستوى التمويل واندماج المتخرجين. وحتى لو امتد العمر بالسلطان إلى أكثر من عشرين عامًا، لم يكن منتظرًا أن يحقق موضوع البعثات نتائجه التحديثية المتوقعة في ظل نسق إداري وسياسي وذهني ومجتمعي يشجع على تناسل الأزمة وامتدادها وتوسعها. وعقّب بوشعراء مستدركًا: «غير أن هذا الاحتمال الوهمي لا يجوز اعتماده إلا إذا أُلغيت الاعتبارات الجيوسياسية المعاصرة له: أي إلا إذا نسينا التهافت الخارجي على المغرب الذي ليس موقعه هو موقع اليابان ولا عقلية أبنائه، كنفسية الياباني المنضبط الحازم الدؤوب»[434].

---

(432) ابن زيدان، العلائق السياسية، ص 149.

(433) بوشعراء، ج 4، ص 1385.

(434) المصدر نفسه، ص 1385.

إذا كنا نتفق في شأن دور ذهنية الساموراي وأخلاقه في تأسيس أنموذج الدولة الحديثة في اليابان، فإن الحتمية الجيوسياسية واعتبارها قدرًا لا يمكن مدافعتهما، تحتاج إلى فحص وتساؤل ومقارنة. فهل كانت منطقة الشرق الأقصى، في القرن التاسع عشر، بمنأى عن الضغط الغربي؟ وكيف نفسر الهجمة الإنكليزية الشرسة على الصين في أثناء حربي الأفيون الأولى والثانية وانتزاعها مجموعة من الاتفاقات غير المتكافئة؟ وكيف نفسّر الحضور الهولندي والضغط الروسي القيصري، ومن بعده الأميركي على دول المنطقة ومن ضمنها كوريا واليابان؟

لا نعتقد صحة المذهب الذي يقول بهامشية موقع اليابان وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، مقارنة بموقع المغرب وتكالب القوى الإمبريالية على سيادته وثرواته، وهو قول يثار بقوة في بعض الكتابات المشرقية التي حاولت البحث عن أسباب تعثّر تجربة التحديث المصرية في عهد محمد علي، ومقارنة ذلك بنجاح المحاولة اليابانية. ويُعَدّ شارل عيساوي من أوائل من أثاروا التساؤل الآتي: «لو قُدّر لمصر أن تحكمها في ذلك الوقت حكومة وطنية ومستنيرة، لبرزت في القرن العشرين صورة مصغّرة لليابان»[435]. ويقارن في كتابه **تأملات في التاريخ العربي** قائلًا: «ففي الوقت الذي تقع فيه مصر في قلب العالم القديم على الأقل - وهو الأمر الذي كان ذا تأثير كبير- تقع اليابان في طرف العالم. ويعني ذلك أن الإمبراطوريات العدوانية في القرن التاسع عشر - بريطانيا وفرنسا وروسيا - ما كانت لتصل إلى اليابان إلا في نهاية خط طويل للغاية من شبكات الطرق التي كان تأثير تلك الإمبراطوريات يضعف خلالها على نحو كبير»[436]. ويقتفي مسعود ضاهر المسلك نفسه مقررًا: «قدم عيساوي خمس ميزات كبرى تفتقر إليها مصر، وهي التي أسهمت في تحويل اليابان إلى بلد غني، ومنها أن مصر تقع في قلب العالم القديم في حين تقع اليابان في طرف العالم، مما أسهم في الحد من خطر التدخل الخارجي فيها»[437].

---

(435) Charles Philip Issawi, *Egypt at Mid-Century: An Economic Survey*, Published under the Auspices of the Royal Institute of International Affairs, Rev. ed. (London; New York: Oxford University Press, 1954), pp. 19-20.

(436) شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 184-185.

(437) ضاهر، ص 19.

نعتقد أن المركز الغربي الإمبريالي انفتح على أطراف مختلفة، منها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وبالمستوى نفسه امتدت علاقاته إلى مناطق مختلفة من آسيا كشبه الجزيرة الهندية وباقي مناطق شرق وجنوب شرق آسيا. وقد سبق أن بيّنا حجم التنافس الإمبريالي الذي سبق حملة بيري على السواحل اليابانية وعنف الهجمة البريطانية على الصين خلال حرب الأفيون في عام 1840، وهو ما أوضح لليابانيين هول الخسائر التي تكبّدتها الصين نتيجة هذه المواجهة غير المتكافئة.

مثلت القوة الغربية أمام الأطراف المتناثرة تحديًا فكريًّا وعلميًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، تطلّب ردًّا ملائمًا ومكافئًا، واحتاج إلى عقلية وإلى بناء خطة استراتيجية تدرك طبيعة هذه القوة وتقوّم حجم الإمكانات الطبيعية والبشرية القابلة للاستثمار والتحدي.

إن القول بمركزية هذه الدولة أو تلك وتكالب القوى الاستعمارية عليها يضفي نوعًا من المشروعية على استقالة الفكر عن الإبداع، ويبرز العقمَ في التعامل والتفاعل العقلي والسياسي مع موضوع المجال وترويضه في سبيل المغالبة الحضارية وصناعة التنمية الفاعلة التي تحتاج إلى حركية ووحدة مجتمعية ونخبة سياسية متنورة.

ضمن هذه الرؤية والضوابط، يمكن تناول الأنموذج الياباني بالدراسة والتحليل، وقراءة ركائزه البنيوية وتطوراته التاريخية، مع التركيز على موضوع البعثات التعليمية اليابانية في عهد الميجي كفعل تحديثي منبجس من تربة ثقافية وسياسية ومجتمعية وتاريخية وأسطورية خاصة.

لم تكن تجربة محمد علي اختيارًا مجتمعيًّا حقيقيًّا، بل ارتبطت بسلطة استبدادية وقهرية نأت بالمجتمع المصري عن المشاركة الفاعلة في صوغ المشروع والدفاع عنه، عندما تعرضت دولة محمد علي لمناورات القوى الإمبريالية وهجومها.

سبق المصريون اليابانيين في إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج وفي استقدام الخبراء الأجانب؛ فقد أوفد محمد علي عددًا كبيرًا من المتعلمين في

عام 1849 مقارنة بما فعلته اليابان في عام 1900[438]. لكن ما الذي جعل البعثات التعليمية اليابانية رقمًا فاعلًا في رقعة التحديث الداخلي وفي مدافعة القوى الأجنبية؟ وما هي الإضافة النوعية التي حققتها مقارنةً بمثيلتيها المغربية والمصرية؟

تستدعي الإجابة نوعًا من التفصيل والكشف عن مراحل هذه البعثات، والتقاط الخيط الناظم الذي يؤطّرها منذ نهاية عهد الإيدو، مرورًا بعهد الميجي وتايشو وشوا.

(438) Butterworth and Zartman, eds., p. 38.

الفصل الخامس

البعثات التعليمية اليابانية و«صناعة» النخبة الإصلاحية

«دخلت الحضارة الغربية إلى اليابان، من خلال استقدام الأساتذة الأجانب، وإرسال الطلبة اليابانيين إلى الخارج للدراسة والبحث».

وزارة التربية والثقافة والرياضة
والعلوم والتكنولوجيا في اليابان

شهدت منطقة الشرق الأقصى، في فترات تاريخية قديمة، تفاعلًا ثقافيًا إقليميًا، مثّلت الصين محورَه الأساس، وامتدت أطرافه إلى كل من اليابان وكوريا وغيرهما من البلدان الآسيوية. ويمكن القول إن حالة من الاكتفاء الثقافي ترسخت في المنطقة وشكّلت نمطًا تنمويًا خاصًا، تمركزت أقوى عناصره في الأخذ بالأنموذج الصيني. ومن جانب آخر، لم تبتدئ محاولات اليابان للانفلات من الهيمنة الثقافية الصينية إلّا مع حركات المد الغربي في المنطقة التي بدأت في إرساء مصالحها هناك، والتأسيس لنمط ثقافي جديد ومنافس خلال البدايات الأولى للقرن التاسع عشر.

ارتبط التواصل التعليمي الياباني، في أزمنته القديمة، بالثقافة الصينية؛ فمع «بداية القرن السابع للميلاد، نهج الأمير شوتوكو سياسة إيفاد البعثات التعليمية

إلى الصين»[1]، ومنها استقدم البوذية والثقافة الصينية[2]. وكان «معظم الطلبة الذين أُرسلوا إليها من الكهان البوذيين»[3].

اعتُبِرت الصين في الماضي قِبلة ثقافية لتكوين النخب وتهيئة أفراد البيروقراطية الإدارية. وأرسلت اليابان إليها كثيرًا من البعثات الرسمية، بلغ عددها بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر «عشر بعثات إلى مدينة شوان - إحدى أبرز المدن العالمية المتطورة - بهدف الحصول على العلوم المتقدمة وعناصر التفوق»[4].

استمر التأثير الصيني في تشكيل ثقافة المجتمع الياباني في كثير من التفصيلات، وتحقق ذلك عن طريق مبعوثين دبلوماسيين ذوي خبرة أُرسلوا إلى الصين، وبواسطة الطلبة الذين عادوا إلى اليابان بعد أعوام من التدريب، وساهموا في إنشاء المدارس وفي الهيمنة على الأغراض التربوية[5].

أمّا في عهد «الشوغون أشيكاجا يوشيميتسو» (1358-1408)، فجرى إيفاد ست بعثات بين عامي 1404و1410[6]. لكن مع بداية عهد التوكوجاوا، بدأت العلاقات اليابانية - الصينية في الانحسار. وذهب بعض الباحثين إلى القول «بانعدام الروابط بين نظامي الحكم في الصين واليابان»[7]. وانعكست

---

(1) Makoto Yamaguchi, «Social, Cultural, and Economic History of Japanese Adult Learning,» p. 1, on the Web: <http://www.ed.gov/pubs/HowAdultsLearn/Yamaguchi.pdf>.

(2) Gilda Massari Coelho, «La Société de la connaissance et les systèmes d'information stratégique comme appui à la prise de décision: Proposition pour l'enseignement de l'intelligence compétitive au Brésil,» (Thèse de Doctorat en Science de l'Information et de la Communication, Université de Droit et des Sciences d'Aix - Marseille, Faculté des Sciences et Techniques de Saint Jérôme, 2001), p. 172.

(3) Frank Alanson Lombard, *Pre-Meiji Education in Japan: A Study of Japanese Education Previous to the Restoration of 1868* (Tokyo, Japan: Kyo Bun Kwan (Methodist Pub. House), 1913), p. 44.

(4) Coelho, p. 172.

(5) Lombard, p. 48.

(6) Dorothy Perkins, *Five Hundred Fun Facts about Japan* (Collingdale, PA: Diane Pub. Co., 1994), p. 96.

(7) Mizuno Norihito, «China in Tokugawa Foreign Relations: The Tokugawa Bakufu's Perception of and Attitudes toward Ming-Qing China,» p. 1, on the Web: <http://chinajapan.org/articles/15/mizuno15.108-144.pdf>.

سياسة العزلة اليابانية على حجم التدفق البشري إلى الصين، حيث منع الشوغون اليابانيين من مغادرة أرض الميكادو. لكن ذلك لم يلغ الروابط العميقة بين المجتمعَيْن من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافيّة، فاستمرت الصلات، خصوصًا عبر ميناء ناغازاكي الذي كان يؤمّه التجار الصينيون والهولنديون.

على الرغم من ذلك، نشأت علاقات محدودة بالغرب الرأسمالي، ومن ذلك بعثة تسونيناجا هاسيكورا إلى أميركا الجنوبية (1613-1620)، «وعُدّ أول شخصية رسمية يابانية تتوجه إلى القارّة الأميركية. ومثّل وصوله إلى فرنسا أول اتصال مباشر بين الفرنسيين واليابانيين»[8]. واستهدفت البعثة إرساء توافقات تجارية مع بعض الدول الأوروبية، وفي مقدمها إسبانيا، لكنها لم تحقق شيئًا في هذا المجال؛ إذ توازى ذلك مع سياسة التوكوجاوا التي استهدفت محو التأثيرات المسيحية في اليابان، والانتصار لسياسة الانغلاق.

يذهب بعض الباحثين إلى القول إن مجيء البرتغاليين والإسبان إلى المنطقة في القرن السادس عشر شجّع اليابانيين على الذهاب إلى المناطق النائية في أوروبا، ومن أبرز الأمثلة على ذلك «أحد الساموراي الفقراء، يدعى برناردو، وصل إلى لشبونة في عام 1553، وتحوّل إلى المسيحية، وتوفي فيها بعد أربعة أعوام»[9].

كان السفر إلى الخارج، في عهد العزلة الطوعية، يعني الإعدام بالنسبة إلى اليابانيين، وهو قرار يذكّر بسياسة الاحتراز التي نهجها المولى سليمان، وكان من مقتضياتها منع السفر إلى الخارج الغربي/ المسيحي. ووُجدت قلة قليلة من الفئات المتعلمة التي تحدّت إرادة الباكوفو، ومنهم أحد الفيزيائيين، ويدعى ناكاجيما شوجيرو؛ «فقد تمكن، في بداية عام 1690، من الفرار على متن سفينة هولندية، والتحق بجامعة لايدن، حيث درس الطب عامين، وتمكن من الرجوع إلى اليابان من دون أن تكتشف أمره سلطات الباكوفو، واستمر في ممارسة حياته العادية في اليابان»[10].

---

(8) Louis Frédéric, *Japan Encyclopedia*, Translated by Käthe Roth (Cambridge, Mass.: Belknap Press of Harvard University Press, 2002), p. 293.

(9) Andrew Cobbing, *The Japanese Discovery of Victorian Britain: Early Travel Encounters in the Far West*, Meiji Japan Series; 5 (Richmond, Surrey: Japan Library, 1998), p. 1.

(10) المصدر نفسه، ص 3.

مع بداية عام 1630، دخلت اليابان تجربة تاريخية فريدة، اتسمت بإصدار قرار إداري وسياسي، يقضي بانتهاج سياسة العزلة (سكوكو) التي تمثّلت أبرز معالمها في منع اليابانيين من السفر إلى الخارج، وهو ما يعني في موضوعنا وقف إرسال البعثات التعليمية إلى الصين، القِبلة المفضَّلة للنخب الثقافية اليابانية في فترة ما قبل الميجي. وإذا ما ارتبطت سياسة العزلة بمحاولات ضبط إيقاع التوازن الداخلي ليابان التوكوجاوا، فإن الإشارات الفكرية والفلسفية لهذا العهد لم تكن لتتقيد بالكوابح السياسية. ويمكن القول في هذا الإطار إن البعثات التعليمية لم تنطلق إلى دول الغرب الرأسمالي مع عهد الميجي، بل وجدت مقدماتها الأولى في عهد توكوجاوا؛ فقد «ظهر في اليابان سياسي بارع، تعلّم المسؤولون من بُعد نظره، كما تعلمت منه الطبقة المثقفة من الشعب أهمية دراسة العلوم الأوروبية وضرورتها. وكان ذلك السياسي المعلم هو هاكوسكي آراي (1657-1725) الذي عمل مساعدًا ومستشارًا للشوغون السادس والسابع. وقد أدت سياسته بعيدة النظر تلك إلى رفع حظر استيراد الكتب الأوروبية غير المتعلقة بالمسيحية، وإلى دراسة العلوم الأوروبية، وكان ذلك في عام 1720...»[11].

في السياق نفسه، دعا الفيلسوف الكونفوشيوسي نكائه توجو (1608-1648) إلى تشكيل حكومة قائمة على الكفاءات والقيم. وعلى الرغم من عدم تطبيق فلسفته في عهد الإيدو، فإن فكرة أن «في إمكان أي شخص أن يرتقي» انتشرت في العالم بسرعة حتى إن أعدادًا هائلة من اليابانيين بدأت تؤمن - قبل نهاية عهد الإيدو - بأن التغيير الاجتماعي ما هو إلّا حصيلة رغبة وشجاعة كل فرد في المجتمع[12].

في نهاية القرن الثامن عشر، «كان الطلبة يدرسون علوم التشريح والفلك، وأصدروا أول قاموس ياباني - هولندي، كما امتدت الدراسات إلى فيزياء

---

(11) محمد عبد القادر حاتم، أسرار تقدم اليابان (القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1990)، ص 48.

(12) كانجي نيشيو، «التعليم في اليابان،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ترجمة عبد الله مكي القروص (بيروت: الدار العربية للعلوم، 1999)، ص 38.

نيوتن، وعلوم النبات الغربية، والجيولوجيا والفن والرياضيات... خصوصًا في المقاطعات الغربية اليابانية البعيدة عن الحكم المركزي»[13]. وفي هذا الإطار، كانت أعداد متزايدة من المثقفين اليابانيين «تعقد الحلقات الثقافية مع الألمان قرب مركز وجودهم الدائم في ناغازاكي، فتعلموا اللغة الألمانية وترجموا إلى اليابانية عددًا من البحوث العلمية التي تعكس التطور التكنولوجي في الغرب»[14].

لم تغب التحولات في عهد التوكوجاوا في أثناء فترة سياسة العزلة الطوعية؛ فقد كانت الذهنية اليابانية تمتلك مقدمات الفعل التحديثي وخصائصه البنيوية، لكنها افتقدت العوامل الموضوعية التي تسمح بامتداده إلى آفاق تنمية واسعة. وحتى في أثناء فترة العزلة الطوعية، لم تنغلق اليابان على المعارف الغربية، بسبب اتصال الهولنديين بناغازاكي، لكن هذه المعارف الغربية انتشرت بسرعة بعد عام 1853[15]. لذا، يمكن القول إن بعثات ما بعد عام 1853 كانت ردة فعل طبيعية على لغة الحديد والنار التي اكتوت اليابان باتفاقاتها غير المتكافئة.

«لم يقتصر انفتاح اليابان على الأميركيين في عام 1854، وعلى الإنكليز في عام 1854، وعلى الروس في عام 1855، لكن على الحداثة الغربية أيضًا»[16]؛ ذلك ما تسجله مجموعة من الباحثين المهتمين بالمسألة اليابانية. لكن، ما هي حدود توظيف هذا التحديث في بناء مجتمع النيبون؟ وأي علاقة نشأت بين الأصيل والدخيل في سيرورة التحولات التي عرفتها اليابان في تجربتها التحديثية الأولى 1853-1944؟

(13) Marleen Kassel, *Tokugawa Confucian Education: The Kangien Academy of Hirose Tansō (1782-1856)*, Studies of the East Asian Institute, Columbia University (Albany: State University of New York Press, 1996), p. 32.

(14) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، ص 153.

(15) ناجاي متشيو وميجول أورشيا، الثورة الإصلاحية في اليابان: ميجي أيشن، ترجمة عادل عوض (القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص 183.

(16) Jean-François Sabouret, «Le Japon: Un pays qui vient de loin,» p. 2, sur le web: <http://www.ac-paris.fr/IMG/pdf/SABOURET_2006.pdf>.

يلقي التفصيل في موضوع البعثات التعليمية بعض الأضواء على هذا السؤال/ الإشكال. ويمكن إجمال البعثات السبع في نهاية عهد الباكوفو كالآتي:

الجدول (5-1)
البعثات السبع في نهاية عهد الباكوفو

العام	الوجهة
1860	الولايات المتحدة الأميركية
1862	أوروبا
1864	فرنسا
1865	فرنسا وبريطانيا
1866	روسيا
1867	فرنسا
1867	الولايات المتحدة الأميركية

أولًا: بعثات الباكوفو

1 - بعثة عام 1860

ترى إحدى الدراسات الأميركية[17] أن «بعثة عام 1860 كانت نتيجة طبيعية لحملة بيري»؛ فقد أحدثت زلزلة شعورية عميقة، عمّقت الجروح وأثارت التساؤل وأكرهت حكومة الباكوفو على «توقيع اتفاقيات غير متكافئة مع الولايات المتحدة، ومنها اتفاقية كاناغوا في عام 1854، والاتفاقية التجارية الأميركية في عام 1858، كما أبرمت اليابان معاهدات غير متوازنة مع كل من هولندا وبريطانيا وروسيا وفرنسا والبرتغال وألمانيا والسويد وبلجيكا وإيطاليا والدانمارك»[18].

(17) Kevin R. Bishop, *Japan's Early Missions to the West: A Comparison of the 1860 Man'en and 1872 Iwakura Embassies* (Overton, Nevada: [s. n.], 2001), p. 4.

(18) Hsu Chieh-Lin, «The All-Direction Diplomacy in Japan,» (Department of Political =

يبدو أن حملة بيري والاتفاقات التي أعقبتها فرضت على حكومة الشوغون «في آذار/ مارس عام 1856، إقامة مؤسسة بانشو شيرابيشو (مؤسسة دراسة كتب البرابرة) في إيدو، اعتنت بالدراسات الغربية. وبدأت على الفور بتكوين طلبتها في عام 1857»[19]. وكانت المؤسسة تلك هي التي احتضنت كثيرًا من الطلبة اليابانيين المتفوقين في الدراسات الغربية، وكان يُختار منها أغلب المرشحين للدراسة في أوروبا والولايات المتحدة.

احتاج اليابانيون إلى فترة من الزمن لفهم ما حدث، في أفق التموقع الملائم للرد على التحدي العسكري الأميركي. فكان عليهم، في بداية الأمر، جمع المعلومات ومراكمتها لتستفيد الاستراتيجيا اليابانية منها في المستقبل، وللخروج من «كهف أماتيراسو»، لممارسة الإشعاع والامتداد، ولم يكن تحقيق ذلك أمرًا يسيرًا، بل تطلّب جهدًا نفسيًا واستخباراتيًا لقبول الواقع الجديد والتهيؤ لمرحلة ما بعد العزلة.

على امتداد الفترة الفاصلة بين حملة بيري وإيفاد أول بعثة إلى أميركا في عام 1860، تباينت المواقف من الهجمة الأميركية، وتعددت الإجابات اليابانية عن طبيعة مدافعتها وآلياتها، كما احتاجت إلى سبعة أعوام للنضج والتبلور.

يتبيّن أن الحس التجسسي ساهم في إصدار الشوغون قرارًا بالانفتاح على الدائرة الغربية لمعرفة الأسباب العميقة المسؤولة عن الانتكاسة اليابانية أمام سفن بيري السوداء. كما مثّلت آلية البعثات، في عهد الإيدو، نوعًا من الهروب إلى الأمام، والتفافًا خارجيًا لإحداث توازن مع التطورات الداخلية التي لم تكن في مصلحة مهندسي سياسة العزلة والانغلاق.

استعمل حكام التوكوجاوا التجسس، كإحدى الآليات المنتقاة، لضبط الأمن الداخلي. كما حاولوا استثمار ثقافة النينجاتسو[20] لمراكمة المعلومات

Science, Fo-Guang University), p. 1, on the Web: <www.fgu.edu.tw/~academic/up1/malayconference1/ = paperscollection.files/conferefncepapers/hsu.pdf>.

(19) المصدر نفسه.

(20) النينجاتسو، ومنه اشتُق اسم النينجا أو الشينوبي الذي يعني حرفيًا المتخفّين أو المتحمّلين للمصاعب، وهم أشخاص كانوا يكلّفون بعمليات الاغتيالات والتجسس.

عن البلدان الغربية. وفي هذا الإطار يمكن اعتبار أفراد البعثات التعليمية، خصوصًا في عهد الباكوفو، مجموعة من الجواسيس، كُلِّفوا بالتقاط معلومات كافية عن القوة الأميركية والقوة الأوروبية، بهدف الرد على تحدياتهما التي كلفت اليابانيين كثيرًا من الناحيتين المادية والمعنوية.

تمهيدًا لإظهار النيات الحسنة، «فتح الباكوفو في أيار/ مايو 1859 ثلاثة موانئ: كاناجاوا وناغازاكي وهوكوداتي، حيث سُمح للروس والبريطانيين والفرنسيين والهولنديين والأميركيين بحرّية التجارة فيها»[21].

حرصت حكومة الباكوفو على جمع المعلومات عن الأوضاع التي كانت سائدة في العالم الخارجي، فأوفدت في عام 1860 «بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة مؤلَّفة من 77 عضوًا، ووضع أعضاؤها تقارير مفصلة عن مشاهداتهم للحضارة الأميركية، وأيقنوا للمرة الأولى وجود حضارة تختلف كليًا عن حضارتهم»[22].

اهتمت البعثة بمحاولة مراجعة الاتفاقات التجارية التي عُقدت بين اليابان والولايات المتحدة، بعد حملة بيري، إذ اعتبرها اليابانيون غير متكافئة. وعلاوةً على الهدف الدبلوماسي للبعثة، تفرّعت مرام أخرى، منها «استطلاع العلوم الغربية والتكنولوجيا والطب والآداب والعلوم الاجتماعية»[23].

لم تهتم حكومة الإيدو بتحديد عدد أفراد البعثة، «فقد مُنح قادتها حقُّ اختيار العدد الذي يريدونه»[24]. وقد انتمى جميع أفراد البعثة إلى فئة

(21) Chūshichi Tsuzuki, *The Pursuit of Power in Modern Japan, 1825-1995* (New York: Oxford University Press, 2000), p. 44.

(22) ناغاي ميتشيو وميغال أوروتشيا، محرران، نهضة اليابان: دراسات وأبحاث في التجربة الإنمائية اليابانية، ترجمة نديم عبده وفواز خوري؛ مراجعة هاني تابري وجورج عبد المسيح؛ أشرف على الطبعة العربية أنطوان بطرس؛ قدم لها هشام شرابي (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1993)، ص 298-299.

(23) Yukiko Fukasaku, *Technology and Industrial Development in Pre-War Japan: Mitsubishi Nagasaki Shipyard, 1884-1934*, Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series (London; New York: Routledge, 1992), p. 45.

(24) Rutherford Alcock, *The Capital of the Tycoon: A Narrative of a Three Years' Residence in Japan*, 2 Vols. (New York: Harper and Brothers, 1863), vol. 1, p. 323.

الساموراي، والملاحَظ أن أصغرهم، شينمي، كان يبلغ 35 عامًا، في حين كان ميراكاكي في السابعة والأربعين وأوكيري في الأربعين[25].

في الوقت الذي توجّه فيه أفراد البعثة إلى واشنطن، استقر القائد البحري كاتسو رينتارو بسان فرنسيسكو، حيث «درس بالتفصيل مكوّنات البحرية الأميركية، من سفن وسلاح، واطّلع على نظام البحرية الحديثة، وزار المناجم والمصانع في تلك النواحي»[26].

قسمت البعثة عملها، وتوسلت، من خلال ذلك، تحقيق التكامل المنشود؛ فقد تزعم وزير الخارجية شينمي مازاوكي العناصر البيروقراطية، «واجتاز المحيط الهادي على متن فرقاطة أميركية، واستقبله الرئيس الأميركي جيمس بوتشانان بحرارة في البيت الأبيض في أيار/ مايو 1860»[27]. في حين تكفّل وزير البحرية كيمورا يوشيتاكي بقيادة القسم الثاني من البعثة الذي «ضم بحارة متدربين، ووجد من بينهم بعض المتطوعين، من أبرزهم فوكوزاوا يوكيتشي»[28].

من جانب آخر، ضمت البعثة جون مانجيرو (1827-1898) أو ناكاهاما مانجيرو الذي يعُدّ أول ياباني يصل إلى الولايات المتحدة؛ فقد أنقذه بحارة أميركيون بعد انعطاب قارب صيده في عام 1841، واصطحبه أحدهم للعيش معه في ولاية ماساتشوستس[29]. ويتضح أنه تأثر بمشاهداته في الولايات المتحدة، واستغل إقامته فيها لتعميق معارفه الملاحية[30]. ولما عاد منها في عام 1851، أُخضع للمراقبة ستة أشهر، واستنطقه أفراد من الدايميو[31]. وقد

(25) Dallas Finn, «Guests of the Nation: The Japanese Delegation to the Buchanan White House,» on the Web: <http://www.whitehousehistory.org/08/subs/08_b12.html>.

(26) Dorothy Perkins, *Japan Goes to War: A Chronology of Japanese Military Expansion from the Meiji Era to the Attack on Pearl Harbor, 1868-1941* (Collingdale, PA: DIANE Pub. Co.,1997), p. 30.

(27) Tsuzuki, p. 44.

(28) المصدر نفسه، ص 44.

(29) Joy Hakim, *Liberty for All?*, A History of US; bk. 5, 3rd ed. (New York: Oxford University Press, 2003), pp. 102-104.

(30) المصدر نفسه، ص 105.

(31) المصدر نفسه، ص 105.

تكون معرفته اللغة الإنكليزية واطّلاعه على مظاهر التحديث الأميركي سببًا في اختياره ضمن أعضاء البعثة.

انسجامًا مع موضوع البحث، يبدو أن حكام التوكوجاوا، مقارنة بالمخزن المغربي، تأخروا في البدء بهذا الفعل الذي كان يروم مراجعة الاتفاقات السابقة التي وقّعتها حكومة الشوغون مع الأميركيين منذ حملة بيري، ومراكمة المعلومات عن طبيعة القوة الأميركية وحجمها التي أيقظت وأهانت الشعور الياباني القائم على النرجسية والاعتزاز بالفردانية العالمية.

في مقابل ذلك، كان المغرب، ظاهريًا، أسرع في التقاط علة هزيمته أمام الفرنسيين في إيسلي، عندما أوفد، بعد طلب فرنسي، بعثة دبلوماسية استهدفت مراجعة بعض بنود اتفاق للا مغنية وطنجة. وتكفّل الصفار من خلالها بالبحث عن أسباب الهزيمة، بالتركيز على ما يشير إلى مقدمات القوة الفرنسية، أكانت العسكرية أم السياسية أم الإدارية. لكن التقرير الذي دوّنه الصفار بأمانة ودقة لم يُستثمر على الوجه المطلوب، ولم تمتلك النخب السياسية والإدارية ذهنيةً فقهِ طبيعة اللحظة التاريخية وحرجها، وما تطلبته من خاصيات الابتكار وشجاعة اتخاذ الإجراءات وحمْل المجتمع على الانخراط في سيرورة التحديث، مثلما حدث في مجتمع النيبون في أواخر عهد الإيدو.

مثّلت بعثات عهد الإيدو قاعدة أساسية لبعثات عهد الميجي، فمنحتها العمق الاستراتيجي وخاصية الاستمرارية. ومن هذه الزاوية فتحت بعثة عام 1860 أعين اليابانيين على حقيقة الآخر المخالف في الثقافة والعلوم والسياسة والجوانب العسكرية، كما هيأتهم نفسيًا لقبول منطق الهزيمة، والتأسيس لمشروع المدافعة والمغالبة.

تحدث فوكوزاوا يوكيتشي عن هذه المرحلة قائلًا: «... اتخذت حكومة الشوغون قرارًا عظيمًا يقضي بإرسال سفينة حربية إلى الولايات المتحدة...»[32]. كما أقر يوكيتشي باعتزاز أنه «في عام 1860 أصبح علم الملاحة مفهومًا بصورة

(32) فوكوزاوا يوكيتشي، سيرة فوكوزاوا يوكيتشي، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 139.

كافية بحيث يمكّننا من الإبحار بسفينة عبر المحيط الهادي، وهو ما يعني أنه بعد سبعة أعوام من مشاهدة أول سفينة بخارية، وبعد خمس سنوات فقط من الممارسة، قام الشعب الياباني بأول عبور للمحيط الهادي دون مساعدة خبراء أجانب. وأظن أن بمقدورنا، من غير تفاخر، أن نتباهى أمام العالم بهذه الشجاعة والمهارة»[33]. ويبدو أن يوكيتشي نسي هوية السفينتين اللتين أقلّتا أفراد البعثة إلى الولايات المتحدة وهولندا، كما «وجد على ظهر السفينة الأميركية قبطانًا وتسعة بحارة أميركيين طوال مدة الرحلة»[34].

بهذه الحماسة وهذه النرجسية غادرت البعثة أراضي النيبون لتُراكم المعلومات عن البلد الذي هدد شواطئ اليابانيين عام 1853، وفرض عليهم بقوة المدافع اتفاقات السلم والتجارة، وكان سببًا في تسريع وتيرة التحولات الداخلية في أرض الميكادو.

«استغرقت مدة الرحلة 37 يومًا، وتعرضت للعديد من العواصف، قبل أن تصل إلى سان فرانسيسكو في ربيع عام 1860»[35]. وتشكّلت البعثة «من ثلاثة أفراد من التوكوجاوا، يقودون 73 فردًا من الساموراي»[36]. وتقدم يوكيتشي «بطلب الانضمام إلى البعثة الرسمية إلى الأميرال كيمورا يوشيتاكي (1830-1901)»[37]. وعاد من هناك بقاموس ويبستير (Webster)، وهو أول قاموس إنكليزي تستقبله اليابان. وحوّل مدرسته المتخصصة بالدراسات الهولندية في إيدو إلى مؤسسة للدراسات الإنكليزية تحولت في ما بعد إلى جامعة كيو[38].

(33) المصدر نفسه، ص 145.

(34) Ian Gow, *Military Intervention in Pre-War Japanese Politics: Admiral Kato Kanji and the 'Washington System'* (London: Routledge, 2004), p. 36.

(35) Nishikawa Shunsaku, «Fukuzawa Yukichi (1835-1901),» *Perspectives*, vol. 13, nos. 3-4 (Septembre-Décembre 1993), p. 505.

(36) Dorothy Perkins, *The Samurai of Japan: A Chronology from their Origin in the Heian Era (794-1185) to the Modern Era* (Upland, PA: Diane Pub. Co., 1998), p. 82.

(37) Shunsaku, p. 505.

(38) Nobutaka Miura, «La Traduction, facteur clef de la Modernisation: Le Cas du Japon de Meiji,» p. 7, sur le Web: <http://www.ulaval.ca/afi/colloques/colloque2006/actes2006/PDF/III-3%20Nobutaka%20MIURA.pdf>.

اتصفت هذه البعثة، التي كانت أول اتصال بالغرب، بكثير من الميزات، وفي مقدمها حالات الصرامة والشدة التي خضع لها معظم أفراد البعثة؛ فقد أُعطيت البعثة تعليمات صارمة بالرجوع إلى اليابان في أسرع وقت ممكن. ولتنفيذ تعليمات الشوغون، عُيّن أوغوري تاداماسا مفتشًا رئيسًا لها، وبحسب دالاس فين (D. Finn)، «كلبًا للحراسة»[39]. ووصف تاماموشي ياسوشيجي، أحد مرافقي البعثة، مظاهر الرقابة التي فُرضت على أعضاء البعثة: «في مكان إقامتنا، مُنعنا من الإقدام على أي خطوة خارجها. وحتى عندما كان يُسمح لنا بذلك، كنا نخرج بمرافقة المسؤولين»[40]. وإذا كان قادة البعثة حريصين على تمثّل سياسة العزلة والانغلاق، فإن كثيرًا من طلبتها تملكتهم رغبة جامحة في الانفلات من قبضة إرادة الشوغون الحديدية. وقد عبّر تاماموشي ياسوشيجي عن ذلك بقوله: «حاولت مرات عدة الحصول على رخصة لزيارة المدارس والإعداديات، ولم يرغب أحد من المسؤولين في مرافقتي إليها»[41].

أحجم يوكيتشي، في سيرته، عن ذكر سلبيات الرحلة، وأنّى له ذلك، وهو الذي طلب من إدارة الشوغون الانضمام إلى البعثة لإلقاء نظرة على ملامح الحضارة الأميركية، وظل طوال حياته مريدًا للعلم ومؤيدًا لخيارات الانفتاح، حتى من داخل نسق سياسة العزلة والانغلاق التي نهجها حكام التوكوجاوا، فاستغل لذلك الإمكانات المتاحة، من دون التعرض بالنقد اللاذع لسياسة الباكوفو في رحلته الأولى إلى الخارج.

كان يوكيتشي مفتونًا بمظاهر الحضارة الجديدة، لكنه احتفظ ورفاقه، على الرغم من ذلك، بقدر من المسافة الثقافية مع الآخر الأميركي. وفي هذا السياق قال: «ذات مساء، قال مضيفنا إن بعض السيدات والرجال المهذبين يقيمون حفلًا راقصًا، وإنهم سيسعدهم حضورنا، فمضينا إلى هناك... ولم نستطع فهم ما يقومون به، فقد بدا أن السيدات والرجال المهذبين يتقافزون معًا في أرجاء القاعة، وبقدر ما كان الأمر ظريفًا، عرفنا أنه سيكون من قبيل

(39) Finn, «Guests of the Nation,» on the Web: <http://www.whitehousehistory.org/08/subs/08_b12.html>.

(40) Bishop, p. 15.

(41) المصدر نفسه، ص 15.

الوقاحة أن نضحك، فتحكمنا في ما يرتسم على ملامحنا بصعوبة مع استمرار الرقص. ولم تكن هذه إلا أمثلة قليلة على حيرتنا إزاء العادات الغربية للمجتمع الأميركي»[42]. ويذكّرنا ذلك بانطباعات الصفار في أثناء وصفه حفلات الرقص الفرنسي، واستغرابها. وترتبط القضية، في الحالتين، بمسألة الاختلاف الثقافي، فالسفر لا يلغي الخصوصية، ولا يهدف التماهي مع الآخر إلى إرضائه واللحاق بتوابع ثقافته وقوته.

لم يكن السياق الذي تمت من خلاله هذه البعثة عاديًّا؛ فقد شهدت الأوضاع السياسية تطورات متلاحقة، من أبرزها انتشار موجة العداء الشديد للأجانب في اليابان، ورفع شعار «اطردوا الأجانب». وأورد يوكيتشي واقعة عادية لكنها تحمل كثيرًا من الرموز والدلالات، قال فيها: «كنت قد أدركت قبل وقت طويل من إبحارنا في الرحلة الأمريكية أن هناك مؤشرات لبعض الاضطراب. وقد ظهرت صحة تقديري.. فقد ابتاع القبطان كيمورا مظلة كشيء طريف وجديد من نوعه... وتجمّع ضباط السفينة لإلقاء نظرة عليها، وراحوا يناقشون ما الذي يمكن أن تكون عليه النتيجة لو أن القبطان حمل هذا الشيء الغريب في شوارع إيدو لدى العودة إلى اليابان». قال أحدهم: «لا شك في الأمر، فسوف يقوم أحد الرونين بتقطيع القبطان إربًا قبل أن يستطيع قطع المسافة بين داره في سينسينزا وبين نيهومباشي». وهكذا، خلصنا إلى أن الشيء الوحيد الذي يمكن القبطان القيام به هو فتحها والتطلع إليها في داره. تلك كانت طبيعة العصر، فأي شخص كان يُظهر النية، أو بالفعل أي تعاطف مع السماح للأجانب بدخول اليابان؛ بل كان أي شخص مهتم بالشؤون الأجنبية عرضة لانقضاض الرونين الذين لا يحجمون عن شيء»[43].

أظهر بعض اليابانيين درجة عالية من ممارسة العنف تجاه مظاهر التحديث الغربي الوافدة، تشبه في بعض الأحيان ما عرفه المغرب في فترات عدة من رفض المنتوج الغربي، والحذر في التعامل مع غير المسلمين. وحتى في

---

(42) يوكيتشي، ص 149.

(43) المصدر نفسه، ص 157-158.

ما يسمّى عهد الانفتاح، نبّه العلّامة أحمد الورزازي السلطان محمد بن عبد الله على أنه «لا يحل لك من الله أن تُسكن النصارى في مدائن المسلمين ويرفعون فوق ديارهم العلامات وفيهن التصاوير»[44]. وتعددت التنبيهات التي تؤسس لاختيارات الزهد في التعامل التجاري مع النصارى.

تحكمت المقاصد الشرعية في صوغ هذا التنبيه الذي كان يروم حماية الذات المغربية من الاختراق، في زمن بذلت فيه القوى الغربية جهدها لاستثمار الفرص المتاحة لتركيز وجودها وحماية مصالحها في المغرب. لكن، ألم تؤسس هذه التنبيهات لحالات الانكفاء والانغلاق، بل والتراجع أمام المد الغربي الجارف الذي استمر باقتطاع الجيوب، والتأسيس لاستراتيجية الحرب الشاملة على المستويات كلها؟

في الوقت الذي استمرت فيه لحظات الانعزال وعدم الالتفات إلى مقدمات القوة الغربية، تنبّه اليابانيون لخطورة اللحظة التاريخية، فسرعان ما انتقلوا من لحظة الدهشة والانبهار والرفض والانكفاء إلى طور التأسيس لمعالم قوة جديدة لمجتمع النيبون.

وضعت بعثة عام 1860 اليابانيين أمام حقيقة القوة الأميركية والأسباب التي مكّنتها من الانتصار ومن إرغام اليابانيين على إعادة هندسة الفضاء الداخلي، واتخاذ الوسائل الملائمة للوصول إلى مصاف القوى الغربية.

مكّنت هذه البعثة بعض أفرادها بعد العودة إلى اليابان من التكوين العلمي كما فعل أوغوري تاداماسا (1827-1868)، الذي ساهم بدور محوري في «تأسيس مصهر الحديد في يوكوسوكا، وإصلاح النظام العسكري، كما تبوّأ مناصب مهمة، مثل مفوض الشؤون المالية، ومفوض البحرية»[45].

في إشارة متميزة، ذكر يوكيتشي قائلًا: «على الرغم من هذا، ومن كره الجمهور للدراسات الأجنبية كافة، فقد تزايد الطلاب في مدرستي تدريجيًا

---

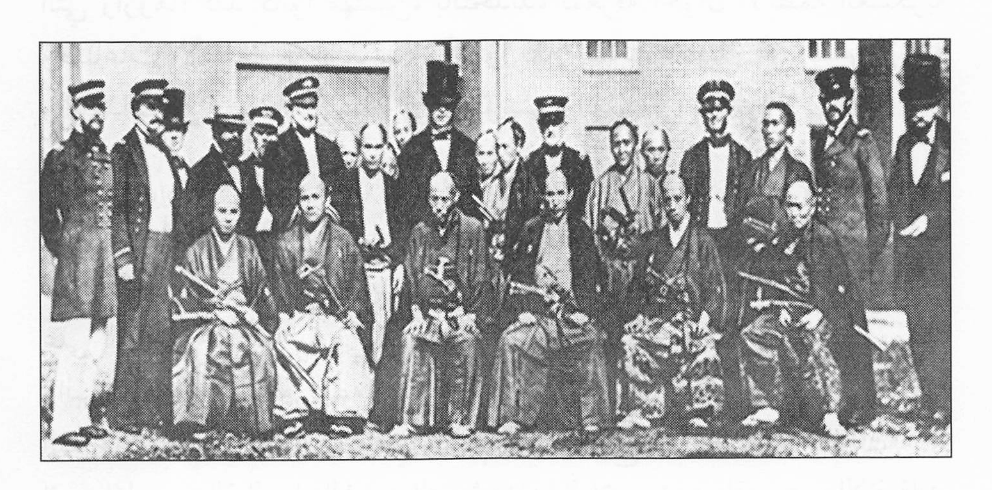
(44) محمد بن عبد السلام بن أحمد الضعيف، تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، 1986)، ص 172.

(45) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/248.html>.

بعد عودتي من أمريكا، وخلال إقامتي في سان فرانسيسكو، اتصلت بالأجانب، وسمعت لغتهم، وبذلت جهدًا خاصًا لتحسين معرفتي باللغة الإنجليزية»[46]. وقد كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت حكومة الشوغون إلى تعيينه مترجمًا رسميًّا للبعثة التي أُرسلت إلى أوروبا في عام 1862.

الصورة (5-1)

أعضاء يابانيون من بعثة 1860 إلى الولايات المتحدة يحيط بهم دبلوماسيون وعسكريون أميركيون[47]



2 - بعثة عام 1862

حددت البعثة وجهتها إلى الولايات المتحدة، لكن الحرب الأهلية الأميركية حوّلتها إلى أوروبا. وشهد هذا التاريخ بعض الإصلاحات في مؤسسة الدراسات الغربية في اليابان؛ إذ «تغيّر اسم مؤسسة دراسة كتب البرابرة في عام 1862 إلى مؤسسة دراسة الكتب الغربية، وفي عام 1863 إلى مدرسة الدراسات الأجنبية، وانتسب إليها نيشي أمان، تسودا ماميتشي، هيديتوشي موراكامي، هيرويوكي كاتو، ميتسوكوري رينشو، كاندا تاكاهيرا، ياناغاوا

(46) يوكيتشي، ص 158.

(47) <http://www.blackshipsandsamurai.com/yokohama/yb_core_commerce.html>.

شونسان، واعتمدها نظام الميجي، بعد إطاحة الشوغون، وتحولت إلى جزء من جامعة طوكيو»[48].

في عام 1862 أرسلت بعثة ثانية إلى أوروبا. وعلى العكس من بعثة عام 1860 إلى الولايات المتحدة، «أثار عدد أفراد البعثة مشكلة أولية، فرض ضرورة تقليصه»[49] إلى 40 موفدًا. وكان هدفها الأساس التعرف إلى الحضارة الغربية ومؤسساتها. وقدّم الأعضاء تقارير عمّا سمعوه أو شاهدوه عن المؤسسات والصناعة والأسلحة وغيرها من الجوانب في سائر البلدان التي زاروها؛ فقد كانوا مهتمين، بالتحديد، بمعرفة أحوال الأنظمة العسكرية وصناعات الأسلحة في الغرب، وأمدوا بملاحظات مفصلة عن نظام الإنتاج والمعدات في مصانع الأسلحة في وولويتش وأنفليد في إنكلترا[50].

رئس البعثة تاكينوتشي ياسونوري، الموفد الرئيس، وكان معظم أفراد البعثة من «الأتباع الإقطاعيين للحكومة المركزية»[51]. وتشكّلت البعثة أساسًا من الساموراي. واهتمت بدورها بمراجعة الاتفاقات السابقة، والاطّلاع على التكنولوجيا الغربية في كل من إنكلترا وفرنسا وهولندا وبروسيا وروسيا والبرتغال. وفي العام نفسه، «أوفد البلاط الإمبراطوري في كيوتو بعثة إلى الشوغون بإيدو، ملحًا عليه في القيام بطرد جميع الأجانب من اليابان»[52]، انسجامًا مع حالة العداء الشديد التي شهدتها البلاد بعد حملة بيري والاتفاقات غير المتكافئة التي عقدها الشوغون مع «البرابرة» الغربيين.

من الوهلة الأولى، يبدو أن هناك نظرتين تحكمتا في مسألة الانفتاح على الغرب، ناقشنا بعض معالمها في مباحث سابقة. لكن من خلال تطورات العلاقة

---

(48) *Japan's Modern Educational System: A History of the First Hundred Years* ([Tokyo]: Research and Statistics Division, Ministry of Education, Science and Culture, 1980), chap. 1: «Education during the Late Edo and Early Meiji Periods», para. 1: Education at the End of the Shogunate, (6): Western Learning and the Development of Schools for Western Learning.

(49) Alcock, vol. 1, p. 323.

(50) ميتشيو وأوروتشيا، محرران، ص 299.

(51) يوكيتشي، ص 168.

(52) Perkins, *The Samurai of Japan*, p. 84.

بين اليابان والقوى الغربية، يتبيّن أن القضية ارتبطت أساسًا بالصراعات الداخلية والعداء التاريخي الدفين بين التوكوجاوا والمقاطعات التي حاولت إرجاع السلطة الإدارية والرمزية إلى الإمبراطور الذي اتُخذ قناعًا ووسيلة لإطاحة نظام الشوغون.

لم يكن شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» سوى عنوان البرنامج الذي صيغ لتحقيق إجماع وطني على ضرورة القطيعة مع النظام القديم، والتأسيس لواقع جديد وفاعل.

مع ذلك، استمر حكام الإيدو بالمراهنة على تجديد مقاييس الإدارة اليابانية، من خلال إيفاد البعثات إلى الغرب الرأسمالي. ويثار أمامنا سؤال يتعلق بمآل التطور والتحول الذي كان مقدَّرًا أن تقطعه اليابان وتحققه، في ما لو حافظ حكام التوكوجاوا على نمط الحكم السياسي والإداري. فما هي المخارج التحديثية المفترضة التي كان على اليابانيين أن يسلكوها لمواجهة التحديات الغربية في منطقة الشرق الأقصى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟ تتعدد الإجابات، ويمكن القول إن زمن الإيدو استنفد اللحظة التاريخية، وتمكنت آلة الحرب والقوة الغربيتان من الكشف عن عوراته الداخلية وتناقضات بنيته المجتمعية؛ فقد تسببت الصدمة الغربية في بعثرة عناصر المشهد السياسي والإداري والاجتماعي لليابان الفيودالي. وعبثًا حاول نظام الباكوفو جمع هذا الشتات، من خلال الانفتاح المحدود على الدوائر الغربية وإيفاد البعثات التعليمية إلى الولايات المتحدة وأوروبا.

كانت الإدارة اليابانية مقتنعة أن المعرفة وسيلة من وسائل تدارك خلل ميزان القوى مع الغرب، وشكّل أبناء الساموراي طليعة عناصر البعثة التي التمست القِبلة الأوروبية في عام 1862. وفي هذا الشأن تحدث يوكيتشي، أحد مترجمي هذه البعثة، قائلًا: «تمكنت في هذه الجولة أخيرًا، وإلى حد ما، من استخدام اللغة الإنجليزية كتابة وقراءة معًا...(و) استخدمت ما تبقى من المخصص لي في شراء الكتب من لندن، وكانت تلك هي بداية استيراد الكتب الإنجليزية إلى اليابان، ومنذ صفقة الشراء الكبيرة التي قمت بإنجازها في لندن، بدأ طلابنا يتمكنون من الحصول على المطبوعات الإنجليزية»[53].

(53) يوكيتشي، ص 162.

تُعتبر بعثة عام 1862 إلى أوروبا أبرز بعثة يابانية في عهد الإيدو. وإذا كانت المفاوضات بخصوص تأجيل فتح الموانئ اليابانية، وتسوية قيمة الجمارك، قد تعرضت للفشل، «فإنها سمحت لأعضاء البعثة بالتعرف إلى أشياء ومؤسسات جديدة كالمستشفيات، وورشات السفن، والمناجم والمدارس»[54].

وصلت «البعثة إلى فرنسا في بداية شهر نيسان/ أبريل، وبعد ثلاثة أسابيع توجهت إلى لندن ولاهاي وبرلين وسان بيترسبورغ قبل الرجوع مرة أخرى إلى باريس والمكوث فيها مدة شهر ونصف الشهر. ثم زارت لشبونة، ومن البرتغال رجعت إلى اليابان في 29 كانون الثاني/ يناير 1863»[55].

كان اليابانيون متأكدين من عدم جدوى المفاوضات لانتزاع تنازل أوروبي عن بعض شروط الاتفاقات السابقة، وهم الذين لاحظوا عن كثب ما أنجزته القوى الإمبريالية الأوروبية في الصين بعد حربي الأفيون الأولى والثانية، وقرأوا دلالات القوة الغربية على أرض الجيران الصينيين.

سافر اليابانيون إلى الغرب لاكتشاف عللهم وهزيمتهم النفسية والرمزية التي جسدتها الشروط المفروضة على رعايا «الأرض المقدسة». وكانت الرحلة إلى أوروبا وأميركا مرآة عاكسة لهذه الإخفاقات، ودافعة في اتجاه بلورة مشروع رد مؤسساتي.

أتيحت لفوكوزاوا يوكيتشي ورفاقه «زيارة قيادة ومباني مراكز بحرية وعسكرية ومصانع خاصة وحكومية ومصارف ومكاتب أنشطة أعمال وصروح دينية ومؤسسات تعليمية ومقار نواد ومستشفيات، بما في ذلك مشاهدة القيام الفعلي بتنفيذ عمليات جراحية»[56]. ويتضح من خلال سيرة يوكيتشي خضوع البعثة لرقابة صارمة، يعبّر عنها كالآتي: «تمثّلت إحدى الأفكار المثيرة للسخرية، والتي تمسكت بها سفارتنا، في أن أعضاءها لا ينبغي أن يلتقوا بالأجانب أو يروا البلاد على نحو يتجاوز ما هم مضطرون للقيام به. وكنا واقعين تحت

(54) Shunsaku, p. 505.

(55) Luc Chailleu, «Léon de Rosny et la connaissance du Japon en France: Eléments d'une archéologie du «savoir japonologique» français,» *L'Ethnographie*, no. 108 (Automne 1990), p. 90.

(56) يوكيتشي، ص 168.

نظرية العزلة، حتى ونحن نسافر في أراضٍ أجنبية. ومن بين الموفدين الثلاثة، كان كايوجوكو يتولى منصب 'الأوميتسوكي' أو الضابط المسؤول عن السلوك في البعثة، وكان معه العديد من الأتباع...

إن ما جرى به العمل في هذا الشأن، يشبه حمل سياسة العزلة والمضي بها في مختلف أرجاء أوروبا في جولة الصداقة ذاتها، غير أنه على الرغم من كل هذه الضوابط، فقد كان في مقدورنا أن نرى أو نسمع الكثير من كل شيء رغبنا فيه»(57).

لم تكن البعثة اليابانية إلى أوروبا حرة في الاطلاع على التكنولوجيا الغربية والتعرف إلى مظاهر التحديث الأوروبي، لكنها امتلكت الجرأة في مقارنة المشاهدات العيانية لهذه المظاهر بما تعيشه حكومة الإيدو من تأخر في معرفة أسرار التقدم التقني والعسكري والسياسي وامتلاكها. وفي دوائر صغيرة، كان الانتقاد مشرَّعًا على الأداء البيروقراطي لقادة البعثة.

على العكس من البعثة اليابانية الأولى إلى الولايات المتحدة في عام 1860، يظهر يوكيتشي في بعثة عام 1862 إلى أوروبا أكثر انتقادًا وسخرية من نظام الباكوفو. وكان يدرك بحسّه التاريخي المتميز استحالة استمرار هذا النظام الذي وُضعت سياسته أمام محك الأوضاع الدولية وحقيقتها، وما فرضته من جهد لمواكبتها في منطقة الشرق الأقصى.

وواجهت البعثة مجموعة من المشكلات، وفي مقدمها مسألة الترجمة، ومن ضمن الأربعين شخصًا الذين ضمّتهم البعثة، كان لخمسة موفدين إلمام ببعض اللغات الأوروبية، وهم(58): فوكوتشي جينشيرو، تاشي هيروساكو، شيناغاوا توجورو (استُعيض عنه بفوكوزاوا يوكيتشي)، ميتسوكوري شوهي، ماتسوكي كوان. وحتى يوكيتشي كان حديث العهد بتعلم الإنكليزية، واعترف بذلك: «تمكنت في هذه الجولة أخيرًا، وإلى حد ما، من استخدام اللغة الإنكليزية كتابة وقراءة معًا..»(59). وعلى الرغم من ذلك، شكّلت البعثة نافذة أطل من خلالها

---

(57) المصدر نفسه، ص 168 - 169.

(58) Cobbing, *The Japanese Discovery of Victorian Britain*, p. 173.

(59) يوكيتشي، ص 162.

اليابانيون على ذاتهم المتأخرة. ولم يجدوا حرجًا في ممارسة النقد الذاتي مع إبراز إيجابيات الحضارة الغربية، ولعل ذلك ما دفع يوكيتشي إلى القول: «وبعد هذا، ازددت إصرارًا على مبدأ حرية التفاعل مع باقي العالم»[60].

استغرقت البعثة بضعة أشهر، وعُيّنت مجموعة من الطلبة في بعض المؤسسات التربوية الغربية، منهم «نيشي أمان، وتسودا ماميشي، وقد التحقا بجامعة لايدن لدراسة العلوم الاقتصادية»[61]. ولا يمكن مقاربة بعثة عام 1862 من دون شهادة يوكيتشي؛ فقد دوّن الرجل مشاهداته بأسلوب متميز يتبيّن من ثناياه الانبهار بالغرب ومؤسساته. وقد قال عن نفسه في هذا الشأن: «حاولت، خلال هذه المهمة في أوروبا، معرفة بعض التفاصيل المألوفة جدًا في الثقافة الأجنبية. ولم أكترث بموضوعات علمية وتقنية خلال الرحلة، لأن في مقدوري دراستها كذلك من الكتب بعد عودتي للوطن، ولكنني أحسست بأنه يتعين عليّ معرفة أكثر الأمور ألفة المتعلقة بالحياة اليومية من الناس مباشرة»[62]، وهو أمر ركّزت عليه بعثة إيواكارا في عهد الميجي عندما وصفت حتى دُور البغاء.

تُرك التعلم التقني للطلبة المتخصصين، واهتم يوكيتشي بالجوانب الخفية التي لا يمكن التقاطها إلّا من ثنايا الملاحظات الدقيقة والأسئلة المتعددة والهادفة؛ فقد اهتم بنظام المستشفيات وكيفية إدارتها وتمويلها، وسأل عن النظام البريدي والتجنيد في فرنسا وغياب التجنيد في إنكلترا، واستعصى عليه فهم قواعد الممارسة السياسية والصراع الحزبي.

«وصل فوكوزاوا إلى مارسيليا في آذار/مارس 1862، وانتقل إلى باريس عبر ليون. وزار في فرنسا مؤسسات عدة، منها المعهد الفرنسي والمستشفيات»[63]. والأساس أنه عرف «الكثير من هذه الجولة الأولية في أوروبا»[64].

---

(60) المصدر نفسه، ص 166.

(61) Tsuzuki, p. 51.

(62) يوكيتشي، ص 170.

(63) Yuichiro Anzai, «La Réforme universitaire au Japon: Présent et futur,» (Document, Maison de la Culture du Japon à Paris, 21 Novembre 2002), p. 1.

(64) يوكيتشي، ص 171.

فتحت البعثة أعين يوكيتشي ورفاقه على حقيقة التفوق الغربي، فهُم أدركوا حجم التأخر الذي كانت عليه اليابان مقارنةً بالغرب الرأسمالي. ومن هذه الزاوية اعتبر يوكيتشي الثقافة الصينية بأسرها عدوًّا قاتلًا[65]، كما «ساهم الطلبة الموفدون إلى أوروبا في وضع أسس البحرية اليابانية الحديثة»[66].

مع «نهاية عام 1862، تبيّن لقادة الباكوفو العسكريين ضرورة إلغاء النظام المتّبع منذ عهد أياسو»[67]. ولا شك في أن البعثتين السابقتين ساهمتا بدور بارز في بداية بلورة معالم التحديث العسكري الياباني.

اهتمت حكومة الباكوفو من خلال هذه البعثات الرسمية وغيرها بإيفاد متعلمين يابانيين إلى دول الغرب الرأسمالي. ويمكن إيراد بعض النماذج التي توضح خاصية التراكم والعمق اللذين أفادا البعثات اللاحقة في عهود الميجي وتايشو وشوا؛ ففي عام 1862 قرر الشوغون إرسال كلٍّ من نيشي أمان وتسودا شينيشيرو (ماميشي) إلى هولندا لدراسة العلوم السياسية الغربية والقوانين الدستورية والعلوم الاقتصادية، ورافقهما في رحلتهما هذه في عام 1863 عالم فيزيائي هولندي هو بومب فان ميديرفورت (P. van Meedervort)، الذي أنشأ في ناغازاكي أول مستشفى جامعي لدراسة الطب الغربي[68]. وإذا كانت بعض الدراسات تركّز على هذين المتعلمين، بسبب الدور القيادي الذي ساهما به في نهاية عهد الإيدو وخلال بداية عهد الميجي، فإن البعثة ضمت في المجموع 15 طالبًا، بقيادة أوشيدا تسينيجيرو، وضمت تاغوشي شونباي[69].

حملت هذه البعثة التي أُرسلت إلى هولندا كثيرًا من الدلالات، من أبرزها استمرارية التتلمذ على أيدي الهولنديين الذين سُمح لهم، دون الأوروبيين، بالتعامل التجاري والثقافي والعلمي مع يابان العزلة الطوعية، الأمر الذي

---

(65) المصدر نفسه، ص 338.

(66) Cobbing, *The Japanese Discovery of Victorian Britain*, p. 45.

(67) Conrad D. Totman, *Collapse of the Tokugawa Bakufu, 1862-1868* (Honolulu: Hawaii University Press, 1980), p. 28.

(68) Lydia H. Liu, ed., *Tokens of Exchange: The Problem of Translation in Global Circulations*, Post-Contemporary Interventions (Durham, NC: Duke University Press, 1999), p. 171.

(69) Naval History of Japan, on the Web: <http://www.answers.com/topic/naval-history-of-japan>.

أوجد حالة من الحميمية بين المتعلمين والأطر الجامعية الهولندية. فقد تقرر تعليمهما بإشراف سيمون فيسرينغ (S. Vissering) الذي كان يدرّس الاقتصاد السياسي وعلوم الإحصاء والتاريخ الدبلوماسي في جامعة لايدن[70]، ومنهم:

نيشي أمان[71] (1829-1897): امتهن أبوه الطب؛ تعلم في صغره الكونفوشيوسية في أوساكا، وانتقل إلى إيدو لتعلم الهولندية ثم الإنكليزية، أرسله الباكوفو إلى هولندا من عام 1863 إلى عام 1865، حيث درس العلوم السياسية والاقتصاد والقانون والفلسفة. وفي عام 1868 أصدر كتابه القانون الدولي[72] (*International Law*)، والتقى به موري أرينوري، وزير التعليم في عهد الميجي، في باريس في فترة استكمال تكوينه فيها.

ناكامورا ماساناو (1832-1891): يُعَدّ من الطلبة المتميزين الذين أرسلهم الباكوفو في الفترات المتأخرة. وُلِد في مدينة إيدو لأب عمل رجل أمن لدى الشوغون. تلقى تعليمه في المدرسة الشوغونية الخاصة، وأصبح مدرّسًا فيها عام 1855، وتحول إلى عالِم كونفوشيوسي عام 1862[73]. تطوع للذهاب إلى إنكلترا لاستكمال دراسته العليا في علوم الأخلاق والسياسة والقانون، وهي موضوعات لم تحظَ بعناية الطلبة اليابانيين في الخارج[74].

عند عودته، في عهد الميجي، اشتغل بوزارة المالية، واهتم بالترجمة وفتح مدرسة خاصة في عام 1873، والتحق بجمعية المثقفين. كما بذل جهدًا لنشر تعليم الفتيات. في عام 1881 امتهن التدريس في جامعة طوكيو، وأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ عام 1886 [75].

---

(70) James L. Johnston, «The First Japanese Freemason,» on the Web: <http://www2.gol.com/users/lodge1/history-e/papers/johnston04.html>.

(71) Janet Hunter, comp., *Concise Dictionary of Modern Japanese History* (Berkeley: University of California Press, 1984), p. 147, and <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/309_1.html>.

(72) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/309.html?c=0>.

(73) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/305.html?c=0>.

(74) Tsuzuki, p. 51.

(75) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/305.html?c=0>.

إينوموتو تاكيكي[76] (1836-1908): عمل فارسًا لدى الشوغون. التحق بمدرسة تكوين ضباط البحرية في ناغازاكي. سافر إلى هولندا للدراسة بين عامي 1862 و1867. واجه في حرب البوشين، إلى جانب بقايا النظام القديم، القوات الإمبراطورية، لكنه أصبح بعد انتصار الميجي من مناصري العهد الجديد[77]. تقلد مناصب متميزة، منها وزارة التعليم ووزارة الاتصالات ووزارة التجارة والصناعة وسفيرًا فوق العادة في روسيا ورئيس جمعية اليابان للكيميائيين لخمس ولايات[78].

تحاول إحدى الدراسات إجمال موضوع البعثات التعليمية بتأكيد أنه «طوال الأعوام الأخيرة لعهد الشوغون بين عامي 1862 و1867، أُرسل 82 طالبًا يابانيًا للدراسة في الخارج، نصفهم من الحكم المركزي للباكوفو، والنصف الآخر من بعض المقاطعات الفيودالية»[79]، وهو ما يدل، ابتداءً، على أحد عناصر القوة التي منحت الموضوع خاصية التنافس والصراع بين التوكوجاوا ومقاطعات ساتسوما وشوتشو وهيزن، في مجال الاستقواء بالعلم وبالتكوين التقني الحديث، لامتلاك الداخل والسيطرة على الأمور الإدارية والسياسية.

ابتداءً من هذه الفترة، دعمت حكومة التوكوجاوا سياسة استيعاب التقنيات البحرية الغربية وأسست مدرسة ناغازاكي للتكوين البحري، ومن خلالها أُرسل عدد كبير من المرشحين للدراسة في الدول الغربية، ومن أبرزهم تاكيكي إينوموتو وهايهاشيرو توغو.

ويرى أحد الدارسين اليابانيين أن البعثات التعليمية في عهد الباكوفو اهتمت بنقل التكنولوجيا الغربية؛ ففي عام 1862 ركّز اليابانيون على الاطّلاع على علوم السفانة[80]، وهو العلم الذي تسبب غيابه في الخضوع لشروط بيري السابقة.

(76) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/28.html?c=0>.

(77) Louis G. Perez, *Japan at War: An Encyclopedia* (Santa Barbara, Calif.: ABC-CLIO, 2013), pp. 83-84.

(78) Bilge Şener, ed., *Innovations in Chemical Biology* (Dordrecht; London: Springer, 2008), p. 8.

(79) Bernd Martin, *Japan and Germany in the Modern World* (Providence, RI: Berghahn Books, 2006), p. 57.

(80) Fukasaku, p. 45.

وجنحت وزارة التربية والثقافة والرياضة والعلوم والتكنولوجيا في اليابان إلى القول إن الاطّلاع على العلوم الغربية يمتد بعمق في التاريخ التربوي لمجتمع النيبون، من خلال مؤسسة «التينمونغاتا» التي أُنشئت في عام 1684 «بوصفها مركزًا للأبحاث الفلكية للاهتمام بعلوم المساحة، والكارطوغرافيا والترجمة من اللغات الغربية، وإجراء بحوث في الشؤون الخارجية والقضايا الدبلوماسية»[81].

ما يمكن ملاحظته في هذا الشأن أن خطوات النظام السياسي في الانفتاح على الدائرة الحضارية الغربية تميزت بالبطء والتريث الشديدين. وقد يرتبط ذلك بالأهداف المحددة للبعثات الدبلوماسية والتعليمية إلى الولايات المتحدة وأوروبا، وهي بعثات لم تتعدَّ محاولة إنقاذ النظام من الإفلاس، وإدخال بعض التجديدات على الإدارة اليابانية العتيقة. وهذا توجُّه ما كان له أن يمنح المجتمع عناصر الدينامية والفاعلية المطلوبة في زمن اشتدت فيه وطأة الهجوم الغربي العنيف والمنظم في منطقة الشرق الأقصى، وصعود قوى محلية ذات عمق تاريخي ومجتمعي على شاكلة ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا إلى مسرح العلاقات الدولية، بتنظيمها بعثاتها التعليمية الخاصة، وعقدها توافقات سياسية واقتصادية مع بريطانيا من دون المرور ببوابة الحكومة المركزية.

أصبح موضوع البعثات التعليمية والدبلوماسية إلى الخارج مؤشرًا دالًّا على حجم الصراع السياسي، وعلى التنافس في امتلاك ناصية العلم والتكنولوجيا الغربية وحسم موضوع السيطرة على الداخل وهندسة الفضاء الداخلي لمجتمع النيبون؛ فقد أراد الباكوفو إعادة إنتاج دواليب مؤسساته التي تبيَّن ضعفُها في أثناء الاحتكاك بالغرب ورموز قوته العسكرية والمعرفية. ورامت المقاطعات المعارضة تصفيةَ خلافاتها وتناقضاتها مع حكم التوكوجاوا، ورأت في الانفتاح على الغرب ضالتها التاريخية لرد تكاليف الكبح الذي مارسه مهندسو سياسة العزلة أمام طموحاتها القبلية. ولهذا السبب استمر إرسال بعثات الباكوفو إلى أوروبا وأميركا؛ وفي السياق نفسه، واصلت المقاطعات اليابانية إرسال وفودها الخاصة إلى الخارج، وهو ما أنتج حيوية وتدفقًا في سيرورة التحديث، ومنح

(81) *Japan's Modern Educational System*, chap. 1: «Education during the Late Edo and Early Meiji Periods», para. 1: Education at the End of the Shogunate, (6): Western Learning and the Development of Schools for Western Learning.

المجتمع معنىً حقيقيًا لحركة التغيير المجتمعي ومدّه بالوقود اللازم للاستمرار والامتداد؛ وفي هذا الإطار يمكن قراءة مختلف مضامين البعثات اليابانية التي أرسلت نحو الخارج.

اهتمت حكومة الباكوفو من خلال هذه البعثات الرسمية وغيرها بتعيين متعلمين يابانيين في دول الغرب الرأسمالي، ويمكن إيراد بعض النماذج التي توضح خاصيتَي التراكم والعمق اللذين أفادا البعثات اللاحقة في عهود الميجي وتايشو وشوا.

3 - بعثة إيكيدا إلى فرنسا (1863-1864)

جرت البعثة في أوضاع سياسية يابانية حرجة، وجاءت تنفيذًا لمقتضيات المرسوم الذي أصدره الإمبراطور كومي في شأن طرد «البرابرة»، الأمر الذي دفع إدارة الشوغون إلى إيفاد بعثة في 29 كانون الأول/ ديسمبر 1863 بقيادة إيكيدا ناكاوكي (1837-1879).

تجلت مهمة البعثة في «تقديم اعتذار الباكوفو عن اغتيال الملازم الفرنسي كامي، قائد حرس البعثة الفرنسية في يوكوهاما»[82]، لكن غرضها الرئيس كان «الحصول على موافقة فرنسا في شأن إغلاق ميناء يوكوهاما أمام التجارة الخارجية»[83]، وهو ما كان يعني العودة إلى سياسة العزلة والانغلاق عن العالم الخارجي، أو على الأقل ضبط حجم التدخل الأجنبي والتحكم فيه. لكن تطورات الحوادث الداخلية لم تسمح بذلك، بل كانت الإملاءات المفروضة على الشوغون تهدف إلى وضعه أمام مأزق التناقض، ودفعه إلى الاستقالة، وإرجاع السلطة إلى خصوم عهود الفيودالية اليابانية من خلال شخص الإمبراطور. وفي التقرير الذي رفعه إلى الحكم المركزي، عبّر إيكيدا «عن امتنان الإمبراطور الفرنسي الذي قدّم شخصيًا عرضًا لمنح الباكوفو سفنًا حربية»[84].

(82) Ian Neary, ed., *Leaders and Leadership in Japan* (Richmond, Surrey: Japan Library, 1996), p. 41.

(83) Andrew Cobbing, *The Satsuma Students in Britain: Japan's Early Search for the Essence of the West'*, Based on an Original Study by Inuzuka Takaaki ([New York]: Routledge, 2000), p. 178.

(84) Neary, p. 42.

يبدو أن إيكيدا تأثر بمشاهداته في فرنسا؛ فبمجرد عودته «حاول إقناع رؤسائه بإيجابيات المزيد من الانفتاح على العلاقات الخارجية»[85]. ونبّه على خطورة جمود هذه العلاقات، في وقت تزايدت فيه الأطماع الغربية في منطقة الشرق الأقصى.

في 22 آب/أغسطس قدم إيكيدا تقرير زيارته للباكوفو، شرح فيه «استحالة إغلاق ميناء يوكوهاما، ودعا إلى إيفاد ممثلين يابانيين دائمين إلى العواصم الغربية؛ كما ربط بين دعم قوات الباكوفو العسكرية وإقامة صناعة حديثة باليابان»[86].

اتسمت ملاحظات إيكيدا واقتراحاته بالجرأة، وربما ذلك هو ما دفع إدارة الباكوفو إلى وضعه في الإقامة الجبرية[87]. ومع ذلك، شكّلت رحلته مقدمة أساسية دفعت نظام التوكوجاوا إلى الانفتاح على مظاهر التحديث الغربي، خصوصًا بعد قيام مقاطعتي شوتشو وساتسوما بإرسال بعثات تعليمية إلى المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة.

تُفصح هذه البعثة عن بعض ملامح الانسجام والتوافق الدبلوماسي بين الباكوفو وفرنسا، وهو ما دفع المقاطعات المعارضة، ولا سيما ساتسوما، إلى الانحياز إلى بريطانيا بتنظيم بعثاتها التعليمية إلى لندن وبعض المدن البريطانية الأخرى، كما سنفصّل ذلك لاحقًا، وهو ما يدفعنا إلى القول بإمكانية قراءة التناقض الحاد بين الجانبين من ثنايا بعض هذه البعثات التي أُرسلت في الأعوام الأخيرة من عصر التوكوجاوا.

كان ممن رافق إيكيدا في رحلته هذه، ماسودا تاكاشي[88] (1848-1938)

(85) *Meiji Japan: Political, Economic and Social History, 1868-1912*, Edited and with an Introduction by Peter Kornicki, Routledge Library of Modern Japan, 4 Vols. (London; New York: Routledge, 1998), p. 28.

(86) Paul Akamatsu, *Meiji-1868: Révolution et contre-révolution au Japon* (Paris: Calmann-Lévy, 1968), p. 215.

(87) المصدر نفسه، ص 215.

(88) «Masuda, Takashi (1848-1938),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/331.html>.

الذي اطّلع على حقائق القوة الغربية، وكان ملمًّا بالدراسات الإنكليزية، ووضع خبرته العلمية والتقنية في خدمة حكومة الميجي، فالتحق بوزارة المالية في ولاية إينو كارو، كما عمل في مؤسسة ميتسوي للتجارة[89]. وكان ممن قاد هذه المؤسسة إلى نجاح باهر بحيث اعتُبرت أول تكتل اقتصادي (زايباتسو) في اليابان[90].

كان عمر ماسودا 15 عامًا عندما اختير عضوًا في البعثة اليابانية، وساهم انتماؤه إلى طبقة الساموراي في هذا الانتقاء، وكان، مثل غيره من المتعلمين اليابانيين، متمسكًا بالتقاليد البوذية وبالتعليم الكونفوشيوسي[91].

من المؤكد أن ماسودا استفاد كثيرًا من رحلته العلمية هذه، وقرن بعض الباحثين اسمه بالتطور الذي شهدته مؤسسة ميتسوي[92]؛ ففي عام 1876 عُيّن مديرًا للمؤسسة، كما ساهم في إنشاء شركات أخرى[93]. واهتم بالبحث عن الذاكرة اليابانية، وأصبح من أبرز جامعي التحف الفنية، وبذا أصبح راعيًا لكمٍّ هائل من الكنوز القديمة لاحتفالات الشاي لدى فئات الدايميو[94].

4 - بعثة شيباتا تاكيناكا إلى فرنسا وبريطانيا (1865-1866)

شارك شيباتا تاكيناكا (1823-1877) في البعثة التي أرسلها الباكوفو إلى أوروبا عام 1862. وعُيّن مندوبًا للشؤون الخارجية، وتولّى قيادة بعثة الباكوفو في أثناء توجهها إلى بريطانيا وفرنسا[95].

(89) المصدر نفسه.

(90) Johannes Hirschmeier and Tsunehiko Yui, *The Development of Japanese Business, 1600-1973*, Economic History (London: Routledge, 2006), p. 136.

(91) John Rosenfield, «*Art, Tea, and Industry: Masuda Takashi and the Mitsui Circle,*» by Christine M. E. Guth, *Art Bulletin*, vol. 76, no. 1 (March 1994), on the Web: <http://findarticles.com/p/articles/mi_m0422/is_n1_v76/ai_15428525>.

(92) Hideichi Matsubara, «Léon de Rosny et Fukuzawa Yukichi,» *L'Ethnographie*, no. 108 (Automne 1990), p. 110.

(93) «Masuda, Takashi (1848-1938),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/331.html>.

(94) Yūko Kikuchi, *Japanese Modernisation and Mingei Theory: Cultural Nationalism and Oriental Orientalism* (London; New York: Routledge Curzon, 2004), p. 40.

(95) Cobbing, *The Satsuma Students in Britain*, p. 188.

كان للبعثة كثير من المقاصد، منها «تعيين شخصية فرنسية لتمثيل الباكوفو في باريس، والبحث عن سبل لشراء قطع غيار آلات أوروبية، وبعض التجهيزات البحرية، وتهيئة المجال للوفود التعليمية للتكوين في التكنولوجيا الغربية، خصوصًا في أعمال البناء وقطاع المناجم. كما تكلفت البعثة إجراء ترتيبات متعلقة بمشاركة اليابان في المعرض الدولي في باريس»[96].

من التفصيلات الأساسية التي تطرق إليها شيباتا «التفاوض في شأن الوسائل الكفيلة بإقامة معمل يوكوسوكا للصلب، وورش لبناء السفن»[97]. فإذا كانت المملكة المتحدة رفضت طلب الباكوفو، فلم تتردد فرنسا في التعامل بشكل إيجابي مع هذا الطلب. وكان من ثمار ذلك إرسال البعثة العسكرية الفرنسية الأولى إلى اليابان (1867–1868)، وهو الهدف الحقيقي والمستور للبعثة، فقد تسبب الانحياز البريطاني إلى أنصار الميجي، ودعم المملكة المتحدة للجيش الإمبراطوري[98] في توظيف فرنسا لتناقضاتها الاستعمارية مع المملكة المتحدة، فألقت بثقلها إلى جانب نظام الشوغون. كما «عيّنت له ممثلًا فرنسيًا خاصًا به في باريس، المصرفي بول فلوري هيرارد»[99]. وتلك كانت إنجازًا من الإنجازات التي حققتها البعثة.

يبدو أن البعثة حققت أهم أهدافها، ففي العام نفسه (1866) «أمر وزير الحربية الجنرال راندو، بإرسال بعثة عسكرية بقيادة القبطان كارل شانوان، تألفت من 10 ضباط برتبة ملازم وجنديين»[100].

راهنت الدبلوماسية الفرنسية على الحصان الخاسر، فقدمت التكوين العسكري لقوات الباكوفو في الوقت الذي انحازت فيه بريطانيا إلى المقاطعات المعارضة، وفي مقدمتها ساتسوما وشوتشو اللتان أظهرتا، من خلال البعثات

---

(96) Totman, p. 211.

(97) Bob Tadashi Wakabayashi, ed., *Modern Japanese Thought* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997), p. 58.

(98) «Le Dernier samourai,» (Nipponzine (Website)),: <http://nipponzine.com/article19.html>.

(99) Totman, p. 211.

(100) المصدر نفسه، ص 211.

التي نظمتها إلى الولايات المتحدة وأوروبا، قدرة عالية على استثمار الرحلة التعليمية لتكوين أطرها والتهيؤ لمرحلة الحسم التاريخي مع نظام التوكوجاوا ورموزه السياسية والإدارية.

كان الصراع بين تيارين، انتقل من مجرد مواجهات عسكرية محدودة في فترة العزلة الطوعية إلى مواجهة استراتيجية شاملة، والتقديم لمرحلة تأسيس مخارج القوة العلمية والسياسية والاقتصادية بالمراهنة على الانفتاح على الغرب، وتكوين الأطر اللازمة للمهمة الحاسمة.

أدركت القوى المتنافسة محدودية إمكانات الداخل الياباني في رسم استراتيجية السيطرة على السلطة والمجتمع، فاندفع كل طرف في تنظيم بعثاته التعليمية الخاصة إلى دول الغرب الرأسمالي، وهو ما يجعلنا نعتقد في دور قوة الخارج على مد الداخل الياباني بآليات المغالبة وأدواتها وحسم مآل الصراع لمصلحة القوى المناصرة لإعادة السلطة إلى الإمبراطور، مع ما يعنيه ذلك من بعثرة استراتيجية الباكوفو الذي ظل يظن إلى آخر فترات حكمه، بإمكانية إرجاع موازين القوى لمصلحته. ومن هذه الزاوية يمكن قراءة دلالات البعثات التعليمية التي استمر الباكوفو بإيفادها إلى الخارج.

5 - بعثة عام 1866 إلى روسيا

كانت هذه البعثة برئاسة كويد هيديزا، وتركّز عملها على بحث مسألة الحدود.

6 - بعثة عام 1866 إلى بريطانيا

في عام 1866، أرسل الباكوفو بعثة تعليمية إلى بريطانيا تألّفت من الأفراد الواردة أسماؤهم في الجدول (5-2) الآتي[101]:

(101) Noboru Koyama, *Japanese Students at Cambridge University in the Meiji era, 1868-1912: Pioneers for the Modernization of Japan*, Translated by Ian Ruxton (Morrisville, North Carolina: Lulu, 2004), p. 31.

الجدول (5-2)

أعضاء البعثة اليابانية الرسمية إلى إنكلترا (1866)

الاسم	السنّ	ملاحظات
كاواجي تارو	23	قائد مشاة - قائد البعثة - مشرف
ناكامورا كايسوكي	35	حكيم كونفوشيوسي - مشرف على البعثة
تاروسي جوغورو	18	
ميتسوكوري كايغو	15	
فوكوزاوا أينوسوكي	20	
هاياشي توزابورو	17	
إيتو شونوسوكي (إيتو هيروبومي)	20	
أوكوكاوا إتشيرو	19	
ياسوسي شينباتشيرو	20	
ميتسوكوري (كيكوتشي) دايروكو	12	
إيتشيكاوا موريسابورو	15	
سوجي توكوجيرو	17	
إيواسا جينجي	12	
توياما سوتيهاتشي	19	

انطلقت بعثة الباكوفو إلى المملكة المتحدة باقتراح تقدم به وزير الخارجية البريطاني إدوارد ستانلي. وكانت فرصة سانحة للجانبين لضبط إيقاع التحولات داخل مجتمع النيبون، وانعكاساتها على المصالح البريطانية في الشرق الأقصى، خصوصًا بعد موجة العداء المتزايدة ضد النفوذ الأجنبي وقتل بعض الرعايا الأوروبيين، منهم ريتشاردسون الإنكليزي. وقد «غادرت البعثة ميناء يوكوهاما في 1 كانون الأول/ ديسمبر 1867، ووصلت إلى بريطانيا في 2 شباط/ فبراير من العام التالي»[102].

(102) المصدر نفسه، ص 34.

أشار ميانـاغا تاكاشي إلى أن نظام التوكوجاوا أراد، في أواخر فترة حكمه، إحداث تغيير جذري في نظامه العسكري والإداري. لذا، استهدفت البعثة التي أوفدها إلى بريطانيا دراسة نظمها السياسية وأساليبها العسكرية[103]. واختير المرشحون «بعد إجراء امتحان لهم في اللغة الإنكليزية، تمثّل في ترجمة بسيطة من الإنكليزية إلى اليابانية ومن اليابانية إلى الإنكليزية التي كانت تلقَّن في مؤسسة دراسة كتب البرابرة[104].

كما اختيرت جامعة لندن مجالًا للدراسة لعوامل مختلفة، منها «وجودها في العاصمة لندن، وعدم وضعها قيودًا دينية على طلبتها. كما أنها قبلت نجاح بعثات مقاطعات ساتسوما وشوتشو»[105]، وهو ما سنبيّنه لاحقًا. وتضمّنت مواد التعليم اللغة الإنكليزية والحساب والتاريخ. وخضعت البعثة لتوجيه الإنكليزي ويليام لويد. ووقع بعض الخلافات بين الوفد الياباني والموجّه الإنكليزي؛ إذ «ألحّ المتعلمون على ضرورة فصلهم عن بعضهم في مقر إقامتهم، مثل طلبة ساتسوما، بهدف تحسين قدراتهم في تعلم اللغة الإنكليزية»[106].

لم يرد الباكوفو، من خلال هذه البعثة، إلغاء الورقة الإنكليزية. ويبدو، من سياق الحوادث، أنه حاول منافسة المقاطعات المعارضة داخل دولة اعتبرتها ساتسوما وشوتشو ملاذًا تحديثيًا خاصًا بطلبتها ووفودها الدبلوماسية، وهو ما جعل حلبة الصراع تنتقل من الداخل الياباني إلى ساحة العلاقات الدولية، الأمر الذي أبرز الدور الحاسم الذي ساهم به العامل الموضوعي في إحداث رجّة داخلية، بعثرت أوراق الباكوفو، وأفقدته القدرة على ضبط التحولات السريعة التي أحدثتها التدفقات التعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي.

---

(103) Takeshi Miyanaga, «Brief Notes on the Fourteen Students Sent to England in the Last of the Tokugawa government,» *Society and Labour*, vol. 36, no. 4 (1990), p. 110, on the Web: <http://ci.nii.ac.jp/search/servlet/Kensaku>.

(104) المصدر نفسه، ص 110.

(105) Koyama, p. 33.

(106) Akiko Ohta, «Nakamura Massanao, 1832-1891,» Translator into Japanese of Samuel Smiles'self Help, in: Ian Nish, ed., *Britain and Japan: Biographical Portraits*, 4 Vols. (Folkestone: Japan Library, 1994-2002), Vol. 4 (edited by Hugh Cortazzi), p. 218.

من «بين المتعلمين الأربعة عشر تكلف كل من كاواجي تارو (23 عامًا) وناكامورا كايسوكي (35 عامًا) بمهمة الإشراف على باقي المتعلمين»[107]، وهي سمة تميز مختلف البعثات التعليمية التي أُرسلت إلى دول الغرب الرأسمالي؛ ذلك أن اختيار الأشخاص الأكبر سنًّا وتعيينهم مراقبين على باقي أعضاء البعثات هدف إلى تحقيق الانضباط وطاعة الأوامر لتحقيق الغرض من التعلم والتفوق على الأقران الغربيين.

نجح المتعلمون اليابانيون «خلال وقت وجيز في تحقيق نتائج جيدة غير متوقعة»[108]. وكان ميتسوكوري (كيكتشي) دايروكو من الطلبة الذين برزوا، وكان قد زار بريطانيا العظمى مرتين في عهد الباكوفو[109]، منها في عام 1866، ولمّا يتعدّ الثانية عشرة. وتفرض علينا هذه الإشارة التنبّه للدور التمهيدي الكبير الذي ساهم به الباكوفو في التأسيس لخيار الانفتاح على التكنولوجيا الغربية، وشروطها العلمية؛ ففي أثناء قيام عهد الميجي، جرت الاستفادة من الكفاءات التي أرسلها حكام التوكوجاوا إلى أوروبا وأميركا، ومن بينهم ميتسوكوري (كيكتشي) دايروكو الذي عاد إلى إنكلترا عام 1870، ودرس الفيزياء والرياضيات في جامعة كمبريدج، وكان من «مجموع الطلبة الموفدين الذين حققوا تقدمًا باهرًا»[110].

يشير نوبورو كوياما إلى أن الطالب توياما سوتيهاتشي، المعروف أيضًا بتوياما ماساكازو (1848-1900)، اختير من مؤسسة دراسة الكتب البربرية في نهاية عهد الشوغون، ورجع إلى اليابان في زمن الإحياء الإمبراطوري، وسافر مرة أخرى إلى الخارج، إلى الولايات المتحدة، وعند عودته عُيّن رئيسًا لجامعة طوكيو[111].

اقترنت نهاية مهمة البعثة مع بداية أفول حكم الباكوفو وإرجاع الحكم إلى السلطة الإمبراطورية، إذ «تابع الطلبة اليابانيون أخبار التقرير الذي قدّمه الشوغون

(107) Koyama, p. 32

(108) المصدر نفسه، ص 38.

(109) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/64.html>.

(110) Koyama, p. 13.

(111) المصدر نفسه، ص 32.

التوكوجاوا يوشينوبو إلى الإمبراطور في الأول من أيار/ مايو 1868»[112].

بقي الانضباط سائدًا داخل أوساط المتعلمين؛ فقد غادرت البعثة إنكلترا باتجاه فرنسا، ووصلت إلى باريس في 14 حزيران/ يونيو 1868، فالتحق بهم أفراد البعثات الموجودة في أوروبا، ومنها رجعوا إلى اليابان، ووصلوا إلى يوكوهاما في 13 آب/ أغسطس 1868[113].

وختم ميانـاغا تاكاشي دراسته بذكر الأدوار التي أدّاها بعض أفراد البعثة، بعد عهد الميجي، ويمكن إجمال ذلك في الجدول (5-3) الآتي[114]:

الجدول (5-3)

أدوار بعض أعضاء البعثة اليابانية الرسمية إلى إنكلترا (1866)

الاسم	الأدوار خلال عهد الميجي
ميتسوكوري (كيكوتشي) دايروكو	أستاذ في جامعة طوكيو
توياما سوتيهاتشي	أستاذ في جامعة طوكيو
إيتشيكاوا موريسابورو	أستاذ في الجامعة الإمبراطورية
هاياشي توزابورو	اشتغل في مهمات دبلوماسية خارجية؛ تقلد منصبًا ساميًا في وزارة الخارجية في عهد ساينجي.
كاواجي تارو	اضطلع بمهمة إدارة مدرسة كوبي شوان للفتيات.
ناكامورا كايسوكي	ترجم كتاب Self help إلى اللغة اليابانية.

كما ذيّل موضوعه بالقول إن «باقي المتعلمين تعرضوا للنسيان ولا تُعرف معلومات بخصوصهم إلى اليوم»[115].

لا شك في أن سقوط نظام التوكوجاوا منح البعثات التعليمية اليابانية مزيدًا

(112) المصدر نفسه، ص 38.
(113) Miyanaga, p. 109.
(114) المصدر نفسه، ص 109.
(115) المصدر نفسه، ص 109.

من المعنى والفاعلية، انسجامًا مع سرعة عملية التحول السياسي والقرارات الصارمة التي خرج بها مهندسو عهد الإصلاح من مقاطعتي ساتسوما وشوتشو، والذين ينتمي أغلبهم إلى الوفود التعليمية التي أرسلت إلى دول أوروبا الغربية في نهاية عهد الإيدو.

7 - بعثة عام 1867 إلى أوروبا

قاد هذه البعثة الأمير أكيتاكي الذي حضر المعرض العالمي في باريس[116]، وكان من أبرز أعضائها شيبوزاوا إييشي (1840-1931)، «الذي درس المجتمع الأوروبي الحديث، وأدرك أهمية الصناعة والتطور الاقتصادي»[117]. وكان لهذه البعثة غايات سرية، تمثّلت في محاولة إقناع فرنسا بزيادة دعمها للباكوفو[118] في فترة اشتد فيها الصراع بين النظام المركزي والمقاطعات المتمردة.

يتضح أن المغرب شارك في زمن محمد الرابع في معرض باريس الدولي عام 1867؛ إذ لبّى السلطان طلب نابليون الثالث، «فبعث الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي من كبار التجار، وبعث معه كل غريب مما اختص به المغرب: من سروج مذهبة ومناطق مزخرفة وقطائف منمقة...»[119]. وإذا كان البلدان قد شاركا في المعرض المذكور في سياق الضغط الغربي على البلدين، وفرض اتفاقات غير متكافئة عليهما، فقد تميزت البعثة اليابانية بالبحث عن العلم والمعرفة، واكتشاف وامتلاك مقدمات القوة التي يمكنها أن تعيد توازن المعادلة مع القوى الغربية ومراجعة اختلال الموازين بين الطرفين. ومن الشخصيات التي ضمتهم البعثة:

نامورا تايزو (1840-1907): الذي كُلّف بمهمة تهيئة الجناح الياباني في المعرض الدولي، واشتغل بعد عودته إلى اليابان بالترجمة في مقاطعة

(116) Wakabayashi, ed., p. 58.

(117) David G. Wittner, *Technology and the Culture of Progress in Meiji Japan*, Routledge/Asian Studies Association of Australia (ASAA) East Asia Series; 10 (London; New York: Routledge, 2008), p. 64.

(118) Wakabayashi, ed., p. 58.

(119) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، 2 ج، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 1، ص 111.

ناغازاكي، وبعد إطاحة نظام الباكوفو أوفدته وزارة العدل إلى أوروبا لدراسة القوانين الغربية[120].

ميتسوكوري رينشو (1846-1897): ويعود سبب اختياره ضمن الوفد المرافق للأمير أكيتاكي إلى إتقانه اللغة الفرنسية؛ وقد ساهم في بداية عهد الميجي بدور أساس في ترجمة النصوص القانونية والتشريعية الأوروبية، كما أصبح مترجمًا رسميًّا لحكومة الميجي الجديدة[121].

يقول أحد الدارسين إن إرسال البعثة جرى بعد تفكير عميق، أعقبه قرار الشوغون إرسال أخيه الصغير الأمير أكيتاكي (1853-1910) من مقاطعة ميتو، «وقد عبّر الشوغون عن رغبته في بقاء هذا الأخير، بعد نهاية فترة المعرض، لمواصلة دراسته مدة 5 أو 6 سنوات»[122]. أما شيبوزاوا، فاستقر في العاصمة الفرنسية إلى ما بعد انتهاء المعرض وعهد الإحياء (1868). «وبسبب رغبته في المعرفة درس لعام ونصف العام البناء الاقتصادي والصناعي والمالي الفرنسي الذي بلغ تطورًا كبيرًا في عهد نابليون الثالث»[123].

دأب اليابانيون الموفدون إلى بلدان الغرب الرأسمالي على تدوين معلومات مشاهداتهم في كراسات خاصة. وكانت هذه حال شيبوزاوا إيشي الذي «سجّل بتفصيل معلومات التاريخ والجغرافيا والحياة السياسية وعادات البلدان التي اجتازها. وأسهب في الحديث عن موضوع السكك الحديد، والتلغراف، والمصانع والثكن ومجاري المياه والمتاحف والمصارف والبورصات والمختبرات الكيمياوية»[124].

---

(120) «Namura, Taizo (1840-1907),» (National Diet Library, Japan, 2004), on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/155.html?c=0 >. (بتصرف)

(121) «Mitsukuri, Rinsho (1846-1897),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/336.html?c=0>.

(122) Claude Hamon, *Shibusawa Eiichi, 1840-1931: Bâtisseur du capitalisme japonais* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2007), p. 38.

(123) Nobutaka Miura, «La Modernisation du Japon et la France Conférence a L'Université de Genéve, les 5 et 12 Janvier 2005,» *Journal of the Faculty of Literature*, vol. 98 (2006), pp. 381-435, sur le web: <http://www.ksm.fr/miura/geneve2.pdf>.

(124) Hamon, pp. 39-40.

أسس إيبشي لدى عودته إلى اليابان «عددًا كبيرًا من الشركات والمصارف، ويُعدّ أول من أدخل الأنماط الحديثة للمقاولات المجهولة الاسم. كما أنشأ في عام 1873 أول مصرف وطني، وهو يُعدّ اليوم الأب المؤسس للرأسمالية في اليابان»[125]. «وبسبب خبرته المالية، كلّفته حكومة الميجي بوضع لَبِنات مصرف اليابان»[126].

تبدو عناصر التناقض جليّة في التركيبة البشرية لأعضاء البعثة؛ إذ إنها ضمت عناصر مناوئة للغرب «تعتبر الأجانب برابرة، منهم ياماتاكا نوبوتسورا الذي عيّنه الشوغون لحماية الأمير»[127].

في 2 كانون الأول/ديسمبر 1867، غادر التوكوجاوا أكيتاكي فرنسا متوجّهًا إلى لندن، حيث استقبله فيها الطلبة الأربعة عشر الذين كانوا يواصلون تكوينهم في لندن. واستغرقت إقامته فيها مدة أسبوعين، ركّزت على فحص مجموعة من المواقع، منها الترسانة العسكرية في وولويتش (Wolwich)، وكريستال بلاس...[128].

ظل نظام الباكوفو، على الرغم من علله السياسية والإدارية والعسكرية، يرى إمكانية الإصلاح إلى آخر لحظاته السياسية. وبقيت بعثاته التعليمية تواصل مهماتها التكوينية إلى حين تلقّيها نبأ سقوطه وقيام نظام جديد على أنقاضه، وامتثلت للأوامر وقررت الرجوع إلى البلد لأنها أصبحت من دون غطاء إداري وسياسي، وفقدت مسوّغ الاستمرار التكويني.

8 - بعثة عام 1867 إلى الولايات المتحدة

يبدو التحول جليًا بين ما سجلناه بخصوص الحذر الشديد الذي رافق أول انفتاح رسمي ياباني على الدائرة الغربية، وحجم التراكم الذي بدأ يتحقق لدى حكام التوكوجاوا، أو بالأحرى لدى أفراد البعثات المتوجّهة إلى الغرب

(125) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 6.

(126) Matsubara, p. 110.

(127) Hamon, p. 38.

(128) المصدر نفسه، ص 102.

الرأسمالي، الأمر الذي أهّلهم للشروع في الرد الملائم على طاقة الغرب الرأسمالي، فلم تهتم البعثة بالموضوع التعليمي. ولما كان غرضها الرئيس «شراء سفينة، فقد ضمّت في صفوفها بعض رجال البحرية إلى جوار عدد محدود من المترجمين»[129]. وكان من بينهم فوكوزاوا يوكيتشي الذي بدا هذه المرة أكثر انتقادًا لنظام الباكوفو؛ وبوعيه التاريخي كان يدرك استحالة تجنّب سقوط ذلك النظام سياسيًا وإداريًا. وفي نظره أن «الحكومة وصلت إلى مرحلة التحلل بصورة كبيرة»[130]. وكانت الرحلة جرت في عام 1867، العام الأخير من عمر نظام الباكوفو. وفي هذا الشأن علّق يوكيتشي: «من الصحيح إنني كنت في خدمة حكومة الشوغون، لكن... كنت معارضًا لإغلاق البلاد وللنظام القديم القائم على المرتبة والقبيلة بأسره»[131]، وقد دخل في نقاش حاد مع بعض قادة الرحلة، وهو عكس ما قام به في رحلتيه السابقتين إلى الولايات المتحدة وأوروبا، حيث كان أكثر انضباطًا لتعليمات رؤسائه. وزارت البعثة مدينتي واشنطن ونيويورك، وركّزت اهتمامها على التفاوض لشراء سفن حربية. كما خصص يوكيتشي نسبة مهمة من ماله لاقتناء كتب[132].

ثانيًا: بعثات المقاطعات اليابانية المعارضة للباكوفو: شوتشو وساتسوما

1 - بعثة شوتشو

لم يقتصر إيفاد البعثات التعليمية على حكومة الباكوفو، بل انخرطت الإقطاعيات المحلية المعارضة لسياسة الباكوفو في إرسال طلبتها إلى الخارج، منذ أواخر عهد الإيدو: «فقد أرسلت مقاطعة شوتشو كلًّا من إيتو هيروبومي، وياماو يوزو إلى إنكلترا. ولا شك في أن ذلك جرى بطريقة سرية، استدعت

(129) يوكيتشي، ص 205.

(130) المصدر نفسه، ص 212.

(131) المصدر نفسه، ص 208.

(132) Fukuzawa Yukichi, *An Encouragement of Learning*, Translated by David A. Dilworth; Introduction by Nishikawa Shunsaku (New York: Columbia University Press, 2013), Introduction, p. 18.

استخدام أسماء مستعارة. ففي 2 حزيران/ يونيو 1863، أوفدت مقاطعة شوتشو خمسة متعلمين إلى لندن بمساعدة أحد تجار ناغازاكي، توماس كلوفر[133]، وجرى ذلك سرًّا عبر سفينة هولندية، ووصلوا إلى لندن في تشرين الثاني/ نوفمبر 1863[134]:

الجدول (5-4)

طلبة شوتشو الخمسة

أسماء الطلبة	السن	الاسم المستعار
إيتو هيروبومي	22	إيتو شونسوكي
يوزو ياماو	26	إينويي مونتا
ماسارو إينو	20	نومورا ياكيتشي
كينسوك إيندو	27	-
كاورو إينو	28	-

«وكانوا برعاية ألكسندر وليام ويليامسون[135] 1824-1904»[136]. وفي عام 1864، عادت البعثة إلى اليابان، وهي تحمل فكر التغيير وإرادته. وضمّت بين صفوفها قيادات بارزة أدّت دورًا محوريًّا في التحولات العميقة التي عرفتها اليابان منذ عهد الميجي، منها: إيتو هيروبومي الذي تقلد الوزارة الأولى فترات متعددة، كما سنبيّن لاحقًا.

---

(133) Michael R. Auslin, *Negotiating with Imperialism: The Unequal Treaties and the Culture of Japanese Diplomacy* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), p. 320.

توماس كلوفر: تاجر بريطاني اهتم بشراء الشاي الأخضر الياباني، ونجح في الإتجار بالسلاح مع المقاطعات اليابانية المعارضة لنظام التوكوجاوا، مثل ساتسوما وشوتشو وتوزا. استقر في ناغازاكي حيث أقام شركته الخاصة. ساعد في إرسال بعثة شوتشو، ومن بعدها بعثة ساتسوما إلى بريطانيا.

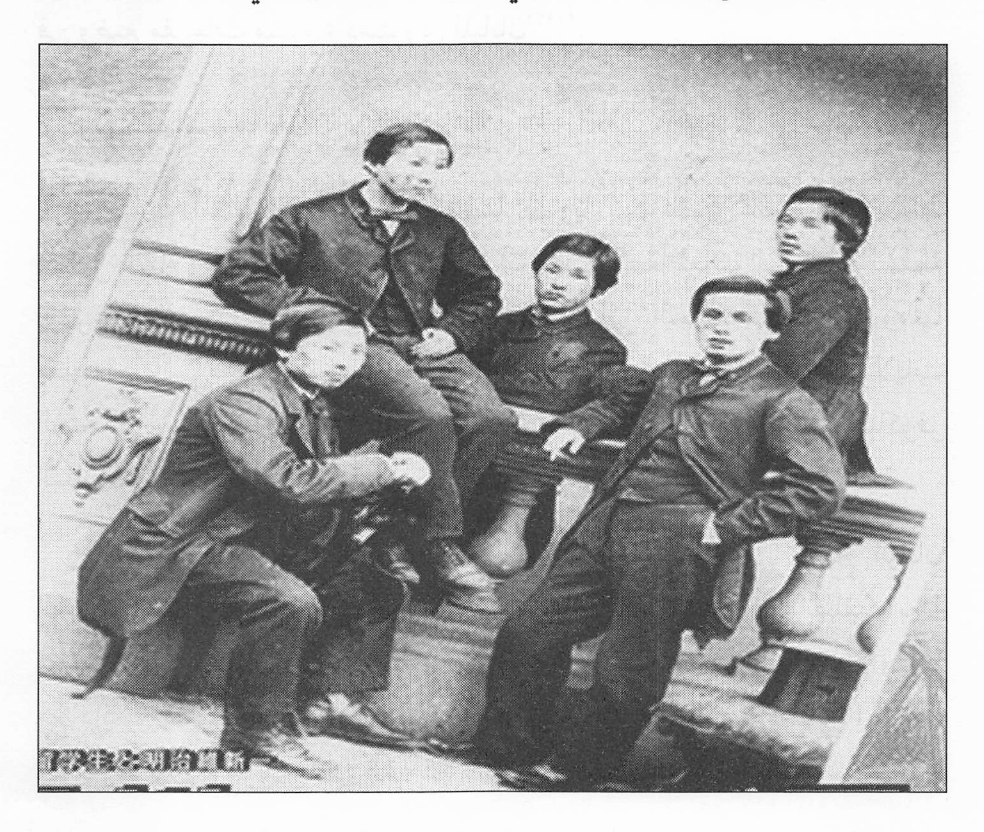
(134) Cobbing, *The Satsuma Students in Britain*, p. 178.

(135) ألكسندر وليام ويليامسون (1824-1904): كيميائي إنكليزي، عُيّن في عام 1849 لتدريس الكيمياء العضوية في جامعة لندن، كما عُيّن مرتين رئيسًا لشركة لندن للكيمياء، كانت المرة الأولى بين عامي 1863 و1865، والثانية بين عامي 1869 و1871.

(136) «The Language of Education,» on the Web: <http://www.123exp-education.com/t/03751181321/>.

الصورة (2-5)

خمسة متعلمين من مقاطعة شوتشو في لقطة تذكارية فريدة في مدينة لندن(137)



من جانب آخر، ترد بعض الإشارات التي تُفصح عن إيفاد شوتشو بعثات تعليمية إلى بروسيا. ويبرز بعض الأسماء اللافتة في هذا المجال، منها أوكي شوزو (1844-1914) الذي أرسلته مقاطعته إلى ألمانيا في عام 1868 (138) لدراسة القوانين الغربية، وامتدت دراسته إلى العلوم الاقتصادية والعسكرية والسياسية والمالية والطبية.

---

(137) «The Choshu Five,» on the Web: <http://www.city.hagi.yamaguchi.jp/hagihaku/event/choshu5/english.htm>.

أورد الصورة نفسها التي ضمّت إيتو هيروبومي ويوزو ياماو، ثم ماسارو إينو وكينسوك إيندو وكاورو إينو. انظر: Cobbing, *The Satsuma Students in Britain*, p. 84.

(138) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/1.html؟c=0>.

يبدو من خلال الوثائق اليابانية أن دراسته استمرت إلى ما بعد عهد الإحياء في عام 1868، وأوردت هذه الوثائق طلبَ كيدو تاكايوشي من أوكي مساعدته في وضع مقدمات مشروع دستوري لليابان(139).

2 - بعثة ساتسوما

حتّمت أسئلة القوة الغربية تنافسًا ضاريًا بين القوى المحلية لالتقاط عوامل البقاء والتفوق. وفي هذا الإطار، انخرطت المقاطعات المعارضة لسلطة الشوغون في سيرورة إرسال البعثات التعليمية إلى الجامعات الغربية، ومنها مقاطعة ساتسوما التي أوفدت موري أرينوري وآخرين إلى إنكلترا والولايات المتحدة(140) في عام 1865. ويبدو أنها جاءت ردة فعل على بعثات الباكوفو السابقة، وبعثة مقاطعة شوتشو.

ضمّت بعثة ساتسوما بعض الشخصيات التي أثّرت في تاريخ اليابان الحديث(141)، وحوّلتها إلى القطيعة مع نظام العزلة والانغلاق. وانطلقت بعثة ساتسوما بعد تحديد عميق لأهدافها المتوقعة؛ فقد بدأت فكرة البعثة إلى أوروبا مع دايميو ساتسوما شيمازو نارياكيرا (1809-1858) في عام 1857 (142)، وتولى كوداي توموتسو (1836-1885) التخطيط لتفصيلاتها العامة.

ينتمي كوداي إلى «فئة الساموراي. وكان درس في عام 1857 في ناغازاكي

(139) *Modern Japan in Archives: Political History from the Opening of the Country to Post-War,* chap. 1: Initial Steps toward a Constitutional State, (1-6): AOKI Shuzo's Conception of a Constitution, on the Web: <http://www.ndl.go.jp/modern/e/cha1/description06.html>.

(140) *Japan's Modern Educational System*, chap. 1: «Education during the Late Edo and Early Meiji Periods», para. 2: The Educational Policy of the New Meiji Government, (6): The Introduction of Western Civilization and the Dispatch of Students Abroad, on the Web: <http://www.mext.go.jp/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/index.html>.

(141) اعتمدنا في تدقيق الأعوام على المراجع الآتية: Satsuma Students (1865), on the Web: <http://www.spiritus-temporis.com/japanese-students-in-britain/satsuma-students-(1865).html>, and Sonoma State University Library, North Bay Digital Collections, on the Web: <http://northbaydigital.sonoma.edu/cdm4/results.php?CISOOP1=any&CISOBOX1=Nagasawa+Kanae&CISOFIELD1=CISOSEARCHALL&CISOROOT=all>.

(142) المصدران نفسهما.

في مركز التكوين البحري. وقاد بعثة ساتسوما إلى أوروبا»[143]. واقتفى بنجاح خطى شيمازو نارياكيرا في الاهتمام بالدراسات الغربية والتكنولوجيا والخبرة البحرية[144]، وربما كان ذلك سببًا في اختياره ضمن أفراد بعثة ساتسوما إلى أوروبا في بداية عام 1865.

تمتعت مقاطعة ساتسوما بقيادة تمتلك حس الانتماء وقدرة على قراءة المتغيرات السياسية وتوجيه الطاقات المحلية نحو الإبداع وصناعة الإصلاح والتغيير.

يُعَدّ شيمازو نارياكيرا من طينة هؤلاء، وهم كثر في مخيال مجتمع يقدس الذاكرة وتتداخل في حياته اليومية معالم الماضي مع تحديات الحاضر، وتتزاحم في مدنه ومتنزهاته النصبُ التذكارية لمن قدّم خدمة إلى اليابان في تاريخها الممتد والطويل.

وُلِد شيمازو نارياكيرا في مقاطعة ساتسوما. وتأثر بوالده شيمازو ناريوكي الذي أبدى قبله اهتمامًا بالغًا بالغرب. وشجع داخل مقاطعته على إنشاء صناعة السفن وصناعة الزجاج والحديد، وهو الذي وجّه كوداي توموتسو إلى دراسة العلوم البحرية على أيدي الهولنديين في ناغازاكي في عام 1857 [145]. وقد جاءت تركيبتها كالآتي[146]:

الجدول (5-5)

طلبة بعثة ساتسوما

الاسم	تاريخ الميلاد	السنّ
نييرو كيوبو	1832	33
ماتسوكي كوان	1832	33
كوداي سايسوكي	1835	30

يتبع

(143) «Godai, Tomoatsu (1836-1885),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/268.html>.

(144) Wiliam G. Beasley, *The Meiji Restoration* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1972), p. 244.

(145) المصدر نفسه، ص 244.

(146) Cobbing, *The Satsuma Students in Britain*, p. 26.

تابع

ماشيدا مينبو	1842	27
هاتاكياما جونوسوكي	1845	20
ناغويا هيا	1842	23
موراهاشي ناو	1843	22
تاناكا سايشو	1843	22
ناكامورا سوكن	1843	22
ساميشيما سيزو	1845	20
إيشيكي كانجورو	1842	23
تاكامي يايتشي	1834	31
موري كينوجو	1847	18
توغو آينوشين	1842	23
يوشيدا مينوجي	1845	20
إيسوناغا هيكوسوكي	1852	13
ماشيدا تاكتشيكو	1844	21
ماشيدا شينشيرو	1847	18
ماشيدا سيزو	1850	14

لم يكن من السهل أن ترسل مقاطعة ساتسوما هذه البعثة إلى بريطانيا، في وقت اشتد فيه الصراع بين أنصار الباكوفو ومؤيدي إرجاع النظام الإمبراطوري. وكانت البلاد آنذاك لا تزال، من الناحية النظرية، تخضع لمقتضيات سياسة العزلة، وما يلحقها من حكم الإعدام بحق من يخرقها.

لإنجاح العملية «سافر الطلبة بأسماء مزورة، تجنبًا لاحتمالات الكشف عن هويتهم»[147]. وتدل حالة التنكر واختيار أسماء بديلة على حالة الرقابة الشديدة التي فرضها حكام الباكوفو على المقاطعات المعارضة، اضطُرت ساتسوما وغيرها إلى بذل الجهد والحيل واستحضار ثقافة النينجاتسو للإفلات من القبضة الأمنية المركزية والانفتاح على الخارج الذي يمتلك التقنية والمعرفة الحديثة. ولا شك في أن العقل المخطط للعملية ظل يراهن على أهمية الانفتاح على الغرب، مع ما يعنيه من تكوين أطر المستقبل وكفاءات الإنجاز الإداري

(147) المصدر نفسه، ص 32.

والعسكري، ودور هؤلاء المحتمل في إطاحة النظام الذي أهان الكبرياء اليابانية بعقده اتفاقات غير متكافئة مع الأميركيين والأوروبيين.

يشير أندرو كوبينغ إلى أن هدف دراسته البعثة يكمن في تتبّعه حياة إيزوناغا هيكونوسوكي الذي اعتبره شخصية فريدة، ووصفه بأنه كان وهو في سن الثلاثين «واحدًا من بين الكثير من الطلبة الذين أرسلتهم ساتسوما إلى بريطانيا، وتمكن من جمع ثروة مهمة كرجل أعمال في الولايات المتحدة»[148]. وتساءل عن السبب الذي دفعه، وهو الذي شبّ على ثقافة الساموراي في بيئة فيودالية، إلى الهجرة من موطنه الأصلي للعيش في الولايات المتحدة[149].

لم يشكّل إيزوناغا حالة استثنائية وفريدة ضمن النخب التعليمية التي درست في الجامعات والمؤسسات الغربية؛ بل وُجدت حالات مشابهة حتى في البعثة نفسها، مثل موري أرينوري الذي درس، في بريطانيا، على امتداد عامين، الرياضيات والفيزياء والعلوم البحرية، والتحق في عام 1867 بالولايات المتحدة؛ وعاد إلى اليابان في عام 1868 للالتحاق بحكومة الميجي الجديدة، وعُيّن سفيرًا لبلده في أميركا (1871-1873)، وفي الصين (1876-1877)، وفي إنكلترا (1880-1884)[150]. وأصبح في ما بعد وزيرًا للتعليم، وشجّع اليابانيين على التزوج من نساء أميركيات لمقاصد جينية هدفها تحسين النسل الياباني كما صرح هو بذلك. ويمكن في الجدول (5-6) رصد تعدد الألقاب لأفراد البعثة التي أوفدتها ساتسوما[151].

لا يمكن مقاربة دوافع بعثة ساتسوما من دون ربطها بالمواجهة العسكرية التي دارت بين الطرفين في عام 1863؛ «فقد حاولت المقاطعة اليابانية دعم علاقاتها وتوسيعها مع بريطانيا»[152]. وفي هذا الإطار، أوفدت هذه البعثة، ووصلت بعد شهرين إلى لندن. «وتوجّه أعضاؤها، بداية إلى مصلحة الشؤون

(148) المصدر نفسه، ص 152.

(149) المصدر نفسه، ص 152.

(150) William Theodore De Bary [et al.], *Sources of East Asian Tradition*, 2 Vols. (New York: Columbia University Press, 2008), Vol. 2: *The Modern Period*, p. 528.

(151) Cobbing, *The Satsuma Students in Britain*, p. 34

(152) Neary, p. 42.

الخارجية للتفاوض في شأن إمكانية الحد من الاحتكار التجاري الذي يمارسه الباكوفو، وحرية (ساتسوما) في فتح موانئها أمام التجارة الإنكليزية. كما تنقّل اليابانيون في أرجاء إنكلترا للاطّلاع على مناطق صناعية متقدمة»[153].

الجدول (5-6)

أسماء أعضاء بعثة ساتسوما لعام 1857

الاسم الأصلي	الاسم المستعار	الاسم عند الوفاة
نيرو كيوبو	إيشيغاكا إينوسوكي	نيرو هيسانوبو
ماتسوكي كوان	إيزومي سينزو	تيراشيما مونينوري
كوداي سايسوكي	سيكي كينزو	كوداي تومونسو
هوري سوجورو	تاغاكي سيجي	هوري تاكايوكي
ماشيدا مينبو	يوئينو ريوتارو	ماشيدا هيساناري
هاتاكيياما جونوسوكي	سيغيورا كوزو	هاتاكيياما يوشيناري
ناغويا هيا	ميكازا سينوسوكي	ناغويا توكيناري
موراهاشي ناو	هاشي ناوسوكي	موراهاشي هيساناري
تاناكا سايشو	أساكورا سيغو	أساكورا موريباكي
ناكامورا سوكن	يوشينو سيزائيمون	ناكامورا هاكواي
ساميشيها سيزو	نودا تشوهاي	هاتاكياما ناونوبو
إيشيكي كانجورو	ماتسومورا جونزو	ماتسومورا جونزو
تاكامي يايتشي	ماتسوموتو سيتشي	تاكامي يايتشي
موري كينوجو	ساواي تيسوما	موري أرينوري
توغو آينوشين	إيوايا تورانوسوكي	توغو آينوشين
يوشيدا مينوجي	ناغاي إيوسكوي	يوشيدا كييوناري
إيسوناغا هيكوسوكي	ناغاساوا كنائي	ناغاساوا كنائي
ماشيدا تاكيهيكو	ياماموتو إيكوما	ماشيدا تاكيهيكو
ماشيدا شينشيرو	شيوتا غنوجو	ماشيدا شينشيرو
ماشيدا سيزو	شيميزو كينجيرو	ماشيدا سيزو

(153) المصدر نفسه، ص 42.

مثل غيرها من البعثات اليابانية، تولى قيادة البعثة ساتسوما نييرو كيوبو (1832-1889)؛ وضمت بعض الوجوه البارزة مثل كوداي سايسوكي (1832-1889) وتيراشيما مونينوري (1832-1889)[154]، الذي سبق له أن أُرسل في مهمة دراسية إلى بعض البلدان الغربية؛ فقد اختير في عام 1862 ضمن البعثة التي وجّهها باكوفو التوكوجاوا للدراسة في جامعة لندن في إنكلترا، وزار كلًا من هولندا وبلجيكا وروسيا، وعاد إلى اليابان في عام 1863. وقد تكون معرفته المبكرة بالغرب سببًا في تعيينه وزيرًا للخارجية في بداية عهد الميجي عام 1873.

ركزت البعثة في تكوين عناصرها على القضايا الأمنية والتعليمية والعسكرية والطبية. ويتبيّن أن الانتقاء ركّز على العناصر الشابة، الأمر الذي دل على الرغبة في الاستفادة العميقة في أثناء الإقامة ببريطانيا. ويشير أحد الباحثين إلى بعض النتائج الموازية للدراسة الأكاديمية للبعثة، منها نجاح متعلمي ساتسوما في وضع قاموس ياباني- إنكليزي[155]. كما أن عام 1866 يمثّل حدثًا متميزًا في موضوع بعثات المقاطعات اليابانية؛ إذ سُمح رسميًا لليابانيين بالسفر إلى الخارج، الأمر الذي تسبب في ازدياد عدد طلبتها الموفدين[156] إلى أوروبا وأميركا.

أجمل أندرو كوبينغ (A. Cobbing) البعثات التي أوفدتها المقاطعات اليابانية بين عامي 1860 و1871، كالآتي[157]:

الجدول (5-7)

مجمل البعثات التي أوفدتها المقاطعات اليابانية (1860-1871)

المقاطعة	بريطانيا	الولايات المتحدة الأميركية	ألمانيا	فرنسا	هولندا	روسيا	المجموع
ساتسوما	17	13	02	02	00	00	34

يتبع

(154) المصدر نفسه، ص 42.

(155) Mark Ravina, *The Last Samurai: The Life and Battles of Saigō Takamori* (Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2004), p. 14.

(156) Tsuzuki, p. 51.

(157) Cobbing, *The Japanese Discovery of Victorian Britain*, p. 36.

تابع

هيزن	15	01	06	05	00	01	28
شوتشو	11	05	02	03	01	00	22
كاغا	06	00	00	03	02	01	12
سادوارا	00	06	01	01	00	00	08
توزا	07	02	01	00	01	00	11
شيكوزن	00	06	01	00	02	00	09
أواري	00	04	02	00	00	00	06
توكيشينا	02	04	00	00	00	00	06
إيشيزن	01	04	00	00	00	00	05
سينداي	00	04	00	00	00	00	04
أكاي	04	00	00	00	00	00	04
المجموع	63	49	15	14	06	02	149

يذكر أحد الباحثين أن عدد المتعلمين اليابانيين الموفدين لاستكمال الدراسة في الدول الغربية بين 1853 و1868، بلغ نحو 152 يابانيًّا[158].

يُعَدّ إرسال البعثات التعليمية في فترة ما بعد حملة بيري استمرارًا لحالة انفتاح موجودة على مستويات مختلفة، منها الاهتمام بجلب مهندسين لتطوير القدرات الدفاعية للبحرية اليابانية؛ ففي عام 1863 تعاقدت حكومة الباكوفو مع 14 مهندسًا هولنديًّا، وشرعت في بناء حوض للسفن حتى تتمكن من صنع سفن حربية تسير بقوة البخار، ووضعت خطة من أجل الحصول على مساعدة من الحكومة الفرنسية. كما شجعت فرنسا اليابان على بناء حوض للسفن بالقرب من إيدو، وأرسلت فريقًا من العسكريين لتدريب جيش حكومة الباكوفو على الأساليب الغربية. كما «أرسلت مهندسًا يدعى فرانسوا ليون فيرني (François Verney) في عام 1865 وقام بوضع خطة اقترح فيها بناء مصنع في مدينة يوكوهاما لإصلاح السفن والتدريب وتوفير الخبرة في هذا المجال»[159].

(158) Karen Hunger Parshall and Adrian C. Rice, eds., *Mathematics Unbound: The Evolution of an International Mathematical Research Community, 1800-1945*, History of Mathematics; 23 (Providence, RI: American Mathematical Society; [London]: London Mathematical Society, 2002), p. 235.

(159) ميتشيو وأوروتشيا، محرران، ص 228.

لم يتحرّج اليابانيون من التعامل مع الغرب حتى في فترة عزلتهم؛ فعندما وصل بيري إلى اليابان دهَشته معرفة اليابانيين بالغرب، وعلّق على ذلك بقوله إن الطبقات العليا ممن اتصل بهم الأميركيون كانت على دراية لا ببلادهم فحسب، إنما أيضًا بأمور عدة أخرى تتعلق بالجغرافيا والتقدم المادي والتاريخ المعاصر لبقية العالم. وأشار إلى أن المسائل التي أثارها اليابانيون بصورة متكررة تثبت أنهم يمتلكون كثيرًا من المعلومات على الرغم من عزلتهم، وأنهم كانوا قادرين على التحدث عن السكك الحديد والتلغراف والأسلحة والسفن بصورة تدل على إلمامهم وإدراكهم بالحروب الأوروبية والثورة الأميركية[160]، وهو حكم يدل على معرفة أميركية حقيقية واحتكاك مباشر مع طبيعة الأوضاع الداخلية اليابانية، تختلف عن موقف النخب الفكرية المغربية التي كانت ترى، قرنًا بعد ذلك، أن اليابان بلد متخلف وأسطوري.

كانت المعرفة بالآخر مقدمة للاقتداء به؛ «فقد استطاع اليابانيون أن يتعلموا كيف يصنعون المدافع، الأمر الذي مكّن اليابان من أن تكون خبيرة بمسائل الدفاع، وهو ما ساعدها في إدراك ضعفها في مقابل الأمم الأوروبية»[161].

إذًا، مثّلت مرحلة العزلة مقدمة أساسية في سياق مراكمة المعرفة والتأسيس لعناصر القوة، والتأثيث لمستلزمات التحديث الداخلي، والاتجاه نحو انطلاق المارد الياباني في فترة الميجي إلى آفاق التنمية الواسعة، مع ما رافق ذلك من تأسيس قواعد فعل تحديثي فريد في تاريخ التحولات العالمية من حيث الزمن، والتوفيق بين التقليدية والحداثة.

أدركت القوى المتنافسة في اليابان أهمية العلم النظري والتطبيقي في تهيئة قادتها للمرحلة الجديدة، التي احتاجت إلى الإطار الوطني القادر على استيعاب علوم الغرب وتوظيفها في عملية البناء. ولا شك في أن حدة التنافس بين الباكوفو وساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا منحت المعنى والغاية من الانتساب إلى أبرز الجامعات الغربية وأشهرها، والتتلمذ ضمن الأطر الغربية في الولايات المتحدة وأوروبا. وكان ذلك مقدمة حقيقية وفّرت خاصية التراكم الإيجابي

(160) عبد الغفار رشاد، التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984)، ص 57.

(161) إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ شرق آسيا الحديث (الرياض: مكتبة العكيبان، 1994)، ص 132.

لبعثات الميجي. ولا غرابة هنا من أن تشارك مجموعة من أفراد بعثات نهاية عهد الإيدو ضمن الوفود التعليمية في بعثة إيواكارا وغيرها.

علّق هيدايتشي ماتسوبارا[162] على البعثات التعليمية التي أوفدها الباكوفو في نهاية دورته السياسية، قائلًا: «على الرغم من النتائج المتواضعة لهذه البعثات، فقد منحت اليابان في عهد الميجي بعض الأطر الشابة التي شكلت قاطرة التحديث»[163].

إننا أمام مجتمع يحترم الكفاءات المحلية ويقدّرها، وتغيب في مؤسساته السياسية القطائعُ والتنكر للإنجازات التي أفادت البلاد منذ فترات قديمة، كما نقرأ خاصية الاستمرارية والعمق التاريخي الذي انطلقت منه تجربة التحديث الياباني مع عهد الميجي.

يصعب تناول موضوع البعثات التعليمية اليابانية في فترات ما بعد عهد الميجي من دون فحص المسألة بالرجوع إلى مقدماتها الأولى في نهاية عهد التوكوجاوا؛ فقد احتضن التاريخ الياباني مجمل الخلافات والصراعات الداخلية بالشكل الذي حافظ، من خلاله، على عناصر القوة وعلى اللحظات الإيجابية واتخاذها وميضًا يذكّر بالإنجازات والإبداعات السياسية والعلمية، وهي خاصية لاحظنا غيابها في تاريخ المغرب، حيث تتعدد القطائع وتغيب قيم احترام الذاكرة، وهو ما حرم المغرب من زخم التراكم وحافز الاستمرار.

استثمرت حكومة الميجي الكفاءات التي أنتجتها بعثات الباكوفو، وأدمجتها في نسق التحولات الكبرى التي خطط لها العهد الجديد. كما سلكت الدرب نفسه في إيفاد البعثات التعليمية الخاصة بها، ومن أشهرها على الإطلاق بعثة إيواكارا.

ثالثًا: بعثة إيواكارا: المقدمات والنتائج

تؤكد الأدبيات التربوية الرسمية اليابانية أن «الحضارة الغربية دخلت إلى اليابان من خلال استقدام الأساتذة الأجانب، وإرسال الطلبة اليابانيين

(162) أستاذ جامعي في جامعة كيو في طوكيو.

(163) Matsubara, p. 109.

إلى الخارج للدراسة والبحث»[164]. ويؤكد نوبورو كوياما «أنه ليس من قبيل المبالغة القول إن تحديث اليابان بدأ مع الدراسة في الخارج»[165]، وهو ما يفرض علينا ضرورة تتبع الآليتين المذكورتين وتحليلهما، لاستنتاج الخيط الناظم الذي أطّر عملية التحديث في مجتمع النيبون.

آمن اليابانيون بسمو مكانتهم، لكن على الرغم من ذلك «أقبلوا بكل تواضع على التعلم من الإنجليز والألمان والفرنسيين والأمريكيين، دون أن تحركهم وطنية زائفة تدفعهم إلى الخوف من الأعداء المتربصين أو غزو اقتصادي أو فكري... بل أقبلوا على تبنّي القيم العصرية الغربية عن تراثهم برضى، واندمجوا في إطار النظام الغربي والدولي بشجاعة وإبداع خلّاق»[166].

تحتاج هذه المقدمة إلى فحص وتمحيص لتبيّن حدود التأثير الغربي في سلّم القيم اليابانية ودرجة تلبّس الذات اليابانية بقيم الحداثة الغربية، لكن لنعرضْ أولًا مميزات البعثات التعليمية في أثناء عهد الميجي بوصفها أهم آلية من آليات التواصل والانفتاح على دوائر التحديث الغربي؛ إذ شكّلت هذه البعثات امتدادًا لمثيلتها بعد حملة بيري.

توخّى مهندسو عصر التنوير الياباني تحقيق هدفين مختلفين ومتكاملين في آن: «الهدف الأول هو اللحاق بالغرب، والهدف الثاني هو الحفاظ على وحدة التراب الياباني، واعتمد تحقيقهما على إحداث تغييرات لم يسبق لها مثيل في الأجهزة الحاكمة. وكان الذي يمكنهم التصدي للقيادة هم أولئك الذين تعلموا في الغرب وحصلوا على آخر المعارف والتكنولوجية. إن العهد الجديد يحتاج إلى ذوي الكفاءات في مختلف طبقات الشعب، والمدارس هي الوسيلة الرئيسة لتمييزهم واكتشافهم»[167].

---

(164) *Japan's Modern Educational System*, chap. 1: «Education during the Late Edo and Early Meiji Periods», para. 2: The Educational Policy of the New Meiji Government.

(165) Koyama, p. 3.

(166) أحمد هوزلي، التنمية بين الأنموذجين الياباني والروسي السوفياتي (مراكش: مطبعة تنمل، 1999)، ص 145.

(167) نيشيو، ص 38.

لم تنتظر حكومة ميجي مطوّلًا، إذ سارعت في إيفاد عدد كبير من الشبان والشابات «في بعثات علمية إلى الدول الأجنبية، فأرسلت 170 موفدًا إلى الخارج خلال الفترة الممتدة من يناير [كانون الثاني] 1869 حتى نوفمبر [تشرين الثاني] 1879، وفي سبتمبر [أيلول] 1871 كان عدد الموفدين اليابانيين إلى الخارج يقارب 280 موفدًا، وفي نحو ربع قرن بلغ عدد أعضاء هذه البعثات ما يقدر بنحو 1000 من الدارسين وكبار المسؤولين في عهد ميجي»[168].

اعتمادًا على المصادر الرسمية اليابانية، تورد وزارة التربية معلومات تؤكد «أن عدد المتعلمين الموفدين إلى الولايات المتحدة بلغ بين عامي 1868 و1872 نحو 500 طالب»[169]. وقد وصل عدد المتعلمين في الخارج، بحسب أحد الباحثين «بين عامي 1868 و1912، إلى 11.284 متعلمًا، توجه 57% منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية... فعلى سبيل المثال خُصص في عام 1873 نحو 21% من ميزانية وزارة التربية لإرسال الطلبة إلى الخارج»[170].

إذا كانت الإدارة العمومية هي المؤطر الأساس لهذه البعثات، فإنه كان للمؤسسات الخاصة دور مواز في هذا المنحى؛ إذ قامت مؤسسة «ميتسوي» في عام 1872 بإرسال خمسة من أفرادها إلى الولايات المتحدة للقيام بدراسات تكفل مسايرة المؤسسة للأوضاع الاقتصادية الجديدة[171]، منها معاينة النظام المصرفي الحديث[172]. وكان من بين هؤلاء ميتسوي سابيروسوك الذي ساهم بعد عودته إلى اليابان، في كثير من ضروب نشاط المؤسسة الاقتصادي[173].

---

(168) رشاد، ص 112.

(169) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, d: Japanese Students Studying Abroad and Foreign Teachers in Japan.

(170) Mark Rogers, *Knowledge, Technological Catch-up and Economic Growth* (Cheltenham, UK; Northhampton, MA: Edward Elgar, 2003), p. 98.

(171) Jacques Mutel, *Histoire du Japon, 1: La Fin du shôgunat et le Japon de Meiji, 1853-1912* (Paris: Hatier, 1970), p. 65.

(172) Hirschmeier and Yui, p. 136.

(173) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/198.html?c=0>.

في هذا إشارة إلى انخراط فئات «المجتمع المدني»، خصوصًا ما يصطلح عليه بالأسر القوية في اليابان في مسلسل التحديث الداخلي، والتأثيث الملائم له، بمنافسة أو بالأحرى بإتمام دور الدولة في هذا المجال، وهو جانب لاحظنا بعض ملامحه من خلال الدور المتميز الذي ساهمت به المقاطعات اليابانية المنافسة الباكوفو في إرسال بعثاتها التعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي، الأمر الذي منح موضوع التحديث الياباني زخم التنافس بين الدولة المركزية، وبعض الجيوب الفيودالية المعارضة لحكام عهد التوكوجاوا .

تستدعي المسألة التوقف وإثارة التساؤل الآتي: ألا يمكن القول إن البعثات التعليمية الخاصة الموازية لبعثات الميجي إنما كانت استمرارًا لنسق التنافس الذي طرأ بين نظام الباكوفو والمقاطعات الفيودالية (ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا)؟ ألا تدل المسألة على خاصية التدافع التي أضحت سمة بنيوية في العلاقة التي ربطت السلطة بالمجتمع الياباني منذ أمد طويل؟

يبدو أن التراكم الذي حصل خلال عهد الإيدو كان له دور أساس في منح العمق الاستراتيجي للبعثات التي عرفتها العهود اللاحقة من فترة الميجي إلى عهد تايشو وشوا.

يكاد يتفق جل الدارسين على أن بعثة إيواكارا مثّلت أنموذجًا خاصًا وفريدًا ضمن مختلف البعثات التي قصدت دول الغرب الرأسمالي، وهو ما يستدعي ضرورة التفصيل في هذه البعثة، والبحث في مقدماتها والغايات التي كانت ترمي إليها، واستنتاج دورها في دعم سيرورة التحديث في المجتمع الجديد.

يمكن اعتبار بعثة إيواكارا تركيبًا لمجمل البعثات التي عرفها عهد الإيدو. ولا شك في أن ترتيب الوضع الداخلي وحل التناقضات الداخلية شغلا قادة العهد الجديد، منذ عام 1868، وتسبب ذلك في التريث وتحيّن الوقت الملائم لإرسال بعثة عُدّت الأهم في تاريخ البعثات التعليمية اليابانية في العصر الحديث. وقد ذكر يوكيتشي شهادته على حوادث الفترة قائلًا: «في ذلك الوقت تداعت كل المدارس التي كانت تحظى في السابق بتأييد حكومة الشوغون وتفرّق مدرّسوها. ولم يكن الوقت قد أتيح للنظام الجديد ليُشغل نفسه بالتعليم»[174].

(174) يوكيتشي، ص 249.

مثّلت مراجعة الاتفاقات التي أُبرمت مع القوى الأجنبية، في نهاية عهد الإيدو، الاهتمام المركزي لأطراف الحكم الجديد، باعتبارها الأساس التعبوي الذي قام عليه نظام الميجي والبرنامج السياسي الذي أطيح بمقتضاه آخر حكام التوكوجاوا. ففي «عام 1870 طلب ساوا نورييشي، مساعد وزير الخارجية، من القوى الأجنبية فتح قنوات التفاوض لمراجعة الاتفاقات السابقة، لكنه لم يتلق إجابة من أحد»[175]. وربما كان ذلك من الأسباب الرئيسة التي دفعت الدبلوماسية اليابانية إلى نقل الهواجس اليابانية إلى مراكز صناعة القرار الغربي في الولايات المتحدة والأقطار الأوروبية. وقد سمح ذلك بانتقال نصف أعضاء الحكومة، بمعية مجموعة من الطلبة والمتعلمين، إلى الديار الغربية. كما كان للخبراء الأجانب دور في التنبيه لأهمية إرسال بعثة إلى الخارج؛ «فقد عُيّن غيدو فيربيك مستشارًا لدى حكومة الميجي، وكان دوره مؤثرًا في إيفاد بعثة إيواكارا إلى الولايات المتحدة وأوروبا»[176]. وفي عام 1869، «اقترح فيربيك على أوكوما شيجونوبو ضرورة إرسال الميجي بعثة مكوَّنة من كبار المسؤولين إلى البلدان الغربية المتقدمة... تقوم بدراسة مختلف نظم التعليم، في الجامعات، والمدارس العمومية والخاصة، إضافة إلى المدارس المتخصصة، مثل البولي-تكنيك والمدارس التجارية»[177].

تستدعي المسألة الوقوف والتساؤل، ومن ذلك أن البعثة لم تحدد لنفسها هدفًا واحدًا، وهو التفاوض لمراجعة الاتفاقات غير المتكافئة التي عقدتها حكومة الشوغون، بل كان اليابانيون يدركون صعوبة موافقة القوى الغربية على مطالب حكومة الميجي. لكن برنامج البعثة حدد مخارج دبلوماسية وتعليمية بديلة، يمكنها تعويض احتمالات الفشل الواردة في مراجعة الاتفاقات التي عقدها الشوغون.

---

(175) Roy Hidemichi Akagi, *Japan's Foreign Relations, 1542-1936: A Short History* (Tokyo: Hokuseido press, 1936), p. 86.

(176) Ian Nish, *Japanese Foreign Policy, 1869-1942: Kasumigaseki to Miyakezaka*, Foreign Policies of the Great Powers (London; Boston: Routledge; K. Paul, 2013), p. 18.

(177) Akiko Ohta, «The Iwakura Mission in Britain: Their Observations on education and Victorian society,» in: «The Iwakura Mission in Britain, 1872,» (Discussion Paper; No. IS/98/349, Suntory Centre, Suntory and Toyota International Centres for Economics and Related Disciplines, London School of Economics and Political Science, London, March 1998), p. 14.

ضمن هذا الإطار شكّلت مسألة الاستخبار والتعلم الهاجس الأساس الذي حمله أعضاء البعثة معهم إلى الولايات المتحدة وأوروبا، و«مثلت بداية حقيقية لدراسة مؤسسات الغرب المجتمعية»[178]. ويرى أحد الباحثين بعثةَ إيواكارا استراتيجيا يابانية لجني عوامل الذكاء في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأميركية[179].

انسجامًا مع مقتضيات العهد الإمبراطوري الجديد، كتب الإمبراطور الميجي رسالة إلى الرئيس الأميركي غرانت، حملت الكثير من الدلالات والرموز والأهداف، ورد فيها: «منذ اعتلاء عرشنا المقدس الذي ورثناه عن أسلافنا، لم نبعث أي سفارة إلى الدول الصديقة. لقد وقع اختيارنا على المشمول بثقتنا وتقديرنا الوزير إيواكارا تومومي، سفيرًا فوق العادة، مرفقًا بكلٍّ من كيدو تاكايوشي، عضو المجلس الخاص، وأوكوبو توشيميتشي، وزير المالية، وإيتو هيروبومي، وزير الأشغال العامة، وياماكوشي ماساناو، وزير الشؤون الخارجية [....] وقد منحتهم تفويضًا تامًا في المحادثات مع حكومة الولايات المتحدة، ومع غيرها من الحكومات الأوروبية، بهدف تمتين صداقتنا الودية، ووضع علاقات سلمية بين أمتينا على أسس واسعة ومتينة.

تراجع مسار بحث الاتفاقات التي عُقدت بين اليابان والولايات المتحدة عمّا كانت عليه الحال منذ عام. وعلى المنوال نفسه، ننتظر وننوي مواصلة إصلاحها وتحسينها على قاعدة المساواة مع الأمم المستنيرة وتحقيق الازدهار التام لحقوق شعوبنا ومصالحها.

تختلف الحضارة والمؤسسات في اليابان عن مثيلاتها في البلدان الأخرى أشد الاختلاف، وهي بلدان لا نأمل بالوصول معها إلى النتائج السابقة نفسها.

يتمثّل هدفنا في اختيار أفضل المؤسسات المستنيرة، طبقًا لخصوصياتنا الثقافية، وجعلها منسجمة مع الإصلاحات السياسية التدريجية لبلدنا، ومع

---

(178) Charles A. Kupchan [et al.], *Power in Transition: The Peaceful Change of International Order*, with the Assistance of Jason Davidson and Mira Sucharov (Tokyo; New York: United Nations University Press, 2001), p. 40.

(179) Coelho, p. 174.

عاداتنا وتقاليدنا، بشكل يؤهلنا للوقوف على قدم المساواة معها. ومن هذه الزاوية، نرغب كليًا في توضيح شروط العمل الذي ستقوم به حكومة الولايات المتحدة داخل إمبراطوريتنا، والتشاور في شأن الوسائل التي تمنح الفاعلية لمؤسساتنا حاضرًا ومستقبلًا. وبمجرد عودة البعثة إلى اليابان، سنثمّن مراجعة الاتفاقات السابقة، كما سنقوم بإنجاز ما كنا ننتظره ونأمله.

يتمتع الوزراء الذين يشكّلون هذه البعثة بثقتنا وإجلالنا. وندعوكم إلى تسهيل مهمتهم، كما ندعو لكم بالصحة والسعادة، والسلام والتقدم لدولتكم العظيمة»[180].

تحتاج الرسالة إلى وقفات للتحليل والتعليل، تبحث في الإطار المرجعي الذي يؤطرها ويحدد أهدافها والوسائل المثلى لتحقيقها وتنفيذها.

تبدو، من ثنايا الرسالة، معالم الاعتزاز بالانتماء إلى المقدس، مع تسجيل ميزة الاستمرارية واستثمار عنصر التراكم التاريخي في الممارسة السياسية. وإن كنا نعتقد أن نظام الميجي أحدث قطيعة ظاهرية في نسق ممارسة السلطة، في أثناء إطاحة نظام الباكوفو، عندما أُخرج من كهف العزلة المفروضة، ومن الفعل السياسي الشكلي إلى حلبة الممارسة السياسية الحقيقية، بعد حوالى 250 عامًا من حكم التوكوجاوا الذين اغتصبوا السلطة، وجعلوا من الإمبراطور صورة شكلية مقبولة لشرعنة الإجراءات والقرارات السياسية والإدارية.

ألح الميجي في رسالته/ خطابه في أكثر من عبارة على مفهوم الأنا الجماعي وما يوحي به من خصوصيات ثقافية، فصّلنا الحديث عنها في مباحث سابقة. على أن ما يلفت هو تركيز موتسوهيتو على قيم الانفتاح على المؤسسات الغربية من دون التنكر للعادات والتقاليد والخصوصيات الثقافية المحلية.

على مستوى آخر، يشدد النص على تطلع اليابان إلى تحقيق المساواة مع القوى الغربية التي عقدت معها اتفاقات غير متكافئة منذ زمن حملة بيري.

---

(180) David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 Vols. (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1997), p. 324.

ولإنجاز المهمة بدقة وإتقان، وقع الاختيار على نماذج ونخب يابانية لا ينكر أحد من الدارسين جدارتها على المستوى التقني وامتلاكها حس القيادة والانتماء إلى الوطن.

إذا كان ظاهر النص يحدد هدف البعثة في مراجعة الاتفاقات السابقة، فإن الدور التعليمي والاستخباري كان أهم ما اضطلع به أفراد البعثة بتحقيقه، طوال المدة التي استغرقتها في أميركا وأوروبا.

تمثّل بعثة إيواكارا محطة حاسمة في تاريخ اليابان، وقد تطلبت لونًا من الحضور الذهني وتعميق حس الانتماء الوطني. من هنا وجّه موتسوهيتو تعليمات حاسمة ذات دلالات خاصة لأفرادها، ورد فيها:

«بعد دراسة وملاحظات متأنية، لدي إحساس عميق بأن الأمم الأكثر قوة وتنويرًا هي التي بذلت الجهد الكثيف لتنمية العقول وبحثت عن السبل التامة والملائمة لتطوير بلدانها.

نتيجة ذلك أن منصبي الإمبراطوري يفرض عليّ إرشاد رعايانا بحكمة، بشكل يمكنهم من الوصول إلى تحقيق نتائج مفيدة. إن واجبهم هو المشاركة بجد وباتحاد في الجهد الرامي إلى تحقيق هذه الغايات.

من جهة أخرى، كيف يمكن لليابان أن تتقدم وتحافظ على نفسها كبلد مستقل ضمن أمم العالم؟»[181].

تحمل العبارات المسجلة دلالات رمزية عدة، منها الاعتراف الضمني بتأخر اليابان عن الغرب، وتحميل مسؤولية الإقلاع التنموي لمجموع مكوّنات المجتمع، بدءًا بالإمبراطور نفسه إلى باقي الفئات على مستوياتها وانتماءاتها المختلفة.

أبدع موتسوهيتو في رسم الخطوط العامة للتغيير، وأشار إلى دور المعرفة في امتلاك القوة والتنوير، كما ركز على قيمتي الجد والاتحاد لتحقيق هذه الغايات الكبرى.

---

(181) Bishop, p. 45.

بعد توضيح الإطار العام المحدد لعمل البعثة، توجه الإمبراطور بخطابه مباشرة إلى أفرادها، قائلًا: «بالنسبة إليكم، كنبلاء ينتمون إلى هذه المملكة التي تنظر إليها الساكنة باحترام، أسألكم وأنتظر منكم سيرة جيدة تلائم مهمتكم الجليلة»[182]. واستأنف، موجّهًا: «فلتتذكروا أن مسؤوليتكم تجاه وطنكم كبيرة ومهمة. إن قدراتنا في التطور الثقافي والجهد المتواصل ضرورية لتحقيق نتائج حسنة»[183]. وذكّر موتسوهيتو أعضاء البعثة موضحًا: «إذا أردنا الاستفادة من الفنون والعلوم والشروط الاجتماعية للأمم المتنورة، فيجب علينا دراستها إما ببلدنا مع شرط الإتقان، وإما بإرسال بعثات من الملاحظين العمليين إلى الخارج، لتمكين شعبنا من حاجاته التي تعود عليه بالنفع»[184].

وازن الإمبراطور في أسلوب الإقناع بين مطلب الدراسة في الداخل ومتابعة التكوين في الخارج. وإذا كان الخطاب يحبّذ في ظاهره التكوين في اليابان، لاعتبارات رمزية وأسطورية، فإنه يشترط ذلك بالإتقان، وهو ما لم يكن متوافرًا في «كهف أماتيراسو»، فجعله يقدّم التكوين في الخارج اختيارًا وحيدًا لامتلاك ناصية العلم وشروط القوة.

لم تكن بعثة إيواكارا بدعة في قرارات الانفتاح على الخارج وإرسال البعثات التعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي، بل شكلت تتويجًا لبعثات سابقة، تناولناها سابقًا، ابتداءً من عام 1860، وهو ما يشير إليه في رسالته الموجّهة إلى أعضاء البعثة، حين صرّح قائلًا: «إن إيفاد البعثات إلى الخارج الذي بدأناه، ينمّي لديكم المعارف الضرورية. وحتى إن كان بعضكم كبير السن وضعيف القدرة على الدراسة الدينامية للأساليب الجديدة، فبإمكان الجميع أن يجلب لشعبنا المعلومات النفيسة. علمًا بأن علل الوطن الكبيرة تستدعي علاجًا فوريًّا»[185].

أوفدت حكومة الميجي مئات المتعلمين، وقد أرسلت بين عامي 1869

(182) المصدر نفسه، ص 45.
(183) المصدر نفسه، ص 46.
(184) المصدر نفسه، ص 46.
(185) Bishop, p. 46.

و1870، أرسلت 40 «متعلمًا إلى الولايات المتحدة الأميركية، و32 إلى إنكلترا، و25 إلى فرنسا»[186].

اختصر الخطاب/الرسالة أحد أبرز أهداف الرحلة، وهو الاستخبار عن حقيقة القوة الغربية. وإذا كان المتعلمون الصغار مؤهلين لتعلم الفنون المعرفية والتقنية الحديثة في الغرب، فإن كبار السن، بما لديهم من تجربة ودقة في الملاحظة، مؤهلون لأداء دور التقاط المعلومات التي يرون أنها جديرة بالملاحظة والتسجيل، لقيادة المتعلمين اليابانيين الذين عُيّنوا للتعلم في المؤسسات الغربية وتوجيههم.

من هذه الزاوية، لا نستغرب كِبَر حجم التقرير الذي سجله المؤرخ المرافق للرحلة كينتاكي كومي (1839-1931) ونُشر في خمسة مجلدات في عام 1878[187]، إضافة إلى ما دوّنه بعض أفراد البعثة مثل كيدو تاكايوشي وإيتو هيروبومي وغيرهما.

احتاجت البعثة، بسبب أهميتها وقيمتها التاريخية، إلى عملية التنسيق وتيسير مهمتها العلمية والاستخبارية داخل الولايات المتحدة. وفي هذا الجانب أدى القائم بالأعمال الياباني في واشنطن، موري أرينوري، هذا الدور بإتقان، حين وجّه إلى وزير الخارجية الأميركي هون هاملتون فيش رسالة ورد فيها: «أتشرف بإخباركم أنني تلقيت رسالة من حكومتي، تفصح عن أن إمبراطور اليابان أوفد بعثة خاصة إلى الولايات المتحدة، وأنها على وشك الوصول إلى هذا البلد. لست أدري اليوم الذي سيبحرون فيه، لكنني أظن أنهم سيصلون إلى واشنطن في نهاية هذا الشهر - كانون الثاني/يناير 1872 - وسيعلن عن أهداف البعثة في مناسبة مقبلة، لكنني أظن أن من ضمنها تطوير العلاقات الودية بين اليابان والولايات المتحدة»[188].

اقترن إرسال البعثة بتعيين إينو كارو وزيرًا للشؤون المالية[189]، وهو

---

(186) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 18.

(187) المصدر نفسه، ص 18.

(188) Charles Lanman, *The Japanese in America* (Tokyo: Japan Advertiser Press, 1926), p. 5.

(189) Hamon, p. 79.

الشخص الذي تمكن من معرفة حقيقة القوة الغربية في أثناء إيفاده في بعثة شوتشو، مع إيتو هيروبومي وغيره، إلى لندن في عام 1863، وعُيّن على رأس الوزارة لتمويل الخطوات التحديثية التي بدأها عهد الميجي، ومنها مستلزمات بعثة إيواكارا التي عُدّت الأكبر في تاريخ اليابان الحديث، وما تطلبته من مصاريف مالية باهظة. كما ضمت البعثة خمس فتيات، من بينهن أوميكو تسودا، واعتبرت الرسالة المرأة شرطًا أساسًا من شروط الإصلاح والتغيير. ويصف الميجي من خلال هذا الموضوع الحالة السيئة لوضع المرأة في اليابان، مسجّلًا هشاشة البنية المؤسساتية لهذا القطاع العريض من مجتمع النيبون: «تنقصنا المؤسسات العليا الخاصة بتكوين الفتيات، يجب ألا تكون نساؤنا جاهلات بالمبادئ الكبرى التي تحقق السعادة، بشكل ضمني. ومن هنا تبدو أهمية تثقيف الأمهات اللواتي يقع على عاتقهن تنمية الوجهة الثقافية، من خلال تطوير أساليب التكوين»[190].

في 23 كانون الأول/ ديسمبر 1871، غادرت اليابان بعثةُ إيواكارا، وهي تحمل تعاليم الإمبراطور، وتحاول اختصار المسافة بين زمن العزلة الطوعية والانفتاح على الدوائر الغربية. وكانت تتويجًا للبعثات السابقة؛ إذ مثّلت أبرز المقاطعات الفاعلة التي أطاحت نظام الشوغون، وأرجعت السلطة إلى الإمبراطور. وقد أمضت اثنين وعشرين شهرًا في كلٍّ من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وروسيا والدانمارك والسويد وإيطاليا والنمسا وسويسرا[191]. ويمكن تبيان مدة زيارات هذه البعثة إلى هذه البلدان في الجدول (5-8)[192].

كانت البعثة كبيرة العدد؛ «فقد كانت تتألف من حوالى 50 فردًا، وكان قادتها من الشخصيات البارزة في الحكومة الجديدة... وكان متوسط عمر أفراد البعثة ثلاثين عامًا، لذا فقد كانوا ينتمون إلى جيل يسهل عليه تقبّل الثقافات الأخرى. ورافقت بعثة إيواكارا مجموعة من الطلاب بلغ عددهم 59 طالبًا»[193]. وكان هدفها الاطّلاع «على التقانة الغربية وشؤون الحكم

(190) Bishop, p. 46.

(191) أكيرا تاناكا، «عهد الميجي واليابانيون،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ص 23.

(192) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 17.

(193) متشيو وأورشيا، ص 231.

والمجتمعات هناك (وكان المتعلمون) يطبّقون المعرفة التي يكتسبونها على الاقتصاد الياباني»[194].

الجدول (5-8)

البلدان التي زارتها بعثة إيواكارا ومدة مكوثها في كل بلد

البلد	المدة باليوم
الولايات المتحدة	205
بريطانيا العظمى	122
فرنسا	67
بلجيكا	08
هولندا	11
ألمانيا	33
روسيا	18
الدانمارك	05
السويد	08
إيطاليا	26
النمسا	16
سويسرا	27
المجموع	546

قاد البعثة، كما ورد في رسالة الإمبراطور، تومومي إيواكارا، وزير الشؤون السياسية، وكانت مهمته سفارية، واستعان في أداء مهمته بأربعة نواب: أوكوبو توشيميتشي وكيدو تاكايوشي، وإيتو هيروبومي، والمؤرخ كينتاكي كومي.

ورد لدى أحد الدارسين «أن فوكوزاوا يوكيتشي كان من ضمن أفراد بعثة إيواكارا»[195]، وهو قول لا يستقيم مع حقائق التاريخ، ومع ما دوّنه يوكيتشي في مذكراته، حيث شارك في ثلاث بعثات تعليمية، أطّرها نظام الباكوفو في أعوام

(194) شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 210.

(195) Edith Terry, *How Asia Got Rich: Japan, China and the Asian Miracle*, Foreword by Chalmers Johnson, Pacific Basin Institute Book (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2002), p. 331.

1860 و1862 و1867. كما كانت للرجل مواقفه الخاصة من النظام الجديد في بداية مرحلة تشكّله، حيث حمل بشدة على أنصار النظام الإمبراطوري الذين رفعوا في البداية شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» قبل أن يرتاح نسبيًا للنهج المنفتح الذي بدأت اليابان تعرفه، ويتخذ موقع المتأمل الفاعل في مشهد التحديث الياباني.

يمكن اعتبار البعثة وبنيتها البشرية تركيبًا لمجمل التحولات التي شهدها عهد الميجي، ويتضح ذلك من خلال نوعية القادة الذين هندسوا مجمل التحولات السابقة، ونجحوا بكفاءة عالية وحسٍّ وطني متميز في التقاط زخم اللحظة التاريخية التي لا تتكرر، وتوسلوا بالانفتاح على الخارج لتصفية بقايا النظام الفيودالي، وإزاحة الباكوفو عن السلطة المغتصبة، وإخراج الميكادو من كهف التاريخ، لممارسة الإشعاع والامتداد.

تمتعت نخبة بعثة إيواكارا بمقومات القيادة الفاعلة، وحسْن استثمار الجهد البشري، والقدرة على قراءة الحوادث واستثمار نتائجها. ولا شك في أن السن المتقدمة لأفراد هذه النخبة منحها نضجًا وفاعلية. كما أن موتسوهيتو، في رسالته التي سبق أن أوردناها، كان يعنيها، عندما صرح بالقول: «وحتى إن كان بعضكم كبير السن وضعيف القدرة على الدراسة الدينامية للأساليب الجديدة، فبإمكان الجميع أن يجلب لشعبنا المعلومات النفيسة، علمًا بأن علل الوطن الكبيرة تستدعي علاجًا فوريًا»[196].

يمكن اعتبار بعثة إيواكارا العقل الاستراتيجي الذي نظم الوفود التعليمية التي كانت تتابع دراستها في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا، ومنحها الغاية والمعنى من عملية التحديث. كما منح البعثات التعليمية اللاحقة عمق الانتماء إلى يابان متحفزة للتغيير ومحاولة اللحاق بالقوى الغربية. ولا شك في أن هذا العقل المنظّم والموجّه والمستثمر للبعثات اليابانية الموجودة في دول أوروبا والولايات المتحدة، مثّل أحد عناصر القوة التي تفسر نجاح اليابان في مهمتها التحديثية بسرعة قياسية.

---

(196) المصدر نفسه، ص 46.

مثّل إيواكارا وأوكوبو، منذ عام 1858، بامتداداتهما القبلية، عنصرين فاعلين في إحياء النظام الإمبراطوري. والمؤكد أن هدفهما، بمعية الأقطاب المتحالفة، «لم يقتصر على إرجاع السلطة إلى الإمبراطور، بل امتد إلى تعديل المؤسسات السياسية والاجتماعية في اليابان، باستلهام النماذج الغربية»(197).

من جانب آخر، مثّلت البعثة اليابانية برجًا حقيقيًا للمراقبة ولمراكمة المعلومات الكفيلة بضبط إيقاع التوازن بين وضع ياباني داخلي في طور التشكل على مقاييس سياسية وإدارية جديدة، ووضع خارجي يتسم بتنافس إمبريالي بدأ يهدد منطقة الشرق الأقصى والجهات القريبة من أرض النيبون. وضمن هذا السياق، أحس اليابانيون بحرج الفترة التاريخية، وتنبهوا لخطورة العلاقات الدولية المرسومة، فكانوا أمام مخرجين متناقضين، يتمثّلان في الانكفاء على الذات والاستسلام للضغط الغربي، مع ما يعنيه ذلك من عدم القدرة على ضبط مفردات الواقع الاجتماعي والسياسي الداخلي وتكرار أنموذج الصين في تعاملها مع إنكلترا خلال حرب الأفيون، أو ممارسة خطة الهجوم، والتمهيد لذلك بمعرفة العدو، واستنتاج آليات القوة التي يرتكز عليها نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي والثقافي، ومحاولة الاستفادة منها لبناء عناصر القوة الداخلية، مع تأجيل النظر في الاتفاقات غير المتكافئة التي عقدها نظام الباكوفو مع القوى الغربية بدءًا من عام 1853.

ضمّت البعثة عشرات من المتعلمين الذين استمر تكوينهم بعد نهاية مهمة البعثة، ومن بينهم خمس متعلمات صغيرات، ذهبن إلى الولايات المتحدة، «ومن أبرزهن أوميكو تسودا التي أسست في عام 1900 المدرسة المشهورة 'إعدادية تسودا'»(198). وكانت حين ذهابها تبلغ من العمر سبع سنوات، وعادت إلى اليابان وهي في الثامنة عشرة(199).

---

(197) Pierre Renouvin, *La Question d'Extrême-Orient: 1840-1940* (Paris: Hachette, 1946), p. 62.

(198) Kumiko Fujimura-Fanselow and Atsuko Kameda, eds., *Japanese Women: New Feminist Perspectives on the Past, Present, and Future* (New York: Feminist Press at the City University of New York, 1995), p. 98.

(199) Karen Kelsky, *Women on the Verge: Japanese Women, Western Dreams*, Asia-Pacific (Durham, NC: Duke University Press, 2001), p. 39.

«لم تكن فكرة إرسال الفتيات اليابانيات للتعلم في الخارج مستساغة قبل عام 1868»[200]. ومن هذه الزاوية، لم تتضمن لائحة المتعلمين الموفدين إلى الخارج، في عهد الباكوفو، أسماء نساء. ويرتبط ذلك بالوضع العام للمرأة في مجتمع ياباني يمنح الرجل، أبًا وزوجًا وابنًا، سلطة ذكورية، تطبعها قيم الطاعة والولاء الأسري. ويعبّر هوشينو إي، الرئيس الثاني لمؤسسة كوليدج تسودا، عن نظرة المجتمع لتعليم المرأة قائلًا: «من الأفضل ألا تتعلم المرأة، فدورها الأساس يكمن في الطاعة المثلى، كما يكمن سبيلُ السلّم الاجتماعي في ثلاثة أشكال من الطاعة، طاعة الأب قبل الزواج، وطاعة الزوج بعده، وطاعة الابن بعد الترمل»[201]. ويتساءل هوشينو، معقّبًا: «ما جدوى تطوير فكر المرأة وتلقينها أسس حقوقها، في الوقت الذي يقودها الرجل في مختلف خطواتها؟»[202]، وهو موقف، على الرغم من سلبياته، متقدم مقارنة بالحالة المغربية؛ فلم يكن يُتصور مطلقًا إيفاد فتيات مغربيات للدراسة في الخارج المسيحي، أو في الحد الأدنى إلى بلدان العالم الإسلامي، في الفترة الزمنية نفسها.

من جانب آخر، تختلف وضعية المرأة اليابانية عن وضعية المرأة في أميركا وأوروبا الغربية، وفي هذا الإطار تسجل تسودا بخصوص انطباعاتها في شأن مكانة النساء في الولايات المتحدة قائلة: «إذا لم ترضَ المرأة الأميركية عن وضعها - المتميز- فإنها تكون ناكرة لنعمة الرب عليها»[203].

لم تكن «فكرة إرسال الفتيات للدراسة في الخارج مستساغة قبل عهد الميجي، وبعد عودة تسودا في إثر فترة دراستها المطولة بالولايات المتحدة، أسست ما سمّي لاحقًا جامعة تسودا النسائية، وهي مؤسسة ساهمت، إلى جانب مؤسسة كيو التي شيّد قواعدها يوكيتشي، وجامعة دوشيشا التي أسسها نييجيما، بدور أساس في دعم التعليم العالي الخاص في تاريخ اليابان الحديث»[204].

(200) Wakabayashi, ed., p. 61.

(201) Kelsky, p. 40.

(202) المصدر نفسه، ص 40.

(203) المصدر نفسه، ص 40.

(204) Wakabayashi, ed., p. 61.

كما بقي في الولايات المتحدة كانيكو كينتارو الذي التقى في ما بعد بالرئيس الأميركي تيودور روزفلت، الأمر الذي ساعده في مهمته كوسيط عند نهاية الحرب الروسية - اليابانية وفي توقيع معاهدة بورتسموث، في حين بقي نكائي تشومين في فرنسا، حيث درس النظام القضائي والفلسفة، خصوصًا فلسفة جان جاك روسو، وتحول بعد عودته إلى صحافي وكاتب سياسي مرموق، كما «افتتح مؤسسة للدراسات الفرنسية في طوكيو، وترجم كتاب **العقد الاجتماعي** لروسو، وأضحى منظّرًا سياسيًّا بارزًا للديمقراطية»[205].

صدر أمر إرسال البعثة عن الإمبراطور الميجي الذي «عجّل بالأمر بهدف الإسراع في عملية التحديث»[206]. ويبدو أن العملية لم تنطلق من فراغ، بل مثّلت استمرارًا للبعثات التي جرت في أواخر عهد الإيدو، فاستفادت بذلك من العمق التاريخي الذي وفّره حكام التوكوجاوا، من خلال البعثات الست التي شهدها هذا العهد.

يمكن تقديم بعض المعلومات الأولية عن نماذج من لائحة من المتعلمين التي رافقت بعثة إيواكارا إلى الولايات المتحدة وأوروبا، مع الإشارة إلى أننا سنتوسع في تعريف بعض النماذج في مواضع لاحقة:

ساساكي تاكايوكي (1830 - 1910): كان تاكايوكي ينتمي إلى طبقة الساموراي من مقاطعة كوتشي. وقد أيد إرجاع السلطة السياسية إلى الإمبراطور، كما شارك في حرب البوشين إلى جانب القوات الإمبراطورية. تقلد مناصب مهمة في الإدارة اليابانية الجديدة، والتحق في عام 1871 ببعثة إيواكارا. وقف ضد تمرد مقاطعة ساتسوما بقيادة صايغو تاكاموري. وفي عام 1881 أصبح وزيرًا للصناعة. حاز ثقة الإمبراطور، وكانت له علاقات متينة بالبلاط الإمبراطوري، واشتغل مستشارًا لديه، كما كُلّف بمهمة تعليم الأمير هارو.

---

(205) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 18.

(206) Carl K. Eicher, *The Evolution of Agricultural Education and Training: Global Insights of Relevance for Africa*, Staff Paper; no. 06-26 (East Lansing, Mich.: Dept. of Agricultural Economics, Michigan State University, 2006), p. 10.

هيغاشيكوزي ميتشيتومي[207] (1833-1912): صُنّف ميتشيتومي من النبلاء الراديكاليين. وُلِد في كيوتو وكان أحد النبلاء السبعة الذين أُبعدوا من كيوتو والتحقوا بشونشو في أثناء حوادث 18 آب/ أغسطس 1863. عاد إلى كيوتو بعد بداية عهد الإحياء، وتقلد وظائف بارزة في وزارة الخارجية. عُيّن حاكمًا عامًا لمقاطعة كاناغاوا ثم أصبح مديرًا عامًا لمكتب الاستعمار في هوكايدو. شارك في عام 1871 في بعثة إيواكارا. وفي عام 1882 أصبح نائبًا لرئيس مجلس الشيوخ، وفي عام 1888 عمل مستشارًا خاصًا، وعُيّن في عام 1890 نائبًا لرئيس مجلس الحكماء.

يامادا أكييوشي (1842-1892): ولد أكييوشي لعائلة ساموراي من مقاطعة هاجي. التحق بحركة «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة»، وكان له دور رئيس في حرب البوشين. أصبح في عام 1869 ضابطًا في وزارة البحرية العسكرية. شارك في وفد بعثة إيواكارا، وبعد رجوعه تقلد الكثير من المناصب، منها وزير الصناعة ووزير العدل في أثناء وزارة إيتو هيروبومي الأولى، وفي وزارة كورودا، ووزارة ياماغاتا الأولى ووزارة ماتسوكاتا الأولى.

عمل بلا كلل على تطوير المدونات القانونية، وشارك في وضع الأسس القانونية لكثير من المنابر التعليمية الجامعية.

تاناكا فوجيمارو[208] (1845-1909): اختير فوجيمارو ليرافق بعثة إيواكارا إلى الولايات المتحدة وأوروبا. درس عددًا من النظم التعليمية الغربية، ووضع في شأنها تقريرًا شمل جردًا واقعيًا للمؤسسات المدرسية في الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وهولندا وسويسرا والدانمارك وروسيا.

عاد إلى اليابان في آذار/ مارس 1873، وعُيّن نائبًا لوزير التربية في عام

---

(207) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/175.html>.

(208) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, c: Tanaka Fujimaro and David Murray, and <http://sepia.lb.nagasaki-u.ac.jp/bauduins/jp/24.php?mode=1&page=11>.

1874. رجع إلى الولايات المتحدة وأقام بها بين عامي 1874 و1877، للبحث في النظام المدرسي. وعند عودته إلى اليابان، انتقد النظام التعليمي المحلي، وساهمت ملاحظاته في مراجعة المنظومة التربوية في عام 1879. التحق في عام 1880 بوزارة العدل. تقلّد الكثير من المناصب الحكومية في عهد الميجي.

فوكوتشي جينشيرو[209] (1841-1906): درس جينشيرو، الذي مارس أبوه الطب، اللغة الهولندية في صغره، وذهب في الثامنة عشرة إلى إيدو لتعلم اللغة الإنكليزية. عمل مترجمًا في حكومة التوكوجاوا، وكان في عام 1864 أستاذًا في «معهد دراسة كتب البرابرة»، حيث أتقن الحديث باللغتين الهولندية والإنكليزية. كان عنصرًا أساسًا في بعثة الباكوفو إلى الولايات المتحدة عام 1867. تعامل بإيجابية مع حكومة الميجي، ورافق بعثة إيواكارا. عمل بعد عودته في ميدان الصحافة.

ماتسوكاتا نومورا ياسوشي[210] (1842-1909): ولد ياسوشي في ياماغوشي لعائلة ساموراي من مقاطعة هاجي. تلقّى تعليمه في مدرسة خاصة (شوكا سونجوكو)، والتحق بحركة «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة». بعد دراسته في الولايات المتحدة، أُسندت إليه مناصب دبلوماسية وحكومية، منها منصب وزير الداخلية في حكومة إيتو الثانية، ومنصب وزير الاتصال في الولاية الثانية لحكومة ماتسوكاتا.

كانيكو كينتارو[211] (1853-1942): درس كينتارو القانون في جامعة هارفارد. تقلد مناصب حكومية متعددة، من أبرزها منصب وزير الفلاحة والتجارة في ولاية إيتو الثانية، ومنصب وزير العدل.

(209) William De Lange, *A History of Japanese Journalism: The Kisha Club as the Last Obstacle to a Mature Japanese Press* (Kent, England: Japan Library, 1998), p. 27.

بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/319.html?c=0>, and <http://www.bookrags.com/research/fukuchi-genichiro-ema-02/>.

(210) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/162.html?c=0>.

(211) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/57.html>.

نكائي تشومين[212] (1847-1901): من أبناء الساموراي من مقاطعة توزا. اهتم بالدراسات الصينية والغربية في نهاية عهد الإيدو. استثمرت بعثة إيواكارا تجربته فقررت إيفاده إلى فرنسا لمتابعة دراسته هناك بين عامي 1871 و1874. تولى مهمات صحافية عدة، وأصبح من أبرز زعماء حركة الحرية وحقوق الشعب. أسس معهدًا للدراسات الفرنسية. وفي عام 1880، اعتُرف به متخصصًا بالفكر الفرنسي، وعُرف بأنه رائد ليبرالي. دخل في مواجهة فكرية مع الحكومة المحلية داعيًا إلى احترام حقوق الإنسان وإنهاء احتكار تحالف ساتسوما وشوتشو السلطة. ترجم كتاب **العقد الاجتماعي** لروسو وبعض الكتابات الفرنسية الأخرى[213].

جو نييجيما[214] (1843-1890): تربوي ياباني، ولد في كاندا في طوكيو في عائلة ساموراي. انتسب في عام 1860 إلى مؤسسة معهد الملاحة الحربية الذي أنشأه نظام الشوغون. سافر سرًّا في عام 1864 إلى الولايات المتحدة بسبب سريان قانون منع السفر إلى الخارج الذي طبّقه نظام التوكوجاوا في زمن العزلة الطوعية. درس العلوم والعلوم الدينية. عمل مترجمًا في بعثة إيواكارا، وكُلّف بدراسة النظم التعليمية الغربية. عاد إلى اليابان في عام 1874، وأسس مدرسة للفتيات في عام 1877. كان من الداعين إلى تعليم ليبرالي على قواعد مسيحية[215].

سوتيماتسو أوياما[216] (1860-1919): كانت أوياما إحدى خمس بنات أُرسلن ضمن بعثة إيواكارا. عادت بعد دراستها في الولايات المتحدة إلى اليابان في عام 1882. تزوجت وزير الدفاع إيواو أوياما عام 1883. عملت في عدد من التنظيمات النسائية، منها الرابطة الوطنية للمرأة، وشاركت في جمعية طبية تطوعية.

---

(212) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/302.html>.

(213) Hunter, p. 138.

(214) «Niijima, Jo,» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/157.html>.

(215) Hunter, p. 146, and Judith Snodgrass, *Presenting Japanese Buddhism to the West: Orientalism, Occidentalism, and the Columbian Exposition* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2003), p. 123.

(216) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/246.html>.

سينساي ناغايو[217] (1838-1902): ولد ناغايو في ناغازاكي، ودرس فيها الطب الألماني. ذهب في عام 1871 إلى طوكيو، ومن هناك رافق بعثة إيواكارا واستقر في أوروبا حيث تخصص بدراسة الطب الغربي. عند عودته إلى اليابان في عام 1873، عُيّن أول رئيس لمكتب الشؤون الطبية لدى وزارة التربية والتعليم، ووضع الأسس الأولى لإدارة الصحة العمومية. تقلد عددًا كبيرًا من المناصب السامية، منها عضوية مجلس الشيوخ وعضوية مجلس الحكماء.

توسوكي هيراتا[218] (1849-1925): شارك هيراتا في بعثة إيواكارا عام 1871، ومكث في ألمانيا لمتابعة الدراسة في جامعة هايدلبيرغ. عاد إلى اليابان في عام 1876، وتقلد كثيرًا من المناصب الحكومية، أبرزها: وزير التجارة في حكومة كاتسورا الأولى، ووزير الداخلية في حكومة كاتسورا الثانية.

جيتيتسو أوهيغاشي[219] (1842-1905): وُلِد أوهيغاشي لأسرة من الساموراي من مقاطعة هيكون. شارك في بعثة إيواكارا، واشتغل بعد عودته في وزارة العدل، ثم استقال منها في عام 1874. التحق في عام 1877 بقوات صايغو تاكاموري، فكان مصيره السجن. كان بين عامي 1890 و1902 عضوًا في مجلس النواب سبع مرات متتالية. أصبح في عام 1898 وزيرًا للعدل في وزارة أوكوما الأولى.

أوميكو تسودا[220] (1864-1929): اعتُبرت تسودا أول امرأة يابانية تُرسَل إلى الخارج، حيث تلقت تعليمها الابتدائي والإعدادي في الولايات المتحدة. ولما عادت إلى اليابان في عام 1882 مارست وظيفة التدريس. رجعت إلى الولايات المتحدة في عام 1889 لدراسة العلوم البيولوجية. وركزت اهتمامها بعد رجوعها إلى اليابان ثانيةً في عام 1892 على مسألة تعليم النساء، وأسست الجامعة الإنكليزية للنساء.

---

(217) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/306.html؟c=0>.

(218) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/178.html؟c=0>.

(219) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/35.html؟c=0>.

(220) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/292.html>.

أشار مؤرخ البعثة كينتاكي كومي في شأن المجيء إلى إنكلترا: «بدأت جولتنا بمجرد وصول القطار، الذي كان يقلّنا، وبترتيب متاعنا في داخل الفندق. تنقّلنا طوال اليوم من مكان إلى آخر لمشاهدة الآلات الجرافة والقاطرات المزمجرة. وكنا نتأمل الرائحة القوية للحديد المذاب، والدخان المحيط بنا، والمحمّل بالسخام والأوساخ. وحين عدنا إلى مقر إقامتنا ليلًا بالكاد غيّرنا ملابسنا، قبل تناول وجبة العشاء»[221].

اقترن إرسال هذه البعثة بمجموعة من الحوادث المهمة في تاريخ اليابان؛ ففي عام 1871 «أنشأت اليابان وزارة التعليم التي تبنّت، في العام التالي مباشرة، خطة طموحة لنظام تعليمي على درجة كبيرة من المركزية والاتساق، على نمط الأنموذج التعليمي الفرنسي الذي يصل بالطالب إلى مستوى عالمي من التعليم والثقافة»[222].

في العام نفسه أصبح التعليم الابتدائي إجباريًّا، وجرى وضع نماذج غربية في مقررات التعليم العالي[223]. كما اهتمت اليابان بتنويع معارف أبنائها، بتعدد المناطق التي زارتها بعثة إيواكارا، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وروسيا والدانمارك وإيطاليا والنمسا وسويسرا، ويدل ذلك على اهتمام مُنظّري الإصلاح، في يابان الميجي، بمطلب التقنية وتنويع مصادرها، بعيدًا عن أي توظيف سياسي، أو في سياق استغلال التناقضات السياسية بين دول الغرب الرأسمالي.

كما تميز هذا العام بإصدار قرار في 29 آب/ أغسطس 1871، قضى بإلغاء السينوريات والفروق الطبقية[224]، وبتحرير العبيد. وإلى جانب ذلك أُرسي مبدأ «حرية التنقل وحرية العقيدة، ثم بقية الحريات الفردية، مثل حرية الرأي والتعبير

---

(221) Wakabayashi, ed., p. 62.

(222) أدوين رايشاور، اليابانيون، ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ 136 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 240.

(223) Le Japon, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

(224) Renouvin, p. 80.

والتجمع»[225]. وكانت اليابان شهدت قبل هذا الإجراء في عام 1869 حدثًا متميزًا في نمط التحولات العالمية؛ فقد قرر «سادة مقاطعات ساتسوما وشوتشو وتوزا وهيزن وضعَ أراضيهم وساكنتهم في تصرف الإمبراطور، وتبعهم في ذلك سادة المقاطعات الأخرى. وقبلت حكومة الميجي هذا العرض وعيّنت السادة القدامى حكامًا على مقاطعاتهم»[226]، وهو ما منح اليابان نوعًا من التماسك المجتمعي، والانخراط الطوعي في بناء التنمية الوطنية.

يبدو أن انسجامًا واضحًا طرأ بين الهندسة السياسية والمجتمعية الداخلية من جهة، والانفتاح على التحديث الغربي من جهة أخرى؛ فقد سارع قادة الميجي إلى إطاحة بقايا نظام الباكوفو نهائيًا، وذلك بالقضاء تمامًا على قاعدته المجتمعية، بحل طبقة الساموراي، وإلغاء النظام الفيودالي. وفي المقابل، أُقرّ مبدأ المساواة المجتمعية، واعتُبر التعليم والكفاءة شرطين أساسين للارتقاء المجتمعي.

تساءل بيير رينوفين عن سر نجاح هذه النخبة في تجربتها السياسية. والملاحظ أن صاحب مسألة الشرق الأقصى ظل يحمل فقرات كثيرة من كتابه بعد مقارنة تجربة التحديث الياباني خلال عهد الميجي، بنمط التحولات السياسية التي أحدثتها الثورة الفرنسية عام 1789. وقد رأى أن فئة التجار الكبار، التي تضم أمثال ميتسوي وأونو وشيمادو، قدّمت ما يلزم من مال في المواجهة العسكرية ضد الشوغون؛ فقد «كانت لهم مصلحة في تدمير نظام يعرقل التطور الاقتصادي للبلد»[227]. ولعل ذلك ما لجأت إليه البرجوازية الفرنسية عام 1789، عندما اعتبرت النظام القائم آنئذٍ كابحًا لتطلعاتها ومشروعاتها الاقتصادية على المستويين الداخلي والخارجي.

تتشابه الصور والأشكال في العمليات الكبرى للبناء التاريخي. لكن،

(225) علي المحجوبي، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان (تونس: دار سراس، 1999)، ص 176.

(226) René Grousset et Emile-G. Léonard, dirs., *Histoire universelle*, 3 Vols. (Paris: Gallimard, 1956-1958), Vol. 3: *De la Réforme à nos jours*, p. 1551.

(227) Renouvin, p. 63.

هل يعني ذلك التطابقَ في المضامين والمعاني والغايات؟ ألم تحمل التجربة اليابانية خصوصيات الذهنية الشرقية الكونفوشيوسية، والتوفيق بين الجماعية والفردانية في بناء المجتمع الداخلي؟ لكن ما هي الحدود التي يمكننا من خلالها التقاط التميز الياباني؟ أليست التجربة التنموية اليابانية نتاج تحولات أفضت في النهاية إلى النتائج نفسها التي انتهت إليها الإمبريالية الغربية؟ ألا يمكن القول إن التجربة اليابانية تفتقد أحد أهم شروط الفعل التاريخي، وهو مبدأ العالمية والقدرة على تعميم الأنموذج الثقافي بالمستويات الدنيا والمتواضعة؟ ما هي الجاذبية المعرفية التي تتيحها الثقافة اليابانية؟ ألا يمكن القول إن الرأسمالية اليابانية هضاب متموجة من الصور والأشياء المادية وولع بميكانيكا الروبوت أكثر مما هي محراب تغيب فيه الأبعاد الفلسفية الكونية والنزعات الإنسية المؤسِّسة لعالمية الفكرة بمستوياتها الدنيا والنسبية؟

اهتمت حكومة الميجي ببناء الداخل واستثمار جميع الإمكانات الداخلية والخارجية المساعدة في تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي.

في عام 1870، «قررت الحكومة اليابانية بناء خطوط السكك الحديد الأولى بين طوكيو ويوكوهاما وكوبي وأوساكا، واقترضت من إنكلترا الأموال اللازمة لذلك»[228]. وكان الهدف من ذلك «تحقيق الوحدة الاقتصادية وضمان الحماية الوطنية»[229]. وتدل هذه الإجراءات على ورش عمل كبرى دشنها عهد الميجي، الأمر الذي منح عمقًا وأساسًا لتجربة التحديث الياباني التي كانت بعثة إيواكارا من أبرز آلياته.

كانت البعثة متميزة من حيث الأوضاع التي انبثقت منها والأهداف التي رسمتها؛ فقد «تقصت بعثة إيواكارا عن كل شيء في الغرب، بما في ذلك السياسة والاقتصاد والشؤون العسكرية والصناعية والاجتماع والثقافة والفكر. وقد أعدت البعثة تقريرًا مكوّنًا من مئة مجلد في خمسة فصول»[230]، تولى

(228) المصدر نفسه، ص 92.
(229) المصدر نفسه، ص 92.
(230) تاناكا، ص 24.

تحريرها مؤرخ الرحلة كيتاكي كومي. واحتوت هذه الفصول على مشاهدات مفصّلة عن «المدارس والمجالس النيابية والمصانع والجيوش والسجون، بل وحتى بيوت البغاء»[231].

«خصص التقرير 20 فصلًا لكلٍّ من الولايات المتحدة وإنكلترا، و10 فصول لألمانيا، و9 فصول لفرنسا، و5 فصول لروسيا، و3 فصول للنمسا، و12 فصلًا للبلدان الأخرى مجتمعة»[232]. واعتمد مؤرخ البعثة في تدوين معلوماته على المشاهدات العيانية لأفراد البعثة، والاستعانة في إتمام التقارير على مشاهدات بعض المتعلمين الذين راكموا التجربة في أثناء إقامتهم في بريطانيا مثلًا، ومنهم هاتاكياما بوشيناري، أحد الطلبة الذين أوفدتهم ساتسوما إلى بريطانيا والولايات المتحدة في عام 1865 وكُلّف بمهمة الترجمة، وهو يرافق كيدو تاكايوشي[233]. وقد تأخرت ترجمة التقرير الذي أنجزه مؤرخ الرحلة إلى اللغة الإنكليزية إلى عام 2002 [234].

---

(231) المصدر نفسه، ص 24.

(232) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 18.

(233) Andrew Cobbing, «Life in Victorian London through the Eyes of Kume Kunitake, Chronicler of the Iwakura Mission,» in: «The Iwakura Mission in Britain, 1872,» p. 6.

(234) صدر التقرير بعنوان:

The Iwakura Embassy, 1871-1873: A True Account of the Ambassador Extraordinary and Plenipotentiary's Journey of Observation through the United States of America and Europe Compiled by Kume Kunitake; Editors in Chief Graham Healey and Chūshichi Tsuzuki (London: Routledge Curzon, 2002).

وتضمّن خمسة مجلدات على امتداد 2040 صفحة:

- المجلد الأول، الولايات المتحدة الأميركية، وترجمه إلى الإنكليزية مارتين كولكوت (M.Collcutt).
- المجلد الثاني، بريطانيا، وترجمه غراهام هيلي (Graham Healey).
- المجلد الثالث، أوروبا القارّية (1): فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا، وترجمه أندرو كوبينغ (A. Cobbing).
- المجلد الرابع، أوروبا القارّية (2): روسيا والدانمارك والسويد وإيطاليا والنمسا، وترجمه بيتر كورنيكي (P. Kornicki).
- المجلد الخامس، أوروبا القارّية (3): سويسرا وإسبانيا والبرتغال وفرنسا ومصر والبحر الأحمر والجزيرة العربية وسيلان ومضيق ملقة وسايغون وهونغ كونغ وشنغهاي، ترجمه غراهام هيلي ويوجين سوفياك وتشوشيتشي تسوزوكي.

اهتمت الدبلوماسية اليابانية - من خلال بعثة إيواكارا - بالدول الصغيرة والكبيرة معًا، وكانت ترغب في «اكتشاف أفضل وأحسن العناصر من بين خيارات كثيرة. لم يختر اليابان أية دولة صغيرة كانت أم كبيرة لكي تكون أنموذجه وقدوته، وإنما اختار الطريق الذي قاده إلى التوسعة الوطنية»[235]. ولا يخفى أن بعثة إيواكارا تأثرت بالغرب تأثرًا بالغًا، وأصبح أعضاؤها، بعد عودتهم إلى اليابان، زعماء ما عُرف باسم «حزب السلام» في مقابل «حزب الحرب»[236].

إذا كانت بعثة إيواكارا كبيرة العدد مقارنة ببعثات الباكوفو السابق، فإن الهدف كان التعلم من الغرب[237].

دامت الرحلة في الولايات المتحدة من 15 كانون الثاني/ يناير إلى 6 آب/ أغسطس 1872، ووصلت البعثة إلى سان فرنسيسكو في كانون الثاني/ يناير 1872 على متن سفينة أميركية[238]. ومن هناك توجهت إلى واشنطن على متن قطار. وينبغي أن يشار إلى أن أفراد البعثة قسّموا مجال عملهم، ولم يسافروا «مجموعة واحدة. فإذا كان بعضهم مهتمًا بزيارة المدارس والمصانع والسكك الحديد، فإن آخرين كانوا يفاوضون مسؤولي الإدارة الأميركية. وفي الوقت نفسه كان بعضهم يزور المستشفيات والجامعات والمتاحف ومكاتب الحكومة في واشنطن ونيويورك وبوسطن»[239].

يمكن القول إن «إيواكارا تومومي الذي قاد البعثة من ميناء يوكوهاما في كانون الأول/ ديسمبر 1871، لم يكن يعلم أنه لم يكن يجتاز المحيط الهادئ فحسب، بل حقبًا تاريخية»[240] مديدة وطويلة أيضًا.

(235) تاناكا، ص 25.

(236) رشاد، ص 97.

(237) Wakabayashi, ed., p. 62.

(238) Perkins, *Japan Goes to War*, p. 43.

(239) Wiliam G. Beasley, *The Rise of Modern Japan* (New York: St. Martin's Press, 1990), p. 40.

(240) Auslin, p. 176.

«مثّلت بعثة إيواكارا المحاولة الأولى لتمثيل الحكم الجديد في الخارج»[241] وشكلت امتدادًا طبيعيًا للبعثات اليابانية السابقة في نهاية عهد الباكوفو، وأسست على منوالها أشكال التنظيم وطرق الاستخبار والتعلم من الغرب.

مع بداية المحادثات، «اكتشف المفاوضون اليابانيون وجود فسحة أمل قليلة لإحراز الهدف المعلن للبعثة»[242]، أي مراجعة الاتفاقات السابقة التي وقّعها حكام التوكوجاوا مع الدول الغربية، الأمر الذي دفع اليابانيين إلى التفرغ للمهمة الاستخبارية ومعرفة قوة الحضارة الغربية.

يُعتبر كيدو تاكايوشي من أبرز قادة بعثة إيواكارا؛ فقد كان مطّلعًا على التعليم العسكري الغربي في إيدو، وساهم بدور بارز في حركة «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة»، وأشرف على عقد التحالف الذي جمع مقاطعتي ساتسوما وشوتشو في عام 1866 [243]، الذي نجح في إطاحة نظام الباكوفو وإرجاع السلطة إلى الإمبراطور الميجي، ويتحدث عن مشاهداته في الولايات المتحدة قائلًا: «قمنا بزيارة ثلاث مدارس ابتدائية، ضمت الكبيرة منها بين 1300 و1400 طفل. كما اقتصر التعليم في بعضها على أحد الجنسين فقط، في حين ضم بعضها الآخر ذكورًا وإناثًا»[244]. ويتابع «يجب أن تكون لنا مدارس إذا أردنا تشجيع تقدم بلدنا، كأنموذج متحضر، كما يجب علينا تحسين معارف طلبتنا، وإرساء عناصر قوة الدولة والحفاظ على استقلالنا وسيادتنا»[245].

يصف كيدو مشاهداته في الولايات المتحدة، ويسترعي اهتمامه الأنموذج التعليمي الأميركي، ويستحضر ضمنيًا علل التعليم والإدارة في اليابان، ويدعو إلى ضرورة الاعتناء بهذا القطاع، ويرى فيه حجر الزاوية في أي مقاربة تنموية

---

(241) Bishop, p. 22.

(242) Wiliam G. Beasley, *The Collected Writings of W. G. Beasley* ([Tokyo]: Routledge, 2001), p. 34.

(243) «Kido, Takayoshi,» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/65.html?c=0>.

(244) Daikichi Irokawa, *The Culture of the Meiji Period*, Translation Edited by Marius B. Jansen, Princeton Library of Asian Translations (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), p. 54.

(245) المصدر نفسه، ص 54.

داخل مجتمع النيبون. كما أورد تاكايوشي بحسّ استخباري معلومات تتعلق بحجم البنية التربوية الأميركية في عام 1872، فذكر وجود 141.700 مدرسة، و221.400 مدرس، و7.210.000 متعلم[246]. وانتقل من مهمة الوصف إلى المقارنة بالواقع التربوي الياباني، والدعوة إلى تدارك عناصر الخلل في المنظومة التعليمية ليابان الميجي، وحسم موقفه مقررًا: «من الآن فصاعدًا، ما لم نمنح قدرًا كبيرًا من الاهتمام لأطفالنا، فإن الحفاظ على النظام العام في بلدنا سيكون مستحيلًا»[247]. وهكذا يصبح التعليم مطلبًا تنمويًّا، تتأسس، بمقتضاه، قواعد الأمن الجماعي للدولة والمجتمع في يابان الميجي.

انسجامًا مع هذه الرؤية، عبّر موري أرينوري الذي تقلد منصب وزير التعليم في ما بعد في أيلول/ سبتمبر 1872، عن قيمة التعليم والانفتاح على التجارب البشرية الرائدة، مجملًا بقوله: «يجب اعتبار المعارف التي تقدمها أفضل العقول البشرية في العالم عنصرًا من عناصر القوة»[248]. وقد شكّلت هذه الإشارات مقدمة أساسية لتفعيل المشاهدات والتقارير في داخل مجتمع متحفز للتغيير، وفي إطار نظام سياسي وإداري يروم التخلي عن مستلزمات سياسة العزلة، والتحلي بالأنماط التعليمية والتقنية الوافدة.

في شباط/ فبراير 1871، «أبلغ موري الطلبة اليابانيين الذين كانوا يتابعون دراستهم في الولايات المتحدة ضرورة مدّه بمقالات قصيرة، من اختيارهم الخاص، عن الموضوعات الاجتماعية والثقافية»[249].

قدم موري أرينوي دعمًا معنويًّا لبعثة إيواكارا بتوجيهه سير المفاوضات، وتهيئة الأوضاع الملائمة للمباحثات اليابانية - الأميركية. وقد زار إنكلترا والقارّة الأوروبية وأميركا، وتعرّف «إلى الغرب تعرفًا حميمًا أكثر من أي شخصية أخرى في عصر الميجي. وكان يدعو بوضوح زائد إلى فكرة أن

---

(246) المصدر نفسه، ص 54.

(247) المصدر نفسه، ص 54.

(248) Arinori Mori, *Mori Arinori's Life and Resources in America*, Edited, Annotated, and Introduced by John E. Van Sant; Foreword by Akira Iriye, Studies of Modern Japan (Lanham, Md.: Lexington Books, 2004), p. xli.

(249) المصدر نفسه، ص xxii.

اليابان بحاجة إلى استيعاب جميع ما يمكنها من معارف الغرب. وكان ينصح للشباب الياباني الذي يدرس في الولايات المتحدة بالزواج من أميركيات لتحسين الصفات الوراثية للأمة اليابانية»[250]. وفي عام 1885 أصبح موري أول وزير للتعليم في اليابان، ورأى أن «التعليم في اليابان لا يهدف إلى تكوين أفراد يتقنون تقنيات العلوم والآداب والفنون، وإنما تصنيع أفراد ترغب فيهم الدولة»[251].

في شباط/ فبراير 1871، التقى موري كلًّا من نييجيما جو، أحد طلبة البعثة، وتاناكا فوجيمارو، ممثل مديرية التعليم لدى بعثة إيواكارا. واقترح موري على نييجيما، بسبب إتقان الأخير اللغة الإنكليزية، العمل مترجمًا لدى تاناكا في أثناء زيارته المدارس والإعداديات في شرق الولايات المتحدة[252]، إلا أن نييجيما رفض ذلك وناور من أجل الحصول على تعويض مالي في مقابل ذلك.

تمتع نييجيما بتجربة مهمة منذ نهاية عهد الإيدو؛ ففي عام 1860 التحق بمؤسسة السّفانة [صناعة السفن] الحربية. وفي عام 1864 سافر سرًّا إلى الولايات المتحدة، حيث درس العلوم والثيولوجيا. وفي عام 1866 سافر إلى بوسطن. وفي عام 1872 كُلِّف، من خلال بعثة إيواكارا، دراسة النظم التعليمية[253]. والمؤكد أن نييجيما حصل على ما أراد، ويتضح ذلك من خلال موافقته على طلب تاناكا فوجيمارو مرافقته إلى أوروبا لزيارة المدارس التعليمية[254].

اشتغل أفراد البعثة في إطار نظام المجموعات، وتُوّج عملهم بإصدار تقرير بعنوان «ريجي كوتي»، وهو عبارة عن سجل وصف النظم التربوية والتطبيقية في البلدان الغربية. وقُدّم إلى الحكومة، وقد تضمن النصوص المنظمة

(250) باتريك سميث، اليابان: رؤية جديدة، عالم المعرفة؛ 268 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 119.

(251) المصدر نفسه، ص 130.

(252) John E. Van Sant, *Pacific Pioneers: Japanese Journeys to America and Hawaii, 1850-80*, Foreword by Roger Daniels, Asian American Experience (Urbana: University of Illinois Press, 2000), p. 74.

(253) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/157.html>.

(254) Van Sant, p. 74.

للمدارس في كلٍّ من الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وهولندا والدانمارك وروسيا[255].

يُعَدّ موري أرينوري مثال المثقف الياباني الذي رأى في الأنموذج الأميركي ضالته وأمنياته، «وكان دائم الانتقاد لأسلوب المحادثات اليابانية مع الأميركيين؛ فقد اهتمت سفارة إيواكارا، في مفاوضاتها بشأن مسألة المزيد من الاحترام الدولي تجاه اليابان»[256]، وهي قضية لم يكن من السهل النجاح في تحقيقها من دون حضور مقدمات القوة المادية والمعنوية. وقد تكون حماسة موري الزائدة وتنكره لبعض مظاهر القداسة اليابانية من أسباب اغتياله قبل ساعات من حضوره الحفل الإمبراطوري بمناسبة إعلان الدستور الياباني في عام 1889.

من خلال الزيارات الميدانية لورش الصناعات المختلفة، والقطاعات المدنية والاجتماعية المتباينة، «أدرك أعضاء بعثة إيواكارا أهمية القوة العسكرية في الحفاظ على السيادة اليابانية. وتبيّنت لهم في الوقت نفسه أهمية تبوّؤ اليابان مكانة تجعل منها قوة ذات سيادة على المستوى العالمي»[257]. كما تبدو مقدمات الفكر التوسعي جليّة من خلال ما أورده إيواكارا في وثيقة أعدها بعنوان «ورقة حول العلاقات الدبلوماسية»، كتب فيها أنه « ينبغي ألّا نتحمل الإهانة. يجب أن نوسع سيادتنا»[258].

لم تكن انطباعات إيواكارا، ومن قبله كيدو وموري وغيرهما، لونًا من التنظير والتنبيه على معالم الخلل، بل قُدّر لهذه الملاحظات أن تجد طريقها إلى التطبيق بسرعة قياسية؛ ففي الأول من شباط/ فبراير 1872، «أعلنت وزارة التربية في اليابان عن إنشاء مدارس التعليم الابتدائي العمومي في

(255) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, c: Tanaka Fujimaro and David Murray.

(256) Mori, p. xxix.

(257) Alexis Dudden, *Japan's Colonization of Korea: Discourse and Power*, Studies of the Weatherhead East Asian Institute (Honolulu: University of Hawaii Press, 2005), p. 50.

(258) المصدر نفسه، ص 50.

مقاطعة طوكيو»[259]. واتسم «اليابانيون الذين سافروا إلى الخارج آنذاك بقوة الملاحظة... كانوا يحملون معهم كراسات الرسم، يرسمون فيها كل شيء يرونه تقريبًا»[260].

إذا كانت البعثة أخفقت في مراجعة الاتفاقات السابقة، فإنها أصبحت على معرفة تامة برموز قوة الغرب التقنية والعسكرية، وأدركت ضرورة امتلاك مفاتيح التكنولوجيا والقوة الغربيتين، و«أن ذلك ضروري، ومقدَّم على إجراء محادثات متكافئة مع الغرب»[261].

يستطيع اليابانيون التكيف مع الأوضاع المستجدة، والانتقال من موقع إلى آخر بيسر وذكاء. ومن هذه الزاوية لم يفوّت قادة بعثة إيواكارا الفرصة، ووضعوا لأجندتهم مجموعة من المخارج والحلول، ومنها التركيز على دراسة النظم والمؤسسات الأميركية، وشكّلوا بذلك استمرارية لبعثات الباكوفو إلى الولايات المتحدة سنتي 1860 و1867، مع فرق جوهري يتعلق بالحرية الواسعة التي تمتع بها رفاق إيواكارا في الاطّلاع على مختلف مظاهر التحديث الأميركي، في حين خضع أعضاء بعثات الباكوفو لرقابة صارمة ترجمت قرارات سياسة العزلة الطوعية.

لم تكن اليابان مفتونة بـ«حرب النظام» وتحديث الجهاز العسكري المحلي كما كان سائدًا في المغرب وقتئذٍ، بل كانت تمتلك رؤية ذات طابع شمولي، ومكّنتها بعثة إيواكارا وغيرها من فهم حقيقة القوة الغربية وإدراكها.

مكثت البعثة في الولايات المتحدة 205 أيام، وتأثر أعضاؤها بما شاهدوه من قوة المؤسسات الحكومية وحيوية المجتمع الأميركي[262]. وفي «نهاية

---

(259) Irokawa, p. 55.

(260) عيساوي، ص 190.

(261) William K. Tabb, *The Postwar Japanese System: Cultural Economy and Economic Transformation* (New York: Oxford University Press, 1995), p. 68.

(262) Hori Makiyo, «The Constitution of Japan,» in: Joseph Barton Starr, ed., *The United States Constitution: Its Birth, Growth, and Influence in Asia* (Hong Kong: Hong Kong University Press for the American Studies Association of Hong Kong, 1988), p. 217.

1872، توجه أعضاء البعثة إلى بريطانيا، ومكثوا فيها خمسة أشهر»[263]، وفيها حددت البعثة لأعضائها ثلاثة أهداف رئيسة:

- دراسة القوانين والمؤسسات السياسية، ومن ضمنها غرفتا البرلمان.

- دراسة البنية الاقتصادية والصناعية، والنقل والمواصلات، وقطاع المصارف، ونظام الضرائب.

- فحص معالم النظام التعليمي، ووسائل التكوين العسكري والبحري، وإدارة المتاحف»[264].

يتضح من خلال مسيرة البعثة تركيزها على امتلاك العلم والمعرفة، وبذل الجهد المادي والمعنوي للاستخبار والاستفسار عن مرتكزات القوة الغربية التي أهانت الشعور الياباني منذ زمن حملة بيري على الشواطئ اليابانية المقدسة.

في أثناء الإقامة ببريطانيا «جالت بعثة إيواكارا في جميع المدن الرئيسة... وزارت المدارس الابتدائية، وحديقة الحيوانات في لندن، ومتحفَي كينسيغتون وكريستال بالاس، وجامعة إيديمبورغ»[265].

في جامعة غلاسكو، سأل إيتو هيروبومي الأستاذ ماكورن رانكين قائلًا: «من فضلكم أستاذ رانكين، كيف يمكننا إقامة معمل لصناعة السلاح باليابان؟ فأجاب بأنه من الأفضل لليابان أن تؤسس مدرسة لتكوين شبان صغار كمهندسين»[266]. حملت بعثة إيواكارا هاجس السؤال، ورامت التقاط أكبر قدر من المعلومات الدقيقة عن الغرب، وتملّكها في الآن نفسه عنصر التحدي والبحث عن الوسائل التي تمكّن من كسب رهان التحديث، والوصول إلى مصاف القوى الغربية.

---

(263) Cobbing, «Life in Victorian London,» p. 5.

(264) Ohta, «The Iwakura Mission in Britain,» p. 14.

(265) المصدر نفسه، ص 15.

(266) Olive Checkland, «The Iwakura Mission: Industries and Exports,» in: «The Iwakura Mission in Britain, 1872,» p. 26.

في عام 1873 شاركت اليابان في المعرض الدولي الذي استضافته مدينة فيينا[267]. وإذا كانت بعثة عام 1867، في نهاية عهد الباكوفو، شاركت في المعرض الدولي في باريس، فقد خُصص لليابان جناح خاص لمنتوجاتها الخزفية والصناعية في المعرض المذكور، وهو ما يشير إلى ازدياد اهتمام الدول الغربية بالظاهرة اليابانية، كأنموذج جديد في آسيا، اختار مسيرة تنموية مختلفة تمامًا عن الصين التي ظلت تئن تحت ضربات بريطانيا وفرنسا الاقتصادية الموجعة.

«أثناء التفاوض...، حصل اليابانيون على معلومات كافية عن عدوهم، وعن الأنموذج الذي يمكن اتّباعه، بشكل أقنعهم بضرورة الإصلاح الجذري والشامل على النمط الغربي في مجالات العلم والمعرفة بالسياسة الدولية، قبل الدخول في مفاوضات متكافئة مع الغرب»[268].

وفي عام 1871، اقترح «إيتو هيروبومي على فوكوتشي جينشيرو الانضمام إلى بعثة إيواكارا لدراسة النظام المصرفي»[269]، وكان إيتو أحد أبرز المتعلمين الموفدين إلى أوروبا في البعثة التي أرسلها الباكوفو في عام 1862، وهي ملاحظة تستدعي التوقف والتأمل؛ ذلك أنه سبق لأبرز قادة بعثة إيواكارا أن كانوا أعضاء في البعثات التي أشرف عليها الباكوفو منذ عام 1860، والوفود التعليمية التي نظمتها المقاطعات الفيودالية المعارضة للحكم المركزي، مثل ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا. ويمكن ذكر الكثير من الأسماء المخضرمة التي عايشت المرحلتين، منهم نكائي تشومين وكانيكو كينتارو، إضافة إلى قادة البعثة، وفي مقدمتهم إيتو هيروبومي وكيدو تاكايوشي، وهو ما منح أفرادها مزيدًا من النضج والفاعلية في مقاربة اختلالات الداخل وفي الانفتاح الإيجابي على دوائر الغرب التحديثية.

---

(267) <http://www.ndl.go.jp/site_nippon/e/default.html>.

(268) Tabb, p. 68.

(269) James L. Huffman, *Creating a Public: People and Press in Meiji Japan* (Honolulu, Hawaii: University of Hawai'i Press, 1997), p. 52.

يمكن تسجيل ملاحظات اتصفت بها البعثة، وهي قدرة قادتها على استثمار الكفاءات وتوجيهها إلى الأهداف الاستراتيجية لليابان، وهو ما لاحظناه من خلال تكليف بعض المتعلمين بدراسة النظم القانونية والتعليمية في بعض الدول الأوروبية، أو الاضطلاع بمهمات الترجمة وتقديم الاستشارة إلى المفوضين اليابانيين. وفي هذا الجانب، نرى أن قائد البعثة إيواكارا كلّف جينشيرو فوكوتشي زيارة اسطنبول «لدراسة حيثيات الاتفاقات الاستسلامية التي تشبه مأزق اليابان في مقابل الاتفاقات غير المتكافئة»[270]. وبالفعل، نشأ اتصال دبلوماسي بين اليابان والدولة العليّة وبعض إيالتها، وفي مقدمها مصر. ووجّه الإمبراطور الميجي رسالة إلى السلطان عبد الحميد الثاني (1867-1912) في وقت وجود جمال الدين الأفغاني في اسطنبول، جاء فيها أن «من مصلحتنا ومصلحة شعوبنا التعارف بيننا، وإرساء علاقات أخوية والتعاون في مواجهة دول غربية،... تعتبرنا عدوين لها. فالغرب يرسل إلى بلدنا بعثاته التبشيرية، لتبديل ديانة رعايانا، مستغلًا في ذلك حرية التدين التي نتمتع بها. وأحسب أنكم لن تنهجوا السلوك نفسه، فأطلب منكم إيفاد وعاظ يوضحون مبادئ دينكم - الإسلام - كرابطة روحية بيننا»[271].

لا يمكن المرور على النصوص اليابانية من دون التساؤل عن مضامينها والإشارات الرمزية التي تحملها؛ إذ يبدو أن خطاب الميجي أثار الهاجس الأساس الذي كان يؤرق ساسة الآستانة، وهو تزايد النفوذ الغربي في الدولة وأطرافها مع ما كان يعنيه ذلك من تبشير وتهديد للكينونة الإسلامية. وقد وضع النص الدولتين - اليابان والدولة العثمانية - على قدم المساواة أمام المعاناة من سطوة النفوذ الغربي، الأمر الذي عجّل بعقد اجتماع استثنائي حضره السلطان وشيخ الإسلام ووزير التعليم، وكذا جمال الدين الأفغاني، خرج بقرار «بعث رسالة مهذبة إلى إمبراطور اليابان وإرفاقها بهدية ملائمة، وإعلامه بأن طلبه حظي بموافقة سامية. ويحتاج إلى وسائل تنفيذه بطريقة مرْضية»[272].

---

(270) Bert Edstrom, ed., *The Japanese and Europe: Images and Perceptions* (Richmond, Surrey: Japan Library, 2000), p. 102.

(271) Charles Kurzman, *Modernist Islam, 1840-1940: A Sourcebook* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002), p. 83.

(272) المصدر نفسه، ص 84.

هل كان الميجي صادقًا في الدعوة التي قدمها إلى آل عثمان، وهو الشخص الذي كان يُنظر إليه في المخيال الياباني على أنه من سلالة الآلهة، وظل المجتمع الياباني خلال فترة حكمه وفيًا لطقوسه الأسطورية؟ ألم يكن اليابانيون على علم تام، من خلال بعثة إيواكارا والتمثيليات الدبلوماسية والعلاقات التي بدأت تُنسج مع بريطانيا، بتفصيلات المسألة الشرقية، والدور الروسي القيصري في إذكاء التناقضات داخل الدولة العثمانية، وشن الحروب عليها، وانتزاع الاتفاقات المجحفة منها، وهي الدولة نفسها التي أحس اليابانيون بخطورتها الاستراتيجية عندما تزايدت أطماعها في كوريا؟

يمكن القول إن القضية لم تتعدَّ تحفيز الباب العالي على تمتين العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين بشكل يبعثر الجهد الروسي بين الشرق والغرب، وإن قضية الإسلام وإرسال الدعاة إلى اليابان كانت مجرد وسيلة آنية لتأسيس مثل هذه العلاقات.

حاول هيروشي ناكابا تتبع البدايات الأولى للعلاقات بين الدولتين، وأرجعها إلى عهد الإيدو؛ فقد حصل الباكوفو، في نظره، على معلومات عن الاقتصاد التركي والقضايا الاجتماعية والسياسية، من خلال كتابات بعض الأوروبيين الذين زاروا اليابان، ومنهم جيوفاني باتيستا سيدوتي (1668-1715) الذي سافر إلى أرض الميكادو في أواخر القرن السابع عشر للميلاد. وشكلت مادة رحلته أساس ما دوّنه هاكوسكي آراي (1657-1724)، ومما قاله: «يتميز الشعب التركي بالشجاعة وعدم الندّية، كما يتصف جيشهم بالقوة، حيث يمكنه تعبئة 200.000 جندي في اليوم الواحد. ويقال إن الدول الأوروبية تستجمع قواها استعدادًا للحرب ضد تركيا»[273].

كان قادة بعثة إيواكارا على اطّلاع بطبيعة التحديات التي بدأت تواجهها الدولة العثمانية في هذه الفترة، التي انتقل فيها اليابانيون من مجرد معرفة الآخر إلى نسج علاقات دبلوماسية به استعدادًا لمواجهة إمكانات التوسع الروسي

---

(273) Hiroshi Nagaba, «Japan and Turkey Historical Process for Diplomatic Relations,» *Perceptions*, vol. 2 (September - November 1997), p. 1.

في المناطق القريبة من اليابان، وتوظيف المسألة الشرقية ضمن أجندة السياسة الخارجية اليابانية. وكان فوكوتشي جينشيرو وموكوراي شيماجي أول من وصلا إلى تركيا[274]؛ ففي شباط/ فبراير 1873 التحق فوكوتشي ببعثة إيواكارا وكُلّف بعض المهمات، منها دراسة النظم الاقتصادية والسياسية العثمانية. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر وجّه تيراجيما إلى وزير الخارجية الياباني أوينو كاورو رسالة جاء فيها: «تشبه تركيا بلدنا في كثير من الأمور، وإذا أرسلنا مبعوثًا أو مراقبًا إلى هذا البلد فبإمكاننا جني الكثير من الفوائد... وفي ضوء ذلك، وبالنظر إلى عدم وجود علاقات تجارية بيننا، أود منك أن تبلغ سرًّا السفير التركي في لندن رغبتنا في إقامة علاقات صداقة بين بلدينا»[275].

حملت البعثة أرق السؤال وقلق مواكبة التحديث الغربي. ويشير المؤرخ كيتاكي كومي إلى ملامح المقدمات الدستورية في فكر النخبة اليابانية، قائلًا: «تحت تأثير الثورة الفرنسية، ضاعفت الدول الأوروبية من حرية شعوبها، وتبنّت الأشكال الدستورية في نظامها السياسي»[276]. وبإشارة تحمل النقد المبطن للنظام السياسي في يابان الميجي ودعوة إلى تجاوزه نحو اعتماد منطق الدستور في توزيع الاختصاصات والأدوار، قال: «على الرغم من أخذ النمسا بالنظام الملكي، فقد اختارت النظام الدستوري قبل عشرين عامًا. وتعمل روسيا، على الرغم من نظامها الأوتوقراطي منذ عشرة أعوام، على منح شعبها مزيدًا من الحريات»[277]، وهي إشارة تهدف إلى ضرورة أن يقتفي النظام الإمبراطوري في اليابان الخطوات الغربية نفسها.

إضافة إلى إيفاد البعثة إلى الخارج، بدأت المحاولات الأولى لوضع قواعد النظام الدستوري؛ فقد نبّه مياجيما سييشيرو في عام 1872 على أهمية تحرير دستور وطني، موضحًا حقوق المواطن الياباني وواجباته تجاه

(274) المصدر نفسه.
(275) Edstrom, ed., p. 103.
(276) Irokawa, p. 57.
(277) المصدر نفسه، ص 57.

الحكومة، ومقترحًا تأسيس جمعية وطنية تشريعية(278). ولا شك في أن الفكرة والاقتراح تطلّبا مساحة زمنية تسمح بالاطّلاع على التجارب الغربية للاستفادة من المدونات الدستورية البروسية والإنكليزية. وكُلِّف إيتو هيروبومي، من بعدُ، بتكوين فريق خاص لإنجاز هذه المهمة التي كانت تتويجًا لسيرورة من التحولات الداخلية والخارجية التي شهدتها اليابان خلال عهد الميجي.

من المفارقات أن بعثة إيواكارا زارت القارّة الأوروبية بعد أن شهدت هذه الأخيرة حدثًا مدوّيًا تمثل في الحرب البروسية - الفرنسية، وما أسفرت عنه من بروز قوة جديدة في قلب أوروبا، أهانت الكبرياء الفرنسية وألزمت ساسته دفع غرامة حربية ثقيلة، واقتطعت من مجاله الترابي منطقتَي الألزاس واللورين.

إذا كان المخزن الحسني أدرك مظاهر التناقض الفرنسي - البروسي، وحاول استثماره في دفع الهجمة الفرنسية الشرسة - كما سجلنا ذلك في مبحث سابق - فإن بعثة إيواكارا بدأت ترى في الأنموذج البسماركي ضالتها المنشودة، وأنموذجها التحديثي البارز لاعتبارات أوجه التشابه الكبير بين طبيعة تشكّل الدولة وحداثتها داخل كل من يابان الميجي وألمانيا في عهد بسمارك. كما حتّم الانتصار الألماني الكبير على أعضاء بعثة إيواكارا ضرورة الوقوف أمام آليات النظام العسكري البروسي، وخصوصيات الدستور البروسي، باعتبارهما مقدمتين تفسران معالم القوة الجرمانية التي احتلت مكانة متميزة في مشهد القوة الغربية، ابتداءً من سبعينيات القرن التاسع عشر.

التقى أعضاء البعثة اليابانية المستشار الألماني أوتو فون بسمارك، وكان مما قاله لهم: «يقال في الوقت الحاضر إن الدول تتفاعل مع غيرها على أساس من الصداقة والوئام والمجاملة، بيد أن ذلك لا يعدو عن كونه أمرًا سطحيًّا وتشدقًا، فوراء ذلك تكمن الممارسة الفعلية، ممثّلة في الإهانات التي يمارسها القوي على الضعيف، وازدراء الكبير للصغير.

(278) *Modern Japan in Archives*, chap. 1: Initial Steps toward a Constitutional State, (1-5): Proposal for Drafting a Constitution, on the Web: <http://www.ndl.go.jp/modern/e/cha1/description05.html#c151>.

عندما كنت طفلًا، كانت بروسيا فقيرة وضعيفة...، وأظن أن ما يسمّى القانون الدولي، لا يخدم سوى أهداف القوى الكبرى، فإذا كان ذلك يحقق مصالحها، فإنها تسعى إلى تطبيقه حرفيًا، أما إذا فقد جاذبيته بالنسبة إليها، فإنها ترمي به جانبًا، وتستعمل القوة، بغضّ النظر عن طبيعة الوسيلة المستخدمة»[279].

كان خطاب القوة الذي سجله كومي أكثر وضوحًا لدى فون مولتكه (Von Moltke)، حين قال: «يجب أن لا تركز الأولويات الحكومية على المسائل الاقتصادية بتخفيض الديون والضرائب، باعتبار حيوية هذه الدخول بالنسبة إلى المصالح الخارجية الجرمانية. وإذا كانت مبادئ القانون والعدالة والحرية ضرورية لحماية بلدنا على المستوى الداخلي، فإن القوة العسكرية هي الوسيلة الوحيدة لحمايته على الصعيد الخارجي»[280].

سمع اليابانيون لغة القوة من رجلَي دولة اعتمدا وسيلة الحديد والنار في تحقيق الوحدة الألمانية، وفي دحر القوات الفرنسية وإرغامها على دفع غرامة حربية ثقيلة. كما كانت لبسمارك آراؤه الاقتصادية التي دافع من خلالها عن الحمائية التجارية، في مقابل سياسة الانفتاح التجاري التي أخذت بها بريطانيا العظمى. لذا، لا نستغرب اقتفاء اليابان خطوات التحديث البروسي، في شقّيه العسكري والدستوري، وإرسالها مزيدًا من أفراد البعثات التعليمية إلى بلاد الجرمان، ونهجها سياسة حمائية تحاكي الأنموذج التجاري البروسي.

انسجمت آراء يوكيتشي مع منطق القوة الذي أسسته المدرسة الألمانية، وعبّر عن ذلك صراحة في مقالته: What every man should know about the rights of nations (ما ينبغي أن يعلمه كل إنسان عن حقوق الأمم)، قائلًا: «من الواضح

(279) *Japan and International Law: Past, Present and Future: International Symposium to Mark the Centennial of the Japanese Association of International Law*, Edited by Nisuke Ando on Behalf of the Japanese Association of International Law, International Law in Japanese Perspective; 5 (The Hague; Boston: Kluwer Law International, 1999), p. 354.

(280) Shin-ichi Ichikawa, «La Mission Iwakura (1871-1873) et la France. -Ce que virent en Europe les Japonais de l'époque Meiji,» *Bulletin of the Institute for Mediterranean Studies*, no. 4 (2006), p. 127, sur le Web: <http://www.waseda.jp/prj-med_inst/bulletin/bull04/04_11ich.pdf>.

أن هناك طريقتين لمسيرة الحياة الإنسانية، فإما أن تَقتل أو أن تُقتل، ولا تخرج طبيعة العلاقات الدولية في مستوياتها الدنيا عن هذا المبدأ. فمعاهدات التجارة والصداقة وحقوق الأمم تكتسي جملًا جميلة، لكنها مجرد مظاهر مهذبة وخادعة»[281]. وكان يدرك من خلال ذلك «ضرورة وجود يابان قوية للدفاع عن مصالحها»[282].

من هذه الزاوية، واجهت الدولة اليابانية الحديثة، بحسب بيرند مارتن (B. Martin)، تحديّين أساسين تطلبا من رجال الميجي حلًّا سريعًا: تمثّل التحدي الأول في كيفية المعادلة بين مختلف القوات العسكرية القديمة المنتمية إلى المقاطعات الفيودالية داخل مؤسسة عسكرية حديثة واحدة، بشكل يخدم السياسة الوطنية العامة. وتمثّل التحدي الثاني في البحث عن أيديولوجيا متماسكة تمنح اليابان هوية وطنية جديدة[283]. وفي هذا الإطار يمكن فهم الحركية الدائبة التي طبعت البعثات التعليمية اليابانية إلى الخارج، وتوقف قادتها مليًا أمام المثال البروسي الذي منحهم معالم طريق التحديث العسكري والقانوني. كما مثّلت بروسيا بفلسفتها المتقدة ملاذًا نخبويًا يابانيًا للفهم والنقد وطرح البدائل الثقافية الممكنة.

تنبغي الإشارة إلى أن يوكيتشي أشار في أثناء رحلته إلى أوروبا، في عام 1862، بعبارة متميزة للأنموذج البروسي، قائلًا: «أجد ذكرًا لقوة عظيمة ناشئة - بروسيا - مع انتشار نفوذها كشمس مشرقة»[284]، وهي صفة - شروق الشمس - نسجتها الطموحات اليابانية منذ بدء تجربة الميجي إلى نهاية الحرب العالمية الثانية باستعمال لغة الحديد والدم.

تبدو ملامح التأثر بالأنموذج البروسي من خلال ما سجله مؤرخ البعثة كيم، حين قال: «يختلف البروس عن الإنكليز والفرنسيين الذين يبحثون عن سبل

---

(281) Klaus Schlichtmann, «Japan, Germany and the Idea of the Hague Peace Conferences,» *Journal of Peace Research*, vol. 40, no. 4 (Special Issue on Peace History) (July 2003), p. 387.

(282) المصدر نفسه، ص 387.

(283) Martin, p. 19.

(284) يوكيتشي، ص 166.

تقوية بلدانهم عن طريق مزايا التجارة البحرية التي تأتي من البلدان النائية بالمواد الأولية الضرورية للصناعات التي تعيد تصديرها في اتجاهات مختلفة. في حين مدت بروسيا نفوذها داخل البلدان النائية عن طريق مشروعاتها العسكرية. وتشبه ملامح سياستها الداخلية كثيرًا الوضع في اليابان. وتبدو سبل النجاح في دراسة سياسة هذا البلد وعاداته، بدلًا مما نجده في بريطانيا وفرنسا»[285].

تأثر أفراد البعثة اليابانية بـ«الاحترام الذي يكنّه الألمان للإمبراطور وللمسألة العسكرية، كما أُعجبوا بدور الرايخستاغ الألماني الذي دعم الاختيارات العسكرية»[286].

يُفصح النص عن الضالة التي تفاعل معها العقل السياسي الياباني ووجد فيها الأنموذج والمثال اللذين يصلحان أن يكونا قدوة في مسيرة التحديث الداخلي. ويمكن تفسير ذلك بمجموعة مقدمات، من أبرزها حداثة البناء السياسي في كلتا الدولتين، والاعتزاز بالانتماء القومي «المقدس»، وقيام أساس الدولة، داخل البلدين، على النمط الإمبراطوري، مع ما يحمله ذلك من رموز أسطورية وكاريزماتية سياسية.

إذا كان أوكوبو توشيميتشي «متأثرًا بالأنموذجين الاقتصاديين لكلٍّ من بريطانيا وألمانيا، فإنه كان منجذبًا إلى بيروقراطية النظام الألماني المركزي. ورأى في ألمانيا مرآة عاكسة لطموحات اليابان»[287]. كما أن «إيتو هيروبومي وبعض أعضاء مقاطعته، منهم عسكريان هما ياماغاتا وكاتسورا، انحازوا إلى الأخذ بمفهوم التحديث البروسي»[288].

ركزت البعثات التعليمية اليابانية في ألمانيا على الأخذ من العلوم العسكرية وعلوم الطب ودراسة القوانين ومدونات الإصلاح المجتمعي[289].

---

(285) Ichikawa, p. 120.

(286) Makiyo, p. 218.

(287) Richard J. Samuels, *Machiavelli's Children: Leaders and their Legacies in Italy and Japan* (Ithaca: Cornell University Press, 2005), p. 81.

(288) Martin, p. 19.

(289) المصدر نفسه، ص 26.

وسجل مؤرخ الرحلة في إشارة لا تخلو من طرافة ورموز دالة ما يلي: «يقال في أوروبا إنه إذا أسند أداء إنجاز مهمة إلى خمسة أشخاص من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأميركا في ست ساعات، فإن الأميركي ينجزها في أربع ساعات، ويقضي الوقت المتبقي - ساعتان - في التجوال. أما الفرنسي فينهي مهمته في أربع ساعات، ويخصص الوقت المتبقي في الغناء. أما الإنكليزي فيستغرق ذلك منه خمس ساعات، وينجز عملًا آخر في الساعة المتبقية؛ لكن الألماني لا تكفيه ست ساعات، ويستأنف مهمته في المساء ويواصل العمل حتى في أوقات الفراغ»(290). ومن بين النماذج المسجلة رأى اليابانيون في المثال الألماني ما يصلح للاقتداء والتمثل. ومن هذه الزاوية، لا غرابة في أن يكون المجتمع الياباني خلية نحل من الحركة الدائبة التي لا تتوقف ولا تهدأ.

مثّلت الأخلاق البروتستانتية حاضنًا أخلاقيًا لتمجيد العمل والاقتصاد في الجهد، وفي المقابل حفّزت بعثة إيواكارا ومشاهداتها العقل الياباني على توظيف قيم الساموراي في تحقيق الإنجاز الجرماني نفسه. ومن هذه الزاوية، نقلب أوجه الأسطورة اليابانية التي أوردناها في القسم الأول من هذا الكتاب، ونثير التساؤل الآتي: ألم تكن حالة الفوضى التي أعقبت أفول آماتيراسو واحتجابها في الكهف الأسطوري بسبب الإخلال بالواجب ودعوة إلى بذل الجهد لإعادة الضوء والدفء إلى الحياة؟

وجدت الملاحظات الدقيقة التي سجلتها مذكرات البعثة طريقها إلى التنفيذ، بأساليب تدل على عمق التفكير وحكمة التنزيل على أرض الواقع الياباني. ومن هنا يمكن فهم بدء حكومة الميجي تأسيس مخارج القوة الاقتصادية والعسكرية والعلمية، قبل التفرغ لتأسيس أول دستور ياباني في عام 1889، وهو جانب لاحظنا مقدماته المختلة في المغرب، عندما تناولنا المسألة الدستورية وفقدانها الأسس المجتمعية والسياسية، الأمر الذي جعل المشروعات القانونية حلمًا طوباويًا لا يمكن تنزيل موادها وتفعيل نصوصها بفعل غياب التناغم بين القاعدة المجتمعية والسياسية من جهة، وما يمكن

(290) Li Narangoa, «Japan's Modernization: The Iwakura Mission to Scandinavia in 1873,» p. 20, on the Web: <http://www.hum.au.dk/cek/kontur/pdf/kontur_02/li_narangoa.pdf>.

تسميته بغائية القانون أو الدستور ومدى ملاءمتهما لخصوصيات المرحلة التاريخية من جهة أخرى.

يشير أحد الباحثين إلى أن التحول إلى الأخذ بالأنموذج العسكري الألماني بدأ في التزايد بعد عام 1880، في عهد كاتسورا تارو[291] (1848-1913)، وهو من النخب العسكرية والسياسية التي درست في ألمانيا وتقلدت مناصب عسكرية وسياسية مهمة في عهد الميجي[292]. ويظن ويبيش (Wippich) أن هذا التحوّل جرى على أنقاض الأنموذج الفرنسي الذي تأثر تأثرًا بالغًا بالهزيمة القاسية في عام 1871، خصوصًا بعد أن توفي في عام 1869 أومورا ماسيجيرو[293]، وهو الشخص الذي كان محسوبًا على تيار الإصلاح العسكري الذي بدأه باكوفو التوكوجاوا بمساعدة فرنسية في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر.

من المؤكد أن التجربة اليابانية تنبهت لقضية بالغة الدلالة تتعلق بالبحث عن أسباب القوة بمختلف أشكالها وفي شتى مناطق وجودها. من هنا، يمكن اعتبار البناء الدستوري تتويجًا وتنظيمًا لمخارج القوة النابعة من أرضية مجتمعية متناغمة مع مفردات الهرم السياسي ومتفاعلة مع تطور مراحل التنمية الداخلية.

إذًا، هو البحث عن عناصر القوة وتقليب وجوهها وعناصرها لالتقاط ما يلائم الذات المنقِّبة عن أسباب بقائها وتنافسيتها. ومن المؤكد أن الأوليغارشية اليابانية الحاكمة احتفظت، على الرغم من ذلك، بمسافة فاصلة في موضوع العلاقات الدبلوماسية الثنائية بين البلدين؛ فقد دخلت هذه الأخيرة مرحلة من البرود في أواخر القرن التاسع عشر بسبب الطموحات الإمبريالية الألمانية في

---

(291) Christian W. Spang and Rolf-Harald Wippich, eds., *Japanese-German Relations, 1895-1945: War, Diplomacy and Public Opinion*, Routledge Studies in the Modern History of Asia; 35 (London; New York: Routledge, 2006), p. 24.

(292) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/52.html?c=0>.

(293) Spang and Wippich, eds., p. 24.

كان عند أومورا ماسيجيرو (1824-1869) ميول قوية لتعلم الطب. أتقن اللغة الهولندية، ودرس الطب في أوزاكا وواصل دراسته في ناغازاكي بإشراف فيليب فرانز فون سيبولد (Ph. F. von Siebold)، الفيزيائي الألماني، وأول أوروبي يدرّس الطب الغربي في اليابان.

شرق آسيا، وبلغ التوتر الدبلوماسي بين البلدين ذروته عندما منعت ألمانيا، بتنسيق مع روسيا وفرنسا، اليابان من السيطرة على مواقع في المنطقة، وهو ما انعكس على أعداد الطلبة اليابانيين المتوجهين إلى بلاد الجرمان لدراسة النظم العسكرية الألمانية.

أصبح اليابانيون يتعاملون بالندّية مع قوى الغرب ورموزه التوسعية، واعتبروا أن مجال الشرق الأقصى فضاء حيوي للنزعة التوسعية اليابانية التي بدأت معالمها تتضح مع غزو كوريا والتطلع إلى إزالة النفوذ الغربي من المنطقة.

من هذا المنطلق، على الرغم من الهزيمة القاسية التي تعرضت لها الجيوش الفرنسية أمام بروسيا، لم يلغِ أفراد البعثة اليابانية من يوميات رحلتهم دراسة النظم العسكرية الفرنسية؛ فقد كانوا يبحثون عن السبب الذي يفسّر اندحار فرنسا أمام القوة الألمانية الناشئة. كما اعتبروا الحدث حالة استثنائية لا تلغي أهمية المؤسسة العسكرية الفرنسية المشهود لها بالكفاءة والفاعلية. فقد اهتمت الصحافة الفرنسية بالبعثة وأولتها عناية خاصة، ومن ذلك ما ذكرته *L'Illustration* في عددها الصادر في 29 آذار/ مارس 1873 (ص 206): «تشهد اليابان اليوم ثورة حقيقية، ثورة سلمية ذات نتائج واعدة. فقد لاحظنا، من خلال بعثة الميكادو في باريس، ذكاء أفرادها المتميز والحيوي في التعامل مع عاداتنا وحضارتنا. ويمثّل إيفاد هؤلاء السفراء... محطة في مسلسل الإصلاحات التي بُدئ بتنفيذها (في اليابان). ووصلتنا بعض المعلومات التي يمكن تلخيصها في كلمات... تنبئ أن التغيير التام للجيش الياباني طرأ بفعل بعثة عسكرية تشكلت من ضباط فرنسيين»[294].

حاولت مجموعة من الدراسات الأكاديمية الفرنسية أن تجد لفرنسا دورًا في عمليات التحول الياباني في عهد الميجي. وتفصح عن ذلك المقالة التي أوردناها عن دور البعثة العسكرية الفرنسية التي أوفدها الباكوفو في عام 1867 لتأطير جيش التوكوجاوا. وإذا كان ذلك يدل على قراءة غير سليمة

---

(294) Ichikawa, p. 119.

لميزان القوى بين الأطراف المتجاذبة، فإن الفرنسيين وجدوا أنفسهم يعارضون الانحياز الإنكليزي إلى المقاطعات المعارضة للباكوفو، خصوصًا في أثناء استقبال لندن طلبة ساتسوما وشوتشو ودعمها ممثّلي العهد الإمبراطوري الجديد.

من جهة أخرى، ورد في مجلة *La Revue des Deux mondes* آذار/ مارس- نيسان/ أبريل 1873 (ص 479)، مقالة صرح فيها وزير الشؤون الخارجية إيواكارا لممثّل فرنسا، بعد هزيمتها القاسية أمام ألمانيا، قائلًا: «نعلم حقيقة الآلام التي سبّبتها الحرب لفرنسا، لكن ذلك لا يغير موقفنا من مزايا الجيش الفرنسي الذي أظهر شجاعة متميزة في مواجهة أفواج تفوقه عددًا»[295]. ويفصح إيواكارا عن علمه ببعض تفصيلات الحرب البروسية - الفرنسية، ويقدم نوعًا من العزاء للفرنسيين، كما يسوّغ هزيمتهم باختلال ميزان القوى لمصلحة الأعداد الكبيرة من فيالق الجيش البروسي، وهو لا يشكك بذلك في القدرة التقنية للمؤسسة العسكرية الفرنسية التي دُعيت إلى تقديم الدعم للجيش الإمبراطوري؛ فقد وجهت حكومة الميجي الدعوة «القدوم بعثة عسكرية فرنسية جديدة من أجل تكوين القوات البرية اليابانية وتحديثها بين عامي 1872 و1880»[296]. وعبّر التقرير الذي وضعه مؤرخ الرحلة، كومي كينتاكي، عن المكانة المتميزة التي كانت تتبوأها فرنسا في أوروبا، قائلًا: «بموقعها داخل المركز الأكثر تقدمًا داخل القارّة (الأوروبية)، تمثّل فرنسا نقطة عبور مختلف البضائع، وقلب الإشعاع الثقافي الأوروبي»[297].

من جانب آخر، اهتمت صحف فرنسية عدة بمظاهر الإغرابية التي لازمت بعثة إيواكارا في فرنسا، ويمكن رصد معالم ذلك في المقتطفات الآتية[298]:

(295) المصدر نفسه، ص 120.

(296) المصدر نفسه، ص 119.

(297) المصدر نفسه، ص 121.

(298) Ryota Uchida, «Etude de la mission Iwakura d'après des journaux français,» pp. 70-79, sur le Web: <http://reposit.lib.kumamoto-u.ac.jp/bitstream/2298/3215/1/actes(2007)071-079.pdf>.

الجدول (5-9)

بعثة إيواكارا في بعض المقالات الصحافية الفرنسية

الجريدة والعدد	النص
إعلان وصول بعثة إيواكارا في *Le Constitutionnel* (15 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	حلّت البعثة في نزل شارع بريسبورغ، حيث كانت قبل الحرب سفارة تركيا، ووضعته الحكومة الفرنسية رهن استخدام المبعوثين اليابانيين (ص 71)
وصول بعثة إيواكارا في *le Moniteur universel* (18 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	وصلت البعثة.. البارحة الاثنين إلى كالي، وبدا أفراد البعثة وهُم في لباس أوروبي (ص 72)
La Présentation de la mission IWAKURA au ministre des affaires étrangères dans *le Constitutionnel* (24 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	كان أفراد البعثة الخمسة عشر بلباس برجوازي... ويبدو أنهم كانوا سعداء عندما وضعت الحكومة رهن استخدامهم إقامة متميزة تابعة للدولة. ويبدو أن الاهتمام تركّز على وضع أجراس كهربائية لإثارة الفضول الياباني المتحفز للمعرفة (ص 62).
Les Ambassadeurs japonais à l'Elysée dans *le Temps*, 1 (28 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	لم يبدُ الحرج على أعضاء البعثة (اليابانية)، وكانوا يرتدون لباسهم بكل راحة. إنهم - كما تقول وكالة هافاس - ذوي ذكاء عالٍ وأخلاق نبيلة، ويمثّلون الشخصيات الأكثر أهمية في بلدهم (ص 75).
Les Ambassadeurs japonais à l'Elysée dans *le Moniteur universel*, le 28 Décembre 1872 (28 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	كان الأعضاء الثمانية يرتدون لباسًا أزرق مطرزًا بالذهب، ويعتمرون قبعات تشبه القبعات التي كان أعضاء مجلس النواب - الفرنسيون - يعتمرونها خلال فترة الإمبراطورية الثانية (ص 75).
La Réception aux ambassadeurs japonais dans le Figaro, le 16 Février 1873 (16 شباط/ فبراير 1873)	يستقبل السيد تير غدًا الأحد في حفل عشاء أعضاء البعثة اليابانية. ويبدو أنهم سيرتدون ألبسة بيضاء موحّدة ومطرزة بالذهب، ويعتمرون قبعات مزينة بالريش (ص 77).
Les Habits des Japonais dans *le Constitutionnel*, le 24 Décembre 1872 (24 كانون الأول/ ديسمبر 1872)	كان أعضاء البعثة الذين يبلغ عددهم نحو خمسة عشر، يرتدون لباسًا برجوازيًا (ص 78).

نستنتج من قراءتنا نصوص المقالات الصحافية الفرنسية نجاح البعثة اليابانية في إثارة الانتباه إلى لباس أفرادها الذي اتسم بالأناقة والدقة، وأخذهم بأنموذج اللباس الأوروبي. ولا شك في أنهم أرادوا من خلال ذلك إرسال رسالة طمأنة للآخر المختلِف ثقافيًا وفكريًا، وهي الإشارة نفسها التي يمكن ملاحظتها من الصورة الفوتوغرافية التي التُقطت لطلبة شوتشو الخمسة في لندن، وهم في كامل الأناقة والتماهي مع اللباس الأوروبي.

يتقن اليابانيون إرسال الإشارات والرموز التي تحظى بالقبول، ويحتفظون في مكنوناتهم بالنيّات الدفينة. وهي لعبة القناع والحقيقة التي سبق أن أشرنا إليها، ونحن نتحدث عن خصوصيات الجماعية في تاريخ اليابان الحديث والمعاصر. كما أنها الثنائية التي كشفت في نهاية الحرب العالمية الثانية عن حقيقة القناع الياباني الذي كان يخفي وراءه طاقة عنف رهيبة واعتزازًا بنرجسية مجتمع الميكادو الأسطورية.

في فترة قريبة كانت السفارات المغربية الموفدة إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا مولعة بتسجيل عناصر الاختلاف التي عدّتها ضمن عناصر التميز. وفقدت أهم شروط الفعل الدبلوماسي أمام قوى غربية لم تكن تؤمن بالصداقة والاحترام في العلاقات الدولية.

اختلف اليابانيون في الأنموذج الدستوري الذي يمكن أن يؤطر الحياة السياسية في اليابان؛ ففي عام 1881، «قارن إيواكارا بين نصوص الدستور البريطاني ونصوص الدستور البروسي، واستنتج أن اليابان التي تغيب فيها تقاليد التعددية السياسية غير مؤهلة للأخذ بالأنموذج البريطاني»[299]. واختلف بذلك مع شيجونوبو أوكوما (1838-1922)، وهو «أحد السياسيين المناصرين للأنموذج البريطاني، واضطر إلى الاستقالة من الحكومة في تشرين الأول/ أكتوبر 1881»[300].

(299) Starr, p. 218.
(300) المصدر نفسه، ص 218.

لم تكن اليابان البلد الوحيد في آسيا الذي يأخذ بالحكم الأوتوقراطي، لكنها «قدمت أول تجربة تمثيلية في مجال الحكم داخل القارّة»[301].

من جهة أخرى، وضعت بعثة إيواكارا العقل السياسي الياباني أمام امتحان دقيق؛ ففي أثناء غياب أفرادها في الخارج، حاول صايغو تاكاموري، ومن بقي معه من أنصار النظام الإمبراطوري، غزو كوريا. وكانت حجتهم في ذلك «رفضها (كوريا) إقامة علاقات دبلوماسية وفتح قنوات للتبادل التجاري مع اليابان»[302]. وتلقى صايغو دعم كلٍّ من «إيتاغاكي تايسوك، وغوتو شوجيرو من مقاطعة توزا، وإيتو شيمبي وسوجيما تانيومي من هيزن، متفقين على ضرورة غزو كوريا وفرض علاقات دبلوماسية وتجارية معها، مثلما فعلت الدول الغربية مع اليابان»[303].

لا شك في أن الخطوة/ المغامرة كانت محفوفة بالمخاطر، في وقت كانت فيه الدبلوماسية اليابانية تبحث عن صدقيتها في الدول التي زارتها، كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وهولندا، وهي دول كانت لها مصالح اقتصادية وسياسية في الشرق الأقصى.

من عظماء عهد الميجي ثلاثة شبان أدوّا أدوارًا رئيسة في عملية البناء: تاكاموري صايغو (26 عامًا) وتوشيميتشي أوكوبو (23 سنة) و كيدو تاكايوشي (21 عامًا)[304]. ولا شك في أن أوجه الاختلاف ظلت عميقة بين الرجلين الأولين، على الرغم من انتمائهما إلى المقاطعة نفسها (ساتسوما)، ودراستهم في الفصل الدراسي نفسه؛ فقد مثّل صايغو التيار المناصر لثقافة الساموراي الأصيلة، ودافع باستماتة من أجل إرجاع السلطة إلى الإمبراطور، لكنه اختلف مع رفاقه في درجة الانفتاح على الغرب، ويمكن اعتبار عدم ضمه إلى بعثة إيواكارا دليلًا على ذلك.

---

(301) Perkins, *Japan Goes to War*, p. 55.

(302) Marius Jansen, ed., *The Emergence of Meiji Japan* (New York, NY: Cambridge University Press, 1995), p. 223.

(303) المصدر نفسه، ص 223.

(304) أتسوشي كادوواكي، «الشباب اليابانيون،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ص 69.

من سياق الحوادث، يبدو أن تاكاموري توسل بغزو كوريا بعثرة أوراق تيار الانفتاح، ووضعه أمام مأزق دبلوماسي. كما حاول إعادة تعبئة الداخل وتوجيه طاقة الرفض المنبعثة من بقايا طبقة الساموراي المنحلة، إلى جبهة خارجية لعلها تعيد بعض الوهج إلى ماضيها المتألق.

لم يستسغ أعضاء بعثة إيواكارا فكرة غزو كوريا، وهم الذين شهدوا حقيقة القوة الغربية، وعقدوا مع دولها اتفاقات ملزمة، وأنجز أعضاؤها تقارير تدفع في اتجاه تعديل المقدمات اليابانية لتلائم التحديات الخارجية المتزايدة.

تفصح الوثائق اليابانية عن التبريرات التي أجّلت الغزو، منها ما صرح به أوكوبو توشيميتشي، المعروف بـ «بسمارك اليابان»، في رسالة مطوّلة، ورد فيها: «إن الأسباب التي تجعلني أقول إن من المبكر إرسال حملة إلى كوريا، هي:

- إن أسس حكومتنا لم يجرِ بعدُ تثبيتها بالكامل.

- إن النفقات العمومية اليوم ضخمة والدخول قليلة... وبناءً عليه، إذا أعلنّا الحرب وأرسلنا بضعة عشرة آلاف جندي إلى الخارج، فإن ذلك يكلفنا ماديًّا؛

- لقد شرعت حكومتنا في تنشيط الصناعات، ونحتاج إلى أعوام عدة للحصول على النتائج المرجوة... فإذا قمنا اليوم بحرب غير ضرورية، وخصصنا مبالغ مالية ضخمة لها... فسنعرّض عمل الحكومة للخطر.

- بالنسبة إلى وضع تجارتنا الخارجية، وصل العجز إلى مليون ين سنويًّا، كما بدأت احتياطياتنا من الذهب تتراجع. وستتأثر معها وضعية ديوننا الخارجية، وهو ما يؤدي إلى تفاقم التضخم وإلى صعوبات معيشية لشعبنا، في وقت تعاني فيه صادراتنا مجموعة من العراقيل.

لذا، إذا أعلنّا الحرب من دون الأخذ في الاعتبار وضعنا الاقتصادي والعسكري، فإن جنودنا سيعيشون زمنًا صعبًا، كما سيتعرض آباؤهم لعدد من المشكلات.

- بالنظر إلى وضعنا الدبلوماسي، فإن روسيا وبريطانيا دول تعارض مصالحنا... ويكتنف العلاقات بهما بعض الغموض. وأخشى أن تتدخل روسيا، إذا لم نؤمّن استقلالنا.

- بالنظر إلى الوضع في آسيا، فإن بريطانيا قوة أساس، تنظر إلى المنطقة نظرة تنمّر، ولها ديون علينا، وإذا حدثت مشكلات بسببنا في المنطقة، وأصبحنا في حاجة، فإنها ستتدخل في شؤوننا الداخلية، مسوّغة ذلك بغزونا كوريا.

انظروا إلى الهند... ولاحظوا جيدًا المسار الذي حوّلها إلى مستعمرة إنكليزية. يجب علينا بناء صناعتنا، وتنمية صادراتنا.. ويجب اعتبار ذلك من الأعمال الأكثر إلحاحًا.

- إن الاتفاقات التي عقدتها الولايات المتحدة وأوروبا مع اليابان غير متكافئة. وهي قضية تضر باستقلالنا... ويجب علينا، في البدء معالجة هذه الاتفاقات، أما مسألة كوريا فتأتي لاحقًا»[305].

دافع توشيميتشي عن موقفه بأدوات تروم الإقناع، وبحجج تؤكد الأخذ بمبدأ الواقعية السياسية، والنظر إلى الأمور ببراغماتية واضحة. ونحن، إذ أوردنا هذه الوثيقة، نتوسل بها الكشف عن تأثير الرحلة إلى الغرب في تبنّي وجهات نظر جديدة، وممارسة لون جديد من الفعل السياسي في منطقة الشرق الأقصى؛ فنحن أمام نخبة يابانية تدرك قواعد العلاقات الدولية، وتعتبر امتلاك القوة شرطًا أساسًا للدخول في متاهاتها المتشابكة.

لم يلغ أوكوبو، ومن ورائه تكتلات الزايباتسو الناشئة، مسألة غزو كوريا، لكنه أجّلها إلى حين تمكّن اليابان من تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي والمالي.

يعود تاريخ النص إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1873، وهي فترة كانت اليابان قد دخلت خلالها عهدًا جديدًا لم يكن من السهل الرجوع عنه؛ فقد أضحى الانفتاح على الغرب والتأسيس لمخارج القوة اليابانية على مقاييسه،

(305) Lu, pp. 325-326.

سيلًا متدفقًا، عجز صايغو تاكاموري - الخصم العنيد لأوكوبو - ورفاقه عن دفعه والتنكر لحجمه وتحدياته. وحتى عندما رفض «الساموراي» الأخير الانصياع لمنطق التوازنات الداخلية، وقرر ممارسة شعيرة السيبوكو، كان يدرك استحالة كسب المعركة. لكنه أراد، بعمله هذا، التأسيس للحظة النبل والشرف، بوصفهما قيمتين أخلاقيتين، يستحيل على الساموراي الأصيل التخلي عنهما، ولو بالموت في ساحة المواجهة، بممارسة طقس الانتحار، وهو ما نفذه في أثناء المواجهة غير المتكافئة بين الطرفين.

اشتهر أوكوبو توشيميتشي بمواقفه الصلبة، وصنِّف ضمن المحافظين. وتجلى ذلك في رفضه الشديد الاقتراحات الدستورية التي طُرحت في سبعينيات القرن التاسع عشر؛ فقد «كان توشيميتشي أبعد ما يكون عن الديمقراطية، كما لم يؤمن بالحكومة التمثيلية»(306). ولا شك في أن موقفه الشديد من انتفاضة صايغو تاكاموري، كلّفته حياته، بإقدام أحد الساموراي على اغتياله في لحظة حاسمة في تاريخ اليابان السياسي، كما منح ذلك قادة الميجي الآخرين، ومنهم إيتو هيروبومي، فرصة الانطلاق نحو تقعيد أول دستور ياباني في عام 1889.

برز هيروبومي قائدًا يمتلك حسّ القيادة ويُحسن قراءة المجريات ويستثمر الفرص المتاحة. وكان في عام 1868، أي عندما ظهرت اليابان دولة حديثة، في الثامنة والعشرين، بينما كان موري أرينوري، الذي أصبح وزيرًا للتعليم في وزارة هيروبومي، في الثانية والعشرين(307). وكان هيروبومي، المولود في عام 1840، من مقاطعة شوتشو، وكان من أنصار الانفتاح على الغرب، وأيّد التتلمذ لديه وفي محرابه، ونجح في «تجاوز رقابة الباكوفو والسفر إلى إنكلترا مع أربعة من رفاقه، في بعثة نظمتها مقاطعته الفيودالية في عام 1863»(308)، وكلّفه الإمبراطور بدراسة الدساتير الأوروبية. وبعد رحلة

---

(306) Robert T. Oliver, *Leadership in Asia: Persuasive Communication in the Making of Nations, 1850-1950* (Newark: University of Delaware Press; London: Associated University Presses, 1989), p. 34.

(307) المصدر نفسه، ص 70.

(308) انظر المبحث الخاص بالبعثات اليابانية في نهاية عهد الباكوفو.

دراسية إلى الغرب، امتدت عامًا ونصف عام (1882-1883)، نجح مع مجموعة من المثقفين اليابانيين، في وضع مقدمات مشروع دستوري ياباني. وفي 11 شباط/ فبراير 1889، أعلن الإمبراطور النص الدستوري، وبهذا تكون اليابان استغرقت 20 عامًا للانتقال من النظام الملكي الإقطاعي إلى مرحلة الملكية المطلقة، ثم الملكية الدستورية، وهي نتيجة تطلّب تحقيقها قرونًا عدة في أوروبا الغربية(309).

كان هيروبومي أول رئيس لمجلس الوزراء، وقد تأثر بالأنموذج السياسي البروسي(310)، وكان من أبرز أعضاء بعثة إيواكارا. وعُيّن رئيسًا للوزراء في الأعوام 1892، 1896، 1898، 1899، 1900، و1901. وتميزت مواقفه السياسية بالوضوح وبمعارضة التوسع الياباني في كوريا، وتسببت مواقفه هذه في اغتياله في 26 كانون الأول/ ديسمبر 1909 (311).

من البلدان الأخرى التي زارتها البعثة البلدان الاسكندينافية، التي كان سكانها في ما مضى، بحسب مؤرخ الرحلة، محاربين متوحشين، وتحضروا حديثًا وتميزوا بالشجاعة والقوة. ولم يُغفل كومي الحديث عن الاختلاف بين الدول الاسكندينافية، فالدانماركيون والسويديون والنروجيون يتوزعون في ثلاثة بلدان، لكنهم ينتمون إلى العرق نفسه(312).

وبحسّ استخباري توخى الدقة في نقل المعلومة، ميّز مؤرخ الرحلة بين الدانماركيين، ووصف معيشتهم بالتواضع والبساطة والعمل الشاق والابتعاد عن الترف وحياة الرفاهية، في حين أن النرويجيين أقوياء ومتمرسون في عمليات الإبحار، بينما يتميز السويديون بالحيوية والشجاعة(313).

ما يمكن قوله في هذا المقام هو أن اليابانيين رأوا في في تاريخ شعوب

---

(309) Renouvin, p. 87.

(310) رشاد، ص 132.

(311) Matière «Ito Hirobom,» dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

(312) Narangoa, p. 20, on the Web: <http://www.hum.au.dk/cek/kontur/pdf/kontur_02/li_narangoa.pdf>.

(313) المصدر نفسه، ص 20.

البلدان الاسكندينافية الحالة القديمة لمجتمع الساموراي، وهو وضع أفضى إلى إكراه اليابان على توقيع اتفاقيات غير متوازنة مع القوى الغربية المتنافسة. ولا شك في أن وضع البلدان الثلاثة في زمن زيارات البعثة بلغت درجة من التحضر والقوة، وهو ما جعلهم يدركون أن على اليابان سلوك الدرب نفسه.

أمّا في إيطاليا، فزارت البعثة فلورنسا، حيث «لاحظ أفرادها بإعجاب النصب التذكارية، وأبدوا اهتمامًا ملحوظًا بطرائق صناعة الرخام والفسيفساء والخزف وصناعة الحرير»[314].

لا يمكننا إنكار الدور الريادي الذي ساهمت به إيطاليا في صناعة الفن، وفي بروز مجموعة من النحاتين والفنانين العالميين. ولا شك في أن البعثة رأت في الأنموذج الإيطالي ما يمكن أن يفيد في «تخليد» الذاكرة اليابانية بوضع نصب تذكارية للأشخاص الذين قدموا خدمات لمجتمع النيبون. فوجهت الحكومة اليابانية «الدعوة إلى بعض الفنانين الإيطاليين لعرض أعمالهم الفنية في اليابان والتدريس في معاهد فنية راقية فيها»[315].

شكّلت بعثة إيواكارا مقدمة نبّهت على ضرورة الاستمرار في إرسال البعثات التعليمية إلى البلدان الغربية لتعميق المعارف العلمية والتطبيقية، ودعم قدرات الإطار الياباني في تنفيذ سياسة الإصلاح العام الذي دشنته اليابان بشكل واسع ابتداء من عام 1868. ويمكن استنتاج معالم تطور عدد الطلبة الموفدين إلى الخارج من خلال الإحصاءات التي قدمتها وزارة التربية، والتي تغطي الفترة الممتدة بين عامي 1885 و1840.

وصل مجموع الطلبة الذين أوفدتهم وزارة التربية بين عامي 1875 و1940 إلى 3168 طالبًا[316].

---

(314) Beverly Allen and Mary Russo, eds., *Revisioning Italy: National Identity and Global Culture* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1997), p. 286.

(315) المصدر نفسه، ص 286.

(316) *Japan's Modern Educational System*, chap. 8: «The Administration of Scientificand Cultural Affairs», para. 4: International Exchange in the Fields of Science and Culture, (2): International Cultural Exchange in the Prewar Period, p. 1, on the Web: <http://211.120.54.153/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/index.html>.

الجدول (5-10)

أعداد الطلبة والأعوام التي أُرسلوا فيها

عام	العدد	عام	العدد	عام	العدد
1875	11	1897	26	1919	108
1876	10	1898	14	1920	128
1877	-	1899	35	1921	174
1878	-	1900	40	1922	207
1879	07	1901	41	1923	153
1880	05	1902	46	1924	137
1881	08	1903	35	1925	161
1882	05	1904	11	1926	162
1883	04	1905	17	1927	176
1884	04	1906	47	1928	157
1885	04	1907	30	1929	113
1886	04	1908	44	1930	29
1887	06	1909	41	1931	108
1888	05	1910	34	1932	88
1889	03	1911	47	1933	43
1890	06	1912	45	1934	40
1891	08	1913	40	1935	78
1892	05	1914	34	1936	82
1893	01	1915	25	1937	20
1894	07	1916	33	1938	16
1895	11	1917	45	1939	24
1896	19	1918	60	1940	21

رابعًا: نماذج من المتعلمين اليابانيين في الخارج

تؤكد الأدبيات التربوية الرسمية اليابانية أن «الهدف من إرسال هذه الوفود التعليمية هو الاستعاضة عن الأساتذة الأجانب داخل المؤسسات التربوية العليا، وصنْع قادة في القطاعات الأخرى»[317]. وشاركت الوزارات الأخرى إلى جانب وزارة التربية في إيفاد بعثاتها التعليمية، مثل وزارة الصناعة ووزارة المالية وغيرهما.

نحتاج في معالجة ما أوردناه في الجدول السابق إلى اعتماد مفهوم العيّنة التي اخترنا عناصرها من بين الطلبة الذين درسوا في أبرز البلدان المستقبِلة للبعثات التعليمية اليابانية، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا.

اهتمت دراسات غربية متخصصة متعددة، على عكس مثيلتها العربية، بموضوع البعثات التعليمية اليابانية، وأوردت بعض القضايا التكوينية الخاصة بأعضائها داخل البلدان الغربية التي توجهت إليها هذه البعثات، ومنها كتابات ميورا نوبوتاكا عن بعض النماذج التعليمية اليابانية في فرنسا، وما أورده أندرو كوبينغ وبازلي وغيرهما عن الطلبة اليابانيين في بريطانيا، وما أشار إليه بعض المؤرخين الألمان، مثل غريمر سوليم إيريك وبيرند مارتن، عن الكفاءات اليابانية المتعلمة في ألمانيا، وهي مصنفات اعتمدناها في كتابنا هذا مثل غيرها من المصادر والمراجع اليابانية والأنغلوسكسونية المهتمة بالموضوع.

تفصح مراسلات المتعلمين اليابانيين في الخارج عن حجم التعلق بتطوير مَلَكات المعرفة والعلم. ومن ذلك ما ورد في رسالة وجّهها الطالب في ألمانيا كاناي نوبورو (1865-1933)، إلى الأستاذ غوستاف شمولر (G. Schmoller)، بعد انتهاء مهمته التكوينية في جامعة برلين وتوجّهه إلى بريطانيا لاستكمال بعض التخصصات العلمية، كتب فيها: «أجدد لكم الشكر مرة أخرى على عطفكم الشخصي والتكوين الجيد الذي أشرفتم عليه في مجال العلوم الاقتصادية... أقيم الآن في لندن... وأبذل جهدي لمعرفة طبيعة المجتمع الإنكليزي وأحواله الاقتصادية. لم أبدأ دراستي الجامعية، بالمعنى الحرفي

(317) المصدر نفسه، ص 2.

للكلمة، لكنني قمت بزيارة بعض المؤسسات الراقية، منها على سبيل المثال، مؤسسة هومز (Homes) التي يشرف عليها الدكتور برناردو... لكن المؤسسات الجديدة التي أرغب في زيارتها هي 'قاعة توينبي' التي أقيمت تذكارًا لوفاة الاقتصادي الإنكليزي توينبي... وأكون لكم شاكرًا إذا تفضلتم بمدّي بنصائح مكتوبة في هذا الشأن»[318].

أصبحت ألمانيا في منتصف عهد الميجي القِبلة المفضّلة للبعثات التعليمية اليابانية[319]، ويعدّ فوجيساوا ريكيتارو من النماذج البارزة في هذا المجال؛ فقد انتسب إلى جامعة طوكيو في عام 1877 حيث تتلمذ على كيكوشي في مادة الرياضيات[320]. وسافر عملًا بنصيحة أستاذه في عام 1882 إلى لندن لدراسة الرياضيات، لكن تلك المدينة لم تشبع نهمه المعرفي، فقرر، بطلب من أساتذته، التوجه إلى ألمانيا، إلى جامعة برلين[321]. وهو يصنّف اليوم ضمن أبرز الرياضيين اليابانيين، إذ أدخل إلى اليابان معظم معالم الرياضيات الغربية، كما عُدّ رائدًا في نظام التأمين على الحياة والتنظير لأنظمة التقاعد في اليابان[322].

في عام 1910، ذكر كانيكو ميتسوهارو (1895) أحد الشعراء الفرنسيسكان، أسباب النفور الياباني من الدراسة في المؤسسات الفرنسية، وذلك في وثيقة تاريخية تنسجم مع الحقائق التاريخية التي شهدتها العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين، بدأها في مذكراته بعنوان Dors encore, Paris، قائلًا: «في شبابي كان المتعلمون في الخارج يتجهون إمّا إلى لندن، عاصمة البلد المتحالف مع اليابان (الاتفاق الياباني - البريطاني لعام

---

(318) Erik Grimmer-Solem, «German Social Science, Meiji Conservatism, and the Peculiarities of Japanese History,» *Journal of World History*, Vol. 16, no. 2, (June 2005), p. 28.

(319) Nobutaka Miura (intervenant), à «L'éducation dans la distribution des pouvoirs - recrutement des élites, modèles de performance, ascenseur social, formation tout au long de la vie» dans: Forum international presse éducation, CIEP, 19-21 Mai 2005, p. 2, on the Web: <http://www.ksm.fr/miura/ciep2005.pdf>.

(320) سبق الحديث عن كيكوشي بوصفه أحد أبرز الطلبة اليابانيين الذين أرسلهم نظام الباكوفو إلى لندن في عام 1866، وحقق بها نتائج نال بمقتضاها شهادات تقديرية عدة.

(321) Parshall and Rice, eds., p. 238.

(322) <http://www.civic.ninohe.iwate.jp/100W/english2.html>.

1902) وإمّا إلى برلين، المركز الكبير للبحث العلمي، أو إلى المدن الأميركية. وقليل منهم ذهب إلى باريس. وفي الأعوام التي تلت الحرب الروسية - اليابانية (1904-1905)، وعلى الرغم من صغر سني، كنت أتهكّم بفرنسا، حليفة روسيا المنهزمة»[323].

يمكن من خلال هذا المدخل تناول أمثلة للمتعلمين اليابانيين الذين درسوا في جامعات ومؤسسات عسكرية غربية؛ فبين عامي 1875 و 1940، بلغ مجموع الطلبة الذين أوفدتهم وزارة التربية 3168 متعلمًا، وهذا رقم لا يكشف عن المجموع العام للشباب الياباني الذين أكملوا دراساتهم العليا في جامعات غربية مختلفة.

من المؤكد أن أطرافًا أخرى، كالمقاطعات اليابانية وبعض المؤسسات المالية، أشرفت ونافست الدولة المركزية، قبيل عهد الميجي ومع بدايته، في عملية الانتقاء كما سيتضح من العيّنات المختارة. وبفعل العدد الكبير لهؤلاء المتعلمين، لزم توجيه الموضوع وتركيزه بالاعتماد على مفهوم العيّنة.

انتقينا 64 متعلمًا يابانيًا، منهم 19 من الولايات المتحدة و16 من بريطانيا و15 من فرنسا و14 من ألمانيا، مستخدمين في ذلك عيّنات غير احتمالية (No Probability Sample) اخترنا فيها العيّنة بشكل غير عشوائي، واستثنينا بعض عناصر الدراسة من الظهور بسبب الحجم الكبير لمفردات مجتمع الدراسة وقلة توافر بعض المعلومات في شأن بعض عناصرها الأخرى. وحاولنا تمثيل تخصصات علمية وثقافية مختلفة لإدراك طبيعة الانفتاح الياباني على الغرب ودرجة تمثّله وفهمه أسرار الهوة الفاصلة بين اليابان ودول التحدي الغربي.

بالنظر إلى حجم الوفود التعليمية في كلٍّ من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا، اقتصرنا على المتعلمين اليابانيين الذين توجّهوا إلى هذه البلدان بالذات، لما كانت تشهده من تحولات تقنية وسياسية واجتماعية وعسكرية وفنية. واخترنا الكفاءات التي انخرطت بعد رجوعها إلى اليابان بقوة في عملية الإصلاح الداخلي من خلال إشرافها على وزارات وإدارات استراتيجية.

(323) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 13.

آخذين هذه العيّنات، نفترض الدور المحوري الذي ساهمت به في عملية الانتقال الياباني من طور التعلم من الغرب ومدارسه وجامعاته ومعاهده إلى طور الرد على التحديات الغربية المختلفة، واللحاق بالقوى المحورية في العالم، وهي بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وروسيا، ومنافستها.

1 - نماذج من المتعلمين اليابانيين في فرنسا

شيبوزاوا إييشي[324] **(1840-1931)**: سبقت الإشارة إلى أن إييتشي حل في باريس مرافقًا للأمير أكيتاكي ومرشدًا له في أثناء حضوره المعرض الدولي في باريس عام 1867. وإذا كان الأمير الياباني اضطر إلى العودة إلى اليابان بسبب حرج الأوضاع الداخلية، فإن إييتشي مكث في باريس إلى ما بعد عهد الإحياء، حيث «درس في عام ونصف عام الجهاز الاقتصادي والصناعي والمالي الفرنسي الذي عرف تطورًا كبيرًا في عهد نابليون الثالث»[325]. ولدى عودته من أوروبا، في بداية عهد الميجي، أسس شركة مالية باسم «شوهو كايشو». كما طلبت منه حكومة الميجي الانضمام إلى وزارة المالية، حيث بذل إمكاناته في بناء القوة المؤسساتية المالية لليابان. وفي عام 1873 انسحب من الوزارة ليصبح رئيس أول بنك وطني. وكرس من خلاله حياته لوضع المشروعات وتشجيع عالم الأعمال[326]. كما ساهم في تأسيس عدد كبير من الشركات العصرية، مثل شركة أوجي للمنتوجات الورقية، وشركة طوكيو للغاز، وشركة أوساكا للنسيج[327]. ويعدّ اليوم أبا الرأسمالية اليابانية، وكبقية القادة اليابانيين، وُضعت له النصُب التذكارية اعترافًا له بالجميل الاقتصادي الذي أسداه إلى مجتمع النيبون.

سايونجي كينموتشي (1849-1940): ينتمي كينموتشي إلى أسرة يابانية

---

(324) «File: Eiichi Shibusawa 1867.jpg,» on the Web: <http://commons.wikimedia.org/wiki/Image:Eiichi_Shibusawa_1867.jpg>.

(325) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 6.

(326) Raymond Boudon et Pierre Chaunu, dirs., *Valeurs et modernité: Autour de Alain Peyrefitte, colloque international, 15-16 septembre 1995, à l'Institut* (Paris: O. Jacob, 1996), p. 114.

(327) «Shibusawa, Eiichi (1840-1931),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/104.html>.

نبيلة. درس الفرنسية في ناغازاكي، وقدمت له الحكومة منحة مالية للدراسة في فرنسا بسبب مساهمته في إحياء النظام الإمبراطوري[328]. سافر إلى فرنسا في عام 1871 ومكث فيها عشرة أعوام باحثًا في الثقافة والمؤسسات والقوانين الأوروبية. ويمكن اعتباره من الأشخاص الأكثر ليبرالية ضمن أفراد النخبة السياسية المعاصرة له. وفي إثر عودته إلى اليابان أسس كلية الميجي للقانون التي أضحت جزءًا من جامعة الميجي. وفي عام 1882 طلب منه إيتو هيروبومي الذي كان في زيارة رسمية إلى بعض البلدان الأوروبية للاطّلاع على تجاربها الدستورية، مرافقته في مهمته[329] بسبب اطّلاع كينموتشي الواسع على آليات النظام القانوني الغربي. وعُيّن في ما بعد سفيرًا لبلاده في كل من النمسا- المجر وألمانيا وبلجيكا. كما تقلّد منصب وزير التربية ومنصب وزير أول في مناسبتين في أواخر عهد الميجي[330]. وفي عام 1919، انتدبته الحكومة اليابانية للمشاركة في مؤتمر باريس للسلام[331].

نكائي تشومين[332] (1847-1901): ينتمي نكائي تشومين إلى أسرة أشيكارو (الطبقة الدنيا من الساموراي) في مقاطعة توزا[333]. درس اللغة الفرنسية في كلٍّ من ناغازاكي في عام 1865، وإيدو ويوكوهاما في عام 1867، قبل أن يعمل مترجمًا لليون روش في أواخر عام 1868[334]. سافر للدراسة في فرنسا في عام 1871، موفدًا من وزارة العدل في حكومة الميجي. شاهد المعركة التي دارت بين أنصار الملكية والجمهوريين في بداية الجمهورية الثالثة[335]، وبعد

(328) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 7.

(329) Saionji Kinmochi, on the Web: <http://www.jref.com/glossary/prince_saionji_kimmochi.shtml>.

(330) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 8.

(331) «Saionji, Kinmochi (1849 - 1940),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/302.html>.

(332) «Nakae, Chomin (1847-1901),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/302.html>.

(333) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 8.

(334) Richard Sims, *French Policy Towards the Bakufu and Meiji Japan, 1854-95: A Case of Misjudgement and Missed Opportunities*, Meiji Japan Series; 3 (Richmond, Surrey: Japan Library, 1998), p. 272.

(335) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 9.

ثلاثة أعوام رجع إلى اليابان[336]. ويبدو أنه عمل مترجمًا لدى مؤسسة جنرو (Genro)، وامتهن التدريس وتخرج على يديه عدد كبير من الأطر اليابانية من خلال الأكاديمية التي أنشأها لتعليم الفرنسية، وبلغ عدد المتخرجين منهم نحو 2000 متعلم، وكانت الأفكار الفرنسية أكثر تأثيرًا فيهم من اللغة الفرنسية[337].

على الرغم من وجود بعض النخب اليابانية الفرنكوفونية، تراجع تأثير الأنموذج الفرنسي بسبب المواقف السياسية الفرنسية المنحازة إلى نظام الباكوفو في لحظات صراعه الأخير مع النظام الإمبراطوري وحلفائه من مقاطعات ساتسوما وشوتشو وتوزا وهيزن. وفي نهاية عام 1870 ما عاد في الإمكان إنكار الدور المتزايد للتأثيرين الألماني والإنكليزي في المؤسسات التعليمية والقانونية والعسكرية اليابانية.

كورودو كييوتيرو (1866-1924): ولِد كييوتيرو في مقاطعة ساتسوما من أسرة ساموراي. بدأ تعلم اللغة الإنكليزية في مراهقته استعدادًا لدراسته الجامعية، وبعد عامين اختار اللغة الفرنسية بدلًا من اللغة الإنكليزية. اهتم في باريس التي وصل إليها في 18 آذار/ مارس 1884 بالدراسات القانونية[338]، ويبدو أن الأجواء الفنية التي كانت تعرفها باريس وتعدُّد مدارسها التشكيلية ساهمت في تخلّيه عن صرامة النصوص وصخب التأويلات القانونية، لكي يتفرغ للفن التشكيلي.

في شباط/ فبراير 1886، شارك كييوتيرو ضمن مفوضية يابانية اهتمت باليابانيين المقيمين بباريس، والتقى هناك ثلاثةَ رسامين يابانيين: ياماماتو هوسوي وفوجي ماسازو وتاجر الفن هاياشي تاداماسا، شجّعوه على التوجه إلى ميدان الرسم، موضحين له قدرته على خدمة بلده عن طريق تعلم الرسم الغربي بدلًا من دراسة القانون.

---

(336) «Nakae, Chomin (1847-1901),» on the Web: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/302.html>.

(337) Sims, p. 273.

(338) Aida Yuen Wong, ed., *Visualizing Beauty: Gender and Ideology in Modern East Asia* (Hong Kong: Hong Kong University Press, 2012), p. 102.

بعد عودته إلى اليابان رئس شعبة الرسم الغربي في مدرسة الفنون الجميلة بطوكيو، وهو ما سمح له بالتعريف لا بتقنيات الرسم الأكاديمية الغربية فحسب، ولكن أيضًا بالأسلوب الضوئي للمذهب الطبيعي الذي يجسده الانطباعيون(339).

يبدو أن النخب اليابانية أدركت مبكرًا أن المعركة والتنافس مع الغرب يستلزمان مبدأ الشمولية في مقاربة عناصر القوة والأخذ به في عرض نماذجها، التي بدأت مقلِّدة ومحاكية للنماذج الغربية قبل أن تؤسس بدائل جمعت بين الأصيل والدخيل.

اتسمت مقاربة اليابان بالشمولية في تكوين أطرها وكوادرها العليا، وامتدت مواد الدراسة إلى العلوم السياسية والفلسفية والفن والتشكيل، وهو جانب ينمّ عن فهم عميق للظاهرة الغربية وتحديد جوانب القوة فيها؛ وفي الجانب الآخر المتعلق بالمغرب، لم ير المخزن في الغرب سوى ظاهره العسكري، فجاءت آلية البعثات التعليمية مركزة على التكوين العسكري لأفرادها، الأمر الذي أفقدها خاصية الاستفادة الحقيقية من الرحلة الدراسية نحو الغرب ومؤسساته المختلفة.

ناغاي كافو(340) (1879-1959): وِلد كافو في طوكيو لأسرة يابانية محاربة قديمة. تميزت حياته بالتحرر الفكري، الأمر الذي جعل مواقفه تتعارض مع مختلف أنواع السلطات الأبوية والأدبية والسياسية(341). وقد تأثر في فرنسا التي زارها بأجواء الحرية المشاعة واقتدى بالشاعر الفرنسي بودلير، ونشر على منواله ديوان أزهار الشر في عام 1902، كما ترجم بعض أشعار پول ڤيرلين (P. Verlaine)، منها قصيدة La lune blanche(342).

---

(339) «De Kuroda à Foujita - Peintres japonais à Paris,» (Dessin original: Première librairie d'art en ligne), sur le Web: <http://www.dessinoriginal.com/1455-de-kuroda-a-foujita-peintres-japonais-a-paris.html>.

(340) Nagai Kafu, on the Web: <http://www.shunkin.net/Auteurs/?author=110>.

(341) Nagai Kafu, on the Web: <http://fr.encarta.msn.com/encyclopedia_741525785/nagai_kafu.html>.

(342) Japanese Classical Literature at Bedtime, on the Web: <http://eloise.cocolog-nifty.com/rodoku/kafu_nagai/index.html>.

بدءًا من عام 1903 أمضى كافو أعوامًا في الولايات المتحدة وفرنسا. وبعد عودته نشر «نصوص من أميركا». وعلى الرغم من اتصاله المباشر بالعالم الغربي، نجح، مثل كثير من رفاقه، في تطوير أدب محلي متجذر في التقاليد اليابانية وذي رؤية عالمية[343]. وكانت لكافو علاقة حميمة بثقافة عهد الإيدو؛ إذ عبّر من خلال مؤلّفه سوميدا ((1909) *Sumida*) عن حبه للأزقة التجارية لإيدو القديمة وأشرف بين عامي 1906 و1916 على شعبة اللغة الفرنسية في جامعة كيو وعلى مجلتها، **المجلة الأدبية** (*Mita Bungaku*)[344].

كان كافو ممتعضًا من سياسة بلاده في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وأثّرت فيه كثيرًا مجريات الحرب العالمية الثانية وما نتج منها من فوضى في الأعوام التي تلتها. ولزم مرحلة طويلة من الصمت، معبّرًا بذلك عن رفضه منطق الحرب وتحوُّل الأنموذج الياباني إلى نزعة عدوانية شبيهة بالنماذج الغربية الإمبريالية.

إيواو أوياما[345] (1842-1916): يتحدر أوياما من مقاطعة كاغوشيما. رحل إلى فرنسا لدراسة مجريات الحرب الفرنسية - الألمانية. وانتسب إلى مدرسة سان سير العسكرية، كما أمضى ثلاثة أعوام (1870-1873) في جنيف حيث درس اللغات الأجنبية وبرع في اللغة الروسية، ثم عاد إلى فرنسا ليستأنف دراسته فيها. وبعد عودته إلى اليابان أعاد هيكلة القوات الإمبراطورية، وساهم في النصر الكبير الذي حققته اليابان في الحرب الصينية - اليابانية الأولى، وفي الحرب على روسيا في عام 1905. كما تقلّد الكثير من المناصب الاستراتيجية، منها وزارة الحرب في فترات 1885-1891، و1892-1896، و18 أيلول/ سبتمبر 1896 إلى 20 أيلول/ سبتمبر 1896، وانتسب إلى مؤسسة جنرو[346].

(343) Nagai Kafu, on the Web: <http://fr.encarta.msn.com/encyclopedia_741525785/nagai_kafu.html>.

(344) Nagai Kafu, on the Web: <http://fr.encarta.msn.com/encyclopedia_741525785/nagai_kafu.html>.

(345) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/39.html>.

(346) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/39.html>.

فوجيتا تسوغوهارو[347] (1886-1968): كان أبوه جنرالًا وطبيبًا في الجيش الإمبراطوري. حاز دبلوم مدرسة الفنون في طوكيو في عام 1910، وسرعان ما نال شهرة؛ فقد طُلب منه رسم صورة إمبراطور كوريا، وفي إثر ذلك اشترى منه الإمبراطور الياباني إحدى لوحاته[348]. وفي عام 1913 واصل دراسته الفنية في باريس، والتقى الكثيرَ من عمالقة الفن العالمي الذين أضحوا من أصدقائه، منهم بيكاسو وريفيرا وكوكتو وأوسيب زادكين وموديغلياني[349].

عاش أوضاعًا صعبة في الأعوام الخمسة الأولى من وجوده في باريس؛ فقد كان عليه الاعتماد على نفسه في معرفة الاتجاهات الفنية، كالتكعيبية والتجريدية. من جهة أخرى، تعقدت أوضاعه المالية بسبب مجريات الحرب العالمية، حيث عجزت أسرته عن مده بالمعونات المالية. وقد تمكّن بفعل علاقته بالتشكيليين السابق ذكرهم من تنظيم أول معرض له في عام 1917، حيث حضر بيكاسو وبقي في المعرض ثلاث ساعات، ومنذئذٍ تحسنت أحواله المهنية.

كوكي شوزو[350] (1888-1941): نشأ في أسرة أرستقراطية، وعاش حياة رفاهية، كما لاحظ معالم الازدواجية في هوية المجتمع الياباني الحديث الذي كانت تتجاذبه عناصر التغريب والأصالة[351]. درس الفلسفة في جامعة طوكيو، وبسبب رخائه المادي، سافر في رحلة دراسية «إلى أوروبا، بالتحديد إلى هايدلبيرغ في ألمانيا في عام 1921، ثم إلى باريس في عام 1924»[352].

---

(347) <http://www.nautiljon.com/people/tsuguharu+fujita.html>.

(348) «Tsuguharu Foujita (1886-1962),» (Art Experts), on the Web: <http://www.artexpertswebsite.com/pages/artists/foujita.php>.

(349) «Tsuguharu Foujita (1886-1962),» (Art Experts), on the Web: <http://www.artexpertswebsite.com/pages/artists/foujita.php>.

(350) Shuzo Kuki, *Kuki Shuzo: A Philosopher's Poetry and Poetics*, Translated and Edited by Michael F. Marra (Honolulu: University of Hawaii Press, 2004).

صورة غلاف الكتاب.

(351) Yukiko Koshiro, «*Authenticating Culture in Imperial Japan: Kuki Shuzo and the Rise of National Aesthetics*, by Leslie Pincus,» *Review of Politics*, vol. 59, no. 3 (Summer 1997), on the Web: <http://www.accessmylibrary.com/coms2/summary_0286-294337_ITM>.

(352) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 16.

يعدّ شوزو من أبرز المفكرين اليابانيين في القرن العشرين؛ فقد عُرف بقدرته على تفسير الفلسفة الغربية الحديثة[353]. نسب إليه الباحث الياباني ميورا الفضل في تعريف النخبة اليابانية إلى الفلسفة الفرنسية المعاصرة التي كانت مفتونة بمثيلتها الألمانية[354]، وإن كنا نعتقد أنه بدوره منح الفلسفة الألمانية قدرًا كبيرًا من اهتماماته في مشروعه الثقافي والفكري.

درس فينومينولوجيا هوسيرل، والتقى بيرغسون مرتين في باريس، كما جالس سارتر[355]. وكان منجذبًا إلى الفلسفة الجرمانية، فرجع في عام 1927 إلى ألمانيا لمتابعة دروس مارتن هايدغر الذي كان على وشك الانتهاء من وضع مؤلفه الكينونة والزمن (*l'Etre et le Temps*)[356].

وفي تقديم أعمال شوزو، يُجمل أحد المترجمين نشاطه الثقافي بقوله إنه كانت لشوزو في أوروبا «القدرة على الدخول في نقاش مع الوجوه الفلسفية المشهورة في كلٍّ من فرنسا وألمانيا»[357].

تسببت مرحلة الانفتاح على ثقافة الغرب وفلسفته، وما نجم عنها من مراجعات ذاتية، في بروز حاجة شديدة إلى بناء صرح فلسفة محلية مواكبة لحجم التحولات التي شهدها عهد الميجي، وكان على الأغلبية العظمى من المثقفين اليابانيين الذين وُلدوا في عهد الإحياء «بذل الجهد لمنح معنى للثقافة التقليدية التي تأثرت بالتحدي الجديد ممثّلًا في السيل المتدفق عليها من المعارف الغربية»[358]. وقد حاول شوزو «الرد على تحدي الحداثة الغربية بالبحث، داخل التقاليد المحلية عن الترياق الملائم أمام عدمية الغرب»[359].

---

(353) Kuki, *Kuki Shuzo*, on the Web: <http://www.buy.com/prod/kuki-shuzo-a-philosopher-s-poetry-and-poetics/q/loc/106/35240068.html>.

(354) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 16.

(355) المصدر نفسه، ص 16.

(356) المصدر نفسه، ص 16.

(357) Kuki, *Kuki Shuzo*, p. 4.

(358) المصدر نفسه، ص 4.

(359) *A History of Modern Japanese Aesthetics*, Translated and Edited by Michael F. Marra (Honolulu: University of Hawaii Press, 2001), p. 21.

كانيكو ميتسوهارو[360] (1895-1975): ابتدأ تعليمه في المؤسسات اليابانية، وتميزت حياته الدراسية بالتنقل من جامعة واسيدا إلى جامعة طوكيو للفنون، لدراسة تقنيات الرسم الياباني. كما انتسب إلى جامعة كيو لدراسة اللغة الإنكليزية[361]، ويبدو بأنه لم يجد في اليابان ضالته فقرر الرحيل إلى البلدان الغربية.

سافر «مرتين إلى أوروبا، في عام 1919، ومكث فيها في المرة الثانية بين عامي 1928 و1832. وفي عام 1919 مكّنه المال الذي ورثه من أبيه بالتبني من تمضية أيامه في المطالعة»[362]. كان كانيكو منجذبًا إلى الشعر، «وكان يبحث من خلال تأمل مكنوناته الداخلية عن المعنى الإنساني»[363]. وكان انتماؤه الأدبي أقرب إلى ما يسمّى الاتجاه الفوضوي، كما يبدو من بعض أشعاره المعبّرة. «ترجم لبودلير ورامبو، وعاش على هامش المجتمع الياباني بعيدًا عن الأكاديمية، وضد المؤسسات القائمة»[364].

يوكوميتسو ريتشي[365] (1898-1947): «خلال هذه الفترة كنت أمجّد الرمزية في الميدان الفني، وكنت أعتبر الجمال كامنًا فيها عوضًا عن الوصف الواقعي»[366]. بهذه العبارات اختصر ريتشي مسيرته الفنية واهتمامه بالرمزية التي شهدت تطورات عميقة في فرنسا خلال فترة وجوده فيها. وقد «سافر إلى أوروبا مراسلًا خاصًا لجريدتين يوميتين، وقام بجولات في القارّة لإرسال مقالاته الصحافية»[367] إلى اليابان. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1924 أسّس بالتعاون مع عشرة كتّاب يابانيين، منهم ياسوناري كاواباتا، مجلة الزمن الأدبي (L'Époque

(360) «Mitsuharu Kaneko (Japan, 1895 - 1975),» sur le Web: <http://japan.poetryinternationalweb.org/piw_cms/cms/cms_module/index.php?obj_id=12096>.

(361) «Mitsuharu Kaneko (1895–1975): His Life and Poetry,» on the Web: <http://japan.poetryinternationalweb.org/piw_cms/cms/cms_module/index.php?obj_id=12246&x=1>.

(362) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 17.

(363) Akase Masako, «Shanghai dans la litterature (epoque 1900-1931),» *Intercultural Studies*, vol. 11 (1995), on the Web: <http://ci.nii.ac.jp/naid/110004694932/>.

(364) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 18.

(365) Yokomitsu Riichi, on the Web : <http://www.shunkin.net/Auteurs/?author=184>.

(366) Yokomitsu Riichi, on the Web : <http://www.shunkin.net/Auteurs/?author=184>.

(367) Miura, «La Modernisation du Japon,» p. 18.

(littéraire، وكتب في عددها الأول مقالة تحدث فيه عن ولادة المذهب الحسي الجديد[368]، وهو ما تلاءم مع العقلية الشرقية التي كانت تبحث، في زمن شوا، عن المرتكزات الأخلاقية الشرقية للرد على التحدي الفلسفي الغربي والخطورة التي أثارها أمام النخب الفكرية والثقافية اليابانية.

أساي تشو[369] (1856-1907): يتحدر تشو من أسرة ساموراي من مقاطعة ساكورا. انتسب في عام 1876 إلى المدرسة التقنية للفنون الجميلة، وبسبب ما كانت تعرفه باريس من فوران فني، سافر في عام 1900 إلى فرنسا، وأمضى فيها عامين من التكوين. ولدى رجوعه إلى اليابان عُيِّن أستاذًا في مدرسة كيوتو للفن والحرف[370].

أوغيوارا موري[371] (1879-1910): وُلد في ناغانو عام 1879. زار الولايات المتحدة في عام 1901، وفرنسا في عام 1903، حيث تأثر كثيرًا بمدارس النحت الفني فيها، والتقى هناك الفنان الفرنسي رودان[372] (Rodin) أول مرة في عام 1907، وكغيره من المتعلمين اليابانيين، رجع إلى بلده في عام 1908. أنجز الكثير من أعمال النحت الوطنية، منها العمل الفني «المرأة» في عام 1910.

ماساتاكي تيروتشي[373] (1852-1919): يتحدر تيروتشي من عائلة ساموراي. رحل إلى فرنسا للدراسة في عام 1882، حيث تلقّى فيها تكوينه العسكري. شغل الكثير من الوظائف العسكرية السامية في بلاده، منها المفتش العام لقوات التدريب العسكري. وفي عام 1901 تقلّد منصب وزير الحربية،

---

(368) يُعبّر عن هذا المصطلح باسم De sensualisme. واعتبر جون لوك الأحاسيس أصل جميع المعارف التي نملكها. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما رفض ليس فقط القول بوجود أفكار فطرية بل بقدرات عقلية غريزية أيضًا. وقد عبّر هيلفيتيوس عن هذا الاتجاه بعبارته المختزلة «Penser, c'est sentir».

(369) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/225.html?c=0>.

(370) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/225.html?c=0>.

(371) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/247.html?c=0>.

(372) أوغست رودان (1840-1917): فنان ونحّات فرنسي مشهور، ويُعَدّ من رواد فن النحت في القرن التاسع عشر. تُعتبر أعماله أنموذجًا للأشكال الانطباعية في النحت.

(373) اعتمدنا في ترجمة تيروتشي بتصرف عن:
<http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/137.html?c=0>.

وعُيّن حاكمًا عامًا في كوريا بعد احتلالها في عام 1910، وساهم بدور أساس في الانتصار التاريخي الذي حققته اليابان على روسيا في عام 1905. وختم أبرز مهماته السياسية والعسكرية في منصب الوزير الأول[374]، في الفترة الممتدة بين9 تشرين الأول/ أكتوبر 1916 و29 أيلول/ سبتمبر 1918. وقد تميزت سياسته الخارجية بالعدوانية والتوسع على حساب دول الجوار. استثمر كفاءته العسكرية التي طوّرها في فرنسا في تنفيذ ما سُمي «المصالح العليا لليابان في الشرق الأقصى».

سوني أراسوكي[375] (1849-1910): وُلِد في ياماغوشي في عام 1849. تبنّاه أحد الساموراي من مقاطعة هاجي. شارك في معركة البوشين المشهورة. درس في فرنسا العلوم العسكرية واشتغل بعد ذلك في وزارة الحرب. تقلّد في عام 1890 منصب السكرتير الأول لمجلس النواب، وعُيّن في عام 1893 وزيرًا منتدبًا في فرنسا لمراجعة الاتفاقيات بين الدولتين. عُيّن وزيرًا للعدل في الوزارة الثالثة لإيتو هيروبومي، ووزيرًا للفلاحة والتجارة في الولاية الثانية لحكومة ياماغاتا، ووزيرًا للمالية في وزارة كاتسورا الأولى[376].

2 - نماذج من المتعلمين في ألمانيا

شوكي شيباتا[377] (1849-1910): يُصنّف شيباتا ضمن علماء الكيمياء العضوية، وأبرز الصيادلة اليابانيين في عهد الميجي. دامت دراسته في ألمانيا من عام 1870 إلى عام 1874. أسس بعد عودته إلى اليابان قطاعَ الصيدلة في المدرسة الطبية في طوكيو. وكُلّف بعدد كبير من المهمات ذات العلاقة بتخصصه كعالم كيميائي، منها إدارة مختبر مراقبة المخدرات في أوساكا. كما ساهم في إدخال الأسلوب الغربي إلى إدارة الصحة العمومية اليابانية.

(374) Name of Persons, on the Web: <http://www.jacar.go.jp/english/nichiro/person.htm>.

(375) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/117.html?c=0>.

(376) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/117.html?c=0>.

(377) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/102.html?c=0>.

هاتسوكوما توكيشيغي[378] (1859-1913): طبيب بيطري ياباني، حصل في عام 1885 على دبلوم مدرسة كومابا للزراعة، وترقى من أستاذ مساعد إلى أستاذ متفرغ. أنجز الكثير من البحوث المخبرية، منها بحث نشره في عام 1897 عن وبائية الأوعية اللمفاوية، تناول فيه اكتشافه السبب المسؤول عن بعض الأمراض التي تصيب الخيول. ويبدو أن طموحاته العلمية دفعته إلى السفر إلى ألمانيا لاستكمال دراسته ومعارفه البيطرية. وبعد رجوعه إلى اليابان، حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم البيطرية. تقلّد الكثير من الوظائف، منها منصب أستاذ في جامعة طوكيو، كما أنجز عددًا ضخمًا من البحوث البيطرية في اليابان.

شيباساتو كيتاساتو[379] (1853-1931): عالِم جراثيم ياباني، حاز دبلوم المدرسة الطبية كيماموتو وكلية الطب في جامعة طوكيو. اشتغل لدى وزارة الصحة، ثم سافر إلى ألمانيا للدراسة بين عامي 1885 و1892. عمل في مختبر عالِم الجراثيم الألماني روبرت كوتش (R. Koch)، وبرفقة إميل فون بيهرينغ (E. von Behring). درس التيتانوس (Tetanus) والديفتيريا (Diphtheria)، كما عمل مع العالِم الألماني ألكسندر يرسين (A. Yersin) الذي اكتشف معه العامل المسبب للطاعون الدملي. حصل في عام 1891 على الدكتوراه في الطب. وبعد عودته إلى اليابان عُيّن مديرًا لمؤسسة متخصصة بالأمراض المعدية بالقرب من طوكيو. أسس في عام 1915 معهد «كيتاسات»، وساهم في عام 1917 في فتح شعبة الطب في جامعة كيو الخاصة التي أسسها يوكيتشي.

إين تيتسوجيرو[380] (1856-1944): وُلِد الفيلسوف الياباني تيتسوجيرو في فوكوكا. تخرج في عام 1880 من قسم الفلسفة في جامعة طوكيو التي أصبح فيها أستاذًا مساعدًا. في العام نفسه نشر كتابه **أنطولوجيا الشعر**. وبسبب ما كانت تشهده ألمانيا من صخب فلسفي، سافر إليها وامتدت إقامته بها من عام 1884 إلى عام 1890، وتأثر خلالها بالنزعة المثالية، ويظهر ذلك من خلال

---

(378) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/145.html?c=0>.

(379) بتصرف عن: Japanese Culture from a Student Viewpoint, on the Web: <http://studentviewjapan.blogspot.com/2006/06/kitasato-shibasaburo.html>; <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/259.html>, and <http://www.todayinsci.com/6/6_13.htm>.

(380) http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/234.html?c=0

المحاضرات التي ألقاها بعد عودته إلى اليابان؛ إذ ركّز على مباحث الفلسفة الألمانية المثالية. ركّز في الأعوام الأخيرة من حياته على دراسة الكونفوشيوسية اليابانية.

كاتسورا تارو[381] (1848-1913): أحد أبناء الساموراي من مقاطعة شوتشو. شارك أبوه في معركة البوشين ضد قوات باكوفو التوكوجاوا. ومثل غيره من اليابانيين، تسبب ذلك في اختياره ضمن الأفراد المرشحين للدراسة في الخارج. قدّر نظام الميجي الجديد إمكاناته الدراسية العالية، فأرسلته الحكومة إلى ألمانيا في عام 1870 لدراسة العلوم العسكرية.

في عام 1875 عُيّن ملحقًا عسكريًا في المفوضية اليابانية في ألمانيا. كُلّف بدراسة التسيير الإداري العسكري الألماني. وشرع بعد عودته إلى اليابان في عام 1875 في إدخال إصلاحات على الأسلوب العسكري المحلي في ولاية ياماغاتا أريتومو. في عام 1886 أصبح نائبًا لوزير الحرب. تقلد منصب الوزارة الأولى في الولاية الثالثة لإيتو هيروبومي، وحافظ على المنصب نفسه في مدة الوزارة الأولى لأوكيما، والولاية الثانية لياماغاتا والولاية الرابعة لإيتو. كُلّف في أواخر حياته السياسية والعسكرية بمهمة الوزارة الأولى بالتناوب مع كينموشي سايونجي. ساهم في عقد الاتفاق الياباني - الإنكليزي في عام 1902، وفي ترتيب عملية التدخل في شبه الجزيرة الكورية.

هيراتا توسوكي[382] (1849-1925): وُلِد في ياماغاتا لأسرة ساموراي من مقاطعة يونيزاوا. شارك ضمن بعثة إيواكارا في عام 1871، ومكث في ألمانيا للدراسة في جامعة هايدلبيرغ وغيرها من الجامعات الألمانية قبل أن يعود إلى اليابان في عام 1876. كُلّف الكثير من المهمات، منها مدير مكتب التوثيق في المجلس الأعلى، ومدير مجلس التشريع. اختير في عام 1890 عضوًا في مجلس الحكماء، ونيطت به مهمة تسيير وزارة الفلاحة والتجارة في حكومة كاتسورا الأولى. أصبح وزيرًا للداخلية في الولاية الثانية لحكومة كاتسورا.

(381) اعتمدنا بتصرف في هذه المعلومات على:
<http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/52.html?c=0>.

(382) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/178.html?c=0>.

موري أوغاي[383] (1862-1922): ولِد أوغاي في عام 1862 في تسووانو في مقاطعة إيوامي. امتهن أبوه الطب، ودرس الكلاسيكيات الصينية والهولندية. درس بعد قيام عهد الميجي الألمانية في طوكيو قبل الانتساب إلى مدرسة الطب. بعد تخرجه في جامعة طوكيو وكلية الطب في عام 1881، أصبح طبيبًا جراحًا في الجيش. أُرسل إلى ألمانيا لمدة عام مبتعثًا من وزارة الدفاع للدراسة بين عامي 1884 و1888. درس في هذه الفترة في المختبرات الطبية الذائعة الصيت في برلين، حيث واصل بحوثه في علوم الوقاية، واطّلع في ألمانيا على مظاهر التجديد الفني.

لا شك في أن أوغاي راكم تجربة مهمة في الجوانب الطبية والفنية. وبعد رجوعه إلى اليابان رُقّي في عام 1907 إلى جرّاح عام، وعُيّن رئيسًا للشعبة الطبية في وزارة الدفاع، وهو أعلى منصب في سلك الجرّاحين في الجيش. وإضافة إلى أعماله الرسمية، اهتم بالأدب والترجمة والنقد.

أومورو جينتارو[384] (1863-1907): وُلِد في إيشيكاوا عام 1836 لأسرة من الساموراي. تعرّف في صغره إلى الدراسات الصينية. عمل في عام 1881 كاتبًا لوزير الحرب. أصبح في عام 1882 أستاذًا في كلية اللغات الأجنبية. سافر للدراسة إلى ألمانيا في عام 1901، وعمل بعد عودته في التدريس الجامعي. وبسبب إتقانه اللغة الألمانية، عمل أمينًا للرابطة الألمانية. أصبح في عام 1905 المدير الرابع الرئيس للرابطة الألمانية التي تأسست في عام 1882. استقال في عام 1906 من التدريس في جامعة غاكوشوين.

أوكي شوزو[385] (1844-1914): ولِد أوكي شوزو في ياماغوشي لأسرة من الساموراي، وذلك في عام 1844. كان أبوه فيزيائيًا؛ درس في مدرسة المقاطعة في هاغي (مقاطعة شوتشو). وبعد تكوينه الطبي في ناغازاكي، أرسلته مقاطعته في عام 1868 لدراسة القانون في ألمانيا بإشراف القانوني

---

(383) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/342.html?c=0>.

(384) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/37.html?c=0>.

(385) بتصرف من المراجع الآتية: AOKI Shuzo's Conception of a Constitution, on the Web: http://www.ndl.go.jp/modern/e/cha1/description06.html, and <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/1.html?c=0>.

الألماني رودولف فون غنيست. تفاعل إيجابيًا مع قادة العهد الإمبراطوري الجديد، فانتسب في عام 1873 إلى وزارة الخارجية. وأصبح كاتبًا أول فيها، ثم وزيرًا مفوضًا في ألمانيا في العام التالي.

طلب منه كيدو تاكايوشي إعداد مشروع دستوري ليابان الميجي، فقدّم اقتراحين جمعا بين الأنموذج البروسي والخصوصيات المحلية لليابان. عُيّن في عام 1886 نائبًا لوزير الخارجية في الولاية الأولى لإيتو قبل أن يصبح وزيرًا للخارجية في حكومة ياماغاتا الأولى، وولاية ماتسوكاتا الأولى.

في عام 1894 ركّز في أثناء مهمته بوصفه وزيرًا مفوضًا في بريطانيا على مراجعة بنود الاتفاق البريطاني - الياباني للتجارة والملاحة، بالتنسيق مع وزير الخارجية آنئذٍ مونيميتسو موتسو، وحقق نجاحًا مهمًا.

كاتاوكا شيتشيرو[386] (1845-1920): وُلِد كاتاوكا شيتشيرو في عام 1854 لأسرة من الساموراي، من مقاطعة كاغوشيما. سافر إلى ألمانيا بغرض تعلم فنون المدفعية وشؤون عسكرية أخرى. تأثر بالنماذج الفرنسية والألمانية والإنكليزية على امتداد 18 شهرًا أمضاها في الخارج، حصل خلالها على شهادة تقدير عالية في فصله الدراسي. بعد عودته إلى اليابان شارك في الحرب الصينية - اليابانية في عام 1894 قائدًا لطرّادة، وساهم بدور مهم في الحرب الروسية - اليابانية في عام 1905.

كونو آتسومارو[387] (1863-1904): وُلِد آتسومارو في أسرة نبيلة في كيوتو. نجح في تعلم اللغة الإنكليزية بإمكاناته الخاصة، وسمح له وضعه الاجتماعي بالاستقرار في أوروبا بين عامي 1885 و1890. درس في كلٍّ من جامعتي بون وليبزيغ. عُيّن بعد عودته إلى اليابان عضوًا في مجلس الحكماء، وتميزت مواقفه بالنقد الشديد لبقايا السياسة القائمة على مبدأ الانتماء القبلي. وجّه في هذا الموضوع ملاحظاته إلى إيتو هيروبومي، كما دعم الخط السياسي العنيف تجاه القوى الأجنبية. عمل في أواخر حياته السياسية على المحافظة على ما سمّاه أمن شرق آسيا وتقدمه.

---

(386) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/50.html?c=0>.

(387) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/80.html?c=0>.

هوزومي ياتسوكا[388] (1860-1912): من أبناء الساموراي من مقاطعة إيواغيما. التحق بجامعة طوكيو لمدة عام، كما درس اللغة الإنكليزية على امتداد ستة أعوام. في عام 1883 حصل على دبلوم من جامعة طوكيو، وواصل دراساته العليا متخصصًا بالعلوم السياسية. قرر في عام 1884 السفر إلى ألمانيا لتعميق معارفه السياسية في كلٍّ من جامعات هايدلبيرغ وبرلين وستراسبورغ، وتأثر كثيرًا بالفقيه القانوني الألماني بول لاباند (P. Laband). درس تاريخ المؤسسات الألمانية والقانون الدستوري.

رجع إلى اليابان في عام 1889، وأصبح أستاذًا للقانون في الجامعة الإمبراطورية. تقلّد الكثير من الوظائف السامية المهمة الأخرى، منها مستشار مكتب التشريع وعضو مجلس الحكماء. انتقد في عام 1891 مشروع القانون المدني القائم على مبدأ الملْكية المطلقة. اختلف مع إيتو هيروبومي في شأن أول مشروع دستوري ياباني. له عدد كبير من المؤلفات القانونية.

شيموياما جونيتشيرو[389] (1853-1912): من أبرز الصيادلة اليابانيين الذين درسوا في الغرب. أرسلته مقاطعته إينياما في عام 1870 إلى المدرسة الجنوبية (لاحقًا جامعة طوكيو) لمتابعة دراساته الألمانية. تقدم في عام 1873 لدراسة الصيدلة في الجامعة الطبية الأولى (لاحقًا المدرسة الطبية في طوكيو). ويبدو أن نهمه المعرفي دفعه إلى السفر لمتابعة دراساته في جامعة ستراسبورغ في ألمانيا. بعد عودته إلى اليابان أصبح أستاذًا للطب في الجامعة الإمبراطورية.

تقلّد الكثير من الوظائف ذات العلاقة بتخصصه المعرفي والمهني، منها المدير العام لرابطة اليابان للأدوية. أسّس مدرسة طوكيو للصيدلة، كما ساهم في تطوير منتوجات أدوية يابانية محلية.

كاتسورا هيديما[390] (1861-1911): فيزيائي ياباني وُلد في نييجاتا. التحق بكلية الطب في الجامعة الإمبراطورية في طوكيو. حصل فيها على دبلوم

---

(388) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/325.html?c=0>.

(389) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/111.html?c=0>.

(390) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/53.html?c=13>.

جامعي أهّله للتدريس في المدرسة الطبية في تشيبا. سافر في عام 1899 إلى ألمانيا لاستكمال تخصصه. أصبح بعد عودته إلى اليابان رئيسَ هيئة الأطباء في وزارة البلاط الإمبراطوري.

هاجيمي تانابي[391] (1885-1962): يُعدّ تانابي من الفلاسفة اليابانيين الشبان الذين عاصروا نيشيدا. درس في جامعة طوكيو، وانتقل بين عامي 1922 و1924 للدراسة في جامعة برلين وليبزيغ وفريبيرغ[392] بإشراف هوسيرل وهايدغر. وركّز اهتمامه منذئذٍ على إبيستمولوجيا الرياضيات والعلوم الطبيعية، كما تأثر كثيرًا بفلسفة كانط[393]. بعد عودته إلى اليابان بدا متأثرًا بهيغل، عندما بدأ يهتم بمشكلات الدولة والمجتمع[394]. اهتمت فلسفته بـ«منطق التنوع» التي اقتُبست من التصنيف البيولوجي الثلاثي: العِرق والنوع والفرد، كما دلت على المفهوم الذي حاول الموازاة بين مبدأ العالمية والخصوصية[395].

هاتانو سييتشي[396] (1877-1950): تخرج في جامعة طوكيو الإمبراطورية في عام 1899. أصبح أول أستاذ يلقّن تاريخ الفلسفة الغربية في جامعة واسيدا. درس في ألمانيا بين عامي 1904 و1907، وأصبح بعد عودته أستاذًا محاضرًا للفلسفة في جامعة طوكيو وجامعة كيوتو. أنجز الكثير من الدراسات عن المسيحية، منها: «جذور المسيحية» (1909)، «تاريخ التفكير الديني الغربي» (1921)، «الفلسفة الدينية» (1935)، «الزمن والخلود» (1943).

آبي إيسو (1865-1949): وُلِد في فوكودا. درس في جامعة دوشيشا. سافر للدراسة في كل من ألمانيا والولايات المتحدة حيث عمّق معارفه

(391) Fritz Buri, *The Buddha-Christ as the Lord of the True Self: The Religious Philosophy of the Kyoto School and Christianity*, Translated and with an Introduction by Harold H. Oliver (Macon, GA: Mercer University Press, 1997), p. 64.

(392) المصدر نفسه، ص 65.

(393) Graham Parkes, ed., *Heidegger and Asian Thought* (Honolulu: University of Hawaii Press, 1987), p. 157.

(394) المصدر نفسه، ص 157.

(395) المصدر نفسه، ص 157.

(396) «Hatano Seiichi,» in: *Encyclopaedia Britannica, 2008: Ultimate Reference Suite CD* (Chicago, IL: Encyclopaedia Britannica, 2008).

السياسية والعلوم الاجتماعية في جامعة برلين، قبل أن يصبح داعية للمذهب التوحيدي[397]. عند رجوعه إلى اليابان درّس في جامعة طوكيو بين عامي 1899 و1901. في 18 أيار/ مايو 1901 قدّم وخمسة من رفاقه[398] إلى وزارة الداخلية أوراقَ تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي[399] الذي حُظر نشاطه بعد فترة وجيزة بسبب موقفه من تنامي العسكريتاريا اليابانية؛ فقد أبدى إيسو، مثل كوتوكو، موقفًا معارضًا للحرب الروسية - اليابانية.

كان له في عام 1906 دور فاعل في تأسيس أول حزب اشتراكي ياباني، حاول من خلاله الدفاع عن وجهة نظر مسيحية اشتراكية. وحُظر حزبه مرة أخرى في عام 1907. انتُخب عضوًا في مجلس الدييت أربع مرات متتالية، كانت أولاها في عام 1928. اعتزل العمل السياسي في عام 1940.

3 - نماذج من المتعلمين اليابانيين الموفدين إلى بريطانيا

هوشي تورو[400] (1850-1901): رجل دولة ياباني، انتمى إلى أسرة فقيرة. درس الإنكليزية ودرّسها في عدد من المؤسسات التعليمية. سافر إلى إنكلترا لدراسة القانون. كان في عام 1877 أول ياباني يتخرج محاميًا في بريطانيا. التحق بعد عودته إلى اليابان بوزارة العدل، وانتسب في عام 1882 إلى الحزب الليبرالي، وانتُخب في عام 1892 عضوًا في مجلس النواب. تقلّد منصب وزير الاتصالات في الولاية الحكومية الرابعة لإيتو هيروبومي.

بابا تاتسوي[401] (1850-1888): وُلد تاتسوي في عام 1850 لأسرة

---

(397) مذهب مسيحي يعتقد بوحدانية الله، ويرفض التثليث بشكل يتعارض مع المسيحية التقليدية القائلة بالله الواحد في الثالوث (الآب والابن والروح القدس). يؤمن الموحدون بأن ليسوع المسيح سلطة وقوة معنوية لا إلَهية.

(398) كيوشي كاواكاما، كوجيرو نيشيكاوا، سين كاتاياما، نوي كينوشيتا، شوسوي كوتوكو، كلهم كانوا مسيحيين باستثناء شوسوي كوتوكو.

(399) Kiichiro Yagi, «Social Democracy and Liberarism: In the 20th Century Japan,» Paper Presented at: The Symposium, East Asia-Europe-USA Progressive Scholars' Forum 2003, Kyoto, 11-15 October 2003, pp. 2-3.

(400) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/190.html?c=3>.

(401) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/314.html?c=0>.

من الساموراي في مقاطعة كوتشي. درس مثل غيره من أبناء الساموراي في المدارس المحلية. سافر إلى إنكلترا لمواصلة تعليمه العالي، وامتدت إقامته بها من عام 1870 إلى عام 1878، وركّز على دراسة القانون، وألّف بعض الكتب باللغة الإنكليزية. أصبح بعد عودته إلى اليابان عضوًا في الحزب الليبرالي ومدير تحرير صحيفة الحزب. سافر في أواخر حياته إلى الولايات المتحدة لتعريف الأميركيين إلى اليابان، لكنه توفي في فيلاديفيا في أوائل عام 1888.

ماجيما هيسوكا[402] (1835-1919): وُلِد في عام 1835 في نييغاتا لأسرة غنية. درس العلوم الغربية في إيدو، وعمل في خدمة الشوغون، ومن ثم في خدمة قادة عهد الميجي الجديد بعد حركة الإحياء في عام 1868. درس في إنكلترا، وركّز في تخصصه على قطاع النقل والمواصلات. بعد عودته إلى اليابان تقلّد مناصب مهمة، منها مدير قطاع النقل والمواصلات. انضم في عام 1881 إلى حزب الإصلاح الدستوري، وتولى مهمة نائب وزير الاتصالات واهتم بإنشاء خدمات الهاتف وتطويرها. وعلى الرغم من تقاعده، نشط في مجال قطاع الأعمال، وأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ.

موتونو موريميشي[403] (1836-1909): وُلِد في ساغا لأسرة من الساموراي. اطّلع على الدراسات الغربية باللغة الهولندية من خلال كوان أوغاتا في أوساكا، وباللغة الإنكليزية من خلال فيربيك في ناغازاكي. وقد يكون انتماؤه إلى طبقة الساموراي المنحلّة وإتقانه اللغات الأجنبية سببًا في إرساله إلى إيدو من طرف مقاطعته ليكون لها دور في هندسة الأوضاع الجديدة وترتيبها. اشتغل في عالم الصحافة والأعمال. أُرسل في عام 1872 إلى بريطانيا أول أمين للمفوضية اليابانية في بريطانيا. بعد عودته إلى اليابان عمل في وزارة المالية. أصبح في عام 1882 قاضيًا، وتقاعد في عام 1887.

هاياشي تاداسو[404] (1850-1913): من رجال الدبلوماسية اليابانية. كان أبوه فيزيائيًا. مارس تخصصه في مدرسة الطب الهولندية في مقاطعة ساكورا.

(402) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/327.html?c=0>.

(403) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/203.html?c=0>.

(404) <http://www.ndl.go.jp/modern/e/cha2/description25.html>.

تبنّاه دوكاي هاياشي الذي اشتغل لدى نظام الشوغون. سافر في عام 1866 إلى إنكلترا للدراسة موفدًا من نظام الباكوفو. رجع إلى اليابان في عام 1868. شارك في معركة هاكوداتي[405]، وأُسر فيها.

في عام 1871 بدأ العمل لحكومة الميجي، فعُيّن مترجمًا لإيواكارا في مهمته الدبلوماسية بالدول الغربية، وتقلّد الكثير من المناصب المهمة، منها منصب وزير الصناعة. وفي عام 1891 أصبح نائبًا لوزير الخارجية. وشغل في وقت لاحق منصب وزير مقيم في روسيا وبريطانيا. ساهم في إبرام التحالف البريطاني - الياباني في عام 1902 الذي عُقد كردة فعل ضد الأخطار الروسية على المصالح اليابانية في الشرق، وسمح بعدم تدخل الأوروبيين طوال الحرب الروسية - اليابانية (1904-1905)، كما بذل جهدًا متميزًا في عقد اتفاقية شيمونوسكي التي أنهت الحرب اليابانية - الصينية (1894-1895). وأصبح وزيرًا للخارجية في وزارة سايونجي الأولى ووزيرًا للاتصالات في وزارة سايونجي الثانية، فضلًا عن تقلّده وزارة الخارجية بين عامي 1906 و1908[406].

يبدو من خلال التعريف بتاداسو أن على الرغم من خدمته نظام الشوغون الذي موّل دراسته في إنكلترا، لم يلتفت العهد الإمبراطوري الجديد إلى انخراطه العسكري السابق في صفوف الباكوفو، وقرر الاستفادة من خدماته ومؤهلاته العلمية والسياسية، وتقلّد مناصب استراتيجية داخل الإدارة اليابانية الجديدة.

تشيساكا تاكاماسا[407] **(1841-1912)**: امتدت دراسته في إنكلترا من عام 1870 إلى عام 1873. التحق بعد عودته إلى اليابان بوزارة الداخلية، وكان على امتداد انتفاضة ساتسوما برتبة مقدّم، وأصبح حاكمًا لمقاطعة إيشيكاوا. عمل في أواخر حياته في عالم الأعمال. عُيّن في عام 1894 عضوًا في مجلس الحكماء.

---

(405) معركة هاكوداتي، معركة بحرية دارت في أيار/ مايو 1869 بين قوات الشوغون والبحرية الإمبراطورية الجديدة، وشكّلت امتدادًا لحرب البوشين.

(406) بتصرف عن: «Hayashi Tadas, Count,» in: *Encyclopaedia Britannica, 2008,* and <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/171.html>.

(407) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/136.html?c=0>.

هاتشيسوكا موتشياكا[408] (1846-1918): وُلِد موتشياكا في طوكيو عام 1846 لعائلة نبيلة. أصبح في عام 1868 آخر دايميو لمقاطعة توكوشيما. سافر في عام 1872 للدراسة في جامعة أكسفورد في بريطانيا. وبعد عودته إلى اليابان تقلّد منصب مدير مكتب الجمارك في وزارة المالية. أصبح عضوًا في المجلس التشريعي. عُيّن في عام 1882 مبعوثًا فوق العادة ووزيرًا مفوضًا في فرنسا. كُلّف بعد عودته إلى اليابان الكثير من المهمات الرئيسة، منها عضو مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس الحكماء، وحاكم مقاطعة طوكيو، كما تقلّد منصبي رئيس مجلس النواب ووزير التربية.

توغو هيهاتشيرو[409] (1848-1934): وُلِد هيهاتشيرو في كاغوشيما لأسرة من الساموراي. خدم في الجيش الإمبراطوري في حرب البوشين المشهورة. وقد يكون ذلك ما سمح له بالحصول على منحة مالية لمتابعة دراسته عن البحرية في بريطانيا العظمى في عام 1871، حيث مكث حتى عام 1878. أنجز بعد عودته إلى اليابان الكثير من المهمات العسكرية البحرية وأظهر مقدرة تقنية عالية خلال الحرب الصينية - اليابانية. أصبح قبيل اندلاع الحرب اليابانية - الروسية مشرفًا رئيسًا على البحرية اليابانية، وقاد بنفسه العمليات البحرية الكبيرة، ونجح في سحق الأسطول الروسي في البلطيق في معركة تسوشيما (1905)، وفي بحر اليابان. أصبح في عام 1913 أميرالًا للبحرية اليابانية. واستمر تأثيره بوصفه قائدًا بحريًّا متمرسًا إلى عهد شوا.

تاتسونو كينغو (1854-1919): ينتمي تاتسونو كينغو إلى عائلة ساموراي من مقاطعة كاراتسو. سافر في عام 1880 إلى إنكلترا للدراسة في الأكاديمية الملكية للفنون. ومكث فيها حتى عام 1883 [410]. أصبح بعد عودته إلى اليابان أستاذًا في معهد كوبو، حيث درَّس مفاهيمَ المعمار في عام 1902. استقال من التدريس وتابع نشاطه المعماري الخاص، واشتُهر بكثير

(408) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/166.html?c=0>.

(409) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/141.html?c=0>.

(410) Melinda Takeuchi, *The Artist as Professional in Japan* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 2004), p. 189.

من الأعمال، منها تصميمه المكتب الرئيس لبنك اليابان ومحطة طوكيو[411].

سوغيورا جوغو[412] (1855-1924): من المفكرين والتربويين اليابانيين الذين نبغوا في العصر الحديث. وُلِد في شيغا عام 1855. التحق بالمدرسة الجنوبية (لاحقًا جامعة طوكيو) موفدًا من مقاطعته زيزي. درس بعد ذلك في أكاديمية كايساي (التي أُدمجت في ما بعد في جامعة طوكيو). اختير في عام 1876 للدراسة في بريطانيا العظمى.

أصبح في عام 1882 مديرًا للمدرسة التحضيرية لجامعة طوكيو، واستقال منها في عام 1885 ليتفرغ لعدد من المسؤوليات التربوية والصحافية. عمل مع ميياكي سيتسوري على تأسيس جمعية التثقيف السياسي القومية، وأصدر جريدة الشعب الياباني للتعبير عن هذا الاتجاه القومي. كما أسس مدرسة طوكيو للإنكليزية، مركّزًا على تعليم الأطفال الصغار. وتقلّد بعد أن عمل مديرًا لمعهد شنغاي وظائف تربوية أخرى. أصبح في عام 1914 أستاذًا خاصًا لولي العهد الياباني الذي درّسه علوم الأخلاق.

ناكانو هاتسومي[413] (1859-1914): وُلِد ناكانو هاتسومي لأسرة من الساموراي في مقاطعة أوغي. التحق في عام 1872 بمعهد كيرينشا للدراسات الإنكليزية، وحاز في عام 1881 دبلوم كلية المهندسين التي أصبح مدرّسًا فيها. سافر في عام 1888 إلى بريطانيا والولايات المتحدة لاستكمال دراسته العليا. عُيّن في عام 1891 أستاذًا في كلية التكنولوجيا في الجامعة الإمبراطورية. نال في عام 1899 الدكتوراه في الهندسة الضوئية. عمل رئيسًا لجمعية مهندسي الكهرباء، وساهم في الكثير من مشروعات الكهرباء في اليابان.

إيناغاكي مانجيرو[414] (1861-1908): وُلِد مانجيرو في ناغازاكي لأسرة من الساموراي في مقاطعة هيرادو. التحق في عام 1882 بالشعبة الأدبية

---

(411) Olive Checkland, *Japan and Britain after 1859: Creating Cultural Bridges* (London; New York: Routledge Curzon, 2003), p. 79.

(412) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/112.html?c=0>.

(413) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/152.html?c=0>.

(414) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/16.html?c=0>.

في جامعة طوكيو، وسافر إلى بريطانيا لاستكمال دراسته العليا في جامعة كمبريدج. وامتدت إقامته فيها من عام 1888 إلى عام 1890. كما انتسب إلى كلية غونفايل وكايوس في جامعة كمبريدج. وأسس نادي اليابانيين في الجامعة نفسها، وأصبح وجهًا بارزًا ومعروفًا داخلها. عمل بعد عودته إلى اليابان أستاذًا في المدرسة العليا للتجارة. عُيّن في عام 1897 نائب الوزير المقيم في تايلاند، ومبعوثًا فوق العادة ووزيرًا مفوضًا في البلد نفسه البلد في عام 1903.

ناغاشيغي كورودا[415] (1867-1939): يُعَدّ الابن الأول لناغاتومو كورودا (1838-1902)، أحد الساموراي الذين ناصروا عهد الميجي في حرب البوشين. درس ناغاشيغي في إنكلترا بين عامي 1884 و1889 في جامعة كمبريدج. ويبدو أنه حصل على نتائج متميزة في عملية التقويم التربوي، وهو ما تشهد عليه مقالة كتبها أحد اليابانيين، ورد فيها: «التحق ناغاشيغي بجامعة كمبريدج الذائعة الصيت، ودرس فيها مقرر التاريخ. وقد نجح في امتحان التخرج في الشتاء الماضي. ومن بين 14 طالبًا تقدموا للامتحان، لم ينجح منهم سوى سبعة طلاب. وحصل كورودا على المرتبة الأولى وتخرج فيها بامتياز»[416]. وبعد عودته إلى اليابان أصبح ضابطًا في البلاط الإمبراطوري. أصبح في عام 1892 عضوًا في مجلس الحكماء، وتقلد في عام 1924 منصب مستشار خاص لنائب رئيس المجلس.

ناتسومي سوسيكي[417] (1867-1916): نشأ سوسيكي في أوضاع عائلية صعبة. انجذب في البداية إلى الأدب الصيني، ثم التحق بجامعة طوكيو ودرس الهندسة المعمارية واللغة الإنكليزية. ونال دبلوم شعبة الإنكليزية في عام 1893، واشتغل بالتدريس في مؤسسات تربوية متعددة.

أرسلته الحكومة اليابانية للدراسة في إنكلترا عام 1900. ودامت إقامته فيها حتى عام 1903، ويبدو أنه عاش أوضاعًا مادية صعبة جعلته يعيش في شبه عزلة، منكبًا على قراءة الكتب والروايات الغربية. ولعل ذلك ما جعل اسم

(415) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/72.html>.

(416) Koyama, p. 82.

(417) بترجمة وتصرف عن: <http://www.shunkin.net/Auteurs/index.php?author=57>.

سوسيكي مقرونًا بمعرفة اليابانيين الثقافة الغربية. عمل بعد عودته إلى اليابان أستاذًا في جامعة طوكيو، واستمر في إنتاج المقالات والمؤلفات الأدبية التي كان من أبرزها «قط أنا» في عام 1905 .

شجعه النجاح الكبير لمؤلَّفه هذا على الانخراط كليًا في عالم الأدب والرواية، فأنتج عددًا كبيرًا من العناوين الأدبية التي جعلت منه علَمًا أدبيًا بارزًا استحق معها التكريم، على عادة اليابانيين في احترام الذاكرة التاريخية والاعتراف بالجميل لكل من أسدى خدمة للأرض التي «يبدأ» شروق الشمس منها.

ركّز سوسيكي في بعض مؤلفاته على تصوير الحالة النفسية لمثقفي اليابان الحديث، وابتكر أسلوبًا أدبيًا يختلف عن أسلوب الكتّاب الطبيعيين في تلك الحقبة. ويعدّ أحد أكبر الروائيين في تاريخ اليابان الحديث. واقتفى أثره بعض تلامذته، منهم سوهي موريتا وتويوتاكا كوميا.

إينو جونوسوكي[418] (1869-1932): رجل دولة ومتخصص مالي في حقبتي تايشو وشوا. حصل على دبلوم من الجامعة الإمبراطورية في طوكيو. عمل في عام 1896 في بنك اليابان. أرسلته الحكومة في عام 1897 إلى إنكلترا وبلجيكا من أجل استكمال دراسته العليا.

شغل بعد عودته إلى اليابان الكثير من المناصب المهمة، منها مدير الفرع المالي لمؤسسة أوساكا، والمدير العام لمكتب الصرف. التحق في عام 1911 ببنك يوكوهاما ثم تولّى إدارة هذا البنك في وقت لاحق. عُيّن في عام 1919 مديرًا لبنك اليابان. تولى وزارة المالية في ولاية كلٍّ من غونبي ياماموتو وأوزاشي هاماغوشي. بعد استقالته من منصبه، أصبح زعيمًا للحزب الديموقراطي. اغتيل في عام 1932.

فوروزاوا أورو[419] (1847-1911): رجل دولة ومسؤول حكومي. وُلِد في مقاطعة كوتشي لعائلة من الساموراي. انضم إلى الحركة من أجل إرجاع السلطة إلى الإمبراطور وطرد «البرابرة». ولعل ذلك من الأسباب الرئيسة التي

(418) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/235.html?c=0>.

(419) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/188.html?c=0>.

تفسر اختياره للذهاب إلى بريطانيا في عام 1870 من أجل الدراسة على نفقة الحكومة الجديدة. بعد عودته إلى اليابان أسس مع بعض رفاقه، منهم تايسوكي إيتاغاكي، حزب الشعب الوطني.

يبدو أن أورو تأثر بالمناخ الديمقراطي الذي شاهده في رحلته الدراسية، فكتب مذكرة تدعو إلى إنشاء برلمان ينتخبه الشعب. وخصص جزءًا كبيرًا من نشاطه السياسي لتشكيل ما أُطلق عليه جمعية الاعتماد على الذات. بعد حل الحزب الليبرالي عمل أورو مديرًا لأوساكا نيبو ورئيس تحرير صحيفة الحزب الصحافة الحرة الشرقية، ثم عمل مجدَّدًا في بعض الدوائر الحكومية، مثل وزارة الداخلية ووزارة الخارجية ووزارة الزراعة والتجارة. شغل في عام 1890 منصب مدير مكتب البريد في وزارة الاتصالات.

4 - نماذج من المتعلمين اليابانيين الموفدين إلى الولايات المتحدة

سايتو تاكاو[420] (1870-1949): سافر في عام 1901 إلى الولايات المتحدة حيث درس في جامعة يال. انتُخب في عام 1912 عضوًا في مجلس النواب، ونجح في الوصول إلى البرلمان 13 مرة. انتمى إلى الحزب الدستوري الوطني، والجمعية الدستورية، وجمعية الأصدقاء من أجل الدستور، والحزب الديمقراطي الدستوري. انتقد بشدة تدخّل الجيش في الحياة السياسية في وقت كانت فيه اليابان تميل نحو مزيد من التوسع على حساب دول الجوار.

تاكاغي سابورو[421] (1841-1909): دبلوماسي ورجل أعمال. وُلِد في طوكيو لأسرة من الساموراي في مقاطعة شوناي. التحق في عام 1859 بمعهد الملاحة الحربية، ثم سافر إلى الولايات المتحدة من أجل استكمال دراسته. أصبح في عام 1871 أمين المفوضية اليابانية في الولايات المتحدة. بذل جهدًا دبلوماسيًا في سبيل إبرام معاهدة في قطاع البريد، على قدم المساواة بين الولايات المتحدة واليابان. تقاعد من وزارة الخارجية عام 1880، وكُلف إدارة شركة يوكوهاما لتصدير الحرير، واهتم بإيجاد أسواق جديدة وتحسين صناعة اللف والحرير.

---

(420) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/270.html?c=3>.

(421) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/118.html?c=0>.

كومورا جوتارو[422] (1855-1911): دبلوماسي ياباني. وُلِد لأسرة من الساموراي في مقاطعة أوبي. تعلم كغيره من أطفال الساموراي في مدرسة محلية. واصل دراسته في المدرسة الجنوبية (جامعة طوكيو لاحقًا) موفدًا إليها من مقاطعته. اختارته وزارة التربية في عام 1875 للدراسة في جامعة هارفارد حيث دامت دراسته القانونية فيها حتى عام 1878.

عمل بعد عودته إلى اليابان في وزارة العدل. عُيّن قاضيًا في المحكمة العليا. أصبح في عام 1888 مديرًا لمكتب الترجمة في وزارة الخارجية. تقلّد الكثير من المناصب المهمة، منها منصب نائب وزير الخارجية ومنصب مبعوث إلى الولايات المتحدة وروسيا والصين. أصبح في عام 1901 وزيرًا للخارجية في ولاية كاتسورا الأولى، ووقّع التحالف الياباني - الإنكليزي في عام 1902. شارك في مؤتمر بورتسموث للسلام بعد الحرب الروسية - اليابانية في عام 1905 بوصفه وزيرًا مفوضًا. كما عُيّن سفيرًا لليابان في الولايات المتحدة الأميركية. عُيّن في عام 1908 وزيرًا للخارجية مرة أخرى في الولاية الحكومية الثانية لكاتسورا.

إيواكارا توموسادا[423] (1852-1910): ينتمي توموسادا إيواكارا إلى أسرة نبيلة، وهو الابن الثالث لإيواكارا تومومي المسؤول الرئيس عن بعثة إيواكارا المشهورة. شارك إلى جانب القوات الإمبراطورية في حرب البوشين. سافر في عام 1870 إلى الولايات المتحدة للدراسة. ويبدو أنه ركّز على تعلم المواد القانونية والدستورية، ورافق إيتو هيروبومي في عام 1882 في رحلته إلى أوروبا للاطّلاع على تجاربها ومدوناتها الدستورية.

كُلّف الكثير من المهمات، منها عضو لجنة البحوث في النظام الإمبراطوري. أصبح عضوًا في مجلس الحكماء ومستشارًا خاصًا في عام 1900، ووزيرًا للبلاط الإمبراطوري في عام 1909.

---

(422) بتصرف عن: <httpc://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/83.html?=0>.

(423) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/22.html?c=0>.

إينيو ريوتشي[424] (1851-1913): ضابط بحري. وُلِد في كاغوشيما لعشيرة من الساموراي. سافر في عام 1872 إلى الولايات المتحدة للدراسة في الأكاديمية البحرية في أنابوليس، وامتدت دراسته فيها إلى عام 1881. عُيّن بعد عودته إلى اليابان ربّانًا لسفن حربية. وحمل رتبة لواء بحري (Vice Admiral) في عام 1905.

أكيياما سانييوكي[425] (1868-1918): ضابط بحري. وُلِد في إيهيم لأسرة من الساموراي في مقاطعة ماتسوياما. تخرج في الأكاديمية البحرية. أصبح في عام 1892 قائدًا برتبة مقدم. شارك في الحرب الصينية - اليابانية. أُرسل في عام 1897 إلى الولايات المتحدة للتعلم. تابع دراسة متعمقة في بعض النظريات العسكرية التي شملت مراقبة العمليات البحرية في الحرب الإسبانية - الأميركية. كما تدرب في البحرية الأميركية. ألقى بعد عودته إلى اليابان محاضرات عن الاستراتيجيا البحرية والتكتيكات الحربية.

استُخدمت نظريته لفترة طويلة قاعدة أساسية في العلوم البحرية اليابانية. قام بدور نشط في الحرب الروسية - اليابانية، وأصبح رئيس مكتب الشؤون البحرية في عام 1914، ولواء بحريًا في عام 1917.

تاكاهاشي كوريكيو[426] (1854-1936): رجل دولة ياباني، من عائلة ساموراي. درس في الولايات المتحدة الأميركية، وعمل بعد عودته إلى اليابان في وزارة التربية ووزارة الفلاحة والتجارة.

عمل في عام 1892 في بنك اليابان. أصبح نائبًا لمدير البنك في عام 1899. أظهر كفاءة في تعويم القروض الخارجية لجمع الأموال اللازمة للحرب الروسية - اليابانية. تقلّد الكثيرَ من الوظائف ذات الصلة بتخصصه المالي، منها وزارة المالية في الولاية الأولى لحكومة ياماماتو وهارا. أصبح في عام 1921 وزيرًا أول. عُرف عنه انحيازه إلى المبادئ الدستورية، واهتم بمراقبة

(424) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/20.html?c=0>.

(425) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/222.html?c=0>.

(426) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/122.html?c=0>.

النفقات العسكرية. عارض النفوذ المتزايد للعسكريين في الحياة السياسية، وكان ذلك من الأسباب التي عجّلت باغتياله قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتوسع اليابان على حساب دول الجوار.

هامادا إيتشيسوكي[(427)] (1855-1911): رجل أعمال ياباني. وُلِد في كاغوشيما لأسرة من الساموراي. سافر إلى الولايات المتحدة في عام 1882 للدراسة، ومكث فيها للعمل في القنصلية اليابانية في نيويورك. عمل بعد عودته إلى اليابان في وزارة المالية. زار الكثيرَ من البلدان الغربية ودرس نشاط مصارفها، وعمل في بنك اليابان.

ركّز إيتشيسوكي جهده في أثناء عمله مديرًا لمكتب التفتيش على إصلاح المنظومة النقدية. استقال في عام 1899 من منصبه، وأصبح مدير شركة السكك الحديد في كيوشو ومدير البنك الإمبراطوري التجاري.

نيتوبي إينازو[(428)] (1862-1933): رجل تربية ياباني. وُلِد في إيواتي لأسرة من الساموراي في مقاطعة موريوكا. حصل في عام 1881 على دبلومه الدراسي من كلية سابورو. سافر في عام 1884 لاستكمال تعليمه العالي في الولايات المتحدة الأميركية. دامت دراسته فيها حتى عام 1891. تقلّد بعد عودته الكثير من المناصب المهمة، منها مناصب أستاذ في كلية الزراعة في سابورو، وأستاذ في جامعة طوكيو الإمبراطورية، وأول رئيس لجامعة طوكيو للنساء المسيحيات. كما شغل منصب وكيل الأمين العام لعصبة الأمم في الفترة 1919 - 1926. من أبرز مؤلفاته **البوشيدو، روح اليابان** الذي ألّفه في عام 1900.

نيري كاغينوري[(429)] (1831-1900): ضابط بحري. وُلِد في كاغوشيما لأسرة من الساموراي. وفي عام 1867، أوفدته قبيلته للدراسة في الولايات المتحدة. وفي عام 1872، اشتغل بالقوات البحرية وأصبح ضابطًا برتبة مقدم. وبعد أن عمل في منصب كبير في الأكاديمية البحرية، وقائدًا للمحطة البحرية

---

(427) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/169.html?c=0>.

(428) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/311.html?c=0>.

(429) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/159.html?c=0>.

لمنطقة طوكاي (Tokai)، وقائد الأسطول الأوسط، أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة العسكرية التي أنشئت حديثًا في مكتب الإدارة البحرية في عام 1884. وفي عام 1885، أصبح برتبة لواء بحري، وابتداءً من 1886 تقلد الكثيرَ من المناصب كان من أبرزها منصب وزير البحرية في وزارة إيتو الثانية، وقد ركز جهده على تحسين سلاح البحرية الياباني.

ماتسوي ناوكوتشي[430] (1857-1911): درس في شبابه في المدرسة الجنوبية (جامعة طوكيو لاحقًا) موفدًا من مقاطعته، أوجاكي. سافر في عام 1875 للدراسة في شعبة علوم التعدين في جامعة كولومبيا، وامتدت دراسته فيها إلى عام 1880. عمل بعد عودته إلى اليابان في شعبة العلوم في جامعة طوكيو. حصل في عام 1888 على الدكتوراه في العلوم، وعُيّن في عام 1890 أستاذًا في كلية الزراعة في الجامعة الإمبراطورية، كما تقلّد في عام 1905 منصب رئيس جامعة طوكيو الإمبراطورية.

دان تاكوما[431] (1858-1932): رجل أعمال ياباني وزعيم مؤسسة مجموعة ميتسوي المالية. وُلِد في فوكوكا لأسرة من الساموراي. سافر إلى الولايات المتحدة في عام 1871 لدراسة هندسة التعدين، وعاد إلى اليابان في عام 1878. التحق بوزارة الصناعة في عام 1884، وعمل في مؤسسة مناجم الفحم ميكي التي بيعت لميتسوي في عام 1888، وأصبح دان المدير العام لشركة مناجم الفحم.

نال في عام 1899 الدكتوراه في الهندسة. اختير في أثناء إقامة مؤسسة ميتسوي غومي كايشا قطبًا مركزيًا لمجموعة ميتسوي المالية وعُيّن في عام 1909 مستشارًا لها، ورُقّي إلى رتبة مدير في عام 1914. كُلّف الكثير من المناصب التنفيذية المالية، منها مدير نادي الصناعة في اليابان. في عام 1928، رُقّي الى رتبة «بارون». وفي عام 193 اغتاله عضو في مجموعة «رابطة الدم» اليمينية.

(430) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/193.html?c=0>.

(431) بتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/291.html?c=0>.

كانيكو كينتارو[432] (1853-1924): وُلِد كانيكو كينتارو لأسرة من الساموراي في مقاطعة فوكوكا. اختاره زعيم قبيلته ناغاتومو كورودا في عام 1871 للسفر إلى الولايات المتحدة لدراسة القانون في جامعة هارفارد ضمن بعثة إيواكارا. استمرت دراسته إلى عام 1878، حيث التقى في الجامعة نفسها المتعلم الياباني كومورا جوتارو الآنف الذكر. وأقام علاقات واسعة في أميركا برجال القانون والعلم والصحافة والصناعة.

نال كينتارو شهادته الجامعية من هارفارد، وعاد إلى اليابان، وتقلد الكثير من المناصب المهمة؛ ففي عام 1880 عمل في مجلس الشيوخ، وشارك في لجنة صوغ دستور الميجي، كما ساهم في تطوير الأنظمة القانونية. في عام 1890 أصبح السكرتير الأول لمجلس النواب.

على المستوى الحكومي، عُيّن وزيرًا للفلاحة والتجارة في الولاية الحكومية الثالثة لإيتو هيروبومي، ووزيرًا للعدل في الولاية الرابعة لوزارة إيتو. بذل جهدًا دبلوماسيًا في الولايات المتحدة في بداية الحرب الروسية - اليابانية.

إيكاوا يوشيسوكي[433] (1880-1967): رجل أعمال ورجل دولة ياباني. وُلِد في ياماغوتشي، وتخرج في الجامعة الإمبراطورية في طوكيو عام 1903. سافر إلى الولايات المتحدة، ودرس فيها تكنولوجيا تطويع صب الحديد .

وبعد عودته الى اليابان، أنشأ مسبك توباتا، بدعم من كارو إينو. أصبح في عام 1928 رئيسًا لشركة التعدين كوهارا (لاحقًا شركة نيسان). في عام 1937 قام أيكاوا بتوسعة أعماله في منشوريا. وبعد عودته الى اليابان، شغل منصب مستشار في مجلس الوزراء.

سايتو ماكوتو[434] (1858-1936): وُلِد في إيواتي لأسرة من الساموراي في مقاطعة ميزوساوا. تخرج في عام 1879 في الأكاديمية البحرية. سافر في عام 1884 للدراسة في الولايات المتحدة، واستمرت إقامته فيها إلى

(432) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/57.html>.

(433) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/226.html?c=0>.

(434) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/87.html?c=0>.

عام 1888. أصبح ملحقًا عسكريًا في المفوضية اليابانية. أصبح بعد عودته إلى اليابان عضوًا في هيئة أركان البحرية اليابانية وقائدًا لسفن حربية، مثل إيتسوكوشيما واكيتسوشيما. كما أصبح نائبًا لوزير البحرية عندما اندلعت الحرب الروسية - اليابانية عام 1905. تولّى وزارة البحرية ثمانية أعوام في وزارة سايونجي الأولى إلى حدود ولاية ياماموتو الأولى، واهتم بتطوير البحرية اليابانية. عُيّن حاكمًا لكوريا في فترتين: من عام 1919 إلى عام 1927 ومن عام 1929 إلى عام 1931. تقلد منصب الوزارة الأولى في عام 1932 في حكومة وحدة وطنية. اغتيل في عام 1936.

ميتو سانجي[435] (1867-1934): من رجال الأعمال ومن رموز اليابان الحديثة. وُلِد في إيهيم، وتخرج في عام 1884 في جامعة كيو. سافر في عام 1885 إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته، ومكث فيها إلى حدود عام 1887. أسّس بعد عودته إلى اليابان أول وكالة إعلان صحافية بعد أن تقلّب في كثير من المهن المختلفة ذات العلاقة بقطاع الصحافة. التحق ببنك ميتسوي وأصبح رئيسًا له في عام 1921. شغل منصب عضو في البرلمان. انتقد بشدة مظاهر الفساد في الأجهزة الحكومية والدوائر المالية، فكانت نهايته اغتيالًا بالرصاص.

نوغوتشي هيديو[436] (1876-1928): عالِم بكتيريا ياباني. عمل في معهد الأمراض المُعْدِية. سافر في عام 1900 إلى الولايات المتحدة لاستكمال تخصصه العلمي، حيث نجح في بعض البحوث المتعلقة بداء الزهري بمعهد روكفيلر للبحوث الطبية، واعتُبر بذلك مكتشفًا للسبب المسؤول عن داء الزهري.

حصل في عام 1911 على الدكتوراه. كما نال بعد عودته إلى اليابان الجائزة الإمبراطورية من أكاديمية اليابان في عام 1915، وأصبح عضوًا فيها في عام 1923. زار، في مهمة علمية، أميركا الوسطى وأميركا الجنوبية وبعض البلدان الأفريقية للبحث عن أسباب مرض الحُمَّى الصفراء، لكنه أُصيب بالمرض نفسه وتوفي في غانا عام 1928. وكانت الكلمات الأخيرة التي نطق بها: «لا أفهم».

---

(435) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/341.html?c=0>.

(436) <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/312.html?c=0>.

ماتسوكا ياسوكي[437] (1880-1946): دبلوماسي ياباني ورجل دولة. سافر إلى الولايات المتحدة وهو دون الثالثة عشرة من عمره. تخرج في جامعة أوريغون. عاد إلى اليابان في عام 1902، وخدم في السلك الدبلوماسي في كثير من البلدان، منها الصين وروسيا والولايات المتحدة. عُيّن في عام 1921 مديرًا لسكة الحديد في منشوريا.

انتُخب في عام 1930 عضوًا في مجلس النواب. أُرسل مندوبًا مفوّضًا إلى عصبة الأمم. انسحب من محادثات عصبة الأمم بشأن حوادث منشوريا في عام 1933، معارضًا القرارات الدولية المتعلقة بالمسألة، الأمر الذي أدى إلى انسحاب اليابان من العصبة.

عقد ماتسوكا اتفاقًا ثلاثيًا ضم اليابان وألمانيا وإيطاليا في عام 1940، واتفاقية حياد الاتحاد السوفياتي في عام 1941، عندما كان وزيرًا للخارجية في ولاية كونو الثانية.

إيكيدا شيغيكي[438] (1867-1950): من رجال المال والأعمال في اليابان. وُلِد في ياماغاتا لأسرة من الساموراي في مقاطعة يونيزاوا. درس في جامعة كيو التي أسسها فوكوزاوا يوكيتشي. سافر إلى الولايات المتحدة للدراسة. انتسب إلى جامعة هارفارد الأميركية، وتخرج فيها عامَ 1895. عمل بعد عودته إلى اليابان في كثير من القطاعات، منها القطاع المصرفي، حيث اشتغل في بنك ميتسوي، وأصبح مديرًا عامًا له في عام 1919. أدخل عددًا كبيرًا من الإصلاحات المالية، مثل إشراك الجمهور في شراء الأسهم، واعتماد نظام التقاعد. عُيّن في عام 1937 مديرًا عامًا لبنك اليابان. تولى وزارة المالية ووزارة التجارة والصناعة في وزارة كونو الأولى في عام 1938. عُين مستشارًا خاصًا في عام 1941.

❊ ❊ ❊

إن معلومات النماذج المختارة هذه تكشف عن دور الخارج الغربي

---

(437) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/333.html?c=0>.

(438) بترجمة وتصرف عن: <http://www.ndl.go.jp/portrait/e/datas/229.html?c=11>.

في تأطير النخب التي أثّرت بقوة في مسيرة اليابان نحو التحديث، في عهود الميجي (1868–1912) وتايشو (1912–1926) وشوا (1926–1989).

ركّز اليابانيون على مختلف صنوف المعرفة العلمية العسكرية والسياسية والطبية والمالية والاقتصادية، وتجاوزوا ذلك بالاطّلاع على الجوانب الفلسفية والفكرية والفنية التي كانت تعرفها أوروبا وأميركا آنئذٍ، وهو ما يدل على طابع الشمولية في فهم عناصر القوة الغربية ومحاولة الرد عليها في جوانبها المتعددة والمتباينة.

الملاحَظ أن أغلب النماذج التي تناولتها العيّنة احتلت بعد عودتها إلى اليابان مواقع متقدمة واستراتيجية في الإدارة اليابانية، وفي قطاعي المال والاستثمار، وفي ميادين الفن والأدب والفلسفة.

تقلّدت هذه الشخصيات مواقعها الريادية في اليابان الحديثة في موازاة الاستغناء عن خدمات الخبراء الأجانب، وهي إشارة تدل على الإمكانات والمؤهلات الذاتية التي مكّنت اليابانيين بنجاح من الاستعاضة عن الخبرة الغربية.

كان أفراد العيّنة ينتمون في أغلبهم إلى طبقة الساموراي المنحلّة وإلى دوائر النبلاء اليابانيين. كما نجح عدد كبير منهم في الحصول على منح دراسية في الخارج بسبب الخدمات التي قدمها إلى العهد الإمبراطوري الجديد. علاوةً على ذلك، كانت الكفاءة مقياسًا محددًا في هذا الاختيار، بدليل أن أغلب المتعلمين اليابانيين أثار الانتباه في الجامعات الغربية في كلٍّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، وحقق نتائج جيدة في فترة تحصيله الدراسي.

انفتحت الإدارة اليابانية الجديدة على مختلف الطاقات، بمن فيها تلك التي شاركت في قوات الباكوفو ضد الجيش الإمبراطوري. من جانب آخر، أدّت الجامعات الخاصة، مثل جامعة كيو، دورًا بارزًا في موضوع البعثات التعليمية اليابانية إلى الخارج، بفعل التكوين العلمي الجيد لطلبتها، الأمر الذي أهّلهم للإفادة من منح الدراسة في الخارج.

استفادت الفئات الفقيرة من المنح الدراسية لاستكمال التكوين في أوروبا

والولايات المتحدة، واعتُبرت الكفاءة شرطًا أساسًا للانخراط في ذلك؛ فقد كان التسابق محمومًا للحصول على مكانة مجتمعية ملائمة.

توفّرت اليابان بفعل هذه الكفاءات على طاقات محلية تمتعت بسِمة القيادة الوطنية المستقلة والخالصة. وتوفّرت على حرية الفعل المتفلت من الضغط الأجنبي، وفتحت أمامها المنافذ للتعبير عن قدراتها العلمية والسياسية والفكرية والإبداعية.

هي مسألة تختلف تمامًا عن أنموذج البعثات التعليمية المغربية التي رجع أفرادها في سياق سيطرة شاملة للبعثات العسكرية الأجنبية على الوضع الداخلي، واستمرارية الجهاز الإداري والسياسي نفسه والبناء المجتمعي المرتبط بالأزمة التي ظل يعانيها المغرب طوال القرن التاسع عشر. والملاحَظ أن أعدادًا كبيرة من المتعلمين اليابانيين توجّهت إلى ألمانيا التي كانت تعيش أوج قوتها العسكرية والسياسية، وشكلت أنموذجًا بارزًا للاقتداء والتمثل بالنسبة إلى النخب اليابانية.

ركّزت الإدارة اليابانية في تكوين الكفاءات المحلية على الأنموذج الألماني الذي توقف عنده مليًا أعضاء بعثة إيواكارا في عام 1871، واستلهم منها إيتو هيربومي وفريق عمله الأنموذج الدستوري البروسي القديم.

إذا كانت أعداد اليابانيين قد تقلصت من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى بسبب تعارض الطموحات الإمبريالية للبلدين في الشرق الأقصى، فسرعان ما عادت الوشائج الدبلوماسية بينهما في عهد حكومة فيمار.

يذهب كاتو تيتسوري إلى تفسير بعض أسباب التدفق الياباني على بلاد الجرمان بعوامل اقتصادية ومالية، منها التضخم المالي الجامح الذي عرفته ألمانيا بفعل قرارات مؤتمر ڤرساي وعجزها عن دفع الغرامة الحربية الثقيلة، الأمر الذي دفع الفرنسيين والبلجيكيين إلى الدفع بقواتهم إلى منطقة الرور الغنية والاستراتيجية، فأدى ذلك إلى تدهور الاقتصاد المحلي وتفشي البطالة وانهيار قيمة العملة المحلية؛ ففي عام 1921 كانت قيمة صرف الدولار

الأميركي 64 ماركًا ألمانيًا، ووصل في عام 1923 إلى رقم قياسي قُدّر بـ4.200.000.000.000 مارك ألماني. وقدمت هذه الأزمة المالية خدمة رئيسة للطلبة اليابانيين الذين أقبلوا على شراء الكتب لإغناء المكتبات الجامعية اليابانية[439]، وتمويل مستلزمات الدراسة.

على الرغم من ذلك، أثارت ألمانيا الاهتمام الياباني بفعل قوة رموزها العلمية والفكرية والسياسية والعسكرية على المستوى العالمي، وبسبب تشابه نسق التطور السياسي بين البلدين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فقد رأت «النخب الثقافية اليابانية في حكومة فيمار أنموذجًا لحرية البحث الأكاديمي، وجذبت ألمانيا بذلك الكثير من مقدّمي طلب الالتحاق بالمعاهد الجرمانية»[440].

تثير المعلومات الخاصة بالمتعلمين اليابانيين جملة من القضايا، في مقدمتها الاهتمام بجوانب التخصص العلمي، والتركيز على مسألة العلوم التطبيقية التي احتاجت إليها الصناعة اليابانية في مشروعها التحديثي. كما لم تأخذ الإدارة المنظمة لهذه البعثات بأنموذج غربي معيّن، بل حددت لها البلدان التي كانت تشهد تحولات علمية متلاحقة، كالولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا. وأسفرت العملية عن نتائج متميزة تجلّت في انخراط النماذج المذكورة أعلاه في مسيرة التنمية المحلية؛ فجوجي ساكوري (1858-1939) الذي اختارته الحكومة لدراسة الكيمياء في لندن في عام 1878، عُيّن مباشرة بعد عودته في عام 1881 مدرّسًا في جامعة طوكيو الإمبراطورية[441]، وكان له دور أساس في مجموعة من البحوث التطبيقية. وتولى أوميتارو سوزوكي (1874-1943)، الذي تابع دراسته المعمقة في جامعة برلين بين عامي 1901 و1906، مباشرة بعد عودته، منصب أستاذ في المعهد العالي للزراعة في موريوكا[442]، ووضع تقارير علمية عن بحوثه المخبرية.

لم يكتف أمثال هؤلاء بتدريس الأطر المحلية وتكوينها، بل انخرطوا في

---

(439) Tetsuro KATO, «Paving the Way? Cultural Relations and the political Rapprochement in the 1920s,» in: Spang and wippch, eds., Japanese - German Relations, on the web: <http://members.com.home.me.jp/katori/japan.html>.

(440) Spang and Wippich, eds., p. 123.

(441) Şener, ed., p. 5.

(442) المصدر نفسه، ص 6.

إنتاج المعرفة التطبيقية من خلال العمل في المختبرات العلمية، مستفيدين من الدعم المالي الحكومي والخاص، ومن توجّه اليابان إلى دعم مشروعاتها الصناعية والزراعية المختلفة.

خامسًا: المعايير والدعامات المالية

نظمت إدارة التوكوجاوا مجموعة من البعثات التعليمية إلى الولايات المتحدة وأوروبا، وكانت تهدف، من خلالها، تجديد إمكاناتها ومقاييسها العسكرية والسياسية. وكان من الطبيعي أن يكون انتقاء أفراد البعثات من طبقة الساموراي باعتبارها القوة الأمنية الضاربة، والأساس العسكري والأمني الذي حاول الباكوفو الاعتماد عليه لاسترجاع هيبته التي ذهبت بها أساطيل بيري والاتفاقيات غير المتكافئة بين اليابان والدول الغربية.

اختير يوكيتشي، مثلًا، للمشاركة في البعثات التعليمية 1860–1862–1867، اعتمادًا على هذا الانتماء قبل النظر إلى إمكاناته العلمية والفكرية. وأفصح يوكيتشي عن الجهد التي بذله لاختياره ضمن أعضاء بعثة عام 1860 إلى الولايات المتحدة، وقد قال في هذا الصدد: «من حسن الحظ أنه كان هناك قريب للقبطان كيمورا وثيق الصلة به ضمن معارفي، وكان طبيبًا يعمل في خدمة الشوغون، هو الدكتور كاتسورا جاوا الذي كان طلاب البلاد كلهم ينظرون إليه باعتباره راعي التعليم الهولندي في اليابان... ومن هنا، ناشدته أن يسطر لي رسالة تعريف بي، ومضيت إلى دار القبطان كيمورا، ورجوته أن يصحبني كخادم له. ومن حسن الحظ أنه استجاب لطلبي ووافق في الحال على مشاركتي في الرحلة»[443]. إذًا، الانتماء إلى طبقة الساموراي ووجود معارف هما اللذان ساهما في اختيار أعضاء بعثة عام 1860 إلى الولايات المتحدة.

على الرغم من قرار حل طبقة الساموراي وإلغاء النظام الفيودالي، بعد قيام عهد الميجي، كان أغلب أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى البلدان الغربية من فئة الساموراي المنحلّة، بسبب ما راكمته من تجارب على مستوى التفاعل

(443) يوكينشي، ص 141.

مع القضايا التعليمية، أو مشاركة الكثير من أفرادها في التحالف الذي ضم المقاطعات المعارضة للباكوفو ورموز النظام الإمبراطوري.

تفصح وزارة التربية الوطنية اليابانية، نفسها، عن انتساب معظم أفراد البعثات التعليمية اليابانية الموفدة إلى الغرب إلى أفراد من أسر الساموراي. وإن كانت قد استدركت الأمر واعتبرته اختيارًا غير لائق وعقّبت على ذلك بقيام الحكومة في عام 1873 باستدعاء جميع الطلبة الموفدين إلى الخارج، واختارت طلبة من مدرسة كايسي (لاحقًا جامعة طوكيو)، وأرسلت تسعة منهم إلى الولايات المتحدة وواحدًا إلى فرنسا وبريطانيا[444].

من جانب آخر، تذكر بعض الدراسات اليابانية، وهي تتطرق إلى البعثة التي أوفدها التوكوجاوا إلى بريطانيا في عام 1866 ما يلي: «بعد امتحان في الإنكليزية (ترجمة سهلة من الإنكليزية إلى اليابانية ومن اليابانية إلى الإنكليزية) في مؤسسة دراسة كتب البرابرة، نجح 12 طالبًا من بين عشرين مرشحًا»[445]. ويبدو أن هؤلاء المتفوقين كانوا من أبناء مؤطري المدرسة التي وقع فيها الامتحان[446]. وربما يشير ذلك إلى الدسائس والمؤامرات التي أوردها يوكيتشي في مذكراته، كما سنذكر ذلك لاحقًا. وإذا كان ديروكو كيكوتشي الذي سبق أن تحدثنا عنه قد حصل على نتائج متميزة في لندن، ونال بمقتضاها الجوائز والتقديرات، وتكلمت عليه الصحف البريطانية بإعجاب وتقدير، فقد كان أبوه ميتسوكوري شوهي (1826-1889م)، مدرّسًا مرموقًا بمؤسسة الدراسات الغربية[447].

نسج عهد الميجي مقاييس جديدة لمجتمع النيبون، وتميز قادته بجرأة كافية لسحب مقومات النظام القديم وبقاياه، وذلك بحل طبقة الساموراي، والتأسيس لنظام مجتمعي يواكب المبادئ العامة التي أعلنها الإمبراطور

(444) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, d: Japanese Students Studying Abroad and Foreign Teachers in Japan, on the Web: <http://211.120.54.153/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/hpbz198103_2_033.html>.

(445) Miyanaga, p. 110, on the Web: <http://ci.nii.ac.jp/search/servlet/Kensaku>.

(446) المصدر نفسه، ص 110.

(447) Koyama, p. 2.

موتسو هيتو، ومنها ضرورة البحث عن المعرفة/القوة في مختلف أنحاء العالم. بيد أن أساس التحول العام الذي عرفته اليابان ارتكز على المبدأ الذي فاضل بين الرتب المجتمعية، اعتمادًا على الكفاءة ومستوى التعليم. ولهذا السبب انتشرت بين أطياف المجتمع المختلفة حُمّى إرسال الأبناء للدراسة في الخارج، في الولايات المتحدة وأوروبا، على أساس أن إسناد المناصب الحكومية السامية كان في الأغلب مخصصًا لحاملي الشهادات الجامعية من الخارج. لكن هل كانت معظم الفئات المجتمعية قادرة، من دون دعم النظام المركزي، على تمويل دراسة الأبناء في الخارج؟ في هذا الإطار، يمكن استقراء بعض الملابسات التي رافقت عمليات إيفاد البعثات التعليمية إلى الولايات المتحدة وأوروبا من خلال ما أورده يوكيتشي في مذكراته حين قال: «كان لي ابنان، أولهما في السابعة من عمره والثاني في الخامسة من عمره وابنة صغيرة، وكنت أعلق الآمال على إرسال الصبيين كليهما إلى الخارج لتلقّي التعليم هناك، ولكنني لم أكن واثقًا من أنه سيقدَّر لي أن أكسب ما يكفي من المال لأتيح لهما هذا الامتياز.

عندما تلفت حولي لأتبين ما يقوم به الآخرون، وجدت معظمهم ضمن من يتم اختيارهم كطلاب حكوميين يُرسَلون إلى البلاد الأجنبية. وعندما ينجحون، بعد كل مفاوضاتهم ومؤامراتهم الخاصة، في إدراج أبنائهم في القوائم الحكومية، فإن البهجة تغمرهم...

وكان يساورني الشك في إمكانية كسب ما يكفي، في غضون العشر سنوات التي ينبغي أن تمضي قبل أن يكونا جاهزين لتلقّي تعليمهما في الخارج... وقبل أن يصل ولداي إلى سن التعليم في الخارج كان المال جاهزًا، وهكذا بعثت ابن أختي، ناكاميجارو هيكوجيرو، إلى إنكلترا لثلاث سنوات أو أربع، ومن الطبيعي أن تصل نفقاته إلى مبلغ كبير، ومع ذلك تمكنت من أن أخصص ما يكفي لإرسال ولديّ إلى الولايات المتحدة ست سنوات»[448]. وفي سيرته الذاتية، أفصح فوكوزاوا يوكيتشي عن الصعوبات المالية التي واجهها لإرسال بعض أبنائه وأقربائه للدراسة في الولايات المتحدة الأميركية.

---

(448) يوكيتشي، ص 308-310.

لم تكن معايير اختيار المتعلمين للدراسة في الخارج قائمة على الكفاءة والتميز فحسب، بل توسل بعضهم لتحقيق ذلك، بحسب يوكيتشي، الدسائس والمؤامرات، وهو ما جعله ينأى عنها ويبحث لنفسه وأبنائه مخارج مختلفة تعتمد على القدرات الذاتية المتسمة بالشفافية والنزاهة.

مثّل يوكيتشي أنموذج المثقف الملتزم والمستقل، وكان في وسعه وطاقته المناوَرة والتزلف للإدارة اليابانية الجديدة للحصول على مآربه الشخصية؛ فقد اتخذ الرجل مسافة فاصلة بينه وبين الأوليغارشيا المحيطة بالإمبراطور، ورفض على الرغم من ثنائه على بعض إصلاحاتها، تقلّد أي منصب في مؤسساتها الحكومية. وكان قد شارك في بعثتي الباكوفو إلى الولايات المتحدة في عامي 1860 و1867 وفي اتجاه أوروبا في عام 1862. ولم يكن متوقعًا منه أن يشارك في بعثة إيواكارا المشهورة، لأن ذلك عنى انخراط الرجل في حمأة التنظير للعهد الجديد، وهو الذي أراد البقاء بعيدًا، يرعى مؤسسته التعليمية (جامعة كيو) التي بدأت تنتج الأعلام التاريخية المتميزة في تاريخ اليابان الحديث والمعاصر.

فتح عهد الميجي أمام الكفاءات والنخب العلمية فرصًا حقيقية لتحسين الأوضاع الاقتصادية وللترقي الاجتماعي. وكان مسلك التعليم في الخارج سلّمًا يوصل إلى تقلّد المناصب المهمة في أجهزة الدولة التعليمية والاقتصادية والمالية. ولا شك في أن يوكيتشي كان يبحث لأبنائه عن مكان لائق في يابان جديدة يحتاج معها الفرد إلى مفاوضات ومؤامرات - بحسب تعبيره - للفوز بمنحة للدراسة في الولايات المتحدة أو أوروبا.

تذكر وزارة التربية في اليابان أن اختيار الطلبة المرشحين للدراسة في الخارج خضع لمعايير دقيقة بالشكل الذي يمكّنهم من الاستعاضة عن الأساتذة الأجانب في المؤسسات التربوية العليا وفي دوائر أخرى[449]، لكن ذلك لم يلغ بعض العناصر السلبية التي رافقت العملية، كما أورد يوكيتشي ذلك. وتعترف

---

(449) *Japan's Modern Educational System*, chap. 8: «The Administration of Scientificand Cultural Affairs», para. 4: International Exchange in the Fields of Science and Culture, (2): International Cultural Exchange in the Prewar Period.

الوزارة بأن عملية انتقاء الطلبة اليابانيين إلى الخارج كانت غير واضحة، لكن مع إنشاء وزارة التعليم في عام 1871، خضعت العملية لمعايير دقيقة. وابتداءً من عام 1875 وضعت نماذج اختيار واضحة[450].

كان معظم المسؤولين الذين تولوا مسؤولية الشؤون العملية في بعثة إيواكارا من البيروقراطيين الذين عملوا في حكومة باكوفو السابقة[451] وراكموا تجربة الاتصال بالغرب في نهاية عهد الباكوفو.

تشكَّل قادة «البعثة والمتخصصين الذين عيّنتهم الوزارات في غالبيتهم من مقاطعتي ساتسوما وشوتشو... إلا أن غالبية أفراد السكرتارية الذين اختيروا كانت من رجال الحكم العسكري السابقين الذين تعلموا وتدربوا على العادات الثقافية التي تراكمت خلال 250 عامًا من حكم الإقطاع في عصر إيدو»[452].

احتاجت الحكومة اليابانية إلى «قدر كبير من المعرفة التقنية الغربية، فأرسلت الطلبة في بعثات خارجية لتلقّي العلم والمهارات الحديثة... واتسمت تلك البعثات بالدقة الشديدة في اختيار أعضائها، فكانوا من أفضل النماذج الوطنية اليابانية في كل المجالات التي اختيروا لها»[453]؛ ذلك ما قاله رايشاور في كتابه الذي يغلب عليه طابع المقارنة بين اليابان والولايات المتحدة. بيد أن العملية لم تكن بالصورة والمآل نفسيهما؛ فقد ارتُكبت تجاوزات «عند اختيار الطلبة المرشحين للدراسة في الخارج؛ ذلك أن بعضهم رجع إلى اليابان من دون التمكن من تعلم لغة أجنبية»[454]. وربما يكون ذلك دليلًا على ما ذكره يوكيتشي بخصوص الدسائس والمؤامرات التي رافقت عملية إيفاد البعثات التعليمية اليابانية إلى الولايات المتحدة وأوروبا. وتنبهت الإدارة اليابانية إلى ضرورة اعتماد مقاييس أكثر دقة في اختيار الكفاءات، بغضّ النظر عن انتماءاتها وموقعها السابق من حركة الإحياء.

---

(450) المصدر نفسه.

(451) متشيو وأورشيا، ص 231.

(452) تاناكا، ص 23.

(453) رايشاور، ص 116.

(454) Rogers, p. 98.

على الرغم من هذه الملاحظة، فإن المقدمات محكومة بنتائجها؛ إذ تمكن أغلب الطلبة الموفدين إلى الخارج من توفير فرصة الاستعاضة عن الخبراء الأجانب الذين استعانت بهم حكومة الميجي في سبعينيات القرن التاسع عشر؛ ولا شك في أن ذلك تأسس على وجود نسق تعليمي، يسمح بانتقاء تربوي فاعل وموضوعي.

تشكلت قوى الإصلاح، ومن ضمنها أفراد البعثات من قادة الساموراي وأبنائهم، خصوصًا من الفئات أو الشرائح الوسطى والدنيا من ساكني المدن، فمنهم من كان يقوم بأعمال التجارة والصناعة والتعليم والثقافة والإدارة[455]. وكانت لأبناء الساموراي عن طريق البعثات الثقافية إلى الخارج حصة كبيرة استطاعت فيها النخب اليابانية التعرف إلى العلوم العصرية وأحدث التكنولوجيا الغربية[456].

مثّلت طبقة الساموراي أهم دعائم حركات الإصلاح في عهد الميجي، فقد ذهبت نسبة مهمة منهم إلى الغرب «للاطّلاع على ثقافته وعلومه العصرية، وعندما رجعت إلى اليابان تحمست للإصلاح وساندته بقوة»[457].

في هذا الشأن لم يكن انتماء أفراد البعثات إلى طبقة الساموراي شرطًا في اختيارهم، فقد تسببت الإصلاحات الاجتماعية وإزالة التمايزات الطبقية في بروز عنصر الكفاءة مقياسًا أساسًا في الميدان التعليمي في الداخل والخارج. وعوضًا عن الرتبة الاجتماعية «أصبح التعليم وسيلة للترقية الاجتماعية»[458].

لكن، ألم يكن أبناء الساموراي المستفيدين الأوائل من التعليم والانخراط في المؤسسات التعليمية التي أقامها التوكوجاوا والمقاطعات المعارضة؟ ألم يشكل ذلك مقدمة أساسية لانتقائهم ضمن أفواج البعثات التعليمية الموفدة إلى الخارج؟ صحيح أن النظام الجديد ألغى النظام الفيودالي وحل طبقة

---

(455) مسعود ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيًا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص 64.

(456) المصدر نفسه، ص 75.

(457) المصدر نفسه، ص 71.

(458) المحجوبي، ص 183.

الساموراي، لكنه لم يلغِ المزايا الثقافية والعلمية التي راكمتها على امتداد فترات طويلة.

من جانب آخر، تطلبت الدراسة في الخارج مبالغ مالية، لم يكن من السهل على الجميع توفيرها من دون دعم حكومي، أو من مؤسسات مالية واقتصادية، ودليل ذلك ما سبق أن ذكره يوكيتشي.

أورد ياسوزو هوري[459] في دراسة اقتصادية بعض الإحصاءات المتصلة بالمصاريف الخارجية (بالين) بين كانون الثاني/ يناير 1868 وحزيران/ يونيو 1875، كما هو موضح في الجدول (5-11) الآتي[460]:

الجدول (5-11)

المصاريف الخارجية (بالين)

المشتريات والمصاريف	المبلغ (بالين)
سلاح مصلحة الدفاع	3.443.965
السفن الحربية	1.700.108
سلاح البحرية اليابانية	1.074.279
المصالح الحكومية في الخارج	1.183.401
بعثة إيواكارا	1.076.068
مصاريف المتعلمين اليابانيين في الخارج	697.617
رواتب العمال الأجانب في الدوائر الحكومية	627.867
واجبات المشاركة في المعارض الدولية	831.220
اقتناء السفن التجارية وإصلاحها	347.269
المجموع	10.981.794

يبدو من هذه الأرقام الاهتمام الذي أولته الحكومة لمسألة التعليم في الخارج؛ فقد فاقت مصاريف كلٍّ من بعثة إيواكارا وتمويل المتعلمين في الخارج (1.773.685 ينًا) مصاريف المصالح الحكومية في الخارج (1.183.401)

(459) ياسوزو هوري: أستاذ التاريخ الاقتصادي في جامعة كيوتو.

(460) Yasuzo Horie, «Japan's Balance of International Payments in the Early Meiji Period,» *Economic Review*, vol. 24, no. 1 (April 1954), p. 25.

وقيمة مشتريات السفن الحربية (1.700.108)، واحتلت المرتبة الثانية بعد قيمة مشتريات سلاح وزارة الدفاع (3.443.965). وبسبب رغبة اليابان، في بداية عهد الميجي، في عدم تلقّي مساعدات أجنبية، «تكلفت الحكومة والمؤسسات الخاصة تمويل متطلبات جلب الخبرة الأجنبية التي ساهمت، إلى جانب اعتماد إلزامية التعليم الابتدائي وإجبارية الخدمة العسكرية، في حدوث أزمة مالية خطِرة»[461]. كما بلغت نسبة نفقات الحكومة المركزية بين عامي 1868 و1892 نسبًا مهمة، منها 1.5 في المئة خُصصت للخبراء الأجانب، و0.4 في المئة لإرسال أكثر من 4000 طالب وموظف حكومي للتدرب والدراسة في الخارج[462]. كما كلّف كل متعلم ياباني في الخارج الحكومة اليابانية 1000 ين سنويًا[463].

أدرك اليابانيون أهمية التمويل والدعم المادي للبعثات التعليمية في الخارج، وكانت البعثات تضم في الأغلب بين أعضائها من يتكلف مسألة تمويل أعضاء البعثات الذين كانت تُمنح لهم اعتمادات مالية خاصة بعد عملية الانتقاء التي كانت تحصل داخل المؤسسات العمومية اليابانية.

احتاجت عملية التحديث الياباني إلى إمكانات مالية ذاتية، «ولم تلجأ إلى رأس المال الأجنبي إلا في حالات استثنائية وبقدر نزير... ذلك أن رجال الإصلاح في اليابان رأوا أن النهضة لا يمكن أن تقوم على الموارد الخارجية، وأن المديونية تتنافى مع التنمية الحقيقية ومع الاستقلال والسيادة»[464].

بدأت حكومة الميجي عملها بالهيمنة على المؤسسات الاقتصادية الكبرى والمصانع المرتبطة بالإنتاج العسكري التي أُسست في العقود الأخيرة من عهد توكوغاوا... وأدّت الدولة الدور الرئيس في إرساء قواعد عدد من المشروعات الاقتصادية الكبرى في الصناعات الثقيلة[465].

(461) E. Wayne Nafziger, *Learning from the Japanese: Japan's Pre-War Development and the Third World* (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1995), p. 37.

(462) المصدر نفسه، ص 37-38.

(463) Johannes Hirschmeier and Tsunehiko Yui, *The Development of Japanese Business, 1600-1973*, Economic History (Hoboken: Taylor and Francis, 2006), p. 78.

(464) المحجوبي، ص 179.

(465) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 252.

يتساءل بيير رينوفين عن المصادر المالية لهذه المشروعات التحديثية الضخمة، بما فيها إرسال البعثات إلى الخارج واستقبال الوفود التقنية الأجنبية. ومن رؤية تحليلية مقارنة بالثورة الصناعية البريطانية، يشير إلى أن هذه الأخيرة كانت مسبوقة بمرحلة نمو تجاري تمكّن من خلالها التجار من مراكمة الأرباح وتوظيفها في المقاولات الجديدة. أمّا اليابان، وبعد مرحلة عزلة طوعية جعلتها في وضع مختلف تمامًا، فكانت الأرض في نظره المصدر الوحيد للثروة، وافتقدت خواص رؤوس الأموال الكفيلة بتحقيق الاستثمار الصناعي[466].

مرة أخرى، يضعنا صاحب كتاب *L'Affaire de l'Extrême Orient* أمام إشكال ما فتئ يتكرر، ويتمثّل في التشديد بطريقة أو بأخرى، على أن الحضور الغربي والمساعدة المالية الغربية شكّلا شرطًا أساسًا لانطلاق المارد الياباني في آفاق التحديث الواسعة. ويستدعي هذا الإشكال بعض الملاحظات والتوضيحات:

اعتمدت حكومة الميجي على محاصيل الضرائب، خصوصًا الضريبة العقارية الجديدة التي سُنّت بعد إلغاء الإقطاع؛ ذلك أنها كانت باهظة جدًّا تُدفع للدولة نقدًا بحسب قيمة الأرض... كما وفرت أملاك عائلة الشوغون التي صودرت بعد ثورة عام 1868 موارد للدولة ساهمت في تمويل سياستها الاقتصادية. كما اعتمدت الدولة لإنجاز مشروعاتها على القروض الداخلية، وعلى التضخم المالي الناجم عن التلاعب بالعملة بعد استبدال العملة القديمة بالين في عام 1871 [467]. ومن جانب آخر، انخرط نحو 80 في المئة من السكان في نشاط الفلاحة، وعُدّت اليابان من كبريات البلدان المصدّرة للحرير والأرُز[468].

منذ عام 1880 بدأ الاسم زايباستو يتردد في جميع الوثائق الخاصة بالاقتصاد الياباني؛ فبات من الصعب على الشركات الأجنبية منافسة هذا الكارتل الاحتكاري في الأراضي اليابانية بسبب الدعم غير المحدود الذي منحه الإمبراطور للاحتكارات اليابانية. وقد انتعشت عملية التصنيع السريع في

(466) Renouvin, p. 96.

(467) المحجوبي، ص 179.

(468) Sylvaine Trinh, *Il n'y a pas de modèle japonais* (Paris: O. Jacob, 1992), p. 80.

اليابان على أساس تضافر الجهد بين الدولة وتكتل زايباتسو[469]. وضمن هذا الإطار برزت مجموعة الأربع الكبرى، وهي ميتسوي وميتسوبيتشي وسويتومو وياسودا[470]. ولم تظهر هذه المجموعات فجأة من دون مقدمات، ولم يرتبط بروزها بالتحدي الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فعائلة ميتسوي مثلًا أنشأت في عام 1683 في طوكيو أولى المحلات التجارية المتكاملة في العالم كله. كما أوجدت «درجة عالية من النظام النقدي ومؤسسات وسندات ائتمان متطورة جدًّا، منها الأوراق المالية والشيكات وضمانات المعاملات المؤجلة في الأرُز في أوساكا في عام 1730[471]».

بيد أن التحولات التي أحدثها عهد الميجي، خصوصًا في مجال إلغاء النظام الفيودالي وبداية الانخراط في آليات النظام الرأسمالي، أعطت هذه المؤسسات طفرات اقتصادية ومالية كبيرة. كما عرفت المؤسسات المالية تحسينات مهمة، فتمكنت المصارف الوطنية في عام 1872من وضع عملة ورقية. وفي سياق مسلسل الخصخصة، تحولت المصارف الحكومية إلى مصارف خاصة[472]. كما نجحت هذه الشركات، بفضل إمكاناتها المالية الضخمة، في تحديث وسائل إنتاجها وتحسين إنتاجيتها وزيادتها، والبناء على ذلك لتعجيل النهضة الاقتصادية[473].

في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، باعت الدولة المشروعات والممتلكات الحكومية بأسعار منخفضة لمن رأت الحكومة أنهم قيادات قادرة على إدارة تلك المشروعات إدارة حديثة[474].

لا تعني هذه المقدمات مثالية التنظيم الاقتصادي والمالي لإدارة الميجي؛

---

(469) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 68.

(470) المصدر نفسه، ص 69، وعبد السلام الحيمر، «صورة الحداثة الأوربية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية أنموذجًا)،» مكناسة، العدد 6 (كانون الثاني/ يناير 1992)، ص 162.

(471) عيساوي، ص 212.

(472) Grousset et Léonard, dirs., p. 1559.

(473) المحجوبي، ص 181.

(474) رايشاور، ص 259.

فقد تعرضت اليابان لمجموعة من الهزات المالية والاقتصادية في الفترة المذكورة[475]. وقد حاولنا إبراز السمة المؤسساتية لهذا التنظيم وتوجّهه نحو المناحي الإيجابية والفاعلة.

بدأ الاقتصاد الياباني يكتسي حلة عصرية متطورة في مرحلة الميجي[476]. وانصب اهتمام الحكومة على السيطرة على المصانع الكبيرة ذات الصلة بالصناعات الحربية واحتكارها[477]، وتسببت عملية التصنيع التي باشرتها الحكومة في ممارسة السلطة بفاعلية من جهة، وجذب تأييد جماعات وقوى جديدة من جهة أخرى، فأصبحت جماعات رجال الأعمال، وعدد من الفئات المهيمنة الأخرى ذات تأثير متزايد، وما عاد في وسع الأوليغارشية المحدودة والمستندة إلى جماعتي ساتسوما وشوتشو ضمان استمرارية هيمنتها[478].

احتاجت المشروعات الكبرى إلى تدخّل الدولة وتوفير إمكانات التحديث، من إرسال بعثات واستقدام خبراء أجانب وتشييد بنى تحتية وإقامة ورش كبرى.

اهتمت الهيئة الحاكمة بأهمية إغناء البلد وبتقوية الجانب العسكري، فركّزت على إنشاء الصناعات وحمايتها، وكانت الدولة القاطرة الأساسية في هذا السياق. لكن بعد أن اشتد عضد المؤسسات الصناعية، قامت الإدارة العمومية بخصخصتها، الأمر الذي أتاح نشوء تكتلات اقتصادية كبرى (الزايباتسو)[479] على غرار الاتحادات الاحتكارية (Trusts) في إنكلترا والولايات المتحدة، «وأصبحت تراقب قسمًا كبيرًا من النشاط الصناعي والتجاري والمصرفي. وكانت ميتسوي وميتسوبيتشي من أبرز الشركات التي تمكنت بفضل إمكاناتها المالية الهائلة من تحديث وسائل إنتاجها[480].

---

(475) متشيو وأورشيا، ص 203-220.

(476) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 251.

(477) المصدر نفسه، ص 252.

(478) رشاد، ص 150.

(479) Grousset et Léonard, dirs., p. 1559.

(480) المحجوبي، ص 181.

يعود ظهور مؤسسة ميتسوي إلى مرحلة الإيدو (1600-1868)، بالتحديد إلى عام 1673، عندما قام ميتسوي تاكايوشي، تاجر الأرُز ومقرض النقود، بفتح مجموعة من محلات الألبسة في إيدو (طوكيو حاليًا) وفي كيوتو، واستفادت هذه المؤسسة العائلية من فترة التصنيع في أثناء عهد الميجي (1868)[481]، كما تمكنت في عام 1872 من إرسال خمسة من أفرادها إلى الولايات المتحدة للدراسة لتتمكن من مواكبة مستجدات الأوضاع الاقتصادية[482]. وقد نجحت المؤسسة بفعل تشعب ضروب نشاطها في تفريع اختصاصاتها في الميادين التجارية والمصرفية والمنجمية.

ساهمت التكتلات الاقتصادية الجديدة في إرسال وفودها التعليمية الخاصة؛ فقد «تابع نحو 800 متعلم ياباني دراسته في الولايات المتحدة بين عامي 1868 و1900 بشكل مستقل عن البعثات الحكومية»[483].

وتمكنت اليابان بفعل إمكاناتها المالية من تمويل دراسة آلاف المتعلمين اليابانيين في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية. وبسبب نسب التعليم المرتفعة في مختلف المستويات، اضطرت الإدارة اليابانية إلى توفير تعليم ملائم داخل المؤسسات التربوية الداخلية. ولتحقيق ذلك أبرمت عقودًا عدة مع كثير من الخبراء الأجانب في تخصصات متختلفة.

سادسًا: الخبراء الأجانب في اليابان

لا يمكن تقويم نتائج البعثات اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي من دون الإشارة إلى توجّه الوفود العلمية الغربية والخبراء الأجانب إلى أرض الميكادو؛ فلئن شكّلت الحضارة الصينية القوة الأجنبية الضاغطة بالنسبة إلى اليابانيين لفترات طويلة، فإن عهد الميجي أتاح حالة هروب حقيقية نحو الحضارة والتكنولوجيا الغربيتين. وقد لخّص فوكوزاوا يوكيتشي هذه الحالة

(481) Mitsui, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

(482) Mutel, p. 65.

(483) Paul R. Spickard, *Japanese Americans: The Formation and Transformations of an Ethnic Group* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2009), p. 12.

بعبارته الشهيرة «دع آسيا وادخل أوروبا»[484]، أي مرحلة الانتقال بين مرحلتين كبيرتين من مراحل تاريخ الانفتاح على الثقافة الصينية الكونفوشيوسية من جهة، والتماهي مع التحديث الغربي من جهة أخرى.

أثار يوكيتشي في سيرته أن طلاب أوساكا كانوا من مؤيدي «التفاعل الحر مع الدول الغربية»، وأضاف: «وانعقد إجماعنا على أنه ينبغي أن نخلّص بلادنا من التأثيرات الصينية تمامًا»[485]. ضمن هذا الإطار، سعى اليابانيون إلى مواجهة الغرب بسلاحه المتطور؛ سلاح العلم والتكنولوجيا. واستقدم اليابانيون آلاف الخبراء والتقنيين والأساتذة والعمال المهرة الأجانب، كي يدربوا اليابانيين في أعوام طويلة من دون مركّب نقص، «ودفعوا لهم أجورًا مرتفعة جدًّا لقاء خدماتهم، كما أن النصُب التذكارية لعدد من كبار الأساتذة في العالم، ومن جنسيات مختلفة، ما زالت تزين ساحات كثيرة من جامعات اليابان حتى الآن، اعترافًا بفضلهم في تدريب وتعليم أجيال متعاقبة من اليابانيين»[486]. وفي هذا السياق يرى رينوفين أن التأثيرات الغربية تضاعفت باستقرار عدد كبير من الأجانب باليابان[487].

بدأ تنفيذ مشروع الاستعانة بخبراء أجانب في نهاية عهد الباكوفو وبداية عهد الميجي. ويبدو أن عددهم وصل في القطاع العام إلى نحو 3000 خبير، مع بضعة آلاف آخرين في القطاع الخاص. وكان الهدف الأساس من استقدامهم نقل التكنولوجيا الغربية إلى اليابان[488]. وفي هذا السياق، يشير أحد الباحثين إلى أن عدد الخبراء الأجانب وصل في اليابان بين عامي 1872 و1898 إلى 19.000 خبير، أي ما يوازي 731 خبيرًا سنويًّا على امتداد نحو 26 عامًا[489]. ويقارن ذلك العدد بعدد الخبراء الأوروبيين الذين اشتغلوا في

---

(484) تاناكا، ص 25.

(485) يوكيتشي، ص 126.

(486) ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة، ص 63-64.

(487) Renouvin, p. 83.

(488) «Foreign government advisors in Meiji Japan,» on the Web: <http://en.wikipedia.org/wiki/O-yatoi_gaikokujin>.

(489) Charles E. Butterworth and I. William Zartman, eds., *Between the State and Islam*, Woodrow Wilson Center Series (Washington: Woodrow Wilson Center Press; Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2001), p. 39.

القطاعات العسكرية والمدنية في مصر في عهد محمد علي؛ إذ وصل عددهم، على التوالي، إلى 1000 في عام 1820، وارتفع إلى ما بين 8.000 و10.000 في عام 1838، وإلى 90.000 في عام 1881[490]، وذلك في زمن لم يعرف فيه المغرب غير وجود هامشي للخبراء العسكريين، ولم تحتمل الثقافة السائدة آنئذٍ الانفتاح على التجارب التحديثية الغربية.

قدمت الحكومة الإمبراطورية دعوات إلى عدد كبير من رجال العلم الأجانب للمساهمة في إنشاء المدارس والجامعات الجديدة[491]، منهم ديفيد ميراي الذي قدم المساعدة إلى الطلبة اليابانيين في الولايات المتحدة، وعمل في أثناء إقامته باليابان في قطاع التعليم مستشارًا في وزارة التربية، وقدم تقريرين عن إصلاح التعليم في اليابان في عامي 1873 و1975[492]، وأشرف على بعض البرامج التي عالجت مشكلات القطاع التربوي.

أما القضاء الياباني، فاستعان بخبرة الألماني هيرمان روسلر (1834-1894) الذي بدأ عمله بالمساعدة على وضع القانون التجاري الياباني[493]. كما سعى متخصصون كثر في مجالات العلم والتكنولوجيا للذهاب إلى اليابان في فترة الميجي. وكانت اليابان تقبل معظمهم من دون تردد. وساهم المتخصصون والمستشارون الأجانب في إدخال نظم التكنولوجيا، وساعد النظام التعليمي - الذي أكد الجانب العملي للتعليم - على تطوير التكنولوجيا الصناعية في أثناء فترة حكم الميجي[494].

احتاجت هذه الوفود الأجنبية الوافدة إلى اعتمادات مالية مرتفعة؛ ففي عام 1874 وصل عدد الخبراء الأجانب إلى 520 خبيرًا، وقُدرت الاعتمادات المخصصة لهم بـ 2.272 مليون ين، أي ما يمثّل 7.33 في المئة من الميزانية

---

(490) المصدر نفسه، ص 39.

(491) ياغي، ص 143.

(492) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, c: Tanaka Fujimaro and David Murray.

(493) Grimmer-Solem, p. 194.

(494) متشيو وأورشيا، ص 234-235.

العامة. أمّا في عام 1879، فقد أُنفق ثلاثة أخماس ميزانية وزارة الصناعة لمصلحة الخبراء الأجانب[495].

في قطاع التعليم، خضع الأساتذة الأميركيون لعملية انتقاء دقيق من جانب الجامعات اليابانية، وحُددت مدة الاستفادة من خدماتهم بثلاثة أعوام، وكانوا يتقاضون بين 600 و2000 دولار سنويًا، وهو مبلغ يفوق ما كان يتقاضاه أحدهم في الولايات المتحدة الأميركية[496].

نحن إذًا أمام تحوّل فريد في مسلسل التحوّلات العالمية؛ فبعد أن كان اليابانيون منجذبين إلى مبدأ العزلة وكراهية الأجنبي، تحوّلوا إلى النقيض بالانفتاح الواعي والهادف على التكنولوجيا الغربية، وأنفقوا مبالغ طائلة في هذا المجال. وكان تقديرهم للمساعدات الأجنبية والاستفادة منها أكبر كثيرًا ممّا تلقّته أي دولة أخرى من معونات ومنح أجنبية في الأزمنة الحديثة[497]. ففي عام 1874، كان ثمة 503 مستشارين أجانب يعملون في الإدارة اليابانية. ووصل عدد الخبراء في وزارة الصناعة والتكنولوجيا إلى 580 خبيرًا في العام نفسه[498]. ويمكن تقديم نماذج من هؤلاء الغربيين الذين استقروا باليابان وقدموا استشارات تقنية وعلمية وقانونية لإدارة الحكم الجديد. وقد اخترنا هذه النماذج من بلدان مختلفة ومن تخصصات متباينة:

غوستاف إميل بواسوناد (1825-1910): خبير قانوني فرنسي نال الدكتوراه في القانون من جامعة باريس في عام 1852. أصبح أستاذًا مبرّزًا في عام 1864، ودرّس بصفة أستاذ مساعد في جامعة كرونبل إلى حدود عام 1867. أُسند إليه في عام 1873 إلقاء دروس في كلية الحقوق في باريس، ومن هناك طلب منه هيسانوبو ساميما، الوزير الياباني المفوض في باريس، الذهاب إلى اليابان لتحديث النظام القانوني وتطويره. واستجاب

---

(495) Mutel, p. 67.

(496) Foster Bain, «The Imperial Universities of Japan,» *Popular Science*, vol. 80, no. 15 (March 1912), p. 249.

(497) رايشاور، ص 116.

(498) تم الاعتماد في اختيار المستشارين على: ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 314.

بواسوناد للطلب ومكث في اليابان 22 عامًا[499]. وقد حرّر باللغة الفرنسية قانون العقوبات وقانون العقوبات الجنائية اللذين تُرجما إلى اللغة اليابانية، ونوقشا في مجلس الشيوخ الياباني في عام 1880 واعتُمدا رسميًا في عام 1882. وشرع في عام 1879 في تحرير مشروع القانون المدني[500]. وعلاوةً على ذلك، ركّز جهده على تدريس القانون الحديث في مجموعة من المنابر الجامعية، منها جامعة طوكيو وجامعة الميجي وجامعة هوسي. عاد في عام 1895 إلى فرنسا بعد تزايد التأثير الألماني في صوغ القوانين المحلية[501].

هيرمان روسلر (1834-1894): رجل قانون ألماني درس القانون والاقتصاد في جامعة إيرلانجين وجامعة ميونيخ بين عامي 1852 و1856، وحاز المرتبة الأولى في عام 1856. وفي عام 1860 نال الدكتوراه في القانون من جامعة إيرلانجين ودكتوراه في الاقتصاد من جامعة توبنغن، والأستاذية العامة من جامعة روستوك في عام 1861 [502].

اقترح عليه الوزير الياباني المفوض في برلين، آوكي شوزو، الذهاب إلى اليابان للعمل مستشارًا في القانون الدولي لدى وزارة الخارجية اليابانية. وسافر روسلر في عام 1878 بصحبة عائلته إلى اليابان[503] لإنجاز المهمة التي أوكل إليها. أصبح في عام 1884 مستشارًا لمجلس الوزراء الياباني، وقدّم إلى المجلس الأعلى للدولة مشروع قانونٍ لليابان، نُشر في ثلاثة مجلدات وتُرجم إلى اللغة اليابانية. واحتوى المشروع على 1133 مادة تناولت القضايا التجارية والتجارة البحرية والنزاعات التجارية والمصرفية[504].

(499) Jacques Dupouey, *Passeport pour le Japon des affaires*, Préface de Jean-Louis Halpérin, Points sur l'Asie (Paris: L'Harmattan, 2008), p. 36.

(500) Clark L. Beck and Ardath W. Burks, eds., *Aspects of Meiji Modernization: The Japan Helpers and the Helped* (New Brunswick, NJ: Archibald Stevens Alexander Library, Rutgers, the State University of New Jersey, 1983), p. 23.

(501) Hunter, pp. 15-16.

(502) Johannes Siemes, *Hermann Roesler and the Making of the Meiji State* ([New York]: Tuttle Publishing, 2013), chap. 1.

(503) Andrew Fraser, R. H. P. Mason and Philip Mitchell, *Japan's Early Parliaments, 1890-1905: Structure, Issues, and Trends*, Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series (London; New York: Routledge, 1995), p. 161.

(504) المصدر نفسه، ص 161.

جوشيا كوندر (1852-1920): يُطلَق عليه لقب أبي الهندسة المعمارية اليابانية. دعته الحكومة اليابانية إلى اليابان، ووقّع في عام 1876 عقدًا مع الحكومة اليابانية التزم فيه تدريس النمط المعماري الغربي(505)، وعمل في الكلية الإمبراطورية للمهندسين في طوكيو بدءًا من عام 1877.

تتلمذ على يديه أربعة من كبار المعماريين اليابانيين المشهورين: تاتسونو كينغو وكاتاياما كينغو وسون تاتسوزو وساتاشي شيشيجيرو، وهم المهندسون المحليون الأوائل الذين أدخلوا الأسلوب المعماري الغربي إلى يابان الميجي(506).

في عام 1895 أتم كوندر أول إنجازاته المعمارية وأبرزها في اليابان، ممثلًا في أحد مقارّ شركة ميتسوبيتشي(507).

يتبيّن أن الإدارة اليابانية اهتمت بجلب الخبراء الأجانب لإنجاز بعض المشروعات التنموية، علاوةً على تكليف هؤلاء تدريب الطلبة اليابانيين بأخذ نصيب وافر من معارفهم وإنجازاتهم التطبيقية.

بعد انتهاء مهمة كوندر في اليابان، خلفه تاتسونو كينغو (1854-1919) في الإشراف على تعليم الأسلوب المعماري الغربي(508).

جاكوب ميكل (1842-1905): تخرج في كلية أركان الجيش البروسية في عام 1867. وُجّهت إليه الدعوة للعمل أستاذًا في كلية أركان الجيش ومستشارًا لهيئة الأركان العامة اليابانية بعد قرار اليابان اقتفاء آثار الأنموذج العسكري البروسي في إثر انتصار ألمانيا على الجيوش الفرنسية في عام 1871. عمل بشكل وثيق مع الجنرال كاتسورا تارو الذي أصبح لاحقًا وزيرًا أول، ومع الجنرال ياماغاتا أريتومو، والاستراتيجي الجنرال كاواكامي سوروكو.

---

(505) Hugh Cortazzi and Gordon Daniels, eds., *Britain and Japan, 1859-1991: Themes and Personalities* (London; New York: Routledge, 1991), p. 86.

(506) المصدر نفسه، ص 87.

(507) المصدر نفسه، ص 91.

(508) Jonathan M. Reynolds, *Maekawa Kunio and the Emergence of Japanese Modernist Architecture* (Berkeley: University of California Press, 2001), p. 13.

قدّم ميكل الكثير من التوصيات التي جرى تنفيذها، منها إعادة تنظيم هيكل قيادة الجيش إلى شُعب وأفواج، الأمر الذي منح الجيش طاقة متزايدة على الحركة، وعزّز قدرته في المجال اللوجستي والنقل، والتواصل مع قواعده الرئيسة المتصلة عن طريق السكك الحديد، وإنشاء فوج المدفعية وتكوين أفواج من المهندسين. كما أعاد النظر في نظام التجنيد بقصد إلغاء جميع الاستثناءات.

على الرغم من قصر المدة التي أمضاها ميكل في اليابان (1885-1888)، فإنه كان ذا تأثير كبير في العسكرية اليابانية. وقد تمكّن، بإشرافه على تدريب نحو ستين فردًا من كبار المسؤولين العسكريين اليابانيين على تكتيكات الحرب واستراتيجياتها وتنظيمها، من أن يحدَّ من التأثير الفرنسي السابق. كما أكد فكرة الخضوع لإرادة الإمبراطور من خلال ربطه بين نجاح الأنموذج العسكري البروسي والوفاء للإمبراطور الياباني. وكانت إصلاحات ميكل من الأسباب التي أتاحت لليابان الانتصار على الصين في حرب 1894-1895[509].

هينريتش إدموند نومان[510] (1854-1927): جيولوجي ألماني. يُعَدّ مؤسس علم الجيولوجيا في اليابان من خلال عمله الأكاديمي في الجامعة الإمبراطورية في طوكيو بين عامي 1875 و1885. طلبت منه حكومة الميجي تلقين مفاهيم الجيولوجيا للطلبة اليابانيين، فالتحق بالجامعة اليابانية وهو في الحادية والعشرين.

أجرى الكثيرَ من عمليات المسح الجيولوجي، وجال داخل اليابان في أكثر من 10.000 كلم، واشتهر بعد اكتشافه شرخ «فوسا ماغنا» (Fossa Magna) الذي يمتد من منطقة إيزو في الجنوب الغربي إلى منطقة توياما في الشمال. وبفضل اقتراحاته، قام وزير الفلاحة والتجارة بتأسيس قسم للجيولوجيا في عام 1878 وشرع منهجيًا في رسم خرائط الأرخبيل الياباني.

---

(509) E. Taylor Atkins, *Primitive Selves: Koreana in the Japanese Colonial Gaze*, 1910-1945, Colonialisms; 5 (Berkeley: University of California Press, 2010), pp. 19-20.

(510) Stefan Tanaka, *New Times in Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009), pp. 41-42.

جورج مايكليس[511] (1857-1936): درس علم التشريع في جامعة بريسلو، وجامعة ليبزيغ، وجامعة وورزبورغ بين عامي 1876 و1884، ونال الدكتوراه في القانون. عاش بين عامي 1885 و1889 في اليابان وعمل فيها أستاذًا للقانون في كلية القانون في الجمعية الألمانية للعلوم.

هوراس كاربون[512] (1804-1885): رجل أعمال ومهندس زراعي أميركي. طلبت منه الحكومة اليابانية، ممثّلة في كيوتاكا كورودا، نائب رئيس لجنة تنمية هوكايدو الذي كان في زيارة للولايات المتحدة، العمل مستشارًا خاصًا للجنة. قبِل كاربون المهمة، وعمل خبيرًا في هوكايدو مقابل 10.000 دولار، إضافةً إلى مِنح موازية، وذلك مبلغ كبير في تلك الحقبة الزمنية. أمضى أربعة أعوام في هوكايدو، قدم خلالها الكثير من الاقتراحات لتطوير الزراعة فيها.

استخدم الأساليب الأميركية في زراعة المساحات الكبيرة، وفي توظيف الوسائل والأدوات الزراعية المستوردة من الغرب. أبدى الإمبراطور الميجي اهتمامه بجهده في تطوير هوكايدو، وكُرّم كاربون بعد مغادرته اليابان بتسعة أعوام، بتقليده وسام الشمس المشرقة من الدرجة الثانية لخدماته في تطوير هوكايدو.

لودويغ ريس[513] (1861-1928): وُلِد لودويغ لأسرة ألمانية ذات أصول يهودية. أتقن الرياضيات والفيزياء منذ طفولته. شجعته أسرته على أن يصبح مهندسًا أو فنانًا معماريًا، لكنه كان مهتمًا بدراسة تاريخ العالم. فاختار مواصلة مشواره الأكاديمي والتحق بجامعة برلين، حيث درس، بإشراف المؤرخ الشهير ليوبولد فون رانكه. سافر في عام 1884 إلى بريطانيا العظمى وإيرلندا لجمع مواد علمية تتعلق بأطروحة دكتوراه كان يعدّها بعنوان «التصويت في البرلمان الإنكليزي في العصر الوسيط». ونجح في الحصول

---

(511) Spencer C. Tucker and Priscilla Mary Roberts, eds., *World War I: Student Encyclopedia*, 5 Vols. (Santa Barbara, Calif.: ABC-CLIO, 2006), p. 1241.

(512) Ann B. Irish, *Hokkaido: A History of Ethnic Transition and Development on Japan's Northern Island* (Jefferson, NC: McFarland and Co., 2009), pp. 145-148.

(513) بتصرف عن: <http://www.lib.u-tokyo.ac.jp/tenjikai/tenjikai97/riess.html>, and <http://www2s.biglobe.ne.jp/~matu-emk/Riess.html>.

عليها وهو في الرابعة والعشرين. عاد إلى بريطانيا في عام 1885 لجمع معلومات تتعلق بالتاريخ الألماني وبالرابطة الهانزية[514].

عيّنته حكومة الميجي في عام 1887 مستشارًا أجنبيًا لاعتماد الأساليب الغربية في كتابة التاريخ ضمن المناهج الجامعية اليابانية، بالتركيز على سرد التاريخ والتزام الكتابة التاريخية من وجهة نظر محايدة من دون النظر إلى الأحكام الأخلاقية على حوادث الماضي. عمل أستاذًا في جامعة طوكيو بموجب عقد مدته ثلاثة أعوام، جُدّد مرات عدة. اهتم بتدريس أساليب البحث التاريخي، وركّز على تقديم وثائق من الأرشيف الأوروبي، خصوصًا المصادر المحفوظة في لاهاي (هولندا) وذات الصلة بدراسة التاريخ الياباني.

إيروين بالز[515] (849-1913): وُلد إيروين بالز في ألمانيا لأب مقاول. انتسب إلى الثانوية العامة في شتوتغارت. درس الطب في جامعة إيبرهارد كارلز، وتخرج فيها وهو في الثالثة والعشرين. اشتغل في الإدارة الطبية في جامعة ليپزيغ (Leipzig) في عام 1869. كما عمل في الجيش الألماني إبان الحرب الفرنسية - البروسية في عام 1870. عاد مجددًا إلى جامعة ليپزيغ في عام 1875، حيث التقى بعض الطلبة اليابانيين، الأمر الذي شكّل قناة للتعاقد مع الحكومة اليابانية للتدريس في كلية الطب في جامعة طوكيو الإمبراطورية في عام 1876، حين كان يحضر دروسه في الطب الغربي أكثر من 800 طالب ياباني. كما عالج أكثر الشخصيات نفوذًا في حكومة الميجي، مثل رئيسي الوزراء إيتو هيروبومي وياماغاتا أريتومو. جُدّد عقد عمله مرات عدة، وأقام في اليابان 27 عامًا، كانت أطول مدة أمضاها خبير أجنبي في اليابان.

إيرنست فينولوسا[516] (1853-1908): اشتُهر بأنه أبو الفن الياباني.

---

(514) رابطة ضمّت الكثير من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال والبلطيق بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر. ضمّت الرابطة في البداية ثلاث مدن ألمانية: لوبيك، هامبورغ، وكولن، ثم ازداد عدد المدن المنضوية إليها حتى بلغ 80 مدينة في القرن الرابع عشر. شكّلت هذه المدن نواة الرابطة الهانزية. أقامت لها عدة مراكز تجارية في نوفغورود (روسيا)، وبيرغن (النرويج)، ولندن، وبروج (بلجيكا). بدأت مرحلة أفول الرابطة عندما أنزل الدانماركيون بلوبيك، مركز الرابطة، هزائم قاسية في عام 1543.

(515) بتصرف عن: <http://mitsuo-cl.com/mitsuo/colum/colum10a.html>.

(516) <http://www.payer.de/neobuddhismus/neobuddh0304.gif>.

عرض عجائب الفنون اليابانية التقليدية أمام الجمهور الأميركي والعالم. زار عندما كان في الثالثة والعشرين المعرض الدولي المئوي الذي انعقد في فيلادلفيا بمناسبة ذكرى استقلال الولايات المتحدة، حيث اطلع من خلاله على أعمال فنية يابانية. سافر في عام 1881 إلى اليابان برفقة زوجته خبيرًا أجنبيًا بعد تلقّيه دعوة من الحكومة اليابانية. درس الفلسفة والاقتصاد السياسي في جامعة طوكيو.

جذبته في أثناء إقامته جمالية الفن الياباني الذي تعرض للتهميش في بداية عهد الميجي. درس في أكاديمية طوكيو للفنون الجميلة، وتقلّد منصب مدير معهد الفنون الجميلة للمتحف الإمبراطوري في طوكيو. قلّده الإمبراطور الياباني، تكريمًا لما قدمه إلى الفن الياباني، وسام الشمس المشرقة والمرآة المقدسة.

عمل معه بعض تلامذته اليابانيين، منهم كاكوزو أوكاكورا، على إحياء الفن المحلي وإغنائه. يمكن القول إنه أعاد اكتشاف الفن التقليدي الياباني، وتزعم تلميذه كاكوزو من بعدُ حركة تأسيس أسلوب تشكيلي جديد، نيهونغا[517] (الرسم الياباني) الذي يمتد بعمق في تقاليد الفن الياباني[518].

في عام 1886 ودّع الإمبراطور الميجي فينولوسا بالعبارة الآتية: «قمتم بتدريس شعبنا فنّهم الأصيل، وأطلب منك عند رجوعك إلى بلدك أن تقوم بتعريف الأميركيين إلى هذا الفن»[519].

هنري داير (1848-1918): مهندس اسكتلندي. له دور كبير في تأسيس النمط الغربي في التعليم التقني في اليابان. تلقّى دعوة من الحكومة اليابانية، وهو في الرابعة والعشرين، لإدارة كلية المهندسين الإمبراطورية في طوكيو. ساهم في إدخال أساليب تدريس ثورية. كان لهذه الكلية - التي أشرف عليها -

(517) نيهونغا: الرسم الياباني. يعود هذا الفن إلى الرسم الصيني الذي استعمل الأصباغ المعدنية على الورق والحرير. على الموقع الإلكتروني: <http://www.atelier-manda.fr/nihonga.php>.

(518) بتصرف عن: Ernest Fenollosa and Philadelphia, on the Web: <http://jasgp.org/content/view/493/179/>, and <http://www.encyclopedia.com/doc/1E1-Fenollos.html>.

(519) Neil Pedlar, *The Imported Pioneers: Westerners who Helped Build Modern Japan* (New York: Routledge, 1995), p. 130.

دور كبير في حركة التصنيع السريعة التي شهدتها اليابان في نهاية القرن التاسع عشر؛ إذ وضع أساليب متطورة لتكوين المهندسين اليابانيين. دامت إقامته في اليابان تسعة أعوام (1873-1882). قلّده الإمبراطور في نهاية مهمته وسام الشمس المشرقة من الدرجة الثالثة، وهو أعلى تشريف ياباني كان يُمنح للأجانب[520].

ألكسندر لو وادل[521] (1854-1938): تخرّج في معهد رينسيلار للبوليتكنيك في نيويورك في عام 1875. عمل في الولايات المتحدة لمصلحة شركة غرب فرجينيا للفحم. درّس علوم الميكانيك بدءًا من عام 1880، واشتهر في ما بعد ببناء الجسور الضخمة. قدمت إليه الحكومة اليابانية في تموز/يوليو 1882 دعوة للعمل خبيرًا لديها. درّس الهندسة في الجامعة الإمبراطورية في طوكيو، وامتدت إقامته فيها إلى عام 1886. كان له دور في تشييد البنى التحتية الأساسية في اليابان.

كوروين ميندينهال[522] (1841-1924): وُلِد ميندينهال في هانوفرتون في ولاية أوهايو الأميركية. كان رجلًا عصاميًا اهتم بعلوم الفيزياء والمناخ. عمل أستاذًا في عدد من المدارس العليا، واكتسب سمعة متميزة بوصفه رجل تربية وتعليم. عُيّن أستاذًا للفيزياء والميكانيكا في كلية أوهايو للزراعة والميكانيك. انتقل في عام 1878 للتدريس في اليابان بوصفه خبيرًا أجنبيًا. شغل منصب أستاذ زائر في جامعة طوكيو الإمبراطورية، وامتدت إقامته فيها إلى عام 1881. أسس في أثناء إقامته في اليابان مرصدًا لمراقبة الأحوال الجوية، وأبدى اهتمامًا بالظواهر الزلزالية، وكان من مؤسسي جمعية رصد الزلازل في اليابان. قدّم محاضرات في موضوعات علمية مختلفة للعامة في المعابد والمسارح.

غيدو فيربيك[523] (1830-1898): مستشار سياسي ورجل تربية ومبشّر

---

(520) «Henry Dyer (1848-1918),» on the Web: <http://homepage.ntlworld.com/r.hunter/hd/Burial.htm>.

(521) <http://www.rpi.edu/about/hof/waddell.html>.

(522) بتصرف عن: <http://www.wosu.org/archive/horseshoe/men.htm>.

(523) Pedlar, pp. 125-130.

مسيحي نشط في عهد الباكوفو والميجي. ولد في هولندا، لكنه فقد جنسيته الهولندية بذهابه إلى الولايات المتحدة. يُعدّ من أبرز الخبراء الأجانب الذين قدّموا خدماتهم إلى حكومة الميجي. ساهم في كثير من القرارات الكبرى التي اتخذتها الحكومة في الأعوام الأولى من عهد الامبراطور ميجي.

درس في معهد البوليتكنيك في أوتريخت. أتقن الحديث باللغات الهولندية والألمانية والفرنسية والإنكليزية. سافر وهو في الثانية والعشرين (1852) إلى الولايات المتحدة، بدعوة من أخيه الذي كان يدرس القانون. عمل مهندسًا مدنيًا في أركنساس، واهتم بوضع تصميمات الجسور والهياكل والآلات. تخرج في عام 1859، وسافر إلى ناغازاكي مبشّرًا لمصلحة الكنيسة الهولندية الإصلاحية. درّس اللغات الأجنبية والعلوم السياسية والعلوم بمؤسسة الدراسات الغربية في ناغازاكي بين عامي 1853 و1864. درّس فيها أكثر من 100 طالب، منهم أوكوما شيجونوبو وإيتو هيروبومي وأوكوبو توشيميتشي. كما درّس فيها إعلان استقلال الولايات المتحدة والدستور البريطاني. عمل مع بعض اليابانيين على إصدار قاموس ساتسوما، وهو أول قاموس إنكليزي - ياباني طُبع في اليابان. طُلب منه بعد انتهاء الحرب الأهلية (1868) الانتقال إلى العاصمة إيدو (طوكيو).

اقترح عليه أوكيبو في عام 1869 التدريس في مدرسة كايسي (جامعة طوكيو الإمبراطورية لاحقًا). عمل مستشارًا لدى حكومة الميجي في ولاية سانجو سانيتومي. أوصى الحكومة المحلية باستعمال اللغة الألمانية في الدراسات الطبية. استشير في إقرار نظام المحافظات للإدارة المحلية وشجع على إيفاد بعثة إيواكارا الشهيرة في عام 1871. أصبح في أيلول/سبتمبر 1871 مستشارًا لدى وزارة التربية. في شباط/فبراير 1873 رُفع الحظر عن التبشير بالمسيحية، فاستغل ذلك في مضاعفة نشاطه التبشيري. التقى بقادة بعثة إيواكارا في أثناء عطلة امتدت ستة أشهر أمضاها في أوروبا.

استقال بعد عودته إلى اليابان من التدريس الجامعي، وأمضى بضعة أعوام في البحث الأكاديمي وفي ترجمة الوثائق القانونية الإنكليزية إلى اللغة اليابانية.

درّس في عام 1877 في معهد غاكوشوين[524] (مدرسة الأشراف). عُيّن أول قيِّم على جامعة ميجي غاكوين[525] في عام 1886. ترجم في عام 1887 العهد القديم إلى اليابانية من كتاب أشعيا والمزامير. مُنح الجنسية اليابانية تقديرًا للخدمات الكثيرة التي قدّمها إلى الإدارة اليابانية. توفي في اليابان عام 1898.

جول برونيه[526] (1833-1911): ضابط عسكري فرنسي، لفت الانتباه في أثناء مهمته التكوينية في اليابان، وكانت قوات الشوغون قد استفادت منه في مواجهتها ضد القوات الإمبراطورية.

تخرّج في مدرس البوليتيكنيك في عام 1857، وتخصص بالمدفعية، وشارك في البعثة إلى المكسيك في عهد نابليون الثالث. عُيّن قبطانًا في عام 1867، وشارك ضمن البعثة الفرنسية التي كانت ردًّا على طلب ياباني لدعم القدرات العسكرية لنظام التوكوجاوا. في العام نفسه (1866) «أمر وزير الحربية الجنرال راندون إرسال بعثة عسكرية بقيادة القبطان كارل شانوان (C. Canoin)، تألفت من 10 ضباط برتبة ملازم وجنديين»[527]، كان من ضمنهم برونيه الذي وصل إلى يوكوهاما في بداية عام 1867. تألفت البعثة من سبع كتائب مشاة، أي نحو 10.000 رجل؛ ودعم البريطانيون والأميركيون قوات الإمبراطور الميجي التي نجحت طوال حرب البوشين (1868) في دحر قوات الباكوفو والتأسيس لواقع سياسي جديد، الأمر الذي شكّل إطارًا لمغادرة البعثة الفرنسية اليابان بمرسوم إمبراطوري. لكن على الرغم من ذلك رفض برونيه الاستسلام، وقرر البقاء لتنظيم مقاومة بقايا الباكوفو والساموراي. وامتدت العمليات العسكرية التي قادها إلى 30 حزيران/ يونيو 1869 حين نجحت القوات الإمبراطورية في كسب المعركة. فرّ برونيه في إثر ذلك على متن سفينة فرنسية[528].

---

(524) مؤسسة تعليمية أنشئت في طوكيو في عام 1877 لمصلحة أبناء الأرستقراطية اليابانية. فتحت أبوابها بعد زمن أمام النخب الغنية. كان الإمبراطور هيروهيتو من أبرز الطلبة الذين تخرجوا فيها.

(525) جامعة مسيحية أنشئت في طوكيو ويوكوهاما في عام 1863.

(526) «Le Capitaine Jules Brunet, un samouraï français,» (Center Blog (Website), 6/6/2007): <http://quelqueshistoires.centerblog.net/1964065-Le-capitaine-Jules-Brunet--un-samourai-francais>.

(527) Totman, p. 211.

(528) Académie des sciences d'outre-mer (ASOM), *Présences françaises outre-mer: XVIe-XXIe siècles*, sous la direction de Philippe Bonnichon, Pierre Gény et Jean Nemo, 2 Vols. (Paris: ASOM; Karthala, 2012), pp. 712-713.

فرانسوا ليون فيرني[529] (1837-1908): تخرج في مدرسة البوليتيكنيك في باريس عام 1856. أُرسل في مهمة عسكرية (1862-1864) إلى شنغهاي ونينغبو في الصين للإشراف على بناء أربعة زوارق حربية للقوات البحرية الصينية، وتشييد حوض جديد لبناء السفن.

لما كانت العلاقات الدبلوماسية وطيدة بين الفرنسيين وحكام الباكوفو، اهتم النظام القائم بتطوير الترسانة العسكرية والبحرية اليابانيتين، فالتحق فرانسوا ليون بأرض الميكادو مقابل 10.000 دولار مكسيكي سنويًا. عُيّن في عام 1865 مديرًا عامًا للمحطة العسكرية البحرية التي شيّدها في أوساكا، وأشرف على تدريب 65 تقنيًا يابانيًا و2500 عامل. إضافة إلى ذلك، أنشأت البعثة الفرنسية المسابك وقمائن الطوب ومصانع الأسلحة والبارود والقنوات المائية ومرافق الطاقة المائية والمدارس الفنية للتدريب وحوض بناء السفن في ناغازاكي.

على الرغم من انهيار نظام التوكوجاوا، واصل فيرني تعاونه مع نظام الميجي حتى 13 آذار/مارس 1876 حين أصبح في مقدور التقنيين اليابانيين القيام بالمهمات التي نيطت بهم منذ عام 1865.

تشارلز ديكينسون ويست[530] (1847-1908): وُلِد في دبلن في إيرلندا. حصل على دبلوم في الهندسة الميكانيكية من كلية ترينيتي في دبلن في عام 1869. عمل مدة خمسة أعوام في شركة بيرغينهيد للصُلب، واكتسب خبرة في بناء السفن، ومصانع الصلب والطاقة والبخار. دعته حكومة الميجي في عام 1882، عندما كان في الخامسة والثلاثين، للعمل خبيرًا وتدريس عمل محرك البخار الميكانيكي والرسم الميكانيكي والهندسة الميكانيكية والعمارة البحرية. كما عمل مستشارًا لدى كثير من المؤسسات اليابانية، منها ميتسوبيشي وكاوازاكي وشركة أوساكا للحديد.

(529) <http://www.medarus.org/Ardeche/07celebr/07celTex/verny_leonce.htm>.

(530) <http://www.irelandinjapan.jp/content/view/36/125/>.

وليم غولاند[531] (1842-1922): يُعرف في اليابان بأبي الأركيولوجيا اليابانية. وُلِد في ساتدرلاند في شمال إنكلترا. التحق بالكلية الملكية للكيمياء في لندن المتخصصة بعلم المعادن. عمل خبيرًا كيميائيًا ومعدنيًا بين عامي 1870 و1872. دعته حكومة الميجي في عام 1872، وهو في الثلاثين، للعمل مستشارًا لدى شركة زوهيكيوكو أوساكا.

بدأ العمل بأوساكا في 8 تشرين الأول/أكتوبر 1872 للمساعدة في تحديث اليابان. جُدّد عقده مرات عدة، بحيث أمضى في اليابان 16 عامًا. عرض خلال إقامته تقنيات التحليل العلمي للمعادن، وإنتاج سبائك النحاس والبرونز. كما عمل مستشارًا للجيش الإمبراطوري الياباني، وساعد في إنشاء محطة أوساكا لإنتاج السلاح المدفعي. مُنح في عام 1883 وسام الشمس المشرقة من الدرجة الرابعة تقديرًا لخدماته.

إضافةً إلى ذلك، عُرف غولاند في اليابان باهتمامه بالأركيولوجيا؛ إذ اهتم بالتنقيب العلمي في آثار فترة كوفان (القرن الثالث - القرن الرابع)، منها المراقد الإمبراطورية. كما نقّب في الركام الموجود في كلٍّ من مقاطعتي ساغا وميازاكي، إضافةً إلى مقاطعة فوكوشيما شمالي طوكيو، وعدد كبير من المواقع في ناحية كينكي.

جون ميلني[532] (1850-1913): جيولوجي ومهندس معدني إنكليزي. اخترع آلة السيسموغراف لقياس درجة الزلازل. وُلِد في ليفربول ودرس في الكلية الملكية والمعهد الملكي للمعادن. شارك في عام 1874 في مسح جيولوجي في شمال غرب الجزيرة العربية. استقدمته حكومة الميجي في آذار/مارس 1876 بوصفه خبيرًا أجنبيًا وأستاذًا للجيولوجيا والتعدين في الكلية الإمبراطورية للمهندسين. وقّع عقد عمل لمدة ثلاث سنوات، واهتم، علاوةً على مهنة التدريس، بالبحث في شأن البراكين، قبل أن يركز اهتمامه على ظاهرة

(531) <http://en.wikipedia.org/wiki/William_Gowland>.

(532) Emanuela Guidoboni et Jean-Paul Poirier, *Quand la terre tremblait* (Paris: O. Jacob, 2004), p. 20; André Filiatrault, *Eléments de génie parasismique et de calcul dynamique des structures* (Montréal: Editions de l'École polytechnique de Montréal, 1996), pp. 1-2, et <http://www.reffell.org.uk/burchatt/earthquake.php>.

الزلازل. عمل تحت قيادة هنري داير ومع بعض الخبراء البريطانيين الآخرين، مثل توماس غراي، لدراسة الزلازل بعد الزلزال الكبير الذي ضرب منطقة يوكوهاما في عام 1880. أسس مع آخرين جمعية دراسة الزلازل. كما انفرد باختراع جهاز قياس الزلازل الأفقية في عام 1880. مكّنته الوسائل التقنية التي استعملها من رصد أنواع الموجات الزلزالية المختلفة وتقدير سرعتها.

رافائيل فون كوبر(533) (1848-1923): وُلِد في روسيا من أصول ألمانية. درس الموسيقى في موسكو وهو في التاسعة عشرة. توجّه باهتمامه وهو في الرابعة والعشرين إلى دراسة التاريخ الطبيعي والفلسفة في ألمانيا في جامعة جينا، حيث حصل على الدكتوراه في عام 1878. بعد ذلك أخذ يدرّس تاريخ الموسيقى في كلٍّ من جامعة برلين وجامعة هايدلبيرغ وجامعة ميونيخ.

سافر للتدريس في اليابان في حزيران/يونيو 1893، بطلبٍ من صديقه كارل روبرت إدوارد فون هارتمان. عمل في جامعة طوكيو الإمبراطورية بين عامي 1893 و1914، حيث درّس الفلسفة الإغريقية والفلسفة المثالية الألمانية، وكذا علم الجمال.

تتلمذت على يديه مجموعة من النخب الفلسفية التي سبق ذكرها، منها نيشيدا كيتارو وناتسومي سوسيكي وتيتورو واتوجي وجيرو آبي.

درّس رافائيل أيضًا العزف على البيانو وآلات موسيقية أخرى في المدرسة الوطنية للموسيقى في طوكيو (جامعة طوكيو الوطنية للفنون الجميلة والموسيقى لاحقًا). استلهم أعمال أكبر الموسيقيين الكلاسيكيين الألمان، منهم بيتهوفن وميندلسون وشومان وليسزت وبرامس.

ألّف في عام 1901 المقطع الموسيقي الذي افتُتحت به الجامعة النسائية اليابانية. تخرج على يديه عدد كبير من الموسيقيين اليابانيين، منهم رينتارو تاكي وكوساكو يامادا والمغني تاماكي شيباتا الذي عُرف لاحقا بميورا.

---

(533) Ichiro Sumikura, «Dr. Raphael von Koeber and His Time,» *Bulletin* (Faculty of Music, Tokyo Geijutsu Daigaku), vol. 23 (1997), pp. 37-47; <http://commons.wikimedia.org/wiki/Image:Raphael_von_Koeber.jpg>, and <http://www.library.tohoku.ac.jp/collect/soseki/people-e.html>.

عند اندلاع الحرب الروسية - اليابانية عام 1904، لم يرغب فون كوبر في العودة إلى بلده الأصلي (روسيا)، كما تجنبت الحكومة اليابانية اتخاذ موقف سياسي منه، فواصل تدريس الفلسفة وتعليم الموسيقى حتى عام 1914. وحال نشوب الحرب العالمية الأولى دون ذهابه إلى ميونيخ وتوفي في يوكوهاما.

إدواردو شيوسون[534] (1833-1898): انتسب في عام 1847 إلى أكاديمية ليكيستيكا، حيث تخصص بفن النحت، وتخرج فيها في عام 1855. عمل في عام 1875 في ورشة رافائيل كرانارا، وأنجز منحوتات فنية مشهورة عدة. بدأ في عام 1867 العمل مع البنك الوطني الإيطالي، وأُرسل إلى شركة دوندورف نومان في فرانكفورت في ألمانيا، حيث تمرن على رسم الأوراق المالية. في عام 1874 أُرسل إلى لندن للتعرف إلى تقنيات الطبع الحديثة، ولا شك في أن اليابانيين أدركوا أهمية تجربته فعرضوا عليه المجيء إلى بلدهم خبيرًا أجنبيًّا.

وصل شيوسون إلى اليابان في 12 كانون الثاني/يناير 1875. وكانت مهمته إدخال الآلات والتقنيات الحديثة لمصلحة مكتب الطبع الحكومي التابع لوزارة المالية، فأسس شركات للطباعة، منها توبان إنساتسو. كما درّب المتعلمين اليابانيين على فنون إخراج الأوراق المالية والطوابع البريدية، ووقّع بعد خمسة أشهر عقدًا مدته ثلاثة أعوام براتب شهري قدره 450 ينًّا وسكن مجاني، وهو من بين أعلى المنح المقدّمة إلى خبير أجنبي.

تخصص شيوسون بصنع تماثيل بعض قادة الميجي، منهم أوكوبو توشيميتشي. وقد زاره في ورشته الإمبراطور الميجي برفقة إيواكارا تومومي والأمير أريسوجاوا في عام 1877. صمّم في العام نفسه أول ورقة مالية من فئة ين واحد. طُلب منه في عام 1883 صنع تمثال لصايغو تاكاموري الذي توفي قبل ستة أعوام. واحتاج لإنجاز مهمته إلى جمع ملامح بعض أفراد أسرته، وهي الصورة التي اعتمدها في تشكيل هيئة تاكاموري[535].

(534) <http://www.nta.go.jp/ntc/sozei/tokubetsu/h15shiryoukan/03.htm>.

(535) Sukehiro Hirakawa, *Japan's Love-Hate Relationship with the West* (Folkestone, Kent: Global Oriental, 2005), p. 265.

حصل في عام 1888 على تقدير بالغ عندما طُلب منه رسم شخص الإمبراطور الميجي لاتخاذه لوحة رسمية في البلاد. كما أنتج خمس فئات من ورقة الين. تقاعد في عام 1891 بتعويض نهاية خدمة يساوي 300 ين، وبمنحة سنوية تقدر بـ 1200 ين.

إدوارد سيلفستر مورس[536] (1838-1925): وُلِد في بورتلاند في الولايات المتحدة. اهتم في صغره بعالَم النبات والحيوان. انجذب في مراهقته إلى جمع المحار. تخصص في ما بعد بملاحظة الحلزونات الأرضية. كان في الثانية عشرة عندما اكتشف نوعين جديدين من الحلزونات ذات الحجم الصغير. برزت قدراته العلمية المتميزة في هذا الفن العلمي في ذلك الوقت.

سافر في عام 1877 إلى اليابان لجمع المحارات، وتحولت رحلته العلمية هذه إلى إقامة طويلة في اليابان امتدت ثلاثة أعوام، إذ طُلب منه العمل في جامعة طوكيو، حيث درّس علوم الآثار والأنثروبولوجيا، وجمع أكثر من خمسة آلاف قطعة يابانية من الفخار. نشر كتابًا بعنوان (المنازل اليابانية ومحيطها) *(Japanese Homes and Their Surroundings)*، ضمّنه أهم أعماله ورسوماته الخاصة.

وليم كلارك[537] (1826-1886): كان كلارك أستاذ مادة الكيمياء في كلية أمهيرست بين 1852 و1867، وأستاذ علوم الحيوان بين عامي 1852 و1858. أدى الخدمة العسكرية في أثناء الحرب الأهلية الأميركية وحمل رتبة مقدّم ثم رتبة عقيد بين عامي 1862و1863.

تمتع بتجربة مهمة في النشاط المدني، من ذلك عضويته البارزة في مجلس الفلاحة في ولاية ماساتشوستس (1859-1861)، ورئاسة جمعية هامبشاير الفلاحية (1860-1861 و 1871-1872)، وعضويته في هيئة ماساتشوستس التشريعية (1864-1865).

أمضى كلارك مدة قصيرة في اليابان (1876-1877)، حيث درّس مدة سبعة شهور في كلية سابورو الفلاحية (اليوم جامعة هوكايدو). أدخل الصناعة

(536) <http://www.bethelhistorical.org/Edward_Sylvester_Morse.html>.

(537) <http://www.panoramio.com/photo/2377362>.

الحليبية إلى هوكايدو، ولم يقتصر في تدريس طلبته على الموضوعات العلمية الأكاديمية، بل نشط أيضًا في ميدان التبشير، حيث نجح في تنصير عدد كبير منهم. كان له تأثير بالغ في بعض النخب المثقفة في عهد الميجي، منهم إيشيمورا كانزو[538] ونيتوبي إينازو[539].

ماكس فريسكا (1846-1917): عالِم ألماني متخصص بعلوم الزراعة والهندسة الزراعية. قدّمت إليه حكومة الميجي الدعوة للعمل خبيرًا لديها (1882-1885). عمل في معهد البحث الجيولوجي التابع لوزارة الفلاحة والتجارة في عام 1882 لتطوير تقنيات الإنتاج الزراعي. قدّم دروسًا أكاديمية في مدرسة كومابا للفلاحة (أصبحت لاحقًا جزءًا من جامعة طوكيو الإمبراطورية). لاحظ أن ضعف الإنتاجية الزراعية اليابانية مقارنة بمثيلتها الألمانية لا تعود، كما كان شائعًا، إلى صغر المساحة المزروعة، وإنما إلى أسلوب الحرث وتطلّبه الاستخدام الواسع النطاق للأسمدة الذي لم يكن في وسع جميع المزارعين الحصول عليها. وضاعف من سلبيات ذلك سوء فهم عملية التناوب الزراعي، وعدم وجود حيوانات قادرة على إنجاز عملية الحرث العميق.

يُعتبر فريسكا أبا الزراعة اليابانية الحديثة بسبب إدخاله الآلات والبذور الجديدة واتّباعه طريقة الحرث العميق وأسلوب التناوب الزراعي. أجرى في أثناء إقامته في اليابان بحثًا زراعيًا شاملًا في مقاطعة كاي. رجع إلى ألمانيا في عام 1885، وعُيّن أستاذًا في كلية الزراعة في برلين. نشر في عام 1890 كتابه *Beiträge zur Kenntniss der japanischen Landwirtschaft* (**مساهمة في فهم الزراعة اليابانية**)، وضمّنه تجاربه الزراعية في اليابان[540].

---

(538) كاتب إنجيلي مسيحي ومؤسس الحركة المسيحية في عهدي الميجي وتايشو.

(539) اعتنق المسيحية مع تشبعه بأخلاق الساموراي. تخصص بالاقتصاد الفلاحي. حصل على الدكتوراه في علم الزراعة وفي القانون. لخّص توجهاته الفكرية في كتابه روح اليابان الذي ألّفه بعد أن لاحظ تراجع القيم الثقافية اليابانية في بداية عهد الميجي.

(540) بتصرف عن: <http://en.wikipedia.org/wiki/Max_Fresca>.

جيمس ألفريد إيوين[541] (1855-1935): فيزيائي ومهندس اسكتلندي، اشتهر ببحوثه في مجال الخصائص المغناطيسية للمعادن. دُعي في عام 1878 للمشاركة في عملية التحديث الياباني بوصفه خبيرًا أجنبيًّا، فدرّس الهندسة الميكانيكية في جامعة طوكيو، وكان له دور أساس في انطلاق الدراسات الزلزالية في اليابان.

أقام إيوين علاقات صداقة علمية في جامعة طوكيو مع خبراء غربيين عدة، منهم هنري داير ووليام وإدوارد آيرتون في كلية المهندسين الإمبراطورية.

درّس إيوين في طوكيو علوم الميكانيك وحرارة المحركات لطلبة الهندسة، وعلوم الكهرباء والمغناطيس لطلبة الفيزياء، وأجرى الكثير من البحوث عن المغناطيسية، واشتغل مع كلٍّ من لومار غراي وجون ميلن لتطوير آلة السيسموغراف.

بنجامين سميث ليمان[542] (1835-1920): خريج جامعة هارفرد الأميركية (1855). عمل مدرّسًا لفترة قصيرة. اهتم بالطوبوغرافية والمسح الجيولوجي وهندسة التعدين. سافر إلى باريس لاستكمال تخصصه في المدرسة الإمبراطورية للمعادن في باريس (1859-1860)، ثم التحق (1861-1862) بأكاديمية فريبورغ للمعادن في سكسونيا في ألمانيا. افتتح بعد عودته إلى الولايات المتحدة مكتبًا استشاريًّا للهندسة التعدينية في فيلادلفيا. أجرى في عام 1870 مسحًا لحقول النفط في حقول البنجاب لمصلحة وزارة الأشغال العامة في حكومة الهند البريطانية، وأسس بمقتضى ذلك مصلحة دائمة في الشرق الأقصى. وقد يكون ذلك سببًا في اتصال اليابانيين به وعرضهم عليه المجيء إلى اليابان في عام 1871، لكنه رفض ذلك بدايةً بسبب البدل المالي الذي اعتبره غير كافٍ (4000 دولار سنويًّا). لكنه قبِل العرض الياباني في عام 1872 بعد رفع البدل المالي إلى 7000 دولار. وعقدت حكومة الميجي معه اتفاقًا لدراسة مكامن الفحم والنفط المحتملة بهوكايدو وعلى طول الخط

(541) «Les Savants du XIXème Siècle,» sur le Web : <http://michel.hubin.pagesperso-orange.fr/celebres/chap_cel4.htm>, et <http://encyclopedia.stateuniversity.com/pages/20198/Sir-James-Alfred-Ewing.html>.

(542) <http://www.library.umass.edu/subject/easian/lyman.htm>.

الساحلي لبحر اليابان بمحاذاة هونشو. وقد أظهرت دراسته الجيولوجية عن إمكانات واعدة لاستغلال فحم هوكايدو في دعم النشاط الصناعي. ومكث في اليابان بين عامي 1873 و1879 مديرًا جيولوجيًا ومهندس تعدين لدى حكومة الميجي. إضافةً إلى ذلك، درّب عددًا كبيرًا من اليابانيين على أساليب مسح الموارد الطبيعية، وعلم الخرائط والرياضيات وعلوم المعادن وما يرتبط بها من تخصصات. كما نشر الخريطة الجيولوجية الأولى لهوكايدو في عام 1876. وحقق تلامذته نجاحًا تقنيًا، وأصبح بعضهم من أبرز الوجوه الجيولوجية اليابانية المتميزة.

قبل مغادرته اليابان، شجع مساعديه على تشكيل جمعية اليابان الجيولوجية وتأسيس مجلة تابعة لها، وتبرع بمنزله لاستخدامه مقرًا للجمعية(543).

إليوت غريفيس(544) (1843-1928): وُلِد في فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا الأميركية). وكان أبوه قبطانًا بحريًا قبل أن يصبح تاجر فحم. تطوع في عام 1863 للقتال في الحرب الأهلية. سافر بعد ذلك إلى أوروبا مدة عام ودرّس في المعهد اللاهوتي لإصلاح الكنيسة الهولندية في نيو برونسويك (حاليًا المعهد اللاهوتي في نيو برونزويك). استضافته الحكومة اليابانية في عام 1870 لتنظيم المدارس على الطريقة الحديثة. عُيّن مراقبًا عامًا لقطاع التربية في مقاطعة إيشيزن في مقابل 2400 دولار وبيت وحصان.

درّس بين عامي 1872 و1874 الكيمياء في مدرسة كايسي. نشر كتابًا تمهيديًا لمصلحة المتعلمين اليابانيين لدراسة اللغة الإنكليزية، كما ساهم في دعم الصحافة اليابانية والتعريف بأهمية الشؤون اليابانية. التحقت به شقيقته مارغريت وتسجّلت في المدرسة الحكومية للفتيات. ترك اليابان في عام 1874 بعد أن أقام علاقات صداقة مع بعض القادة الذين أصبح لهم في ما بعد شأو بعيد في اليابان. كان عضوًا في جمعية اليابان الآسيوية وجمعية كوريا الآسيوية وجمعية جامعة طوكيو الإمبراطورية.

---

(543) Beck and Burks, eds., pp. 40-45, and Special Collections and University Archives, W.E.B. Du Bois Library, University of Massachusetts Amherst, Benjamin Smith Lyman Papers, on the Web: <http://asteria.fivecolleges.edu/findaids/umass/mums190_bioghist.html>.

(544) <http://ocw.mit.edu/ans7870/21f/21f.027/gt_japan_places/ga2_essay01.html>.

فرانسيس برانكلي[545] (1841-1912): وُلِد في لينستر (إيرلندا). كان أبوه قسًّا وأستاذ علم الفلك في جامعة دبلن. درس فرانسيس في جامعتي ترينيتي ودونغانون، وحصل على نتائج جيدة في الرياضيات. بعد تخرجه الجامعي انتسب إلى الأكاديمية العسكرية الملكية في وولويتش. عُيِّن بعد تخرجه ضابطًا في سلاح المدفعية. تلقى دعوة للسفر من ابن عمه الذي كان حاكم هونغ كونغ. وفي طريقه إلى هونغ كونغ زار ناغازاكي حيث شاهد مبارزة بين شخصين من الساموراي، فتأثر بطقوس المقاتلين اليابانيين[546].

حل برانكلي باليابان في عام 1867 برتبة ضابط في المدفعية الملكية الملحقة بالمفوضية البريطانية، لكنه استقال منها في عام 1871 ليتولى منصب مستشار أجنبي لدى حكومة الميجي. درّس تقنيات المدفعية لأفراد الأسطول الإمبراطوري الياباني الجديد في مدرسة المدفعية البحرية. أتقن بعد وقت قليل من وصوله اللغة اليابانية نطقًا وكتابةً. طُلب منه في عام 1878 تدريس الرياضيات في الكلية الإمبراطورية للمهندسين (جامعة طوكيو الإمبراطورية لاحقًا). تزوج من تاناكا ياسوكو، ابنة واحد من الساموراي من مقاطعة ميتو.

أشرف بين عامي 1881 و 1912 على صحيفة *Japan Mail* التي أُدمجت لاحقًا بصحيفة *The Japan Times*. تلقى دعمًا ماديًا من الحكومة اليابانية في مقابل مناصرة المواقف اليابانية الدولية. كما عمل مراسلًا لجريدة التايمز اللندنية. واكتسب شهرة بسبب ما حرره من برقيات خلال الحرب الروسية - اليابانية. قلّده الإمبراطور الميجي وسام الكنز المقدس تقديرًا له على ما بذله من جهد في تمتين العلاقات اليابانية - البريطانية.

ألبرت تشارلز دو بوسكي[547] (1837-1882): وُلِد في مدينة لييج الفرنسية، ودرس في مؤسسة عسكرية تخرج فيها برتبة ملازم. شارك في عام

---

(545) Dōshin Satō, *Modern Japanese Art and the Meiji State: The Politics of Beauty*, Translated by Hiroshi Nara (Los Angeles: Getty Research Institute, 2011), p. 337, and Nish, ed., *Britain and Japan*, Vol. 4 (Edited by Hugh Cortazzi), pp. 394-395.

(546) <http://www2s.biglobe.ne.jp/~matu-emk/brinkle.html>.

(547) Maison franco-japonaise, *Dictionnaire historique du Japon*, 2 Vols. (Paris: Maisonneuve et Larose, 2002), pp. 485-486.

1860 في سيطرة القوات الفرنسية – البريطانية المتحالفة على بيجين. عُيّن بعد عودته إلى فرنسا ملازمًا في الجيش الفرنسي، ورُقي إلى ضابط في فرقة المشاة 31، وهو في التاسعة عشرة من عمره.

اختير بسبب كفاءته العسكرية ومعرفته اللغة الصينية ضمن البعثة العسكرية الفرنسية التي وصلت إلى اليابان في عام 1867. وعلى الرغم من تزامن البعثة مع بداية انهيار نظام التوكوجاوا، قرر دو بوسكي البقاء، وعمل مترجمًا لدى البعثة الفرنسية. وألمّ بسرعة باللغة اليابانية وعمل على تمتين العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا واليابان خلال الأعوام التي أعقبت انهيار حكومة التوكوجاوا مباشرة. قرر نظام الميجي في عام 1870 توحيد الجيش وتنظيمه، وجرى اعتماد الأنموذج الفرنسي في قطاع الجيش البري والأنموذج الإنكليزي في القطاع البحري. وفي هذا السياق عُيّن دو بوسكي مستشارًا لدى مصلحة الشؤون العسكرية.

تجلت أبرز مساهماته في اقتراحاته الواقعية والعملية، وفي دعوة حكومة الميجي إلى تأسيس نواة جيش عصري، إذ كان هذا الأخير منقسمًا وفق تعدد الانتماءات القبلية.

اخترنا من بين آلاف الخبراء الأجانب عيّنة موجّهة بمعايير التخصص العلمي والتقني ومصادر الإرسال الغربي، وحاولنا جعلها تنسجم مع العيّنة التي خصصناها لأفراد البعثات التعليمية اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي، على مستوى التخصص العلمي المطلوب من الجانبين.

يمثّل الخبراء الغربيون الذين استقدمتهم الحكومة اليابانية المجتمع الإحصائي الذي نود دراسة عناصره. ففي البداية أخذنا عيّنة من المجتمع الإحصائي للاستدلال على خواص المجتمع بكامله عن طريق تعميم نتائج العيّنة. وانتقينا لذلك عيّنة صغيرة مؤلفة من 29 خبيرًا أجنبيًا. وتوخينا في تعميم نتائج العيّنة تعريفَ المجتمع المراد مُعاينته وتحديده بدقة، ومعرفةَ العناصر الداخلة فيه بحيث يُمكن الحكم على انتماء عنصر ما إلى المجتمع من عدمه بسهولة ويسر.

وطّأنا في موضوع العيّنة بالحديث عن ظروف استقدام الخبراء الأجانب إلى اليابان بدءًا من عهد الميجي، ووضعنا ذلك في سياق التحولات الكبرى التي شهدها هذا العهد ضمن نسق مضبوط وأهداف محددة أوضحنا معالمها سابقًا، وركزنا في نماذج العيّنة على عنصر التنوع والتركيز على البلدان التي قدّمت أكبر عدد من الخبراء (بريطانيا وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا والنمسا) في حقول معرفية وتقنية وفنية متباينة.

نختلف في هذا الموضع مع من قال إن اليابان «لم تجرِ وراء نماذج تطبّقها، ولم تستورد خبراء من الخارج ليقوموا بالعمل عوضًا عنَ أبنائها، لكنها توسعت في الابتعاث إلى الخارج ليتفاعل أبناؤها مع الحضارة الغربية، ولينهلوا من العلوم الحديثة»[548]. والحقيقة التاريخية تؤكد أن اليابان انفتحت على الكفاءات الغربية في موازاة إيفاد البعثات التعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي. والمؤكد أن اليابانيين نظّموا مسألة التعاون مع الخبراء الأجانب، وحددوا لذلك آجالًا زمنية بالأخذ بنظام العقود المحددة، الأمر الذي يدل على النيّة في الاستغناء عنها عندما تتأهل الخبرة المحلية وتتمكن من الاستعاضة عن أمثال ديفيد ميراي ووليم إليوت وفرانسيس برانكلي وبنجامين سميث وغيرهم.

«لم يكن متوقّعًا من الخبراء الأجانب نقل منهجي للتقنية الغربية، بل كُلفوا إقامة بنى تحتية شبيهة بمثيلتها الغربية»[549]؛ ذاك ما قاله أحد الباحثين اليابانيين، وهذا قول لا يستقيم إطلاقًا مع حقائق التاريخ؛ فلم يكن الخبراء الغربيون مجرد عمال يقومون بإنجاز البنى التحتية من طرق ومواصلات ومقاولات ومصانع... إلخ، بل انخرطوا أيضًا في صوغ المدوّنات القانونية ومشروعات الإصلاح التربوي ووضع قواعد المؤسسات الصناعية والمالية. كما لا يمكن فهم النبوغ الياباني في مؤسسات الغرب ومعاهده من دون مساعدة غربية وتوجيه من الأطر العلمية والتربوية في أوروبا وأميركا.

مثّلت الولايات المتحدة، بالنسبة إلى اليابانيين مجالًا لتحقيق النجاح

---

(548) محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري: محنة المسلم مع حضارة عصره، تقديم عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة؛ 21 (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1989)، ص 86.

(549) Tsuzuki, p. 71.

وحيازة المال. وساهمت كتابات فوكوزاوا يوكيتشي ونيجييما جو في تغيير صورة أميركا لديهم، كما أدى الخبراء الأميركيون العاملون في اليابان دورًا رئيسًا في ذلك(550).

تنبّه اليابانيون إلى أن التكنولوجيا منتوج ثقافي يحمل بصمات الإطارين المجالي والثقافي اللذين أنتجاها ووفّرا لها عوامل الظهور والتطور والامتداد. من هنا كانت ملَكة الاستيعاب التقني وفك شفرات العلم التطبيقي الغربي مسؤولية الطلبة الموفدين إلى البلدان الغربية. ومن هذا المنطلق خططت الإدارة اليابانية لاستبدال الخبراء بهؤلاء المتعلمين. كما وفّرت وزارة التعليم الكتب الملائمة بمختلف اللغات الغربية والصينية، «فقد ضمّت مكتبة كيوتو 255.000 مؤلف، واحتوت جامعة طوكيو على 240.000 كتاب باللغتين اليابانية والصينية و189.000 مصنّف باللغات الغربية»(551).

مثّل التعليم والمؤسسات التعليمية واحدًا من القطاعات التي استقبلت الكثير من الخبراء والأساتذة الأجانب. ويمكن رصد بعض معالم ذلك في الجدول (5-12) الآتي:

الجدول (5-12)(552)

عدد الخبراء والأساتذة الأجانب في اليابان (1874-1923)

عام	1874	1875	1876	1877	1878	1879	1880	1881	1882	1883	1893	1903	1913	1923
عدد الأساتذة الأجانب	77	72	78	53	48	45	39	27	27	24	38	66	105	155

(550) Spickard, p. 14.

(551) Bain, p. 255.

(552) *Japan's Modern Educational System*, chap. 2: «The Formation of the Modern Educational System,» para. 3: Education during the Period of the Education System Order, (1): The Enforcement of the Education System Order, d: Japanese Students Studying Abroad and Foreign Teachers in Japan.

تبدو من البيانات الواردة في الجدول (5-12) أهمية الحضور الأجنبي الذي تمثّل في عام 1876 في 78 أستاذًا أجنبيًا، ليتراجع العدد إلى 24 أستاذًا في عام 1883؛ إذ رجعت أفواج كثيرة من المتعلمين اليابانيين من البلدان الغربية ونجحت في تمكين اليابان من الاستعاضة عن الخبراء الأجانب.

من جانب آخر، نما العدد بدءًا من 1893، فوصل إلى 155 أستاذًا في عام 1923، وهي الفترة التي تزامنت مع ولوج اليابان مرحلة التوسع الإمبريالي على حساب الصين وكوريا، ومع المواجهة مع روسيا القيصرية، وبداية التوتر العسكري والدبلوماسي مع الحضور الغربي في منطقة الشرق الأقصى. كما يتطابق التطور مع زيادة اهتمام الإدارة اليابانية بجوانب التسلح وامتلاك التقنية المدنية والعسكرية بعد أن تبيّن لها بالملموس حجم القوة الغربية وضخامة ترسانتها العسكرية من خلال مجريات الحرب العالمية الأولى ونتائجها.

يدل نمو الحضور التقاني الغربي على ذهنية منفتحة على الفعل التحديثي ومستلزماته، وتنوع مستويات هذا الحضور يحيل على اهتمام خاص بالنواحي التقنية المختلفة والإيجابية.

لم تخطط حكومة الميجي للاستفادة الأبدية من الخبراء الأجانب، بل توازى هذا الإجراء مع إرسال البعثات اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي، خصوصًا إلى الدول التي سجلت عناصر السبق في امتلاك ناصية العلم والتكنولوجيا. وقد انبنى الأمر على براغماتية واضحة، تعترف بالواقع، وتؤسس لاختيارات المستقبل.

يمكن القول إن الوجود التقني الأجنبي والاستفادة منه ارتبطا بعدم وجود خبرة محلية تنهض بمهمة تحديث البلاد، والانتصار في معركة العلم والتحدي العسكري الغربي، وهو ما لاحظناه سابقًا في خطاب الإمبراطور موتسو هيتو الذي وضع إمكانات اليابان في مرتبة أدنى ممّا تملكه القوى الغربية، ودعا إلى ضرورة البحث عن العلم وعناصر القوة الغربية.

لم يكن إذًا في مخطط حكومة الميجي الإبقاء على هؤلاء الخبراء أمدًا طويلًا، إذ سرعان ما بدأت البعثات اليابانية تحقق أهدافها؛ «فمثلًا منذ عام

1880، غادر اليابان الخبراء المكلفون بتنظيم الصناعة، كما أن الفريق الفرنسي الذي أدار مدرسة فيلاتشور لم يبق في اليابان سوى ثلاثة أعوام. وبعد أن كان عدد الخبراء الأجانب في ميداني القضاء والمالية، والأساتذة والمهندسين نحو 500 خبير بين عامي 1872 و1875، لم يكن منهم سوى 200 في عام 1890»[553].

كانت عملية الاستيراد مجرد «خطة انتقالية عند اليابانيين، تتلوها مرحلة أرقى من الاستيعاب والتطوير المحلي للتكنولوجيا المستوعبة محليًا، فعمل اليابانيون على اكتساب التكنولوجيا الغربية وعدم السماح للخبراء الأجانب بالبقاء في اليابان»[554].

لم تقتفِ اليابان أنموذجًا تحديثيًا معيّنًا، وإنما بحثت عن المعرفة أنّى وجدت، وأتقنت إعطاءها روحًا محلية خاصة. انفتح اليابانيون على أغلب دول العالَم الرأسمالي، صغيرة أكانت أم كبيرة، ولم تتقيد بالأنموذج البريطاني أو الأميركي أو غيرهما.

أدى تدفق عناصر الحداثة إلى «تهديد الاستمرارية التي يمثّلها التوازن السائد في النظام التقليدي - ولهذا السبب - بذلت (اليابان) محاولات كثيرة لجعل التغير مدروسًا ومخططًا له، وليس عرضيًا أو مرتجلًا، ونظرت هذه المحاولات إلى الفرد أو الجماعة والبنى، باعتبارها الأساس في عملية التغيير[555].

كان ذلك انفتاحًا على الحضارة الغربية بقصد التزود بمكتسبات العلم والتكنولوجيا... كما لم ينطوِ هذا الانفتاح على النقل الآلي للتكنولوجيا، وإنما احتفظ لنفسه بسبيل مزج التكنولوجيا الغربية بروح الحضارة اليابانية وتطويع التكنولوجيا المستوردة وفقًا للبيئة اليابانية وبناءً على القيم الاجتماعية اليابانية[556].

(553) Renouvin, p. 96.

(554) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 315.

(555) رشاد، ص 50.

(556) عبد الأمير رحيمه العبود، اليابان: تجربة التطور، الواقع الراهن، العلاقات الاقتصادية مع الخليج العربي، سلسلة الخليج العربي والعالم؛ 1 (البصرة: جامعة البصرة، 1985)، ص 15.

عمومًا، عندما بدأ اليابانيون منذ عام 1868 بدراسة تكنولوجية الغرب المتقدمة، «ناضلوا وكافحوا من أجل أن يجعلوها متناسقة ومتلائمة مع ثقافتهم التقليدية، كما أنهم لم يُظهروا تسامحًا تجاه الثقافة الأجنبية فقط وإنما رفضوا مساندة قيم ثقافتهم التقليدية»[557].

فضّل اليابانيون اقتباس ما هو مفيد... وطرح ما يقود إلى التغريب... نتيجة ذلك استطاعت اليابان الانتقال من مرحلة نقل التكنولوجيا والعلوم الغربية إلى مرحلة تطويرها والمشاركة في تصنيعها عالميًا، فانتقل اليابانيون من دائرة الاقتباس والتقليد إلى مرحلة الإبداع والتجديد[558].

لم تتأثر اليابان، بسبب هذه الرؤية التنموية، بنتائج الاستغناء عن الخبراء الأجانب، إذ أصبحت مالكة مفاتيح التكنولوجيا العصرية، خصوصًا بعد رجوع البعثات اليابانية التي تمكّن أفرادها بسرعة من تعويض نظرائهم الغربيين[559].

يقول أحد الدارسين إن «اليابان استورد[ت] من الأفكار ما يتلاءم مع تربته[ها] الاجتماعية وبخاصة الأفكار التي تثري التقنية، أي إنها جرّد[ت] الأفكار من أي مضمون اجتماعي أو ثقافي»[560].

يمكن القول إن آلية البعثات التعليمية خضعت لتوجيه دقيق من قادة العهد الجديد الذين راموا تحقيق تنمية قائمة على الكفاءات المحلية، والنأي بالتجربة اليابانية عن التماهي مع الحداثة الغربية وما تستبطنه من تراكمات تاريخية خاصة.

لكن، ألم تنتج التجربة اليابانية المآل الغربي الإمبريالي نفسه، عندما توسعت على حساب دول الجوار وأنتجت طاقة رهيبة من عناصر العنف والتدمير؟ ترتبط النتائج بمقدماتها، وتتأسس المقدمات، في الحالتين الغربية واليابانية، على حقائق امتلاك القوة بصورها المختلفة والمتنوعة، الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

(557) هيروشي مينامي، «العقل الياباني،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ص 30.

(558) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 316.

(559) Renouvin, p. 96.

(560) سفر، ص 86.

خاتمة

مثّلت البعثات التعليمية اليابانية إحدى أبرز الآليات التي انفتح من خلالها بلد النيهون على الحداثة والتحديث الغربيين؛ ويعود أصلها إلى نهاية عهد التوكوجاوا، حين أوفد نظام الباكوفو مجموعة من البعثات، توسل من خلالها تكوين كفاءات إدارية وعسكرية وقانونية قمينة برد الاعتبار إلى صورته التي تعرضت للتشكيك بعد توقيعه اتفاقيات غير متكافئة مع الولايات المتحدة وغيرها من الدول الأوروبية بعد حملة بيري في عام 1853.

في المقابل، نظمت المقاطعات المعارضة كساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا، بعثاتها الخاصة إلى كل من بريطانيا والولايات المتحدة، ونشأ تنافس شديد بين الأطراف المختلفة للتعلم والتكوين بالمؤسسات التعليمية الغربية. ولعل ذلك ما منح هذه الآلية الغاية والمعنى من الاستمرار بإنجازها على الرغم من العراقيل المختلفة التي سبق أن تناولناها بإسهاب.

تأكد اليابانيون من قصورهم العلمي والتحديثي في أثناء مقارنتهم ما كان عليه بلدهم من تأخر بما كانت تشهده الدول الغربية من قوة متنامية على المستويات المختلفة. واعتبروا أن السيطرة على الداخل وهندسة الفضاء الداخلي لا يمكن أن تتحققا من دون أُطر بشرية متعلمة قادرة على تنفيذ سياسة الإصلاحات وعلى ضع اليابان في مصاف الدول المتقدمة.

استفاد المتعلمون اليابانيون من المناخ السياسي والإداري الجديد الذي أحدثه عهد الميجي؛ فقد ألغي النظام الطبقي وحُلّت طبقة الساموراي، واعتُبرت الكفاءة العلمية مقياسًا أساسًا للترقي المجتمعي. وكان التعلم في الخارج يعني تقلّد الوظائف السامية والاستراتيجية، الأمر الذي تسبب في انتشار حالة من التنافس المحموم في إيفاد الأبناء إلى البلدان الغربية. كما خصصت الوزارات المختلفة، منها وزارة التربية، منحًا خاصة للطلبة، خصوصًا من صفوف طبقة الساموراي المنحلّة ومن الفئات التي ساهمت في إحياء النظام الإمبراطوري.

حاولنا، من خلال عيّنات المتعلمين اليابانيين في الخارج، الإشارة إلى

الأدوار المهمة التي أدتها تلك العيّنات بمجرد عودتها إلى اليابان؛ فقد تقلّد أفرادها منصب الوزارة الأولى ووزارات أخرى، كوزارة التعليم والصناعة والتجارة والدفاع وغيرها، وتوافرت لهم حرية واسعة لإبراز كفاءاتهم العلمية والتقنية.

لم تستطع الإدارة اليابانية توفير المنح لجميع الطلبة الراغبين في الدراسة في الخارج؛ واستعاضت عن ذلك باستجلاب الخبراء الأجانب من جنسيات مختلفة، وتخصيص اعتمادات مالية كبيرة لهم، الأمر الذي مكّن من تحقيق نوع من التكافؤ في الاستفادة من التعليم الحديث.

خضعت الوفود التعليمية اليابانية لتعاليم الإدارة الوطنية، وساهم نمط التعليم في تكوين كفاءات تؤمن بالقيم التي رسمها عهد الميجي، وشكّلت الوفود تلك وقودًا بشريًّا لمشروع التحديث ومرحلة التوسع المجالي على حساب دول الجوار.

انبهر العقل الياباني بالأنموذج البروسي ورأى فيه ضالته وأنموذجه المثالي، وانعكس ذلك على تعدد الوفود التعليمية إلى ألمانيا. ويأتي هذا الاختيار لاعتبارات موضوعية تتعلق بالانتصار الساحق على فرنسا في حرب 1871، واعتماد بروسيا النظام الإمبراطوري الذي شكّل في الحالتين الألمانية واليابانية ملاذًا للوحدة وتجنّب الصراعات الداخلية.

على الرغم من ذلك، لم يلغ اليابانيون الاستفادة من العلوم التي كانت تمنحها الجامعات الأميركية والإنكليزية والفرنسية.

حدّدت اليابان أهدافًا واضحة من إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج، وفي مقدمها الاستغناء عن الخبراء الأجانب الذين استعان بهم عهد الميجي وكلفوا الدولة مبالغ مالية طائلة، وبناء يابان جديدة بسواعد وطنية وبرؤية تمزج بين التحديث الغربي والخصوصيات الثقافية والمجتمعية التي انتقلت معالمها من المزرعة إلى المصنع ومن نمط الإنتاج الفيودالي إلى نمط رأسمالي ذي خصوصيات محلية واضحة.

اهتم المتعلمون اليابانيون بأصناف المعرفة السياسية والدستورية

والاقتصادية والعسكرية والمالية والفلسفية والفنية، الأمر الذي دل على شمولية رؤية الإصلاح التي رامت وضع المجتمع على سكة تنموية جديدة، وإصلاح العلل المختلفة التي تسببت في إيقاظ بلد النيهون من عزلته التاريخية ونرجسيته المفقودة. ظن اليابانيون أن المعركة مع الغرب لا تقتصر على علم المدفعية، بل قاربوا الظاهرة الغربية من وجوهها المختلفة، ولم يلغوا معركة الأيديولوجيا والفن والفلسفة والعلوم السياسية وغيرها.

لعل ما منح هذه البعثات المعنى والغاية وجود قيادة وطنية متنورة امتلكت حس الانتماء وتوفّرت على مؤهلات الفعل وتوجيه الطاقات بما يخدم مصالح اليابان العليا؛ إنها فئات كانت تنتمي إلى مقاطعات ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا وغيرها، وقادت الانقلاب على نظام الباكوفو، وأرجعت السلطة إلى الإمبراطور واستثمرت رمزية هذا الأخير ومنحته كاريزما خاصة لتنفيذ مقتضيات الإصلاح وإطاحة رموز النظام الفيودالي وقواعده.

كان المتعلمون اليابانيون يشعرون بأهمية التكوين في الخارج، وتطلعوا إلى إمكان تقلّدهم المناصب السامية والاستراتيجية داخل إدارة يابانية جديدة، حددت الكفاءة العلمية مقياسًا أساسًا لذلك.

تتعدد عوامل نجاح البعثات التعليمية في خدمة مشروع التحديث الياباني، مثل القيم الجماعية ودورها في بناء شبكة متجانسة ومتكاملة من العلاقات المجتمعية. كما أن طبيعة المجتمع الفيودالي الياباني والقيم الكونفوشيوسية والأسطورية ساهمت في توفير عناصر الانضباط الداخلي واقتصاد الجهد المادي، وتحقيق التراكم الإيجابي في بناء الدولة والمجتمع الجديدين.

لم يكن نجاح البعثات التعليمية منفصلًا عمّا فصلنا فيه الحديث في القسم الأول من هذا الكتاب، بل هو نتيجة طبيعية لمقدمات سليمة. ولعل ذلك ما يفسر أحد أوجه الاختلاف بين ما حدث في كلٍّ من المغرب واليابان في الفترة الممتدة بين عامي 1844 و1944.

يفرض علينا ذلك وضع بعض الاستنتاجات المقارِنة بين البعثات التعليمية المغربية والبعثات التعليمية اليابانية في الفترة المذكورة آنفًا.

الفصل السادس

البعثات التعليمية المغربية واليابانية نتائج متباينة

«النصارى كيعلمو العقل والمسلمين كيحفيوه»

محمد بن الحاج محمد النجار

أحد أفراد البعثات التعليمية المغربية

حاولتُ على امتداد صفحات هذا الكتاب أن أقارن بين البعثات التعليمية اليابانية والبعثات التعليمية المغربية، بشكل جعل منه أرقًا تحديثيًا لازم مختلف المباحث المثارة. وكنت أظن أن تقديم مشروع إجابة عن تباين نتائج هذه البعثات مرتبط بالمقدمات السياسية والإدارية والثقافية والتعليمية والمجتمعية التي أطّرتها ومنحتها عوامل النجاح أو الفشل. ولتوضيح طبيعة النتائج ورصد تجلياتها، كان علينا أن نكشف عن معالم الاختلاف بين البعثات التعليمية المغربية والبعثات التعليمية اليابانية باستعمال أسلوب المقابلة ومنطق النظير.

كيف نستدل على مؤشرات النجاح والنجاعة بالنسبة إلى اليابان؟ وما معايير الفشل والنكوص بخصوص بعثات المغرب؟ ذلك ما حاولت القيام به بالإشارة إلى النماذج وتتبع درجة حضورها أو غيابها في سيرورة الفعل التنموي في البلدين خلال الفترة موضوع الدراسة والبحث.

ركزت موضوعات هذا الفصل على الخلاصات التركيبية لإشارات وردت

في قسمي الكتاب ومباحثيهما. ووردت هنا بصيغة تجمع بين القضية ونقيضها ضمن رؤية إشكالية تبحث عن العلل التنموية وأسبابها الذاتية والموضوعية.

ما طبيعة التعليم الذي استفاد منه المتعلمون المغاربة والطلبة اليابانيون في الخارج؟ ما مدى تحصيلهم الدراسي وما درجة اندماجهم داخل الإدارتين المغربية واليابانية بعد عودتهم؟ وكيف عملت النخب المتعلمة، وما القيمة المضافة التي حققتها لزخم التحديث في بلدانها؟ تلك أبرز الأسئلة التي حاولت تفكيك عناصرها وتقديم إجابة عن مقتضياتها وإشكالاتها.

أولًا: شمولية ميادين التعليم الياباني وهواجس التعلم العسكري لدى المغرب

يُعَدّ مجال التعليم أحد العناصر التي برزت من خلالها أوجُه التباين بين أنموذج التنمية الياباني ومثيله المغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فقد تبيّن لنا من خلال مباحث البعثات التعليمية المغربية تركيزها على التكوين العسكري، بحيث ركز خطاب الإصلاح بوصلته في اتجاه ما له علاقة بـ «حرب النظام». ويمكن تفسير ذلك بالهزائم العسكرية المتتالية التي مُني بها الجيش المخزني، خصوصًا في معركتي إيسلي وتطوان.

ربط المخزن هزائمه بضعف المؤسسة العسكرية التي انكشفت عورتها بشكل لم يسبق له مثيل في عام 1844. وأشار الناصري إلى هذا الخلل في حديثه عن معركة إيسلي: «... وكان الخليفة سائرًا في وسطهم ناشرًا المظلة على رأسه راكبًا على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته... ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح به فرسه وكاد يسقط.. فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه... ولم يهزم المسلمين إلا المسلمون...»[1].

(1) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، 9 ج (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954-1956)، ص 52.

تحدث الأعرج السليماني برؤية استراتيجية عن الخطة العسكرية الفرنسية، وهي خطة تميزت بإحكام شديد، وسبقتها استشارة واسعة بين طاقم الجيش الفرنسي، فكان أن «دام هذا العمل نحو ثلاث ساعات، واختل مصاف المراكشيين وتشتتت جموعهم في كل وجه»[2].

كانت الصدمة العسكرية عنيفة، وحاول المخزن والنخب العلمية فهم أسباب الهزيمة والبحث عن آليات المدافعة. ويبدو أن المخزن المغربي كان على علم بالمقدمات التي تعلل الهزيمة وتبيّن أسباب اختلال التوازن بين الطرفين. ومن هنا كانت رحلة الصفار بداية صحيحة وملائمة لفهم مقدمات الهزيمة التي أرجعها ضمنًا إلى العوامل السياسية والمجتمعية والتنظيمية والاقتصادية والعلمية، عاكسًا من خلال منحى المقارنة المستترة علل الدولة والمجتمع في المغرب. وقد أكد ذلك صراحة منظّرو الاستعداد، كالكردودي والسليماني والسملالي واللجائي.. غير أن هذا التنظير والاستعداد بقيا من دون توظيف فاعل وإيجابي، بحيث احتكر المخزن استثمار هذه الإنتاجات والإشارات الإصلاحية؛ وبدلًا من أن تؤسس هذه المقدمات لسكة تنموية ينخرط المجتمع في إنتاجها ورعايتها والدفاع عن تعاقداتها، اهتمت مؤسسة السلطان بتجديد مؤسستها بحيث كانت تتوخى تزويد المخزن بالأطر اللازمة لإعادة إنتاج اختياراته التقليدية وتبديل قطع غياره الفاسدة. ولذا اهتم المخزن بإرسال الطلبة إلى المدارس العسكرية الأوروبية المتخصصة، كمدرسة المهندسين كاطان في إنكلترا، والمركز الحربي لبناء المدرعات الحربية[3]، وأكاديمية مودينا العسكرية في إيطاليا، ومدرسة كلاوتسال ومدرسة الضباط في ألمانيا[4] لتكوين أُطر قد تفيده في بعث الحيوية في مؤسسته المتداعية.

حاول المخزن الحسني من خلال البعثات التعليمية المذكورة اكتساب

---

(2) محمد بن أحمد بن الأعرج السليماني، اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي حول المغرب (الرباط: مطبعة الأمنية، 1971)، ص 137.

(3) عبد الغني سكيرج، «مذكرة الزبير سكيرج (1850-1932): وثيقة جديدة حول البعثات الطلابية إلى أوربا في عهد المولى الحسن،» دار النيابة، السنة 2، العدد 8 (1985)، ص 29.

(4) Pierre Guillen, *L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905* (Paris: Presses universitaires de France, 1967), p. 86.

خبرات متنوعة وتزويد البلاد بأُطر تقنية وعسكرية تستجيب لمتطلبات العصر[5]. ويبدو من خلال جداول مبحث كرونولوجيا البعثات التعليمية المغربية، أن أغلب أفواجها تخرجوا متخصصين في الميادين العسكرية المختلفة؛ بيد أن البعثات التعليمية اليابانية لم تسلك السبيل نفسه؛ فبعثة إيواكارا مثلًا التي زارت أغلب دول الغرب الرأسمالي بين عامي 1871 و1873 «أعدّت تقريرًا مكوّنًا من مائة مجلد في خمسة فصول نشرته في عام 1878 وضمّنته كل مشاهداتها المفصلة حول المدارس والمجالس النيابية والمصانع والجيوش والسجون، بل وحتى بيوت البغاء.. (و) بادر اليابانيون إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الضغوط الغربية»[6]. كان هدف البعثة البحث عن مصادر القوة الغربية التي هددتهم في عقر دارهم عندما داهمت سفن بيري سواحل اليابان، وفرضت عليهم معاهدة كاناجوا. واكتشف أفراد البعثات اليابانية من خلال دراستهم في الخارج عناصر القوة الحقيقية لدول الغرب الرأسمالي: الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وروسيا والدانمارك والسويد وإيطاليا والنمسا وسويسرا[7].

كانت البعثة بقيادة إيواكارا تومومي، وكان قادتها من الشخصيات البارزة في حكومة الميجي. وكان من بين هذه الشخصيات من أتيحت له فرصة زيارة الدول الغربية في الفترة التي سبقت حكم الاستعادة، وكان متوسط عمر أفراد البعثة ثلاثين عامًا.

اكتشف أفراد البعثات اليابانية غربًا آخر، تتأسس قوته على النظريات العلمية والمقولات الفلسفية والعلوم التطبيقية، ولم تكن الجوانب العسكرية إلا تجلّيًا لعناصر القوة الأخرى. وقد تبنّت السلطة السياسية الجديدة هذه النظرة الشمولية وأدمجتها ضمن مشروعها التحديثي. وتكلف رؤساء هذه البعثة بقضايا التغيير الكبرى في اليابان، وفي مقدمها المجال السياسي والدستوري؛

(5) محمد البكراوي، «الطلبة المغاربة بالجامعة الفرنسية خلال الفترة ما بين الحربين 1927-1939،» أمل، العددان 28-29 (2003)، ص 105.

(6) أكيرا تاناكا، «عهد الميجي واليابانيون،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ترجمة عبد الله مكي القروص (بيروت: الدار العربية للعلوم، 1999)، ص 24.

(7) المصدر نفسه، ص 23.

فقد تمكن هيروبومي إيتو، بعد رحلة دراسية إلى الغرب امتدت عامًا ونصف عام (1882-1883)، مع فريق مهم من المتعلمين اليابانيين في الخارج وبعض الخبراء الأوروبيين من وضع مقدمات مشروع دستور ياباني، و«أصبح رئيسًا للوزراء (1868) وعمره لا يتجاوز 28 سنة»[8].

تأثر إيتو بالأنموذج السياسي البروسي خصوصًا[9]، ولم يكن هذا التأثير، كما سبق أن لاحظنا، مصادفة أو عشوائيًا، بل كان عن وعي وقصد، وتأكد للشخصيات اليابانية التي أوفدت للخارج في أوائل عهد الميجي وتجولت في أوروبا لاستكشاف أنماط التحديث القائمة فيها، أن القانون الدولي لا يحمي أي دولة... وأن الطريق الوحيد هو تطوير القوة القومية وتنمية الروح الوطنية وهو الطريق الذي اتّبعته بروسيا[10]، وهو الدرس الذي لقّنه أوتو فون بسمارك لأعضاء البعثة في أثناء زيارتهم ألمانيا بعد انتصارها المدّوي على فرنسا في عام 1871.

أدرك اليابانيون أن إعداد عناصر القوة لا يقتصر على المجال العسكري، فأرسلت حكومة الميجي «بعثات إلى بريطانيا للاطّلاع على صناعة السفن والتجارة البحرية، وبعثات إلى ألمانيا للاطّلاع على نظم الإدارة المحلية وقوانينها وبعثات إلى الولايات المتحدة للاطّلاع على إدارة الأعمال وتسويق الإنتاج وغيرها من البعثات إلى الدول المتطورة المختلفة في تلك الفترة»[11].

كما حاول الموفدون اليابانيون إلى فرنسا في عام 1872 معرفة أسباب هزيمتها أمام القوة البروسية الناشئة وبذلوا جهدًا لدراسة النظم العثمانية واستنتاج الخلل البنيوي لدولة الآستانة ودور ذلك في بداية سقوط الرجل المريض أمام الضربات الغربية، وفي مقدمتها القوة الروسية القيصرية التي بدأت

(8) أتسوشي كادوواكي، «الشباب اليابانيون،» في: خفايا المعجزة اليابانية، ص 70.

(9) عبد الغفار رشاد، التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984)، ص 132.

(10) المصدر نفسه، ص 58.

(11) مسعود ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيًا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص 254-255.

تتشكل، مع أواخر القرن التاسع عشر، عناصر عدائها مع يابان الميجي وتطلعاته الإمبريالية. لقد كان هدف البعثات اليابانية الاطّلاع «على التقانة الغربية وشؤون الحكم والمجتمعات (الغربية)»[12].

من خلال النماذج التي اعتمدناها لإبراز التوزيع المجالي والتخصص التقني للوفود التعليمية اليابانية في الخارج، أبرزنا تعدد الحقول المعرفية التي نبغ فيها الطلبة اليابانيون والتي امتدت إلى العلوم الرياضية والفيزيائية والطبية والكيماوية والعلوم السياسية والقانونية والاقتصادية، إضافةً إلى علوم الفلسفة والفن والتشكيل والنحت، كما استنتج اليابانيون أهمية المعركة الأيديولوجية والثقافية بجانب التحديات العلمية والتقنية والعسكرية والسياسية أمام طاقة الغرب العنيفة والمنظمة، وتمكّنوا من تكوين نخب فكرية وعلمية وسياسية متميزة ملأت الفراغ واستطاعت الرد على التحدي الخارجي.

من جانب آخر، استقبلت الجامعات اليابانية خبراء أجانب من دول غربية معيّنة (ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا) في التخصصات نفسها التي تكوّن فيها الطلبة الموفدون إلى الخارج، الأمر الذي يدل على وجود رؤية وأهداف واضحة ومحددة لمسيرة الإصلاح الذي نشدته الحكومات اليابانية المتعاقبة؛ إذ اعتبر موضوع إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج واستقدام الخبراء الأجانب وجهين لهدف واحد: فإذا كانت الآلية الأولى رامت الاطّلاع والتكوين داخل مؤسسات الغرب الأكاديمية وجامعاته، فإن الآلية الثانية طمحت إلى توفير مواد التكوين والمعرفة للطلبة اليابانيين الذين لم تسمح أوضاعهم المالية بانتقالهم إلى المؤسسات الجامعية الغربية.

فهم اليابانيون، من خلال زياراتهم المتعددة، كنه الغرب ومرتكزات قوته، ونجحوا في جمع معلومات كافية، فاقتنعوا بشمولية المعركة والتحدي. وكما أن للعلوم النظرية والتطبيقية أهمية في بناء معالم القوة المادية، فإن معركة الأيديولوجيا لم تكن غائبة عن صنّاع القرار الياباني الذين توخّوا من ثنايا

---

(12) شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 210.

الاهتمام بالفلسفة والفنون الغربية فهم طبيعتها وامتداداتها، ووضع بدائل تمزج بين الذاتي والمكتسب من الرؤى الفلسفية اليابانية الحديثة والمعاصرة.

تتطابق البعثات التعليمية المغربية مع مثيلتها اليابانية، على مستوى الشكل، في تنويع مراكز التعليم والتكوين في كلٍّ من أوروبا والولايات المتحدة؛ فقد وجّه المخزن الحسني وفودًا تعليمية عدة إلى الدول ذات العلاقة المباشرة بالمسألة المغربية كبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، وفي مرحلة لاحقة ركّز على الوجهة البلجيكية. وتحكمت سياسة استغلال التناقضات الأوروبية في تحديد وجهتها، في حين توفّرت الإدارة اليابانية على حرية كبيرة في اختيار الوجهة التعليمية الملائمة مع التركيز على أربعة بلدان محددة: ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، لما كانت تشهده هذه الدول من تحولات تقنية وعلمية واقتصادية وسياسية.

اختار المخزن، في أواخر حكم الحسن الأول، الوجهتين البلجيكية التي تدفقت إليها ستة أفواج من المتعلمين فاق عدد أفرادها ستين متعلمًا، كما تزايدت البعثات التعليمية المغربية إلى إيطاليا. ويبدو من خلال فحص اختيارات المخزن وتحديد غاياته المرسومة غموضًا في العلاقة المحتملة بين البعثات التعليمية بوصفها آلية إصلاحية وتحقيق الأهداف المنشودة.

انطلقت البعثات اليابانية من مقدمات وفرضيات منطقية تأسست على مبدأ شمولية عناصر القوة الغربية، فاقتفت آثارها وفهمت مضامينها واستطاعت الرد عليها وامتلكت زمام المبادرة في عناصرها. أما البعثات المغربية، فيبدو - ظاهريًا - أنها اعتمدت على مقدمات معتلّة؛ فمن خلال تخصصات أغلب البعثات التعليمية التي أوفدها كلٌّ من محمد الرابع والحسن الأول، تبدو القيمة العسكرية مهيمنة وسائدة بشكل فهم من خلاله المخزن، على مستوى الممارسة الفعلية، أن الغرب انتصر بفعل تفوّقه العسكري.

إذا استعرضنا تخصصات الوفود التعليمية المغربية التي سافرت للدراسة في أوروبا والولايات المتحدة، فإننا لا نجد ضمنهم من اهتم بالنظريات الاقتصادية والفلسفية والسياسية، أو العلوم الرياضية والفيزيائية، بل كان التركيز منصبًا على كل ما له علاقة بالمسألة العسكرية. ولم يكن منتظَرًا من هؤلاء الطلبة

أن يهتموا بهذه الحقول المعرفية، لأن «الفريضة الوقتية»، بالنسبة إلى المخزن، لم تؤكد ذلك، ولأن الاهتمام بهذا النمط من العلوم يدل حقيقة على الرغبة في التغيير الشامل والجذري للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في حين لم يتعدّ السقف الأعلى للغايات المرسومة لهذا العمل في المغرب حدود تجديد مؤسسة المخزن ومدّها ببعض الأطر المدرَّبة التي تعيد إليها بعض عناصر القوة وتؤخر سقوطها أمام ضربات الغرب القوية والمنظمة.

في المقابل، كان المخطط الياباني يرمي إلى إعادة تشكيل المجتمع والدولة بشكل جذري، وقد أحدث قطيعة جلية في نسق الممارسة السياسية والإدارية، انتقل معها المجتمع من طور الانغلاق وإنتاج الأزمة إلى طور الامتداد والمنافسة العالمية. من هنا، جاءت النتائج سلبية وأحيانًا كارثية في الحالة المغربية، في وقت كان فيه الإطار النظري الذي وجّه أفراد البعثات شموليًا ووجِدت مقدماته في أدب الرحلة، وهي المقدمة التي أشار من خلالها الصفار وغيره إلى معالم قوة الغرب وحقيقة تغلبه وانتصاره.

يمكن في هذا السياق اعتبار رحلة الصفار خطة توجيهية في مسألة التحديث، وخطابًا يحمل مجموعة من المقولات الإصلاحية؛ فبدقة متناهية يصف الصفار خاصية إبداء الرأي عند الفرنسيين، فيقول ليست هناك سلطة مطلقة وفوضوية، ذلك «أنه لا يُمنع إنسان في فرنسا أن يُظهر رأيه، وأن يكتبه ويطبعه بشروط أن لا يضر بالقوانين، فإن أضر أزيل، بل إن الصفار يفسر قيام الفرنسيين وخلعهم طاعة ملكهم شارل العاشر بسبب أنه أظهر النهي أن يظهر أحد رأيه أو يكتبه أو يطبعه»[13].

يثير التأمل في هذا النص أكثر من تساؤل في شأن طبيعة الذهنية التي أنتجته وسجلته، فهل كان الصفار واعيًا من خلال هذا التسجيل الإشاري أنه يقوم بتجريح النظام السياسي في المغرب القائم على منطق السلطة المطلقة ونقده؟ وإذا كان ذلك صحيحًا، فلم غُيّب البعد السياسي والدستوري في مضامين البعثات التعليمية المغربية؟

---

(13) محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفار، صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846، دراسة وتحقيق سوزان ميلار؛ عرَّب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)، ص 163.

إن الجواب واضح وجلي. لقد كان المخزن يريد إعادة إنتاج نفسه، واعتبر المجال السياسي من الخطوط الحمر التي ينبغي عدم تجاوزها أو النيل من رمزيتها وقدسيتها. وكان في إمكان الاهتمام بهذه العلوم وتوفير فرص اندماج طلبتها ضمن النسيج السياسي أن يطيحا رؤوسًا مخزنية كثيرة، وهو ما لم يكن قابلًا للتحقق داخل بنية تقليدية يغلب عليها السكون والجمود.

لم تكن الدوائر المخزنية ترغب في نهج هذا المسير الذي تتأسس بمقتضاه جميع أشكال الإصلاح الأخرى. كانت عجلة الإصلاح السياسي والإداري شرط وجوب لإدارة عجلات الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما تنبّه له قادة الإصلاح في عهد الميجي عندما وضعوا المطلب السياسي في قمة أولويات التغيير؛ بل إن التحديث الياباني انطلق في بداية الأمر من القمة السياسية. ولعل رفع شعار «مجّدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة» يحمل أكثر من معنى في هذا الاتجاه. ومن أجل تدعيم هذا المسير ركّزت البعثات التعليمية، ومنها بعثة إيواكارا، على مختلف النواحي، وفي مقدمها النواحي السياسية، كما أن بعثة إيتو إلى ألمانيا اقتصرت على المطلب الدستوري البروسي.

إذا كانت البعثات اليابانية ركّزت على العناصر المحددة للتطور والإصلاح، مثل القضايا التربوية والعلمية التطبيقية والدستورية السياسية... فإن البعثات المغربية اقتصرت في تكوينها على الشق العسكري البسيط.

لم تكن العلة الكامنة في المقدمات النظرية (أدب الرحلة) التي سجلت، مثلما فعلت بعثة إيواكارا، كل ما يتعلق بعناصر القوة الغربية، بل حاول المخزن ومؤسساته تمرير خطاب إصلاحي، يضعه بمنأى عن أي تهمة أو إشارة نقص، محاولًا إيهام نفسه بأن المشكلة عسكرية في الأساس، فكان بلا رؤية سياسية إصلاحية واضحة، كمن يمخر عباب البحر من دون محرك أو مجذاف.

عندما تتناغم الإرادة السياسية والتجاوب المجتمعي، وعندما تمتلك النخبة السياسية حسّ المواطَنة والانتماء وتتوافر على مؤهلات القيادة الذاتية والموضوعية التي تمكّنها من استثمار زخم التراكم التاريخي وإيجابياته وتوجيه سياسة الداخل والخارج، يحصل الانسجام، ويتم وضع قطار التنمية المجتمعية في مساره الصحيح. وتصبح ثنائية الدولة والمجتمع مفتاحًا أساسًا لعوالم

التغيير والإصلاح، وأظن أن لهذه المقدمات شأنًا في تفسير بعض أوجه الخلل والاختلاف بين بعثات الميجي وبعثات المغرب في فترة حكم الحسن الأول.

ثانيًا: اندماج المتعلمين اليابانيين وتهميش الكفاءات المغربية

لا مراء في نجاح أفراد البعثات اليابانية في خدمة المشروع التحديثي الياباني في عهد الميجي، ولم يكن هذا النجاح إلا نتيجة المقدمات السابقة التي حملت في منطقها الداخلي عوامل الفعل الإيجابي؛ فهذا هيروبومي إيتو الذي أمضى عامًا ونصف عام من الدراسة في الغرب (1882-1883)، قد أصبح رئيسًا للوزراء ثلاث مرات (1892-1896؛ 1898-1899؛ 1900-1901)، وأرسله الإمبراطور إلى ألمانيا للاطّلاع على التجربة البروسية ووضع مشروع دستور ياباني، وتُوّج جهده بإعلان الإمبراطور النص الدستوري في 11 شباط/ فبراير 1889.

يُعَدّ موري أرينوري من أوائل أفراد طبقة الساموراي الذين تلقوا تعليمهم في إنكلترا في ستينيات القرن التاسع عشر. وكان إلى جانب تشبّعه بالمناهج التربوية الحديثة شغوفًا بالنظام الجامعي الألماني الذي يخضع لسلطة الدولة ورقابتها[14]. وقد شغل منصب أول وزير للتعليم في اليابان، وأسس المدرسة اليابانية الحديثة، وتحققت في عهده مكاسب مهمة، منها تزايد نسبة المتعلمين وإضفاء الطابع القومي على مبادئ التعليم الياباني.

أمّا ياماغاتا أريتومو (1838-1922)، فأُرسل إلى أوروبا بعد إطاحة حكومة الشوغون، لدراسة الأنظمة العسكرية الغربية، فتأثر كثيرًا بالأنموذج العسكري البروسي، واهتم بأسلوب بروسيا الحربي، وأنشأ الحرس الإمبراطوري في عام 1870، كما أصبح وزيرًا للحرب في عام 1873، وأدخل إصلاحات عميقة على الجيش وفرض التجنيد الإجباري، كما شغل منصب الوزارة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر[15].

---

(14) علي المحجوبي، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان (تونس: دار سراس، 1999)، ص 174.

(15) Yamagata Anitomo, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

كان نكائي تشومين من طبقة الساموراي، وأوفدته حكومة الميجي في بعثة علمية إلى فرنسا بين عامي 1870 و1874. وكرّس جهده وحياته لنشر النظريات السياسية التي استقاها من فلاسفة التنوير، ومن اطّلاعه على نظم أوروبا الغربية. وأصبح في عهد الميجي منظّر حركة المطالبة بحرّية الشعب وحقوقه[16].

اعتُبر أوكوبو توشيمتيشي من أبرز مهندسي سياسة عهد الميجي، وقد زار في مهمة تعليمية مجموعة من دول الغرب الرأسمالي، والتقى المستشار الألماني أوتو فون بسمارك. ودرس التكنولوجيا الغربية والمبادئ السياسية الغربية[17]، كما نهج سياسة وطنية، وشكّل في عام 1873 حكومة كان هدفها تحديث اليابان والقضاء على أي معارضة محتملة.

يمكن رصد نماذج من المتعلمين اليابانيين في الخارج الذين تقلّدوا في الإدارة اليابانية الجديدة مناصب رفيعة المستوى واستراتيجية في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والمالية والفنية والفكرية.

أوردتُ نماذج من مئات المتعلمين الذين درسوا في المعاهد والمؤسسات الغربية، وعندما رجعوا وجدوا المكان الملائم لتطبيق ما تعلموه. ومن دلائل اندماجهم في حقول الإدارة والتكنولوجيا، وفي مؤسسات الدولة والقطاع الخاص، وفي القطاع المدني كما في المجال العسكري، أن اليابان تمكنت من الاستغناء عن الخبراء والمدرسين الأجانب في فترة وجيزة. وكانت الاستعانة بالخبراء الأجانب مجرد «خطة انتقالية عند اليابانيين، تتلوها مرحلة أرقى من الاستيعاب والتطوير المحلي للتكنولوجيا المستوعبة محليًا، فعمل اليابانيون على اكتساب التكنولوجيا الغربية وعدم السماح للخبراء الأجانب بالبقاء في اليابان»[18].

كانت أعداد هؤلاء كبيرة، الأمر الذي يعني تمكّن الوفود التعليمية اليابانية، بالفعل، من الاندماج الإيجابي في حقول التنمية اليابانية المختلفة، مستفيدة من

---

(16) المحجوبي، ص 189.

(17) Okubo Toshimichi, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

(18) مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة؛ 252 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، ص 315.

التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية التي طرأت في عهد الميجي، حيث أصبحت المعرفة والتعليم وسيلتين أساسيتين للترقي الاجتماعي، كما ارتبط امتلاك التقنية بخدمة الوطن والأمة.

في المقابل، كانت الصورة مختلفة لدى الجانب المغربي؛ ذلك أن معظم الطلبة لم تُسند إليهم وظائف تنسجم مع تخصصاتهم؛ فإذا أخذنا أنموذج الزبير سكيرج الذي شارك في بعثة 1874 إلى بريطانيا، نجد أنه مُدح وزملاؤه في القابلية للتعلم والفهم والنجابة والمروءة[19]، لكنه عندما عاد إلى المغرب لم يكن في أغلب الأحيان سوى مساعد للمهندسين الإنكليز في تركيب المدافع وإصلاح بعضها. كما كان في صحبة المهندس الألماني في معمل كروب بإيسن في ألمانيا للمفاوضة في شراء مدفعين[20]. وبقي مدة معطلًا عن العمل، كما سجلنا ذلك سابقًا. كما انتدبه السلطان للمشاركة في مؤتمر مدريد الذي أسس لمبدأ تدويل القضية المغربية[21]، على الرغم من أن تكوينه عسكري في الأساس، وتطلب التفاوض في مؤتمر مدريد دهاءً وحيلًا دبلوماسية لم تكن في نطاق المقرر التكويني لمدرسة تشاتهام، حيث تابع سكيرج دراسته.

أمّا الطالب محمد بن الكعاب الشركي الذي أمضى فترة طويلة في فرنسا وبلجيكا و«ترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة»[22]، فأُوكلت إليه الترجمة للأفواج التعليمية التي زارت بلجيكا[23]، في حين تمتع بكفاءات تقنية وصناعية لم تُستثمر على النحو المطلوب.

كما عاد الميلود الرباطي والحسين الأودبي إلى المغرب في عام 1303هـ/ 1886م تقريبًا، وعُيّنا لفترة معيّنة مترجمين للمهندس فاغنر، عميل كروب.

---

(19) مجموعة الوثائق، العدد 3 (1976)، ص 494.

(20) سكيرج، ص 30.

(21) المصدر نفسه، ص 29.

(22) إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية (الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1985)، ص 38.

(23) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه (الرباط: المطبعة الملكية، 1984)، ص 1370.

وتمرد بعض الطلبة على سوء أحوالهم بعد إتمام التكوين في الخارج، ووجّهوا نقدًا لاذعًا إلى الدوائر المخزنية المسؤولة عن ذلك، كالطاهر الأودي ومحمد بن النجار.

لكن، ما السبب الذي دفع المخزن إلى تهميش هذه الكفاءات وعدم الاهتمام بقدراتها في قضايا التحديث لوضعها في مكانة ملائمة لتحقيق الإصلاح المنشود؟ ما الذي حال دون تبوُّؤ هذه الكفاءات مواقع الريادة والقيادة داخل المخزن المغربي مثلما حدث لأفراد البعثات التعليمية اليابانية؟ لماذا ظلت المناصب الاستراتيجية محصورة في أمثال المنبهي وآل الجامعي وأُسر قادة جيش البواخر وآل الطريس وآل بنيس، وغيرهم ممن ساهموا في صنع أزمة مغرب القرن التاسع عشر؟

يرتبط الأمر بالمقدمات التي أسست لهذه البعثات؛ فالمخزن لم يكن يهدف إلى إحداث إصلاح عام يمس المجتمع والسياسة والاقتصاد، بل كان يريد إعادة إنتاج نفسه وإدارته البيروقراطية، ولم تكن تخصصات بعض الطلبة تنسجم مع رؤيته التنموية. ومن هنا، يمكن فهم إلحاحه على رجوع بعض المتعلمين الذين كانوا يرومون مواصلة تخصصاتهم العليا، كالحسين الزعري وغيره من الطلبة الذين واصلوا دراستهم في ألمانيا ممن ذكرناهم في هذا الكتاب.

كما أن الفئات المتنفذة داخل الدوائر المخزنية بذلت جهدها لإجهاض إدماج أفراد البعثات التعليمية في صُلب الإدارة المركزية المغربية، وهو ما لاحظنا بعض مظاهره من خلال العوائق التي وُضعت أمام مشروع دار المكينة في فاس لإنتاج السلاح وضرب السكة، أو من مآل عدد كبير من المتعلمين الذين عادوا إلى بلادهم، ولم يتمكنوا من الاندماج في مناصب تلائم تخصصاتهم.

من جانب آخر، احتل الجانب الموضوعي دوره في تهميش هذه الكفاءات من خلال وجود ما يسمّى البعثات العسكرية الأوروبية البريطانية والفرنسية والإيطالية، وكان أغلب المتعلمين يعملون مرافقين شكليين لضباط هذه البعثات وأُطرها، الأمر الذي قضى لديهم على عناصر المبادرة والابتكار، ومن ثم التطوير والتحديث.

أتت البعثات العسكرية الأوروبية إلى المغرب في إطار تنافسي استعماري، ووطئت أرضَ المغرب في استراتيجيا تهدف إلى التمكين لنفوذها السياسي، ولم تكن ترغب في وجود خبرة وطنية تتمكن، مثلما فعلت اليابان، من تحقيق الأمن الاستراتيجي الداخلي والاستعاضة عن الخبراء الأجانب بأُطر محلية.

لقد استحال تحقيق هذا الهدف بالنظر إلى طبيعة الوضع العام في البلاد اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، ويمكننا في هذا السياق فهم دوافع سقوط بعض المتعلمين في براثن الحماية القنصلية؛ إذ تلبس الميلود الرباطي بالحماية الألمانية، وعمل لفترات موظفًا قنصليًا لمصلحة ألمانيا[24]، وهو الطريق نفسه الذي سلكه المختار بن الطاهر الرغاي، في حين صرح محمد بن الحاج محمد النجار لمّا سئل عن تعليمه، قائلًا: «النصارى كيعلمو العقل والمسلمين كيحفيوه»، وكان قد تدرب في طنجة وتعلم اللغات ثم سافر إلى أولم في غرب ألمانيا، وعمل بعد ذلك في معامل كروب، ورجع أخيرًا إلى مسقط رأسه واشتغل بالفلاحة إلى أن وافاه أجله[25]. ويثير محمد النجار أزمة العقلانية التي اكتشف معالم وجودها في الغرب وانتفائها في المغرب، وهو يلخّص بذلك عمق الإشكالية التي ضربت جذورها في بنية الدولة والمجتمع في المغرب. ويورد في المضمون نفسه أحد الباحثين «تلميذًا - مصريًا - سابقًا بمدرسة باريس، فبعد أن عاد إلى مصر محمَّلًا بالعلوم الأوروبية، اضطر أن يعمل طباخًا ليعيش»[26].

لم يندمج هؤلاء المتعلمون بسبب معارضة بعض كبار رجال المخزن. وقد لمّح ابن زيدان إلى بعض أسباب ذلك في مقارنته الداء الإداري المغربي بكفاءة بطانة الميجي التي أعانت الإمبراطور في قضايا الإصلاح الكبرى. ولم يفصّل صاحب العلائق السياسية الموضوع بطريقة جامعة مانعة لنعرف طبيعة هذه الفئات وحيثيات المقاصد التي كانت تتوخاها، وهو ما جعل بعض الدارسين يؤوّلون ما لا يصح، ويحمّلون فئات معيّنة سبب النكوص والفشل التحديثي.

---

(24) المصدر نفسه، ص 1346.

(25) المصدر نفسه، ص 1349.

(26) أنور لوقا، رحّالة وكتّاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر، ترجمة كاميليا صبحي وأمل الصبان؛ راجع هذا الكتاب ودققه وأشرف على طباعته عبد العزيز محمد جمعة (الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006)، ص 150.

وانفرد الطاهر الأودي بتوجيه نقد عنيف إلى المؤسسة المخزنية، وعلى الرغم من ركاكة اللغة التي كتب بها، فإن المعلومات التي أدلى بها تستحق التوقف عندها وتحليلها؛ فقد أبان عن وعي سياسي واستراتيجي متميز في حديثه عن استنجاد أهل تمبكتو بالسلطان المولى الحسن الأول في عام 1892، وفي هذا قال إن فرنسا «احتلت تمبكتو باب السودان، كان فيها كبير تلك الناحية العلامة الإمام السي الحاج عمر الفونتي يخطب بالسلطان المولى الحسن، فتسلطت عليه عساكير فرنسا طلعت من سينيكال بالسفون... فاستغاث الإمام المذكور بالسلطان مولاي الحسن كان بفاس، فاستشار مع غشاشين المسلمين، الوزراء الخائنين منهم محمد الصنهاجي وفضول غرنيط واعلي المسفيوي وعبد السلام التازي والعلاف الكبير الجامعي الصغير وعبد السلام المقري، فاتفق رءي المنافقين يضحكون على لبسين الأزرق المتلتمة، لزموا السلطان يعطي بالصدة عن هذه الإعانة..»[27].

أشار الأودي إلى المخطط الاستعماري الفرنسي الذي بدأ بتطويق المغرب من الناحية الصحراوية الجنوبية، وذكر مجيء وفد من أهل تمبكتو إلى البلاط الحسني طلبًا للمعونة بسب الروابط الروحية بين الجانبين، وحمل بشدة على أغلب الوزراء المغاربة الذين سمّاهم منافقين، وهم الذين أشاروا على الحسن الأول عدم الالتفات إلى نجدتهم ومساعدتهم.

لم يلتفت هؤلاء الوزراء إلى أن أخذ تمبكتو وتوات وغيرهما مثّلا مقدمات استراتيجية فرنسية لعزل المغرب عن محيطه الصحراوي والتوطئة لاحتلاله وإلحاقه بالمستعمرات الفرنسية في أفريقيا. فهل كان الأودي مدركًا طبيعة المخطط الفرنسي؟ وهل كان في إمكانه، لو كان وزيرًا، أن يشير بغير ما أشار به أعضاء المخزن ومن نعَتهم بالمنافقين؟ لم يكن متوقعًا أن يصير الأودي وغيره من أفراد البعثات التعليمية المغربية وزراء وأمناء وكتابًا مرموقين في البلاط الحسني، فقد كانت هذه المناصب حكرًا على أمثال من وصفهم بدائرة النفاق.

---

(27) أبو الفضل الطاهر بن محمد الأودي، الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار في الأراضين خلقها الله الواحيد القهار للحيوانات والاطيار وللجن والإنس قرار مومن للجنة وكافر للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبر وللعادل رحمة الله الكريم الغفار، أورده: بوشعراء، ص 1373.

تشبه البعثات التعليمية المغربية ما حققته مثيلتها المصرية؛ فقد ورد لدى أحدهم «إنني أرى زملاء البعثة... وقد أصبح أحدهم وزيرًا، أو مهندسًا مسؤولًا، أو أميراليًا، أو محافظًا، وهناك اثنان أو ثلاثة على أقصى تقدير أصبحوا مترجمين بمقابل في فنادق القاهرة والإسكندرية»[28].

ليست عملية الاندماج فعلًا ميكانيكيًا بحتًا، بل هي نتاج تفاعلات إيجابية متبادلة بين جميع المكوّنات الداخلية، سياسيًا واجتماعيًا وفكريًا واقتصاديًا ووجدانيًا.

إن استيراد متطلبات التحديث ووضعها في مجتمع تقليدي راكد كفيلان بإنتاج أجنّة تحديثية مشوهة، وبدل ذلك تصنع مقدمات التحديث في الذهن وفي التصورات الفكرية، وتحتاج إلى حركية مجتمعية وسياسية وإدارية كفيلة بمنحها خصوصية وهوية محليتين، وهنا تجلّت علل عدم اندماج أفراد البعثات المغربية وأسباب نجاح رسالة البعثات اليابانية.

تميزت الأزمة التي حددت الفشل في المغرب والنجاح في اليابان بكونها عامة وبنيوية، ومن غير المنطقي توجيه اللوم إلى فئة معيّنة واعتبار مواقفها سببًا في إنتاج الأزمة.

إن المغرب، سلطةً ومجتمعًا، حكامًا ومحكومين، فقد أسباب الدفع الحضاري، واقتصرت أغلبية التنظيرات الإصلاحية على التنبيه للمخاطر درءًا للمفاسد وجلبًا للمصالح.

قال ابن خلدون إن الضعف إذا نزل بالدولة فإنه لا يرتفع، فهل خضع المغرب، خلال الفترة موضوع البحث، لهذه المقولة؟ ذاك ما تبدو ملامحه ممّا ذكرناه بخصوص الوضع التاريخي العام الذي عرفه المغرب سلطةً ومجتمعًا في فترة التراجع الإسلامي العام في مواجهة الزحف الغربي المنظم والعنيف.

إننا في الوقت نفسه أمام تنظير وفعل ومؤسسات يابانية تعمل بدقة وبتناغم وانسجام بشكل أفضى في النهاية إلى الاستغناء عن الخبرة الأجنبية والتعويض

(28) لوقا، ص 147.

عنها بأفراد البعثات المتوجهة إلى دول الغرب الرأسمالي، فتحقق بذلك إحداث التغيير المنشود برؤية يابانية وفّقت بشكل كبير بين التقليدية والتحديث.

منحت البعثات اليابانية بلدها الوزراء والمهندسين والفلاسفة والفنانين والجنرالات والقادة العسكريين الكبار والعناصر الفاعلة التي صنعت تاريخ اليابان الحديث بسلبياته وإيجابياته، في حين انخرطت الكفاءات المغربية في مسلسل الأزمة، فلم تتمكن، بسبب ركود المؤسسات السياسية والاجتماعية وغياب عقلية إدارية وسياسية مدركة ومواكبة للتحديات الغربية، من نقل صنوف المعرفة الغربية إلى العجلات التنموية المغربية التي عجزت عن الدوران الطبيعي وإنتاج أسباب التنمية المنشودة.

ثالثًا: البعثات التعليمية المغربية واليابانية بين الكفاءات الفردية المنعزلة ونخب الفعل الجماعي

سبق أن أشرنا في أكثر من موضع إلى نبوغ مجموعة من المتعلمين المغاربة الموفدين إلى الخارج، كالجباص وسكيرج ومحمد النجار والحسين الزعري وأحمد العيدوني، وغيرهم كثير، لكن لم يكن لدى المقدمات السياسية والإدارية التي حاولت استثمار كفاءاتهم القابلية لإنجاز انقلاب إصلاحي في بنية الدولة وممارساتها بشكل يجعل هذه الكفاءات تتبوّأ مكانتها الملائمة لتطبيق مبادئ التعلم التي أخذوها في دول أوروبا الغربية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

قليلة هي الوثائق التي تتحدث عن انخراط المتعلمين المغاربة انخراطًا جماعيًا منسقًا في أجهزة الإدارة المغربية، فهُم مثّلوا أجزاء متنافرة استغلها الخبراء العسكريون الأجانب، أو الجهاز المخزني. وتُعَدّ دار المكينة في فاس أبرز مؤسسة قامت بدمج المتعلمين المغاربة في الخارج في إنتاج الأسلحة؛ فعلى الرغم من هذا الحضور، لم يكن لهم تأثير واضح في تسييره وتحديد اختياراته. وقد انتقد الطاهر الأودبي بشدة البيروقراطية المخزنية التي وضعت العراقيل أمام نجاح التجربة التي كُلّف المهندسون الإيطاليون الإشراف عليها.

أبرزنا في هذا الكتاب لقاءات عابرة جرت بين عدد قليل من النخب

المغربية المتعلمة في الخارج، ولم تنمّ عن تنسيق وتكامل في الجهد التقني والعلمي الذي بذلوه في معاهد التكوين في أوروبا.

لنفترض أن الزبير سكيرج والحسين الزعري وأحمد العيدوني وابن طوجة ومحمد بن النجار ومحمد الجباص والطاهر الأوديي وإدريس بوعزة وعبد السلام عيوش والميلود الرباطي وعبد السلام الدسولي ومحمد بن الكعاب...، تبوّأوا بعد رجوعهم إلى المغرب مناصب استراتيجية داخل الإدارة المغربية، ومُنحت لهم صلاحيات واسعة في تطبيق المعارف الحديثة التي تعلموها في كلٍّ من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا، وعملوا بشكل جماعي ومنسق في الإدارة المغربية، فما الصورة التي كان يفترض التقاطها للمجتمع والدولة المغربيين؟ وأي مسير كان سيأخذه التحديث في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟

تعلّم هؤلاء ونبغ كلٌّ منهم في مجال تخصصه. وتحتفظ الوثائق بمعلومات تشي بكفاءة عالية تمتعوا بها طوال مدة تعلمهم في معاهد التكوين الغربية المتخصصة، وأتقن بعضهم لغات أجنبية متعددة.

كان من المفترض أن يعمل هؤلاء ضمن مجموعة متكاملة الأدوار وفي مواقع وزارية استراتيجية تؤسس لسياسة إصلاح جديدة وفاعلة. وكان في إمكانهم القيام بذلك والتأسيس لبداية فعل تحديثي يجنّب السقوط ويمنح الغاية والمعنى لسياسة الإصلاح التي بلغت عنفوانها زمن السلطان الحسن الأول.

لم تكن الخطوة سهلة ويسيرة، وكان تنفيذ مقتضياتها واقعيًا يتطلب اتخاذ إجراءات موازية جريئة، مثل إطاحة رموز الأزمة والمستفيدين من استمرارها وتناسلها.

لم تتحقق الفكرة، واستمرت الإدارة البيروقراطية ببسط سلطانها على مفاتح السلطة ومخارجها، فكان من الطبيعي أن يتبعثر جهد الطلبة بشكل أفقدهم الفاعلية المطلوبة للمساهمة في إنجاح سياسة الإصلاح.

في المقابل، تشكلت الوزارات الأولى في عهد الميجي من المتعلمين اليابانيين الذين درسوا في الولايات المتحدة وأوروبا. وإذا أخذنا مؤسسة

الجنرو التي أدت دورًا سياسيًا وعسكريًا بارزًا طوال عهد الميجي، نجد أنها ضمت تسع شخصيات بارزة[29]:

الجدول (6-1)

أعضاء مؤسسة الجنرو

الاسم	مسيرته الدراسية في الخارج
إيتو هيروبومي	سافر للدراسة في إنكلترا في عام 1863 موفدًا من مقاطعته (شوتشو). شارك في بعثة إيواكارا في عام 1871. زار ألمانيا للاطّلاع على الدستور البروسي.
كورودا كيوتاكا	سافر في عام 1871 لاستكمال دراسته في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.
أوياما إيواو	أُرسل في عام 1870 للدراسة في فرنسا، في المدرسة العسكرية الخاصة بسان سير. راقب عن كثب مجريات الحرب الفرنسية - البروسية. أمضى ثلاثة أعوام لدراسة اللغات الأجنبية في جنيف في سويسرا (1870-1873).
إينو كارو	كان من ضمن الطلبة الخمسة الذين أوفدتهم مقاطعة شوتشو للدراسة في إنكلترا برفقة إيتو هيروبومي.
صايغو تسوغيميتشي	سافر برفقة الجنرال ياماغاتا أريتومو في عام 1869، إلى عدد من البلدان الأوروبية لدراسة نظمها وأدواتها العسكرية.
ماتسوكا مازايوشي	على الرغم من عدم دراسته في الخارج، فقد استفاد من التعليم الغربي في ناغازاكي التي التحق بها في عام 1866 ودرس فيها العلوم الغربية والرياضيات... إلخ. ربطته علاقات متينة بصايغو تاكاموري وأوكيبو توشيميتشي.
ياماغاتا أريتومو	اختارته حكومة الميجي في عام 1869 صحبة صايغو تسوغيميتشي لدراسة النظم العسكرية الأوروبية، وتأثر كثيرًا بالأنموذج البروسي.
كاتسورا تارو	أرسلته حكومة الميجي إلى ألمانيا لدراسة العلوم العسكرية. عمل ملحقًا عسكريًا في السفارة اليابانية في ألمانيا (1875-1878؛ 1884-1885).
سايونجي كينموتشي	غادر اليابان برفقة ثلاثين متعلمًا يابانيًا إلى الولايات المتحدة الأميركية. سافر في عام 1871 إلى فرنسا لدراسة القانون في باريس. في عام 1882 طلب منه إيتو هيروبومي مرافقته إلى ألمانيا للاطّلاع على تجربتها الدستورية.

(29) <http://en.wikipedia.org/wiki/Genr%C5%8D>, and <http://www.britannica.com/EBchecked/topic/229299/genro>.

مثّلت الجنرو قطبًا استراتيجيًا في إدارة الشؤون السياسية والعسكرية الخاصة باليابان، ولا سيما في عهدي الميجي وتايشو. وتشكّل معظم رموزها من متعلمين يابانيين درسوا في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وعملوا بعد عودتهم إلى اليابان في نسق جماعي متكامل الأدوار، كما ساهموا في معظم التحولات والتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها منطقة الشرق الأقصى حتى عام اندلاع الحرب العالمية الثانية، وهم الذين كانوا يقدمون لائحة الوزراء إلى الإمبراطور ليوافق عليها.

من جانب آخر، تقلّد أعضاء الجنرو مناصب وزارية سامية، كرئاسة الوزراء ووزارة الدفاع والمالية... إلخ، مستفيدين من الإصلاحات الجذرية التي عرفتها الإدارة اليابانية بعد إطاحة نظام التوكوجاوا. وتعاقب المتعلمون سابقًا في الديار الغربية على مناصب الوزارة الأولى.

تعاقب على الوزارة الأولى، منذ استحداثها في اليابان عام 1885 وإلى عام إلقاء القنبلتين الذرّيتين على ناغازاكي وهيروشيما، 42 وزيرًا، تشكّل معظمهم خلال عهد الميجي من أعضاء الجنرو؛ وتبوّأ أفراد البعثات التعليمية اليابانية قمة الهرم السياسي، وهُم الذين سبق أن تلقوا تكوينهم الأكاديمي المتخصص في الجامعات الغربية الأميركية والأوروبية خلال نهاية عهد الإيدو وبداية الميجي، وعرّفنا بعدد كبير منهم ضمن النماذج التي اخترناها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

يمكننا القول إن ولادة الدولة الحديثة في اليابان، وبروز تجربة التنمية الأولى (1853-1944) تحققتا من خلال نخبة متعلمة درست في أرقى الجامعات والمعاهد الأميركية والأوروبية، واستفادت من مقدمات التغيير التي ألغت النظام الفيودالي وملحقاته السياسية والإدارية والمجتمعية.

يستحيل الحديث عن الانقلاب العام الذي جرى في عهد الميجي من دون الإشارة الى الدور الذي أدّاه أمثال فوكوزاوا يوكيتشي وإيتو هيروبومي وكيدو تاكايوشي وأوكوبو توشيميتشي ونيشي أمان وكورودا كيوتاكا وأوياما إيواو وإينو كارو وماتسوكا مازايوشي وياماغاتا أريتومو وكاتسورا تارو وسايونجي كينموشي، وغيرهم؛ فقد شكلوا، من جهة، العقل المخطط لاستراتيجية إطاحة

نظام التوكوجاوا وهندسة الفضاء الداخلي بمفردات جديدة، ومثّلوا من جهة أخرى الأطر البشرية التي نفّذت عن وعي خطوات التغيير الهادئ والتدريجي، وأسسوا لمرحلة تمكنت فيها اليابان من ولوج عالم القوى الكبرى ومنافستها.

عمل هؤلاء المتعلمون ضمن نسق يطبعه التجانس والتكامل، وتمتعوا بحرية كبيرة في تشكيل الوزارات وفي رسم معالم يابان جديدة. ولم يحقق اليابانيون إنجازاتهم التحديثية من دون عمق وتجربة تاريخيين منحتاهم نضجًا وتراكمًا سنتناولهما في المبحث الآتي.

رابعًا: البعثات التعليمية اليابانية والمغربية بين منطق القطيعة والاستمرارية ومبدأ النخبة والشمولية

يُعَدّ إرسال البعثات التعليمية اليابانية والمغربية ترجمة للمقدمات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدها البلدان في الفترة موضوع الدراسة، وآلية مثلى للانفتاح والاستفادة من قدرات الغرب العلمية والتقنية. وحاولنا في صفحات هذا الكتاب إثارة موضوع نضج بناء الدولة في الحالة اليابانية، وهي سمة تحققت خلال فترة العزلة الطوعية الطويلة التي سمحت بتوافر مؤسسة الدولة المستبدة في عهد التوكوجاوا عندما نسجت علاقات إدارية واقتصادية وجبائية مع مختلف مكوّنات المجتمع الفيودالي بتوظيف عناصر الإكراه الإداري، وصرامة النظام الجبائي، وتبرير شرعية الحكم السياسي بالاستعمال الرمزي لشخص الإمبراطور، والاستنجاد بالقيم الكونفوشيوسية التي تحض على الولاء للسلطة الزمنية واحترام التراتبية المجتمعية.

ينظر اليابانيون بتقدير إلى هذا العهد الذي يُعَدّ في نظرهم القاعدة التاريخية العميقة المسؤولة عن التحولات المختلفة التي شهدتها اليابان في عهد الميجي. ومن هذا المنطلق، لم يشكّل عهد الإحياء، في نظر بعضهم، ثورة أو قطيعة مع النظام السابق، بل اعتُبر امتدادًا مد جسور التواصل مع إيجابيات فترة العزلة؛ فقد حافظت إدارة الميجي على رموز النظام السابق - الدايميو - وعيّنتهم رؤساء المقاطعات الإدارية الجديدة. كما استمر أفراد طبقة الساموراي التي حُلّت بقرار إداري بالمساهمة في البناء الداخلي ومد الدولة بأُطرها اللازمة

للمرحلة الجديدة. ويمكن القول إن هذا النمط من التغيير والتحوّل منح اليابان اقتصاد الجهد المادي والمعنوي، ووفر القاعدة التاريخية العميقة والمؤهلة للانطلاق إلى عوالم التحديث والتطور.

يتداخل الماضي والحاضر بشكل متناسق ومتكامل في اليابان، وتتعدد النصُب التذكارية في الحدائق العامة وفي حرم الجامعات. كما تتعدد الوجوه التاريخية اليابانية البارزة على الأوراق المالية بشكل يدل على احترام الذاكرة وإنجازاتها الوطنية. ولنا أن نتساءل في المقابل عن درجة حضور هذه الذاكرة في شوارعنا ومتنزهاتنا ومرافقنا العامة ومنابرنا الثقافية. أين نجد ما يذكّرنا، نخبة وعامة، بإنجازات الأدارسة والمرابطين والموحدين والسعديين والعلويين؟ كم من أفراد شعبنا يعرف من هم عبد الكريم الخطابي والشريف أمزيان وأحمد الهيبة وأحمد الحنصالي وموحى أوحمو الزياني، وغيرهم كثير؟ أين الاستمرارية في تاريخنا التي تمكننا من تحقيق الاتصال بلحظات القوة في ذاكرتنا، وتأسيس أنموذج تنموي يقتصد الجهد ويحقق التنمية المنشودة التي تجمع الأصالة والمعاصرة وتوفّق بينهما؟

انسجم موضوع البعثات التعليمية اليابانية مع منطق الاستمرارية التاريخية؛ فقد لاحظنا أن بعثات الباكوفو انطلقت بعد حملة بيري على السواحل اليابانية وتوقيع الاتفاقيات غير المتكافئة، ودشنت عمليتها هذه بإرسال وفود تعليمية إلى الولايات المتحدة في عامي 1860 و1867، وإلى أوروبا في خمس مناسبات أخرى. وعلاوةً على ذلك، نظّمت المقاطعات المعارضة للباكوفو بعثاتها الخاصة إلى بريطانيا وألمانيا وبروسيا، الأمر الذي منح الموضوع زخم التنافس والحيوية بين نظام آيل إلى السقوط يبحث لنفسه ومؤسساته عن ترياق علله المزمنة، وقوى داخلية جديدة تتطلع لتصفية تناقضاتها التاريخية مع النظام القديم بالانفتاح على دوائر العلم والقوة الغربيتين. وحقق النظام الإمبراطوري الجديد تركيبًا متميزًا لبعثات طرفي المعادلة اليابانية المتناقضة؛ فبعد عهد الإحياء مباشرة، استأنف النظام الجديد إرسال الوفود التعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي، وجاءت بعثاته تركيبًا متناسقًا للنقيضين السابقين؛ إذ شكّلت بعثات الميجي تركيبًا لبعثات العهود السابقة، فكان معظم المسؤولين الذين تولّوا مهمة الشؤون العلمية في بعثة إيواكارا «من البيروقراطيين الذين عملوا في حكومة

باكوفو السابقة، وكانوا ينتمون إلى خبراء التنظيم الصناعي الجدد الذين ظهروا في السنوات الأخيرة لحكم توكوجاوا»[30]. كما أن كثيرين من أفرادها وطلبتها شاركوا في بعثات الباكوفو وبعثات المقاطعات الفيودالية المعارضة السابقة.

في فترة العزلة الطوعية، قامت شرائح الساموراي بتجديد قدراتها من خلال «اكتساب العلوم والتكنولوجيا العصرية من مصادر متنوعة، منها العلوم الغربية... فتوافرت للدولة اليابانية في ظل حكم تلك الأسرة، وبشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر، قوى بشرية فاعلة تؤمن بتحديث المجتمع الياباني وتشارك بوعي ومسؤولية وطنية في عملية لا بدّ منها لحماية اليابان من الغزو الخارجي»[31]. وواصل عهد الميجي القيام بالدور نفسه، موظِّفًا جميع الإمكانات البشرية السابقة في مسلسل التحديث الداخلي.

يُعتبر فوكوزاوا يوكيتشي واحدًا من نخب عهد حكومة توكوجاوا؛ فقد زار كلًّا من أميركا وأوروبا مباشرة بعد التهديد الغربي للسواحل اليابانية، واعتُبرت رحلته إنجازًا متميزًا لحكومة الباكوفو، وقد سجّل خلال هذه المرحلة طبيعة الذهنية اليابانية التي أدهشتها مظاهر الحضارة الغربية.

لم «تكن لدى المسؤولين من الساموراي معرفة بالائتمان الأجنبي أو الصكوك النقدية في ذلك الوقت، ولا بد أنهم اعتقدوا بما أن المال سيكون ضروريًّا للرحلة، فإن السفينة ينبغي أن تحمله، وهكذا - أضاف يوكيتشي - تم وضع مقدار هائل من القطع النقدية في خزانة القبطان، وقد تدفقت منها خلال العاصفة، وتلك كانت عقلية محاربينا المحترفين قبل أربعين عامًا»[32].

تلك كانت بداية لا بد منها، وهي بداية أسست لمنطق التراكم وتعميق فهم آليات اشتغال مظاهر التحديث الغربي. وأدرك اليابانيون «أن الدفاع الوحيد عن بلادهم ضد الغرب لن يتم دون أن يكون لليابان تفوقها التكنولوجي نفسه في

---

(30) ناجاي متشيو وميجول أورشيا، الثورة الإصلاحية في اليابان: ميجي أيشن، ترجمة عادل عوض، الألف كتاب الثاني؛ 108 (القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص 231.

(31) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 173-174.

(32) فوكوزاوا يوكيتشي، سيرة فوكوزاوا يوكيتشي، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 143.

المجالين العسكري والاقتصادي»[33]. علاوةً على ذلك، فإن قادة العهد الجديد كانوا نتاج جهد عقود سابقة؛ فإيتو هيروبومي أُرسل في عام 1863 إلى إنكلترا لمتابعة دراسته فيها، واستفاد عصر الميجي من طاقاته السياسية والقانونية، فكلّفه الإمبراطور بدراسة الدساتير الأوروبية. كما كان أحد أبرز أعضاء بعثة إواكارا، وعُيّن رئيسًا للوزراء مرات عدة[34]. وقام موري أرينوري برفقة 19 طالبًا من قبيلة ساتسوما برحلة دراسية إلى إنكلترا، وساهم بدور مهم في بعثة إيواكارا بوصفه مندوبًا لليابان في الولايات المتحدة. وسافر أوكي موفدًا من ساتسوما إلى ألمانيا في نهاية عهد الباكوفو، واستمر بتأدية دوره بعد عهد الإحياء، وعمل مع الفريق الياباني الذي كُلّف بصوغ أول دستور ياباني، في حين شارك الطالب توياما سوتيهاتشي في بعثة الباكوفو واستطاع التكيف مع النظام الإمبراطوري الجديد، وسافر مجددًا إلى الخارج، إلى الولايات المتحدة. وعند عودته عُيّن رئيسًا لجامعة طوكيو، كما تولّى وزارة التربية في اليابان[35].

من جهة أخرى، أدى أوكوبو توشيميتشي دورًا أساسًا في إرسال بعثات تعليمية إلى إنكلترا قبل عام 1862، ويُعَدّ من العناصر الأساسية التي أرست عهد الإحياء في اليابان.

كما أسس شيبوزاوا إييشي (1840-1931) - الذي أوفده الباكوفو إلى فرنسا لدراسة نظمها الاقتصادية والمالية ورجع إلى اليابان في عهد الميجي - «عددًا كبيرًا من الشركات والمصارف. ويُعَدّ أول من أدخل الأنماط الحديثة للمقاولات المجهولة الاسم. كما أسّس في عام 1873 أول مصرف وطني، ويعدّ اليوم الأب المؤسس للرأسمالية اليابانية»[36].

---

(33) أدوين رايشاور، اليابانيون، ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ 136 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 111.

(34) Ito, dans: Microsoft Encarta (C. D., 2005), p. 1.

(35) Noboru Koyama, *Japanese Students at Cambridge University in the Meiji Era, 1868-1912: Pioneers for the Modernization of Japan*, Translated by Ian Ruxton (Morrisville, North Carolina: Lulu, 1999), p. 32.

(36) Nobutaka Miura, «La Modernisation du Japon et la France Conference à L'Université de Genève, les 5 et 12 Janvier 2005,» *Journal of the Faculty of Literature*, vol. 98 (2006), p. 6.

لم تحدث القطيعة إذًا في اليابان، على مستوى إيفاد البعثات الدراسية إلى دول الغرب الرأسمالي، منسجمة بذلك مع خاصية الاستمرارية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. ولم يقم عهد الميجي سوى بتوظيف عقلاني وإيجابي لإمكانات عهد توكوجاوا، الأمر الذي ينمّ عن وجود ذهنية تمتعت برؤية تنموية تحافظ على الثروات المختلفة وتتجنب عناصر الهدر والتبذير.

في مقابل ذلك، تثار مسألة القطيعة في شأن الوفود التعليمية المغربية التي أُرسلت إلى أوروبا في عهد كلٍّ من المولى محمد الرابع والحسن الأول. وإذا كانت الوفود التعليمية التي أرسلها محمدِ الرابع ضئيلة ومحدودة، فإنها تحولت إلى أرقام مهمة ومنظمة في عهد الحسن الأول. ولا شك في أن حداثة الفكرة والأخذ بها في إجراءات على مستوى الواقع تطلّبا نوعًا من الجهد المادي والمعنوي في زمن كانت فيه الإمكانات المالية هزيلة والقواعد النظرية والعلمية شبه منعدمة. وينسجم ذلك مع البناء العام للدولة في المغرب، حيث تتعدد القطاعات السياسية التي حدَّت من توفير العمق التاريخي لتقاليد ممارسة إدارية ناجعة.

لاحظنا في القسم الأول من هذا الكتاب حالات النفي والنفي المضاد التي مارستها الدول العصبية (لمتونة ومصمودة وزناتة) بعضها ضد بعض، كما يتضح من خلال المصنفات التاريخية التي ترجمت لذلك. وأصبحنا بذلك نرى تاريخنا جزرًا مبعثرة تنتفي فيها أواصر التواصل والامتداد؛ فقد كان العنف العسكري الوسيلة المثلى لتغيير المشهد السياسي ووضع البدائل. وعندما تتمكن العصبية وتؤسس دولتها، فغالبًا ما كانت ترافق ذلك بنفي إنجازات سابقتها. ومن جهة أخرى، ارتبط زمن العصبيات بكاريزماتية الأمير والسلطان، وبموت الأمير أو السلطان ينهار بناء الدولة وينتشر العبث السياسي وتنتشر دوامة العنف والعنف المضاد، الأمر الذي يمكن ملاحظته أيضًا في تاريخ المغرب بعد وفاة المنصور السعدي والمولى إسماعيل، حين غابت تقاليد الانتظام المؤسساتي وقنوات تصريف التحاسد الداخلي، ولعل ذلك أحد العوامل التي حرمت الدولة في المغرب العمقَ التاريخي والنضج السياسي الكفيلين باحتضان رؤى التنمية والتغيير وإنجاحها في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر. كما أن شدة الصراعات والحروب الدموية حدّت من إمكانية تحقيق فائض القيمة المادية وشروط التنمية البشرية.

تثير البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول مشكلة القطيعة مع العهود السابقة، خصوصًا تلك التي جرت في عهد والده باتجاه المشرق وبعض الدول الأوروبية؛ ففي عام 1861 أرسل محمد الرابع عددًا من الجنود لتعلّم فنون المدفعية وعلوم البحر. ولاحظ الخديوي إسماعيل كبرهم وضعف قابليتهم لتلقّي تعليم إيجابي[37]. وتميزت البعثات إلى أوروبا بندرتها الشديدة، وقلة المعلومات في شأنها. وربما هذا ما ميّز عهد الحسن الأول في هذا الجانب بكثافة البعثات التعليمية التي غيّرت وجهتها من المشرق إلى أوروبا. كما لم يكن لدى معظم أفراد البعثات الحسنية أدنى ارتباط بالعهد السابق، إضافة إلى أن هذا الفعل التحديثي لم يتأسس على تراكم إيجابي يسمح بتطوير الكفاءات وتجاوز المشكلات والعثرات.

في السياق نفسه، شكّلت بعثات الميجي استمرارًا للعهود السابقة، فكان معظم المسؤولين الذين تولّوا مهمة الشؤون العلمية في بعثة إيواكارا «من البيروقراطيين الذين عملوا في حكومة باكوفو السابقة، وكانوا ينتمون إلى خبراء التنظيم الصناعي الجدد الذين ظهروا في السنوات الأخيرة لحكم توكوجاوا»[38]. ففي فترة العزلة الطوعية، قامت شرائح الساموراي بتجديد قدراتها من خلال «اكتساب العلوم والتكنولوجيا العصرية من مصادر متنوعة منها العلوم الغربية... فتوافرت للدولة اليابانية في ظل حكم تلك الأسرة، وبشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر، قوى بشرية فاعلة تؤمن بتحديث المجتمع الياباني وتشارك بوعي ومسؤولية وطنية في عملية لا بد منها لحماية اليابان من الغزو الخارجي»[39]. وواصل عهد الميجي القيام بالدور نفسه، موظِّفًا جميع الإمكانات البشرية السابقة في مسلسل التحديث الداخلي. في حين فقد المخزن الحسني خاصية الاستمرارية وتوظيف

(37) Abdallah Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912* (Casablanca: Centre culturel arabe, 1993), p. 286.

(38) متشيو وأورشيا، ص 231.

(39) ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، ص 173-174.

الطاقات السابقة، ولم يكن ثمة طاقات أو تراكمات حقيقية يمكن استغلالها في عمليات الإصلاح الجديد.

تأسس مشروع الدولة في المغرب على ربط الإصلاح والتغيير بشخصية السلطان وإدارته، في حين كان المطلوب أن يتأسس على منطق المجتمع ومقاسه وحاجاته، وأن يكون هذا الأخير محتضنًا أساسًا له ومدافعًا عنه في تجلياته المختلفة والمتعددة.

لم تستفد البعثات المغربية إلى دول الغرب الأوروبي من تجربة مشابهة سابقة تمنحها العمق والنضج الكافيين، بل شكلت البداية الحقيقية الأولى لانطلاق أفواج المتعلمين الصغار السن إلى معاهد ومؤسسات تكوين أوروبية. وقد أنتج ذلك نوعًا من الاضطراب والقلق النفسي لدى مجموعة من الطلبة في بلجيكا وفرنسا، كما دلّت المراسلات التي سبق أن ذكرناها، والتي أفصحت عن المشكلات المالية، وأبرزت ارتماء بعضهم في أحضان الحماية القنصلية وعدم خضوع آخرين لأوامر المكوِّنين.

نلاحظ على مستوى آخر أن أغلب أفراد البعثات التعليمية كان من مؤسسة الجيش الأودايا والبواخر، وما يسمّى قوات المية، إضافة إلى «العساكر الفاعلة، أي الفئة التي ظن المخزن أنها قابلة لتنمية قدراتها بسرعة وقادرة على الاستفادة من التدريبات بالخارج»[40]. من جهة أخرى، انتمى عدد قليل جدًا من الطلبة إلى فئات ذات نفوذ إداري ونخبوي، وفي هذا السياق يذكر عبد الغني سكيرج أن أسباب انتقال الطالب الزبير سكيرج من فاس إلى الرباط كان الخوف عليه من التجنيد الإجباري الذي كان سيُفرض على المغاربة آنذاك، وكان عمه الشيخ المكي البرنوصي هو من تكفل به، ولعل «هذا [هو] سبب اختياره ضمن الطلبة الذين توجهوا لأوربا لإتمام دراستهم هناك»[41].

تأتي نخبوية هذا الاختيار وتركيزه على الانتماءات العسكرية بسبب

(40) بهيجة سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، 1869-1912، سلسلة رسائل وأطروحات؛ 2 (الدار البيضاء: اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003)، ص 305.

(41) سكيرج، ص 29.

عوامل عدة، وفي مقدمها عدم وجود مدرسة حقيقية في المغرب، خلال الفترة المذكورة، تتمتع بمقومات الفعل التربوي والتحديثي وتكتسي خاصية الانتظام والمؤسساتية. ولعل ذلك أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت المخزن يضل طريق التحديث عندما كانت اختياراته تتسم بالفشل والضعف؛ إذ اضطر أكثر من مرة إلى إرجاع المتعلمين بسبب عدم ظهور نجابتهم، كما سقط بعض المتعلمين في براثن الحماية القنصلية والتجسس لمصلحة قوى أجنبية، في حين اتجه آخرون إلى العبثية والفوضى (بعثة مونبلييه).

أمّا بالنسبة إلى اليابان، فيبدو أنها اعتمدت معيار الكفاءة بسبب وجود مدارس متعددة قبل عهد الميجي، على مستوى المركز والمقاطعات. وأضحت وزارة التعليم، إلى جانب وزارات أخرى، إطارًا محوريًا للبعثات التعليمية التي توجّهت إلى الولايات المتحدة وأوروبا.

لا شك في أن فئة الساموراي كانت الأكثر تمثيلية في مجموع البعثات، لكن مع تقدم إصلاحات الميجي، وإلغاء النظام الإقطاعي ونظام الطبقات، أصبح للكفاءة مكانة متميزة في هذا الشأن.

أتاح النظام الجديد فرصًا حقيقية للترقي الاجتماعي عن طريق التعليم والمعرفة. ومن خلال عيّنة المتعلمين اليابانيين المذكورة آنفًا، يتبين الاهتمام الكبير الذي أبداه النظام الجديد تجاه الكفاءات الوطنية بأطيافها المختلفة، بل قدّم مِنحًا حتى إلى بعض الأشخاص الذين عارضوا عهد الإحياء في البداية.

انتشرت داخل أوساط المجتمع مقولة تلح على ضرورة انخراط المتعلمين في مسيرة التنمية للاستعاضة عن الخبراء الأجانب وبناء يابان جديدة بسواعد وطنية.

تمتعت البعثات اليابانية بكفاءة معرفية وانضباط سلوكي. وقد لاحظنا أن أفراد البعثات اليابانية حملوا خزّانًا مهمًّا من المعارف والمهارات، وقدرات متميزة في المنافحة عن مشاريع التحديث الداخلي. وإذا كان نكائي تشومين - مثلًا - ينتمي إلى طبقة الساموراي، فإنه نادى في ثمانينيات القرن التاسع عشر بضرورة

احترام حقوق الإنسان والحد من سيطرة الحكومة، وكان له تأثير كبير في تطور النظام السياسي في اليابان[42].

نجحت النخبة اليابانية في احتلال مواقع متقدمة في حكومة الإمبراطور، واستبصرت ضرورة تغيير الأوضاع العامة في اليابان لمواجهة التحديات الغربية. وتمكّنت هذه النخبة من أن تدفع بقوةٍ قرارات إمبراطورية نادت بالانخراط الطوعي والفاعل لطبقتي الدايميو والساموراي في مسلسل الإصلاح؛ ومن خلال هذه المدرسة جرى تطويع المشروع التحديثي ليتحول من النخبوية إلى العامة، وحقق نظام الميجي نجاحًا باهرًا في هذا الميدان[43].

أحدث المتعلمون اليابانيون واقعًا مجتمعيًا جديدًا مدًّ عملية الإصلاح الداخلي بالوقود اللازم والدينامية الملائمة، مستفيدًا من المناخ السياسي والإداري الجديد، ومن حالة التنافس العلمي باعتباره معيارًا للترقي الاجتماعي والسياسي. وسمح هذا التحول بارتقاء الكفاءات العلمية إلى مناصب سامية في الوزارات الحكومية والمؤسسات الاقتصادية الخاصة. هذا في حين لم تكن النخبة المغربية فاعلة، بل شكلت على الدوام عناصر تابعة للبعثات العسكرية الأجنبية أو للإدارة المخزنية الرتيبة، فلم يفسح أمامها المجال للقيادة والإبداع. وما كان لها أن تقوم بهذا الدور في ظل طبيعة الأوضاع العامة في المغرب آنئذٍ، الإدارية منها والسياسية والذهنية والمجتمعية والاقتصادية.

(42) المحجوبي، ص 189-190.

(43) Pierre Renouvin et Jean-Baptiste Duroselle, *Introduction à l'histoire des relations internationals*, 4ème éd. (Paris: A. Colin, 1991), pp. 193-194.

خاتمة القسم الثاني

اجتهد المخزن المغربي، بعد معركة إيسلي، في البحث عن أسباب الغُمَّة؛ ومثّلت الرحلة نافذة تعرّف من خلالها إلى آلية البعثات التعليمية ودورها في تحقيق ما كان يقوم به من إصلاحات. وقد بدأ إيفاد هذه البعثات منذ زمن السلطان محمد الرابع الذي أرسل عددًا من المتعلمين إلى مصر وبعض البلدان الأوروبية.

لا شك في أن عنف الصدمة الغربية أفهمت صنّاع القرار في المخزن ضرورة معالجة اختلال التوازن والبحث عن سبل المدافعة وحماية الذات من الاختراق الأجنبي.

كانت خطوات الحسن الأول جريئة بالنظر إلى الفترة التاريخية؛ ذلك بأن إيفاد بعثات تعليمية متواترة وبأعداد وفيرة إلى دول الغرب الرأسمالي مثّل حركة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الثقافية بين الجانبين. وعلى الرغم من السلبيات التي رافقتها، يمكن اعتبارها حالة من التفكير المتقدم الذي احتاج إلى محفزات وأسباب تمنحها النضج والفاعلية.

من جانب آخر، أحدثت حملة بيري على اليابان زلزلة نفسية وشعورية عميقة أنتجت حالة من الفوضى المجتمعية والسياسية والأمنية، انتهت بإرساء النظام الإمبراطوري وبالتنقيب عن العوامل المسؤولة عن الانتكاسة اليابانية وخضوعها لشروط الاتفاقيات المذلّة التي عقدها نظام الباكوفو.

استنتج اليابانيون، من خلال احتكاكهم بالهولنديين في ناغازاكي، ومن خلال الرحلات، أهمية الانفتاح على التكنولوجيا الغربية، وتحقق ذلك بإيفاد

آلاف المتعلمين إلى الدول الغربية المختلفة، خصوصًا الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وألمانيا وفرنسا.

إذا كانت بعثات محمد علي ركزت في تعليمها على فرنسا، فإن المغرب نوّع مثل اليابان مصادر تكوين طلبته في الخارج، لكنه وظّف ذلك في إطار سياسة التناقضات الدولية، الأمر الذي انعكس على بعض البعثات التي تأخر إرسالها إلى فرنسا وألمانيا بسبب التجاذبات بين الدولتين في شأن المغرب، وممارسة المخزن انتظارًا سلبيًا كان يترقب فيه وضوح الرؤية بالنسبة إلى التوازنات الدولية.

حاولنا في الفصل الثاني من هذا القسم التنقيب في الوثائق والمراسلات المخزنية التي أطّرت البعثات التعليمية المغربية، واعتبرناها كشّافًا ينبئ عن طبيعة الذهنية الإدارية المشرفة على إرسال البعثات وتمويلها واستثمار زخم الرحلة التكوينية للمتعلمين المغاربة.

كان المخزن الحسني المؤطِّر الوحيد لهذه البعثات، وبذل جهدًا في انتقاء النماذج كما تتبع أحوالهم وموّل حاجاتهم، واعترضته مجموعة من العقبات والتحديات المالية والتربوية.

افتقدت البعثات التعليمية المغربية العمق التربوي والمؤسسات التعليمية التي كان في إمكان شيوعها وامتدادها في المجال الحضري أن تمد المخزن بالكفاءات وتعفيه من عمليات الاختبار العديدة والفاشلة كما تبيّن ذلك الوثائق التي سبق أن أوردناها.

لم يكن في المغرب، في زمن إرسال البعثات، مدرسة وطنية منتظمة ومنفتحة وفاعلة ومتفاعلة؛ ولعل ذلك ما حال دون توافر الشروط الموضوعية لاختيارات دقيقة وناجعة.

أمّا في اليابان، فكانت المدرسة شرط وجوب لنظام التوكوجاوا الذي اعتمدها وسيلة لدعم مشروعية نظامه السياسي والإداري من خلال تركيزه على تدريس القيم والأخلاق الكونفوشيوسية الداعية إلى الطاعة والامتثال لأشكال السلطة الأبوية والسياسية المختلفة. وانخرطت المقاطعات المعارضة في

منافسة الإدارة المركزية في الحقل التربوي بتوفير تعليم ملائم لأبناء الساموراي والتجار، وشكّلت ملاذًا للحفاظ على الذات اليابانية من الاختراق، ولعل ذلك ما دفع صايغو تاكاموري، بعد خلافه السياسي والفكري مع حلفائه السابقين، إلى تخصيص جزء كبير من وقته لدعم مسيرة التعليم في مقاطعته.

لم تمنع سياسة العزلة الطوعية اليابانيين من الاطّلاع على الثقافة الغربية عبر ميناء ناغازاكي، ومن خلال اللغة الهولندية والخبراء الهولنديين. وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي جعلت العميد البحري بيري يبدي اندهاشه في عام 1853 من حجم المعرفة اليابانية بفنون الغرب وعلومه.

ركّز اليابانيون على الترجمة باعتبارها آلية لاكتساب العلم والمعرفة، وعندما «دنّس» الأميركيون أرض النيهون، اكتشف صنّاع القرار في نظام الباكوفو ضآلة حجم قوتهم العسكرية أمام القوى الغربية التي فرضت عليهم اتفاقيات غير متكافئة. وشكّل ذلك إطارًا لتنظيم بعثات خاصة جمعت بين ثلاثة أهداف أساسية:

- مراجعة الاتفاقيات السابقة
- جمع المعلومات وتدوين المشاهدات
- انتقاء مجموعة من المتعلمين وتكليفهم الأخذ من العلوم الغربية

على أن أهم ما يلفت الانتباه هو انخراط المقاطعات المعارضة (ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا...) في إرسال أبنائها من الساموراي إلى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، الأمر الذي منح الموضوع تنافسًا محمومًا بين الطرفين في أفق تكوين أُطر المستقبل ومنحهم أسباب النجاح في الصراع الشرس الذي دار بين أنصار النظام الإمبراطوري وبقايا رموز التوكوجاوا إلى حدود عام 1868.

يمكن القول إن مقاطعتي ساتسوما وشوتشو أدركتا خصوصيات المرحلة التاريخية التي كانت تمرّ بها اليابان، فقررت تصفية خلافاتها التاريخية مع مهندسي سياسة العزلة الطوعية. وتأكدت أن ذلك لن يتحقق من دون أطر متعلمة وقادرة على بناء يابان جديد تحت قيادة إمبراطورية رشيدة. وأصبح

التعلم في الخارج وسيلة لامتلاك الداخل، ولذا تعددت البعثات التي أوفدها كل طرف إلى الدول الغربية.

كان نظام الباكوفو يتوخى من آلية البعثات التعليمية تجديد إدارته ومدّها بأسباب الحياة؛ وكانت المقاطعات المعارضة تروم إحداث انقلاب في طبيعة النظام السياسي والإداري؛ وكان الانفتاح على الغرب، بالنسبة إليها، الوسيلة المثلى لتكوين أمثال إيتو هيروبومي وموري أرينوري وكيدو تاكايوشي وغيرهم كثر.

وفي الجهة المقابلة، كان المخزن الحسني يهدف من إرسال البعثات التعليمية إلى بعث أسباب الحياة في إدارة تعرضت لكثير من الهزات العسكرية والأمنية. وقد انفتح على الدائرة الغربية برؤية محدودة ركزت على الأخذ من فنون حرب النظام. وبالنظر إلى تخصصات المتعلمين المغاربة، يبدو الهاجس العسكري الذي سيطر على اختيارات المخزن التحديثية، كما شكّلت دار المكينة لصناعة السلاح أهم مؤسسة احتضنت أكبر عدد من المتعلمين الذين درسوا في أوروبا الغربية.

كان المخزن مؤطِّرًا لآلية البعثات التعليمية المغربية انتقاءً وتوجيهًا واستثمارًا؛ ولم يكن ثمة فئة مجتمعية معيّنة تنافسه وتعينه على بلورة مشروعه التحديثي. ويعكس ذلك نمط البناء المخزني الذي فقد قيم التعاقد المجتمعي والسياسي الدائم والمستمر بشكل جعل من اختيارات الدولة التحديثية مفارقة لمنطق ومتطلبات النجاعة الإدارية ومتطلباتها.

يتبيّن من خلال تفحّص الوثائق والمراسلات المخزنية الكثيرة في هذا البحث الأرق المالي بوصفه من أبرز الصعوبات التي واجهت البعثات التعليمية المغربية. ولا شك في أن العملية احتاجت إلى مصادر تمويل قارّة وإلى قنوات إدارية فاعلة تساعد في إنجاح عملية التعلم والتكوين في الخارج. ولا شك أيضًا في أن الضغط العسكري والاقتصادي الغربي، وما نجم عنه من اتفاقيات والتزامات مالية (غرامة حرب تطوان، وحرب مليلية) حدّا من توفير الإمكانات المالية اللازمة لمشروعات الإصلاح، ومنها تمويل أفراد البعثات التعليمية في الخارج.

أمّا في ما يخص اليابان، فكان المندوب المالي يرافق أفراد البعثات إلى الخارج. وتمثّل بعثة إيواكارا أنموذجًا جليًا في هذا المجال؛ إذ استفادت من تمويل ضخم، كما سبق أن أشرنا. كما خصصت وزارة التربية اليابانية مِنحًا دراسية قارّة لأفواج المتعلمين، واستعانت في ذلك بتطور معاملاتها المصرفية مع الدول الغربية.

استفادت البعثات التعليمية اليابانية من نظام مؤسساتي توفّر على وزارات محددة الاختصاصات شاركت في إيفاد طلبتها إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية. وتوسلت من خلال ذلك مدّ إداراتها بأطر التحديث اللازمة والاستعاضة عن الخبراء الأجانب.

ترتبط النتائج بمقدماتها وأهدافها، وتتطلب الأهداف صوغًا واضحًا ومُحكمًا ينسجم مع متطلبات التنمية الذاتية والموضوعية. من هنا، تمتع اليابانيون بحس متميز في رسم الغايات الكبرى والاستراتيجية من موضوع البعثات التعليمية، مستفيدين من تحديث الإدارة، وحركية مجتمع الساموراي، ووجود نخبة مبدعة امتلكت القدرة على استثمار اللحظة التاريخية التي لا تتكرر، وأزاحت نظام الباكوفو ووضعت قواعد نظام جديد يقوم على أساس توحيد الجهد والبدء في إصلاحات هادئة ومدروسة باسم الإمبراطور موتسو هيتو.

تدل نماذج الطلبة اليابانيين التي أوردناها في الفصل الخامس على حسن الاختيار ووضوح الأهداف؛ فقد تسلم هؤلاء الطلبة لدى عودتهم إلى بلادهم المناصب السامية، السياسية منها والعسكرية والفنية والعلمية، وأتيحت لهم فرص الانخراط والفعل والمساهمة في بناء يابان نافست وانتصرت على قوتين كانتا تُعَدّان محوريتين في منطقة الشرق الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (الصين وروسيا القيصرية).

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يكن في المغرب وزارة تعليم، ولا مدرسة وطنية فاعلة ومتفاعلة مع مستجدات ميزان القوى في العالم المتوسطي. وقد انعكس ذلك على طبيعة اختيارات المخزن لأفراد البعثات من مناطق محددة (فاس ومكناس...) كانت فيها الإدارة العسكرية المغربية.

فشلت البعثات المغربية في تحقيق أهدافها، وانعدمت السبل أمام أفرادها للمشاركة في هندسة وضع اتسم بالجمود وبسيطرة الأجانب على رسم حدوده ومعالمه.

تمتع بعض أفراد البعثات التعليمية المغربية بقدرات ومهارات علمية ومهنية متميزة، وكان من المنتظر توفير إمكانات الانخراط والمشاركة الإيجابية أمامهم لتفعيل مقتضيات الإصلاح. وقد احتاجت العملية إلى ضرورة تطهير الإدارة المغربية من الطفيليات ومن رموز الفعل البيروقراطي، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث، فجاء التحديث مشوَّهًا ومعكوسًا؛ ذلك أن المخزن حافظ على ثوابته الإدارية المسؤولة عن الأزمة العسكرية والسياسية والأمنية، واعتمد البعثات آلية لتجديد هياكله التي نالها الضعف والوهن. وبسبب ذلك وقع التناقض بين إدارة تقليدية ومحافظة وبعثات اطّلعت على حقيقة التفوق الغربي، وأدركت بانتهاء تكوينها وبعد عودتها حجم الصعوبات التي حالت دون انخراطها الفعلي والإيجابي في تحقيق التنمية المنشودة. ألم يقل محمد النجار «النصارى كيعلمو العقل والمسلمين كيحفيوه»؟ ألم يبق الزبير اسكيرج من دون عمل مدة من الزمن على الرغم من خبرته العسكرية واللغوية؟ ألم يحمل الطاهر الأوديي على رموز البيروقراطية المخزنية في مؤلَّفه **الاستبصار**... وانتقد بشدة الدوائر المخزنية، ومنها الوزير المهدي المنبهي؟ ألم تتعدد مراسلات محمد بن الكعاب الشركي بخصوص المشكلات المالية العميقة التي عاناها بعض البعثات التي توجهت إلى بلجيكا؟

يصعب التصريح بفشل التعليمية، كآلية تحديثية، بقدر ما أؤكد عدم توافر شروط النجاح الموضوعية، وبدلًا من ذلك أقول بفشل رؤية المخزن الإصلاحية؛ فهي المسؤولة عن تنظيم البعثات وانتقاء أفرادها وتمويلها واستثمار كفاءاتها. وإذا كانت البعثات هي المادة الخام التي رامت تحقيق التحديث العسكري والإداري، فإن المخزن بمكوّناته المختلفة كان المهندس المسؤول عن التجربة ومآلها: فهو الأصل وهي الفرع؛ ويفترض في تقويم التجربة التحديثية البحث في العوامل المرتبطة بالأصل، وهو ما فصلنا فيه الحديث في القسم الأول من هذا الكتاب.

خاتمة الكتاب

أردت بالبحث المقارن في هذا الكتاب أن أؤكد أننا أمام مقدمات مختلفة أفضت إلى نتائج تنموية متباينة بين اليابان والمغرب، من خلال آلية البعثات التعليمية بوصفها إحدى الوسائل والاختيارات التي هدفت إلى تحقيق التنمية والتحديث في كلا البلدين. ويمكن بذلك إعادة صوغ عنوان البحث كالآتي: البعثات التعليمية المغربية 1844-1912 والبعثات التعليمية اليابانية 1853-1944، تباين المقدمات واختلاف النتائج، الأمر الذي أثرته في المقدمة وحاولت التساؤل نظريًا عن علاقة الأسباب والمقدمات بنتائجها.

يصعب تقويم مآل البعثات التعليمية المغربية والبعثات التعليمية اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بمعزل عن الأوضاع العامة التي أحاطت بالبلدين، وأفرزت نتائج متباينة ومتناقضة على مستوى مآل التحديث في كلٍّ من المغرب واليابان.

فقد المغرب في الفترة المذكورة، سلطة ومجتمعًا، أمة ونخبة، مقدمات التغيير وقابلية الإصلاح. ومن غير اللائق أن يُنسَب الفشل إلى فئة مجتمعية أو إلى نخبة محددة أو تيار سياسي/ فكري معيّن؛ فالأمر لم يكن متعلقًا بفكر سلفي غير قادر على مواكبة تحولات التحديث الأوروبي؛ إذ اعتمدت اليابان «سلفيتها الخاصة» وارتكزت على قيمها الأخلاقية والأسطورية في عملية الإصلاح والتنمية، ونجحت في التوفيق بين التقليدية والتحديث، الأمر الذي جعل منها مادة للمقارنة والتمثّل والاقتداء في كثير من الكتابات والندوات والكراسي

العلمية ومراكز الدراسات المبثوثة في مختلف مناطق البحث الأكاديمي في أوروبا وأميركا الشمالية وآسيا.

نجحت البعثات التعليمية اليابانية في تحقيق أهدافها، بسبب التراث الذهني والتماسك الاجتماعي الذي تأسس على منطق التراكم التاريخي والخبرة الفيودالية القديمة، القائمة على أساس سلفي تقليدي، ينهل من الرموز الثقافية والاتجاهات العقيدية والفكرية، ويوظفها بذكاء متميز في مسيرة التحديث.

تميز عمق اليابان التاريخي بالاستمرارية، فكان عهد الميجي تتويجًا لمرحلة طويلة من التراكم والتجربة، التي امتدت 250 عامًا على الأقل، وهي الفترة التي تسمّى عادةً فترة العزلة الطوعية التي نهجها حكام التوكوجاوا؛ فخلالها بدأت تترسخ صرامة التنظيم الداخلي لأطياف المجتمع الفيودالي، وأصبح النظام يجنح نحو التنظيم والفاعلية الإداريتين. كما بدأت العلاقات المجتمعية بنسج خيوط متينة من الخدمات المتبادلة بين أفراد الأمة الواحدة. وإذا كان الإمبراطور هُمّش دوره خلال هذه المرحلة لمصلحة الشوغون، فإن هذا الأخير كان يحكم بالوكالة عنه، الأمر الذي أضفى على النظام السياسي نوعًا من المشروعية والاستمرارية.

تميّز عهد توكوجاوا بمجموعة إنجازات في الميادين التعليمية والفكرية والسياسية والاقتصادية. كما أنه شهد البدايات الأولى المؤسِّسة للعمل التحديثي من خلال آليات متعددة، لعل أهمها آلية البعثات التعليمية إلى أوروبا وأميركا، خصوصًا بعد حملة بيري الأميركية وتهديدها السيادة اليابانية. وقد أثار التحدي الغربي مجموعة من التساؤلات تمركزت حول الأسباب التي أنتجت العجز الياباني في مواجهة الأساطيل الغربية. ولم تكن هذه البعثات سوى وسيلة للإجابة عن هذا التحدي بمعرفة الآخر، وتحديد عوامل قوته وانتصاره، ومغالبته في معركة التنمية والتقدم.

انفتحت اليابان على التحديث الغربي من موقع قوة؛ فقد تميز نسيجها المجتمعي بالتماسك، وزاد من تماسكه ديناميةُ حركة الإصلاح العام، خصوصًا حركة الإصلاح السياسي بإرجاع السلطة الفعلية إلى الإمبراطور، وتحقيق

مطلب الوحدة، وتوظيف الأسطورة القديمة في منح الميكادو كاريزماتية خاصة، الأمر الذي أضفى على قراراته طابع الإلزام والقدسية.

في الإطار نفسه، انفتح المغرب الحسني على التحديث الغربي من موقع ضعف تجلّت معالمه في تفسخ البنية المجتمعية، وفي غياب اللُّحمة المتماسكة وصدقية السلطة السياسية. ولم يكن المشروع التحديثي المغربي مجتمعيًا في صورته ومضمونه، بل حمل صفة الفردية وارتبط بشخص السلطان، الأمر الذي أوجد حالة من الفوضى وغياب المعنى من الانتماء إلى الوطن والأمة. ويُعَدّ اشتداد الحماية القنصلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مؤشرًا دالًّا على انهيار التماسك الاجتماعي حيث لم تنفع في الحد منها الفتاوى والخطب والخطابات.

«يبيّن تاريخ اليابان أن عملية التغيير الكبرى قادتها مجموعة تتشكل من أفراد محددين، يحملون مشروعًا واحدًا»[1]، بحسب أحد الباحثين الكوريين، وهذا ما يدفع إلى طرح السؤال التالي: هل يمكن تصوّر عملية التحديث الياباني، خلال عهد الميجي، من دون مساهمة نخب التغيير في كلٍّ من ساتسوما وشوتشو؟

مثّل صايغو تاكاموري وأوكوبو توشيميتشي وكيدو تاكايوشي أبرزَ قادة الميجي ومهندسي عملية الانقلاب التاريخي ضد نظام الباكوفو؛ فقد تمكّنوا بسبب تمثيليتهم القبلية الفيودالية وشخصياتهم الكاريزماتية وثقافتهم العالية من استثمار عناصر القوة الخام المتوافرة، والدفع بمجتمع الساموراي إلى الانخراط طوعًا وكرهًا في عملية البناء الجديد، وهُم الذين أرجعوا السلطة السياسية المغتصبة إلى الإمبراطور وأصدروا القرارات باسمه، وألغوا النظام الفيودالي وتبعاته الإدارية والسياسية والاجتماعية، وشكّلوا ما يسمّى العقل الاستراتيجي الذي هندس مجمل التحولات التي عرفتها اليابان في عهد الميجي.

---

(1) O-Young Lee, *Smaller Is Better: Miniaturisation et productivité japonaises*, traduit de l'anglais par Jean Martel, collection productivité de l'entreprise (Paris; Milan; Barcelone: Masson, 1988), p. 118.

تقود النخبة عمليات الإصلاح والتغيير الكبرى، فتمنحها الغاية والمعنى وتشحنها بعوامل الصمود والاستمرار. ويزيد من قوة النخبة وعيُها ووطنيتُها وإدراكُها طبيعة المرحلة التاريخية التي تجتازها. ومن هنا مثّلت بعثة إيواكارا عملًا دل على هذه المعاني والقضايا؛ فقد قادها أبرز مهندسي عهد الميجي، وحملت معها هاجس التعلم والاستخبار عن حقيقة القوة الغربية والنماذج الممكن محاكاتها، والبحث عن السبل الكفيلة بإرساء قواعد المجتمع الجديد بمقاسات ملائمة. ولا شك في أن هذه النخبة فتحت منافذ حقيقية وفاعلة أطل منها المتعلمون اليابانيون على عناصر القوة الغربية في مجالاتها المختلفة والمتعددة.

تقوم فلسفة الإصلاح على قواعد ومنطلقات ذهنية وأخلاقية تكتسي طابع الإلزام، وتحظى بالمحبة والاحترام، وتتطلب نسيجًا مجتمعيًا متماسكًا وأفرادًا واعين بحجم التحديات والعقبات الواجب اجتيازها. وينتظم ذلك كله بهندسة سياسية تنسق وتبدع في استثمار عناصر القوة الرمزية والمادية، وتدفع بالمجتمع إلى الانخراط في عملية التغيير والتنمية.

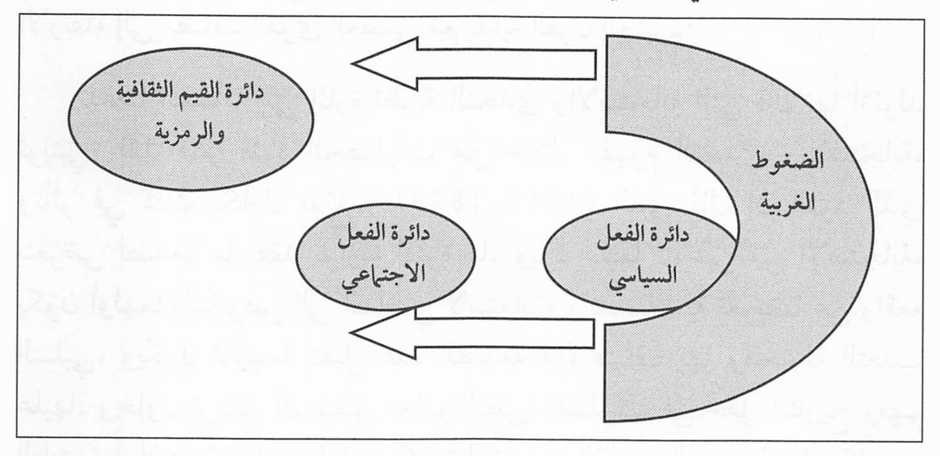
إذا كان قادة الميجي نجحوا في استثمار عناصر القوة الداخلية، وحققوا التواصل ومنطق الاستمرارية مع التاريخ والذاكرة والأسطورة، وانفتحوا على الغرب من منطلق التميز والاعتزاز بالذات ومدخراتها الرمزية والمادية، فإن المغرب لم يقتفِ آثار هذه الرؤية الإصلاحية، وعجز عن درء الأخطار الأجنبية، ووجد صعوبة بالغة في تنزيل حقيقي وفاعل لرموز قوته الثقافية والمعنوية. وبذلك حصل الانفصام بين مكوّنات الفعل التنموي.

يمكن تقريب صور ذلك من خلال رصد العلاقة بين دائرة القيم الثقافية والرمزية ودائرة الممارسة السياسية ودائرة الفعل الاجتماعي من جهة، وطبيعة التحديات الغربية من جهة أخرى. ويمكن التعبير عنها كالآتي:

- دائرة القيم الثقافية والرمزية
- دائرة الممارسة السياسية
- دائرة الفعل الاجتماعي

الشكل (خاتمة-1)

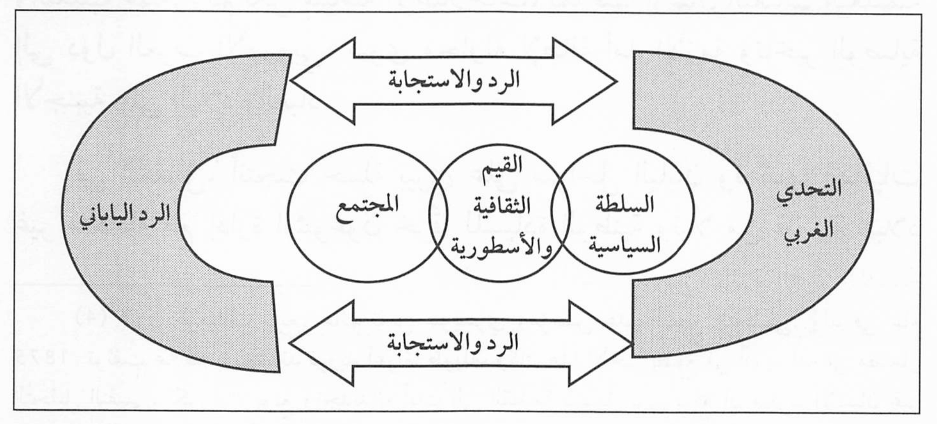
التحدي الغربي وأشكال الاستجابة والرد في المغرب[2]



يدل الشكل (خاتمة-1) على عدم الترابط بين قيم الدوائر الثلاث الثقافية والاجتماعية والسياسية ودوره في تسهيل فاعلية الضغط الغربي ونجاحه في مشروعه الحضاري. في المقابل الياباني نجد الشكل الآتي:

الشكل (خاتمة-2)

التحدي الغربي وأشكال الاستجابة والرد في اليابان[3]



يتبين طابع الانتظام بين الدوائر الثلاث والعلاقة الوطيدة بينها، الأمر الذي

(2) من إنجاز المؤلف.

(3) من إنجاز المؤلف.

منح المعنى والغاية للدولة والمجتمع وانخراطهما الواعي والقوي في الرد على طاقة القوة الغربية، فجاءت الاستجابة في حجم التحدي، ومكنت اليابان من الارتقاء إلى مصاف القوى العظمى مع بداية القرن العشرين.

تدفعنا المسألة إلى إثارة نظرية التحدي والاستجابة التي قال بها أرنولد توينبي؛ فقد فسّر نشأة الحضارات من خلال مفهوم التحدي والاستجابة، وتأثر في ذلك بكارل يونغ[4] (1875-1961) الذي قال إن الفرد الذي يتعرض لصدمة ما يفقد توازنه لفترة ما، ويردّ عليها بنوعين من الاستجابة، يكون أولهما بالنكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسك به تعويضًا عن واقعه السلبي، ويكون ثانيهما بتقبّل هذه الصدمة والاعتراف بها ومحاولة التغلب عليها. وحاول توينبي أن يتمثّل معالم النظرية السلوكية في حقل التاريخ وفهم آليات تحولاته وتغيراته.، فهل يمكن تطبيق هذه القاعدة التاريخية على كلٍّ من المغرب واليابان في أثناء تعرضهما للهجوم الغربي في عامي 1844 و1853؟

أحدثت نتائج معركة إيسلي رجّة نفسية وشعورية ارتدّت ذبذباتها نحو الذات، فأحدثت مزيدًا من التأكّل الداخلي وتفاقمًا لعناصر الأزمة الاجتماعية والسياسية وعدمَ القدرة على مسايرة التحدي الغربي، بل بالأحرى منافسته والتغلب عليه. ولم تكن سياسة الإصلاحات، بما فيها إرسال البعثات التعليمية إلى دول الغرب الأوروبي، سوى محاولة لإطالة أمد الأزمة وتأخير الوصاية الأجنبية على البلاد والعباد.

في المقابل، أنتجت حملة بيري على سواحل اليابان وفرضها اتفاقيات غير متكافئة مع إدارة الشوغون خرقًا للسيادة الوطنية ونيلًا من قدسية البلاد

---

(4) كارل غوستاف يونغ، عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي. وُلد في عام 1875. توثقت علاقته بسيغموند فرويد أعوامًا طويلة، وكان هذا الأخير يطمع في أن يخلفه في مضمار التحليل النفسي، لكن آراء يونغ وتجديداته أدت إلى القطيعة بينهما. يرى يونغ أن سلوك الإنسان غير مشروط بتاريخ الفرد ولا أهدافه. ويُعَدّ من أوائل طلاب فرويد، أسس مدرسة علم النفس التحليلي واستخدم مصطلح اللبيدو ولم يقصد بها فقط الطاقة الجنسية، بل طاقة الدوافع الكلية النفسية. تألف اللاشعور، في نظره، من قسمين: اللاشعور الفردي الناتج من خبرة الفرد الكلية والكبت، واللاشعور الجمعي وهو مخزن لخبرة البشر العرقي. بتصرف عن: Carl Gustav Jung, on the web: <http://fr.wikipedia.org/wiki/.Carl_Gustav_Jung>.

التي «تشرق عليها الشمس قبل البلدان الأخرى». وتنامى شعور جماعي تميز بالكراهية للأجنبي ورموز قوته المادية والمعنوية، لكنه شعور سرعان ما تكيف مع حقيقة الأوضاع وطبيعة المستجدات.

في هذا السياق، ساهمت النخب المتعلمة في الغرب في تيسير مهمة الانتقال وتهدئة الأوضاع «النفسية» من أجل فهم حجم التحدي واستيعابه، وتهيئة الداخل الياباني سياسيًا ومجتمعيًا وعلميًا وثقافيًا للرد الاستراتيجي على القوى الغربية ومنافستها والتفوق عليها. وانتقلت المعركة من الداخل إلى الخارج بعد أن انتظمت اليابان وراء سلطة الإمبراطور ونخب التغيير والإصلاح من مقاطعات ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا، محققة بذلك مبدأ الوحدة الشعورية والرمزية.

تمكّن اليابانيون من نقل المواجهة مع الغرب من الداخل، الذي أضحى متماسكًا، إلى الخارج بإرسال البعثات التعليمية واستقبال وفود الخبراء الأجانب. وحقق لهم ذلك مبدأ الندّية والمنافسة الحقيقية مع الأميركيين والإنكليز والفرنسيين والألمان. وتقلّد المتعلمون اليابانيون، بما تمتعوا به من كفاءة علمية، المناصب الاستراتيجية داخل الإدارة اليابانية. وبسبب فهمهم العميق لحقيقة القوة الغربية وهامش الحرية الواسع الذي تمتعوا به في تخصصاتهم العلمية والإدارية والعسكرية، نجحوا في الرد بصورة ملائمة على طاقة الغرب وتحدياته الحضارية.

تدفعنا هذه الملاحظات إلى إثارة العلاقة بين التمثّلات الذهنية وصنع التاريخ؛ فقد حاول الباحث الياباني كوهاشيرو تاكاهاشي جاهدًا، في مقالته التي اعتمدناها في هذا الكتاب، الربط بين تحولات القاعدة المادية قبل عام 1868 وبروز نظام الميجي كسلطة وبناء فوقي، بالتعبير الماركسي، في تفسير التعاقب التاريخي؛ فقد حلل بنية المجتمع الفيودالي لعهد التوكوجاوا وأبرز تحولاته وتطوراته التاريخية. ولا شك في أنه وجد صعوبات في التوصل إلى إقناع علمي تام بصحة مقولته في هذا المجال، ولم يكن مستغربًا أن أحال، في بداية مقالته ونهايتها، على كتاب بيير رينوفين **مسألة الشرق الأقصى** الذي جمع فيه بين العوامل الذاتية والموضوعية ودورها في نشأة مسيرة الإصلاح والتغيير في

يابان الميجي وتطوره، وقيّمَه بالمتميز[5]. كما أشار إلى الاختلاف الجلي بين التجارب التاريخية الغربية التي مرت من نمط إنتاج فيودالي إلى نظام رأسمالي على صعيد البنى الاقتصادية والاجتماعية والتجربة اليابانية، التي لم تساير فيها التحولات السياسية مثيلَتها الاقتصادية.

أمّا يوكيو ميشيما، فألّف كتابًا بعنوان **اليابان الحديثة وأخلاق الساموراي**، وتمحورت فكرته الأساس حول مقولة تؤكد أن «طريق الساموراي هو الموت»، بكل ما تحمله الكلمة من دلالات نقرأ في ثناياها معاني الحياة والتضحية والعيش للمبادئ والقيم. وقد عقّب عليها مؤكدًا أنها «الجملة التي منحتني الرغبة في الحياة»[6]. وضمَّن كتابه الكثير من المواقف والحِكم المعبِّرة عن قيَم الساموراي الفكرية والأخلاقية، ومن ذلك قوله «اكتشفت أن سبيل الساموراي يكمن في الموت. وإذا خيِّر بين الموت والحياة، عليه اختيار الموت من دون تردد... كل منا يحب الحياة، وفي حالة طبيعية كهذه يجري البحث عن الأعذار للاستمرار فيها. لكن من يريد الاستمرار في الحياة على الرغم من فشل مهمته، فإنه يحمل الازدراء الذي يليق بالجبناء والبائسين»[7]. وبالدرجة نفسها، فإن «من يختار الموت في لحظة سقوطه يصبح موته بلا معنى...»[8]. وفي نظره «يصبح من الضروري على من يريد أن يكون ساموراي حقيقيًا، التهيؤ للموت

(5) Kohachiro Takahashi, «La Place de la révolution Meiji dans l'histoire agraire du Japon,» dans: Maurice Dobb et Paul-M. Sweezy, *Du féodalisme au capitalism*, avec des contributions de Christopher Hill [et al.]; traductions de l'anglais de Florence Gauthier et Françoise Murray, 2 Vols. (Paris: F. Maspero, 1977), Vol. 2, p. 24.

يقول تاكاهاشي، «كثيرًا ما فُسرت ثورة الميجي بالعوامل الخارجية المتمثّلة في ضغوط القوى الأجنبية بشكل يجعل منها، خلافًا للثورة الفرنسية، معطى فوقيًا. لكن مهما كانت سمة هذه القوى الخارجية، فإنها تعجز عن تحديث المجتمع إذا لم تتطابق نتائجها مع التطورات الاقتصادية الداخلية» (ص 24).

(6) Yukio Mishima, *Le Japon moderne et l'éthique samouraï*, traduit de l'anglais par Emile Jean, Arcades; 1 (Paris: Gallimard, 1985), p. 16.

كتب يوكيو ميشيما مؤلَّفه في آب/أغسطس 1967، وبعد ثلاثة أشهر انتحر على طريقة الهاراكيري، ولقي كتابه إقبالًا منقطع النظير.

(7) Mishima, p. 100.

(8) المصدر نفسه، ص 100.

صبح مساء ويومًا بعد يوم»(9). وفي ضوء ذلك، يمكن مقاربة الانتحار الشهير الذي أقدم عليه صايغو تاكاموري في ساحة المعركة ضد أصدقاء الأمس، وفي مقدمتهم صديقه أوكوبو توشيميتشي عندما تعمقت الاختلافات بين منظّري الانفتاح الواسع على الغرب وأنصار الإبقاء على ثوابت تراتبية الساموراي وملحقاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

يصبح الموت قيمة أساسية عندما يرمز الإقدام عليه إلى الولاء للقيم والمُثل العليا للأمة، والموت في سبيل تمكينها والدفاع عنها؛ فهو الاستعداد الدائم والمستمر للتنكر للذات في سبيل ترسيخ مصالح الجماعة. ومن شأن هذه الخصلة أن تمنح اليقظة المجتمعية، وتدفع في اتجاه بذل الجهد التنموي للحياة الكريمة.

إذا كانت أخلاق الساموراي، كما لاحظنا، مفتاحًا أساسًا لفهم سر تشكّل الدولة الحديثة في اليابان، فهل انتُحل العنوان من أطروحة ماكس فيبر في مؤلّفاته الفلسفية؛ فقد أبرز فيبر في كتابه الشهير **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** أثر الإصلاح البروتستانتي في حركية الاقتصاد الرأسمالي، مبرزًا، من خلال عمله، قدرة الأفراد على الفعل والحركة. وتتمثّل العوامل الرئيسة لنشأة الرأسمالية، في نظره، في الجوانب الأخلاقية والسيكولوجية، عوضًا عن مثيلتها التقنية والاقتصادية. ويرى أن العامل الحاسم يكمن في انتشار الرأسمالية في ظهور عقلية اقتصادية جديدة، أطلق عليها فيبر العقلية الرأسمالية، واعتبر أن الإصلاح الديني «لم يكن يعني إلغاء سيطرة الكنيسة، بل استبدالها بشكل جديد من هيمنة»(10) بروتستانتية تؤمن بالعقلانية الاقتصادية وبروح الإنتاج المقاولاتي والبحث عن الربح. ورأى أن هذا التباين «يجب ألا يُبحث عنه في الأوضاع الخارجية الموقتة التاريخية والسياسية، ولكن في الطابع الجوهري والدائم للمعتقدات الدينية»(11).

---

(9) المصدر نفسه، ص 100.

(10) Max Weber, *L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme* (Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay), p. 18, sur le Web: <http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm>.

(11) المصدر نفسه، ص 20.

يرى فيبر أن جميع أشكال السلطة والهيمنة هي توليفات وخلطات وتكييفات أو تعديلات لثلاثة أنماط خالصة هي الزعامة الملهمة – الكاريزمية – والتقليدية والقانونية، فالهيمنة التقليدية ترتكز على الاعتقاد في شرعية ما قد وجد دائمًا والهيمنة القانونية تؤسس على اعتقاد في شرعية القوانين الموضوعية[12]. فهل يرتبط نجاح التحديث الياباني بعقلية الساموراي وثقافة الموتايني والنظرة الأخلاقية التي أطّرت مجمل مراحل صناعة التنمية منذ عهد الميجي؟

يمكن القول إن عقلية اقتصاد الجهد بدأت مع عهد الفيودالية اليابانية عندما نجح هيديوشي في الحد من نزعة الاقتتال الداخلي وأسس، بصرامة السلاح والعنف، بداية الدولة المركزية التي قدَّرها له اليابانيون على امتداد تاريخهم الطويل، وترسخت هذه القيمة الأخلاقية في مجتمع التوكوجاوا. ونجح عهد الميجي في استثمار مقتضياتها وفي بناء مقاسات تحديث مجتمع النيبون على منوالها وشاكلتها. ولعل ذلك ما أوجد حالة من الاستمرارية، وحقق قيمة التراكم الإيجابي والعمق التاريخي الاستراتيجي في عملية التحول من نظام فيودالي تقليدي إلى بداية تشكُّل نزعة رأسمالية يابانية متميزة. وانسجمت البعثات التعليمية مع مقتضيات هذه القيم، حيث شكلت بعثات الميجي وتايشو وشوا استمرارًا لبعثات نهاية عهد التوكوجاوا.

بتأملنا مضامين البعثات التعليمية المغربية ونتائجها، يبدو لنا الفعل العشوائي والارتجالي الذي لازمها وأزّمها. كما أن أغلب أفرادها فقد روح المعاني التي تتطلبها، وفي مقدمتها فقدان الوعي بتأخر الذات، والعجز عن محاولة اللحاق بالآخر ببذل الجهد والانتصار لخيار التنمية والإصلاح.

كان المخزن يريد إعادة إنتاج نفسه، في حين كانت اليابان تتوخى إعادة تشكيل المجتمع على مقاييس جديدة. وفي حين كان المغرب يعيش حالة انكفاء واكتفاء بقيم لا أثر لها في صوغ شبكة العلاقات الاجتماعية وفي الدفع بالقمة السياسية للانخراط في سيرورة التغيير والإصلاح الجذري، كانت اليابان

(12) نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي؛ مراجعة الفاروق زكي يوسف، عالم المعرفة؛ 223 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997)، ص 272.

تشيّد هرمها المجتمعي والسياسي بشكل متناسق جعل من المفردات الداخلية المختلفة جزءًا أساسًا في لَبِنة البناء والتنمية.

من هنا يمكن مقاربة الإصلاحات الجذرية التي رافقت عهد الميجي، وفي مقدمها إلغاء النظام الفيودالي والامتيازات الطبقية وإدخال إصلاحات سياسية ودستورية عميقة. ولا شك في أن ذلك منح مقدمات حقيقية لانخراط جميع أطياف المجتمع لاحتضان المشروع التحديثي والدفاع عنه باعتباره أحد المكوّنات الأساسية للذات اليابانية. وقد كانت طبقة الساموراي عنصرًا فاعلًا في هذا الاتجاه بما راكمت من خبرة وثروة في العهود السابقة؛ فمنها برزت التكتلات الاقتصادية والمالية الكبرى في اليابان، ومن داخل صفوفها انطلقت التحوّلات السياسية الكبرى، ذلك أن كبار مستشاري الإمبراطور كانوا من صفوفها، كما انبجست النخب المفكرة والمنظِّرة لعملية الإصلاح، وهيمنت - إضافة إلى ذلك - على مكوّنات البعثات التعليمية التي أرسلت إلى أوروبا وأميركا.

أمّا في المغرب الحسني، فلا يمكننا الحديث عن فئة مجتمعية احتضنت الإصلاح ونافحت عنه أو قاتلت في سبيل تحقيقه وإنجاحه. ولا شك في أن سيرورة الفعل السياسي والإداري في المغرب، على امتداد قرون طويلة، ارتبطت باحتكار مؤسسة السلطان لجميع أشكال الفعل الإصلاحي، الأمر الذي تسبب في تغييب دور أي فئة محتملة في أثناء صوغ رؤى التغيير.

حجبت الدولة المغربية، بفعلها هذا، الأدوار الطبيعية التي كان المجتمع حريًا بأن يقوم بها، خصوصًا في الأوضاع الصعبة التي كانت تتطلب عناصر الاستمرارية في عملية البناء والتنمية.

من جهة أخرى، تسببت الصراعات السياسية والعسكرية المريرة في تاريخ المغرب الوسيط والحديث، وتعدُّد القطاعات في الممارسة السياسية والإدارية بعد وفاة يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي والمنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي... في غياب تراكم يحقق الوحدة ويحافظ على الطاقات ويحدد مآل المجتمع.

مارس المخزن سياسة قهرية منعت بروز فئة مجتمعية أو نخبة مثقفة تمتلك مقومات إنجاز أو إخراج أنموذج تنموي يُعين الدولة وينافسها في صنع التغيير والإصلاح، كما فقدنا الفكر الفاعل والمتفاعل، والممارسة السياسية والإدارية ذات الطبيعة المؤسساتية، وهو الجانب الذي نجحت اليابان في مراكمته على امتداد قرون طويلة.

عندما يفقد المجتمع الغاية المحددة لوجوده ويتمكن الداء من جميع أعضاء جسده، يكون قد أسس لعوامل تفككه وفنائه. ولا شك في أن المغرب انخرط في إنتاج هذه الأزمة، فما عادت تنفع معه فتاوى العلماء ولا تأنيب الواعظين والفقهاء. لذا لا نعتقد صحة من ينسب عوامل الفشل إلى فئة معيّنة، فيوجّه اللوم إلى الفكر السلفي أو إلى نخبة العلماء. كما أننا نختلف مع من ربط بين عوامل فشل النماذج التنموية العربية (ومنها التجربة المغربية) ومنظومة القيم العربية الإسلامية. أمّا في اليابان، فيرى أحد الباحثين أنه «لم تكن الديانات السائدة في اليابان، كالشنتوية والكنفوشية والبوذية عقبة أمام التفتح على الغرب والأخذ بأسباب قوته»[13].

وقد بذل محمد أعفيف جهده في بناء أطروحة أكاديمية تؤكد أن جذور التحديث الياباني تمتد إلى فترة حددها بما بين عامي 1568 و1868، وهذا ما ذهب إليه كثير من الباحثين الغربيين واليابانيين الذين اعتمدناهم في هذا الكتاب. وحاول في نهاية بحثه الخروج ببعض الاستنتاجات، منها قوله إن «المجتمع الياباني تميز عن بعض دول 'الشرق' بعدم خضوعه لديانة ذات تشريعات صارمة تقيد حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكًا معيّنًا. فجوهر ديانة الشنتو هو استرضاء قوى الطبيعة لتحقيق رفاهية الإنسان، بينما اتخذت البوذية في اليابان صيغة هدفها تهدئة أرواح الموتى ومنعها من العودة ثانية إلى دنيا الآلام. فهاتان الديانتان اللتان تعايشتا في المجتمع الياباني على نحو مثير، لم تشكّل أي واحدة منهما معايير تقاس بها أو تخضع لها القرارات السياسية وغيرها. فعندما أقدم زعماء الإصلاح على الأخذ بمبادئ الحضارة الغربية لم

---

(13) علي المحجوبي، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت في اليابان (تونس: دار سداس، 1999)، ص 198.

يجدوا أمامهم كهانًا أو رجال دين يمكن أن يقفوا في وجههم أو يعترضوا على قراراتهم. بل على النقيض من ذلك، وجدوا في ديانة الشنتو عونًا على تحقيق دولة مركزية يرأسها إمبراطور يحظى بتقديس في تلك الديانة»[14].

أوردت النص- الحكم، على طوله النسبي، لأُبرز بعضًا من أفكاره وأناقشها؛ فأعفيف لم يكن يملك جرأة الإفصاح عن هذه الديانة الشرقية ذات التشريعات الصارمة التي تقيد - في نظره - حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكًا معيّنًا، ولم يسمِّ هؤلاء الكهان أو رجال الدِّين الذين يمكن أن يقفوا في وجه الإصلاح أو يعترضوا على قرارات المصلحين، في حين أنه يُثني على البوذية والشنتوية ودورهما في بناء دولة مركزية يقودها إمبراطور تمتع بالقداسة وحظي بالاحترام. ويضعنا، بقوله هذا، أمام معادلة غير متكافئة الجوانب: فهل شكلت الشنتوية والبوذية ديانتين منحتا حرية الفعل التحديثي في اليابان؟ وهل تكفي النصوص لصنع التغيير وتحقيق التنمية؟ كما أني أتساءل: أين كانت الشنتوية والبوذية بعد حملة بيري على سواحل اليابان؟ فقد عرف بلد النيهون، بعد عام 1853، موجة عنف شديدة تجاه مظاهر التحديث الغربي، واغتال الرونين كثيرًا من الأجانب والمتعاطفين معهم، وكاد فوكوزاوا يوكيتشي أن يفقد حياته بسبب موقفه الداعي إلى الانفتاح على الحضارة الغربية. وأود القول إن النصوص الشنتوية والكوجيكي وأساطير الخلق اليابانية لا تحمل في ذاتها عناصر القوة والنجاعة التحديثية، لكن النخب التي أعادت السلطة إلى الإمبراطور وأسست يابان الميجي، واطّلعت على حقيقة القوة الغربية وهندست مجمل عناصر الانقلاب الإداري والسياسي والمجتمعي، قامت، وبذكاء متميز، بتوظيف النصوص القديمة في بناء مسيرة تنموية جديدة؛ فالقضية لا ترتبط بطبيعة النصوص ونوعيتها بقدر ما تتعلق بذهنية تمتلك قدرًا من الوعي والنضج في تفعيل رموزها على أرض الواقع.

من جانب آخر، ما الدليل على أن نصوص «الشرق» تقيّد حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكًا معيّنًا؟ وإذا كان ذلك صحيحًا، فما سر شيوع المعرفة

---

(14) محمد أعفيف، «أصول التحديث في اليابان (1568-1868)،» (أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، 2004-2005)، ص 714-715.

والعلم العربيين وانخراط أمم الأرض في التكلم بلغة العالم آنئذٍ (اللغة العربية)، في زمن كانت دوامة العنف السياسي والعسكري متفشية في اليابان وأوروبا؟ ألم يكن ابن رشد وابن خلدون والفارابي وابن جني وسيبويه والخوارزمي وابن النفيس وابن البناء وغيرهم نتيجة طبيعية لهذه النصوص التي وجّهت الفكر الإنساني إلى التأمل والتفكر والإنتاج المعرفي؟

يجب أن يُميَّز في النصوص الإسلامية وحيًا لا يجهل عاقل قيمة مصدره؛ وحي مزج بيانُه في كثير من آياته، وبشكل مبهر، بين الماضي والحاضر والمستقبل، وترك مساحة واسعة لحرية الفعل الإنساني تحقيقًا لمبدأ «أنّى توجد مصلحة فثم شرع الله». ويمكن لذهنية الابتكار أن تجعل من الأساطير والمعتقدات عنصرًا إيجابيًا في صنع التنمية والتغيير الدنيوي، وبالقدر نفسه لن يكون في مقدور نصوص الوحي الإلَهي إحداث التغيير من دون نخبة مفكرة تتقن قراءة الواقع ومحيطه العام، وتدفع في اتجاه التنزيل الحكيم لمقاصده وغاياته الوجودية الكبرى؛ فذهنية التغيير والإصلاح تتفاعل مع مختلف المكوّنات المجتمعية، وتصنع من نفسها قاطرة تجر الدولة والمجتمع إلى إنجاز الأدوار التاريخية الكبرى.

في هذا السياق، نرى أن المجتمع الياباني حدّد مجموعة من الأهداف الإصلاحية، حاولنا توضيحها من خلال مبحث البعثات التعليمية اليابانية، وكذا مبحث الخبراء الأجانب في اليابان. ولم تكن الاستعانة بالخبراء والتقنيين الأجانب إلا مرحلة موقتة، قصيرة الأمد، جرى بعدها الاستعاضة عنهم بالكفاءات الوطنية. وما إن مرت فترة حتى تسنّى للشباب الياباني المتعلم امتلاك زمام العلم والتكنولوجيا، والاندماج الفعلي والحقيقي في المشروع التحديثي الداخلي، ومنافسة القوى الدولية الكبرى.

في المقابل، لم يندمج المتعلمون المغاربة في نسق الإصلاح بسبب علة المقدمات الفاسدة التي فصّلنا الحديث فيها، وظلوا تابعين لأفراد البعثات العسكرية الأوروبية المستقرة في المغرب، وعانوا التهميش والحرمان على الرغم من الخبرة التي راكمها بعضهم في الديار الأوروبية.

خلف هذه العوامل كلها، أدّت الرموز الثقافية اليابانية والتراكم التاريخي

دورها المؤثر في الدفع بعملية التحديث إلى آفاقها الواسعة في اليابان، ومنحت عملية الإصلاح العمقَ التاريخي الاستراتيجي ممثّلًا في نمط تشكُّل الدولة والعلاقة التي ربطت السلطة السياسية بأطياف المجتمع المختلفة.

حمل أفراد البعثات التعليمية اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي ثقافة الساموراي القديمة - البوشيدو، السيبوكو - وكانوا يؤمنون وهُم في مهمة التعليم في الخارج، بقيامهم بدور وطني مقدس، كما كانت تؤطرهم مجموعة من المقدمات السياسية والثقافية الإيجابية، كمفهوم الجماعية وعمق حس الانتماء ووجود قيادة متنورة واعية بإمكاناتها الذاتية وبحجم التحديات الخارجية. وركزوا على أهمية الرد العلمي على طاقة العنف الغربية المتزايدة، الأمر الذي منحهم رؤية واضحة إلى المسؤوليات التي تنتظرهم بعد الاستغناء عن الخبراء الأجانب في اليابان.

من هذه الزاوية برزت النتائج المتوقَّعة والمفارِقة للصورة التي أنتجتها البعثات المغربية في عهد الحسن الأول؛ فهذه الأخيرة فقدت المقدمات الدينامية الكفيلة بتوظيف الرموز الثقافية في عملية البناء الحضاري المنشود. ولا شك في أن المجتمع الذي يفقد إمكانية توظيف رموزه وذاكرته في عملية البناء الذاتي يكون بمنأى عن أي نجاح في سيرورة العمل التحديثي وعن أي إبداع في مجال التوفيق بين التقليدية والتحديث.

أدركت النخب الإصلاحية في المغرب، في الفترة الممتدة من معركة إيسلي حتى عام 1912، عمق الأزمة وخلل الإدارة وثقوب المجتمع المتناثرة، إلا أنها عالجت المسألة من زاوية التنبيه ولفت السلطان ورجال المخزن لعواقب الأمور وخطورة المآل، في زمن معقَّد ما عاد فيه للكلمة وقع وأثر بالغ في بلورة فعل تنموي فاعل ومؤسساتي. ولم تتوافر لدينا نخبة أو فئة أو طبقة واعية بانتمائها، تمتلك القدرة المادية والمعنوية على الدفع بالمجتمع والدولة إلى الانخراط في إنتاج الفاعلية التنموية. ولا شك في أن غياب مدرسة وطنية واضحة المعالم والمقاصد حجَّم من القدرة على صوغ مشروع المغالبة الحضارية، وأفقد موضوع البعثات التعليمية الاتجاه السليم نحو النجاعة المطلوبة.

في المقابل، لم يكتفِ رواد التحديث الياباني بنقد الممارسات الدبلوماسية والسياسية والإدارية، بل نجحوا في تفعيل تنبيهاتهم من خلال المنابر التعليمية التي استماتوا في تأسيسها والدفاع عنها حتى في فترات الانتقال السياسي الصعب من مرحلة التوكوجاوا إلى بداية عهد الميجي، وأضحت هذه المنابر قلاعًا للإصلاح والتغيير. وتُفصح سيرة فوكوزاوا عن قيمة مؤسسة كيو في تهيئة بعض الأُطر التي اندمجت بقوة في مسيرة التحديث الياباني، كما منح هذا المنبر التعليمي يوكيتشي القدرة على توجيه تنبيهاته إلى رجال العهد الجديد وتفعيلها.

عندما أدرك صايغو تاكاموري صعوبة المواجهة ضد أقطاب الحكم الجديد، انحاز إلى المدرسة بكونه وعاء يحافظ على قيم الساموراي المتوارثة. وفي إثر إحدى هزائمه أمام أصدقاء الأمس، أسس مجموعة من المدارس الخاصة في مقاطعة ساتسوم[15].

ساهمت المفاهيم الأسطورية اليابانية، وما ارتبط بها من قِيَم القيام بالواجب وتجنُّب الفوضى ومفاهيم الجماعية وحمولاتها الاقتصادية والفكرية، في منح عملية التحديث الياباني المعنى والغاية. وقد استُثمرت الكفاءات العلمية في إعادة بناء المجتمع الجديد والانخراط في مرحلة تنافس محموم مع القوى الغربية الإمبريالية.

في المقابل، لا أحسب أن الإسلام، بوصفه معتقدًا دينيًا وسلوكًا أخلاقيًا وعلميًا، قد استُثمِر في عملية البناء والإصلاح في القرن التاسع عشر، بل وظِّفت مفاهيمه لتبرير واقع مأزوم. وبدلًا من الارتقاء إلى مُثُله الأخلاقية العليا وتنزيل مقاصده الدنيوية والدينية الكبرى على مكامن العلل والأزمات، جُزِّئت نصوصه لتبرير الاستبداد السياسي والقهر المجتمعي؛ فنصوص الوحي القرآني والحديث النبوي دعت إلى تحقيق قيم الوحدة والتضامن، وإلى جهاد البناء والتعمير، وإلى اكتساب المعرفة والعلم وترسيخ مفاهيم التضحية ونكران الذات.

---

(15) Ivan Morris, *La Noblesse de l'échec: Héros tragiques de l'histoire du Japon*, traduit de l'anglais par Suzanne Nétillard, la suite des temps (Paris: Gallimard, 1980), p. 311.

كان المغاربة يقرأون هذه التوجيهات من دون تفاعل واعٍ وإيجابي مع مستلزماتها وتوابعها، بالنظر إلى طبيعة العقلية السائدة التي تراكمت منذ عصور التراجع، حين غاب إعمال النظر في النوازل المستجدة. واعتُبر التعليم مؤشرًا دالًا على هذا الانفصال بحيث استغرقت المواد الدراسية في الانكفاء على الماضي، وأغفلت توجيهات القرآن الداعية إلى امتلاك القوة العلمية والعسكرية والتقنية.

يجانب الصواب من يربط بين الإسلام وصورة الفشل التنموي الذي عرفه المغرب وغيره من البلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر، وكأنها حكّمت الإسلام في علاقاتها المجتمعية والسياسية. وبناءً عليه، يُنَظَّر لضرورة تجاوزه بشعارات العصرة والأصالة والتحديث...

من ناحية أخرى، إذا كان اليابانيون يتحدثون باعتزاز عن قيمهم الأسطورية القديمة ودورها في صوغ المشروع التحديثي منذ عهد الميجي، فحري بالإسلام أن يتبوأ مكانه في صوغ مشروعات التنمية في العالم الإسلامي، لما يمتلكه من قدرة على التعبئة وعلى صنع ذهنية متّقدة تمتلك القدرة على إنجاز الأدوار التاريخية الكبرى؛ فالإسلام يؤمن بمنطق التراكم، ويؤسس في كثير من نصوصه لمبدأ التدرج والمرحلية في الأحكام، ويعدّ رسالته متمّمة لمسيرة الحركات الإصلاحية التي جعلت - وتجعل - من العالم والكون والإنسان عناصر تكدح للانخراط الإيجابي في خدمة التنمية الحضارية.

تتطلب نظرية التغيير الفكرة الجامعة التي تحمل طابع القداسة الدينية أو الأسطورية أو العرقية. وهي تحتاج، من أجل تنزيلها على مستوى الممارسة واتخاذها دليلًا في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، إلى نخبة تحتضنها وتدافع عنها وتدفع بقية مفردات المجتمع إلى الانخراط في تفعيل مقتضياتها، كما تتخذ الإجراءات الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية لحمايتها.

يمكن لفكرة ما أن تكون أسطورية أو عرقية، لكن مهندسي التغيير يجعلون منها أساس الوحدة والقوة والفاعلية الدنيوية. وإذا كان القرآن يقرر

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[16]، فإن المسلم مخاطَب بنص أكثر شمولية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[17] فهو مطالَب بحرث الدنيا وغراس الآخرة، بتحقيق التنمية كما حققها المسلمون وبلغت أوجها في زمن التدوين العباسي، وبحفظ القيم التي تمنح الغاية والمعنى من الوجود والحياة.

تتكامل في بنية النص الإسلامي ثنائية الدِّين والدنيا، ولا يمكن الفصل بينهما. وقد ركّز التربويون اليابانيون، ومنهم أوبارا، على أهمية المقدس في تربية النشء الياباني، وهذا عين ما دعا إليه الأعرج السليماني في مذكرة إصلاح التعليم في كتابه **التهافت الأجنبي**.

نقرأ في تجربة التحديث الياباني ودور البعثات التعليمية في ذلك دليلًا على معرفة آليات صنع الحدث التاريخي، ونستنتج في مقابل ذلك عوامل فشل سيرورة الإصلاح في المغرب.

نهج اليابانيون أسلوبًا مُحكمًا في الانتقال من نظام فيودالي بتوابعه السياسية والمجتمعية والاقتصادية إلى نظام جديد ساهمت الأوليغارشيا المحيطة بالميجي في تقعيد أسسه، ووضْع مخارجه التنموية بتوظيف جميع عناصر القوة التي اختزنها المجتمع الياباني منذ بداية القرن السابع عشر، أي في أثناء حكم التوكوجاوا.

عندما اكتشف قادة العهد الجديد الفارق الكبير الذي كان يفصلهم عمّا حققه الغرب في مجالي القوة والمعرفة، قرروا، بأقصى سرعة ممكنة وبدقة متميزة، اختيار النماذج المثلى للتقليد والمحاكاة، واختاروا وسيلة البعثات التعليمية وجلب الخبراء الأجانب لتهيئة أطر التغيير الداخلي من أجل تنفيذ مقتضيات العهد الجديد. وخلف هذه المظاهر والوسائل كانت نخبة التغيير تهندس مقاسات هذا العهد وتراقب الأوضاع الدولية المحيطة به.

حقق المتعلمون اليابانيون في الخارج نتائج مبهرة تمثّلت في الانتصار على

(16) القرآن الكريم، «سورة الشورى،» الآية 20.

(17) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية 201.

الصين وكوريا وروسيا القيصرية، وامتدت طموحات القادة العسكريين - الذين تخرجوا في الجامعات الألمانية والإنكليزية والفرنسية والأميركية - إلى النيل من نفوذ الولايات المتحدة في منطقة المحيط الهادئ، وجرت عسكرة مجتمع النيبون إلى أقصى درجة ممكنة، وانتهت التجربة اليابانية بإلقاء الأميركيين القنبلتين الذرّيتين على هيروشيما وناغازاكي، الأمر الذي عنى انتهاء تجربة المرحلة التنموية الأولى (1868-1944)، بجميع ما أفرزته من سلبيات وإيجابيات، ودفعنا، في بداية الكتاب، إلى القول بنسبية الأنموذج التنموي الياباني.

على الرغم ممّا قلناه عن تجربة إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى الخارج وما اعتبرناه خللًا في المقدمات التي أحاطت بها وأطّرتها، فإننا أمام جهد مخزني غير مسبوق في الانفتاح على مظاهر التحديث الغربي، ولا شك في أن المخزن لم يكن يروم التسلية من عملية كلّفته عشرات المراسلات ومبالغ مالية هائلة.

نعتقد أن المخزن أسس بذلك لبداية تجربة تحديثية تميزت من تجربة محمد علي في نواح كثيرة، من أبرزها توجيه المتعلمين المغاربة إلى بلدان أوروبية عدة في الوقت الذي اقتصرت فيه البعثات المصرية على التكوين في فرنسا.

لقد أصاب المخزن باعتماد البعثات التعليمية وسيلة لتدارك خلل الإدارة المغربية وتزايد النفوذ الأجنبي. ويبدو من خلال الوثائق التي أوردناها الحرص الشديد الذي أبداه المولى الحسن الأول تجاه مسألة التحديث، ونقرأ في ثناياها الرغبة الجامحة التي أبدتها الإرادة السلطانية تجاه المتعلمين وتتبع مسيرة تعليمهم وآليات إدماجهم.

لكن هل تكفي الرغبة والحرص لإنجاح مشروع ضخم يتطلب مقدمات سليمة وملائمة؟ وهل ساعدت بنية الدولة المغربية وآليات اشتغالها في إنجاح المشروع التحديثي الذي انتهى إلى الفشل في نهاية القرن التاسع عشر؟

تلك أبرز القضايا التي حاولت معالجتها ضمن عناصر هذا الكتاب، وتوخيت إبراز عللها بمقارنتها بموضوع البعثات التعليمية اليابانية.

لم تفشل البعثات التعليمية المغربية لذاتها، بل بسبب المحيط السياسي والمجتمعي والتعليمي الذي أطّرها وتفاعل معها. واستفادت بالدرجة نفسها البعثات التعليمية اليابانية من مناخ التغيير العام والحاسم الذي دشنه عهد الميجي، ومن نضج تجربة التحديث، ومن زخم التراكم التاريخي الذي برزت معالمه في عهد التوكوجاوا.

استنتجتُ من هذا البحث بعض الآليات المتحكمة في صنع التاريخ وتطوراته الحاسمة، ومن أبرزها بعض الشروط الذاتية التي لا مناص من توافرها.

يبتدئ التغيير والإصلاح بكلمة أو فكرة، أو نِحلة بحسب التعبير الخلدوني، ويتطلب انتقالها من مجرد شعار ومبدأ إلى مكابدة وكدح في الواقع، مؤمنين بها ومناصرين لها ومدافعين عنها. وغالبًا ما تكون النخبة السياسية والمثقفة المالكة زمام القرار والمؤثرة فيه القاطرةَ الرئيسة التي تجر عربات المجتمع وتدفعها إلى الانخراط في مسلسل تنفيذ مقتضيات الواقع الجديد.

تبتدئ فاعلية النخبة بمرحلة وعي الذات وحقيقة الانتماء وإدراك خصوصيات المحيط القريب والبعيد. وعندما تمتلك النخبة حسّ الاستبصار والقدرة على القيادة والدفع بالمجتمع طوعًا وكرهًا للانخراط في مشروع التنمية المنشودة، تكون قد وضعت الإطار الملائم لإنجاز الأدوار التاريخية الكبرى والاستراتيجية. أليس ذلك ما قامت به الأوليغارشيا المحيطة بالإمبراطور الياباني؟ ألم تكن أسطورة آماتيراسو وقدسية الإمبراطور وفلسفة الجماعية العناصر المثلى التي قدمت المسوّغات الأيديولوجية لتحقيق الإجماع الوطني والالتفاف حول نظام الميجي؟ ألم يكن قادة المقاطعات الفيودالية المتمردة (ساتسوما وشوتشو وتوزا وهيزن) القاطرة التي هندست مجمل عناصر التغيير، وأطاحت النظام الشوغوني، وألغت نظام الامتيازات الطبقية، وأشرفت على إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا والولايات المتحدة؟

لقد أحدث اليابانيون تحولات عميقة في المؤسسات السياسية والإدارية والتعليمية القائمة، ووفروا بذلك أحد الشروط الأساسية لإنجاح موضوع البعثات التعليمية، ومن هذه الأخيرة خرج أغلب الأُطر السياسية والعسكرية والثقافية والتعليمية التي حددت سياستي اليابان الداخلية والخارجية.

هل كان على المغرب أن يعدّل مقدماته السياسية والإدارية والتعليمية؛ المقدمات المسؤولة عن انتكاس تجربة إيفاد المتعلمين المغاربة إلى الخارج؟

يبين اتجاه المقارنة باليابان أن تعديل هذه المقدمات سبب جوهري في ما عرفه بلد النيهون من تحولات عمّت مختلف الميادين؛ فاليابانيون حافظوا على أخلاق الساموراي وعلى ثوابت النظام الجماعي، ونقلوا ذلك من الحقل إلى المصنع، حيث ظلت الروابط الحميمة مستمرة في الرأسمالية اليابانية الحديثة؛ ذلك أن الارتباط بالماضي لا يمثل معَرَّة تقدح في أي مشروع تنموي، بل يمنح الماضي العمقَ الاستراتيجي لمنظومة القيم وأخلاق العمل والتنمية في الحاضر.

لكل مجتمع سلفيته، فكما أن للأوروبيين مرجعياتهم الفلسفية والدينية (بدءًا بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية والأخلاق البروتستانتية والاتجاهات الفلسفية من وجودية وماركسية) التي يعدّونها مرحلة مهمة في بناء التراكم، فإن لليابانيين هويتهم وأساطيرهم وأخلاقهم التي تحقق لهم التجانس وتمنحهم عناصر النجاح الدنيوي، فلِمَ يُنكَر على المسلمين التمسك بماضيهم وبدينهم وتأسيس التنمية بمقتضى التوجيهات والمقاصد الشرعية التي تنضبط بها حياتهم وسلوكهم؟

يتداخل الماضي والحاضر بشكل لافت في اليابان؛ ففي الجامعات والمتنزهات والشوارع، يكاد لا يخلو موقع من رمز من رموز الماضي (أبرز قادة التوكوجاو وقادة الميجي وأهم الخبراء الأجانب)، ويفتخر اليابانيون باعتبار ثورة الميجي تتويجًا لمرحلة طويلة من البناء ابتدأت منذ بداية عهد التوكوجاوا.

أثرت في هذا البحث موضوع التراكم التاريخي ودوره في مد التجربة التنموية اليابانية بعوامل الاستمرار والفاعلية والنضج، وقيام حكام التوكوجاوا بالمساهمة في توفير مناخ الأمن والاستقرار بعد فترات طويلة من دوامة العنف السياسي والعسكري الداخلي ودوراته. ولا شك في أن طبيعة الأنموذج الفيودالي لمجتمع النيهون ونمط العلاقات الداخلية الصارمة بين كلٍّ من الشوغون وفئات الدايميو والبوشي (الساموراي) من جهة، وباقي فئات المجتمع من جهة أخرى، واستلهام التعاليم الكونفوشيوسية التي حضّت

على امتثال التراتبية المجتمعية وعلى تقديس الطاعة الأبوية والسياسية ساهما في تحقيق قِيَم مضافة لليابان طوال عهد الإيدو، الأمر الذي جعل كثيرين من الدارسين يؤكدون ارتباط نهضة الميجي بالمقدمات التي منحها حكام الباكوفو ورعوها على امتداد أكثر من قرنين من الزمن.

إن التراكم التاريخي معطى موضوعي، لكنه صنع ذهنية تمنحه المعنى والغاية والتدفق والفاعلية التنموية أيضًا؛ فممّا لا شك فيه أن للمغرب لحظات قوة تاريخية وسياسية وعلمية منذ زمن المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين؛ وتجسد ذلك في الامتداد المجالي والقدرة على توظيف النِّحلة أو المذهب الديني في صنع التغيير والوقوف بندّية أمام قوى كانت تحسب ضمن القوى الصليبية (معركة الزلاقة أنموذجًا) أو المكوّنات الاستعمارية العالمية (البرتغال ومعركة وادي المخازن)؛ فالتربة المغربية أنجبت قممًا علمية وسياسية امتلكت حس الانتماء الثقافي والوطني، وتمكنت من دفع المجتمع إلى الانخراط في مسيرة التنمية والذود عنها ورعايتها وإشاعتها لدى الداني والقاصي من البلدان والمجتمعات. بيد أن أوضاع المغرب تأثرت بأزمنة الفوضى والاضطراب السياسي والكوارث الطبيعية والبشرية، وكان من نتائج تلك الأزمنة قطائع جليّة حدّت من تماسك أجهزة الدولة ومكوّنات المجتمع. ويمكن رصد ثنائية الفوضى والاستقرار في الدولة المغربية، بداية مع وفاة إدريس الثاني ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي والمنصور السعدي والمولى إسماعيل ومحمد بن عبد الله والمولى الحسن الأول، الأمر الذي يدل على غياب المؤسسات السياسية والإدارية القارّة التي تسمح بتعاقب التراكمات وتحقيق النضج أمام التجارب والممارسات التنموية.

لا شك في أن مقاربة موضوع البعثات التعليمية المغربية يصعب تناوله بمعزل عن هذه المقدمات التي فصّلنا فيها الحديث في هذا البحث. ونثير ضمن هذه الرؤية التساؤل الآتي: كيف نقرأ تاريخنا، ونحوّله من مجرد معارك وإنجازات محنّطة قديمة إلى لحظات قوة في الحاضر؟ كيف نجدد الصلة بإشراقات ذاكرتنا التاريخية ونستثمرها في إعادة بناء الذات؟ ما الوسيلة التي تستثمر لحظات القوة وتدفع بالمجتمع إلى الانخراط طوعًا في مسيرة التنمية المنشودة؟

تختلف المقاربات وتتعدد الأجوبة، لكن يمكنني القول إن سيرورة التغيير صناعة ذهنية، ترتبط بفئة مجتمعية (طبقة وسطى أو أنتلجنسيا أو زعامات قبلية...) تمتلك حس الانتماء إلى الوطن والقدرة على قراءة واعية ودينامية لمكوّنات الداخل والخارج، واختيار الوسائل الملائمة والذكية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى.

استنتجتُ من هذا البحث آليات نجاح أو فشل صناعة الحوادث التاريخية الكبرى؛ فقد تمكنت اليابان من الإمساك، بقوة وعلم، بأسباب التمدن والتحديث، واحتاجت لتحقيق ذلك إلى كفاءات علمية وسياسية وإدارية مثّلتها نخب مقاطعات ساتسوما وشوتشو وهيزن وتوزا. واحتاجت هذه القيادات إلى كفاءات علمية وتقنية تنفذ مقتضيات الإصلاح والتغيير، ولم يكن موضوع البعثات التعليمية اليابانية إلى الخارج وجلب الخبراء الأجانب إلى الجامعات والمؤسسات اليابانية سوى وسيلة مدّت الأوليغارشيا الحاكمة بوقود التحديث والمغالبة الحضارية. ومثّل التغيير السياسي والإداري مدخلًا ملائمًا لإنجاز إصلاحات الميجي الاقتصادية والمجتمعية، في حين حافظت المؤسسات السياسية والإدارية في المغرب على بنائها التقليدي الذي عُدَّ مسؤولًا عن تناسل الأزمات الداخلية وازدياد التدخلات الأجنبية حدّة. وعلى الرغم من الجهد الذي بذله الحسن الأول لإصلاح الاختلالات، خصوصًا في موضوع إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، استمرت الأزمة ودامت وتناسلت، وجاء التحديث معكوسًا ومشوَّهًا، وتجلى أثر ذلك في مذكرات ومراسلات المتعلمين المغاربة الذين أوردنا بعض أقوالهم وشهاداتهم في هذا البحث، ونقرأ في ثناياها سمة القلق النفسي (محمد بن الكعاب الشركي)، والنقد السياسي والثقافي (محمد النجار والطاهر الأوديي)، وعدم الانضباط الأخلاقي (بعثة مونبلييه)، والارتماء في أحضان الحمايات القنصلية... إلخ. وهذا اضطراب يدل على غياب قيمة التناغم بين الإصلاح ومقدماته السياسية والإدارية والثقافية والمجتمعية.

ومع ذلك، يُعَدّ إرسال البعثات التعليمية المغربية، في عهد الحسن الأول، خطوة تربوية وتعليمية غير مسبوقة في العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فهي دلت على جرأة في الانفتاح على دائرة التعليم الغربي، على الرغم من عدم نضج المقدمات السياسية والإدارية والمجتمعية والذهنية.

تلقّى المتعلمون المغاربة تكوينهم في دول غربية عدة (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا وإسبانيا والولايات المتحدة الأميركية)، في وقت اقتصرت فيه البعثات المصرية، في عهد محمد علي، على فرنسا. وعلى الرغم من الصعوبات المالية وإكراهات الضغط الخارجي، نجح المخزن الحسني في إرسال مئات المغاربة إلى الخارج، وحقق بعض المبتعثين نتائج متميزة علمًا ولغة وإنجازًا، تضاهي أحيانًا ما حققه المتعلمون اليابانيون في أوروبا وأميركا. وتظل صور الزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب والطاهر الأودي ومحمد النجار والحسين الزعري وأحمد العيدوني شاهدة على إمكانية نجاحنا في معركة التحدي الحضاري إن توافرت لأفراد مجتمعنا، في المغرب، كما في العالم العربي والإسلامي، المقدمات السليمة ذات النجاعة والفاعلية التنموية.

اختار الملك الراحل الحسن الثاني لولي عهده آنئذٍ في عام 1987 اليابان كأبرز وجهة لأول زيارة رسمية له إلى الخارج، ودامت إقامة ولي العهد فيها من 7 آذار/ مارس إلى 21 آذار/ مارس 1987 [18]. فالملك الحسن الثاني كان يتمتّع بسعة الاطّلاع وبثقافة تربوية وعلمية فريدة بين صفوف النخب الحاكمة في العالم العربي. فما هي الدلالات التي يمكن قراءتها في هذا الاختيار؟ هل اطّلع الحسن الثاني ومن بعده ولي عهده (الملك محمد السادس اليوم)، على تجربة التحديث الياباني؟ هل أراد الملك الراحل أن يكون ولي عهده على شاكلة الإمبراطور الميجي الذي التفّت حوله نخب التغيير والإصلاح والوطنية وساهمت معه في بناء يابان جديدة تمتلك العلوم والتكنولوجيا؟ وإذا كان الملك محمد السادس يمتلك رؤية واضحة للإصلاح، هل يسعفه المحيط ونخب الحكم والسياسة في تنفيذ مشروع التنمية البشرية وغيره من الورش الكبرى المفتوحة؟

تشبه حركات الحسن الأول نحو مناطق المغرب المختلفة ما يقوم به الملك محمد السادس اليوم من معاينات ميدانية مباشرة لورش التنمية المفتوحة والممتدة إلى مختلف جهات البلاد التي هُمّشت منذ عقود طويلة. فهل يحقق العهد الجديد الاتصال بما انقطع من إصلاحات السلطان الحسن الأول؟ لكن،

(18) Mohamed Bakkar, «L'Exemple Japonais,» *Le Nouveau siècle*, no. 13 (Mars 1995), p. 7.

ألم نقل إن إصلاحات النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقدت المقدمات الكفيلة بتحقيق التنمية المنشودة؟ أليس من المطلوب الآن الاستفادة من دروس التاريخ وتكييف المقدمات لإنجاح مشروع التنمية المتوقعة؟

بدأنا موضوعنا بإشكالية حاولنا تقديم مشروع إجابة بخصوصها، وأنهيناه بفتح إشكالية جديدة نعتقد أهميتها في مقاربة أسئلة الحاضر وتحدياته.

المراجع

1 - العربية

كتب

إبراهيم، حافظ. **ديوان حافظ إبراهيم**. 2 ج في 1 مج. بيروت: دار العودة، 1996.

ج 2: السياسات - الشكوى - المراثي.

ابن أبي زرع، علي بن عبد الله. **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. راجعه عبد الوهاب بنمنصور. ط 2. الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

ابن أبي زرع، علي بن عبد الله. **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**. الرباط: دار المنصور، 1972.

ابن الأعرج السليماني، محمد بن أحمد. **اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي حول المغرب**. الرباط: مطبعة الأمنية، 1971.

ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله. **الإحاطة في أخبار غرناطة**. حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973-1977.

ابن القطان، علي بن محمد. **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**. تحقيق محمود علي مكي. تطوان، المغرب: [د. ن.: د. ت.].

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. شرحه وكتب هوامشه طلال حرب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد. رحلة ابن جبير. بيروت: دار صادر، [د. ت.].

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون. دراسة وتحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي. 3 مج. ط 3. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، [د. ت.].

ابن زيدان، عبد الرحمن. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. 5 مج. ط 2. درب الفاسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1990.

______. الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة. الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1937. (مطبوعات القصر الملكي؛ 18)

______. العز والصولة في معالم نظم الدولة. 2 ج. الرباط: المطبعة الملكية، 1961-1962. (مطبوعات القصر الملكي؛ 27)

______. العلائق السياسية للدولة العلوية. تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي. الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

ابن سماك، محمد بن أبي العلاء محمد بن محمد. كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979.

ابن عذاري، أحمد بن محمد. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون]. بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة، 1985.

أبو جابر، فايز صالح. التاريخ السياسي الحديث و العلاقات الدولية المعاصرة. عمان: دار البشير، 1989.

أسكان، الحسين. **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، 1-9 هـ 7-15 م**. الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2004. (سلسلة الدراسات والأطروحات؛ 2)

أشقرا، عثمان. **العطب المغربي: بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2003.

الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: أعمال الأيام الدراسية المنعقدة بالرباط من 6 إلى 9 رجب 1404/ موافق 20-23 أبريل 1983. الرباط: جامعة محمد الخامس، 1986. (ندوات ومحاضرات؛ 7)

أفا، عمر [وآخرون]. **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001. (بحوث ودراسات؛ 27)

إينازو، نيتوبي. **البوشيدو: المكوّنات التقليدية للثقافة اليابانية**. ترجمة نصر حامد أبو زيد. الكويت: دار سعاد الصباح، 1993.

باسكال، ريتشارد ت. وأنتوني ج. آثوس. **فن الإدارة اليابانية**. ترجمة حسن محمد ياسين؛ مراجعة حامد سوادي وخالد حسن زروق. الرياض: معهد الإدارة العامة، 1986.

برادة، ثريا. **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997.

بروديل، فرنان. **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر**. ترجمة مصطفى ماهر. 3 ج. القاهرة: دار الفكر، 1993.

بلقزيز، عبد الإله. **الخطاب الإصلاحي في المغرب: التكوين والمصادر، 1844-1918**. بيروت: المنتخب العربي، 1997. (فكر عربي معاصر)

بن الصغير، خالد. **بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب، 1886-1904**. الرباط: دار أبي رقراق، 2003.

______. **المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن، 1846-1886**. الدار البيضاء: ولادة، 1992.

______. **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886**. ط 2. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997.

بنعبد الله، عبد العزيز. **الجيش المغربي عبر العصور**. الرباط: المطبعة العالمية، 1986. (سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية)

بورقية، رحمة. **الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**. بيروت: دار الطليعة، 1991.

بوشعراء، مصطفى. **الاستيطان والحماية بالمغرب، 1280-1311، 1863-1894: مدن الشمال، باقي المدن، الهجرة من المغرب وإليه**. الرباط: المطبعة الملكية، 1984.

______. ______. تقديم عبد الوهاب بن منصور. 4 ج. الدار البيضاء: مطبعة المعارف، 1988-1989.

______. **علاقة المخزن بأحواز سلا: قبيلة بني احسن، 1860-1912**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1996. (بحوث ودراسات؛ 19)

التازي، عبد الهادي. **جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس:موسوعة لتاريخها المعماري والفكري**. 3 ج. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972-1973.

التوفيق، أحمد. **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان، 1850-1912**. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1980. (أطروحات ورسائل؛ 1)

الجابري، محمد عابد. **المسألة الثقافية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994. (سلسلة الثقافة القومية؛ 25)

______. المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية. الدار البيضاء: مؤسسة بنشرة؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1988.

الجرجاوي، علي أحمد. الرحلة اليابانية. القاهرة: دار ميريت، 1999.

جوينو، جان ماري. نهاية الديمقراطية. مصراته: الدار الجماهيرية، 1995.

حاتم، محمد عبد القادر. أسرار تقدم اليابان. القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1990.

حامد، رؤوف عباس. التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي. طبعة مزيدة ومنقحة. القاهرة: مركز ميريت للنشر والمعلومات، 2001.

الحجوي، محمد بن حسن. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. فاس، المغرب: المطبعة الجديدة، [د. ت].

______. النظام في الإسلام. الرباط: المطبعة الوطنية، 1928.

حجي، محمد. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. 2 ج. الرباط: دار المغرب، 1977-1978. (التاريخ؛ 2)

حركات، إبراهيم. التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية. الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1985.

______. السياسة والمجتمع في العصر السعدي. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1987.

الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر: أعمال الندوة المنعقدة بوجدة أيام 9 و10 و11 دجنبر 1993. وجدة، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995. (ندوات ومناظرات؛ 3)

حميدة، عبد الرحمن. أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم. ط 3. دمشق: دار الفكر، 1995.

الحيمر، عبد السلام. **المغرب: الإسلام والحداثة**. الرباط: منشورات الزمن، 2005. (شرفات؛ 15)

______. **النخبة المغربية وإشكالية التحديث**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001.

خفايا المعجزة اليابانية. ترجمة عبد الله مكي القروص. بيروت: الدار العربية للعلوم، 1999.

الخلوفي، محمد الصغير. **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي أنموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين**. الدار البيضاء: مطبعة المعارف، 1994.

خورشيد، فاروق. **أديب الأسطورة عند العرب: جذور التفكير وأصالة الإبداع**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2002. (عالم الفكر؛ 284)

داود، محمد. **تاريخ تطوان**. تطوان: [د. ن.]، 1960.

ديورانت، ويل. **قصة الحضارة**. ترجمة زكي نجيب محمود؛ تقديم محي الدين صابر. 42 ج في 24 مج. تونس: المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة والعلوم؛ بيروت: دار الجيل للطبع والنشر، 1988.

ذاكر، عبد النبي. **الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب**. أكادير: منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية، 1997.

رايشاور، أدوين. **اليابانيون**. ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989. (عالم المعرفة؛ 136)

رشاد، عبد الغفار. **التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984.

الرهوني، أحمد بن محمد. **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**. تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي. ط 2. تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2001. (سلسلة تراث؛ 6)

روجرز، فيليب جورج. **تاريخ العلاقات الإنجليزية - المغربية حتى عام 1900.** ترجمة ودراسة وتعليق يونان لبيب رزق. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981.

الروندة، الصديق. **المهدي المنبهي: الوزير الشاهد على بداية الأزمة المغربية، من 1900 إلى 1903.** الرباط: الرباط نيت، 2006.

الزياني، أبو القاسم بن أحمد بن علي. **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله.** دراسة وتحقيق رشيد الزاوية. الريصاني، المغرب: مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1992.

______. **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا.** حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي. ط 2. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1991.

السبتي، محمد بن القاسم بن محمد. **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار.** تحقيق عبد الوهاب بن منصور. ط 2. الرباط: المطبعة الملكية، 1983.

سبيلا، محمد. **المغرب في مواجهة الحداثة.** الرباط: جريدة الزمن، 1999. (الكتاب الجيب؛ 4)

سفر، محمود محمد. **دراسة في البناء الحضاري: محنة المسلم مع حضارة عصره.** تقديم عمر عبيد حسنة. الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1989. (كتاب الأمة؛ 21)

سميث، باتريك. **اليابان: رؤية جديدة.** الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001. (عالم المعرفة؛ 268)

سيمو، بهيجة. **الإصلاحات العسكرية بالمغرب، 1844-1912.** الرباط: المطبعة الملكية، 2000. (سلسلة رسائل وأطروحات؛ 1)

______. العلاقات المغربية الإيطالية، 1869-1912. الدار البيضاء: اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003. (سلسلة رسائل وأطروحات؛ 2)

الشابي، مصطفى. النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر. ترجمة أحمد التوفيق. الرباط: جامعة محمد الخامس، 1995.

الشاوي، عبد القادر. السلفية والوطنية. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، [د. ت.].

الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله بن إدريس. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. 2 مج. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، [د. ت.].

شقير، محمد. التنظيمات السياسية بالمغرب. الدار البيضاء: منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، 1933.

الصغير، عبد المجيد. الفرج بعد الشدة حول إشكالية العلاقة بين العلم والأزمة في مغرب القرن الثامن للهجرة. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003.

الصفار، محمد بن عبد الله بن عبد الكريم. صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846. دراسة وتحقيق سوزان ميلار؛ عرَّب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995.

الصقلي، العربي (مشرف). مذكرات من التراث المغربي. 8 ج. الرباط: نور أركنزاسيون، 1984-1986.

ج 4: من العظمة إلى المؤامرات والدسائس، 1076-1324 هـ موافق 1666-1906.

ضاهر، مسعود. النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999. (عالم المعرفة؛ 252)

______. النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيًا. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002.

______. **اليابان بعيون عربية، 1904-2004**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.

الضعيف، محمد بن عبد السلام بن أحمد. **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**. تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري. الرباط: دار المأثورات، 1986.

طربيه، جرجي أنطونيوس. **الوجدية وأثرها في الأندلس: بحث في الأساطير والخرافات والغيبيات الأندلسية**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983.

طنجة في التاريخ المعاصر، 1800-1956: أعمال الملتقى العلمي الأول لمدينة طنجة، المنعقد من 18 إلى 20 أكتوبر 1990 بطنجة. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991.

العبود، عبد الأمير رحيمة. **اليابان: تجربة التطور، الواقع الراهن، العلاقات الاقتصادية مع الخليج العربي**. البصرة: جامعة البصرة، 1985. (سلسلة الخليج العربي والعالم؛ 1)

العروي، عبد الله. **أوراق: سيرة إدريس الذهنية**. ط 4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.

______. **مفهوم التاريخ**. 2 ج. ط 3. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997.

______ [وآخرون]. **النهضة والتراكم: دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية**. تقديم سعيد بنسعيد العلوي. الدار البيضاء: دار توبقال، 1986. (المعرفة التاريخية؛ 25)

العلام، عز الدين. **الآداب السلطانية: دراسة في بنية و ثوابت الخطاب السياسي**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006. (عالم المعرفة؛ 324)

العلوي، سعيد بنسعيد. **الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**. فاليتا: مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992 . (الفكر المعاصر؛ 3)

______. **أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1995.

العماري، أحمد. **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالى 1850 إلى 1902: مساهمة في محاولة الكشف عن جذور المشروع و أبعاده وعلاقته بمشروع السودان الغربي**. فاس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، 1988. (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ 2)

______. **نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار: المغرب أنموذجًا**. فيرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997. (سلسلة الرسائل الجامعية: قضايا الفكر الإسلامي؛ 20)

عياش، جرمان. **جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860**. الرباط: مطبعة الدروس العليا المغربية، [د. ت.].

______. **دراسات في تاريخ المغرب**. الدار البيضاء: الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986.

عيساوي، شارل. **تأملات في التاريخ العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

الغساني، محمد بن عبد الوهاب. **رحلة الوزير في افتكاك الأسير، 1690-1691**. تحرير نوري الجراح. أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع؛ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.

الفاسي، علال. **الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي**. ط 4. الرباط: مطبعة الرسالة، 1980.

الفاسي، محمد الطاهر بن عبد الرحمن. **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة 1276 هـ/ 1860 م**. حققه وعلق عليه محمد الفاسي. الرباط: جامعة محمد الخامس، 1967. (الرحلات؛ 3)

فشر، هربرت أ. ل. تاريخ أوربا في العصر الحديث، 1789-1950. تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. ط 7. القاهرة: دار المعارف، 1976. (جمعية التاريخ الحديث)

الفلاح العلوي، محمد. جامع القرويين والفكر السلفي، 1873-1914. الدار البيضاء : مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، 1994.

فوكو، شارل دو. التعرف على المغرب، 1883-1884م. ترجمة المختار بلعربي. 2 مج. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1999.

مج 1: الرحلة.

القبلي، محمد. مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط. الدار البيضاء: دار توبقال، 1987. (المعرفة التاريخية؛ 58)

قنان، جمال. نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، 1500-1830. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987.

الكتاني، عبد الرحمن بن محمد الباقر. من أعلام المغرب في القرن الرابع عشر ونبذة عن حركة العلماء الإسلامية بعد الاستقلال. جمع نور الهدى الكتاني؛ تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني؛ تقديم محمد المنوني. عمان: دار البيارق، 2001.

الكردودي، أحمد بن محمد بن عبد القادر. التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية. تقديم عبد الوهاب بنمنصور. الرباط: المطبعة الملكية، 1963. (مطبوعات القصر الملكي؛ 29)

كنون، عبد الله. النبوغ المغربي في الأدب العربي. ط 2. الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة، [د. ت.].

كورتل، آرثر. قاموس أساطير العالم. ترجمة سهى الطريحي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993.

لوطورنو، روجي. **فاس قبل الحماية.** ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. 2 ج. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.

لوقا، أنور. **رحالة وكتّاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر.** ترجمة كاميليا صبحي وأمل الصبان؛ راجع هذا الكتاب ودققه وأشرف على طباعته عبد العزيز محمد جمعة. الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري، 2006.

ليفي-ستروس، كلود. **الأسطورة والمعنى.** ترجمة صبحي حديدي. الدار البيضاء: منشورات عيون، 1985.

متشيو، ناجاي وميجول أورشيا. **الثورة الإصلاحية في اليابان: ميجي أيشن.** ترجمة عادل عوض. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992. (الألف كتاب الثاني؛ 108)

المحجوبي، علي. **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان.** تونس: دار سراس، 1999.

محمد علي باشا. **الرحلة اليابانية، 1909.** حررها وقدمها علي أحمد كنعان. أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2004. (ارتياد الآفاق)

المشرفي، محمد بن مصطفى. **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية.** دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة؛ تقديم أحمد التوفيق. 2 مج. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2005.

المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر: الوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة: أعمال الندوة التي عقدت أيام 13، 14، 15 مارس 1986. وجدة، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988. (ندوات ومناظرات؛ 2)

المغرب وألمانيا: دراسات في العلاقات البشرية والثقافية والاقتصادية: أعمال الملتقى الجامعي الأول المنعقد بالرباط أيام 21، 22، 23 نوفمبر 1988. الرباط: النشر العربي الإفريقي، 1991. (ندوات ومناظرات؛ 17)

المقري، أبو العباس احمد بن محمد. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.** حققه إحسان عباس. 8 مج. بيروت: دار صادر، 1968.

المنوني، محمد. **حضارة الموحدين.** الدار البيضاء: دار توبقال، 1989. (المعرفة التاريخية؛ 95)

ـــــــــ. **مظاهر يقظة المغرب الحديث.** 2 ج. ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

ـــــــــ. **ورقات عن حضارة المرينيين.** الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996. (بحوث ودراسات؛ 20)

المودن، عبد الرحمن. **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر.** الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995. (رسائل وأطروحات؛ 25)

موسوعة أعلام المغرب، من 1 إلى 1400 هـ. تنسيق وتحقيق محمد حجي. 10 ج. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996.

ج 8: 1301-1360.

ميتشيو، ناغاي وميغال أوروتشيا (محرران). **نهضة اليابان: دراسات وأبحاث في التجربة الإنمائية اليابانية.** ترجمة نديم عبده وفواز خوري؛ مراجعة هاني تابري وجورج عبد المسيح؛ أشرف على الطبعة العربية أنطوان بطرس؛ قدم لها هشام شرابي. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1993.

الناجي، محمد. **التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب، ق. 16-19.** ترجمة عبد الرحيم زحل. الرباط: جذور للنشر، 2004.

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.** تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري. 9 ج. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954-1956.

نشاط، مصطفى. **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني.** وجدة، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003. (بحوث ودراسات؛ 23)

نظرية الثقافة. ترجمة علي سيد الصاوي؛ مراجعة الفاروق زكي يوسف. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997. (عالم المعرفة؛ 223)

هراج التوزاني، نعيمة. **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، 1290ـ1311، 1873ـ1894: مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب.** الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1979. (أطروحات ورسائل؛ 2)

الهروي، الهادي. **القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث، 1844-1934.** الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2005.

هوزلي، أحمد. **التنمية بين الأنموذجين الياباني والروسي السوفياتي.** مراكش: مطبعة تنمل، 1999.

الوزاني، محمد حسن. **حرب القلم.** بيروت: دار النهضة العربية، 1981.

وناس، المنصف. **الدولة والمسألة الثقافية في المملكة المغربية.** قرطاج: بيت الحكمة، 1991.

ياغي، إسماعيل أحمد. **تاريخ شرق آسيا الحديث.** الرياض: مكتبة العكيبان، 1994.

يوكيتشي، فوكوزاوا. **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي.** ترجمة كامل يوسف حسين. أبوظبي : المجمع الثقافي، 2001.

دوريات

أبو زيد، أحمد. «الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي.» **عالم الفكر:** السنة 16، العدد 3، 1985.

أشقرا، عثمان. «التحديث بين اليابان والمغرب.» **المناهل**: العددان 71-72، 2004.

أكنينح، العربي. «تكوين الطبقة التاجرة في فاس في القرن التاسع عشر وأسباب ازدهارها.» **أمل**: السنة 2، العدد 6، 1995.

البحث العلمي: العدد 25، 1976.

برتل، أولمان. «ما حاجة الإمبراطور إلى الباكوزا؟.» ترجمة سعد زهران. **الثقافة العالمية**: العدد 111، 2002.

البكراوي، محمد. «الطلبة المغاربة بالجامعة الفرنسية خلال الفترة ما بين الحربين 1927-1939.» **أمل**: العددان 28-29، 2003.

بلمليح، سمير. «معضلة الإصلاح والمجتمع عبر تاريخ المغرب الحديث.» **وجهة نظر**: العدد 23، خريف 2004.

بنعبد الله، عبد العزيز. «الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب.» **المناهل**: العدد 11، آذار/ مارس 1987.

الجابري، محمد عابد. «اليابان في الفكر العربي المعاصر،» **الموقف**: العدد 1، تموز/ يوليو - آب/ أغسطس 1992.

الحيمر، عبد السلام. «صورة الحداثة الأوربية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية أنموذجًا).» **مكناسة**: العدد 6، كانون الثاني/ يناير 1992.

______. «المغرب والحداثة.» **أبحاث**: العدد 26، 1991.

دار النيابة: السنة 5، العدد 17، 1986.

ريفي، دانييل. «خطاب الفوضى المغربية وتنوعاته في بداية القرن العشرين.» ترجمة محمد المؤيد. **أمل**: السنة 2، العدد 5، 1994.

زمامة، عبد القادر. «أبو الحسن الغافقي الشاري.» **المناهل**: العدد 24، تموز/ يوليو 1982.

السايح، محمد. «السلطان المولى إسماعيل بن محمد الشريف.» **دعوة الحق**: السنة 3، العدد 2، تشرين الثاني/ نوفمبر 1957.

سكيرج، عبد الغني. «مذكرة الزبير سكيرج (1850-1932): وثيقة جديدة حول البعثات الطلابية إلى أوربا في عهد المولى الحسن.» **دار النيابة**: السنة 2، العدد 8، 1985.

الشاوي، عبد القادر. «التخلف والنهضة أو المغرب والغرب.» **بصمات**: العدد 5، 1990.

الشدادي، عبد الخالق. «سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين.» **المنعطف**: العددان 6-7، 1993.

الصديقي، عبد الرزاق. «أولاد الجامعي بين اتساع السطوة وانهيار الحظوة.» **البحث التاريخي: مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي**: العدد 2، 2004.

ضاهر، مسعود. «العرب واليابان: أضواء على تجربة التحديث اليابانية.» **الوحدة**: السنة 8، العدد 85، 1991.

العربي، محمد. «"الحفاظ" أنموذج النخبة السياسية في العصر الموحدي.» **أمل**: السنة 2، العدد 4، 1993.

العروي، عبد الله. «العلاقة بين الزوايا والمخزن في مغرب القرن التاسع عشر.» ترجمة نوال متزكي. **أمل**: السنة 8، العددان 22-23، 2001.

العلوي، سعيد بنسعيد. «صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية.» **باحثات**: العدد 5، 1998-1999.

العمراني، أحمد. «السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقيها.» **دعوة الحق**: السنة 35، العدد 307، كانون الأول/ ديسمبر 1994.

الفلاح العلوي، محمد. «العلماء والإصلاح الديني: سيرة محمد بن المدني كنون.» **أمل**: السنة 2، العدد 4، 1993.

______. «القرويين في مطلع القرن العشرين، بين التجديد والتقليد.» **دعوة الحق**: العدد 364، شباط/ فبراير 2002.

______. «بعض جوانب مكوّنات ثقافة علماء المغرب في القرن 19 م.» **أمل**: السنة 1، العدد 2، 1992.

قنديل، أحمد بهي الدين. «الثقافة السياسية اليابانية.» **أوراق آسيوية**: العدد 30، شباط/ فبراير 2000.

كورودا، ياسومازا. «التحديث والاغتراب في اليابان.» **المستقبل العربي**: السنة 7، العدد 69، تشرين الثاني/ نوفمبر 1984.

مجموعة الوثائق: العدد 1، 1976؛ العدد 2، 1976؛ العدد 3، 1976؛ العدد 4، 1977؛ العدد 6، 1987؛ العدد 7، 1989؛ العدد 10، 2000، والعدد 12، 2008.

محيي الدين، عبد الحميد. «رواد المغرب في العلوم البحتة.» **دعوة الحق**: العدد 286، أيلول/ سبتمبر-تشرين الثاني/ نوفمبر 1991.

معنينو، أحمد. «"ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 هـ": محمد بن الكعاب التركي.» **البحث العلمي**: العدد 25، 1976.

______. «القائد محمد علي بن طوجة الرباطي في عهد الحسن الأول وعضو البعثة العلمية الثانية لإيطاليا عام 1887.» **دعوة الحق**: العدد 275، 1989.

______ (محرر). «مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة.» **دعوة الحق**: السنة 12، العدد 1، تشرين الثاني/ نوفمبر 1968.

المنصور، محمد. «النخبة المغربية والحضارة الأوربية في القرن 19.» **أمل**: السنة 2، العدد 4، 1993.

رسائل وأطروحات

أعفيف، محمد. «أصول التحديث في اليابان (1568-1868).» (أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، 2004-2005).

بنواحي، عبد الرزاق. «دراسة وتحقيق «زبدة التاريخ وزهرة المشاريخ» لمحمد بن الأعرج السليماني، 1285 هـ - 1344هـ 1868م - 1925م.» (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1997).

بيطاري، نور الدين. «تحقيق ودراسة لقضايا تواصلية «أبو العلاء إدريس، مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، أو ديوان العبر في أخبار أهل الثالث عشر».» (أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2006).

جوي، محمد. «السفارات الأجنبية إلى فاس ومراكش في عهد مولاي الحسن، 1876-1894.» إشراف محمد الأمين البزاز (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1998).

الحيمر، جمال. «البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول.» (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي محمد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، 1987-1988).

عباسي، محمد. «دراسة وتحقيق «داء العطب القديم» لعبد الحفيظ بن الحسن العلوي.» (أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2007-2008).

وثيقة

جلبي، خالص. «ماكس فيبر وروح الرأسمالية.» على الموقع الإلكتروني:
<http://www.arraee.com/modules.php?name=News&file=article&sid=10550>.

2 - الأجنبية

Books

Abbad, Fabrice. *Histoire du Japon: 1868-1945*. Paris: A. Colin, 1992. (Collection Cursus)

Académie des sciences d'outre-mer (ASOM). *Présences françaises outre-mer: XVIe-XXIe siècles*. Sous la direction de Philippe Bonnichon, Pierre Gény et Jean Nemo. Paris: ASOM; Karthala, 2012. 2 Vols.

Akagi, Roy Hidemichi. *Japan's Foreign Relations, 1542-1936: A Short History*. Tokyo: Hokuseido Press, 1936.

Akamatsu, Paul. *Meiji-1868: Révolution et contre-révolution au Japon*. Paris: Calmann-Lévy, 1968.

Alcock, Rutherford. *The Capital of the Tycoon: A Narrative of a Three Years' Residence in Japan*. New York: Harper and brothers, 1863. 2 Vols.

Allen, Beverly and Mary Russo (eds.). *Revisioning Italy: National Identity and Global Culture*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1997.

Archives marocaines. Paris: E. Leroux, 1904-1936. 33 Vols.

Arnaud, Louis. *Au temps des Mehallas, ou le Maroc de 1860 à 1912*. Casablanca: Éditions Atlantides, 1932.

Atkins, E. Taylor. *Primitive Selves: Koreana in the Japanese Colonial Gaze, 1910-1945*. Berkeley: University of California Press, 2010. (Colonialisms; 5)

Auslin, Michael R. *Negotiating with Imperialism: The Unequal Treaties and the Culture of Japanese Diplomacy*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004.

Baudoz, Augustin et I. Osiris (dirs.). *Histoire de la guerre de l'Espagne avec le Maroc*. Paris: Lebigre-Duquesne frères, 1860.

Beasley, Wiliam G. *The Collected Writings of W. G. Beasley*. [Tokyo]: Routledge, 2001.

_________. *The Meiji Restoration*. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1972.

_________. *The Rise of Modern Japan*. New York: St. Martin's Press, 1990.

Beck, Clark L. and Ardath W. Burks (eds.). *Aspects of Meiji Modernization: The Japan Helpers and the Helped.* New Brunswick, NJ: Archibald Stevens Alexander Library, Rutgers, the State University of New Jersey, 1983.

Benchekroun, Mohamed B. A. *La Vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides, XIIIe, XIVe, XVe, XVIe siècles.* Fès: Impr. Mohammed V culturelle et universitaire, 1974.

Berque, Augustin (dir.). *Le Japon et son double: Logiques d'un auto-portrait.* préf. Christian Sautter. Paris; New York; Barcelone: Masson, 1987. (Recherches en géographie)

Bishop, Kevin R. *Japan's Early Missions to the West: A Comparison of the 1860 Man'en and 1872 Iwakura Embassies.* Overton, Nevada: [s. n.], 2001.

Bloch, Marc. *La Société féodale.* Paris: Albin Michel, 1994.

Boudon, Raymond et Pierre Chaunu (dirs.). *Valeurs et modernité: Autour de Alain Peyrefitte, colloque international, 15-16 septembre 1995, à l'Institut.* Paris: O. Jacob, 1996.

Braudel, Fernand. *La Dynamique du capitalism.* Paris: Flammarion, 1988. (Champs; 192)

Bricnet, Frédéric et Jean-Pierre Cendron. *Japon: Sabre, paravent, miroir.* Paris: Éditions ouvrières, 1983. (Collection alternatives économiques)

Brignon, Jean [et al]. *Histoire du Maroc.* Paris: Hatier; Casablanca: Librairie nationale, 1967.

Brooks, Louisa Annette Edla. *A Memoir of Sir John Drummond Hay, P. C., K. C. B., G. C. M. G., Sometime Minister at the Court of Morocco.* London: J. Murray, 1896.

Buri, Fritz. *The Buddha-Christ as the Lord of the True Self: The Religious Philosophy of the Kyoto School and Christianity.* Translated and with an Introduction by Harold H. Oliver. Macon, GA : Mercer University Press, 1997.

Butterworth, Charles E. and I. William Zartman (eds.). *Between the State and Islam.* Washington: Woodrow Wilson Center Press; Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2001. (Woodrow Wilson Center Series)

Caillé, Jacques. *La Mission du capitaine Burel au Maroc en 1808.* Paris: Arts et métiers graphiques; Rabat: Institut des hautes études marocaines, 1953.

Cercle d'études sur la société et l'économie du Japon. *Japon, le consensus: Mythe et réalités.* Coordination Jean-Marie Bouissou et Guy Faure; avec une étude-préface de Alain Touraine. Paris: Economica, 1984.

Charles-Roux, François et Jacques Caillé. *Missions diplomatiques françaises à Fès.* Paris: Larose, 1955.

Checkland, Olive. *Japan and Britain after 1859: Creating Cultural Bridges.* London; New York: Routledge Curzon, 2003.

Chénier, Louis de. *Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire de Maroc.* Paris: [L'Auteur], 1787.

Cobbing, Andrew. *The Japanese Discovery of Victorian Britain: Early Travel Encounters in the Far West.* Richmond, Surrey: Japan Library, 1998. (Meiji Japan Series; 5)

_________. *The Satsuma Students in Britain: Japan's Early Search for the Essence of the West'.* Based on an Original Study by Inuzuka Takaaki. [New York]: Routledge, 2000.

_________ [et al.]. *The Iwakura Mission in Britain, 1872.* [London]: Suntory Centre, Suntory and Toyota International Centres for Economics and Related Disciplines, London School of Economics and Political Science, 1998. (International Studies)

Cochet, François. *Comprendre la Seconde Guerre Mondiale.* Levallois-Perret: Studyrama, 2005. (Principes: Culture générale; 597)

Comment les japonais qui produisaient mal produisent-ils maintenant trop bien?: 12 managers japonais et leur professeur américain répondent. Entretiens avec Jacques Volle. Boulogne-Billancourt: Editions Hommes et techniques, 1982.

Cortazzi, Hugh. *Britain and Japan: Biographical Portraits, vol. iv.* New York: Routledge, 2013.

_________ and Gordon Daniels (eds.). *Britain and Japan, 1859-1991: Themes and Personalities.* London; New York: Routledge, 1991.

Courdy, Jean-Claude. *Les Japonais.* Paris: P. Belfond, 1979.

De Bary, William Theodore [et al.]. *Sources of East Asian Tradition.* New York: Columbia University Press, 2008. 2 Vols.

Vol. 2: *The Modern Period.*

De Lange, William. *A History of Japanese Journalism: The Kisha Club as the Last Obstacle to a Mature Japanese Press.* Kent, England: Japan Library, 1998.

Dobb, Maurice et Paul-M. Sweezy. *Du féodalisme au capitalism*. Avec des contributions de Christopher Hill [et al.]; Traductions de l'anglais de Florence Gauthier et Françoise Murray. Paris: F. Maspero, 1977. 2 Vols.

Dudden, Alexis. *Japan's Colonization of Korea: Discourse and Power*. Honolulu: University of Hawaii Press, 2005. (Studies of the Weatherhead East Asian Institute)

Dumoulin, Michel [et al.] (eds.). *Nouvelle histoire de Belgique*. Bruxelles; [Paris]: Éd. Complexe, 2005. (Questions à l'histoire)

Vol. 1: *1830-1905*.

Dupouey, Jacques. *Passeport pour le Japon des affaires*. Préface de Jean-Louis Halpérin. Paris: l'Harmattan, 2008. (Points sur l'Asie)

Edstrom, Bert (ed.). *The Japanese and Europe: Images and Perceptions*. Richmond, Surrey: Japan Library, 2000.

Eicher, Carl K. *The Evolution of Agricultural Education and Training: Global Insights of Relevance for Africa*. East Lansing, Mich.: Dept. of Agricultural Economics, Michigan State University, 2006. (Staff Paper; no. 06-26)

Encyclopaedia Britannica, 2008: Ultimate Reference Suite CD. Chicago, IL: Encyclopaedia Britannica, 2008.

L'Expérience du Japon en matière d'éducation: Réflexions sur le développement de l'éducation dans les pays en développement. Tokyo: Agence japonaise de coopération internationale, Institut de coopération international, 2005.

Filiatrault, André. *Eléments de génie parasismique et de calcul dynamique des structures*. Montréal: Editions de l'École polytechnique de Montréal, 1996.

Fillias, Achille. *L'Espagne et le Maroc en 1860*. Paris: Poulet-Malassis et De Broise, 1860.

Fraser, Andrew, R. H. P. Mason and Philip Mitchell. *Japan's Early Parliaments, 1890-1905: Structure, Issues, and Trends*. London; New York: Routledge, 1995. (Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series)

Frédéric, Louis. *Japan Encyclopedia*. Translated by Käthe Roth. Cambridge, Mass.: Belknap Press of Harvard University Press, 2002.

Fujimura-Fanselow, Kumiko and Atsuko Kameda (eds.). *Japanese Women: New Feminist Perspectives on the Past, Present, and Future*. New York: Feminist Press at the City University of New York, 1995.

Fukasaku, Yukiko. *Technology and Industrial Development in Pre-War Japan: Mitsubishi Nagasaki Shipyard, 1884-1934*. London; New York: Routledge, 1992. (Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series)

Ganiage, Jean. *Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours*. Avec la collab. de Jean Martin. [Paris]: Fayard, 1994.

Godard, Léon. *Description et histoire du Maroc*. Paris: C. Tanéra, 1860. 2 Vols.

Gow, Ian. *Military Intervention in Pre-War Japanese Politics: Admiral Kato Kanji and the 'Washington System'*. Richmond: Curzon, 2004.

_________. _________. London: Routledge, 2004.

Grousset, René et Emile-G. Léonard (dirs.). *Histoire universelle*. Paris: Gallimard, 1956-1958. 3 Vols.

Vol. 3: *De la Réforme à nos jours*.

Guidoboni, Emanuela et Jean-Paul Poirier. *Quand la terre tremblait*. Paris: O. Jacob, 2004.

Guillen, Pierre. *L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905*. Paris: Presses universitaires de France, 1967.

Hakim, Joy. *Liberty for All?*. 3rd ed. New York: Oxford University Press, 2003. (A History of US; bk. 5)

Hamon, Claude. *Shibusawa Eiichi, 1840-1931: Bâtisseur du capitalisme japonais*. Paris: Maisonneuve et Larose, 2007.

Haussonville, Joseph-Othenin-Bernard de Cléron. *Histoire de la politique extérieure du gouvernement français, 1830-1848*. Paris: Michel-Lévy frères, 1850. 2 Vols.

Hirakawa, Sukehiro. *Japan's Love-Hate Relationship with the West*. Folkestone, Kent: Global Oriental, 2005.

Hirschmeier, Johannes and Tsunehiko Yui. *The Development of Japanese Business, 1600-1973*. Hoboken: Taylor and Francis, 2006.

A History of Modern Japanese Aesthetics. Translated and Edited by Michael F. Marra. Honolulu: University of Hawaii Press, 2001.

Huffman, James L. *Creating a Public: People and Press in Meiji Japan*. Honolulu, Hawaii: University of Hawaii Press, 1997.

Hunter, Janet (comp.). *Concise Dictionary of Modern Japanese History*. Berkeley: University of California Press, 1984.

Inoue, Ken. *The Education and Training of Industrial Manpower in Japan*. Washington, DC: World Bank, 1985. (World Bank Staff Working Papers; no. 729)

Irish, Ann B. Hokkaido: *A History of Ethnic Transition and Development on Japan's Northern Island*. Jefferson, NC: McFarland and Co., 2009.

Irokawa, Daikichi. *The Culture of the Meiji Period*. Translation Edited by Marius B. Jansen. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985. (Princeton Library of Asian Translations)

Issawi, Charles Philip. *Egypt at Mid-Century: An Economic Survey*. Published under the Auspices of the Royal Institute of International Affairs. Rev. ed. London; New York: Oxford University Press, 1954.

The Iwakura Embassy, 1871-1873: A True Account of the Ambassador Extraordinary and Plenipotentiary's Journey of Observation through the United States of America and Europe. Compiled by Kume Kunitake; Editors in chief Graham Healey and Chūshichi Tsuzuki. London: Routledge Curzon, 2002.

Jansen, Marius (ed.). *The Emergence of Meiji Japan*. New York, NY: Cambridge University Press, 1995.

Jansen, Marius B. *The Making of Modern Japan*. Cambridge, Mass: Belknap Press of Harvard University Press, 2000.

Japan and International Law: Past, Present and Future: International Symposium to Mark the Centennial of the Japanese Association of International Law. Edited by Nisuke Ando on Behalf of the Japanese Association of International Law. The Hague; Boston: Kluwer Law International, 1999. (International Law in Japanese Perspective; 5)

Japan's Modern Educational System: A History of the First Hundred Years. [Tokyo]: Research and Statistics Division, Ministry of Education, Science and Culture, 1980. On the Web: <http://www.mext.go.jp/b_menu/hakusho/html/hpbz198103/index.html>

Julien, Charles-André. *Le Maroc face aux impérialismes: 1415-1956*. Paris: Editions J. A., 1978.

Junji, Banno. *The Establishment of the Japanese Constitutional System*. Translated by J. A. A. Stockwin. London; New York: Routledge, 1992. (Nissan Institute/Routledge Japanese Studies Series)

Kably, Mohamed. *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen âge: XIVe-XVe siècle.* Paris: Maisonneuve et Larose, 1986. (Islam d'hier et d'aujourd'hui; 28)

Karow, Léonhard. *Neuf années au service du Maroc, 1900 -1908.* Trad. et présent. Monique Miège et Jean-Louis Miège. Rabat: Ed. La Porte, 1998. (Mémoire du Maroc)

Kassel, Marleen. *Tokugawa Confucian Education: The Kangien Academy of Hirose Tansō (1782-1856).* Albany: State University of New York Press, 1996. (Studies of the East Asian Institute, Columbia University)

Kelsky, Karen. *Women on the Verge: Japanese Women, Western Dreams.* Durham, NC: Duke University Press, 2001. (Asia-Pacific)

Kenbib, Mohammed. *Les Protégés: Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc.* Rabat: Faculté des lettres et des sciences humaines, 1996. (Thèses et mémoires; 29)

Kikuchi, Yūko. *Japanese Modernisation and Mingei Theory: Cultural Nationalism and Oriental Orientalism.* London; New York: Routledge Curzon, 2004.

Koyama, Noboru. *Japanese Students at Cambridge University in the Meiji era, 1868-1912: Pioneers for the Modernization of Japan.* Translated by Ian Ruxton. Morrisville, North Carolina: Lulu, 2004.

Kozakai, Toshiaki. *Les Japonais sont-ils des occidentaux?: Sociologie d'une acculturation volontaire.* Paris: L'Harmattan, 1991.

Kuki, Shuzo. *Kuki Shuzo: A Philosopher's Poetry and Poetics.* Translated and Edited by Michael F. Marra. Honolulu: University of Hawaii Press, 2004.

Kupchan, Charles A. [et al.]. *Power in Transition: The Peaceful Change of International Order.* With the Assistance of Jason Davidson and Mira Sucharov. Tokyo; New York: United Nations University Press, 2001.

Kurzman, Charles. *Modernist Islam, 1840-1940: A Sourcebook.* Oxford; New York: Oxford University Press, 2002.

Lahbabi, Mohamed. *Le Gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle.* Préf. Mehdi Ben Barka. 2ème éd. Casablanca: Editions maghrébines, 1975.

Lanman, Charles. *The Japanese in America.* Tokyo: Japan Advertiser Press, 1926.

Laroui, Abdallah. *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912.* Casablanca: Centre culturel arabe, 1993.

Lavelle, Pierre. *La Pensée politique du Japon contemporain: 1868-1989*. Paris: Presses universitaires de France, 1990. (Que sais-je?; 2553)

Lebel, Roland. *Les Voyageurs français du Maroc: L'Exotisme marocain dans la littérature de voyage*. Paris: Librairie coloniale et orientaliste Larose, 1936. (Bibliothèque de culture et de vulgarisation Nord-Africaines)

Lee, O-Young. *Smaller Is Better: Miniaturisation et productivité japonaises*. Traduit de l'anglais par Jean Martel. Paris; Milan; Barcelone: Masson, 1988. (Collection productivité de l'entreprise)

Leonard, Jonathan Norton. *Le Japon médiéval*. Madrid: Norvograph, 1982.

Liu, Lydia H. (ed.). *Tokens of Exchange: The Problem of Translation in Global Circulations*. Durham, NC: Duke University Press, 1999. (Post-Contemporary Interventions)

Lombard, Frank Alanson. *Pre-Meiji Education in Japan: A Study of Japanese Education Previous to the Restoration of 1868*. Tokyo, Japan: Kyo Bun Kwan (Methodist Pub. House), 1913.

Loti, Pierre. *Au Maroc*. Présentation de Denise Brahimi. Paris: La Boîte à documents, 1988.

Lu, David J. *Japan: A Documentary History*. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1997. 2 Vols.

Maison franco-japonaise. *Dictionnaire historique du Japon*. Paris: Maisonneuve et Larose, 2002. 2 Vols.

Le Maroc de l'avènement de Moulay Abdelaziz à 1912: Actes de l'université d'été, Mohammédia, 21-31 Juillet 1987. Mohammedia: Impr. de Fédala, 1989.

Martin, Bernd. *Japan and Germany in the Modern World*. Providence, RI: Berghahn Books, 1995.

________. ________. Providence, RI: Berghahn Books, 2006

Meiji Japan: Political, Economic and Social History, 1868-1912. Edited and with an Introduction by Peter Kornicki. London; New York: Routledge, 1998. 4 Vols. (Routledge Library of Modern Japan)

Miège, Jean-Louis. *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894*. Paris: Presses universitaires de France, 1961-1963. 4 Vols.

Vol. 3: *Les Difficultés*.

Vol. 4: *Vers la crise*.

Mishima, Yukio. *Le Japon moderne et l'éthique samouraï.* Traduit de l'anglais par Emile Jean. Paris: Gallimard, 1985. (Arcades; 1)

Montagne, Robert. *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh).* Paris: [F. Alcan], 1930.

Moreau, Maurice. *Les Groupes économiques japonais.* Paris: Presses universitaires de France, 1994. (Que sais-je ?; 2825)

Mori, Arinori. *Mori Arinori's Life and Resources in America.* Edited, Annotated, and Introduced by John E. Van Sant; Foreword by Akira Iriye. Lanham, Md.: Lexington Books, 2004. (Studies of Modern Japan)

Morris, Ivan. *La Noblesse de l'échec: Héros tragiques de l'histoire du Japon.* Traduit de l'anglais par Suzanne Nétillard. Paris: Gallimard, 1980. (La Suite des temps)

Mouliéras, Auguste. *Le Maroc inconnu: Etude géographique et sociologique. Première partie, Exploration du Rif (Maroc septentrional).* Paris: J. André, 1895.

_________. *Le Maroc inconnu: Etude géographique et sociologique. Deuxième partie, Exploration des Djebala (Maroc septentrional).* Paris: Augustin Challamel, 1899.

Mutel, Jacques. *Histoire du Japon, 1: La Fin du shôgunat et le Japon de Meiji, 1853-1912.* Paris: Hatier, 1970.

Mutel, Jacques. *Histoire du Japon.* Paris: Hatier, 1970. (Collection d'histoire contemporaine)

Nafziger, E. Wayne. *Learning from the Japanese: Japan's Pre-War Development and the Third World.* Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1995.

Neary, Ian (ed.). *Leaders and Leadership in Japan.* Richmond, Surrey: Japan Library, 1996.

Nilsson, Martin P. *The Minoan-Mycenaean Religion and its Survival in Greek Religion.* New York: Biblo and Tannen, 1950. (Acta Regiae Societatis Humaniorum Litterarum Lundensis; 9)

Nish, Ian (ed.). *Britain and Japan: Biographical Portraits.* Folkestone: Japan Library, 1994-2002. 4 Vols.

Nish, Ian. *Japanese Foreign Policy, 1869-1942: Kasumigaseki to Miyakezaka.* London; Boston: Routledge; K. Paul, 2013. (Foreign Policies of the Great Powers)

Ohno, Kenichi. *The Economic Development of Japan: The Path Traveled by Japan as a Developing Country*. Tokyo: GRIPS Development Forum, National Graduate Institute for Policy Studies, 2006.

Okui, Fukutaro. *A Pictorial History of Keio University 1858 - 1958 (Published for the Centenary)*. Tokyo: Keio University, [1958].

Oliver, Robert T. *Leadership in Asia: Persuasive Communication in the Making of Nations, 1850-1950*. Newark: University of Delaware Press; London: Associated University Presses, 1989.

Park, Mungo. *Les Trois voyages de Mungo Park au Maroc et dans l'intérieur de l'Afrique (1787-1804), racontés par lui-même*. Paris: M. Dreyfous, 1882. (Bibliothèque d'aventures et de voyages; 34)

Parkes, Graham (ed.). *Heidegger and Asian Thought*. Honolulu: University of Hawaii Press, 1987.

Parshall, Karen Hunger and Adrian C. Rice (eds.). *Mathematics Unbound: The Evolution of an International Mathematical Research Community, 1800-1945*. Providence, RI: American Mathematical Society; [London]: London Mathematical Society, 2002. (History of Mathematics; 23)

Paye, Lucien. *Introduction et évolution de l'enseignement moderne au Maroc: Des origines jusqu'à 1956*. Ed., introd. et notes par Mohamed Benchekroun. Rabat: Arrissala, 1992.

Pedlar, Neil. *The Imported Pioneers: Westerners who Helped Build Modern Japan*. New York: Routledge, 1995.

Perez, Louis G. *Japan at War: An Encyclopedia*. Santa Barbara, Calif.: ABC-CLIO, 2013.

Perkins, Dorothy. *Five Hundred Fun Facts about Japan*. Collingdale, PA: Diane Pub. Co., 1994.

_________. *Japan Goes to War: A Chronology of Japanese Military Expansion from the Meiji Era to the Attack on Pearl Harbor, 1868-1941*. Collingdale, PA: DIANE Pub. Co.,1997.

_________. *The Samurai of Japan: A Chronology from their Origin in the Heian Era (794-1185) to the Modern Era*. Upland, PA: Diane Pub. Co., 1998.

Postan, M. M. [et al.]. *The Cambridge Economic History of Europe*. Cambridge: Cambridge University Press, 1966-1989. 8 Vols.

Ravina, Mark. *The Last Samurai: The Life and Battles of Saigō Takamori*. Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2004.

Renouvin, Pierre. *La Question d'Extrême-Orient: 1840-1940*. Paris: Hachette, 1946.

________ et Jean-Baptiste Duroselle. *Introduction à l'histoire des relations internationals*. 4ème éd. Paris: A. Colin, 1991.

Reynolds, Jonathan M. *Maekawa Kunio and the Emergence of Japanese Modernist Architecture*. Berkeley: University of California Press, 2001.

Roches, Léon. *Dix ans à travers l'Islam, 1834-1844*. Paris: Librairie académique Didier, 1904.

Rogers, Mark. *Knowledge, Technological Catch-up and Economic Growth*. Cheltenham, UK; Northhampton, MA: Edward Elgar, 2003.

Samuels, Richard J. *Machiavelli's Children: Leaders and their Legacies in Italy and Japan*. Ithaca: Cornell University Press, 2005.

Satō, Dōshin. *Modern Japanese Art and the Meiji State: The Politics of Beauty*. Translated by Hiroshi Nara. Los Angeles: Getty Research Institute, 2011.

Şener, Bilge (ed.). *Innovations in Chemical Biology*. Dordrecht; London: Springer, 2008.

Siemes, Johannes. *Hermann Roesler and the Making of the Meiji State*. [New York]: Tuttle Publishing, 2013.

Sims, Richard. *French Policy Towards the Bakufu and Meiji Japan, 1854-95: A Case of Misjudgement and Missed Opportunities*. Richmond, Surrey: Japan Library, 1998. (Meiji Japan Series; 3)

Snodgrass, Judith. *Presenting Japanese Buddhism to the West: Orientalism, Occidentalism, and the Columbian Exposition*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2003.

Spang, Christian W. and Rolf-Harald Wippich (eds.). *Japanese-German Relations, 1895-1945: War, Diplomacy and Public Opinion*. London; New York: Routledge, 2006. (Routledge Studies in the Modern History of Asia; 35)

Spickard, Paul R. *Japanese Americans: The Formation and Transformations of an Ethnic Group*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2009.

Starr, Joseph Barton (ed.). *The United States Constitution: Its Birth, Growth, and Influence in Asia*. Hong Kong: Hong Kong University Press for the American Studies Association of Hong Kong, 1988.

Tabb, William K. *The Postwar Japanese System: Cultural Economy and Economic Transformation*. New York: Oxford University Press, 1995.

Takeuchi, Melinda. *The Artist as Professional in Japan*. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 2004.

Tanaka, Stefan. *New Times in Modern Japan*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009.

Terry, Edith. *How Asia Got Rich: Japan, China and the Asian Miracle*. Foreword by Chalmers Johnson. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2002. (Pacific Basin Institute Book)

Thomassy, Raymond. *Le Maroc et ses caravanes, ou relations de la France avec cet empire*. 2ème éd. Paris: Firmin-Didot frères, 1845.

Totman, Conrad D. *Collapse of the Tokugawa Bakufu, 1862-1868*. Honolulu: Hawaii University Press, 1980.

Trinh, Sylvaine. *Il n'y a pas de modèle japonais*. Paris: O. Jacob, 1992.

Tsuzuki, Chūshichi. *The Pursuit of Power in Modern Japan, 1825-1995*. New York: Oxford University Press, 2000.

Tucker, Spencer C. and Priscilla Mary Roberts (eds.). *World War I: Student Encyclopedia*. Santa Barbara, Calif.: ABC-CLIO, 2006. 5 Vols.

Van Sant, John E. *Pacific Pioneers: Japanese Journeys to America and Hawaii, 1850-80*. Foreword by Roger Daniels. Urbana: University of Illinois Press, 2000. (Asian American Experience)

Vié, Michel. Le Japon contemporain. 6ème éd. Paris: Presses universitaires de France, 1995. (Que sais-je ?; 1459)

Wakabayashi, Bob Tadashi (ed.). *Modern Japanese Thought. Cambridge*; New York: Cambridge University Press, 1997.

Weber, Max. *L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme* (Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay). Sur le Web: <http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm>.

Weisgerber, Frédéric. *Au seuil du Maroc moderne*. Rabat: Les Éditions La Porte, 1947. (Notes et documents)

Wittner, David G. *Technology and the Culture of Progress in Meiji Japan*. London; New York: Routledge, 2008. (Routledge/Asian Studies Association of Australia (ASAA) East Asia Series; 10)

Wong, Aida Yuen (ed.). *Visualizing Beauty: Gender and Ideology in Modern East Asia*. Hong Kong: Hong Kong University Press, 2012.

Yamanaka, Keiko. *Le Japon au double visage*. Paris: Denoël, 1997. (Documents actualité)

Yoichi, Higuchi et Christian Sautter (dirs.). *L'Etat et l'individu au Japon*. Paris: Ed. de l'Ecole des hautes études en sciences sociales, 1990. (Etudes japonaises; 1)

Yukichi, Fukuzawa. *An Encouragement of Learning*. Translated by David A. Dilworth; Introduction by Nishikawa Shunsaku. New York: Columbia University Press, 2013.

Periodicals

Abe, Yoshio. «La Culture japonaise à la recherche de son identité.» *Esprit*: no. 421, Février 1973.

Bain, Foster. «The Imperial Universities of Japan.» *Popular Science*: vol. 80, no. 15, March 1912.

Bakkar, Mohamed. «L'Exemple Japonais.» *Le Nouveau siècle*: no. 13, Mars 1995.

Ben Ali, Driss. «Fès et son insertion dans le capitalisme.» *Assas*: no. 3, Septembre 1980.

Bernier, Bernard. «Présentation: Le Japon, la modernité et l'anthropologie.» *Anthropologie et Sociétés*: vol. 22, no 3: *Culture et modernité au Japon*, 1998.

Bougon, Yves. «Le Japon par lui-même. 2. Réapprendre la Chine.» *Critique internationale*: no. 5, Automne 1999.

Boulanger, Eric. «Le Nationalisme économique dans la pensée et les politiques publiques du Japon: Particularisme, pragmatisme et puissance.» *Cahier de recherche*: no. 2, Février 2002. sur le Web: <http://www.unites.uqam.ca/gric/pdf/LE_20NATIONALISME.pdf>.

Bourqia, Rahma. « La Caidalité chez les tribus Zemmour au XIXe siècle.» *Bulletin économique et social du Maroc*: nos.159-161, 1987.

________. «Vol, pillage et banditisme dans le Maroc du XIXe siècle.» *Hespéris Tamuda*: vol. 29, no. 2, 1991.

Bouvat, M. L. «Extraits de la presse musulmane.» *Archives marocaines*: vol. 6, nos. 1-2, 1905.

Bulletin du Comité de l'Afrique française: no. 2, Février 1897.

Caillé, Jacques. «Les Marocains à l'école du Génie de Montpellier (1885-1888).» *Hespéris Tamuda*: vol. 41, nos. 1-2, 1954.

Chailleu, Luc. «Léon de Rosny et la connaissance du Japon en France: Eléments d'une archéologie du «savoir japonologique» français.» *L'Ethnographie*: no. 108, Automne 1990.

De Amicis, Edmondo. «Le Maroc, Traduction et gravures inédites.» *Le Tour du monde: Nouveau journal des voyages*: 1879.

Grimmer-Solem, Erik. «German Social Science, Meiji Conservatism, and the Peculiarities of Japanese History.» *Journal of World History*: vol. 16, no. 2, June 2005.

Horie, Yasuzo. «Japan's Balance of International Payments in the Early Meiji Period.» *Economic Review*: vol. 24, no. 1, April 1954.

Ichikawa, Shin-ichi. «La Mission Iwakura (1871-1873) et la France. - Ce que virent en Europe les japonais de l'époque Meiji.» *Bulletin of the Institute for Mediterranean Studies*: no. 4, 2006.

Keer, Walter. «When Russia Fights Japan.» *Popular Science*: vol. 143, no. 5, November 1943.

Kishimoto, Nobuta. «Shinto: The Old Religion of Japan.» *Popular Science*: vol. 46, December 1894.

Kobayashi, Makoto. «Kuniyoshi Obara, 1887-1977.» *Prospects* (UNESCO, Paris): vol. 34, no. 2, June 2004.

Koshiro, Yukiko. «*Authenticating Culture in Imperial Japan: Kuki Shuzo and the Rise of National Aesthetics*, by Leslie Pincus.» *Review of Politics*: vol. 59, no. 3 Summer 1997. On the Web: <http://www.accessmylibrary.com/coms2/summary_0286-294337_ITM>.

Masako, Akase. «Shanghai dans la litterature (epoque 1900-1931).» *Intercultural Studies*: vol. 11, 1995. On the Web: <http://ci.nii.ac.jp/naid/110004694932/>.

Matsubara, Hideichi. «Léon de Rosny et Fukuzawa Yukichi.» *L'Ethnographie*: no. 108, Automne 1990.

Mercier, Louis-Sébastien. «Les Mosquées et la vie religieuse à Rabat.» *Archives marocaines*: vol. 8, 1906.

Michaux-Bellaire, Edouard. «Quelques tribus de montagnes de la région du Habt.» *Archives marocaines:* vol. 17, 1911.

Miura, Nobutaka. «Le Modèle français trois fois écarté: Un aperçu de la modernisation du Japon face à la modernité occidentale.» *Revue japonaise de didactique du français*: vol. 1, no. 2 (Etudes francophones), Juillet 2006.

________. «La Modernisation du Japon et la France, conference à L'Université de Genève, les 5 et 12 Janvier 2005.» *Journal of the Faculty of Literature*: vol. 98, 2006.

Miyanaga, Takeshi. «Brief Notes on the Fourteen Students Sent to England in the Last of the Tokugawa government.» *Society and Labour*: vol. 36, no. 4, 1990.

Nagaba, Hiroshi. «Japan and Turkey Historical Process for Diplomatic Relations.» *Perceptions*: vol. 2, September - November 1997.

«Origines du communisme japonais, débat sur la «révolution par étapes» et l'occupation américaine: La Restauration Meiji: Une révolution pro-bourgeoise non démocratique.» *Spartacist* (édition française): no. 36, été 2004, on the Web: <http://www.spartacist.org/print/francais/spf/36/meiji.html>.

Rosenfield, John. «*Art, Tea, and Industry: Masuda Takashi and the Mitsui Circle*, by Christine M.E. Guth.» *Art Bulletin*: vol. 76, no. 1, March 1994, on the Web: <http://findarticles.com/p/articles/mi_m0422/is_n1_v76/ai_15428525>.

Salmon, Georges. «Essai sur l'histoire politique du Nord marocain.» *Archives marocaines*: vol. 2, 1905.

Schlichtmann, Klaus. «Japan, Germany and the Idea of the Hague Peace Conferences.» *Journal of Peace Research*: vol. 40, no. 4 (Special Issue on Peace History), July 2003.

Shunsaku, Nishikawa. «Fukuzawa Yukichi (1835-1901).» *Perspectives*: vol. 13, nos. 3-4, Septembre-Décembre 1993.

Spartacist (édition française): no. 36, Eté 2004.

Sumikura, Ichiro. «Dr. Raphael von Koeber and His Time.» *Bulletin* (Faculty of Music, Tokyo Geijutsu Daigaku): vol. 23, 1997.

These

Coelho, Gilda Massari. «La Société de la connaissance et les systèmes d'information stratégique comme appui à la prise de décision: Proposition pour l'enseignement de l'intelligence compétitive au Brésil.» (Thèse de Doctorat en Science de l'information et de la communication, Université de Droit et des Sciences d'Aix – Marseille, Faculté des Sciences et Techniques de Saint Jérôme, 2001).

Conference

Forum international presse éducation, CIEP, 19-21 Mai 2005.

Documents

«Actual Japanese Quotes About the War». On the Web: <http://bookmice.nrt/ darkchilde/japan/quotes.html>.

Adiseshiah, Malcolm S. «Le Japon et les taches de l'Unesco.» (Au cours de la cérémonie organisée à l'occasion de l'année internationale de l'éducation au Centre national de l'éducation, Tokyo, 2 Juillet 1970). Sur le Web: <http:// unesdoc.unesco.org/images/0000/000007/000769fo.pdf >.

Anzai, Yuichiro. «La Réforme universitaire au Japon: Présent et futur.» (Document, Maison de la Culture du Japon à Paris, 21 Novembre 2002).

Chieh-Lin, Hsu. «The All-Direction Diplomacy in Japan,» (Department of Political Science, Fo-Guang University). On the Web: <www.fgu.edu.tw/~academic/ up1/malayconference1/paperscollection.files/conferefncepapers/hsu.pdf>.

«Le Dernier samourai.» (Nipponzine (Website)): <http://nipponzine.com/article19. html>.

Dower, John W. «Foreings in Treaty-Port Japan)1859-1872).» On the Web: <www. blackshipsandsamurai.com/yokohama/yb_core_commerce.html>.

Finn, Dallas. «Guests of the Nation: The Japanese Delegation to the Buchanan White House.» On the Web: <http://www.whitehousehistory.org/08/subs/08_b12.html>.

Gordon, Bill. «Japan's March Toward Militarism.» (March 2000). On the Web: <http://wgordon.web.wesleyan.edu/papers/jhist2.htm>.

________. «Histoire du Japon.» Sur le Web: <http://www.kokeshi.fr/pages/ histjapon.php>.

«The Iwakura Mission in Britain, 1872.» (Discussion Paper; No. IS/98/349, Suntory Centre, Suntory and Toyota International Centres for Economics and Related Disciplines, London School of Economics and Political Science, London, March 1998).

«The Jesuit Missionary who Introduced Christianity to Japan in 1549 St. Francis Xavier (1506-1552).» On the Web: <www.artsales.com/ARTistory/Xavier/Xavier_1.html>.

Johnston, James L. «The First Japanese Freemason.» On the Web: <http://www2.gol.com/users/lodge1/history-e/papers/johnston04.html>.

Loy, David. «Zen at War by Brian Victoria.» On the Web: <http//www.bpf.org/tsangha/loy-victoria.html>.

Michaux-Bellaire, Edouard. «Maroc.» (Institut Français de l'éducation). Sur le Web: <http://www.inrp.fr/edition-electronique/lodel/dictionnaire-ferdinand-buisson/document.php?id=3132 >.

Miura, Nobutaka. «La Traduction, facteur clef de la Modernisation: Le Cas du Japon de Meiji.» sur le Web: <http://www.ulaval.ca/afi/colloques/colloque2006/actes2006/PDF/III-3%20Nobutaka%20MIURA.pdf>.

Narangoa, Li. «Japan's Modernization: The Iwakura Mission to Scandinavia in 1873.» On the Web: <http://www.hum.au.dk/cek/kontur/pdf/kontur_02/li_narangoa.pdf>.

Norihito, Mizuno. «China in Tokugawa Foreign Relations: The Tokugawa Bakufu's Perception of and Attitudes toward Ming-Qing China.» On the Web: <http://chinajapan.org/articles/15/mizuno15.108-144.pdf>.

Norinaga, Motoori. «A Scholar-Physician who Loved Cherry Blossoms.». On the Web: <http://www.norinagakinenkan.com/norinaga/shiryo/about.html>.

Oba, Jun. «Le Système éducatif au Japon.» (Texte préparé pour le stage de formation pour l'administration de l'enseignement pour les pays francophones d'Afrique organisé par l'agence japonaise de Coopération international Centre international de Chugoku (Hiroshima), Hiroshima, Tokyo, 23 Août au 2 Octobre 2005).

Sabouret, Jean-François. «Le Japon: Un Pays qui vient de loin.» Sur le web: <http://www.ac-paris.fr/IMG/pdf/SABOURET_2006.pdf>.

La Société chimique du Japon. «Education chimique au Japon.» (1994). Sur le web: <www.t.soka.ac.jp/chem./CEJ2/Chapt1.html>.

Uchida, Ryota. «Etude de la mission Iwakura d'après des journaux français.» sur le Web: <http://reposit.lib.kumamoto-u.ac.jp/bitstream/2298/3215/1/actes(2007)071-079.pdf>.

Yamaguchi, Makoto. «Social, Cultural, and Economic History of Japanese Adult Learning.» On the Web: <http://www.ed.gov/pubs/HowAdultsLearn/Yamaguchi.pdf>.

Yoshida, K. «Japon.» (Institut Français de l'éducation). Sur le Web: <http://www.inrp.fr/edition-electronique/lodel/dictionnaire-ferdinand-buisson/document.php?id=2952>.

فهرس عام

- ح -

- خ -

- د -

- ف -